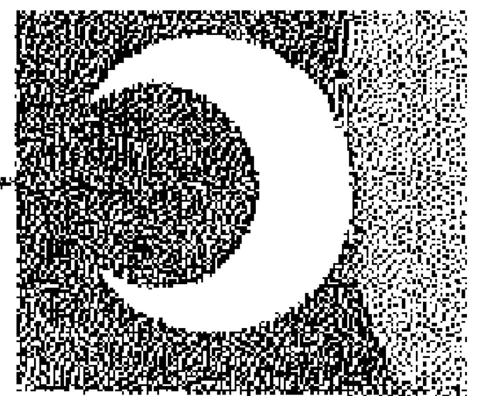
كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

المدرسة والأسرة

الصحة النفسية لأبنائنا

الدكتورة كلير فهيم

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمى

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٦ ـ ربيع الاول ١٤٠٤ ـ ديسمبر ١٩٨٣

No. 396 December 1983

الاشتراكات

قيمه الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربيه ثلاثه جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

الدكتورة كلير فهيم

المدرسة .. والأسرة
والصحة النفسية لأبنائنا

دار الهلال

مقدمة

قيل فى تعريف الصحة أنها حالة اكتمال تأتلف فيها الجوانب والمقومات البدنية والنفسية والاجتماعية للانسان الفرد ، أى أن معنى الصحة لا يتحقق الا اذا تلاقت هذه المقومات الثلاثة فى كل متكامل .

واذا صدق هذا التعريف للصحة على الانسان بوجه عام فانه أكثر صدقا وأدق انطباقا عليه فى المراحل التكوينية للحياة ، أثناء الطفولة المبكرة وفى الفترة السابقة للمدرسة ثم خلال مرحلة الدراسة على حد سواء .

ومن هنا كان من المحتم لكى نوفر الصحة النفسية التلاميذ أن نستند الى هذا المفهوم الموحد للصحة حتى تكفل الرعاية الصحية للتلاميذ ، لا لما يمليه حاجة العلاج للاضطراب النفسى اذا وقع فحسب ، بل مايحقق أصول الوقاية من هذا الاضطراب قبل ذلك .

وسوف يتضح فى هذا الكتاب دور المدرسة فى توفير الصحة النفسية لتلاميذها فان الصحة النفسية للتلاميذ ليست مسالة ينهض بها الجهاز المدرسى وحده بل هى فى اطارها الواسع مشكلة ، الجوانب فيها متعددة والعلاقات متشابكة ، ذلك أن الصحة النفسية للتلميذ

أمر مرتبط أوثق ارتباط وأعمقه بنوع العطاء الوراثى الذى ينتقل اليه من أسرته المباشرين والبعيدين وبالخصائص النفسية للنمو منذ لحظة الميلاد ، بالجو البيئى حيث نشأ الطفل ونما وسط طائفة من العلاقات التى سادت المجموعة الاسرية ، وبالمدرسة من حيث كيانها المادى وجوهرها المعنوى ونوع الفلسفة التربوية التى تعتنقها والمناهج الدراسية التى تطبقها وشخصية المدرسين بها ومستويات اعدادهم ، وبنوع العلاقة بين المدرسة والبيئة الاجتماعية التى تعمل لها وتنشط فيها وبالمستوى الصحى العام للتلميذ ومدى كفاية الخدمات الصحية المدرسية من ناحيتها الوقائية والعلاجية معا وأثر ذلك فى مجال الصحة العامة للتلاميذ .

ثم أخيرا بما يتوافر من ضروب الرعاية للتلاميذ الذين تدعو حالتهم الى رعاية خاصة كالمصابين بعاهات بدنية أو ذهنية أو نفسية أو عقلية ومدى كفاية هذه الرعاية ، من حيث الكم والكيف معا ، فى مقابلة الحاجات الصحية والنفسية لهذا الفريق من التلاميذ .

ولكى تحقق الصحة النفسية للتلميذ على الرغم من وجود هذه المشاكل المتعددة الجوانب والمتشابكة والمختلطة ، ينبغى أن يكون هناك تعاونا بين البيت، والمدرسة والمجتمع وسوف أوضح فيما يلى ابعاد المشكلة والوسائل لحلها وعلى ضوئها سوف يكون التقييم لمستويات اليوم وتخطيط لمستويات الغد ..

المـــدرســة
والصحة النفسية لأبنائنا

بعد انقضاء سن الطفولة تبدأ المدرسة تسهم مع البيت فى مهمة مساعدة الاطفال على النمو الذهني والبدنى والانفعالى والاجتماعى وتزداد اهمية الدور الذى تقوم المدرسة به فى نمو شخصية الطفل بازدياد تحرره من البيت ، وما تنطوى حياة الاسرة عليه من تعلق شديد بأفرادها واعتماد مسرف عليهم من ناحية ، وما تستطيع المدرسة أن تقدم للطفل من ضروب الرعاية التربوية والصحية التى تعين على تفتحه ونموه من ناحية أخرى .

وليست المدرسة التى تستطيع تحقيق هذا الهدف مجموعة من التلاميذ فى بناء وفناء يتيح لهم قدرا من الحركة والنشاط فحسب ، اذ أن مثل هذه المدرسة فى خير الفروض ستعجز عن توجيه الطاقة التى ينبغى بها فى نفوس التلاميذ فى محاولاتهم اقتحام الطريق نحو النضج بل قد تقف أحيانا فى سبيل ذلك النضج . ولكنها اولا وقبل كل شىء الوان من العلاقات الحية المتشابكة فيها بكيانها المادى وجوهرها المعنوى واعضاء الهيئة

التربوية والصحية وتلاميذها معـــا ، ومستهدفة آخر الاسر :

تنشئة جيل سليم البدن ، صحيح النفس ، تعـــلم أفراده كيف يحبون ، وكيف يعملون للنجـــاح ، وكيف يقابلون الفشل ، وكيف يحاولون التوافق من جديد ، وكيف ينزلون عن بعض الرغبات اذا لزم الامر ، وكيف يستقطرون الرضى من المهام الموكولة اليهم وان أثارت فى نفوسهم بعض الضيق ، وكيف يقبلون على الحياة بأمل وحماس ، وكيف يدعون بعض أنانيتهم لكى يعيشوا مع الناس متحابين متعاونين .

وبالايجاز كيف يحققون النضج الانفعالى الذى هو فى جوهره وحقيقته نواة الصحة النفسية ذلك لان العوامل التى سوف تؤدى الى النجاح أو الفشل آخر الامر بكل بماقد ينتج عن النجاح أو الفشل من اثار صحية ، هى فى أساسها عوامل انفعالية مرتبطة بالحافز الى أداء العمل والرغبة فى النهوض بالتبعة والقدرة على حسن التعـــامل مع الغير قبل أن يكون مهارة أو كفاءة حرفية معينـــة ، وذلك لان النضج الانفعالى للمواطن الصالح ان كان يعنى الموظف الصالح والزوج الصالح والوالد الصـــالح ، والانسان الصالح على أى نحو وبأية صورة .

المدرسة فى جوهرها كيان مادى وجو انفعالى :

اما الكيان المادى للمدرسة : فيشمل المرافق المدرسية على اختلافها حيث يشمل الفصول وقاعات النشاط على اختلاف صورها والملاعب والمرافق وهذه كلها لها علاقة

وثيقة بالصحة النفسية ، فلا يتعذر على أى فرد أن يرى أثر البناء الجميل والفصول الرحبة ذات الاضاءة الجيدة والتهوية الكافية والفناء المتسع وقاعات النشـــاط وتسهيلات اللعب للصغار وتوفير الملاعب للكبار منهم وغير ذلك مما ينطوى تحت عنوان « المرافق المدرسية » من تنبيه المشاعر المحببة لدى التلاميذ ازاء مدرستهم ومن دعم لشعورهم بالطمأنينة فى علاقتهم بها وببعضهم بعضا ، ومن أثر ذلك فى توجيه شعورهم بصدد العالم الخارجى الى الاقبال والتعاون بوجه عام ، ثم ما يؤدى ذلك اليه آخر الامر من زيادة اقبالهم على التعلم ومن اتاحـــة الفرص الملائمة للمدرسة للنهوض برســالتها فى تحقيق النمو ثم النضج لتلاميذها فى الجوانب الصحية والذهنية والانفعالية والاجتماعية معا .

أما الجو الانفعالى للمدرسة : فلعله أكثر أهمية فيما تقوم به ، لتحقيق اهداف الصحة النفسية من كيانهـــا المادى والجو الانفعالى للمدرسة ووثيق الصلة بالفلســفة التربوية التى تستند اليها ، وبمدى مافى موقفها مـــن الطفل من احترام الشخصية ومن فهم ، ثم توفـــير حاجاته الصحية والذهنية والانفعالية والاجتماعية معا .

فهناك الفلسفة « الضابطة » التى تستند الى مبـــدأ القيد والقمع ، والتى تزعم بأن الكبار على الملم بما يلزم الصغار لتحقيق الخير لهم ، فلا حاجة بالكبار اذن الى تبين ما يشعر به صغارهم ، ولا جدوى من اتاحة الحرية للصغار الا أن يكون ذلك من قبيل مساعدتهم على عدم ضياع الوقت فيما لا جدوى لهم منه ويدفعهم الى الفساد بقدر مايتاح لهم من هذه الحرية .

مثل هذه الفلسفة لا ترى الطفل ، بطبيعة الحال ، الا هو حيث أنه وعاء يختزن أكبركم من المعرفة ، حسب، لا شخصية نامية زاخرة بالحيوية والنشاط ، ترتبط الرغبة فى المعرفة بحالته الصحية فى جوانبها البدنية والاجتماعية معا ، وتحقق له آخر الامر الكفاية فى تناول بيئته المادية والاجتماعية ، كما تساعده على تدبير أمر نفسه والنهوض بما تلقيه الحياة عليه من تبعات والتزامات .

وهناك الفلسفة الحرة التى تزعم أنه اذا أتيحت للاطفال بيئة خالية من كل مثير ، لتحرره من سلطان الكبار ، تتوافر فيها فرص النشاط البدنى والذهنى والاجتماعى غير المقيد فانهم سيشبون على نحو سليم من الوجهة الصحية والنفسية .

ثم هناك أخيرا الفلسفة « الهادية » أو الموجهة التى تنادى بأنه اذا كان توجيه الاطفال وضبطهم دائما أمرا معوقا لنموهم ، فان تركهم أحرارا يفعلون ما يشاءون دون توجيه أو ضبط أمر مفسد لهذا النمو ، وهى بهذا تؤمن بأنه اذا كان الطفل بحاجة دائما الى الحرية لكى ينمو فانه بحاجة أحيانا الى الضبط لكى يحقق النمو خير أهدافه وغاياته .

مثل هذه الفلسفة تحاول أن تحقق التوازن بين ماتتيح للطفل من الوان النشاط وما تفرض على هذا النشاط أحيانا من توجيه أو قيد . مستهدفة أن يصل هذا التوازن آخر الامر الى تحقيق أقصى مالديه من امكانيات الصحة فى جوانبها البدنية والنفسية والاجتماعية معا .

وواضح أن الطريقة الثالثة « طريق الهدى » أو

« التوجيه » تجمع بين عنصرى الحرية من ناحية والارشاد والضبط من ناحية أخرى ، وبينما تحترم القـــدرات والحاجات الفردية ، البدنية والذهنية والنفسية ، لكل تلميذ على حده ، فانها فى الوقت نفسه تضمن الجماعة فى تركيزها من حيث أن المدرسة وسيلة لمعاونة الطفل على أن يشـــب سليم البدن والنفس ، وعلى أن يلقى التوفيق فى حياته والرضى عنها وعلى أن يظل على صلة بحياة الجماعة التى يعيش فيها ، يعمل من أجلها ويسهم فى تحقيق الخير لها فى ظل الاوضاع الحضارية لهـذه الجماعة وفى نطاق مايسودها من مبادىء وقيم .

النمو النفسى للطفل فى المراحل المختلفة :

خلال الشهور الاولى من الحياة تظل الام والطفل فى وحدة بيولوجية وثيقة الصلة ، ويظل قدر كبير من شعور الرضيع بالطمأنينة مرتبطا بطريقة اشـــباع حاجاته البيولوجية بل ان اتجاه الام من طفلها ليظل العامل الاكبر فى تزويد الطفل بالشعور بالطمأنينة أو فى تهديد هـــذا الشعور خلال مرحلة الطفولة كلها وخاصـــة فى أطوارها المبكرة .

وبعد السنة الاولى يبدأ الاب يأخذ دورا مطردا لأهميته فى حياة الطفل على نحو مباشر وغير مباشر ، عن طريق ممارسته لمعنى « السلطة » واثره فيما تخبره الام مـــن شعور بالطمأنينة ايضا .

حاجة الطفل الى الاعتبار :

ومع نمو الطفل تأخذ حاجاته رويدا طابع النضج والتعقيد ، فتظهر الى جانب حاجاته البدنية والانفعالية فى تلك السن المبكرة حاجات اجتماعية ، فالحاجة الى « الاعتبار » بين أفراد الاسرة والى القبول منهم . وقد تكون رغبة الطفل فى اشباع هذه الحاجات ملحة الى القدر الذى يؤدى احباطها الى اضطراب فى وظيفة بعض الاجهزة الحشوية يظهر فى صورة اعراض مرضية بما تعرف بالنفسية البدنية « كاضطراب وظائف الجهاز الهضمى مثلا » .

حاجة الطفل الى الحب :

وحوالى السنة الثالثة من العمر يخبر الطفل أول اصطدام هام مع كباره فان رغبته فى أن يشعر بنفسه وقدراته وفى أن يفعل ما يشاء تصطدم بما فى بيئته من محرمات وقيود . وقد يختلف النشاط المحرم باختلاف الظروف الحضارية الواسعة او المحدودة ، بل قد يختلف من أسرة الى أخرى ولكنه برغم ذلك يقع فى فئتين كبيرتين الاولى : النشاط الذى قد ينتج عنه الاذى للطفل أو للغير ، والثانية : النشاط الذى يصطدم بقيم حضارية معينة . وعلى الرغم من أن خروج الطفل على مافى بيئته من قيود ومحرمات، يكاد يكون دائما على حساب التهديد بحرمانه من الحب ، وما ينطوى هذا التهديد عليه من تأثير ضار

بصحته ، فان الطفل الذى ينعم بعلاقة طيبة مع أمه ، أى علاقة زودته من الشعور بالطمأنينة بما أعـــانه على اختيار حاجته الى ممارسة الاستقلال ، مثل هذا الطفل سيجد من السهل عليه نسبيا قبول القيم التى تســود أسرته ، لكى يكون لنفسه قيما خاصة به فيما بعد .

حاجة الطفل الى اللعب :

وأثناء سن الحضانة لا يحتاج الطفل الى تعليم منتظم بقدر حاجته الى بيئة مناسبة لتنبيه قدراته الذهنيـــة ومعاونته على النمو الصحى وعلى النضج الانفعـــالى والاجتماعى معا وخير مايساعد ذلك توافر امكانيـــات اللعب ، فان اللعب فى هذه السن هو الوسيلة الطبيعية لاشباع حاجة الطفل الى الحركة والتوازن الحـــركى ولتحقيق دوافعــه الى التعبير عن الذات والى التقريب مابين خياله والواقع على حد سواء .

حاجة الطفل الى الحب والقبول واحترام الذات :

فاذا وصل الطفل الى مرحلة الدراسة الابتدائية اتسع المجال بصدد حاجاته واهتماماته اتساعا كبيرا . وتشمل هذه الحاجات ، فيما تشمل الحب والقبول والمـــكانة واحترام الذات والتعبير عن الذات والفضول أو الرغبـــة فى التعلم . هذا بالاضافة الى أن مايصيب عملية تــكوين الفكرة عن الذات فى علاقتها بالغير ، وهى التى كانت قـــد

بدأت فى مرحلة سابقة ، وترتبط هذه الفكرة على نحو وثيق باتجاهات الغير من الطفل وعلى الاخص اتجاهات الوالدين والمدرسين ، سواء كانت شعورية أو لا شعورية وهنا ينبغى القول بأنه يجب أن يجنب الطفل التعرض لآراء متباينة يبديها الكبار عنه ، اذ ان أثر ذلك ينعكس فى فكرة الطفل عن نفسه ، وقد يؤدى فيما بعد الى اضطرابات نفسيه أو سلوكية خطيره .

كيف تساهم المدرسة الابتدائية فى دعم الصحة النفسية لتلاميذها ؟

فى وسع المدرسة الابتدائية بوصفها الجماعة الكبيرة الاولى فى حياة الطفل غالبا أن تسهم على نحو عظيم القيمة فى دعم الصحة النفسية لتلاميذها عن طريق :

١ ــ خدمات صحية محكمة : لا تترك طفلا فى حاجة الى رعاية طبية أو صحية الا قدمتها له على نحو كامل عاجل ، فان توفير الصحة للتلميذ فى هذه السن دعم لشعوره بالثقة بالنفس والاطمئنان الى العالم حوله ، ودفع له على الاقبال على الحياة والتعاون معها والمشاركة فيها .

٣ ــ منهج دراسي مرن يدفع التلميذ الى التعليم باثارة الروعة فى نفسه وتذوق المادة الدراسية عن طريق التكشف فانا لنعرف عددا كبيرا من حالات التأخر فى التحصيل الدراسي ، وما يصحبه من فشل أو شقاء وعزوف من المعرفة وانسحاب من الحياة عموما ، كان مبعثها منهجا

دراسيا ، أو مدرسا ، أثار فى نفس الصغير الشعور بالصد والكراهية والعجز .

٣ ـ وجوه النشاط المدرسى المختلفة التى تهيىء للتلاميذ الفرص المتعددة للنمو الاجتماعى ولاشباع حاجتهم الى المساهمة مع الغير ، وتكوين علاقات خارج دائرة الاسرة ، والتى تعينهم على حفظ التوازن بين مختلف القيم والمستويات بما تزود من فرص لتلبية حاجة الطفل الى المكانة والقبول والابتداع والتعبير عن الذات وتنمية المهارات الحركية والاجتماعية مما ينعكس اثره آخر الامر على شخصية التلميذ وصحته البدنية والنفسية معا .

بحث تأثير البيئة على التحصيل الدراسى فى المرحلة الابتدائية :

وما دمنا بصدد الحديث عما تستطيع المدرسةالابتدائية أن تهتم به لدعم الصحة النفسية لتلاميذها ، فمن الخير أن أشير الى بحث أجرته الصحة المدرسية « العيادة النفسية » منذ عدة سنوات ، عن العوامل المؤدية الى التخلف الدراسى بين تلاميذ المرحلة الاولى بمدينة القاهرة ـ وقد أجرى هذا البحث على عينة من ٣٤١٢ تلميذا وتلميذة موزعين على مناطق ثلاث تمثل كل منها مستوى اجتماعيا اقتصاديا معينا المرتفع والمتوسط والمنخفض فجاءت النتيجة أن حوالى نصف التلاميذ فى المنطقة المنخفضة المستوى متخلفون فى تحصيلهم الدراسى

تخلفا يذهب بقدر كبير من فائدة التعليم وجدواه « هذه النسبة بلغت ٢٠٪ في المنطقة المتوسطة ، ١٠٪ فى المنطقة المرتفعة وهى تعادل نسبة التخلف المعروف عالميا » .

وقد التقت النسبة المرتفعة للتخلف الدراسى بين تلاميذ المنطقة الهابطة اجتماعيا فى علاقة ايجابية واضحة مع ظروف بيئة سيئة من حيث افتقارها الى الضرورات الاساسية للحياة أدت بهم الى الحياة على مستوى دون الكفاف ، وظروف صحية ، من حيث سوء التغذية والاصابة بمختلف الامراض أدت بهم الى المرض والزبول وقلة الحيوية ، هذا الى ماكانت مدارسهم عليه من عجز بالمرافق وماكانت برامجهم عليه من انفصال عن واقع الحياة التى يعيشون فيها .

الحاجة الى النهوض بالخدمة لرفع المستوى الاجتماعى والتعليمى :

ولاشك أن المشكلة هنا معقدة اشد التعقيد لاتصالها الوثيق بكياننا الاجتماعى كما انتقل هذا الكيان الينا بعد عهود طويلة من الانانية والتفكك والاستغلال ، وهى أيضا تمثل خير تمثيل مايقول الطب النفسى به من أن عوامل العلية فى مشكلات الانسان تنزع عادة الى التعدد والتشابك وقلما تكون مفردة ، وفى هذه المشكلة ، التى تعد فى جوهرها مشكلة صحية نفسية ، اجتمعت البيئة المنزلية التى يجثم عليها الفقر والجهل والتفكك والحرمان والبيئة المدرسية التى تعوزها الامكانيات سواء فى

مرافق المدرسة أو فى جوها أو فى مدرسيها والبيئة الاجتماعية التى تفتقر الى وسائل التنبيه ، والى المخارج الصحية على أى نحو ، اجتمعت هذه العوامل كلها متفاعلة ، لكى تجعل من نسبة غير قليلة من التلاميذ أطفالا معتلى الصحة خاملى الذهن ناقصى الحماس ، تذبل الحياة فى أبدانهم ونفوسهم معا .

ثم ان هذه المشكلة أيضا مثال طيب لما ينبغى لها من علاج جذرى يقتلع عوامل العلية من أصولها . وهى فى هذه المشكلة بالذات كما فى كثير غيرها من المشكلات ذات الصلة بالكيان الاجتماعى ، صدى لحكمتنا وفلسفتنا الاجتماعية الجديدة التى تنزع عن طريق نشر مختلف وجوه الخدمة العامة والنهوض بها ، الى تطور المجتمع على النحو الذى ترتفع فيه المستويات جميعا وتتضاءل الفوارق بين الناس .

النمو النفسى فى مرحلة المراهقة :

ومع قرب المراهقة تبدأ تغيرات بدنية فسيولوجية وانفعالية وذهنية واجتماعية هامة فى الظهور وينعكس اثر هذه التغيرات على حاجات المراهق واهتماماته ، كما ينعكس اثرها ايضا على سلوكه . وتشمل حاجات المراهق :

الحاجة الى القبول من الغير ، والى ان يكون ذا قيمة لانسان أو لمؤسسة ما ، والى أن يحس بقيمته هو كانسان ، والى ان ينعم بالاستقلال اى بالتحرر من الاعتماد الانفعالى والذهنى على أسرته ، والى أن يفكر

لنفسه ، مقتحما فى المجالين الذهنى والعملى معا العالم حوله محاولا فى هـذا الاقتحام الـكشف عما لديه من قدرات والتعرف على مافى قدراته من حدود ، والى أن ينمى عن طريق الاهتمامات والهوايات ذات الطابع الفنى او الادبى قدرته على الخلق والابتداع والتعبير عن الذات ثم أخيرا الى أن يحاول الوصول الى قدر ملائم من التكيف مع الجنس الآخر تمهيدا للاطـــلاع الموفق الناجـــح بمسئوليات الزواج والحياة الزوجية فيما بعد .

كيف نساهم المدرسة فى تدعيم الصحة النفسية للتلميذ فى مرحلة المراهقة ؟

ان هذه المرحلة التى ان كانت مرحلة تحرر مطرد من الاعتماد على الاسرة من ناحية فانها من ناحية أخـرى ؛ طور حرج من اطوار النمو يحفـــل بألوان من العنف والضغط ، تجتمع فى تكوينها اثار النضج البيـــولوجى والمشقات التى يؤدى اليها موقف المجتمع من المـــراهق وما ينطوى هذا الموقف عليه من اتجـــاهات وقيـود وتوقعات معا .

وفيما يلى ملخص لدور المدرسة فى هذه المرحلة :

١ ــ متابعة الخدمات الصحية المكنة التى تقـــدم للطلاب فى هذه السن ، فان مثل هذه الخدمات عامل هام فى تهدئة مشاعر القلق التى تثور بنفس المراهق نتيجة

لاتغيرات البدنية السريعة التي تحدث اثناء المراهقة ، كما أنها من حيث أثرها الحميد المباشر فى توفير الصحة له دعم لشعوره بالطمأنينة ازاء نفسه وازاء المجتمع الذى يعيش فيه .

٢ ــ تشجيع الجوانب المختلفة للنشاط المدرسى : لان ذلك يمهد للمراهق فرص منوعة للافصاح عن نفسه ولتنمية شخصيته عن طريق التعبير الادبى أو الفنى والنشاط الرياضي أو الاجتماعي أو الترفيهى ولان فيه مجالا لاكتشاف قدراته ومهاراته ومراعاتها ، مما ينعكس أثره بطريق مباشر وغير مباشر على صحته ، ثم أخيرا أنه يوجه الكثير من فيض طاقته الى مايعود عليه بالخير والنفع بدلا من ترك هذه الطاقة العارمة دون توجيه فتدفع به الى ضروب من الإنحراف الهدام أو ترده عن عالم الواقع ومافيه من امكانيات الى أحلام اليقظة وماتزخر به من زيغ وشطط .

٣ ــ فهم الاعاصير الانفعالية التى تقف بنفس المراهق: وتدفع به الى الوان من التناقض السريع فى المزاج والتفكير والسلوك ، والوقوف فى مثل هذه الاعاصير موقف الادراك الواعي والتوجيه الهادي والقبول والتسامح ، مع قدر من الحزم أحيانا اذا لزم الامر .

٤ ــ تشجيع المراهق على التحدث عن مشكلاته : أما على نحو فردى أو فى حلقات مناقشة جماعية ،وتوجيهه فيما يعرض من المشكلات دون نقد صارم ، مع تجنب كل مامن شأنه أن يثير فى نفسه الشعور بالخطيئة أو يزيد مافيها من هذا الشعور ضراما .

ان دقائق قليلة من الانصات المستغرق المستنير قد تجنب المراهق أزمة نفسية تأكل من وقته وجهده الكثير، كما أن عبارة لاذعة أو جارحة يكون فيها فصل الخطاب بين رغبة المراهق فى الحياة واندفاعه نحو الموت .

تنهض المدرسة بتبعاتها فى أعداد تلاميذها للحياة . فى نطاق مالديهم من قدرات وامكانيات عن طـــــريق جهـــــازها التربوى ونواته المدرس ، والصحى ونواته الطبيب وليس من شأن هذا الحديث أن يتناول أثر المدرس فى دعم الصحة النفسية للتلاميذ ، برغم ادراكنــــا لمـــا لشخصية المدرس من نضج واتزان انفعالى ولطريقـــــة استخدامه المنهج الدراسى ولمستوى اعداده ، وقــدرته على الاستبصار بسلوك تلاميذه اى فهم دلالة هـــــذا السلوك النظر اليه لا من حيث مظاهره فحسب بل من حيث العوامل المسببة له . والرؤية اليه أيضا ، برغم ادراكنا لما لهذا كله من اثر قد يمتد لحين قصير أو طويل، ولمدى سطحى او عميق ، وبطريقة شعورية أو لاشعورية فى حياتهم .

المدرسة والفطام النفسى للطفل من البيت

يعد اليوم الاول من العام الدراسي يوما هاما فى حياة فئة معينة من العائلات ، هذه الفئة من العائلات يصبح شغلها الشاغل التفكير فى التغلب على الصعوبات التى سيلاقونها عند ذهاب الطفل الى المدرسة لاول مرة . كم من اب وأم تمنى لو انتهى هذا اليوم بسلام ، رغم تقديره للألم العميق الذى سيصيب الطفل المبتدىء وادراكه للمواقف الدقيقة المرهقة التى لابد من مواجهتها فى ذلك الوقت .

ويمكننا أن نلقى نظرة على أصغر الاطفال المبتدئين فاذا بنا نرى طفلا ذهب الى المدرسة لاول مرة ، وقد استطاع أن يتقبل الامر الواقع فى غير عنف أو تألم . وهذا الطفل يمثل الاغلبية . ثم ننتقل الى طفل آخر يتألم لحزنه وثورته ، ولكن هذا الحزن أو تلك الثورة سرعان ماتنقضى ويتفاوت الاطفال هنا ، فبعضهم ينتهى حزنه أو ألمه بانتهاء اليوم المدرسى الاول . وبعضهم الاخر يتغلب على قسوة الموقف فى شىء من البطء خلال فترة تمتد أسبوعين وأحيانا أكثر .

ولكن يوجد الى جانب هذين الطفلين طفل ثالث ينبىء

سلوكه عن قصور قدرته على تقبل الامر الواقع وفشله فى ذلك . مثل هذا الطفل نراه شاردا حزينا ، وتارة أخرى ثائرا على فكرة الانفصال من البيت بقصد الذهاب الى المدرسة . وقد يبقى على هذا الحال عدة اسابيع وأحيانا بضعة شهور فيظل فيها كارها المدرسة وكل من يتصل بها .

فانفصال الطفل عن البيت بقصد الذهاب الى المدرسة شبيه من الناحية النفسية بفطامه عن الثدى . ولكى يتم هذا فى غير ارهاق وبغير قسوة ، يجب أن يمر الطفل فيها تدريجيا الى أن ينتهى به الامر الى الفطام الكامل ، اى الاستغناء التام عن الثدى والانصراف الى تناول الاطعمة الخارجية فى كوب أو ملعقة .

والفطام من البيت يتطلب ايضا لكى يستطيع الطفل أن يذهب الى المدرسة راضيا مطمئنا أن يكون الاعداد تدريجيا خلال السنوات الاولى التى يقضيها الطفل الصغير بين أبويه وهى السنوات التى تسبق ذهابه الى المدرسة مستقلا عن أهل البيت .

والخص هذا الاعداد فى النقط الآتية :

١ ــ العمل على توفير الفرص التى يستطيع الطفل فيها أن يقوم بنفسه بأعمال بسيطة دون مساعدة الغير كأن يكون مسئولا عن خلع الملابس ووضعها فى المكان المعد لها . وتوفير هذه الفرص التى يؤدى فيها الطفل أعمالا دون مساعدة الآخرين ويؤديها بنجاح من جانبه

من شأنها أن تزيده اطمئنانا الى نفسه ، وبالتالى نقلل تدريجيا من اعتماده على الغير .

٢ ـ يجب ان يسمع الطفل من ابويه محاسن المدرسة فى اليوم السابق لذهابه الى المدرسة وياحبذا لو قام هو ومع أحدهما بزيارة عابرة ليتحقق بنفسه من أن المدرسة مكان فيه مايسره وسيجد فيه مايسعده فينجذب اليها ، مثل هذه المحاولة تهيئة لقبول فكرة الذهاب الى المدرسة حتى يجيء أوانها .

٣ ـ محاولة اتاحة الفرصة لاقامة علاقة ودية بين طفل وطفل آخر من أطفال الجيران او الاصدقاء يذهب الى المدرسة ذاتها أو سيلحق بها فى نفس الوقت . فان احدهما سوف يشجع الاخر ويقلل من شعوره بالوحدة . وهو الشعور الذى كثيرا ما يزعج الطفل المبتديء فى أول عهده بالمدرسة .

اما أن يكره الطفل على الذهاب الى المدرسة بالعنف والقسوة فهذا أسلوب يسيء الى شخصيته ومدى كسبه من المدرسة . وهدف الوالدان أبعد ما يكون من هـذا او ذاك والهدف الرئيسى لهمـا هو التعليم . وللتعليم شروط لابد من توافرها للصغير الناشيء حتى يقبل على التعليم راغبا راضيا .

المدرسة وتحقيق الفطام النفسى للطفل :

يدخل الطفل الى المدرسة فرحا بالملابس الجـديدة وبأنه سيصير كأخيه أو جاره يمسك بالكتاب والقلم ليقرأ

ويكتب . ويصحب امه أو أباه الى المدرسة أول يوم ثم يعيش فى جوها ويتأمل ، فاذا وجدها منظمة جميلة ووجد فصله مريحا وزملاءه مثله وفى مثل سنه ومن بيئتـه والمعلمة باشة صبورة بها حنان أمه وعطفهـا ، أحب المدرسة والمعلمة والزملاء من الاطفال وكون صـداقات جديدة مع رفاقه بالفصل وبدأ فى التعليم بداية سعيدة كلها شوق وتقبل واجتهاد فيصعد السلم التعليمى درجة درجة فى هدوء نفسى ورعاية تنفض عن عقله غبار الجهالة فيخرج مع أيام المستقبل الى الحياة متكاملا يعمل فيمـا يناسب قدراته ومواهبه سعيدا بالحب الحافل وبدفء العاطفة وبالسلامة النفسية البعيدة عن عقد الشقاء .

أما لو وجد بالمدرسة فوضى وبالمعلمة قسوة وجهـلا بنفسيته ، فانه يكره المدرسة ويتعقد حيالها ، واذا لم يجد حلا لعقده فى أوائل تكوينها ، تركزت عليهـا عقد جديدة بمرور الايام . فيكره التعليم وينطـوى على الانطـلاق فيه فيتخلف ، ويمضى الركب حـوله من عام الى عام وهو جامد مقيد تجرجره القوانين بحيالهـا ليمشى متعثرا فى المؤخرة دائما ساهما شاردا فينحـرف لفراغه الذهنى ويحاول الهرب من التعليم بالتمـرد والشذوذ النفسانى وبشتى الوسائل .

ضرورة الاهتمام بالطفل فى الصفوف الاولى :

ولهذا فان السنة الاولى للطفل فى المدرسة تعتبر من أخطر سنوات عمره ، اذ هى اللبنة التى يقوم عليها صرح مستقبله كله بشتى نواحيه .

ونحن اذا وجدنا تلميذا لايستطيع الكتابة فى الصف السادس رغم أنه عادي الذكاء ، فان اللوم هنا ينصب على معلمة الفرقة الاولى .. التى تنتقل به حتى الصف الرابع منذ أن تسلمته من أمه فى الصف الاول . وينصب أيضاً على ادارة المدرسة التي لابد أن تحشد كل الامكانيات لمعاونة مدرسة الصفوف الاولى وتذليل العقبات أمامها وتمنحها الفرص المتكاملة لعلاج المتخلفين فى بدء تخلفهم بالتعاون مع الاباء . فمعنى قضائنا على التخلف فى السنوات الاساسية فى الصفوف الاولى وفى الصف الاول والثانى بالذات هو قضائنا النهائى عليه فى الصفوف المتقدمة حيث يكون الالمام بالقراءة والكتابة هو ركيزته التى يقوم عليها كل تعليم بعد ذلك .

فالطفل الصغير له فى البيت جو خاص به ، كله أمن وطمأنينة وعطف وتفاهم متبادل ، من أجله يتعاون الوالدان على تهيئة هذا الجو له لانه حق من حقوق بل وشرط من الشروط الاساسية التى تنهض بالطفل نهوضا شاملا وتساعد على التقدم فى النواحى الجسمية والذهنية والنفسية معا فى نفس الوقت .

ووظيفة المدرسة بالنسبة للطفل المبتدىء الذى التحق بها حديثا لا تختلف عن وظيفة الاسرة بالنسبة لحقوقه .. فالهدف الاول من المدرسة هو أن يهيىء للطفل جوا يماثل بقدر المستطاع الجو الذى كان يتمتع به فى البيت ... فمهمة المدرسة كما ذكرت وقتئذ تبدأ باستقباله والترحيب بقدومه تشعره من يوم الى يوم بأهميته كفرد مستقل مما يخفف من شعوره بالقلق واحساسه بأنه ضائع وسط المجموعة الكبيرة ، وذلك بسبب انفصاله عن

البيئة الاسرية الآمنة المعنية بشئونه الى بيئة اخـــــرى جديدة تختلف اختلافا بينا عن البيئة الاولى من حيث المكان والزيادة فى الالتزامات والنقص فى الحقوق .. ومن هنا كانت أهمية المدرسة المسئولة عن مجموعة معينة من الاطفال تقوم عندهم مقام الام فى البيت ، تقبل على كل طفل على حدة فتتعرف على طبيعته المزاجية ومقـــدار استعداده للاندماج فى الجو المدرسى وهى تستطيع أن تقرأ على وجوه الاطفال وتترجم الكثير من حيويتهم ومن سلوكهم الى ما يعينها على معرفة ما ينقص كل منهم من الحاجات النفسية التى يتمتع بها فى البيت وهو مقيم بين والديه .. فهذا يستغرق وقتا ليس بقصير وجهدا ليس بقليل وقدرا من المعركة السيكولوجية غير يسير .

محاولة تكيف الطفل للبيئة الجديدة :

وعلى الأم أو الاب أن يزور المدرسة بين حين وآخر لمقابلة المعلمة التى تراعى طفلهما ويتبادلا معــا بعض الملاحظات التى تحقق السبيل لكل منهمـــا بخصوص معاملة الطفل والوقوف على مدى يقظته وقـدرته على الانسجام والتعاون مع أقرانه .. والطفل خلال هذه الفترة يعمل على أن يتكيف مع البيئة الجديدة فنراه يحاول أن ينسجم مع أكبر عدد ممكن من الزملاء ، ويصاحب بعضهم ويطيب له أن يلعب مع زملائه ويرفض الاشتراك مع زميل آخر . وهنا يمارس الطفل عمليات مستمرة من

أساليب التكيف ليحظى برضى مدرسته التى تشغل مكان الام عنده ويتمتع بالتوفيق والاندماج مع زملائه . فتهدأ نفسيته وتطيب له الحياة مع البيئة الجديدة نوعا ما .

فالطفل الذى يلتحق حديثا بالمدرسة ثم يبـــدو فى سلوكه أنه قد اكتسب عادات ذهنية واجتماعية ملحوظة يجب أن يفسر هذا الكسب بانه دليل مادى على نجـاح مدرسته فى أداء مهمتهما نحو الطفل ، هذا الدليل المادى يظهر فى صور مختلفة مثل اليقظة الذهنية التى تجعـله يشعر بما حوله ، ويحس احساسا واعيا بما يحيط به ويحترم حقوق الغير .. وما الى ذلك من عوامل جوهرية لبناء الشخصية التى لابد أن تتوفر للمتعلم الأول حتى يستطيع بعد ذلك الافادة من التحصيل العلمى والاقبال على تعلم المواد المدرسية والتفوق فيها .

التعاون بين البيت والمدرسة :

على الرغم أن احدى الدعامات الجوهرية فى تنشـئة الطفل تقوم على تعاون البيت والمدرسة معا ، وهـــذه الحقيقة على بداهتها لا تكاد تلقى العناية الا من القـــلة القليلة . ونظرة سريعة الى الامر الواقع ترينا أن كثيرا من الآباء يرسلون أبناءهم الى المدرسة معتقدين ان واجبهم فى التربية قد انتهى ولم يبق عليهم سوى أن يـــكفلوا الطعام والملبس والنفقات الدراسية لأبنائهم دون أن يخطر ببالهم الحضور والاتصال بهذه المعلمة التى عهد اليهـا الاشراف على تربية ابنائهم بقصد التفاهم او التعاون .

وتمضى المدرسة فى عملها محاولة جهدها ان تدرس كل

نفس من هذه النفوس الصغيرة على حدة لتكشف نواحي القوة والتفوق وتغذيها وترويها أو تلمح بذور انحراف خلقي أو تأخر اجتماعي وتعالجها . وذلك لانها تعلم أن جوهر الرسالة يقتضيها ان تكيف نفسها بالاشتراك مع البيئة كي تتيح لهؤلاء الصغار كل فرصة ممكنة لاكتساب اكبر قدر من الخبرات التى تعود عليهم بالفائدة فى حياتهم خارج المدرسة وبعد اتمام مرحلتها ولكن عمل المدرسة ، مهما تحاول يبقى ناقصا اذا لم نتح لها فرصة الاتصال بأولى الامر فى البيت ليمدوها بما خفى عليها من حياة طفلهم ، وتنبههم هى بدورها الى مالمسته أثناء دراستها له بالمدرسة .

وبذا يتيسر للطرفين أن يتفاهما ويتعاونا على اتخاذ أنسب الاساليب التى تتفق مع طبيعة هذا الطفل ، من حيث استعداده العقلى ونموه الجسمى وتكوين عادات خلقية .. وغير ذلك .

واخيرا ليعلم الآباء أن الاساليب المستعملة فى تنشئة طفل اليوم غير تلك التى كانت تستعمل فى الماضى ، وليدركوا أن تربية الطفل الآن علم يتفرغ لبحثه ودراسته فريق من خاصة المتعلمين ، ينصرفون فيه الى حيث البحث والمشاهدة والتجربة ، ويجوبون فى ميدان سيكلوجية الطفل كشفا واقتحاما ، ثم يقدمون نتائج أبحاثهم وخبراتهم الى معاهد التعليم للتدريب على ممارستها والانتفاع بها جميعها أو بعضها عن طريق تطبيقها .

ولاشك أن التربية الحديثة تكفل للطفل حياة أهنأ انها تهدف الى التعمق فى السلوك كما أنها تعالج الانحراف وتوجه المواهب .

دور الصحة المدرسية

ان توفير الرعاية اللازمة للتلاميذ من أهم ما يواجه الخدمات الصحية المدرسية من تبعات ، بالاشتراك مع الاجهزة المختلفة الاخرى التى يمكن أن تسهم فى توفير الرعاية لهم .

اهمية توفير صحة البدن والنفس :

ومهما يدخل فى تكوينها من عوامل لا تتصل على نحو مباشر بأعمال الصحة المدرسية كالمنهج الدراسى وطريقة التدريس وشخصية المدرس ومستويات اعداده ... وما الى ذلك كله . ومهما يقال من أن الصحة النفسية لمرحلة الطفولة والمراهقة مهمة مشتركة بين جميع الهيئات المعنية برعاية هذه المرحلة كالمدرسة واتحادات الاطفال والاحداث ومجالس رعاية الشباب وغيرها ، فان الجهاز الصحى : المسئول آخر الامر عن أن تأتى جهود هذه الهيئات جميعها فى المجال الصحى مايرجى لها من ثمار ، لان الاطباء هم المسئولين عن تدبير الصحة لهذا

الفريق الكبير من الابناء ، والصحة دائما هي صحة البدن والنفس .

ولكي يستطيع أطباء الصحة المدرسية توفير الصحة النفسية للتلاميذ ينبغي أن يؤمنوا جميعا بوحدة البدن والنفس ، تلك الوحدة التى تتلاحق الشواهد عليها فى خبرة كل يوم : فهناك التلميذ الذابل الضعيف ، الذى أقعده وهن حيويته دون استخدام ذكائه فى التحصيل الدراسى ، أو الذى أثار الضعف فى نفسه شعورا بالنقص يحاول تعويضه بأوضاع سلوكية منحرفة فيها الحقد والوقيعة والدس .

وكذلك هناك التلميذ الذى بسبب أو لآخر أضحت المدرسة لديه مكانا بغيضا مكروها يمثل الشر والخطأ فأدت حالة القلق النفسى هذه به الى ضعف الشهية للطعام والغثيان والقيء أو الى التبول اللاارادي او الى التهتهة ، أو الى غير ذلك من أعراض تشير الى الاضطراب في بعض وظائف البدن . ولاعد ولا حصر لما يمكن أن يذكر فى هذا الصدد من قبيل المثال .

لهذا ينبغي الايمان ايضا بأن طب الاجهزة والاعضاء المتفرقة المستقلة بعضها عن بعض وعن الانسان الذى يحتويها قد زال ، أو على الاقل هو الى زوال ، واننا الآن بصدد طب الانسان ، الانسان الفرد ككل موحد من بدن ونفس ، لان هذا الانسان هو الذى يمرض ، سواء كان ما يعتل فيه أصلا هو البدن أو كانت هى النفس .

ولكن هل يكفى ، فى هذا المقام بالذات ، الايمان وحده؟ كلا ينبغي أن يقرن الايمان بالمعرفة ، ينبغى أن نعرف كيف يلتقى البدن والنفس والمجتمع فى أداء منسجم هو

الصحة . وكيف أن اعتلال أحد هذه الجوانب الثلاثة يؤثر في الجانبين الاخرين ؛ فينبغي أن نعرف الاصول العلمية للعلاقة بينهما في الصحة والمرض في حد سواء .

ولكي يستطيع طبيب الصحة المدرسية تحقيق الصحة النفسية في مجال عمله مع الاطفال والمراهقين ينبغي ان يتوافر له مايأتي :

١ ــ المعرفة بالخصائص والحاجات النفسية للنمو في مراحل العمر المختلفة مثل المعرفة بالخصائص والحاجات البدنية سواء بسواء حتى يستطيع فحص ثم علاج الاضطرابات النفسية العادية التي تعرض له في خبرات كل يوم .

٢ ــ الالمام بقدر من الاصول النفسية وحكمتها تتيح له اقامة علاقة طيبة سليمة مع مرضاه بغض النظر عن وجود مشكلات نفسية لديهم .

٣ ــ الالمام الواعي بكل العوامل التي تؤثر بالصحة النفسية للتلميذ ما ارتبط منها بحالته الصحية العامة أو بعلاقاته في البيت والمدرسة بوجه عام .

٤ ــ المعرفة الكافية للعلاقة بين البدن والنفس واثر العوامل النفسية في الوظائف البدنية حتى يمكنه أن يقرب مرضاه كأشخاص لا كمجموعات من الاجهزة والاعضاء .

٥ ــ الالمام بكل مافي البيئة من مؤسسات الخدمة التي يمكن أن تسهم في علاج الاطفال الذين يعانون من اضطراب طبي نفسي في العيادات النفسية الخاصة وما اليها حتى يحيل اليها من يرى أن حالتهم بحاجة الى علاج أو رعاية متخصصة .

٦ ـ الوصول آخر الامر الى تحقيق الوعى الصحى بالقدر الذي يضحي معه الفهم الطبى النفسى للتلميذ العليل أو السليم وبيئته جزءا مكملا لتفكيره وسلوكه الطبى .

هذا الى ماينبغى ايضا بضرورة العناية بالاعداد فى اصول الصحة النفسية لافراد الجهاز المساعد من زائرات صحيات وممرضات ومن اليهن من المشتغلات بالمدارس والوحدات العلاجية فان نجاح الخدمة الصحية كما هو معروف رهن الى حد كبير بسمة الاداء من أعضاء هذا الجهاز المكمل لعمل الطبيب .

دور الجهـــاز الصحى المدرسى ازاء الرعاية الصـــحية النفسية للتلاميذ

١ ـ الفحص الطبى الدورى الشامل .

يستطيع الفحص الطبى الدورى الشامل اذا أجـرى بالدقة اللازمة ومع الايمان بأهميته كسجل صحى لابنائنا أن يكون عاملا عظيم القيمة فى فهم الحالة الصحية النفسية للتلاميذ وقد لا تكون البيانات الخاصة بالصحة النفسية فيه الآن شاملة كل مانود أن نعرفه فى هذا الصدد ، ولكنها على الرغم من قلتها وبساطتها تستطيع أن تعطينا فـكرة سليمة سريعة ما أشد حاجتنا اليهـا الآن لتساعد على دقة التخطيط للخـــدمات الصحية النفسية فى القطاع المدرسى وتعتبر صحة بيانات الصـــحة والنفسية فى بطاقة الفحص الشامل مرجعا نثق به ونطمأن الى سلامته اذ نحاول تقيم الحالة الصحية للتلاميذ فى مراحل العمل المختلفة واثناء الاطوار المختلفة لحياة كل تلميـــذ على حده .

ولما كان المدرس أقرب صلة بالتلميذ من الطبيب فانه الاقدر على ملاحظـــة أوجاعه وسلوكه وبالتالى الاخلق بتدوين البيانات التتبعية عنه .

بيد أنه انما يفعل ذلك بالاشتراك مع الطبيب ومشاورته حتى يجيء الرأى وليد التعاون بين ممثلى الجهازين الذين ينهضان معا بتبعات التنشئة للجيل الصاعد .

وهذا بالاضافة الى أن كل تسجيل للعطـــاء الوراثى للتلميذ أو للاتجاهات الصحية لاسرته انما هو اسهام ذو قيمة فى رسم الحالة الصحية للمواطنين بوجه عام وفى تقدير الامكانيات الصحية للتلميذ مستقبلا على وجـه الخصوص .

تأثير الفحص الطبى على الصحة النفسية للتلاميذ :

ومادمنا بصدد توضيح أهمية الفحص الطبى الدورى الشامل للتلاميذ فلابد من الاشارة الى ما فى طريقة القيام بهذا الفحص ومايشبه من ملابسات صحية نفسية قد تكون برغم بساطتها فى الظاهر بعيدة المدى عميقة الاثر فى موقف الفرد من الطب والاطباء فيما بعد وفى ايمانه بالخدمات الطبية العامة والخاصة على حد سواء .

ان هذا الفحص ينبغى أن يجرى فى نطـاق الاحترام الاصيل لفردية التلميذ والحرص الكامل على أن يجنب ما يخجل أو يؤلم مما قد يتكشف عنه نتائج الفحص فان هذا خليق بأن يجعـل من الفحص علاقة انسانية محببة الذكريات لا عملا آليا يثير فى النفس لدى تذكره شعور من النفور والامتعاض .

٢ ـ التحصين الجمعي ضد الامراض المعدية :

هناك وجوها وقائية اخرى ذات صلة وثيقة بالصحة النفسية ، منها على سبيل المثال ماينبغى من تصرف ازاء التلميذ اذا اكتشف اصابته بمرض معدى ، فان المرض وخاصة المعدى منه يحمل الى الصغير معنى النبذ والصد ويرهق حساسيته لكل مايقال او يعمل مما يمكن أن ينطوى على هذا المعنى .

ثم هناك ايضا التحصين الجمعي ضد الامراض المعدية اذا ينبغى أن يكون اعداد التلاميذ لهذه العملية بحيث يكفل اقبالهم عليها طوعا وفى رضى وسرور ايمانا منهم بأنهم انما يؤدون واجبا حميدا لانفسهم ومواطنيهم كما ينبغى أن تحتفظ الهيئة الطبية المشرفة على عملية التحصين بالأناة والهدوء حتى تنقل هدوءها الى التلاميذ فلا يكتسحهم الجزع ، مع الرفق ازاء من يبدى منهن خوفا والمعنى فى تشجيعه الى المدى الذى يدفع عنه الاضطراب والجزع .

٣ ـ العيادة الخارجية :

ان عشرات التلاميذ يترددون على العيادة الخارجية كل يوم . لندع جانبا ماينتج من حدود المكان والزمان وقلة عدد الاطباء من انتظار طويل وسط الضجة والازدحام واثر ذلك كله فى نفوس الصغار . ولنحاول أن نرى كيف ينظر الطبيب الى هؤلاء الذين يقصدونه

طلبا للعلاج . لقد علمته الدراسات الطبية ان هنـاك أمراضا وأن هذه الامراض تصيب أعضاء أو أجهـزة بعينها . فاذا جاء مريض يشكو اتجه بجهده الى محاولة معرفة العضو أو الجهاز موضوع الاصابة والى تحـديد نوعها ثم الى الاشارة لما يراه ملائما لعلاجها .

ان المريض لديه مجرد حالة حمية أو حمى روماتزمية أو لغط بالقلب أو ربو أو التهاب بالحلق . انه مجرد حالة وليس كائنا بشريا أو شخصا قابلا للتأثير بما يدخل فى نطاق خبراته القريبة والبعيدة المباشرة وغير المبـاشرة عضوا فى أسرة تربطه بأفرادها ضروب شتى من العلاقة وتصطدم نفسه بألوان مختلفة من الانفعال أو الوجل ، الاقبال أو العزوف ، التعاون أو المقـاومة . ذلك أن الحالات قد تتشابه فى أسبابها ومظاهرها أما الافـراد فمختلفون ، وقد تصيب الحالة المرضية الواحدة عشرين طفلا مثلا فيستجيب لها كل منهم استجابة تختلف عن غيرها . وقد يكثر بعضهم من القىء وقد يضطرب النوم لدى البعض وقد يفزع البعض الآخر فزعا شديدا ثم هى قد تنزل ببعضهم فى عطلة الصيف أو خلال الدراسة أو قبيل أو أثناء الامتحان .

ولنذكر أخيرا أن المرض حدث طارىء على حياة الانسان وأننا نحسن فهمه بقدر مانقربه فى الاطار الكامل لهـذه الحياة وعلى ضوئها كلها .

الاضطرابات النفسية البدنية للتلاميذ :

هناك أيضا بين مرضى العيادة الخارجية الى جانب الانماط المختلفة للاستجابة للمرضى والعلاج البدنى كالتعاون أو المقاومة الهدوء أو الجزع الابتسام أو الصراخ نسبة غير قليلة منهم يشكون من أعراض مرتبطة بوظيفة هذا العضو أو ذاك النطاق منهـا على سبيل المثال الصداع بمظاهره المختلفة وكثيرا من الاعراض المرتبطة بالجهاز الدورى وخاصة الخفقان وبالجهاز التنفسى وخاصة الربو ، وبالجهاز الهضمى وخاصة القىء والامساك الناتج من تقلص القولون وبعض النزلات القولونية وبالجهاز العضلى وخاصة الحركات اللاارادية واللزمات المختلفة وبالجهاز البولى وخاصة التبول اللاارادى وبالجهاز الجلدى وخاصة الاكزيما والارتكاريا .

كل هذه الشكاوى وكثير غيرها مما لا ترجع الى آفة عضوية مرتبطة أوثق ارتباط بالحالة النفسية للتلميذ ربما فى ظروفه البيئية من أزمات ومشقات ولو اتسع وقت الطبيب على دراستها على ضوء تاريخ حياة التلميذ وطريقة استجابته لما يعترضه من أحداث لاصبح للشكوى معناها ومدلولها ولكان مستطاعا أن يدلى فى توجيهها برأى قد يعين على البرء والشفاء .

ثم هناك أيضا الحالات القلقية والهستريا ذات الاعراض البدنية وحالات التأخر الدراسى والحالات الناتجة عن اصابة المخ أو الجهاز العصبى والاضطرابات العقلية وما

اليها . هذه جميعا ينبغى الا يفوت الطبيب أمر اكتشافها واحالتها الى العيـــــادات النفسية حيث تلقى الفحص والعلاج المتخصص .

الاضطرابات النفسية والحسية والذهنية :

هناك فريق من التلاميذ عاثر الحظ غير قليل العدد من ابنائنا الذين جاءوا دنيانا بعطاء بدنى أو ذهنى أو نفسى دون المتوسط أو أصيبوا فى البواكير من حياتهم بمـا أدى الى حرمانهم من فرص النمو السوى . هذا الفريق يأتلف من أنماط شتى من ذوى العـاهات التى تنال من قدرة أصحابها فى كثير من الاحيان على القيام بالنشـاط البدنى المألوف لاعمارهم أو على متابعة الدراســة فى المدارس العادية تجعل منهم مشكلة صحية نفسية تحتاج الى رعاية خاصة .

وفيما يلى تصنيف عام لهذه الحالات :

ا ـ المصابون بعاهات بدنية ولادية :

كحالات الشلل التقلصى المختلفة الناتجة عن اصـابة المخ أثناء الحمل أو الولادة ومكتسبة كالمتخلفين عن اصابة سابقة بشلل الاطفال مثلا مثل هذه الحالات تترك عاهة باقية فى الجهاز الحركى بما فى ذلك الكلام أحيانا تنال بدرجات متفاوتة من الشدة من قدرة التلميذ على النشاط

الحركى والتعبير الكلامى وتترك حالة شاذة بين أترابه وتجعل منه هدفا أما للسخرية أو للاشفاق .

ب ـ المصابون بعاهات حسية :

كالضعف الشديد فى قوة الابصار والقدرة على السمع مما يجعلهم بحاجة الى رعاية صحية وتربوية خاصة ابقاء على مالديهم من قدرة حسية قليلة واستخداما لهذه القدرة على خير وجه ثم وقاية لهم مما قد يؤدى بقاؤهم مع الاسوياء من مضاعفات نفسية شديدة .

ج ـ المصابون بعاهات ذهنية :

التخلف فى النمو الذهنى « النقص العقلى » الفطرى أو المكتسب نتيجة التهاب المخ أو أذى أو اصابة صرعية أو بحمى شوكية فى سن مبكرة . هؤلاء قد يكون تخلفهم من الشدة بحيث يجعلهم غير صالحين للتعليم اطلاقا ، أو قد يصلحون للتعليم فى فصول خاصة أعدت بحيث تناسب فى مناهجها وطرق التدريس بها عطاءهم الذهنى المحدود .

د ـ المصابون باضطرابات تشنجية ذات طبيعة صرعية :

ونسبة هؤلاء تبلغ حوالى ٢ر٤ فى الالف من تلاميذ المرحلة الابتدائية كما تبين من بحث صحى أجرته

الصحة المدرسية « العيادة النفسية » منذ حوالى خمس سنوات على تلاميذ هذه المرحلة بمدينة القاهرة . . الغالبية من هؤلاء الاطفال يمكن علاجهم بمدارسهم ولكن قلة منهم يصل تردد النوبات التشنجية لديهم مع مايصاحب ذلك من تخلف ذهنى الى المدى الذى يعطل انتظـــامهم فى الدراسة ويجعل بقاءهم فى المدرسة العادية أمرا غير ذى جدوى ، فضلا عن الآثار النفسية السيئة عليهم والمزعجة لاترابهم .

هـ ـ المصابون باضطرابات نفسية او عقلية :

بمظاهرها المختلفة من نفسية وسلوكية وبدنية وعقلية هؤلاء يحتاج فحصهم وعلاجهم الى خدمة متخصصـــة كتلك التى تؤديها العيادة الطبية النفسية للاطفـــــال والمراهقين وهى التى يرجى أن تعم تدريجيــا انحـــاء الجمهورية جميعا .

وبالاضافة الى هؤلاء جميعا توجد الجوانب الصـــحية النفسية للمرضى بأمراض مزمنة كالدرن والقلب وما اليها فان رعاية الناحية النفسية تكون جانبا من العـــلاج لا يجوز اغفاله او النقص من قيمته .

هذا الفريق غير القليل العدد من التلاميذ يكون مشكلة صحية على أكبر قدر من الاهمية والخطورة لافى المجـــال المدرسى وحده ولكن فى البيت وفى المجتمع أيضا .

وتوفير الرعاية اللازمة لهم من اهم مايواجه الخدمات الصحية المدرسية من تبعات بالاشتراك مع الاجهـــــزة

المختلفة الاخرى التى يمكن أن تسهم فى توفير الرعاية لهم .

وكذلك اعداد المؤسسات اللازمة للفئات المختلفة من ذوى العاهات المشار اليها أعلاه كفصول ومدارس التربية الخاصة « لناقصى العقل وضعاف البصر والسمع » ومؤسسات ذوى العاهات الحركية والمصروعين والعيادات النفسية للاطفال والمراهقين (١) وما الى ذلك كله مع العناية باعداد أعضاء الهيئة الفنية العاملة بهذه المؤسسات أطباء ومدرسين ومتخصصين نفسيين واجتماعيين ومدربين رياضيين ومهنيين وغيرهم أعدادا من حيث الكم والكيف، على النحو الذى يتيح لهم القيام بالخدمة التربوية والصحية على خير وجه .

---

(١) **العيادات النفسية للصحة المدرسية** : موزعة بحسب المناطق التعليمية بمدينة القاهرة الكبرى بحيث تخدم تلاميذ المدارس التى تتبع كل منطقة « عدد هذه العيادات حاليا خمس عيادات نفسية بمدينة القاهرة » تقوم هذه العيادات بتوفير المعالجة النفسية والبدنية والاجتماعية للتلاميذ المحولين اليها ..

ـ تساهم فى تقويم الوسائل التربوية الخاطئة التى تؤثر على النمو النفسى السليم للطفل عن طريق توجيه الوالدين الى كيفية التعامل مع أبنائهم لوقايتهم وشفائهم من الاضطرابات النفسية . وكثير من هذه الاضطرابات ترجع بعض أسبابها لمؤثرات أسرية أو بيئية غير مناسبة .

ـ القائمون بالعمل فى كل عيادة نفسية : طبيبة نفسية « مديرة العيادة » واخصائية اجتماعية واخصائية نفسية وحكيمة وممرضات صحيات وهيئة ادارية وكتابية .

يقوم كل فريق فى حدود اختصاصه لتوفير الرعاية التشخصية والعلاجية للتلاميذ وفق نظام محكم يساعد على حسن أداء الاعمال وأداء الرسالة كاملة نحو المحولين الى العيادة النفسية للعلاج .

ذلك أن كل الوان الرعاية التى تقدم لهذا الفريق من التلاميذ انما ينعكس أثرها بطريقة مباشرة على صحتهم النفسية ثم على المجتمع الذى يعيشون فيه فى الحاضر والمستقبل وتحقيق ذلك كله ميسور عن طريق التعاون بين الجهازين التربوى والصحى اللذين وان اختلفت خصائص العمل لكل منهما فى ظاهر الامر يلتقيان دائما فى نهاية المطاف عند الهدف الموحد المشترك سلامة الاعداد للنهوض بتبعات المستقبل للجيل الناشىء المرجو لغد من ابناء البلاد .

مجال تطبيق الصحة النفسية فى المدرسة

وظيفة المدرسة فى تكوين شخصية التلميذ :

ان المنزل دون شك هو المكان الاول الذى يعمل على تكوين شخصية الطفل وتوجيهها وجهة متكاملة ، الا أنه الى جانب المنزل توجد وحدات اجتماعية أخرى تقوم بدور هام فى هذا السبيل ، ومن بين هذه الوحدات « المدرسة » .

وقد كانت النظرة الى المدرسة من عهد قريب أنها مكان للدراسة وتلقين المعلومات وعرض المشكلات الخاصة بالمنهج والبحث عن أنجح الوسائل لنقل المواد الدراسية المختلفة من عقول المدرسين الى الأطفال ، تلك كانت وظيفة المدرسة التقليدية ، فرسالة المدرسة التقدمية ليست قاصرة على تعليم الطفل عن طريق تلقينه بعض المعلومات ، بل لها رسالة أخرى لا تقل أهمية عن الرسالة السابقة ، وهى العمل على تربية الطفل وتكوين شخصيته من جميع النواحى .

فالمدرس الناجح كما ذكرت لا يقصر همه على تزويد

التلميذ بالمعارف والمعلومات ، بل يعد نفسه مسئولا كل المسئولية عن أن يحقق لتلميذه القدرة على حسن التوافق الاجتماعي والانفعالي ، بالاضافة الى عنايته بجانب التحصيل الدراسي .

اهمية دراسة شخصية التلميذ :

دراسة الطفل اذن ، والوقوف على جوانب شخصيته المختلفة ، ينبغي أن يكون لها الاولوية على التعليم والتثقيف بصورتهما الرسمية التقليدية ، على أن هناك من المدرسين من يؤمن بهذا ايمانا ظاهريا دون أن يأخذ بالاسباب العلمية المؤدية الى تنفيذ هذه العقيدة وتحقيقها ، وهم لا يترددون أن يختزلوا من الاوقات المخصصة للتدريب، جانبا يخصصونه لدراسة حاجات التلاميذ البدنية والنفسية والاجتماعية .

ولكن الحقيقة أن ما ينفقه المدرس في الوقوف على نفسية تلاميذه ، وفي مساعدتهم على أن يحسنوا التوافق مع بيئتهم المادية والاجتماعية لا يذهب هباء بل ان المدرس حين يعين تلاميذه وتلميذاته على أن يقوموا بحل مشكلاتهم الشخصية انما يعينهم في نفس الوقت على أن يحرزوا قدرا أكبر من النجاح والتوفيق في تعلم المواد الدراسية « بجهد أقل » .

ولعل من الحقائق الثابتة التي لا تحتاج الى مطلع تأكيد ، أن كل نوع من انواع سوء التوفيق يصاب به الطفل في مطلع حياته ، لابد أن يستفحل أمره ويعظم

خطره فى مستقبل حياته . كما أنه لا مراء فى أن الهدف الاول للمدرس هو أن يخلق من تلاميذه مواطنين صالحين بالا تشوبهم شائبة من سوء التوافق أيا كان نوعه .

أهمية دراسة المدرس لمظاهر الاضطرابات النفسية :

ان المدرس الذى يشعر بمسئوليته ، فانه يجعل همه دراسة الاضطرابات الانفعالية المختلفة ومعرفة مظاهرها وأعراضها المتعددة حتى يمكنه أن يكشف هذه الاعراض وهى لاتزال فى بداية الظهور .

ومعلوم أن أكثر مدارسنا المصرية لا يتيسر لها أن تبعث بالمشكلين من تلاميذها الى عيادة نفسية يجد فيها التلميذ من المتخصصين « طبيب نفسى ، واخصائى اجتماعى واخصائى نفسى » من يعينه على الخلاص من مشكلته ، وذلك لقلة عدد هذه العيادات فى ج٠م٠ع ومن هنا يتبين فداحة المسئولية الملقاة على عاتق المدرس المصرى الذى نعتقد نحن أنه لابد له من أن يتزود بقدر ولو ضئيل من المعرفة بالصحة النفسية خصوصا اذا تذكرنا أن مجتمعنا فى أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الراهنة يعمل على ظهور كثير من مشكلات النشء النفسية ، وأن أبناءنا الذين لا يجدون فى أسرتهم من يحسن فهمهم ، ولا من يحسن معاملتهم ، لن تتوفر لهم حسن المعاملة وحسن الفهم ومعالجة مشكلاتهم الا من جانب المدرس المستنير .

كيف يمكن تطبيق الصحة النفسية فى المدرسة :

للصحة النفسية مجالات متعددة فى دور المعلم ، تتضمن المدرسة وفلسفتها وادارتها ومناهجها ومدرسيها ، والعلاقات الانسانية بها . كما تتضمن توجيه الآباء وارشادهم والعناية بالاطفال المشكلين .. الخ .

وفيما يلى أوضح ارتباط كل من هذه الميادين المختلفة لموضوع الصحة النفسية فى المدرسة .

اولا : اكتساب التلاميذ الاتجاهات والعادات الصحية:

للمدرسة وظيفة هامة ، هى العمل على تكوين اتجاهات مرغوب فيها دائمة وهذه الاتجاهات عندما تتكون تصبح دوافع تساعد على بناء شخصيات التلاميذ .

ومن أهم الاتجاهات التى يجب على المدرسة اكسابها للتلاميذ ما يلى :

ا ــ اتجاهات نحو المدرسة .

ب ــ اتجاهات نحو العمل .

ج ــ اتجاهات نحو قضاء وقت الفراغ « اللعب والتسلية » .

د ــ اتجاهات نحو الاشخاص .

ا ــ اتجاهات نحو المدرسة :

يشعر الطفل الصغير قبل التحاقه بالمدرسة بالتشويق

الزائد اليها والطفل عادة يحلم بهذا اليوم الذى يدخل فيه المدرسة ، وحتى لا ينطفىء هذا الشوق يجب أن تعمل المدرسة من جانبها على أن يكون التلميذ مواظبا نحو مدرسته . هذا عامل مهم يساعد التلميذ على حسن الملائمة والتكيف مع ظروف الحياة العادية ، فيشعر بالكفاية والسعادة .

ويمكن تحقيق ذلك بالوسائل الآتية :

١ ــ أن تكون معاملة المشرفين على تربية الطفل فيها حنان وعطف ، فالرهبة والتهديد يؤديان الى شعور التلميذ بعدم الامن الداخلى ذلك أن الحاجة الى الحنو وثيقة الاتصال بالحاجة الى الانتماء وتشبع هذه الحاجة عندما يكون للتلميذ مكانة فى مجموعة من الاصدقاء والرفاق واشباع هاتين الحاجتين مجتمعتين ، يمكن أن يعد اساسا للشعور بالامن . ان التلميذ الآمن يشعر بالرضى والهدوء يحب الناس ويأنس لهم ، ويريد لهم الخير .

وجملة القول أنه يتصرف بطريقة طبيعية تلقائية وتستطيع أن تتعاون هذه الصورة بصورة التلميذ غير الآمن يبدو لنا كأنه فى البحر أو الطائرة فهو فى فزع وقلق يخاف فى كل وقت أن تقع به كارثة والطفل غير الآمن يتعذر عليه بسبب هذه المشاعر أن يكون عواطف نحو مدرسته .

٢ ــ ومن الامور التى لا تجعل التلميذ يكون اتجاهات طيبة نحو مدرسته كثرة القوانين واللوائح والنظم

المدرسية وهنا يجدر بالمدرسة أن تفهم التلاميذ أن هذه القوانين موضوعة لحماية التلميذ وحماية زملائه ولاشك أن هذه بداية لأن تكون فى التلاميذ مستقبلا واتجاهات صحيحة نحو أمتهم وحكومتهم .

٣ – واحب أن أشير كذلك الى انه يمكن أن تتكون الاتجاهات الطيبة نحو المدرسة عن طريق المظهر العام لمبانى المدرسة وتنسيق الملاعب وملبس المدرسين ، وكذلك عن طريق الزينات واللوحات التى توضع فى المدرسة .

ب – اتجاهات نحو العمل :

من المبادىء المسلم بها تكوين ميل التلميذ نحو العمل الذى يقوم به أن يجعله يشعر بالنجاح ، وهو يقوم بذلك العمل ، ولعلنا نذكر بهذه المناسبة قانون الاثر « ثورنديك » وهو أحد قوانين التعليم .

يقول ثورنديك : ان النجاح فى تأدية عمل من الاعمال يجعل المتعلم يشعر بالراحة والطمأنينة والارتياح بينما الفشل يشعر الفرد بالضيق والتبرم من تأدية العمل وتطبيقا لهذا المبدأ التربوى – يجب أن تعطى المدرسة للتلميذ الفرصة لاشباع الحاجة الى النجاح ، فالطفل يميل الى النجاح ويتطلع له ، والنجاح هو الذى يجعله يثق بنفسه ويشعر بالامن ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه .

تجنب وضع التلميذ فى عمل يتكرر شعوره فيـــه بالفشل :

وبناء على ذلك لا يجوز وضع التلميذ فى مجال يتـكرر شعوره بالفشل ، يفشل محاولاته فيه ولا يجوز أن نحفز التلميذ للوصول الى مستوى بعيد منه بحيث يتكرر فشله فى محاولة الوصول الى هذا المستوى .

التأثير النفسى للنجاح فى العمل :

ان اشباع الرغبة للنجاح يجعله يشعر بالكفاية ،ومعنى الشعور بالكفاية هو أن المرء يعتبر نفسه جديرا بالاحترام فهو يثق فى نفسه ويقدر نفسه وعكس هذه الحـــالة يسمى الشعور بالنقص أو عدم الكفاية ، وهو عـــدم الشعور بالقيمة الشخصية أو انحطاط تقدير الذات ، فالفشل الطويل أو المتكرر قد يدمر تقدير المرء لذاته حتى يعد نفسه غير جدير بالحب والتقدير ، غير أن التلميذ الذى يشعر بالكفاية بسبب ماتحقق له من نجاح وتقدير ، يكون عواطف قوية نحو مدرسته ، من جهة ، كما أن هذا الاتجاه يساعد على بناء شخصيته فى مستقبل حيـاته من جهة أخرى .

نواحى النجاح المختلفة :

وأحب أن أشير الى أن النجاح لاجل أن يكون وسيلة

فعالة فى بناء شخصية التلاميذ يجب ألا يقتصر على المواد المدرسية والتحصيل المدرسى والنجاح فى الامتحانات بل يجب أن يمتد الى النواحى الآتية : —

١ — الالعاب الرياضية .

٢ — العلاقات الاجتماعية « الشهرة — تكوين صداقات »

٣ — القيادة والزعامة .

٤ — ابراز المواهب فى الهوايات .

٥ — النشاط الخارج عن المنهج مثل : المناظرات ، المحاضرات ، التمثيل .

٦ — المظهر العام والنظافة .

٧ — المواظبة على الحضور الى المدرسة .

تلك هى النظرة التى يجب أن يوجهها المسئولون فى تعليم النشىء أن تخلق للتلميذ أكثر من مجال ليتيسر له أمر اشباع الحاجة الى النجاح ويجب الا يخفى علينا المبدأ النفسى الذى يقول أن النجاح يؤدى الى النجاح .

ج — اتجاهات نحو اللعب والتسلية :

ان الطفل فى حاجة الى التغيير فى حياته اليومية المدرسية وهو فى حاجة الى أن يعفى من العمل العقلى المجهد ويشترك فى أوجه مختلفة من النشاط تجلب الى نفسه الراحة والى عقله نوعا من الراحة الذهنية .

ولذلك وجب على المدرسة أن تكثر من فترات الراحة على الا تكون هذه الفترات قصيرة بشكل لا يحقق الغرض السابق أو طويلة فتسبب تعب التلاميذ ويحسن أن تكون

هذه الفترات مجالا لان يلعب التلاميذ فيها لعبا منظما صحيحا .

تجنب حرمان التلاميذ من فترات الراحة :

ومن الخطأ ان نحرم التلاميذ من اللعب والتسلية فى فترات الراحة كعقاب لهم بسبب فشلهم فى عملهم المدرسى لان هذا الاسلوب من اساليب العقاب قد يؤدى بالطفل الى كراهية العمل نفسه طالما أن العمل وفشله فيه هو الذى حرمه من المتع التى يحصل عليها فى فترات الراحة .

تكوين اتجاهات صالحة نحو العمل واللعب :

ان من واجب المدرسة ان تكون فى التلاميذ اتجاهات مرغوبة نحو العمل وأخرى نحو اللعب والتسلية ، من واجب المدرسة أن تفهم الطفل أن العمل واللعب مظهران هامان من نشاط التلميذ ولكل منهما وقته ومجاله ، وأن الشخص لاينجح فى الحياة دون أن يكون اتجاهات صالحة نحو العمل واللعب .

د ـ اتجاهات نحو الناس « الاشخاص » :

الطفل قبل التحاقه بالمدرسة « قبل ٦ سنوات » يكون أنانيا محبا لذاته ، أصدقاؤه محدودون ودائرته الاجتماعية محدودة وعلاقته بالكبار لا تتعدى والديه . وعند التحاقه بالمدرسة يتغير الحال فنجد الطفل العادى يميل الى ان يوسع محيطه الاجتماعى ونجده يغتبط من وجوده مع رفاق جدد له لم يرهم من قبل . الا أنه يحدث فى بعض

الظروف نتيجة لخبرات الطفل فى سن ماقبل المدرسة أن يشعر عند التحاقه بالمدرسة بالخوف والتردد فى تكوين علاقات اجتماعية .

تكوين اتجاهات نحو التعاون والكرم واحترام القيم الاخلاقية :

ان واجب المدرسة الابتدائية ، أن تعمل على تكوين اتجاهات نحو التعاون والكرم والشفقة واحترام ملكية الغير والمحافظة على هذه القيم والشعور بالامن وسط الجماعة ولا تستطيع المدرسة تكوين هذه الاتجاهات اذا كان المشرفون على تربية التلاميذ يعاملونهم معاملة خالية من العطف والتسامح أو معاملة قائمة على السخرية والتحقير أو أنهم لا يقومون من جانبهم بمشاركة التلاميذ مشاركة وجدانية عندما يكونون فى مأزق أو عندما تلم بهم نازلة . كذلك محاباة المدرسين أو المشرفين على المدرسة لفئة من التلاميذ دون غيرهم من شأنها ألا تساعد على تكوين اتجاهات اجتماعية سليمة بين التلاميذ .

فواجب المدرسة أن تعمل على أن يشعر كل تلميذ فيها بأنه يعامل فيها معاملة ود وانصاف لان هذا الاسلوب الذى يعامل به ، يوحى اليه انه الاسلوب الذى يجب أن يتبعه فى معاملة غيره .

تشجيع البنات والبنين على اللعب سويا :

وفى حالة المدارس المشتركة فى بيئتنا ليس من الصعب تشجيع البنات والبنين على اللعب سويا والعمل فى

المشروعات سويا لا فـرق فى ذلك مطلقـا وفى رأيى أن الاختلاط المبكر يساعد على تكوين علاقات حسـنة نحو الجنس ، كما يؤدى الى تغيير فكرة الرجل نحو المرأة .

ثانيا : توجيه وارشاد الاباء :

كلما كانت العلاقة بين الاباء والابناء سوية ساعد ذلك على بناء شخصيتهم وتمتعهم بصحة نفسية جيدة ، ومما لا شك فيه أنه عندما يصبح الوالدان أكثر توافقا وتكيفا واقل انفعالية فان الطفل ذاته يظهر تحسنا وتختفى مظاهر السلوك غير المرغوب فيه وتختفى حدة التوترات النفسية التى يتعرض لها .

وهكذا نرى أن من واجب السـلطة التعليمية بما فى ذلك المدرسة أن تعمل على تغيير اتجاهات الوالدين نحو الابناء وذلك عن طريق ارشاد الآباء وتوجيههم .

ان عملية الارشاد النفسى للاباء ، تهدف الى تزويدهم بالوسائل البنائية النافعة فى تنشئة الطفل تنشئة نفسية سليمة ، والى تجنبهم الخبرات السـيئة فى التنشئة ومدى استفادة الاب من عملية الارشاد النفسى والتربوى فى المدرسة تتوقف على مدى اصابة الاب بسوء التكيف الى درجة كبيرة بسبب مايعانيه من اتجاهات عصبية .

ومن وسائل ارشاد الآباء وتوجيههم فى المدرسة مايلى:

١ ـ القاء محاضرات فى علم نفس الطفل وفي كيفية رعاية الاطفال وتوفير الصحة النفسية لهم .

٢ ــ طبع مطبوعات عديدة تتناول ارشاد الآباء في معاملة الابناء .

٣ ــ استعمال الراديو كوسيلة لتوجيه الآباء .

٤ ــ عقد المؤتمرات المدرسية وتنظيم الندوات التى يشترك فيها الآباء والمدرسون والمتخصصون من خارج المدرسة .

٥ ــ تنظيم مجالس الاباء بالمدرسة والاهتمام بها .

٦ ــ السماح للاباء بالاشتراك في أوجه النشـــاط المدرسي المختلفة وفي حضور بعض المدرسين ليقفوا على الطريقة المثلى في معاملة الابناء .

٧ ــ بالاضافة الى ذلك هناك الارشاد الفردى للاباء وهو يساعدهم على حل مشكلاتهم الشخصية فهـــذه الجلسات الفردية تعين الآباء الذين يعانون من صعوبات بسيطة في التكييف ، فقد ثبت بالتجربة أن هؤلاء الآباء لا يستفيدون من الارشاد النفسي مالم تحل صراعاتهـم ومشكلاتهم الانفعالية .

العوامل التى تحقق الصحة النفسية والتقدم الدراسى

هناك عوامل كثيرة تســـــاعد على تحقيق الصحة النفسية للتلاميذ ، الامر الذى يؤدى الى التقـــــدم فى التحصيل الدراسى والنهوض بمستواهم علميا داخــــل الفصل وخارجه .

١ ـ الحوافز :

تساعد على تشجيع الأطفال على الانتاج والاجتهـــاد كمنحهم شارات التفوق أو الجوائز الادبية بشــــهادات التقدير والامتياز أو الحوافز المادية كأقلام الحبر والكتب المكافآت المالية وعلب الحلوى .

ويكون لهذه الجوائز التأثير النفسى الطيب فى نفوس المتفوقين وفى نفوس الآخرين لو منح المتفوقون هـــذه الجوائز مع كلمات تقدير وتشجيع فى الاذاعة المدرســية على مرأى ومسمع من زملائهم حتى يكون هذا الوضع حافزا للجميع على الاجتهاد والتفوق سعيا وراء الحصول على هذا المركز الادبى المشرف .

وكذلك مما يساعد على تشجيعهم منحهم الجوائز فى أعياد العلم وفى الحفلات المدرسية بأيدى عظماء الحاضرين من رؤساء أو مديرين أو محافظين .

فتشجيع الصغار فى عيد العلم الكبير على مستوى الجمهورية بحضور رئيس الدولة وكبار الشخصيات بها شيء يستحيل تصوير آثار فرحته فى نفوس الصغار المتفوقين الذين قد ينبت من بينهم الزعماء والعلماء والمخترعون وكبار المناضلين فى سبيل العلم والانسانية من أجل اسعاد البشرية .

٢ ـ الوسائل التعليمية :

ومن أهم الوسائل التعليمية التى تستخدم كأدوات للايضاح فى أثناء القيام بالتعليم للاطفال جذبا لانتباههم واثارة لشوقهم وعلاجا للفظية التعليم وتكوينا محسوسا للمعانى تيسيرا لفهمها فى المرحلة الابتدائية .

ـ اللوحات التعليمية والرحلات والعينات والنماذج والمصورات والخرائط والتمثيليات ومسرح العرائس والفانوس السحرى والافلام الثابتة والسينما والتليفزيون والاذاعة والتسجيلات الصوتية والمعارض والمتاحف ، ولابد فى استخدام هذه الوسائل من وضوح الغرض منها فى ذهن المعلم فلا يكتفى بعرضها فقط بل لابد من شرحها والتعليق عليها ، كما يجب أن تكون بسيطة وواضحة حتى يسهل استخدامها والافادة منها ، على أن ينظر المدرس الى أن الغرض من استعمالها هو الوصول الى

التعليم بأسهل الطرق ، بصرف النظر عن غرض الترفيه أو التسلية حتى لا يعم الهرج بين التلاميذ خلال استعمالها فتضيع عليهم الفائدة المرجوة من ورائها .

٣ ـ الرحلات :

الرحلات نوع من أنواع النشاط الحر الجميل الذى يتيح للتلاميذ مع الاجواء الترويحية المرحة ، كثيرا من القيم التربوية التى تساعدهم على الخروج من نطاق الاعتماد على الكتب الدراسية داخل الفصل ، الى نطاق الاعتماد على النفس فى كسب المعلومات عن طريق الخبرة المباشرة ، كما أن الرحلات تساعد على تكوين علاقات اجتماعية سليمة وعلى كسب كثير من الاتجاهات والعادات السلوكية المحمودة .

أهداف الرحلات :

١ ـ عن طريق الرحلات يستطيع التلاميذ أن يتعرفوا على الاشياء فى أمكنتها كما فى الرحلات الخاصة بالآثار مثل الاهرام ودور الآثار المختلفة ، وكما فى الرحلات الخاصة بالمتاحف مثل المتحف الزراعى والمتحف الصحى والرحلات الخاصة بالحدائق وما تحتويه من مناظر الطبيعة الخلابة ، ومن المخلوقات الكثيرة المتنوعة التى تدل على قدرة الخالق جل جلاله كما فى حدائق الحيوانات ، وحدائق القناطر الخيرية الحافلة بكل أنواع الاشجار والزهور .

٢ ـ للتعرف على مظاهر النشاط الوطنى المختلف المتعدد . كالمؤسسات والمصانع كمصانع الزجاج ومصانع النسيج فى المحلة الكبرى والرحلة الى مديرية التحرير من اكثر الرحلات افادة للتلاميذ ، بمنحهم المعلومات عن التوسع الزراعى الافقى عبر الصحراء الغربية حيث تظهر المجهودات الرائعة البناءة فى صرح وطننا الشامخ المجيد أو للتعرف على بعض المنشآت الحكومية والالمام بما تؤديه للمواطنين من خدمات كزيارة محطة السكة الحديد أو مكتب البريد .

٣ ـ فوائد الرحلات : الرحلات تتيح للتلاميذ فرص التعرف على الأشياء ومظاهر النشاط المختلفة فى جو طبيعى خال من التكلف والافتعال ، وحافل بشتى ضروب المرح والابتهاج وهذا يحقق للاطفال التعليم عن طريق الخبرة المباشرة والممارسة الفعلية التى تجعل معنى التعليم يمتد الى تعديل السلوك وترقية التربية ، فيمنح الطفل التكامل نفسيا ووجدانيا واجتماعيا وصحيا وخلقيا فضلا عن الارتفاع بمستوى التحصيل العلمى .

٤ ـ معسكرات اليوم الكامل : وتقوم هذه المعسكرات على أساس اشتراك تلاميذ من عدة مدارس وتحملهم مسئولية العمل فى المعسكر وخدمة انفسهم طول اليوم الكامل ، فيشتركون فى اعداد المكان واعداد وجبة الطعام ووضع برنامج نشاط اليوم ثم تنفيذه ، تحت اشراف بعض المعلمين ولجنة دائمة للاشراف على المعسكر .

فوائد المعسكرات : تتهيأ للاطفال فرصة العمل التعاونى المنظم لخدمة الجماعة فيساعد هذا على تكامل

شخصيتهم الاجتماعية ويكسبهم القدرة على تحمل المسئوليات والاعتماد على النفس والثقة بها وقوة التحمل مع الصبر والمثابرة والمحافظة على النظم والقوانين ، كل ذلك الى جانب ما يتيحه لهم المعسكر من قضاء أوقات سعيدة فى المرح واللعب مع مايكتسبونه من علاقات ودية مع تلاميذ المدارس الاخرى ومايقومون به من جولات اكتشافية وندوات ثقافية ومباريات رياضية ، ومايجدونه من الفرص السانحة لممارسة الهوايات الخاصة بهم كالرسم والاشغال والتمثيل والغناء والعاب الورق والشطرنج .

٥ ـ الحفلات المدرسية : ليست هدفا فى حد ذاته وانما هى مثل المعارض وسيلة لاظهار نشاط التلاميذ واشعارهم بمقدرتهم على النجاح ومواجهة الآخرين واكتساب اعجابهم ، بجانب ماتتيحه للاطفال من فرص لاكتساب المهارات المنوعة والخبرات المختلفة والاتجاهات الاجتماعية السليمة كالتعاون وتحمل المسئوليات والنظام .

ومما يعطى الحفل قيمة تربوية أن يشترك التلاميذ اشتراكا فعليا فى أعداد الملابس وتجهيز المكان وتحضير بطاقات الدعوة واستقبال الضيوف وتنظيم جلوسهم .

والحفلات المدرسية من الوسائل التى تستطيع المدرسة ان تستعين بها على نشر الوعى الصحى والاجتماعى والوطنى والدينى وغير ذلك من شتى الميادين بين التلاميذ وأولياء الامور وأهالى البيئة التى توجد المدرسة فيها . بما تقدمه فى حفلاتها من برامج تتضمن اتجاهات اجتماعية وقومية وصحية واقتصادية خلاف ما تقدم من برامج ترفيهية مسلية .

المدرس والصحة النفسية للتلاميذ

اذا كان للمدرسة الاثر الكبير فى دعم أو تقويض الصحة النفسية لتلاميذها فما هو دور المدرس فيما يمكن أن يقوم به لتدعيم الصحية النفسية للتلاميذ ؟

المدرس أهم شخصية فى حياة التلميذ :

ماس حاجة الى التأكيد بأن المدرس أهم شخصية فى حياة التلميذ بعد أبويه وترجع هذه الاهمية الى مايترك فى نفوس تلاميذه من أثر يبلغ الحد الذى يمكن معه أن يقال أنه لا يمكن أن يكون سلبيا فقط . وحتى لو ظل المدرس فى بعض المواقف ساكتا لا يقوم فى الظاهر بعمل شىء فانه من الوجهة السيكولوجية فى الواقع يكون قد فعل شيئا .

المدرس سلطة قوية الاثر فى نفوس الصغار :

المدرس اذن سلطة قوية الاثر فى نفوس الصغار وقد يقف هذا الاثر عند حد هذه العلاقة المباشرة بينه وبين

تلاميذه أو قد يمتد لحين قصير أو طويل ولمدى سطحى أو عميق وبطريقة شعورية أو لا شعورية ، فى حياتهم .

وللمدرس عدة أدوار يمكن أن يقوم بها ، بل الواقع أنه لا حصر للادوار التى يمكنه القيام بها ، فهو أولا وقبل كل شىء يقوم بدور الاب ، ثم يقوم بدور المشرف ، ودور الرئيس ، ودور الخبير ، ودور العالم ، ودور الصديق والموجه والمعالج .

وتختلف أهمية الدور الذى يقوم به المدرس فى نفوس تلاميذه وفقا لشخصيته من ناحية ولسن التلاميذ الذين يشرف عليهم من ناحية أخرى .

وأيا كان الدور الذى يقوم به المدرس ، فان مهمته الاولى معاونة التلاميذ على تحقيق النضج الانفعالى الى اكبر قدر مستطاع .

والنضج الانفعالى يتضمن :

١ ـ نقل التركيز من الذات الى خارجها ونقل النشاط من الاعتماد الى الاستقلال .

٢ ـ النضج الانفعالى يقتضى حدوث تغيرات كثيرة وعميقة فى الحياة الداخلية للفرد ينعكس أثرها فى شعوره بالرضى والسعادة وفى مقابلته الفشل دون انهيار مع السعى من جديد .

٣ ـ وفى الانتقال من الحياة على مستوى « مبدأ اللذة » الذى يدفع الى التحقيق الكامل للرغبات ، الى الحياة على مستوى « مبدأ الواقع » الذى يقتضى التكيف فى تحقيق الرغبات وفقا لمقتضيات الحال .

٤ ـ وفى اختيـــار الرضى من النهوض بالتبعـــات والالتزامات وان أثارت فى نفسه بعض الضيق .

٥ ـ وفى الاقبال على الحياة بحمـــاس والنظـر الى مشكلاتها من خلال التفاؤل والامل .

٦ ـ وبالايجاز فى كل مايعين الفرد على الحياة بانسجام مع نفسه ومع الغير فى حدود القدرات والامكانيات المناسبة لسنه .

تأثير قصور النضج الانفعالى :

واذا كان النضج الانفعالى من العوامل الاساسية للنجاح فى الحياة بوجه عام وكانت وظيفة المدرسة اعداد تلاميذها لهذا النجاح ، كانت مهمتها أى مهمة المدرس فى تحقيق هذا النضج فى مقدمة المهام التى ينبغى أن تعنى عمليـــة التربية بها اليوم .

بغير النضج الانفعالى لايستطيع الانسان تناول مشكلات الحياة تناولا متزنا بل ان الانسان غير الناضج انفعاليـــا قد يخلق من المشكلات ماقد يكون قد سبق الى حلها عن طريق التفكير المنطقى . هذا الى أن قصور النضج الانفعالى يجعل الانسان متخلفا أيضا فيما كان مستطيعا تحقيقـــه ذهنيا ، وينقص مالديه من محفزات للتعـــلم ، ذلك أن الانسان غير الناضج انفعاليا يخشى من الوجهة الانفعالية التغيير ، ويعنيه الاحتفـاظ بالوضع الراهن لان التعليم ينطوى دائما على قدر ما من التغيير .

العوامل التى تعوق المدرس فى دعم الصحة النفسية للتلاميذ :

ان المدرس لفى مركز لا يبارى لاستخدام مايعرفه عن حاجات الاطفال الذين يعمل معهم واهتماماتهم فى دعم صحتهم النفسية ، بيد أن هناك من العوامل التى قد تحول دون استخدام المدرس لما لديه من مثل هذه الفرص الفريدة :

أولا : شخصية المدرس :

ان شخصية المدرس نفسه الذى قد يكون مثقلا بأعباء انفعالية لا قبل له بها ، فيسقط صراعاته بهذا الصدد على التلاميذ ويخلق بذلك من المشكلات ماقد يكون له اثر مؤذ فى نفوسهم وأن هناك الكثير من الحالات التى تحول للعلاج الطبى النفسى كان السبب المباشر فيهما « مدرس أو مدرسة » دفعه عدم نضجه الانفعالى الى اسقاط صراعاته الانفعالية على الطفل .

ومما ينبغى ذكره بهذه المناسبة أن هذا العامل لم يلق ماهو خليق به من الاهتمام فى معظم البلاد . فقلما يوجد منها مايحاول اختبار الصلاحية الشخصية للمتقدمين للعمل فى ميدان التدريس . وأيا كان السبب فى ذلك فان ضرورة الرعاية الصحية النفسية للتلاميذ تحتم استبعاد من لايصلحون للعمل فى هذا الميدان ولا بأس فى هذا السبيل من استخدام كل الوسائل التى تكشف عن مقدار النضج

لدى المتقدمين ، بما فى ذلك الاختبارات الموضوعية للقياس وفترة تجربة يمر بها جميع الطلاب خلال المرحلة المبكرة من اعدادهم للتدريس .

ثانيا : نقص مناهج اعداد المعلمين :

وهذا النقص يكاد تلتقى عنده البلاد جميعا مع قدر يسير من التفاوت بين البلد والاخر ، ذلك انه على الرغم من احتواء هذه المناهج على سيكولوجية الطفولة وتكوين الشخصية وما الى ذلك فانه لا يكاد يوجد فيها شىء ذا قيمة مما يمكن أن يساعد المدرس على الاستبصار بسلوك تلاميذه وعلى فهم دلالة هذا السلوك ، وعلى تنبيه الاهتمام او القدرة لديه للنظر الى السلوك لا من حيث مظاهره وحسب بل من حيث العوامل المسببة له والمؤدية اليه أيضا ، ثم أخيرا على تنمية الايمان بأن أهداف التربية مع التسليم بالفوارق الفردية فى مستويات القدرة وفى البيئة الاجتماعية للتلاميذ تظل دائما الجمع بين المعرفة وبين المساهمة النشطة والتعبير الايجابى فى كل متكامل .

لذلك ينبغى أن يعاد النظر فى مراجعة مناهج الاعداد للمعلمين على نحو يكفل لهذه المناهج أن تصبح عنصرا فعالا فى معاونة المعلم على فهم دوافع السلوك ومشكلاته ، وعلى معالجة الانحرافات الصغيرة وهى فى مستهلها . فان الغالبية الكبرى من مشكلات هذه المرحلة يمكن أن يخضع للتوجيه المستنير وليس اقدر من المعلم الذى أحسن اعداده على القيام بهذا التوجيه .

ثالثا : موقف المدرس فى الفصل واتجاهه من التلاميذ :

هذا الموقف سيتأثر حتما والى حد كبير بالفلسفة التربوية التى يعتنقها وبتكوين شخصيته وبالجو الانفعالى الذى يسود المدرسة بوجه عام . وهذا كله قد ينحو بالمدرس منهج السيادة التى تؤكد المجازاه وتنبه العدوان، أو منهج التعاون الموجه الذى يؤكد التسامح والعمل التعاونى وما من شك فى أن اثر كل من هذين الاتجاهين فى عملية التعليم وفى الصحة النفسية للتلاميذ أوضح من ان يحتاج الى مزيد من التعقيب .

طريقة تناول المدرس النشاط داخل الفصل :

هى فى ذاتها فرصة عظيمة القيمة لتحقيق الاهداف التربوية والصحة النفسية للتلاميذ ، فمثلا :

١ ـ يستطيع المدرس أن يعهد للتلاميذ بترتيب المقاعد او القيام باى عمل آخر داخل الفصل .

٢ ـ او بوضع برنامج بنشاط اليوم فى الصباح ثم مراجعة ماتم من نشاط اثناء اليوم بمعرفة ماتحقق من هذا البرنامج فعلا ، على أن يشمل هذا البرنامج من الموضوعات مايشغل التلاميذ ويعنيهم ، أو مايكون ذا صلة للاحداث القومية أو الاجتماعية الهامة .

٣ ـ كما يستطيع المدرس اتاحة الفرصة للتلاميذ لوضع معاييرهم الخاصة بالقيم ولاشعار كل منهم بالقبول مع احتفاظه بفرديته وبتماسكه عند الفشل ، وبالافادة من الفشل وهنا سوف يكون لشخصية المدرس أثر جوهري في نجاح مهمته بهذا الصدد ، اذ أن عليه وحده

أن يقرر مدى الحرية اللازمة لفصله مع مراعاة الفـروق الفردية بين تلاميذ الفصل .

مشكلات المدرس :

المدرس له مشكلات عادة تلقى بأثرها على التلميـــذ ، مشكلات متعلقة بالتربية الاولى ، فيجد فى الصغار مجالا سهلا للانتقام يظهر فى الضرب وتقييد الحـركة والارهاق والتشـدد فى الامتحانات وغير ذلك .

كراهية المدرس لمهنة التدريس :

وقد يكون المدرس كارها لمهنة التدريس على الرغم من ممارسته لها بسبب اخفاقه فيها وبسبب خطــــورة مسئولياتها وكثرة صعوباتها وعدم تقديره درجة قصوره فيها عند بدئه ممارستها ، وقد تظهر كراهيته للمهنة ضد الاطفال أنفسهم ، أو تظهر فى مشكلة حساسية شديدة فى العمل وقد يفقد اتزانه تماما اثناء قيامه بعمله بحيله من الحيل اللاشعورية .

تاثير ظروف المدرس فى علاقته بالتلاميذ :

هناك ظروف حاضرة تؤثر فى علاقة المدرس بتلاميذه عن طريق مايسمى « بالتحويل » أو « الاســقاط » أو غيرهما . وقد يكون هذا قلة المرتب والغبن وضــغط الامتحانات والمفتشين ... الخ وقد يكون هذا أيضــا

مايحدث فى نفسه من صراع بين أصول التربية الحديثة التى تعلمها أثناء اعداده والتربية المألوفة الشائعة التى يضطر لاتباعها دون الموافقة على شيء منها .

وقد تكون من هذه المشكلات الاسرة أو العلاقات الزوجية والمشكلات الاقتصادية وغير ذلك . ومن ثم يأتى المدرس محمل بهذه المشكلات ، بعضها أو كلها ، فيقف امام نفر من الاطفال كل له بيئته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية .. كل له تاريخه ومشكلاته ... ويكلف حين ذاك أن يظهر بأحسن خلق ممكن أن يكون لتلميذه مهما صدر منه ، فى مقام المرشد والاخ الاكبر .

مشكلات التلميذ :

التلميذ حين يأتى الى المدرسة كارها لابيه مثلا بسبب قسوته عليه ، يتخذ فى المدرسة متنفسا لا يستطيع أن يجده فى المنزل . وقد تنتقل الكراهية الناشئة من قسوة الاب الى المدرس ، بحكم مابين المعلم والوالد من أوجه الشبه فى عقل الطفل ، وربما قام التلميذ بالثورة على المعلم ومعاكسته والاخلال بالنظام مدة طويلة . وينبغى الا يقابل المدرس سلوك التلميذ بما يزيد من هذه الكراهية نحوه وانما ينبغى دائما أن يقابله بما يخففها بالتدريج .

المدرس واتجاهه نحو مشكلات التلميذ :

يحدث أحيانا أن تكون لدى الطفل مشكلات حديثة العهد ، كشجار عائلى بين امه وأبيه او مرض احد والديه

أو تدهور اقتصادى ، أو سوء علاقة بينه وبين أبيه ، أو تأخر فى الصحة أو غير ذلك .

فاذا ظهرت فى هذه الاحداث أمام المدرس وجب عليه أن يقابلها بالصبر والاناة والتفهم وحسن التوجيه .

مما سبق نرى أن جزءا كبيرا من علاقة المدرس والتلميذ يرجع الى عوامل خارجة عن ارادة كل منهما ، فذلك لان المدرس والتلميذ طرفان يتقابلان ، وكل منهما محملا بأثر الماضى والحاضر وبنوع نظرته للمستقبل ، يتقابل هذان الطرفان المعقدان . ويطلب منهما أن يكيف كل منهما نفسه للآخر تكيفا يكون فى العادة محدودا ومرسوما من قبل . تحدث المحاولة للتكيف فى ظروف قد تكون أحيانا ملائمة ، وأحيانا غير ملائمة لنجاح التكيف المطلوب .

الصورة التى يجب أن يكون عليها المعلم :

١ ـ المدرس فى ميدان التعليم قائد لاطفاله : بحكم خبرته ، ورجاحة تفكيره ، بحكم جهوده معهم فى مجتمع واحد ، فيصبح هو المتبوع ويصبحون هم التابعين .

وفى هذه الحالة ينبغى أن تكون علاقة المدرس بتلاميذه اما علاقة من يأمر فيطاع ، واما علاقة الاخ الاكبر بأخوته الصغار . .

أما العلاقة الاولى وهى علاقة من يأمر فيطاع فهى ان دامت فلفترة قصيرة ، أما الحالة الثانية وهى التى تكون فيها علاقة المدرس بتلاميذه كعلاقة الاخ الاكبر بأخوته الصغار فيهيىء لهم الجو ويعيش معهم فيه ، ويشترك

معهم فى كل نواحى نشاطهم وبذلك ينبغى أن يكون المعلم اقل صرامة منه فى الحالة الاولى ، كما يكون اقدر على مشاركة الاطفال فى حياتهم .

المدرس ومظهر الوقار :

اغلب المدرسين يرون أن مظهر الوقار ضرورى لهم والا فقدوا سلطانه وساء النظام الضرورى لسير العمل ، الا ان الوقار هو مايغطى به الانسان نفسه حتى لا يكتشفه غيره واذا كان المدرس وقورا جدا فانه لايمكنه عادة النزول الى مستوى الاطفال ولا أن يندمج معهم لان الوقار المصطنع والطفولة لايندمجان بسهولة . والتخلص من غلاف الوقار يظهر المعلم طبيعيا مرحا مخلصا ولكن التكلف ينفر التلاميذ منه ويوحى اليهم بأنه يتصف بطابع التمويه والرياء . فاذا نجح العلم من التخلص من هذا الغلاف أوحى الى تلميذه بأنه يتخلق بالصراحة والاخلاص ويجعله يشعر بالاطمئنان اليه .

المدرس واتزان الشخصية :

يعتبر المدرس اخا أكبر للتلاميذ مكشوفا على طبيعته يسترشد به الاطفال ويطيعونه ويحبونه ، ويحيى معهم حياتهم ويبادلهم حبا بحب واحتراما باحترام ويشعرون بانه يعمل لصالحهم فى حماس واهتمام . ولكى يستطيع تحقيق ذلك ينبغى أن يكون هو نفسه متزنا ناجحا فى

شخصيته خاليا من عوامل القلق ، وعدم الطمأنينة مؤمنا برسالته معطيا اياها من ذات نفسه . ولكن ينبغى فى مقابل ذلك أن توفر له امكانيات العيش الكريم من ناحية ووسائل القيام بمهام عمله من ناحية أخرى .

المدرس والرعاية الصحية للتلاميذ :

حقيقة أن مهمة المدرس تلقين العلم لتلاميذه ولكنها ليست مقصورة على ذلك فحسب ، بل عليه ايضا أن يعلمهم المبادىء والاصول الصحية السليمة ، لا عن طريق حشر أذهانهم بمعلومات صحية بل بتدريبهم وملاحظتهم بعد ذلك لكى يتبعونها فى حياتهم الشخصية اليومية . وحتى تصبح عندهم فى حكم العادة يعملونها بغير تفكير ، ثم ينقلونها بدورهم الى اهلهم واصدقائهم فى بيوتهم ،وفى البيئة التى يعيشون فيها وبذلك يكون المدرس قد وجه رسالته نحو رفع المستوى الصحى للمجتمع لنشر التعاليم والمبادىء الصحية بين أفراده .

المدرس واكتشاف الحالات المرضية :

وبحكم أن المدرس على اتصال مباشر بتلاميذه يوميا اثناء العام الدراسى فيمكنه أن يكتشف كل ما يطرأ على صحتهم من تغير بمجرد حدوثه وأن يكشف الكثير من العلل والأمراض والعيوب الجسمية والنفسية والعصبية فى وقت مبكر قبل أن يستفحل ضررها .

فاذا لاحظ المدرس ان المستوى العلمى للتلميذ قد

تأخر بعد أن كان متقدما على أقرانه فى الفصل ، أو أنه غير متيقظ للدرس دون سبب ظاهر قد يكشف ذلك عن أسباب مرضية مثل اصابته بالامراض الطفيلية أو الانيميا الغذائية وفقر الدم نتيجة قلة الغذاء . أو غير ذلك من الاسباب وقد يكون سبب هذا التأخر والخمول راجعا الى مشاكل عائلية كاضطراب العلاقة بين والديه فى المنزل أو القسوة الزائدة عليه فيضطرب موقفه نحو مدرسيه ونحو أقرانه فيصبح ضيق الخلق أو مشاكسا كثير الشجار فيحقد عليه أقرانه واخوته وينبذونه ويزداد اضطراب نفسيته نتيجة ذلك .

والخلاصة ينبغى أن ينظر المدرس الى الطفل على أنه وحدة عضوية يعتمد كل جزء منها على الاجزاء الاخرى ، فأى قصور للتكوين الجسمى ، أو القدرة الفكرية أو للناحية النفسية أو فى هذه النواحى جميعا له أثر مصاحب معوق من حيث الفاعلية الشخصية للفرد فى المجال الاجتماعى .

مراعاة العلاقات الانسانية مع التلاميذ :

ان مقومات نجاح المعلم وسعادته فى عمله أساسها العلاقات الانسانية السليمة مع كل هيئة مدرسية وخصوصا التلاميذ ، فلابد أن يمنحهم الاحترام والثقة وأن يقدر شعورهم فيشاركهم فى أفراحهم وأتراحهم وأن يساعدهم على تخطى الصعاب وحل المشاكل التى تعترض سبيل حياتهم . وأن يكون لهم أبا وأخا وصديقا فلا يضن عليهم حتى بما فى جيبه أحيانا لو استطاع فى حدود امكانياته ، ولا ينهرهم بألفاظ نابية ، ولا يعذبهم فى العقاب

الذى لا يلجأ اليه الا للضرورة القصوى ، ويكون أجدى كلما كان معنويا لا جسديا لان العقاب الجسدى نوع من انواع البهيمية البغيضة ، والكرامة الانسانية المفروض توافرها فى الطفل وفى الانسان عموما ، تأبى هذا النوع من العقاب .

تتوفر في شخصية المدرس القوة والحزم وعدم التردد :

ينبغى أن تتوفر فى شخصية المدرس القوة والحزم وعدم التردد أو التراجع فى أوامره الواجبة عند اللزوم ، فضعف شخصية المدرس يشجع التلميذ على الاستهتار بالمادة ، والطفل يحتاج دائما وحتما الى الضبط والربط . فترك الحبل له على الغارب كثيرا مايعرضه للانحراف لجهله بالحياة وقلة تجاربه فيها ، وعدم خبراته ازاء تطوراتها وحوادثها وتقلباتها .

المدرس والقدوة الحسنة فى تصرفاته :

يتحتم على المدرس أن يكون قدوة حسنة فى كل تصرفاته فى علاقاته بزملائه وبأولياء الامور وبالتلاميذ عموما ، فالتلميذ يقدس أستاذه المتكامل ويعتبره مثلا أعلى يقلده فى كل شىء واحترام التلميذ لمدرسه أو مدرسته هو أساس العملية التربوية وسر نجاحها . فالتقبل عن اقتناع للمعلومات والتوجيهات يستحيل مع الكره والنفور والاحتقار .

المدرس ونظافته وحسن ملبسه واناقة مظهره :

ولنظافة المدرس وحسن ملبسه وأناقة مظهره أثر كبير جدا فى نجاحه بشرط البساطة وعدم المبالاة او التبرج ، فاحتشام المدرسات المناسب للحياة الراهنة واعتدالهن فى الملبس مع البساطة وحسن التأنق سبب من الاسباب التى تدعو الى احترام التلميذات لهن .

المدرس وحبه لافادة تلاميذه :

المدرس النشيط فى عمله لا يدع فرصة لافادة تلاميذه جسميا وصحيا وعقليا ونفسيا ووجدانيا واجتماعيا الا وانتهزها ، ويستطيع بكل بساطة أن يشد تلاميذه اليه دائما وفى كل وقت بخيوط متينة من الحب والوفاء والولاء .

المدرس وتمسكه بالعدل فى حكمه :

لابد أن يكون المدرس عادلا لا يميز تلميذ على آخر بدون وجه حق ، فالمدرس الظالم يثير الحقد عليه فى نفوس من يظلمهم أو يتجاهل جهادهم وانتاجهم . وهذا الشعور يدفعهم بالتالى الى كراهيته وكراهية مادته فيتخلفون فيها فتتعقد نفوسهم . وقد يؤدى هذا الامر بهم الى كراهية المدرسة والنفور عن التعليم بل من العلم بأجمعه وقديدفعهم ذلك الى الهرب الذى كثيرا مايصل بهم الى أوخم العواقب مع اهمال العلاج .

المدرس والقدرة على الاندماج الاجتماعى :

اقصر طريق الى نجاح المدرس هو المرح والقدرة على الاندماج الاجتماعى فسرعة البديهة واليقظة والتاكد دائما من اكتمال الفصل بمجرد دخوله اليه ، ليحصر الغياب وليبحث عن اسبابه لمعرفتها والعمل على علاجها .

المدرس وحب التلاميذ له :

ان المدرس الناجح فى عمله يكون رغم تعبه اسعد انسان ، لانه يحصل على كنوز وفيرة من الحب الصافى النابع من قلوب طاهرة بريئة خالية من الحقد وعامرة بالاخلاص وغنية بالوفاء وحافلة بالاحترام والولاء .

المدرس والبطاقة المدرسية فى علاج مشكلات التلاميذ :

البطاقة المدرسية هى الوسيلة الفعالة فى عملية التربية والتعليم حيث تساعد المدرسة على معرفة التلميذ بكل ظروفه حتى تتوثق الصلات بينها وبين المنزل وأولياء الامور لصالح التلميذ .

ففى البطاقة المدرسية تتضح ظروف الطفل الاجتماعية والبيئية وتظهر حالته الصحية وامكانيات أسرته الاقتصادية والنفسية والسكنية مما يكون له أكبر الاثر فى تكييف حالته التحصيلية المترتبة على حالته النفسية .

ومن البطاقة الخاصة بكل طفل نستطيع ان نعرف كل شيء عن مهارته الخاصة ومواهبه فى النواحى الفنية أو

الثقافية أو الرياضية أو الاجتماعية ، فيساعدنا هذا على القاء الاضواء على نفسيته حينما يقع فى مشكلة تستلزم الحل من المدرسة .

وتظهر في البطاقة المدرسية أيضا الظروف التى مرت بالتلميذ فى الاعوام السابقة ابتداء من الصف الاول الابتدائى ، وماعاناه من مشاكل فى المواظبة ومن المتاعب الصحية أو الانطواء أو الانحراف أو التأخر التحصيلى فى المدرسة ، مما يساعد على التفهم الحقيقى لاساس أى مشكلة مستحدثة يقع فيها الطفل ، بعد الاطلاع الفاحص على الوقائع الثابتة فى البطاقة والمتطورة مع تطوراته المختلفة فى سنواته الدراسية المتتالية .

والايجابية والواقعية من ألزم الامور فى ملء بيانات البطاقة المدرسية التى تعتبر من انجح الوسائل المساعدة على تكامل التلميذ من جميع النواحى الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية بفضل المتابعة والتقويم استنادا الى البيانات التى تزدحم بها صفحات البطاقة .

ولكى تفى البطاقة بأغراضها كاملة ، لابد من مساعدة المدرس بالوقت والامكانيات حتى يستطيع أن يملأ البطاقة بمعلومات سليمة من واقع فهمه الحقيقى لظروف التلميذ ويسهل عليه قيد كل مايتعلق بالتلاميذ من واقع ملاحظاته اليومية على الطفل التى تكون دائما طوال أيام الدراسة وبصفة مستمرة .

ولكى يستطيع المدرس تحقيق الصحة النفسية للتلاميذ ينبغى أن يعاد النظر فى مراجعة مناهج الاعداد للمعلمين على نحو يكفل لهذه المناهج أن تصبح عنصرا فعالا فى معاونة المدرس على فهم دوافع السلوك ومشكلاته وعلى معالجة الانحرافات الصغيرة فى مستهلها . فان الغالبية الكبرى من مشكلات هذه المرحلة يمكن أن تخضع للتوجيه المستنير وليس أقدر على المدرس الذى أحسن اعداده على القيام بهذا التوجيه .

وما أود ان أقول بأن الاوضاع الراهنة لا تسمح بأن تفوت على المدرس وهى اكتشاف الحالات التى يمكن أن تستجيب من جانبه أو العلاج بمعرفة المتخصصين فحسب ولكنها تدفع أحيانا الى المساهمة فى اثارة الاضطراب فى نفوس الصغار ، وهو يقينا أبعد الناس عن القصد الى ذلك وأزهدهم فيما سيترتب عليه من نتائج .

وأخيرا كى يستطيع المدرس ان يقوم برسالته على الوجه الاكمل ينبغى أن يكون هو نفسه متزنا ناجحا خاليا من عوامل القلق وعدم الطمأنينة مؤمنا برسالته معطيا اياها من ذات نفسه ، ولكن ينبغى فى مقابل ذلك أن نوفر له امكانيات العيش الكريم من ناحية ووسائل القيام بمهام عمله من ناحية أخرى .

مما سبق نرى أن المدرس اذا فهم رسالته فهماواضحا

وإذا أدرك أهمية اشباع الحاجات النفسية للتلاميذ من أمن وعطف وتقدير وحرية مضبوطة موجهة . فلن يشعر التلاميذ بصعوبة فى ملاءمة أنفسهم ملاءمة مقبولة .. ولن تنشأ المشكلات النفسية السلوكية الشائعة . وسوف يتقدمون الى الامام بنفوس راضية مطمئنة ، الأمر الذى يبشر بمستقبل منير ، فيخدمون وطنهم بايمان وعزم فيسعد بذلك والداهم ويفخر الوطن بأعمالهم .

العوامل المدرسية التي تعوق الصحة النفسية لأبنائنا

يوجد كثير من المعوقات التي تقف حجر عثرة في سبيل تقدم الطفل ورقيه وتكامله في المرحلة الابتدائية جسميا وعقليا وتحصيليا ونفسيا ووجدانيا واجتماعيا وقد حول للعلاج الكثير من الاطفال المضطربين نفسيا بسبب بعض هذه المعوقات ، لعلاجهم وسوف أسرد بعض هذه المعوقات مصحوبة بوسائل علاجها وازالتها ليتحرر الطفل منها ثم ينطلق طبيعيا بين زملائه . وقد يكون الطفل على درجة كبيرة من الذكاء ، وكانت تعوقه هذه القيود ، فلا يلبث حتى يتقدم الصفوف ويأتي في مستقبل حياته للوطن بأشهى النتائج وأطيب الثمرات .

وقد يصبح الطفل الذي كان مقيدا ثم حطمت قيوده عالما أو طبيبا أو مهندسا أو زعيما وطنيا مخلصا . ولكم تفتحت البراعم النضرة فصارت ورودا تعطر ارجاء الدنيا بأريجها الفياح علما وفنا وادبا واختراعا وابتكارا .

وان من ينسى طفولته ولا يستشعر احاسيس الطفولة بآلامها وأفراحها يكون ابعد انسان عن النضج النفسي والوعي التربوي والانسانية الرحيمة والقلب الطيب والصدر الرحيب .

وفيما يلى أهم المعوقات بالمدرسة التى تؤثر على الصحة النفسية للطفل فى المرحلة الابتدائية :

١ ـ المعوقات المدرسية :

من هذه المعوقات نقص الامكانيات التى تجعل التعليم عملية محبوبة ومريحة ، كعدم ملائمة الاثاث لحجم الطفل وتكتل عدة تلاميذ على مقعد واحد ، وضيق الفصول وضعف الاضاءة وقصور منشآت البناء المدرسى ومرافقه عن منح التلاميذ ومايحتاجون اليه ، من الحرية والاحتياجات الطبيعية التى تمنح العملية التربوية تكاملا ونجاحا .

وكذلك « النقص فى شخصية المدرس » وعجزه عن منح مهنته حقها من العناية والرعاية ، وجهله بأصول التربية السليمة المبنية على علم النفس الصحيح ، وقلة موارده العلمية وعدم ملائمة طريقته فى التدريس للتلاميذ .

ومن العوامل التى تؤثر على الصحة النفسية للطفل فى المرحلة الابتدائية وتقيده عن الانطلاق فى الركب التعليمى عدم توافر العلاقات الانسانية بينه وبين المدرس وقصور النشاط المدرسى عن منحه حقه ، وما يتطلع اليه من الاتجاهات لسد فراغاته النفسية واشباع ميوله ومواهبه ، وكذلك يقيد الطفل تجاهل حاجاته الاساسية الى العطف والرعاية والامن والاستقرار مع الطمأنينة والضبط الرقيق من الرواد ورفقة الاطفال الآخرين فى مجموعات منظمة .

وأيضا « اهمال النواحى العقائدية » التى تسمو بالروح ،

وعدم تدريسها بالطرق الفنية الصحيحة وتجاهل كونها سياجا منيعا يحصن الطفل ويحميه من الانحرافات . .

ومن القيود كذلك تعجيز التلاميذ عند اختيار نواحي تحصيلهم مما يشعرهم باليأس ويقعد بهم عن التقدم .

٢ - الكبت النفسى الناتج عن عدم التنفيس المنظم عن الغرائز المختلفة :

في التلاميذ وعن التقصير فى اشباع الميول الفطرية الموجودة فى نفوسهم ، ومن الغرائز التى تقوى فى هذه المرحلة .

١ - غريزة حب الاستطلاع : فعدم اشباعها عن طريق البحث خلف الحقائق بالكتب والملاحظات للعينات من وسائل الايضاح ، وعدم محاولة تطبيق بعض الطرق الحديثة فى حدود الطاقة قد يؤدى الى انحراف الطفل الى التجسس على الغير ونحو عدم الامانة النفسية .

٢ - غريزة المقاتلة : فاذا لم توجه الى الغضب من اجل الجماعات والقومية العربية ، ونحو المنافسات البريئة فى المسابقات الرياضية وأوائل الطلبة ، ونحو تقديم المحاضرات بالاذاعة المدرسية وانتاج المجلات وحل المسابقات العلمية ، فانها تنحرف الى التضارب والمعاكسات والتخريب ، والتلذذ بالتمرد على النظم المدرسية والاستهتار فى التحصيل .

٣ - غريزة الحل والتركيب : اذا لم تستغل هذه الغريزة فى دروس الاشغال اليدوية وتعلم الحرف اليدوية

المختلفة والالمام بخصائص الاشياء كأجزاء النبات ووظائفها ومكونات الزهرة للتعليم لانحرف الطفل بها الى التكسير فى أثاث المدرسة والتخريب فى محتويات كل مكان يكون فيه .

٤ ـ غريزة السيطرة وحب الظهور : عدم اشباعهـا لو وجدت قوية فى الطفل بمنحه المناصب القيادية فى الفصل كالرئاسة أو العضوية فى مجلس الفصل أو الاشتراك فى جماعات النظام المدرسية والمحافظة على نظافة المدرسة قد يؤدى الى الانحراف الاجرامى بما لا يخطر لنا على بال .

وقد حولت العلاج منذ عدة أعوام تلميذة كانت من هذا النوع المضطرب السلوك ، فأشارت مدرسة الفصل تسليمها رئاسة الفصل رغم تأخرها الدراسى نوعا ما ، فدفعها هذا الى التقدم والاجتهاد وقد انقاد الفصل لها بطريقة غريبة حتى أنها قامت بحفل عيد الام ونظمته بغير علم مدرسة الفصل التى فوجئت به فى حينه ، حافل بالاناشيد والرقصات التوقيعية والقطع الموسيقية بالآلات من عضوات الفريق الموسيقى بالفصل ، وكانت روعة أظهرت مواهب لا نحصى من تلميذات كثيرات فدعت مدرسة الفصل باسم التلميذات القسم وناظرة المدرسة والزميلات وكلها فخر وسرور ، وكان حقا يوما حافلا .. أظهرت فيه هذه التلميذة كفاءة ملحوظة .

٥ ـ غريزة التملك : فاذا لم توجه فى الطفل الى الاقتناء الشريف الناتج عن المجهود الذاتى للنقود فى مصروفه لو أمكن ، وللبذور ومجموعات الريش ، وطوابع البريد ، والمقطوعات الادبية والاشعار الجميلة ، والكتب المفيدة

والقصص المشوقة ومجموعات الطيور والفراشـــات الملونة مثلا ليتذوق الجمال بشتى صوره .. لانحرفت به نحو السرقه والاستيلاء على مالا يملكه من ممتلكات الغير ..

ومن الاستغلال السليم لهذه الغريزة يمكن عمل متحف ومكتبه للفصل ، على أن يأخذ الطفل ماقدمه وما اقتنــاه فيها على مر الايام ، لو أراد ذلك فى نهاية العام الدراسى لتكون قدوه حسنة له فى احترام ملكية الغير .

٦ ــ الميول الفطرية : كالايحاء والمشاركة الوجـــدانية والمحاكاة واللعب ، فلابد من استغلالها ومنحها فرصـــة الاشباع المنظم خلال المنهج المدرسى ، وفى النشاط داخل الفصل وخارجه وفى المنزل ، ولابد من توعية الآباء بهذا خلال الندوات والاتصالات فى المناسبات المختلفة .

ولابد من القدوة الحسنة خلال الممارسات الصـحيحة بعمليات الاشباع ، التى تكون خير خادم للعملية التربوية المتكاملة ، فتخرج كل ما نرجوه من تحقيق فى أهدافنا لرقى الطفل على أحسن الوجوه .

٣ ــ الغيرة من التفرقة فى المعاملة بين التلاميذ :

فى المدرسة لاعتبارات شخصية أو من الاخوة فى المنزل للتفرقة « العنصرية » ، أو النوعية بين الصبيان والبنات حيث يعامل بعض الآباء والامهات الولد على أنه عنصر أرقى من عنصر الانثى التى تكون مغلوبة على امرها باستمرار فتكره اخاها المفضل عليها دائما خصوصا وهى تسمع عن المساواة حاليا فى المعاملات بين الذكر والانثى .

وتنتج الغيرة أيضا من الافراط في رعاية الصغير على حساب الكبير الذى قد يتعرض للقسوة فى المعاملة . ان حرمان الطفل من العطف والرعاية ومن المصروف الشخصى او من الاصدقاء ، كلها أوضاع تؤدى الى التمرد النفسى بالاهمال والتأخر المدرسى ، واحيانا تنحرف متغلغلة فى العقل الباطن الى نوع من الاحتجاج يظهر فى الاصابة أحيانا بمرض التبول اللاارادى .

وقد قمت بعلاج كثير من حالات التبول اللاارادى ، وكانت جميعها عامل الغيرة والاحساس بالحرمان من العطف والرعاية النفسية من أسباب هذا التبول اللاارادى ، وفى هذه الحالات توجه الام الى ضرورة اشباع الحاجات النفسية للطفل وعدم تجاهله ولاسيما بعد ولادة طفل جديد حيث يتحول كل الاهتمام الى هذا الضيف الجديد، الامر الذى يؤدى الى احساس الطفل الاول بالحرمان والاهمال فتكون النتيجة ظهور التبول اللاارادى ... ويصاحب ذلك عادة التأخر فى التحصيل الدراسى .

وكذلك التفرقة فى المعاملة بين التلاميذ فى المدرسة يؤدى الى احساس الاطفال بالظلم وعدم العدل فى المعاملة فتنبت جذور الغيرة فى الاطفال وهو شعور مؤلم يشعر صاحبه بعدم الرضى والحقد على الآخرين والاحساس الدائم بأنه مظلوم ، ومن هنا تبدأ أعراض الاضطرابات النفسية التى تعوق نموه النفسى وتحصيله الدراسى وتزداد هذه الاضطرابات مع مرور الزمن ما لم تعالج فور ظهورها .

نموذج حالة ناتجة عن تأثير الغيرة على الطفل : حولت

الى العلاج لتأخرها في التحصيل الدراسي وكانت في الخامسة الابتدائية . وبدراسة الحالة تبين أن الفتاة تعبر عن رغبة ملحة في الانتحار الذى تبحث منذ أيام عن احدى وسائله ، فأمها على حد تعبيرها تقسو عليها في وحشية وتفضل أخاها عليها وتحنو عليه وتنهر والدها المحبوب كلما حنا عليها ، وتجبره على التباعد عنها بحجة أن التدليل يفسد البنات وهى رغم هذا تعامل الخادمة بطريقة أحسن منهـا ممـا جعل الخادمة تؤذيها وتعايرها كلما رأت أمها تضربها بقولها « يا ام علقة ، أم علقه أهيه أهيه » .

وكثيرا ماينضم اخوها الى الخادمة ليشتركا معـا فى تعييرها بهذه العبارة ...

وقد علمت من الفتاة أيضا أن أمها تقول لها كثيرا أنها ستوزع شربات على الناس يوم وفاتها ، ولهذا فهى ترغب الموت وتكره الحياة ، ففى الموت راحة لها من كل هـذا العذاب وكانت تعبر بما يفيد بأنها لاتحب فى هذه الدنيـا كلها سوى أبيها الذى يحبها كثيرا ويمنحها النقود بغير أن تخبر أمها التى تحرمها من كل شيء .

وبمقابلتى للأم أظهرت لها الاخطاء التربوية التى اتبعتها مع ابنتها وكيف كانت الابنة تتعذب الى درجة أدت الى رغبتها فى الانتحار فظهر جزع الام واضحا بل داهمتهـا المفاجأة حتى كادت تتهاوى .. ومع تبادلنا الحديث تأكدت الام من خطأ الحكمة التى كانت تنفذها بحذافيرها مـع سلوى ، وهى « أكسر للبنت ضلع يطلع لها اتنين » وكان غرضها من هذا أن تشب الابنة على الجدية فى الحيـاة على حد قولها متباعدة عن الميوعة النفسية الخطـرة على البنات .

وانصرفت الام آسفة لتعود بالاب المهندس الذى كـان يجهل انفعالات الابنة لانشغاله المتواصل فى عمله الذى يحتاج الى كثرة الاسفار .

ومع التفاهم والاقناع والتدخل الايجابى من الاب غيرت الام من طريقتها فى معاملة ابنتها فمنحتها الحنو الذى كم تمنته سابقا دون جدوى .

وخلال أسابيع ترعرعت الابنة كالزهرة الندية فى تكامل نفسى توج ذكاءها الملحوظ .

٤ ـ القسوة فى علاج انحراف التلميذ بالمدرسة :

كان تلميذا رقيقـا نابغا فى الرسم بالصف السادس الابتدائى .

وقد حدثت واقعة فوجىء بها جميع مدرسى المدرسـة والناظرة . .

فقد حضر أبوه المعروف بيساره وشحه الى المدرسة مشنعا عليه بطريقة غريبة ، وثائرا على ولده لانه سرق منه خمسة جنيهات ضبط باقيها معه بعد أن اشترى منهـا علب ألوان ومأكولات تافهة ووقف الوالد مع الناظرة ليرى ولده المسكين وقد أمسك بيده فراش عملاق أمام طوابير المدرسة كلها وبعد خطبة كبيرة فى الميكرفون من الناظرة عن هذا الولد السىء السلوك الحرامى ، وعن الفضـائل والامانة والشرف نزلت سيادتها بالعصا لتضربه على قدميه بعد أن طرحه الفراش أرضا فى وحشية تلاشت أمامها كل القيم الانسانية .

كان لهذه الواقعة التأثير السيء على هذا الطفل المسكين من الناحية النفسية والتحصيلية والاجتماعية ، فأصبح منطويا يتجنب الاختلاط بالآخرين خجلا لما حدث وتأخر من الناحية الدراسية ، وأصبح كثير الشرود ، غير قادر على التركيز وذبل جسده ، وانهار نفسيا لما كان يلاقيه من ذل فى المنزل والمدرسة مع المعايرة بقوله « حرامى » فى غير شفقة ولا رحمة ، حتى فوجىء الجميع خبر وفاته خلال شهر من الحادثة .

صرخت مدرسة الرسم تنعى نبوغه الذى احتواه التراب والقت الناظرة خطبة حاملة فى نعيه بالميكرفون الذى فضحه سابقا ونعاه زملاؤه وحزنت عليه المدرسات .

وولولت أمه وبكى أبوه وتحسر الجميع على المسكين ولكن بعد ماذا ؟!

مما سبق نرى أن الاسلوب الذى استخدم مع هذا التلميذ كان قاسيا بعيد كل البعد عن تقدير مشاعر التلميذ ومراعاة حالته النفسية فى مثل هذه المواقف . فى حين ان كل شىء اذا استخدمت فيه السرية والهدوء والتعقل من الاب ومن ادارة المدرسة كان كفيلا بحل كل شىء .

فانحراف غريزة التملك امام قسوة الحرمان ليس بالجريمة المستعصى حلها ، بل هذا أمر طبيعى وحله كان بأيدى الجميع بسد الحاجة والتوجيه السليم والتعلية للغريزة . وكم نظلم القدر بتصرفاتنا المخطئة بعد أن يفلت زمام الامور من أيدينا ثم نندم ونتلظى بنيران الندم ، وهل ينفع الندم ؟

٥ ـ فقدان السلطة الضابطة :

كما أن ترك الحبل على الغارب للطفل فى المنزل لانشغال الوالدين وتركه أيضا فى المدرسة أحيانا لازدحام الفصول وعجز المدرس عن الاشراف على الجميع لضعف شخصيته يؤدى الى شعور الطفل بالحيرة والقلق والضياع ، فالطبيعة البشرية لابد لها من ضابط خصوصا فى مرحلة الطفولة المحتاجة دائما الى مرشد وموجه يميز لها الصالح من الطالح والطيب من الخبيث ، والمناسب من غير المناسب .

وأحيانا يؤدى فقدان السلطة الضابطة على الطفل ، الى تصرفات توحى بالرغبة النظرية فى هذا التوجيه، كالمشاكسة والاهمال ، وقد يزداد ذلك الشعور عنده لدرجة أنه يستعذب العذاب ولكن ليس معنى هذا أن يلجأ الاباء او المعلمون الى عقاب الابناء وتعذيبهم ، وانما المقصود هو أن نمارس وظيفتنا كموجهين ومرشدين وممثلين للسلطة الضابطة فى توجيه تلاميذنا وأبنائنا . ويتم ذلك بأن نقضى معهم فترات كافية من الوقت نناقش فيها مشكلاتهم ونعمل على حلها .

٦ ـ عدم وضع التلميذ فى مستواه العلمى بالصف :

كان يوضع الضعيف مع الاقوياء وقد حدثت مشكلة لها علاقة بهذا الوضع ، فقد كان لاحدى المدرسات بمدرسة ما ابن فى الصف السادس الابتدائى ، ولكنه كان من المجموعة الضعيفة لدرجة الغباء ، فوضع خلال التنسيق للعصول بالفصل الضعيف ، لحاجته كى يتقدم ، الى علاج طويل . .

ولكن أصرت الام على وضعه فى صف الاقوياء ، ارضاء لغرور المظاهر ، وعبثا حاولت المدرسات اقناعها بالوضع السليم للطفل بالنسبة لقدراته الذهنية ، ومع ذلك أصمت الام أذنيها عن هذه الحجج كلها ، بل وصل الامر بها الى استصدار أمر من التفتيش لناظرة المدرسة بوضع ولدها فى صف الاقوياء ، أمام وعودها بتقويته فى المنزل وفعلا وضع الولد كما أرادت أمه ..

ومضى ركب الفصل فى قوة قست على الولد الضعيف فوقع تحت الاقدام ، وداسته عجلة النبوغ الصارخ حوله من كل ناحية ، فشعر بنقص وعجز وتبلد جعله يــكره المدرسة ويهرب منها .

وحاولت الام العلاج متعللة لكثرة غيابه بشتى الحجج تغطية لموقفها ودفعا لخجلها من اساءة النية فى فهم وجهة نظر المدرسة التى كانت فى صالح ولدها .

وأخيرا حدث فعلا ما كان متوقعا ، نتيجة رفض الام وضعه فى الفصل المناسب فقد عجزت أمه عن شفائه من اوجه نقصه التى تشعبت بفعل شعوره بالنقص أمــام النوابغ من زملائه بالفصل ، وداهمهما المرور السريع للوقت، وفى النهاية ضاعت الفرصة على ابنها ، ورسب فى الامتحان آخر العام .

وحين طلب علاجه من الناحية النفسية ، وجد أن الطفل كان يعانى من عدم الثقة بالنفس والاحساس بالنقص ؛ يضاف الى ذلك ماكان يشعر به من حقد على زملائه فى الفصل الامر الذى ادى الى عدم وجود اصدقاء له لسوء معاملته لمن حوله نتيجة احساسه بالنقص وتعويض هذا

الاحساس بالسلوك غير السوى . كان يتعرض للعقاب بصورة متكررة ممن هم فى المنزل أو فى المدرسة لسوء سلوكه وعناده وعدم تعاونه مع من حوله فى كل الجوانب.

وبالعلاج الطبى النفسى وتوجيه الام الى كيفية معاملته وضرورة وضعه فى الفصل المناسب الذى يتناسب مع قدراته الذهنية أمر لابد منه كى يستطيع الطفل التجاوب بصورة مرضية تنمى ما به من قدرات بدلا من احساسه بالاحباط لعدم قدرته الوصول الى المستويات التى معه فى الفصل .

وبتنفيذ ذلك مع العلاج والمتابعة ، أمكن للطفل أن يحقق النجاح الذى كانت تتمناه الام والمدرسة وذلك عن طريق وضعه فى الفصل المناسب .

٧ - التعب من سوء توزيع المواد بالجدول المدرسي :

تكديس المواد العلمية فى وقت متواصل بالحصص المتعاقبة بغير فترات راحة ذهنية خلال المواد العلمية كفترات الالعاب وغيرها يتخم الفكر ويرهقه ويصرفه عن التركيز والتحصيل الجدى .

وذلك مثل جعل حصة القواعد خلف حصة الحساب ، ثم حصة التعبير ثم حصة الجغرافيا وهكذا .

اذن لابد من توزيع حصص المواد العملية خلال الحصص العلمية ، توضع الموسيقى بعد الحساب ثم تأتى القواعد قبلها الالعاب ، وبعدها التاريخ فيليه الرسم وهكذا .

وعدم وجود عيب التكديس المرهق فى الجدول المدرسي يريح التلاميذ ذهنيا ونفسيا .

٨ ـ انتشار ظاهرة شرود الذهن :

والاغراق فى أحلام اليقظة بين التلاميذ والتلميـذات ينتج من سوء طريق التدريس للمادة بايجـابية المدرس وسلبية الطفل ، مما يؤدى الى الملل ويدفع بالتلميذ الى الانصراف عن الانتباه والى التكاسل .

فالتدريس الجيد لا يعتمد على الطريقة التلقينية دائما، وانما لابد من التنوع .

١ ـ فى طرق التدريس . فعلى المدرس تشـجيع التلاميذ على ملاحظة الاشياء التى حولهم ونقدها وتحليلها الى أجزائها وعناصرها حتى تتفتح عقولهم وحواسهم ، فيمكنهم هذا من الاستنتاج والتجاوب مع توالى المناقشات خلال الدرس .

٢ ـ وعلى المدرس ايضا تشجيع تلاميذه على كسـب المعرفة بأنفسهم ومحاولة اتباع المناسب من الطـرق الحديثة بقدر المستطاع ، حسبما تسمح به امكانيـات مدرس الفصل او مدرس المادة .

٣ ـ وعلى المدرس أن يشرك أكبر عدد ممكن مـن التلاميذ خصوصا فى الدروس العملية ، وأن تمنح الجميع شتى الفرص المتكافئة فى المناقشات والقراءة والاجـابة مع الصبر عند طرح الاسئلة لسماع أجوبتها بأكثر مايمكن، ثم التعليق عليها بعد جمع اكبر حصيلة من الافـكار ومن الاجابات النابعة من عقول التلاميذ انفسهم ، بحيث يكون الفصل كخلية من النشاط الذى لا يسمح بأى شرود ، أو انصراف أو تخاذل أو تكاسل .

٤ ـ توفير العلاقة الانسانية بين المدرس والتلاميذ :
ومما يساعد على شرود ذهن التلاميذ وعدم انتباههم ، وجود فجوة فى العلاقات الانسانية بين المدرس وبينهم لقسوة المدرس أو لجموده أو لتزمته أو لجهله بفنون طرق التدريس أو لتفضيله بعض التلاميذ على غيرهم لاعتبارات شخصية مثل القرابة او الصداقة لاولياء امورهم وكذلك يكره الطفل المدرس لجهله بأصول التربية وعلم النفس ، وعدم معاملته للصغير على اسس فهم ميوله وغرائزه واتجاهاته النفسية أو لتجاهله نشاط التلميذ وتحفزه المستمر أو لضنه عليه بالتشجيع أو لزجره وانتهاره لو أكثر من التساؤل اشباعا بغريزة حب الاستطلاع .

لابد اذن من تصفية كل مايكدر العلاقة بين التلميذ والمدرس بأن تسير المعاملة بينهما على الاسس التربوية السليمة ، فلا يلجأ المربى الى عقاب الصغير الا للضرورة القصوى بحيث يكون الطفل مقتنعا بأنه يستحق العقاب وليس مظلوما ، وحينذاك سيعتذر وقد لا يعود الى خطئه مرة أخرى ، وقد وجهنا الله تبارك وتعالى الى عدم التزمت فى العقاب بقوله « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر » . . صدق الله العظيم . .

لابد من النمو المهني للمدرس واطلاعه المتواصل على احدث الطرق التربوية واستكمال اعداده مهنيا لما يتخصص فيه ، بالتدريب الذى لابد ان يتقبله مخلصا عن رغبة ووعى .

ولابد أن يتقرب المدرس الى تلاميذه فى فترات النشاط الحر ، وفى الحفلات والرحلات مما يوطد العلاقات الانسانية بينه وبين التلاميذ ، على اساس من المحبة والتعاون .

ويجب أن يكون المدرس باشا مرحا ومتجاوبا مع التلميذ في الانفعالات المختلفة فتحسن العملية بالمرح والتقارب النفسي مايشد التلميذ الى الانتباه التلقائى دائما فلا يشرد منه مطلقا .

٥ ــ تناسب كمية الدرس لزمن الحصة : وقد يطول زمن الدرس فيحرم التلميذ من الفسحة ومن تناول طعامه فيها ، فيشرد من المدرس فى ملل ولهذا فلابد من أن تكون كمية الدرس مناسبة لزمن الحصة لا تتعداها وأن يكون المنهج موزعا بحيث تأخذ كل قطعة فيه حظها العادل من البحث والعناية والمناقشة .

٦ ــ تناسب الدرس بالنسبة لذكاء التلميذ : وأحيانا يكون الدرس سهلا بالنسبة للتلميذ الذكى حيث لا يجد فيه ما يتحدى ذكاءه فينصرف عنه الى أمور يشتق عقله منها بعض الاشباع ، فيشرد بفكره من المدرس ، وأحيانا يكون الدرس فوق المستوى الفكرى لقدرة الطفل العقلية لضعفه فينحرف انتباهه عنه الى نشاط ذهنى داخلى فى خياله يناسبه ويعيش فيه .

لهذا فلابد من مناسبة الدرس بكل مستوى ، ولابد من تفادى الجمع بين الاذكياء والاغبياء فى فصل واحد لبعد الشقة فى التقارب الذهنى بينهما فالدرس المناسب لمستوى الطفل يدفعه الى المناقشة والاستنتاج والايجابية ، وهذا

يمنحه الثقة بنفسه فيندمج فى العمل والتحصيل ويبتعد عن الانطواء الذهنى الذى ينتج عنه الاغراق فى أحلام اليقظة والشرود الى دنيا الخيال .

٧ ـ تجنب فلسفة المدرس بتعبيرات غامضة : أحيانا يتفلسف المدرس بتعبيرات غامضة يستسخفها الطفل خصوصا فى اللغة العربية أو غيرها من المواد ـ وهذا الوضع يعقد الطفل لجهله بمعانى هذه الالفاظ ويثير سخطه فيباعد بينه وبين المدرس ، ويجعله يستحسن الشرود لعجزه عن الحل وعن الاقتناع بصلاحية السؤال ، الذى لا يتناسب مع خبرته العملية فى بيئته وحصيلته من الالفاظ الموجودة فيها ، فلابد اذن من توافر عنصر المناسبة فيما تمنحه للطفل بحيث لا نخرج به فى المرحلة الاولى عن التعبيرات اللغوية البسيطة النابعة بقدر الامكان من الالفاظ التى نتداولها فى بيئاتنا مع التبسيط والتقريب بقدر الامكان بين لغتنا العامية واللغة العربية ، وذلك بمعرفة ما يرادف كلماتنا العادية من تعبيرات لغوية مثل : اللى الذى ، ده هذا .

٨ ـ مساعدة الوالدين فى كسب الرزق : كثيرا مايعوق تقدم التلميذ دراسيا ، ويجعله فى مجموعة المتأخرين فى التحصيل الدراسى اتجاه الوالد أو الوالدة الى توجيه الابن أو الابنة فى المنزل الى المشاركة فى العمل لظروف معينة يقتنعون بأنها أهم من المواظبة فى الدراسة .

ومثال ذلك أن حولت تلميذة للعلاج لتأخرها الدراسى ولدراسة السبب والتشخيص والعلاج ، وقد تبين بدراسة

الحالة أن هذه الفتاة ابنة « طعمجى » كان يحتم عليهـا الوقوف في محل والدها طول النهار عقب الدراسه .

وقد وجهت والدها ليساعد على حفظ توازنهـا في التحصيل الدراسى ، ثم وجهت التلميذة الى انتهاز فرص الفراغ بالدكان للاجتهاد والتحصيل ، ووجهـت الوالد بضرورة مساعدتها واتاحة الفرصة لها بكل الطرق الممكنة كي تستطيع الدراسة والتحصيل ولا سيما أن مستوى ذكائها كان مرتفعا .

وقد استجاب الوالد الى ذلك فى حدود معينة وبذلك تمكنت من الدراسة والنجاح فى آخر العام .

٩ ـ تغليب الادارة المدرسية لنواحي النشاط على نواحي التحصيل العلمي : كثيرا مايحدث استعدادا لحفل رياضي أو موسيقى أو تمثيلى قبل العرض الرسمي بأكثر من شهر ، أن يغادر بعض التلميذات والتلاميذ الفصول الدراسية طول النهار تاركين الدرس والتحصيل بايعاز من ادارة المدرسة وكم هذا الوضع أدى الى التـدهور المتواصل للتلميذات فى المواد الهامة كالحساب والعلوم مع الاهمال الناتج عن التغيب .

ان النشاط فى حد ذاته واجب ومهم ، ولكن تغليبه على التحصيل العلمى الذى يشكل حاليا مستقبل التلميذ هو أكبر ظلم لابنائنا ، اذ لابد أن يأخذ كل من النشـاط والتحصيل حقه فى الاهتمام ، ولكن ليس على حساب الآخر .

وقد حول الى العيادة النفسية تلميذ بشكوى تأخره الدراسي وبدراسة الحالةمنالجوانب النفسية والتحصيلية

واجراء اختبارات الذكاء ، تبين أن هـــذا التلميذ على مستوى ذكاء مرتفع ومع ذلك رسب فى امتحان القبول والامر الذى أدى الى ذلك أنه كان كابتن الكرة للمدرســة ومنح بنبوغه كأس الرياضة وقتها . ولكن المسكين رغم الميدالية التي حصل عليها ، فقد رسب فى امتحان القبول وحاول اعادة القيد بالمدرسة ولكنها رفضته ولفظته .

فاصيب بهزة نفسية أدت الى اضطرابه نفسيا واصابته بالاكتئاب النفسي ، وكان يبكي والحسرة تمزقه ، حيث أن انصرافه الى النشاط ليشرف المدرسة هو سر رسوبه، حيث كان ذا ذكاء يحتم نجاحه مع الاجتهاد فى التحصيل العلمي .

وكان رسوب هذا التلميذ كارثة بالنسبة لامه المكافحة ؛ التي كانت تعوله بعد وفاة أبيه وكانت تضحى بالغـــالي والرخيص لكي ينجح ويساعدها فى نفقات تربية أخوته ، وأخيرا قرر أن يلحق بعمل ما فى الاجازة كي يعوض بعض النفقات التى أنفقت فى سبيله أثناء العام الدراسى .

١٠ ـ القصور فى التدريس الفنى للدين : هـو مما يحرم التلميذ من حصيلة الحضانة الروحية التى تحيط تصرفاته باللياقة وكبح جماح النفس وصدها عن الانحراف ـ ولقد حقق العالم الآن كثيرا من التقدم المادى ولـكن الغالبية العظمى من البشر محرومة من السعادة الروحانية حرمانا ناتجا عن عدم اشباع حاجتها الفطرية الى التدين .

فالاشباع الروحى للنفس بالتحليق فى ملكوت الله جل وعلا لا يقل فى اهميته عن الاشباع الغذائى للجســم بالطعام ، ولو تصور أى فرد امكانية حياة الانسان بالمادية

وحدها لكان مغالطا مكابرا ، فكبت الميل الفطـرى الى التدين فى الآدمى يؤدى الى صراع نفسى وقلق ذاتى ، قد يؤدى بدوره الى الانحراف والاجرام .

عيوب تدريس الدين حاليا فى مدارسـنا الابتدائيـة ووسائل علاجها :

عدم اعتبار الدين كمادة أساسية يمتحن فيها التلميذ رسميا كالحساب والعلوم والمواد الاجتماعية واللغة ، أدى الى استهتار التلاميذ وأولياء الامور بالتحصـيل فيـه والاهتمام به كمادة لها أصولها وقدسيتها ، بل وامتد هذا الاهمال وعدم الاهتمام الى بعض المدرسين أيضا مما كان له أسوأ الاثر فى نفوس التلاميذ .

وجوب اعتبار مادة الدين مادة أساسية :

ومن الاصوب أن يكون التحصيل فى مادة الدين سليما وأنه من أوجب الواجبات اعتباره مادة أساسية يمتحـن فيها التلاميذ فى امتحان آخر العام ، وعلى أن يسرى هذا الوضع على المسيحيين أيضا بحيث تتكافأ المقررات .

وبذلك يكون موقف الجميع من الدين ايجابيـا فى التحصيل والفهم ، والبحث خلف الحقائق فيه قطعـا سيكون لهذا الاثر فى حماية الاطفال والمراهقين ، والشباب من الانحرافات العقائدية التى تسرى فى دماء بعض ضعاف النفوس من أبنائنا الذين نعمل على تحصينهم ضد هـذا الوباء الخطير الجارف بالمصل الدينى الواقى ليتم التعمق

فى فهم علم التوحيد والتقديس لذات الله الخالق سبحانه وتعالى ..

يقوم بتدريس الدين متخصصا :

ويستحسن من يقوم بتدريس الدين فى المدارس أن يكون متخصصا ، حيث يستطيع بمعلوماته وخبراته فى هـذا المجال أن يكون ملما بكل صغيرة وكبيرة عن الدين ؛ فيستطيع أن يفيد التلاميذ فائدة حقة ، وأن يكون مرجعا صحيحا لكل من حوله من هيئات التدريس وأولياء الامور فيصبح النفع عاما والفائدة من التخصص شاملة .

تخصيص حصة لمناقشة مشاكل التلاميذ :

ويستحسن أن تخصص حصة أسبوعيا من حصص الدين لمناقشة بعض مايعترض التلاميذ من مشاكل فى حياتهم تحتاج الى راى دينى ، مع حرص المدرس على الاحتفاظ بسريتها لو احتاجت الى ذلك ، وقد يخفيها التلميذ لحيائه من سردها شخصيا كأن يأنبه ضميره مثلا لانه سرق ويريد التوبة ، أو يكون قد ارتكب خطأ مقصودا أو غير مقصود ويريد التحرر منه كلعب القمار ، الذى يمارسه بعض الاطفال الكبار والمراهقين على الارصفة والحوارى بطريقة مؤسفة بعيدة عن الرقابة والتوجيه .

ربط الدين بالحياة الواقعية :

وجعل الدين مبنيا فى تدريسه على المشكلات الواقعية يمنحه ايجابية والتصاقا أكثر بحياة التلميذ فيكون هذا سياجا منيعا يحميه فى مستقبل أيامه من الانسياق فى الخيال والانحراف فى التفكير ويؤسفنى قولى أن استهتار بعض شبابنا الحديث أساسه اهمال النواحى الدينية والعقائدية فى المدارس ولا سيما المدارس الابتدائية التى تكون القاعدة الشعبية ، فالدين هو علم الحياة الذى لا ينسى كغيره من العلوم بل يظل يلازمنا فى عمرنا كله متطورا بالدراسات والاجدى الماما به عن وعى وعمق واقتناع .

القدوة الحسنة بالمدرسة :

بعض الاطفال يحبون الصلاة تقليدا للكبار فى المنزل ولكنهم لا يجدون المكان المناسب لها بالمدرسة وياحبذا لو كان المدرسون والمدرسات قدوة حسنة للاطفال فى السلوك وفى الاتجاهات الدينية بصورة فعلية .

المعوقات الأسرية وتأثيرها على الدراسة

كثيرا مايكابد الطفل في منزله ضروبا شتى من مشاعر الخوف وانعدام الامن والقلق النفسي ، ويرجع هـــذا الاضطراب في الوضع الاسرى وتزلزل البنـــاء العـائلى بالشقاق الدائم بين الوالدين ، أو تصدع التماسك الزوجي بينهما وانهياره ، وينتهى الوضع بالطفل الي المعيشة مع احدهما وافتقاره الى عطف الآخر ورعايته ومحبته له .

وفيما يلى بعض المعـــوقات التى تؤثر على الصحة النفسية للطفل فى الاسرة :

١ ـ التفكك الاسرى : ادمان المخدرات :

ان من العوامل الهامة التي تؤدى الى التفكك الاسرى ، هو ادمان المخدرات فالمخدرات كابوس جاسم طالما كتم أنفاس الكثيرين ، وطالما حطم الاسرة وأتعس الامهات وشرد الاطفال .

ان مدمنى هذه السموم موجودون فى جميع الطبقات، وأن من بين ذوى المراكز المحترمة افرادا أصـــيبوا بهذا الداء الهدام ، فأدى ذلك الى ارتباك أداء أحوالهم المعيشية وفقد الاستقرار فى حياتهم والى شقاء أطفالهم وأسرهم .

ومن المؤسف ان بعض هؤلاء الأشخاص مكابرون يكتمون اصابتهم بالادمان حتى عن أقرب الناس اليهم ويتعاطون هذه السموم سرا فى بعض الاجتماعات التى يعقدونها أحيانا تحت ستار الفن والادب ، أو فى أماكن يختارونها بين الاحياء الشعبية بالحوارى فى الازقة ، البعيدة عن أعين رجال الامن .

تاثير المخدرات على الفرد :

ان الفرد منهم يفقد توازنه الفكرى ويختل فى تقديره للاداء ، فيصبح عاجزا عن تحمل المسئوليات الشخصية فى ضعف من الارادة لا يحسد عليه ، حتى أن بعضهم وهو يعمل فى أشرف المهن وأرقاها يعجز عن تأدية أبسط الشعائر الدينية ، مما يدرسه فى المناهج للاجيال التى عهدت اليه الدولة برعايتها .

حياة المدمن المنزلية :

أما حياة المدمن المنزلية فتشكل مأساة على أطفاله الصغار ، فالعبء المادى كله يكاد يلقيه على الزوجة لضياع ماله فى هذه السموم ، وهو يعيش كشبح ضائع بشخصية مهزوزة ، منصرفا الى شهواته ، لا يتنبه للفضائل مرة التى غاب عنها مرات .. وكثيرا ماترفض الزوجة الواعية هذه الاوضاع الشاذة ، فيكون جزاؤها التعذيب البدنى واهدار الكرامة فى هذا الزوج الاهوج أمام صغارها البؤساء ، فيعانون أبشع الآلام النفسية التى تعوقهم عن التقدم نحو النمو الكامل وتؤثر على صحتهم النفسية

ويصابون نتيجة ذلك بأمراض الاضطراب النفسي والانحراف في السلوك .

المخدرات وتأثيرها على التلميذ في المدرسة :

وقد صادفت في أحد الاعـــوام عائل أسرة احــدى التلميذات كان يعمل في مجال الحرف الحــرة ، وقـــد ابتلاه الله بهذا الداء الوبيل حتى صار في أخطر مراحل الادمان لدرجة أنه حينما مرض ولده الذي يساعده على الكسب عجز عن سداد ايجار مسكن أسرته التي كادت تتضور جوعا ولولا عطف أهل الخير كمـــا حكت الى ابنته التلميذة المعذبة وأمها التعيسة حيث جاءت الام بابنتها للعلاج من اضطرابات نفسية كانت تعاني منها أدت الى تأخرها الدراسي وتكرر شكوى المدرسة منها .

وعلى الرغم من قسوة هذه الظروف الا أن هذا الرجل وقد جاوز الستين من عمره كان يفضل الحصول على جرعة من الافيون ، وكان قد عجــز آنذاك عن هـــذا الحصول ، بفضل شدة العناية المبذولة أخيرا من أهل الامن للقبض على عصابات المخدرات .

وبفحص الابنة واجراء الاختبارات النفسية عليهـــا وبدراسة الجوانب الاجتماعية والنفسية لها ، وجد أنها على درجة عالية من الذكاء وأن سوء الخلافات الاسرية التي تحيط بها نتيجـــة ادمان الوالد المخدرات وكثرة الخلافات وتكرار الانفصـــال بينهما ، والعجز المالي والديون التي أصبحت تعاني منها الاسرة نتيجة الحـــاح الادمان على عائل الاسرة كل هـــذه الظـــروف أدت الى

اضطراب الفتاة نفسيا وأدت الى تأخرها الدراسى رغم ذكائها المرتفع .

نداء بمضاعفة جهد المسئولين للقضاء على هذا الداء اللعين :

لذلك فانى أهيب بالمسئولين أن يبذلوا كل الامكانيات العملية لحسم هذا الداء الوبيل فى أقرب وقت ، مع مضاعفة التوجيه السليم من جانب رجال الدين والعلم والفكر والفن والادب ، عن طريق وسائل الاعلام وعقد الندوات والاتصالات الشخصية ، كما أطالب بأن تفتح فورا جميع أبواب المستشفيات والمصحات والعيادات لعلاج هؤلاء المدمنين نفسيا وجسديا ، مع منحهم كافة الضمانات التى تحميهم من التبعات وتكفل لهم عدم خدش كرامتهم ، وتحتم كتمان أسرارهم لا سيما اذا كانوا موظفين قد يشجعهم الاطمئنان على الاهتمام بالعلاج .

ورجاء للمرضى ذوى المراكز الادبية المحترمة :

وقد طال اتعاسهم لاسرهم ، أن يواجهوا الامر بشجاعة وايمان بالله وأن يستعينوا بالطب فورا ، فالدولة لا تعاقب المدمن الذى يسعى نحو العلاج ، بل تشجعه وتقدر ظروفه .

٢ ـ معيشة الطفل مع احد الوالدين وافتقاره الى عطف الآخر وحمايته : اضرار الطلاق :

وكثيرا ما ينتهى تسرع الوالدين بالانفصال دون نظر

الى مستقبل اطفالهما بأسوأ النتائج على الصغار الابرياء، ولا سيما اذا وجد الصغير نفسه معرضا فجأة للمعاملة الشائكة لزوج أمه القاسى أو زوجة أبيه الخالية من حنان الامومة وعطفها .

هناك أمر ينبغى الالتفات اليه هو أنه قد لوحظ أن معظم حالات الطلاق لا تقع الا فى اخطر مرحلة من مراحل الحمل وهى الشهر الاول أو أحد الشهور الاربعة الاولى منه ، حيث يحدث لكثير من الامهات تغيرات فسيولوجية طبيعية فى الجسم ناتجة عن انقطاع الطمث الشهرى وتكوين الجنين ، وينتج عن هذه التغيرات الجسدية تغيرات سيكولوجية نفسية مترتبة عليها . كضيق الصدر، وضعف التحمل ، والكراهية لبعض الاشياء من أطعمة وروائح وغيرها . وهذه الفترة هى التى يطلق عليها اسم « الوحم » الذى قد يطول أو يقصر باختلاف أمزجة النساء ، وقد يمتد الى كراهية الزوج نفسه نفسيا ، فيؤدى هذا الى بعض الخلافات الزوجية التى قد تمر بسلام لتحمل الزوج وحكمته وفهمه وتقديره لظروف زوجته من نفسه أو عن طريق أهل الخير ، أو الاصدقاء كما قد تؤدى الى تصدع الزوجة ثم انهيارها نتيجة حماقة الزوج وضيق أفقه وجهله بظروف زوجته أو عدم تقديره لمتاعبها وضعفها مع سماحه لاهل السوء بمعرفة أسرار الزوجية واقتحامها بالدس والتأويل .

ويتم الطلاق وينفصل الزوجان ، وتمر الايام حتى تضع الام وليدها فتعود اليها صحتها واتساع صدرها

ومرحها وقوة شخصيتها وتحملها وينتهى بها الامر اما بالعودة الى زوجهـــا الذى يكون قد قدر الامر فيسعد الاطفـال واما بالزواج من آخر ثأرا لـــكرامتها فيضيع الصغار المساكين ، وقد ينحرف بعضهم تنفيسا عن آلامه النفسية اذا لم يجد الرعاية الكافية ممن يحيطون به .

٣ - تعارض التيارات وتنازع الاهـــواء فى الاسرة وتفضيل الذكر على الانثى :

اختلاف معاملة كل من الوالدين للطفل من حنو زائد على أحدهما الى قسوة صارمة على الآخر أو بتفضيل الذكر على الانثى من أحد الابوين .

ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاف فى المعاملة يجعل الاطفال يشعرون بعدم الاحســـاس بالامن ويتولد لديهم الاحساس بالقلق النفسى ، والاكتئاب واخيرا فى بعض الاحيان يؤدى الى الانحراف فى السلوك .

لذلك فعلى الآباء والامهات أن يعاملوا الابنـاء معاملة واحدة فيها الحب والحنان والحزم ، فيها الاحترام ، والتقدير لشخصية الابنـاء جميعا دون تفرقة بينهم ، فيشبوا جميعا ولديهم المبادىء القوية التى يكون شعارها أن يحترم الصغير الكبير ، ويعطف الكبير على الصغير ويساعده وبذلك ينشأ الابناء فى جو أسرى شعاره المحبة والتعاون والاحترام .

٤ ـ تهديد التلميـذ فى المنزل بالذهاب الى المدرسة للتشنيع عليه :

أمام المدرسين وأمام زملائه كلما أخطأ يجعله ينظر الى المدرسة وكأنها خطر يهدد بالعقـوبة والالم يتذكرها ويحاول الهرب منها ، وقد يهرب فعلا دون أن يشعر المنزل بهذا الا اذا أخطرته المدرسة ، وهنا تتضح أهمية اخطار المدرسة للمنزل بغياب التلميذ لو زاد غيابه عن يوم أو يومين .

وهناك واقعة معينة من هذا النوع حدثت لفتاة وكان لهـا تأثير سيىء على نفسيتها أدى الى انهيـارها واضطرابها نفسـيا وكانت على وشك الانحراف فى السلوك .

كانت الفتاة فى السنة الخامسة بالمرحلة الابتدائية وقد توجهت الام الى المدرسة تشـكو من أن ابنتها حاولت سرقة ٢٥ قرشا تدعى انها ستذهب بها الى رحلة نظمتها المدرسة . وكانت الام تسرد هذه الواقعـة أمام الفصل وقد صدر منها الكثير من التعبيرات الجارحة التى تؤلم الفتاة نفسيا وتشعرها بالحرج والخجل والخـوف ولم تجد من ينقذها من هذا الموقف المؤلم . فقد كانت هنـاك رحلة فعلا نظمتها المدرسة ويحتاج الاشتراك فيها الى ٢٥ قرشا ولكنه ليس اجباريا ، ورغبة التلميذة الشديدة فى الانضمام اليها دفعتها الى زعم اجباريتها .

وفى اليوم التالى دفع الحياء الشديد من هذا الموقف تلك التلميذة الى الهرب من المدرسة فخرجت من البيت

على أنها ذاهبة الى المدرسة ولكنها لم تذهب بل صارت تتلكأ فى الشـــوارع حتى حان موعـد الانصراف من المدرسة فعادت الى المنزل وكأن شيئا لم يحدث .

وكعادة مدرسة الفصل أرسلت جاراتها من التلميذات للاطمئنان عليها ففوجئت أمها بالوضع فذهبت بهـا الى المدرسة ثانى يوم لتواصل الهجوم والتشنيع . ولـكن لحسن الحظ كانت مدرسة الفصل على قـدر من الفهم والتقدير للموقف الحرج التى تعرضت له هذه التلميذة فقابلت الامر بهدوء وأوضحت للأم أن هذا كان نتيجـة التشنيع القاسى الذى بدى منها فى اليوم السابق الذى كان على غير أساس من الحق وقررت المدرسة اعجابها بالابنة لنشاطها ثم استخلصت من الام رسم اشـتراك المعسكر الذى ألغته الظروف بعد ذلك .

وارتفعت معنويات الابنة وانتظمت مجتهـــــدة فى الدراسة وكان من الممـكن أن يؤدى الهرب من المدرسة لو أهمل علاجه الى أوخم العواقب .

٥ ـ الضعف العام :

العقل السليم فى الجسم السليم : فضعف صحة الطفل الجسمية كثيرا ما تعوقه عن التقدم الدراسى وبالتـالى تؤثر على الصحة النفسية للطفل وهناك أسباب متعددة قد تؤدي الي ضعف الطفل جسميا منها :

١ ـ سوء الموارد الاقتصـادية للاسرة :

هناك الكثير من الحالات التى لا حصر لها من ضعف الصحة الناتج عن سوء الحالة الاقتصادية للاسرة وعن الكثرة الزائدة لعدد الاخوة مما يحرم الطفل من الاحساس بالحنان والحب الذى هو غذاء الطفولة الاساسى فيحس بالضياع وبالتالى يفقد شهيته للطعـام وينتج عن ذلك ضعف الجسم للطفـل الذى يؤثر بالتالى على صحته النفسية .

٢ ـ التدليل الزائد للطفل :

مع الالحاح فى تناوله لكميات معينة من الطعام بالمنزل يفقده الشهية للأكل ويجعله يتلذذ بتعذيب الام الملهوفة عليه بالعزوف عن الأطعمة وخصـوصا اذا كان وحيـد الابوين ليرضى غروره وحبه للسيطرة وقطعا يؤدى هـذا الوضع الى ضعفه الجسمى وتأخره الدراسى وبالتـالى يؤثر على صحته النفسية .

وقد واجهتنى من خلال خبرتى العمليـة فى مجـال الطب النفسى للاطفال مشكلة ابنة تشكو أمها من سير ابنتها على هذه الطريقة وفقدانها للشهية ، الامر الذى أزعج الام وجعلها تلجأ الى طلب العلاج النفسى ولا سيما انها كانت بالاضافة الى ضعف شهيتها للطعام متأخرة فى تحصيلها الدراسى .

فوجهت الام سرا الى أن تعدل من معاملتها للابنة بعدم الالحاح عليها وترك الطعام فى مكانه لتذهب اليه تلقائيا

كلما احست بلذعات الجوع ووجهتها الى وجوب تجاهل الطفلة خلال تناولها للطعام فى شىء من الصبر والاتزان ، ثم لفت نظر الابنة فى أثناء الجلسات النفسية المنتظمة التى من خلالهـــا اتضح ان الابنة تشعر أن أمها تضغط عليها وتجبرها على الطعام فى وقت تشعر بالشبع وعدم الرغبة فى الاكل ، وأوضحت لها أن التأخر فى التحصيل الدراسى الذى تشكو منه المدرسات ناتج عن ضعف صحتها المترتب على عزوفها عن الطعام . فالعقل السليم فى الجسم السليم .

وأخذت منها وعدا بالاكل الطبيعى لاى شىء موجود بالمنزل وعدم البتر على أنواع الطعـــام لـكى يتحسن تحصيلها الدراسى وتصبح من المتفوقات . وفعلا تم هـذا وبعد ذلك تقدمت الفتاة تقدما ملحـوظا فى تحصيلها وأصبحت من المتفوقات ولا سيما أنها كانت على درجة كبيرة من الذكاء .

٣ ـ الذهاب الى المدرسة بدون افطار :

يصاب كثير من التلاميذ بالآعياء الذهنى والتأخير فى الفهم خصوصا فى الحصـــة الاولى لتعجل التلاميذ فى الخروج من المنزل مع البرد القارس بغير طعـام حرصا على مواعيد المدرسة ويحدث كثيرا حالات اعياء بل وانهيار نفسي والاحســـــاس بالدوخـة ومع الشرود الذهنى والاضطراب النفسى المعوق للفهم نتيجة ذلك .

لذلك من الضرورى على الاباء والامهـــات والمدرسين الإهتمام بتوجيه الابناء بتناول وجبة الافطار قبل الذهاب

الى المدرسة حتى يتمكنوا من التحصيل الدراسى السليم نتيجة التغذية المناسبة وحتى يتجنبوا آلام الجوع .

ويعتبر اللبن من أكثر المواد الغذائية تكاملا : فالشرب منه يوميا لو أمكن يمنح التكامل الصحى وليس أدل على ذلك سوى قصة المرأة السجينة التى حبسها أحد الخلفاء فى بغداد بالقصور الاسلامية هناك لانها خانت الامانة ، وكان الحكم عليها هو البقاء فى السجن بدون طعام أو شراب حتى الموت ولكن على الرغم من تنفيذ الاحكام بكل دقة فان المرأة ظلت حية بل وتتمتع بالصحة الجيدة شهورا كاملة ، فدهش الخليفة وتساءل عن السر فى الامر وعمن يزور السجينة فقيل له أن ابنتها تزورها كل يوم كوداع لها ، وان الابنة تفتش تفتيشا دقيقا حتى لا تخفى لامها طعاما أو شرابا ، ومع دهشة الخليفة حضر بنفسه تفتيش الابنة ثم أمر بادخالها على أمها وبعد ذلك راقبها من ثقب الزنزانة فوجدها ترضعها من ثديها لبنا هو سر حياتها ووفائها ، وحرصها على صلة الرحم بوالدتها غير مبالية بما قد يصيبها من الاخطار .

٤ ـ سلوك الوالدين :

أ ـ ويؤثر الاباء فى أبنائهم دون أن يشعروا عن طريق الايحاء ، وكثيرا ما يحدث أن طفلا يرفض اللبن لان الام قالت أنها لا تحب اللبن ، أو يرفضه لانه رفضه مرة ، فقالت الام أن ابنها لا يحب اللبن وبذلك ثبتت الفكرة عن طريق الايحاء الذى وجهته الام اليه ، وثبوت الفكرة

يؤدي وظيفة هامة وهو أن الطفل يصبح له خاصة مميزة يتكلم عنها الناس .

ب ــ بعض الامهات يضربن أسوأ المثل لاطفالهن بأن ينقطعن الى حد كبير عن تناول الطعام لتخفيف أوزانهن وبعض الاباء لا يتناول وجبة الافطار اما بسبب قصر المدة بين الاستيقاظ وترك المنزل للعمل ، أو بسبب الانهاك الناشيء من السهر فى الليلة السابقة أو غير ذلك .

وبعض الاباء يكثرن من التنبيهات فى أثناء تناول الطعام لتلقين آداب الاكل وتقاليده مما يصرف الطفل نفسه عن الطعام . ويجب أن يفهم الآباء أن الطفل يتعلم آداب المائدة بمرور الزمن عن طريق الممارسة المتدرجة لاعن طريق التلقين والشرح وبذلك يضعف الطفل نتيجة فقدان الشهية وبالتالى يؤثر على تحصيله الدراسى .

جـ ــ وكذلك يخطيء الآباء اذ يقومون باغراء بعض الاطفال أو باجبارهم أو باقناعهم بمختلف الوسائل لتناول الطعام عامة أو تناول نوع معين منه ، وهذا النوع من الاباء يكون عادة قلقا اما على الطفل واما على نفسه ، وفى الحالة الاخيرة يسقط قلقه الذاتى على الطفل . ويكون فقدان الشهية لدى الطفل أحيانا حيلة لا شعورية لعقاب الوالدين أو لعقاب الذات وهذا يحدث اذا أذنب الطفل ، وقد يعاقب نفسه بالاقلاع عن الطعام وكذلك اذا عاقبت الام طفلها فقد يقلع عن تناول الطعام عقابا لوالديه ولنفسه فى الوقت عينه .

وخلاصة القول أن الاطفال يتأثرون كثيرا من موقف آبائهم ازائهم عند تناول الطعام وكذلك من موقف الآباء

أنفسهم عند تناول الطعام ، الامر الذى يؤدى الى الضعف العام للطفل وبالتالى الى تأخره فى التحصيل الدراسى .

٥ ـ أسباب مرضية :

كالامساك وسوء الهضم وما يصاحب ذلك من أعراض ظاهرة كالقيىء واتساخ اللسان أو احتمال وجود اشتباه اصابة درنية مبتدئة او مصـــــادرة للتـــكوسينات (التوكسينات افرازات مؤذية تفرزها بؤر من العدوى المزمنة مثل التهاب اللوزتين المزمن) والتقيح الصديدى للثة او الكلى فهذه تقلل من الحيوية العامة ، فالطفـل المريض تتأثر جميع أجهزة جسمه بالمرض بما فيها الجهاز الهضمى ، وفى قلة الشهية للطعام الراحة له طول فترة المرض . وبانتهاء المرض تعود شهيته الى ما كانت عليه . وهنا يجب أن نتبين دائما هل كان فقـد الشهية لمرض جسمى أو سببا له .

ولا يتيسر ذلك الا بأخذ التاريخ المرضى المفصـــل والفحص الطبى الدقيق حتى يمكن تحـديد العلاقة بين الاثنين .

وأخيرا كى يتمكن الطفل من التقـــدم فى الناحية الدراسية ينبغى ان يكون بصحة جيدة وتغـذية سليمة لذلك اذا ظهر على الطفل الضعف العام ينبغى أن ندرس جميع العوامل الجسمية المحتملة وعلاجها ان وجـدت ، والتيقن من انه ليس هناك سبب مرضى لضعف الشهية وتدرس الظروف والمواقف التى تظهر فيها المشكلة .

كمـــا يجب على الوالدين التخلص من القلق الذى

يصتيبهما بخصوص ضعف شهية الطفل كما يجب عليهما أن يعلما أن مناسبة تناولَ الطعام فرصة ملائمة لمـــا يسمى « بالتعليم المصاحب » ورغم هذا فان الطفل يتخذ من تناول الطعام مناسبة يتعلم فيها الاعتماد على نفســه ويتعلم التعاون وما الى ذلك .

أما اذا امتنع القلق وأصبح عدم تناول الطعـــام فى احدى الوجبات أمرا عاديا لا يدعو الى القلق ، تقـــل الفرص التى يتخــــذها الطفل لاثبات ذاته بطرق غير مقبولة .

المعوقات النفسية وتأثيرها على الدراسة

١ ـ المرض أو الحادث المفاجيء للطفل :

يعوقه عن استطراد مواصلة الدراسة ، كما لو داهم التلميذ مرض مفاجيء ـ كالتهــاب الزائدة الدودية أو تعرضه للاصابة عن حريق مثلا . وهناك حالة ليلى آلتى ادى تعرضها لحادث حريق الى اضطرابها نفسـيا الامر الذى أثر على تحصيلها الدراسى .

كانت ليلى ـ من التلميذات النابهات فى الفصل اللاتى لا تنقطعن عن الحضور الى المدرسة ، وفجأة انقطعت أياما متواصلة عن المدرسة وتأخرت فى الدراسة وقد توجهت بعض التلميذات للتعرف على سبب غيابها ، فتبين أنهـا شبت بها النيران وكادت تقضى على حياتها لوصولها الى مرحلة الخطر الامر الذى أفقدها الامل فى الحيــاة ، وانتابها اليأس والبكاء المستمر الذى لا يتوقف وفقـدت شهيتها للطعام ، وكانت من الارق الـذى كان مصحوبا بخوف وقلق وآلام فى جميع أجزاء جسمها .

اصبحت فى حالة يأس واكتئاب حتى أن فكرة الموت سيطرت عليها وطلب منى والدها زيارتهـا لفحصها من

الناحية الطبية النفسية وعلاجها لانها أصبحت فى حالة نفسية غير مستقرة واكتئاب وفى حاجة الى علاج نفسى .

ومع مشاغلى بالعيادة وضغط العمل يكاد يجعل ذهابى الى زيارات منزلية للفحص الطبى النفسى مستحيلا ، ومع ذلك ذهبت اليها مع الحاج الوالد وتوسله لقلقه على ابنته التى أصبح جو الاسرة كئيبا بسبب حالتهـا النفسية المضطربة ، وبفحصها من الناحية الطبية والنفسية وجدت أن الاصابة لم تتمد نصفها الاسفل ، وأن والدتها تقوم بتقديم الرعاية الفائقة لها . ووجدت الفتاة فى حالة جزع وألم واكتئاب شديد واستمرت تسرد تفاصيل الحادث بدموع تملأ مقلتيها مما أصيبت به من دوار فى الحمام بسبب وقوعها فى اغماء ليقع عليها الاناء الكبير المغلى الذى كانت تستحم منه فى الحمام المحكم الاقفال خوفا من لذع برد الشتاء ، وكيف أنها كادت تلتهمها نيران موقد الكيروسين لولا جزع أختها الصغيرة التى كانت تصاحبها حتى خفت الام لانقاذها .

وبعد اشتراكى مع والدتها فى شكر الله على لطفه فى قضائه ، لاحظت تعبيرات على وجه الابنة توضح عن آلامها المبرحة لفقدانها الامل فى النجاح ، ولاحظت كذلك انتقال اليأس الى الام أيضا وهى تعبر عن عدم جدوى النجاح هذا العام لهذه الظروف الصعبة . قمت بعلاجها نفسيا مما تعانيه من قلق واكتئاب نفسى ، وبعث الامل فى نفسها ، وقد دفعنى تحسنها الى المواظبة فى زياراتى لها للمساعدة فى شفائها . مما تعانيه من آلام نفسية ويأس وفقدان أمل .

وقمت بالاتصال بالمدرسة لتعاون بدورها فى مساعدة هذه الابنة كى لا تفوتها فرصة الامتحان ، فوجدت تعاونا كبيرا من الناظرة من أنها رتبت مع زميلاتها النابهات بحيث تمر عليها واحدة منهن كل يوم لتعطيها كل ما فاتهـا من الدروس فى نفس اليوم حتى اذا استأنفت الدراسة بعد شفائها القريب باذن الله لم تجد جديدا عليها .

بدأت حالتهـا النفسية تتحسن ، وبدأ الامل يشع بنوره فى حياتها بعد يأس وظلام دام فترة من الزمن ، اخذت تتحمس للدراسة وكأنهـا خلقت من جديد ومر شهر على ملازمتها الفراش بعد ذلك ، ولم أنقطع عن زيارتها لمساعدتها على التغلب على الاضطراب النفسى الذى كانت تعانى منه . وأخيرا استطاعت بذكائهـا الفيـاض استعادة اتزانها النفسى وزوال أعراض الاكتئاب وتحسنت حالتها الجسمية واستطاعت أن تشـارك فى الدراسة بالمدرسة بعض الايام الدراسية قبل الامتحـان الرسمى الذى اجتازته فى نجاح .. بمجموع أهلها دخول مدرسة اعدادية مجاورة .

٢ ـ فقدان الطفل الثقة فى نفسه قد يكون :

نتيجة للتعجيز فى الامتحانات والجهل بأصولها ، اذ لابد أن يشتمل الاختبار على السهل المناسب للضعاف فى فصولهم ، وأن يشتمل أيضا على ما يحتاج الى تفكير مناسب فى دخول الاقوياء ، ويستحسن أن تكون معظم الاسئلة مقننة ذات اجابات محددة للضعاف ، وأن تشتمل

على قليل من الاسئلة العادية المحتاجة الى فكر وتنسيق في الاجابة عند المتوسطين والاقوياء .

ومن العوامل التي تؤدي الى فقدان ثقة الطفل في نفسه سوء معاملته وعقابه بقسوة ، والموازنة بينه وبين من هم أكفأ منه الامر الذي يولد في نفسه الغيرة والحقد على الآخرين مضافا الى ذلك فقدان الثقة بنفسه والشعور بالنقص وما يصاحب ذلك من اضطراب في السلوك والانحراف في التفكير .

لذلك ينبغي تشجيع الطفل في حالة فشله وبعث الامل فيه وموازنة الطفل بنفسه في مواقف أخرى تظهر فيها نجاحه وتفوقه مع عدم موازنته بآخرين ومحاولة اكتشاف نواحي التفوق فيه وتنميتها بكل الطرق الممكنة حتى لا يفقد الثقة في نفسه ويستمر في جوانب الدراسة بعزيمة لا تعرف اليأس .

٣ ـ الغرور والتعالي نتيجة التقدم التحصيلي عند بعض التلاميذ :

قد يؤدي الى الاهمال نتيجة للثقة الزائدة في النفس، واحيانا هذا يؤدي الى الفشل الدراسي لاحساس التلميذ بالملل وعدم الاقبال على حضور الدراسة والانتظام بالمدرسة . وعليه ينبغي على المدرسة مراعاة انشاء فصل خاص للمتفوقين ومده بالمحفزات ونوع الدراسة التي تتناسب مع هؤلاء الذين لديهم الذكاء المرتفع مع محاولة اكتشاف المواهب في كل منهم ومحاولة تنمية هذه

المواهب الامر الذى يؤدى فى النهاية الى خلق جيل بناء مبتكر ، يستطيع الخلق والابتكار فيساعد ذلك على التقدم الذى يعود فى النهاية بالخير على الوطن حاليا ومستقبلا .

٤ ـ اهتزاز العلاقات الانسانية بين التلاميذ :

فى معاملتهم مع بعضهم نتيجة لتفاوت الحالات الاقتصادية بين أسرهم وشعور بعض الفقراء بالنقص . وهناك حالات متعددة تعانى من احساس بالنقص الامر الذى يؤدى فى بعض الاحيان الى الاضطراب النفسى والتأخر الدراسى ومن هذه الحالات :

حال ابن العسكرى الفقير الذى كان يزاحمه تسعة اخوة رغم ضآلة مورد والده ، كان الطفل يتطلع الى زملائه فى حسرة لعجز أبيه عن احضار مدرس خصوصى له مثلهم لينجح ، وهناك ابن صاحب الورشة كان أبوه يخصص له فى كل مادة مدرسا مختصا وكان الولد يتباهى بهذا أمام زملائه وكأنه الطاووس الذى لا مثيل لجماله بين الطيور .

أحست مدرسة الفصل بذبول التلميذ الفقير نتيجة تطلعه خصوصا الى ابن صاحب الورشة هذا الذى يقل عنه ذكاء واجتهادا ، فتقربت منه وراعته نفسيا وعلميا وأكدت له أن الاحترام فى الحياة لا يكون بكثرة المال والغنى ، وانما يكون بغنى النفس وعزتها وحرصها على كرامتها بالاجتهاد والصبر والنجاح بالجهد الذاتى .

ثم وجهته المدرسة الى الحرص على تلقى كل المعلومات

التى تطرحها أى مدرسة فى أى مادة وعدم تناسيها أو الاستهتار بها ، وعدم اهمال أى واجب مدرسى منذ أول العام الدراسى .

وفعلا نفذ التلميذ فى اصرار وقوة ارادة التوجيهات بحذافيرها فارتفعت حالته المعنوية فتقدم على جميع زملائه فى امتحان النقل لدخول المدرسة الاعدادية .

مما سبق نرى أن مدرس الفصل له تأثير كبير على التلاميذ باحساسه وبتوجيهه وبمعاونته الرشيدة للتلاميذ عن طريق معرفة المشاكل الشخصية للمضطربين منهم ومساعدتهم فى حلها والتغلب عليها .

الاضطرابات النفسية في مراحل الدراسة

بعد انقضاء سنى الطفولة تبدأ المدرسة تهتم مع البيت فى مهمة مساعدة الاطفال على النمو الذهنى والانفعالى والاجتماعى ، وتزداد أهمية الدور الذى تقوم به المدرسة فى نمو شخصيته بازدياد تحرره من البيت .. فالمدرسة لا تقتصر على مجرد كونها مكانا يتردد الطفل فيه للمعرفة فحسب ، بل مجالا تتفتح فيه شخصية الصغير وتتضح وترقى وتترعرع فى جوها خير امكانياته وتنمو فاعليته مع المجتمع فاذا وفقت المدرسة فى تحقيق رسالتها على هذا النحو ، فقد وفقت فى أن تجعل لابنائها خير الامور ملاءمة لصحة نفوسهم .

وعلى الرغم من أن الاضطرابات النفسية يتوقع حدوثها بين التلاميذ الا أن الآباء والمدرسين فى أغلب الاحيـــان لا يدركون الى أى حد يمكن اعتبار سلوك الطفل سلوكا طبيعيا ، ومتى تبدأ الحاجة لمساعدته والاسراع فى علاجه من الناحية الطبية النفسية وفى كثير من الحالات يحتاج الآباء والمدرسون الى التبصير عما اذا كان الطفل يحتاج فعلا الى العلاج عند ظهور هذا الاضطراب الانفعالى او السلوك غير السوى .

العوامل التي تساعد على ظهور الاضطرابات النفسية للتلاميذ وكيفية علاجها :

١ ـ الكيان الخارجي للمدرسة : وهذا يشمل المرافق المدرسية على اختلافها ، ولقد يتسنى للبعض أن يسأل عن مرافق المدرسة وعلاقتها بالصحة النفسية وليست الاجابة على هذا السؤال بالامر العسير ، ولا يصعب على أى منا أن يرى أثر البناء الجميل والفصول الرحبة ذات الاضاءة الجيدة والتهوية الكافية والفناء المتسع وقاعات النشاط على اختلاف صورها ، وتسهيلات اللعب للصغار وتوفير الملاعب لكبارهم وغير ذلك لا ينطوى تحت المرافق المدرسية من تنمية المشاعر المحببة لدى التلاميذ نحو مدرستهم يزداد ميلهم الى التعليم ، ومن اتاحة الفرصة الملائمة للمدرسة للنهوض برسالتها فى تحقيق النمو ثم النضج للنهوض للتلاميذ فى الجوانب الصحية والذهنية والاجتماعية والنفسية معا .

٢ ـ الامتحانات بوضعها الحالى : اكتسبت الامتحانات اهمية كبرى فصارت هى هدف التلميذ والوالد وجميع افراد الهيئة المشرفة على التعليم ، وتستعمل الامتحانات سلاحا يتحكم فى مستقبل المتعلمين ، وكان الواجب ان يكون وسيلة لارشادهم وتوجيههم . وترتبط الامتحانات فى ذهن التلميذ بالخوف والذعر من الفشل فى أدائها ويصبح التلميذ فى حالة نفسية مضطربة مما يضطر الاباء فى بعض الاحيان الى عرض أبنائهم للعلاج الطبى النفسى من الاضطرابات النفسية التى تصيب الابناء فتكون نتيجة الخوف الذى يصيبهم عند قرب موعد الامتحان .

وبسبب هذه النظرة الى الامتحانات والتعليم لم يكن هناك مانع من حشد الفصول الدراسية بأكبر عدد ممكن من التلاميذ مما زاد عدد التـــلاميذ في المدارس زيادة لا يتأتى منها أي تعليم منتج أو أي ارشاد مثمر ، واستحال على المعلمين معرفة تلاميذهم معرفة حقيقية وبذلك فقد التلميذ الشعور بالاطمئنان .

يتعين من هذا كله أهمية تعديل نظرة المتعلمين والمعلمين وولاة الامور الى هدف التعليم وما يترتب على هذا التعديل من تعديل جو المدرسة ونظامها العام وما يترتب على هذا كله من نتائج بالنسبة للتلاميذ أنفسهم وعدم احساسهم بالذعر والخوف الذى يصيبهم من جراء الخـــوف من الفشل فى الامتحان الامر الـذى يؤدى الى الانهيارات النفسية والانحراف فى السلوك .

٣ ـ الواجبات المدرسية بصورتها الحالية : ان الآباء والامهات أصبحوا الان يعانون من ذلك وأصبحت الواجبات عبئا ثقيلا على التلاميذ انفسهم لان المدارس الان أصبحت تعتمد كثيرا على البيت الذى ربما أعطى فـــوق طاقة التلميذ . وهذا الاتجاه له ضرر كبير على الصحة النفسية للتلميـــذ وتعرضه للاضطرابات النفسية لانه يحرمه الاعتماد على نفسه فى القيام بمفرده لعمل الواجب لانه فوق قدرته وبذلك يحرمه من لذة الشعور بالثقة بالنفس .. وقد تظهر عليه أعراض القلق النفسى والخوف من الفشل ، ومن التعرض للعقاب ، فيصبح غير مســـتقر نفسيا . ويبدو هذا الاضطراب الداخلى بأعراض مختلفة كالكذب والسرقة وأحلام اليقظة .. الخ . من مظـاهر الاضطراب النفسى .

والحل لهذا الموقف أن يكون دور الاباء فى هذا المجال لا يتعدى التوجيه والارشاد بصورة بعيدة عن الانفعال مع مراعاة حالة الطفل النفسية ، واعطاؤه الفرصة كى يعتمد على نفسه فى عمل الواجب وشعوره بلذة النجاح حتى يتمكن من ذلك وتصبح الدراسة لديه متعة لارتباطها فى نفسه بمشاعر محببة اليه .

٤ ـ المناهج الدراسية الحالية وتكدسها بالمواد المختلفة : هذا الوضع لا يدفع التلميذ الى التعلم باثارة الرغبة فى نفسه وتذوق المادة الدراسية عن طريق التكشف ، وانا نعرف عددا كبيرا من حالات التأخر الدراسى وما يصحبه من فشل أو شقاء وعزوف عن عن المعرفة وانسحاب عن الحياة عموما كان مبعثها منهجا دراسيا أو مدرسا أثار فى نفس الصغير الشعور بالصد والكراهية والعجز .

٥ ـ عدم توفير الانشطة الاجتماعية والرياضية بالمدرسة : يترتب عن ذلك ان يكتفى بأن يذهب التلميذ الى المدرسة ويجلس أمام مدرسه ليتقبل ما يعطى له من معلومات ، وبجانبه تلاميذ آخرون ، لا تربطه بهم أية علاقة ، والمدرس أيضا لا تربطه بتلاميذه أى علاقة أكثر من علاقة التلقين ، بهذه الصورة تفقد المدرسة عاملا هاما هو خلق جو اجتماعى يشترك فيه التلميذ ويتفاعل معه وينتمى اليه فهذا الجو يقتل الحياة الاجتماعية بل قد يخلق نفسه أجواء اجتماعية غير صالحة .

لهذا نرى التلاميذ يفصحون عما عندهم من نشاط دفين بطريقة غير موجهة فى التدخين والتخريب

والاضراب وتكوين العصابات ، الى غير ذلك من الاضطرابات السلوكية المختلفة التى تستدعى فى النهاية ضرورة الاسراع فى علاجها . لذلك ينبغى توفير الانشطة المدرسية المختلفة للتلاميذ المساعدة على النمو الاجتماعى ولاشباع حاجاتهم النفسية فى المساهمة مع الغير وتكوين علاقات خارج دائرة الاسرة والتى تعينهم على اتاحة الفرصة لتلبية حاجة الطفل والقبول والتعبير عن الذات وتنمية المهارات الحركية والاجتماعية كما ينعكس أثره آخر الامر على شخصية التلميذ وصحته البدنية والنفسية معا .

٦ ـ سوء معاملة المدرس للتلميذ واستخدام الضرب والقسوة كوسيلة لعقابه : هذا الاتجاه يؤدى الى اثارة الخوف والاضطراب فى نفوس التلاميذ وكراهيتهم للمدرسة وهروبهم منها الامر الذى يؤدى الى ظهور اعراض الاضطراب النفسى بصوره المتعددة .

لذلك ينبغى أن يعد المدرس بحث يستطيع النهوض بدوره التربوى على خير وجه ، لانه يترك فى نفوس التلاميذ أثرا قويا فهو بوسعه القيام بأدوار متعددة كما ذكرت سابقا فهو يقوم بدور الاب وبدور المشرف ودور المعلم ودور الرئيس ودور الصديق والموجه والمعالج .. وتختلف أهمية الدور الذى يقوم به المدرس فى نفوس تلاميذه وفقا لشخصيته من ناحية وسن التلاميذ الذين يشرف عليهم من ناحية أخرى .

الاضطرابات النفسية للتـــلاميذ فى مراحل الدراسة المختلفة :

ان التلميذ الذى تظهر عليه بعض أعراض غير مألوفة مثل الميل فجأة الى الانطواء أو الخوف الذى لا مبرر له فى بعض الاشياء المألوفة العادية لا يصح أن يعد على الفـور مريضا لان هذه الاستجابات قد تكون عابرة ولـكن يمكن اعتبار هذه الاستجابات مرضية اذا حدثت بصورة متكررة، أو اذا استمرت لفترة طويلة ، فانها فى هـذه الحـالة تقتضى الملاحظة المدققة الجادة والبحث عن مصادر القلق والخوف المتعمقة جذورها فى الداخل .. وفى هـذا الوقت ينبغى أن يعرض التلميـــــذ على طبيب نفسى للاستشارة والمساعدة فى العلاج .

ففى المراحل الاولى من تكوين التلميذ قد يبدأ حيـاته المدرسية فتظهر بعض المشـــاكل الصغيرة للتكييف مع المجتمع المدرسى الجديد ، فاذا أظهر الطفل خوفا حقيقيا من المدرســـة ورفض الذهاب اليها فان ذلك قد يكون علامة خطيرة لاضطراب التكيف الداخلى ، وكذلك ممـا يدعو الى الاهتمـام استمرار ابتلال الفـــراش ومص الاصابع أو الخوف من الاصابة بالمرض .

وكذلك يميل الطفل فى هذه المرحلة الى الحـــركة والنشاط والاعمال اليومية فاذا استمر ميل الطفل الى الانطواء والرقاد لفترة طويلة أو الاستغراق فى احـلام

اليقظة مع عدم ميل الى المشاركة فى أى نشاط حركى أو بدورها أو الميل الىاشعال النار بالكبريت أو اذا استمرت نوبات الذعر الشديدة المتكررة فى ظروف معينة مع دوام الشعور العدائى ضد الوالدين فان هذه جميعا علامات الاضراب النفسى وتحتاج الى المشورة الطبية النفسية .

أما فى المرحلة التالية للدراسة : أى فى المراحل التى تبدأ فيها مرحلة المراهقة حيث تبدأ بتغيرات بدنية وفسيولوجية وذهنية واجتماعية هامة فى الظهور فينعكس اثر هذه التغيرات على حاجة المراهق . الحاجة الى القبول من الغير ، والى أن ينعم بالاستقلال أى بالتحرر من الاعتماد الانفعالى والذهنى على أسرته وأخيرا حاجاته من ان يحاول الوصول الى قدر ملائم من التكيف مع الجنس الآخر تمهيدا للاضطلاع الموفق الناجح بمسئوليات الحياة الزوجية فيما بعد .

فى هذه المرحلة يتعرض المراهق الى صراعات مختلفة مع بيئته وذلك لشدة حساسيته للمؤثرات الخارجية ولاى نوع من الضغوط النفسية سواء كانت داخلية أو خارجية وحيث تكون كافية فى بعض الاحيان لاحداث الاضطراب النفسى الذى تختلف شدته بنسبة مقاومة الشخص لهذه الصراعات تبدأ من القلق النفسى الى الامراض النفسية الشديدة مع الهستيريا والوسواس القهرى والخوف المرضى ومرض انفصام الذهن .

وتظهر الاضطرابات السلوكية والانفعالية فى مرحلة المراهقة : بصور مختلفة منها نوبات الصراخ،وأحلام اليقظة والانطواء والانحرافات السلوكية المختلفة كالخجل والهروب من المدرسة ومن المنزل وكذلك ظهور شلل

الاحداث والاتجاهات الاجرامية وادمان الكحول والميل الى الانحرافات الجنسية .. الخ .

واذا كان مصير هذه الاعراض التجاهل وعدم الاهتمام فى الاسراع فى علاجها واعتبارها عملية تكيف مع المجتمع سوف يفقد المراهق وقتا ثمينا كان من الأجدى أن يبدأ فيه العلاج .

الاضطرابات النفسية البدنية :

من أهم أعراض الاضطراب النفسى عند الطفل الامراض الجسمية خاصة آلام البطن والقيء والغثيان وما يتلو ذلك من فقد الشهية ، وفقد الوزن وهناك كثير من الاطفال الذين يتعرضون لعمليات جراحية خاصة كاستئصال اللوزتين وكذلك استئصال الزائدة الـــدودية وذلك تحت تأثير الاعتقاد بأن آلام البطن سببها هذه الامراض . ولكن الآلام تستمر بعد اجراء الجراحة ، ويكتشف الطبيب بعد مدة طويلة أن هذه آلام نفسية وان الطفل يعبر عن اضطرابه النفسى من خلال هذه الآلام فى الصباح قبل الذهاب الى المدرسة ، وبذلك تتيح للطفـــل فرصـــة التغيب عن المدرسة ، بل واحيـــانا يقتصر حدوث هـــذه الآلام على أيام خاصة ، كأن تحـــــدث فى اليوم الخاص بدرس الرياضة أو اللغة العربية .. الخ لان الطفل يخشى مدرس أو مدرسة هذه المادة وهنـــا يعبر عن استيائه وخوفه وقلقه من خلال هذه الآلام .

وبهذه المناسبة أذكر حالة ذلك الطفل الذى كان يشعر بأن مدرسة الرياضة تسىء معـاملته دائما وتهينه أمام زملائه وتستخف بآرائه وتسخر منه ، بدأ هـذا الطفل يعانى من الام البطن والقيىء مرتين أسبوعيا .. وحار الاطباء فى أمره ، وأجريت له عمليات أستئصال الزائدة الدودية وكذلك اللوزتين واستمرت البحوث والتحـاليل لشهور عديدة دون جدوى حتى استبد الفزع بالوالدين على صحة الطفل .. وأخيرا أشير بتحويله للفحص الطبى النفسى كمحاولة للعـلاج ، فتبين بالعلاج النفسى لهذا الطفل ان هذه الآلام لا يعـانى منها الا أثناء أيام دروس الرياضة .. وبعـد شرح الامر للمدرسة وبدء تحسـين معاملتها .. اختفت الآلام نهائيا واقدم الطفل على المدرسة بحماس ولا سيما حين بدأت المدرسة تشجعه وترفع من معنوياته الامر الذى أدى فى النهاية الى النجاح بتفوق .

الاكتئاب النفسى والطفـل : وعلى الرغم من تعـدد المظاهر التى يعبر بهـا الطفـل عن اضطرابه النفسى ، فأحيانا يشكو من الاكتئاب مباشرة ويبدأ فى البكاء من أقل سبب ويكون سريع الاثارة ويضطرب نومه ويفقـد شهيته وينعزل عن أصـحابه ، ويرفض الذهاب الى المدرسة وفى أحوال نادرة يقدم على الانتحار . ويبدو أن الانتحار بالنسبة للطفل احتمال بعيد التحقق . ولكننا فى بعض الاحيان نواجه هذه المشكلة ، وهى تدل على مدى عمق الاكتئاب والحزن اللذين انتابا الطفل وعـدم فهم المحيط به لمشاعره وأحاسيسه .

وأيا كان الامر فان الاعراض العضوية ، والسلوك الغريب ، والانقباض النفسى والعزلة عن الاخرين ينبغى أن تكون موضع الاهتمام عندما نلاحظ على الاطفال وخاصة عندما لا يجد طبيب الاطفال سببا عضويا يؤدى الى ظهورها .. هنا يجب أن يكون ذلك علامة انذار بحاجة الطفل الى عرضه على الطبيب النفسى للفحص والعلاج .

العلاج النفسى للاطفال :

يمر علاج هؤلاء الاطفال المضطربين نفسيا (الذين يعانون من اضطرابات سلوكية أو انفعالية أو صعوبات فى النطق أو تأخر فى التحصيل الدراسى) .

بثلاث مراحل :

١ ـ محاولة فهم المحيط العائلى وعلاقة الطفل بالوالدين والاخوة مع محاولة تنظيم هذه العلاقة الدقيقة حتى لا يكون الطفل معرضا للعودة للاضطراب النفسى وتوجيه الوالدين الى كيفية معاملته وذلك بعد دراسة ومعرفة العوامل التى أدت الى ظهور أعراض المرض النفسى .

٢ ـ دراسة المناخ المدرسى وعلاقة الطفل بزملائه ومدرسيه ، وقدرته على التحصيل لانه ربما قد وضع فى

مدرسة تحتاج ألى مستوى ذكاء أكثر من قدرته .. وبهذا نظلمه ويضغط الوالدان عليه وهو غير قادر على مجاراة زملائه فى الدراسة فتبدأ الشكوى من الامراض السابق ذكرها .

٣ — العلاج النفسى للطفل : سواء عن طريق اللعب أو الرسم لاكتشاف الصراعات الداخلية له ومحاولة تبين ما اذا كان الطفل سويا أو منحرفا وعما اذا كان السبب فى انحرافه القلق أو الخوف أو الشعور بالنقص ، أو الاحساس بالذنب أو الوسواس وعلى ضوء معرفة سبب الاضطراب النفسى يتجه العلاج النفسى للطفل .

٤ — العلاج الدوائى : يمكن استخدام العلاج الدوائى وهو صيحة جديدة فى علاج الاضطرابات النفسية للاطفال ، اذ يبدو أن المؤثرات البيئية قد تؤثر أحيانا فى هرمونات الجهاز العصبى للطفل وتبدأ حلقة مفرغة يجب وقفها بالعقاقير المضادة للاضطراب السلوكى والاكتئاب، ولكن تعطى بجرعات تقل كثيرا عما يستعمل الكبار .

٥ — توجيه الوالدين والمدرسة : معظم الاضطرابات النفسية للاطفال يحتمل أن يكون سببها عدم فهم حاجات الطفل النفسية فى مراحل العمر المختلفة سواء من جانب الاسرة أو من جانب المدرسة ، وذلك فانه من الاسس الهامة فى العلاج النفسى للاطفال هو توجيه الوالدين الى كيفية التعامل مع الطفل نفسيا والاقلاع عن القسوة فى معاملتهم حتى يمكن الوصول الى تخلص الاطفال من الاعراض النفسية التى يعانون منها والتى تهز العلاقة بينهم وبين أسرتهم والمدرسة .

وفي بعض الاحيان يكون اتجاه المدرسين نحو الطفل عدم الالتجاء الى حسن معاملته بالاسلوب التربوى الصحيح فيؤدى ذلك الى اضطرابه نفسيا ويظهر ذلك فى اضطراب السلوك ، ولذلك فالاتصال بالمدرسة (كجزء من العلاج) يعد فى غاية الاهمية لتوجيه المدرسين الذين يتعاملون معه بأهمية التشجيع وعدم التقريع حتى يستطيع الطفل أن يتجاوب فى المدرسة بصورة مرضية مع محاولة تنمية قدراته بكل الطرق الممكنة .

وفي بعض الاحيان يكون أحد الوالدين أو كلاهما فى حالة اضطراب نفسي ، ويسقطون هذا الاضطراب النفسى على الطفل فيسيئون اليه ويعاملونه بالقسوة دون مبرر . فيؤدى ذلك الى اضراب الطفل نفسيا وسلوكيا ويتأخر دراسيا ويعرض للمشورة الطبية النفسية ، فى هذه الحالة كجزء هام من العلاج هو علاج الوالدين ومساعدتهم بتوجيههم الى كيفية معاملة الطفل مع استمرار علاجه نفسيا ودوائيا .

مما سبق يمكننا أن ندرك أن الطب النفسى للاطفال(*)

(*) الطب النفسى للاطفال هدفه كغيره من فروع الطب الاخرى كما يلى :

(١) اكتشاف وعلاج الامراض النفسية للاطفال في مرحلة مبكرة ما أمكن ذلك وفي هذا فضلا عن العلاج فى مرحلة الطفولة ، وقاية من المرض فى المراحل القادمة .

(٢) التوجيه الفردى أو الجماعي الى أساليب التنشئة السليمة وذلك لتجنب اصابة الطفل بالاضطراب النفسى بقدر الامكان وبذلك فانه من الامور الهامة أن يعرف الناس أن اصابة الطفل ببعض الاضطرابات النفسية في مرحلة الطفولة المبكرة في حياته تؤثر تأثيرا كبيرا فى نمو شخصيته فيما بعد ويصبح الاتجاه المنحرف هو الوضع السائد لسلوكه المضطرب .

أصبح اليوم ضرورة جوهرية لا سبيل الى الاستغناء عنها أو التساهل فيها اذا شئنا أن ننهض بواجبنا كاملا ازاء الطفل وازاء الوطن على حد سواء أى اذا شئنا أن نعد الطفل اليوم لتحمل تبعات الغد مع القدرة على ان ينعم بحياته معا .

وحيث أن الطفل فى حالة نمو مستمر جسميا وعقليا وانفعاليا واجتماعيا فظهور الاضطرابات فى جانب من النمو مثلا فى النمو الانفعالى أو الجسمى سوف يعوق نمو الجوانب الاخرى لذلك فالتبكير فى عرض الطفل على الطبيب النفسى للمشورة للعلاج يجنب الكثير من مضاعفات التأخير فى العلاج .

وأخيرا أوجه النصيحة للآباء والامهات أن السبب فى الاضطرابات النفسية لاطفالنا فى أننا لا نحترم شعورهم وأحاسيسهم ولا نعطيهم المقدار الكافى من الحب والاستقرار العاطفى ولا نشبع حاجتهم الى الرعاية فاذا تذكرنا ان الطفل انسان شديد الحساسية وأن له حقوقا ينبغى أن تلبى ، وحاجات ينبغى أن تشبع فاننا فى نفس الوقت نتيح له الفرصة بطريق غير مباشر لكى يشعر ويحس بأن الحياة تستحق أن يعيشها مستمتعا وسعيدا .

المدرسة والصحة النفسية للمعوقين

ان أى برنامج طبى لرعاية التلاميذ يجب أن يأخذ فى الاعتبار ما يجب أن يقـــدم للتلميذ الذى أصبح نتيجة للمرض أو الحوادث أو الوراثة فى عداد غير الاسوياء ، فأصبح ، فى حاجة الى نوع خاص من التعليم يناسب عاهته أو نقص حالته الخاصة .

كما أن أى برنامج تربوى لتعليم الموقين يجب أن يقوم على أساس الفحص والتشخيص الطبى .

أهمية رعاية المعوقين :

فالاطفال المعوقون هم قبل كل شىء مواطنون لهم حق الرعاية الواجبة لاى مواطن آخر ، بمعنى اننا لا نستطيع اليوم أن نعتبر الرعاية وقفا على طبقة أو طائفة دون طائفة أو على من يســـــتطيع أن يدفـع الثمن فقط ، فمن لا يستطع كثيرون فى زوايا النسيان ويسدل عليهم ستار الاهمال . ولكنهم أيضا بالاضافة الى حقهم الطبيعى فى العلاج والتربية والرعاية الاجتمـــاعية والاقتصادية لهم خطرهم على المجتمع اذا أهملوا ــ فقد يستغل المعوقون

استغلالا سيئا من الوجهة الاقتصـــــادية أو الاخلاقية لضعفهم أو جهلهم أو قصورهم العقلى وقــد يستسلمون لهذا الاستغلال جريا وراء لقمة العيش أو لخضوعهم لذوى الاغراض .. الفاسدة من البلطجية والقوادين وتجـــــار المخدرات وغيرهم .

ولكن اذا بذلت لهم الرعاية الواجبــة من الدولة بصفة خاصة تمكنوا من الحياة الشريفة والعيش الـكريم على مستوى اقتصادى معقول يمكنهم من الاندماج كمواطنين اقوياء فى عداد جنود المجتمع .

المعوقون أكثر تعرضا للأمراض :

هذا ومن الحقائق الثابتة احصائيا ان المعـوقين أكثر تعرضا للأمراض ، وهى حقيقة تؤيد ضرورة زيادة العناية بهم فى الهيئات الصحية فضـــلا عن حاجتهم الى التربية والتعليم للوقاية من هذه الامراض ، ولا شك أن مصلحة المجتمع تقضى برعايتهم ولو من الوجهة الانسانية .

ان وزارة الصحة لتستطيع أن تقدم الكثير من المعونة والرعاية للمعوقين بواسطة أجهزتها المختلفة التشخصية والوقائية والعلاجية والتثقيفية كما يلى :

١ ـ اكتشاف الحالات :

لابد من اكتشاف هذه الحالات حتى ينظم تعليمهم بما يطابق ظروفهم وامكانياتهم والامكانيات القــائمة لافادتهم من التعليم .. وأما اذا ظلوا مجهولين ، فان النتيجة الحتمية أنهم ينضمون الى زمرة الأميين ــ الجهـــال أو

الذين ليس لهم مكان فى المجتمع أو يتعرضوا لاهمال غير مقصود لاغفال اكتشافهم . كما أن مشـاهدات المدرس وملاحظاته والفحوص الطبية التى تجرى لها أهميتهـا فى مساعدة هؤلاء الاطفال وتوجيه الاهتمام الذى يستحقونه لهم . وليس من الصعب عادة اكتشاف الطفل الاصم أو الذى به عجز بدنى واضح كالمصـاب بالشلل مثلا أو المنحرف فى الكلام ، ولكن حينما نبحث عن الطفل المصاب بالدرن ، أو المصاب بمرض فى القلب أو المصاب بالصرع ، فان الموقف قد يكون صعبا وقد يبقى بدون اكتشاف اذا لم يعتنى بالبحث عنهم .

وعملية الاستكشاف هـذه ليست عملية ميسرة كمـا قد يتطـرق الى الذهن لاول وهلة فان الطبيب يستطيع الكشف على مريض أتى اليه وشكا مرضه . ولكن المعوقين مندمجون فى مجموع الشعب العام ، وفى المدارس أو منزوون فى بيوتهم وفى كثير من الحالات لا يعرفون أنهم معوقون ، فالطفل الصغير أو ضعيف السمع قد لا يعرف أهله أنه أصم أو ضعيف السمع حتى يكبر . وقد يعزى عدم نطقه بالكلام الى انه تأخر وقتى فقط ، لان عمه أو خاله تأخر فى النطق هو أيضـا وهو صغير .. وقـد تحتاج الام الى من ينبهها الى حالة طفلهـا والى اجراء اختبار خاص لمعرفة حقيقة حاله .. وعندئذ يحتاج الامر الى علاج قد ينجح أو لا ينجح كما ان الحالة قد تكون وراثية .

المدرسة افضل مكان لاستكشاف المعوقين :

ومع ان المعوقين موجودون فى بيوتهم أو فى المجتمع الا ان أسهل مكان لاستكشافهم هو المدارس ، فان طبيعة

تنظيمها وتخطيط خدمات الصحة المدرسية بها واشراف المعلم فيها ، والواجبات الملقاة على عاتق التلميذ بهـــا والاختبارات اليومية من شـــفوية وتحريرية وأوجه النشاط بها الى غير ذلك كله من شأنه أن يبرز ناحية النقص فى الطفل ، أو بعبارة أدق اختلافه عن مجموع الاسوياء من أقرانه .

قد يكون النقص بارزا وظاهرا :

غير أن ذلك النقص قد يـكون بارزا ظاهرا للعيـــان يدركه المعلم والتلاميذ بسهولة كما فى حالة العمى الـكلى أو الصم الكلى أو النقص العقلى الشديد ، اذ فى مثل تلك الحالات يكون وجود الطفل فى المدرسة العادية مستحيلا، ويمكن اكتشاف حالته فورا بالمعرفة العادية على يد المعلم، بل ان قبوله بالمدرسة يكون مســتحيلا فى حالة العمى التام فى كلتا العينين ، أما الصمم فقـد يستغرق بعض الوقت وكذلك الغباء والنقص العقلى .

قد يـكون النقص غير واضح : فى الحـــالات التى لا تكون فيها العاهة بارزة ، فقد يستمر الطفل وقتا يطول أو ينقص قبل أن يدرك أحد ضرورة العناية الخـاصة به وتوجيهه الى المدرسة المناسبة وأهم عنصر فى عملية الاستكشـاف هذه هو المعلم لانه بحكم عمله مع الطفـل وتقويمه لقدراته وانتاجه اليومى ، يستطيع أن يعرف لحد ما مقدار بعـده عن غالبية التـلاميذ أو مجموعهم وعليه في هذه الحالة تحويله الى الجهاز الطبى المختص

لفحصه وتقدير عاهته تقديرا دقيقا مع وصف العلاج اذا كانت هناك حاجة اليه .

ولذا وجب أن تشمل ثقافة المعلمين واعـداداهم بوجه عام قدرا مناسبا من دراسة التربية الخاصة بما فيهـا الناحية الطبية العامة .

٢ ـ العلاج الطبى للحالات التى تكتشف :

نتيجة للمشاهدات والملاحظـات من جانب المدرس وتعاون الوالدين والفحص الطبى الذى يجرى فى المدارس يمكن أن يتبع اكتشـاف هذه الحالات بعلاج قد يخفف من وطأة الحالة بواسـطة جهاز الصحة المدرسـية بالمدرسة ، أو بتحويل الطفل الى المعهد أر المؤسسة التى يمكن أن تعاون فى علاج حالته ولابد من تعرف المدرسين على قدرات هؤلاء التلاميذليعرفواحدودطاقاتهم ويتمشون معها . وهنا لابد أن يقرر أن الحالة الطبية للطفل لهـا المقام الاول فى الاعتبار قبل الحالة التعليمية فلا يجوز أن تحمل الطفل أكثر مما يتحمل . وبذلك نوفر للطفـل الصحة النفسية ويسـتطيع أن يتجاوب فى الدراسة التى تتناسب مع قدراته بصورة مرضية .

٣ ـ البرنامج التعليمى :

الاتجاه الحديث فى التعليم أن يطـابق الاحتياجات الفردية للتلاميذ ، وبالنسبة للاطفـال المعوقين توجيه العناية الفردية بتعليمهم لها بنوع خاص أهمية قصوى

وكلما لقى هؤلاء الاطفال عنـــاية فردية ، استفادوا من التعليم ، فبالنسبة مثلا للطفل ذى الانحراف الشديد فى ابصاره أو غير المستقر عاطفيا لابد للناظر أو المدرس أو الحكيمة أن يفهموا كل ما يستطاع عنه بما يمكنهم من رسم برنامج تربوى وصـــــحى فى نفس الوقت يلائم احتيـاجاتهم ويتطـابق مـع قـدرتهم وطبيعة انحراف المصابين به .

تركيز الاستفادة بامكانيات التلميذ للتعلم المناسب له :

ولا يكون التركيز على ما يستطيع القيام به لمـا لهـذا من الاهمية الكبرى من الناحية النفسية ينبغى أن نبحث فيما يتعلق بالطفل المصاب بمرض القلب مثلا ، عمـا يستطيع هذا الطفل أن يقوم به فعلا مع اهتمام أقل بما لا يستطيع أن يقوم به ، فلا يجوز حرمانه مثل هذا الطفل من أن يمارس النشاط الرياضى الذى يلائمه ، فقد يفيده ان يلعب مثلا تنس الطاولة أو ما يشـابهها من الالعاب البسيطة ولو ان الروماتيزم قد أصاب قلبه وكل ما ينبغى ان يكون اتجاهنا معه ايجابيا لا ســلبيا أى نركز على ما يستطيعه ونشجعه على القيـــام به ولا نركز على ما لا يستطيعه وبذلك يمكننا أن نستفيد من طاقاته وينمو نموا نفسيا سليما .

هل من الاصوب فصل المعوقين فى مدارس خاصة بهم ؟

تتنازع المربين فى التربية الخاصة فلسفتان ، احداهما تتلخص فى تعليم غير السوى جنبا الى جنب مع السوى ، والثانية تتلخص فى فصل غير الاسوياء فى مدارس خاصة بهم ولكل من الفلسفتين مزاياها وعيوبها ، كما أن هناك درجات من الجمع والفصل .

ففصلهم فى مدارس مستقلة يسهل عملية تعليمهم حيث تكون الابنية والافنية معدة لمجابهة العاهة التى لديهم بالذات .

ففى مدارس المكفوفين مثلا ـ وهى التى تعرف عندنا بمعاهد النور ـ يراعى عدم وجود حفر فى الطرقات أو الافنية أو الحديقة ، أو نباتات شوكية يتعرض لها الاطفال من غير سياج يقيهم منها ، أو أسياخ حديدية بارزة ، أو أكوام من التراب أو منحدرات عالية يتركها العمال مثلا فى مثل عمليات التربية والاصلاح .

وفى مدارس المشوهين جسميا ، والمقعدين تتحاشى الادوار العليا كلية وكذلك السلالم ولكن اذا دعت الضرورة اليها فتكون هناك مصاعد متسعة ـ يستطيع الاطفال الدخول فيها بكراسيهم المتحركة ذات العجلات أو بعكازهم وهكذا .

ويمكن القياس على ذلك فى أنواع المعاهد الاخرى حيث تتخذ أنواع من التكييف بنوع العاهة كالفانوس

السحرى والاذاعة من معـــــاهد الصم واستبدالهـا بالتليفزيون وهكذا .

عيوب ومميزات المدارس المستقلة :

يؤخذ على المدارس المستقلة أنها تحيل غير الاسوياء كطائفة وحدهم ، وتفصلهم عن المجتمع ، مما يؤثر فى تربيتهم الاجتماعية وفى حالتهم النفسية .

ولو أنه مما يعقد الامور أيضا ان الطفل غير السوى قد يرتاح الى وجوده مع طائفة حيث لا يشـعر بينهم بالنقص لانهم كلهم فيه سواء ، ينطلق وينسى عاهتـــه وترتاح أعصابه فضلا عن اطمئنانه الى وجود الامكانيات الكافية ، يقلل من توتر أعصابه الذى نتج عن حالةالتيقظ المستمر حين يكون فى المجتمع العام .

الفصول الملحقة بالمدارس العادية :

ولكن يحدث فى بعض الاحيان أن لا يتوفر العـــدد الكافي من الاطفال غير الاسوياء الذين يعـانون من عاهة معينة ، فيتعين اذن اما أن يتعلم الطفل فى فصول ملحقة بالمدارس العادية أو أن يلتحق بالاقسام الداخلية بمعاهد بعيدة عن بلده فيعانى من الاغتراب .

وأيا كان الحال فالادارة العامة للتربية الخـــاصة بوزارة التربية والتعليم ، قد أخـذت بكلا الفلسفتين ، تطبق كل منهما حيث تكون الظروف مواتية .

هدف تربية وتعليم غير الاسوياء :

ويتحكم فى التخطيط التربوى لغير الاسوياء الهدف الذى نرجوه من تربيتهم وتعليمهم فهذا يجب أن يكون واضحا فى واجهة كل من المخطط وواضع المنهج والمعلم والهدف المتفق عليه بين المربين جميعا وهو اعادة غير السوى الى المجتمع لا فصله عنه ، وتأهيله للعمل فيه كعضو منسجم تكيفا مع ظروفه على اختلافها ، قادر على كسب عيشه والوقوف على قدميه ، كى لا تعتمد صحته على الاحسان والبر الذى تجود به الدولة له أو الافراد أو الهيئات الخيرية .

٤ ـ البحث عما يعوض الطفل عن عجزه او انحرافه :

يميل الاطفال المعوقون جسميا أو حسيا أو تعليميا لان يعملوا على تعويض وجوه النقص التى بهم بأنواع من الممارسات ووجوه النشاط التى تعطيهم احساسا بالارتياح النفسى كأن يستعمل الطفل قصير النظر جدا نوعا من النظارات تمكنه من الابصار ، أو ضعاف السمع جهاز سمع يساعدهم على الاستماع ، والذى فقد أحد أطرافه قد يسعى للتعويض فى اكتساب مهارة فائقة فى استخدام الطرف الصناعى مما يجعله قريبا فى القدرة من الطفل السليم ، والطفل ذو العاهة فى نطقه أو كلامه قد يبحث عن تعويض فى اكتساب خبرة ممتازة فى الكتابة .. وهكذا .

والمدرس الفطن هو الذى يشجع مثل هذه التعويضات المفيدة لنفسية الطفل ، وهذا القسم من البرنامج له أهميته التى تأتى فى الدرجة بعد الاهتمام بالاحاطة الطبية والنفسية للطفل مباشرة . وينبغى أن يحسن توجيههم اليها ويعاونون على اكتسابها ويشجعون حينما ينجحون فى بلوغها .

٢ ـ المشكلة النفسية :

ان العاهة أيا كانت سواء فى المجال البدنى أو الحسى أو العقلى ، لها آثار نفسية على غير السوى وعلى المحيطين به أيضا .. فالمعوق يعانى من القلق أو التوتر أو الشعور بالدونية أو الشعور بالتعاسة وعدم القدرة على التوافق، كذلك يكون لديه أحيانا عدم الشعور بالامن أو الرضا وهذه كلها مشاعر خاصة يشعر بها صاحبها بدرجات متفاوتة تبعا لتركيب شخصيته وتبعا للاستجابات المختلفة التى يحصل عليها فى مختلف علاقاته فى محيط المجتمع الذى يعيش فيه .. ومما لا شك فيه أن هذه المشاعر التى ذكرتها تؤثر على الغير فهى تجعله يبذل الكثير من طاقاته النفسية التى كان يفترض أن ينتفع بها ويوجهها الى نواحى النشاط الاخرى لصالحه وصالح المجتمع .

فالواجب على المحيطين والقائمين على أمر غير السوى أن يحاطوا علما بتلك الآثار حتى لا يزيد الانحراف ، وحتى لا يصعب تعاملهم معه ، فغير السوى قد يكون ناقما على المجتمع أو قد يكون خائفا منه ، أو على

العكس قد يدلل بدرجة ضارة كما أن فى بعض حالات غير الاسوياء تكون العـــاهة مقرونة بحالة نفسية شاذة نشـأت اما بحكم العاهة أو بحكم الظـــــروف المحيطة بالشخص فى الاسرة أو فى العمل ، فى الطفـولة أو فى الكبر كما فى حالات غير الاسوياء المنحرفين من الوجهة الاجتماعية أو الجانحين والمجرمين بعبارة أخرى .

٦ ـ الخاتمة :

مما ســـــبق نرى أن دور المدرســــة فى توفير الصحة النفسية للمعوقين أهمية كبيرة فى مســـــاعدة الطفل ، فاذا نال الطفل الرعاية اللازمة كمـــا ذكرنا . فسوف نجد أن الطفل يتقدم تقدما ملموسا ويستطيع أن يكون عضوا فعالا منتجا يسعد به والــداه ويفخر الوطن بانتاجه بدلا من ان يكون عالة متطفلة غير منتجة وكى يتحقق ذلك يحتاج المدرس والوالدان الى ضبط النفس وأن يستخدموا العبارات الايجابية المشجعة والثناء ، وأن يتحاشوا النقاش والتهديدات والغضب كلما أمكن ذلك ولا يضغطوا على الطفل فوق طاقته فاذا أساء الطفــل التصرف بصورة عنيفــة ، فعلى المدرس والوالدين أن يوجهوه نحو نشاط بناء ، كما يجب أن يــكون الآباء والمدرسون يقظين للأدلة التى تشير الى التقدم ، وبعض هذه الادلة التى تستنتج من حركاته اليومية ، وغيرها من السلوك الذى يوضح مدى ودرجــة تقــدمه وبهــذا الاتجاه يمكن للمدرسة أن تحقق الصحة النفسية للطفل المعوق .

وفيما يلى تقريرا لاحد الدساتير التى يعمل بها جميع القائمين برعاية الاطفال المعوقين فى أكثر مراكز تأهيل المعوقين بأمريكا :

الاطفال يتعلمون ما يعيشون فيه :

اذا عاش الطفل فى جو من العـــداء .. تعلم كيف يتشاجر .

اذا عاش الطفل فى جو من اللؤم .. تعلم كيف يدين الآخرين .

اذا عاش الطفل فى جو من الخوف .. تعلم كيف يصبح جبانا مترددا .

اذا عاش الطفل فى جو من الحسد والغيرة .. تعلم الشعور بالذنب .

ولكن ..

اذا عاش الطفل فى جو من التشجيع والطمأنينة .. تعلم كيف يثق بنفسه .

اذا عاش الطفل فى جو من القبول والرضا .. تعلم الحب وتعلم الصبر .

اذا عاش الطفل فى جو من الثناء والمديح .. تعلم كيف يقدر الناس .

اذا عاش الطفل فى جو من التقدير .. تعلم أن يكون له هدف فى الحياة .

اذا عاش الطفل فى جو من الصـــداقة .. تعلم أن الحياة جميلة وأنها تستحق أن تحيا وعاش سعيدا .

المدرسة والصحة النفسية للمتخلفين عقليا

المعوقون هم أولئك الافراد أو الجماعات الذين يسميهم الناس بالشواذ الذين تنطوى شخصياتهم على سمات وخصائص قد تعمل على اعاقة نموهم وتفاعلهم وتوافقهم على نحو صحى سليم .. كما قد تحول بينهم وبين المساهمة الايجابية فى الحياة .

ومن أمثلة هذه الفئات :

المجرمون والاحداث والمنحرفون والبغايا .

المضطربون نفسيا وعقليا .

المعوقون عضويا كذوى العاهات الجسمية والبكم والصم والمكفوفى البصر والمتخلفين عقليا .

كل هذه الفئات تحتاج من العلم والدولة الى جهود كثيرة فى مجال الدراسة والبحث والتشخيص والعلاج والتوجيه والرعاية الاجتماعية على اختلاف أشكالها ، لكى تحول دون الاضرار والامراض الاجتماعية المتعلقة ببعض هذه الفئات .. ولكى نستفيد من الامكانيات البشرية الى أقصى درجة ممكنة مما يعود بالنفع والسعادة على الفرد والجماعة .

تصنيف فئات الموقين :

وتشمل الفئات التالية :

١ ــ أصحاب العجز البدنى : مثل المبتورين والمقعدين والمشوهين وهم الفاقدون لبعض الاعضاء أو الاطراف وفاقدوا وظيفة بعض الاعضاء مثل المشلولين .

٢ ــ أصحاب العجز الحسى كضعاف البصر وفاقديه والصم والبكم والمعوق بصريا ومن لا يمكنه الابصار المقيد فى الاعمال التى يؤديها غيره باستخدام البصر والاصم هو الذى حرم من حاسة السمع حرمانا تاما أو الذى فقد القدرة على السمع قبل أن يتاح له تعلم الكلام ، أو الذى فقدها عقب تعلمه الكلام ، مما أدى الى تعطل النطق عنده نتيجة فقدانه لاثار ما تعلم .

٣ ــ أصحاب العجز العقلى : ويدخل فى عدادهم مرضى العقل وضعاف العقول ، وهم الذين تقل نسبة ذكائهم عن ٧٠

وسوف أوضح فيما يلى النوع الاخير بالدراسة ودور الوالدين والمدرسة تجاه الاطفال المتخلفين عقليا حيث أن هذا النوع من العجز هو الاكثر شيوعا بين تلاميذ المدارس ويحتاج الى رعاية خاصة من المدرسة والاسرة والدولة .

الفرق بين التخلف العقلى والمرض العقلى :

يظن الكثيرون ان المتخلف عقليا والمريض شىء واحد .. ويعتبرون أن المتخلف عقليا على هذا الاساس يمكن شفاؤه من مرضه كالمريض عقليا .. ولكن الواضح غير

ذلك وأن كان هناك بعض الحالات الطفيفة التى يجتمع فيها التخلف العقلى والمرض العقلى فى شخص واحد .

فالمرض العقلى ـ نتيجة لاختلال التوازن العقلى وعدم انتظام القوى العقلية بسبب ما ـ يقدر ألا يكون مرضا عضويا مكتسبا (يصيب المخ) ويختلف المريض العقلى عن الشخص العادى فى النوع .

وأما التخلف العقلى : فهـــو نقص فى درجة الذكاء وغالبا ما يكون موروثا أو هو وقوف فى نمو المخ الى حد ما يختلف باختلاف درجة التخلف .. والفرق بين ناقص الذكاء (المتخلف عقليا) وبين الشخص العادى فى الدرجة وليست فى النوع .

والخلاصة أن التخلف العقلى شذوذ موروث غالبا .. يمكن ملاحظته من أيام الطفولة أما المرض العقلى فشذوذ مكتسب نتج أثناء الحياة فى فترة من فتراتها .

فالشخص المصاب بالتخلف العقلى هو الشخص الذى لا يسير نموه العقلى بصـــورة طبيعية يتناسب مع نموه البدنى ومع غيره من الاطفال الذين فى سنه .

أما فى حالة المرض العقلى (أو ما يعرف بالجنون) فان الطاقة أو الذكاء أو القدرة العقلية تكون موجودة بالطفل ولكن يوجد مرض أو اضطراب يرجع الى أسباب وراثية أو ازمات نفسية يواجهها الفرد فى المجتمع يجعل المريض شاذا فى تصرفاته عاجزا عن استخدام هذا الذكاء بمعنى أن الشخص المريض عقليا يكون متمتعا بذكاء طبيعى تماما ولكن الازمات التى تعرض لهـــا كانت جسيمة لدرجة يترتب عليها أن تصبح تصرفاته غير طبيعية تجعل الغير يصفونه بالجنون .

من هو الطفل المتخلف عقليا :

هو الطفل الذى لم يصل نموه العقلى الى غايته فيقل الذكاء عن المتوسط ويتصف الطفل بالعجز فى جوانب العقل الثلاثة الادراك والوجدان والنزوع .

ولذلك فالطفل المتخلف عقليا اقل قدرة على الفهم عن الاطفال العاديين وأقل ادراكا وأقل اســتعدادا للتعليم وقدرته على التذكر والفهم والتفكير محدودة .

ولذلك فالعاملون فى المدارس عليهم ضرورة اعتبار كل طفل شخصية مستقلة ومعاملته على هذا الاساس مع بذل الجهد لتنمية طاقته الى أقصى حد برغم ان قدراته العقلية محدودة ويراعى فى هذا الاتجاه تفرد كل طفل عن غيره بمميزاته الخاصة وقدراته الفردية ومواطن الضعف فيها وبيئته العائلة .. الخ .

اسباب التخلف العقلى :

يمكن ارجاع معظم حالات التخلف العقلى الى اسباب : اما وراثية « داخلية المنشــأ » أو بيئية « خارجيــة المنشأ » .

١ ـ الاسباب الوراثية :

يقرر بعض الباحثين أن الاسباب الوراثية مسئولة عن ٧٥ ٪ من حالات التخلف العقلى تحدث وراثة التخلف العقلى ، اما مباشرة عن طريق الجينات التى تحمــل

كروموزمات الخلية التناسلية وفقا لقوانين الوراثة .. أو غير مباشرة فبدلا من أن تحمل الجينات ذكاء محدودا ، تحمل عيوبا تكوينية أو قصورا أو اضطرابا أو خللا أو عيبا يترتب عليه تلف الانسجة بالمخ .

ويلاحظ أن التخلف العقلى قد ينتقل عن طريق أحد الجينات المتنحية التى قد يحملها الفرد ولا تظهر عليه صفاتها أى دون أن يكون هو متخلفا عقليـــا . ويفسر هذا ظهور حالة تخلف عقلى فى أسرة عادية من حيث مستوى الذكاء بين أفرادها .

٢ ـ الاسباب البيئية :

١ ـ قبل الولادة : قد تصاب الام بحمى مثل التيفود أو الحصبة الالمانى . وقد تكون عرضة لعدم توافق نوع دمها مع دم زوجها وقد يؤدى ذلك الى اضطراب نضج للخلايا مع الجنين فيؤدى بالتالى الى تخلف عقلى .

وقد ثبت أن تعاطى الام الحامل الادوية أو الـكشف بالاشعة أو العلاج بها يؤدى الى التخلف العقلى .

وكذلك فشل محاولات الاجهاض بالطرق المختلفة يؤثر على نمو مخ الجنين فيؤدى الى التخلف .

٢ ـ أثناء الولادة : مثل الولادة العسرة أو المبتسرة أى ولادة قبل تمام نمو الجنين أو جرح الرأس أو النزيف اثنـاء الولادة أو انحباس أو نقص الاكسجين عن الجنين اثناء الولادة او فى المرحلة الاخيرة من الحمل أو التفاف الحبل السرى حول عنق الجنين .

٣ ـ بعد الولادة : اى السنوات الاولى من الحياة أقل

من ١٦ سنة السن الذى يتوقف عنده نمو الذكاء .. مثل الاصابات الشديدة فى الراس فى سن مبكرة والالتهابات المخية وسوء التغذية وضمور خلايا المخ أو نقص افراز الغدة الدرنية والنقص الشديد فى المواد الغذائية أو ولادة الطفل من أم كبيرة السن ينتج طفلا منغوليا .

ولا ينبغى أن نغفل أثر العوامل النفسية والاجتماعية التى قد لا يكون لهـــا اثر مباشر فى احداث التخلف العقلى ولكنها تعكس التأثيرات الوظيفية التى كان لهـــا رد فعل فى احداث التخلف العقلى مثل الحرمان البيئى والاضطراب والانفعـــــال المزمن وانخفاض المستوى الاقتصادى والاجتماعى والضعف الثقـــافى والتربوى داخل الاسرة الى جانب الجهل والمرض فالمكونات البيئية ذات اهمية كبيرة فى التأثر على مستوى الذكاء .

فئات التخلف العقلى وخصائصها :

قد يكون التخلف العقلى أوليا عندما يرجع السبب الى عوامل وراثية مثل اخطاء المورثات « الجينات » ويحدث فى حوالى ٨٠ ٪ من الحالات .

وقد يكون تخلفا عقليا ثانويا ويضم الحالات التى ترجع الاصابة فيها الى العوامل البيئية وتمثل حوالى ٢٠ ٪ من الحالات .

كما قد يصنفهم البعض على أساس نسبة الذكاء وهو من أكثر التصنفات شيوعا وفيمـا يلى التصنيف الذى يلقي قبولا بين معظم وجهات النظر .

١ ـ التخلف العقلي البسيط :

ـ تبلغ نسبته ٧٥ ٪ من مجموع ضعاف العقول .

ـ تتراوح نسبة ذكائهم من ٥٠ الى ٧٠ ويتراوح العمر العقلى فى أقصاه من ٧ الى ١١ سنة .

ـ سرعة النمو العقـلى من النصف الى ثلاثة أرباع السرعة العادية .

ـ اللغة والكلام ـ الكلام عادى تقريبا وبه أخطـاء بسيطة .

الحاجة الى الرعاية وامكانية التعليم

يمكن تعليمه فى فصول التربية الفكرية ويمكن تعليمه مبادىء القراءة والـكتابة والعمليات الحسـابية البسيطة ونادرا ما يستطيعون الاستمرار فى الدراسة بعد الصف الرابع الابتدائى ولكنهم يسـتطيعون الحصـول على المعلومات والخبرات التى يحتاجونها فى حياتهم العـادية ويمكن تدريبهم على كثير من الاعمال مثل النجارة البسيطة ، والخيرزان ، والسجاد ، والتجليد ، وتربية الدواجن ، وفلاحة البساتين ، والنسيج اليـدوى والتصـوير الفوتوغرافى وطبع المستندات ، والفتيات فهن يستطعن القيام بالاعمـال المنزلية الى جانب تديبهن على أعمال التريكو والكوريشيه البسيط والخياطة وطبع الاقمشة .

يمكن كسب عيشه فقط بصفة جزئية . . وقد ينحرف فى السلوك لسهولة انقياده .

ـ سمات النقص العقلى (علامات خلقية تدل على وجود نقص عقلى) موجودة بصورة بسيطة .

ـ الاصابة بالصرع فى نسبة صغيرة من الحالات .

هناك نوعان من التخلف العقلى البسيط ..

الاول : النوع القلق غير المستقر وهذا النوع قدتعتريه نوبات من الهياج والانفعال العـــــاطفى ولذلك يكون من الصعب تعليمه .

النوع الثانى : النوع الهادىء المستقر .. وهو الذى يمكن تعليمه .

٢ ـ التخلف العقلى المتوسط .. الابله :

ـ تبلغ نسبتهم حوالى ٢٠ ٪ من مجموع المتخلفين عقليا .

ـ تتراوح نسبة ذكائهم من ٢٥ الى ٥٠

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$$

ـ يتراوح العمر العقلى من ٤ ـ ٥ سنوات .

ـ سرعة النمو العقـــــلى من ربع الى نصف السرعة العادية .

ـ اللغة والـكلام قليل وبه أخطاء كثيرة ولا يستطيع المناقشة .

الحاجة الى الرعاية وامكانية التعلم

يحتاج الابله الى رعاية أقل من المعتوه غير القادر على تعلم القراءة والكتابة ويمكن تعليمه حرفة يدوية بسيطة فى مؤسسة خاصة تحت اشراف متخصص .

ويمكن تدريبه على العناية باحتياجاته الشخصية وعلى الاعمال الروتينية المتكررة البسيطة التى لا تحتاج الا الى القدر الضــــئيل من التفكير .. وذلك لو توفرت لديهم وسائل تدريب خاصة .

سمات النقص العقلى

موجودة وبصورة متوسطة

ـ الاصابة بالصرع فى نسبة بسيطة من الحالات .

ـ يوجد نوعان من التخلف العقلى البســـيط المتهيج والخامل .

٣ ـ التخلف العقلى الشديد العتة :

ـ تبلغ نسبتهم حوالى ٥ ٪ من مجمـــوع المتخلفين عقليا .

ـ تقل نسبة الذكاء عن ٢٥ ولا يزيد عمره العقلى عن ٣ سنوات .

سرعة النمو العقلى اقل من نصف السرعة العادية

ـ اللغة والكلام : بعض مقاطع مشوهة فقط .

الحاجة الى الرعاية وامكانية التعلم :

يحتاج المعتوه الى رعاية دائمة ومستمرة للحماية من الخطر والقيام بالوظائف الفسيولوجية اليومية ولا يمكن تعليمه . ويجب مهما طال عمره أن يعامل كطفل صغير معوق ، لانه يكون فى حاجة الى من يعاونه على الملبس والاكل والاغتسال والوقاية من الاصابة الجسمية وحماية نفسه .

اللغة والكلام : لا يستطيع التعبير عن احتياجاته بالكلام ، لان لغته لا تزيد فى الغالب على بضع كلمات ينطق بها فى غير وضوح .

- سمات النقص العقلى : موجودة بصورة واضحة .
- الاصابة بالصرع فى نسبة كبيرة من الحالات .
- يوجد نوعان من حالات العتة :

النوع القلق تحدث له نوبات من الهياج الشديد .

النوع الهادىء ويكون مسالما ومعقدا نظرا لحدوث الشلل بالاطراف .

دور المدرسة فى تحقيق الصحة النفسية للمتخلفين عقليا :

ليس التعليم غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة اجتماعية، واليوم أصبح التعليم ضرورة أساسية للفرد اذا شاء ان

ينجح وأن يتوافق مع متطلبات حياته اليومية .

والمتخلفون عقليا ، تلك الفئة التى بسبب عوامل وراثية يعانى أفرادها من قصور الذكاء ، ومع ما يعانيه أفراد هذه المجموعة من صعوبات فى التعليم بسبب هذا التخلف العقلى فان الكثيرين منهم قادرون ـ اذا أعطيت لهم الرعاية الكافية ـ على أن يصلوا فى حياتهم الى درجة مرضية من التوافق والنجاح .

ولهذا فمن الضرورى أن يتعاون المنزل والمدرسة والمجتمع لتوفير الرعاية لهؤلاء الافراد حتى يمكنهم تحقيق هذا القدر من التكيف والتوافق مع مطالب الحياة .

ولهذا بدأت المؤسسات التربوية فى المجتمعات الحديثة تولى اهتمامها باجراء البحوث على هذه الفئة من الافراد وعقدت المؤتمرات المحلية والدولية وأجريت التجارب المستفيضة على برامج تأهيل هؤلاء الافراد واعدادهم لحياة كريمة .

وقبل أن نوفر للطفل المتخلف برنامجا متكاملا للرعاية التربوية ، هناك خطوات أربع لابد من اتخاذها ، وهذه الخطوات هى :

١ ـ أن نجد هذا الطفل .

٢ ـ أن نقوم بفحصه .

٣ ـ أن نقوم بتشخيص حالته .

٤ ـ أن نضعه فى المكان الذى يتناسب مع قدراته العقلية .

وهذه الخطوات تتطلب خدمات عدد من المتخصصين أهمهم المدرس ، والاخصائى النفسى ، والطبيب النفسى والاخصائى الاجتماعى .

وبالنسبة للخطوة الاولى : فان الطفل المتخلف عقليا يمكن ان يقع ضمن أحد فئتين :

١ ـ الفئة الاولى : التى يسهل التعرف على أفرادها من بعض الخصـــائص الجسمية أو الانحطاط السلوكى المتميز كما فى حالات النحول .. هؤلاء يمكن التعرف عليهم مباشرة وهم لا يكونون مشكلة حيث ان اكتشافهم يتم قبل وصولهم لسن التعليم .

اما الفئة الثانية : فهم لأفراد لم يظهر عليهم أعراض تبدو واضحة للشخص العادى أو لاولياء أمورهم تميزهم عن الطفل العادى قبل دخوله المدرسة ولهذا فان أفراد هذه الفئة هم الذين يصبحون مشـكلة تربوية بالنسبة للمدرسة حيث ان اكتشـــافهم لا يتم الا حين يدخلون المدرسة .

التعرف على ظاهرة التخلف العقلى :

تدل الملاحظات المتجمعة عن سلوك الطفل المتخلف عقليا ان قصوره العقلى ينعكس على جميع مظـــاهر سلوكه بدرجات متفاوتة ، فجوانب سلوكهم يتضح فيهـا أثر التخلف العقلى بدرجة أكبر من غيرهم فنواحى النشـاط التى تعتمد مثلا على القدرات العقلية تـكون أكثر تأثيرا بالتخلف العقلى من نواحى النشـــاط الاجتمـاعية أو الحركية .

فالمتخلف عقليـــا لا يستطيع ان يصل الى المستوى التحصيلى الاكاديمى الذى يصل اليه الطفل العادى فى نفس عمره الزمنى ، الا أنه يستطيع أن يصل الى مستوى من

النضج الاجتماعى والنضج الحركى قـريب من المستوى الذى يصل اليه الطفل العادى بنفس عمره الزمنى .

الذكاء كوسيلة للقياس العقلى :

هناك العديد من اختبارات الذكاء العملية واللفظيـــة بواسطتها يمكن تحديد نسبة الذكاء للطفل وقدراته حتى يتسنى وضـــــعه فى المدرسة التى تتناسب مع قدراته وتعتبر اختبارات الذكاء أيضا وسيلة لمســاعدة الوالدين على معرفة نسبة ذكاء أبنائهم كى لا يحاولوا دفعهم الى نواحى دراسية لا تتلائم مع قدراتهم العقلية ، وبذلك يمكن تجنب ضياع الوقت والمجهود والمال .

دور المدرسة :

بالرغم من ان عملية تشخيص حالات الاطفال المعوقين عقليا ليست من مســـــئوليات المدرس الا أنه يمكن من اتصاله بالتلاميذ فى الفصل وبحكم صلاته بوالدى الطفل او أولياء أمره يســتطيع التعرف على بعض مظـــاهر او اعراض التخلف العقلى التى قد تظهر بين تلاميذه وفى هذه الحالة اى اذا ما شك فى وجود حالة طفل معوق عقليا ــ عليه مباشرة ان يقوم بتحويله الى العيادة النفسية التى تتبع مدرسته حيث تجرى الفحوص اللازمة بواسطة متخصصين فى النــــــواحى النفسية كالطبيب النفسى والاخصائى النفسى والاخصـــائى الاجتماعى لتحديد نسبة

ذكائه وقدراته الشخصية ووضعه فى المكان المناسب الذى يتناسب مع ذكائه .

أهمية الاكتشاف المبكر :

لهذا اهمية كبرى ، فان الكشف المبكر لحالات التخلف العقلى تساعد كثيرا على تقديم الرعاية اللازمة فى سن مبكرة . فتكون أكثر فاعلية في تحسن حالة الطفل ، ومن جهة أخرى توفر عليه وعلى بقية التلاميذ وعلى النظام التعليمي عموما الكثير من الجهد والمتاعب لان الطفل المعوق عقليا لا يستفيد من أنشطة الفصل الدراسى العادى بل يمكن اعتباره هو نفسه عاملا معوقا لغيره من التلاميذ العاديين فضلا عن الضرر الذى قد يلحق به نتيجة لعدم قدرته على مجاراة غيره من التلاميذ ، وتكرار تراكم مشاعر الفشل فى نفسيته .

مظاهر التخلف العقلى :

فيما يلى بعض المظاهر والاعراض التى تدل على احتمال وجود تخلف عقلى أو نقص فى القدرة العقلية فى الطفل بالاضافة الى ما سبق ذكره .

١ ـ مظاهر وأعراض فى الاداء العقلى :

صعوبة فى الفهم . ضعف مستوى التحصيل . عدم القدرة على مجاراة بقية الاطفال فى سرعة الفهم والتحصيل

ـ ضعف القدرة على التركيز الذهنى ـ ضعف القدرة على التذكر والاستفادة من الخبرات الســــابقة فى المواقف الجديدة .

٢ ـ نواحي ضعف وقصور جسمية مثل :

عيوب أو صعوبة فى النطق والكلام . ضعف فى السمع والبصر ـ ضعف فى التآزر الحركى ، واحيانا قصور أو ضعف أو تأخر فى النمو الجسمى ـ أحيانا شلل فى احد الاطراف .

٣ ـ مظاهر صعوبة التكيف :

هناك بعض اضطرابات نفسية قد تصـــاحب التخلف العقلى مثل القلق أو الذهول أو الانطواء أو العدوان أو السرحان أو التصور الخيالى غير العادى (الهلوسة) كما ان سهولة الانقياد تعتبر من المظاهر المألوفة .

هذه بعض الاعراض المصاحبة المحتملة للتخلف العقلى ، وهنا يجب أن يلفت نظر المدرس الى نقطتين :

أ ـ ان هذه الاعراض ليس من الضرورى أن تجتمع جميعاً فى طفل واحد . بل الواقع انها لا يمكن أن تجتمع كلها فى طفل معوق واحد ، بل يظهر بعضها فى كل حالة من الحالات .

ب ـ انه ليس من الضرورى ان يكون كل عرض من هذه الاعراض دليلا على أن الطفل معوق عقليا ، فقـد يكون التخلف الدراسى او الصـــعوبة فى الفهم نتيجة

لمشكلة نفسية أو ضعف فى السمع أو البصر او غير ذلك وليس نتيجة لنقص فى مستوى الذكاء او صعوبة فى فى النطق نتيجة لاصابة سابقة بحمى شوكية .

وعلى هذا يجب أن يكون المدرس حذرا غاية الحذر فى الحكم على الطفل بأنه متخلف عقليا وعليه أن يعتمد على المتخصصين فى اصدار الحكم .

دور المدرس لتحقيق الصحة النفسية للمتخلفين عقليا :

ينبغى أن ينظر المدرس الى الطفل على انه وحدة عضوية يعتمد كل جزء منها على الاجزاء الاخرى ، فأى قصور فى التكوين الجسمى ، أو القدرة الفكرية أو فى الناحية النفسية أو فى هذه النواحى جميعا له أثر مصاحب معوق من حيث الفاعلية الشخصية للفرد فى المجال الاجتماعى .

تعاون المدرس مع المتخصصين لرعاية الطفل المتخلف عقليا :

يجب على المدرس أن يكون واعيا لامكانياته المحدودة والى أى مدى يجب أن يعتمد على الآخرين فى الحصول على المعلومات والعون .

١ ــ فمن الطبيب : يستطيع المدرس معرفة التشخيص الذى يتيح معرفة مدى النضج الجسمى للطفل ويكتشف

مدى القدرة على الحركة ، والاصابة فى الاعصـــــاب والاضطرابات التشنجية والقصورالجسمى فيجدر بالمدرس ان يعرف هل هذا الطفل مصاب بالصرع ، اذا كان الجواب بالايجــــــاب فيجب على المدرس ان يحصل على الدواء والارشادات فى حالة النوبات المحتملة حدوثها .

وفى حالة الاصابة بالشلل العقلى يجب أن يعرف مدى قدرته على المشى وصعود الدرجات وما اذا كان يستطيع اللعب فى الفناء .

وفى حالة الاصابة فى المخ لعلها هى السبب فى نشاطه المفرط والمستديم أو الصعوبات التى يعانيها فى الادراك وفى هذه الحالة ما هى المعلومات التى يستطيع اخصائى الطب النفسى وطبيب الاطفال أن يزود المدرس بها ليساعده على توفير احتياجات الطفل .

وفى حالة البول الســــــكرى أو مشكلات التغذية أو الحساسية أو الربو ، أو ضعف الســــمع وحاجته الى جهاز سمع أو حاجته الى نظارة طبية حتى حين قيامه بالنشاط اليومى .

هذه هى بعض الامور التى يجب على المدرس معرفتها عن الحالة الجسمية للأطفال فى الفصل .

٢ ــ ومن الاخصائى النفسى : يدرك المدرس قـــدرة الطفل العقلية واستقراره النفسى وعما اذا كان يستطيع الاستمرار فى المدارس العادية أو يحتاج الى تحويله الى احدى مدارس التربية الفكرية .

٣ – ومن الاخصائي الاجتماعي يحصل على المعلومات بشأن بيئته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والعوامل المختلفة التي تؤثر على صحته النفسية من الناحية الاجتماعية والمساعدة التي يمكن التعاون في تقديمها لمساعدته في الرعاية والتحصيل .

٤ – ومن الوالدين يستطيع المدرس بمجرد أن يتم التشخيص المبدئي للطفل ان يعمل على التعاون معهم كي يحصل على معلومات جوهرية ولتحقيق برنامجا متوافقا بين المنزل والمدرسة . فعندما يعمل المدرس والوالدان معا يكتسبان مهارة في الملاحظة وتبادل التقارير ، ويلزم لهذا وقت طويل وقيادة ماهرة ولكنها تكون ذات فائدة في مساعدة الطفل على التقدم الى أقصى مدى .

المدرس والتفرقة بين التخلف العقلي وسوء التوافق الاجتماعي :

ان يبدأ المدرس في التعامل مع تلاميذه حتى يصبح « اذا كان على درجة من الخبرة وواعيا بالفروق الفردية » قادرا على التعرف على هؤلاء الاطفال نتيجة ما يلاحظه عليهم من صعوبة في الفهم وضعف في القدرة على التركيز والتفكير والتحصيل ، لكنه في بعض الاحيان تكون هذه الظواهر أعراضا لمشاكل اخرى ، لا تمت الى التخلف العقلي بصلة كما في حالات الاطفال الذين يعانون من سوء توافق اجتماعي ، أو اضطراب انفعالي . وهنا يتطلب الامر فحصا نفسيا دقيقا من الطبيب النفسي .. ولهذا فان المدرس ليست وظيفته التشخيص دائما بل من واجبه

احالة الحالات التى تظهر عليها تلك الاعراض الى الطبيب النفسى الذى يقــوم بفحصها بوســائله العلمية الخاصة ليصل الى تشخيص دقيق للحالة بتعاونه مع الاخصــائى النفسى والاجتماعى .

وفى ضوء هذا التشخيص يتم وضع الطفل فى المكان المناسب ورسم البرنامج الملائم له .

مدارس وفصول التربية الفكرية والمعاهد المتخصصة :

يلى خطوة اكتشاف الطفل المتخلف عقليا بواســـــطة المتخصصين فى الطب النفسى فى الاهمية المساعدة على التعليم والتدريب المبكر فى المدارس والمعاهد المتخصصة .

والطفل فى أثناء طفولته يكون فى مسيس الحاجة الى المساعدة والتدريب ، فالطفل المتخلف عقليــــــا يلحق بالمدرسة لتســـــاعده على التعليم ، فى حدود قدراته وتنحصر مهمة مدارس وفصول ومعــــاهد متخصصة للأطفال المتخلفين عقليا فى اصلاح السلوك وتكوين العادات الحسنة الصالحة وتعليم عناصر المعلومات النافعة ولكن هذه المدارس لا يمكنها ان تحول الطفل المتخلف عقليا الى طفل عادى .

وهذه المدارس تعمل على توزيع الاطفال المتخلفين عقليا حسب قدراتهم العقلية فى مجموعات متجانسة الامر الذى يساعد الطفل على الاســــتفادة فى حدود قدراته دون الاحساس بالنقص .

وهناك أيضا الفصول الخاصة بالمدارس العـــــادية

للمتخلفين عقليا من الدرجات العالية ، حيث لا يشعر الطفل بما فيه من ضعف بل يعتقد انه كالاطفال الآخرين فى محيط مدرسة واحدة وقد ثبت ان هذه الفصول قد اتت بالفائدة المرجوة ، وان معظم هؤلاء الاطفال ينجحون فى دراستهم بنجاح طبقا لقدراتهم الطبيعية اذا ما اعطوا الرعاية المناسبة .

متى يحتاج الطفل المتخلف عقليا استشارة الطبيب النفسى ؟

اذا ظهرت الاعراض التالية على الطفل :

- ظهور توتر شديد وخوف .
- عدم استرخاء الطفل .
- استجابات بالثورة والصراخ عند المضايقات .
- الدوافع العدوانية والتخريبية .
- ظهور أفعال متكررة كالاهتزاز الى الامام والى الخلف .
- أدلة على احساسه بالقلق وعدم الاستقرار ، الصراخ ، العنف .
- حين يضمر العداء أو الغيظ نحو المحيطين به .
- انطواؤه وعدم احساسه بالسعادة وعدم الضحك أو الابتسام .
- حين يكون غير مطيع للبالغين ويرفضهم .
- كثرة الصراخ والبكاء وفقدان الشهية .

الخاتمة

مما سبق نرى أن دور المدرسة والمدرس فى تعليم وتأهيل الطفل المتخلف عقليا له أهمية كبيرة فى مساعدة الطفل فاذا نال الطفل الرعاية اللازمة كما ذكرنا فسوف نجد أن الطفل يتقدم تقدما ملموسا ويستطيع أن يكون عضوا فعالا منتجا يسعد به والده ويفخر الوطن بانتاجه بدلا من أن يكون عالة متطفلة غير منتجة . ولكى يتحقق ذلك يحتاج المدرس والوالدان الى ضبط النفس وأن يستخدموا العبارات الايجابية المشجعة والثناء ، وأن يتحاشوا النقاش والتهديدات والغضب كلما أمكن ذلك . ولا ينبغى أن يساووا بين العمل والعقوبة ، وأن يضغطوا على الطفل فوق طاقته .

واذا أساء الطفل التصرف ، فعلى المدرس والوالدين أن يوجهوه نحو نشاط بناء ، كما يجب أن يكون الآباء والمدرسون يقظين للأدلة التى تشير الى التقدم ، وبعض هذه الادلة التى تستنتج من حركاته البدنية وغيرها من السلوك الذى يوضح مدى تقدمه .

ويجب أيضا أن يشغلوا الطفل بادماجه فى أوجه نشاط مختلفة بوسعه أن يحقق فيها نجاحا وبهذا الاسلوب فى المعاملة والتوجيه تتحقق الصحة النفسية للطفل المتخلف عقليا .

الأسـرة .. والصحة النفسية للطفل المعوق

يعتبر الوالدان من أهم الاشخاص فى البيئة الاجتماعية للطفل ، وتؤدى علاقتهمـــا به واتجاهاتهمـــا نحوه تاثيرا واضحا فى تشـــكيل شخصيته . وفى نفس الوقت فان اتجاهات الوالدين نحـــو الطفل المتخلف تعكس بشكل أو بآخر اتجاهات المجتمع بصفة عامة والذى يكون الوالدان جزءا هاما .

وقد دلت البحوث ان هناك مدى واسعا فى اتجاهات ومشاعر الوالدين نحو الطفل المعـــوق كما وجدت إن الاضطرابات العاطفية وسوء التوافق ينبع بصور أكبر بين الجماعات فى بيئة المعوقين عن غيرهم كمـــــا وجـــد أن الاحساس بالاعاقة لدى الطفـــــل يزداد فى بعض المواقف الاجتماعية عند اظهـــــار الاسى نحوهم ، أو حين يقـــوم الآخرون بتقديم مســــــاعدات أكثر مما ينبغى أو بظهور شعور الاحبـــــاط المستمر من جانب الوالدين النابع من الاحساس بعدم الولاء الناتج عن مولد طفل باعاقة ظاهرة مثل التخلف العقلى يحمل خيبة أمل فى مفهوم الام لنوع الطفل الذى كانت تتوقعه .

وفى نفس الوقت فان التناقض بين ولاء الام من جانب

واحساس عدم التقبل للاعاقة من جانب آخر يخلق موقفا للصراع بالنسبة للأسرة .

الطفل المعوق وحاجته الى الحب :

ان الطفل المعوق شـــأنه فى، ذلك شأن باقى الاطفال يحتاج الى الحب والحنان كما يحتاج الى الطعام والنوم ولكنه أيضا يحتاج الى رعاية بدنية خاصة وتفهم وتقبل ، وكذلك الى جو أسرى هادىء يشـــــعر فيه بالحب من الجميع ، كما انه يحتاج الى أن يلعب ويسهم مع الاطفال الآخرين فى نشاطهم ويحب أن يكون عضوا فى شلة من الاصدقاء من الاطفال .

ولتنشئة الطفل المعوق تنشئة نفسية سليمة هنـــاك حاجة شديدة للتحمل واتساع الافق والقدرة على التكيف البناء بحسب الموقف المناسب ، ولتوفير الصحة النفسية للطفل المعوق فعلى الوالدين اتباع ما يلى :

أولا : تجنب سياسة عــدم الثبات أو الخشونة أو السلبية الزائدة أو الليونة الزائدة فحتى الاطفال المعوقون من النــوع الشـــــديد يستجيبون لاى مؤثر مريح ، وبالتشجيع فالتحصيل أو الاستجابة يمكن أن تكون على مستوى منخفض نتيجة توقع الفشل الذى يظهره المحيطين بالطفل المعوق لذلك من الضرورى تكوين سياسة لمستويات واقعية مصحوبة بدرجة كبيرة من التحمل والتشجيع . ويجب أن توضع على أساس مستوى نمو الطفل وقدراته وليس على أساس عمر الطفـــل الزمنى أو بمعنى آخر ينبغى التأكد بأن الطفل يعرفه ويفهم المطلوب منه .

ثانيا : التأنيب والعقاب : ينبغى ان يبت فيه فى الحال ، وفى الوقت أو الموقف المناسب دون تأجيل ذلك « حتى يحضر والده الى المنزل » ليساعد الطفل على فهم نتائج أفعاله الخاطئة طالما انه ليس هناك من المواقف الخطيرة التى تنتج عن ذلك .

ثالثا : ينبغى مساعدة الطفل المعوق على وجود مخارج لانفعالات غضبه الداخلية بطرق مقبولة اجتماعيا :

ففى مواقف الغضب الحادة ينبغى مساعدة الطفل على عدم التعرض لهـا ، وذلك لحمايته من انفعالاته الداخلية وأفعاله . ويعتبر فى أغلب الاحيان من الاصوب تحويل انتباه الطفل فى المواقف التى يكون فيها كثير الحركة الى اى نشاط آخر وبذلك يتجه تفكيره وأفعاله نحو اتجاه آخر يرغبه .

رابعا : ينبغى تجنب المواقف التى بالتجربة تبين أن تثير غضب الطفل وانفعالاته :

فالوقاية خير من العلاج فلنعطى شرحا مبسطا وتعليمات مفهومة بحسب قدرات الطفل ودرجة فهمـه للأمور مع تجنب الغضب معه ، وفقد الاعصاب تجاهه .

خامسا : الطفل المعوق والعلاقة بين الوالدين :

ينبغى ان تكون العلاقة بين الوالدين يسودها التعاون والمحبة والتقدير حتى يتمكنا من مساعدة ابنهما على النمو فى جو هادىء بعيدا عن الصراعات الانفعالية التى تضيف عبئا انفعاليا ونفسيا على درجة التخلف .

كذلك ينبغى أن تكون الروابط الاسرية قوية ولا سيما الوالــدين لان تدعيم هــذه الروابط سوف يضيف قوة وقدوة للأسرة ككل على تحمل أعباء الطفل المتخلف .

سادسا : الطفل المعوق والاطفال الاخوين بالاسرة :

ينبغى على الوالدين اتاحة الفرصة للاهتمام بالاطفال الآخرين ســواء كانوا كبــارا أو صــغارا لانهم يشعرون بحاجتهم الى ذلك . اهتمام فردي أو جماعي ، ليس فقط اهتمام عملى بل أيضا توفير الوقت للمرح معهم .

يشجع الاطفال الاصحاء ان يتعاونوا فى الاهتمام بالاخ المعوق وأن يشركوه معهم فى ألعابهم التى يقدر عليها ، وبذلك يمكنهم قبوله معهم دون حرج او ملل .

والخلاصة : فانه ينبغى أن يــكون هدف الاسرة التى لديها طفل معوق أن توفر له حياة طبيعية بقدر الامكان ، وبهذا يمكن تجنب خطورة جعل الطفل مركز تدور حوله حياة باقى أفراد الاسرة ، الامر الذى يؤدى الى اضطراب الاسرة .

وكذلك العمل على مســـــاعدة الطفل على نمو ثقته بنفسه ، وعلى نمو قدراته الاساسية فالطفـــــل المعوق يحتاج الى مساندة قوية وتشجيع من جميع أفراد الاسرة، الامر الذى سوف يساعده على التقدم والنجاح السريع .

سابعا : الطفل المعوق وحاجاته الشخصية والمادية :

فى جميع مواقف الرعاية للطفل المعوق وتدريبه ينبغى على الوالدين ملاحظته ملاحظة دقيقة من ناحية استجابته الى أى مؤثر فمثلا اذا ظهر عليه التعب من نشاط معين يدل هذا على انه مستعد لبدء شيئا جديدا . واذا كان

قلقا أو متوترا يدل هذا على انه استمر فترة طويلة وان ما طلب منه فوق طاقته . واهم شيء في تشجيعه هو تكوين علاقة ايجابية معه : الامر الذي يحتاج الى مجهود في هذه الناحية ، فينبغي على الوالدين ان يسعوا الى ذلك ويندمجوا معه في هدوء واسترخاء واستمتاع للوصول الى تحقيقه .

وهذه كلها تساعد على النجاح ..

الطفل المعوق وحاجاته الى بيئة تبعث فيه الحماس :

مثل الالوان .. اللعب .. مع مراعاة أن تكون من مادة جيدة في حالة منسقة جميلة مع استمرار ملاحظة اللعب التي يستخدمها والمحافظة عليها بواسطة المحيطين به .

كذلك ينبغي توفير المكان الفسيح الذي يستطيع الطفل ان يتحرك فيه بسهولة ، فبالنسبة لنقص تكامل قدراته الحركية يصبح من الصعوبة عليه التحكم في حركاته ، الامر الذي يعرضه للوقوع وأحيانا اصابته أو تحطيم الاشياء . فالمكان المتسع ، والاثاث المتين والاشياء ، واللعب المتينة كلها تساعد الطفل المعوق على عدم السقوط وتتيح له الفرصة أكثر للنجاح والتي بدورها سوف تساعده وتشجعه على أن يعمل وان ينمو في الاتجاه السليم .

ثامنا : الطفل المعوق وادراك الوالدين لقدراته :

من المواقف الصعبة على الطفل المعوق انه لا يدرك والداه حدوده وقدراته ويضغطون عليه بطلبات خاطئة

تفوق قدراته فاذا لم يتمكن الوالدان من تزويده بالحب والاطمئنان والاستقرار والثبات التى يحتاج اليها فسوف يكون لذلك تأثيرا خطيرا على نموه العقلى والانفعالى لذلك ينبغى الاهتمام الى حد كبير بتقدير قدرات الطفل فى مرحلة ما قبل المدرسة عن طريق المتابعة والتحاليل المختلفة والفحوص الطبية النفسية الدقيقة لتحديد قدرات الطفل العقلية والحسية ودرجة اختلافه عن الطفل الطبيعى حتى يمكن مساعدته ومساعدة اسرته وتوجيهها فالتأخير فى اكتشاف التعويق يعنى ان الطفل ينمو فى بيئة غير متفهمه او مدركة لحاجاته وقدراته الامر الذى يؤدى فى النهاية الى تأثير سيىء من الناحية الاجتماعية والنفسية والجسمية والعقلية للطفل .

تاسعا : الطفل المعوق والتضحية بكل شيء :

التضحية بكل شيء من اجل الطفل المعوق امر خطير يمكن أن يؤدى الى تحطيم الحياة الزوجية والحياة الاسرية والنمو العقلى والنفسى للاخوة والاخوات والصحة النفسية للوالدين انفسهم . فهم وباقى افراد الاسرة من حقهم أن يعيشوا حياتهم حتى فى وجود طفل معوق فى الاسرة واذا لم يتوازن الموقف بطريقة عملية واقعية ، ينبغى الالتجاء الى مناقشة هذه الناحية مع انسان لديه الخبرة الكافية فى مثل هذه المشاكل كالطبيب النفسى للأطفال أو الاخصائى الاجتماعى .. أو غيرهما .

عاشرا : الطفل المعوق والاعتماد على نفسه :

على الوالدين اتاحة الفرصة للطفل المعوق للاعتماد على نفسه وذلك عن طريق تجنب فعل ما لا يستطيع عمله .. ولكن مساعدته فقط اذا احتاج الى ذلك .. وينبغى أن يكون التدريب واضحا ســـــهلا فى التعليمات وتجنب التعليمات الغامضة .

واذا تعرض الطفل للفشل مرة ينبغى عدم احراجه أو اهانته أو الاساءة اليه . كما يجب أن يسهل له ما يريد القيام به ومعاونته على تجزئة العمل الكبير الى عمليات صغيرة متدرجة مثلا يطلب منه أن يفعل شيئا واحدا فى وقت واحد فاذا حقق تقدما يشجع بكلمات طيبة أو هدية بسيطة فهو فى حاجة الى التشجيع أكـثر من الطفـل العادى . اذ أن ذلك يولد الثقة بنفسه .

وقد تكون ابتسامة رقيقة سببا فى سعادته وبهجته .. وحتى اذا فشل فى عمل نشجعه على أن يعـاوده مرة اخرى .. فبعد وقت يحقق بعض النجاح ثم يفتح الطريق ليشعر بذاته وقيمته ويرضى عن نفسه .

وأخيرا على الوالدين ألا يجزعا من اظهار مشـاعرهمـا لطفلهما المعوق ، فليظهرا الحب له دون تدليل ، وليكونا له صديقين ولكن بحزم ، وأن يكونا ثابتين ويظهـــــــرا مساعدتهما له ومشاعرهما بالســعادة والمرح فى المواقف الخـــاصة بذلك والتشجيع بما يبذله من جهود وينبغى عليهمـــا ان يتذكرا ان طفلهما سوف يتقدم ويتمكن من الوصول الى السعادة والاحساس بالرضا اذا توافرت له

البيئة المتفهمة لحاجاته النفسية .. ان حاجات الطفل سوف تتغير بالنمو فينبغى دائما أن يساعده والداه على النمو الصحيح السليم والاستقلال بفهمهما لحاجاته النفسية فى كل مرحلة من مراحل النمو ، واذا أصابهما القلق فليحاولا استشارة المختصين لمعرفة ما يجهلاه فسوف يجدا من يساعدهما ويوجههما .

المراجع

«١» المراجع العربية :

١ ـ الطب النفسى فى الحياة العامة ـ د. صبرى جرجس
٢ ـ أسس الصحة النفسية ـ د. عبد العزيز القوصى
٣ ـ معـوقات النمـو الكامل ـ الاستاذة / زكية احمد حجازى
٤ ـ أطفالنا وحاجاتهم النفسية ـ د. كلير فهيم
٥ ـ اطفالنا والتخلف العقلى ـ د. كلير فهيم
٦ ـ حقوق الطفل ـ للاستاذة /زكية عزيز
٧ ـ مشاكل الطفل النفسية ـ د. ملاك جرجس
٨ ـ سيكولوجيـــة الطفــولة والمراهقة ـ د. مصطفى فهمى
٩ ـ مؤتمر التربية الصــحية المدرسية سنة ٦١ ـ صحة مدرسية
١٠ ـ مؤتمر التربية الصــحية المدرسية سنة ٦٣ ـ صحة مدرسية

«٢» المراجع الاجنبية :

1. Mental subnormals
by : Dr. W. Alan Meaton word.
2. The school, the family & the outside world,
by : D. W. winicatt.
3. Helping troubled children
by : Micheal Rutter
4. Children in Conflict
by : Morris fresser.
5. Children under stress
by : Dr. sulla Wolf.

فهرس

كتاب الهلال القادم :

الاحساس بالجمال
فى ضوء القرآن الكريم

تاليف

محمد عبد الواحد حجازى

يصدر ٥ يناير ١٩٨٤

رقم الايداع بدار الـــكتب ٥٢٢٢ ــ ٨٣

الترقيم الدولى : ٢ ــ ٦٧. ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاه ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. R. 25 de Marco, 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٣٠٠مليم :

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية ٦ ريالات ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، أديس أبابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٣ر٥ فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة، فرانكفورت ٣ر٥ مارك ، فينا ٢٥ شلنا كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورينات .



هـذا الكتـاب

يتناول هذا الكتاب دور المدرسة والاسرة لتحقيق الصحة النفسية لطفل اليوم ، ويوضح الى اى مدى علاقة الطفل بالاسرة ، والمدرسة لها تاثير كبير في تكوين عاداته وبناء شخصيته واتجاهاته حاضرا ومستقبلا اما بالرضا والقبول والنجاح أو بالقلق والخوف والفشل، الامر الذى يتوقف الى حد كبير على مدى فهم المحيطين به بحاجاته النفسية التى تختلف من مرحلة الى أخرى •

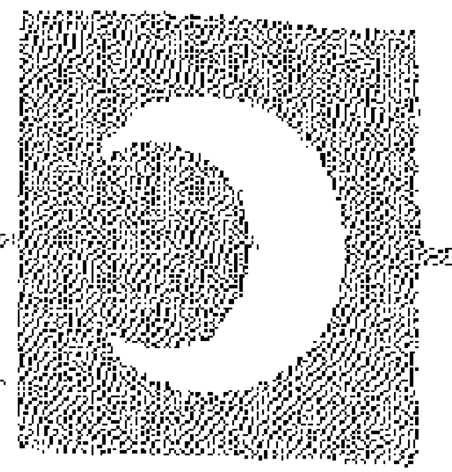
ويوضح الكتاب الدور الهام والحيوى للمدرس فى حياة التلميذ وتاثير ذلك على تحصيله الدراسى وعلى اقباله على العلم والمجتمع والحياة بصفة عامة حيث يعتبر المدرس للتلميذ كاب واخ وصديق ومرشد وموجه ، وقائد ، يتمثل به التلاميذ فى جميع تصرفاته وسلوكه سواء كانت سليمة أو مخطئة • الامر الذى يؤكد ضرورة توفر الشخصية المتزنة المرنة، السهل تفاعلها مع الابناء فى المدرسة •

كذلك يوضح العوامل والمعوقات المدرسية والاسرية والشخصية التى تؤثر على الصحة النفسية للتلميذ، وطرق علاجها والوقاية منها ، كى يمكن بناء شخصيات بناءة متفاعلة متكيفة مع المجتمع المدرسى والاسرى دون انحراف فى السلوك أو فشل فى الدراسة ويوضح دور الاسرة والمدرسة نحو الطفل المعوق وكيف يمكن تحقيق الصحة النفسية له حاضرا ومستقبلا •

ونامل ان يؤدى هذا الكتاب الى تصحيح فى تعديل بعض الجوانب المعوقة التى تؤثر على الصحة النفسية لابنائنا فى المنزل والمدرسة وذلك للمساعدة على خلق جيل جديد منتجا ناجحا يتمتع بصحة نفسية تساعده على خدمة وطنه فتسعد به الاسرة ويفخر به الوطن•

٣٠ قرشــا

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم

محمد عبد الواحد حجازي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٧ ربيع الثاني ١٤٠٤ - يناير ١٩٨٤

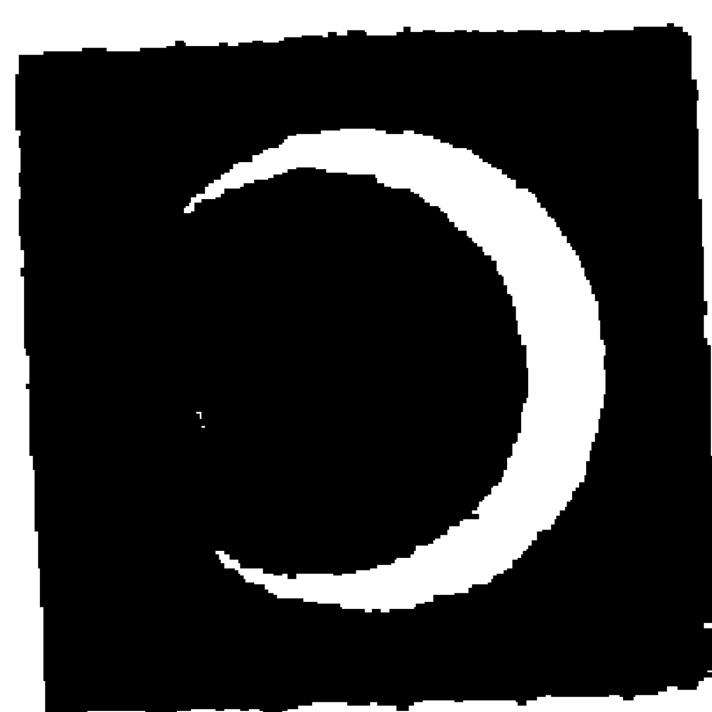
No. 397 — January 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادي . وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوي وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادي وعشرون دولارا بالبريد الجوي

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج٠ م٠ ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل عن الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

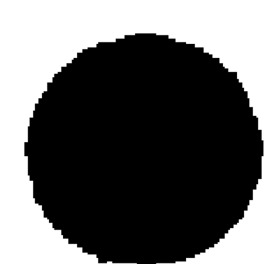


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

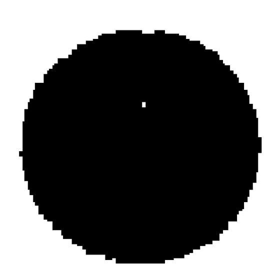
الغــــلاف بريشــة :
الفنانة سميحة حسنين

الإحساس بالجمال

في ضوء القرآن الكريم



محمد عبد الواحد حجازي



دار الهلال

مقـــدمــــة

الانسان عقيدة ...

مقولة لا يختلف عليها العقل والوجدان .. فالعقيدة هي التي تعطي الانسان مقومات شخصيته ، والوعي الارادي الذي به تحقق الشخصية كيانهـا معبرة عن غايتها من الوجود وغايتها في الوجود .. وعلى هـذا فانني أعتقد أن العقائد تتفاضل بمقدار ما فيها من شمول قوي متفتح لكل شأن من شئون الحيـاة مهما تباينت الازمان والمراتب والاوطان .. فالعقيدة التي تعطي الفطرة الانسانية حقها في كل مناحي الحياة غير العقيدة التي تحجر عليها في نوازعها فتصدها صدا زريا أو عسـوفا : يذل ويوهن ولا يورث غير الخنوع والصدوف عن الحياة الدنيا .. فتلك عقيدة قاصرة مقصرة وان اخرجت من روائع الفنون ما تزدهي به على الزمان .

فالعبرة اذن بما تعطي العقيـدة للانسان كي يحيـا الحياة .. فاذا وجدت العقيدة التي تعطي الحرية ـ كل الحرية ـ للانسان ، في الفـكر ومجالات التفـكر والتأمل .. وفي العمل ومجـالاته ومشكلاته .. وفي شواغل الوجدان وما يريحه ويسعده ويخفف عنه ...

اذا وجدت العقيدة التى تفيض على الانسان بهذا الفيض العميم وتعطيه استقرارا ويقينا ورضاء نفسيا مستبشرا، كانت هى العقيدة التى تخلق الاحساس بالجمال خلقا فى نفسه قبل أن يخرج آثاره فى التنظيم وألحان الموسيقى وأشكال الرسوم .

وانها لعقيدة التوحيد التى جاء بها القرآن المجيد ...

ان كلمة « التوحيد » كما جاء بها الاسلام الحنيف حين تأخذ بيد البصيرة الانسانية كى تهديها الصراط المستقيم ، فهى انما تأخذها الى معانى الحق والخير والجمال : فى الارض والسماء والنفس .. انها ـ أى كلمة « التوحيد » ـ تربية للذوق والوعى على الاحساس بكل ما هو جميل مونق يسبى الافئدة قبل أن يسبى النواظر .. وانها أيضا تثبيت للارادة باليقين الثابت بعد اجتياز ابتلاء الفتنة والتمحيص ، قال تعالى : « انا جعلنا ما على الارض زينة لهـا لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٧ سورة الكهف) .

ان التجربة التى يدخل الاسلام فيها الانسان تجربة فريدة فى نوعها ، انه يستجيش احساسه بالجمال ليحيا مع الوجود الكونى لحظات من التقرب والانس ليأتنس بعدها بربه الكريم .

ان التجربة الاسلامية هى تجربة للتذوق الجمالى فى أعلى صوره وأسماها جميعا .. انها ليست دروسا فى تاريخ الفن ولا دروسا فى تاريخ الفنون ولا معرضا من المعارض التى يؤمها بقلوبهم وما تنوء به .. لكنها تجربة فى العقيدة ذاتها .. انها تنادى الانسان ان يحيا فكرا

واحساسا فى جمال مع الجمال زلفى وتقربا الى خالق الجمال ، وذلك عملا بقوله وتسبيحا بحمده ودعـــاء لرحمته .

وتلك رسالة الانسان وغاية وجوده ..

وهذا ما أردناه فى بحثنا هذا والذى جعلناه بعنوان : « الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم » .

وانا لنسأله سبحانه التوفيق والسداد .. والهدى والرشاد .

الإحساس بالجمال
منهاج وغاية

يقول الحق سبحانه : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » (٩ سورة الاسراء) .

تحدد هذه الآية الكريمة ماهية القرآن الكريم فى منهاجه ورسالته وغايته ...

فمنهاجه أنه يهدى : « ان هذا القرآن يهدى » ، ومعنى أنه يهدى الانسان أن ما جاء به من عقيدة وشريعة يختلف عما تواضع عليه الناس وتوارثوه وعما ألفوه واطمأنوا اليه من عقائد دينية ونظم اجتماعية وما ينشأ عنهما من أخلاق وآداب .

وهذا يقتضى — بغير شك — الجهاد والمجاهدة على شريعة من أمر الله . فالاهتداء تخير وتفضيل ثم هو اطمئنان وايمان ، وتلك من مقومات أو خصائص الهداية القرآنية .

وحين تقول الآية الكريمة : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، فانها تكون قد أوضحت غاية المنهاج أو غاية العقيدة والشريعة معا .. فغاية المنهاج هو الاهتداء ومعرفة الحق ومقاومة الضلال فى كل جوانب

الوجود الانساني سواء ما تعلق منها بالذات أو بالمجتمع أو بالأمة أو بالناس أجمعين . فاذا اهتدى الانسان للتى هى أقوم فانه يكون قد اهتدى الى لباب رسالته التى كلفه بها الله سبحانه . وما رسالته الا العمل بالأقوم والعمل للأقوم. . وهنا يأتى قوله سبحانه : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » ، وكأنه تأكيد وتجسيد لثلاثة جوانب أساسية فى حياة الوجود الانسانى أو الوجود الحضارى بعامة ، وهى :

أولا : أن الأقوم يفرض واجب الايمان بالله وحده .

ثانيا : أن الأقوم يفرض واجب العمل بشريعة القرآن الكريم .

ثالثا : أن الأقوم فى آداب السلوك والاخلاق والظواهر الاجتماعية هو ما اكتملت له أسباب التكوين الداخلى السليم الذى يهدى الى خير الانسان فى ذاته وحياته ، وما اكتملت له أسباب التكامل الظاهرى الذى يبعث على الاطمئنان اليه والرضاء به بل والايثار له .. وذلك هو نضار الاحساس بالجمال ...

فهل لنا ان نقول ان القرآن الكريم اذ يهدى للتى هى اقوم فهو انما يهدى الانسان خيالا واحساسا وفكرا الى الى ما هو أجمل ؟ وذلك على اعتبار أن الأجمل هو الأقوم من حيث قيمته فى ذاته وقيمته بالنسبة للغير .

نعم ، هو كذلك ، وهذا ما دعانا الى الاقتناع بأن الاحساس بالجمال هو احدى القيم الانسانية الكبرى التى عمل القرآن الكريم على احيائها وتزكيتها وتربيتها

فى نفس الفـــرد والمجتمع حتى يستقيم أمر الوجـود الانسانى وحضارته ، وحتى يستقيم الفـــكر الانسانى فى نظرته الى ماضيه وتطلعــه الى مستقبله وتقـــديره لحاضره وواقعه .

واذا كنا قد اقتنعنا بأن الاحساس بالجمال هو احدى القيم الإنسانية الكبرى فاننا قد تصورنا له ماهية قرآنية لا كفىء لها بين فلسفات المفـكرين ، ومنهاجا قرآنيا رتبناه من واقع الروح الشمولى للقرآن الـكريم فيما جاءت به آياته البينات وذلك بما يجسد الشمول بآفاقه ومظاهره فى الكون والحياة والفـــكر والشعور . بحيث يعطى فكرة كاملة ومتكاملة فى مقوماتها عن الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم .

فكيف جاءت ماهية الاحساس بالجمـــال فى ضوء القرآن الكريم بعقيدته وشريعته ؟ ثم كيف جاء تصورنا لمنهاج بحثنا فى عرض وتصوير مواقف ومشاهد الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم ؟

ولبيان ماهية الاحساس بالجمـــال فى ضوء القرآن الكريم ، نقول انه لابد اولا من أن نعرف موقفه من الانسان من حيث الغاية من خلقه ووجوده ومن حيث رسالته وعمله فى هذا الوجود .. لقد قال سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » (٣٠ سورة البقرة) .. فهذا الجزء من الآية الكريمة يوضح مقام الانسان ورسالته فى آن واحد ، فهو خليفة الله سبحانه اذن فقد فرضت عليه أعباء الخـــلافة وتكاليفها التى سيقوم بها فى الارض . فهنا المسئولية وجودية وشمولية فى آن واحد .

واذا كان الانسان خليفة ربه بناء على الأعباء والتكاليف التى توجبها مرتبة الخلافة فان هذا معناه أن الخلافة فى ذاتها أمانة .. انها أمانة الوجود الانسانى فى ذاته وامانة المجتمع والنـــاس أجمعين ومن ثم فقـد قال سبحانه : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٧٢ سورة الأحزاب) .

اذا كان الوجود الانسانى فى ذاته يجســد معانى الخلافة فى الارض ، وأن الخلافة فى ذاتهـا مسئولية وامانة ، فان معنى هذا أن الحفـاظ على الامانة وأدائها وحسن القيـــام عليها هو الالتزام المصيرى أو الواجب المطلق الذى لا يستطيع الانسان أن يتهرب منه أو يتحايل عليه ... وهنا تأتى الامانة فريضة ملزمة لكل فرد من ذكر أو أنثى ، فقال ســبحانه : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » (١٣ سورة الاسراء) .

ولقد تظن السطحية العقيمة والامعية السائرة وراء كل ناعق أن خلافة الانسان فى الارض اذ تكون أمانة ملزمة لكل انسان وعلى هذا النحو من الوجوب المطلق فان فيهـا القضاء الـكامل الشامل على حرية الانسان وارادته بل ووجوده الحضارى فى آن واحد .. وفات هؤلاء المشفقون ثلاث بديهيات أساسية وهى :

أولا : انه لا وجود للانسان الا بتحقيق امكاناته .. فما لم يقم الانســان بتحقيقها بمـا يضمن له الاستقرار والاستمرار والازدهار المتسامى على أمسه فلا كيان له ولا وجود .

ثانيا : أن الوجـود الانسانى يفترض الحـرية فبغير الحرية لن يستطيع الانسان أن يحقق امكانية واحدة من امكاناته .

ثالثا : أن الحرية الكاملة للانسان تقتضى القواعد التى يسير عليها والفـروض التى يهتـدى بها والقوانين التى تحكم خطاه .. وليس فى هذا شىء من الاستعباد لارادة الانسان ومن واقع هذه الخصـائص الفطرية للطبيعة البشرية فقـد نص القرآن الـكريم صراحة وتأكيدا على حرية الفرد حرية كاملة ، فقال سبحانه : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٥ سورة الاسراء) .

ووفق معانى الحرية التى تشى بها هذه الآية الكريمة فان على الانسان وقد ألزم بهذه الأمانة الكونية الوجودية أن يعيش فى يقظة دائمة ، ووعى دائم وفكر دائم وشعور دائم . وتلك هى خصائص الكيان الانسانى التى يستطيع الانسان أن يحقق بها وجوده فى واقع حضارى له نفعه للفرد والمجتمع والناس أجمعين . فاذا كان الانسان هو خليفة الرحمن فى الارض فان هذا يؤكد ان الخلافة فوق كونها قوامه فهى فى نفس الآن تقدير وتقييم . وليست القوامة هنا ـ والامر الزام بحمل الامانة ـ مجرد رئاسة شرفية لا تخدم شيئا ولا تحقق شيئا ، ولكن القوامة هى الايجابية الواعية التى تصون وتحفظ ما حققت وتجاهد ما وسعها الجهاد وبقدر ما يسعفها الفكر والشعور فى دعم وتأصيل ما تقوم عليه حياة الانسان ويكفل تحقيق وجوده .

وكذلك التقييم فهو لا يعنى التقدير السطحي الذى لا يتجاوز العبارات الشـــائعة التى تقال عند ابداء الاستحسان أو الاستهجان . فحقيقة التقويم أنه معنى من معانى الحرية الفـكرية فى النقد والتفضيل اللذين يقتضيان تقصى الاسباب وتحديد الدوافع .. ثم أن التقويم يقتضى أيضا العمل الايجـابى لتغيير البواعث التى أدت الى النتائج القائمة وذلك لاحداث نتائج جديدة يكون فيها تحقيق ما ينبغى تحقيقه أو ما يجب تحقيقه .

نخرج مما سبق بنتائج لها خطورتها فى تقدير القرآن الكريم وتقييمه لماهية الاحساس بالجمال .

أولا : أن الوجود الانسانى وجود حضارى .

ثانيا : أن الالتزام بأمانة الوجود الحضارى فريضة أخلاقية .

ثالثا : أن نظرة الالتزام بأمانة الوجـود الحضارى نظرة انسانية قبل كل شيء .

رابعا : أن وجود الانسان فى الارض يفرض وجـود علاقات انسانية بينه وبين ظواهر الارض وما يتصل بها من ظواهر طبيعية كونية .

خامسا : هذه العلاقات تفرض وجود خصائص انسانية عامة من حيث الفكر والشعور والاحساس يشترك فيهـا الناس أجمعون .

سادسا : أن هذه الخصـائص الانسانية العـامة لا تكتسب نضجها الا بالعمل والتجربة من خـلال الاطر الفكرية والوجدانية والاخلاقية المتكاملة تكاملا عضويا .

سابعا : أن القرآن الكريم وقد جعـل من الاحســاس بالجمال مدخلا الى تقييم الفكر والاخلاق فانه قد تهادى

بالانسان في تربيته الجمالية ليكون الاحساس بالجمال برهانا عقليا ووجدانيا على وجود الله سبحانه .. وبرهانا عقليا ووجدانيا على أنه لا استقامة للوجود الحضارى وللمجتمع الانسانى الا فى الايمان بالله والعمل بشريعته .

لكل هذا فانه لأمر منطقى أن يكون احياء القرآن الكريم للاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره وخياله شموليا متكاملا فى خصائصه ، وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا » (٨٩ سورة الاسراء) .

فمن خصائص الماهية القرآنية لبعث الاحساس بالجمال أن لغة القرآن الكريم فى بيانها وبلاغتها قد كفلت كفالة اعجازية للصور التى صورت بها المشاهد الكونية والطبيعية والاجتماعية والمشاهد النفسية الفائرة فى سواء اللاشعور .. بل والمشاهد التاريخية الفائرة فى سواء الماضى الذى احتجب عن الحاضر بستار من الاساطير والأراجيف .. كل تلك المشاهد وما احتوته من مواقف ومناظر ، وقد جاءت فى تصوير لغوى فان البيان القرآنى قد كفل لها ما يحتاجه المشهد المصور من تجسيم أو تجسيد للمعانى والاحداث . وفضلا عن هذا فانه يمازج بين الاضواء والظلال ويناسب بين الحركات تناسبا متكاملا يبعث الحياة فى كل لمحة من لمحات المشهد وفى كل جانب من جوانبه .. بل ان البيان القرآنى ليستجيش الانفعالات والخواطر النفسية بالموسيقى النوعية التى تنبعث من تراكيبه والفاظه ..

وكل هذا مما يجعل للمشهد المصور بيانيا تفردا متمايزا على فن التصوير .

فالمشهد القرآني يحرك الكيان الانساني نحوه .. فخيال الانسان يتحرك مع مناظره ، ويلحقه في تحركه أو انطلاقه وعيه وفكره وشعوره يخالجه في أثنائها شعور بانفعال متسام على رتابة الحياة العادية .

ولقد يقال : « ان الطبيعة (١) في ذاتها ليس لها قيمة استطيقية الا عندما ينظر اليها من خلال فن من الفنون عندما تكون قد ترجمت الى لغة أو الى أعمال الفتها عقلية أو شكلها تكنيك معين » .. وهذا صحيح .. وصحيح أيضا : « أن موضوعات (٢) الطبيعة كالاشجار والبحار والازهار والحشرات وان كانت تحدث في الانسان لذة وشعورا جماليا الا أنها لا تخضع للنقد الفني وهي لا تكتسب قيمة الا من خلال عين الفنان المدربة لان الجمال الذي يظهر للعين العادية مثله مثل الحقيقة التي تظهر لنا في الادراك العادي » .

ومع هذا فان بالانسان فطرة أولية للاحساس بالجمال .. هذه الفطرة قد اكتسبت دربة على رؤية المشاهد الطبيعية وتقديرها تقديرا جماليا أو الاستمتاع بها استمتاعا جماليا . فعندما ينظر المرء الى منظر طبيعي وليكن نهرا تحف به الاشجار والنباتات فانه لا يقول :

---

(١) من كتاب : (مبادىء علم الجمال) ، تاليف شارل لالو ، ترجمة د. مصطفى ماهر .

(٢) من كتاب (مقدمة في علم الجمال) ، تاليف د. أميرة حلمي مطر ص ٢٣ .

ما أجمل هذه الشجرة .. ولكنه بحركة ذهنية انفعالية واعية يكون فى مخيلته صورة محددة تقوم بين عناصرها علاقات متناسبة تجعله يقــول : « حقــا ، انه لمنظــر جميل » .

فكأن بالانسـان « العادى » اذن امكانية تكوين العلاقات الجميلة فى صور ذات اطار مغلوم .. وهذا يختلف ــ بغير ريب ــ عن الصورة التى يكونها الفنان : « فالصورة(١) الفنية تمتاز بأنها ثمرة انتقاء وتهذيب للمادة المحسوسة المستمدة من الطبيعة أو الحياة الانسانية . وغاية هذا الانتقاء هو اثارة التأثير أو الانفعال الجمالى » .

فالقرآن الكريم وقد جاء بصوره البيانية فى مشاهد طبيعية أو انســـانية فى تكوين معجــز فى التركيب والتنسيق وتساوق الرموز فى وحــدة عضوية تتمايز وفق المشاهد المعروضة والسياق العــام للآية والمحور الرئيسى للسورة .. القرآن الكريم وقد جاء بهذا التكوين الفنى الجمالى للمشاهد فانه يكون قد اكد حقيقة أساسية من حقائق الفطرة الانسانية وهى انهـــــا فطرة ذواقة للجمال وقادرة على الاحتكام به والاحتكام اليه .. وهذا معناه ــ وقد أشرنا الى هذا من قبل ــ أن الاحســاس بالجمال من المقومات الرئيسية للوجود الانسانى .

واذا كان : « تاريخ الفن (٢) يبين لنا ارتباط الفن دائما بالحياة ونظمها الاجتماعية والاقتصــادية وارتباطه بالافــكار والايديولوجيا اذ ليس هنـــــاك ما يفصل الفن ولا التجربة الفنية عن سائر تجارب الحياة الاخرى » ..

---

(١) من كتاب : (مقدمة فى علم الجمال) ، تاليف د. أميرة حلمى مطر ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٦ .

اذا كان تاريخ الفن يبين لنا ذلك فان الاحساس بالجمال لا يتوقف عند مجرد الانفعال الجمالى ولكنه يرتفع منه الى الادراك الجمالى ثم الى التقييم الجمالى الذى يكون له تأثيره فى احداث تغيير فى التكوين الفكرى والنفسى والخيالى عند الانسان .

ولهذا فان القرآن الكريم فى احيائه وتربيته وتزكيته للاحساس بالجمال عند الانسان فانه يعتمد على التصور الخيالى والتصور الفكرى وكلا من الوعى والشعور فى الارتفاع بالانسان عن جمود الالف الذى يحجر الفكر ويخدر الاحساس ليصبح من ثم فى موقف وجودى منزه عن شواغل المعيشة .. ولئن كانت المشاهد تربطه بواقعه الاجتماعى أو بواقعه الطبيعى الا انه فى تساميه الوجودي يصبح في موقف الادراك المباشر للجمال .

وتلك هى التجربة الجمالية المباشرة التى لا يصبح الانسان فيها مجرد مستمتع بلذة الجمال المصور بيانيا ولكن احساسه بالجمال يرتفع الى مرتبة الفكر الايجابى الملتزم أخلاقيا بأن يغير ما بنفسه حتى تستقيم نفسه ويستقيم شأن مجتمعه .

واننا حين نتدبر الآيات الكريمة التى جاءت مصورة للمشاهد الطبيعية والانسانية فاننا نجد أربعة أمور هى من صميم الاحساس بالجمال وهى :

أولا : أن القرآن الكريم يأمر الانسان بضرورة النظر الى المشهد الذى يعرضه عليه والى ضرورة تدبره والتفكر فيه فكأن التقييم الجمالى واجب أخلاقى و فكرى .

ثانيا : أن القرآن الكريم اذ يأمر بضرورة النظر والتفكر فى المشاهد الجمالية فهو من ثم يحرر الانسان

من الجمود الذى أصاب وعيه ومن التحجر الذى صار اليه فكره فكأن الدعوة الى تذوق آيات الجمال وفق ما جاء به القرآن الكريم دعوة الى الحرية أو الزام بفريضة الحرية .

ثالثا : أنه من خلال فريضة النظر وفريضة الحرية يصبح تذوق الانسان لآيات الجمال التى جاءت بها المشاهد القرآنية طبيعة أخلاقية ذات فاعلية ايجابية يسعى بها الى تحقيق الاتساق والتوازن والتآصر مع ذاته فى أعمالها وشئونها الخاصة ، ومع المجتمع فى أعماله وشئونه التى توجب على الفرد أن يشارك فيها مشاركة عملية أو التى توجب عليه المشاركة فى الرأى وتحديد موقفه مما يحدث من مواقف .

رابعا : أن هذا التذوق الجمالى وقد أصبح قدرة ايجابية تمكن الفرد من أن يحقق الانسجام والتوافق بين خصائصه الذاتية ــ الشعورية واللاشعورية ــ من ناحية ، وبين ذاته ومجتمعه من ناحية أخرى ، فانه من خلاله ــ أى من خلال التذوق الجمالى والاحساس بالجمال تتكون لدى الفرد مزية الادراك الكلى أو النظرة الكلية فى تقدير المواقف والاعمال والاقوال .. فلا يصبح من ثم انسانا جزئيا ــ ان أجيز هذا التعبير ــ بل يصبح انسانيا وجوديا متعاليا فى فكره وشعوره وخياله بغير أن يفقد الصلة الانسانية الاجتماعية التى تربطه بالناس .

***

نأتى بعد هذا الشق الثانى من المقدمة وهو المنهاج الذى اتخذناه فى تبيان الكيفية التى عالج بها القرآن الكريم

قضية الوجود الانسانى من حيث رسالته وغايته .. وذلك على أساس احياء الاحساس بالجمال فى فكر الانسان ووجدانه من واقع المشاهد الطبيعية والانسانية التى عرضها على الانسان فكرا وضميرا وشعورا .. حتى يكون الفكر الانسانى والاحساس الانسانى والعمل الانسانى ايجابيا بناء .

* ولقد جاء الفصل الاول من البحث مبينا أن قيمة الانسان فى عقيدته وأن التوحيد الذى جاء به القرآن المجيد له منهج متميز فى تبيان ماهية الوجود الانسانى ورسالته التى خلق من اجلها .. وكيف أن الوجود الانسانى والشخصية الانسانية لا قوام لها ولا كيان الا بشريعة القرآن الكريم التى تعرف طبيعة الفطرة الانسانية وما يصلح لها حتى تقوم بأداء الامانة التى كلفه بها الله سبحانه .

* ويدور الفصل الثانى حول منهج القرآن الكريم فى تصحيح علاقة الانسان بما حوله من المظاهر الطبيعية والكونية فى السماء والارض .. وذلك بعرض نماذج للمشاهد الطبيعية المختلفة مع بيان ما تجسده من آيات الجمال ودلائله وأثر هذه الآيات فى نفس الانسان وفكره وضميره بما يؤدى الى تغيير أساسى شامل فى نظرة الانسان الى ذاته ونظرته الى غيره ونظرته الى الحياة والكون . فتصح عقيدته ويصح عمله وتصح علاقاته الانسانية بمن حوله وما حوله .

* أما الفصل الثالث فيتناول الظواهر الانسانية : وقد أوضحنا فيه كيف عرض القرآن الكريم هذه الظواهر

عرضا جماليا بما لا يجسد المعانى الجمالية فحسب بل ويبعث الاحساس بالجمال فى ضمير الانسان خلقـــا وآدابا وعلاقات اجتماعية .

ولقد عنينا بالظواهر الانسانية : الاسرة .. والمجتمع .. والامة .. ونظام الحكم .. والعلاقات الاجتماعية .. وعنينا بها أيضا ما ينتج عنها من علوم وفنون وثقافات .. فهذه كلها جعل منهـا القرآن الكريم مناطا للاحساس بالجمال ، بل جعلها لا تنشأ ولا تزدهر وتحقق ما يرجوه الانسان منها الا بدافع من الاحساس بالجمال .

* ثم كان الفصـل الرابع وقـد خصصناه لدراسة الاحساس بالجلال .. وقد بينا فيه أوجه الاختلاف بين الاحساس بالجمـال والاحساس بالجلال .. وما يـكون بينهما من خصائص يشتركان فيها . ثم تبعنا ذلك بما جاء به القرآن الـكريم من مشـــاهد طبيعية وانسانية يتجلى فيهـا تجسيد المنـاظر التى تبعث فى النفس الاحساس بالجلال .. ثم بينا أيضا من خلال استخراج المعانى التى توحى بالاحساس بالجـلال من خلال عرض المشاهد ، اثر الاحساس بالجلال فى الفكر والوجدان.. وقبل كل شيء فى استصفاء عقيدة الانسان وضميره وسلوكه مما شابها من اضطراب او انحراف أو جمود يفسد الانسان على نفســه ومجتمعه فيضله عن قصد السبيل .

* وأخيرا تأتى خاتمة البحث لتوجز المعـــانى التى يحققها القرآن الكريم من احياء وتربية وتزكية الاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره حتى تكون العبودية خالصة لله وحده ...

الفصل الاول

ذلك الدين القيم

فطرة الايمان

وكما يحيا الانسان بالعقيدة فهو كذلك يحيا للعقيدة.. وبين القطبين ، « الحياة بها » ، و « الحياة لها » ، يتجسد الكيان الفردى بملامحه الدقيقة وقسماته العريضة ويتجسد الكيان الاجتماعى فى أمله وعمله وشمائره . ذلك لانه لا يوجد انسان يعيش فى بقعة من بقاع هذا العالم الفسيح المترامى الا كانت العقيدة حياته . ونعنى بهذا أنه حين يتناول بتصوره وتخيله مسائل المصير الكبرى سواء أكان ذلك بالنسبة له أم بالنسبة لغيره انما يصدر عن العقيدة التى آمن بها .. وليس قولنا ان العقيدة هى قوام الوجود هو أننا نعنى ما يصطنعه البعض عقيدة ودينا كالمذاهب السياسية أو الاجتماعية . لان أى نظام سياسى أو اجتماعى لا يمكن أبدا أن يصير بديلا للدين . فالطبائع والعوائد البشرية ليس من فطرتها الاخلاد الى نظام تستقر عليه أبد الأبيد .

والا فأين هو ذلك النظام ؟ أين هو النظام الذى حطم السدود وأزاح عناصر التناقض من طريقه فأصبح أمامه

واضحا جليا فلا عقبات ولا ثغرات ؟ أين هو النظـــام الذى خلقه الانسان وكتب له الدوام ولو لمائة واحدة من السنين ؟

ان النظم الانسانية لها ضرورتها المنطقية التى يفرضها قانون الصيرورة الحضارية والذى هو من طبيعة الكائن البشرى .. ولكنها ـ اى النظم والمذاهب ـ لا تقوم مقام الدين ولا تسد مسده .

ومثل هذا الذى ذكرناه عن السياسة والاجتماع يمكن كذلك أن يقال عن التقاليد وما يتواضع عليه النـاس من أخلاقيات وما يستتبعها من أذواق تحمد ما يوافقها أو يوافق الرخص الاجتماعية وتمج ما لا تراه على شرعة الناس .. فالتقاليد لا يمكن أيضا أن تقوم مقام العقيدة وهى على هذا التقلب المستمر .

ولكن العقيدة الدينية كيان شعورى يحس به الانسان احساسا بينا لا غموض فيه ولا تهويم .. انهـا فطرة يفرضها المنطق الوجودى للكون فضلا عن المنطق الوجودى للوجود الانسانى ذاته .. وما فطرة الايمان بالله سبحانه الا الفطـرة الخـــالدة الباقية أبدا من وراء الشـــكول والالوان .

ونحن نقول فطرة الايمان بالله ولا نقول غريزة الايمان بالله لان الغريزة جمود على دوافع حية لا يمكن الخروج على طريقها المرســوم الذى يتصف بالآلية والتبعية .. ولكن فطرة الايمان على غير هذه الصبغة ، انها شـــعور حيوى كلى متعال أى أن من طبيعته التعالى بالانسان والاخذ بيده مرقاة من وراء مرقاة الى ذروة الطهر والنقاء .

وقد يتناءى جموح التساؤل ببعض الآحاد فيقول : وهل يا ترى رزق الانسان فطرة الايمان دفعة واحدة أم انه اكتسبها بالتطور كما تطورت به وسائل العيش ؟

ولا يعز على ذلك البعض أن يجد الاجابة على تساؤله عند العلماء والفلاسفة الذين اشتغلوا بالمقارنة بين الاديان .. فمنهم من يرى أن العقيـــدة الدينية تطورت كأى ظاهرة من ظواهر الاجتماع ، ويرى أيضا أن للكشوف العلمية والتقدم الصناعى والثقافى دورا كبيرا فى تطور العقيدة .. ولكى يدعموا قولهم فهم يمحضون له الادلة بالحجج التاريخية يأتون بها من الديانات الوثنية القديمة كالمصرية واليونانية والبابلية والهندية وغيرها .

ولا نزاع فى تهافت الرأى الذى يذهب الى أن فطرة الايمان تطورت على هذا النحو أو ذاك .. والتهافت يأتيه أولا من أن المنطق الحضـــارى والوجودي يحتم الايمان بالله وحده .. ويأتيه التهــافت ثانيا من التاريخ الذى يحتجون به ، فما من نبى من الانبياء الا كانت رسالته دعوة الى التوحيد : فنبى الله نوح قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » (٥٩ سورة الاعراف) .. ونبى الله هود قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون » (٦٥ سورة الاعراف) .. ونبى الله صالح قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم » (٧٣ سورة الاعراف) .

فلا يعقل أبدا أن يطالب قوم بعبادة الله الواحد الذى لا شريك له ، على هذه الصورة ما لم تكن فطرة الايمان مستقرة بداءة فى قلوبهم ومعلومة سلفا لديهم .

وخير ما نقدمه تأكيدا لفطرة الايمان ودحضا لكل متشكك مرتاب هو كتاب الله ، القرآن الكريم . فهذا الكتاب المجيد والامة التى نزل عليها ودعاها الى الايمان بالله والعمل بشريعته يدفع المذاهب الفلسفية التى تتخرص بفكرة التطور فى العقيدة .

فالامة العربية التى نزل عليها القرآن الكريم لم تكن قد بلغت فى تطورها الاجتماعى والفكرى الحد الذى يستأهل رفعها الى مرحلة التوحيد .. وما وجدت طبقة يمكن أن توصف بأنها ذات تفكير فلسفى رفيع يمكن أن يؤهلها لذلك . لقد كان يتمثل فى شبه الجزيرة العربية كل مظاهر البغى والظلم والتفكك ، هذا مع نزعات دينية من يهودية ومسيحية وصابئية جاء بها أصحابها وهم على جهل بأصولها وغايتها .. ولذلك فلم يكن ينتظر منهم أن يعلموا أهل البلاد التى نزلوا بها صواب العقيدة وصحيح التدين .. ولكن القرآن الكريم لم ينتظر حتى يبلغ العرب مرحلة حضارية معينة — كتلك التى يزعمها الزاعمون — تعينهم على تفهم وتقبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. الحق أن رسالته عليه السلام اعجاز فى كل ما اشتملت عليه : اعجاز فى البيان ، واعجاز فى الفكر ، واعجاز فى التشريع ، واعجاز فى الحوار والجدل .. وهذا الاعجاز ما جاء ليخاطب عباقرة الفكر والفن وأساطين الاقتصاد وفلاسفة التاريخ ودهاة السياسة فحسب ، ولكنه جاء ليخاطب بالكلمة المعجزة فطرة الايمان .

وقد يتساءل من دأب على خلة المماراة والجدل : فما بال الديانات الوثنية فى مصر واليونان وبابل والهند

والصين ؟ لقد شادت تلك الديانات من العمائر الحضارية ما يقاوم أفاعيل الزمان ، وأبدعت من حكم الاجتماع وآداب السلوك ما زالت موجودة الى الآن .. وتفتقت العبقريات الوثنية عن نظريات فلسفية خصبة وعميقة دقيقة ، بل وتفتقت كذلك عن آيات فى الفنون وسياسة الحكم .. فأين غابت فطرة الايمان طوال ثلاثة آلاف عام؟

وتساؤل كهذا ربما يثير الحيرة والبلبال ، ولهذا تقول : انه طوال ثلاثة آلاف عام لم ينقطع بعث الانبياء لدعوة الناس الى عبادة الله وحده .. ثم ان الديانات التى شاع أمرها فى شتى الاقطار لم يبق منها غير اسماء آلهتها الكبار ، وليتها بقيت عبادة مرعية بين اتباعها الى اليوم ولكنها بادت كما بادت ايامها التى حظيت فيها بالاجلال والتقديس ، بادت وأصبحت لاتذكر بغير كلمة واحدة : « أساطير » .

بل انها قبل أن تبيد وتنطوى أيامها فاننا نجد ان فلاسفة اليونان كانوا فى معظم أحوالهم يقفون صامتين أمام حشد الآلهة لان فطرتهم كانت تأبى التسليم بالشرك . ولكن لخشيتهم ممن بيدهم مقاليد السلطة فقد تابعوا التقاليد الشعبية فى القول بالآلهة .

وربما كانت مصر هى أقرب البلاد الى فطرة الايمان القويم ، فقد زارها أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام وثلة من أبنائه .. وعاش فيها موسى عليه السلام زمنا ودعا الى عبادة الله . ولكن سلطان الكهانة كان أقوى من قوة الانبياء وأتباعهم . وذلك شأن الاوطان التى تقوم حضاريها على ضفاف أنهار كبيرة .. ومع ذلك فان ما يقال عن

الثقافة الوثنية فى أمة من الامم لا نعدم نظيره فى أمة أخرى .

وبعد هذا تبقى المشكلة كما هى : هل استطاعت الوثنية أن تغني حياة الانسان اغناء روحيا يملك ماضيه وحاضره ومستقبله ؟ هل استطاعت تلك الديانات أن تهدى الانسان الى حقيقة نفسه وذاته ؟ وهل استطاعت أن تقيه آفات القلق الذى يصيب المرأ اذا ما بدأت الهواجس تندلع فى النفس ؟ وهل أبانت له وبصرته بما قد يزيف المزيفون ؟ .. ان الديانات الوثنية بدون استثناء لم تفعل شيئا من ذلك وما كان فى مكنتها أن تقدم أقل عطاء منه . ولو أنها نفثت فى الانسان خلة من خلال اليقين لما بادت هكذا غير تاركة وراءها شيئا فى نفوس الناس سوى ذكريات يؤججها بين الحين والحين حب الانسان لوطنه واعتزازه بتراث الآباء والاجداد . فالديانات الوثنية سواء فى الشرق أم فى الغرب ما كانت غير انحرافات عن فطرة الايمان بالله الواحد . ولو أنها استمرت عصورا متلاحقة فان ذلك لا يغير مما نعتقده فى فطرة الايمان .

لقد جاء القرآن الكريم بكلمة التوحيد وشريعة التوحيد .. كلمة التوحيد التى تقول : « لا اله الا الله » ، قولا منزها عن كل شية من شيات الشرك .. واتى بشريعة التوحيد التى تجد فيها الانسانية الغاية الفضلى تنشدها أملا ورجاء .

أتى القرآن الكريم بعقيدة التوحيد وشريعة التوحيد : اعجازا بيانيا ساحرا ، واعجازا فكريا يسلم به العقل الانسانى تسليم الايمان والاطمئنان ، واعجازا تشريعيا

يقف كل تشريع ازاءه متطامنا بل ويقبل عليه طائعا متقبلا .

نعم ، هو جمال كله .. وما هو الجمال أليس هو احدى القيم الكبرى المطلقة ؟ أفلا يكون القرآن الكريم اذن اعجاز في الجمال : جمال البيان وجمال الفكر وجمال التشريع ؟ .. أفلا يكون القرآن الكريم تربية على الاحساس بالجمال وعيا وتذوقا وعملا ؟

نعم ، وانه لكذلك ...

الانسان فى القرآن الكريم

« كل يعمل على شاكلته » ...

معيار قويم لتعليل اختلاف المذاهب التى يصطنعها الناس فى أعمالهم وقضاء أوطارهم . فهو من ناحية اقرار بتنوع مظاهر الحياة فى ألوانها وأنواعها .. وهو من ناحية أخرى تأكيد على أن وراء الظاهر المتجسد للعيون باطن يعمره اللباب الحى الذى ينفح من روحه ما يحدد المنهاج ويرسم المجال الذى يقوم به التمايز وينشأ التفرد .

ان كلمة « شاكلته » ، تجسد طبيعة الكيان الانسانى، فهو كيان حى منطلق ، كيان عامل مندفع فى عمله وبنائه .. فاذا كان لنا أن نفسر مسلك شخص ما ازاء مشكلة من مشكلات المعاش أو رأى من آراء الاجتماع فان علينا أن نتعرف على « شاكلته » أو على شخصيته . فبذلك نستطيع أن نحكم على موقفه من الحيـــاة ونظرته الى الوجود ، وبذلك أيضا يمكننا ــ الى حد ليس بالقليل ــ ان نتنبأ بمسلكه أو تصرفه فيمـــا قـد يعرض له من

مشكلات .. غير ان الانسان لا يعيش الا استجابة لمبدا الالتزام الذى يعد محورا لكل كائن حى أيا كانت طبيعته وأيا كان نوعه ودرجته في سلم الكائنات . ومع ذلك فهو مبدأ متعدد الدلالات متعدد الغايات عند هذا الانسان أو ذاك وعند هذه الامة أو تلك .

ان لكل انسان شاكلته ولكل أمة شرعتها ومنهاجها ، وهذا التخالف يؤكد أن موقف الانسان الفرد ــ وكذلك الامة ــ موقف جزئى يقتصر على وجهة معينة أو هو لا يؤمن بغير مقصد واحد من مقاصد الحياة ومن ثم فان اى مذهب من مذاهب السياسة أو الاجتماع وأى طريقة من طرائق السلوك العام اذ تقوم على نوعية معينة من الالتزام يستحيل عليها أن تفي بمطالب الانسان وحاجاته. بل ويستحيل عليهـــا أن تفى بتأكيد ما يجب عليه من التزامات وما ذلك الا لانها قاصرة على وجه واحد من أوجه الحياة . وهذا معناه أن الالتزام قاصر قصورا بينا عن ان يحقق امكانات الفطرة في عمق وشـــمول مطلقين . وفرق بين الالتزام والفريضة ، فالالتزام يحمـــل معنى الارغام على العمل فهو أشبه ما يكون بالسلطة البوليسية التى تفتأ تلوح بعصاها أمام عين الضمير او عين العقل مذكرة ومنذرة . وحتى لو كان الالتزام صادرا عن ذات الانسان وباطنه فهو يحمل طابع الاملاء أو الارغام الذى يقبله على مضض أو يقبله استسلاما لا حيلة له فيه . أما الفريضة فانها على غير الالتزام فى الشكل العـــام والمفهوم الخاص . ففى الشكل العام تكون الفريضة مبدأ اخلاقيا عاما أو قاعدة اخلاقية عامة تكون صمام الامان لحياة الفرد والجماعة .. وتكون فى نفس الآن العـــامل

الفعال فى الحفاظ على سلامة البناء النفسى والفكرى والاخلاقى حفاظا يبعث فيه النماء والازدهار .. ومن ناحية المفهوم الخاص للفريضة نجد أن الاحساس نحوها أو تصورها يقوم على الاجلال والتقدير فى مزاج من الحب والتقديس . فحين تكون الفريضة على هذا النحو فان الشعور نحوها يكون فدائيا ايثاريا ، ان أجيز هذا التعبير .. والشعور الفدائى الايثارى هو الاحساس بالواجب الاخلاقى وضرورته .

ولو أننا استقرأنا مذاهب الانســـان فى الاجتمـــاع والفكر والنحل الدينية من يوم أن أدرك كيانه وعرف ذاته وأيقن بمكانته ورسالته لاستبان لنا أن أى مذهب منها لم يرق الى أن يجعل من الحيـــاة فى عمومها وشمولها فريضة الفرائض .

حتى اذا جاء الاسلام الحنيف كان هو العقيدة التى جعلت الحياة فريضة على الانسان .. جعلتها فريضة بكل معانى العمق ودلائل الشمول : شمول الزمان ، وشمول المكان ، الزمان بأزله وأبده ، بماضيه وحاضره ومستقبله .. وشمول المكان فى قاصيه ودانيه ، واختلاف بقاعه وأممه وشعوبه فى تقاليدهم ولغاتهم وثقافاتهم وعقائدهم .

ولكن القول بأن الاسلام الحنيف قد جعل فريضة شمولية بهذه المعانى لا يكون له واقع حى فى التصور والشعور بغير أن نعرض تصور الاسلام للحيـاة وكيف جعل منها فريضة على الانسان .

يقول سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم

ما لا تعلمون » (٣٠ سورة البقرة) .. فالارادة الالهية شاءت أن يكون للحياة مقام جديد على غير ما اعتادته الملائكة أو على غير ما علمته ، ولهذا التغير او التحول الذى أرادته الحكمة الالهية عدة معان دقيقة منها :

أولا : أن التغير هنا ليس معناه ولكنه الجد المنزه عن اللهو والصغار .

ثانيا : أن التغير فى ذاته امر كريم عظيم لانه موصول بالله سبحانه .

ثالثا : أن الوجود بمن فيه وما فيه راجع الى الله وحده خالق كل شىء .

واذا كان النظام الكونى قد دار وتحرك وتفاعلت عناصره حتى كان للأرض موقعها الفريد الذى نقول عنه عادة انه حيوى .. هذا الموقع لم يعد ولم تتوافر فيه أسباب الحياة لكى يستقبل كائنا حيا أو كائنا عاقلا .. لا ، انما خلقت الارض وهيئت وأعدت لتستقبل خليفة ، فتقول الآية الكريمة : « انى جاعل فى الارض خليفة » .

وهذه الكلمة « خليفة » تجسد معانى عميقة خطيرة : فهى مقام وصفة ورسالة .. وتلك مفهومات ماهية الانسان . فهى مقام لانها تكريم ليس فوقه تكريم ، تكريم من الله للانسان أن يكون خليفته فى الارض .. وهى — أى الخلافة — صفة من الصفات التى يعرف بها الانسان ويتميز . ولكنها ليست صفة عارضة أو موقوتة تظهر فترة ثم تزول أخرى أو انها قاصرة على نفر من الناس دون سائر المخلوقين .. وما دامت الخلافة صفة فلابد أن يتحقق فيها صفات من خلقها وقدرها ، والا

فكيف يكون الانســــان خليفة ما لم يتميز بصفات من استخلفه أو على الاقل يهتدى بصفاته فيقبس منهـــا ويتخلق بها ؟ .. واذا كانت الخلافة مقاما فلا دوام لذلك المقام بغير دوام الصفة ولا وجود لذلك المقام بغير وجودها. فاذا اهتزت الصفة او طاف بها طائف من انحراف اهتز المقام وترنح ، ومن يدرى فقد يكون الاهتزاز عنيفا والترنح جامحا فتفقد الصفة خصائصها وتزول عن الانسان صفة الخلافة لانه اختار - أو أختير له - مقاما آخر ليس من الخلافة فى شىء وليس من الانسانية فى شىء .

والمقام ليس مكانا يقبع فيه الانسان أو يسكن فيه سكون الخـــواء او اللامبالاة . ولذلك فليست الصفة الصادرة عن ذلك المقام جامدة متحجرة ولكنها الحيوية القادرة فى حرية على الانفعال والتحرك والعمل وهنـا تنبثق الخصيصة الثالثة لماهية الخلافة وهى أن الانسان صاحب رسالة ولو لم يكن صاحب رسالة لم بوىء مقام الخلافة .. ذلك لان الخلافة عمل وبناء واعمار أو هى الحياة بكل ما تفرضه الحياة من جهد وتضحية . وهذا ما جعل الملائكة يخافون ويسألون ربهم : « اتجعل فيها من يفسد فيهـــا ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك » ؟

***

لقد خلقت الارض للانسان أو خلقت الحياة فيهـــا للانسان الذى كلفه ربه أن يكون خليفته فيها .. فالخلافة من ثم أئتمان وثقة وتقدير ، فلو لم يأتمن الله انسان على الحياة لما استخلفه عليها . فالحياة على هذا أمانة فى عنق الانسان ماله أبدا أن يتحلل منهـــا أو يتنصل من

تبعاتها ، وما له أبدا أن يقاومها أو يقاوم العاملين في سبيلها والمناضلين من أجلها .. ان الاسلام يجعل الحياة فى ذاتها أمانة اذ أن بها تقوم عناصر الاستخلاف وعليها يتوقف مصير الخليفة .. وليؤكد القرآن الكريم مدى خطورة هذه الامانة .. وليؤكد أنها قدر الانسان ومصيره .. وليؤكد أيضا أنها الفريضة التى يتقرب بها الانسان الى ربه ، ليؤكد القرآن الكريم هذه المعانى فقد قال سبحانه : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (١) . وتبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى : « انا عرضنا » ، وكلمة « عرضنا » فى ذاتها تعنى الحرية وتؤكد الحرية . فأنت لا تعرض على شخص ما أمرا من الامور الا اذا افترضت فيه أنه حر فى قبول مناقشته أو فى قبول الاخذ به .. والحرية اختيار وتقييم ومفاضلة .. ثم هو – أى العرض – دلالة احترام وتقدير ، بل ان فى مجرد العرض تكريم واحترام يدركهما من توجهت اليه .. وهكذا العرض تقدير لذات الغير وقدرته ومكانته .

ثم تقول الآية الكريمة : « انا عرضنا الامانة » ، فما هو مفهوم كلمة الامانة هنا؟ أو ما هى المعانى والاهداف المقصودة منها ونحن فى مستهل فجر الوجود البشرى ؟

ان كلمة « الامانة » شمولية جامعة تدل على الدقة والعمق والخطورة . فهى دقيقة لانها جمعت بين طبيعة الحياتين ، الحياة الانسانية والحياة الطبيعية التى

(١) ٧٢ سورة الأحزاب .

سيواجهها المرء ويتعامل معها .. وهى عميقة لانهـــا ترتد قبل كل شىء الى الايمــان ، ايمان الانسـان بربه وايمانه بذاته وايمانه بحياته ووجـوده وايمانه بالبشرية جمعاء .. وان كلمة « الامانة » خطيرة لانها رعاية وعناية ، ثم هى ايضا أداء وفداء وبدون ذلك لا تصبح الامانة أمانة وانما تصبح استغلالا وأنانية عضوضة .

وتقول الآية الـكريمة : « انا عرضــنا الامانة عـــلى السموات والارض والجبال » .. فاذا عرضت الامانة على تلك الظواهر الـكونية الـكبرى فان ذلك يشهد بأن الامانة هى قيام وجود أو نشأة وجود أخطر فى مقامه ومنزلته عند الخلاق العـــليم من « السموات والارض والجبال » . وأن التكليف بهذه الامانة أعظم وأجل من أن تحتمله . ولذلك كان جوابها الذى صـــدر مجازا عن طبيعتها وكأنها تترجم عنه وتدل عليه هــو قـوله تعالى : « فأبين أن يحملنها » .. فما معنى الاباء هنا ؟ لقـــد قلنا من قبل أن الحق سبحانه عرض أمانة الوجود ، وقلنا ان العرض فى حد ذاته دليل على الحــــرية فى الاختيار والتفضيل . فاذا أبت السموات والارض والجبــال أن يحملن الامانة ، لم يكن ذلك غريبا على السياق المعنوى للآية الكريمة . بل ان مما يدل على أن الحرية هى مما تفرضه طبيعة العرض أن تأتى كلمـــة : « فأبين » ردا ايجابيا وطبيعيا على عدم القدرة على تحمل الامانة .. فلو لم تكن هناك حرية مقدرة لما وجد اباء ، اذ أن الاباء رفض ولكن عن ارادة مالكة لزمام أمرها . وفى حالة السموات والارض والجبال نستطيع أن نقول ان طبيعة تكوينها وعملها لا تلتقى مع موجبــات الامانة على طريق

واحد .. فهي تنفر منها نفورا طبيعيا حـــادا وتلك دلالة على أن المصير المتوقف على الامانة خطير ، ولهذا فقد جاءت كلمة « وأشفقن منها » لتعبر عن ضعف تلك الظواهر عن قبول الامانة رغم رهبة قوتهـــا وضخامتها ولتعبر أيضا عن ضآلتها ودقة وضعها اذا قيست بمقياس الغاية الكبرى التي وضعت لها الامانة .

ثم تقول الآية الكريمة : « وحملها الانسان » ، هكذا دفعة واحدة .. فلماذا ؟ لماذا لم تكن هناك فترة يتفكر فيها الانســـان ويتدبر أمر الامانة حتى يرى أن كان يستطيع حملها أم لا ؟ .. لقد حسم الانسان أمره بهذه السرعة لان المخلوق ما كان له أن يعصى أمر خالقه . ثم ان من خلقه قد فطره على طبيعة قادرة او مخصصة لهذه الامانة وحدها .. وما دام الامر كذلك فليست ها هنا حاجة الى التلبث أو الانتظار ولكنها الاستجابة التلقائية الى النداء الالهى الذى يحمل الغاية من وجود الانسان فى الارض .

ولكننا نلاحظ أن الكائن البشرى الـذى حمل الامانة ذكر فى الآية الكريمة بكلمة « انسان » ولم يذكر بكلمة « خليفـــــة » ، فلم كان ذلك ونحن فى مقام تســليم الامانة ؟ ..

وحقا نحن فى مقام التسليم ، والتسليم اذعان وطاعة وفى الطاعة يرجع الخليفة الى منزلته الاولي والاولية .. فهو أولا وقبل كل شىء انسان فليتسلم الامانة كانسان على أن يرتفع بها كما أراد الله أن يكون الارتفاع وأن يحققها كما أراد الله أن يكون التحقيق . وبذلك يكون

قد حقق أمانته أو ارتفع الى ما أعد له فيصبح خليفة الله في الارض .

ووجه آخر من أوجه المعنى وهو أن في ذكر كلمة : « انسان » ، اشارة الى أن الكائن البشرى أينما كان وكيفما كان مكلف بحمل الامانة وأداء الامانة . فليس له أن يزور عنها وليس لأحد أن يحول بينه وبينها بأى وسيلة كانت أو لأى هدف كان .

لكن ما بال الآية الكريمة تقول عن الانسان : « انه كان ظلوما جهولا » ؟ ما السر في ذكر كلمة جهول هنا ؟ السر هو أن حمل الامانة لما كان عملا قائمـــا على التجربة ، والتجــربة بحث في المجهول أو عن المجهــول فان ذلك يؤدى في أغلب الاحيان الى الزيغ والضلال . وذلك لمـا قد يرين على البصيرة من أوهام يحسبها الانسان حقا بينا ومن ثم كان الانسان جهولا كما هو ظلوم .. ولقـد يقال انه ما كان يجب أن يوصف الخطأ بالظلم فيصبح به الانسان ظلوما أو يوصف الخطأ بالجهل فيصبح الانسان به جهولا ، لان ذلك مبالغة وتهويل ما ينبغى أن يكون .. ولكننا نقول ان الخطأ لا يتعلق بتجربة فردية أو جماعية لان التجربة هنا وجودية كونية . وما دمنا في موقف تسليم أمانة الوجود للانسان فيجب أن تكون اللفظـة المعبرة عن الخطأ والانحراف كفاء الامانة وكفاء المسئولية وكفاء مقام الانسان عند خالقه سبحانه . ولذلك فلم يكن يصلح غير هذين اللفظين : ظلوم ، وجهول .

ولقد أعطى الحق سبحانه للفطرة البشرية ما يحفظ عليها حيويتها وينمى هذه الحيوية ويزكيها . وليس هناك ما ينمى ويزكى ، وليس هناك ما يعطى للحياة قدرتها على

الانطلاق والابداع سوى الحرية . ولما كانت الحرية من الحياة والحياة من الحرية ولا يفهم أى منهما بدون الآخر فقد منح القرآن الكريم الحرية كل الحرية للانسان .
والقرآن الكريم حين قرر مبدأ الحرية فانه عرضه من أوجه مختلفة لتأكيده أولا ثم لاعطائه تصورات مختلفة ثانيا كى تثرى الفكر وتبعثه على التأمل والبحث .. وذلك مما يحيى المبدأ فى النفوس فتحيا به عن وعى وبصيرة .

فمن الآيات الكريمة التى تؤكد مبدأ الحرية قوله تبارك وتعالى : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٢ ، ٣ سورة الانسان) .

وتقول المثالية المتعالية كما تقول الوجودية ايضا أن الشعور بالذات والاحساس بالذات هو المقولة الاولية للحرية الانسانية . على أن يكون الشعور بالذات أو الاحساس بها عن امتلاك ووعى بصير قادر على الحركة والعمل والتحكم فى الحركة والعمل .. وتبلغ الذات اعلى مراتبها حين تضع نفسها أمام نفسها فى نظرة موضوعية تقييمية قادرة على تبين العيوب وعلى استصفاء ذاتها مما تردت فيه فى تجربة ذاتية متعالية .. وتلك هى الحرية التى يفرضها الاسلام على الذات الانسانية محذرا من الخروج عليها أو الاستهانة بها ، فيقول سبحانه : « بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » (١٤ ، ١٥ سورة القيامة) .

***

وحين يصور لنا القرآن الكريم ماهية الانسان ورسالته

وخصائصه الفطرية فهو انمـــا يمهد لنا السبيل الذى ستدخل منه هذه الفطرة دنياها وعالمها الذى خلقت له.. ومن أجل هذا فان القرآن العظيم قد عمــــل على بعث الحياة فى الانسان والمجتمع والبشرية وذلك باحياء العلاقة بين الانســـان وذاته وبين الانســــــان وبيئته الطبيعية والاجتماعية .. وذلك بجعلها علاقة جمالية بحيث يصبح الانسان ذاتا وجودية وعيها هو الاحساس بالجمال وعقلها هو التفكر فى آيات الجمال .. ولتحقيق هــذا الاحيــاء الجمالى فقد تناول بحثنا هذين الجانبين المتكاملين :

أولا : الظواهر الكونية الفلكية والطبيعية .

ثانيا : الظواهر الانسانية .

الفصل الثانى :

الظواهر الكونيّة

كيف جاء منهاج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية ـ الفلكية والطبيعية ـ بما يحقق الغاية من ازكاء الاحساس بالجمال في وجدان الانسان لبكون احدى مقومات شخصيته فعينه على التمييز بين الحق والباطل وبين الاستواء والنشوز ؟ . .

لقد جاء منهاج القرآن الكريم متمايزا من ثلاث نواح :

أولا : من ناحية البناء البيانى الذى يعد مدخلا رئيسيا للتذوق الجمالى والاحساس بالجمال .

ثانيا : من ناحية التركيب الفكرى الذى يقصد به ـ فيما يقصد ـ احياء العقل بتربيته على التفكير الحر . وبهذا يكتسب العقل ملكة التمييز النقدى أو التذوق النقدى .

ثالثا : من ناحية الجانب الوجدانى حيث يعمل كل من المدخل البيانى والتركيب الفكرى على استجاشة بواعث الحب للجمال والاستمتاع الجمالى بالمظاهر الكونية التي صورتها آيات الكتاب الكريم .

وإذا كانت الطبيعة فى ذاتها : « قلما تنجح (١) فى انتاج لوحة فنية بمعنى الكلمة » ، على حد تعبير ويسلر . ومن ثم فان الطبيعة توجب أن يقوم الانســـان بتربية عينه تربية فنية جمالية : « عن طريق (٢) الاحتكاك المستمر بها » ، كما يقول المصور سيزان ، فان هــذا يؤكد لنا ضرورة أن يكون موقف الانسان من الطبيعة سواء أكان فنانا أم غير فنان هو موقف الوعى الجمالى بالحياة .. ولذلك فان القرآن الكريم فى تصويره لمظاهر الطبيعة قد أتى بها متفاوتة فى درجة التركيب من حيث البساطة والتعقيد . ويقصد بالتعقيد هنا اشتجار المناظر واللمحات فى المشهد الواحد .

لقد جاءت المشـــاهد الكونية ــ الفلكية والطبيعية ــ التى صورها القرآن الكريم فى شمول دقيق حوى كل مظاهر الكون : ما فوق الارض وما فى باطن الارض .. وما فى السموات وما بين السموات .. وما فى البحــار وما فوق البحار .

ولقد تميز كل مشهد أو منظر بايقاعه البيانى وتركيبه الفنى ودلالته الفكرية .. ولذلك فان منهجنا فى عرض المشاهد الكونية التى صورها القرآن الكريم سيقوم بتحقيق خمسة أمور متكاملة :

أولا : اعتماد التصوير البيانى ــ كما ذكرنا من قبل ــ مدخلا أوليا للتذوق الجمالى وبعث الاحساس بالجمال .

ثانيا : بيان الجانب الفكرى الذى يثيره التصــوير

(١) كتاب : (مشكلة الفن) ، تأليف د. زكريا ابراهيم ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٥٨ .

الفنى للمشاهد الكونية وكيف يجعل منه القرآن الكريم فكرا جماليا .. وبذلك تصبح الذات الانسانية قادرة على التصور الكلى للأفكار التى يجسدها التصوير الحسى .

ثالثا : بيان كيف يرتفع القرآن الكريم بالذات الانسانية فى تربيته لها على الاحساس بالجمال وعلى التفكر الجمالى لكى تكون ذاتا ذواقة ونقدية فى تذوقها .

رابعا : بيان كيف تعين هذه التربية الجمالية ــ تذوقا وتفكرا نقديا ــ على الايمان بأن الحياة فى التناسق والتناسب والتواصل الحى بين الناس .. ومن ثم يصبح التذوق الجمالى سلوكا أخلاقيا .

خامسا : بيان كيف أن هذا الايمان الجمالى يفضى الى الايمان وجدانيا وعقليا بالله سبحانه .

***

فلنبدأ اذن رحلتنا بين آفاق الكون الرحيب نتنقل بين مظاهره الفلكية والطبيعية لنشهد آيات الجمال كما صورها القرآن الكريم .

***

ــ ١ ــ

من الصور الكونية الشمولية المتميزة بالايقاع السريع والتى يعرضها القرآن الكريم للنظر والتأمل ما جاء فى قوله سبحانه : « ألم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وانزلنا

من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا . ان يوم الفصل كان ميقاتا » (٦ : ١٧ سورة النبأ) ..

ان كل آية من هذه الآيات البينات مشهد كامل فى ذاته ومتكامل مع الاطار العام للصورة . وهو فى كماله وتكامله متمايز تمايز التناسب الجمالى لا تمايز الشذوذ الذى يضل الفكر والشعور .. ولكى تهيىء الصورة البواعث النفسية والفكرية وما لها من طابع انفعالى خاص بها فان الآيات البينات تبدأ بهذا الاستفهام الانكارى : « ألم » ، وهو انكار واقعى أى انكار لاحياء الحس الواقعى أو العقل الذى لا يعمل الا فى الواقع . فحين يقول سبحانه : « الم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا » . فليس ذلك تصويرا لكل من الصخور الجامدة والوديان المنبسطة التى يشهدها الانسان فى كل آن .. ولكنه تنبيه للذهن والحس أن يعاينا ذلك لانهما فى ذاتهما قدرة وغاية وهما من أسس الحركة والنشوء .. ثم يقول سبحانه : « وخلقناكم أزواجا » .. وهنا قد يسأل بعض الآحاد : اليس فى ذلك شذوذ أو اضطراب فى الصورة ؟ .. ما هو وضع « الازواج » هنا ؟ وما الحاجة اليه ؟ ونقول : أن ليس ها هنا شذوذ أو اضطراب ولكنه التناسب المحكم، فالارض قد خلقت مهادا للناس فيها يحيون وعليها يعيشون .. والجبال خلقت للناس بها يحتمون وبها يستنفعون ، فلو منع التزاوج بين الارض والجبال فى طور من أطوار الحياة لسبب أو لآخر لكان فى ذلك القضاء على الجنس البشرى . فالزوجية دلالة على

القدرة والرحمة ، وفى نفس الآن وشيجة حيوية متسقة فى تجاذب عضوى مع زوجية الارض والجبال .

والزوجية ليست مجرد متعة انس واشتهاء ، انها تعارف كفاح فى سبيل البقاء وتعارف كفاح فى سبيل الرزق ، وذلك مما يرهق البدن ويكد العقل فمتى تكون الراحة اذن ؟ متى يكون التجديد الحيوى الذى يبعث الفتوة والنضرة فى الجسم والعقل والخيال ؟ انه فى النوم .

وتشهد الآية الكريمة العين تلك النعمة وتدعو العقل الى التفكر لحظة فى هذه الحقيقة فيقول سبحانه : « وجعلنا نومكم سباتا » .. ثم تنتقل العين من وراء الظلمة التي لبست الناس والاشياء الى الفترة الزمانية التى يسعى الناس فيها الى مصالحهم ، فيقول سبحانه : « وجعلنا النهار معاشا » .. ان العين تشهد النهار ، وليست المشاهدة هنا مشاهدة اضواء وظواهر فحسب ولكنها أيضا مشاهدة تكافح من أجل المعاش واحساس بالمعاناة الوجودية والفكرية التى تقوم بين النهار والاعمار .. ثم يرتفع البصر فى نقلة طبيعية الى ما فوق المتكافحين حول المعاش الى السماء لتصبح بفضل التصنيف القرآنى بناء محكم الاركان وحركة دقيقة فى اتجاهها فيقول سبحانه : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » .

وحين تستيقظ العين فترى السموات السبع فى بنائها ونسجها وتستمتع بتلك المشاهد فان ما يجتذبها هو المحور الذى تدور حوله السموات ونعنى بذلك الشمس وحسب المرء منها ان يدرك عظمتها وخطرها وآثارها ، فقال سبحانه : « وجعلنا سراجا وهاجا » .

ثم يأتي التعبير القرآني ليستجمع حركة السـحب الموارة في وحدة تجسد عملها وكأننا قريبون منهـا ، فيقول سبحانه : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » .. فالمعصرات هي السحب المتراكبة بفعل الرياح والتى اصبحت فى حالة تنذر بسقوط المطر ، فهى تكون من شدة تراكبها وتضاغطها وكأنها تعتصر ما بهـا من ماء اعتصارا . ومن طبيعة الاعتصار الا يكون ماؤه سيلا متصلا ولكنه على دفعات : يعصر مرة ثم يعود التراكب والتضاغط ، ويعصر (١) مرة ثانية .. وهكذا يكون المطر النازل فى هذا المشهد باعثا على الانفعال الجمالى ... والماء لا ينزل على الارض هباء ولكنه احياء لها ومعاش للاحياء فيقول سبحانه : « لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا » .. لقد الفت الآية الكريمة بين شكول الحيـاة النباتية : الحب والنبات والجنات ، بما يحيى القلب والفكر كى يستمتعا بمشاهد الجمال ويتفكرا في آيات الجمال ادكارا واعتبارا ولذلك كان رد الفعل وعيدا منذرا ليتسق وعملية الاحياء الجمالى ، فقال سبحانه : « ان يوم الفصل كان ميقاتا » .

***

— ٢ —

ومن الظواهر الكونية ما هو دقيق رقيق ، دقيق فى نظامه وحركته ودقيق في وضعه من الاطار الكلى الذى يدور فيه مع سائر الظواهر .. وتبدو الرقة اما فى بعد

(١) كتاب : (التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن) ، تأليف حنفى أحمد .

الظاهرة عن الحس المباشر كأن تكون قصية فى المكان ، قصية فى الزمان ، واما أن يدركها الانسان ادراكا معنويا صادرا عن التأمل والتدبر .. وسواء فى الدقة أو الرقة فان القرآن الكريم يوقظ الوعى الايمانى فى الانسان بأن يحرره من اسار جمود الكفر وجهالة الشرك والتعدد .. ثم هو يدرب العين على كيفية النظر الى تلك الظواهر فى دقتها ورقتهـــا . وكيف تتذوق ـ عن طريق الرؤية والتخيل والاحساس المتعاطف ـ مواطن الجمـــال فى الابداع الالهى الذى عبر عنه الاعجاز البيانى فى تصويره وتشخيصه .

فمن الظواهر الدقيقة الرقيقة ما صورها قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس . الجـوار الكنس . والليل اذا عسعس . والصبح اذا تنفس . انه لقول رسول كريم » (١٥ : ١٩ سورة التكوير) .. ان البيان القرآنى يصور الكواكب والليل والصبح وهى دءوبة فى عملها متواترة فى حركتها .. يصـــورها حياة خفاقة فتصور موسيقاه اللفظية فى تعانقها وانسيابها وعذوبة جرســـها طبيعة سعيها حتى لكأننا لا نشهد ظواهر فلكية انما نشهدها حياة فنتعاطف معها تعاطف الاحياء مع الاحياء .. لقـــد صور القرآن الكريم حركة الـكواكب وهى بين الظهور والاختفاء ، فقال ســـبحانه : « فـلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس » ... هاهى ذى الـكواكب أحيـــاء واعية قد تملكتها حالة انفعالية هى حالة الخائف الحريص على حياته .. فهى خانسة فى مواقعها مختفية متأهبة للسانحة التى تتهيأ لها فتخرج لتتخذ مكانها فى فلكها ، ثم تتخذ سبيلها وتدور دورتها الى الامد المعلوم .. ثم تختفى تارة

أخرى كالظباء التى تأويهـا الى كناسها طلبـا للأمن والراحة .

ثم يقول سبحانه : « والليل اذا عسعس » .. ها هو ذا الليل وقد أقبل فى غيهبه المظلم وفى حركة متثاقلة كذاك الذى يسير خائفا يترقب . ولذلك فقد جاءت كلمة « عسعس » بجرسها وموسيقاها لتجسد حركة الليل وهو يسبح فوق الوجود فيشمله بظلمته .. وحين يقسم سبحانه بتلك الحركة فهو انما يقسم بآية من آيات رحمته وآية من آيات قدرته وآية من آيات جماله . فأى احساس هو ذاك الذى يملأ الوجدان حين يشهد الانسان الليل وهو يطوى فى عباءته كل مخلوق من طير وحيوان ونبات ونهر وانسان ؟ وكيف يكون حالهـا فى ألوانهـا وحركاتها وتوترها وانفعالها لحظة أن تأزف أزفة الرحيل .. رحيل الضـياء والنور ؟ آيات من الجمال بغير شك يبعثهـا التصوير القرآنى احساسا ووعيا وتبصرة .

ثم تنقشع الظلمة ويسفر الصبح .. وتلك آية يقسم بها الله سبحانه فيقول : « والصبح اذا تنفس » .. فكأن الليل موت أو خمود ، والصبح حياة وانطلاق . فحين يبدأ نوره خافتا ضئيلا يحمل بشارة الحياة لكل ما فى الوجود فهو يسرى بحركة متثاقلة بعض الشىء كمن كان قد فقد الحياة ثم ردت اليه أنفاسه . وان من يشهد الكائنات فى الصباح الباكر النـدى ليرى كيف تكون النشأة الاولى فى نبضها الفض وتوترها الخافت دلالة اشراق وتفاؤل .. بل ان من يرقب هذا المشهد ويتأمل لحظات لينعم بجماله الكون فى طفولته . أجل . ويدرك

أن خالق الكون واحد وأن رسوله محمدا ما جاء الا بالحق : « انه لقول رسول كريم » .

***

— ٣ —

ومما يصور الظواهر الكونية فى دقتها ورقتها ما جاء فى قوله تعالى: « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر اذا اتسق . لتركبن طبقا عن طبق » (١٦ : ١٩ سورة الانشقاق) .

مشاهد متتابعة من التغير وتبدل الاحوال ، تأتى فى ظواهرها الكونية آيات على قدرة الله وبديع صنعه .. فالله سبحانه يقسم بالشفق ، ولم لا .. ان ضوء الشفق ــ وذلك عندما تؤذن الشمس بالافول منتقبة بحمرتها ــ يثير بواعث الشجن فيثير من أغوار اللاشعور ذكريات وذكريات .. وأيا كانت المشاعر التى تدور بوجدان المرء فى اللحظات التى يبقى فيها ضوء الشفق فان أمواجه الحمراء تضع الكون فى مشهد جمالى فريد اذ يضع الاحساس بجمال الكون الانسان فى علاقة حية مع الزمان والمكان .

واذا كان الشفق دلالة تغير وتحول فها قد وقع التغير فأصبح الليل هو الظاهرة الجديدة التى أقسم بها الحق كآية على وحدانيته وقدرته فيقول جل شأنه : « والليل وما وسق » .. وحين يصور القرآن الكريم آية الليل بهذا التصوير فهو انما يضع الانسان كيانا شعوريا فى باطن الزمان أو فى الوجود اللاشعورى للزمان ، ان أجيز هذا التعبير ، وفيه يسرح الخيال والفكر فى تصور طبيعة

الليل وما وسق أى وما جمع .. ثم يقع تغير جديد بعد ظلمة الليل ، فيقول سبحانه : « والقمر اذا اتسق » .. وذلك مشهد تتغير فيه الاضواء والظلال ، وتتغير اشكال الطبيعة فى ألوانها وهيئاتها .. بل وتتغير فيه المشاعر والافكار والاحساس بجمال الكون الذى يصبح وكأنه نور يسبح فى نور .. وذلك كله دليل قدرة تفيض على الناس بفضل نعمتها فتنتقل بهم من حال الى حال فكأن التغير فى ذاته مما يوجب الايمان بالله ، فيقول سبحانه : « لتركبن طبقا عن طبق » .

***

— ٤ —

ومن التصوير القرآنى للظواهر الكونية ما يعتمد على تجسيد الصبغة الجمالية بما يستنهض الوجدان والفكر ويثير فى النفس حب الاستطلاع والمشاهدة لما يصوره من مظاهر الزينة وروائع الجمال .. وذلك فى بيان مذكر ولكن فى رخاء وعتب رقيق يتفق مع رقة الجمال وحسنه .. قال سبحانه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون » (٣٠ سورة الانبياء) .

بهذا البيان يدعو القرآن الكريم الانسان أن ينظر الى السموات التى تعلوه والارض التى يقوم عليها .. ثم يتدبر ما بين السموات والارض من تناسق ونظام دقيق موضون .. وحين يكون التدبر خالصا يصبح الاحساس حركة حية يحالفها الخيال فى تصور الكيفية التى تم بها انفصال السيارات وفى ذلك تعميق للاحساس بجمال الكون وتعميق للخيال الفكرى الذى يستطيع أن يجسد

الحركة الخفية فى واقع لا ينكره انسان لانه يحياه . وذلك ما يوحي به قوله تعالى عن السموات والارض : « كانتا رتقا ففتقناهما » .

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، تتمة للآية الكونية الكبرى .. ولقد يقال أن ليس هنا تناسق بين الاجزاء الكبرى للصورة التى ترسمها الآية الكريمة .. فالعلاقة بين السموات والارض معقولة مقبولة ، فما بال « الماء » ؟ ومثل هذا القول وما قد يشبهه يغفل أن العلاقة الفلكية بين السموات والارض كانت السبب الاول فى ايجاد الماء فوق الارض .. ثم ان الارض هى المسرح الذى تجرى فوقه آيات الحضارة الانسانية وما كان لهذه الآيات أن تظهر معالمها أو يظهر لمنشئها وهو الانسان ، وجود لولا وجود الماء الذى أمده بعنصر الحياة الذى لو غاب لغابت معه معالم الانسانية بأكملها .. فالماء هنا يوازى السموات فى عظمتها والارض فى خطرها ، فهو ليس عنصرا ثانويا يجوز اخفاؤه من الصورة أو يمكن أن يتوه وسط الامتداد الكونى العظيم .

ثم تأتى الفاصلة : « افلا يؤمنون » متسقة مع هذه الآيات الكبرى .. انها آيات لا يفلح معها تمحل أو نكران ، ولكنها تلزم العقل والوجدان بالايمان بالله ولا شيء سواه .

***

— ٥ —

ونعلم أن من البواكير الاولى لايام الحضارة الانسانية، والانسان دائب النظر الى السماء وما فيها من انجم

وكواكب .. وهو فى دأبه وحرصه كان واثقا من الصلة التى تربطه بالسماء . ولقد مرت أحقاب وأحقاب وأكبر الاجرام تتمتع بمقام التقديس والتأليـة . فلما جاء الاسلام الحنيف رد العقل الى صوابه وأرجع للوجدان نقى احساسه بالجمال .. وكان رد العقل الى صوابه ان أقنعه بأن الشمس والقمر والنجوم من خلق الله الذى أحسن كل شيء خلقه .. فلا سجود اذن ولا تعبد لمخلوق ، انما السجود لله وحده ، والعبودية لله وحده ، قال تعالى : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » (٣٧ سورة فصلت) ..

وكان رد الوجدان الى نقى احساسه أن نزع منه خالجة الرهبة من السطوة الوثنية التى كانت للنجوم وجعل الانسان ينظر اليها نظرة وائتناس وانتفاع فهى جميعا مسخرة له ، قال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات ومافى الارض جميعا منه» . (١٣ سورة الجاثية) .. ولقد أشار القرآن الكريم الى أن زينة السماء آية من آيات الله ودليل على قدرته وجميل صنعه ، قال تعالى: « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير » (٥ سورة الملك) .. وقال تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد » (٦ ، ٧ سورة الصافات) .

وفى هذه الآيات البينات نجد دلائل الاعجاز القرآنى فى البيان والفكر والعلم واضحة دقيقة : فالسماء لا تظهر فى زينتها نهارا انما تتجلى فى زينتها وجمالها

ليلاً . ففي الليل تـكون متلألئة بأضوائها المنثورة على صفحتها فى نسق فريد لا يرهق الفكر ولا يكد الاحساس طول التأمل فيهـا . اذ أن الانسان يكتشف بمداومة التطلع أشكالا جمـالية جديدة تغذى العقل وتحرر الخيال .

ولقد أسمى القرآن الكريم تلك الاجرام أثناء الليل : مصابيح وذلك لانها تبدو نورانية . ولا فرق فى ظاهر رؤيتها بين النجوم والكواكب فكلها وضاءة جميلة .. ولكن القرآن الكريم يعود فيحدد نوعا معينا من الاجرام له دوره فى اسباغ الزينة على السـماء وتلك هى الكواكب وهى ـ كما هو معروف علميا ـ تقبس ضوءها من النجوم . وكما أن لهذه الكواكب أنوارا خاصة بهـا فان لها أيضا أوضاعا تنفرد بهـا ممـا يعطيها أوضاعا تزيينية متمايزة .

ونتريث قليلا عند شيء له مغزاه فى الاعجاز العلمى للقرآن الكريم والذى ما زال العلم يجد فى الكشف عن بعض ما أنبأ به . فالسماء بنجومها وكواكبها قد جعلت رجوما للشياطين ، فقال تعالى : « وجعلناها رجوما للشياطين » (٥ سورة الملك) .. ولقد اكتشف العلم أن الرجوم .. وهى الشهب والنيازك ـ حجارة شديدة الصلابة لهـا قوة رهيبة فى التدمير ، تزداد عنفا بسبب السرعة الهائلة التى تندفع بها اما عن تركيب الشهب فيقول الأستاذ جامو : « أن (١) بعض هـذه النيازك ـ اى الشهب العـارضة ـ حجرى التركيب (من اصل

---

(١) من كتـاب : « التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن » ، تاليف حنفى أحمد .

جرانيتى) ذات كثافة متوسطة وبعضها معدنى عظيم الكثافة ومكون من حديد ومعادن أخرى ثقيلة » .. ويقول الدكتور جفرى مارتن عن مصدر الشهب وطريقة تكوينها : « ان الشهب (١) صدرت عن النجوم والكواكب على هيئة التراب الكونى الذى يتجمع بعضه على بعض وتتكون منه النيازك والمذنبات » .. ويقول عن سرعة الشهب وخطورتها : « ان الهواء (٢) الجوى يحمينا من أسلحة السماء المخيفة ـ فأسرع مقذوفاتنا النارية ينطلق خلال الهواء بسرعة أقل من نصف ميل فى الثانية . وعلى حين يندفع خلال الفضاء العالمى عدد لا حصر له من المتيورات الحديدية المختلفة الاحجام .. من حجم الهباءة الى حجم جبل عظيم بسرعة هائلة تختلف من عشرين الى مائة ميل فى الثانية » .. ثم يقول : « ولكن من العجيب أن سرعتها الهائلة هذه هى السبب فى حمايتنا منها لانها فى اندفاعها فى الهواء الجوى بتلك السرعات المخيفة تلقى منه مقاومة عنيفة تقلل من سرعتها ومن أثر الاحتكاك بالهواء تسخن الى درجة الابيضاض وتتبخر بعض أو جميع كتلتها الى دخان أو تراب دقيق قبل أن تصل الى الارض » .

وتلك هى طبيعة الشهب التى ذكرها القرآن الكريم قبل أن يقول العلم كلمته .. انها حجارة من سجيل ، قال تعالى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » (٧٤ سورة الحجر) .. وانها حجارة من طين ذات علامات مميزة (بسبب أكاسيد المعادن التى تحتويها) ، قال تعالى : « لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند

(١) ، (٢) من كتاب « التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن » ، تأليف حفنى أحمد

ربك للمسرفين » (٣٣ ، ٣٤ سورة الذاريات) .. وانها شديدة الضوء ، قال تعالي : « وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » (١٧ ، ١٨ سورة الحجر) .

وربما قيل وكيف يكون الاحساس بالجمال بين تلك الرجوم ، وفى ذلك الجو العاصف المحموم ؟ اين يكون مقامه ؟

ونقول ان التصوير القرآنى هنا يبتعث الاحساس بالجمال ابتعاثا قويا عميقا فى النفس والفكر والخيال .. فهو يجسد صورة فريدة فى نوعها أو حياة فريدة فى نوعها .. انها حياة حافلة بالاضواء والالوان ، وللخيال ان يحلق فى ذلك الميدان الصخاب فيتصور الشياطين وهى فى هيئاتها وتنظيماتها تحاول ان تنفذ الى الحضرة القدسية لاستراق السمع وهى بين التوجس والحذر.. وللخيال أن يتصور كيف تصيب الرجوم بعضها فتخر صرعى بعصيانها وخزيها ، وكيف يفر الباقون فزعين خائفين .. مشاهد من الجمال ، فوق مشاهد من الجمال .. لا يفرغ الخيال من تصورها ولا يفرغ الفكر من تدبرها .. وتلك هى المتعة الجمالية التى ينعم بها الوجدان .. متعة هى الاحساس الصادق بالجمال وهى العبرة المحكمة من وراء الشكول والالوان .

مشاهد قد يراها البعض موحشة رعيبة ولكنها فى منطق الفن جميلة غاية الجمال .. فكم من مشاهد مفجعة رهيبة تصورها يد الفنان العبقرى فتصبح من آيات الجمال الخالد بخلود الزمان . فلا ينكر احد جمالها ولا يمارى أحد فى عبقرية صاحبها ، وتظل لها

القدرة على استجاشة الانفعال الجمالى فى نفس من يشاهدها .. يقول المثال الفرنسى رودان ان قوة الطابع: « هى الاصل (١) فى جمال الفن . واذن فليس من قبيح فى الفن سوى ما خلا من الطابع والشخصية ، أعنى ما تجرد من كل حقيقة .. خارجية كانت أم داخلية .. أما بالنسبة الى أى فنان خليق بهذا الاسم فان كل ما فى الطبيعة جميل لان عينيه حين تتقبلان بشجاعة كل حقيقة خارجية فانهما عندئذ لا تجدان أدنى صعوبة فى أن تستشفا من خلالهما ما يكمن وراءها من حقيقة باطنة وكأنهما تقرآن فى كتاب مفتوح » .

ثم نعود الى قوله تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ...

فالقرآن الكريم يقول ان السماء الدنيا هى وحدها التى زينها الله سبحانه بزينة الكواكب . ومعنى السماء الدنيا ، السماء التى تظهر قريبة منا دانية ، وذلك بسبب الفضاء الشفيف الذى يتيح للعين مجالا لارتياده فى سهولة ويسر فيظن الانسان أن السماء قريبة منه . ولهذا كانت النجوم والكواكب واضحة بارزة فى هيئتها وقادرة على التأثير الجمالى فى مشاعر الانسان حين يرنو اليها ..

ولكن هل السماء هى وحدها المزدانة والتى تغرى الانسان بأن يشهد ما فيها من زينة وبهاء ؟

نعم ، ان القرآن الكريم يقرر هذه الظاهرة ويؤكدها وهو بذلك يكشف لنا عن ناحية من نواحى عظمته واعجازه

(١) من كتاب : (مشكلة الفن) ، تاليف د. زكريا ابراهيم .

.. فالعلم اليوم – وبعد قرون من نزول القرآن الكريم – يقول ان السماء الدنيا هى وحدها الجميلة .. وأنها وحدها التى تجتذب العيون بزينتها ، يقول العالم . « السير جينز » فى كتابه : « النجوم فى مسالكها » عن أسباب زينة السماء الدنيا : « ولنقف (١) لحظة نتأمل عن الاسباب العلمية : ان ضوء الشمس والنجوم الابيض مكون من أضواء كثيرة الالوان ، وهذه الالوان ترى بوضوح فى قوس قزح فى السماء عندما يتلبد الجو بالسحاب الثقال . وتنشأ هذه الالوان من الاختلاف فى طول أمواج هذه الاضواء التى يتكون منهـا الضوء الابيض : فالأحمر منها ينشأ عن أمواج طويلة ، والازرق منهـا عن أمواج قصيرة . وعندما يشق ضوء الشمس والنجوم طريقا فى جو الارض يلقى عقبات كثيرة على صور جزئيات من الهواء وقطرات مائية دقيقة ودقائق ترابية ، فتحلله الى أضوائه الجزئية وتمر خلالها الامواج الطويلة المكونة للون الاحمر . أما القصيرة المكونة للون الازرق فتتشتت بين هذه العقبات ويتكرر انعكاسها بينها حتى تنعكس اخيرا على الارض من جميع الجهات وهذا هو سبب ما يظهر لنا من زرقة الجو . وهذا التشتيت للضوء الازرق ومرور الضوء الاحمر يجعل ضوء الشمس أشد احمرارا ممـا كان عليه قبل دخوله الي جونا . وكلما زادت العقبات التى يصادفهـا ضوء الشمس زاد التشتيت وزاد منظر

---

(١) من كتاب : « التفسير العلمي للايات الكونية فى القرآن » ، تاليف حنفي أحمد .

الشمس احمرارا . وهذا يفسر لنا السر في ان الشمس تبدو ذات احمرار خاص عند شروقها وعند غروبها وذلك ان ضوءها يأتينا فى اتجاه ميل كبير ولابد أن يخترق سمكا كبيرا فى الجو فى طريقه الينا » .

ثم يختتم كلامه بقوله : « ففعل الجو فى تحليل ضوء الشمس والنجوم يرجع اليه زرقة السماء فى الليل والنهار ويرجع اليه ما تبدو فيه الشمس حين شروقها وحين الغروب من لون برتقالى أو محمر واضح ، وما يكون للسحب عند الشروق والغروب أيضا من الوان شجية ويرجع الى السفر أى الشفق بدرجاته ومعانيه الغامضة والخضرة التفاحية للسماء فى المساء عند الغروب . كل هذه نخلفها وراءنا اذا ما تجاوزنا جو الارض ودخلنا عالما صعبا ينقسم الى ضوء ساطع أو ظل حاد ولا وسط فيه بينهما . عندئذ ترى الشمس على حقيقتها ، نراها كرة ساطعة من ضوء فيه زرقة ونراها تغرب فى سماء حالكة الظلمة اذ لم تعد عرضة لجو الارض يتلقى أشعتها فيشتتها فى كل اتجاه » وتتضح حقيقة الزينة التى صورت عليها السماء الدنيا حينما نقابلها بصورة السماء ونحن خارج محيط أرضنا ويقدم لنا السير جينز هذه الصورة فيقول عن رحلة تخيل أنه قام بها : « .. (١) وسنلحظ حتى فى الثوانى القليلة الاولى بعد بدء الرحلة تغيرات غريبة فنظام الالوان كله يتغير بسرعة فجائية مدهشة وسرعان ما يقتم الجو حتى يصبح فى ظلمة كمنتصف الليل الحالك السواد . ومن بين هذه الظلمة تلمع النجوم

---

(١) من كتاب : « التفسير العلمى للايات الكونية فى القرآن » ، تاليف حنفى أحمد .

.. انها لا تعود تتلألأ بالكيفية التى كنا نشاهدها من سطح الارض وانما تستحيل أشعتها ابرا نفاذة من ضوء متصل ، وفيما بين ذلك تكون الشمس قد تغيرت الى بياض صعب كبياض الفولاذ وتصبح الظلال التى تحدثها جامدة موحشة وتبدو الطبيعة وكأنهـا قد فقدت كل لطافتها وجزءا كبيرا من جمالها . وهذا كله يحدث فى زمن مدهش فى قصره . وتفسير ذلك أننا نكون بعد ثوان قليلة قد خرجنا تماما من جو الارض ولن نستطيع قبل مفارقة ذلك الجو أن ندرك ما كان أثره اللطيف يزيد فى متعة حياتنا » ..



– ٦ –

ومن المشاهد التى صور بها القرآن الكريم اندفاعات الرياح والسحب ما جاء فى قوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عبـــاده اذا هم يستبشرون » (٤٨ سورة الروم) .

تصور هذه الآية الكريمة انطلاقات الرياح واندفاعات السحب وتراكمها وانبثاق المطر منها .. ويجرى ذلك فى تواتر حركى شديد نحسه حين نرتل الآية الكريمة التى تضعنا أمام مشهد من مشاهد الطبيعة : فالرياح تحرك السفن فى عنف .. والسحب تندفع سريعـة منبسطة هنا وهناك حسب المشيئة الالهية .. وفى سرعة أيضا تتراكب السحب لتكون كتلا كبيرة او كسفا ثم يخرج المطر من بينها .

وكذلك فى ألفاظ يصور القرآن الكريم لوحة حية بشاراتها وألوانها ، بظلالها وأضوائها .. بعناصرها التى تتكامل متناسقة فى حركاتها فتعنف فى موضع العنف وتهدأ عند ضرورة الهـــدوء .. انها حركات تستثير الخيال وتحرك العقل وتجتذب العاطفة .. فماذا بقى اذن من دلائل الجمال ؟ .

ولهذا المشهد الطبيعى خاتمة انسانية يصورها قوله تعالى : « فاذا أصـــاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » .. فها هنا قوم كـــانوا يعـــانون من ضنك الحرمان ثم — وعلى غير ارتقاب منهم — فتحت عليهم بركات السموات فعمهم الفرح وشملهم الإبتهاج .

ان ابداع التصوير القرآنى هنا يجعل من الاحساس بجمال تلك الآيات الكونية برهانا وجوديا على الايمان بالله الرحمن الرحيم .

***

— ٧ —

ان الاحساس بالجمال يبلغ أسمى درجات الدقة فى ظاهرة الاحساس بجمال الحـركة أو التذوق الجمالى للحركة .. والقرآن الكريم يشهدنا ـ فيما يشهدصورا ثلاث أو حركات ثلاث هى فضلا عن كونها دلائل على قدرة الله ، فانها توقظ العين وتحيى الوعى وترهف الحس .. الذى يصبح احساسا جماليـا قادرا على التمييز والتقييم وقادرا على التعاطف مع الجمال حيثما كان ..

(أ)

فالحركة الاولى هى البطيئة التى لا يدركهـــا غير احساس مرهف غاية الرهافة ، ويقظ غاية اليقظـــة ويمثلها كدليل على قدرة الله ووحدانيته ، قوله تعالى : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » (٤٥ ، ٤٦ سورة الفرقان) .

الدعوة الى الرؤية هنـــا فاتحة الى اليقظة العلمية وفاتحة الى أن يتدبر العقل تلك الحركة والى ان يتمعن فيها . وان يكون فى يقظته لماحا قادرا على التمييز بين الحركة والسكون فى أدق لحظاتهما .. فالآية الاولى تقول : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل » .. والظل المقصود هنا مشهد كونى فريد لانه يشمل الوجـود كله فيظله بسكون الدعة والطمأنينة . وليس هنـــاك بين آنات الزمان ما هو أبهى وأجمل من تلك اللحظات — لحظات امتداد الظل — هى فترة قصيرة فى عمر الزمان تمتد من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، ومع ذلك فتكاد لجمالهـــا تعدل آنات الزمان كلها .. ان الآية الكريمة لا تطالب الانســـــان أن ينظر الى تلك الآية الجمالية فحسب ، ولكنها تطالبه فوق ذلك بأن يرى : « كيف مد الله الظل » .. والنظر الى الكيفية معايشة ومعاناة ، بل ان النظر الى الكيفية نظر الى اعجاز فى الخلق والتكوين يفضى الى انطباعين نفسيين لهما اعمق الآثار فى حياة الانسان وهما :

أولا : التسليم والايمان بالله .

ثانيا : الرغبة العلمية فى البحث والدرس .

ثم تنتقل الآية الكريمة الى مشهد جديد يفتح للخيال أبعادا جديدة في تصور القدرة الالهية ومايحدث للوجود لو لم توجد هذه القدرة ، فيقول سبحانه عن الظل : « ولو شاء لجعله ساكنا » .. ثم تقرر الآية علة الحركة كضرورة كونية يفرضها نظام الوجود ، فيقول سبحانه : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » .. وللخيال أن يتصور كيف تكون الشمس دليلا على الظل ، وكيف تكون درجة سرعتها وانتقالها فى المكان والزمان .. وكيف يكون الظل — ذلك الشيء غير الملموس وان كان محسوسا بمعنى أو عدة معان — فى أثناء حركته وانتشاره .. فها هنا مشهد خيالي ولكنه خصيب بظواهر التصور الحى . ثم تصور الآية الثانية طبيعة حركة الظل فى زواله وانسحابه من الوجود أمام سطوة الشمس .. وحين يتأمل المرء ذلك المشهد فانه يجد أنه لا يقل روعة وجمالا عن مظهر الظل فى لحظات الفجر .. والجمال هنا هو جمال الحركة المتوترة التى تنشب بين الشمس والظل . ولئن كانت بطيئة هادئة الى الدرجة التى لا يستطيع المرء أن يدركها ادراكا مباشرا الا أنها صراع وتناقض .

وهنا يظهر الاعجاز البيانى للقرآن الكريم فى تصويره لصراع الهدوء فيقول سبحانه : « ثم قبضناه قبضا يسيرا » .. والقبض تصوير لشكل وطريقة انكماش الظل ، والقبض اليسير تصوير لدرجة السرعة التى يتم بها الانكماش .. انه القبض الخفى الذى لا تستطيع العين ادراكه فى حركته الفعلية . فحسب الانسان اذن

ان يتخيل تلك الحركة او حسبه ان يدرك المدى الذى يصل اليه الظل فى امتداده وانقباضه .

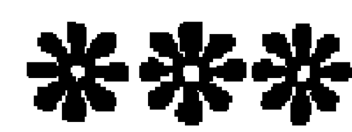
فادراك الحركة أو تصور ادراكهـــا ومعايشتها فى درجاتها الضوئية والشمس تتنادح الظل انما هو تصور الوجود وهو واقع تحت الاضواء والظلال .. يغلب الظل تارة ثم يغلب الضوء تارة اخرى ، وبين هذا وذاك يتخلق من التفاوت والتناسب مشـــاهد جمالية تبعث أصداء نفسية تحرك الفكر بالتأمل الذى ينتهى الى الايمان بالله سبحانه .

(ب)

أما الحركة الثانية فهى المتوسطة فى سرعتها ويعرضها القرآن الكريم كدلالة جمالية على قدرة الله ووحدانيته، ممثلة فى حركة الطير فى جواء الســــــماء فيقول سبحانه : « أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير » (١٩ سورة الملك) .

وكم من الناس تحركت عيونهم والبابهم مع حــركات الطيور فى تشكيلاتها البديعة الرائعة وهى فى صعودها وهبوطهـــا واستقامتها واستدارتها ! وكم من الناس شاهد تلك التشكيلات وقد اختلطت بالسحاب فى ألوانه فاضافت الى جمال الحركة جمال اللون والشكل ؟ وهنا تقول الآية الـــــكريمة : « او لم يروا الى الطير فـــوقهم صافات » ، اى باسطات أجنحتهن لانهم اذا بسطنها صففن قوائمهن صفا . ثم تقول الآية : « ويقبضن » ، اى وهن يضربن بها جنوبهن .

اذن فالدعوة هنا الى ان يتأمل الانسان حركة الطيران ذاتها .. والتأمل مشـــاهدة .. والمشاهدة متابعة وتساؤل : يسأل الفكر نفسه : لكن من ذا الذى يمسك الطائر وهو محلق فى جو السماء ؟ .. انه سبحانه : « ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شىء بصير » .. وتأتى كلمة « الرحمن » فى هذا السياق لتنشر ظلال الرضوان على الكائنات ولتضفى معانى الرحمة والحب على ما قدر لها من أواصر الحياة .. وهذا من شأنه أن يجعل الانسان وهو يتابع الحركة الطليقة للطائر المحلق متعة روحية فياضة .



وتأتى الحركة الثالثة وهى أعلاها جميعا وأعنفهـا ايقاعا وأقساها للنفس ترويعا وقد جاء تصويرها فى قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (٣١ سورة الحج) .

ان المشهد ليجعل من مسار الحركة مواقف موحشة مخيفة فالقلب من هول ما يرى يتردد فى ايقاع موار بين الصعود والهبـــوط وبين التشتت والالتئام .. والنفس فى مورها أشتات من الاحاسيس والمشاعر .. ان الآية الكريمة تقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » .. فالايمان بالله هو سماء الوجود الانسانى وكيانه ، والسماء نظام واحكام .. فمن عاش فيهـا فقد عاش على وفاق مع وجوده وكيانه .. أما من ينحرف عنها بالشرك بالله فهو انما يكون قد خرج عن

نظام تلك السماء . ولقد جاء تصوير المشرك في صورة انسان خر من السماء ، ولنا أن نتصور كيف تكون مشاعر ذلك الانسان وكيف تكون هيئته لحظة أن يخر من السماء .. كيف تكون أوضاع جوارحه وأعضاء جسده .. وكيف تكون نظرات عينيه المرهوبتين الى ما حوله .. وكيف تتطاير من حوله وهو فى سرعته الرهيبة ، النجوم والكواكب وكأنها شظايا قنابل شديدة الانفجار .. وكيف تكون تيارات الرياح وما تحمله من دخان ورماد وهى تعصف به فتلهب جسده الهزيل المنهوك .. كيف ؟ وكيف ؟

ثم تتم عملية السقوط : « فتخطفه الطير » .. وهذا مشهد غاية فى البشاعة ذلك أن الطير الجوارح تهجم عليه من كلّ صوب فتضرب بمخالبها ومناسرها فى جسده فتنتزع منه قطعا دامية وتلتهمها فى ضراء وقسوة .. وللخيال أن يتصور كيف تكون سرعة الطير نحوه .. وكيف يزاحم بعضها بعضا وهى فى هجومها على جسده .

وربما لا يكون المصير كذلك فقد تعصف الريح بالمشرك : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .. ويرتسم فى الخيال مشهد حى للريح وهى تعبث بذلك الانسان عبثا جنونيا فتهوى به ، لكن أين تهوى به ؟ « فى مكان سحيق » ، أى فى مكان بعيد غائر مظلم .. وللخيال أن يتصور طبيعة ذلك المكان وما فيه ، وأن يتصور لحظة أن يستقبل ذلك الانسان .. مشاهد مروعة ، من وراء مشاهد مروعة ومع ذلك فهى آيات من الجمال حين يتناولها خيال الايمان أو خيال الفنان .

ثم يستقر الاحساس بالجمال عبرة على أن الشرك سقوط فيه يقع المرء فريسة للتحجر الفكرى والنضوب الشعورى فيتمزق كيانه بين نزوات شهواته وعقم احقاده .

***

— ٨ —

وبعد هذه الجولات فى جواء السماء .. وقبل أن نهبط فى الارض فاننا نمهد للهبوط بصورة شمولية تجمع بين آيات الجمال فى السماء وتوضح ما بينهما من اواصر حيوية .. قال تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (٦ : ١١ سورة ق) .

ان هذه الآيات البينات لا تدعو الانسان الى أن ينظر فحسب ، ولكنها أيضا تعلمه كيف ينظر ويتذوق .. وتعلمه كيف يتأمل ويوازن .. ثم تعلمه كيف يبصر الغاية ويستخلصها بغير أن تلهيه مباهج الجمال بما يخدر احساسه عن التمييز الصحيح ويعطل عقله عن التفكير القويم ..

يأتى النداء الى الناس أن ينظروا الى السماء نظرة تأمل وتذوق ، فيقول سبحانه : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

.. ان هذه الآية الكريمة تحض الناس على التطلع الى السماء لينظروا : « كيف بنيناها » ، والنظر الى كيفية البناء معناه معرفة بالحكمة والدقــة والتناسب الذى اقتضاه .. وهذا هو أساس البناء الجميل فبغير الدقة والتناسب بين الاجزاء ، وبغير ابراز الحكمة أو الغاية فى اطار البناء ذاته فانه يستحيل اقامة بناء متماسك ومتوازن فى تماسكه وأن يكون جميلا فى نفس الآن .. ثم تأتى كلمة « وزيناها » وصــــفا شــاملا للســماء التى « فوقهم » .. فحيثما نظرت عين الانسان اليها فانه يرى الجمال مجسدا فى الزينة التى صيغت عليهـــــا فيستمع بجمال محكم رصين قد توافرت له كل عنــاصر الدقة والاحكام . نعم ، وصدق الحق حيث يقول عن السماء : « وما لها من فروج » .

ثم يصدر النداء الى الناس أن ينظروا فى الارض التى هم عليها، فيقول سبحانه : « والارض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .. وتصور هذه الآية الكريمة أطوار التركيب الجمــــالى أو البناء الجمالى للارض حتى اذا أصبحت صالحة لحياة الكائنات الحية أنبت الله فيها النبات ، فقال سبحانه : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .. وحين نتأمل كلمة «بهيج» فاننا نجد انها التعبير الحيــوى عن جمــال النضارة ونضارة الجمال .

ان آيات الجمال حين تــكون صادقة فى مقوماتها واضحة فى الغاية التى ترمز اليها فانها تكون بصيرة تنير وتهدى ، « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وإذا كانت الآيتان السابقتان قد صورتا كلا من السماء والارض على هذا النحو الذى يمكن أن نقول عنه انه تعبير عن : « استاتيكية الجمال » ، فان القرآن الكريم يعرض الجمال فى حركته الحية فى تفاعلها وانفعالها مستكملا بذلك شطرى الحسن ، ان أجيز هذا التعبير.. ويتم ذلك بصلة التفاعل والانفعال التى تنشأ بين السماء والارض ، وفى ذلك يقول سبحانه : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .. وكذلك تتحقق البركة أو يتحقق التفاعل الجمالى بظهور آيات الجمال مكتملة .

وما كانت المعاناة الجمالية مجرد انفعال سرعان ما يزول بزوال سببه ولكنها بهذا التصوير القرآنى حكمة تحيى من العدم وتنقذ من الفساد ، وهذا ما يشى به قوله تعالى : « رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

***

— ٩ —

ثم نهبط الارض مسرح الاستخلاف الذى أعد ليكون موطنا صالحا لحياة الانسان .. ولننظر فى المنهاج الذى اتبعه القرآن الكريم فى عرض الظواهر الجمالية التى على الارض .. وكيف استوفى هذا المنهاج الربانى أشراط العرض وقواعده تمشيا مع طبيعة الفطرة الانسانية فى خصائصها الفكرية والوجدانية مما يجعلها لا قادرة على الاحساس بالجمال فحسب ، بل ويجعل

حياتها وجودا جميلا .. وهذا من أوجه الاعجاز فى البيان القرآنى العظيم .

يقول الحق سبحانه : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٧ سورة الكهف) ..

لقد جعلت الارادة الالهية الانسان خليفتها فى الارض .. فلماذا لا تزين الارض لاستقبال سيدها ؟ .. ولماذا لا تظل هذه الزينة قائمة طيلة وجوده ممثلا فى أعقابه الى أن يرث الله الارض ومن عليها ؟

ان الزينة التى تستقبل الانسان فى الحياة هى المجال الذى يمارس فيه عمله ويحقق امكانات وجوده ويعبد ربه .. والعمل دائما اختبـــار وتقـدير وهو ما قال عنــه سبحانه انه ابتلاء : « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .. اى لنختبرهم فى حسن القيــــام على هذه الزينة ، وحسن الافــادة من هــذه الزينة .. وحسن التسامى بهذه الزينة .

فمع . آيات الزينة الارضية ، نحيــــا مع القرآن الكريم وهو يعرضها مجسدا لحركاتها مشخصا لهيئاتها موضحا لغاياتها :

يقول سبحانه : « وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (٥ سورة الحج) .. الصورة هنــا للأرض وهى فى حالة من الهمود الذى يغشى ظاهرها ويقبض على باطنها فاذا هو خواء اليبس والتحجر .. ولكن حين يصيبها الماء فانها تنتقل من الموت الى الحيـــاة : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .. وتجسد هاتان الكلمتان : « اهتزت وربت » حركة العناصر الجامــدة وقد تفاعلت

فى حيوية خلاقة ، وفى هذا التفاعل يحيا الخيال أجمل لحظات الانفعال الجمالى .. انه يحياه كوعى مدرك مستبصر وذلك هو صادق الاحساس بالجمال . ثم يفضى التفاعل الى أن تخرج الارض آيات جمالها يصورها قوله سبحانه : « وأنبتت من كل زوج بهيج » .. ثم يأتى التعقيب على هذا البعث الجمالى بما يحيط عمليات خلق الحياة بقبس من نور التوحيد فيقول سبحانه : « ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير » (٦ سورة الحج) .

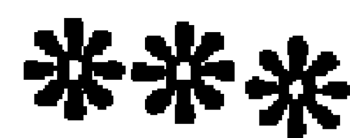
***

— ١٠ —

وتفيض علينا الارض بخيراتها فى طلاقة حية صور القرآن الكريم مشاهدها فى تآلف حى أخاذ يشوق النفس الى اجتلاء معانيها فقال سبحانه : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩ سورة الانعام) .

ان هذه الآية الكريمة تبدأ بتصوير خلق امكانية الحياة فى الارض ، فيقول سبحانه : « وهو الذى أنزل من السماء ماء » . وذلك هو اللقاء الاول الذى لابد من وقوعه بين السماء والارض ، وبعده يخرج أطفال الطبيعة يتواثبون على وجه الارض كل يحاول أن يؤصل وجوده

ويحقق جماله ، يقول سبحانه : « فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا » .. ثم تزدحم الارض بآيات الجمـــال الحى فى أبهى مظاهرها وأحلى زينتها .. وقد جاءت بها الآية الكريمة فى هذا التنسيق الجمالى فقال سبحانه : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنـــــات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » .. ومما له دلالته فى بعث الانتشاء الجمالى فى وجـدان الانســان أن الآية الكريمة تحض على النظر الى آيات الجمال وكأن الجمال هو المدخل الطبيعى للايمان بالله ، فيقول سبحانه : « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .



— ١١ —

ويحرص القرآن الكريم على ان يخلق فى وجـدان الانسان الاحساس بجمال اللون ويجعل منه مدخلا الى الايمان بالله .. ذلك لان الاحساس بجمال اللون ليس مجرد احساس باصباغ تجتذب الابصار أو تلهو بهـــا فتثيرها وتثير معها نوازع النفس ، ولكنه تشخيص لكيان حى له دوره وله حياته فى اطار بيئته وفى اطار الوجود العام .. ثم ان اللون فى ذاته يعبر عن الطبيعة الداخلية والتفاعل الحيوى العضوى الذى يتم داخل الكائن الحى. وحين يكون اللون علامة مشخصة ودلالة على التفـاعل الحيوى داخل الكائن الحى فان هذا يعطينا الصورة التى

تكون عليها درجة العـلاقة ونوعها بين الـكائن الحى وبيئته .

يقول سبحانه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » (٢٧ ، ٢٨ سورة فاطر) .

ان الدعوة الى الرؤية اذ تستجيش الانفعال الجمالى فهى فى لبابها دعوة الى التفكر فى علة اختلاف ألوان الثمار مع أنها رويت بماء واحد .. وبهذا ينتقل الاحساس بالجمال من مجـرد انتشاء حسى الى رؤية هى الفكر والى فكر هو العلم والى علم هو الايمان بالله .

ثم تقول الآية الكريمة : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » .. ولقد يعجب البعض من هذا الجزء من الآية الكريمة فيقول : وأين هو الاحساس بالجمال الذى تخلقه الصخور وتستثيره الجبال ؟ .. ونبادر فنقول : أن الارض بجبالها وصخورها تقدم للخيال أروع وأبهى آيات الجمال ، وتقدم للعين أبدع التكوينات الجمالية فى تشكيلها الهندسى وصبغتها اللونية بحيث أن الفـكر فى أدق تصـوراته لا يملك الا ان يسلم بأن وراء هذا الجمال العبقرى قدرة معجزة هى قدرة الله سبحانه .. وصـــدق الحق سبحانه حيث يقول : « انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » .

وانه لمن الاعجاز العلمى للقرآن الكريم أن تقول الآية : « ومن الجبال جدد » .. والجدد هنا هى الطرق ، فكأن فى الجبال طرقا ، أو أن من الجبال طرقا . والمقصود بالطرق الطبقات التى تتكون منها الجبال ـ أو الارض ـ فكل طبقة اذ تمثل عصرا جيولوجيا فهى بمثابة طريق هو العصر الجيولوجي وما جرى فيه من تكوينات وترسيبات وانقـــلابات فى الصخور نتيجة لعـــــوامل التعرية أو الاضطرابات البركانية فى باطن الارض وذلك كمـــا قرر ريتشارد وليامز (١) فى كتاب « الارض » .

وحين تقول الآية الـكريمة : « بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » ، فانها بذلك تكون قد جمعت الالوان الرئيسية للتكوين الجيولوجى للأرض وما قد ينتج عن اختلاطهما أو امتزاجهما من الالوان ما يـكون دليـلا على وقـــوع تطـــور حيـــــوى للأرض فى ظاهرها وباطنها .. فامتزاج العناصر الصخرية بغيرها يؤدى الى ايجاد عناصر صخرية أو معدنية جديدة لها من الالوان والاشكال الهندسية ما هو من الروائع العبقرية .. يقول ريتشارد وليامز : « وبالاضافة (٢) الى ما تمدنا به الصخور التى تكون قشرة الارض من المادة الخـام اللازمة لمعدات الحضارة واجهزتهـــا نجدها قد أغرت الانسان وسحرته خلال العصور المختلفة بما لها من جمال طبيعى » .

ثم يقول : « ويكاد (٣) لا يقل عدد المعادن التى فى

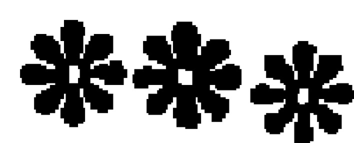
(١) من سلسلة كتب : (تايم لايف) ، ترجمة د. محمد جمال الدين الفندى .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١

قشرة الارض عن ٢٠٠٠ معدن ، وهى تعرض مجموعة من الالوان والاشكال والنسيج أو التكوين مما يذهل البصر .. وهى تتدرج من وبر الزجاج القابل للكسر من شعور بيلى الى الالوان اللامعة لفحم الطاووس أو لفحم متعدد الالوان ، ومن الانسجة الخشنة للاستبس الطبيعى الى سفاليريت روبى اللامع الوضاء على هيئة حجر كريم ثمين رغم أنه ليس كذلك » .

ثم يقول سبحانه فى الآية الثانية : « ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك » .. وفى هذا الجزء من الآية الكريمة تجتمع الكائنات الحية من أدقها وأخفاها عن العين الى أعظمها وأسماها جميعا .. الى الانسان .. ان هذا الجزء يستعرض جمال الكائنات كلها، جمالها فى ألوانها واصباغها ، ففى ألوان الطيور والحيوانات والحشرات متعة حسية للعين والشعور والخيال والتذوق .. وهذا ما يبعثه التصوير القرآنى فى وجدان الانسان ويزيد على المتعة انه يجعله عبرة تفتح له آفاق العلم ، وحكمة هى الايمان بالله .



— ١٢ —

يقول سبحانه : « الذى أحسن كل شيء خلقه » (٧ سورة السجدة) .

فى هذه الآية الكريمة نجد الحسن مقترنا بالخلق ومعنى هذا أن كل ما فى الكون من أدق الكائنات الى أكبرها شأنا قد خلقها البارىء جل شأنه خلقا حسنا .. و « الخلق الحسن » فى ظاهر معناه يشير الى أن

الشكل الخارجي لكل شيء يتسم بالجمال في تناسق اجزائه وحركاته وفي تناسق ألوانه وتنوع أصباغه .. و « الخلق الحسن » في معناه الدقيق يشير الى أن التآزر الحركي الحيــوى في باطن كل شيء يتسم بالموسيقية الجميلة في أدائه لوظائفه الحيوية .. ولو أننا ضربنا مثلا بالخلية الواحدة لتجسدت لنا ملامح « الخلق الحسن ».
لقد قال العالم الامريــكى اسحق اسيموف عن حركات عناصر الخلية التى تنقل الصفات الوراثية بمــا يفيد « الخلق الحسن » : « والظاهر (١) ان الجينات ليست مجرد عوامل صغيرة مستقلة للوراثة منظومة فى عقد من الكروموزم ، فان كل جين يتأثر بجيرانه وفى آخر الامر يتأثر بباقى الجينات الاخرى الموجودة جميعا .. ويمكننا أن نشبه الجينات فى الخلية بالآلات الموسيقية الموجودة في أوركسترا سـيمفونية . فـكل آلة فى الاوركسترا لها دورها الذى تقوم به فى السيمفونية ومن الممكن أن نستمع للآلة الاولي تؤدى دورها بمفــردها ثم نستمع للآلة الثانية والثالثة وهكذا ، ومن الممكن أن نتعلم الشيء الكثير عن السيمونية بهذه الطريقة كما فعل علماء الوراثة تماما عندما قاموا بدراسة الوراثة عن طريق بحث أثر كل جين بمفرده وكمــا فعل « مندل » نفسه . ومع ذلك فالنغم الحقيقى للسيمفونية لا يمكن أن يصــدر الا عن الآلات مجتمعة . وكذلك الصفات العامة المميزة لـكائن ما ، لا يمكن فهمها الا كأثر للجينات مجتمعة فى وقت واحد » .

ولو أننا انتقلنا الى ناحية التكوين الكيميائى للاحياء

---

(١) كتاب « ينابيع الحياة » ، تاليف اسحق اسيموف ، ترجمة د. ثابت جرجس قصبجى ص ١٧١ .

لوجدنا أن العلم يفرض مبدأ الجمال الخلقى أو البنائى ، يقول اسحق أسيموف : « فجسم (١) الانسان يحتوى على بروتين مكون من حمض أمينى يسارى فقط وهذا صحيح أيضا بالنسبة لجميع أنواع الحياة من فقاريات وغير فقاريات ومن حيوان ونبات عديد الخلايا أو وحيدها فكيمياء الحياة منتظمة الى أقصى درجة » .

ومما هو أشد اثارة للدهشة الجمالية ، ان أجيز هذا التعبير ، أن العلم ـ وهذا من الاعجاز العلمي ـ للقرآن الكريم ـ قد كشف عن جمال الكائنات الضئيلة كالهاموش والباعوض ، فى حركاتها التى تأتى متناسقة مع أشكالها .. ويؤكد العالم الحشرى هارولد باستن هذا الجمال فيقول : « وعندما يسود (٢) الجو الهادىء خلال العام فان أنواعا متعددة من الهاموش والباعوض والذباب الصغير ذوات الارجل الطويلة تقوم عادة برقصات فى الهواء فى المساء المبكر أو بعد العصر فتبدو أجنحتها السريعة الحركة متألقة فى أشعة الشمس الافقية كما تحدث همهمة يصعب سماعها .. وهى ترتفع وتنخفض فى حركات ايقاعية متناسقة فى فيض السرور الذى يبدو عليها ويسرى بينها » .

***

– ١٣ –

يقول سبحانه : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٤٩ سورة الذاريات) .

---

(١) المرجع السابق (ينابيع الحياة) ص ٢١٠ .
(٢) كتاب : (المجتمعات الحشرية) ، تأليف هارولد باستن . ترجمة : محيى محمد ابراهيم .

ان هذه الآية الكريمة تعطينا الاساس الجمالى لكل ما فى الكون من نبات وحيوان ونجوم وكواكب .. والاساس الجمالى هو مبدأ التزاوج الذى أودعه الله سبحانه فى كيان كل كائن والذى به تتوحد الاشياء ثم تنبثق بأنواعها وأجناسها كل بعلاماته وخصائصه .

وانه لما يدعو الى التأمل أن نتوقف عند قول اسحق اسيموف عن أولية التزاوج وضرورته ، وان كنا لا نقره على مبدأ المصادفة ، فقد قال : « فبقوة (١) دفع الطاقة سواء أكان مصدرها أشعة فوق بنفسجية أو مواد مشعة كان لابد للاوقيانوس البدائى من أن يمتلىء باستمرار بالمزيد من المركبات المعقدة .. وهذه الامور قد تستمر وليدة المصادفة وبلا رابطة لمدة بليون من السنين أو أكثر .. حتى يأتى وقت تتعشق فيه ضفيرة من جديلتين لجزء من حمض نيوكليك تكون معقدة بدرجة كافية لان تمكنها من الوصول الى القدرة على التناسخ » .

فاذا كان التزاوج أصل من أصول الكون .. واذا كان التزاوج تآلفا قائما على التناسق والتعشق ، كان معنى ذلك أن الاحساس بالجمال وهو تآلف قائم على التناسب والتعشق أصل من أصول الكائنات الحية . وهذا ما تؤكده المشاهدة وتدعمه التجربة .

يقول عالم الاحياء « بولسن(٢) » : « فبعض الطيور تزين أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملونة البديعة

---

(١) كتاب : (ينابيع الحياة) ص ٢٧٢ .

(٢) كتاب : (مباهج الفلسفة) ج ١ ، تاليف ول ديورنت ، ترجمة د. احمد فؤاد الاهوانى ص ٢٨٧ .

وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلفه الناس فى بيوتهم ، والطير المسمى « بوير Bower Bird » ، يبنى عشا خاصا لانثاه يغطيه بفروع الشجر ويفرشه بالحشائش ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه ويزين جدران العش بالريش الملون والتوت الاحمر وأى شىء بديع يجده . وأخيرا يجلل طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة .. فهذا هو القصر الذى يبنيه طائر البوير لانثاه » .. ثم يقول : « يكفى أن تلقى نظرة واحدة على عش الزوجية هذا لتقتنع بأن ثمة لذة فنية مباشرة بالجميل توجد فى ذهن هذا الطائر الصغير » .



وكذلك تنتهى رحلتنا بين آيات الجمال فى الظواهر الكونية ، الفلكية والطبيعية .. فسبحانه : « بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » (١١٧ سورة البقرة) .

الفصل الثالث :

الظواهر الإنسانيّة

لقد شاءت ارادة الله أن يكون الانسان خليفته فى الارض ، فقال سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون » (٣٠ سورة البقرة) .

وانه لامر منطقى أن يكون بالخليفة قبس من نور الله ، فقال سبحانه وهو يقدم الانسان للائكته : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٧٢ سورة ص) .

وتتكرر هذه الآية الكريمة مرة ثانية فى سورة الحجر (آية ٢٩) .. وتكرارها على هذه الصورة يعطيها دلالة خاصة فى تأكيد الجمال الانسانى .. فالاستواء هنا هو تمام الخلق من الناحية الجسمية ، وأن ينفخ الله سبحانه من روحه فى الانسان ، معناه ان الانسان قد وهب مزية الجمال الروحى التى لم توهب لاحد غيره .

فالانسان اذن قد جمع شطرى الجمال : جمــــال الجسم ، وجمال الروح .. وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (٤ سورة التين) .. ثم يعبر القرآن الكريم عن التقويم الحسن باسم الصورة الحسنة فيقول سبحانه:«وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » (٣ سورة التغابن) .. وتأتى صفة الصورة الحسنة مرة ثانية فى قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صــوركم ورزقــكم من الطيبات » (٦٤ سورة غافر) .

واذا كان الله سبحانه قد خلق الانســـان فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه ، فان معنى هذا أن الاحساس بالجمال المادى والروحى فطرة أصيلة فى كيـــان الانســـان وأنه لا صلاح لشـــأن الانسان فى حياته ووجوده الا باستقامة احساسه بالجمال وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٧ سورة الكهف) .

واذا كان القرآن الكريم فى دعوته الى التوحيد واقامة البناء الحضارى على أساس شريعة التوحيد يقيم علاقة تناسق وتناسب أساسها الاحســـاس بالجمـــــال بين الانسان وما يحيط به من ظواهر الكون مصححا بهــذه العلاقة الجمالية نظرة الانسان عقيدة وفكرا وخيالا بحيث يدرك أنه يعيش بذاته كيانا روحيا متناسقا مع السياق العام لايقاع الظواهر الكونية .. اذا كان القرآن الكريم يقيم هذه العلاقة الجمالية ، فانه استكمالا للبناء النفسى

والوجودى للانسان يصحح علاقة الأنســان بذاته جسما وروحا .. ويصحح علاقته بالظـــواهر الانســانية الاجتماعية والحضارية .



الانسان

ان القرآن الكريم فى تصحيحه لعلاقة الانسان بذاته لا يقتصر على توضيح أهم الاطوار البيولوجية التى يمر بها الانسان وما قد يقترن بها من خصائص نفسية .. ولكنه يرتفع فى تصحيح العلاقة الى مرتبة الوعى الكونى الذى يدرك أنه فى وصال وجودى مع الكون كله وأن ذلك الوصال هو فى ذاته ايمان بالله وحده .

يقول سبحانه : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٢ : ١٤ سورة المؤمنون) .

ان هــذه الآيات البينات تصحح نظرة الانســان الى كيانه : جسما ونفسا . ويبدأ التصحيح بعرض المشهد الاول أول العمليــة الاولى للوجــود البشرى ، فيقــول سبحانه : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » .

وهنا ينطلق الخيــال وراء ملايين الملايين من السنين يصور حياة ويتخيل تاريخا شائقا يجذب العقل بمــا يفترض من عجائب الاحداث .. ثم ننتقل الآية الكريمة

نقلة طبيعية جميلة تختصر عمليــات الاحقاب فيتجسد التقاء الذكر والانثى التقــاء احياء وخلق وتكوين حيث تتجلى القدرة الالهية فى بيان يجمع بين اعجاز التعبير وتساميه ، فيقول سبحانه : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » .. وبعد ذلك تعرض الآية الكريمة المراحل التى يمر بها الانسان من لدن أن يكون نطفة الى أن يصير مهيئا لتلقى الصورة البشرية ــ تعرضها بأن تعطى لكل مرحلة شكلها وهيئتها ومدتها ، فيقول سبحانه : « ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » .

ثم تبلغ أطوار التكوين المرحلة النهائية التى يظهر فيها الشكل البشرى والطــابع البشرى ، فيقول سبحانه : « ثم أنشأناه خلقا آخر » .. وهــذا التعبير فى ذاته يستحث الانسان أن يتأمل كيف أنه فى تناسب أعضائه وتناسق جوارحه آية من آيات الجمال .. ثم يأتى قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، لتضفى على المشاهد او المراحل كلها هالة من جلال الجمــــال فاذا الاحساس الذاتى بالجمال ايمانا بالله سبحانه .

***

الاسرة

ان الاسلام الحنيف قدر الاسرة على أنها القلب من جسد الامة ، اذا صلحت صلح الجسد كله .. ولايختلف أحد فى العالمين على أن الاسرة هى أخطر ما فى البناء

الاجتماعى فاذا سلم تكوينها وسلمت وحدتها من الآفات النفسية والاخلاقية لسلم الكيان الاجتماعى بأسره ولتحقق له من الوجود الحضارى ما يضمن له الرقى والامن والرخاء .. ومن ثم فانه لبيان كيف صحح القرآن الكريم علاقة الانسان بأولى الظواهر الاجتماعية وأخطرها وهى الاسرة فاننا سنعمل من خلال هذه الدراسة على تأكيد أمرين :

أولا : أن نظام الاسرة المسلمة من حيث نشأتها الاولى ومن حيث العلاقات القائمة بين الزوجين وبينهما وبين أبنائهما ، هذا النظام فى ذاته ، أى من حيث هو نظام لا يمكن أن يوصف الا بأنه جميل كامل الجمال .

ثانيا : ان العلاقات القائمة بين جميع أفراد الاسرة باعثها وأساسها الاحساس بالجمال .. ومن ثم فاننا نقول ان القرآن الكريم اذ يقدر نزعات الفطرة وميولها فقد أوجب الزواج وحبب اليه .. فهو يأمر بالزواج ، قال تعالى : « وانكحوا الايامى منكم » (٣٢ سورة النور) ... وينهى عن ارغام المرأة على ترك الزواج ، قال تعالى : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف » (٢٣٢ سورة البقرة) ... وما هو أكثر من هذا ، ان الله سبحانه قد امتدح أنبياءه ورسله لزواجهم وجعله من فضله عليهم ، فقال جل شأنه : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » (٣٨ سورة الرعد) ... وليس هذا فحسب ، فالصالحون امتدحهم ربهم لانهم فى تضرعهم اليه جعلوا الاسرة الصالحة أمنية يرجونها منه ، فقال سبحانه :

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » (٧٤ سورة الفرقان) .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على الزواج شفاء ووقاء ، فقال عليه السلام : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للطرف وأحصن للفرج ومن لا يجد فليصم فان الصوم له وجاء » .

***

يقول سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٢١ سورة الروم) .

تصور هذه الآية الكريمة ماهية الزواج ، او ماهية تكوين الاسرة فهى من ثم المقولة الاولية التى توجب على المسلم أن يلتزم التزاما أخلاقيا مطلقا لانها أصل وجوده وعماد المجتمع .

تبدأ هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « ومن آياته » ، اى من دلائل قدرته وبديع صنعه : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا » .. فالتزاوج من ثم تعاطف وتوحد هو الرجوع الى الطبيعة الاولى للنفس وماكانت فيه من انسجام وصفاء .. فكأنه سبحانه حين خلق من النفس زوجا لها فقد قدر فطرة الحب فى الطبيعة البشرية .. وان فى قوله تعالى : « لتسكنوا اليها » ، لابلغ تعبير عن طبيعة الحب : فالسكن احساس بالهدوء فيه تسكن الجوارح من لواعج الجسد ، وفيه تبرأ الصدور مما أثقلها من هموم المعاش فاذا هى فى رخاء واطمئنان .. ثم يقول سبحانه :

« وجعل بينكم مودة ورحمة » .. فالمودة حب وزيادة وتلك الزيادة هى الانفعال والتفاعل الذى يوحى بالتبادل الحيوى بين الزوجين ، تبادل هو الايثار الحنون والاخلاص الامين . ولكن السكن وما فيه من حب واطمئنان والمودة وما فيها من ايثار وأنس لا يكملان بغير الرحمة : فلا اعنات ولا شقاق ولا تبديد فى حق من الحقوق ، ولا تضييع للأبناء ولا هتك لاواصر التآلف ومواثيق الوفاء .

كل هذه الآيات وهى عماد الاجتماع الانسانى توجب التفكير ولذلك فقد جاءت الفاصلة : « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » خاتمة منطقية للآية الكريمة ...



ان الاسلام الحنيف حين أمر بالزواج وحض عليه وامتدحه لم ينس هوى النفوس وحبها الفطرى للجمال . فعنصر أساسى فى سواء الفطرة البشرية أن يحب الرجل المرأة الجميلة او المراة بعامة ، فقال سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » .. الآية (١٤ سورة آل عمران) .. لذلك فان الاسلام قد أستحب أن ينظر الرجل الى المرأة — عند ابتغاء الزواج — ليعلم ما اذا كان يحس فى طلعتها اقبالا وشوقا أم لا . فقال صلى الله عليه وسلم : « اذا أوقع الله فى نفس احدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما » .. أى يؤلف بينهما .

ويعطى الرسول عليه السلام للجمال الانثوى حقه

فيقـول : « خير النساء أحسنهن وجـوها وأرخصهن مهورا » .. وحسن الوجه فى هذا الحديث الشريف دلالة مناط الجمال الذى يجتذب الرجل ولكن حسن الوجه يجب الا يلقى بثقله ادلالا فيكون سببا فى الاعراض عنه لما يكلف من مهر غال .. ولا جدال في أن للجمال الجسـدى تشامخه الذى قد يستذل العاشق المتيم وربمـا كان لجاذبيته من القوة ما ينسى الرجل دينه ويفسد عليـه عمله ويقطع ما بينه وبين ذوى رحمه من أسباب التواد والتراحم .. فلكى لا ينقلب الى شـهوانية موبقة فان الاسلام الحنيف يعليه بما يهذبه ويزكيه ، ولا يزكيه سوى التمسك بالدين ، يقول عليه السلام : « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك » .. ويقول عليه السلام : « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ولا لمالها فلعل مالها يطغيها وانكح المرأة لدينها » .

ثم يخطو الاسلام فى سبيل تكوين الاسرة خطوة لهـا أهميتها فى رفع قواعد البناء ، وتلك هى الخطبة . فقد يخطب الرجل بكرا وربما استحلى ثيبا ـ والاسلام ايمانا بحرية الارادة وعمـلا بحرية الارادة وصوانا لخالجة الحياء ، وتفريقا بين من عركت الحيـاة وبين من لم تعالجها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر هذه القاعدة الحكيمة ، فقال عليه السـلام : « الايم أحق بنفسها من وليها والبـكر تستأذن فى نفسها واذنهـا صماتها » .

ولئن كان للأيم هذا الحق الا ان الاسلام قد تحوط له وجعل له حمى ترتد دونه أطمـاع الذين يرسلون القول

المسئول وهم يضمرون السوء ، فقال سبحانه : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو اكننتم فى أنفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا ان تقولوا قولا معروفا » (٢٣٥ سورة البقرة) .

فاذا ما انتهت الخطبة بالزواج وبدأت الاسرة الصغيرة تحيا أحلامها فان القرآن الكريم يدعم وجودها وبقاءها برحمته ورضوانه .. فأولى مبادىء الحياة الزوجية ان تقوم على المعروف ، يقول سبحانه : « وعاشروهن بالمعروف » (١٩ سورة النساء) .. والمعروف مخالطة هى الحب والايثار وحسن المعاملة ..

والمبدأ الثانى هو الكفاية المالية التى تضمن للاسرة قضاء حاجات المعاش في غير شظف أو تقتير . فاذا كان الزوج ذا كفاية مالية فيجمل به أن يسبغ على أسرته من فيض ماله ما يسعد ولا يحوج الى التطلع الى ما بأيدى الناس مما يفضى الى المقارنة التى قد تجر الى التمرد او مقارفة الزنا . وقد ينعكس التقتير على الابناء فيخلق فيهم احساسا بالحرمان أن يزداد ضغطه على النفس يصبها صغار المهانة ويقتل فيها حيوية العزم . وقد يتملك النفس حقد على المجتمع فتحاول الانتقام منه .. ولدرء هذه الآفات النفسية وما ينشأ عنها فقد جاء أمر الله سبحانه : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٧ سورة الطلاق) .. وقال عليه السلام : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .. وما هو أثر النعمة ؟ أليس الاخذ بأسباب الوجاهة وحسن البيئة ؟

والقصد والاعتدال فى الانفاق من معانى الاحساس

بالجمال ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » (٢٩ سورة الاسراء) .. وقال سبحانه ممتدحا عباده الصالحين : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٦٧ سورة الفرقان) .

والمبدأ الثالث هو الحفاظ على جمال المرأة ، وقد يبدو هذا المبدأ شاذا عند الكثيرين ، ومع هذا فلا يمارى أحد فى أن جمال المرأة يضفى على الاسرة افوافا من النور وألحانا من السرور .. فعلى الرجل من ثم أن يصون لهذا الجمال قدره وكرامته بأن يكون على وفاق وصفاء مع زوجته بالمداعبة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر وقد نكح ثيبا : « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك ؟ » .. وبالرقة والحنان ، وقد عدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من كمال الايمان فقال : « اكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله » .. وبالحفاظ على جمال هيئتها .. لكن كيف ؟

لقد وصف القرآن الكريم المرأة الجميلة بنعوت دقيقة ورقيقة أيضا : فشبهها بالبيضة فى وضاءتها ورقتها ، فقال سبحانه : « كأنهن بيض مكنون » (٤٩ سورة الصافات) .. وشبهها باللؤلؤ ، فقال سبحانه : « وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون » (٢٢ ، ٢٣ سورة الواقعة) .. ومن بديع تشبيه القرآن الكريم للمرأة حين شبهها بالزهرة ، فقال سبحانه : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » (١٣١ سورة طه) والزهر أجمل كائنات الطبيعة الحية وحين يعرف انسان بأنه يحب الزهور فانه يقال عنه عادة : انه انسان

رقيق الشاعر جميل الذوق .. فبماذا يوصف اذن من يحب زهرة الوجود الانسانى بأسره ؟ .. بل وماذا عليه أن يفعل لهذه الزهرة التى اكتملت فيها زينة الوجود الانسانى وجماله ؟

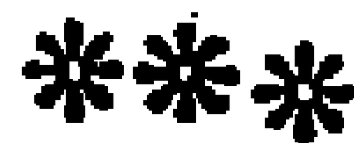
انه اذا ما أنعم الله على رجل بزهرة من زهرات الدنيا فان عليه أن يحفظ عليها نعمة الجمال فلا يرهقها من أمرها عسرا بحرمانها مما يزينها ويجملها فعليه من ثم الا ينهك يدها بما يعجفها ، قال عليه الصلاة والسلام: « لا تدع احداكن يدها كأنها يد رجل » .. وعليه أن يحثها على التزين والتجمل اذا غفلت عنهما ، قال عليه السلام للسيدة عائشة رضى الله عنها : « انه لا ينبغى أن تكونى بغير قلادة اما بخيط واما بسير » .. فواجب المرأة اذن الا تهمل زينتها فتغفل عن اعطاء بدنها وثيابها حقها من الزينة . وتلك أمانة فى عنق المرأة تعدل أمانتها فى رعاية بيتها ، قال عليه السلام : « خير النساء التى اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالها » .

ومن البحوث الطريفة عن الاحساس بجمال المرأة ما جاء فى كتاب « اللغة الصامتة » ؛ للدكتور « ديل جوثرى » ، أستاذ علم الاحياء بجامعة الاسكا الامريكية — فقد قال : « ان الاحساس (١) بالجمال فى المرأة ينبع أصلا من احساس الرجل بحاجته الى المرأة وحاجة المرأة اليه .. واذا لم يتوافر هذا الاحساس المتبادل فان المرأة

---

(١) كتاب : (اللغة الصامتة) .. من عرض له بجريدة الاهرام (باب المرأة) (قسم الترجمة بالجريدة) سنة ١٩٧٤ .

نصبح مجرد شكل أو لوحة جميلة لا تبعث بأى اشارات وعندئذ تعجز اللغة الصامتة عن التعبير » .. ثم ينتهى الى هذه النتيجة : « ان المرأة اذا فقدت عاطفتها أصبح جمالهـــا لا معنى له وأصبحت هى نفسها مجرد لوحة صماء .. وأساس الاحساس بالجمال هو ما يوحى به هذا الجمال من عاطفة واحساس بالارتباط الانسانى » .



ان الاسلام الحنيف فى نظرته الى جمـــال المرأة وزينتها لم يحرم عليها متعتها فى الحياة ولكنه فى نفس الوقت وضع الضوابط التى تصون جمالها من كل ما قد يسيء اليه أو يمتهنه .

يقول سبحانه : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهليـــة الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » (٣٣ سورة الاحزاب) .. فى هـذه الآية الكريمة تتجلى قضية الايمان كاملة ، فسبحانه يأمر النساء بالقرار فى بيوتهن . وليس من معـــانى القرار الاخلاد الى البيت والامتناع عن مغادرته وكأنه سـجن تقضى فيه مدة العقوبة .. ان القرار أن تسكن المرأة الى بيتها فلا تكون خراجة ولاجة لان مسلكا كهـذا يعرضها لنظرات العيون وافتراءات الظنون.. لكن لها أن تخرج الى عملها اذا كانت صاحبة عمل أو تخرج الى قضاء مصالحها بغير تبرج حيث تخرج الزينة عن حدودها وتصبح تهتكا وخلاعة . الا أن ايمان المرأة لا يكون تاما اذا اطمأنت فى بيتها واعتدلت فى زينتها فحسب .. فالقرآن الكريم

يأمرها بالصلاة : « وأقمن الصلاة » . والصــلاة طهارة فى الجسد ونقاء فى الثوب وصفاء فى الروح .

ولقد قال تبارك وتعالى عن الصلاة : « ان الصــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (٤٥ سورة الكهف) .. والمعنى العام لهذه الآية الكريمة أن الصلاة تنهى عن كل ما يشوه الاحساس بالجمال .. فالفحشاء فى الاصل ، قبح المنظر .. قال الشاعر :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش

والمنكر هو ما ينكره المجتمع ولا يرى فيه خيرا .. فهو بغى فى أصله .. والبغى هو الشدة فى الطلب .. قال أبو نواس :

قال ابغنى المصباح قلت اتئد
حسبى وحسبك ضوءها مصباحا

فالصلاة اذن تخلص الانسان من آفات ثلاث :

١ ــ ارتكاب كل أمر قبيح .

٢ ــ ازدراء الغير .

٣ ــ الظلم .

واذا كانت الصــــلاة تربية روحية ونفسية وجسدية للفرد والجماعة فان الزكاة هى اللحمـــة التى تؤصـــل المواثيق وتجعل احساس التآخى قويا متجددا ...

والصلاة ما لم تكن لله فلا صلاة .. والزكاة ما لم تكن لله فلا زكاة .. بهذا يرتفع الاحساس بالجمال عند المرأة المسلمة فيصبح وصالا روحيا هو الطاعة لله ورسوله : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » .

ولكى يكون الاحساس بالجمال عند المرأة عميقــــا راسخا فانه ينبغى عليها أن تزكى نفسها تزكية تقيهــا

انطلاقة الاهواء وجموح النزعات ، يقول سبحانه : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٣١ سورة النور) .

فى هذه الآية الكريمة تجتمع صفوة الآداب التى تكون اسس التربية النفسية والاجتماعية والاخلاقية للمرأة .. فهى تحثها أولا على غض بصرها ، فيقول سبحانه : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » ، وغض البصر معناه كفه فى لين ووداعة وتلقائية فالحق سبحانه يأمر النساء أن يغضضن أبصارهن حياء حتى لا تقع على ما يؤذى مشاعرهن أو يطمع من فى قلبه مرض حين يكشفن عن زينتهن .. وبعد غض البصر أمرت النساء بحفظ فروجهن ، فقال سبحانه : « ويحفظن فروجهن »، وحفظها يعنى التصون والترفع عن كل ما يدنس الجسد وذلك باقتراف جريمة الزنا .. ثم تحض الآية الكريمة النساء على اخفاء مفاتن الجسد التى تشد أنظار الاشتهاء عند التزين .. اما اذا كانت أعضاء الزينة مما لا يستطاع اخفاؤها فقد عفى للمرأة فيها وذلك كالوجه واليدين ويكون باسدال الخمر على الجيوب .

ومع هذا فالاسلام يبيح للمرأة أن تبدى زينتها كاملة في بيتها وأمام اقارب زوجها او اقاربها الذين نصت عليهم الآية الكريمة ، وكذلك من هم فى حكم العبيد والاماء ويضاف اليهم الاطفال الذين لم يبلغوا درجة الادراك والقدرة على التمييز .. ولزيادة التحوط والحفاظ على نفسية المرأة وكرامتها فقد حرمت عليها الآية الكريمة أن تأتى من الحركات ما يعلن عن زينتها ويلقى فى الخيال صورة حسية تثير شهوات المترخصين ، فيقول سبحانه: « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » .. ثم يقول سبحانه : « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون » .. والتوبة رجوع الى الحق ، والرجوع الى الحق استنقاذ وتصحيح . وقبل أن تخاطب المرأة خوطب الرجل ، فقال سبحانه : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون » (٣٠ سورة النور) .. فالرجل طولب قبل المرأة بأن يغض بصره ويصون نفسه من الحاح شهوات الجسد فذلك زكاء له : « ذلك أزكى لهم » .. والزكاة استواء في الشعور والفكر والسلوك ثم هو تأصيل للآداب والعلاقات الاجتماعية التى يبنى بها النظام الاجتماعى .

وكما يحفظ القرآن الكريم المرأة من نفسها فهو كذلك يحفظها من الناس وهم صنفان : صنف يعبث بها عبثا شخصيا أى لنفسه هو ، وصنف يعبث بها لتدميرها وذلك بتزيين الفاحشة فى أنظار الغير وفى هذا الصنف تختلف البواعث والسبل .

فما جزاء الذين يحبون أن لو أصيب المجتمع بما أصيبوا به أو يبيتونه له ؟ .

يقول سبحانه : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١٩ سورة النور) .. فهذه العبارة : « في الذين آمنوا » تؤكد أن المصير هو مصير الامة فوق مصير ومن ثم فالعقاب الرادع هو ما يجب أن يكون .. ويضاف الى الصنفين السابقين أولئك الذين يجهرون بالفحشاء يلصقونها بالمؤمنات افكا وبهتانا ، وقد قال الله في شأنهم : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » (٢٣ سورة النور) .

وخطورة ذلك الافك أن من يرمي : « المحصنة الغافلة المؤمنة » ، لا يرمي امرأة فحسب ولكنه يرمي أسرة ومجتمعا فتصبح صراعات الارتيــاب فــوق صراعات الخصام والشقاق نارا تأكل البناء الاجتماعي بأسره .. ان شريعة الحق سبحانه لا تترك الذين يسعون الى هدم المجتمع أخلاقيا دون عذاب يؤخذون به ويكون رادعا مانعا فيه كل قوة الابلاغ والتحذير ، يقول سبحانه : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شــــهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » (٤ ، ٥ سورة النور) .

في هاتين الآيتين نستبين الشريعة الاســـلامية في شدتها على الباطل وقوتها في الحق ورحمتها بالانسان : فالشدة على الباطل جاءت من أن من يرمي المحصنات يجلد ثمانون جلدة ما لم يأت بأربعــة شهداء .. ولما كان الأفاكون من بلادة الحس ما يجعلهم يستمرئون العــذاب البدني فقد جاء قانون العقاب الاجتماعي سندا متكاملا

مع قانون العقاب الجسدى ، فقال سبحانه : « ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا » .. هذا أنكى ما يصاب به انسان اذ أن معناه أن قد سحبت منه صفة : « شرف المواطن » .. فيعيش منبوذا لا يتعامل معه أحد ولا يرتبط به انسان لانه خارج على المجتمع مشاق له ، وهذا ما يؤكده قوله تعالى : « وأولئك هم الفاسقون » .

ولكن الباب لا يبقى موصدا فى وجه العاصى أبد الابيد ولا يبقى هو سجينا فى وطنه دون انتهاء ان غفران ربه قريب فله أن يكفر عن وزره بالتوبة المشفوعة بالعمل الصالح ، فقال سبحانه : « الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » .



واذا كنا نطلب من المرأة أن تعنى بجمالها وزينتها ، وتصون جمالها وزينتها ، أفلا نطالب الرجل بشىء من ذلك أم اننا نتركه لما يسمى بالمزاج « الشخصى » أو الذوق ؟

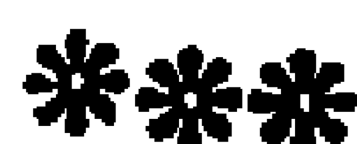
ان الحق تبارك وتعالى قد خلق الاحساس بالجمال بين الزوجين ودا متبادلا ورحمة مهداه بينهما فقال جل شأنه : « وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢١ سورة الروم) .. فاذا قال بعض الآحاد بغير ما أمر الله به فذلك خروج على طاعته فى التصور والاعتقاد ومجانبة لشريعته التى جعلها دستورا للتعمير والاصلاح . ثم ان فيه ما ينطق بانحراف الذوق وسقم العاطفة ، فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة والاسوة كان بهيا فى طلعته جميلا فى شمائله ، جميلا فى زيه وهيئته ، لا ارضاء لمطالب الجسد وأشواق النفس ولكن هكذا يجب أن يكون المسلم دائما : لا يحيا الا فى جمال ولا يرى

الناس منه غير ما هو جميل تعبدا وتقربا لخالقه سبحانه .. ففي الخبر أنه عليه السلام كان اذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرآة ، والمكحلة ، والمقرض ، والسواك ، والمشط .. وكان عليه السلام لا يغفل عن ابداء زينته أمام الناس ولا يهمل فى اتخاذ ما يجعله جميلا بهيا فى رجولة صادقة ووقار رصين أمام ضيفانه وصحابته عليه السلام .. وقد روى مكحول عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : « كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم وفى الداركوة فيها ماء فجعل ينظر فى الماء ويسوى لحيته وشعره . فقلت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ، اذا خرج الرجل الى اخوانه فليهيىء من نفسه فان الله جميل يحب الجمال » ..

والاسلام حين يحض على التزين لا يفوته أن يكون الاحساس بالجمال عند لبس الجديد احساسا انسانيا يكون فيه الانسان قريبا من الله قريبا من الناس وذلك بأن يتصدق على الفقراء بما استغنى عنه من ثياب .. ونتأسى فى هذا الخلق الحميد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يقول عند كل كسوة جديدة : « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأدارى به عورتى » .. وكان عليه السلام يحث المسلمين على ترديد هذا الدعاء فيقول : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أدارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى .. ثم عمد الى الثوب الذى خلق أو ألقى به فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » .

ونعود فنقول أن على الرجل أن يتزين لامراته كما تتزين هى له فذلك من حقوق المعاشرة وكمال الصحبة .. ولقد قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلى : « أتيت محمد بن الحنفية فخرج الى فى ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية (نوع من الروائح) .. فقلت ؛ ما هذا ؟ قال : ان هذه الملحفة ألقتها على امراتى ودهنتنى بالطيب وانهن يشتهين منا ما نشتهى منهن » .. وقال ابن عباس رضي الله عنه : « انى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » .

ولكن اذا أوقعت الاقدار امراة نى رجل كشفت احواله بعد ذلك عن دمامة تتقزز منها النفوس فما هو موقف الاسلام اذا طلبت هذه المرأة الطلاق من ذلك الدميم المستقذر ؟ ان الاسلام الحنيف اذ يقدر الاحساس بالجمال الذى يجب أن يسود بين الزوجين ، فانه يبيح لهذه الزوجة الطلاق شريطة أن تتنازل للزوج عن شيء من حقوقها المادية .. وهذا ما يسمى بنظام الخلع .. وقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « أول من خالع فى الاسلام اخت عبد الله بن ابى ، اتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، لا يجتمع رأسى ورأسه أبدا .. انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة اذ هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها ! فقال : اتردين عليه حديقته ؟ نعم ، وان شاء زدته » .



ان الاحساس بالجمال الذى يخلقه القرآن الكريم فى وجدان المسلم فيظهر على الالسنة كلمات مهذبة رقيقة

أو على الجسم حسنا فى الهيئة وجمالا فى الثياب كما يظهر من مجموع الانفعالات الدالة على الحب .. وهذه المظاهر وتلك المعانى لا تكمل وتعمق فى النفس فتكون نظرة مبتهجة بالحياة وايمانا مكينا بالله ما لم تبن على الطهر والنظافة ... فطهارة البدن ونظافة الثوب يبعثان فى الجسم نشاطا ونضارة وفى النفس مرحا واقبالا متفائلا على الحياة ..

ان الطهر والظافة على شريعة القرآن الكريم لهما أبعد الآثار على الجسم والنفس ولذلك فقد جعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم شطر الايمان ، فقال عليه السلام : « الطهور شطر الايمان » . فمن روبى على النظافة فقد تم بناؤه النفسى على حسن الذوق وحسن النظر ، وهنا يقول صلى الله عليه وسلم : « بنى الدين على النظافة » .. والطهارة التى يطلبها الاسلام لا تكلف الانسان ما لا طاقة له به ولان الماء هو مادة التطهر ، قال تعالى : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » (١١ سورة الانفال) .. والمسلم يدعو ربه ويقنت له متعبدا خمس مرات فى اليوم ، والطهارة هى الشرط الاول للصلاة . وان من ينظر الى الصلوات الخمس فى أوقاتها المتقاربة ليرى أن المسلم لا تفوته ساعة من يوم الا وهو طاهر فى جسمه وثوبه بل وقلبه لانه يقف بين يدى ربه ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين » (٦ سورة المائدة) .. وفى حالة الجنابة فان على المسلم أن يطهر جسمه كله ، قال تعالى : « وان كنتم جنبا فاطهروا » (٦ سورة المائدة) .. وتجب الطهارة

أيضاً فى حالات المرض وقضاء الحاجة وملامسة النساء ، فان تعذر وجود الماء كان على المسلم أن يتيمم ، قال تعالى : « وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (٦ سورة المائدة) ..

فلا اعنات هنا ولا تضييق ولكن تطهير لتتم النعمة .. وتمام النعمة كمال فى آيات الحس الظاهر على الاجساد والباطن فى طوايا الاخلاد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض المسلمين على العناية بنظافة اعضائهم ومنها الفم ، فقال عليه السلام : « عليكم بالسواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب » .. وكذلك تنظيف الشعر والعناية به ، قال عليه السلام : من كان له شعرة فليكرمها » .. وفى الخبر : دخل عليه ــ اى على رسول الله ــ رجل ثائر الرأس أشعث اللحية ، فقال : « أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ؟ » .. ثم قال : « يدخل احدكم كأنه شيطان » .

وبعد تطهير اعضاء الجسم يأتى تطهير الثياب .. وقد أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ــ والامر للمسلمين كافة ــ أن يطهر ثيابه ، فقال جل شأنه : « وثيابك فطهر » (٤ سورة المدثر) .

وكذلك نجد الطهر فى الظاهر والباطن .. فى الجسم والثوب .. فى العمل .. وذلك من كمال الاحساس بالجمال ...

***

والمبدأ الرابع هو حسن القيام على تربية الابناء فهم

زينة الحياة الدنيا ، قال سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٤٦ سورة الكهف) .. وهم عماد الوجود الاجتماعى والحضارى بعامة ومن هنا كانت تربية الطفل ذات أهمية كبرى بالنسبة الطفل ذاته وكذلك بالنسبة لمجتمعه وامته .. ان الاسلام الحنيف يقدم الزوجين حبيبين متحابين فى الله ولله ، وحين تأتى الثمرة المرجوة فان الزوجين يتعلمان من القرآن الكريم الفرائض الواجبة نحو الضيف الجديد .. انها فرائض تصون الطفل فى كل مرحلة من مراحل تطوره الجسدى والنفسى .. وتساوق بين البناء الجسدى والنفسى مرحلة اثر أخرى الى أن يصير شابا على وشك دخول الحياة الاجتماعية والمشاركة فى حمل أعبائها .

فالمولود يرتضع من أمه حولين كاملين ،قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » (٢٣٣ سورة البقرة) .. ولا يضار المولود من جراء ما قد يحدث بين الزوجين من خلافات ولو كانت الخاتمة هى الطلاق ، يقول سبحانه : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (٢٣٣ سورة البقرة) .

ومشكلة الاحساسات الجنسية التى يقال انها تتفتح فى الاطفال فى سن مبكرة وأن لها الاثر المسيطر على الاهتمامات الشعورية والادراكية والمعاشية للطفل وكذلك علاقاته بمن حوله من الناس ـ هذه المشكلة يعالجها القرآن الكريم على مرحلتين كل منهما تتناسب وسن الطفل ودرجة نضوجه العقلى واتجاهه التخيلى . فاذا كان الطفل اقل من الرابعة كان على الوالدين أن يعلماه الاستئذان قبل الدخول على من هم أكبر منه سنا من

رجال الاسرة ونسائها .. ومن الرابعة عليه أن يستأذن كما يستأذن الرجال .

والمرحلة الاولى ضرورية لسببين : أولا : أن يتعلم الطفل الطاعة واحترام الكبار بغير تخويف .. ثانيا : ألا تقع عينه على العــورات فتثبت فى مخيلته وتضغط على مشاعره وهو شاب ضغطا جنسيا ربما أنتهى به الى الانحراف .

وقد تخير القرآن الكريم ثلاثة أوقات تنكشف فيهــا العورات وهى :

١ ــ قبل صلاة الفجر .

٢ ــ عند الظهيرة .

٣ ــ بعد صلاة العشاء .

ولهذا فقد جاءت هذه الآية الــكريمة تربية نفسية وروحية للطفل ، فقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صــلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » (٥٨ سورة النور) .

***

ويرى علم النفس التحليلى أن من العلاقات التى تقوم بين الزوج والزوجة من ناحية وبين الابناء من ناحية اخرى تتألف القاعدة النفسية التى تصدر منها افعــال الطفل وكذلك مشاعره نحو أهله وأصــدقائه ومجتمعه ووطنه بل ونظرته الوجودية للحياة .

وقد وجد « فلوجل » ـ وهو من علماء التحليل النفسي المتأثرين « بفرويد » ـ أن الاعتصام بالجماعات الكبيرة المعقدة يتطلب : « مستوى (١) عاليا نسبيا من النضج السيكلوجي وهو ما لا يمكن بلوغه الا من خلال المراحل المتوسطة التي يكون فيها الاهتمام موجها الى جماعات أصغر حجما وأيسر منـــالا وضمنها الاسرة وهي أكثر الجماعات بدائية وفطرية وجوهرية » .. ويسير «ميرفي» في هذا الاتجاه فيقول : « تتحـــــول (٢) الاســتجابات المشروطة الى أشـــخاص مماثلين لمن تــكونت بهم أولى الارتباطات .. ولنا أن نتوقع أن تصبح الاســتجابات العميقة القوية للوالدين والاخوة الاصل الذي يتفرع عنه مجال الصداقات والعـــــداوات والعلاقات الاجتماعية المستقلة بذاتها وغير المستقلة » .

اذن فمن حقوق الابناء على آبائهم أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم ، والاسلام يؤكد هذه الحقـــــوق ويوجبهـــا فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » .. واحسان الادب والتعليم لا يكونان بالقسوة وعنف التأنيب ، وانما تكون الرحمة رائد الوالدين ، قال عليه السلام : « أن الله يحب الرفق في الامر كله وانما يرحم الله من عبـــاده الرحماء » .. وهذا المبدأ المحمدي في التربية مستمد من القاعدة القرآنية التي يقول فيهـــا الحق سبحانه : « والكاظمين الغيظ والعـــافين عن الناس والله يحب المحسنين » (١٣٤ سورة آل عمران) .

---

(١) كتاب : (التحليل النفسي والسلوك الجماعي) تأليف : سسول سنيدلنجر ، ترجمة د. سامي محمود علي ص ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٩ .

ان الرحمة عدل والله سبحانه يقول : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٥٨ سورة النساء) .. فمن العدل الذي يغرس في نفوس الابناء طبيعة الرحمة والتراحم ، المساواة بينهم ، قال عليه السلام : « ساووا بين أبنائكم في العطية » .. والمساواة بين الابناء من مبادىء الحب الأول التي يتعلمها الطفل فيشب ونفسه لا تكن بغضة لاحد ولا تتوزعها خواطر الحسد ومشاعر العداء ، ولذلك تخلق المساواة في نفس الطفل احساسا بالرضى والغبطة حين يرى اخوته وقد نالوا مثلما نال . وفوق هذا فان المساواة تخلق في نفس الطفل احساسا بالتقدير والاحترام للقيادة التي حكمت بالعدل (١) .

وليس من معاني العدل أن يكون الانسان قاسي اللفظ شائنه لا يعالج مشكلاته بغير الجفاف والعنف ، فهذا الخلق مما يرفضه الاسلام ، قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (١٤٨ سورة النساء) .. ولما كان المحصول اللغوى والاساليب الكلامية التي يتعلمها الطفل في الاسرة هي في حقيقتها أصداء وانعكاسات نفسية لتفاعله مع أفرادها وتأثره بما يبدون نحوه من مشاعر ، فانه لخطورة الانفعالات الجامحة التي قد تدفع الى التفوه بالالفاظ النابية فقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الترفع عن هذا السبيل فقال : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » .

ومن الطبيعي في الاسرة المسلمة أن سمع الطفل

---

(١) كتاب : (ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية) ، فصل (علم النفس الطفل) تأليف : هوراس ٠ ب ٠ أ ٠ انجلسن ترجمة د٠ السيد محمد خيرى موسى ص ١٠٧ ٠

لا يخدش بصخب التفحش واللعن ، ذلك لان الصلاة تمنع الوالدين من أن يعكر صفو الاسرة بالسوء من القول يقول سبحانه : « أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٤٥ سورة العنكبوت) .. فاذا كان الطفل نفسه مأمور بالصلاة فى سن مبكرة فان معنى هذا أنه يدرب تدريبا عمليا على قول الطيب الجميل من القول .



والمبدأ الخامس يتعلق بحقوق الزوجين وعلاج ما قد ينشأ بينهما من مشكلات ... ونقول أولا ان ارادة الله قد شاءت أن تكون قيادة الاسرة فى يد الرجل ، فقال سبحانه : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) « ٣٤ سورة النساء) .. فالقوامة حق فطرى وليس مكتسبا والحق الفطرى لا يعرف التسلط والاستبداد ولكنه أنس وتعقل ومشورة . وما من شك فى أن الرجل يفضل المرأة فى نواح أساسية لا غنـاء للمجتمـع عنهـا بل ان المجتمع لا تقوم له قائمة بغير قيادة الرجل ..والتفضيل لا يعنى ابدا أن يزدهى الفاضل بفضله الى حد الصلف والغرور. فالفضل حقيقة مزية نفع واسعاد . فاذا أصبح الرجل قواما على أسرته كان ذلك سببا الى أن يزداد نفع فضله لاسرته واسعاده لها .

والرجل والمرأة نفس بشرية لا نفس ملائكية والنفس البشرية لها كما قلنا قوتها وضعفها وتعقلها وجموحها .. ولما كان الزوجان لا يعملان بطبيعة نفسية واحدة اذ ان كل منهمـا « يعمل على شاكلته » . فلا دهشة اذن ولا استغراب حين نسمع عن وقوع منازعات بين

الزوجين .. والاسلام فى الخلافات الزوجية يحتاط بكل وسيلة علاجية للابقاء على الاسرة قوية الاركان صلبة القاعدة بغير مداراة تعالج الظاهر وتترك الباطن مترنحا تنخر فيه جراثيم الشقاق .

ان الاسلام يعطى لثلاث جهات حقها فى درء خطر الشقاق لتقى الاسرة بوائق الانهيار .. فللرجل حقه ، قال تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا » (٣٤ سورة النساء) .. والناظر الى هذه الآية الكريمة نظرة تأمل وتفكر ليؤخذ بالنسق الجميل الذى جاء عليه التشريع الالهى .. فعلاج بوادر الشر لا الشر نفسه يبدأ بالكلمة الطيبة ، بالعظة ، والعظة الطيبة حوار حى يظله تآلف ودود .. فاذا لم تفلح العظة الطيبة فان على الرجل أن يهجر مضجع زوجته : « واهجروهن فى المضاجع » .. وهذا من جمال الادب الالهى فى التعبير .. والهجر فى المضاجع علاجى نفسى وسلوكى معا ، فهو من ناحية علاج لكبرياء الجمال الجسدى الذى تعتز به المراة ، ومن ناحية أخرى فان الهجر سانحة تخلو فيها المراة الى ذاتها فى سكينة الليل لتراجع نفسها وموقفها علها تثوب وتنوب .

فاذا باء العلاجان السابقان بالفشل لم يبق سوى العقوبة البدنية على الا تكون قاسية أو تصيب الوجه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اضربوا النساء اذا عصينكم فى معروف ضربا غير مبرحة » .. فان فاءت المراة الى الطريق القويم فليس للرجل ان يتمادى فى المعاقبة وليتذكر قدرة الله عليه فان الله هو العلى الكبير .

والجهة الثانية من جهات الاختصـــاص هى الجيرة القريبة أو اهل الزوجين . فلهم أن يتدخلوا ليحولوا دون انهيار الاسرة ، قال تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٣٥ سورة النسـاء) .

والجهة الثالثة هى المرأة نفسها فحق لها أن تدافع عن نفسها وكيانها ، فقال تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صـلحا والصلح خير واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (١٢٨ سورة النساء) .. فاذا لم تفلح الجهـــود ولم تنجح المساعي وجاءت الضرورة تحتم ما هو أبغض حلال عنـد الله ، أى الطلاق ، كانت المرأة فى خاتمة المطاف غير مضيعة الحقوق ولا مهانة الكرامة .. ان كلا منهما ينال رفده من فضل الله ، قال تعالى : « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسـعا حكيما » (١٣٠ سورة النسـاء) .

وللحفاظ على الاحساس المتفتح للحياة فى نفس المرأة فان الطلاق يكون تسريحا جميلا ، أى فراقا جميلا ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميـلا » (٤٩ سورة الاحزاب) .. ويكون الطلاق حسنا فى المعاملة فلاسباب أو لعن ، ولا تسليم بالحقوق على كره ومضاضة، قال تعالى : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسـان » (٢٢٩ سورة البقرة) .. أما حقوق المرأة

فليس للرجل ان ينتزع منها ما تشتهيه نفسه رغم انفها ، قال تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » (٤ سورة النساء) .. وحتى لا تبقى فى نفس الرجل نفثة من غل لحرص المرأة على مالها وعدم تفريطها فى شيء منه لزوجها فقد قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (١٩ سورة النساء) .. ولا يحق للرجل أن يقتنص من الزوجة شيئا بعد الطلاق ، قال تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا اتأخذونه بهتانا واثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » (٢٠ ، ٢١ سورة النساء) .

وكذلك جاء نظام الاسرة فى الاسلام .. فيه تصفية وتزكية لمعانى الاحساس بالجمال .. وكذلك الاسرة القوية : انها روح المجتمع ونفسيته ونظامه ومبادئه .

***

— ٣ —

المجتمع

هل هناك علاقة بين النظام الاجتماعى والاحساس بالجمال ؟ والى أى مدى يستطيع المجتمع أن يطبع خصائصه وقيمه الجمالية فى نفس الفرد ؟ .. واذا قلنا قيما جمالية فهل هى قيم كلية ؟ أم انها قيم طبقة معينة لها القدرة على بسط ذوقها وتقاليدها على كافة طبقات

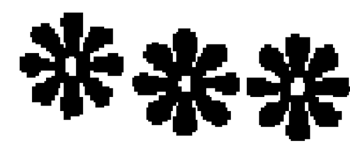
المجتمع ؟ واذا كان للمجتمع دوره فى تربية الاحساس بالجمال عند الفرد ، فالى أى مدى يمكن للفرد أن يسهم فى خلق الاحساس الاجتماعى بالجمال ؟

فما هى الاسس التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى وفق شريعة القرآن الكريم بحيث يحق لنا أن نقول عنه انه أجمل نظام اجتماعى عرفته الانسانية ولن تعرف ما هو أجمل منه فى مستقبلها ؟ وما هو مدى قدرة هذه الاسس على بعث الاحساس بالجمال فى نفس الفرد ؟ وما هو مدى الحرية التى تهيئها للفرد لكى يسهم بامكاناته اسهاما جماليا فى البناء الاجتماعى اعمارا وتأصيلا ؟

ان أولى مواد الدستور القرآنى التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى ، هى الطاعة ، يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (٥٩ سورة النساء) .. ان الطاعة تبدأ بطاعة الله سبحانه لانه خالق كل شىء واليه يرجع الامر كله فطاعته اقرار بالعبودية أولا ثم اقرار بشريعته ثانيا .. فمن يؤمن بالله يؤمن بما جعله للناس من شريعة يعملون بها ويهتدون . لذلك كان لابد من طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم لانه ما جاء الا بهذه الشريعة ، شريعة التوحيد .. وهذا يفضى افضاء منطقيا الى طاعة أولى الامر أو القادة .

والقيادة فى الاسلام لا تقف عند حد القيادة العليا للدولة بل انها تتدرج وتتدرج حتى تصل الى أصغر وحدة من وحدات المجتمع . فالطاعة هنا واجب وفريضة بغير خنوع العبودية وذلة الامعية . ومع هذا فان شريعته

سبحانه وهى تدرك حقيقة الفطرة تفترض وجود اختلافات فى النظر والعمل يمكن ان تتحول الى تناحر يضيع فيه المجتمع تمزقا بين الشيع والاحزاب .. وتجنب مثل ذلك المصير لا يكون بالجدل المنبعث عن هوى شخصي ولكن بالاحتكام الى الله ورسوله .. وانها لدلالة عظيمة المعانى حين يصف الحق سبحانه الرجوع اليه بانه خير وجمال ، فيقول : « ذلك خير وأحسن تأويلا » .



والمادة الثانية من مواد الدستور القرآنى هى امانة الحكم ، يقول سبحانه : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا » (٥٨ سورة النساء) .

وهذه المادة جاءت متكاملة مع المادة الاولى ، فالله سبحانه قد أوجب على خليفته فى الارض طاعته . ولما كانت الخلافة أمانة كان من الضرورى أن تتحقق الطاعة فى أداء الامانات .. وازاء « الامانات » ينصرف الفكر اول ما ينصرف الى امانة المال ولكن الامر يتسع كى يشمل كل عمل يؤديه الفرد فى المجتمع . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالامام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم ، والمراة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

والامانة بهذا المفهوم تتسق وتتناسب مع ما جاء بعدها من أمانة الحكم التى افردتها الآية الكريمة بالذكر ، فقال

سبحانه : و«اذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .. والامر بالعدل فرض على الحاكمين أن يشيعوه بين « الناس » ، سواء من آمن منهم بالاسلام أم كان على غيره ، وسواء كان عربيا أم كان أعجميا .. ثم تعقب الآية على أداء الامانات والحكم بين الناس بالعدل بقوله تعالى : « ان الله نعما يعظكم به » ، أى أن هذه الاركان التى يقوم عليها المجتمع الصالح هى أحسن ما يمكن أن تؤدوه وأجمل ما توعظون به .. ثم تأتى الفاصلة : « ان الله كان سميعا بصيرا » ضابطا يضمن الحرص على أداء الامانة والاحسان فى أدائها ..

وللحكم مساغه فى أفواه الحاكمين ، فحتى يكون الحاكم عادلا فى حكمه فان القرآن الكريم يهدى الفطرة ويبصرها فيقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » . (١٣٥ سورة النساء) .

ان هذه الآية الكريمة تنادى الفطرة فتصور لها باطنها وما فيه من دوافع وأهواء وأفكار تصويرا حيا يدرك به الانسان أنه يشارك فى صنع مجتمعه وذلك هو لباب الخبرة الجمالية . فالحق سبحانه يخاطب الذين آمنوا فيقول لهم : « كونوا قوامين بالقسط » .. وهذا أمر وتكليف أن يكون المؤمن قواما .. حاكما بالعدل .. والقوامة ولاية بصيرة تميز بين الزائف وبين الصحيح .. وبين المدعى بالحق والمدعى بالبهتان ، فعلى امانة العدل أن تمحص وتتثبت قبل أن تصدر كلمتها ، وعلى الذين يحكمون بالعدل أن يكونوا : « شهداء لله » لا شهداء

لمذهب من مذاهب الاجتماع وبذلك يتصل ظاهر الانسان وباطنه بالله سبحانه . وتسير الآية الكريمة مع الطبيعة البشرية فى درجات حبها وتفضيلها كى يكون الحكم خالصا لله لا لقريب أو غنى أو فقير .. ولذلك فقد جاءت الفاصلة منطقية مع قضية الحكم وما يدور حولها فقال سبحانه : « فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

***

والمادة الثالثة من مواد الدستور القرآنى هى قاعدة المال والاقتصاد .. فالمال هو احدى الشهوات البشرية الاساسية ، يقول سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (١٤ سورة آل عمران) .. والمال متعة للنفس وزينة للحياة ، يقول سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥٦ سورة الكهف) .

والدنيا — أو المجتمع — لا تكون فى كامل جمالها اذا تراكمت زينتها فى ناحية دون أخرى . من اجل هذا فان القرآن الكريم يضع للمجتمع الاسس الاقتصادية التى يصبح بها البناء الاجتماعى متكاملا ومناسبا فى تكوينه وهيئته .. وأول هذه الاسس الا يكون المال مركوزا فى أيدى الاغنياء وحدهم يتوارثونه أو يتقاسمونه : فقال سبحانه : « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » (٧ سورة الحشر) .. فالراسمالية اذن تتحطم كى ينتفع المجتمع كله بالمال لكنها لا تتحطم بتجريد الاغنياء من كل ما يملكونه فالاسلام يبقى لهم ثمرة سعيهم ويأخذ منهم فى الوقت نفسه حق الفقراء الذين حالت أحوالهم دون السعى والمجاهدة ، قال تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »(٢٤ ، ٢٥ سورةالمعارج)..

فالحق هنا حق « معلوم » تحدده ظروف المجتمع واحتياجاته وتحتمه ضرورات العمل على حفظ التعادل المالى والتوازن الاجتماعى بين الطبقات .

والحق المعلوم يكون « للسائل والمحروم » .. والمعنى القريب « للسائل » أنه من يطلب من الناس احسانا اعطوه ام حرموه .. ولكن المعنى يتسع الى ما هو أعم وأشمل : فطلاب العمل من المتعطلين ، وطلاب العمل من الشبان الذين أتموا دراساتهم وتدريباتهم وأصبحوا مؤهلين علميا وفنيا لتولى الاعمال التى يكتسبون منها معاشهم .. هؤلاء جميعا من السائلين الذين يطلبون حقهم فى الحياة الشريفة .

والى جانب هذا فالاسلام يحض على الانفاق صدقة للمحرومين الذين حدد فئاتهم وأحوالهم ، فقال سبحانه: « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٦٠ سورة التوبة) .. ولعظم خطر الانفاق فقد ورد فى القرآن الكريم مقرونا بالله والصلاة ؟ فقال تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » (٣١ سورة ابراهيم) .

ويأتى القرآن الكريم بفضيلة الانفاق فى سبيل الله فى صورة جمالية تجمع فى تناسب وتناسق بين حياة النفس فى آمالها وتطلعاتها وحركاتها التى تنشىء بها واقعها وبين نبات الارض وهو ينمو وضاء بجمال ثماره ، يقول سبحانه : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها

وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » (٢٦٥ سورة البقرة) .

ان هذه الآية الكريمة تصور المعاني النفسية التى يمتلىء بها القلب المؤمن بالله ، ان المؤمن يبذل المال عن طواعية لأنه يتشوق الى ما هو أخلد واجمل ، انه يتشوق الى رضاء الله .. وهذا الرضاء النفسي الذى يغمره هو لباب الاحساس بالجمال الذى يملؤنا حين نشهد جنة من جنان الارض فوق ربوة تبوح بخيرها لاقل همسة من همسات الطبيعة . فان زارها مطر غزير جادت بخيرها ضعفين .

ولك ان تتصور حركة المطر فى غزارة هطوله وما يكون عليه الجو العام للطبيعة . فهذه اللحظة وحدها خليقة بابداع الفنان القدير الذى يصورها فيأتي بها لوحة تجسد جمالها .. أجل وتجسد نفس المؤمن الذى ينفق ماله فى سبيل الله .. ولكن الكلمة القرآنية هنا تجسد هذه اللحظة وتدخل الانسان طرفا فيها فيعانيها معاناة المشاركة الحيوية فاذا الاحساس بالحياة احساسا بالجمال غايته الكبرى أن يحيا فى تناسق جمالى وتآصر انسانى غير ضنين بحبه على الناس .. ذلك لان الضنانة نضوب فى العاطفة فهى الكفر الصراح ، قال تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٣٧ سورة النساء) .. ثم يوحد القرآن الكريم بين الايمان بالله والانفاق فى سبيله ويذكر الكنود بأنه انما ينفق من رزق الله ، فكيف يبخل وهو لا يملك ان يرزق نفسه ؟ .. يقول سبحانه : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » (٣٩ سورة النساء) .

والمادة الرابعة من مواد الدستور القرآني هي مادة التعامل التجاري والمالي بين الناس . واذا كان الاسلام يقرر الاصول التي يجب أن تكون عليها العلاقات التجارية والمواثيق المالية التي تصان بها الحقوق ، فاننا نكتفي هنا بالقاعدة العامة فهي تعطي صورة صادقة للروح الاسلامية . هذا فوق ما للآية الكريمة من قدرة اعجازية في تجسيد الدوافع النفسية التي تنشأ أثناء التعامل المالي ، يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » (٢٩ سورة النساء) .

ان الآية الكريمة تبدأ بنداء الحب : « يا أيها الذين آمنوا » ، لتذكر المؤمنين بأنهم وقد آمنوا بالله ربا واحدا فان عليهم ان يكونوا امة واحدة لا ينفذ اليها داء التباغض .. وبعد هذا النداء يبدأ المشهد الاول من صراعات الحياة ، فيقول سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » .. ان هنا أناسا يتراكضون وقد فغروا أفواههم الجوعى لشهوة المال وتدافعت ايديهم في شراسة نحو الغنيمة كل ينهش نهشة بينما الصرعى تحت الاقدام يئنون حسرة .. تلك صورة من صور الصراع المالي حين يكون التضليل هو القانون الذي يحتكم اليه الناس .. ثم يأتي المشهد الثاني في قوله تعالى : « الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .. ومشهدنا هذا يصور النفوس الراضية في معاملاتها .. ثم يأتي المشهد الاخير لتأكيد التذكير فيقول سبحانه : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، فهاتان الكلمتان تصوران أناسا يلقون حتفهم بين مضانك العذاب النفسي الذي تفجره صراعات المال .. ثم يسدل الستار

بلمسة حانية على النفوس المتهالكة فتردها الى الاطمئنان، فيقول سبحانه : « ان الله كان بكم رحيما » .



والمادة الخامسة من مواد الدستور القرآنى هى مادة القوة .. فمنطق الايمان بالله كما جاء به القرآن الكريم يفرض على الانسان أن يتناول شريعة الحياة بقوة فيعالج تكاليفها وفرائضها بقوة .. فشرط القوة هو الامر الذى كلف به المؤمنون ، قال تعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٦٣ سورة البقرة) .. وهو عين الشرط الذى كلف به الرسول صلى الله عليه وسلم حين بشر برسالة القرآن الكريم . فقال سبحانه : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » (٥ سورة المزمل) .. ان القرآن الكريم قول ثقيل ، وثقله فى تكاليفه وما توجب به من جهد وجهاد .. انه القوة التى يريدها الله لعباده بغير أن تكون قوة تعصب تضيع بها الحقوق .. قوة بناء للعقول وتربية للنفوس وتشييد لعمارة الاجتماع الانسانى .. ثم هو قوة حفاظ على الكيان الفردى والاجتماعى بغير أن يطغى أحدهما على الآخر .

وهذه القوة اذ ترفض التعصب والتهور فهى أيضا ترفض الممالأة أو التسليم بما يقال له الامر الواقع ، وتطالب الانسان بأن يعطى من ذات نفسه وعقله وماله ما يدعم رسالته ويعينه على تحمل المسيرة .. ولما كان البناء الحضارى فى الاسلام يقوم على الايمان بالله .. وحده فان هذا الايمان يفرض على الانسان ان يصون امانة التوحيد عقيدة وبناء حضاريا بالقوة التى تردع العدو وتقمع التآمر . لهذا كان من الضرورى أن تعد القوة التى تقف يقظة متأهبة ، يقول سبحانه :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (٦٠ سورة الانفال) .

وقوة الايمان لا تخيفها قوة العدو ، انما تزداد اصرارا على النضال فى سبيل الحق : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (١٧٣ سورة آل عمران) .. اذن فالقتال فريضة على الانسان ، يقول سبحانه : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢١٦ سورة البقرة) .. ولذلك فقد جعل سبحانه فريضة الجهاد قرينة التقوى والعمل الصالح ، يقول سبحانه : « اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله » (٣٥ سورة المائدة) .

الا ان الجهاد فى سبيل العقيدة انما هو الجهاد فى سبيل الحياة ، يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (٢٤ سورة الانفال) .

***

والمادة السادسة من مواد الدستور القرآنى تتعلق بوقاية الامة شر الفتن التى تشطرها شطرين متعادين .. فالاسلام يضع القاعدة التى لا تترك ثغرة تنسرب منها تأويلات المرجفين ، يقول سبحانه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله

فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين » (٩ سورة الحجرات) .

ان المفهوم العام لهــذه الآية الكريمة يؤكد ان سلامة الامة هو فى اعتصامها بالله الواحد . . اما اذا نزل البلاء وانقسمت الامة على نفسها كان على صلحائها أن يتقدموا بالــكلمة الحسنة التى تستل ما بالنفوس من اســباب التعادى ، يقول سبحانه : « ومن أحســن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » (٣٣ سورة فصلت) .. اما اذا ضاعت جهــود الصلح بين صيحات الشر فانه لابد من اخماد الشر واقتلاع جذوره بمقاتلة الطائفة الباغية حتى ترعوى فترجع الى امر الله بالاحتكام الى شريعته .



والمادة الســــابعة من مواد الدستور القرآنى خاصة بالآفات النفسية الفردية والاجتماعية وكيفية معالجتها.. فمن هذه الآفات :

* أولا : آفة الحسد .. فلما كان الحسد آفة وبيلة تدفع المرء الى ان يظل متقيح النفس على الغير فان الله ســبحانه ينهى عن التمنى الانانى فيقول جل شــانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » (٣٢ سورة النساء) .. والحسد فى حقيقته هدم لكل قيمة كريمة ولذلك تنوعت وسائله ، يقول سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١٠٩ سورة البقرة) .

* ثانيا : آفة سرعة تصديق الشائعات .. وخطرها

أنها تسرع باشعال العداء بين أبناء الامة والاسلام حريص على أن يكون سائدا مرعيا ، قال سبحانه : « انمـــا المؤمنون اخوة » (١٠ سورة الحجرات) .. فعلى المسلم أن يتثبت من صحة مايسمع من أخبار فقد تكون صادرة عن فاسق يبغى الوقيعة ، قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قـوما بجهـــالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٦ سورة الحجرات) .. أما اذا كان الخبر مما يمس مصير الامة لا سيما اذا كانت فى حرب مع عدو للاسلام فان على كل فرد الا يهرف بتناقل الاخبار فيتفنن بها متعالما ، بل عليه ان يفعل ما امره الله به ، قال تعالى : « واذا جاءهم أمر من الامن أو من الخوف اذاعو به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهـــم » (٨٣ سورة النساء) .

* ثالثا : آفة الظن السيىء وما يدورفى فلكه من تجسس وغيبة .. يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » (١٢ سورة الحجرات) .

* رابعا : آفة الجهر بالقول السيىء .. فالقول السيىء من الاسباب التى تقطع ما بين الناس من صلات التواد والتراحم ولذلك كان بغيضا الى الله سبحانه ، قال جل شأنه : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » (١٤٨ سورة النساء) .. والقول السيىء قد يكون شتائما تثير نوازع الشر ويمزق الفة الاخاء بين المؤمنين . لذلك فان الاســلام يعد القول السيىء من فعال من لايؤمن بالله أما المؤمن فهو كما وصفه رسول الله صلى الله وسلم فقال : « ان المؤمن ليس بالطعان ولا اللعـــان

ولا الفاحش ولا البذيء » .. وأذا كان الايمان بالله يقترن بالكلمة الحسنة ، قال تعالى : « وقولوا لله حسنا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. والقول الحسن استدامة للود وتصفية للتراحم مما الم به من كدر ، قال صلى الله عليه وسلم : « الكلمة الطيبة صدقة وان من المعروف ان تلقى اخاك بوجه طلق » .

* خامسا : آفة التخاصم .. والتخاصم هو الداء الذى يخشى منه على ذات الفرد وعلى الصلات الحيوية القائمة بينه وبين الغير ثم على البناء الاجتماعى كله ..

اننا حين نشاهد لوحة ابدعها فنان عبقرى فانها تستحوذ على وجداننا ونتأملها فى نشوة جمالية . فاذا سئلنا بعد ذلك عما اعجبنا فيها فاننا نعلل اعجابنا بما فيها من الانسجام بين الاضواء والظلال والالوان وما تعبر عنه وترمز اليه .. وكذلك ما بين الاجزاء من تناسب وتناسق وتكامل ونكاد نجمع مهما تخالفت بيننا المشارب والاذواق بأننا أمام عمل متكامل فلا شذوذ فيه ولا تنافر .

ولا تخرج صورة المجتمع ولا صورة الامة على هذا المبدأ الجمالى .. فالامة لا تبدو فى صورتها الجميلة ما لم تكن متآلفة متآزرة .. والمجتمع لا يظهر جميلا ما لم تتناسق تحركات طوائفه وطبقاته . والفرد لا يصبح فى صورة انسانية واجتماعية جميلة ما لم يوازن بين الشعور واللاشعور .. بين جوعات الغرائز النهمة وبين آداب الاجتماع .. بين الأثرة الكالحة وبين الايثار النضر الرخى .. ويأتى النداء الالهى للوعى الاسلامى بهذه الصورة تبصرة وذكرى ، يقول سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ

كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (١٠٣ سورة آل عمران).

* سادسا : آفة الاستهزاء وما يتصل بها من سخرية وتلامز وتنابذ .. والاستهزاء فى حقيقته استهانة بالاقدار والاستهانة بالاقدار باب يلج منه الظلم الاجتماعى فتضيع الحقوق وتطيش حركات الاصلاح .. لذلك فقد جاء هذا النداء الالهى للجماعة المسلمة ، فقال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١١ سورة الحجرات) .

ان هذا النداء الالهى يحض الانسان على ان ينظر الى من حوله باحساس الجمال وعلى أن يكون احساسه مرآة لاخيه ان راى فيها شيئا يعكر رونقها فليرفعه منها ، قال صلى الله عليه وسلم : « أن أحدكم مرآة لاخيه فاذا وجد فيها شيئا فليمطه » .. ان عليه اذن الا يكون لحاظة للعيوب ، قال عليه السلام : « يبصر احدكم القذا فى عين اخيه ويدع الجذع فى عينه » .. اذن فعليه الا يؤذى احساسه ولو بنظرة ، قال عليه السلام : « لا ينبغى لمسلم ان يشير الى اخيه ولو بنظرة تؤذيه » .

***

فما الذى يجب على المؤمن أن يعمله ازاء افتراءات اللعن والخصام والسخرية؟ هل يبادل افتراء بافتراء لا .. انه ان فعل ذلك فانه يكون قد القى فى نار العداوة

بوقود جديد .. ان الله سبحانه يعطينا العلاج الذى يقينا شر هذه المجاراة او المبادلة علاجا لنفوسنا وسلاحا ندرا به لدد الافتراء والعداء .. والعلاج هو ما جاء به قوله تعالى : « والكاظمين الفيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (١٣٤ سورة آل عمران) .

وكظم الفيظ صبر ، فكيف يكون الصبر ؟ .. وقد يؤدى كظم الفيظ الى الهجر ، فكيف يكون الهجر ؟ .. والعفو تسامح وصفح ، فكيف يكون الصفح ؟

ان كظم الفيظ صبر على تقولات السوء — او فعل السوء يجدر الا يتحول الى مصابرة انتقامية تتحين لها الاوقات .. انه يجب أن يكون صبرا جميلا ، قال تعالى: « فاصبر صبرا جميلا » (٥ سورة المعارج) .. والصبر لا يكون جميلا اذا كان قصاراه مظاهر التجلد ومافيها من اصطناع للوقار او ان يكون من مظاهره تجلد تصحبه مفاكهة وكأن ما حاق بالانسان مجرد تحصيل حاصل : والحالتان ليستا من الصبر الجميل فى شىء .. ان الصبر يكون جميلا اذا احدث نوعا من التوازن النفسى الذى لا يجمع مع الفضب ولا يتقاعس عن ازالة ما رمى به من ضير . والانسان يستطيع أن يتبع هذا الطريق ما لم يعتصم بالله ، فالاعتصام به سبحانه يعصم ذات المرء من أن تنزلق فى طباع الدهماء الذين لا يستحون من التلفظ ببذىء الالفاظ ولا يجدون حرجا فى تناول مسائل العورات بأسلوب مسف لا خجل فيه ولا حياء .

وفضلا عن هذا فان للصبر الجميل ردوده الانفعالية فى نفس من يوجع الفير بألفاظه . والردود الانفعالية للصبر الجميل كثيرة ، فمنها ان المتجنى قد يدرك هباء

ما يقول فكيف عن افكه افلاسا وســـأما .. وربما يلح الصبر الجميل على ضميره فيوقظه من غفلته ويوقظ معه نشاط عقله فيفكر فيمـــا اجترم فى حق الاخاء الاسلامى فيتوب الى الله .

والصبر الجميل صبر على المكروه . والصبر على المكروه هجر له واحتفاظ بالبعد الذاتى الانسانى كمـا أراده الله نقيا فى غير تجبر أو خيلاء .. وهذا هو الهجر الجميل الـذى جمع القرآن الـكريم بينه وبين الصبر الجميل فى قـوله تعـالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (١٠ سورة المزمل) .

وماذا بعـد الصبر الجميل ؟ .. هل يظـل الصبر هجرا ؟ .. هـل يتطرف البعـد الذاتى ليصبح قطيعة واعتزالا ؟ .. ان الله تعالى يقول : « انما المؤمنون اخوة فأصـلحوا بين أخـــويكم » (١٠ سورة الحجرات) .. وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .. ولا يكون اخاء أو سلام بغير العفو والتجاوز ولكن من الناس من يتجاوز ويعفو تناسيا وتبقى نفســـه متشبثة بأسباب العداء القديم . لذلك كان من الضرورى أن يقترن العفو بالصفح ، قال تعالى : « وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم » (٢٢ سورة النور) .. وهذا هو صفح السلام والوئام أو الصفح الجميل ، قال تعالى : « وان الســاعة لآتية فاصفح الصفح الجميـل » (٨٥ سورة الحجر) .

الظواهر الحضارية

ا ـ الحضارة القرآنية

ان الكون لم يخلق للعب واللهو ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، قال سبحانه : « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا انا كنا فاعلين » (١٦ ، ١٧ سورة الانبياء) .. وعلى هذا فان سبحانه لم يخلق الناس عبثا وللعبث ، قال تعالى : « افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (١١٥ سورة المؤمنون) .. لكنهم خلقوا للعبادة ، قال تعالى : « وما خلقنـــــا الجن والانس الا ليعبدون » (٥٦ سورة الداريات) .. فهل هناك صلة بين اللعب واللهو وبين العبث ؟ .. وما هى علاقة اللعب والعبث بالبناء الحضارى ؟ وما هى اثر هذه العلاقة على الاحساس بالجمال ؟ .

ان العبث دمار فيه تستهلك الذات نفسها فى هوى ضال ، فالعابث يسير حسبما تقـــوده نوازعه ضاربا الصفح عن كل تقليد ونظـام .. ويظن الكثيرون أن اللعب عبث ولكن الحقيقة على غير هــذا تماما ، فللعب نظم

وقوانين لها مقتضياتها فى الجسم والخلق كما أن لهـا آثارها الطيبة على العلاقات الاجتماعية بين الناس .

فلننظر فى لعبة الحياة وكيف قدرها القرآن الكريم وكيف وصفها وعلاقة كل من التقـدير والوصف باثارة الانفعال بجمال الحياة . . .

يقول سبحانه : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد » (٢٠ سورة الحديد) .. فى هذا القول الكريم تجتمع الصفات الخمس للحياة الانسانية : فهى لعب له أنواعه فى العلم والفن وكذلك فى السياسة والاقتصاد ولكل نوع شكوله واهدافه ونظمه وتقـاليده .. ويأتى بعد اللعب اللهو ، واللهو انصراف وانشغال فحين تكون الدنيا لعبا فانهـا تكون صارفة للانسان عن غيرها فاذا أوغل فيها واستغرق اصبحت من ثم لهوا .. والحياة الدنيا زينة يزدان فيها المرء ويتجمل بالشباب والثياب والمناعم التى تخرجهـا الارض .. والزينة تسلم الى التفاخر بالعـز والسلطان والنسب واللون .. ويأتى بعد التفاخر التكاثر فى الاموال والاولاد ، أى التباهى بالغنى والثروة وكثرة الاولاد . فاللعبة هنا لعبة جميلة ، واللهو هنا لهو جميل يغرى بغير شك ويضلل بغير شك ويفسد بغير شك وذلك اذا اخذت اللعبة لذاتها فعمل الانسان لها وحدها .

ولكى يشهد القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيـا أو اللعبة الوجودية للحيـاة فانه يصورها له فى طبيعتها الذاتية فيقول سبحانه ان الحياة الدنيا : « كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شـديد ومغفـرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (٢٠ سورة الحديد) .

ان القرآن الكريم يصور الحياة الدنيا فى مشاهد حية تتمثل فيها نضرة الحياة وسرعة أيامها ثم انتهاؤها الى ما لا غناء فيه .. وانها لآيات من الجمال فى التصوير والجمال فى التعبير .. فالحق سبحانه يقول : « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » .. فها هنا حركة سريعة تمثل الحياة فى ومض ازدهارها وهذه السرعة تمثل النفسية الكافرة التى يعجبها البهرج فهى عجولة متسرعة لا أصول لها تمسكها وتثبت قواعدها .. ثم تزهو الدنيا فى أعين الكافرين كهيجان النبات عندما يبلغ تمامه فى الازدهار والاثمار ، ثم يصير الى الوهن والذبول .. ثم يصير الى العدم : « ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » .. وهكذا من يتشبثون بالدنيا ويعملون لها وحدها انما يتشبثون بحطام لا غناء فيه لانه يدفعهم الى الافساد دفعا فكان جزاؤهم فى الآخرة : « وفى الآخرة عذاب شديد » .. أما الذين لا تلهيهم الدنيا انما يجعلون منها طريقا الى الله فلهم : « ومغفرة من الله ورضوان » .. ثم تأتى الفاصلة لتؤكد حقيقة الدنيا التى صورت فى أول الآية الكريمة فيقول سبحانه : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

ويصور القرآن الكريم مآل الاندفاع وراء المتع المادية بلذاتها وجمال زخارفها فى مشاهد من الطبيعة الحية تصور جمال الدنيا وامد هذا الجمال بما يؤكد خطورة وعبث الاتجاه المادى حين يصبح هو غاية الناس وعقيدتهم ، يقول سبحانه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها اتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها

حصيدا كأن لم تغن بالامس كـذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (٢٤ سورة يونس) .

نحن هنا امام مشاهد متتابعة غنية بالحركات التعبيرية الحية التي تنطق بالصور الكلية .

ومن هذه الصور الكلية صورة الارض من قبل ان تنبت ومن بعد أن يخرج نباتها ويجسدها قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام » .. فكل صورة من هذه الصور تمثل مرحلة من مراحل الخلق والابداع لها جمالها فى العين وبهجتها فى النفس .

ثم يلى ذلك قوله تعالى : « حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت » .. فالارض هنا قد بلغت الذروة فى الزينة والجمال .. حتى أصبحت وكأنها كائن عاقل جفى بالزينة كلف بالجمال . وتلك دلالة جمالية تسرح بالخيال الطموح الى أروع ما يحلم به الحالمون من نعيم الدنيا وأبهتها .

والمشهد الثالث يمثله قوله تعالى : « وظن أهلها انهم قادرون عليها » .. والظن هنا ضلال يخيل للانسان انه صار بعلمه وعمله قادر على أن يغير وجه الارض فيزينها بما يشاء كيف يشاء ولا يظن ذلك الظن سوى من استهاموا بالدنيا .. والمشهد الرابع يمثله قوله تعالى : « اتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس » .. ان الحركة هنا سريعة خاطفة لم تكن أحداثها فى حسبان اللاعبين واللاهين . فالامر يأتى ليلا أو نهارا بانقضاء ذلك المتاع ، لكن فى أية لحظة أو على أية صورة يأتى ؟ ذلك انذار رعيب لا يسلم فيه الخيال من الوجل .

وانها لمشاهد للحياة الدنيا فى اعمق لحظاتها وابهى حالاتها واقسى خاتمة لها وفى جميعها يمتزج الاحساس بالجمال بالتفكير ، قال تعالى : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

والدلالة الكبرى التفكير هنا ان العمل للدنيا ما لم تضبطه شريعة التوحيد فلن يكون سوى جمال سرابى ينتهى الى انهيار حضارى محتوم .



وللوقاية من الانهيار الحضارى فان القرآن الكريم يحذر من الاغراق فى شهوات الدنيا وزينتها .. انه يحذر بالتزهيد فيها وليس بالتبغيض لما هى عليه من جمال ذلك لان التشويه والتبغيض يفتحان الباب للشكوك والظنون ويخلقان نفسية حائرة بين الواقع وبين الدعوة الى استحقار الدنيا وزينتها . ولهذا جاء القرآن الكريم بالتزهيد ضبطا للمشاعر والدوافع وحفظا لصحة الجسم والنفس والضمير وكذلك رجاء فيما وعد الله به عباده الصالحين ، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون » (٣٢ سورة الانعام) .. وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (٦٤ سورة العنكبوت) .. اى ان الحياة الحقة هى حياة الآخرة .. وهنا يطالب القرآن الكريم الانسان بأن يحكم عقله وعلمه كى يدرك حقيقة كل من الدنيا والآخرة .

الا أن الدنيا جميلة .. ولكن جمالها لا يتم ولا يصان من التبذل بغير العمل وفاق شريعة التوحيد وذلك

ما حض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال : « ان الدنيا حلوة خضرة وان الله استعملكم عليها فناظر كيف تعملون » .. ولذلك فانه عليه السـلام حذر المسلمين من أن يسلموا عقولهم ونفوسهم لحلاوة الدنيا وزخرفها .. لقد حذر عليه السلام من جمالها بغير أن يشوه هذا الجمال فقال : « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من زهرة الدنيا .. قالوا : « وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الارض » .. فهل يمكننا أن نقول أن بركات الارض هى سبب التناحر بين الافراد والجماعات والامم ؟ نعم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم وانما أخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

وللنجاة من ذلك المصير فان على المسلم أن يجعل هواه أو دوافعه الفطرية وشهواته مسيرة بشريعة الفطرة ذاتها فان ذلك من تمام الايمان بالله ، قال عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وفرق بين الدعوة الى الزهد والدعوة الى التشاؤم .. فالتشاؤم فى ذاته لا يخدم قضية الوجود الحضارى الذى يرتكز على الارادة الانسانية التى لابد لها من أن تقف من الحاضر وقفة حازمة وأن تقف من المستقبل فى غير خشية أو تردد .. ان التشاؤم لا يعين الانسان على يومه ولا يملأه أملا فى غده ولا يربطه بأمسه بما يحيى أصوله . وهو كذلك يشوه الوجود ويحيل الانسان الى كائن متمرد على معيشته بل والحياة كلها وربما جمح به التشاؤم فصار كفرانا وتجديفا ..

ولكن الاسلام يجنب الانسان فتنة التشاؤم بأن يربيه على الايمان بالله وحده وان الامر كله اليه ، قال تعالى : « والى الله ترجع الامور » (٤٤ سورة الانفال) ... ويربيه على تقدير العمل ، قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (١٠٥ سورة التوبة) .. ويربيه على حب الحياة ، قال تعالى : « وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما » (١٢٩ سورة النساء) ... ويربيه على حرية الارادة ، قال تعالى : « ان هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٣ سورة الانسان) .. وذلك في حدود المشيئة الالهية ، قال تعالى : « وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين » (٢٩ سورة التكوير).

وازاء صروف الزمان فان الاسلام يربى الانسان على الصبر عند وقوع الكوارث وذلك حتى لا يضطرب ايمانه ويتشكك عقله ، قال تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (١٥٥ ، ١٥٦ سورة البقرة) .

وان منطق هذه التربية ليؤكد ان الاسلام لا يحرم على الانسان أن يستمتع بما في الحياة من أسباب النعيم ومظاهر الجمال .. فالله سبحانه لا يحرم على عباده طيبات ما خلق لهم ، يقول جل شانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين » (٨٧ سورة المائدة) .. ان سبحانه ينهى الانسان عن أن يحرم ما أحله له فيقتر على نفسه أو يقمعها عما تميل اليه مما يفسده على ذاته وعلى مجتمعه . والطعوم من المتع التى يطلبهـا الانسان ويحرص عليها

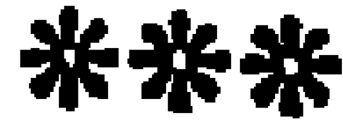
ويفتن فيها ، فسبحانه يحلها له فيقول : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » (٨٨ سورة المائدة) .

ومن اطايب الطعوم الى الزينة التى لم يحرمها الله على عباده .. وانه لآثم قلبه كل من يسعى الى تحريم الزينة على النـاس بدعوى الدين فذلك جهل وضلال ، يقول سبحانه : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيـامة كذلك نفصل الآيات لقـوم يعلمون » (٣٢ سورة الاعراف) .. فى هذه الآية الكريمة يفرض الله على الانسان الا يحـرم على نفسـه أو غيره الزينة التى أخرجها سبحانه والا يحرم الطيب من الرزق الذى خلقه له . وان فى قوله تعالى : « زينة الله التى اخرج لعباده » ، تأكيد قوى على أن سبحانه يحب أن يرى عبده مستمتعا بزينة الحياة فلا يحرمها على نفسه أو يحوزها دون غيره فهى — ومعها الطيبات من الرزق — لعباد الله اجمعين فلكل انسان حقه فيها لا يحرم منه ولا يجار عليه فيه .

الا المؤمنون فان لهم — بفضل أيمانهم — منزلة خاصة فى نوعية الزينة والطيبات ، انهـا لهم : « خالصة يوم القيامة ».. ومعنى خالصة أنها صافية لا تسبب للمؤمنين عناء أو رهقا .

وفضلا عن هذا كله وما هو أعظم فى الدلالة واعمق فى تقدير الاحساس بالجمال أنه الله سبحانه يأمر عباده الا يهملوا زينتهم وهم فى صلاتهم ، قال سبحانه : « يا بنى

آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٣١ سورة الاعراف) .



ان الأخذ بأسباب الزينة يفضي ـ مع الترقى في درجة الازدهار الحضارى الى ارتياد مواطن الترف واصطناع وسائله . والرأى الشائع بين الناس أن الترف من علامات الرقة فى الاحساس والجمال فى التذوق وحسن التعبير . ولكن الترف فى حقيقة الامر ليس على شيء من هذه المزايا ، ان هذه المزايا قرينة الرقى المنبثق من الروح الدينية الفتية المتفتحة فى أصالة وشمول .. هذه الروح التى تمنح الانسان امكانية التصاعد الحى الذى يسمو بالاحساس بالجمال فى دقة التقدير وروعة الابداع .

اما الترف فهو لا يمهد الى التسامى بالاحساس بالجمال ولا يعين عليه ، انه ليس تقدير للجمال فالتقدير للجمال يصدر من احساس بصير له نظرة شمولية قادرة على تجسيد العلاقات المتناسبة فى آيات الجمال . لكن الترف لا يستطيع التقدير والتقويم وكيف يستطيع وهو منغمس فى حمأة الشهوات الحسية التى تخلق من الانسان جسدا فارغا قد خلى من الوجدان والعقل ؟ .. ان الترف يقيد الانسان : فكره واحساسه وخياله بقيود الحس فيزينها له وفاق مواضعات العصر والبيئة ، ونعنى بالمواضعات الاعراف والتقاليد ومستحدثات الصناعة التى تدنى من متع الحياة وتضرى بلذاتها .. وحين يرغم الانسان على التشبث بقيود الحس فان هذا يعنى ان الجمال الحسى قد اصبح دنياه التى يهيم بها ويعيش لها ، ومن ثم فانه ينحدر الى حيوانية جاسدة ،

وفي هذا يقول جون ديوى : « من (١) شأن الادراك أن يكون على أحط درجاته وأكثرها غموضا حينما تكون الحاجة الفريزية وحدها هى التى تعمل .. والفريزة متعجلة لدرجة أنها لا تحفل كثيرا ولا توجه كبير عناية الى علاقتها بالبيئة » .. ثم يقول عن هذه المرحلة الدنيا أنها :

« مرحلة (٢) يتمثل فيها جمال الموضوعات الحسية وهى مرحلة خطيرة من الناحية الاخلاقية لانها تغرينا بالبقاء على هذا الوضع والاستمرار فيه . ولكننا مدعوون الى تخطى هذه المرحلة من أجل الصعود نحو جمال النفس » .

ومن ثم فان أهم ما يميز الترف أنه عقيم : عقيم فى الفكر .. وعقيم فى العلم .. وعقيم فى الفن .. وعقيم فى الاخلاق والآداب .

يقول اشبنجلر : « فاذا ما جاءت (٣) المدنية (وهى مرحلة الترف) انطفأ نور التزيين الحقيقى واختفى معها الطراز العالى فى الفن واستحال الفن حينئذ الى طائفة من القواعد الميتة والصيغ الجامدة الخالية من كل حياة . وهذا الانتقال يتمثل فى نزعتين : الكلاسيكية ، والنزعة الرومانتيكية .. الاولى عبارة عن حماسة لنوع من التزيين مات من زمن بعيد وخلا من الروح ، والثانية تقليد حماسي لا لحياة بل تقليد لحياة » .

اما من ناحية البناء الاجتماعى للأمة فان الترف يفسده ويقوضه ، ومما قاله ابن خلدون عن أثر الترف :

---

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تأليف جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ، ص ٤٣٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٣٣ .

(٣) كتاب : (اشبنجلر) ، تأليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٢٦ .

« فالترف (١) مفسد للخلق بما يحصل فى النفس من الوان الشر والسفسفة وعوائدها .. وتأخذ الدولة مباديء العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم الى أن يقضي عليها » .

ان الترف يصيب العقل بالجمود بأن يقعده عن النظر والتفكر فيما وراء واقعه أو فى واقعه ذاته وبذلك تصاب فيه طبيعة حب الاستطلاع بالعجز عن التشوف الذى هو من مقومات العلم وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم » (١٠٨ سورة الانعام) .. ومثل هذا العقل المترف الذى غلقت دونه كل منافذ الحياة يكون عقبة فى سبيل الحياة ذاتها وعقبة في سبيل الايمان بالله .. انه عقل مطبوع على الانانية الكافرة ، قال تعالى : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » (٤ سورة النمل) .

والترف يصيب الوجدان بالجحود ، والجحود كبرياء وتفاخر .. وهو آفة تصيب النسيج الاجتماعى بأخطار التناحر والصراع الحقود ، فالمترفون يدافعون عن كيانهم تلقائيا بسلاح الظلم والاجرام . فكأن الترف والظلم من جرثومة واحدة ، قال تعالى : « واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١٦ سورة هود) .. ولذلك كان جزاء المترف المتكبر رهيب ، قال تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض » (١٤٦ سورة الاعراف) .

---

(١) كتاب (مقدمة ابن خلدون) ، تاليف عبد الرحمن بن خلدون ص ١٤١

ولخطورة بوائق الترف وهى التكبر والاختيال والتفاخر وما تحدثه من تمزق فى النفس وتناحر بين ابناء الامة وكذلك لما تسببه من صد عن الحق والعلم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهد من أجل انتزاع تلك الآفات من النفوس .. فلقد روى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » . فقال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسنة . فقال : ان الله جميل يحب الجمال .. الكبر بطر الحق وغمط الناس » .. وقال عطاء الخراسانى : حدثتنى ابنة ثابت ابن قيس قالت : « لما نزلت : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » الآية ... دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يسأله ما خبره . فقال : أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون حبط عملى . فقال عليه السلام : لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير . قالت : ثم أنزل الله : « ان الله لا يحب كل مختال فخور » . فأغلق بابه وطفق يبكى . ففقده النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يسأل ما خبره . فقال : يا رسول الله انى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى . فقال : لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة » .

وليس لأحد من المخلوقين مهما أوتى من بسطة السلطان ونعيم الترف أن يدعى الكبرياء ، فالكبرياء لله وحده ، قال عليه السلام فى حديث قدسى عن الله عز وجل : « الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى

واحداً منهما القيته في جهنم ولا ابالي » .. ولا يقي الفـــرد والمجتمع من آثام الكبرياء سوى التواضع ، فالتواضع فوق أنه يؤدي الى الاســـتواء النفسي او الاطمئنان النفسي فان فيه تقربا الى الله ، قال عليـه السلام : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وآنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة » .

والاختيال كما قلنا درجة من درجات الكبرياء ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عنه غضبان » .. وقد لا يكون الاختيال بالمال والسلطان والثياب فربما كان بالشباب والجمال ، وذلك أيضا مبغوض من الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » .



وتبصرة للوعي التاريخي عنـد الانســان فان القرآن الكريم يعرض طور الترف كأخطر الاطوار التاريخية وذلك بتصويره في مشاهد مختلفة من الواقع التاريخي الذي عاشته الانسانية . يقول سبحانه : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيهـا فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عبـاده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخـرة وسعى لهـا سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » (١٦ : ١٩ سورة الاسراء) .

تضع هذه الآيات البينات المبادىء التى تقوم عليها حركة التاريخ : فالآية الاولى تقرر سبب الانهيار الحضارى ، فهى تبدأ بقوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها » .. فهذا الجزء يضع الشرط الحتمى الذى لا مهرب منه وهو أن الترف علة البلاء ولكنه فى ذاته لا يصيب وليست له فاعلية بغير الذين اصطنعوه وهم المترفون .. وسواء فهمت كلمة : «أمرنا» على أنها تعني أمراء الامة وطبقتها النبيلة ، أو تعنى أن المترفين قد أصبحوا هم الكثرة الغالبة فان هذا يدل على ان الترف قد صار مرضا فاشيا لا تؤمن عواقبه .

والترف أيا كان نوعه وطبيعته — ولكل زمان ترفه ولكل أمة ترفها — انما هو فعل واتجاه ، والآية الكريمة تعبر عن ذلك فتسميه فسوقا : « ففسقوا فيها » .. والفسوق خروج عن طاعة الله ، ومن خرج عن طاعته فقد خرج عن طريق الحياة المتجددة فى حيوية وانطلاق .. فأى مآل اذن ينتهى اليه المجتمع ؟ انه الدمار الذى لا شك فيه . وتعبر الآية الكريمة عن حتمية الدمار بهذا التعبير القوى العنيف : « فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أما الآية الثانية فتعطينا استعراضا عاما لحركة التاريخ فيها الترف عامل حاسم ، فيقول سبحانه : « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح » .. ثم تفسر هذا العامل بأنه ذنوب ولا يجر الترف وهو فسوق الى غير الذنوب : « وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » .. والآية الثالثة تحدد حقيقة الترف وهو أنه مهما بدا هائلا ضخما فهو سطحية فارغة لا يطلبها سوى الحريصين اثرة وانانية .. وهاهى ذى الآية الكريمة تصف الوجود

المترف ثم تضرب اهله ضربة رادعة تعيد اليهم رشدهم ، فيقول سبحانه : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » .. والآية الرابعة تقدم للوعي التاريخي كيفية الحركة الحضارية الصادقة فهي تصفها بأنها سعي ، والسعي هو اصرار الارادة التي لا يدركها تخاذل . فاذا كان السعي اصرارا من أجل الآخرة كان معنى ذلك انه اصلاح واعمار وفاق الشريعة التي جعلها الحق للناس منهاجا ، ووفاق العقيدة التي تقرر ان الايمان بالله شرط العمل الصالح والسعي الصالح ، يقول سبحانه : « ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

والذي لا ريب فيه ـ وقد اشرنا الى ذلك من قبل ـ أن العلاقة بين الترف والجمود علاقة عضوية محتومة وان كان الكثيرون يخدعون بظاهر الترف فيظنون انه ارتقاء ورفعة .. وان القرآن الكريم ليقدم هذه العلاقة مبينا أدق الخصائص التي تميزها فيقول سبحانه : « ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (٢٣ سورة الزخرف) .. ان الآية الكريمة تحدد الطبقة التي تتحدى دعوة الايمان بأنها الطبقة المترفة اي الطبقة ذات الحول وهي تدل على طبيعتها حين ترد على نذير الايمان رد الصلف المعتز بسلطانه فتقول : « انا وجدنا آباءنا على أمة » .. ثم يدفع المترفون بحجتهم الثانية في الدفاع عن كيانهم بما يوضح انطباع الترف على عقولهم وشعورهم ، فيقولون : « وانا على آثارهم

مقتدون » .. فهنا اعتزاز أيضا ، بل هنا اصرار وعناد هو الجمود بعينه يدل علىه أن العقل والفكر والشعور وكل خصائص الانسان قد أصبحت فى قبضة الميراث .

ومن ثم يفقد الفكر مزية التفكر الحى لانه صار حبيس القوالب والصيغ .

ويفقد الشعور مزية الاحساس الحى لانه صار عبدا للمراسم والطقوس .

وتفقد العاطفة مزية الوصال الحى مع النـــاس لانهـا فى اعتزازها بترفها وحرصها عليه قد فصمت كل علاقة تربطها بالغير سوى علاقة الخيلاء والانانية .

وكل تلك الخصائص النفسية والفكرية للترف تشملها كلمة واحدة : « مقتدون » ، فالاقتداء على هذه الشاكلة يصدف عن كل دعوة للتفتح الحضارى صدوف المدافعة والعداء المتوجس .

وتتأكد هذه التبعية التى ضل سعيها بجمودها العقلى تأكدا كاملا فى هذه الآية الكريمة : قال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعــوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (١٧٠ سورة البقرة) .



واذا كان الجمود العقلى والعاطفى هما اظهر خصائص الترف فان لهذا الجمـــــود دلالتين خطيرتين وهمـا : السطحية وفقدان الاحساس بالزمان .. أما السطحية فهى امعية الظنون والاهواء التى تقنع بالرسوم والاسماء، يقول ســـبحانه : « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٢٣ سورة النجم) .. ويتجسد فقدان الاحساس الوجودى بالزمان فى كلمة المترفين الذين يقولون : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (٢٤ سورة الجاثية) .

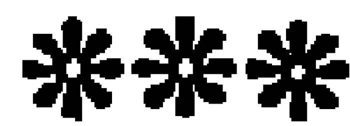
ان فقدان الاحساس بالزمان يسلب من الانسان امكانية التفتح الوجودى للحياة مما يفقد الحضارة القدرة على البقاء والاستمرار .. ومن ثم تصير دنيا الناس آلية فحسب فهم يؤمنون بأنه اذا وجدت العلة وجد المعلول ، اى يؤمنون بأن الحياة فى « تبادل المنافع » ، ولا دخل لدواعى الشعور والتعاطف . وبذلك يصير البناء الفكرى والنفسى والعقائدى متداعيا لا يقدر على الترقى بما يعمر الحياة ويصلح من شئون الناس .

ويصور القرآن الكريم البناء الحضارى الذى اتلفته المدنية والذى اتخذ من العلم والمال وشهوات الحياة الدنيا أولياء يتعبدهم ولا يؤمن بغيرهم فيقول سبحانه : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٤١ سورة العنكبوت) .

واذا كانت تلك هى حالة البناء الحضارى المترف فان الاعمال التى ترفعه وتدعمه لابد ان تكون أشد تهافتا ، يقول سبحانه وتعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء وذلك هو الضلال البعيد » (١٨ سورة ابراهيم) .. انه الضلال الذى لا يستطيع ان يقدم عملا

له قيمة انسانية لان صاحبه فارغ من خصوبة الاحساس بالجمال أو من حيوية الايمان بالله الذى يثور على الجمود والتهافت والامعية . وهذا ما ذهب اليه اشبنجلر فى (١) مقارنة له عقدها بين أخلاق الحضارة وأخلاق المدنية .

نعم ، ولذلك حذر القرآن الكريم من الترف لانه يؤدى بغير شك الى الدمار والانهيار ، فقال سبحانه : « أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون » (٨٢ سورة غافر) .



هذه هى صورة الحضارة القرآنية بحكومتها وقيادتها .. بطوائفهـــا وطبقاتها .. بأجناسها وعناصرها .. وما بينها جميعا من صلات وعلاقات .

ان كل أجزاء هذه الصورة ما اتصل منهـــا بالحقوق وما اتصل منها بالاخـــلاق والآداب متساوقة ومتناسقة ومتعاطفة فى حيوية فطرية .. فكل منها معلق المصير بمن حوله فهو يبـــذل ليأخـــذ ويأخذ ليبذل لا عن أثرة وأنانية ولكن عن ايثار نحس فيه رخاء الامن ونضـــارة الســـلام .. فالقوى فى المجتمع القرآنى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوى حتى يسترد حقه ممن بغى عليه .. ولذلك فان هذا التوتر الاجتمـــاعى بنظامه وأحكامه ومنهاجه قـــادر لا على تحقيق الامكانات المادية أو الانسجام الاجتماعى فحسب ، بل وقـــادر فى نفس الوقت وفى تناسب حيـــوى على بعث الاحساس بالجمال فى النفوس بعثا ينطلق بها نحـــو تحقيق أبعد

(١) كتاب : (اشبنجلر) تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٥١ .

ما ترجوه من خيرات .. يقول جون ديوى : « وانه (١) لمن الحقائق المعروفة أن التوتر يولد الطاقة وأن انعدام المعارضة انعداما كليا لا يســـاعد على الترقي السوى ويمكن القول بصفة عامة أننا نقر جميعا بأن التوازن بين الظروف المواتية والظروف المعوقة هو الحالة المنشودة أو الوضع المرغوب فيه بالنسبة الى الامور كافة . ولكن على شرط أن تكون للظروف العادية علاقة باطنية جوهرية بما يقف حجر عثرة فى سبيلها بدلا من أن تكون مجرد ظروف خارجية دخيلة أو تعسفية صرفة . بيد أن المطلوب هنا ليس مجرد تغيير كمى أو مجرد تزايد فى الطـاقة بل لابد من حدوث تغير كيفى أعنى أنه لابد من تحـول الطاقة الى فعل واع مستبصر عن طريق تمثل المعـانى الكامنة فى حصيلة الخبرات السابقة » .

وبعد ،

فهل يحلم الفلاسفة بمجتمع طوباوى ؟ .. وهل ينشد السياسيون مجتمع الديموقراطية والاشتراكية والكفاية والعدل ؟ .. اليهم جميعا صورة من الصور القرآنية لما ينشدون ويحلمون حققتها الحضارة الاسلامية على أعظم ما يكون وأجمل ما يكون .. يقول سبحانه : « وقضى ربك ألا تعبدو الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صـالحين فانه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسـكين وابن السـبيل

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تاليف : جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا. ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا » (٢٣ : ٣٩ سورة الاسراء) .

***

ب ـ العلم

من الحقائق التى نستبينها من القرآن الكريم أن العلم والاحساس بالجمال صنوان .. ويقدم القرآن الكريم اقوى الادلة على ذلك فهو يعرض الحقائق العلمية فى بيان معجز فى بلاغته وتصويره مما يجعل الانسان يحس بجمال القضايا العلمية فى ذاتها .. وتدعونا العلاقة بين

العلم والاحساس بالجمال الى تقرير موقف القرآن الكريم من الفكر بعامة .. فالقرآن الكريم ـ كما أوضحنا من قبل ـ بآياته وبيناته يجعل الانسان في وعى دائم بكل من حوله وما حوله ولذلك جاءت تربية القرآن الكريم للفكر كأعمق ماتكون التربية وآصل .

ان « كلمة » القرآن الكريم تخاطب الذات الانسانية فكرا ، والفكر منوط بمعالجة مسائل الوجود الكبرى سواء أكانت مسائل العقيدة أو مشكلات الوجود الحضارى للانسان ، يقول سبحانه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (٢٤ سورة يونس) .

ومن الفكر ننتقل الى درجة العقل ، فاذا كان الفكر يتناول المصيريات الكبرى فى العقيدة والوجود الحضارى فى تجريد ملابسات المادة وظواهرها فان العقل يعمل فى تلك الظواهر بتأملها والمقابلة بينها فى حركاتها وأوضاعها ثم التنسيق بينهـا فى حركة عامة ذات دلالة شاملة تثرى العقل وتفتح له آفاقا جديدة من الحياة قوامها وغايتها الايمان بالله وحده ، يقول سبحانه : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » « ١٦٤ سورة البقرة » .

ومن العقل ننتقل الى درجة العلم ، والعلم أدراك ذهني يقدر الظواهر ويحدد الاسس ويستخرج العلة ويصوغ القانون الذي يفصل بين الصواب والخطأ ، يقول سبحانه : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » (٥ سورة يونس) .

وكما تخاطب « كلمة » القرآن الكريم الجانب العلمي من الفكر الانساني فانها تخاطب منه الجانب الفقي كذلك .. والفقه وعي عقلي متعمق لدقائق العلاقات التي تربط بين الاشياء ، يقول سبحانه : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (٩٨ سورة الانعام) .

والى جانب الفكر والعقل والعلم والفقه ، فهناك جانب الوجدان أو الجانب العاطفي من الانسان .. ولهذا الجانب وجهان : وجه الجمال الذي يفضي الى الايمان بالله ، يقول سبحانه : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩ سورة الانعام) .. فبالايمان بالله يتفتح القلب للحق والخير والجمال ، يقول سبحانه : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » (١١ سورة التغابن) .. أما الجانب العاطفي الثاني فهو جانب الوجدان الذكي الذي يستلهم العبرة المحكمة في لمح البصر .. وما نعنيه بالوجدان الذكي هو اللب ، واللب الحي يلمح العبرة في

ظواهر الكون ، يقول سبحانه : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » « ١٩٠ سورة آل عمران » .. ويلمح العبرة فى الجمال العبقرى لاحكام الشريعة ، يقول سبحانه : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب لعلكم تتقون » .(١٧٩ سورة البقرة) .

***

اذن فما معنى أن يخاطب القرآن الكريم الانسان فى فكره وعقله ووجدانه ؟ معناه كما قلنا أن القرآن الكريم شمولى فى معالجته لقضايا الانسان العقائدية ، وشمولى فى معالجته لمشكلات الحضارة الانسانية بكل أزمانها وأوطانها .. وبهذه المعالجة الشمولية فان القرآن الكريم يبتعث الاحساس بالجمال فى كيان الانسان من خلال المشاهد التى يعرضها على الفكر والعقل والعلم والوجدان .

فالاحساس بالجمال الذى يبتعثه القرآن الكريم ويربيه ويزكيه فى نفس الانسان لا يختفى فى مرتبة الفكر او فى مرتبة العقل أو العلم ثم يوجد ظاهرا بينا فى مرتبة اللب أو الوجدان أو العاطفة ولكنه يوجد فى كل مرتبة على درجة تقتضيها الظاهرة المعروضة والغاية المقصودة .. وهذا هو لباب فلسفة الجمال .

ولقد كان جون ديوى مصيبا الى حد بعيد حين قال : « ان (١) ما يحدد الفارق بين صاحب النزعة الجمالية وصاحب النزعة العقلية انما هو اختلافهما فى تأكيد الجانب الهام من ذلك الايقاع المستمر الذى يميز تفاعل

(١) كتاب : (الفن خبرة) ، تأليف جون ديوى ، ترجمة : د. زكريا ابراهيم ص ٣٩ .

المخلوق الحى مع بيئته .. أما المكانة القصوى للتجربة عند كل منهما فهى واحدة كمــا أن صورتها العامة هى بعينها . واذا كان البعض قد ظن أن الفنان لا يفكر على حين أن الباحث العلمي لا يقوم بشيء آخر سوى التفكير فان هذه الفكرة الغريبة ليست سوى نتيجة لتحويل فارق فى سرعة الحركة أو نبرة التأكيد الى فارق فى النــوع والكيف .

الواقع أن للمفكر لحظته الجمالية وتلك هى اللحظــة التى لا تظل فيهـــا أفكاره مجرد أفكار بل تستحيل الى معان ودلالات مندمجة فى صميم الموضــوعات .. كذلك للفنان مشكلاته أو هو يفكر حين يعمل ، ولــكن تفكير الفنان مندمج فى صميم الموضوع بطريقة مباشرة اظهر مما لدى غيره . أما الباحث العلمى فان نظرا لبعد غايته نسبيا مضطر الى استخدام الرموز والالفاظ والعلاقات الرياضية » .. اذن فلكل خبرة ذهنية كما يقول جون ديوى : « طابعها الجمالى وليس هناك فارق بين مثل هذه الخبرة وبين تلك الخبرات التى نعدها جمالية اللهم الا من حيث المواد والعناصر المستخدمة فى كل منهما ».

وفضلا عن هذا فان الكثرة الغالبة من الناس تعتقد أن العلوم الرياضية لا تنطــوى على أى لون من ألوان الجمال .. ولكن علماء الرياضيات وكبار فلاسفة العلوم الرياضية يؤكدون أن شطر الحسن ضرورة منطقية .. وفى ذلك يقول ج . و . ن . سلفان : « أن (١) العــلم اذا أراد أن يبعث فى الانســان ما يبعثــه فيه الآن من حماسة وشغف فلابد له من أن يشبع حاجة من أشــد

(٢) كتاب : (آفاق العلم) ، تأليف ج. و . ن سلفان ، ترجمة : محمد بدران ، وعبد الحميد مرسى ص ١٨١ / ١٨٢ .

حاجات الطبيعة الانسانية وأبعدها غورا . وهذه الحاجة تظهر في الشغف بالجمال ، وان أهم ما في العلم من فتنة انما يكمن فيما فيه من جمال .. ويجب أن نذكر ان هذا يصدق على رجال العلم أنفسهم ، فقيمة العلم في نظر الكثرة الغالبة من غير رجاله تنحصر في تطبيقاته العملية . ولكن أعظم رجال العلم كلهم يرون أن التطبيقات العملية قد برزت اتفاقا عن غير قصد وكانت من ثماره الثانوية » .. ثم يستطرد قائلا : « ولكن هذا القول يصدق أكثر ما يصدق على العلماء الذين ابتدعوا العلوم الرياضية . ذلك لان ما يقوم به علماء الرياضة بصفة خاصة يظهر فيها عامل تذوق الجمال واضحا جليا . فقد كتب كثيرون من علماء الرياضة عن أعمالهم في أسلوب من الشعر المنثور ويبدو أن من المستحيل أن نفرق بين ما يشعرون به من غبطة وبين ما يشعر به الفنان .. وليست لغة الشعور بالجمال بالتى يعز علينا أن نتبينها في كتابة علماء الرياضة وجلى أنهم في اشارتهم المتكررة الى « الرشاقة » ، والجمال وما اليها من الصفات التى يصفون بها النظريات الرياضية يتصورون أنهم يحتكمون الى احساسات يشترك فيها الرياضيون على بكرة أبيهم » .

من كل هذا يتأكد لنا مدى الاعجاز الفكرى للقرآن الكريم حين تآصرت فيه الحقائق العلمية تآصرا عضويا مع التصوير الجمالى للمشاهد الكونية والانسانية حتى يكون الاحساس بالجمال عنصرا أساسيا من عناصر الكيان الانسانى عقيدة وفكرا وشعورا وعملا ...

ج ـ الفن

ان التربية القرآنية تجعل من الانسان امكانية فنية سواء أصبح فنانا أم صار الى غير ذلك فالقرآن الكريم بموقفه من الحياة وبمنهاجه وشريعته يخلق الفنان من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمنحه الاسس أو المبادىء التى تحقق أصالته الفنية فى حرية وانطلاق .

* فأولى مبادىء التأصيل الفنى أن الفن رسالة انسانية ، يقول سبحانه : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٣ سورة الحجرات) .. فحين يقول سبحانه : «يا أيها الناس » ، فان هذا معناه ان الخطاب موجه للناس أجمعين على اختلاف شعوبهم وألوانهم وألسنتهم وحظوظهم من الحياة .. وحين يقول سبحانه : « انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل » ، فان دائرة الذات لا تظل منكفئة على نفسها ولكنها تتسع لتصبح دائرة للانسانية قاطبة ، وهذا هو أعلى ما يمكن أن تصل اليه ذات الفنان أو أكرم ما يجب أن تبلغه عبقرية الفنان .. فعليه من ثم أن يرى الناس فى ذاته المبدعة وأن يرى ذاته المبدعة فى الناس فيكون عمله وابداعه حبا لذاته التى هى ذات الناس .

وكذلك يصبح عمل الفنان للتعارف : « لتعارفوا » .. وما أعمق التجارب التى يبتلى بها الفنان حين يجعل التعارف منهاجه وحين يجاهد فى أن (١) يستكشف أغوار ذاته فى ذات الناس .. وهنا يأتى المعيار الذى يتعرف

(١) كتاب : (مشكلة الفن) ، تأليف د. زكريا ابراهيم ص ١١١ : ١٥٠

الفنان لا على قيمة أثره الفنى فحسب ولكن أيضا على حيوية تجربته وأصالتها وعمق أبعادها .. وكذلك مدى فاعليتها وأثرها فى نفوس « الناس » ، فيقول سبحانه : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. فالفن الكريم هو ما جاء تقي وصلاحا ودلالة على تقوى صاحبه وصلاحه . والتقوى الفنية ــ ان أجيز هذا التعبير ــ المطلوبة هنا هى ما كانت اثراء للحياة وتكريما للأحياء .

* والمبدأ الثانى للتأصيل الفني هو الا يكون الفن صادرا عن هوى أو نزوة مادية مغرقة ذلك لان الهوى على هذه الصورة لا يحفل بقيمة ولا يقدر عاقبة اذ يكفيه ارضاء الغرائز واشباعها . واذا انحدر الفن الى هذا الدرك كان عاملا له خطورته فى اشاعة الاهتمامات المادية والبحث عنها والتناجر حولها فى المجتمع .. ولا يخفى ما لهذا من أثر فى نظرة الناس الى أنفسهم والى غيرهم والى الغاية من حياتهم ، يقول سبحانه : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون » (٢٣ سورة الجاثية) .. بهذا الاعجاز البياني يصور القرآن الكريم من يتبع هواه أو المغريات المادية ، فسبحانه يقول : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه » .. وهذا هو أدق تصوير وأعمقه لنفسية أولئك الذين يجعلون شهوات الحياة شاغل وجودهم ، فاذا فكروا أو دبروا أو عاملوا فانما من أجل تحقيق شهواتهم فحسب وكأنهم فى لواحهم الدائم لشهواتهم مسخرون لقوة خفية لا يعصون لها أمرا ...

ثم يقول سبحانه : « ختم على سمعه وقلبه » .. واذا

فقد الانسان أو الفنان سمعه ووجدانه على هذه الصورة وكان الهه هواه فانه يكون قد فقد كل اتصال بنبض الحياة ونضارتها . فلا يعي للحيـاة معنى ولا يدرك لها حركة ولا يعرف لحركتها اتجـاه وذلك هو مكمن الخطر فـلا ينبغى للفنان ان يساق بهواه سوقا يفقده الاحسـاس والوعى والتعقل .. وليس هذا فحسب بل ويفقـده كذلك القدرة على الرؤية الصادقة التى تميز الاسـباب وتستخرج العلاقات ، يقول سـبحانه : « وجعل على بصره غشاوة » .. والغشاوة تقيم حجـابا بين الفنـان وظواهر الحياة والى أين تصير الامور فلا يرى الا أوهاما وأشباحا ولذلك يكون نتاج هذا الفنان ــ حتى وان هيئت له أسباب الذيوع والشيوع ــ مجرد أصداء لا تبقى الا بمقدار ما يبقى الصدى عالقا بالهواء .. فهو ابن لحظته وابن أهله وعشاقه .

* والمبدأ الثالث للتأصيل الفنى يوجب على الفنـان الا يتردى فى الدعوة الى الفاحشة ، يقول سبحانه : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون» (١٩ سورة النور) .. وتبدأ هذه الآية الكريمة بهذه العبارة : « ان الذين يحبون » ، فكلمة « يحبون » هنـا تصور بأعمق المعـانى النفسية أولئك الذين يضمرون للمجتمع الاسلامى الحقد والضغينة . فالحب هنا معناه الاصرار والخطة المرسومة والتنفيذ المحـكم .. وتصور كلمة : « تشيع » ، أن غاية الحـاقدين تقـويض أركان المجتمع الاسلامى بافساده على أهله .

وهم ــ أى الفنـانون ــ حين : « يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا » ، فانهم يستعينون بالوسائل

التى تتيح لهم اشاعة الفاحشة التى تفسد البناء الاجتماعى للمؤمنين . فاذا وجدوا أن افساد الفكر والضمير والشعور والذوق والتآصر الاجتماعى ، يتحقق بافساد اللغة العربية شعرا ونثرا فانهم يقيمون لذلك كل وسيلة اعلامية ممكنة .. واذا وجدوا أن هدفهم يتحقق عن طريق الدعوة الى التحرر أو التحلل ــ وهما عندهم سواء ــ فهم يجتهدون له ويفتنون له غاية ما يستطيعون .. واذا وجدوا أن اشاعة الفاحشة تتيسر لهم باثارة الاحقاد الطبقية والفتن الدينية فهم لا يترددون .. واذا وجدوا أن غايتهم تتحقق باثارة الشائعات والتقول على أولى الامر ورجال الفكر فهم يفترون عليهم الكذب ولا يملون الافتراء ... نعم ، وليكن سبيلهم الى غايتهم وسائل نشر الفنون من صحافة واذاعة وتليفزيون ، ولتكن أداتهم الاغنية والمسرحية والرواية والدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية الملفقة .

فاذا انحرف فنان الى تيار : « الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا » .. أو كان هو أصلا منهم فهو فى حقيقة الامر عدو للحياة ، عدو للناس ، عدو لله . ولذلك فان الله سبحانه حذر المؤمنين ــ وهم قوام الحضارة أو الوجود الانسانى ــ من المتفحشين وأمرهم بأن يضربوا على أيديهم بل وأنذر المتفحشين بعذاب رعيب فقال سبحانه : « لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

* والمبدأ الرابع للتأصيل الفنى هو أن يكون الفنان فكرا بصيرا ووجدانا ملهما يدرك الماضى وعظمته ، والحاضر وما يقدمه ، والمستقبل وما يبشر به .. فلا ينخدعن بما بين يديه انما عليه أن يحدد غايته من وراء

تجربته وفى أثناء تجربته ، وليسأل نفسه خلال معاناته الفنية : أهو على الحق ؟ .. لان ذلك هو التقييم الذاتى الذى يجب على الفنـــان الا يتخلى عنه والا خسر ذاته وخسر فنه .. ويجسد هذا المبدأ قوله تعـالى : « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٠٣ ، ١٠٤ سورة الكهف) .

* والمبدأ الخامس للتأصيل الفنى هو الا يكون الفنان جامدا متحجرا ، والا يرضى بالقوالب او القيود .. ان عليه ان يوقن بأن الحياة تجديد الى ماهو أقوم وأحسن وانفع .. وأن احترام التراث الفكرى أو الأخلاقى لا يعنى عبادته وعبادة أهله وماقالوه .. فلا يقولن مع القائلين : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (٢٢ سورة الزخرف) .. فعلى الفنان من ثم أن يحذر الجمود الذى يأتى من التقليد ، لانه لا يميت خياله وشعوره وفكره فحسب بل انه ليؤيد العاكفين على القديم النخر ، يؤيد سلطانهم وتسلطهم بأذواقهم ومذاهبهم وليكن مبدأه فى تجربته الفنية قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع النـاس فيمكث فى الارض » (١٧ سورة الرعد) .

***

وما كان التعبير عن الحياة اصواتا شجية فحسب .. ولا مجرد أنغام مغرية تنبعث من فراغ الدعة والاستسلام، ولا كان كذلك مجرد حلية يتحلى بهـا الناس اسـتكمالا للوجاهة وحسن الزينة .. ان التعبير عن الحياة حياة فى ذاته وهو لا يكتسب حياته الا من المقومات والآداب

التى تفرضها العقيدة وهذه ليست نافلة بل هى من الفن والى الفن . وأعنى بذلك أن الفن يخرج من بين التفاعلات الحيوية المشتجرة بين الناس ثم يرتد اليهم تربية لاحساسهم بالجمال وتزكية له .

بهذا يستطيع التعبير الجمالى أن يعلم الناس كيف يجعلون من حياتهم فنا جميلا .

وعلى هذا فاننا اذا أردنا أن نعرف موقف الاسلام من الفنون بعامة فان الاسلام لا يمنع ولا يحرم كل ما يزيد الحياة حسنا وصلاحا .. ثم هو يوجب كل ما يرتفع بالمشاعر الانسانية فوق بلابل الاشجان والشهوات ، ومن ثم فان للاسلام موقفه المتميز من الفنون كافة ... :

* فمما لا يمنعه الاسلام ولا يحرمه فنى النحت والتصوير ...

ففى هذين الفنين تتجسد أحاسيس الجمال عند الانسان فتبرز خفقات قلبه وأشواقه وما يصبوا الى تخليده .. فبالازميل والفرشاة يعزف الفنان آيات معبرة عن احساسه بوجوده وعن مشاعره تجاه ما حوله وما هو قائم فيه . وهو فى عمله هذا كالشاعر الذى يتخذ الالفاظ مادة لتصوير احساسه بالجمال وتجربته فى الحياة بغير أن ينكر عليه أحد تصويره البيانى الذى يحاول فيه أن يعطى تجسيدات حية لواقع يعانيه أو لواقع يأمله .

أما مسألة استنكار أو تحريم النحت والتصوير فان العقيدة الاسلامية حين قضت على الوثنية فى شبه الجزيرة العربية ، قاعدة الاسلام ، وسارت بعد ذلك مجاهدة فى رفع وصمة الشرك التى رانت على عقل

الانسان كانت الضرورة المصيرية تفرض ألا يسمح باقامة التماثيل وتصوير المناظر .. وتفرض التشدد فى التحريم تشددا بين القسوة لانه لا يعقل أن تمر آلاف السنين والناس يتقلبون أمام الاصنام والاوثان وتهاويل الزخارف والصور يعبدونها من دون الله ثم يأتى الاسلام ويأذن المسلمين - وهم لا يزالون فى غضارة الايمان بالله الواحد الأحد - باتخاذ التماثيل والتصاوير للتزين والتجمل .. ان الاسلام لو فعل ذلك لفتح الباب للشرك القديم واستجاش الخواطر لنزغات الوطنية وما كان لها من عوائد وتقاليد . والانسان أسير تقاليده الى حد بعيد فهو يحن اليها اذا ما ابتعد عنها ، ويشتد حنينه الى حد الثورة اذا ما أبعد عنها .

من أجل ذلك جاء تحريم الاسلام للنحت والتصوير .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » .. ومما له دلالة عميقة ما رواه مسلم عن السيدة عائشة رضوان الله عليها ، فقد قالت : « كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل اذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حولى هذا فانى كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » .. فالرسول عليه السلام يرتفع بايمانه المكين عن أن تستوقفه الدنيا وما يحفها من شهوات من أجل ذلك كان يبعد وجهه الشريف عن مطالعة ذلك الطائر المصور .

ولكن كيف يكون كل من النحت والتصوير مثريا للحياة ؟

وكيف يكون كل منهما أداة معبرة عن باطن الانسان وما يعمره ؟

وكيف يكون كل منهما أداة صـــادقة فى تعبيرها ، وسامية فى غايتها من وراء التعبير ؟

هناك اتجاهات متعددة ومذاهب فنية متخـــالفة فى النظر والاتجاه ، لكل منهآ طريقته فى التصميم والتصوير .. فلتتخالف المذاهب الفنية وتتعـــدد فان التخالف والتعدد دليل وجـدان خصيب وخيال محلق بالحيـوية بغير شك .

ولكن أن تكون الغاية اعناتا للعقل والتصوير أو حتى للعينين بمذاهب يقال لها تجريدية ... ولكن أن تكون آثار الفنين ـ النحت والتصـــوير ـ كشـفا للجـوارح والعورات فى أوضاع وبألوان واضـواء وظلال يفتن فى اسباغها على الاثر الفنى غاية الافتنـان وأحـذقه وكأنه يقول لكل ذى عينين : هيت لك ؟ .

ولكن أن تكون الغاية من النحت والتصوير اشـاعة اتجاه سياسى أو شائعة سياسية تثير الفتنة بين طوائف الامة وقادتها والقائمين على أمرها تآمرا لحقد دفين أو ائتمارا من عدو متربص ...

فان يكون ذلك هو التيار الذى تسير فيه أو تسير معه نزعات النحت والتصوير فانها تكون بغير شك أدخل فى دائرة البهتان وان احتج المحتجون وتأول المتأولون بدعاوى الحرية والانطلاق والتجديد ومسايرة العصر .

فالحرية لا تعنى الاسفاف .. والانطـــــلاق لا يعنى

الجموح .. والتجديد لا يعنى البدع التى تخرب الفكر وتعطب الضمير وتصدف عن حياة الحب والتعاطف لما فيه خير الامة والفرد على السواء .

نعم ، ومسايرة العصر لا تعنى الامعية والسطحية والخواء من حمية الرجولة .

* والغناء هو الفن الذى كثر حوله الكلام وتناقض :

فالقاضي أبو الطيب الطبرى يرى أن الشافعى ومالك وأبا حنيفة وسفيان وغيرهم من العلماء قد قالوا بتحريم الغناء .. أما اباحة الغناء فقد قال به أبو طالب المكى مستندا الى ما قيل من أن عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة وغيرهم سمعوا الغناء .

وقبل أن نستطرد فى الكلام عن الغناء فاننا نقدم حادثة لها مغزاها الكبير .. فلقد أنكر بعض المسلمين على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الغناء .. أنكروا صدوره من امام يؤمهم للصلاة ويقرئهم كتاب الله . فقالوا له : ان لنا اماما يصلى بنا العصر ثم يغنى بأبيات ، فقام معهم الى منزله واستنشده تلك الابيات فأنشده الابيات التالية :

وفؤادى كلما نبهته
عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر الا لاهيا
فى تماديه وقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا
فنى الدهر كذا فى اللعب

وشـــــباب بان عني ومضى
قبل ان ادرك منـــــــه اربى
نفسى لا كنت ولا كان الهـوى
اتقى الله وخـــــافى وارهبى

فجعل عمر يقول : نفسى لا كنت ولا كان الهوى .. وصار يبكى ثم قال : من كان مغنيا فليغن هكذا ...

وما نريد أن نقرره استنادا الى الدين السمح القويم أن سماع الصوت الحسن والتغنى به مما لاينبغى تحريمه باسم الدين خوفا عليـــه .. ومما لا ينبغى استهجانه باسم الرجولة والوقار وكأن الرجولة قرينة الفلظة فى الطباع ، وكأن الوقار قرين البلادة وجفاء الذوق .. فلا يحق اذن تحريم الفنـــــاء والسماع ذلك لان النص القرآنى يحلهما ممتدحا مكرما . وقد وردت اباحة سماع الصوت الحسن فى معرض امتنان الحق سبحانه على عباده ، فقد قال سبحانه : « يزيد فى الخلق ما يشاء » (١ سورة فاطر) .. وذكر المفسرون أن الزيادة هى الصوت الحسن .. وفى الحديث الشريف ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت » .. وقال عليه السلام : « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته » .

وليس النص وحده هو الذى يمتدح الصوت الحسن ويدعو اليه بل اننا نستطيع أن ندرك ذلك من القياس الذى نستخلصه من طبيعـــــة دين الفطرة .. فللطبيعة البشرية خصائصها التى تعيش بها وتعينها على الاستمرار والترقى ولكنها لا تستطيع أن تؤدى وظائفها جيدا بغير ما يلائم كل خصيصة منها .. فلكل جارحة من جوارح

الجسد وظيفة خاصة بها فلكى تنهض بعملهـــا كان من الضرورى أن تتغذى بغذائها تجديدا لقوتها وبعثا لنشاطها على الا يكون الغذاء فوق حاجتها أو أقل منها أو غير ما يستقيم وطبيعتها . ومن هذه الجوارح الفم والاذن ، فللفم غذاؤه فى ترنمه بالالحان العذبة وكذلك للأذن التى يلذ لها أن تسمع الاصوات الجميلة .. وان فى الحجر على الفم الا يترنم بالالحان العذبة الشجية والحجر على حاسة السمع الا تطرب للأصوات الحسنة بحجة أن ذلك حرام هو حكم عليها بالتحجر والجمود .

ان الاحساس بجمال الصوت الحسن فطـــــرة فى الانسان والاسلام وقد جاء لرفع الاصر عنـه فانه يعطى لمقومات الفطرة حقوقها .. ومن ثم فانه حين دعا الانسان الى أن يأخذ نصيبه من الدنيا فقـد دعاه الى أن يكون محسنا فى صنعه وتناوله ، والاحسان لا يصـدر الا عن احساس أصيل بالجمال ، قال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كمـا أحسن الله اليك » (٧٧ سورة القصص) .. فاذا استمع الى قول فليستمع الى أحسنه ، قال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » (١٨ سورة الزمر) .. واذا عرض قولا فليعرض الحسن الجميل ، قال تعالى : « وقولوا للناس حسنا » (٨٣ سورة البقرة) .

وبقدر تعدد أعمال الناس وتنوع أشواقهم ومشاعرهم ، تتنوع تبعا لذلك ألوان الانغام والالحان .. فمنها أغانى الحجيج وأغانى الحض على القتال والثبات فى الميدان .. ومنهـا الاغانى التى تثبت قلوب المواطنين وتدعوهم الى الوقوف صفا واحدا وراء قادتهم وروادهم صمودا فى سبيل الحق وصونا لوحدة الأمة .. ومنهـا الاغانى التى

تحث على العمل وتحبب فى التفانى فيه .. ومنها أغانى الافراح والاعياد أو « المناسبات » الوطنية والقومية .

ومنها اغانى الحب والغرام ، وحولها ينقسم النـــاس ويتفرقون : فمنهم من يقول بتحريمها ومنهم من يحلها ، ومنهم من يجيزها بأحوال وأوقات .. والقول الفصل فى أغانى الحب والغرام أنه مما لا يمكن منعها أو التقليل مــن شــأنها الا اذا استطاع الجامدون أن يمنعوا التقارب بين الذكر والانثى لبناء أسرة ووضع لبنة جديدة فى صــرح المجتمع .. والتقارب انس وشوق .

وفى الاسرة يــكون حديث الحب بين الزوجين وفاء وتفانيا يكشف عن طبيعة الوشائج ومداها فى القلوب .. وحتى فى خلافات المغاضبة والهجران ، من ذا الذى يستطيع أن يمنع لواعج الشوق من أن تزيد أوار الحنين؟ ومن ذا الذى يســتطيع أن يمحو من الوجــدان ذكريات الوصال فلا يعاوده الحنين رجاء وأملا ؟

وبأى مقياس نقدر أشواق النفوس ؟ وبأى ذريعة نكبح أو نقمع فطرة الاشواق ؟ .

واذا كبحنا أو قمعنا فكيف يكون رد الفعل النفسى والسلوكى عند الفرد والجماعة ؟ .

ان سماع ألحان الوصال وحلاوة أيامه لتقريب للنفوس النافرة وانتزاع لاسباب الجفوة والهجران من النفــوس الظامئة الى الانس والاطمئنان .

وقد ذكر الامام الغزالى فى أسباب اباحة سماع اغانى

والحان من برح بهم الشوق أنه لا جناح فى : « سماع (١) العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس فان كان فى مشاهدة المعشوق فالفرض تأكيد اللذة وان كان مع المفارقة فالفرض تهييج الشوق . والشوق وان كان ألما ففيه نوع لذة اذا ما انضاف اليه رجاء الوصال ، فان الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الحب للشيء المرجو .. وهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها » .. ثم يقول : « أما الحرام فهو تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء » .

وتكمن فى هذه العبارة الاخيرة نظرة الامام الغزالى الى ما يجب أن يكون عليه كلام الاغنية وطريقة أدائها .. فلا يكون كلامها محركا لاشواق ومهيجا لنزعات بعبارات تكشف عن العورات وتضرب بالتلصص اليهـــا فتكون الاغنية من ثم دعوة الى الفحشاء والمنكر .. فاذا أضيف الى « الكلام » طريقة الاداء ذاتها فى تخنثها فى التطريب مما يجرح مشاعر الحياء فان تحريم ذلك اللون من الاغانى والالحان فى اذاعته وسماعه يصبح فريضة واجبــة .. وفوق هذا فان الحفاظ على ســلامة نسيج المجتمع فى علاقاته ومصالحه المتشابكة واســـتواء نفسية أفراده واستقامتها ، ذلك كله يستوجب « تحريم » الكلمة التى تغرى بالانحلال واللحن الذى يقتنص العزمات فيوهنهـا ويوهن خلال الحياء معها بها .

***

* والغناء وثيق الصلة بفن الموسيقى ، بل ان الغناء فى لبابه قائم على الايقاع الموسيقى فكأنه بذلك موسيقى

(١) كتاب : (احياء علوم الدين) ، الامام الغزالى (أبوحامد) ص ٢٣٦ (كتاب آداب السماع والوجد) .

لفظية أو موسيقى ناطقة ، أن أجيز هذا التعبير . وعلى ذلك يصح لنا أن نقول أن الموسيقى هي روح الفنون وباعثة الحياة فيها ولذلك فانها بحكم نوعيتها الفنية ومرتبتها الحضارية تتطلب جهدا مستمرا ووعيا ملهما حتى ترقى الى ما ينبغى لها . فالموسيقى اذن هى أول الفنون على المكانة الحضارية للأمة والمقام الوجودى لذات الانسان .. يقول شوبنهور خير من كتب عن الموسيقى : « ان (١) الموسيقى فن مستقل بذاته عن بقية الفنون كلها تمام الاستقلال . ففيها لا نجد تقليدا أو تكرار أية صورة للكائنات الموجودة بالعالم . ولكن لها مع ذلك من الجلال والروعة وقوة التأثير في أعماق الانسان والنفوذ الى أخفى خفاياه وكأنها لغة عامة كل العموم قد فاقت فى وضوحها العالم المرئى نفسه ــ ما يجعلنا نعدها المعبر الاكبر عن جوهر الوجود وحقيقة العالم » .. واذا كان للموسيقى مثل هذا الجمال والجلال والخطر فما هو موقف الاسلام منها ؟ .. وهل يمكن أن نقول بموسيقى اسلامية ؟

أن موقف الاسلام من الموسيقى هو موقفه من الحياة ومن كل ما يزيدها نضارة وازدهارا على هدى من شريعة القرآن الكريم ألا تفرض على الانسان الا ينسي نصيبه من الدنيا .. فاذا قلنا بموسيقى اسلامية فقد يستغرب البعض هذا القول وربما استخف به .

وما من ريب فى أن لكل وطن أو مجموعة اقليمية من الاوطان المتقاربة الاصول والعروق تمايز موسيقى تعرف به . فالموسيقى الشرقية لها طابعها الذى تتفرد

(١) كتاب : (شوبنهور) ، تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١٣٦ .

به ، ومع ذلك فاننا نستطيع أن نفرق بين الموسيقى المصرية والهندية وكذلك الروسية . وذلك ما نجده أيضا بالنسبة للموسيقى الاوربية والالحان الكنسية الاوربية .. واذا كان هذا هو شأن الموسيقى الشرقية والغربية بعامة ، أفلا يكون سببا فى أن تكون لدينا موسيقى اسلامية تتميز بالطابع الاسلامى ؟

بلى ، ولعل التواشيح الدينية وبعض الاغنيات الدينية والمقطوعات الموسيقية الدينية تكون بداية صالحة لوضع الاساس للموسيقى الاسلامية .. على أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا حين ندعو الى موسيقى اسلامية فاننا لا ندعو الى وضعها أو صبها فى القوالب التقليدية التى عرفت بها اغانينا وتواشيحنا الدينية .

اننا ندعو الى أن تكون هناك أصول اسلامية متميزة تشيع فى اللحن الموسيقى ثم تتسع بسماتها الاسلامية لتعبر عن المشاعر الانسانية والاحلام الانسانية والذكريات الانسانية متسامية على العبث الجنونى والغثاثة الواقعية التى تفسد المشاعر وتضل الضمائر وتخرب الذكريات .

فموقف الاسلام من الموسيقى هو الموقف الوجودى من كل فن ، فهو لا يحجر على الموسيقى ولا يفرض عليها قوالب وصيغ ونظريات ولكنه يفرض عليها شيئا واحدا هو الحياة : أن تكون اعزازا للحياة وتكريما للانسان وارتفاعا بالبناء الحضارى الاسلامى بعامة حيث تتمايز فيه الالحان الوطنية لكل وطن اسلامى تمايز التكامل والوحدة .

* وفن الرقص عند أصحابه أنواع وألوان : فهناك الرقص الشرقي والرقص الغربي ، ورقص الباليه الرمزي ، والرقص الشعبي المعبر عن التقاليد الوطنية والاحداث القومية .

وكل نوع من هذه الانواع له عند أصحابه قواعد وأصول ، أو مدرسة لها منهاجها الذي تتميز به . ولو سألت أهل كل لون عن مكانة رقصهم بين الفنون لقالوا لك في اعتزاز : انه فن .. فن له كرامته ومنزلته ... ولو سألتهم عن علاقته بالاخلاق ، لقالوا لك : هذا يتوقف على تفكيرك أنت يا أستاذ !! .. الفن طاهر جميل .. والعبرة بما يدور في نفسك أنت .

هكذا يقولون .. أو هكذا يبررون ...

ولتحديد موقف الاسلام من الرقص فان علينا أن نرجع الى موقفه من الحياة ، والانسان والناس . فان كان نوع الرقص الذي يعرض ويفتن له مما يعمق الحياة ويصونها .. ويبهج الناس ويعاطف بينهم ويوسع من آفاق استبشارهم فنعما هو .

ولكن ما يسمى بالرقص الشرقي ، وكذلك الرقص الغربي هو رقص جنسي مفجر لنزعات الجنس ، وانفعالات الجنس ، وتخيلات الجنس ، وهو في سبيل ذلك يسقط حجاب الحياء غير عابيء بالخلق أو السلوك المحمود ، فان قيل في الرقص الشرقي أو الغربي غير ذلك فهو من قبيل التمويه أو المخادعة التي تفسد على الناس نفوسهم وضمائرهم وتفسد على المجتمع قوة بنائه ووحدته .. وفي ذلك افساد للذوق والاحساس .

اما الرقص الذى يمكن التسامح فيه ـ مع العمل على تطويره بما يرتفع به فوق شبهات الاثارة الجسدية العارية من الحياء ـ فهو الرقص الشعبى ورقص الباليه الذى يعرض برقصاته مشاهد من تقاليد الشعب فى غابره أو حاضره .. أو يعرض تجسيدا نفسيا لبعض المعانى النفسية والاخلاقية .

والدليل على أن هذا النوع من الرقص مما يمكن اباحته والتسامى به وجعله فنا كريما فى وسيلته وغايته هو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ففى الخبر أن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت : نعم . فأرسل اليهم فجاءوا وقام رسول صلى الله عليه بين البابين فوضع كتفه على الباب ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وانظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حسبك ، وأقول : اسكت ،مرتين أو ثلاثا . ثم قال : يا عائشة حسبك . فقلت : نعم ، فأشار اليهم فانصرفوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله » .

***

* أما بالنسبة لفن التمثيل ـ مسرحية أو قصة سينمائية ـ فاننا نقول أن الرواية سواء أكانت مأساة أو ملهاة ينبغى أن توضع فى الاطار الذى يحيى الانسان أملا وعملا فتبتعث فيه نوازع الايثار والخير .

قد تكون المأساة قاسية على المشاعر مؤججة لنيران الاسى والاشفاق لما تثيره من تصاريف الاقدار . وعرض ذلك حلال مباح ومطلب واجب التجسيد . ولكن خطورة التراجيديا تأتى من ثلاثة أمور :

أولا : أن تصور الانسان فى صورة الفريسة المهيضة لتصاريف الاقـدار العمياء التى لا تفرق بين موقف وآخر أو عمل وآخر مؤكدة بالايحاء الملح على ضياع الانسان وعدمه وعبث خاتمته .

ثانيا : أن تثير التراجيديا مواقف جنســية وتتخذها المحور الوحيد الذى يدور حوله مصير الانسان وكيانه وظواهر حياته .. وكأن شهوات الجسد المنحرفة والمسفة فى انحرافها هى شغلان البشرية جمعاء .

ثالثا : ان تثير التراجيديا بدافع من آراء فلسفية أو شبه فلسفية تســاؤلات متناقضة تكون مدعاة لاثارة الشكوك فى الوجود وصرائف الاقدار ان لم تكن مدعاة للتجديف فى حق الالوهية ذاتها .

وهذه الامور الثلاثة كافية فى مجموعها الى أن تمزق كيان الانسان الفـكرى والنفسى والى أن تزعزع بنيانه الايمانى أو ضميره .. واذا تمزق البنيان الايمانى ، واذا تمزق الكيان الفكرى والنفسى وكان التمزق أنواعا لكل نوع انحرافه عن مجال الاستواء القويم .. أفلا يكون ذلك من أقوى الاسـباب لان يصـاب المجتمع بأوضر الآفات وأقدرها على افساده وتقويضه ؟ وأى مجتمع هو ذاك الذى تشيع فيه فوضى الاعمال التراجيدية بين الادعاء بالتحـرر ، والادعاء بالتفلسف ، والادعاء بالتعاطف والاشفاق على مصير الانسان ، والادعاء باستخراج أخفى

خفايا الضـــمير الانســـانى وما يصطرع فيه مـــن نزوات ونزعات !؟

ولا حرج على الاعمال التراجيدية التى تدعو الى التحرر والانطلاق ...

ولا حرج على الاعمال التراجيـدية التى تجسد أبعاد التعاطف والتنافر التى تنشأ بين أبناء آدم ...

ولا حرج على الاعمال التراجيدية التى تجسد خفـايا الضمير الانسانى وما يمور فى اللاشـــعور من امكانات مقهورة وخواطر متوفزة ...

لا حرج على ذلك كله الا أن يكون الهدف المقصود هو اثارة قائمة على امعية فلسفية أو تبعية سياسية متآمـرة .. او اثارة صادرة عن سطحية فكرية تتسم بالعقم وقصر النظر .

واذا علمنا أن الطبيعة الانسانية تنطـوى على فطرة اليأس والقنوط ، كمـــا تنطوى على فطرة حب الخير والسعى اليه والاعتزاز به الى حـد التكبر كمـــا قال سبحانه : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (٥١ سورة فصلت) .. اذا علمنا ذلك فاننا نستطيع أن نتصور مدى الاخطار التى قد تؤدى اليها روايات المآسى اذا انحرفت الى ما أشرنا اليه .

ومع ذلك فالنفس المسلمة لها من ايمانها بالله مايعصمها من كوارث الحاضر وما قد ينذر به المستقبل .. فالانسان المسلم لا يتشتت أمام المحن أيا كان لونها ولا يفقد يقينه بالله اذا كرثته داهمة لانه يؤمن بأنها مواقف ابتلاء لارادته

وايمانه ، بل ابتلاء لحريته وكرامته .. نعم ، ان المسلم يعى وعى ايمان بصير معنى قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (١٥٥ ، ١٥٦ سورة البقرة) .

وفضلا عن ذلك فالقرآن الكريم فى قصصه حافل بأروع المواقف الترجيدية من ناحية الرمز والاخلاق والدلالة الوجودية .. ومن هذه المواقف موقف نوح عليه السلام من ابنه فى واقعة الطوفان ، وموقف الخليل ابراهيم عليه السلام من التضحية بابنه ، وموقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز التى راودته عن نفسه .. فكأن القرآن الكريم يربى الوعي الاسلامى على مواجهة مواقف الابتلاء والفتنة مواجهة بطولية لا تخور فيها الارادة أو تجزع ولا يتحير فيها الضمير أو يتشكك .. ومن ثم فان القرآن الكريم يربى الذوق الاسلامى على تصور مواقف الابتلاء والفتنة تصورا فنيا سواء عند التذوق أو عند الابداع والخلق وبذلك يأتى عمله نابعا من احساس صادق بالتقدير الجميل للحياة وأحداثها .

والى جانب التراجيديا فهناك الكوميديا ، وبالنسبة لها فاننا نقول : انه اذا كان التفاؤل بالخير والسعى اليه ، وكذلك اليأس عند وقوع البلاء ، البلاء فطرة فى الانسان فان الضحك فطرة أيضا فله بواعثه واوقاته وحالاته .. وهذا مما يجعل له نوعا من الخطورة بالنسبة للتكوين النفسى للفرد أو التكوين النفسى للمجتمع .

ومما يعرفه الناس على اختــلاف اعمالهم ومراتبهم أن في الضحك الذى تثيره الفكاهة أو الكوميديا ترويحا عن النفس وتخفيفا مما عليها من أثقال الحياة ، واعطائها لحظات من الانتعاش النفسي الذى يبعث الحيوية ويجدد النشــاط .. ان الضحك ترويح عن النفس أيا كانت صنوف الكوميديا وأهدافها :

فلتكن الكوميديا نقــدا اجتماعيا .. ولتــكن نقــدا سياسيا .. ولتكن نقدا فنيا .

فانها في غايتهــــا الاولى اضـحاك وترويح او تسرية وتخفيف ، وبين الاضحاك والتسرية تظهر الآفات التى يمكن أن تتجسد وتتجسد حتى تصبح مرضا اجتماعيا عصيا على العلاج أو المداراة .

ولعل من أخطر الاخطار أن تصطنع الكوميديا للتهجم على الآداب وقواعــد الإخلاق اما بالماحكة في بدعــة التحرر والانطلاق .. أو بالماحكة بالثورة على التخلف والجمود . ذلك لان الكوميديا بمــا تحفل به من فكاهة وسخرية أكثر قدرة على الذيوع وأسهل جريا ــ بمواقفها ــ على السنة الناس الذين يميلون الى التفكه ويستطيبون بواعثه . ولذلك فان الحوار في الكوميديا اذا ما تعمد من خلال المواقف المتناقضة التى تفجر السخرية المضحكة او التى تختلق مناسبات الاضحاك ــ الهجــوم على الآداب وقواعد الاخلاق فان في ذلك اضراء واغراء بالخروج عليها .. وذلك ما يأباه الاسلام ويحرمه .

ونقول مثل هذا عن الكوميديا السياسية التى قد ترمى الى اشاعة بدعة سياسية أو ترمى الى الترويج لمذهب

اجتماعي يخلق الاضطراب الذى لا يفيد منه سوى العدو .. وذلك أيضا مما يأباه الاسلام ويحرمه .

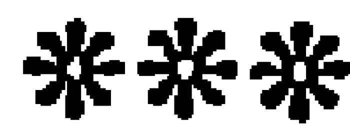
وكذلك الكوميديا التى تخرج بفكاهاتها ومفارقاتها الهزلية الى الكلام « المكشوف » ، المتفحش فى ذكر علاقات الرجال بالنساء .. انها مما يرفضه الاسلام ويدفعه بالافك والبهتان .. ولم لا ؟ أليس ذلك اهدارا للقيم واستمراء للانحلال واجتراء بالفحشاء على النبل والحياء ؟

بلى ، وحذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » .

فالاضحاك أو الكوميديا مواقف ساخرة لاوضاع يكون عليها الفرد أو الطبقة أو المجتمع .. فاذا جاء الاضحاك سخرية من انحراف أخلاقي أو سلوكي ابتغاء الترفع عنه استنقاذا للنفوس وتطهيرا للصدور أو تقويما للافكار ، اذا جاءت الكوميديا بهذه المعانى فهى الفكاهة المحبوبة المليحة بل هى الفكاهة الحقة الصادقة .

فان لم تكن الكوميديا للاصلاح والتقويم وكانت المواقف الساخرة أو الفكهة مما لا ضرر منها ولا اساءة للمشاعر فهى من طبائع الاشياء لا يلحظها فى علاقاتها ومفارقاتها سوى الذكاء اللماح فذلك ما يجب أن ننشده بغير غضاضة أو تأفف .. وانها لدلالة عميقة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه : « انى وان داعبتكم لا أقول الا حقا » .. وانها لدلالة عميقة أيضا أن يحذر عليه السلام من المزاح فيقول : « لا تمار أخاك ولا تمازحه » .

وفيصل الامر أن موقف الاسلام من الكوميديا يحكمه قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١١ سورة الحجرات) .



ان الفنون التى تزيف على الناس حياتهم وتسعى الى الجامهم بلجام الشهوات ، أو تسعى الى بث الفرقة والتناحر بينهم هى فى حقيقتها آفات نفسية صادرة عن نفوس منحرفة تتآمر من أجل هدف قد يكون ذاتيا أو « شخصيا » وقد يكون اجتماعيا أو قوميا .. والانحراف ابتعاد عن شريعة الحق سبحانه ومثل ذلك الابتعاد لا يخلق انسانا ولا يصلح مجتمعا .. وذلك من اتباع الاهواء وليس أضل ممن يتبع هواه ، يقول سبحانه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » (٥٠ سورة القصص) .. ولذلك فقد حذر القرآن الكريم من الاغترار بما يزينه أصحاب الاهواء لان قلوبهم غافلة عن ذكر الله . ومن غفل عن ذكره فقد غفل احساسه وعقله عما يجب عليه أن يعمله لتقويم نفسه والاسهام فى بناء مجتمعه ، قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٢٨ سورة الكهف) .

لكنما الصدق الجميل هو الذى يحيى النفوس ويعاطفها ويجعل حياتها عملا واصلاحا .. ونحن اليوم فى عصر فنون التعبير فيه لم تعد مقياسا تقاس به درجة

الارتقاء الحضارى فحسب ، وانما أصبحت أيضا سلاحا نفسيا قادرا على بث بذور الفتنة أو بذور الشك والتمرد فى المجتمع .. وقادرا أيضـــا على تخريب اخلاقيـــاته وتقـــاليده بما يعرضه من مآثم الفحشـــاء متذرعا باسم المدنية والحرية أو ما يقال له بالاهتمامات المعاصرة ..

الا ان الفنون اذا صدقت وصدق القائمون على أمرها والمبدعون لها وسارت على هدى من القرآن الكريم لكانت نعم العمل الذى يسعد ويغنى ويبعث الحياة فى النفوس.

الفصل الرابع :

الاحساس بالجلال

هل هناك اختلاف بين الاحساس بالجمال والاحساس بالجلال ؟

وهل هناك اختلاف بين الجميل والجليل ؟

ان الجمال يهدى الى الايمان بالله .. فهل الجلال ايضا يفضى الى الايمان بالله ؟

الا ان الانسان ينشد الخير دائما .. وينشد المتعة دائما وذلك فى لحظات حافلة بالدلالات أو الرموز الصوفية وهى لحظات يحققها الانسان بطريقتين : الاولى، بالتأليف بين العناصر والتنسيق بينها طالما كان بينها من التناسب ما يسمح بذلك . وهذا التأليف أو التوحيد بين العناصر هو الذى يعطينا الجمال The Beautiful أما اذا وجد بين العناصر ما لا يتسق مع المجموع ويكون عائقا فى سبيل التوحيد فان الانسان يمحص العناصر ويستخلصها مما يعوق تناسقها وتكاملها . وهذا التوحيد الذى يتم بالاستصفاء والاستنقاذ من بين مصطرع التنافر هو ما يعطينا الجلال The Sublime .. فالمعرفة التى نجنيها آنئذ لا تتم كما يقول شوبنهور:

« الا (١) بواسطة نضال شعورى وانفصال حاد عن الارادة » .

اذن يمكن القول بأن مما يثير الخوف أو الرعب ، ومما يثير الاسى والاشفاق ، ومما يضغط على الارادة والفكر مثيرا للضيق الحانق .. ذلك كله من دواعى اثارة الاحساس بالجلال . فالكوارث الاجتماعية أو الكوارث المصيرية تثير الخوف وتثير الرعب .. والامتدادات الهائلة فى ظواهر الكون من السموات اللانهائية في ليلها ونهارها ، الى البحار الشاسعة والصحارى الواسعة والجبال الشامخة فى خشية وعبوس .

أمام تلك الظواهر الرعيبة يرتجف الشعور وترتعد الارادة ولا يجد الانسان مناصا من الانكماش فى ذاته ثم لا يلبث أن يشعر بأنه فى أمان وأن لا شىء قد اعتدى عليه . فيولد هذا الشعور فيه حركة عكسية اذ يشعر بالانفصال والتحرر : « وهو الشعور (٢) الذى يتألف منه الجلال فى الحقيقة » .

واذا كان كل من الخوف والرعب يؤديان الى الجلال او يعملان على تكشيف الاحساس بالجلال وتحديد خصائصه وأبعاده فان الاشفاق وما يكون عليه من أسى يسمو بالفكر ويحلق بالوجدان فوق المآسى والفواجع مقيما من واقعه الذى يعيشه ستارا شفيفا يتأملها من من خلاله تأمل الاعتبار وهنا يتوج الشعور بالاحداث بتاج الجلال .

(١) ، (٢) كتاب : (شوبنهور) ، تاليف د. عبد الرحمن بدوى ص ١١٩ .

فليس لشىء من الاشياء صفة الجلال فى ذاته ، انما تخلع عليه هذه الصفة ـ على أى درجة كان هو فى سلم الكائنات ـ بقدر ما يحدثه من أفكار ويأتيه من فعال ، فالفعل بما يحدثه من أصداء وانعكاسات فى المشاعر هو الذى يتصف بالجلال . ولكننا بوحى من هذه الانفعالات نجسدها فى الشىء الذى انبعثت منه فيصبح هو المتصف بالجلال .. ولقد يظهر البعض أن الاشياء ذات الاحجام الهائلة والامتدادات العظيمة أقل جلالا من الاشياء الرعيبة والمخيفة ولكن الشىء ذو الحجم الهائل كما يقول سانتيانا : « لا يقل (١) جلالا عن الشىء المرعب » .

وربما خطر للبعض أنه طالما كان الخوف والرعب والاحجام الهائلة من أشراط الجلال وتكوين الاحساس بالجلال ، كان معنى هذا أن الجلال يشوبه القبح بمعنى من المعانى .. ولكن حقيقة الامر على غير ذلك فقد رأينا أننا فى الجمال ننغمس فى المحسوس ويصبح احساسنا موضوعيا نتيجة انشغالنا بتوحيد عناصر الموضوع الجميع بالتنسيق بينها .. ولكننا فى حالة الجليل نقوم بكفاح ونضال فى سبيل التوحيد والتنسيق أى فى سبيل خلق الموضوع الجليل الذى يصبح احساسنا نحوه أحساسا جماليا بلغ الغاية فى النقاء والصفاء هو الروحانية الغامرة .. فالجلال كما يقول سانتيانا : « هو أقصى (٢) درجات الجمال التى يوجد فيها الجمال نشوة

---

(١) ، (٢) كتاب (الاحساس بالجمال) ، تأليف جورج سانتيانا ، ترجمة : د. محمد مصطفى بدوى .

فى النفس . أنه لذة التأمل حينما تصل الى درجة من الحدة تبدأ عندها فى فقدان موضوعيتها بحيث يتضح أنها كما هى فى جوهرها دائما عاطفة باطنة فى الروح . فبينما نجد فى الجمال كمال الحياة عن طريق نزولنا وانغماسنا فى الموضوع نجد فى الجلال كمالا أصفى والصق بنا عن طريق تحدينا للموضوع تحديا كاملا » .

ولئن وجدنا فى الجمال والاحساس به ضرورة وجودية يبنى بها الكيان الانسانى فى تصوره واعتقاده ويبنى بها سلوكه الذى يقوم على شريعة من أمر دينه .. وأنه بالاحساس بالجمال ينمو الفكر فى حرية ونشاط وهو فى حريته ونشاطه يسعى حثيثا فى آفاق جديدة مجهولة بغير توجس ـ لئن كنا قد وجدنا فى الجمال كل تلك المعانى فاننا نجدها فى الجلال حادة عنيفة وأشد اثارة للفكر والاحساس .

ومن هنا نستطيع أن نقول ان الجلال جمال ثائر عنيفة آثاره فى النفس والفكر . ومع هذا فليس لنا أن نقول ان الجلال أسمى من الجمال ، أو أن الجمال أسمى من الجلال ذلك لان لكل منهما بواعثه وضروراته ولكل منهما ميقاته المعلوم الذى يعرض فيه .. فالحياة لا تستقيم اذا سادتها زلزلة التخويف بل وربما فقد التخويف تأثيره .. وكذلك لا تستقيم الحياة اذا عمتها الوداعة وتغشاها الهدوء فقد يتجمد الاحساس مما يؤدى الى انحراف التصور وضلال التفكير .

والقرآن الكريم في تربيته للانسان على منهاج الجلال والاحساس بالجلال يأتي بالمصيريات الكبرى ذات الطابع الانفعالي المتميز والتي لهـا وقع خاص على الفكر والوجدان وذلك حين يتعرض الانسان لازمة الشك أو حين يتمرغ سادرا في حميم الكفران ويراد انتشاله مما هو فيه في عنف وصرامة .. ومن هذا القبيل أيضا الاحداث الالهية التي تقتضي المهابة والقوة حين عرضها على الانسان .

فالقرآن الكريم في تصويره لها يأتي بآيات الجلال البياني التي تجسد الحركات حتى ولو كانت معنوية . وتشخص الإنفعالات وكأننا أمام مشاهد حية حقيقية فالظلال والاضواء قد أخذت حقها في الوضوح .. وهواجس الظنون وهمسات النوايا وزلزلة الاحداث وضجيج حركات التغير ، كل ذلك نسمع موسيقاه واضحة النبرات متمايزة الايقاع مما يبرز قسمات المشهد ويعطي للحركة من الصوت ما يجسد طبيعتها ..وصحيح ان الموسيقى البيانية تضفي على المشهد سمات الجمال ولكنها ترتفع به الى مرتبة الجلال المتسامي فيحس الانسان حين تنفذ الى وجدانه انه أمام لحظة الحسم التي لا تحتمل الارجاء ، وأمام القول الفصل الذي لا يقبل التأويل .

***

— ١ —

ها هو ذا القرآن الكريم يجيب على السؤال الذي لا يسأم الانسان من التصريح به واعلانه ، وهو : ما هي

طبيعة الارادة الالهية ؟ وكيف تعمل ؟ .. وهنـا يعطى القرآن الكريم ما يثبت الضمير ـ المهتز ـ على الايمان ويؤصله فى أعماقه ؛ وفوق ذلك فهو يزجره على التمادى فى هذا التطاول ، وتلك المعانى ندركها فى قوله تعالى : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (٥٠ سورة القمر) .

فالآية الكريمة جاءت بهذا التصوير للارادة الالهية بما يحتمله التصور الانسانى والخيال الانسانى .. انهـا تجسد عمل الارادة فى حركة يعرفها الانسان انها حركة العين وهى تبصر الشىء فى أقل اللحظات : فى لمحة .. فأية قدرة تستطيع أن تدبر أمر الوجود فى مثل تلك اللحظة التى يصعب قياسها ؟ وأية قـدرة تستطيع أن تدبره فى مثل ذلك الاحكام والاتقـان والاحسان ؟ انه لا قدرة غير قدرة الله .. فهناك اذن تصوير لجـلال القدرة .

وشبيه بهذا مع الاختلاف فى مناسبة الموقفين قـوله تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (١٦ سورة غافر) .

والنداء هنا رهيب لانه يوم الرهبة والفزع الاكبر ، انه نداء توعية وتذكرة .. يقول للانسان مسائلا : « لمن الملك اليوم » .. وتتجسـد فى هذا الاستفهام صورة الكون كله وقد رجع فى لمح البصر الى من أنشأه أول مرة رجع خاضعا ذليلا .. ثم يأتى الجواب : « لله الواحد القهـار » ، ليتم للنـداء جـلال معناه وللموقف جـلال لحظته . فالملك لله الواحد ، وهذه هى الوحدانية المنزهة

عن الشركاء .. ولما كان الموقف موقف فزع وجزع فقد جاءت كلمة : « القهـــــار » بموسيقاها الرعيبة لتلقى بأصدائها ظلة من الرهبة على المشهد كله .. المشهد الذى اجتمع فيه الكون والانسان فى قبضة الديان فى لحظة الجلال الاعظم .

***

— ٢ —

ويأتى تصوير مشاهد القيامة وما فيهـــا من رهبة وترويع وانذار ، تربية وتزكية للاحســاس بالجلال فى وجدان الانسان وفكره .. ومن هذه المشاهد ما جاء فى سورة القارعة ، قال تعالى : « القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القـــارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأما من ثقلت موازينه . فهـــو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهية . نار حامية » (سورة القارعة) .

فى هذه السورة الكريمة تتلاحق الاحداث فى قوة ورهبة تعصف بما فى طريقها وتقرع ما فى طريقها : « القارعة . ما القـــارعة . وما أدراك ما القارعة » وهكذا يبدأ اليوم العظيم ، يوم القيـــامة .. انه رهبة لا ينجو منها أحد .

والمشهد الثانى هو حال الناس والجبال ، يصيرون كالفراش وما للفـــراش من حــول ولا حيــلة .. وتصير الجبال الصلبة كالعهن المنفوش ، وهذا كله مما يثير الفزع ويملأ النفس وجلا ...

والمشهد الثالث هو لحظة الحساب وما أطولها وأهولها وأعدلها ، ثم تكون الخاتمة أما الى الجنة أو الى النار .. وهنا تؤكد الآيات البينات هول الجحيم فى تصوير يثير الرعدة فيقول سبحانه : « وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهية . نار حامية » ...

ومن مشاهد الجلال فى القيامة ما يمكن أن نسميه بالجلال النفسى وذلك لمـا يصيب النفس من خوف يوم الفزع الاكبر فيرغمها على أن تسلك مسلك الشرود ، فلا تدرك كنه ما تعمل ولا تعى الى اين تسوقها خطاها ، يقول سبحانه : « فاذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقهـا قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » (٣٣ : ٤٢ سورة عبس) .

ونحن فى هذه المشاهد المتدفقة نجد الرهبة فى لحظة قيام الساعة وأثرها فى النفوس .. والرهبة فى الكيفية التى تنتهى بها تلك اللحظة : فالسرعة الخاطفة ، وبشاعة الاحداث ، وعنف الانفعالات ، وروعة الخاتمة .. كل ذلك يمر مركزا موجزا يصور فى تركيزه طبيعة المصير.. وطبيعة الغاية ، تلك الغــاية التى تهدف الى استنقاذ الانسان من ركام الشرك تطهيرا لارادته وفكره وخياله .

وليست مشاهد القيامة وحدها بالتى تستـــــتهول الوجدان فتبتعث فيه الاحساس بالجلال .. فقد تأتى صورة فكرية بمنطق حي له من الفاعلية وبعيد الاثر مايثير الاحساس بالجلال وذلك بتصوير التناقض الذى يجسد الفروق تجسيدا يظهر مدى العظمة والقدرة ، ومدى الضآلة والتهافت .. نجد هذا فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٧٣ سورة الحج) .

فالله سبحانه يخاطب الناس أجمعين الا يتخذوا من دونه وليا من عباده أو ما قد يتخيلونه فى مقام الالوهية لانه لا يستطيع أن يخلق أحقر الاشياء ، يقول سبحانه : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا » .. فاستهجان العقل الذى انحدر الى هذا الدرك فى عقيدته ، وكذلك التحقير لقدرته يخلقان نوعا من المفارقة النفسية المرعبة تعلو حدتها فى قوله تعالى : « ولو اجتمعوا له » .. ثم يصل الرعب النفسى أقصاه حين يعرف الانسان أن بمقدور « الذباب » أن يغلبه ويقهره ، يقول سبحانه : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .. وبهذا الضعف المخيف يستيقظ الفكر من سباته رجوعا الى الحق سبحانه وهذا هو غاية الاحساس بالجلال .

وعند فلاسفة الجمال أن تصوير الرذيلة – أو القبح – ليس معناه حضا عليها ، فهو حين يكون رائعا عبقريا فانه يثير الضمير والوعى بل وينسف ركام التقاليد المنحرفة عن سواء الحق .. وبذلك يرتد المرء الى اليقين الصادق الذى يوجب العدل والتعاطف الجميل ، ويقرر القرآن الكريم هذا المبدأ فيقول سبحانه : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (٢٦ سورة البقرة) .

ومن صور بعث الاحساس بالجلال ما جاء فى تصوير القرآن الكريم لخليقة الاغتياب ، فيقول سبحانه : « أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » (١٢ سورة الحجرات) .

والتصوير هنا ما جاء مجسدا لسلوك اجتماعى له آثاره النفسية الخطرة على الفرد والمجتمع . ولهذا جاء التعنيف والتخويف على هذه الصورة البشعة التى ما ان يطالعها الخيال حتى تصاب النفس بالغثيان والنفور هربا من بشاعتها .. وهذا الهرب المرتجف من بشاعة المنظر هو فى الحقيقة نضال التسامى الناتج عن الاحساس بخطورة التبعة .

والله سبحانه غيب يدرك الابصار ولا تدركه الابصار فمن آمن به فقد آمن بالغيب فى كل صوره وأشكاله ...

ولقد قلنا من قبل ان الايمان بالله تبارك وتعالى فطرة انسانية وأن الاحساس بالجمال فى أرقى صوره وأجدرها بالحقيقة الانسانية هو من دواعى الفطرة المؤمنة . فاذا كان الغيب شرط الايمان الكامل ، واذا كان الايمان فطرة وان من طبيعة الفطرة العمل والمخاطرة فان معنى هذا أن الاحساس بالجلال فطرة انسانية لا احساسا مصطنعا او انفعالا طارئا يصاب به الانسان فى وقت ثم ينصرف عنه أو يهجره فى معظم أيام العمر .

ولقد جاء القرآن الكريم فى تربية واستجاشة الاحساس بالجلال عند الانسان متفردا فى منهاجه البيانى الذى يعرض به مشاهد الغيب ومتفردا كذلك فى الموضوع الذى يصوره . والغيب الذى يصور القرآن الكريم بعض مشاهده ليس غيبا أسطوريا تفوح منه روائح التجديف الذى يتهاوى أمام التفكير العلمى القويم .

* فمن صور الغيب التى يعرضها القرآن الكريم غيب الماضى التاريخى :

وللماضى جماله وجلاله غير أن صبغة الجلال اظهر وأكثر وضوحا وذلك لاننا حين نطالع الماضى فى الآثار التى خلفها أصحابها أو نقراه فى صحفهم التى سطروا فيها أيامهم أو سطرت عن أيامهم فان احساسنا بالماضى يكون مزاجا من مشاعر متباينة .. فنحن نطالع الآثار دهشين يفعمنا شعور بالاعجاب والاستغراب ثم ننتقل

فى لمح البصر الى شعور بالاحترام والتقدير .. ثم يتحول هذا الشعور فجأة الى خوف على المصير يبلغ قسوته وحدته درجة الفزع من الزمان .

وهكذا فان من انفعالات الدهشة والاعجاب والتقدير والفزع من الزمان يتألف مزاج نفسى واضح المعالم هو الاحساس بالجلال .

والقرآن الكريم يعرض الماضى تذكرة وتبصرة ووعيدا ولذلك فانه اتخذ أسلوب الحسم فى مخاطبة الانسان لان الامر هنا هو أمر العقيدة التى يقوم عليها الكيان الانسانى كله .. كما اتخذ منهاج التصوير الكلى التى تجسم الاحداث الكبرى فى المسيرة التاريخية ..وبهذا الاسلوب يثار الانفعال بجلال الماضى فيمن يشهده ، فمن مشاهد الماضى التاريخى ما جاء فى قوله تعالى : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى » (١٢٨ سورة طه) .

وهذه الآية الكريمة تربى وتزكى الوعى التاريخى عند الانسان باثارة احساسه بجلال التاريخ . فهى تفتح عينيه على الآثار القائمة التى خلفتها الاجيال السابقة .. تفتح عينيه ووجدانه وفكره وكأنه يشهدها لاول مرة .. ولا يرتجف الانسان من شىء ولا يرهبه شىء قدر الموت ، وتزداد الرهبة حين يلفى نفسه فى مساكن الغابرين .. ومساكن الغابرين حياة وأعمال وتطلعات وصراعات وحب وفداء ، وكل تلك الاصوات قد سكتت الى الابد وبقيت أطلال المساكن خاوية متهالكة تعوى فيها الرياح ويردد الخراب أصداءها .

وللخراب رعدة تفشى الخيال فاذا هو وجل محزون .

لكن الانسان لا يلبث أن يبحث عن العلل والاسباب محكما عقله واحساسه الفطـــــرى فى ظواهر التاريخ وكيف انتهت بأصحابها الذين انحرفوا فأفسدوا .. وهنا يرتفع الاحساس الخائف الوجل الى عبرة بالغة هى الاحساس بالجلال وصدق الحق سبحانه حيث يقول : « ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » .

* ومن الغيب : غيب الواقع المجهول .

ويقدمه القرآن الكريم فى صـــورة شـملت الظـواهر الكونية لتمثل علم الله الواسع اللانهـــائى فى سعته ، فيقول سبحانه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (٥٩ سورة الانعام) .

ان هذه الآية الكريمة زاخرة بكل ما يثير الاحساس بجـلال اللانهاية ، فهى تبدأ بالخالق المبدع ســـبحانه وبذلك تهيىء للوجدان جوا من الجلال يحيط به فاذا كل شىء يبدو جليلا مهيبا يملأ القلب بهيبته والخيال بعظمته .. ولقد افتتحت الآية الكريمة بقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها آلا هو » . واننا لنجد فى هــذا المفتتح العظيم أصداء تتجاوب بها نفوسنا وكأنهـا تغير من طبيعتها ذلك لانه بموسيقاه التى تنبعث من الصياغة المعجزة ينقل الانسان الى مشـــارف عالم الغيب حيث يدرك قبسا من نور الجلال الالهى الذى يرف على الكون بكل ما فيه ومن فيه .

ان الانسـان حين يقرأ : « وعنده مفاتح الغيب » يملأه احساس بالرضى والشوق لا يلبث أن يرتد سريعا الى نوع

من الخشوع والاحساس بالعظمة التى لا يعلوها شيء والقدرة التى تحيط بكل شيء .. وحين يردد الانسان قوله تعالى : « لا يعلمها الا هو » ، يحس أن لفظ «هو»، يطلق من ذاته نغما يملأ الفؤاد رهبة لا يدرك من أمرها الا انها تقربه الى الله .

ثم تعرض الآية الكريمة مظاهر غيب الواقع المحسوس عرضا يبعث قشعريرة من الرهبة تسرى فى كيان الانسان فيقول سبحانه : « ويعلم ما فى البر والبحر » .

واننا لننظر بالتقدير والاحترام لمن يبلغ فى علمه منزلة كبيرة .. واننا ايضا نفاضل بين العلماء بمقدار اتساع علم كل منهم ونوعية ذلك العلم .. فكيف يكون التقدير اذن اذا كان هناك من يحيط علما بكل مافى البر والبحر ؟

انه يكون تقدير الايمان والاجلال ...

وهل يخطر للعقل أو هل يستطيع الخيال أن يحصى عدد الاوراق التى تسقط من أشجار حديقة واحدة ، بل شجرة واحدة ؟ ان هذا مما لا يقدر عليه أحد من العالمين مهما أوتى من قوة الملاحظة ودقة العلم وطموح الخيال . فاذا وجد من يعلم شأن كل ورقة تسقط من اشجار الكون كله فذلك وحده هو العليم القدير ، وهو وحده الذى يحس الانسان نحوه باحساس الجلال يستشعره هزة نفسية تسرى فى أعماقه كلها .

انه الله جل جلاله : « وما تسقط من ورقة الا يعلمها » .

ويشعر الانسان برهبة خفية من الظلام ففيه تتناوحه اشباح الهواجس وتضيع منه القدرة على التعرف

والتمييز .. فاذا ضاع منه شيء فأنى يجده ؟ وكيف يعثر عليه ؟ .

فاذا علمنا أن الله وحده هو الذى يعلم سر الحبة الفائصة في الظلمات والمركومة تحت طباقها ، كان الاحساس آنذاك هو احساس الرهبة والفزع لا ينقذنا من هوله سوى الاستسلام لله سبحانه ، خالق الكون كله .

ثم تختتم الآية الكريمة مشاهد الجلال هذه بما يجمع كل عناصر الكون فى العنصرين الاساسين للطبيعة وهما : الرطب واليابس .. وبذلك تنفرج آفاق المشهد أمام البصيرة الانسانية ليصبح الاحساس احساسا بجلال الكون .. أجل ، احساسا بجلال خالق الكون ومبدعه ، قال تعالى : « ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .

فسبحانه جل شأنه : « هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم » (٢٣ ، ٢٤ سورة الحشر) .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٢٣ ـ ٨٣
الترقيم الدولى ١ ـ ٠٦٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury B. 25 de Marcc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٣٠٠مليم :

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية٦ ريالات ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٣ر٥فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة، فرانكفورت ٣ر٥ مارك ، فينا ٣٥ شلنا كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم١٤كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورينات .



هــذا الـكتـاب

سلك القرآن الكريم فى منهاجه لتصحيح الموازين الانسانية مسلك التربية الجمالية ليكون الاحساس بالجمال هو الوعى الاولى الضرورى الذى يلزم الانسان بواجباته الزاما أخلاقيا .

فالقرآن الكريم فى بعثه للاحساس بالجمال فى وجدان الانسان وفكره وخياله تصحيحا للموازين الانسانية لم يجعل فيه مجرد زينة سلوكية أو ظاهرية يتحلى بها المرء أو يتذوق متعتها بانفعال جمالى سلبى اذا شاهدها متمثلة فى الغير .. لكن القرآن الكريم جعل من الاحساس بالجمال التزاما أخلاقيا ضروريا يلتزم به الانسان وفق شريعته .. وبذلك تتحقق للانسان الحرية التى هى قوام عمله والعدل الذى يسعى اليه والرخاء الذى يأمله ..

وتلك هى المعانى التى نخرج بها من موضوع كتابنا هذا « الاحساس بالجمال فى ضوء القرآن الكريم » .



سلسلة
ثقافية
شهرية

الطائفيّة والحكم في لبنان

جمال الألفي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٨ ـ جمادى الاول ١٤٠٤ ـ فبراير ١٩٨٤

No. 398 — February 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية و ٦٠٠ مليم بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسـدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة :
الفنانة سميحة حسنين

جمـــال الألـفى

الطائفيّة والحكم فى لبنان

دار الهــلال

مقدمة

يتميز تاريخ لبنان بقابليته للتكرار ، وان اختلفت الرموز أو الشخوص ، هذا النوع من التكرار الذى قد يبعث على الملل ، يتميز بخاصية فريدة ، قل وجودها فى تاريخ الشعوب ، أن استمرارية التاريخ اللبناني لم تتقدم خطوة واحدة الى الأمام ، تجاربها لا تقدم اضافة ، اذا كان هناك ثمة اضافة : فهى الى الاسوء على الدوام ...

اقرب الأمثلة ، تاريخ لبنان على امتداد ربع قرن ، يبدأ منذ عام الثورة الاهلية ١٩٥٨ ، لا ينتهى بالعام الحالى ١٩٨٣ ، الأحداث مستمرة ، بنفس وقعها التقليدى ، مع المزيد من التردى الى وقائع أكثر مأساوية، لا نعتقد أن شعبا آخر ، غير اللبنانيين ، قد عايشها بمثل هذا الحجم ، أو تعود عليها ، كما لو كانت عمليات القتل ، والتهجير ، والاتهامات المتبادلة ، والهروب مرة الى الخلف ، ومرة أخرى الى الأمام : هو خط الحياة العادية لكافة البشر ...

كل التدخلات الأجنبية فى الشئون اللبنانية فى عام ١٩٥٨ ، هى نفس التدخلات الاجنبية الموجودة

عام ١٩٨٣ ، باستثناء واحد ، هو اسرائيل ، الذى كان تدخلها عام ١٩٥٨ غامضا وغير مؤثر ، ولكنه ظل موجودا سواء بشخصه أو عن طريق وكلائه من الامريكيين ...

عندما عادت الحرب الاهليـــة عام ١٩٧٥ ، ما زالت الحرب مستمرة حتى الآن ، بعـد مرور ثمانية أعوام ، لا زالت كل العوامل التى فجرت الحرب ، قائمة بعنفوانها، فضلا عن قابليتها الفـــريدة للاستمرار ، والانتشار ، فى العام ١٩٨٣ ، توجد قوات احتلال اسرائيلية فى جنوب لبنان ، تخطط للبقـــاء ، طالما ظلت أسرائيل قادرة على البقاء على حساب الجيران ، تبلغ مســـــاحة جنوب لبنان ١٧٥٠ كيلو مترا ، تمثل ربع مساحة كل لبنان ...

توجد أيضـــا فى لبنان قوات للأمم المتحدة ، وقوات ما يسمى بالمتعـــددة الجنسية ، ومعروف أن هـذه القوات لا يوجد لها سند دولى ، ولا تعرف عنها الأمم المتحدة شيئا ، وهى قوة يستند وجودها فى لبنان الى اتفاق ثنائى بين الولايات المتحدة الامريكية وبين حكومة لبنان ، ثم باتفاق بين الولايات المتحـدة الامريكية وبين كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، وهذه القوة الرباعية الغربية موجودة فى لبنان منــذ عام ١٩٨٢ ، ويتزايد وجودها باضطراد ، كما تزيد صلاحيتها وفقا لتداعى الاحداث اللبنـــانية ، فقد كانت مهمتها اشرافية فى البداية ، تحولت الى قوة مراقبة فيما بعد ، ثم انتهت الى تكليفها بمهمـات قتـــالية ، وقد اشتركت سـفنها وطائراتها ومدافعها فى الحرب الاهلية بحجة ايقاف اطلاق النار بين الاطراف اللبنانية المتصارعة ، ثم بحجة مساندة الشرعية ، بمعنى تأييد حكم الكتائب لشعب لبنان .

توجد ايضا فى لبنان بعض القوات من الحرس الثورى الايرانى ، الذى ارسله الامام الخومينى الى منطقة طرابلس ، تحت دعاوى كثيرة من بينها تأييد السوريين او الدفاع عن الفلسطينيين ، أو دعم الطائفة الشيعية اللبنانية . أو اثبات التواجد الايرانى فوق ساحة القتال اللبنانية ، وهى مهمة تثير خيال الثورة الايرانية ، وتعتقد بامكانية تصدير أفكارها الى بقية أنحاء العالم العربى ، وبالتالى جعلت من لبنان حقلا متقدما لتجاربها فى تصدير الثورة ...

توجد ايضا قوات لسوريا متواجدة منذ سنوات طويلة ، حضرت أولا لتأييد الموارنة ضد الفلسطينيين عام ١٩٧٦ ، وانتهت حاليا بالدفاع عن وجودها الشخصى فى لبنان ، بعد مطالبة اسرائيل والولايات المتحدة بخروجها من البقاع اللبنانى ، وخاصة بعد توقيع الاتفاقية الاسرائيلية ـ اللبنانية فى ١٤ مايو ١٩٨٣ ، والتى اشترطت اسرائيل بسببها اخراج السوريين ...

وكانت القوات السورية قد نزلت اراضى لبنان بموافقة جامعة الدول العربية ، وكانت دول البترول العربية هى التى تتكفل بتغطية نفقات القوات السورية فى لبنان ، وحتى الآن ، غير أنه منذ عام فقدت الجامعة العربية اية فاعلية ، واشترطت سوريا اخراج القوات الاسرائيلية اولا ، قبل التفكير فى الحديث عن خروج سورى من لبنان ...

توجد أيضا قوات ليبية فى لبنان ، تحت شعارات مختلفة ، من بينها تأييد التواجد الفلسطينى المزعزع ، أو دعم السوريين ، او مشاركة الايرانيين اهتمامهم

بالوضع اللبنانى ، أو اثبات التواجد الليبى فى حد ذاته .. وهى أيضا قضية تثير خيال الزعيم الليبى معمر القذافى ، بشكل مباشر ...

بالنسبة للتواجد العسكرى الفلسطينى ، لقد تم ضرب هذا التواجد بقسوة ، عقب الغزو العسكرى الاسرائيلى للبنان ، فى يونيو عام ١٩٨٢ ، لقد دخلت اسرائيل اراضى لبنان رافعة هذا الشعار وحده ، كمبرر نهائى لاحتلالها ابنان ، تم بالفعل اخراج عرفات ومعظم مقاتليه بمطالبة دولية وموافقة عربية شبه جماعية ، ما تبقى حاليا من فصائل عسكرية فلسطينية سواء فى البقاع أو فى طرابلس . لا تساوى شيئا الا رمز الوجود وحده ، فالقوات الفلسطينية فى البقاع متصارعة ، ويحكم حركتها التواجد العسكرى السورى الكثيف فى المنطقة ، فى منطقة طرابلس ، ربما كان الوضع أسوأ حالا بالنسبة للفلسطينيين ، فهم يرفعون السلاح فى وجه بعضهم البعض ، فى قتال مستمر بين انصار عرفات وأعدائه ، يحيط بهم من كل جانب قوات سوريا والحرس الثورى الايرانى ، والجنود الليبيين ، وميلشيات الكتائب ، بينما تحكم حركة الجميع مدافع الاسطول الامريكى والقوات المتعددة الجنسية ، وقوات الاحتلال الاسرائيلى .

الى جانب كل هذه الجيوش العربية والاجنبية المتواجدة فوق الاراضى اللبنانية ، توجد ميلشيات محلية تقوم بدورها القتالى على أكمل وجه ، لصالح أهدافها الخاصة ، التى قد تتفق أو تختلف مع أهداف ومصالح القوى الغير لبنانية ، أهمها ميلشيات حزب الكتائب

المارونى ، وميلشيات الدروز ، والشيعة .. والمرابطين ، وميلشيات للحزب الشيوعى اللبنانى ، والحزب القومى السورى ، وجماعات البعثيين .. الخ ...

يأتى فى نهاية القائمة العسكرية المطولة ، جيش لبنان الرسمى ، هذا الجيش لا يوجد له وجود حقيقى ، فقد أنهت الحرب الاهلية التواجد الرسمى والفعلى للجيش اللبنانى قبل ثمانية أعوام ، وعندما دخلت قوات اسرائيل عام ١٩٨٢ أراضى لبنان ، لم يكن للبنان جيش بالمعنى المعروف أو غير المعروف .. !!

بعد التوصل الى انسحاب جيش اسرائيل من بيروت واخراج عرفات وقواته ، ودخول حزب الكتائب لأول مرة قصر الرئاسة اللبنانية ، بدات الولايات المتحدة تفكر فى اعادة تأسيس الجيش اللبنانى قبل عام واحد ، غير أن سرعة تداعى الاحداث الدامية لم تمكن الولايات المتحدة من اعادة بناء جيش وطنى لبنانى ، تأمل تأكيد السلطة المزعزعة للحكم الشرعى للبلاد والذى يحظى بعطف الامريكيين ، وعندما اضطر هذا الجيش لدخول أول تجربة له فى القتال ضد ميلشيات الدروز فى سبتمبر ١٩٨٣ ، ثبت أنه لا يوجد جيش ، وانه لابد من تدخل كثيف من جانب القوات الامريكية فى بيروت ومدافع الاسطول السادس الامريكى فى عرض البحر لانقاذ بقايا الجيش اللبنانى من منطقة سوق الغرب على طريق بيروت ، بعد أن فقد الجيش فاعليته المحلية ، وتورطه فى القتال الطائفى ، وهجرة الجنود والضباط الدروز وعلى رأسهم رئيس أركان الجيش ؛ تكون لبنان ، هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا يوجد لها جيش وطنى ،

بينما يوجد فوق أراضيها ، بشكل مباشر ، قوات تمثل حلف الاطلسى ، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليـــا الى جانب اسرائيل .. مقابل قوات تحمل أسلحة حلف وارسو ، ومتهمة بأنهـــا تنفذ مخططات سوفييتية مثل سوريا والفلسطينيين والليبيين ، داخل دولة لا تمتلك جيشا ، وتعيش فى ظل حكومة انتقالية ، تطالب كل الفصـــائل اللبنانية بضرورة ازاحتها أولا ، كبداية معقولة للحديث عن أى وفاق محتمل ...

***

هذه هى لبنان التى أزعجت حوادثها كل عربى طيـلة الشهور الماضية ابتداء من سبتمبر عام ١٩٨٣ ، حتى الآن ، أزعجت كل عربى ، لا يجد تفسيرا معقولا لـكل ما يجرى هناك ، دون سند واقعى ، أو مبرر أخلاقى ، أو مصلحة وطنية ، فضلا عن احتمالات تداعى مخاطر الواقع اللبنانى ، على الوجود القـومى للعـالم العـربى بأكمله ..

***

ان التواجـــد الطـائفى ، ليس بدعة تتفرد بها لبنان دون بقية دول العالم ، يكفى نظرة راحدة داخل الوجود الاسرائيلى المجاور لنكتشف طـوائف وفئـــات وطبقـات يصعب تواجدها داخل اناء واحد ، يهود غربيون فى قمة الهرم الاجتمـــاعى يحكمون ، ويمتلكون ، ويحتكرون السلطة والمناصب العليا فى كل نواحى الحيـــاة المدنية والعسكرية والاقتصـــادية ، الى جانب يهود شرقيين يعتبرون شركاء من مرتبة أقـل ، ومن داخـل الفئتين ، توجد عشرات الطوائف الدينية اليهودية المتصارعة ، فيما

بينها ، الى الحد الذى لا يجوز فيه زواج افراد طائفة من افراد طائفة يهودية أخرى ... !!

الى جانب اليهود يوجد عرب فلسطينيون ، وتوجد كنائس ومعابد ومساجد ، وتنتشر الاديرة هنا وهناك ، ولكن الدولة اليهودية تعيش حياة علمانية ؛ وحكومة ترفع شعارات دينية ، وتطبق كافة سياساتها الداخلية والخارجية بطريقة برجماتية ..

والاحزاب الدينية فى اسرائيل ، تقدم خدماتها منذ قيام الدولة للحزب السياسى الذى يتفوق بالقدر الذى يجعله يصل الى كراسى السلطة ، والاحزاب الدينية الاسرائيلية تتعامل مع حزب العمل بنفس القدر من العدل الذى تتعامل به مع أحزاب الليكود رغم التناقض الواضح بينهما فى مجالات العمل الداخلى على الاقل ، انها تتعامل فقط مع من يفوز بالسلطة ، للفوز بالمزيد من المغانم ، كل ما يهمها الحصول على بعض المقاعد الوزارية ، ولعل أهم شخصية دينية فى اسرائيل لها حضور سياسى بارز ، وهى شخصية السيد أهارون ابو حصيرة ، وهو زعيم لأكبر الاحزاب الدينية فى اسرائيل ، وكان وزيرا دائما فى كل الحكومات الاسرائيلية تقريبا منذ قيام الدولة ، وكان وزيرا للأديان فى حكومة بيجن الاخيرة وهو عضو دائم فى الكنيست الاسرائيلى ، اين ابو حصيرة الآن ، يعيش داخل سجون اسرائيل ، بعد ان فقد منصبه السياسى ، وان كانوا فى اسرائيل قد احتفظوا له بمقعده فى الكنيست ، لا اعجابا بالشيخ ، ولكن من اجل المحافظة على صوته داخل الكنيست لصالح الحكومة اذا اقتضى الحال ..

اما جريمة الزعيم الدينى اليهودى ، فهو أنه تقاضى رشاوى ، وانفق من أموال الجماعات الخيرية على هواه ، ويقضى ابو حصيرة حاليــا أيامه فى السجن ، وعندما وجدت حكومة شامير انها محتاجة اصوته فى الكنيست لكى تفوز بالثقة ، قالوا ان أبا حصيرة شيخ كبير السن . وصحته لا تساعده على مشقة حياة السجون ، جعلوه يقوم بأعمال كتـــــابية داخل احد مراكز الشرطة لمدة ١٠ ساعات يوميا ، ثم حملوه من مركـــز الشرطة بعد ظهر يوم الاثنين ١٠ اكتوبر ١٩٨٣ تحت حراسة مشددة، الى مبنى الكنيست ليدلى بصوته لصالح حكومة شــامير التى كانت فى أمس الحـــاجة لصوت الزعيم الدينى السجين ، لـكى يفـــوز بثقة ضئيلة ، تؤهله بالـكاد لتشكيل حكومة تواصل سياسة بيجن المريض .. !!

بعد أن قام الزعيم الدينى أبو حصيرة بدوره السياسى المطـلوب فى الـكنيست ، أعيـد مرة أخرى الى مركز الشرطة يستكمل مدة عقوبته ، عشر ساعات يوميا فى عمل كتابى يتسم بالكآبة .. !!

هذا هو أبو حصيرة ، الذى يتمتع بالمكانة الدينية ، والنفوذ السياسى ، ولاجداده مزارات يطـوف حولهـــا اليهود المتدينون ، منذ عدة قرون .. !!

ولكن اسرائيل دولة علمانية ، واجماع الامة المتعددة الجنسية تعلو فوق كل اعتبار ..

غير أن الاهم من ذلك كله ، أن كافة القوى الاجنبية التى ضمنت اقامة دولة اسرائيل ، واستمرار كيانها ، يهمها هذا الاجماع القومى داخل اسرائيل كضمان وحيد لاستمرار الدولة التى تريدها فى الشرق الاوســـــط ،

وبالتالى لا توجد تدخلات اجنبية فى مشكلة الطوائف الدينية داخل اسرائيل ، حتى لا تضيع الدولة اليهودية نفس الميزة التى تم حرمان لبنان منهـا ، بشكل أساسي ، وبطريقة مطلقة ، قبل استقلال لبنان . وبعد استقلاله ، وحتى اليوم ..

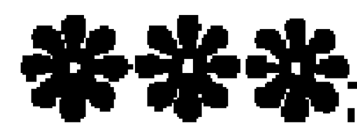
***

لا يتحـدث احـد عن طائفيـة دولة دينية مـثـل اسرائيل ، بينما يصير الحديث عالميـا عن طائفية دولة قامت باتفاق علمانى مثل لبنان ، ذلك ان اتفاق عام ١٩٤٣ وهو ما يعرف باسم الميثاق الوطنى ، ظهر الى الوجود بشكل أساسي لينظم عملية الحكم والسلطة ، ولم يكن ابدا سلوكا دينيا ، ينظم عمل الكنائس أو المسـاجد أو يبحث في شئون الاديرة ، كان ميثاق ما بعد الاستقلال ينظم كيفية حكم دولة غير انهم هناك تنفيذا لرغبة فرنسا وغيرها ، جعلوه ميثاقا طائفيا ، وفقد مدلوله الوطني الذى ظهر من أجله ، ليشتهر فيما بعد بأنه أصبح ميثـاقا طائفيا ، واخضعوا الاديان السماوية لتوزيع منـاصب دنيوية ، واغتنام أوقاف خيرية وقاموا بتأسيس ميلشيات عسكرية للمحافظة على حقوق مدنية مكتسبة بسـطوة السلاح لا بقوة اليقين ، واكلوا أموال المسلمين والمسيحيين معا ، ثم رهنوا البيت للاجانب ، وباعوا ما أمكنهم بيعـه لكل عابر سبيل .. !!

***

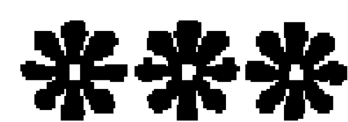
ليست الطائفية محنة لبنان الاساسية ، غير انهـم اشاعوا أنها الاساس ، وروج أعداء العرب فى الخارج للطائفية ، وجعلوها غولا يبتلع لبنان ، ويهـدد الآخرين بالابتلاع ، تصـدق أوربا وامريكا حتى الآن أن العرب

ما زالوا بلهـــاء ، يصدقون كل ما يحكى لهم ، ما يتم تصديره من بضاعة أوربية وأمريكية ؛ تظل مقبولة عربيا في كل وقت ، حتى لو كانت بضـــاعة مغشوشة ، البضاعة الغربية لا تقف عند حدود السـلع والمـكن ، وانما تشتمل الاديان والمذاهب ، وأيضا العقائد والافكار المغلقة ، بأطنان من الاكاذيب .



سوف نكتشف من خـلال هـذه الدراسـة ، انهم أنكروا على الدروز العرب نسبهم العربى ، وأنكروا عليهم دينهم ، وجعلوهم مرة من صلب الفرنسيين والصليبيين، وارتفعوا بهم مرة الى مصاف العائلات الملكية فى بريطانيا العظمى ، غير أن الامريكيين لم يعجبهم مثل هذا الكلام ، فاخترعوا نسبا جـديدا للدروز يبعـدهم عـن شرف الانتساب للفرنسيين والبريطانيين كما أنكروا أيضـا نسبهم العـربى ، ووجدوا بعد مقتـل الزعيم الدرزى كمال جنبلاط منذ ٦ سنوات فقط ، وجدوا أنه من المفيد ان يقال أن كمال جنبلاط من عائلة نزح افرادها من بلاد القـوقاز الى جبـل لبنان ، منـذ قرنين من الزمان ، لا ندرى ، ربمـا يتفضـل احد المؤرخين أو المستشرقين الاجانب ، ليعيد اكتشاف الدروز من جديد ..!!

يعتقدون أن العرب على استعداد فطرى للاستماع الى كل ما تطهيه مطابخ أوربا وأمريكا ، وتقدمه للعرب ، حتى لو كان طعاما فاسدا .. !!



ان مشكلة لبنـان الحـالية ، ليست طائفيـة بقدر ما هى مشـكلة التدخلات الاجنبية ، كانت الطـوائف

موجودة فى لبنان عام ١٩٥٨ ، وعندما نزل ٢٠ الف جندى أمريكى شواطىء لبنان ، خرجوا بعد أربعة شهور فقط ، أما القوات الامريكية التى نزلت لبنان منذ بداية خريف ١٩٨٣ ..

فهى تخطط فى أكتوبر عام ١٩٨٣ للبقاء فى لبنان الى اجل غير مسمى . والطوائف اللبنانية كما هى لم تتغير ... !!

ويفخر الجنرال شارون ، على صفحات احدى جرائد اليمين الفرنسى ، الفيجارو ، ويقول فى أكتوبر ١٩٨٣ انهم بغزو لبنان ، قد مهدوا للحضارة الاوربية والسياسة الامريكية للتواجد المستمر فى لبنان .. وهكذا تكون التدخلات الاجنبية ، وليست الطائفية ، هى مأساة لبنان ...

كانت طوائف عام ١٩٥٨ فى لبنان ، هى نفس طوائف لبنان عام ١٩٨٢ ، والذى طلب القوات الاجنبية فى الحالتين ، زعماء سياسيون من طائفة المارون .

الذى اختلف فى الحالتين أمر واحد ، تتمثل فى مدى المقدرة العربية على طرد الاجانب .. وليس عام ١٩٥٨ بأى حال هو عام ١٩٨٣ بالنسبة ظروف العالم العربى ...

***

توجد فى لبنان ١٤ طائفة دينية ، غير أن أربعة فقط هى التى تحظى بالاهتمام العام ، ولا تفوز الا طائفة واحدة فى كل الاحوال بالدعم والشهرة والتأييد ...

الطوائف الاربع ، هى الدروز ، والمارون ، والمسلمون السنة ، والمسلمون الشيعة .

اما الطائفة المميزة والوحيدة فهى طائفة المارون ..

وخاصة بعد أن تمكن حزب الكتائب اليميني من البروز كواجهة سياسة وعسكرية وحيدة للطائفة ، وعقب الانسحاب الجزئي المفاجيء للقوات الاسرائيلية من منطقة الشوف في جبل لبنان ، ٣ سبتمبر ١٩٨٣ حاول حزب الكتائب الماروني ، الاستيلاء على المنطقة ، بقوة السلاح ، وبتأييد الجيش ، وبموافقة الولايات المتحدة واسرائيل ، بطرد سكانها من المسلمين الدروز ، ونشبت المعارك ، اتسعت بدخول أطراف أجنبية الى جانب ميلشيات الكتائب ، وبدأت الحرب الاهلية ، وبدأت معها التدخلات العسكرية الامريكية ، تحت شعار حماية الشرعية ...

ثم تدخلت قوات فرنسا وانجلترا وايطاليا ، أهم القوات داخل حلف الاطلسي ...

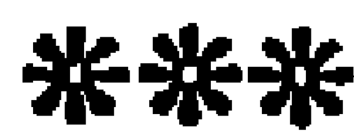
وأصبحت لبنان طوال الفترة التي تبدأ من سبتمبر الى أواخر اكتوبر ١٩٨٣ ، نقطة صراع عالمية ، بدأت بحكاية صغيرة ملفقة اسمها الطائفية اللبنانية اخترعها الغرب ، وصدقها العرب ، غير أنها الآن تهدد بحرب عالمية ثالثة ...

يقول الرئيس ريجان في حديث خلال الاسبوع الاول من أكتوبر ١٩٨٣ أنه يشعر بأنه على أبواب حرب عالمية ، وأن أكثر ما يخشاه أن الحرب العالمية الاولى ، بدأت بسبب أمر بسيط ...

في هذه الدراسة متابعة لأحداث هذه الفترة من حياة لبنان ، مع تعريف بالطوائف الاربع الكبرى في لبنان ، والتي يقول الرئيس الامريكي أنه بسببها ، بدأ يتذكر أن الحرب العالمية الاولى ، بدأت بسبب حادثة عادية..!!

غير أن الرئيس الامريكي دون شك ، يعلم أن ظروف ماقبل ٦٠ عاما لم تعد قابلة للتكرار فى هذا العصر الذى تحكمه عدة أزرار يكفى الضغط على احداها ، بسبب خطأ ما ، لكي يلف الدمار والفناء سائر البشرية .

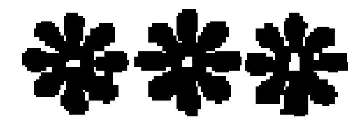
لم تكن وسائل الدمار عام ١٩١٤ هى وسائل الدمار عام ١٩٨٣ ، والمسألة العادية قبل الحرب العالمية الاولى سوف تكون بالقطع مسألة غير عادية قبل الحرب العالمية الثالثة ، واذا كانت المواجهة الامريكية - السوفييتية على أرض لبنان حاليا ، أصبحت لا تحتمل المزيد من الاقتراب الساخن ، فليست الطائفية فى لبنان ، اميرا نمساويا يتم قتله عن طريق الخطأ ، هذا مفهوم ، ويعرفه الجميع ، والطائفية اللبنانية مظلومة من كل الاطراف ، ويجرى تحريكها وفقا لرغبات هؤلاء أو هؤلاء ، وليس بسبب تعاسة أهل الطوائف اللبنانية ، تقوم الحرب الكونية الاخيرة فى هذا العالم الشديد التعاسة ...



سوف تعرف بعد متابعة تاريخ الطوائف الاربع الكبرى فى لبنان ، كما هى موجودة فى هذه الدراسة ، كيف تعيش فى ظل ظروف تاريخية بالغة السوء ، كيف تم نكران حقوقها ، كيف تكلم باسمها الآخرون طوال الوقت ، كيف تم استخدامها لمصلحة كل أولئك الذين طمعوا فى لبنان ، وأرض لبنان ، على مر العصور .

حتى طائفة المارون ، أقوى الطوائف وأكثرها نفوذا ، سوف نكتشف أنها كانت طوال التاريخ ، دمية تحركها قوة أجنبية كبرى ، لصالح فئة ضئيلة من داخل الطائفة،

مقابل الفتات ، بينما تحصل القوة الاجنبية الكبرى على كل ما تريد ، وزيادة ...



لقد جرى العبث أيضا بمصالح المسلمين السنة . حتى ابان الاستعمار العثماني الطويل ، رغم ان العثمانيين من أهل السنة ، ولكن ذلك لم يشفع للمسلمين السنة من اللبنانيين أصحاب البلاد ، فالاستعمار هو الاستعمار ، لا شيء أكثر أو أقل ...

سوف نجد أن أهل الشيعة اللبنانيين ، قد جرى ابتزازهم طوال الوقت ، حتى من جانب أقوى دولة اسلامية شيعية فى الشرق ، وهى ايران بعد نجاح الخومينية هناك ، وكيف خدع الامام موسى الصدر شيعة لبنان ، وتحدث باسمهم ، وتاجر بكل أمانيهم ، وكانت رغبتهم دائما تخطى حاجز البؤس والفقر الذى عاشوا فيه طوال القرون ، وعندما اطمئنوا الى الامام الصدر كمنقذ ومخلص ، ظهر أنه لا يقل عدوانية عن زعيم الموارنة ورئيس تنظيم الكتائب الشيخ بيار الجميل .. وأن الرجلين طائفيان من الرأس حتى القدم ...



ان المشكلة اللبنانية فى الاساس ، تنحصر فى ثلاث دوائر متشابكة ، وشديدة الخطورة ، وقابلة للانفجار ، فى أى وقت، ويجرى تعتيمها دائما تحت أردية دينية ، وشعارات طائفية ، وتدخلات أجنبية ، والخاسر الوحيد فى كل الاحوال هو المواطن اللبنانى .

الدائرة الاولى : ان لبنان كدولة مستقلة ، ظهرت عام ١٩٤٣ تحت حكم طائفى ، باركته أوربا وأمريكا ،

وجعلت الغلبة فيه للصفوة من طائفة المـارون ، وقالت أوربا وأمريكا صراحة أن الموارنة هم ، ورثة الصليبيين، وتعمدت اهمـــال بقية شعب لبنان ، وغبن حقوقه ، ووضعه فى المرتبة الاقل من حيث المواطنة اللبنانية ...

وبعد ٥ سنوات فقط ، كان الغرب على استعداد فى مايو ١٩٤٨ لزرع دولة يهودية فى المنطقة الى جانب لبنان، فاذا كان الموارنة من أهل المنطقة وأصحاب البلاد ، فان اليهود أيضا رفعوا نفس الدعوى ، وقالوا أنهم كانوا فى المنطقة ، قبل الفى عام وأنهم عادوا اليها ...

ومنذ قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ حاولت أن تنسج علاقاتهـا مع الصـفوة من موارنة لبنان ، وبعد ٣٥ عاما كانت اسرائيل على استعداد لغزو لبنان كله ، وأن تجعل عن طريق القوة المسـلحة الصـفوة المارونيـة فى مرتبة أقل ، قد لا تزيد قليلا عن مجرد وكلاء لها داخل البلاد .. ولم يمض عام واحد على الغـــزو ، حتى كان الخلاف بينهما من العمق الذى يسمح للولايات المتحدة الامريكية بالتدخل السياسى والعســكرى لبسط كامل حمايتها وسيطرتها على لبنان ...

الدائرة الثانية ، أن اللبنانيين من غـير المـوارنة ، حاولوا التعايش فى ظل أوضاع ما بعد الاستقلال ، غير أنهم فشلوا ، لذلك فان نصف تاريخ ما بعد الاستقلال اللبنانى ، هو نفس الوقت تاريخ الثورات الوطنية فى لبنان ، اما النصف الآخر ، فهو تاريخ الحروب الاهلية اللبنانية .

لماذا ، لان التركيبة الطائفية لحكم البلاد قدمت اغـراء كافيا لكافة التدخلات الاجنبية ، فى الشئون الداخليـة

اللبنانية ، بالقدر الذى أفقد الحكم الوطنى مبرر وجوده نفسه ، وهو وضع لا يمكن استمراره ، أو ضمان شرعيته بأى حال فى لبنان ، أو غير لبنان ... احدى حقائق الحياة الثابتة ، الغير قابلة للتبديل أو التزييف تحت مختلف اللافتات ..

كذلك لان لبنان جزء من العالم العربى ، الاسلامى الذى يضم أقليات مسيحية ، وغير مسيحية ، منذ ظهور الاديان ، هذا العالم الاسلامى لا يقبل بحكم التاريخ ، ومنطق الحياة ، حياة طائفية تقرر بالضرورة حكومات للأقلية ، وهو هدف استعمارى قديم ، قدم الاستعمار نفسه ، حتى قبل ظهور الاديان السماوية ، لذلك كان العالم العربى ، طواعية او كرها ، شديد الحساسية تجاه كل ما يجرى فى لبنان ، قبل الاستقلال ، وبعد الاستقلال ، وليس صدفة أن يكون اللبنانيون جميعا ، طوائف وأحزابا ، فى وفاق تام ، كلما كان المد العربى غالبا ، أما فى حالات الانحسار العربى ، فان أبرز هزائم العالم العربى ، كانت تطل على أرض لبنان فى شكل نزاعات بين أفراد الشعب اللبنانى ، تأخذ طابعا طائفيا ، كما هو الحال هذه الايام ...



الدائرة الثالثة ، فى سلسلة الظاهرة اللبنانية الشديدة التعقيد أن الشعب اللبنانى كله ، يعتقد أن مأساته لا توجد فى الطائفية وذيولها ، وارتباطاتها الداخلية والخارجية ، يعتقد الشعب اللبنانى أنه توجد أقلية غنية مترفة من داخل كل الطوائف اللبنانية ، هى التى تمتلك كل شىء ويجب على الآخرين أن يقبلوا

بالوضع ، أو ينزحوا مهاجرين ، وليس غريبا ان يكون الشعب اللبنانى ، دون غيره فى العالم العربى ، هو الاكثر ميلا الى الهجرة والاغتراب ، فى أركان العالم الاربع ، طيلة النصف قرن الاخير،خاصة بعد عام ١٩٢٠، عندما دخلت فرنسا مستعمرة أرض لبنان ، كدولة انتداب بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ...

ان الصفوة الغنية فى داخل طائفة المارون ، لا تنفرد وحدها بثروة لبنان ، توجد أيضا قلة غنية من داخل طائفة المسلمين السنة ، أصحاب ملايين ، من العقارات والتجارة ، وملاك الاراضى ، حتى المؤسسات العلمية والتربوية ، يتم اتخاذها كمصادر الربح فى لبنان .

ان طائفة الشيعة ، التى تعانى بؤسا عظيما ، فى لبنان ، لا يمكن أن تبتعد عن هذه القاعدة ، يوجد الف مليونير لبنانى من أهل الشيعة المسنمين فى لبنان ... وللدروز أيضا أمراء وأثرياء ، وأصحاب قصور ، ورجال يمتلكون الملايين ...

قضية الشعب اللبنانى فى بساطة ، هى قضية اقل من ١٠ ٪ فقط من مجموع الشعب اللبنانى ، يمتلكون اكثر من ٨٣ ٪ من مجموع الثروة القومية للبلاد ، أما بقية الشعب اللبنانى فهم على هامش الحياة ، اما يتم تجنيده مرتزقة فى الميلشيات الحزبية ، أو ميلشيات ملوك الطوائف ، أو يعملون فى اقل الاعمال احتراما واجرا ، أو يهاجرون الى حيث المجهول ...

وهكذا بينما نجد محاولات كثيرة فى كل الدول المحيطة للبنان فى الشرق الاوسط ، قد اخذت بأساليب اعادة توزيع الثروة بما يكفل نوعا من العدل الاجتماعى

للجميع ، نجد أن لبنان هي الدولة الوحيدة فى المنطقة التى لم تعرف مطلقا اى نوع من أنواع العدل الاجتماعى ، او التنظيم الاقتصادى ، حتى وظائف الدولة ومناصبها العليا موقوفة على بضع مئات من العـــائلات اللبنانية فقط ، تتوارثهـــا أبا عن جد ، كحق الهى ، بينما يتم حرمان كافة أفراد الشعب الآخرين ، من مجرد التطلع الى مثل هـذه المناصب أو المواقع ذات الشأن ، سواء داخل مؤسسات الحكم ، أو الاقتصاد ..

***

تلك هي الدوائر الثلاث التى تعانى منها لبنان ، والتى يلفونها دائما برداء طائفى فضفاض ، لاخفاء الحقائق ، وهى خطيرة ، وليست أمرا عاديا ، أو حدثا بسيطا يمكن أن يتسبب كمـا يقول الرئيس ريجان فى قيام الحرب الكونية الاخيرة ..

***

كـــان الغـــزو الاسرائيلى الشـــامل للبنان ، فى يونيو ١٩٨٢ ، أمرا شديد الغرابة بالنسبة لقطـــاعات كبيرة من الرأى العـــام العربى ، غير أن دخول جيش اسرائيل عاصمة عربية لاول مرة ، لم يكن حدثا شـديد الوقع ، أو مثيرا للدهشة ، بالنسبة للعواصم الاوربية والامريكية ، أما الامر الاكثر غرابة فهو أن أهل بيروت نفسها ، بما فيهم من اللبنانيين والفلسطينيين أيضا ، لم يكن دخول قوات الجنرال الاسرائيلى شارون ، مثارا للدهشة احد داخل بيروت نفسها .. !!

وقد أصيبت كافة العواصم العربية بما يشبه الشلل عشية دخول القوات الاسرائيلية احدى العواصم العربية،

عن طريق الغزو المسلح ، وقد فرحت اوربا والولايات المتحدة لهذه الظاهرة العربية ، وتوسعت فى شرح الظاهرة الفريدة ، وقالوا أن العرب قد اثبتوا عجزا ، وانهم غير قادرين على رد العدوان الاسرائيلى ، غير أن الدعايات الاوربية والامريكية ، توقفت عند نصف المقولة فقط ، أما النصف الآخر ، فقد أهملته عن عمد ، أما النصف الثانى من هذه المقولة الفريدة فهى أن العرب لم يكن لديهم بالفعل ما يجب عمله فى التو ، ذلك لان اللبنانيين، خاصة الصفوة الحاكمة ، لم تكن لتقبل اى تدخل عربى ، لمنع الاسرائيليين من الوصول الى بيروت ، وان الصفوة اللبنانية الحاكمة قد سهلت، طريق دخول الاسرائيليين للأراضى اللبنانية ، وأن الصفوة اللبنانية الحاكمة ، هى التى اشتركت مع الاسرائيليين والامريكيين، فيما بعد ، فى ترتيب رحيل الفلسطينيين الغرباء من بيروت وغيرها ...

لم يتدخل العرب ، لان اللبنانيين ، لم يكونوا على استعداد لتقبل أى تدخل عربى فى شئونهم ، كان كميل شمعون منذ عام ١٩٥٢ ، يقول أن أى تدخل عربى هو ازعاج للبنان ، وشعب لبنان ، ولم يكن كميل شمعون الذى طالب عام ١٩٥٨ بالتدخل العسكرى الامريكى لحمايته الشخصية ، لم يكن شمعون وحده هو الذى يؤمن بالازعاج العربى ، انما كان هناك الصفوة المختارة من داخل طائفة الموارنة ، والتى سيطرت عليها فيما بعد عائلة الجميل بما فيهم كميل شمعون نفسه ...

كانت محاولة ابعاد لبنان عن دائرته العربية ، هى الثمن الذى جعل لبنان يفقد استقلاله ، فى عام ١٩٨٢

بعد احتلال جيش اسرائيل لاراضيه ، كانت الطائفية وراء عودة لبنان الى الاحتلال الاجنبي ، لقد استلمت الطائفية حكم لبنان الكبير المستقل عام ١٩٤٣ ، وبعد اربعين عاما ، من حكم الطوائف ، فقد لبنان استقلاله ، وقادته الطائفية الى الحرب الاهلية ...



عندما تم توزيع الفلسطينيين على الدول العربية ، بعد اعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، كانت لبنان كما بقية الدول العربية استقبلت عددا من اللاجئين الفلسطينيين ، ولقد تم استيعاب الفلسطينيين فى كل الدول العربية والاجنبية التى سافروا اليها ، الا لبنان ، فقد تم اعتبارهم منذ وصولهم ، كغرباء ، ثم تم تصنيفهم فيما بعد ، كمسلمين ، مع أن اللاجئين الفلسطينيين كانوا من المسلمين والمسيحيين معا ، غير أن الموارنة اعتبروهم جميعا من المسلمين ، لان هذا التصنيف سيكون مفيدا لهم فيما بعد ، وسيكون سببا أيضا لاضطهاد الفلسطينيين وتعرضهم للمذابح ، ثم للطرد النهائى من لبنان بعد غزو لبنان عام ١٩٨٢ .

قالوا ان الفلسطينيين فى لبنان ، يمثلون قوة اضافية لصالح المسلمين اللبنانيين ، وبالتالى فان تركيبة الحكم الطائفى ، سوف تميل لغير صالح الموارنة وبالتالى يجب تحييد هذه القوة الغريبة ، ثم التعامل معها كقوة أجنبية ، ثم العمل فى النهاية على طردها .. !!

ولم يكن الفلسطينيون فى لبنان ، عرضة لاضطهاد الموارنة فقط ، ولكنهم كانوا عرضة للاضطهاد من جانب المسلمين أيضا ، وسوف نجد أن رئيس وزراء لبنان ،

السيد شفيق الوزان ، وهو مسلم سنى ، هو الذى كان يمثل النظام اللبنانى ، فى عملية اخراج ياسر عرفات ومنظمة تحرير فلسطين من لبنان ، عقب احتلال بيروت .. كما ان السيد وليد جنبلاط زعيم الدروز أخرجهم من منطقة جبال الشوف بعد الغزو الاسرائيلى بعام واحد ، ولم يكن موقف الفلسطينيين مع المسلمين الشيعة بافضل حالا ، لقد وقع الفلسطينيون فى لبنان ، فى مصيدة الطائفية ، وكانوا وقودا لها ، ثم جرى ذبحهم فى النهاية ، فى تل الزعتر ، ثم معارك بيروت ، ثم فى مخيمات صابرا ، وشاتيلا ، كما أن معتقل أنصار الاسرائيلى فى جنوب لبنان ، ساق الى داخله ٤٠٠٠ مقاتل فلسطينى ، وما تبقى من الفلسطينيين فى لبنان محاصرون اما من جانب حكومة الرئيس أمين الجميل ، او ميلشيات الكتائب ، أو القوات السورية ، أو القوات الاسرائيلية ، ومن يفلت من كل هذه القيود ، عليه أن يواجه مدافع الاسطول السادس الامريكى ، على شواطىء لبنان ، او مدافع القوة الرباعية المتعددة الجنسية ..

واصبح الفلسطينيون ، شركاء للشعب اللبنانى ، لكن فى المحنة فقط ، وما زال ملوك الطوائف ، فوق عروشهم ، حتى ولو كانت هذه العروش ، تظل مرفوعة ، فوق حراب اجنبية ...

***

لقد اظهر الاحتلال الاسرائيلى ، لاراضى لبنان ، هذا الخلل القاتل فى البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فى التركيبة اللبنانية ، التى كانوا دائما

يقولون انها معجزة الزمان ، الغير قابلة للتفسير ، لانها احدى منجزات السماء ، غير ان الغزو الاسرائيلى أسقط هذه الدعاوى جميعا ، وسقطت معها لبنان ، ولان لبنان جزء من العالم العربى ، فقد كان مهمـا تعـريف الرأى العام العربى ، بالطائفية فى لبنان ، جذورها ، ومنابعها ، فكرها ، ورموزها ، ارتباطاتها ، ومطامعها ، نظرتها الى لبنان ، كدولة وشعب ، كل ذلك ، فى محاولة للتوصل الى فهم عملية الغزو العســـكرى الاسرائيلى للبنان ، وما ترتب على هـذا الغزو ، وما قد يترتب عليه ، من أحداث ، لن تكون لبنان وحدها ، هى الخاسرة الوحيدة فيه ، ولكن العالم العربى كله ، الذى هزته الفاجعة من الاعماق ، وبدأ يسأل ، عن الاسباب . .

ان الحديث عن الطوائف الاربع الكبرى فى لبنان ، اصبح ضرورة ، كمـا ان الحديث عن الفلسطينيين فى لبنان ، لا يقل أهمية . خاصة اذا حاولنا التعرف على مسار الحرب الاسرائيلية التى وصلت أراضى لبنان ، منذ يونيو ١٩٨٢ ، وما زالت تحتل أراضيها حتى الآن . . .

لذلك كان ضروريا ، أن يكون الحديث عن الطوائف اللبنانية ، هو هدف اصدار هذا الكتاب ، بطريقة وحيدة لتفسير مسار الحرب الاسرائيلية ، وتداعياتها المحليـة والاقليمية والدولية . . ومادام ملف الحرب الاسرائيلية فى لبنان ، مازال مفتوحا ، فان هذا الكتاب لن يكون أكثر من ملف مفتوح ، هو الآخر ، لما قد يستجد فوق لبنان ، والمنطقة بكاملها من أحداث . .

الوفاق اللبنانى

عندما قامت اسرائيل فى أوائل سبتمبر ١٩٨٣ بانسحاب جزئى مفاجىء من منطقة الشوف فى جبل لبنان ، بدأت الحرب الأهلية على الفور بين ميلشيات حزب الكتائب المارونى وبين ميلشيات الدروز ، ثم اتسع نطاق الحرب لتشمل كل الاطراف اللبنانية ، وتدخلت الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية ، ليس من أجل انقاذ أهل لبنان من تداعيات الحرب ، ولكن تدخلها أسهم بشكل مباشر ، فى تعميق الصراع الطائفى ، وانهيار كل أمل فى الحديث عن السلام ، وأصبح الاسطول السادس الامريكى على الشواطىء اللبنانية ، رمزا للقوة والبؤس فى وقت واحد ، لتغطية هذا العجز ، اتسع نطاق اتهام اللبنانيين بأنهم يشكلون شعبا يكره فيه كل شخص الشخص الآخر ، وأن العداء على المستوى الفردى ، أو الطائفى ، أو الجماعى ، فى لبنان ، يعد بمثابة رياضة قومية ، محببة للجميع ، وتطوع خبير أمريكى فى شئون لبنان ، ليقول امام كاميرات احدى تليفزيونات عاصمة عربية عريقة

بأن الاعـداء الحقيقيين لشعب لبنان ، هم اللبنانيون أنفسهم .. !!



من داخـــل هــذه الدراما المحزنة ، طرحت فرنسا فكرة عقد مؤتمر مائدة مستديرة ، تضم كل الفرقاء ، فى محاولة لتحقيق نوع من الوفاق السياسى ، ينقـذ مصير لبنان ، اقترحت فرنســا عقد المؤتمر على ظهر بارجة فرنسية ، ويمكن وقوفها فى عرض البحر الابيض المتوسط ، قبالة الشواطىء اللبنانية ، بعيدا عن القصف المدفعى المتبادل للقوات المتصارعة .

لقد وصل الحال بلبنان ، خلال شهر سبتمبر ، الى أنه لم يعد هناك فوق أرضه ، مكان يمكن ترشــيحه باطمئنان ليكون مقرا يستضيف الزعمـاء اللبنانيين ، للبحث فى شئون وطنهم ، وانقاذه من صراعاته الداخلية وما يواكبها من أطماع أجنبية ...

ان أحدا من زعماء لبنان ، لم يعد آمنا على نفسه أو بيته فى ظل هذه الظروف الكئيبة ، ابتداء من القصر الجمهورى الذى يمثل الشرعية السياسية فى البلاد ، الى جانب كل القيادات الرئيسية للأحزاب الكبرى فضلا عن كل البيوت الخاصة لزعماء لبنان ، كل هذه الاماكن تعرضت للقصف ، أو المحاصرة ، أو المداهمة ، لم يعـد هناك من يستطيع السير فى شوارع بيروت أو خارجها من زعماء لبنان ، دون حراسة مشددة ، وعربات ركوب مصفحة ، كان الاقتراح الفرنسى رغم غرابته ، حـول اجتماع مقترح فى عرض البحر ، هو أكثر الاقتراحات استجابة لواقع الحال اللبنانى ، غير أن الاقتراح الفرنسى

ثم رفضه على الفور ، لانه رغم كل ما يقال عن ضرورة البحث عن صيغة ما لنوع من الوفاق الوطنى ، فان أحدا من داخل لبنان ، لم يعد قادرا على التوصل الى مثل هذا الهدف ، يقولون ان الوقت أصبح متأخرا بما فيه الكفاية ، وحواجز الكراهية والدم تستطيع اعاقة أى أمل يمكن العثور عليه من تحت الانقاض .

ربما كان هذا الرأى واقعيا الى حد ما ، لم يعد تورط كل الاطراف يسمح بتنازلات يتفق عليها الجميع ، لتكون اضافة لصالح الدولة اللبنانية ، تتقاسمها الآن الحرب الاهلية ، وما يعكسه مسارها من حقائق جغرافية ، تظهر فى اشكال مختلفة للتقسيم الواقعى على الارض .

الذين يراهنون على الحرب الاهلية باعتبارها الخيار الوحيد داخل لبنان ، يدركون دون شك صعوبة الوقوف فوق كل هذا الركام ، وتخطى هواجسه ، والبحث عن خلاص ، غير ان أحدا لا يريد أن يقول انه لا يوجد زعيم واحد داخل لبنان ، سواء داخل الشرعية أو خارجها ، يستطيع القول بخروجه فائزا من دائرة العنف ، بالعكس أصابت الحرب الجميع بجراح بالغة ، لا أحد يستطيع أن يزعم لنفسه بتحقيق أى رصيد لصالحه الشخصى ، أو لصالح حزبه ، أو عشيرته، أو انتمائه الطائفى ، لا تستطيع ان تستثنى أحدا ، هذا الوهن البالغ الذى اصاب كل الاطراف الوطنية فى لبنان، ربما يكون هو المسئول الاول عن فشل كل محاولات احتواء الحرب الاهلية ، والوصول الى صيغة مقبولة للانقاذ الوطنى ، والمصالحة القومية .

ان حزب الكتائب ، فى أفضل حالاته يعانى انهيارات

متوالية ، لا أحد يستطيع أيضا التوصل بسهولة الى نوع من التقدير فيما اذا كان هذا الحـــزب بميليشياته يمثل اضافة حقيقية للرئيس أمين الجميــل ، وهو كتـــائبى أصلا ، أم أن الحزب أصبح عبئا على رئيس جمهورية لبنان ..

ان القصر الجمهـــورى يضرب بالمدافع ، على فترات متقاربة ، وبصفة دورية ، وغالبا ما يتصرف حزب الكتائب بطريقة تربك كافة مقاصد رئيس الجمهورية ، تـكفى استضافة وزير دفــاع اسرائيل فى بيروت من جانب زعماء حزب الكتائب ، لتكون هناك مشكلة شائكة تنتظـر رئيس الجمهورية ، وتوشك أن تسقط الوزارة ، ويضطر رئيس الجمهورية بعدها الى الاعتذار ، ان حزب الكتائب بسلوكياته يمكن وضـعه فى الصف المعـارض لسياسة رئيس الجمهورية ، وعندما طالب الرئيس الجميـــل بالوفاق والتمهيد له بمؤتمرات تحت رعايته ، تضم كل الاطراف المعنية ، كان الصــــوت الاعلى المناهض لهذا الاتجاه ، يأتى للأسف من جانب الشيخ بيـار الجميل ، رئيس حزب الكتائب ، ووالد رئيس الجمهورية ، كان الرئيس يقول بالوفاق ، بينما كان الشيخ بيـار يرحب بالحرب حتى النهاية .

هذا التناقض الظـــاهر بين قيادات حزب الـكتائب اليمينية ، وبين القصر الجمهورى ، الذى يسكنه زعيم كتائبى بارز ، يكشف مدى افتقــــار الحزب الى نظرة موضوعية ومستقبلية للوضع اللبنانى بتداعياته الخطـيرة القادمة ، وبالتالى تجعل حزب الكتائب فى الواقع غير مؤهل لادارة حرب أهليـــة أو ادارة حوار للمصالحة

الوطنية ، ان العناصر المعتدلة والشابة ، داخل حزب الكتائب ، والتى يقال انها تميل الى مساندة وتأييد الرئيس الجميل ، باعتباره أولا رئيسا لكل لبنان ، هذه العناصر وهى كثيرة ، ربما يكون أمامها مهمة تاريخية يجب انجازها ، تتلخص فى امكانية انقاذ الحزب من هيمنة الانعزاليين والمتطرفين ، واخراج الحزب من دائرة التصادم مع الرئيس . ان مثل هذا الاتجاه حيوى ومطلوب ، غير أنه للاسف غير واضح ، بل وغير موجود، والشيوخ هم الذين يسيطرون على مصير الكتائب ، وكما هو واضح أيضا ، فان الكتائب هى التى تسيطر على الرئيس ...

ان ميليشيات حزب الكتائب ، التى يسيطر عليها فادى أفرام ، رغم تسليحها الاسرائيلى ، لم تحقق انجازا يذكر ، بالعكس ، كل ما يحققه الجيش اللبنانى ، يتم رصده حاليا لحساب ميليشيات الكتائب ، وهكذا أصبح المكتب السياسى لحزب الكتائب عبئا على رئيس الجمهورية، كما أصبحت ميليشيات الكتائب عبئا على جيش لبنان ، وهو القوة الوحيدة المرشحة نفرض الهيبة وبسط الشرعية على كل أجزاء لبنان .

كذلك فان كافة سلوكيات حزب الكتائب ، والتى تعتبر فى معظمها غير مقبولة من جانب القوى اللبنانية الاخرى ، تمثل نوعا من العبء الاضافى الذى يجب على الرئيس امين الجميل أن يتحمله دون أن يكون طرفا فيه ، أو موافقا عليه ، أو ربما لا يعرف عنه شيئا ، ان زعيما آخر مثل وليد جنبلاط يشكو دائما من سيطرة

حزب الكتائب متفردا على الحكم ، غير أنه يحمل الرئيس امين الجميل شخصيا ، مسئولية ذلك ، وربما كان ذلك واحدا من اخطر نقاط التصـــادم التى تعوق التفاهم بينهما .

***

ان وليد جنبلاط ، رغم كونه زعيما وممثلا لطائفـة الدروز الاقوياء ، أكثر من نصف مليون نسمة ، الى جانب تمثيله لجبهة الخلاص الوطنى التى تضم زعمـاء آخرين ، من المســـلمين والمسيحيين ، يعانى أيضا من تدهور مماثل فلقد كان هدفا منذ بضعة شهور لمحاولة اغتيال ، كما تم ضرب بيته فى بيروت اكثر من مرة ، ويقال ان حصارا كثيفا يحيط حاليا ببيته ، كذلك فان وليد جنبلاط لا يعيش حاليا فى بيته فى بيروت ، كما أنه لا يسكن بين مقاتليه فى جبال الشوف ، وهو غير موجود فى لبنان كلها ، فقد فضل وليد جنبلاط منـذ شهور الاستماع الى نصيحة أصدقاء : طلبت منه العيش خارج لبنان ، وهكذا يعيش الزعيم الـدرزى ، وقائد جبهة الخلاص الوطنى ، بعيدا عن بلده ، فى منفـــاه الاختيارى ، أحيانا فى دمشق ، أو فى عمان ، الى جانب زيارات عمل فى السعودية ، غير أنه يفضل البقـاء فى باريس ، حيث يتمكن من ممارسة نشاطه ، وقـد قابله المبعوث الامريكى ماكفرلين ، فى باريس ، لانه لم يكن ممكنا اجتماع الوسيط الامريكى بأحد زعماء لبنـان الاقوياء ، داخل لبنان نفسها .

ان ميليشيات الدروز ، مطالبة بتسليم مواقعها داخل منطقة جبال الشوف ، لقـــوات من الجيش اللبنانى ،

لتكون البديل الشرعى للانسحاب المفاجيء لقوات الاحتلال الاسرائيليه ، اوائل سبتمبر ، من المنطقــه تاركة كافه العناصر المتحاربه للسيطره على منطقة الشوف ، ويشكو مسئولون حكوميون فى بيروت لان أسرائيل تعمـــدت الاسراع بالانسحاب ، ويقولون انه لو تأخر الانسحاب ٤٨ ساعة فقط لامكن تلافى مصاعب جمة ، ولم يكن ذلك حقيقيا ..

وهكذا ، رأينا فى لبنان ، وربما لاول مرة فى تاريخ الاستعمار القديم والحديث ، كيف يكون خروج قــوات الاحتلال ، نقمة وليس نعمة بالنسبة لشعب محتل ، يحلم بالخلاص من قوات أجنبية تحتل أرض بلاده ، رأينا ما هو أيضا أكثر معاكسة لحقائق الحياة ، عندما كانت هناك مطالبات لبنانية ودولية ، ترجو اسرائيل التريث بعض الوقت فى سحب قواتها المحتلة لجبل لبنان .

لقد انســحب الجيش الاسرائيلى من الشوف ، عقب عمليات عسكرية قادها الجيش اللبنانى داخل بيروت ، ضد ميليشيات الشيعة التى يقودها نبيه برى ، وبرغم الدمار الكبير فقــد تمكن ١٠ آلاف جندى خلال ثلاثة أيام ، من اعادةالسيطرة على كل بيروت ، مما جعــل احتمال نجاح الجيش اللبنانى فى السيطرة على جبال الشوف أمرا واردا ، غير أنه لم يحدث ..

كان الامل بالطبــــع أن يتم دخول الجيش منطقــة الشوف ، باتفاق مسبق مع الشرعية ، ومع زعمـــــاء الدروز ، لكن الانسحاب الاسرائيلى المفـــاجيء عجل بالمواجهة العسكرية لاستنزاف كل الاطراف .

ان وليد جنبلاط لا يرفض مبـــدأ دخول الجيش فى

مناطق يعتبرها تاريخيا أرض آبائه وأجداده ، كان يطالب اولا بالاتفاق مع السلطة الشرعية ، ان أحدا لم يمكن رئيس الجمهورية ، او وليد جنبلاط ، من الجلوس سويا للبحث فى صيغة مثل هذا الاتفاق ، أن معارك الشوف ستكون دون شك عائقا جديدا أكثر صعوبة فى طريق الدعوة الى الوفاق .

وكما ان ميلشيات الكتائب تحمل أسلحة اسرائيلية ، تحمل ميليشيات الدروز بعض الاسلحة الاسرائيلية ، تركها الاسرائيليون عن عمد لكى تقع فى أيدى الدروز ، وللدروز أسلحتهم التى لم تحاول اسرائيل انتزاعها من أيديهم بعد غزو لبنان ، وتزعم حكومة اسرائيل طوال الشهور الاربعة الاخيرة ، انها تقع تحت ضغط جماعة الدروز الاقوياء داخل اسرائيل ، لصالح اخوانهم الدروز فى جبال الشوف فى لبنان ، وأن دروز اسرائيل لا يريدون من الحكومة الاسرائيلية دعم ميليشيات الكتائب لتصفية الدروز وطردهم من قراهم وزراعاتهم ، كما سربت اسرائيل أنباء واسعة عن محاولات هروب واحتجاج واعتقال بين جنود وضباط احتياط من الدروز فى جيش اسرائيل ، بسبب عدم رغبتهم فى مقاتلة الدروز أو تركهم فريسة للكتائب ، ثم تطوعت بعض الوكالات البريطانية والامريكية ، لتقول بمشاركة بعض الدروز الذين هربوا من جيش اسرائيل ، فى القتال الذى دار منذ ثلاثة أسابيع ، والذى أصابت خلاله مدفعية الدروز مطار بيروت وعطلته عن العمل .

سوف نكتشف فيما بعد ، أنه طوال المعارك الطائفية ، واتساع نطاق الحرب الاهلية ، سوف نكتشف

ان اسرائيل ، كانت هنــاك بالسلاح ، والدعايات ، وان اسرائيل لا تريد الا أمرا واحدا فقط ، هو اســـتمرار نزيف الحرب الاهلية اللبنانية ، ثم لا يهم بعد ذلك من هو الفائز ، ومن هو الذى انهزم السبب بسيط تعـرفه اسرائيل ، وهو أنه فى الحروب الاهلية عادة ، لا يوجد من هو الذى يفوز ، يوجد فقط شعب مهزوم ، سوف نكتشف أيضــا أن اسرائيل تعطى للــكتائب يوما ، ثم تعطى للدروز يوما آخر ، تظهر التعاطف بالتساوى بين كل الفرقاء ، ليستمر الدمار أيضا بالتساوى ، غير أن الدروز بالفعــل قد حصــلوا على عطف اسرائيل ، أما الكتائب فهم الذين فازوا طوال الوقت بالدعم العسكرى والسياسى من جانب اسرائيل ...

هــكذا نجد انفسنا عند نقطة البداية ، لا احــد داخل لبنان يمكنه الحديث عن جماعة معينة لديهـــا من القوة ما يمكنها من فرض كلمتها على الساحة اللبنانية، فيمليشيات الــكتائب والدروز ، يمثــلان أكبر قوتين عسكريتين محليا فى لبنان ، ومع ذلك لا تستطيع احداهما فرض السيطرة ، أو حتى اقرار الهدوء ، داخل المناطق التى تسيطر عليها ، والدروز تؤيدهم سوريا ولكن الى اى مدى ، ان الاجابة على مثل هذا السؤال غير مضمونة، غير أنها تحدد مصير الدروز فى مواجهة المجهول ..

بالنسبة لميليشــيات الـكتائب ، لديهم الدعم الكافى من جانب أطراف خارجية ، والى أبعد الحــدود ، لــكن المشكلة الحقيقية تكمن فى أن أى انتصار عسكرى محتمل احرازه من جانب الكتائبيين سوف يتم اعتبــاره فورا من صـــنع الجيش اللبنانى الذى يقــال علنــا انه أصبح

صنيعة حزب الكتائب ، ولم يعد جيش كل لبنان .. ان الخلاف القـــادم سوف يبدأ بين الجيش اللبنـــانى وبين ميليشيات الكتائب اذا فـــكر هذا الجيش يوما فى البحث عن الحيـــاد أو الهيبة ، أو أحد مظاهر القــوة ، أن ميليشيات الكتائب تعتقد ان وجود من يمثلها فى قصر بعيد ، يعتبر فرصة تاريخيـــة لا تعـــوض ، فى استثمار كل مقدرات لبنان لصالحهم الشخصى وتوظف الكتائب حاليا الجيش الوطنى باعتباره جيشا كتائبيـا حتى فقد اعتباره ، ويمثل الآن مشكلة تواجـه بقيـــة الطوائف اللبنانية ..

يقف جيش لبنـــان حاليـــا ، ٢٧ ألف جنـــدى ، فى المكان الاكثر صعوبة ، لقد اضطر الى استخدام ١٠ آلاف من رجاله لاعادة الهدوء الى بيروت ، وقد طولب بارسال عشرة آلاف آخرين من رجاله للسيطرة على جبـــال الشوف بعد الانســحاب الاسرائيلى ، فمـاذا يتبقى من جيش لبنان ، ان الجيش لم يستكمل بناء قوته بعد ، لقد تعطل الجيش أو تفكك طوال الحرب الاهلية منـــذ عام ١٩٧٥ ، وعندما وقع الغزو الاسرائيلى قبل عامين كانت لبنان تعيش فى الحقيقة دون جيش وطنى ، وبعد الانسحاب الاسرائيلى من بيروت ، وطلبا لمساعدة الشرعية اللبنانية على بناء قوتها وفرض سيطرتها ، بدأ التفكير فى بناء جيش وطنى قوى ، وبدأت أمريكا تساهم فى تدريب كوادر الجيش ، وأرسلت أســـلحة صغيرة ، ومدافع بازوكا ، ودبابات أم ٤٨ ، وبعض العربات المصفحة لمساعدة الجيش الحديث التكوين على القيـــام بدوره ، غير ان الظروف لم تسمح لهذا الجيش قط بأن يـكون

قادرا على أداء واجبه ،وفى معـــارك بيروت الاخيرة ، اضطرت المدفعية الامريكية فى عرض البحر الى المشاركة فى اخماد المقاومة التى كان يقودها ميليشيات الشيعة فى بيروت الغربية ، وبالتالى اذا تمكنت قوات الجيش من دخول منطقة الشوف ، فسوف يقال على الفور بأن ذلك قد تم بمساعدة مباشرة من جانب القوات الامريكية التى اظهرت ميلا أكثر منذ البداية فى التورط المباشر فى القتال الدائر على أرض لبنان ، عندئذ سوف يقال بأن الولايات المتحدة الامريكية قد تورطت بقواتها فى حرب طائفية فى الشرق الاوسط ، بما يحمله ذلك وما يترتب عليـه من نتائج ، سيقال أيضا بأن الكتائب ستحصل على المكافأة ، فأى هزيمة للدروز ستكون انتصارا للكتائب ، ووليـد جنبلاط يشكو من وجود ضابط مارونى على رأس الجيش اللبنانى ، ولكن رئيس الاركان درزى غير أن جنبلاط يقول بأن رئيس الاركان فى جيش لبنان مقيد الصلاحيات ، ولا يعمل شيئا .. وقد انتهى به الحال الى تقديم استقالته بالفعل .. والجيش اللبنانى بوضعه الحالى يعكس واقع لبنان الممزق ، فالى جانب ضعف تسليحه ، وقلة كوادره والبداية المتأخرة لاعادة تأسيسه ، فان نظام تكوينه من الداخل سيظل دائما محل جدل من جانب خصوم حزب الكتائب ، فالى جانب ٦٠٪ من ضباط الجيش المارونيين يوجد ٦٠٪ من الجنود المسلمين يشكلون قوام هذا الجيش لقد كان من بين شروط جنبلاط لاحراز نوع من الوفاق الوطنى ، اعادة بناء الجيش على أساس غير طائفى ، غير ان الظروف الراهنة لا تسمح ببناء أى جيش وعلى أى أساس ممكن ..

وبعد معارك بيروت ، لم يتمكن الجيش اللبناني من احراز اى تقـــدم ، وبمشاركته الفعلية مع ميليشيات الكتائب فى حرب الجبل ضد الدروز ، لم يحرز شيئا يذكر ، وعندما كان التنسيق عمليا وظاهرا بين الجيش والكتائب ، فقد الجيش مبرر وجوده نفسه ، لانه كان من الممكن قيام القوات الامريكية سواء داخل لبنان ، أو على طول الشواطىء اللبنانية بما هو مطلوب ، وابقـــاء الجيش اللبناني بعيدا عن التورطات الطائفية لان دورا هاما ربما كان ينتظره عندما يتم اقرار الشرعية والهدوء فى البلاد ، غير أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، ووجـد الاسطول السادس الامريكى نفسه متورطا فى القتال ، لصالح الكتائب تحت شعار حماية الشرعية فى البلاد ، وسوف نجد تشجيعا لفرنسا للقيام بدور ايجـابى فى الحرب ، وقام الاسطول البريطانى باستعراض طيب ، بينما أصبحت القاعدة العسكرية البريطانية فى قبرص ، مركزا هاما للعمليات التى يقودها الامريكيون ، لاخماد الثورة فى لبنان ، وعندما اكتشف الحلفاء الغربيون أنهم بتأييدهم العسكرى والســـــياسى لما وصفوه بالشرعية اللبنانية ، فضلا عن تحطيم الجيش اللبنانى الذى لم يكن قد بدأ بعد شهور فطامه ، عندما تم اكتشاف الاحباط الغربى من كل جانب ، ارتفعت الدعوة الى ضرورة وقف اطلاق النار ، ومباركة الدعوة لمصالحة وطنية ، وظهرت جريدة امريكية كبرى لتعلن عن بالغ أسفها ، لان الشعب اللبنانى لم يـكن فى حاجة الى ذوى الوجوه الحمر من ضباط الاسطول السادس الامريـكى ، ولـكن الشعب

اللبنانى -، كان فى الحقيقة شديد الحاجة الى جماعة كبيرة من الاطباء النفسانيين .. "!



تبقى طائفة الشيعة ، وربما كانت أكبر القوى الموجودة حاليا فى لبنان ، ويزيد عددهم عن ضعف عدد الدروز ، وقد هاجر معظمهم حيث كانوا يعيشون فى جنوب لبنان ، بعد الغزو الاسرائيلى ، وعاشوا فى المناطق الفقيرة فى بيروت وحولها ، وقد تمكن امامهم السابق موسى الصدر ، من ابراز صوت الشيعة كقوة سياسية معترف بها داخل التركيبة السياسية التى تسيطر على الشارع اللبنانى ، كما أن لهم حصة فى المراكز العليا فى الحكومة ، ورئيس البرلمان يجب أن يكون شيعيا ، غير انهم مع الامام موسى الصدر اخذوا يتطلعون الى حصة اكبر فى الحكم ، وتحدثوا طويلا عن المظالم التي يتعرضون لها ، تولى نبيه برى ، وهو محام شيعي ، مهمة تشكيل ميليشيا عسكرية تدافع عن حقوق الشيعة ، وقد تعرضت هذه الميليشيا لتجربة قاسية ، بعد اشتباكها مع قوات الجيش ، وتدخل مدافع البحرية الامريكية ، ولم تصمد فى المعركة ، غير انها خرجت بالتأكيد برغبة أكبر فى التحالف بشكل جدى مع الميليشيات الاخرى المعارضة للحكومة وخاصة ميلشيات الدروز .. ربما تحاول أيضا الحصول على مزيد من الدعم من جانب السوريين ..

هناك أيضا جماعات المسلمين السنة .. اين يقفون فى ساحة المعارك ، الفريق الاكبر من المسلمين السنة ، ويمثلهم الشيخ صائب سلام يقفون الى جانب رئيس الجمهورية ، يمنحونه التأييد لمساعدته على القيام بدوره

كرئيس شرعي للبلاد ، وقد هاجم جنبلاط بعنف هــذا الاتجاه ، واتهمه بالوصولية ، غير أن الفريق الثانى من أهل السنة يمثلهم السيد رشيد كرامى ، هؤلاء يؤيدون الدروز فى موقفهم ، ويشترك كرامى مع جنبــلاط فى جبهة الخلاص الوطنى ، ويقاومون الكتائب ويرفضــون اتفاقية الصلح مع اسرائيل ، ويطالبون بتعاون أوثق مع السوريين ، وان كان الجميع يتفقون على ضرورة خروج كل القوات الاجنبية من لبنان .

***

لقد تم اضعاف الجميع داخل لبنان بما فيه الكفاية ، لا تستطيع قوة محلية بمفردها أن تفرض سلطتها على الاخرى ، الشرعية أيضــا تناضل لكى تتأكد شرعيتها داخل بيروت أولا ، قبل أن تنتشر على بقيــة الاراضى ، الجماعات منقسمة حتى من داخلها ، فالـكتائب يوجد بداخلها تياران احدهمــا يؤيد الرئيس فى ســياساته الوطنية ، بينما يناضل الفريق الآخر لاحراز مكاسب ذاتية حتى لو كان ذلك على حــساب الحــكم والارض ، والمارون بصفة عامة ليسوا كلهم شمعون أو بيار الجميل ، يوجد أيضـــا سليمان فرنجيــة وريمون اده وهم على النقيض ..

الدروز أيضا منقسمون ، فجنبلاط ليس فى النهــاية كل شيء ، هناك جماعة مجيد ارسلان الذى يراهنون على اعتدالهم ، ومقدار فهمهم للأمور ، فى السنة فريقان أيضا احدهما يؤيد والآخر يعــــارض ، أما فى داخل الشيعة فانها تستمد شهرتها التاريخية من قدرتها الفائقة على التوالد بحيث يمكنها افراز فرقة جديدة كل عامين .. !!

ما هو المخرج .. ؟!

ان الحديث عن التقسيم ، رغم كونه الاعلى حاليا في كل مكان ، هو حديث غير واقعي ، وغير ممكن ، ولبنان صغير جدا ، أو كما يقـال لبنان أصغر من أن يجرى تقسيمه ، علينا أن نسـتبعد هذا الاحتمال على الاقل حاليا ، ، فالجميع متفقون حتى داخـل لبنان على أمر واحد هو عدم التقسيم ، وان كانوا يعملون من أجله ، غير أنهم غير قادرين على تنفيذه .

كذلك يعتبر الحديث عن تغلب الشرعية بمفردها على كل الصعوبات الداخلية ، وانهاء الحرب الاهلية ، واجبار الاسرائيليين على الانسحاب النهـائى ، ثم التطلع الى السوريين للقيام باجرآء مماثل ، كل هذه الآراء تظل فى مرتبة الامانى غير القابلة للتنفيذ ، دون معونة خارجية تربد بالفعل الوصول الى هذه الاهداف نفسها ، وليس الى أهداف أخرى ، وهو امر ليس فى متناول اليد هذه الايام ..

هل تستطيع قوة معينة داخل لبنان فرض السيطرة الشاملة ، الكتائب مثلا ، واقع الحال لا يشير الى تفوق حزب ما أو طائفة ما ، لـكى تفرض ارادتهـا حتى لو اضطرت الى طلب معونات خارجية ..

حتى القوة المتعددة الجنسية ، تشارك فيها أمريكا وانجلترا وفرنسا ، وايطاليـا حضرت لمساندة الشرعية والابقاء على الهيكل الاساسى للدولة ، هذه القوة تعانى حاليا من ضعف مزدوج ، لم تعد تتمتع بالشعبية داخل لبنان بعد مشاركة القوات الامريكية بشكل مباشر فى الحرب ، كذلك لم تعد هذه القوة مثار ارتياح داخل الدول التى حضرت منها الى لبنان ، توجد فى أمريكا وبريطانيا

وفرنسا ، وايطاليا مطالبات حالية بعودة هذه القوات ، لتعرضها للمخاطرة من ناحية ، ولابعاد تورط الدول الكبرى من ناحية أخرى فى الحرب الاهلية اللبنانية،والتى يفضلون تسميتها حاليا بحرب الطوائف ، وتناضل حكومات الدول المشتركة فى هذه القوة ، لكى تبقى على قواتهـا داخل لبنان ، ويبدو انها مصممة على ذلك مع توسيع دائرة عملها ..

وقد نجح الرئيس ريجان بالفعـل فى الحصول على موافقة الكونجرس باستمرار بقاء القـوات الامريكية فى لبنان طوال الشهور الثمانية عشر القادمة ، واصبح تورط القوات الامريكية فى لبنان ، معترفا به من جانب الادارة الامريكية ، وزعماء الكونجرس ، ولم يعد هناك ما يقـال كثيرا عن عقدة فيتنام عند الامريكيين .

ان الحرب الاهلية لن تفرز منتصرا واحدا داخـل لبنان ، ستترك الجميع منهزمين وحالة الاعيـاء التى أصابت الجميع ، ربما تسمح بشىء واحد يقبله الجميع ، الصلح والبحث عن صيغة للوفاق الوطنى ، واذا كان الوضع اللبنانى غير مسموح بانفجاره بشكل نهـائى من وجهة النظر الامريكية على الاقل ، مع بداية المرحلة التى تبدأ معها سخونة المعركة لانتخابات الرئاسة الامريكية ، فان الحديث عن الوفاق سيكون هو المسموح به .

وربما يمتد حديث الوفاق ايضا الثمانية عشر شـهرا القادمة ، فالقوات الامريكية سيكون لديها مايكفى لتأمين الوضع اللبنانى الى أن ينتهى الرئيس ريجان من مشاكله مع انتخابات الرئاسة الامريكية القادمة ...

يظل أيضا على الجانب العربى ، قناعة تزيد بلورتهـا

كل يوم ، تشير الى أن الحرب الاهلية اللبنانية ، او باسمها الجديد ، حرب الطوائف ، لا يمكن أن تستمر الى أجل غير مسمى ، فالوضع اللبناني المتفجر ، لا يعيش فى فراغ ، انما يتحرك داخل محيطه الجغرافى ، انه المحيط العربى حيث لا يوجد البنان محيط غيره ، ما يجرى فى لبنان مرشح للانتشار ، مالم يوضع حد معين للحالة اللبنانية ، فان اللعنة ستكون من نصيب الجميع، وبالتالى ، فانه حتى موعد القمة العربية التى تجتهد السعودية وأطراف أخرى لعقدها فى السعودية ، اذا تحقق هذا الاجماع وهو امر مشكوك فيه .. فان الاطراف العربية المعنية لن تسمح لبرميل البارود اللبنانى بالانفجار حتى حافته ، المصالحة هى المطروحة ، وقد تم بالفعل تجميع كل الاطراف اللبنانية للجلوس فى أحد فنادق جنيف ، خلال شهر اكتوبر ١٩٨٣ ، وبمساعدة أمريكية ـ سعودية ـ سورية ، وتحت ضغط عربى ودولى ، لكى يحاول الاخوة الاعداء التوصل الى مخرج لمحنتهم ، وقد استمرت اعمال المؤتمر ثلاثة أيام ، وخرج بنتيجة واحدة ، تقول باتفاق الجميع على أن لبنان له وجه عربى .. وطولب امين الجميل بالقيام بجولة دولية لتعديل الاتفاقية مع اسرائيل ، وانفض المؤتمر دون تحديد موعد لجولته القادمة .. !!

لا بأس ان نتعرف على واقع الحال اللبنانى ، مادام هذا الوضع لم يعد ترفا يشغل أهل لبنان وحدهم ، فهو مرشح كما يقال للانتشار ، من واجبنا معرفة كل اطراف اللعبة اللبنانية الخطرة ، التى جرى تعريفها بحرب الطوائف اللبنانية ...

الــــــدروز

المذهب الذى يؤمن به الدروز جاء من مصر فى زمن الحاكم بأمر الله .

ثم تطـوع الامريكيون فى القرن العشرين ليقولوا بعد مصرع كمال جنبلاط أن الدروز قوم من بلاد القوقاز ؛ حضروا الى لبنان فى القرن الثامن عشر .. !

أنقذ الدروز قلعـة الشقيف من أيدى الصـــليبيين وظلت القلعة لاصحابها الى أن دخلها مناحيم بيجن غازيا عام ١٩٨٢ .

● الحـــاكم بأمر الله : ثالث الخلفاء بعد المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، ثم المنصور الذى عرفه التاريخ باسم الحـــاكم بأمر الله ، تولى فى الحادى عشر من عمره ، وكان وحيد والديه ، وهو أول خليفة فاطمى ولد فى مصر ، كما انه أول خليفة فاطمي يقتل بمؤامرة تحاك من داخل قصره .. وقد فرحت عامة المصريين بنهاية حياته .

● الجنبلاطية فى الجيش المصري: وصل ابراهيم باشا لفتح بلاد الشام عام ١٨٣٢ ، فوقف أولاد الشيخ بشير جنبلاط على الحياد تجاه الحملة المصرية التى ارسلها محمد على باشا بقيادة ابنه ابراهيم ، عندما انتصر الجيش المصري فى العام التالى ، طلب كل من اسماعيل وسعيد ولدى الشيخ بشير جنبلاط الذهاب الى مصر ، رحب محمد على باشا بهما فى القاهرة ، ودخل سعيد جنبلاط فى خدمة الجيش المصرى برتبة ملازم ثم رقى الى رتبة رائد ، وظل بالجيش الى ان وصل الى رتبة عقيد ، وعندما وصل الاخ الثـالث لهما نعمان جنبلاط الى مصر فيما بعد ، انعم عليه محمد على باشا بوسام رفيع عينه اميرلاى فى الجيش المصرى ..

ارتبط تاريخ لبنان الوسيط والحديث ، بقصة الصراع الدامى بين الدروز والمارون تتخللها فترات قصيرة من السلام النسبى ، من ثم هؤلاء الدروز ، الذى يشغلون العالم الآن بقصة حربهم فى لبنان ؟

ما هى حكاية الدروز كعقيدة كمذهب ، ولماذا كان مجتمعهم مجتمعا محاربا ؟

ثم لماذا تقف الآن قوات فرنسا وانجلترا فى وجه الدروز ؟ ، وقد كان هؤلاء الدروز أنفسهم محل افتخار طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، من جانب فرنسا التى أرجعت نسبهم الى فرسان فرنسا الصليبيين على حين زعمت انجلترا ان الدروز من سلالة ملكية بريطانية وأنهم أحفاد الملك الصليبى ريتشارد قلب الاسد ..

ثم لماذا كان الدروز فى لبنان ، أول ضحايا قسمته الطائفية الجديدة .

هل هى نهاية العالم ؟

منذ بداية سبتمبر ١٩٨٣ ، احتلت قضية الدروز فى لبنان ، أولوية مطلقة لدى المهتمين برصد التطور الدامى للعبة الامم فى ساحة الشرق الاوسط ، أصبح الدروز فجأة ، أهم طائفة فى العالم ، يتعلق بسلوكها مصير الشرق الاوسط ، ربما أيضا نهاية العالم ، من يتأمل فوهات المدافع الامريكية على ظهر سفن الاسطول السادس فى عرض البحر المتوسط ، وهى توجه قذائفها وصواريخها فى بسالة الى منطقة جبال الشوف ،

تنسف قرى الدروز ، اذا اراد أهل الجبل ، الذين هم في الاصل ، مؤسسو لبنان بشكليه القديم والحديث ، اذا ارادوا الهرب من جحيم القذائف الامريكية ، لا يجدون الا القوات الاسرائيلية ، وقوات سعد حداد في جنوب لبنان ، اذا أراد الدروز الاتجاه شرقا أو غربا أو شمالا ، وجدوا على الفور ، قوات الكتائب اليمينية ، وقوات الجيش اللبناني بقياداته المارونية الكتائبية ، وقوات المارينز الامريكية ، وقوات بريطانيا العظمى التي أنهت حربا باسلة ضد الارجنتين قبل عام ، وأكدت احتلالها الذي دام قرونا لجزر الفوكلاند ، ثم قوات فرنسا ، دولة الاحتلال التقليدية للبنان ، ثم قوات ايطاليا أيضا ، اذا تطلع الدروز الى السماء ، أملا في المعجزة ، وجدوا طائرات الحلفاء الغربيين ، ترصد كل تحرك ، تصور كل اتجاه ، تسجل حتى أصوات بكاء الاطفال ، يلوذون بالمجهول هربا من الهول المحيط في كل اتجاه ...

الدروز وميراث الاجداد القديمة

لم يكن الدروز محل كراهية مطلقة من جانب الدول الغربية قبل قرون طويلة ماضية ، لم تكن فرنسا وانجلترا ، على استعداد للقضاء عليهم أو ابادتهم من فوق جبل لبنان أو سفوحه . العكس هو الصحيح ، كان الفرنسيون طوال القرن السابع عشر يقولون في كتاباتهم ، كما أشاعوا في لبنان بصفة خاصة ، ذلك الوقت ، أن الدروز ، وليس غيرهم ، هم من سلالة الجنود الفرنسيين

الذين وصلوا جبل لبنان خلال الحملات الصليبية بقيادة الكونت دوركس ، وقالوا ان دوركس هى النطق العربى لكلمة دروز ..

قالوا أيضا ان الامير الدرزى فخر الدين بن معن ، هو حفيد القائد الصليبى جودفرى ، معروف ان الامير فخر الدين ، هـــو مؤسس لبنـــان ، هو الذى يتغنى به اللبنانيون باعتبـــاره المثل الاعلى ، الذى أسس دولة أضاعها أبناؤه ، يحاولون استعادتها كما كانت ابان عصر فخر الدين ، غير ان كل الظروف داخل لبنان وخارجها ، تقف فى الصف المعاند لكل امانى اللبنانيين .

الدروز والبحث عن الاصول

الامير فخر الدين بن معن ، أعطى اسمه لدولة لبنان ، عرفت لبنان لفترة طويله بالدولة المعنية ، شملت كل اراضى لبنان الحـالية ، ومنطقة جبـل الـكرمل فى فلسطين ، وبعضا من أراضى سوريا ووصل الى انطاكية ، وهو الذى استضاف المـارون لاول مرة ، وجعلهم فى رحابه ، وتحت رعايته ، وعندما وجدت فرنسا انه فى الامكان ، فيما بعد ، أن يكون لهـا مكان فى لبنان ، اشاعوا ان الدروز من سلالة الفرســان الصليبيين ، وان فخر الدين هو الحفيد المتــاز للسيد جودفرى ، قائد جيوش الصليبيين ، ضحك الدروز بالطبع لانهم سلالة عربية أصيلة قدمت من اليمين الى أراضى لبنـــان قبل القرن السادس الميلادى ، عاشت هناك حتى الآن ، كما انها سوف تعيش فى نفس المنطقة الى الابد ...

قال الدروز اذا كان ما يقوله الفرنسيون صحيحا ، فان وجه الصحة فيه انهم بالفعل قد أسروا الالوف من الرجال الفرنسيين والنســـاء السبايا ، طوال فترات الغزوات الصليبية لبلادهم ، سوف نكتشف أيضا ان دروز لبنان كانوا فرسانا لصلاح الدين الايوبى ، وكان الامير جمال الدين حجى التنوخى هو القــائد الدرزى الذى أعطاه صلاح الدين الايوبى مهمة مقاومة الصليبيين على طول الشواطىء اللبنانية .

سوف نكتشف أيضا ان الســـــلطان قطز ، استعان بالامير زين الدين صالح الارسلانى ، ورجاله فى حرب التتار ، وانهم كانوا جميعا مع السلطان الظاهر برقوق فى معركة العرب الحاسمة ضـــد التتار فى عين جالوت ،

انتهت الحروب الصليبية ، وجاء العصر العثمانى ، ودخلت الدول العربية فى متاهات العثمانيين وظـــلام عهودهم الى أن مرت قرون كانت الدولة العلية خلالهـا قد أصبحت مطية لمطامع الدول الـــكبرى فى أوربا ، كانت لبنان وبقيــــة أراضى الشام ، غنيمة للفرنسيين الذين عادوا ليس كصليبيين مدججين بالسلاح هذه المرة ، عادوا صليبيين فى ثياب الرهبان ، توددوا لاكبر قـــوة مسيطرة فى لبنان ، قالوا انهم والدروز أولاد عمومة ..!!

فى القرن الثامن عشر ، عندما أصبح للانجليز مصالح كبرى فى المنطقة العربية المشرقية ، حاولوا التودد أيضا الى الدروز كمدخل لموضع قدم فى لبنان ، قالوا فى

القرن الثامن عشر ، نفس ما أشاعه الفرنسيين فى القرن السابع عشر .

أكد الانجليز فى رواياتهم التاريخية الموثقة ، أن دروز جبل لبنان هم فى الاصل من سلالة الفرسان الصليبيين الانجليز ، الذين حضروا الى البلاد ابان فترات الغزو الصليبى ، وأن الدروز ، وليس غيرهم أيضا ، هم أحفاد الملك الانجليزى الذائع الصيت ، ريتشارد قلب الاسد .

هكذا كان الانجليز الذين ينشطون حاليا فى الترويج ضد كل ما هو درزى ، وتقف طائراتهم العسكرية الست جاهزة للانقضاض على الدروز من جزيرة قبرص ، يضع جنودهم في بيروت الاصبع على الزناد « للمشاركة الدولية فى مذبحة للدروز » ، هؤلاء الانجليز أنفسهم . هم الذين أشاعوا أوائل القرن الثامن عشر ، باطمئنان ، أن دروز لبنان ، هم من السلالة الملكية البريطانية !!

الدروز بين العنف والحيلة

مالم يؤخذ بالعنف ، يمكن استدراجه بالحيلة ، هذا ما صنعه الاستعمار الفرنسي ، ثم الانجليزى بالدروز ، غير ان شيئا من هذا أو ذاك لم يحرز نجاحا الدليل كما هو متواجد حاليا ، على انساحة اللبنانية ، يتعرض الدروز هذه الايام لواحدة من أقسى المحن التى واجهت هذه الطائفة طوال تاريخهم المليء بالشجاعة ، الحافل بالمآسي ، يتعرضون لحملات ابادة ، الى جانب حملات كراهية يزيد اتساعها كل يوم .

بدأ الدروز منذ فترة قصيرة فقط . في ٧ سبتمبر ١٩٨٢ أقامه أول اذاعة محليه ضعيفة الصوت ، عندما استعادوا قرية بحمدون التي استولت عليها ميليشيات الكتائب في السابق ، بدأ الدروز يقولون شيئا عن حكايتهم وتاريخهم في لبنان والمنطقة غير أن عملية التشويش الهائلة التي تقوم بها كافة الاطراف الاخرى ، لا تجعل من الصوت الدرزي الحديث الا رجع الصدى ، لا يسمعه أحد ، لا يعرفه احد بينما يستمتع الكتائبيون بخدمات عسكرية وسياسية واعلامية مجانية من جانب الحلفاء الغربيين : بشكل يصعب توقعه من جانب دول كبرى لها مسئوليات دوليه فضلا عن تورطات هائلة في شئون الشرق الاوسط . تجعله يحجم على الاقل عن ممارسة أدوار انتهى زمانها : مثل تغذية نعرات محلية ، أو عداوات قبلية ، أو حروب طائفية .

كانت بريطانيا في الماضي تزعم أنها تحمي الاقليات بصفة عامة في العالم العربي ، كانت روسيا تقول أن المسيحيين الارثوذكس في حمايتها ، كانت فرنسا تعتبر المارون في لبنان تحت حمايتها المباشرة ، كانت الشيعة أيضا تجد من يزعم حمايتها بين وقت وآخر ، في تاريخ المنطقة المليء بالمآسي .

لم تكن أمريكا قد ظهرت بعد ، كقوة عالمية ، فضلا عن ظهورها كقوة مسيطرة على اتساع العالم .. لم تكن الولايات المتحدة متورطة في قضايا الطوائف اللبنانية ، لعبة الدول الاوربية الاستعمارية المفضلة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كانت أمريكا تتمتع برصيد طيب لدى شعوب العالم العربي ، خاصة في لبنان ، خلال الحرب العالمية عندما قيل للشعب اللبناني

ان يختار دولة انتداب ، من الغريب أن يختار اللبنانيون ، وعلى رأسهم طائفة الدروز ، اختاروا الولايات المتحدة الامريكية ، كدولة انتداب ، رفضوا فرنسا الأم الرءوم ، رفضوا أيضا بريطانيا صاحبة الرصيد الاستعماري الهائل في العالم العربي ، فضل الدروز ومعهم بقية شعب لبنان ، فضلوا واشنطن ، متأثرين بالمبادىء التي كانت الولايات المتحدة ، على لسان رئيسها ، قد توسعت في اطلاقها حول حريات الشعوب .

الموقف الآن .. الاسباب والنتائج

اليوم تقف أساطيل وطائرات الولايات المتحدة ، كبرى دول العالم على الاطلاق ، تقف في حرب علنية ضد طائفة الدروز فوق جبل لبنان !! يكفي ما تنشره صحف الولايات المتحدة ومعها صحف أوربا ، وما تقدمه اذاعات هذه الدول ، من قصص يومية مطولة عن مذابح متبادلة بين طائفتي الدروز والموارنة . لكي يقال بتقهقرنا الى الوراء ، عدة مئات من السنين ، لنعيش فترة أخرى ، من فترات الحروب الصليبية .

اذا كانت الحرب الاهلية اللبنانية وأسبابها معروفة للجميع ، اذا كانت هذه الحرب سببا في مقتل بعض الجنود الامريكيين الموجودين في بيروت ، لماذا يكون الدروز بمفردهم هم الذين يجب عقابهم ، ان الدروز يموتون أيضا كما يموت أفراد من الجنود الامريكيين

بسبب الحرب الاهلية ، يموت أيضا كل يوم اطفال صغار لا يعرفون بعد فيمـــا اذا كانوا دروزا أو موارنة أو مسلمين ؛ لا يعرفون الا أنهم أطفال لبنانيون ، غير أنهم لا يعرفون لماذا يموتون من الخوف ، أو من الجوع ، أو من رصاصة طائشة .

يتم قتل المسلمين والمسيحيين فى لبنان بالجملة ، لكى تصبح لبنان أرض العذاب ، كمـا يسميها قداسة البابا فى روما ، ويصلى من أجلها كل يوم ، غير ان اللوم كله ، والعقاب كله يتم توجيهـــه ناحية وليد جنبلاط والدروز فقط ، كأنهم دخلاء ، يتحالفون مع الآخرين ، هؤلاء الآخرون الذين تعنيهم الدعايات الغربية كل يوم هم بالطبع السوريون ..

الموقف السورى والموقف الفلسطينى

نعرف أن السوريين لا يتدخلون ، ما دامت قواتهم فى البقاع لا تتعرض للمخاطر ، وهى غير ظاهرة حتى الآن بشكل جدى ...

نعرف أيضا أن الفلسطينيين مشغولون منـذ عام ، بشتى أنواع الانقسام العسكرى ، والشتات السياسى ، والظلم العربى ، والاضطهاد الامريكى ، والرياء الاوربى ، وان بقايا الفلسطينيين فى لبنان يتعرضون لنفس قذائف الصواريخ الكتائبية ــ الامريكية التى يتعرض لها الدروز وكافة فئات الشعب اللبنانى ..

يجب أن نعترف أن تاريخ الدروز فى لبنان ، هو تاريخ لبنان نفسه ، ما يتعرض له الدروز حاليـا هو

الضربة الفادحة التى تقدمها هذه الطائفة منذ وجدت داخل لبنان ، ان وليد جنبلاط من جيل الشباب اللبنانى ، لا يمكن وصفه بزعيم طائفة ؛ من يتأمل صور جنبلاط يعتقد أنه طالب بالجامعة ، انه يمثل جيل الشباب اللبنانى ، ولا يمثل طائفة ، ان جيل شيوخ لبنان الذى كان يحكم قبل الاستقلال ، هو الذى يحكم بعد الاستقلال ، وحتى هذه اللحظة ولا أمل هناك فى المستقبل لتنحية هذا الجيل من الشيوخ الذين يجب أن يذهبوا الى الشيطان ، قبل أن يذهب لبنان نفسه الى ظلمات النسيان ..

الرئيس ووالد الرئيس فى لبنان

ان امين الجميل رئيس جمهورية لبنان الحالى ، هو من جيل الشباب أيضا ، غير ان والده الشيخ بيار الجميل ـ ٧٨ سنة ـ هو الذى يحتل الصورة فى لبنان ، هو الذى يتحدث ، الذى يحارب ، يتلاعب بكل شىء ، بما فى ذلك مصير ابنه ، أى ظلم يتعرض له شاب ، وضعته الاحداث المخزية ، على رأس السلطة ، فى أخطر فترة يمر بها تاريخ بلاده ، ثم يجد نفسه أسير معتقدات أبيه الشيخ ، وميليشيات أبيه الشيخ ، وارتباطات أبيه الشيخ فى الداخل والخارج ، ربما كان وليد جنبلاط مثل أمين الجميل ، كلاهما ضحايا جشع الشيوخ اللبنانيين الذين أضاعوا كل شىء ، لقد كان التحالف الدرزى المارونى عام ١٨٦١ هو الذى أدى الى استقرار جبل لبنان وبداية تأسيس دولته ، فهل يكون الخلاف

الدرزى ـ المارونى عام ١٩٨٣ هو نهاية هذه الدولة ، من يستطيع الاجابة على السؤال ؟

يقول جنبلاط كلاما واضحا ، ويقدم مطالب معقولة ، يعبر بها عن مجموع الشعب اللبنانى ، مع الاعتراف المسبق بأن ٥٠ ٪ من الشعب اللبنانى حاليا يقل سنه عن ٢٥ سنة ، بمعنى أن نصف شعب لبنان مع الكلام الذى يقوله جنبلاط عن الاصلاح السياسى والاجتماعى : والابتعاد عن الطائفية ، وعدم توريث وظائف الدولة العليا للعائلات المختارة ، وتقديم الفرص المتساوية للجميع ...

ان أمين الجميل ، دون شك ، لديه نفس آمال جيل الشباب ، يحمل تطلعات مواطنيه ، نحو الافضل ، لديه نفس الآمال ، هو ايضا من نفس جيل وليد جنبلاط ، غير أن الاجابة التى يجب علينا جميعا أن نستمعها من الرئيس الشرعى للبلاد ، سوف نستمعها للأسف ، من الشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب ، وهكذا تكمن المشكلة ، التواجد الظاهر للوالد الشيخ ، يوجد ايضا مجموعة طيبة من الشيوخ فى لبنان ، من كل اتجاه مد الله فى عمرهم ، أصغرهم عمره ٧٥ عاما ، ما زالوا يحتفظون بحيويتهم ، وصفاء ذهنهم ، ويظهرون تمسكا مدهشا بالماضى وأسبابه ، ما زال بعضهم يعتقد ان فرنسا ، ما زالت سيدة العالم ، وان علم لبنان ما زال هو علم فرنسا ، عليه شجرة أرز لبنانية ، من قبيل الوجاهة ، فهل هى مشكلة الطوائف ، أم هى مشكلة الاجيال فى لبنان ...

يستمتع قادة الكتائب بالتواجد اليومى على أرض

لبنان - بينما نجد رجلا مثل وليد جنبلاط يعيش فى منفاه الاضطرارى ، ما ينادى به جنبلاط لا يمكن بحال وصفه بأنه مسألة درزية ، تخص الدروز وحدهم . فى منطقة جبال الشوف ، ما يقوله جنبلاط والدروز ، نفس ما تقوله الطوائف الاسلامية الاخرى فى لبنان مثل السنة والشيعة .. هو نفس ما يقوله فضيلة مفتى لبنان ، الذى يمثل المسلمين جميعا ، ثم ضرب بيته اوائل سبتمبر ، فى عرمون ، جنوبى بيروت ، لقد تم دخول بيت الشيخ خالد ، ثم العبث ايضا بمحتويات البيت ، وتم ضرب الحراس ، والفاعل مجهول ، واذاعات الدول الغربية الكبرى ، والمعنية بالمسألة اللبنانية ، لم تهتم بالخبر ، لم تذكر عنه شيئا ..

وليس وليد جنبلاط وحده اذن ، يصعب تصور أن يتحمل شاب مثله عبء حرب دولية تدار علنا ضده ، وضد طائفته ، الحقيقة أن الحرب ضد التجمع الوطنى الاسلامى ـ المسيحى الذى يلتف حوله ، ليس سليمان فرنجية درزيا ، كما أنه ليس مسلما غير انه يقف مع غيره من زعماء مسيحيين كثيرين فى لبنان ، فى الصف المؤيد لوليد جنبلاط ، وكل القضايا الوطنية التى يطرحها ، قد يتصور البعض أن ما ينادى به جنبلاط وبقية أعضاء جبهة الخلاص الوطنى هو وليد الساعة ، أو نتاج ظروف أفرزتها ظروف لبنان المأساوية الراهنة .

ما يواجه الدروز حاليا من كراهية ، لم يكن موجودا قبل ستة قرون بالعكس ، عندما ظهرت مطامع فرنسا وروسيا وانجلترا فى لبنان كان الرهان على الدروز وحدهم ، باعتبارهم الاصل والاساس ، عندما أظهر

الدروز صلابة وعنادا ، تمتعوا بهذه الكراهية الاستعمارية التي تظهر على فترات ، آخرها ما نشاهده هذه الايام من مظاهر حرب دولية مكتملة العناصر ضدهم ، استقال الوزير الدرزى من حكومة الوزان ، الحـــالية ، رئيس اركان الجيش اللبنانى ، وهو درزى عرض استقالتـــه أيضا ، لانه من غير المعقول أن يـكون على رأس جيش مهمته الوحيدة القضاء على الدروز ، تقدم أكثر من ضابط درزى كبير باستقالته بالفعل من الجيش ، يقال أن ٥ آلاف ضابط وجندى درزى فى جيش لبنان ، يستعدون الآن لهجرة الجيش ، والانضمام الى اخوانهم فى الجبل ، ماذا يبقى لجيش لبنان الذى لم يبدأ تأسيسه بعد ؛ ربما يعود الى وضع منتصف السبعينات ، عندما كـان لبنان ، البلد الوحيد فى العالم الذى لا يوجد له جيش رسمى . بشكل نظامى ، بينما صدرت فى نفس الوقت دراسة أمريكية ، أشرفت عليها وزارة الخارجية الامريكية عام ١٩٧٧ ، تقول أن الواقع اللبنانى ، منذ عام ١٩٧٥ قد أفرز ٣ جيوش غير نظامية وغير رسمية ، كما أفرز قوتين للشرطة والامن ، وظهرت ٢٢ ميليشيا عسكرية وشـــبه عسكرية ، بينما لعب على الساحة السياسية زعمـاء يمثلون ٤٢ حزبا سياسيا ، فى مناخ يسيطر على مجموع أفراده وكل مقدراته ، ١٤ طائفة دينية . .!!

من الذى وصل بلبنان الى هذا الدرك ، الدروز ؟! بالتأكيـــد يجب البحث عن غيرهم ، فان تمثيلهم فى الدولة ظل طوال الوقت محل شكوى دائمة ، فليس لهم الا وزير أو اثنان فى أى حكومة ، وغير مسموح لاى

زعيم درزى أن يتطـلع الى منصب رئيس الجمهورية ، لانه احتكار لطائفة أخرى ، حتى رئيس مديرية الامن العام ، أو قائد الشرطة فى لبنان ، لا يقربها درزى ، أو سنى ، أو شيعى ، هذه المناصب العليـــا فى الشرطة والجيش ، والخارجية ، والقصر الجمهورى ، والبنوك ، من المحرمات ، كما ان كل الوكالات الاجنبية للشركات والمؤسسات الكبرى ، هى بالضرورة من نصيب طائفة واحدة ، هى طائفة المارون ، فاذا وصل لبنان الى مثل هذا المـأزق التاريخى ، من الطريف أن يكون اللوم كله موجها للدروز ، الاكثر طرافة ، ان يكون اللوم الموجه للدروز من النوع الثقيل الذى يصل الى حـد محاولة الابادة ، بمباركة دولية رسمية وعلنية ..!!

دروز لبنان .. كم عددهم ؟

لا يوجد احصاء رسمى فى لبنان حتى يمكن رصـد العدد الحقيقى لطائفة الدروز فى لبنان ، آخر احصاء رسمى تم فى لبنان ، كان فى عام ١٩٣٢ ، وبمعـــرفة الفرنسيين ، منذ ذلك اليوم وحتى هذه اللحظة ، لم يظهر أى احصاء رسمى أو غير رسمى فى لبنان .

كل الحكومات الوطنية فى لبنان ، منذ ذلك التاريخ . رفضت باصرار اجراء أى تعداد للسكان ، وبالتالى معرفة حجم الطوائف اللبنـــانية ، كانت الحكومات اللبنانية وما زالت حتى الآن ، تماطل فى اجراء تعداد سكانى ، لما سوف يترتب عليه من نتائج غير مرغوبة الآن لان عددا

الطوائف وحجم أفرادها سوف يتم ترجمته الى حقائق سياسية جديدة لا يريدها أحـد من الموارنة وحـزب الكتائب ..

الوضع السياسى اللبنانى يقوم على اكذوبة تقليدية تقول بزيادة عدد المسيحيين على عدد المسلمين ، لقد توقف لبنان من يومها حتى الآن ، على تعداد ١٩٣٢ الذى يظهر ما يلى !

يبلغ مجموع الشعب اللبنانى كله ٦٧١ر٥٠٠ نسمة موزعة كما يلى :

٣٣٠ر٠٠٠ مسيحى
٢٧٥ر٠٠٠ مسلم
٤٣ر٠٠٠ درزى
٣ر٥٠٠ يهودى
٢٠ر٠٠٠ أجانب جنسيات مختلفة

فى أول مجلس نيابى يقام فى لبنان ، بينما كان تمثيل المارون يصل الى ١٠ مقاعد كان تمثيل الدروز قد تحدد بمقعدين فقط .

الادارة العليا للمارون فقط

وأصبحت النسبة الرسمية فى كل الوظائف فى الدولة موزعة بنسبة ٦ : ٥ لصالح المسيحيين ، غير ان بعض الوظائف العليا أصبحت حكرا على طائفة المارون وحدهم دون غيرهم حتى من الطوائف المسيحية الاخرى مثل الارثوذكس والكاثوليك ...

وأصبح الرقم ١١ وهو مجموع ٥ : ٦ يمثل الطوطم فى تاريخ لبنان ، فهو السحر وهو الساحر ، كما

اصبحت مضاعفات هذا الرقم هي تاريخ لبنان أيضا ، لقد أصبح مجلس النواب مثلا يتكون من ٤٤ عضوا ، وعندما زاد أصبح ٥٥ عضوا ، ثم ٦٦ وهكذا حتى صار المجلس الحالى الذى تم انتخابه قبل أحد عشر عاما ، وما زال قائما ، يتكون من ٩٩ عضوا .

يقول واحد من اعضاء هذا المجلس الذى يقضى أكبر فترة تمثيلية فى تاريخ البرلمانات أو الحياة الديموقراطية عموما ، يقول أن برلمان الـ ٩٩ فى لبنان ، يمثل تماما الجمعية العامة للأمم المتحدة ، اذ ان كل عضو فى هذا المجلس العجيب ، يمثل دولة قائمة بذاتها .. !!

من الطريف أن بعض الحكايات اللبنانية ترجع النسبة المعمول بها فى لبنان ، فى لعبة الحكم ، وهى ٥ : ٦ ، تقول ان صاحب هذه الفكرة هو زعيم الوفد المصرى السابق المرحوم مصطفى النحاس باشا ، جاء اليه بشارة الخورى ورياض الصلح ، عقب استقلال لبنان مباشرة ، يطلبان المشورة ، مع اتفاقهما المسبق على ترجمة الواقع اللبنانى الى حقائق سياسية ، أما الواقع فهو أن الاغلبية للمسيحيين ، وان الحكم لهم ، وان المسلمين شركاء اقل درجة ، وانهم فى لبنان لا يعرفون كيف يترجمون هذه المعادلة الصعبة الى واقع ملموس ، يمكن ترجمته بالنسبة لوظائف الدولة ، ومواقعها العليا ، ومجلسها النيابى ، اقترح النحاس باشا ، كما تقول الرواية ، نسبة الـ ٦ : ٥ كطريقة لحل المشكلة ، وقد فرح بشارة الخورى ، ورياض الصلح ، واقاما دولة ، تقول رواية أخرى أن وزيرا بريطانيا هو الذى اقترح على اللبنانيين فكرة النسبة ٦ : ٥ ونشك فى ذلك لان بريطانيا كانت بعيدة نسبيا عن لبنان خلال هذه الايام ... غير أن

الفرنسيين بعد عامين فقط ، وضعا الرجلين فى السجن وكان قد وصل أولهما الى منصب رئيس جمهورية لبنان ، بينما وصل الثانى الى رئاسة الوزراء لتصورهما الخاطىء ان لبنان قد استقل حقيقة ، ولم يخرج الرجلان الى النور الا بعد تدخل المصريين !!

دستور لبنان وكم من التعديلات

كانت فرنسا هناك بشكل رسمى ومباشر ، منذ عام ١٩١٨ ، الى عام ١٩٤٣ ، بعدها ظلت فرنسا تتمتع أيضا بنفس الصلاحيات ، ولكن بشكل غير مباشر ، طوال الوقت ، عملت فرنسا على اضطهاد الاهالى ، فتحت أبواب لبنان ، أمام الارمن الذين كانوا يهربون ذلك الوقت من الاضطهاد التركى ، عاملت البلاد كمستعمرة فرنسية ، أظهرت الاحتقار للعرب ، سحبت رصيد الذهب الذى كانت تملكه البلاد خلال الحكم التركى ، ربطت العملة المحلية بالفرنك الفرنسى ، تنازلت عن شمال سوريا لتركيا لتكسب ودها ، أقر دستور ١٩٣٢ قيام انظمة مختلفة للأحوال الشخصية لتكريس الطوائف ، أصبحت الدولة اللبنانية فى الحقيقة مجمعا لعدد من الشعوب يوازى عدد الطوائف ، تم وضع مادة فى الدستور تثبت الوضع الطائفى رسميا ، وبعد عشرين عاما ، عندما تم تعديل الدستور تم اقرار نفس المادة دون تعديل .

لقد تم تعديل الدستور اللبنانى ، مرتين فى عهد الاحتلال ، كما تم ايقافه مرتين فى عهد الاستقلال ، تم تعديل الدستور أيضا مرتين ، أحدهما عام ١٩٤٣ والثانية عام ١٩٤٧ ، وفى كل الحالات كان الوضع

الطـــائفي مقدســـا ، لا يمس ، الى أن مزق الوضــــع الطائفى الدولة اللبنانية ، كما هو حاصل هذه الايام ، ويدفع الدروز الثمن ، مضاعفا ، كما تدفع أيضا بقية الطوائف اللبنانية ...

بعـــد اعلان الاســـتقلال ، تم اجـــراء انتخابات لاول مرة فى لبنان ، فى مايو ١٩٤٣ ، تم عقد أول جلسة لمجلس النواب فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٣ ، وظهر ما عرف وقتها بالميثاق الوطني ، وهو اتفاق جنتلمان غير مكتوب، اصبح فيمـــا بعد أقـــوى من الدستور والبرلمان ، وكل مؤسسات الحكم ، وهو الذى اكد أيضا الحكم الطائفي ، ومن العجيب أن كل القوى الوطنية حاربت هذا الاتفاق منذ بداية ظهوره ، ومازالت الحرب ضده قائمـــة حتى الآن ، دون جدوى .

المسلمون بين السنة والشيعة

ظهر احصـــاء تقـــديرى لعدد سكان لبنان عام ١٩٤٣ ، عقب اعلان الاستقلال مباشرة ، تم بشكل غير رسمى ، وغير علمى ، وكرس الحقائق نفسها ، المتعلقة بالاغلبية المقررة للمسيحيين بالنسبة للطوائف الاخرى ، بما فيها الدروز .. وأرتفع عـــدد الدروز الى ٨٨ر١٣١ . بينما سجل الاحصاء نفســه ، سجل لطائفة المارون عددا يبلغ ٧٠٨ر٤٢٣ وهكذا احتفظ المارون بتفوقهم الوهمى ...

وهكذا كرس التعداد التقديرى الذى وضعه الفرنسيون أيضا عام ١٩٤٣ نفس النتائج التى توصل اليها تعـــداد ١٩٣٢ ، الاغلبية للفئات المسيحية ، وبالتالى ظل الحـــكم فى أيديهم حتى الآن .. رغم اعتراف كافة اللبنـــانيين

بمن فيهم من المسيحيين ان هذه الارقام كلها وهمية ، وغير حقيقية ، ولا أحد فى داخل السلطة يريد الاستماع الى المطلب الشعبى الذى ظل يتردد طوال الاربعين عاما الاخيرة ، بضرورة اجراء تعداد رسمى تشرف عليه جهات محايدة ، يظهر حقيقة جغرافيا السكان فى لبنان وما يترتب عليها من نتائج سياسية .. غير ان الاصرار الرسمى على الرفض ، تولدت عنه ثورات شعبية ، انتهت بحروب أهلية ، أبرزها الحرب التى دارت عام ١٩٥٨ ، والتى بسببها طلب كميل شمعون التدخل العسكرى الامريكى ، ثم الحرب الاهلية التى دارت عام ١٩٧٥ وانتهت بالاحتلال العسكرى الاسرائيلى للبنان ، والذى ظل قائما حتى الآن ، يقول الدروز والفئات اللبنانية الاخرى ، بمن فيهم قطاعات مسيحية مؤثرة ، أن الغزو العسكرى الاسرائيلى للبنان تم بالتشاور مع حزب الكتائب الذى وجد أن الامر بدأ يفلت من يده ، وانه لابد من معونة أجنبية ، غير ان الاحتلال الاسرائيلى كانت له مقاصده الخاصة ، ولم تكن بالتالى متفقة تماما مع مقاصد حزب الكتائب ، من خلال هذا التناقض عادت الحرب الاهلية اللبنانية مرة أخرى ، غير أنها هذه المرة اتسعت لتكون حربا دولية ، فالقوات المتعددة الجنسية وجدت نفسها مشتركة فى الحرب ، غير ان كل الاسلحة ، تم توجيهها فى النهاية لطائفة الدروز ، باعتبارها مركز الثقل فى الحركة الوطنية اللبنانية ، وتورطت أطراف دولية فى المسألة اللبنانية بطريقة تنذر بكوارث وخيمة ، ربما تتسع لتشمل مناطق أخرى فى الشرق الاوسط .

ان احدا لا يستطيع باطمئنان أن يقـول ان القضاء على المقاومة الدرزية ربما تحل المشكلة داخل لبنان . هذا خطأ لسببين ، أحدهما أن الدروز لا يشـكلون فى مجموعهم المشكلة الاساسية للبنان . أما السبب الثانى فانه لا يمكن القضاء على الدروز لانهم بطبيعة تكوينهم من ناحية ، وطبيعة ارتباطهم التاريخى بلبنان ، يجعل من قضية القضاء على الدروز ، قضاء فى نفس الوقت على لبنان كدولة وكشعب .

الدروز ومشكلة اسم الشهرة

والدروز ، لا تعجبهم كلمـة الدروز هـذه ، فليست اسما لهم ، كما انها ليست صفة اشتهروا بها ، فكلمة الدروز هى اسم شهرة لصق بهم منذ البداية ، وهم كجماعة دينية يحبون تسميتهم باسم الموحدين ، فهذا هو اسمهم الحقيقى . ولـما كانت كلمـة الدروز قد التصقت بهم كاسم شـهرة ، لم يعد لـديهم الحيلة لتغييرها ، وهكذا اذا أطلقنا منذ البداية كلمة الموحدين للحديث عن المسألة الدرزية ، لما تعرف القارىء عن أى فئة يدور الحـديث ، لذلك كان من الافضل أن نبدأ بتعريفهم بما اشتهروا به ، لكى نصل فيما بعد الى اسمهم الحقيقى الذى عرفوا به فى تاريخ الفـرق الاسلامية ، وما أكثرها ، وان كانت الفرق المسيحية قد سجلت فرقا أكثر على مر العصور ، ولبنان نفسه شاهد على ذلك ، فهناك الموارنة ، والروم الكاثوليك ، والروم الارثوذكس والبرتستانت ، والكلدان ، الخ .

الاسم الاصلى جاء من مصر

قد لا يعـرف كثير من القراء أن مذهب الموحـدين ويجب أن نتحدث عن الدروز منذ الآن باسمهم الذى يحبونه ، وهو الموحدون ، بدأ هذا المذهب فى مصر ، غير أنه انتشر فى بلاد الشام ، وتركز فوق جبل لبنان ، بتفصيل أكثر ، بدأ المذهب فى القاهرة فى عصر الخليفة الفاطمى الثالث ، الحاكم بأمر الله ، أشهر خلفـــاء الفاطميين على الاطلاق ، وأكثرهم قابلية للجدل العام ، والذى كان مثار ســخرية المصريين جميعـــا ، ومحــلا لنكاتهم التقليدية ، التى ظل بعدها متداولا حتى الآن .

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية وعمره لا يزيد على ١١ عاما ، بدأت هذه الخـــلافة عام ٣٨٦ هـ ، واستمرت خلافته حتى عام ٤١١ هـ عندما تعرض لمؤامرة غامضة انتهت بقتله ، ويقال أن أخته غير الشقيقة كانت ضالعة فى مؤامرة قتله .

كان الحاكم بأمر الله ، امبراطورا عظيما ، يحكم أكبر دولة فى زمانه ، واختلف المؤرخون حـول طريقته فى الحكم ، بعضهم قال أنه كان مصلحا عظيما ، والبعض الآخر اعتبر بعض تصرفاته متسمة بالشذوذ والجنون ، غير أن كثيرا من مريديه ، من دعاة الدعوة الفاطمية فى الاساس ، ارتفعوا بالحاكم بأمر الله ليصلوا به الى مرتبة أمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، وسليل الرسول الكريم ، وكانت طائفة الاسماعيلية هى الاكثر غلوا فى الصاق المزيد من الاوصاف للحاكم بأمر الله ، ثم جاء رجل يدعى حمزة بن أحمد ، كان موظفا صغيرا فى

حاشية الحاكم بأمر الله ، لكنه كان طموحاً ، ذهب حمزة هذا ، بتشجيع من الحاكم بأمر الله الى وضع الاسس التى تكفل ليحاكم بأمر الله طريق الوصول الى مرتبة الالوهية ، وثار المصريون وضربوا قصر الخليفة بالحجارة ، وحاولوا الفتك بحمزة أكثر من مرة، واختفى حمزة فى أحد السراديب بضعة أعوام ، ولما قتل الحاكم بأمر الله عام ٤١١ ، تم قتل حمزة بعده بعام واحد ، غير ان رسائل كثيرة كان حمزة قد بعث بها الى كثير من دعاة الفاطميين فى سوريا ولبنان وفلسطين وكان حامل رسائله هو زوج شقيقته ووجدت قبولا لديهم ، ولم يكن حمزة منصفا لولى نعمته الحاكم بأمر الله ، يبدو أيضا أن طموحه لم يكن ليقف عند حد الوفاء لسيده ، فقد ادعى حمزة لنفسه كل ما أعطاه لسيده الحاكم بأمر الله : وانتزع لنفسه كافة الالقاب التى سبق أن خلعها بسخاء على أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الحاكم بأمر الله ، ابان حياته ...

لقد كان العالم الاسلامى يموج فى خلال هذه الفترة بالكثير من الدعاوى الدينية التى اختلطت بثقافات الشعوب الاخرى التى فتح بلادها المسلمون ، كانت هناك الثقافات اليونانية والفارسية والبابلية والاشورية والهندية بل والصينية أيضا ، وتقدم علم الكلام عند العرب ، وشغلوا أنفسهم بما ينشغل به الثراة عادة ، الى جانب النعرات الشعوبية التى بدأت تطل برأسها فى كثير من أطراف الامبراطورية الشاسعة ، وعندما قامت الدعوة الفاطمية فى المغرب كان لها دعاة أقوياء : انتشروا فى كل مكان ، وعندما قامت دولة الفاطميين

بالفعل ، كانت دعاياتها قد سبقتها بفترة طويلة ، وعندما انتقل ملكهم الى مصر زادت شهرتهم ، وتمكنت دعوتهم بطريقة أكثر اضطرادا ، وكلما قويت مملكتهم كان احتمال تصديقهم والالتفاف حولهم يشكل دائرة يزيد اتساعها ، ويزيد تقبلها ، هكذا كان الحال عندما جاء الحاكم بأمر الله ، وكان طفلا مدللا ، وحيد والديه ، ليست له الا أخت غير شقيقة ، وكان هو وليا للعهد ، وينتظر الملك ، فوجد حياة حافلة فى قصر أبيه ، وعندما مات أبوه العزيز بالله ، كان المنصور وهو الذى عرف فيما بعد باسم الحاكم بأمر الله ، كان المنصور لا يزيد عمره على ١١ عاما ، وجد الطفل نفسه فى حياة مترفة ، الكل يسجد تحت قدميه ، يمتلك امبراطورية هائلة ، يعطى ويمنع ، يقتل من يشاء ، ولاى سبب ، ويعفو عن من يشاء ، ولاى سبب أيضا ، وهكذا قيل بأن الخليفة يهب من يشاء ، ويمنع عن من يشاء ، يحيى ويميت ، وتم تداول مثل هذه الاقاويل على نطاق واسع داخل القصر ، والحاكم بأمر الله سعيد بهذا كله ، يلتف حوله طائفة من الخدم والحشم والموظفين ليست لديهم الوسيلة للتقرب نحو الحاكم الطفل الا زيادة الزلفى ، له ، هكذا نشأ الخليفة الفاطمى الثالث ، والدعوة الفاطمية فى عنفوانها ، ثم استغلال هذا كله من أجل طموحات حاكم صغير افسده رجال قصره ، وعظمة سلطانه ، واتساع امبراطوريته ، ونشاط الدعاة الفاطميين فى كل أطراف الامبراطورية الفاطمية .

وهكذا ، ظهر المذهب الدرزى فى بلاط الحـــاكم الفاطمى ، ومن يريد معرفة عقيدة الدروز عليه أولا معرفة عقائد الفاطمية ، وتطورها من عصر الى عصر ، ومن بلد الى بلد ، ولا يوجد الكثير الذى يمكن قوله باطمئنان عن عقيدة الدروز ، لان معظم الدروز أنفسهم لا يعرفون حقيقتها ، ويبدو انهم لا يريدون معرفتها ، لغموضها من ناحية ، ولاحتفاظ أقليــــة درزية بطبيعـــة أسرارها ، والدروز يحتفظون بمذهبهم منذ البداية فى سرية تامة ، وكتمان شديد ، لا يبيحون بها الا للعقلاء الكبار فقط ، لا يجوز للصغار أو ناقصى العقل أن يعرفوا عنها شيئا ، وهم ينقسمون فى الناحية الدينية الى عقال أو اجاويد وجهال ، والفئــة الاولى لهم حق معــرفة العقيــدة على مراحل ، وطبقا لدرجات ثلاث ، من يجتــاز الاولى ، يصل الى الثــانية ، ومن يتفـوق فى الثانية يصل الى المرتبة الثالثة من العلم بالعقيدة ، اما فئة الجهال فليس لهم الحق فى معرفة أى شىء ، الا الاســـتماع لبعض ما يقوله شيوخهم فى يوم العيد ..

وللنسـاء فى المجتمع الدرزى ، نفس التصنيف طبقتان ؛ احداهن طبقة العاقلات ، والثانية الجاهلات ..

وللدروز رؤساء دينيون ، ولهم قضاة يحكمون وفقا للشريعة الاسلامية ، مع بعض التقاليد الدرزية مثل عدم السماح لرجل أن يتزوج من امرأتين ، ولا يجوز عندهم نظام المحلل مهما كان الامر ، فمن طلق زوجتــه ثلاثا ، لا يجوز ارجاعها بأى حال ..

أمير الدروز فى العصر الحديث

يقول د . محمد كامل حسين ، فى كتابه الفريد عن الدروز ، أنهم من قبائل عربية معروف نسبها على مر التاريخ ، وأنهم طوال تاريخهم مع اخوانهم العرب ، يدا واحدة ، وانهم استبدلوا اسم جبل الدروز ، الذى عرف باسمهم باسم « جبل العرب » ...

جاء على لسان واحد من أبرز زعماء الدروز وهو عادل النكدى الذى قال موجها الحديث الفرنسيين : « ان الدروز مسلمون ، كانوا ولا يزالون ، وانهم لو لم يكونوا كذلك لصيرتهم عربيتهم مسلمين .. » .

لعل أبرز ما يمكن تقديمه عن عقيدة الدروز ايضا ، نقلا عن واحد من ابرز زعمائهم فى العصر الحديث ، وأكثرهم شهرة وهو الامير شكيب أرسلان ، يقول الامير الدرزى ؟ ان الدروز احدى الفرق الاسلامية ، أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، والشيعة الاسماعيلية الفاطمية تستمد أصولها من الشيعة السبعية التى تقول بالائمة السبعة ، وهؤلاء من جملة المسلمين كما لا يخفى ، فاذا قيل بأن الدروز من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب هو أن الدروز مسلمون ، ويقيمون جميع شعائر المسلمين ، ويتواصون بمرافقة المسلمين فى السراء والضراء ، ويقولون ان من خرج عن ذلك فليس بمسلم ، والدروز يلقون السلام ، ويقرءون القرآن ويلقن ملقنهم الميت « اذا جاءك منكر ونكير ، وسألاك مادينك ؛ ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبلتك ،

فقل لهما الاسلام دينى ، محمد نبيى ، والقرآن كتابى ، والكعبة قبلتى والمسلمون اخوتى .

هذه هى العقيدة الدرزية ، كما يقدمها لنا واحد من ابرز امرائها فى عصرنا الحديث ، وقد انتشرت العقيـدة الدرزية فى البداية فى منطقة بين دمشق وبانياس فى سوريا عام ٤٠٨ ميلادية ، وقد سكن المنطقة قبائل عربية قدمت من اليمن تنتسب الى تيم الله بن ثعلبـة قبـل الاسلام بقرون ، وفى عهد الفتوحات الاسلامية ساهموا فى فتح بلاد الشام .

وفى عهد معـــاوية ناصروه فأعطاهم مناطق كثيرة يحكمونها .

وناصروا العباسيين فأعطـوهم ما هو اكثر ، وطلب الخليفة أبو جعفر المنصور منهم أن يسافر بعضهم الى سواحل لبنان لحمايتها من غارات الروم وتأمين طرق المواصلات ، وبالفعل سافر الامير ارسلان ، وشقيقه الامير المنذر بن مالك حيث استقروا عام ١٤٢ هـ فى جبل لبنان ، وزاد نفـــوذهم وأقرهم العباسيون على التوسع بشجاعتهم ، واستمرت هجرة القبائل العربية الى لبنان وحوران ووادى التيم .

وفى ٣٥٨ هـ ، بدأت فتوحات الفاطميين لبلاد الشام، فدخلت هذه القبائل فى الدعوة الفاطمية ، وكانت قبائل تنوخ هى الاسرع فى تقبل الدعوة الفاطمية فى جبـل لبنان ، وعندما جاء الحاكم بأمر الله بمذهبه الجديد كان اهـل وادى التيم وجوران وجبـل لبنان ، الاكثر قبولا للدعوة الجديدة واحتفظوا بهـا ، وجعلوا من بلدة

بعقلين فى الجبل مقرا لدعوتهم ، وهى حتى اليوم المقـر الرسمى والروحى لشيخ عقال الدروز ..

كان الارسلانيون والتنوخيون هم ســـادة جبل لبنان خلال الغزوات الصليبية فحاربوا الصليبيين ، واشتركوا مع الدروز فى سوريا وفلسطين فى الدفـاع عن الارض العربية ، وهم الذين استولوا على قلعة الشقيف وقلعة القرين وطردوا الصليبيين . علينا أن نتذكر أن قلعـة الشقيف فى جنوب لبنان التى خلصها الدروز من أيدى الصليبيين ، هى نفس قلعة الشقيف التى ظلت فى أيدى المسلمين الى عام ١٩٨٢ ، عندما حضرت قـوات الغزو الاسرائيلى لتجتاح أرض لبنان فى صيف نفس العـام ، وعندما وصلت القوات الاسرائيلية كان يحرسها قوات من منظمة تحرير فلسطين ، وبعد قتال غير متكافىء ، صمد فيه الفلسطينيون حتى تم استشهادهم جميعا ، واستولت اسرائيل على قلعة الشقيف ، و .. حضر الى القلعة مناحيم بيجين ، رئيس وزراء اسرائيل ، ومعه الجنرال شارون ، وكل قواد اسرائيل ، وعندما احتفلوا بالنصر ، طلب بيجن مشاهدة الاسرى من المسلمين ، ورد الضابط الاسرائيلى ، لقد ماتوا جميعا ، وتم تسليم القلعة للرائد سعد حداد أمام عدسات تليفزيون اسرائيل ..!!

قام الامير بحتر الارســلانى بهزيمــة الصليبيين فى معركة رأس التين سنة ١١٥١ ، كمـا كان الامير جمال الدين التنوخى أميرا على جبال لبنان ابان حكم صلاح الدين الايوبى وفى القرن السادس الهجرى ظهرت أسرة معن فى اقليم الشوف ، وكانت بعقلين مقرا لهم ، وهى المقر الروحى لشيخ عقال الدروز حتى اليوم .

وفى مواجهة التتار ، اشترك الارسلانيون مع السلطان قطز فى انتصار المسلمين فى معركة عين جالوت .

وكانت معاركهم الى جانب السلطان الظاهر برقوق ، شاهدا على حسن بلاء الدروز لصالح الاسلام والمسلمين .

وفى عهد الدولة العثمانية ، اتسع نفوذ بيت معن حتى سمى جبل لبنان باسم بيت معن ، وكان الامير فخر الدين بن معن الثانى من القوة بالقدر الذى جعله يفكر فى الاستقلال عن السلطان التركى ، وقد استمرت الامارة فى هذا البيت وحده قرابة ستة قرون .. وبوفاة آخر شيوخها ١١٣٩ هـ . حلت الاسرة الشهابية مكانها فى امارة لبنان ، وفى عهد هذه الاسرة قامت الفتن والحروب بين الدروز والمارون واستمرت حتى عام ١٨٦٠ .

عائلات الدروز فى لبنان

ومن أشهر عائلات الدروز ، سوف نجد العائلة الجنبلاطية ، وهى أسرة من مشايخ الدروز تنتسب الى جنبلاط بن سعيد بن حسين جنبلاط بن قاسم ، سافر جنبلاط من حلب الى لبنان مع ولده رباح ضيفا على آل معن ، فقابله أكابر لبنان ، وطلبوا منه الاقامة بينهم ، فاستقر فى الشوف ، واعتمد عليه الامير فخرالدين فى المهمات الكبرى ، وهو الذى حافظ على قلعة الشقيف وتوفى هناك عام ١٦٤٠ م .

وكان ابنه على قد تزوج من ابنة كبير مشايخ الشوف الشيخ قبلان القاضي التنوخي الذى مات عام ١٧١٢ دون أن ينجب ولدا فذهبت المشـــيخة الى الامير يوسف الشهابى الذى سرعان ما كرهه الناس لظلمه ، وزاد تقرب الاهالى من الشيخ على الجنبلاطى ، فانقسمت البـــلاد وقتهـــا الى فئتين ، من تحزب للشيخ على عرفـوا بالجنبلاطية والفئة الاخرى عرفت باليزبكية ، وبوفاة الشيخ على عام ١٧٧٨ تولى المشيخة ابنه قاسم الذى سكن فى قرية المختارة . وهى التى ظلت حتى الآن مقرا مختارا للجنبلاطية ، ويسكنها وليد جنبلاط ، كما كان يسكنها والده المرحوم كمال جنبلاط ، ولهم قصر عظيم هناك ، يستقبل الدروز كل يوم ، وهو مقصدهم جميعا ؛ ومن الطريف أن يقول بعض الامريكيين أن عائلة جنبلاط العربية العريقة ، ليست الا عائلة وفدت الى جبل لبنان ، من بلاد القوقاز قبل قرنين فقط من الزمان .. وهـكذا يتطوع الامريكيون حديثا فى تكملة سلسلة الاكاذيب التى رواها الفرنسيون عن الدروز وأصلهم الفرنسى الصليبى ، الى جانب أكاذيب الانجليز التى نسجوها حـــول الدم الملكى البريطانى الذى امتزج منذ القـــدم بدماء طائفة الدروز ...

لقــد كان مقتــل كمال جنبلاط منذ ستة أعوام حدثا خطيرا فى حياة لبنان ، لقــد تم قتله قرب قرية كميل شمعون ، وفى أحضان قوة الردع العربية ، وقيل وقتها ان حياته كانت ضرورة ، كما أن وفاته أصبحت ضرورة أيضـــا ، لذلك مات ، أما التعليق على مصرعه فى ذلك الوقت ، أن الرجل تم قتله على الطريقة الامريكية ، وكان

المارون أول من أطلق النار فرحا بوفاة جنبلاط ، أن احدا حتى الآن لم يقل بالتحديد من هو القاتل ، غير أن شابا درزيا وقف الى جانب جثمان زعيمه ، وصرخ ، اللعنة على كل درزى ، يترك فى هذه المدينة حجرا على حجر ، بقصد بيروت ، وقد نعاه الشاعر كمال عمار فى قصيدة حزينة يقول فيها بأن الموت فى لبنان أصبح بالمجان ... وبعدها أشاع الامريكيون أن جنبلاط من عائلة نزحت الى لبنان من بلاد القوقاز .

الى جانب الجنبلاطية ، والارسلانية ، والنكدية ، واليزبكية ، توجد عائلات درزية أخرى كبيرة ارتبط مصيرها ، بلبنان طوال تاريخه ، وكلها عائلات عربية عربقة ، وتاريخها معروف وكفاحها مشهور ، وارتباطها بلبنان ودفاعها عن أراضيه وسهوله متصل الى يومنا هذا ، برغم اختلاف الظروف الدولية ، وتعاقب العصور ، فان الدروز فى لبنان ، لسبب ما مكتوب عليهم مواجهة التحديات .

نصف مليون درزى فى لبنان

ان الدروز حاليا فى لبنان ، يصل تعدادهم قرابة نصف مليون ، وهم أيضا فى جبل الكرمل فى الجليل الاعلى وصفد فى أرض فلسطين ، تقول التقديرات الاسرائيلية أن عددهم يصل الى ٦٠ الفا وان كان هذا التقدير أيضا لا يمكن الاطمئنان اليه ، ولقد أذاع الاسرائيليون أن مايقرب من ١٣٠٠ مجند درزى فى الجيش الاسرائيلى قد كتبوا الى رئيس الاركان ، خلال سبتمبر ،

يطلبون السماح لهم بالتوجه الى جبل لبنان ، للوقوف الى جوار اخوانهم دروز لبنان الذين يتعرضون لمعارك دامية من جانب ميلشيات الكتائب وغيرهم ، ولم ترد قيادة الجيش الاسرائيلي وان كانت قد سربت النبأ ، كما ان مشايخ الدروز ، وبعض كتاب الصحف من الدروز وأعضاء فى الكنيسست ، كلهم يتحدثون الآن بمرارة عن المظالم التى يتعرض لها دروز لبنان ، وتسمح كافة وسائل الاعلام الاسرائيلية لهذه الاصوات الدرزية بالوصول الى خارج اسرائيل ، غير انه يوجد ايضا فى هضبة الجولان أعداد كبيرة من الدروز ، لا نسمع عنهم شيئا ، بالطبع لا يقل دروز الجولان غيرة على اخوانهم فى لبنان ، وما يتعرضون له من هجمات ، لماذا ينتشر صوت دروز اسرائيل ، لماذا لا نعرف شيئا عن موقف دروز الجولان، ماذا تريد اسرائيل بالضبط ، كيف تحاول أستثمار محنة شعب ، وتمزيق أمة ، وضياع دولة ، كيف يفكر السادة فى بيروت الذين يحكمون باسم الميثاق الوطنى ، لقد تمسكوا طويلا بالميثاق ، أين هو الوطن .

الفصل الثانى :

الموارنة والكتائب

ماكفرلين المبعوث الامريكى لادارة الصراع اللبنانى ، لو انه نظر الى تجربة زميله روبرت مورفى ، مبعوث أمريكا عام ١٩٥٨ ، لادارة صراع مشابه ، ابان حرب لبنان الاهلية ، قبل ٢٥ عاما ، ربما حقق بذلك فائدة مزدوجة ، لبلاده وللشرق الاوسط ، استمع مورفى وقتها الى توصيف كميل شمعون للمشكلة وهو مارونى بارز ، وكان رئيسا لجمهورية لبنان فى ذلك الوقت ، وهو الآن يناضل مرغما تحت رايات حزب الكتائب ، كان توصيف شمعون للوضع اللبنانى المتفجر عام ١٩٥٨ .

ان مشكلة لبنان ليست داخلية ، وأن الحرب الاهلية قامت لاسباب خارجية ، وقال شمعون موجها الكلام للمبعوث الامريكى ، لان الحكومة اللبنانية تقبلت الانضمام باطمئنان وفرح الى حلف بغداد ، ولان لبنان ايد أمريكا ، ضد دولة الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا قبل نشوب الحرب الاهلية اللبنانية بشهرين ، فان لبنان هو الذى يدفع الثمن .

استمع مورفى باهتمام الى كل دعاوى كميل شمعون ،

غير أن مورفى ، توصل الى نتائج مخالفة تماما ،تولدت لديه قناعة كاملة بأن الثورة اللبنانية عام ٥٨ ، قامت لاسباب داخلية تماما ، واقتنع أن قوات الاسطول السادس الامريكي التى كانت قد نزلت بالفعل على الشواطىء اللبنانية ، استجابة لاستغاثة عاجلة من كميل شمعون ، اقتنع مورفى أن القوات الامريكية ٢٠ ألف جندى ، لن تكون ذات فائدة تذكر ، وان وجودها غير مرغوب فيه شعبيا ..



وبرغم أن ثورة العراق الوطنية قامت فى يوليو ١٩٥٨، وأنهت بنجاح النظام الملكى فى بغداد ، وعطلت أعمال حلف بغداد ، برغم قيام هذه الثورة قبل ثلاثة أسابيع فقط من نزول قوات الاسطول السادس على الشواطىء اللبنانية ، فان مورفى كتب الى حكومته ينصح بانسحاب الجيش الامريكى على الفور من لبنان ، وبالفعل أصدر الرئيس الامريكى دوايت ايزنهاور قرارا فى ٢٧ نوفمبر ١٩٥٨ يقضى بانسحاب القوات الامريكية من لبنان بناء على طلب رسمى من حكومة الرئيس فؤاد شهاب ، الذى خلف كميل شمعون فى منصب الرئاسة اللبنانية .

من أواخر يوليو الى أواخر نوفمبر ، عام ١٩٥٨ حوالى ١٠٠ يوم هو كل الوقت الذى تمركزت فيه قوات أمريكا فى لبنان قبل ٢٥ عاما ، وخرجت من هناك ، لان الحل جاء من داخل لبنان ، وليس عن طريق الغزو العسكرى الخارجى ، ولان المشكلة كانت بسبب نزاعات طائفية داخلية ، فقد تم تجاوز المحنة بمصالحة وطنية، ولان كميل شمعون كان من أبرز المطالبين الموازنة بضرورة

وجود حماية اجنبية لمصالح فئة الموارنة فى لبنان ، فقد تم ازاحة شمعون ، وتوصل الاطراف الى ترشيح الجنرال فؤاد شهاب رئيسا لجمهورية لبنان ، الذى كان أول عمل رسمى له بعد ولايته يتعلق بمطالبة انسحاب القوات الاجنببة من أراضى لبنان ..

لو ان ماكفرلين فكر مليا في وقائع ما قبل ربع قرن فى لبنان لانحاز على الفور ، الى رأى سلفه ، وطالب بانسحاب جيوش بلاده دون ابطاء من لبنان ، وتشجيع عقد مصالحة وطنية لبنانية ، أن التورط المتزايد ليس للوجود العسكرى الامريكى فقط ، أيضا التورط فى الانحياز علنا مع طائفة واحدة ، فقط ، فى الحرب الاهلية اللبنانية الحالية ، متجاهلا وجود طوائف أخرى تدخل فى صميم البنية الاساسية للدولة اللبنانية ، وهو الخطأ الذى لم يحاول مورفى قط الوقوع فيه ..

فى عام ١٩٥٨ ، كانت الطائرات الامريكية ، تحلق فى سماء بيروت تلقى منشورات مكتوبة باللغة العربية موقعة بامضاء الرئيس ايزنهاور الذى كان يحظى فى ذلك الوقت بالشعبية فى العالم العربى بسبب وقوفه ضد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، كانت المنشورات تطمئن الاهالى بأن الامريكيين حضروا بناء على طلب من الحكومة اللبنانية ، وأنهم سيرحلون فور هدوء الاحوال . وقد رحلوا بالفعل ، بعد أن نجحوا فى العمل على تهدئة الاحوال فى لبنان ..

***

فى عام ١٩٨٣ ، يلقى المتحدث العسكرى الرسمى ، باسم قوات مشاة البحرية الامريكية ، الموجودة حاليا

فى لبنان ، يلقى نفس المقـــدمة بأنهم حضروا بناء على طلب حكومى ، غير انه بدلا من قوله بأنهم ســـيرحلون مبكرا ، بعد هدوء الاحوال ، يقول الامريكيون حاليا كلاما آخر ، يختلف تماما عن كلامهـــم عام ١٩٥٨ ، ربما لاختلاف الظروف العربية نفسها ، قبل ربع قرن ، كانت هناك دولة للوحدة العربية فى دمشق والقاهرة ، وكانت بغـداد قد أنجزت لتوها ثورة وطنية ، وكان الشعب العـــربى كله قد بدا واحدة من أبرز صحواته التاريخية .

فى عام ١٩٨٣ ، يقول المتحدث العســكرى الامريكى انهم باقون ، وان فواتهم العســـكرية فى تزايد ، وان واشنطن قد أقرت قائد مشاة البحرية فى لبنان على ضرب اللبنانيين ، كما يريد ، دون الرجوع الى واشنطن ، ثم أقر الكونجرس بعد أسابيع ، طلبا للرئيس الامريكى ، يقضى ببقاء القوات الامريكية فى لبنان مدة ثمانية عشر شهرا ...

فى عام ١٩٥٨ ، كان كميل شمعون هو الـذى طلب التدخل العسكرى الامريكى ، كان ثمن العـودة للوفاق الوطنى هو ذهاب شمعون نفســه ، غير انه من قبيل الامانى أيضا ، أن نتوقع الآن حلا لبنانبا مماثلا ، أصبحت المشكلة أكثر تعقيدا ، ليس عام ١٩٥٨ ، على أى حال هو العام الحالى ١٩٨٣ ، لقد انحاز حزب الكتائب اللبنانى ، باطمئنان وفرح ، طوال الربع قرن الماضى ، الى كـل الخيـــارات التى تؤيد استمرار التواجد الاجنبى فى لبنان ، غير أنهم لا يدفعـــون الآن بمفردهم ثمن هذه الافراح كلها ، يدفع لبنان . وبقية العالم العربى ، الثمن

فادحا هذه الايام ، والمستقبل فيما يبدو أصبح قاتما ....

أقدمت عدة دول عربية على عدم الاحتفال بالعيد الذي جاء يوم ١٧ سبتمبر ١٩٨٣ ، وهو عيد الضحية عند المسلمين لان المذابح التي تعرض لها اللبنانيون ، وخاصة المسلمون كانت فوق أى احتمال ، قال بلاغ رسمي ، صدر عن امير دولة الكويت ، يتحدث عما يصفه بالظروف العربية العصيبة مع ماجرى ويجرى على الساحة من تقتيل وتشريد لابناء المسلمين « لذلك أمر سمو امير البلاد بالغاء الاحتفالات المعتادة بعيد الاضحى المبارك .. »

لم تكن الكويت بمفردها التي كتمت فرحتها بالعيد الاسلامي الكبير ، وانتهى العيد ، كان الحزن العربي جماعيا ، يتفاقم خطر الحرب اللبنانية الاهلية ، تمضى السياسة الامريكية منفردة تستغل انعزالية حزب لبناني لا يعبر الا عن مصالح الصفوة في داخل الطائفة المارونية، وعاش طوال تاريخه مدعوما بقوة عسكرية أجنبية .

من هم الموارنة

ان الموارنة ، عرب ساميون ، عاشوا في وادي نهر العاصي شمالي سوريا ، كانت لهم حياتهم قبل ظهور الاسلام ، عندما شملت الفتوحات العربية بلاد الشام دخل بعضهم في الدين الجديد ، استظل الآخرون بسماحة الاسلام ، واحترامه لاهل الملة ، غير ان كثرة ظهور الطوائف المسيحية في قرونها الاولى ، جعلت الموارنة في سوريا ، والذين يرجع تسميتهم بهذا الاسم الى القديس مارون ، قد وجدوا أنفسهم متورطين في

خلافات عميقة مع بقية الطوائف المسيحية الاخرى التى كانت تعمل بنشاط في سوريا ، مثل النساطرة واليعاقبة ، عندما شعر المارون فى سوريا انهم مضطهدون من جانب أخوانهم من الطوائف المسيحية الاخرى نزحوا خلال القرن السابع الهجرى نحو المناطق الشمالية من جبال لبنان ، حيث استضافهم الدروز سكان الجبل .

وفى عهد الاستعمار العثمانى ، انخرط الموارنة كلية كجزء من البنية الاساسية السائدة فى الشرق العربى ، غير انه فى جبل لبنان ، لم يعد تواجدهم ، بمرور الوقت ، مجرد ضيافة على طائفة أخرى عانت مثلها من اضطهاد سابق ، وهى طائفة الدروز ، فقد أصبح للموارنة وجود بساعدت الدول الاوربية المسيحية على ابرازه وتأكيده ، وقامت الحروب بين الموارنة والدروز ، وقعت مذابح طائفية بينهما ، كان اشهرها مذابح ١٨٤٠ ، ثم مذابح عام ١٨٦٠ ، التى دبر لها الفرنسيون ، التى قامت بسبب حمار غلام درزى عض صبيا مارونيا ، من بيت مرى فقامت الحرب بين الطائفتين بعد تدخل فرنسا واشعالها النار بينهما ، تماما نفس الطريقة التى استعارتها بريطانيا بعد سنوات قليلة فى الاسكندرية عندما جعلت من حادث حمار لرجل مالطى فى الاسكندرية سببا مباشرا لاحتلال بريطانيا لمصر .

المهم انه بسبب الحرب الاهلية فى جبل لبنان بين المارون والدروز ، عام ١٨٦٠ تم وضع بروتوكول ظهر عام ١٨٦٤ ، أصبحت لبنان بموجبه خاضعة لما عرف فيما بعد باسم حكم القناصل ، أصبح كل قنصل أوربى في لبنان يحظى بحماية طائفة لبنانية ، وكان قنصل

فرنسا هو المسئول عن حمـاية الموارنة ، عنـدما حاول سلطان تركيا الضعيف ارسال حاكم حازم لاقرار الهدوء فى لبنان بين الطوائف عام ١٨٦١ ، احتجت فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا ، وجعلوا السلطان يرضخ لمطـالبهم بضرورة تعيين مساعدين للحاكم التركى ، احدهما مارونى والآخر درزى ، لكى يقوم كل واحد منهما برعاية شئون طائفته ، هكذا تأكدت شرعية القسمة الطائفية فى لبنان ، وتأكد بالتمام نفوذ قناصل الدول الاوربية الذين يشرفون على هذه القسـمة ويعملون على تعميقها ، لتكون هى تاريخ كل لبنان ..

لقد كان النظام الطائفى الذى حرص عليه الموارنة منذ البداية ، هو الاكثر مناسبة لـكل الاطراف الاجنبية ، بينما كان هذا النظام نفسه هو الاسوأ بالنسبة لمجمـل تاريخ لبنان الوسيط والحديث ..

الكنيسة المارونية

منذ بداية القرن السادس الميلادى ، وحتى منتصف القرن العشرين ، ظل بطريرك الكنيسـة المارونية ، يعين مباشرة بقرار من قداسة بابا روما ، ظل الوضع معمولا به حتى عام ١٩٤١ عنـدما أصـدر البابا بندكيستوس الرابع عشر ، قـــرارا يقضى بتثبيت المجمع اللبنانى ، والاعتراف به كهيئة كنسية مستقلة ..

أصبح من حق أساقفة الطـــائفة المارونية فى لبنان انتخاب البطريرك ، غير أن البابا فى روما احتفظ لنفسه بحق اختيار ٧ من الاساقفة ، يشتركون فى عملية اختيار

البطريرك الماروني، ولم يكن ذلك نهاية الخلاف ، فقد صدر عام ١٩٤٨ قرار وقعه بابا روما بيوس الثاني عشر ، بموجبه تم تشكيل لجنة رسولية لمعاونة البطريرك الماروني ، لأنه كان مريضا ، غير ان القرار شمل في جانب آخر رغبة الكنيسة الرومانية في تثبيت وضع اللجنة الرسولية ، والاستمرار في عملها حتى بعد وفاة البطريرك ، ظل هذا الجزء من القرار سريا ، لم يكشف عنه الا في عام ١٩٥٢ ، ثار الموارنة للتدخل في شئونهم ، وتم الاتفاق فيما بعد على الغاء اللجنة الرسولية ، وتم انتخاب البطريرك بولس المعوشي ، كزعيم ديني للطائفة المارونية في لبنان ..

والبطريرك وأتباعه ، مستقلون تماما عن الحكومة ، يديرون بأنفسهم شئون دينهم ودنياهم ، ولا يعتمدون على أموال الحكومة ، لدى الكنيسة المارونية أوقاف ضخمة تدر عائدا يكفي ويزيد ، وللبطريرك نفوذ حاسم في الشئون السياسية اللبنانية داخليا وخارجيا ، كما أن نفوذه لا يستطيع أحد أن يقاومه ، مهما كان موقعه أو شعبيته ، يكفي أن رئيس الجمهورية اللبنانية بمجرد فوزه في الانتخابات التي تعطيه حق حكم لبنان بشكل مطلق ، عليه أولا : أن يبدأ عمله في قصر بعبدا ، بالتوجه الى مقر البطريرك ، لنوال البركة ، واذا كان رئيس الجمهورية بالضرورة هو ماروني ، وبالتالي فان هذا التعبير الديني يعتبر مفهوما ومقبولا ، لكن الامر يتعدى ذلك اذا عرفنا انه من واجب رئيس الوزراء أيضا وهو في العادة مسلم سني ، عليه أن يفعل نفس الشيء ، من واجبه فور فوزه بالترشيح لرئاسة الحكومة أن يذهب

بنفسه للحصول على عطف البطريرك ، ونوال بركته .

لقد أظهرت الكنيسة المارونية فى كل الاوقات ، انها تستطيع اذا لزم الامر ، تحدى سلطات الحكام جميعا فى لبنان ، وانهـا لا تقبل لغيرها حق الوصاية على مستقبل لبنان ، غير انه من أبرز أهدافها دون شك هو حرصها المستمر على تأكيد استمرار الكيان اللبنانى والمحافظة عليه من مختلف الاخطار ، وعندما حاول الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب الضغط على المقر البطريركى لمصلحة أهدافه الحزبية ، قاومه البطريرك ، وانحاز الى جانب كل لبنان ...

تثبيت الوضع الطائفى

لقد ظل النظام الطائفى مستمرا فى العهد العثمانى ، والفرنسى ، فقد تم وضع أول دستور للبنان ، عام ١٩٣٦ ، وكان وقتها لا يزال تحت وصاية فرنسا ، فى هذا الدستور تم وضع مادتين احداهما تعطل الاخرى ، غير أن النتيجة فى الحالتين كانت واحدة تشير الى تأكيد الطائفية .

بينما كانت المادة ٩٩ تتحدث عن فترة انتقالية مؤقتة لتذويب الفوارق التى كرسها الاستعمار بين الطوائف اللبنانية ، كانت المادة ٩٥ من نفس الدستور الذى وضعه الفرنسيون تعمل على ترسيخ الفوارق الطوائفية .

لقد جرت ثلاث محاولات لتعديل الدستور ، قبل وبعد الاستقلال ، غير أن أحدا لم يقترب من المادة ٩٥ التى تكرس القسمة الطائفية اللبنانية .

حتى الميثاق الوطنى ، والذى هو أعلى من كل دساتير لبنان ، لا يميز هذا الميثاق الا أنه يوزع المناصب السياسية والمغانم الدينوية على أساس طائفى ، ابتدعه الموارنة ، لتأكيد امتيازاتهم على حساب بقية الطوائف اللبنانية .

بموجب هذا الميثاق غير المكتوب ، تم تقسيم السلطة فى لبنان ، حصل بموجبه الصفوة من الموارنة على نصيب الاسد ، رافعين شعارا يقول بأنه لابد من تطمين الموارنة الذين يعيشون فى بحيرة عربية اسلامية .. وبرغم ان أصواتا كثيرة أكثر تعقلا من داخل الطائفة نفسها ، كانت تحذر طوال الوقت من خطر استمرار الموارنة كأقلية مهيمنة ، محمية من الخارج ، فان أحدا من قادة الموارنة لم يكن يستمع الى نصيحة حتى من داخلهم ، وكانت سياسة الموارنة قد ظهرت بجلاء أكثر بعد الاستقلال ، عندما اختصوا لانفسهم ، دون غيرهم حتى من داخل الطوائف المسيحية الاخرى بالوظائف العليا وذات الحساسية الخاصة فى الدولة الجديدة .

كل المناصب لهم ليطمئنوا ...

كان للموارنة بالضرورة مناصب مؤكدة ، رئاسة الجمهورية ، رئاسة الجيش ، رئاسة المخابرات العامة ، ويسمونها هناك على طريقة الفرنسيين بالمكتب الثانى ، وللمارون ايضا منصب مدير الامن العام ، ومدير الجمارك ، ومدير الجوازات والجنسية ، ومحافظ بنك لبنان المركزى .. الخ

هذه المناصب وغيرها ، من أجل اطمئنان قادة الموارنه الذين كانوا يريدون الاستئثار بحكم لبنان ، تحت دعاوى زائفة لا يوجد لها أساس واقعى أو عقائدى .. حتى عاب عليهم واحد من أبرز مفكريهم عندما اتهم قـادة الموارنة بأنهم ، جعلوا الماضى أفضل من الحاضر ، وجعلوا الحاضر افضل من المستقبل ونظروا دائما الى الوراء ، وانغمسوا مرة أخرى فى الحزبيات الجبلية الضيقة ، والانقسامات التقليدية .. وكانت بعض أركان الكنيسة تشجع مثـل هذه الاتجاهات ..

لقد شعر مسلم سنى بارز بهذه الهيمنة السياسية ، ذات النزعة الطائفية ، عندما فكر الشيخ كاظم الصلح ، وهو سياسى معتدل ، كيف أصبح حال اللبنانيين أمـام جموح الموارنة وحزب الكتائب الذى بدأ يزداد صيته .

قال الشيخ كاظم الصلح هذه العبارة العجيبة التى أصبح اهل لبنان جميعا ، يتندرون بها حتى اليوم ، « وأصبح كل لبنانى ، مسيحى بالبداهة ، مارونى بالضرورة ، مالم يقدم الدليل على انه مسلم .. !! » .

الريبة اساس الحكم

ان عقيدة الموارنة السياسية فى حكم لبنان ، امر لايمكن فهمه ، يرتبط سلوكهم دائما بالريبة من جانب الطوائف اللبنانية الاخرى ، كان ميشيل شـيحا أبرز منظرى القومية المسيحية فى لبنان ، وهو مارونى ، كان يقول بأن مفهومه للبنان ، ينطلق من اطار قومى يضم الجميع ،

وأن لبنان يتمتع بذاكرة عربية ، ويســـتند الى ماض اسلامى عريض ..

هذا الفهم للوضعية الخاصـــة للبنان ، من جـانب منظر مسيحى لبنانى ، هو الذى ســـاد ، وهو الذى تبنته لجنة بيروت للاصـــلاح ، التى تأسست من كل الاتجاهات الوطنية والدينية عام ١٩١٣ ، وهو نفس الفهم الذى قامت على أساسه دولة لبنان بعد الاستقلال عام ١٩٤٣ ، الاساس الايديولوجى للبنان الرسمى ، بتحالفه بين المسلمين والمسيحيين .

غير ان قادة حزب الكتائب المارونى ، كان لهم رأى آخر ، يختلف تماما عن هذا كله ، وحزب الكتائب ترجع خطورة أفكاره الى انه يحتل الساحة السياسية كلهـا حاليا فى لبنان ، ربما كان ذلك جزءا من القضية ، غير ان موقف حزب الكتائب من وضع الدولة اللبنانية يرجع فى أهميته الى طموح قادة الحزب طوال السنوات العشر الاخيرة : من أن يجعلوا من أنفسهم ، المتحـدثين الوحيدين باسم الموارنة وبقية الطوائف المسيحية الاخرى فى لبنان » وهو أمر يظل محل شكوك دائمة ، كما أنه يظل أيضا محل شكوى مستمرة ، من جانب المسيحيين الآخرين بمـن فيهم قطاعات كبيرة من الموارنة انفسهم .

دستور حزب الكتائب يطالب بالتدخل الاجنبى

يقول دستور حزب الكتائب أن لبنان جزء من البحـر الأبيض المتوسط ، ولما كان واقعه يجعله جزءا من البلاد العربية ، فان لبنان يكون بهذه الصفتين ، صاحب رسالة

خاصة أما هذه الرسالة الخـــــاصة ، فى فهم حزب الكتائب ، هى كما يلى كما جاء فى دستور الحزب .

« يجب أن تبقى للمسيحيين فى لبنان ، الاغلبيةوالاكثرية فى الحكومة والبرلمان ، فاذا رفض المسـلمون السيطرة المسيحية ، فانه يكون لا ملامة على المســـــيحيين اذا استنجدوا بدولة أو عدة دول أجنبية » .. !

وقد كانت فرنسا فى الماضى ، هى الام الرءوم ، .أما الآن يبدو ان الولايات المتحدة الامريكية قد بدات تمارس دورها باعتبارها الوالد الرحيم .. !!

غير ان الكتائب وحدها هى التى تقول بهذا الاتجاه الذى يعكس رغبتها فى الوصاية على لبنان ، حتى لو لزم الامر الاستعانة بالدول الاجنبية ..

ولقد وجد قادة حزب الـكتائب من يساعدهم على المضى فى هذا الاتجاه فى كل عصر ... سـوف نجـد أيضا ليس من بغريهم على الامعـان فى الانعزالية والرغبة فى السيطرة ، سوف نجد أيضا من كان يعاقبهم عندما تصرفوا فى مرات قليلة من منطلق قومى صرف ، محافظة على كيان لبنان .

فرنسا اصرت على استبعاد الشيخ الخازن كرئيس

ان منصب رئيس الجمهورية مثلا ، لم يكن حكرا على طائفة المارون الى ان وصل مؤخرا الى زعيم كتائبى ، لا يوجد نص فى الدستور يقول بأن الرئاسة هى بالضرورة لمارونى . أيضا الاتفاق الوطنى أو ما يحبون تسميته بالميثاق ، لا يشير الى شىء من ذلك ، الكتائب بمفردها

نيابة عن الموارنة هي التي بدأت تقـول بذلك في وقت متأخر ، وبعد الاستقلال عام ١٩٤٣ ، تم تسليم منصب رئاسة الجمهورية لاول مرة في لبنان الى رجل أرثوذكسي، وكان ذلك حلا وسطا لانه كان قد تأكد أن يصل الشيخ محمـد الخـازن ، وهو مسـلم سـني الى منصب الرئاسة ، باتفاق المسيحيين والمسلمين ، غير ان فرنسا رفضت هذه السابقة الغير مرغوبة ، تم استبعاد الشيخ الخازن عن المنصب الرفيع ، ومنذ ذلك اليوم لم يفـكر المسلمون في الترشيح له حتى الآن .. ليس لادراكهم أن بقية الطوائف اللبنانية ترفض ذلك ، فقد حدث العكس وتم تأييد ترشيح الخازن ، وكاد أن يفوز ، ولـكن المسلمين ابتعدوا عن قصر الرئاسة في بعبدا منذ بـداية الاستقلال ، وحتى الآن ، لان فرنسا أظهرت منذ البداية انها لا تريده من بين فئات المسلمين .

في أول حكومة بعد الاستقلال ، رأينا أن الرئيس كان أرثوذكسيا ، وأعطيت رئاسة الوزارة لماروني ، بينما جلس مسلم سني ، على مقعد رئيس المجلس النيابي .

هذه القسمة الاولى ، لم تستمر ، كانت القسمة يتم تغييرها وفقا لما يعكسه المناخ الطائفي في البلاد بعد عام ١٩٥٢ كان التوزيع قد تغير لصالح فئة الموارنة دون غيرهم، أصبح رئيس الجمهورية مارونيا ، بتولي الرئيس الاسبق كميل شمعون السلطة وظل حتى عام ١٩٥٨ ، وقد أسلم البلاد لما يشبه الحرب الاهلية ، وعندما حاول تعـديل الدستور ليسمح لنفسه بفترة رئاسة ثانية ، انفجـرت الثورة ، وتمت الاطاحة بحكم شمعون ، غير أن افـكاره ظلت قائمة دون تقييد ..

لم تكن النتائج التى تمخضت عنهـا الثورة ، كافية لالغاء مثل هذا الامتياز ، أو مجرد تخفيف الطـابع الطائفى لحكم البـلاد ، كان الرئيس فؤاد شهاب الذى خلف شمعون فى الحكم ، قد أمضى طوال فترة حكمه ، فى محاولات مستمرة لتسكين الاوضاع الملتهبة ، غير أن احدا لم يـكن مخلصا بالقـدر الـكافى لقضية ازالة الطائفية ، وابعاد سيطرتها على جهاز الحكم .

وبدخول الفلسطينيين بأعداد كبيرة الى لبنان بعـد خروجهم من الاردن ، عـام ١٩٧٠ أصبح الموارنة ، فى وضع يبرر لهم اظهار قلق أكبر على وضعهم المتميز فى لبنان ، لان الفلسطينيين جرى تصنيفهم لصالح المسلمين، وبالتالى سوف نجـد تاريخ حزب الـكتائب طـوال السبعينات ، يدور أساسا حول مقاومة الفلسطينيين الذين وصفوهم بالغرباء ، وطالبوا بطردهم ، واستعانوا عام ١٩٧٥ ابان الحرب الاهلية الثانية ، بأكثر من جهة اجنبية لقتل الفلسطينيين ، وطردهم ، وكانت اسرائيل والولايات المتحـدة الامريـكية على مقربة من هـذه الاحداث ، تمد ميلشيات حزب الكتائب بالدعم المـادى والعسكرى والتأييد السياسى .. !!

لا رئيس ولا مجلس نيابى عند الغزو الاسرائيلى

عندما كان الوقت مناسـبا للغـزو العسـكرى الاسرائيلى للبنان صيف عام ١٩٨٢ ، وكانت لبنان فى الحقيقـة دون رئيس ، لان الرئيس سركيس كانت مدة حكمه القانونية قد انتهت منذ سنوات ، وكان يجرى

تمديد فترة حكمه باتفاق الاطراف اللبنانية والاجنبية ، بحجة ان ظروف الحرب الاهلية لا تسمح بترف انتخاب رئيس الدولة .

كذلك كان المجلس النيابى اللبنـــانى شبه معطل فى اللحظة التى بدأ فيهـــا الغزو الاسرائيلى للبنان ، كان مجلس النواب قد تم انتخابه عام ١٩٧٢ ، عندما جاء اليهود كان المجلس قد مضى على وجوده ١١ عاما كاملة ، كان قد فقد فترة تمثيله الدستورية ، أعطيت له فترة تمثيلية ثانية لان الحرب الاهلية تمنع اجراء انتخابات ، كان ٦ من أعضاء المجلس قد ماتوا اما فى الحرب الاهلية، أو ماتوا بسبب الشيخوخة ، غير أن أحـــدا لم يحـــل مكانهم لانه كان أيضا من المستحيل اجراء انتخابات فى الدوائر التى مات ممثلوها ، وعنـــدما كان على مجلس النواب أن يختار رئيسا جديدا للبنان ، بعد أن دخلت القوات الاسرائيلية بيروت ، وانتهى الامر . كان المجلس النيابى ، فى وضع لا يحسد عليه ، المبنى نفسه لا يصـــلح للعمل فقد هدمت صواريخ الحرب الاهلية أركانه ، اعضاء لا يمثلون أنفسهم ، من مات منهم لم يستبدل بغيره ، رئيس المجلس يرفض الذهاب الى عمله الا بحراســـة مشددة فى داخل عربة مصفحة ، ويصر على دخول حرسه الخاص معه الى حيث توجد منصة الرئاسة ، فى قاعة مجلس نواب لبنان ، عندما تدخلت الولايات المتحـــدة الامريكية واسرائيل لاجراء انتخابات الرئاسة ، عقـــب الاحتلال الاسرائيلي لبيروت ، كان الاعضاء يحضرون الى الجلسة التاريخية تحت مختلف الضـــغوط وبالاكراه الشديد فى حراسة مشددة ، من خلال شوارع معينـــة

تسيطر عليها القوات الاسرائيلية ، وتم عقد الجلسة التاريخية فى فيللا مهجورة فى احدى ضواحى بيروت : وكان الرئيس المتفق عليه ، هذه المرة ، هو أول كتائبى بارز يصل الى قصر الرئاسة ، وهو المرحوم بشير الجميل الذى تم اغتياله قبل توليه السلطة رسميا بأسبوع واحد .

وتم هدم المبنى الرئيسى لحزب الكتائب ، حيث كان بشير يعقد اجتماعا حزبيا يضم ضباط ميلشيات الكتائب ..

وبوفاة بشير ابن الشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب أظهر الحزب مزيداً من العدوانية ، على النطاق الشعبى ، رغم اختيار كل الفئات اللبنانية تقريبا لشقيق المرحوم بشير الجميل ، ليكون رئيسا لجمهورية لبنان ، وهو الذى حدث بالفعل ، باختيار الرئيس الحالى امين الجميل ، لكن حزب الكتائب كان قد عقد العزم على الانفراد التام بكل حكم لبنان ، مستعينا بكل ما يجده أمامه من وسائل بما فى ذلك تصفية خصومه السياسيين ، سواء كانوا من داخل الفئات المسيحية نفسها ، أو طوائف المسلمين . وبدأ حزب الكتائب يسيطر على الحياة السياسية والعسكرية فى البلاد ، وأظهر الشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب ، ووالد رئيس الجمهورية ، ميلا واضحا لتأكيد سلطان حزبه على مجمل الاوضاع اللبنانية بالقوة المسلحة ، مستعينا بالقوات الاجنبية اذا لزم الامر لتنفيذ أهدافه ... !!

ان التكوين الداخلى لحزب الكتائب ، وطريقة نشأته ، ونمو عقيدته ، الى جانب امتياز الحزب بأنه

ربما كان الحزب الوحيد فى المنطقة ، الذى بدأ يمارس نشاطه منذ عام ١٩٣٦ وحتى الآن ، وهو يحتفظ برئاسة واحدة ، ان مؤسس الحزب عام ١٩٣٦ هو الشيخ بيار الجميل ، ما زال يحتفظ لنفسه بميزة التأسيس ورئاسة الحزب حتى اليوم ...

طبع الشيخ بيار الجميل حزب الكتائب بطابعه الخاص ، وجعله بمثابة حزب عائلي خاص ، يتمتع فيه وأفراد أسرته بالمناصب العليا الثابتة .

والشيخ بيار ــ ٧٨ سنة ــ هو والد الرئيس الحالى أمين الجميل ، وكان ابنه الاول بشير رئيسا لميلشيات حزب الكتائب ، قبل أن يتولى منصب رئاسة الجمهورية لعدة أيام كما أن قائد ميلشيا الكتائب الحالى ، هو فادى افرام ، زوج ابنة الشيخ بيار الجميل .

وبعد وفاة المرحوم بشير ، أصبحت زوجته تحتل نفوذا داخل الجناح العسكرى والمكتب السياسى لحزب الكتائب ، يوازى نفس النفوذ الذى كان يتمتع به زوجها داخل الحزب ، قبل وفاته ، ولما كان بشير قد عرف بالتشدد ، والرغبة فى تصفية خصومه بكل الوسائل ، فقد حافظت زوجته على كل هذه الاتجاهات داخل الحزب ..

ويشكل الشيخ بيار الجميل حاليا ، مع فادى افرام ، زوج ابنته ، والسيدة أرملة ابنه بشير ، يشكلون معا ثالوثا قويا يسيطر ليس على مقدرات حزب الكتائب ، فقط ، وانما يسيطرون الآن على المسار الذى يتخبط فيه حاليا تاريخ لبنان .

هكذا أصبح الحديث عن حزب الكتائب ، أمرا لا مفر منه ، بعد أن انعكست سياسات حزب واحد ، ليس داخل اطار طائفة واحدة هي المارون ، ولكن اتسعت سياسات الحزب لتشمل مجمل الأوضاع في لبنان .

قام الشيخ بيار الجميل بتأسيس حزب الكتائب عام ١٩٣٦ ، ابان الاحتلال الفرنسي للبنان ، وقد اختار الشيخ للحزب اسما أجنبيا هو الفلانج ، تيمنا باسم حزب الفلانج الاسباني الفاشيستي ، الذي حكم فرانكو من خلاله أسبانيا ، كان الشيخ بيار معجبا بالاحزاب ذات الطبيعة الفاشية التي كانت سائدة في أوربا خلال ذلك الوقت ، كان حزب النازي في ألمانيا ، والفلانج في اسبانيا وفي ايطاليا كان موسوليني يحكم قبضته على ايطاليا عن طريق حزبه الفاشي ، في هذا الاطار أراد الشيخ بيار لحزبه أن يكون ..

كان الشيخ بيار حريصا على عدة أشياء ، خلال تكوينه للحزب الذي كان يجب تدريب كوادره على العمل العسكري في فرنسا ..

كان حريصا أن يكون الاعضاء في سن الشباب ، حتى يمكن تدريبهم عسكريا ، وتلقينهم أفكاره السياسية ، لتكون معتقدا لهم .

كان حريصا أن يتم الاختيار من داخل طائفة المارون فقط ، وان كان برنامج الحزب يقول انه لا يتقيد بالطوائف خلال تكوينه الاول ، حتى انه يقال بأن ألفين من المسلمين الشيعة قد طلبوا الانضمام الى الحزب في منتصف الخمسينات ، غير أنه فيما بعد انصرفت الشيعة واغلق الحزب أبوابه أمام الجميع الا الموارنة ،

وحتى من داخل هذه الطائفة فان اختيار العضوية كان يخضع لعدة عمليات معقدة ، من الاختيار الى التلقين الى التدريب ، حتى يمكن فى النهاية قبول العضوية التى تتم وفقا لمراسم خاصة ، تنتهى باحتفال رسمى يحضره رئيس الحزب نفسه وأعضاء المكتب السياسى ، ويقف العضو الفائز بعضوية الكتائب ، ليؤدى قسما ، وبعدها يضع شارة الحزب على صدره ، ويسمح له بارتداء الزى الرسمى لافراد الحزب ، حتى يكون مميزا عن غيره ، وبعدها يخضع العضو مباشرة لتنفيذ كل التوجيهات ، وكافة المهمات التى يكلفه الحزب بها ، بما فى ذلك من قتل الافراد ، ونسف المبانى ..

لم يتم الاعتراف بالحزب كمؤسسة قانونية الا فى ديسمبر عام ١٩٤٣ بعد اعلان الاستقلال ، وكان قد صدر قبلها قانون يحرم وجود التنظيمات السياسية ذات الصبغة العسكرية ، الا أن نفوذ قادة حزب الكتائب مكنهم من تعطيل هذا القانون ، بعد ثلاثة أيام فقط من اصداره ، وتم منحهم رخصة الوجود الشرعى كحزب سياسى له طبيعة عسكرية .

وقد انضم الى الحزب حوالى ٥٠ الفا كلهم من الموارنة كما ينتسب اليه ٥٠٠٠ من المغتربين الموارنة فى المهجر ، خاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ، والبرازيل والارجنتين وبعض الدول الافريقية التى كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى .. وهؤلاء المغتربون يشكلون قوة حقيقية فى تكوين الحزب ، وبروز معتقداته الى جانب انفاقه السخى على تدريب أعضائه ، وانشاء جهاز اعلامى هام ، وسوف نجد أن للحزب جريدته الرسمية ، كما

انه يستمتع أيضا باذاعة خاصة ، تنافس اذاعة الحكومة اللبنانية ، وبعد الغزو الاسرائيلي للبنان ، اصبحت اذاعة الكتائب واحدة من أهم الاذاعات الرئيسية في الشرق الاوسط كمصدر للانباء ..

وللحزب ٢٠٠ فرع داخل لبنان ، كما يوجد له ٥٠ فرعا في دول المهجر ، لعل أهمها فرع الكتائب في نيويورك ، الذي نظم عام ١٩٨٠ مؤتمرا شاملا للموارنة ، تحت اشراف الحزب ، ولاهمية القرارات التي صدرت عن هذا المؤتمر ، والتي توضح طبيعة تفكير حزب الكتائب ، لا بأس من الاشارة اليها في ايجاز ... باعتبارها من مكونات العقيدة السياسية لحزب الكتائب .

لقد اعلن أمين عواد ، رئيس الاتحاد الماروني العالمي ، ورئيس فرع حزب الكتائب في نيويورك ، وهو الذي اشرف على أعمال المؤتمر ، أعلن أنه يوجد قرارات سرية لن يعلن عنها ، أما عن الجوانب الاخرى التي يجب على الجميع معرفتها ، هي أن مؤتمر الموارنة قد اتفق على ما يأتي :

● تأسيس جناح عسكري يتولى تنظيم جيش ماروني عالمي ، له فروع في كافة الدول التي بها جاليات مارونية .

● تأسيس صندوق للجباية ، يساهم فيه كل الموارنة للدفاع عن الامة المارونية .

● تنقية الشخصية المارونية من العرب ، ووضع لغة جديدة للبنان تكتب بحروف لاتينية ..

● عدم اندماج الموارنة مع الطوائف الاخرى وتأسيس دولة الماورن ..

● تأسيس جهاز خاص يقوم بتصفية العناصر المارونية المناهضة لهذه الاتجاهات ...

● مطالبة الامم المتحدة الاعتراف بحقوق الشعب الماروني .

● النضال ضد الفلسطينيين والسوريين ..

تنظيمات الحزب ومؤسساته

يتكون الهيكل الاساسى لتنظيم حزب الكتائب من ٣ هيئات رئيسية ..

الهيئة الاقليمية والهيئة الادارية والثالثة هى الهيئة السياسية ..

وينقسم الحزب الى ١٦ أمانة نوعية ، تسمى كل واحدة فرعا ، ومهمتها جميعا تنظيم الشئون الداخلية للحزب ، مثل أمانة الانتساب وهى المختصة بشئون العضوية ، وأمانة الشئون العقائدية ، وأمانة الدعاية وهى تشرف على جريدة الحزب واذاعته ، وامانة المرأة ، وأمانة الشئون المالية ... الخ .

ويبدأ الحزب من أدنى مستوياته التنظيمية فى القرية ، ولكل قرية توجد فرقة ، وفى المدن الكبرى مثل بيروت ، توجد لكل دائرة انتخاب فرقة مستقلة .

والفرقة على مستوى القرية تتكون من ثلاثة : رئيس ونائب وأمين للصندوق .

وللدائرة الانتخابية فى المدينة نفس التشكيل يضاف اليه مسئول للشئون الانتخابية ..

تتجمع الفرق فى دوائر ، تديرها لجنة اقليمية تضم نفس التكوين ، يضاف اليهـــا عضو يختص بالشئون الاجتماعية .

وتتجمع كل فرق القرى فى داخل لجنة اقليمية . أما الفرق الموجودة فى بيروت ، فكلها تتجمع لتخضع مباشرة للهيئة الادارية للحزب .. ولرئيس هذه الهيئة الاشراف المباشر على كل أنشطة الحـــزب فى الظروف العادية ، غير أن رئيس الحزب نفسه هو الذى يتولى كل الاختصاصات ، فى ظل الظروف غير العادية .

ولما كانت ظروف لبنان ، منـذ عام ١٩٥٨ ، وحتى الآن ، تعتبر غير طبيعية فقد تولى الشيخ بيار الجميل بنفسه كل الصلاحيات التنظيمية والعقائدية والتوجيهات السياسية داخل حزب الكتائب ، وحتى هذه اللحظة التى تطلق فيها ميلشيات حزب الكتائب قذائفها فى كل مكان يوجد فيه خصوم للحزب داخل لبنان ...

يأتى المكتب السياسى ، كأعلى سلطة فى الحـزب ، هو المهيمن على كل شئون الكتائب ، يضع منهاج عمله ، يضع أنظمته ، يعين الموظفين ، يقر ترشيحات الاعضـاء الجدد ، ثم له أن يصدر ما يشاء من قرارات ، وعلى كل اطارات الحزب ، الطاعة التامة ، والتنفيـــذ الدقيق وقرارات المكتب السياسى ، كلها سرية .. !؟

ويتـــكون المكتب الســـياسى من ٥ أعضاء الى جانب رئيس الحزب ، الذين يتم اختيارهم جميعا عن طـريق الانتخابات ، ورئيس المكتب السياسى يتم انتخـابه كل ثلاثة اعوام ، ولكن الرئيس الحالى الشيخ بيار ظل يحتفظ بالرئاسة طوال تاريخ الحزب .. منذ تأسيس الحـزب

عام ١٩٣٦ ، وحتى شتاء عام ١٩٨٣ تاريخ اصدار هـذا الكتاب ، وسيظل .

أما الاعضاء الخمسة فيتم انتخابهم كل عامين قابلة للتجديد ..

الى جانب رئيس الحزب ونائبه ، وأمين الحزب ، الذين يشكلون رئاسة المكتب السياسى ، يوجد أيضـا وزراء الحزب المشتركون فى الحكومة ، هؤلاء لهم حق حضور جلسات المكتب السياسى للحـــزب .. كذلك يحصل نواب الحزب الحاليون والسابقون على هذا الحق، ويأتى فى النهاية مستشارو الحزب ولهم أيضا حق حضور جلسات المكتب السياسى الذى يتسع وينكمش حجمه طبقا للمناخ السياسى السائد فى لبنان ، والحجم الذى يحصل عليه حزب الكتائب داخل اللعبة السياسية .

يوجد أيضا المكتب المركزى او اللجنة المركزية لحزب الكتائب ، وهى بمثابة المرجع الاعلى لشئون الحـزب ، ويتكون من أعضاء المكتب السياسى ، واللجنة الاقليمية واجتماعاته أسبوعية ، وله حق تقديم اقتراحات ، ودعوة المكتب السياسى للانعقـــاد ، وهو الذى ينتخب رئيس الحزب والاعضاء الخمسة فى المكتب السياسى ..

ويوجد مؤتمر سنوى للحزب ، موضوعه الاســاسى كل عام ، مناقشة مخاطر التوسع العربى .. !!

بالنسبة لعقيدة الحزب ، تم التعرف عليها من خلال الحديث عن نشاطه ، لا بأس من الحديث مرة اخرى ، عن مجمل معتقدات الكتائب فى ايجاز :

لبنان هو لبنان ، فيه من الشرق روحانيتـــه ، ومن

الغرب ثقافته ، وكل من يحاولون الصاق العروبة بلبنان، هم فى الحقيقة يزعجون لبنان .. !!

يجب أن تكون كل الوظائف الرئيسية فى البلاد ، فى أيدى الموارنة ، والحل البديل اذا لزم الامر هو تقسيم لبنان ..

لبنان جزء من البحر المتوسط ، وهو بلد مستقل بحدوده ، وقوميته متميزة .. وشعار الحزب « الله — الوطن — العائلة » .

حزب الكتائب يعتبر نفسه مسئولا عن اخراج الفلسطينيين

وقد تزايدت انعزالية حزب الكتائب ، وتخوفه من الطوائف الاخرى ، ومحاربته للعرب والمسلمين ، ظهر هذا كله على فترتين . الاولى بعد ضياع فلسطين وتدفق اللاجئين على أراضى لبنان ، وبقية أراضى الدول العربية الاخرى .

المرة الثانية ، بعد عام ١٩٧٠ ، وبسبب الفلسطينيين أيضا ، بعد تدفق اعداد كبيرة منهم من الاردن الى لبنان، بعد مواجهة سبتمبر ١٩٧٠ بين الاردنيين والفلسطينيين .

وقد اعتبر حزب الكتائب نفسه مسئولا مباشرا عن اخراج الفلسطينيين من لبنان ، وبدأ الحزب فى تقوية جناحه العسكرى ، وعمل على تزايد عناصر المتطرفين فى داخله ، وضم الى ميلشياته كل الضباط الموارنة المتقاعدين وحراس الارز ، وجبهة كسروانى واختار الحزب ، المواجهة العسكرية مع خصومه السياسيين من داخل

طائفة المارون نفسها ، ودخل حربا مع حزب كميل شمعون، ودخل حربا مع جماعة سليمان فرنجية ، وتم اخضاع كافة الاطراف المارونية لسلطة حزب الكتائب بالقوة المسلحة ، وحادث النسف والاغتيال .. وعندما دخلت القوات الاسرائيلية غازية لبنان قبل عامين ، كان حزب الكتائب تقريبا هو المتحدث الوحيد باسم كافة الفئات اللبنانية ، مسلمين ومسيحيين ..

عندما حصل الحزب على المكافأة ، لم يكن فى داخل لبنان بكل ما يختلط فيه من تيارات وطوائف ، من يقود معارضة تذكر ضد رئاسة بشير الجميل للبنان ، بالعكس كانت كل الاطراف اللبنانية متفقة تماما على ترشيح الرئيس الحالى أمين الجميل ، فور الاعلان عن اغتيال شقيقه بساعات معدودة ...

لماذا لم يحافظ حزب الكتائب ، على رصيد الثقة الذى فاز به خاصة بعد الظروف التى بسببها دخل أمين الجميل قصر الرئاسة ، لماذا قامت الحرب الاهلية من جديد ، لماذا لجأ الحكم الى نفس الخطأ الذى وقع فيه الرئيس الاسبق كميل شمعون ..

لقد انتشر فى لبنان طوال شهرى سبتمبر واكتوبر عام ١٩٨٣ ، وعلى نطاق واسع ، أن الامريكيين وغيرهم ، على استعداد لتقبل ظهور نوع من الانقلاب الابيض فى لبنان ، وان التضحية بحكم حزب الكتائب المتفرد للبنان ، أصبح امرا مقبولا .

بمعنى آخر ، هل يتعرض لبنان الكتائب عام ١٩٨٣ لما تعرض له لبنان ــ كميل شمعون عام ١٩٥٨ .

وهل يتوقع الناس ، بروز شخص جديد على طريقة فؤاد شهاب لانقاذ ما يمكن انقاذه ..

لعل المأزق الذى يقف فيه حزب الكتائب حاليا ، هو نتاج ميراث طويل لجماعة المارون فى لبنان منذ قرون طويلة ...

كانت بداية فكرة بناء وطن قومى للمسيحيين فى الشرق ، قد ظهرت مع بداية الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى :

عادت الفكرة الى الظهور مرة أخرى خلال القرن الثامن عشر ، مع ظهور نابليون ، الذى انهزمت عساكره فى الشرق ، الا انه ترك فى لبنان مؤسسات تبشيرية ومعاهد ثقافية ، ودور طباعة ، وصحيفة ، مما أبرز وعيا طائفيا فى لبنان .

الموارنة أرباب الحكم الفرنسي والثقافة الفرنسية

قبل مجىء نابليون ، كان الموارنة فى لبنان ، قد تأثروا لعدة قرون بالطابع التبشيرى الفرنسى ، أصبح الرباط عضويا بعد أن أعلنت فرنسا محاباتها للمارون ، ثم بعد ان دخلت جيوشها أراضى لبنان فى النصف الثانى من القرن العشرين ..

لقد أتاحت فرنسا للموارنة ثقافة خاصة لم تقدمها لغيرهم من الطوائف اللبنانية ، وخصتهم فرنسا بالوظائف الكبيرة ، وقدمت لهم كافة المساعدات الاقتصادية التى جعلت من الموارنة فى أعلى طبقات السلم الاجتماعى فى لبنان ...

ان الشيخ بيار الجميل ، يعرض أحيانا هذا الوضع المتميز للطائفة باعتباره يكسبها حقا فى حكم لبنان ، يقول ان أكثر من ٨٣ ٪ من واردات لبنان ، يستهلكها الموارنة ، ولما كانوا بهذه الصفة هم أكبر قوة مستهلكة ولولاهم لاغلقت أسواق لبنان أبوابها يكون من حقهم حكم لبنان .. !!

وهو تعليل كما نرى ليس فى صـــالح الموارنة بأى بأى حال ...

وجامعة سان جوزيف ، هى أقوى المؤسسات التعليمية فى لبنان ، وأكثرها قدما ، ولها مدارس مختلفة فى كل أنحاء لبنان ، ولكل مراحل التعليم ، وكلها مخصصة للموارنة .. لذلك فان انحياز الموارنة ، دون بقية الطوائف المسيحية الاخرى ، الى جانب فرنسا يعد أمرا طبيعيا ..

لقد سافر البطريرك المارونى ، الياس الحويك ، الى فرنسا عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى فورا ، وكان سبب سفره مطالبته فرنسا بالاسراع الى لبنان كدولة انتداب .. فى نفس الوقت كان بطريرك الروم الارثوذكس فى لبنان ، جريجوريوس ، يسرع بالســـفر الى سوريا لتوديع فيصل فى درعا .

لذلك لا تحب فرنسا طائفـــة الروم الارثوذكس فى لبنان ، كما أن أفراد الطائفة يتبادلون مع فرنسا نفس المشـــاعر ، انهم يفضـــلون العروبة ، ويفضلون جامعة دمشق ، ومدارس سوريا لكى يتعلم فيها أبناء الطائفة .. وهم مع العروبة فى كل قضاياها منذ قرون طويلة ..

لقد كانت المحـــاباة الفرنسية للموارنة طوال القرون سببا مباشرا جعل قادة هذه الطائفة فى خصام دائم

مع الطوائف اللبنانية الاخرى ، ثم جعل أنظارهم تتعلق بالسطوة والحكم بمساعدة أجنبية اذا لزم الامر ..

اذا قرأنا بعضا من محتويات رسالة وجهها لويس التاسع لموارنة لبنان منذ عدة قرون يمكن أن نفهم لماذا يشعر الموارنة بالغربة ..

« يقول ملك فرنسا فى رسالته انه يعتقد ان هذه الامة التى قامت تحت اسم القديس مارون ، هى قسم من الامة الفرنسية ، لان محبة الموارنة للفرنسيين ، تشبه محبة الفرنسيين بعضهم بعضا » .

ثم يأتى لويس التاسع الى ما هو هام فى رسالته ، فيقول انه من العدل أن يتمتع موارنة لبنان بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنسيون أنفسهم .

يختتم لويس التاسع رسالته للموارنة بتأكيد جاء فيه : « نحن ، وجميع الذين يخلفوننا على عرش فرنسا، نعد اننا نوليكم حمايتنا الخاصة » .

يبدو أن الوعد الملكى كان صادقا ، لانه فى زمن لويس ١٤ خرجت رسالة مماثلة موجهة الى الموارنة يقول فيها :

« نحن لويس بمشيئة الله ، ملك فرنسا ، بنصيحة الملكة الوصية أمنا الشريفة ، نضع حمايتنا ورعايتنا الخاصة ،، للموارنة الذين يعيشون ويعملون فى جبل لبنان .. » .

« اننا نعهد الى قناصل فرنسا فى سوريا ، أن يظهروا كل عون ومودة فى طاقتهم للموارنة وأن يساعدوا على ركوب السفن ، كل مارونى يريد السفر الى

الاراضى المسيحية للدرس أو العمل ، دون تقاضى أية رسوم ، وان يعاملوهم بمنتهى الرقة » .. !!

كانت هذه رسائل ملوك فرنسا - عندما كانت فرنسا قوة كبرى ، الآن تاتى رسائل مماثلة من جانب القوة الكبرى فى هذا العصر ، تاتى رسائل يومية من جانب الولايات المتحدة الامريكية ، تحمل طابع العصر ، لا تتحدث هذه المرة عن تمكين فئة على حساب فئات اخرى ، انما تتحدث بطريقة مقبولة عن ضمان أمريكى موثق فى مساعدة الحكم الشرعى للبنان ، وهو حاليا لحزب الكتائب ، حتى لو انتهى الحال بضرب بقية الطوائف اللبنانية بمدافع الاسطول الامريكى الرابض على شواطىء لبنان ، نفس الموقف الفرنسى التقليدى القديم ، لكن امريكا تقدمه حاليا بطريقة عصرية ... !!

رئيس الجمهورية فوق الدستور وفوق المؤسسات

ان قضية الحكم فى لبنان ، رغم كافة الواجهات السياسية والحزبية والطائفية ، والواجهات الديمقراطية، قضية الحكم فى لبنان يحددها رجل واحد فقط ، هو رئيس الجمهورية ، هو كل شىء لانه فى بساطة فوق الدستور ، وفوق المؤسسات ، يكفى ان له حق عقد المعاهدات دون استشارة أحد ، أو تبليغ أحد اذا لزم الامر ، هو الذى يعين الحكومات ويقيلها ، هو الذى يحفظ التوازن داخل مجلس النواب ، هو الذى يعود اليه كل شىء فى حكم لبنان، لذلك فان سياسة لبنان الداخلية والخارجية يقررها رئيس الجمهورية بمفرده ، الكل يوافق فيما بعد ، أو لا يوافق لا يهم .. ولم يحدث فى

تاريخ لبنان الحـديث أن تولى رئاسة جمهوريتها رجل انهى مدته الدســـتورية ورحل دون ثورة ، أو حرب اهلية ، لماذا لان الرئيس هو جماع كل شيء ، وكل غضب شعبي عندما يتجمع في النهاية ، يكون هدفه الاخير هو ضرب قصر الرئاسة بالقنابل والصواريخ ..

ان الرئيس الكتائبي الحالي أمين الجميل في وضـع لا يحسد عليه ، حتى لو كانت لديه النوايا الحسنة ، فان تراكمات حزب الكتائب تحد كثيرا من حريته في الحركة ، انه أمام خيارين ، اما ان يكون رئيسا لكل لبنان ، وهو ما اتفقت عليه كل طوائف لبنان في بداية حكمه ، وأما أن يختـار ما يريده له قـادة حزب الـكتائب ، وهو معروف .

بين أن يكون لبنان للجميع ، وبين أن يـكون لبنان كتائبيا يقف رئيس جمهورية لبنان حاليا . ينتظر ماتخفيه الاقـدار ، غير أنه دون شك يعرف ان النظـــام الدولي يعتمد على توازن القوى ، ربما يكون ذلك هو افضل شبه للنظام السياسي المعمول به تقليديا في لبنان، بتعدد أصحاب الادوار ، تستمر اللعبة السياسية ، غير أن أحدا يصعبَ سيطرته على النظام بمفرده .

ان التوازن ليس داخليا في لبنان فقط ، انه توازن اقليمي ، كما أنه يحمل أيضا طابع التوازن الدولي ..

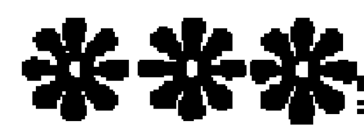
ولما كان رئيس جمهورية لبنان ، يتمتع بصلاحيـات ربما لا يحوزها نظير له في المنطقة كلها ، فان مسئوليته ســتكون مباشرة أمام الاجيــال القــادمة ، عن مصـير اللبنانيين الذين بدأوا مسيرة اللاجئين بالفعل ، والعرب يعرفون كيف تبدأ طوابير اللاجئين ، لكنهم لا يعـــرفون كيف تنتهي .. !!

اسرائيل والكتائب

اظهرت اسرائيل والكتائب ، مـودة متبادلة ، قبـل غزو لبنان ، وبعد الغزو ، غير انه بعد اغتيال الشيخ بشير الجميل زعيم الكتائب ، ورئيس جمهورية لبنـــان الاسبق ، كانت اسرائيل من بين الاطراف التى أشـــارت اليها بعض الاصابع الكتائبية ، بأنها لم تكن بعيـدة عن حادث الاغتيال الذى تم التدبير له بجناية ، هكذا كانت بداية الشكوك المتبادلة بين الكتائب واسرائيل ، عقب الاحتلال العسكرى الاسرائيلى لبيروت فى يونيو ١٩٨١ .

كذلك كانت الرعاية الخاصة التى يتمتع بها الرائد المارونى المنشق سعد حداد فى جنوب لبنان ، الذى تسيطر عليه اسرائيل عسكريا ، كان هذا العطف الخــاص الذى يتمتع به حداد من جانب القادة الاسرائيليين ، سببا آخر للتوتر بين الجانبين ، وعندما طلبت اسرائيل خـــلال اغسطس ١٩٨٣ خروج ميلشيات الكتائب واغلاق مكاتبها ومبانيها العسكرية جنوب خط نهر الاولى فى جنوب لبنان الذى تسيطر عليه اسرائيل ، او أن يقوم أفراد الـكتائب بتسليم انفسهم ومعداتهم ومقارهم للرائد سعد حداد ، قامت مظاهرات أعد لها الكتائبيون ، طافت فى بعض شوارع صور وغيرها ، تحمل لافتات تحمـــل عبـارات تتهم الاسرائيليين بنكران الجميل .. وفى أوائل أكتوبر ١٩٨٣ ظهر أن سعد حداد مريض بالسرطان ، ويعالج فى أحـد المستشفيات العسكرية فى حيفا داخل اسرائيل ، وسعد حداد مارونى أيضا ، حظى منذ بداية ظهوره بعطف قادة الكتائب ، كما وصفه كميل شمعـــون بأنه قائد كفء ،

ومواطن طيب ، غير أن حداد المريض ، أعلن عدم قدرته على مواصلة دوره داخل جنوب لبنان ، وأعطى صـــلاحياته لضابط من مساعديه برتبة ملازم ، وهو مارونى أيضا ، وبدات اسرائيل تعد لتوزيع اختصاصات سعد حداد على عناصر مارونية أخرى فى الجنوب ...



عندما اشتدت المعارك فى جبل الشوف ، بين الكتائب والدروز ، وتم اغلاق قرية دير القمر ، حيث توجـد اغلبية مسيحية ، تدخلت القــوات الاسرائيلية لتفتح الطـريق لدخول القـــرية ، وهى بادرة اسرائيلية تتم لصالح ميلشيات الكتائب على حساب الدروز ، وأعلنت اسرائيل أنها لن تشغل نفسها بالصراع بين الطائفتين ، غير أن اسرائيل شجعت الكتائب على تأكيد سلطتها ، وانتشـــارها فى الاماكن التى تنسحب منهـــا قـــوات اسرائيل ...

وتعتقد اسرائيل انه أصبح من واجب الولايات المتحدة الامريكية وحدها مســـاعدة الـكتائبيين فى التغلب على الصعوبات التى تواجههم ، غير أنه بعد شهرين ، وفى ديسمبر ١٩٨٣ تكفلت قوات اسرائيل بفتـــح قـــرية دير القمر بجهود امريكية ، وموافقة الدرزية ، وجـــرى ترحيل الفين من ميلشيات الكتائب ، كانت محاصرة فى دير القمر ، وتم اخراجها بواسطة سيارات عسكرية اسرائيلية.

كذلك كان الموقف الرسمى الاسرائيلى حاســـما فى الصراع بين الدروز وميلشيات الـكتائب ، فقد طالبت دروز لبنان بعدم الاستعانة بالفلسطينيين فى اى شىء ،

وعدم استخدام سلاحهم ، وطردهم من المنـــاطق التى يسيطر عليها الدروز ، ان المطالبه بحرمان الدروز من حليف طبيعى ،، يتم تقديمه بالطبع هديه لحزب الكتائب، كما طلبت اسرائيل أيضا عدم تعاون الدروز مع السوريين الذين يقفون حاليـــا فى الصف المعـــارض لمنح الـكتائب سلطات مطلقة فى لبنان ، وقد اضطر الدروز فيمـــا بعد ، وبسبب الضغوط الاسرائيلية ، الى الابتعـــاد عـــن الفلسطينيين ، بل ومطالبتهم مغادرة مدينة طـرابلس ، ومغادرة كل لبنان ..

وهكذا تكون اسرائيل قد انحازت عمليـا الى جانب الكتائب ، وأرادت شل حركة الدروز ، ان كل ما تذيعه اسرائيل عن ضغوط تتعرض لها من جانب الدروز الذين يعيشون داخل اسرائيل لا يحمل الا جانبا دعائيا فقط ، لانه من غير المقبول أن تساعد اسرائيل دروز لبنان الذين يطالبون بالغـــاء الاتفـــاقية الاسرائيلية ــ اللبنانيـــة ، وانسحاب كل قوات اسرائيل من كل أراضى لبنان ، الى جانب وضع نظام سياسى شامل فى لبنان ، لا تـكون الغلبة فيه لحزب الكتائب بصفة خاصة ..

لقـــد وصل الحال فى منتصف سبتمبر ١٩٨٣ ، ان راجت شائعات رددتها الصحف الغربية ، تتحدث عن احتمال لجوء قيادات حزب الكتائب المارونى ، الى الضغط على الرئيس أمين الجميـــل ، لابرام معاهدة أمن مـــع اسرائيل ، كوسيلة لتخطى العقبات المتزايدة التى تواجه الكتائب فى صراع السلطة ضد بقية الفئات والطـوائف اللبنانية جميعا .. وهو أمر مشكوك فيه على أى حال ولا يستطيع الرئيس الحالى تنفيذه .

الحرب تتسع ويتزايد اعتماد الكتائب على أمريكا

ان المبعوث الامريكي ماكفرلين ، ومن سوف يخلفه فيما بعد ، يعمل دون شك فى الاتجاه الصحيح ، من وجهة النظر الامريكية الراهنة ، لكن الحرب الاهلية تتسع دائرتها كل يوم ، ويزيد اعتماد الكتائب كل يوم على المعونة العسكرية والاعلامية التى تأتى من جانب الولايات المتحدة الامريكية ؛ يبدو أن السيد ماكفرلين لا يضع تجربة السيد روبرت مورفى السابقة ، فى مكانها الصحيح ، لقد كان مورفى هو المبعوث الامريكي عام ١٩٥٨ ، وانتهت الحرب الاهلية وقتها بحل أقنع كل الاطراف اللبنانية بأهمية التعايش جميعا فى اطار الدولة اللبنانية .

اذا كانت ظروف العالم العربى هذه الايام ، قد تغيرت كثيرا ،فى غير صالح العالم العربى ، فلا أحد يستطيع ان يفهم مسار السياسة الامريكية الحالية فى لبنان ، الا باعتبارها احدى النتائج المنطقية لانحسار المد العربى، وبالتالى ترجمته واقعيا فى لبنان ، بازاحة كل الطوائف اللبنانية بعيدا لحساب صفوة مختارة من داخل طائفة واحدة مختارة ، لتكون هى النموذج الصحيح للحكم الموالى للغرب فى العالم العربى .

سيكون هذا المنطق ، أكثر مدعاة للقلق ، خاصة اذا كان هو النتيجة التى قد تتمخض عنها الحرب الاهلية اللبنانية الحالية .

ان نمو حزب الكتائب بهذه الطريقة ، خلال السنوات العشرين الاخيرة ، ربما يعكس نوعا من هذا القلق ، لقد كان نمو حزب الكتائب مواكبا طوال الوقت لنمو السياسات الغربية فى المنطقة العربية طوال هذه الفترة

بتشجيع من الولايات المتحدة الامريكية : ودعم من جانب اسرائيل ، وموافقة ضمنية من جانب أوربا ، وقلق من جانب العرب ...

فماذا كانت النتيجة ؟

أغلب الظن أن تواجه السياسة الامريكية نفس المأزق الذى يواجه سياسة حزب الكتائب ..

يوجد أمل واحد ، لا يعمـــل السيد ماكفرلين فى الفراغ ، يتواجد ايضا السيد روبرت مورفى نفسه ، فى المشكلة ، انه متورط فى قضـــايا المنطقة طوال السنوات الخمس والعشرين ، انه يشرف بنفسه على تنسيق السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط ويشرف ايضا على اعمال ماكفرلين نفسه ، لعل السيد ماكفرلين، يستمع الى نصائح مورفى فانه لا شك لديه الكثير ... خاصة اذا اقتنع أن الهزائم المتوالية والاحباط الدائم فى العالم العـــربى عام ١٩٨٣ ، جعلته يسترجع حاليا ، باهتمام وحزن ، كل وقائع العرب الهامة ، التى حفل بها عام ١٩٥٨ .

واذا كان العالم الذى يواجه الكثير من المخـــاطر فان السياسة الامريكية فى المنطقة مالم تحرز تقدما ، لقد كان من بين النتائج المؤسفة للتأييد العسكرى لحزب الكتائب أن تعرضت السفارة الامريكية فى بيروت للهدم فى ابريل ١٩٨٣ ، كما تعرض ٢٣٠ من قوات المارينز الأمريكية فى بيروت للقتل فى اكتوبر نفس العام ، ولم يعـــد لحزب الكتائب اى سند للحكم الا القوات الامريكية ، التى سوف تكون نهاية حكم حزب الكتائب المارونى فى لبنان ، هى نفس اللحظة التى يتقرر فيها انسحاب القوات الامريكية من بيروت ...

الفصل الثالث :

المسلمون السنة

استقال شفيق الوزان ، رئيس الوزراء فى لبنان ليمهد الطريق للمصالحة الوطنية ، والوزان مسلم سنى من بيروت تولى الوزارة فى ظروف بالغة الخطورة ، وظل طوال الوقت مخلصا لرؤسائه غير أنه أقلق اليمين المتعصب فى الجانب الكتائبى ، أما جمهور المسلمين فقد وجد فى الوزان عائقا أساسيا لاى تقدم ، تم الاعلان عن وقف هش ، لاطلاق النار فى لبنان ، كان ذلك يوم الاثنين ٣ أكتوبر ١٩٨٣ ، برغم تهليل أمريكا وفرنسا وايطاليا لهذا القرار ، فقد استقبلت الاطراف اللبنانية هذا القرار بفتور وشك ، وعملت النسوات المارونية وخاصة الكتائبية على انهياره بعد ساعات من اعلانه ..

لقد رفض الشيخ بيار الجميل ، فورا المشاركة فى أعمال المؤتمر الوطنى الذى جاء قرار وقف اطلاق النار تمهيدا له ، كما أعلن كميل شمعون الحليف الاساسى للكتائب ، عن موقف مماثل ، رفض أيضا المشاركة فى مؤتمر المصالحة .

اما أخطر التصريحات التى تجعل من قرار وقف اطلاق النار ، أو مؤتمر المصالحة الوطنية ، مجرد

أمنيات ، فهو التهديد الذى أطلقه فادى افرام رئيس ميلشيات الكتائب ، والذى يهدد بالحرب فورا اذا وجد ان الكتائب ستقدم تنازلات من مكاسبها مقابل ما يقال عن المصالحة الوطنية .

هكذا كان شفيق الوزان ، بمفرده هو أول من استجاب لوقف اطلاق النار ، وقدم استقالته فى أكتوبر ١٩٨٣ للتمهيد للمصالحة ، غير أن الرئيس أمين الجميل ، طالبه بالاستمرار ، « حتى يتضح مسار لبنان فى المستقبل » ، غير أن الهدنة الهشة ، جعلت من الوزان غير ذى موضوع ، لقد كانت حكومته بمثابة حكومة انتقالية طوال عام ؛ واصبحت جبهة المعارضة الوطنية اللبنانية التى تمثلها جبهة الخلاص ، تطالب بالسيد رشيد كرامى وهو مسلم سنى أيضا ، ولكن من طرابلس تطالب جبهة الخلاص برشيد كرامى كرئيس لحكومة الانقاذ القادمة فى لبنان !

وبين تولى مسلم سنى من بيروت لرئاسة الوزراء ، وبين تقديم المنصب لرجل سنى من طرابلس توجد دلالة كبيرة ، لانه فى كل الحالات التى كان المسلمون خلالها يمثلون الجانب الاضعف ، كان رئيس الوزراء يأتى من بيروت ، معنى هذا ان المسلمين فى لبنان بدأوا يشعرون بالمزيد من الاضطهاد ، وانه لابد من تصحيح الاوضاع ، لرفع المعاناة ، وفى هذه الحالة لابد من وجود رئيس وزراء قوى ، يدافع عن حقوق المسلمين ، وسوف يجدونه فى طرابلس .

قبل الاعلان الهش عن وقف اطلاق النار فى لبنان ، يوم ٣ أكتوبر ، كان الحال كما يأتى ، فى كل دقيقة

تمر ، يتعرض سكان بيروت لثـــلاثين قذيفـــة مختلفة الانواع والاشكال ، والمتعددة الجنسيات ، تأتى من عرض البحر ، وتسقط من السماء ، أو تندفع من فـــوق سفوح الجبال المحيطة لتسقط فوق المدينة التى يتكون نصف سكانها من المسلمين السنة ، فهل تستحق هذه الطائفة الكبيرة . كل هـذا العقاب ، دون غيرها من الفئات اللبنانية ، أم هو القدر الذى يترصد دائمـــا بالمسلمين السنة اللبنانيين طوال تاريخهم الذى ارتبط بتاريخ لبنان القديم والوسيط والحديث ..



ان تاريخ المسلمين السنة فى لبنان قد ارتبط طوال الوقت بأنهم يمثلون عنصر الاعتـــدال الوحيد بين طوائف عديدة معظمها متشدد ، أو انعزالى ، أو يرضى بتقسيم لبنان ، أو يقبل بالتدخلات الاجنبية فى الشئون الداخلية للبلاد كان المسلمون السنة يمثلون جمهور المسلمين فى لبنان بعد الفتح الاسلامى لبلاد الشام ، لم تكن الفرق او المذاهب الاســـلامية قد ظهرت بعد ، ظل المسلمون السنة حتى الآن يقـــومون فى لبنان بنفس دورهم التاريخى فى الحفاظ على وحدة كلمة المسلمين بمختلف مذاهبهم ، ومفتى المسلمين فى لبنان ، لابد أن يكون من افاضل الشيوخ من أهل السنة ، وهو فى نفس الوقت مفتى جمهورية لبنان ، يشترك فى انتخابه شيوخ الشيعة والدروز ، ومنصبه مدى الحيـــاة ، وهو المرجع الاول والاخير فى شئون المسلمين اللبنانيين كافة ، وهـو الذى يتحدث باسمهم أمام الجهات الرسمية والتنفيذية ، ويكفل له الجميع المهابة والاحترام .

بيان المفتى طلب ايقاف الحرب الاهلية فورا

ومفتى المسلمين الحالى ، هو فضيلة الشيخ حسن خالد ، الذى أصدر يوم ٢١ سبتمبر بيانا اسلاميا شاملا ، شارك فى وضعه كافة زعماء الطوائف الاسلامية فى لبنان ، اشتمل البيان الاسلامى على وجهة نظر المسلمين فى مجمل الاوضاع اللبنانية المتردية ، وكيفية مواجهتها ، وطرق علاجها ..

أكد البيان فى مقدمته على حتمية المحافظة على استقلال لبنان ، ووحدة أراضيه ، ورفض البيان الطائفية السياسية ، وطالب وقف الحرب الاهلية فورا، وشجع البدء فى حوار وطنى يضم كافة الفئات السياسية ورفض الهيمنة الحزبية . واعلن البيان الاسلامى رفضه للاتفاقية الاسرائيلية ـ اللبنانية التى جرى ابرامها فى منتصف مايو ١٩٨٣ ، وأيد البيان جهود الوسيط السعودى الامير بندر بن سلطان ،وشجع كافة الاطراف اللبنانية على القبول بما عرضته السعودية من وقف فورى لاطلاق النار ، والحوار مع الحكم الشرعى وجبهة المعارضة اللبنانية ، وقد شدد البيان الذى وقعه زعماء المسلمين على حتمية الانسحاب الفورى للقوات الاسرائيلية والقوات الاجنبية من أراضى لبنان، وبعد خمسة أيام فقط ، من الاعلان الاسلامى ، صدر قرار بوقف اطلاق النار أو اقامة هدنة تسمح لكل الاطراف بالتفاوض .

ربما كان البيان الاسلامى الذى وقعه مفتى الجمهورية، يعكس طبيعة الحياة اللبنانية ، بالنسبة لكل مسلم سنى ، وهو وضع جعل المسلمين السنة فى معظم

الحالات ، مؤيدين للسلطة الشرعية للبلاد . ومنذ البداية شكل المسلمون السنة ، طليعة مســـلمى لبنان ، وهم يمثلون الوسط العريض المعتدل ، الذى حافظ للدولة طوال الوقت ، على بنيتها الاساسية ، غير انهم يمثلون أيضا ، فى مجموعهم الاغلبية اللبنانية الصامتة ، التى تحملت أنواعا مختلفـــة من الظلم الاجتماعى ، والغبن السياسى ، وقد جاهدت رموز المســلمين السنة ، من سياسيين ورجال الدين ، فى تحقيق واقع أفضل لمـا يزيد كثيرا على نصف المجتمع اللبنانى ، والسنة اكبر الطوائف الاسلامية فى لبنان ، يزيد عـددهم على المليون ونصف المليون ، ينتشرون فى كل مكان ، وخاصة بيروت ، ثم طرابلس ، ثم صيدا ، ومنهم المزارعون الذين زرعوا الارض فى الجنوب والبقاع وعكار .

الاستعمار التركى يتجاهل اهل السنة

طـــوال عهـــد الاســتعمار التركى مثلا ، وقد استمر عدة قرون ، كان المســـلمون السنة ، يمثلون العمود الفقرى لنظام الحكم العثمانى ، غير انها كانت أكثر الفئات غبنا طوال فترة الاستعمار العثمــانى للبلاد ، ورغم ان العثمانيين هم من أهل السنة ، وكان يفترض ان يكون اهل السنة فى لبنان هم اقرب الفئات الى العثمانيين ، وبالتالى يستطيعون تولى المناصب الكبرى فى البــلاد ، الا ان العكس كان هو الذى ساد طوال الاحتــــلال العثمانى ، لانه لم يكن هناك من يدافع عن حقوقهم فى مواجهة سلطات الاحتلال ، وبينما رضخ السلطان لضغوط الدول الاوربية عام ١٨٦٤ ، وجعل للوالى العثمانى فى

لبنان ، نائبين احدهما درزى والآخر مارونى ، يرعيان شئون الطائفتين ، لم تجد طائفة أهل السنة من يدافع عنها ، أو يرعى شئونها ..

عندما ورثت فرنسا أراضى لبنان ، بعد زوال الاستعمار التركى ، وأصبحت فرنسا دولة الانتداب فى لبنان عام ١٩٢٠ ، وأصبحت بيروت بنصفها الاسلامى السنى عاصمة للبنان ، احتفلت فرنسا بالطائفة المارونية دون غيرها ، ووجد المسلمون السنة أنفسهم فى الوضع الاقل ، الذى لا يتفق مع عددهم ، أو ضعهم الاقتصادى ، أو خبرتهم الطويلة فى العمل الحكومى أو الجيش أو الشرطة .. واشتراكهم مع بقية الفئات الاسلامية فى بناء لبنان الكبير ..

وضع المسلمين السنة لا يتفق وامكاناتهم

وبعد الاستقلال عام ١٩٤٣ ، كان الميثاق الوطنى فى النهاية ، هو نتاج اتفاق بين الموارنة وبين المسلمين السنة ، وقد فاز الموارنة بسبب هذا الميثاق بنصيب الاسد فى حكم لبنان ، بينما ظل وضع المسلمين السنة ، عمليا ، لا يتفق مع حجم امكاناتهم . أو تضحياتهم طوال فترات الاستعمار والانتداب ، والحصول على الاستقلال ، الى جانب التأكيد على حقيقة لبنان الكبير ، الذى يجمع فوق أراضيه كافة الفئات والطوائف ، فى صيغة تعايش ، تؤمن للجميع حياة المساواة والحرية ..

وربما كان وضع رئيس الوزراء الحالى ، السيد شفيق الوزان ، يعكس طبيعة الحجم السياسى للمسلمين السنة فى لبنان ، وفى بيروت على وجه الخصوص ..

والسيد شفيق الوزان ، مسلم سني ، عمل رئيسا للوزراء أواخر عهد الرئيس سركيس ، ابان الحـــرب الاهلية التي بدأت منـــذ عام ١٩٧٥ وما زالت مستمرة حتى الآن .. وقد ظل الوزان ، على رأس الحكومة حتى نهاية عهد سركيس ، وبقي خلال الفترة التي أعقبت انتخاب الرئيس بشير الجميل قبل حادث اغتياله في سبتمبر ١٩٨٢ ، وعند انتخــاب الرئيس الحالي أمين الجميل ، رئيسا للبنان ، احتفظ لنفسه ايضا ، بشفيق الوزان ، كأول رئيس للوزراء في العهد الجديد ، ويستمر السيد شفيق الوزان في ممارسة عمله حتى الآن .. حتى بعد تقديم استقالته عقب اعلان وقف اطلاق النار في الاسبوع الاول من أكتوبر ١٩٨٣ ، وبعد أن ظل في الحكم ثلاث سنوات تعتبر من أخطر الفترات في تاريخ لبنان .

ســاء وضع المســـــلمين بسبب عدم فاعليـــة رئيس الوزراء ...

كان اندفاع الثورة عام ١٩٧٥ ، سببا مباشرا جعـل من منصب رئيس الوزراء ، عديم الجـــدوى ، وكان المنصب نفسه قبل الثورة لا يمثل فاعلية تذكر ، فالحكم كله يتركز في رئيس الجمهورية ، وهو ماروني بالضرورة، ولما كان رئيس الوزراء من المسلمين السنة الذين لا يملكون في الواقع صلاحيات تذكر ، انعكس ذلك على أوضـــاع المسلمين كافة ، والسنة بوجه خاص ، فلم تكن لهم نفس الرعاية التي منحتها الدولة للطوائف الاخرى ، وخاصـة الموازنة .

وقد استمر شفيق الوزان رئيسا للوزراء ، خـــلال

الحرب الاهلية ، وقبيل الغزو الاسرائيلي للبلاد ، واستمر بعد الغزو ، وشارك في المفاوضات التي جرت مع ياسر عرفات خلال حصار بيروت التاريخي ، في صيف عام ١٩٨٢ ، انتهت المفاوضات كما هو معروف بخروج عرفات ومقاتليه مبعثرين داخل تسع دول عربية ، بينما أنهى سركيس ولايته باطمئنان وسافر بعدها ليعيش بقية حياته مرتاحا في باريس .. غير أنه بعد عام من اقامته في عاصمة فرنسا ، بدأ يشعر بمرض غامض ، وسافر الى الولايات المتحدة للعلاج ، وقيل لسركيس أن مرضه لا علاج له ، ثمة حالة نفسية أفقدته شهية الطعام والنوم ، وبدأ يفقد وزنه بانتظام ، وتتدهور صحته على طريقة مناحيم بيجين رئيس وزراء اسرائيل السابق الذى اجتاحت قواته أراضي لبنان ، أواخر عهد سركيس ...

ان النمو المضطرد لصلاحيات رئيس الجمهورية اللبنانية ، جعل من منصب رئيس الحكومة ، والحكومة كلها ، بعد عام ١٩٧٥ ، محل شكوك عميقة في مدى مشاركتها في صنع القرار الوطني اللبناني .. وقد تحمل الوزان هذا العبء ، وعندما فكر في الاستقالة ، احتجاجا على زيارة مفاجئة قام بها وزير الدفاع الاسرائيلي أرينز لبيروت ، دون علمه أو استشارته ، غير أن رئيس الجمهورية رفض قبول فكرة استقالة الوزان ، وطالبه بالاستمرار ، ووافق الوزان على الفور ، وسحب استقالته التي كانت فيما يبدو لانقاذ ماء الوجه لا أكثر ، تجاه زيارة أرينز بناء على دعوة قدمها له توددا رئيس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميل ، وكانت الحكومة وعلى رأسها الوزان لا تعرف عن الزيارة شيئا ، وفوجىء الجميع بحرس شرف من ميلشيات الكتائب

تصطف فى مطار بيروت ، تقدم التحية العسكرية لوزير دفاع اسرائيل ورغم المهانة التى وجد شفيق الوزان أنها لحقت به .. استجاب للاستمرار فى الحكومة وسوف نكتشف أن السيد الوزان ، كان أكثر من استخدم طريقة الاستقالة بين رؤساء وزراء لبنان ، غير أنه كان أيضا سريع الاستجابة لسحب استقالته ، غير أن كافة الفئات الاسلامية فى لبنان ، طالبت بضرورة اقالة شفيق الوزان وحكومته ، كبداية لاى حل ينتهى بنوع من الوفاق السياسى بين أبناء البلاد .

الزعامات السنية والتعاون مع السلطة الشرعية

ويمكن ادراج السيد صائب سلام ، وهو أيضا زعيم اسلامى سنى ، من بيروت ، داخل اطار الزعامات السنية التى تقبل بالتعاون مع السلطة الشرعية للبلاد . حتى لو تم اتهامها بالوصولية ، كما قال مؤخرا وليد جنبلاط زعيم الدروز ، ورئيس جبهة الخلاص الوطنى ، التى تضم السيد رشيد كرامى ، وهو من زعماء المسلمين السنة ، من طرابلس ، ثانى معاقل المسلمين السنة فى لبنان بعد بيروت ، وهو مرشح جبهة الخلاص ، لرئاسة حكومة جديدة تستطيع التعبير عن امانى المسلمين عامة والسنة بوجه خاص .

لقد كان الفرق واضحا طوال الوقت بين مسلمى بيروت من السنة ، واخوانهم فى طرابلس ، لقد كان من مظاهر التعصب الدينى لدى موازنة محافظة الشمال حيث توجد طرابلس ، أثره العميق فى نفوس المسلمين السنة فى نفس المدينة ، كما ان ارتباطهم جغرافيا

بسوريا ، واعتبار طرابلس مرفأ طبيعيا للسوريين ، كل ذلك ساهم فى تزايد مشاعر السنة فى طرابلس بأنهم أكثر الفئات غبنا فى التركيبة السياسية اللبنانية ، وبالتالى كانت معارضتهم أقوى للممارسات المارونية ، وبسبب المسلمين السـنة فى طرابلس ، يصعب وصول مرشح مارونى من محافظة الشمال الى منصب رئاسة الجمهورية ، ولذلك فان معظم رؤساء لبنان هم من موارنة جبل لبنان ، كذلك يستمتع كرامى بتعاطف المسلمين الشيعة فى لبنان ، وهم حلفاء جبهة الخلاص الوطنى التى تحظى فى نفس الوقت بدعم السوريين ، لذلك يعتبر رشيد كرامى أصلح الوجوه اللبنانية لتولى حكومة انقاذ وطنى يتفق عليها مسبقا معظم الاطراف اللبنانية المتصارعة فى الداخل ، فضلا عن تأييد السوريين الذين يعتبر موقفهم تجاه رئيس الوزراء الجديد مهما ، ومع كل ذلك فـان منصب رئيس وزراء لبنان ، يظل هامشيا حتى فى أحلك الظروف التى يتعرض لها مصير لبنان . كما أن رشـيد كرامى نفسه ، لا يستطيع التأثير على القرار اللبنـانى ، حتى اذا كان رئيسا للوزراء ..

رئيس الوزراء يفضلونه من سنة بيروت ، وليس من طرابلس .. لماذا .. ؟!

لقد انتهى الحال بأن ترشيحات معظم رؤساء الوزارات فى لبنان قبل الاستقلال وبعده ، أصبحت حـكرا على المسلمين السنة من أهل بيروت ، بينما وصل الى منصب الرئاسة من أهالى طرابلس ، رجلان فقط من اسرة كرامى

أولهما كان الشيخ عبد الحميد كرامى ، ثم الشيخ رشيد كرامي ، الذى قد تجذبه فكرة القومية العربية ، مع المحافظة على استقلال لبنان ، وهو يعلن دائما انه يخشى ذوبان لبنان فى كيان عربى أوسع ، يفقده كيانه وطابعه الخاص وهو نفس ماينادى به الموارنة تقريبا .. ومع ذلك لم يظهر كرامي كرئيس للوزراء الا خلال فترات المد العربى فقد تولى كرامي الوزارة لاول مرة عام ١٩٥٦ ، خلال فترة حكم شمعون ، غير أن وزارته استمرت فى الحكم ستة شهور فقط .. عاود كرامي الظهور مرة اخرى ، وبطريقة أكثر تألقا ، خلال عهد الرئيس فؤاد شهاب الذى استمر ٦ سنوات ، من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦٤ ، وقد تولى كرامي رئاسة الوزارة ثلاث مرات خلال هذه الفترة ، وكانت مدة حكمه قد وصلت الى ثلاث سنوات و ٧ أشهر وعشرة ايام ..

وبعد عام ١٩٦٤ ، وما تبعه من أحداث سواء داخل لبنان ، او على المستوى العربى ، لم تكن هناك حاجة الى التفكير في زعيم من طرابلس مثل .. رشيد كرامى ، وان كان قد ظهر مؤخرا كواحد من زعماء جبهة الخلاص الوطنى ..

ان منصب رئيس الوزراء فى لبنان ، لا يعنى شيئا ذا قيمة كبيرة فى تشكيلة الحكم ، غير انه يعكس بالضرورة مدى احترام الشرعية لطائفة السنة ، كبرى الطوائف فى لبنان على الاطلاق .. لقد تولى رئاسة الجمهورية فى لبنان قبل الاستقلال وبعده ، أفراد يعدون على أصابع اليد الواحدة ، غير ان عدد الوزارات التى تم تشكيلها فى لبنان منذ عام ١٩٤٣ وهى سنة الاستقلال ، حتى عام ١٩٥٨

وهى سنة الثورة منذ حكم كميل شمعون ، قد بلغت ٣٠ وزارة ، بمعدل وزارتين يجرى تشكيلهما كل عام .. ! مع ملاحظة هامة ، لانه بالمقارنة مع دولة مجاورة للبنان ، وهى اسرائيل التى ظهرت منذ صيف عام ١٩٤٨ ، نجد أنه قد تولى فى اسرائيل منذ سنة التأسيس حتى عام ١٩٨٣ منصب رئاسة مجلس الوزراء سبعة أفراد فقط خلال ٣٥ عاما ، بمتوسط رئيس للحكومة كل خمسة أعوام .. !!

كيف تستطيع حكومة ان تبدأ عملا ، فضلا عن انجازه خلال فترة حكم قصيرة . لقد ظهر السيد صائب سلام لاول مرة فى منصب رئيس الوزراء ، ابان الفترة الثانية لرئاسة الشيخ بشارة الخورى ، غير أن السيد صائب سلام وحكومته اقيلت بعد ثلاثة أيام من تشكيلها « من ١٤ سبتمبر ١٩٥٢ الى ١٧ سبتمبر من نفس العام ١٩٥٢ » .

واذا كان ذلك حال من يمثل المسلمين السنة فى قمة الحكم ، فان أحوال الطائفة بالضرورة ستكون طوال الوقت عرضة للاهمال والتجاهل .

ووفقا للعرف السائد ، وهو تقليد أقوى من الدستور ، يكون للمسلمين السنة ، رئاسة الوزارة فقط ، وليس لاحد أن يتطلع الى منصب رئيس الجمهورية ، كما أن تمثيلهم فى مجلس نواب لبنان لا يجب أن يزيد على ٢٠ عضوا بأية حال ، والمجلس مكون من ٩٩ عضوا ، ولا يزيد تمثيل المسلمين السنة فى أية تشكيلة حكومية عن وزير واحد ، وغالبا ماتكون هذه الوزارة قليلة الاهمية ، واذا عرفنا أن النظام اللبنانى ، يجعل من الحكومة ومجلس النواب ، مؤسسات محدودة الفاعلية ، اذ لم تكن عديمة

النفع بالنسبة لمن تمثلهم ، خاصة اذا لم يكونوا من طائفة رئيس الجمهورية ، استطعنا أن ندرك مدى الفجوة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية التي يعاني منها في لبنان المسلمون السنة وبقية طوائف المسلمين . والدوله اللبنانية تقدم خدماتها بسخاء ، على طائفة واحدة تمثلها ، دون بقية طوائف الدولة اللبنانية .

المسلمون السنة ، الاغلبية الصامتة ..

اشتهر السنة منذ أقدم العصور ، بأنهم سكان المدن اللبنانية ، وأن التجارة عملهم الاساسي ، وأنهم يشكلون ٤٣٪ من مجموع سكان بيروت ، ويتركزون في بيروت الغربية ، والدائرة الانتخابية في بيروت الغربية مغلقة لصالح المسلمين السنة في كل الانتخابات ، كما أن دائرة بيروت الثالثة ، مقسمة بين السنة والدروز والاقليات .. وكان السنة قبل تأسيس الدولة ، من اهل الحكم ، وثاروا ضد الحكم العثماني ، بسبب كثرة مظالمه ، واصبحوا تجارا وباعة وأصحاب حرف ، وانخرط معظمهم في سلك الوظائف الحكومية ، وفي داخل قوات الامن والجيش ، واجهزة الادارة ، واصبح بعضهم من رجال الاقطاع ايضا .. غير انهم تميزوا عن غيرهم من الطوائف الاخرى ، بأنهم مجتمع المدينة الاكثر تحضرا ، والاكثر ميلا الى الاستقرار ، والاكثر قبولا بأحكام السلطة الشرعية للبلاد ..

لم يحاول الانتداب الفرنسي قط ، انصاف احوال المسلمين وخاصة طائفة السنة ، رغم حجمهم الكبير ،

وتأثيرهم على مجرى الحياة العامة وقد تعمدت الادارة الفرنسية انشاء بعض الوظائف ذات الطبيعة الدينية لارضاء بعض الجهات الاسلامية أو زعاماتها ، وكانت نتائج السياسة الفرنسية ، المزيد من التفرقة والنزاع بين المسلمين انفسهم ، وقد ظهر التقاتل من أجل اقتسام المناصب ، أو اغتنام خيرات الاوقاف الاسلامية ..

ولقد ظهر قانون بعد الاستقلال باثنى عشر عاما ، ينظم احوال المسلمين السنة ، ففي عام ١٩٥٥ صدر قانون يقضى بأن طائفة المسلمين السنة مستقلة فى شئونها الدينية ، وأوقافها الخيرية ، وحق الطائفة فى ادارة شئونها ، وتنظيمها من داخلها ..

واصبح مفتى المسلمين السنة ، هو مفتى المسلمين بكل مذاهبهم فى لبنان ، سواء الشيعة أو الدروز ، أو غيرهم ، وهو مفتى الجمهورية . ومع ذلك لم تنظم القوانين اللبنانية اى طريق لتنفيذ صلاحيات المفتى بطريقة عملية ، وقد ظل هذا المنصب الدينى الرفيع طوال الوقت ، يبحث دون جدوى ، عن صلاحيات عملية تجعله مؤهلا لممارسة سلطاته بالقدر الذى يتساوى مع بطريرك الطائفة المارونية فى لبنان .

وقد جعل القانون اللبنانى من منصب مفتى المسلمين ، رغم كل مايحيط به من مظاهر احترام ، مجرد وظيفة حكومية ، من درجة ممتازة رغم أن منصب المفتى هو عنوان كل المسلمين فى لبنان بكل طوائفهم ، ولم يظهر حتى الان تحديد واضح للطرق والوسائل التى تكفل للمفتى مباشرة مهامه .

وقد صدرت عدة مراسيم تنظم أحوال الطائفة عامى

١٩٥٦ ، ١٩٦٢ غير انها لم تقدم للمسلمين السنة اضافة تذكر ..

ومع كل ذلك ، يتمتع مفتى لبنان باحترام كافة المسلمين فى لبنان ، فهو مقصدهم ، ومرجعهم وهو رمز للمسلمين يحاط بالاجلال والاعتبار ، وزعامته الدينية تعلو فوق أى زعامات سياسية ، حدث عام ١٩٥٨ ، عندما تعاون رئيس الوزراء سامى الصلح مع الرئيس كميل شمعون فى طلب القوات الامريكية ، والدخول فى حلف بغداد وضرب الثورة حدث أن قدم مفتى المسلمين فى ذلك الوقت ، فضيلة الشيخ محمد علايا ، فتوى كان لها تأثيرها الخطير على الحياة السياسية للشيخ سامى الصلح ، فقد أطلق عليه اسم المنبوذ وأطلق على حكومته اسم حكومة المنبوذين ، وقد لصق بها هذا الاسم ، ولم يعد الشيخ سامى الصلح المرشح المفضل بعدها لدى رؤساء جمهورية لبنان ، لكى يكلفوه بتشكيل الوزارات ، رغم أنه سجل بمفرده أعلى رقم فى تشكيل الحكومات اللبنانية ..

لقد تولى سامى الصلح الوزارة ٥ مرات من مجموع ثمان خلال فترة رئاسة الشيخ بشارة الخورى بعد الاستقلال ، وفى عهد كميل شمعون تولى سامى الصلح رئاسة الوزارة ٣ مرات من مجموع ٨ وزارات ، وكان لتأثير فتوى الشيخ محمد علايا تأثيرها على الابتعاد عن سامى الصلح فيما بعد .. وبعده بدأ نجم السيد صائب سلام ، يعلو كبديل للصلح ، ولقد أظهر الشيخ صائب سلام أنه لا يقل مرونة عن سلفه فى التعاون مع رؤساء جمهورية لبنان ، وسجل رقما عاليا فى عدد المرات التى تولى خلالها رئاسة الحكومة اللبنانية ، غير أن أحوال المسلمين السنة طوال عهده أيضا، كانت فى حالة انحدار مستمر .. !!

ويعاون مفتى لبنان ، مجلس شرعى أعلى يرأسه المفتى، يعاونه نائب وأعضاء طبيعيون ، وآخرون يجرى انتخابهم ، وقد جرت العادة أن يتم تشكيل المجلس من ٦ أعضاء يمثلون بيروت ، و ٦ يمثلون طرابلس ، و ٣ من صيدا ، وعضو واحد من البقاع ، وعضو واحد من جبل لبنان ، ومدة المجلس ٥ سنوات ..

والقضاء الشرعى فى لبنان على درجتين ، محاكم ابتدائية ، ومحاكم استئناف ، وتجرى أحكامه وفقا لمذهب أهل السنة .. ولا تتدخل السلطات الحكومية فى شئونها ..

لماذا يحرم المسلمون السنة من فرص التعليم ؟

لقد كان حرمان المسلمين السنة من فرص التعليم قائما ومستمرا ، فلم يكن فى لبنان الا التعليم الخاص ، وهو اجنبى أو يدار لحساب الأجانب ، ولم تتدخل الحكومة لاتاحة فرص التعليم لكل أبناء البلاد الا فى وقت متأخر ، وبدرجة محدودة ، لذلك اعتمد المسلمون السنة على خدمات الجمعيات الاسلامية التى كانت توفر فرصا محدودة أيضا لتعليم ابناء المسلمين ، وكانت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية من ابرز الجمعيات التى ساهمت فى نشر التعليم ..

كانت الفجوة فى فرص التعليم مبررا كافيا لكى تجعل طائفة الموارنة فى وضع أفضل . فى التعامل مع الحكومة ومع الخارج . وكانت اللغة الفرنسية تنافس اللغة العربية ، ليس فى دواوين الحكومة فقط . ولكن أيضا

كلفة متداولة بين عامة الناس ، وكانت معظم الوظائف فى الشركات والحكومة والبنوك تفضل ذوى الثقافة الفرنسية

وبينما كانت هناك جامعة سان جوزيف الفرنسية بفروعها منذ القرن الثامن عشر فى لبنان ، كانت الجامعة الامريكية قد تم تأسيسها منذ مائة عام ، ولم تفكر الحكومة اللبنانية فى بناء جامعة وطنية الا فى عام ١٩٥٢ ، وقد ظلت هذه الجامعة محل اهمال الحكومات المتعاقبة الى أن قامت اضرابات طلابية كبرى بعد عشرة أعوام من تأسيسها وطالب الجميع بتدعيم الجامعة والاهتمام بشؤونها .

وعندما قامت جمعية المقاصد ، ببناء جامعة أهلية عام ١٩٦٠ تضم أبناء المسلمين المحرومين من التعليم العالى فى لبنان ، وكان ذلك بمساعدة مصرية ، ثارت كل الفئات اللبنانية من ذوى الثقافة الفرنسية ، وعندما تم افتتاح كلية الحقوق فى العام التالى لتأسيس الجامعة التى أصبحت فرعا لجامعة الاسكندرية ، ثار المحامون اللبنانيون،وأعلنوا الاضراب ، واصيبت أعمال المحاكم بالشلل ، وكان المحامون الذين يتكلمون بالفرنسية يطالبون بالاضراب الشامل الى أن يتم اغلاق كلية الحقوق العربية فى بيروت .. ولكن ذلك لم يجد بالطبع ، واستمرت الكلية فى عملها .. وتم تخريج دفعات كثيرة من الطلبة المسلمين الذين اثبتوا تفوقا لا يقل عن أقرانهم الذين أرادوا احتكار الثقافة والوظائف والعمل العام ..

كذلك لم تعد أعمال المحاماة وحدها حكرا على ذوى الثقافة أو الاتجاهات الفرنسية والاجنبية بصفة عامة ، فقد تمكنت جامعة بيروت الحكومية الى جانب فرع جامعة الاسكندرية فى بيروت ، من تخريج معظم الشباب اللبنانى

المسلم الذى يعمل فى كل فروع الحياة وأصبح منهم الاطباء والمحامون ، والصحفيون ، ويشكلون طليعة جيل مسلم يرفض النزعات الطائفية التقليدية ، ويطالب بالمساواة والحرية والعدل فى تكافؤ الفرص بين جميع اللبنانيين ، غير أن حضورهم السياسى لم يظهر بعد على مسرح الحياة العامة فى لبنان ، بطريقة مؤثرة ..

هل توجد للمسلمين السنة احزاب سياسية .

لم تكن هناك احزاب سياسية قوية تستطيع استيعاب الحجم الكبير لطائفة السنة ، أو تستطيع توظيف طاقتها وقدرتها على التاثير على مجمل تاريخ لبنان ، وقد ظهر حزب النجادة ، كتنظيم سياسى يضم غالبية بين أعضائه من المسلمين السنة ، وقد تكون هذا الحزب عام ١٩٣٧ بعد عام واحد من تأسيس حزب الكتائب المارونى بطبيعته العسكرية ، ويبدو أن حزب النجادة قد ظهر كطريقة للرد على هذا التنظيم الكتائبى ..

انضم الى هذا الحزب فى بداية تكوينه ١٢ الف عضو وكانوا يعتمدون أسلوب التدريبات العسكرية أسوة بحزب الكتائب ، وقد تعرض الحزب للحل عام ١٩٤٩ ، ثم أعيد تكوينه عام ١٩٥١ ، غير أن الحزب لم يبرز نشاطه بشكل ملحوظ الا عام ١٩٥٤ عندما أعيد تنظيمه ، وتم تسجيله رسميا كحزب سياسى .

وكان لحزب النجادة دور خطير فى ثورة ١٩٥٨ ، لذلك قام الرئيس الاسبق كميل شمعون بحله ، غير أن حزب النجادة عاد الى العمل بعد غياب شمعون ، واصدر صحيفة صوت العروبة ..

يقول حزب النجادة فى برنامجه السـياسى أن الدين مسألة شخصية ولم يرفض انضمام غير المسلمين لعضويته غير أن معظم عضويته قد اقتصرت على المسلمين السنة ..

وينادى الحزب بأنه حزب قومى عربى ، ديمقـراطى ، اشتراكى ، ويرى الاحتفاظ باستقلال لبنان ، استقـلالا تاما ، ناجزا ، باقيا ، وطالب بضرورة اجراء احصاء لتعداد السكان فى لبنان غير أن أهم مبادئه بالفعل قد تركزت حول هدفين ..

أن تـكون رئاسة الجمهورية دورية بين المسـلمين والمسيحيين ..

ان الميثاق الوطنى لا ضرورة له ، ولا يجب أن يلزم أحدا ويجب تجاوزه لمصلحة شعب لبنان ..

ربما كان حزب النجادة ، هو أبرز التنظيمات السياسية الاسلامية التى ظهرت بعد الاستقلال ، غير أن تأثير الحزب ظل محدودا ، على الساحة السياسية ، رغم أنه كان يضم أعضاء يستطيعون التأثير المباشر على الحياة السياسـية للبلاد ، وخاصة بيروت العاصمة .

لقد كان معظم أعضاء الحزب من الطبقـات الفقيرة والمتوسطة والاسلامية ، غير أنهم كانوا فى نفس الوقت يمثلون عصب الحياة اليومية فى بيروت كان يضم عمـالا من مختلف الحرف ، الاجراء ، والطلاب ، وصغار التجار ومعظم سائقى التاكسى فى بيروت ، وعمـال النظافة فى المدينة ، وتجار الخضراوات ، ومعظم أصحاب محـلات الجزارة .. كان حزب النجادة يستطيع شل الحياة العامة فى بيروت العاصمة اذا أراد ، لذلك كانت أول أعمال كميل

شمعون عند اندلاع حرب ١٩٥٨ أن أغلق الحزب ، وحرم كافة انشطته . .!!

وبافتقاد الحزب الى قيادة قوية ، لم يعد له أثر يذكر ، وقد تعمد الشيخ عدنان الحكيم ، وهو رئيس الحزب أن يكون هو كل شيء ، كما جعل الحزب حكرا له ولافراد أسرته ، ولم يعد له تأثير يذكر فى الحياة السياسية للبلاد .

المسلمون السنة ، عنصر الاعتدال فى لبنان

ان مايطلبه المسلمون عامة فى لبنان ، والمسلمون السنة بوجه خاص ، يتمثل فيما يقولون حاليا على نطاق واسع ، وكما يحدد بيان العلماء المسلمين فى أكتوبر ١٩٨٣ ، وهم يقولون فى كتاباتهم وبياناتهم أن مايطالب به المسلمون ليس على أساس تحقيق الذاتية الاسلامية ، على حساب الذاتية الوطنية ، وانما يريدون تصحيح المسار التاريخى للكيان اللبناني ، وهو تأكيد الذاتية الوطنية ، دون عملقة فئة أو طائفة على حساب مجمل الشعب اللبنانى .

لعل هذا الاتجاه يمكن رصده بطريقة أكثر وضوحا لمن يتابع كتابات الصحف اللبنانية ، سواء داخل لبنان ، أو صحف لبنان المهاجرة الى الخارج ، فضلا عن كتابات الصحفيين اللبنانيين بمختلف ميولهم ، وتعليقاتهم حول المسألة اللبنانية التى تشغل أذهان العالم . .

بينما كانت مذابح لبنان ، وتداعياتها الاقليمية والدولية ، مثار تعليقات مطولة من كافة الصحفيين والمراقبين الاجانب . . كانت صحف لبنان التى هاجرت

منذ ١٠ سنوات الى منفاها الأختيارى فى باريس ، قـد اقتنعت تماما بأن مايحدث فى السلفادور وبقية دول أمريكا الوسطى لا يقل أهمية عما يدور فى لبنان ، وبالتالى فقـد افردت مجلة متقدمة مثل المستقبل ، أهم صفحاتهـا ، وخصصت أبرز كتابها للحديث عن أمريكا الوسطى ، فى الوقت الذى كان نطاق التورط الاوربى والامريكى فى لبنان يتزايد عمقا ، وشاركت الطائرات الفرنسية مع طـائرات الاسطول السادس الامريكى فى ضرب شواطىء لبنـان وضواحى بيروت ، ومنطقة جبال الشوف ..

ومنذ قيام الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ ، فضـل الصحفيون اللبنانيون من ذوى الثقافة الفرنسية السـفر الى فرنسا والعمل من هناك ، ونجحوا فى تأسيس مجلات عربية لا تكتب عن لبنان الا من منظور محايد ، وكـانت حجتهم طوال الوقت أنهم ، بسبب كتاباتهم يتعرضـون لحوادث الاغتيال ذات الطابع الطائفى ، ولم تهمل المجلات اللبنانية فى باريس اهتمامها بالحديث عن العالم العربى ، وان كانت تدخلاتها التقليدية فى شئون العالم العربى قد خفت حدتها الى حد كبير .

وقد فضـل معظم الصـحفيين اللبنـانيين المسـلمين هجرة العمل الى داخل الدول العربية ، وقد ظهر تأثيرهم واضحا فى صحف منطقة الخليج العربى ، فقد اشتركوا مع المثقفين الكويتيين وغيرهم فى بقية أقطار الخليج ، بخبرتهم بالعمل الصحفى ، وتأسيس جرائد كبيرة تحظى باحترام القارىء ، وربطوا صحف هذه المنطقـة العربيـة الغنية بهموم بقية العالم العربى ، وعندما قامت مـذابح لبنان التى قادها الكتائبيون ، ضد عناصر المسلمين السنة

والشيعة والدروز ، خلال خريف عام ١٩٨٣ ، كـــانت الصحف العربية فى منطقة الخليج بأجمعه هى الاعلى صوتا فى المتابعة والتعليق ، والتحذير بالعواقب الوخيمه لتردى الامور فى لبنان ..

المسلمون السنة ، ومخاطر سياسة الهرم المقلوب فى لبنان ...

ان عدم احترام أمانى المسلمين عامة فى لبنان ، وتقدير حجم وتأثير المسلمين السنة بوجه خاص ، هو الذى جعـل التركيبة السياسية اللبنانية ، بمثابة الهرم المقلوب طوال الوقت ، لقد رأينا أن السنة يمثلون القـــاعدة العريضة المعتدلة لهذا الهرم ، غير أن الغبن الواقع عليهم ، وأبعادهم عن دورهم المطلوب لحفظ التوازن ، وضمان الاعتدال . والحفاظ على شكل لبنان هو الذى جعل تاريخ ما بعـد الاستقلال ، هو نفس تاريخ الحروب الاهلية اللبنانية .

لقد حذر المراقبون الاجانب ، وخاصة البريطانيون ، عشية وقف اطلاق النار ، انه لابد أن يكون مشروع السلام اللبنانى القادم ، عربيا فى مضمونه ، بعيدا عن أى تخطيط اسرائيلى ، وان المصالحة الوطنية يجب أن تضع فى الاعتبار حجم المسلمين وتأثيرهم ، ودورهم فى الحياة السياسية ، اكثر من ذلك ماحذرت من وقوعه جريدة بريطانية يمينية فى أكتوبر ١٩٨٣ ، عندما قالت :

ان الحل الامريكى للمسألة اللبنانية يجب الابتعاد عنه ، لان الحل الامريكى فى بســـاطة ، يعنى ابادة الشـــعب اللبنانى ، وهو تعبير مهذب من جانب الصانداى تلجراف عندما استخدمت تعميم كلمـة الشـعب اللبنانى ، دون

تخصيص طائفة دون اخرى ، ذلك أن الامريكيين قد دخلوا لبنان قبل عام لمساعدة الكتائب ، الوجه السياسي والعسكرى للموارنة الذين يرفضون حاليا ، المصالحة الوطنية ، ويهددون بالحرب مرة اخرى ، ولا يرفضون فكرة تفتيت لبنان .. !!

***

ويعتقد حزب الكتائب المارونى ، أن فكرة الاصلاح السياسى فى لبنان ، ليست لها الا ترجمة وحيدة ، هى أن اعتدال الهرم المقلوب فى لبنان ، تعنى فى بساطة أن يتولى المسلمون السنة ، الحكم فى لبنان .. !!

الفصل الرابع

المسلمون الشيعة

يطيب للمراقبين الاجانب ، المتابعين لعملية الصعود أو الهبوط فى أسهم الطوائف اللبنانية ، ومدى اتساع أو انكماش حصتها فى أسهم الحكم والسلطة ، يطيب لهؤلاء تقديم هذه المقولة التى تعتمد أساسا على طائفة الموارنة كقاسم مشترك فى لعبة الحكم والسياسة ، لانه بمقدار تحالفها مع طائفة واحدة من الطوائف الاسلامية تكون السيطرة على مسار الحياة السياسية فى لبنان ..

تقول هذه المعادلة السياسية ، أنه فى العام ١٨٦١ قام الاستقرار فى جبل لبنان ، بموجب تحالف مارونى ــ درزى ..

وفى عام ١٩٤٣ استقلت لبنان ، وظهر الميثاق الوطنى نتيجة تحالف مارونى ــ سنى ..

أما فى هذه الايام الراهنة ، التى تشهد فصولاً حية من دمار لبنان ، فانهم يربطون خلاصه ، واستمرار كيانه مستقلا ، بتحالف منتظر ربما يستطيع الموارنة عقده هذه المرة مع طائفة الشيعة ، التى يقال أنها اصبحت الان أكبر الطوائف الاسلامية وأكثرها ديناميكية فى لبنان ..

لقد كانت الشيعة قبل الاستقلال محل تجاهل تام ، كان حجم وجودهم محدودا ، وبالتالى لم يكن لهم تأثير سياسي يذكر ، غير أن عددهم زاد عشرة أضعاف خلال القرن الاخير فقط ، فهم يقدمون حاليا بسخاء نصف مواليد لبنان ، يقال فى مقابل كل طفل مارونى يولد ، يوجد أربعة اطفال من ابناء طائفة الشيعة ، وعندما جرى تعداد تقديرى لعدد سكان لبنان عام ١٩٤٣ بمعرفة السلطات الفرنسية ، كان حجم طائفة الشيعة وفقا لهذا التقدير قد وصل الى ربع مليون نسمة ، أما الان وبعد أربعين عاما ، فان التقديرات تصل بعددهم الى حدود المليون ، مايقرب قليلا من ثلث سكان كل لبنان ، يقولون على نطاق واسع ، ان الشيعة ستكون القوة المركزية فى لبنان المستقبل ..!

فمن هم هؤلاء الشيعة الذين كانت لا تقبل لهم شهادة فى محاكم لبنان ، والذين قصمت فرنسا ظهرهم عندما فكروا مرة واحدة بالتمرد ضد سلطة الاحتلال فى جبل عامل ، وفرضت عليهم غرامة حربية باهظة لم يفلحوا فى سدادها الا بعد سنوات طوال ، وكيف تغير بهم الحال الى الحد الذى كانوا يتوقعون فيه لطائفة الشيعة أن تقوم هى بالثورة فى لبنان قبل عام ١٩٧٥ لتصحيح اوضاعها ، بدلا من قيام الحرب الاهلية اللبنانية التى اشتركت فيها الطوائف اللبنانية بما فيها طائفة الشيعة ، هذه الحرب المستمرة حتى اليوم ..

ان الموقف الحالى لطائفة الشيعة فى لبنان ، هو فى صف المعارضة لمحاولة هيمنة حزب الكتائب والانفراد بالحكم ، وهم حلفاء لجبهة الخلاص الوطنى التى تضم الدروز ومعظم زعماء المسلمين السنة فضلا عن زعماء كبار من طائفة الموارنة .

لقد تعرضت العناصر المسلحة لطائفة الشيعة فى بيروت أوائل سبتمبر ١٩٨٣ ، لاول تجربة عسكرية مباشرة خاضها الجيش اللبنانى الحديث التكوين ، مع بداية الحرب الاهلية التى بدأت فى بيروت ، وانتشرت فى الجبل واستمرت ثلاثة أسابيع ، وانتهت بقرار هش لوقف اطلاق النار وافقت عليه الأطراف اللبنانية المتصارعة ..

نجح الجيش اللبنانى بعد ثلاثة أيام من القتال ، فى القضاء على مقاومة منظمة أمل الشيعية داخل بيروت فى بداية معارك سبتمبر التى استمرت ثلاثة أيام ، غير أنه عندما تقرر وقف اطلاق النار ، كانت منظمة أمل الشيعية العسكرية من بين اعضاء اللجنة التى تقرر تشكيلها لمراقبة وقف اطلاق النار ، كما أن الطائفة ستكون فيما بعد ممثلة فى مؤتمر المصالحة الوطنية الذى انهى جولته الأولى فى أواخر أكتوبر ١٩٨٣ ، مالم تظهر فى الافق احتمالات كئيبة ، تعرقل طريق الوصول الى تسوية سلمية ، تعيد الى لبنان كيانه الموحد ، وتعيد الى طوائفه متعة مواصلة لعبتهم المفضلة وهى توزيع الحصص والمناصب بين الاخوة الاعداء ، داخل الاسرة اللبنانية المدججة بالسلاح والعقائد .

من هم الشيعة ...

والشيعة اللبنانية ، هم من الجعفرية الاثنى عشرية ، بدأ وجودهم ظاهرا للعيان كطائفة منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى فى أجزاء عديدة من اراضى لبنان ، كان تواجدهم كثيفا بصفة رئيسية فى صور والبقاع ، وبعلبك والهرمل ، واشتغلوا بالزراعة والرى كاجراء فى اقطاعيات

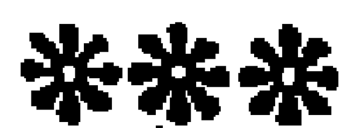
الكبار ، وعاش بعضهم أيضا فى أطراف المدن وخاصة بيروت ، وكانوا يعملون فى بعض المهن الصغيرة وباعه ، والشيعة شأنهم كالموارنة عاشوا منذ البداية كمزارعين ورعاة ، وكان للموارنة من يرعاهم طوال القرون ، غير أن الشيعة كانت عرضة فى كل الاوقات للمظالم ، فطوال العهد التركى ، ثم الاستعمار الفرنسى ، لم تكن للشيعة حقوق تذكر ، وكانوا مضطهدين فى اقطاعيات كبار ملاك الاراضى ، ولم تكن تقبل لهم شهادة فى المحاكم .

اما الجعفرية فهى نسبة لجعفر الصادق ، واحد من احفاد سيدنا على ابن ابى طالب كرم الله وجهه ، والاثنى عشرية ، نسبة الى ذرية سيدنا على من الذكور ، والتى يقال ان حكم المسلمين فى كل الازمنة يجب عدم خروجه عن دائرتهم ، والا كان الحكم غير جائز فى اعتقادهم ، ويقال ان الاثنى عشرية هذه دخلت الى المذهب الشيعى من جانب اليهود الذين يعتقدون فى الاثنى عشرية ، من ذرية سيدنا يعقوب الذى أنجب اثنى عشر ولذا كانوا ملوكا وحكاما ، ويعتقد بعض اليهود ان احفاد أولاد يعقوب الاثنى عشر هم المؤهلون لحكم اليهود حتى نهاية الزمان ، وهكذا تعتقد بعض طوائف الشيعة ان المهدى المنتظر الذى يأتى آخر الزمان ، لابد ان يكون من بين احفاد الجعفرية الاثنى عشرية ..

حاول الاستعمار التركى ، وبعده الفرنسى ، افساد كل علاقة يمكن ان تقوم بين المسلمين السنة أو المسلمين الشيعة فى لبنان ، كما اشترك الاستعمار التركى والفرنسى فى ابعاد طائفة الدروز طوال الوقت . عن المسلمين ، السنة والشيعة على حد سواء ..

كان هدف الاستعمار دائما هو ابعاد الطوائف الاسلامية

عن بعضها البعض ، وضربها كل على انفـراد ، ولو أن الطوائف الاسلامية اللبنانية تعايشت فيما بينها بما تحكم به مبادىء الاسلام الحنيف ، بعيدا عن مؤامرات الاستعمار لتغير تاريخ لبنان . .



ان الخلاف الجوهرى بين المسلمين السنة والشيعة فى لبنان ، لا يتعلق بالعقيدة أكثر مما يتعلق بنظام الحكم ، ترى الشيعة أن الخلافة فى الاسلام مثل النبوة ، منصب يعين من قبل الاله ، ويجب أن يكون محصورا فى بيت سيدنا على بن أبى طالب وأولاده من بعده ، وبالتالى فهم يعتقدون أن خلافة سيدنا أبى بكر وعمر وعثمان غـير جائزة ، وأن سيدنا على هو الاولى بالخلافة منذ البداية .

ويعتقدون أن الامام معصوم من الخطأ ، غير أن أكثر مايميز طائفة الشيعة قولهم بانتظار المهدى المنتظر ، الذى يأتى فى آخر الزمان ، ويملأ الدنيا عدلا ، وهذه الفكرة تثير خيالهم أكثر من اى شىء اخر . .

والشيعة بوجه عام ، تنقسم الى فرق كثيرة ، يخالف بعضها بعضا ، فى الكثير من التأويلات او المعتقدات ، ويذهب الباحثون فى أمور الشيعة الى أن عددها يصل الى ثلاثين فرقة ، ومنهم من يقول انها أربعون فرقة ، غير أن الاعتقاد السائد هو أن عدد الفرق الشيعية فى العـالم الاسلامى يزيد عددها على ٧٢ فرقة . .

يقال عن بداية نشأة الشيعة كمذهب اسلامى متميز ، انها ظهرت منذ يوم السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما اتفق المسلمون من مهاجرين وأنصار على ولاية سيدنا أبى بكر كخليفة لرسول الله ، فى يوم

السقيفة هذا كان هناك من المسلمين من وجد ان سيدنا على هو الاحق بالخلافة ، ومن « تشيع » لسيدنا على اصبح شيعيا .. منذ ذلك اليوم المبكر فى تاريخ الاسلام ..

قيل أيضا أن الشيعة ظهرت بعد خلافة سيدنا على بالفعل ، عندما ظهر معاوية بن أبى سفيان كمعارض وطامع فى الخلافة ، حتى لو انتهى الحال الى استخدام العنف لتنفيذ هدفه فى الاستيلاء على الخلافة بالقوة ، ومن تشيع لسيدنا على فى هذا الخلاف ، أصبح لهم هذا الاسم ..

وجاء من يقول أن الشيعة ظهرت مع سيدنا الحسن ، ثم سيدنا الحسين ، أو ظهرت مع جعفر الصادق ، وهكذا غير أن الاتفاق بين العلماء قد اظهر أن الشيعة لم تظهر بمفهومها الحالى الا خلال النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، وانها تأثرت كثيرا بما دخل عليها من جانب اليهود ، والفرس والهنود والفلسفات التى ظهرت تراجمها فيما بعد على أيدى الشعوبيين من مختلف الامصار التى فتحها المسلمون الاوائل .. وتزايد نمو الشيعة ، بعد ذلك ، وتعددت فرقها ، وكثرت مذاهبها ، غير أنها جميعا اظهرت ميلا واضحا فى مناقشة قضية الحكم والخلافة فى الدولة الاسلامية ، وكانت لديهم الرغبة فى كل الاوقات فى التطلع الى السلطة والحكم ..

على أى حال ، فان الخلاف بين المسلمين السنة والمسلمين الشيعة فى لبنان ، لم يكن قائما الا حول قضية الخلافة والحكم ، اما جوهر العقيدة فهو واحد ، غير أن طبيعة الحياة السياسية اللبنانية ، القائمة اصلا على اساس طائفى ، جعلت كل طائفة دينية تعيش داخل أسوارها ، وافكارها الخاصة ، والطوائف الاسلامية الثلاث

فى لبنان ، تعيش من بين أربع عشرة طائفة دينية اخرى غير اسلامية تتواجد على الساحة اللبنانية من قـديم الزمان ..



كانت الشيعة اللبنانية تعتقد أن حمايتها من مظالم الاتراك والفرنسيين ، تأتى من جانب سوريا ، غير أن هذه الامال قد انهارت عقب انهيار حكم الملك فيصل فى دمشق، وعندما جاء حكم الانتداب الفرنسى كان موقف الشيعة سلبيا من المحتلين الاجانب ، وبالتالى ابعدهم الفرنسيون عن الوظائف والحياة العامة ، وكانت نظرة الازدراء لهم شاملة ، وكان طموح كل رجل شيعى لا يتعدى احتمال انخراطه فى وظيفة جندى كطريق وحيد للرقى الأجتماعى .

مع تباشير الأستقلال ، كانت الشيعة فى وضـع افضل ، وبسبب مشاركتهم فى الحركة الوطنية اللبنانية ظهر تواجدهم السياسى واضحا عقب استقلال لبنان عام ١٩٤٣ .

وعندما زاد عدد نواب البرلمان اللبناني ليصل الى ٩٩ نائبا ، كان نصيب طائفة الشيعة قد وصل الى ١٩ نائبـا فى مجلس النواب ، وكانت طائفة السنة قد حصلت على ٢٠ مقعدا ، بينما احتفظ الموارنة لانفسهم بثلاثين مقعدا .

وعندما توزعت المناصب الرئاسية بين الطوائف ، وفاز الموارنة برئاسة الجمهورية ، وكانت رئاسة الوزارة لمسلم سني ، حصل الشيعة على رئاسة مجلس النواب ..

واصبح لطائفة الشيعة وزيران فى كل حكومة لبنانية .

وحتى نهاية الخمسينات ، لم تكن احوال الشـيعة مرضية بوجه عام ، ولم تكن لهم احزاب سياسية ،وكانت

لهم بعض الزعامات التقليدية فى الجنوب غير أن ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية ظلت كما هى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى فى لبنان ..

وفى الستينات بدأت تظهر مطالبهم فى المشاركة بنصيب أكبر فى الحكم والوظائف العامة ، كانوا يحصلون على مايوازى ١٤٪ من وظائف الدرجة الاولى الى جانب ٢٨٪ من مجموع وظائف الدرجة الثانية فى الدولة ، غير أنهم كانوا يطالبون بالمزيد ، وقالوا لابد لنا من ٢٠٪ من جميع درجات السلطة ..

وفى مايو ١٩٦٢ تقدم أحد نواب الشيعة بطلب لمجلس النواب ، يريد مشاركة طائفة الشيعة فى مناصب القضاء وعندما تم رفض الطلب بحجة أنه لايوجد بينهم من هو مؤهل لمثل هذا المنصب ، طالب النواب الشيعة فى المجلس بضرورة استقالة الوزراء الشيعة من الحكومة ..

***

وقبل الظهور المفاجىء للامام موسى الصدر ، كانت الشيعة موزعة الولاء بين زعامتين تقليديتين ، أحدهما هو السيد كامل الاسعد والثانى هو السيد صبرى حمادة ، كانت قوائمهما الانتخابية تفوز بالكامل فى كل انتخابات ، كان نفوذ الاسعد بين الشيعة فى جنوب لبنان ، وكان صبرى حمادة يسيطر على شيعة البقاع ..

تغيرت الخارطة السياسية تماما بعد بروز نجم الامام موسى الصدر ، وسوف ترتبط كل تحركات الشيعة منذ منتصف الستينات حتى نهاية السبعينات بقصة الامام موسى الصدر .

حتى المعارك الأخيرة التي خاضها الشيعة في بيروت أوائل سبتمبر الماضي مع الجيش اللبناني ، وتمكنت خلالها عناصر منظمه امل من السيطره على قناه التليفزيون اللبناني لمده ساعات ، كان الهدف الاول للشيعة من الاستيلاء على التليفزيون هو اظهار صور الامام على شاشه التليفزيون بمناسبة مرور خمس سنوات على قصه اختفائه الغامض !.

وللشيعة عموما ، مايشبه الانبهار بالامام المختفى ، او الامام المنتظر ، باعتبار أن ظهور « المهدى المنتظر » في آخر الزمان هو من أبرز معتقداتهم ..

ان قصة الامام موسى الصدر في لبنان ، كزعيم للشيعة هناك ، تضم كل عناصر الاثارة ، التى ترضى عامة الناس خاصة اذا كانوا من طائفة الشيعة ..

لقد ظهر الامام موسى الصدر فجأة كزعيم لطائفة الشيعة فى لبنان ، أواسط الستينات ، فى ذلك الوقت وعندما لم يكن الصدر معروفا لعامة الناس من طائفة الشيعة ، قالت الصحف اللبنانية أنه أمام وابن امام ، وابن أمام ، غير أن السيرة الذاتية للزعيم الدينى والسياسى للشيعة فى لبنان لم يكن يعرفها أحد ، هكذا بدأ دون تعريف بطفولته ، وماهي دراسته ، ومن هم شيوخه ، ولماذا ظهر فجأة كبدر مكتمل فى ليلة صيفية لبنانية .. كل ما قيل عن الامام طوال فترة نشاطه الدءوب كان يدور حول أوصافه ، كان يقال بالامام الجرىء ، الامام الوسيم ، الخطيب العصرى ، صاحب الجاذبية الجماهيرية وهكذا ، ويبدو أنه كان كذلك بالفعل ..

السلاح زينة الرجال ..

ان احدا لم يقل أن موسى الصدر كان رجلا ايرانيا ، تم ارساله الي لبنان ، لرعاية طائفة الشيعة ، باعتبار ان أحوال الطائفة لم تكن مرضية في ظل زعامة تقليدية منغمسة في لعبة الحكم والسلطة مع أطراف أخرى لايعنيها في شيء اصلاح احوال هؤلاء الناس .. ومادامت كل الاطراف الاجنبية لها مصالح وأدوات معترف بها في لبنان، فلماذا لا يكون للايرانيين ومذهبهم الشيعي تواجد مقيم في لبنان ... ؟!

وبالفعل ، قام الامام موسى الصدر بما ينبغي أن يكون ، واكثر مما هو مطلوب ايضا ، طاف بكل قرى الجنوب ، عاش في البقاع ، تحدث مع جميع افراد الطائفة تقريبا في أماكن تواجدهم حيث يعيشون ، حدثهم عن الحرمان الذى يعيشون فيه ، أثار مشاعرهم ضد ماوصفه بالمظالم التى يتعرضون لها ، حدثهم عن أهمية القوة كطريق للحصول على الحقوق ، حبب اليهم حمل السلاح ، كانت مظاهرات أهل الشيعة وهم يحملون السلاح تقابله في بعلبك والهرمل وكان الامام موسى الصدر هو الذى أطلق عبارته الشهيرة التى تقول بأن « السلاح زينة الرجال » .. وكان الامام من جانبه سخيا في توزيع السلاح أكثر من السخاء الذى كان يقدمه عن شئون العقيدة ...

وفى أول انتخابات نيابية بعد بروز صيت الامام ، انتصرت القائمة التى قدمها ، وأظهر أنه أكثر شعبية من كامل الاسعد ، وصبرى حماده ، وهكذا أصبح الامام موسى الصدر ، نجم السياسة والدين في لبنان ، وصار

الجميع يذهبون اليه لنوال البركة ، حتى كبار رجـــال الدوله بمن فيهم الوزراء ورئيس الوزراء . وبدا يعقـــد المؤتمرات الصحفية ، ويقوم بزيارات رسمية لكل الدول العربية ، ويقابل الملوك والرؤساء ، ويحظى بالرعـــــايه والتكريم ..

وعندما حاولت الدولة اللبنانية التدخل بعد بروز قوة الصدر ، وبدأت تعطيه بقدر ماتعطى كامل أسعد أو صبرى حمادة ثار الامام ، وطالب بالمزيد .

وقبل بداية السبعينات ، بدأ الامام الصدر يتحدث عن تكوين حركات شعبية منظمة تضم الشيعة يسميها تارة بحركة المحرومين وتارة أخرى يسميها حركة أبناء على ، غير أنه فى عام ١٩٧٠ كان على استعداد للاعلان عن أول تنظيم سياسى شيعى له ميليشياته العســـكرية ، وتم تأسيس المجلس الشيعى الاعلى عام ١٩٧٠ كهيئة سياسية طائفية ، ثم الحق بها جناحا عسكريا ، سماه حركة أمل .... وهى التى تضم ميلشيات الشـــيعة حتى الان ، وتخوض مثل غيرها على الساحة اللبنانية أعنف المعارك .

وهكذا أصبح الصدر زعيما دينيا ، وقائدا عسكريا ، يحظى بانبهار طائفة افتقدت القيادة السليمة طول تاريخها فى لبنان .. وواصل الامام جولاته فى كل أنحاء لبنان ، وعقد المؤتمرات السياسية ، وأدلي بالتصريحات للمراسلين الاجانب ، ولم يكف لحظة عن التجوال بين الجنـــوب ، والبقاع ، والجبل والساحل ، وكان حديثه المفضل فى كل مكان ، هو حديث الحرمان ، وكيف أن السلاح هو زينة الرجال ..

وبدأ يتصل برؤساء الدول ، ويزور مختلف العواصم ،

وتظهر صورة وتصريحاته فى كل مكان ، وكان اهتمام الصحف اللبنانية بالامام مبالغا فيه فى كل الاحوال ...

وقبل أن تنشب الحرب الاهلية فى لبنان عام ١٩٧٥ ، كان الجميع يتوقعون أن تقوم الشيعة ، بسبب التحريض المستمر للامام ، بالمهمة ، أن تقود الشيعة الثورة ضد كل ماهو قائم فى لبنان ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما .. تنكر الامام موسى الصدر تماما لمن رفعوه لعنان السماء ، تحالف مع الموارنة ، وخطب ود الامريكيين وشجع على ذبح الفلسطينيين !!..

وقف الامام ضد امانى الفقراء والمحرومين والمطرودين واحتقر الفقراء والغرباء كافة !!.

وطوال السنوات الاولى للثورة ، ظهر أن الامام هو رجل سوريا القوى فى لبنان ، وانه يشترك فى طرد وذبح الفلسطينيين الغرباء ، ووقف الامام فى الصف المؤيد للطائفية وتعميقها وتثبيتها واصبحت كل خطب الامام تمجد التعددية باعتبارها نعمة لبنان وأكد أن الطائفية هى النوافذ الحضارية للبنان ، واتهم كل من يطالب بالغاء الطائفية بأنه يريد اغلاق الابواب والنوافذ اللبنانية . نفس الافكار والاقوال التى يشيعها غلاة الموارنة ، والتى يتشبثون بها كطريق وحيد لتكريس الطائفية وهيمنتها على مصير الناس والحكم ، ووراثتهم أيضا ، وهكذا وقف الامام فى الصف المعادى لافكار الثورة الاهلية التى طالبت بالغاء التعددية ، والغاء الطائفية ، وأن يكون لبنان للجميع ...!

وبدات الشكوك تحيط بالامام من كل جانب ... بدأ المثقفون من الشيعة يقولون أن الصدر هو النموذج المثالى للشيخ بيار الجميل ، لا فرق بينهما ، ماينادى به

الزعيم المارونى اليمينى ، الشيخ بيار ، هو نفس ماينادى به الامام الشيعى الثائر موسى الصدر ، الافكار متطابقة ، والوسائل متطابقة أيضا ، وقالوا أن رجلا مثله لا يمكنه أن يقوم بأى اصلاح من خلال مفهوم طائفى ضيق بحكم حياته وتفكيره ، وأصبحت حركته السياسية والعسكرية المتخفية تحت أردية الدين ، محل اتهام مباشر بأن الرجل يعمل من أجل التعمية والتغطية على نظام متداع ، بأمل استمراره حتى لو كان ذلك على حساب لبنان وشعب لبنان .

وهكذا ، كان الوقت قد أصبح مناسبا تماما ، لظهور حركات شيعية أخرى ، مجهولة المصدر ، مجهولة الاهداف تتحدث باسم الشيعة ، وتحكى باسم لبنان ، غير أنها بعيدة عن مصالح الشيعة ، فضلا عن مصلحة لبنان ذاته وعلينا أن نتوقع بعد هذا اللغط الذى دار حول طبيعة أفكار الامام الصدر وتناقضها ، علينا أن نتوقع ظهور تنظيمات شيعية جديدة ، تعلن أنها لا تعترف بالامام الصدر ، ولا تعترف بصبرى حمادة ، ولا تعترف أيضا بالسيد كامل الاسعد ، ظهر التنظيم الثورى الشيعى المسلح ، الذى قال فى أول بياناته العلنية ، أنهم من أهل الشيعة ، وأنهم لبنانيون فى الاصل ، وانهم قاموا بعيدا عن الصدر أو غيره وأن هدف ظهورهم النهائى هو القضاء على الفلسطينيين المخربين .

وتوجهوا الى البطريرك المارونى يطلبون البركة ..!!

وكان واضحا أن الامام الصدر لم يكن بمفرده هو الذى خدع طائفة الشيعة ، وانما فتح الباب أيضا أمام تنظيمات أخرى تظهر وتتحدث باسم الشيعة ، ولا تعمل لصالحها !!

وفى شهر سبتمبر ١٩٧٨ ، اختفى الامام الصدر ، ولم يظهر له وجود حتى الان ، وان كانت منظمته مازالت قائمة .

اختفى الامام خلال الفترة القصيرة الحرجة التى سبقت نجاح الثورة التى قادها رجال الدين فى ايران ، وكانت أول المظاهرات الشيعية التى طافت شوارع طهران بعد نجاح الثورة ، تحمل صورا للامام موسى الصدر ، وتطالب الامام الخومينى بالبحث عنه فى كل مكان .. !!

وقال الامام الخومينى فور توليه السلطة فى طهران ، كان الامام موسى الصدر ، يمثل العمق العربى لحركة الشعب الايرانى . ومع ذلك لم يبذل الامام الخومينى ، طوال السنوات التالية أى حرص للبحث عن الصدر ، أو السؤال عنه ، كما أن علاقة الامام الخومينى ظلت قوية طول الوقت بالرئيس معمر القذافى حتى الان ...

ومازالت قصة اختفاء الصدر ، بعد مرور خمس سنوات ، مثارا للجدل ، كما أن قضية هل مات أم مازال حيا ، مازالت أيضا محل خلاف ، وهل اختطفه رجال شاه ايران فى أيامه الاخيرة ، أم أن الزعيم الليبى معمر القذافى هو الذى احتجزه عند زيارته لليبيا ، أم أن الامام سافر الى ايطاليا حيث كان عرضة للاختطاف .

على أى حال ، تتفق قصة اختفاء الصدر مع قصة بداية ظهوره ، كلاهما يكتنفه الكثير من الغموض ، وان كانت القصة فى مجملها لم تكتمل بعد ، وان كانت فى الحقيقة تستحق عناية كتاب الرواية ..

ظهر نبيه برى كبديل للصدر بعد حادث اختفائه المثير لم يكن برى من رجال الدين ، فهو محام من المثقفين الشيعة الذين تلقوا دراسة فى الجامعة الامريكية فى بيروت واستكملها فى الولايات المتحدة الامريكية .. غير أنه كان المساعد الرئيسى للامام الصدر ، الذى أعطاه صلاحيات هامة فى تأسيس وتنظيم منظمة أمل التى تضم ميليشيات الشيعة ، والتى كانت عناصرها قد تزايدت بشكل مطرد، بسبب النزوح الجماعى للعائلات الشيعية التى سكنت الجنوب اللبنانى طوال قرون ، وهربت الى المدن ، وخاصة ضواحى بيروت أمام الهجمات العسكرية المتكررة لجيش اسرائيل منذ بداية الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ وحتى الغزو الاسرائيلى العسكرى لجنوب لبنان فى الاسبوع الاول من يونيو عام ١٩٨٢ .

كانت الهجرة الشيعية من الجنوب شبه جماعية ، طوال السنوات الثمانى الاخيرة ، تركوا مزارعهم ومراعيهم واستقروا فيما عرف بعد ذلك باسم حزام الفقر حول بيروت ، والشياح ، ولم يجد معظمهم عملا ، وعاشوا حياة اللاجئين ، غير أن الخريطة السكانية لبيروت وضواحيها كانت قد تغيرت معالمها تماما ، وعندما كان الزحف العسكرى الاسرائيلى يتقدم نحو بيروت ، كان معظم ضحايا القنابل والصواريخ الاسرائيلية هم من بين أفراد الشيعة الذين هربوا من الجنوب ، لكى يموتوا داخل حزام البؤس فى بيروت وحولها .

ولم تكن منظمة أمل قادرة على القيام بأى عمل حتى تتجنب المصير التعس الذى يواجه الشيعة ، كشعب وطائفة ، وأعلنت تحالفها مع جبهة الخلاص الوطنى التى

كانت جاهزة لمواجهة الجيش والكتائب فيما بعد ، فى معارك الجبل مع ميلشيات الدروز ...

وفى سبتمبر ١٩٨٣ ، عندما استشعر الجيش اللبنانى انه أصبح قادرا على عمل شيء ما لاثبات الوجود ، كانت منظمة أمل الشيعية هى أول الاهداف التى وجه الجيش اللبنانى لها نيرانه ، عقب الانسحاب المفاجيء للقوات الاسرائيلية من منطقة جبال الشوف حيث الاكثرية الدرزية فى أوائل نفس الشهر سبتمبر .

وبعد ثلاثة أيام من القتال ، ظهر ان الجيش اللبنانى الحديث التكوين قادر على السيطرة على المناطق التى تتمتع فيها ميليشيات نبيه برى باى نفوذ .

وعندما حاول الجيش اللبنانى أن يواصل انتصاراته ، ظهر انه لم يعد قادرا على تحقيق أى هدف ، واضطرت قوات المارنيز الامريكية التدخل عسكريا لمساعدته ، بعد ان تأكد للامريكيين انه لا الجيش ولا ميليشيات الكتائب المارونية اليمينية قادرة على السيطرة على الموقف ، ثم اتسع القتال بتدخل مدافع وطائرات الاسطول السادس الامريكى ، ثم معاونة بقية أسلحة القوات الرباعية الغربية المتعددة الجنسية ، غير انه بعد ثلاثة أسابيع من القتال الضارى ، ظهر أن الحرب الاهلية بدأ يتسع نطاقها ، وتفوق تحالف الدروز مع ميلشيات الشيعة ، وهددوا بالاستيلاء على قرية سوق الغرب بموقعها الحاكم ، ولم يعد الجيش اللبنانى ، أو ميلشيات الكتائب يمتلكان القدرة على عمل اى شيء .. وظهرت مخاوف عميقة حول احتمالات تدويل الصراع ، وكانت جيوش سوريا واسرائيل ، قد بدأت أقصى درجات الاستعداد ، عندئذ

فقط ، اقتنعت كل الاطراف بأهمية التوصل الى قرار بوقف اطلاق النار ، لالتقاط الانفاس .

بعد يوم ٢٢ سبتمبر ، عندما تقرر بالفعل وقف اطلاق النار ، بجهود عربية من جانب السعودية ، وموافقة سوريا ، كانت كل الدول المعنية تقريبا قد أرسلت ترحيبا مبالغا فيه بقرار وقف اطلاق النار ، الا دولة واحدة فقط وكانت هذه الدولة هي ايران .

ولاول مرة يظهر خلاف علنى بين سوريا وايران ، فى مسألة تتعلق بالصراع الدائر فى الشرق الاوسط ، فبينما كان وزير خارجية سوريا يقرر أن اعلان وقف اطلاق النار فى لبنان ، هو قرار تاريخى ، كان راديو طهران على الجانب الاخر ، يقرر أن وقف اطلاق النار جاء لصالح الاستعماريين ، مع ملاحظة أن الشيعة فى لبنان كانوا أول من استفاد من قرار وقف اطلاق النار ، لانهم كانوا أول ضحايا القتال .

لقد أصبحت المسألة اكثر تعقيدا فيما بعد ، لان منظمة امل الشيعية العسكرية ، قد جرى اتهامها بأنها تقبل بالمعونات العسكرية من جانب سوريا والفلسطينيين والليبيين ، بل والايرانيين أيضا ، وكان راديو الكتائب هو الذى يذيع بالحاح كل هذه الاتهامات ، غير ان النتائج التى كانت سلبية فى مجملها بالنسبة لصراع « أمل » الشيعية مع الجيش اللبنانى وميليشيات الكتائب ، تضع شكوكا كثيرة حول اهمية مثل هذا الدعم او مدى فاعليته بالنسبة للشيعة اللبنانية .. كما أنه أيضا اظهر خلافا بين سوريا وصديقتها ايران حول المسألة اللبنانية ..

عندما تقرر وقف اطلاق النار ، كانت منظمــة أمل الشيعية ، عضوا فى اللجنة العسكرية التى تم تشكيلها من مختلف الاطراف اللبنانية للاشراف على وقف اطـلاق النار ..

وعندما تم التوصل أيضا بنجاح الى تشكيل لجنة الوفاق الوطنى ، أو لجنة المصالحة ، كما يسمونها فى لبنان ، فان الشيعة ايضا سوف تكون ممثلة داخل هذه اللجنـة ، وسيكون لديها ماتقوله ، وربما أكثر مما سوف تقـوله غيرها من بقية الطوائف اللبنانية ..

ان كل طائفة فى لبنان تمتلك أرضا تقف عليها ، وتعيش فوقها ، الا طائفة الشيعة التى فقدت أرضها فى جنـوب لبنان ، عندما استولت اسرائيل عليها فى بداية الغزو ، وعندما استقرت فى داخلها بعد انسحابها الجزئى مـن جنوب نهر الاولى .

***

بعد وضوح رغبة اسرائيل ، فى البقـاء فى الجنوب ، ظهر أنه لم يعد الاعتماد على سعد حداد مضمونا بما فيه الكفاية ، كوسيلة وحيدة ، لابعاد المتاعب المحتملة مـن أفراد الشيعة أصحاب المنطقة ، كذلك ظهر للاسرائيليين أن التحالف مع الكتائب لم يعد قويا بالقـدر الـكافى لان الحليف الكتائبى أصبح يمثل عبئا اضافيا بالنسـبة للاحتلال الاسرائيلى ، وعندما برزت قوة الدروز فى صراعها مع ميلشيات الكتائب ، آثرت اسرائيل فى البداية نوعا من الحياد بين الجانبين ، غير أن اهتمام اسرائيل ، كان قد تركز حول محاولة احتواء طائفة الشيعة فى جنوب لبنان بأى ثمن ...

ظهر اهتمام الاسرائيليين ببعض العائلات الغنية مـــن طائفة الشيعة فى الجنوب ، أعطوهم بعض الامتيـــازات وكثيرا من الاسلحة .. أعطوهم أيضا حق جباية الضرائب من ميناء صور ، لحسابهم الشخصى .. !!

أغروهم أيضا بمساحات كبيرة من الاراضى الزراعيـة لاستغلالها فى زراعة منتجات ممنوعة .

بالنسبة لفقراء الشيعة ، حاولوا اغراء بعضهم بأجور مرتفعة ، وقطع من السلاح ، لتكوين ميلشيات شـيعية محلية ، تكون أكثر قبولا لدى السواد الاعظم من سـكان الجنوب بعد أن تزايدت مظاهر العداء الشيعى لميلشـيات سعد حداد أو الكتائب ، أو الجنود الاسرائيليين .

غير أنه مع احتفالات الشيعة فى جنوب لبنـان ، بيوم عاشوراء ، فى منتصف اكتوبر ١٩٨٣ ، ظهر أن كـــل التجهيزات الاسرائيلية ، كانت مجرد أوهام ، وعنـدما حاولت قوات الاحتلال ، التظـاهر بمشاركة الشـيعة احتفالاتها الشعبية ، بيوم عاشوراء ، تفجرت المشـاعر الدينية لدى الأهالى الذين اعتبروا التواجد العسـكرى الاسرائيلى بينهم خلال احتفالاتهم ، أمرا يفوق الاحتمال ، ووقعت مصادمات دامية ، سقط فيها الجنود الاسرائيليون ومات كثيرون من السكان ، وأعلن الشيخ شمس الدين نائب رئيس المجلس الشيعى الاعلى ، الجهاد فى الجنوب، وأفتى بأن التعاون مع الاحتلال ضد الدين ولم يكن أمام اسرائيل الا العمل على ايقاف التدهور فى الجنوب .

ولان الشيعة هم الذين فقدوا أرضهم بالفعـــل فى الجنوب ، فهم وقود المعارك الحالية ، تستغلهم سـوريا وايران وليبيا ، الذين يدركون مأساة هذه الطائفـة التى

تعيش دون أرض ، والذين تلهبهم قضية الانتماء الوطنى، وقيادتهم لمعظم العمليات الفدائية ضد الاحتلال العسكرى الاسرائيلى فى جنوب لبنان ، فقد نجحت عناصر الشيعة فى ضرب مركز القيادة العسكرية ومركز الحكم العسكرى الاسرائيلى فى صور ، كما جعلت حياة أفراد الجيش الاسرائيلى فى قلق دائم ، وكان طبيعيا أن يتحالف السوريون مع عناصر متطرفة من الشيعة تم اتهامهم بضرب المقرات العسكرية للقوات الامريكية والفرنسية .

تعيش الشيعة اللبنانية حاليا ، داخل لبنان ، فى معظمها حياة اللاجئين ، ولن يعود التوازن أو الاستقرار فى لبنان الا اذا عاد مايوازى ثلث الشعب اللبنانى ، الى قراهم ، ومزارعهم ، وبيوتهم جنوبى لبنان ، ولن يتم ذلك الا بانسحاب أسرائيل النهائى من الجنوب ، الى أن يتم ذلك سيكون كل تحرك طائفى أو أجنبى داخل لبنان ، سواء بالوسائل السياسية ، أو المعدات العسكرية هو من قبيل الهروب من الاتجاه الصحيح ، نحو الحل الصحيح .. انسحاب اسرائيل من جنوب لبنان ، ومن كل اراضى لبنان .. وسوف تجد الشيعة ، وبقية الطوائف اللبنانية حلا لمشاكلهم الخاصة داخل بيتهم اللبنانى .

فى بيروت يوم ٢٣ اكتوبر ١٩٨٣ ، وبعدها تم تصعيد التواجد العسكرى الامريكى فى بيروت ، وأعلنت الادارة الامريكية أنها تتهم عناصر شيعية لبنانية متطرفة بالتعاون مع ايران وسوريا على مقتل ٢٣٠ جنديا أمريكيا فى مقر قيادة قوات المارينز قرب مطار بيروت ، واشتركت الطائرات الامريكية والفرنسية ، فى ضرب كل المواقع

التى اعتقد الحلفاء بتواجد معسكرات شيعية بداخلها سواء فى الجنوب أو البقاع وفى كل مكان فى لبنان ..

كما قامت الطائرات الاسرائيلية بضرب مواقع منتقاة على طول أرض لبنان وعرضها ، بحجة تعقب أوكار المتطرفين من الشيعة ...

وتراجعت الديبلوماسية الامريكية عن توددها التقليدى الذى دام عدة شهور تجاه سوريا ، وبدأت الطائرات الامريكية تضرب مواقع لقوات عسكرية سورية فى سهل البقاع انتقاما لتشجيع سوريا للمتطرفين الشيعة ، وكانت سوريا قد انكرت طوال الوقت أية علاقة لها بمثل هذه الحوادث ..

ولم تحاول الولايات المتحدة اتخاذ أى موقف تجاه ايران ، رغم الاتهام الامريكى الصريح بأنها وراء حوادث النسف التى اضرت بالهيبة الامريكية فى طول المنطقة وعرضها .

كذلك لم تحاول الولايات المتحدة ادراك أن الشيعة فى لبنان ، هم الطائفة الوحيدة الذين فقدوا أرضهم فى جنوب لبنان ، وأن اسرائيل تحتل أراضيهم بالوسائل العسكرية ، وانه لا مناص لكل أفراد هذه الطائفة الا حمل السلاح لمقاومة الاحتلال الاسرائيلى ، وطرده من أراضيهم وانه مادامت الولايات المتحدة تؤيد الاسرائيليين على احتلال أراضى طائفة الشيعة فى جنوب لبنان ، بينما تنصح اسرائيل بالانسحاب من مناطق تعيش فيها الموارنة وميلشيات الكتائب ، فان الولايات المتحدة تزيد فى الحقيقة تشجيع العنف فى لبنان ، وتشجيع طائفة الشيعة بوجه خاص ، لان مقاومة احتلال الاراضى امر

مشروع وتقره كل المواثيق الدولية ، ولن يجدى اتهـام سوريا أو ايران بأنها وراء تشجيع أعمال العنف من جانب الشيعة ، الا اذا كان مثل هذا التشجيع يعتبر على الاقل متساويا مع تشجيع أمريكا واسرائيل باحتلالهما لجنوب لبنان موطن طائفة الشيعة ، ببروز نوع من المقـاومة الشعبية والوطنية لمقاومة المحتلين ، ولن نبحث بعـد ذلك عن هوية المقاومة اذا كانت شيعية أو سـنية أو يهودية ..

الفصل الخامس

جبهة الخلاص الوطني

مع بداية أغسطس ١٩٨٣ أصبحت المسألة اللبنانية لغزا غير قابل للحل ، فرقاء كثيرون داخل لبنان وحولها ، وخارج المنطقة أيضا ، يهمهم كثيرا تعتيم القضية بالقدر الذى يوحى باليأس ، يكفى أن نستمع لاول مرة عبر التاريخ الاستعمارى كله ، بأصوات تنادى قوات الاحتلال بالبقاء مدة أطول فى دولة محتلة ، الاستعمار عبر التاريخ يرتبط بمقاومته ، هكذا علمتنا الحياة .

فى مسألة احتلال لبنان ، سوف نجد من يقول باستحسان بقاء قوات الاحتلال الاسرائيلى حيث هى فى مواقع انتشارها فى الجنوب والوسط والجبل ، ومناطق الشمال ، لفترة لا أحد يستطيع تحديد موعد لنهايتها ، كأن اسرائيل بريئة من كل العواصف التى تدمر شعب وارض لبنان منذ عام ١٩٧٥ ، كان أمل الاجتياح الاسرائيلى لاراضى لبنان بفظائعه الماثلة فى الاذهان ، أن يخمد الروح اللبنانية وينصر فريقا على فريق بشكل مطلق ، ويكرس انقسام

لبنـــان الى الابد ، لم تكن اتفـــاقية شوليتز الموقعـــة فى ١٧ مايو نهاية المطاف كما توقع المتفائلون ، كـانت الاتفاقية تنظم خروج الاسرائيليين النهائى من أراضى لبنان، غير أنه لسبب ما،طولبت سوريا عنوة بوضع توقيعها غيابيا على الاتفاقية اللبنانية ـ الاسرائيلية ، التى تم ابرامهـا بمجهود شخصى من جانب وزير الخارجية الامريكية شولتز ... عندما رفضت سوريا الالتزام باتفاقية لا تعرف عنها شيئا ، تفجر الوضع الداخلى اللبنانى بالقدر الذى سمح للاسرائيليين فى التفكير فى اجراء عملية اعادة انتشـــار لقوات احتلالها فى الاراضى اللبنانية ، يمنحها فرصـــة فصل الجنوب اللبنانى حتى نهر الاولى بشكل نهائى عـن الدولة اللبنانية .

غير أن القضية لم يتم تقديمها للراى العام العربى بهذا الشكل .

ان الدعايات الاسرائيلية والامريكية ، تسهم بتقـــديم الواقع اللبنانى بما يوحى بيأس البلدين من تقديم أى عون ما لصالح لبنان والشعب اللبنانى ، وهذا خطأ جسـيم اذا تصورنا لحظة بصدق دعواه ..

عندما سافر الرئيس أمين الجميل الى واشنطن فى ٢٢ يوليو ١٩٨٣ ، كانت المفاجأة الاسرائيلية فى انتظــاره ، أعلنت اسرائيل أنها ستعيد نشر قواتها بالقدر الذى يسمح باشعال الحرب الاهلية ولم تقل انها تريد احتلال جنوب لبنان . ابتلعت واشـنطن التحية الاسرائيلية المهـــداة

لصديقها اللبناني عشية وصوله الى العاصمة الامريكية ، كانت الولايات المتحدة ترفض فكرة انسحاب جزئى من جانب اسرائيل دون أن يكون فى اطار خطة انسحاب كاملة، غير أن الامريكيين تراجعوا عن هذا الشرط ، بل وقدموا أكثر من تبرير لصالح اسرائيل . ثم تركوا اللبنانيين نهبا لشكوك عميقة حول جدوى الثقة الكاملة التى يمنحها الحكم اللبنانى للاصدقاء الامريكيين .

كان من المنطقى اشعال الموقف الداخلى فى لبنان ، بعد القرار الاسرائيلى بالخندقة فى الجنوب ، كان رد الفعل الفورى هو الاعلان عن ماعرف بجبهة الخلاص الوطنى اللبنانية ، تمكن الزعيم الدرزى وليد جنبلاط ، من تأسيس جبهة الخلاص بمشاركة زعماء مثل الرئيس اللبنانى الاسبق سليمان فرنجية ، ورئيس الوزراء الاسبق رشيد كرامى وهو من زعماء المسلمين السنة ، وسرعان ما أعلن نبيه برى زعيم الشيعة تعاطفه مع أهداف جبهة الخلاص الوطنى .

وكما استمع الرئيس اللبنانى ـ بخبر تكريس الاحتلال الاسرائيلى فى الجنوب ، وهو فى امريكا ، استمع أيضا وهو فى نفس الزيارة الى خبر تشكيل جبهة الخلاص الوطنى، قامت ضجة كبرى حول اعلان الجبهة . تم تقديمها للرئيس اللبنانى باعتبارها تهديدا لصلاحياته ، حكومة أخرى بديلة ، صراع على السلطة بين الشرعية وبين مالا شرعية لهم ، رغم أن الجبهة قامت عقب الاعلان الاسرائيلى بالاحتلال الرسمى للجنوب ، ولم تعلن هذه الجبهة فور تنصيب الرئيس أمين الجميل رئيسا للبنان بتعاطف كامل من جانب زعماء جبهة الخلاص على وجه الخصوص ،

لكن الدعايات المعادية ، قدمته صراعا على السلطة ، لم يكن أمام الرئيس الجميل الا انتقاد الجبهة والمخططين لها بمرارة ، لم ينتظر العودة الى لبنان ، هاجم الجميع وهو مازال فى الولايات المتحدة ، عاود الهجوم وهو فى باريس فى طريق العودة ، اتهم الجبهة بأنها معارضة محمولة على طائرة هليكوبتر سورية ، مشيرا الى تعاطف السوريين الطبيعى مع الجبهة التى تقول أن سبب قيامها أساسا ، هو معارضة الاحتلال الاسرائيلى والعمل على الخلاص منه ..

كان تداعى مسلسل العنف هو الامر المتوقع أيضا ، تم ضرب بيروت بالصواريخ ، دافع زعماء جبهة الخلاص عن انفسهم بحملة كلامية موسعة ، قالوا انهم يعارضون الاحتلال الاجنبى ، ويعارضون أيضا حكم الحزب الواحد فى لبنان . وهو ضرب الكتائب اليمينى ..

لم تعد المسألة ، معارضة وطنية يفرزها الواقع المتداعى للاحداث اللبنانية ، فى وجه الاحتلال الاسرائيلى ، غير أنه تم توجيهها لتكون نزاعا مع السلطة .. والرئيس أمين الجميل يقول منذ بداية ولايته أنه يراس حكومة انقاذ وطنى ، يريد تخليص البلاد من الاحتلالات الاجنبية وعودة الشرعية والوحدة لشعبه ، من الطريف أن هذا الشعار نفسه الذى يرفعه الرئيس ، هو نفس الاسم الذى اختارته جبهة الانقاذ الوطنى ، لنفسها ، وهى أيضا الشعارات التى تقول أنها قامت من أجلها ، هذا التوافق فى اللفظ والمعنى هل يستوجب تعاونا ، أم يصل الى حد التراشق اللفظى ثم التراشق بالصواريخ والمدافع ، تقدم كل

الاطراف المبرر لاسرائيل بالتخلى عن بعض الأراضى لتكون ميدانا مفتوحا لنشوب حرب أهلية قادمة .

ان الشيخ بيار الجميل ، مؤسس حزب الكتائب ، يؤكد أنه لا يوجد اى تحفظ كتائبى على أى محادثات سياسية مع سوريا ، أعلن الشيخ أنهم جاهزون لبحث كل تفصيل يؤدى الى تنظيم العلاقة المميزة بين سوريا ولبنان ..

نفس مايقولونه فى جبهة الخلاص الوطنى ، لم يعد الحديث عن سوريا فى داخل لبنان محل اتهام مباشر الا من جانب امريكا واسرائيل ، لا توجد مشكلة حول توجهات الحكم ، وبين ماتنادى به جبهة الخلاص ، وبقية القوى الوطنية في لبنان ، زعماء الجبهة أنفسهم يؤكدون انهم يريدون الوفاق السياسى ، ان نقط الالتقاء هى الاوسع والاشمل ، وهى التى تستطيع جمع الشمل فى اطار العمل المشترك من أجل وحدة أراضى لبنان ووحدة شعبه ايضا . كانوا فى البداية يتحدثون فى لبنان عن الوفاق أكثر مما يتحدثون عن أى شىء آخر ، يتحدثون عن حكومة وطنية قوية ربما يتم التجهيز لها فى وقت مبكر وقدمت حكومة الوزان بالفعل استقالتها ولم يقبلها الرئيس الجميل ، كان الاقتراب الحثيث بين جبهة الخلاص ، وحكومة الانقاذ هو مايطلبه العرب من كل لبنانى .

ان الحوار السورى ـ اللبنانى سيكون أكثر كفاءة من استثمار ورقة المقاومة الفلسطينية التى استخدمتها سوريا لصالحها بطريقة تدعو للدهشة ، أن استبدال فيليب حبيب بوسيط أمريكى آخر يمكن ادراجه داخل اطار النجاحات السورية المتوالية ، كان حبيب مرفوضا

من دمشق منذ البداية ، وعندما جاء بعده روبرت ماكفرلين قيل أن الايماءة الامريكية موجهة الى دمشق ، أن ذلك دليل على مدى ماتتمتع به سوريا ، اذا أضيف الى ذلك ترحيب الزعماء اللبنانيين على اختلاف ميولهم بأهمية المحاورة مع سوريا ، ثم ما يقال عن حكومة أردنية جديدة تكون أكثر اقترابا من سوريا ، وهكذا كان علينا أن نتوقع فى المرحلة القادمة ، ماهو أفضل لان البديل المطلوب ، والاقوى احتمالا هو الحرب الاهلية ، ونسف كل وفاق عربى ، وحصار أمريكى اسرائيلى ، ليجعل الشرق الاوسط فى مهب الريح . وهو ماوقع بالفعل فيما بعد ..!!

لقد وقعت الحرب الاهلية بالفعل ، وقام حزب الكتائب بمساندة الشرعية ، والقوات الامريكية ، بضرب قوات جبهة الخلاص الوطنى ، وتمكنت قوات الدروز من تهديد بيروت ، وحاصرت قرية دير القمر ، ولولا تدخل القوات الامريكية ، ثم تدخل القوات الفرنسية والاسرائيلية ، لسقط الحكم اللبنانى ، وعند نقطة الاقتراب من نهاية المأساة ، اشتركت الولايات المتحدة مع المملكة العربية السعودية فى تدبير عقد مؤتمر للمصالحة الوطنية اللبنانية ، وتم عقده فى جنيف فى أكتوبر ١٩٨٣ ، وحضره زعماء جبهة الخلاص الوطنى ، وانتهى الى اتفاق ينص على أن لبنان له هوية عربية ، واتفق المتفاوضون على تكليف الرئيس الجميل ببذل جهد دولى يستهدف بحث موضوع اتفاقية ١٧ مايو بين اسرائيل ولبنان ، وهو الموضوع الذى كان يهدد بنسف مؤتمر المصالحة قبل أن يبدأ ، واتفق المتفاوضون على معاودة الاجتماع مرة ثانية

بعد أسابيع ، عندما يتمكن الرئيس الجميل من التوصـل الى حل ..

وبعد العودة الى بيروت ، سارع الشيخ الجميـل الاب ، بالاعتراض على ماتوصل اليه المؤتمر عن هـوية لبنان العربية ، وقال ان المسألة قابلة للنقاش ..

وسافر الرئيس الجميل الابن فى جولة مطولة لم تصل الى اى هدف ، وقيل أنه عند اجتماعه بالرئيس الامريكى فى واشنطن ، لم يتحدث قط عن اتفاقية ١٧ مايو ..

ولم تجتمع عناصر مؤتمر المصالحة مرة أخرى فى جنيف ، أو غيرها ، وعادت الحرب الاهلية من جديد بين الحكومة والجيش اللبنانى وميلشيات الكتائب من ناحية ، وبين ميلشيات الدروز والشيعة من جهة اخـرى ، وانتهى الحديث عن حكومة انقاذ وطنى ، أو مصالحة وطنية ؛ واصبح الحكم القائم فى لبنان أكثر اقترابا من القـوات الامريكية فى لبنان ، ودارت شكوك دولية كثيرة حـول حكم الرئيس أمين الجميل الذى استنفد أغراضـه ، وبدأ الحديث عن احتمالات انقلاب عسـكرى ، تؤيده أمريكا ، لعله ينجح فى عودة الوفاق بين الطـوائف اللبنانية ..

الفصل السادس :

الفلسطينيون يخرجون من لبنان مرتين

بعد احد عشر شهرا من غزو اسرائيل لبنان ، وسبعة أشهر من رحيل الفلسطينيين عن بيروت حظيت حركة فتح كبرى منظمات تحرير فلسطين ، بالاهتمام الرئيسى ، وقع الخلاف داخل منظمة عرفات ، انشقت مجموعة من الضباط فى الجناح العسكرى لفتح على أوامر القيادة ، رفضت تنفيذ التعليمات ، تدخلت منظمات فلسطينية صغيرة فى الخلاف ، بهدف تصعيده ، ظهر العقيد القذافى فى الوضع اللائق ، أشعل عناصر الفتنة ؛ اشتكى ابو عمار من تدخل الآخرين فى شئون المنظمة .. لم يبدأ الخلاف داخل فتح فى منتصف مايو ١٩٨٣ ، كما قيل على نطاق واسع ، كان الخلاف موجودا قبل ذلك بأحد عشر شهرا ، بالتحديد كان عقب الخروج الدرامى للقوات الفلسطينية من بيروت بضمانات عربية أمريكية ، ثم كان بعدها ما كان ، لم يكن الخلاف بسبب التعيينات الجديدة لبعض القيادات الفلسطينية فى البقاع ، ورفض بعض الضباط تنفيذها ، كانت بذور الخلاف قائمة قبل ذلك بكثير ، كانت التعيينات الجديدة هى النقطة التى أصبح بعدها الخلاف مطروحا خارج اطار الانضباط والشرعية ، ثم بدأت بعدها كل الاطراف تلعب على الرهان الفلسطينى بمجمله .

بدأ الخلاف ، بعد توزيع المقاتلين الفلسطينيين على ثمان دول عربية ، عقب الخروج من بيروت ، كل الوطن العربى يقـــدم أكثر من سؤال ، عن طبيعة هــذا الخــروج ، وجدواه ، احتمالات نتائجه ، ولم تكن السفن اليونانية المؤجرة ، قد تركت بعد ، رصيف ميناء بيروت ، محمـلة بالجنود والضباط الفلسطينيين فى اتجاه المجهول ، هـذه الاسئلة وغيرها ، حملها فى قلوبهم ، وحقائبهم ، كـــل الفلسطينيين الذين صمدوا حصار بيروت ثلاثة أشــهر ، وعندما طلبت منهم قيادتهم الرحيل ، نفذوا الاداء ، ان منظمة فتح بمفردها تمثل ٨٠٪ من البنية العســـكرية والسياسية لمنظمة تحرير فلسطين ، يمكن عندئذ أن نفهم أن معظم المقاتلين الصامدين فى بيروت ، الذين نفذوا أوامر الرحيل ، ثم تمركزوا داخل ثمان دول عربية ، من بينها سوريا .. هم من منظمة فتح اذا عرفنا أيضا أنه الى جانب منظمة فتح توجد ٧ منظمات فلسطينية اخـرى صغيرة ، تشكل فى مجموعها القرار السياسى لمنظمة تحرير فلسطين ، يمكن أيضا أن ندرك أن القرار السياسى لمنظمة تحرير فلسطين رهن بموقف فتح التى تمثل ٨٠٪ مـن مجمل الاصوات داخل المنظمة بكافة دوائرها السياسية ومجالسها الديمقراطية ، أو تنظيماتها العسكرية ، يقدم هذا الوضع المغرى لمنظمة فتح بامكانياتها الكاسحة ، ان تفرض دبكتاتورية على بقية المنظمات الاخرى الصغيرة داخل المؤسسة الفلسطينية ، المدهش أن فتح لم تحاول ذلك مطلقا طوال تاريخها الممتد عبر ٢٠ عاما .

لقد رفضت فتح أكثر من اغراء داخلى ، ونصــــيحة خارجية ، بأن تستخدم وحدتها وانضباطها ، فضـــلا عن

قدرتها الكاسحة على فرض قرارها داخل منظمة تحرير فلسطين ، كما أن ياسر عرفات لم يحاول أيضا ، فرض سيطرته على بقية المنظمات الصغيرة ، باعتباره قائد فتح، العمود الفقري للعمل الوطنى الفلسطينى .

هل كانت فتح على صواب ، فى التزامها العميق بالديمقراطية ، حتى لو انتهت الى نوع من الشلل ، او الفوضى ، غير أن الاجابة على السؤال صعبة ، كل الصعوبات التى تواجه العمل الوطنى الفلسطينى من داخله أو خارجه تنبع من عدم الاجابة على هذا السؤال الحائر .. السيد خالد الحسن ، من زعماء المنظمة ، يعترف بالمشكلة غير أنه لا يقدم لها حلا . ! يقول أنه شخصيا يعتقد أن الديمو قراطية التى وصلت الى حد الليبرالية الفوضية داخل فتح ، وداخل الساحة الفلسطينية ، شىء يجب أن يعاد النظر فيه على أساس ماورد فى الميثاق الوطنى الفلسطينى ، الالتزام بالديمقراطية المركزة .

هذا الاستطراد عن طبيعة العمل الديمقراطى داخل فتح ، مفتاح المدخل الطبيعى لما جرى داخل البقاع ، عندما خلط بعض الضباط بين ديمقراطية القرار السياسى ، وبين الانضباط العسكرى ، ثم ماترتب على ذلك الخلط من سلبيات عندما تناقش الفدائيون الفلسطينيون بعد الرحيل من بيروت ، كان أمام الجميع سؤال من شقين ، لابد من العثور على اجابة لهما .

● ماذا حدث فى بيروت للمقاتلين الفلسطينيين ؟

● ماهو مستقبل العمل العسكرى الفلسطينى بعد بيروت ؟!

دارت المناقشات داخل كافة الاطارات الفلسطينية فى العواصم العربية المضيفة للقوات ، بهدف تحصيل الدروس المستفادة من كل تجارب الماضى ، ثم التوصل الى صيغة عمل للمستقبل، ، كان مناخ الجدل فى معظمه داخل اطار الشرعية الفلسطينية بكافة مؤسساتها الديمقراطية والعسكرية .

من بين أكثر الاسئلة صعوبة وتم طرحها خلال هذه المناقشات ، الواسعة ، كان هذا السؤال أيضا !

● هل كان توزيع المقاتلين الفلسطينيين على عدة عواصم عربية بعيدة عن خطة الجبهة هو العمل السليم .

أم أن الاجدى كان تجميع كل العمل الفدائى على أرض واحدة عند نقطة التماس . على حدود الارض الفلسطينية ... !؟

كان أنصار التوزيع يجدون ما يقولونه ، وجد انصار تجميع القوات على أرض واحدة ، ما يقولونه أيضا ، لم يكن هناك مايخشى الفلسطينيون طرحه للمناقشة ، فقد كانت المحنة دمعة مجمدة فى عيون الجميع ..

شهدت العواصم المضيفة للفدائيين كل هذه المجادلات أو سمحت بها ، الا دمشق ، لم تسمح بهذا النقاش مطلقا لذلك لم تكن صدفة أن عناصر التمرد على اجماع فتح هى من نفس عناصر الضباط الفلسطينيين الذين غادروا بيروت بعد الحرب ، الى سوريا ، حيث استقروا فى دمشق ، أبو صالح وأبو موسى قادة التمرد وغيرهما ، عاشوا فى سوريا ، وتعايشوا مع المنظمات الفلسطينية الصغيرة مثل الشعبية والديمقراطية حيث مقرآتها الرسمية فى سوريا،

كان موقفهما هو موقف حكومة سوريا ، هو نفس موقف منظمة احمد جبريل ، نفس موقف منظمة نايف حواتمة .

على امتداد الاحد عشر شهرا ، منذ الرحيل من بيروت حتى وقوع التمرد ، كان أبو صالح وأبو موسى ، لهما نفس مواقف سوريا فى كل المؤتمرات التى عقدتها منظمة تحرير فلسطين سواء فى تونس او الجزائر أو عدن او الكويت ، أبو صالح وأبو موسى فضلا عن كونهما ضابطين فهما أيضا أعضاء فى اللجنة المركزية لمنظمة فتح ، بالتالى من حقهما حضور كل المؤتمرات ذات الطبيعة السياسية داخل فتح ، وداخل منظمة تحرير فلسطين ، ولما كانت سوريا طوال هذه الفترة السابقة ترفض سياسة عرفات ، بما فيها اجتماعات عمان بين الملك الاردنى ، والزعيم الفلسطينى فقد ظهر أيضا أن أبا موسى وأبا صالح لديهما نفس الخط « لا » لقمة فاس ، « لا » لمبادرة ريجان ، « لا » لكنفودرالية مع الاردن «لا» لمجرد أى لقاء بين عناصر المنظمة مع العناصر الاسرائيلية التى تريد الاعتراف بمنظمة تحرير فلسطين وحقوق الفلسطينيين المشروعة .

كل هذه المواقف المعاكسة من جانب أبى صالح ورفاقه ، كانت محتملة داخل فتح ، كذلك كان من الممكن ايجاد الوسيلة لاحتواء مثل هذه الافكار باعتبارها مطروحة على نطاق واسع داخل المنظمات الفلسطينية الصغيرة ، وداخل بعض الحكومات العربية مثل سوريا وليبيا .

كان لابى صالح مكتب سياسى معتمد من السوريين فى دمشق ، كما كان له أيضا مركز قيادة عسكرية فى سهل البقاع ، حيث توجد القوات السورية ، كيف يترك دمشق بعلاقاته السياسية الوثيقة التى نسجها مع

السوريين ، كيف يمكن له بسهولة أن يترك مركزا عسكريا مرموقا فى منطقة « تتعلق بها كل الانظار » وهى منطقة سهل البقاع اللبنانى ، حيث القوات السورية ، تربض مع ما تمثله من رموز دولية ، فى مواجهة قوات اسرائيلية مع ماترمز اليه أيضا . بين هؤلاء وأولئك ، توجد قوات أبى موسى وأبى صالح بكل ماترمز اليه من جانب الشعب الفلسطينى وبقية الامة العربية .

لم يكن أمام أبى صالح الا اعلان حالة العصيان بدأ الهجوم أولا ، على التعيينات العسكرية الجديدة ، قالوا لعرفات مصلحة شخصية فى هذه التعيينات ، قيل أن عرفات ، قام بتعيين الاصدقاء وغير الاكفاء ، تطوعت المنشورات فى دمشق باستكمال الصورة ، قيل أن عرفات يستبدل الضباط الذين ينادون بضرورة الحرب كوسيلة وحيدة للتحرير ، بضباط آخرين يريدون الحل السياسى ويفضلونه ، لان عرفات يرغب فى ايجاد مخرج سياسى للقضية ، قيل أيضا أن القرار الذى شمل استبدال ٥٠ من العسكريين بغيرهم فى البقاع ، قد طلب ترك لبنان والسفر الى تونس ليعيشوا هناك .. ومعنى هذا أن الحل السياسى هو المطروح فى المرحلة القادمة .. كلام فيه تحريض للقوات الفلسطينية الموجودة فى البقاع ، خاصة اذا وضعنا فى الاعتبار حق المقاتلين الفلسطينيين الموجودين فى لبنان أن ينظروا الى اخوانهم الذين جرى توزيعهم على الخريطة العربية قبل عام ، لماذا خرجوا ، وماذا يفعلون ، وهل تقدمت القضية باخراجهم ، أم تزايد جمودها ؛ وهكذا يمكن أن نفهم طبيعة المشكلة ، لانه اذا كان من خرجوا من لبنان قبل عام تحت دعاوى كثيرة من دول

كبرى لم يجدوا الا السراب ، فان من حق الموجـــودين حاليا فى البقاع ان ينظروا بريبة لكل من يطالبهم بالخروج .

وبعد أشهر قليلة اضطر عرفات ورجاله لحفر الخنادق حول طرابلس شمالى لبنان ، غير أن مهاجمى عرفات ، كانوا هم أنصار أبى موسى وأبى صـــالح ، الى جـــانب السوريين ، والامريكيين ، والاسرائيليين ، وطالبت كل هذه القوى مجتمعة بخروج عرفات على الفور ، ولم يطلب احد من المتمردين وقائدهم أبى موسى ، أن يخـــرجوا ، ومازالوا هناك غير أنهم يعيشون فى كنف السوريين ..!!!

اخطر مواجهة ساخنة فى العالم

مع بداية ربيع عام ١٩٨٣ ، أصبح سهل البقاع اللبنانى يمثل أخطر مواجهة ساخنة فى العالم ، كانت القوتان الاعظم هناك وجها لوجه ، بالسلاح وآخر ما أنتجه العصر من وسائل التدمير ، لم يكن يفصل بين الجانبين أكثر من عشرين كيلومترا ، كانت أمريكا بأساطيلها فى البحر ، وقواتها فى بيروت ، فى حالة طوارىء ، تقف مع الحليف الاسرائيلى ، فى مواجهة الصواريخ السوفييتية والعسكريين السوفييت ، واكثر من ٤٠ باخرة عسكرية فى عرض المتوسط ، تدعم الموقف السورى ، كانت أعصاب العالم كلها مشدودة ، فى اتجاه سهل البقاع فى لبنان .

نجحت القضية العربية فى الوصول بأزمتها المستعصية الى قمة الخطر العام ، غير انه لسبب ما ، انقلبت المائدة على رءوس العرب .

انتقل الموقف فى سهل البقاع ، من النجاح العربى فى ربط مأساته بمصير العالم ، الى قمة المأساة فى التاريخ العربى الحديث ، تمكنت القوى العظمى من الانسحاب بعيدا عن منابع الخطر ، لتكون المواجهة فى سهل البقاع اللبنانى ، بين أبناء الشعب الفلسطينى نفسه ، أصبحت دماء أكثر شعوب المنطقة تعاسة هى الفدية والضحية .

ماحدث فى البقاع ، صورة اخرى لما حدث فى ايران عندما كانت المواجهة عاتية بين ثورة ملهمة وبين الولايات المتحدة الامريكية ، لكى تتحول المواجهة فيما بعد بين ايران والعراق ، وتمتد بعدها اخطر حرب بين دولتين اسلاميتين عظيمتين ، بينما تستمتع الدولتان الاعظم بكل ما يصيب الشعبين من دمار وخراب ..

ماحدث فى البقاع اللبنانى ، لم يكن اضافة لسوريا . كما انه بالسالب لمجمل القضية العربية ، ماهو الاكثر خطرا جعل المسألة الفلسطينية عند الشـــارع العربى الذى احتضنها منذ البداية ، محل تساؤل لم يحدث من قبل ، اذا كان أمن سوريا يتم بمعزل عن أمن الفلسطينيين فهذا وهم ، كان أول تساؤل عربى عن أمن لبنان هو كيف يتحقق اذا تم بمعزل عن أمن سوريا ، ان اتفاقية شوليتز انتهكت حقوقا سورية لابد من مراجعتها ، القضية التى لم تتحدث عنها سوريا هى احتلال الجولان ، رغم أن وقتها هو الان ، قال الجنرال الاسد انه ينسحب من لبنان اذا انسحبت اسرائيل من هناك ، لكنه لم يذكر قط انســحابا موازيا للقوات الاسرائيلية من هضبة الجولان ، ان أحدا لايستطيع ان يلومه اذا كان قد رفعها فى مواجهة الضغوط التى طالبته بالانسحاب من لبنان ، لكنه لم يقلها ، الحسابات السورية البالغة الذكاء تركت الجولان لجولة اخرى !!

واذا لم تكن منظمـــة تحرير فلسطين القـــوية تشـــكل اضافة للموقف السورى ، كيف يكون الموقف الســـورى فى غياب المنظمة ، أو أن تكون تحت العباءة السورية ، لم تتمكن اسرائيل بمفردها ابعاد عرفات عن بيروت فدخلت الولايات المتحدة الامريكية بضمانات لم يعرف معظمها ،

تدخلت ايضا أطراف عربية كثيرة جعلت من الخـــروج الفلسطيني من بيروت أشبه بالانتصار للمقـــاومة ، تم الاحتفال بعرفات عند سفره الى المغرب لحضور قمة فاس التى أقرت مشروع الملك فهد ، خرج كل الملوك والرؤساء العرب الى المطار لاستقبال ياسر عرفات كان الجنرال الاسد فقط هو الذى رفض مشاركة استقبال عرفات كان حصار عرفات برجاله القليلين ومعداته المحدودة فى بيروت قد أهاجت مشاعر العرب ، خلال حرب لبنان ، ولم يكن الاداء السورى فى لبنان مثار اعجاب أحد .

رفض الاسد مقابلة عرفات فى فاس ، بعد أقل من عام قرر طرده من دمشق . كانت القضـــية الفلسطينية برمتها هى الهدف الاخير لكل أولئك الذين استمتعوا بقرار الرئيس السورى بابعاد عرفات عن سوريا ، أيضا كل وسائل الاعلام العربية رددت مشكورة نفس التعبير ، كتبته فى مانشيتات الصحف مالم يستكمله شارون أنجـــزه أصحاب القضية !!

لن يقول التاريخ أن حافظ أســـد هو الذى شـــق بمفرده المقاومة الفلسطينية ، او هو الذى اعطى للمتمردين كل الامكانيات السورية لنسف المنظمة ، او هو الذى انتقل بسهل البقاع من منطقة موجهة عالمية لم يسبق لها نظير ، الى ساحة اقتتال بين ابناء النكبة . لن يقول التـــاريخ أن حافظ أسد بمفرده يستطيع أن يصنع مأساة بهــذا الحجم ، لامة بهذا الحجم ، سوف تتسع المسئولية لتشمل شعب سوريا الذى سمح بذلك ، سوف تتسع لتشـــمل كافة النظم والحكومات العربية التى ساعدت على الوصول

بالقضية الفلسطينية الى هذا المأزق التاريخى ، ستكون مسئولية الشعب العربى بأكمله شاملة .

ان الحديث عن المتمردين من أمثال أبى موسى وأبى صالح وغيرهما ، والذين تم التوسع فى الكلام عنهم ، ورصد انتصاراتهم أو هزائمهم ومتابعة حصولهم على أراض جديدة من اخوان لهم فى السلاح ، فوق أرض ، لا هى فلسطينية ولا هى سورية ، هذه المتابعات المحمومة من جانب الاعلام العربى ، أصبحت فضيحة عصر بكامله . فضلا عن كونه تقصيرا لاجهزة اعلامية مرموقة تساق فى أنفها الى بحار الانتحار العربى وهى لاتدرى ..

يشعر الامريكيون بارتياح علنى من الموقف السورى البناء ، يقولون انهم يضمنون الان خروج المقاتلين الفلسطينيين من القاع عندما يقتنع الاسد باخراج قواته من نفس المكان ، مايقرره الاسد هو ما سوف ينفذه أبو موسى وأبو صالح وبقية المتمردين لا يملكون وسيلة للرفض اذا أرادوا ، يستطيع الاسد اعادة المحاولة بخلق متمردين آخرين من داخلهم يقاتلوهم ، وتضج وسائل الاعلام العربية مرة أخرى بصورهم وانتصاراتهم وهزائمهم .

وعندما استقبل الرئيس الاسد مستر شوليتز فى دمشق ، محصن هو بالمقاومة فى حسه ، معزز هو بقوات العقيد القذافى أيضا مشمول بكل الرعاية من زعماء المعتدلين العرب الذين تركوا عرفات ضحية اعتداله آملين أن يحرز الجنرال الاسد مالم يتمكنوا هم من تقديمه هدية للامة . لكن شيئا من ذلك لم يقع ، لقد غادر شوليتز دمشق ،

وهو أكثر اقتناعا بأن النظام السورى ، يمكن طرده بالقوة من لبنان اذا لزم الامر ، وهو الامر الذى وقع بالفعل ، بعد أقل من شهرين من زيارة وزير خارجية أمريـــــكا لسوريا ، لقد تعرضت قواعد الصواريخ السورية فى البقاع لمدافع الاسطول السادس الامريكى ، وقنابل الطـــائرات الامريكية والاسرائيلية ، ودفع السوريون والفلسطينيون الثمن باهظا على أرض لبنان ، لقد تم اخراج عرفات للمرة الثانية خلال عام واحد من ارض لبنان ، ويعـــــكف الامريكيون على محاولة اخراج السوريين ايضا .. لعـــل الامل أن تبقى لبنان لشعب لبنان ، فمن يضمن ذلك ...

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم :

راقصــون

بلا حكومة

بقلم : راجى عنايت

رقم الايداع بدار الكتب : ١٦٧٣ ـ ٨٤
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٧٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Al. Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٣٠٠مليم :

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس، العراق١١٠٠ فلس ، السعودية٦ ريالات ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليما ، المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥ ريال يمنى، أديس أبابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٥ر٣فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة، فرانكفورت ٥ر٣ مارك ، فيينا ٣٥ شلنا كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم١٤كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ،لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٤ فلورينات ، عدن ٥٠ بلى



هـذا الـكـتـاب

ان هذا الكتاب ، يقدم ، اجابات عن كل الاسئلة التى دارت فى العقل العربي ، حول غزو لبنان ، كيف وقع ، ولماذا ، ومن اى اتجاه تمكنت اسرائيل ، لاول مرة ، من دخول عاصمة عربية ، وكيف تم طرد الفلسطينيين ، وكيف أصبح اللبنانيون ، لاجئون فى بلدهم • الخ•

لعل ضرورة هذا الكتاب ، هى التى أملت على كاتبه ، اهميـة تواجده أمام القارىء العربي ، لكى يتعرف على الظروف والملابسات التى مهدت لعملية الغزو الاسرائيلى للبنان •

ولمـاذا نجحت عمليـة الغزو ، وما هى الاطراف المحليـة او الدولية ، التى اشتركت ، عن طريق التواطؤ ، او الصمت ، فى تشجيع اسرائيل على دخول دولة عربية ، كدولة احتلال ، فى عصـر انتهت من قاموسه السياسى ، كلمة الاحتلال العسكرى ، لدولة مهما كـانت قوتها ، ضد دولة أخرى ، مهما كان ضعف نسيجها السـياسى ، او قدرتها العسكرية على رد العدوان ••

ان مؤلف هذا الكتاب ، الاستاذ جمال الالفى ، يعرفه القـارىء العربى ، منذ سنوات ، من خلال اسهامه المنتظم ، فى متابعة الاحداث التى طالت العالم العـربى فى السنوات الاخيـرة ، وانعكست على مسيرته الوطنية والقومية ، والاستاذ جمال الالفى هو محرر الشئون العربية فى مجلة المصور ، وخبير شئون الشرق الاوسط ، من خيرة المتخصصين فى المسالة العربيـة ـ الاسرائيلية ، تتسم كتـاباته بالموضوعية ، والدقة ، والامانة التاريخية ، وسوف نكتشف حسه القومى منذ بداية سطور هذا الكتاب ، الذى نرجو ان يكـون بداية لعشرات من الكتب التى تعالج هذا المنحنى الخطير فى العـلاقات العربية ـ الاسرائيلية •

٣٠ قرشـا

كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

راقصون بلا حكومة

راجي عنايت



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٩ - جمادى الثانى ١٤٠٤ - مارس ١٩٨٤

No. 399 — March 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية و ٦٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشــة :
الفنان حلمى التونى

راجى عنايت

راقصون بلا حكومة

دار الهلال

اهداء

الى وزير الثقافة الاسبق دكتـــــور ثروت عكاشة ، الاب الروحى للفرقة القومية للفنون الشعبية .. والذى ــ رغم خلافاتنا أثناء عملى معه ــ مازلت اعتبره صاحب الفضل فى كل ما هو جاد وباقى فى حياتنا الثقافية ..

راجى عنايت

مجتمع بلا حكومة

ما موضوع هذا الكتاب ؟ .. الكتاب يتحدث فى بساطة عن مجتمع بلا حكومة ! .

مجتمع كامل .. حقيقة ، لا يتجاوز فى عدده التسعين شخصا ، لكنه يضم نماذجا تمثل كافة قطاعات وفئات مجتمعنا الكبير ... شباب منطلق .. فتيات صغيرات لا يتجاوزن الخامسة عشر .. رجال كبار قاربوا الستين من عمرهم .. مراهقون تعتمل فى نفوسهم كل رغبات التحدى والتجريب .. رجال أتقياء لا يفوتهم الفرض .. أطباء ، مهندسون ، مدرسون ، موظفون حكوميون .. عمال نجارة وكهرباء .. رجال بسطاء من قنانى الصعيد البعيد .. متزوجون يصطحبون زوجاتهم العاملات بالفرقة ... أزواج بلا زوجات ، وزوجات بلا أزواج .. عزاب ، وأرامل ..

ومنذ اللحظة التى وضع فيها أفراد هذا المجتمع اقدامهم على أرض مطار أنقره ، فى صباح السادس من ابريل عام ١٩٦٨ .. وحتى اللحظة التى صعدوا فيها على سلم الباخرة « الجزائر » فى ميناء دورسى بألبانيا ، فى الثالث عشر من مارس عام ١٩٦٩ ، كان ذلك المجتمع

بلا حكومة .. قطع صلته بكل مايحكم المجتمع من سلطات تنظيم وتشريع ورقابة ومحاسبة وردع .. وأصبح مطلوبا منى أن أحكم هذا المجتمع فى حركته المتواصلة لما يقرب من خمسة أشهر ونصف .

كنت أتصور أن سـفاراتنا فى البلاد التى نزورها ، ستكون عونا أساسيا لى فى هذه المهمة ، الا أن التجربة العملية أثبتت لى عدم جدوى الالتجاء اليها ، كما أكدت ضرورة أن أعتمد على نفسى فى ادارة شئون هذا المجتمع ، بوسائل ابتكرها ابتكارا ، تتيح للقافلة أن تواصل مسيرتها المرسومة ، وأن تفى بالتزاماتها قبل الدول المضيفة ، وأن تشرف البلد الذى خرجت منه ، وسعت من أجـل الدعوة لثقافته وحضارته .

والواقع أن تجربتى هذه كانت قد سبقتها تجربة شبيهة مع مسرح القاهرة للعرائس ، عندما كنت أتولى أدارته ، فى رحلة الى أوروبا زار فيها ثمانى دول على مدى ثلاثة أشهر ، ورغم الفارق الملموس فى عدد أفراد الرحلة ومداها الزمنى ، فقد استطعت أن أستخلص من رحلة مسرح العرائس بعض التجارب التى أفادتنى كثـيرا فى رحلتى هذه ، وخاصة فى تنظيم العمل عن طريق وضع لائحـة خاصة للرحلة قبل أن نتحرك من القاهرة .

عقدت عدة اجتماعات مع أعضاء الفرقة القومية للفنون الشعبية ، وشرحت لهم طبيعة المهمة التى يتصدون لها ، وعرضت عليهم فكرة وضع لائحة تنظم حياتنا اليوميـة ومسئوليات عملنا ، فتمت فى هذه الاجتماعات مناقشة كافة التفاصـيل ، وحرصت على أن أجعلهم يقترحون

بأنفسهم العقوبات المتدرجة على الاخطاء المختلفة ، واسلوب تنفيذ هذه العقوبات ، ابتداء من لفت النظر والانذار ، حتى الحرمان من الاشتراك في اللقاءات الرسمية والعروض الى الخصم من مصروف الجيب الذى نتقاضاه من الدولة المضيفة .

وقد تم توزيع المسئولية على لجان مختلفة ، كما أوكل الى احدى هذه اللجان أمر تسجيل المخالفات ، وتحديد العقوبات ، وفقا للائحة التى وضع أعضاء الفرقة جميعا بنودها .

بهذا ، وبشيء من حسن التصرف فى استخدام الشدة واللين ، امكن لهذا المجتمع أن يواجه مهمته ، فى اطار معقول من الالتزام ، وبلا سلطات خارجية تمنع وتبيح وتجازى وتثيب .

وغنى عن البيان ، أن تطبيق اللائحة التى وضعوها لانفسهم ، لم يكن يتم فى ظل الاستجابة الكاملة والرضا التام فى كل الاحوال ، فالموافقة على اللائحة المكتوبة شيء ، وتحمل ماتقضى به شيء آخر .. الا أن مراعاة الدقة والعدالة التامة فى تطبيق هذه اللائحة الخاصة المبتكرة ، قد اكسبها قوة تفوق قوة القانون ، وجعلها نافذة بلا حاجة الى سلطة قسر تلزم الافراد بقبولها ... وفى كثير من الاحيان ، وعندما تقتضى الظروف ، وتسمح الامكانيات ، كنا نعقد ما يشبه الجمعية العمومية ، نتدارس أحوالنا ، ونناقش أمورنا ونبتكر الاساليب التى من شأنها أن تسهل عملنا ، وتشيع روح التآلف ، والاحساس بالعدالة بين الجميع .

الغربة المركبة :

الا أن المجتمع الذى بلا حكومة ، ليس هو فقط موضوع هذا الكتاب ..

هناك أيضا الغربة المركبة التى عاشها أفراد هذا المجتمع على مدى خمسة أشهر ونصف .

وتعبير « الغربة المركبة » ، هو خير ماينطبق على حالنا طوال ذلك الزمن .

فأنت ، عندما تسافر الى بلد ما ، لفترة محدودة .. تشعر بالغربة ، ولكنك على مر الايام ، وكنوع من الدفاع عن النفس فى مواجهة هذا الشعور بالغربة ، تبدأ فى الاحساس بالالفة نحو عناصر حياتك الجديدة ، السرير الذى تنام عليه ، الحجرة التى تعيش فيها ، الشارع الذى تسير فيه ، البشر الذين تحتك بهم ... وانت تستعيض بهذه الالفة بعض الشيء عن شعور الالفة الذى تستمتع به فى بيتك وبين أهلك ... وكلما طالت فترة اقامتك فى المكان الذى انتقلت اليه ، تدعمت الفتك نحوه ، حتى تقترب من الفتك بحياتك الاولى فى بلدك .

أما فى حالتنا هذه ، فقد كان علينا ، وفقا لبرامج العمل الموضوعة لنا ، الا نمكث فى مدينة واحدة أكثر من ثلاثة ايام متواصلة فى اغلب الاحيان .

١٥٩ يوما بالتحديد زرنا فيها حوالى ٦٠ مدينة ... معنى هذا أن اقامتنا فى كل مدينة ، فى المتوسط ، بلغت يومين ونصف يوم ... مانكاد نصل الى مدينة ونتعرف على بعض معالمها ، حتى ننتقل الى المدينة التالية ..

السرير الذى تنام عليه يتغير كل يومين .. المطعم الذى تأكل فيه لا تزوره أكثر من ثمانى مرات .. المسرح الذى تعمل عليه لا تقدم من فوق خشبته أكثر من عرضين .. كل شيء يتغير ، المبانى ، الشوارع ، الناس ، وأيضا اللغة .. مؤامرة محكمة على شعورك بالالفة . المدن تتوالى متلاحقة ، وكذلك الدول .. تركيا ، بلغاريا ، رومانيا ، الاتحاد السوفييتى ، بولندا ، ألمانيا الديموقراطية ، تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، يوغوسلافيا ، ألبانيا .. لغات مختلفة ، عملات مختلفة ، طبيعة جغرافية متباينة . طقس متغير ، عادات متناقضة ... بشر جدد فى كل مرة .

ولو ان هذه الرحلة يقوم بها فرد واحد ، ربما كانت قد ابتلعته هذه الدوامة ، وأفقدته حتى القدرة على الاحساس بالغربة .. الا أن وجودنا كمجتمع يتكون من تسعين مصريا .. لهم ارتباطاتهم السابقة على الرحلة ، كان سببا فى مزيد من احساسنا بهذه الغربة المركبة .

ماذا فعلنا فى مواجهتها ؟..

الشيء الوحيد الذى ساعدنا على تحمل هذه الغربة ، هو برنامج العمل المتصل الذى لا يتوقف .. سفر .. تدريبات .. عروض .. ثم سفر من جديد .

ثم آلاف الجماهير التى كانت تتجمع فى صالات العرض بالمسارح التى عملنا عليها ، وعواصف التصفيق التى كانت تعقب كل عرض .. وكلمات الاعجاب والتقدير التى نتلقاها من المختصين ، ونقرأها على صفحات الجرائد والمجلات ، ونسمعها فى برامج الاذاعة والتليفزيون ...

احساسنا الدائم بأن نجاحنا هو نجاح لمصر .. كل ذلك ، كان زادا لنا يعيننا على تحمل الغربة المركبة .

أما الخطابات القادمة من مصر ، فقد كانت لها قصة أخرى ..

كنا نتسلم هذه الخطابات ، اما من سفارة الدولة التى نصلها ، أو من مندوب التبادل الثقافى القادم من مصر .. وكنت قد وزعت على الاعضاء جدولا زمنيا بتحركاتنا ، بحيث يرسل الاهل خطاباتهم على سفاراتنا فى الدول المختلفة ، وقبل وصولنا اليها . وكانت مناسبة تسليم الخطابات من المناسبات الحرجة دائما .. وخاصة بالنسبة للفتيات اللائى لم يكن بمقدورهن الالتزام بالتحفظ والتماسك الذى يبديه الرجال . ما أكاد أنتهى من توزيع الخطابات ، وقبل أن أنصرف لاقرأ خطاباتى ، يرتفع النحيب .. هذه لم يصلها خطاب من أهلها ... وتلك وصلها خطاب يحمل أخبارا لا تطمئن .. وثالثة وصلها أكثر من خطاب كلها أخبار طيبة ، أثارت حنينها للاهل والاقارب .. كان وصول الخطابات مناسبة للبكاء الجماعى أيا كان عددها أو الاخبار التى تحملها .

من اجل ان تتكرر :

الى جانب هذا المجتمع الذى بلا حكومة ، وغربته المركبة ، دفعنى الى كتابة هذا ، رغبة شديدة فى تسجيل ذلك الجهد المشرف الذى بذلته مجموعة من المواطنين ، على مدى الايام والاسابيع والاشهر ،

واستطاعوا بهذا الجهد أن يؤدوا خدمة جليلة لبلادهم .. استطاعوا أن يجعلوا اسم مصر يتردد على أفواه ، لم تكن لتردده لولا زيارتهم .. استطاعوا أن يؤكـدوا لجمـاهير الشعوب التى عملوا أمامها ، المستوى الثقافى والحضارى الذى حققته بلادنا ... بعروضهم الفنية .. بأحـاديثهم الشخصية .. بلقاءاتهم الخاصة .. وتحملوا فى سـبيل ذلك الكثير من العناء ، وقطعـوا عشرات الآلاف مـن الكيلومترات ، وسط أقسى الظروف الجوية .. عملوا ، ومرضوا ، وقاموا من جديد ليواصلوا عملهم .. وظلوا حتى آخر يوم من أيام رحلتهم ، غاية فى الحـرص على مستوى عملهم الفنى ، والغيرة عليه .

ومن أجل أن تتكرر هذه التجربة ، وأن نخرج منهـا بخبرات مستفادة ، اكتب عنها ، مؤكدا ضرورة الالتفات الى الفائدة العظمى من مثل هذا النشاط ، فى تحقيق تواجدنا الايجابى فى جميع أنحاء العالم . ومازلت أذكـر ما قاله لى سفيرنا فى تركيا بعد أن انتهت جولتنـا بها « صدقنى ، ان الاثر الذى تركتموه على الشعب التركى ، ليتجاوز كل مافعلته سفارتنا طوال السنوات الماضية » .

فنادق .. فنادق!

ملل من اللعبة الطريفة :

فى البداية بدت المسألة وكأنها لعبة طريفة مسلية .. ما أن تعلن أرقام الحجرات حتى يندفع كل واحد ليخطف مفتاح حجرته ، ويسارع اليها فى تلهف قريب من لهفة هواة « حظك اليوم » فى الجرائد اليومية .. كيف يبدو شكل الحجرة ؟... السرير ، الدولاب ، نوع الاضاءة ، الحمام ، البانيو .

وسرعان ماتصل الحقائب الى الحجرة ، وتبدأ هواية ممتعة أخرى ، كيف تنتقل محتويات الحقيبة الى الدولاب والادراج ، ماذا يوضع فى الحمام ، وماذا يوضع عند المرآة ، هل تكفى الشماعات الموجودة فى الدولاب ، أم يحسن البحث عن المزيد ؟.

وبعد يومين أو ثلاثة ، تبدأ الرحلة العكسية .. كيف تدخل هذه الاشياء جميعا الى الحقائب التى خرجت منها ؟.. شكل جديد من اشكال التحدى ، يبدو ممتعا ومثيرا للمواجهة النشيطة .

هكذا كان الحال فى بداية الامر ...

وتتغير المدينة .. فيتغير الفندق ، وتتكرر من جديد عمليات الفضول والاستطلاع ثم مواجهة التحديات الصغيرة .. مدينة وراء مدينة ، وفندق فى عقب فندق بشكل متلاحق ، منتظم فى تلاحقه ، أربعة أيام على الاكثر لتبدأ الرحلة الى فندق جديد .

يخفت الفضول .. ويهبط حب الاستطلاع .. وتفتر التحديات .. ويحل محل هذا جميعا ، نوع من السأم .. والاستسلام القدرى يحيل المسألة بأكملها الى روتين بغيض .

وتبدأ المشكلة .. لاى سبب .. وحتى بدون سبب .

قبل أن تبدأ الرحلة ، كنا قد عقدنا عدة اجتماعات ، فى محاولة للاتفاق على سير حياتنا خلال الرحلة .. وفى هذه الاجتماعات تم وضع كشوف لترتيب أعضاء الفرقة فى الحجرات ، مع التباديل اللازمة ، سواء كانت حجرات الفندق مفردة ، أم لشخصين ، أم لثلاثة..وحتى لاربعة، حتى نحتاط لكافة الاحتمالات . وتم اختيار مسئول عن هذه المهمة ، يتسلم من ادارة الفندق بمجرد الوصول أرقام الحجرات وبياناتها ، ويوزع الاعضاء عليها مستعينا بالكشوف السابق اعدادها .

فى بداية الامر .. نجح المسئول فى مهمته ، ولكن مع التغيير المستمر وبعد أن فقدت العملية جدتها وطرافتها ... بدأت المشاكل .

جميل لا يطيق الاقامة مع بهى فى غرفة واحدة ، خلاف صغير بين سوسن وسعاد جعل من المستحيل وضعهما فى مكان واحد .. وحالة وراء الاخرى ، أصبحت الكشوف

القديمة غير ذات موضوع ، وأصبح علينا أن نعد كشوفا جديدة من واقع الحالة النفسية الجديدة لاعضاء الفرقة .

ثم جدت مسألة اخرى ..

عدد أفراد الفرقة يصل الى تسعين شخصا ، والفنادق عادة غير مستعدة لتقديم نفس الخدمات لهذا العدد الضخم ، خاصة فى المدن الصغيرة ، وكنا نضطر الى توزيع أعضاء الفرقة على فندقين أو ثلاثة . ثم ، مسألة الحمام .. بعض الحجرات بها حمام ، وبعضها الآخر يفترض فيه الاعتماد على حمام عام لخدمة عدد من الحجرات . ثم مسألة الادوار ، بعض الفنادق بلا مصاعد وبعضها تصل طوابقه الى أربعة طوابق .. وتبدأ من هنا التفرقة ، من الذى سيسكن فى الطابق الاول ، ومن الذى سيلزمه التوزيع بالصعود الى الطابق الرابع . ثم اتساع الحجرات ، بعضها لفرد واحد ، ويستوعب بعضها أربعة أشخاص .. وكانت ادارة الفندق فى بعض الاحيان تواجه العدد الضخم باضافة سرير من النوع السفرى الى الحجرة ، وتبدأ المشاكل حول من الذى سيكون من نصيبه السرير الاضافى .

بدأ السأم من الفنادق .. وهبط الحماس لحياة الفندق .. وظهرت المشاكل تباعا .. بعضها حقيقى وبعضها مفتعل .

وكان من الضرورى مواجهة هذا الوضع بشىء من التنظيم المقنع ، فعملية الانتقال من مدينة الى أخرى ، ومن فندق الى آخر ، كانت تتم كل يومين أو ثلاثة أيام ، وكان وصولنا الى الفندق بحقائبنا يسبب ازدحاما

شديدا ، تضاعف من وقعه على نزلاء الفنـــدق طبقـــة صوتنا العادية فى الحديث .. هذه الطبقة التى لم تتعود عليها الاذن الاوربية . فيبدو وصولنا الى أى فنـــدق وكأنه نوع من الغزو .. وثمة معركة على وشـــك أن تلتهب !!

عقدت اجتماعا مع قيادات الفرقة ، وتم وضع نظـام دورى يعـوض كل فرد عن فرصته الضائعة .. الذى بلا حمام فى هذا الفندق ، يكون من حقه أن يحصـل على حجرة بحمام فى الفندق الذى يليه .. وهكذا بالنسـبة لباقى الميزات . كما أعيدت كشوف نزول الاعضـاء فى الحجرات المشتركة ، وفقا للعـلاقات الشخصية التى استقرت بعد زمن من الرحلة ، مع التنبيه بأن أى تغيير يطرأ على هذا الوضـع يجب الاعلان عنه فى موعـد سابق ! !

حقائب على الرصيف الالبانى :

وما أن انتهينا من وضع ترتيب الحجرات بالفنادق ، حتى ظهرت مشكلة جديدة ، الحقائب .. !

حقائب ٩٠ شخصا فى رحلة تستمر ستة أشـهر ، فى حد ذاتها ، لا يستهان بعددها ، وبالحيز الذى تشغله، فاذا علمنا أن الفرقة زارت عشر دول ، وأن أعضاء الفـرقة كانوا يعمدون الى شراء حقيبة جديدة كل دولتين أو ثلاث دول على الاكثر ، ظهر حجم المشكلة .

العضـو يتقـاضى مصروف جيب يومى يتراوح بين

مايساوى جنيها استرلينيا وجنيهين .. ومصروف الجيب هذا ينصرف بكامله الى المشتروات الشخصيه ، فالدولة المضيفة توفر الاقامة الكاملة والمواصلات والعلاج . وفيما عدا نفقات التدخين للمدخنين ، لم يكن هناك من سبيل لانفاق هذا المبلغ سوى فى المشتروات .. فاذا أضفنا الى هذا أن عملة كل دولة اشتراكيه لا يمكن انفاقها فى دوله أخرى ، نفهم كيف كانت مهمة المشتروات واجبا منتظما وعاجلا قبل مغادرة دولة الى دولة أخرى .. وتزايد المشتروات يعنى تزايد الحقائب .وتبدأ مشكلة جديدة .

ثبت أن عدد الحقائب المتزايد لا يمكن أن يسمح للاعضاء باصطحابها فى الاتوبيس ، ولابد من توفير عربات نقل خاصة بالحقائب ، بدأت بعربة نقل واحدة فى بلغاريا وانتهت الى ثلاث عربات فى البانيا .. ولما كانت عربات النقل لا تسير بسرعة الاتوبيس أو القطار الذى ينقل الاعضاء ، فقد كان هذا التباعد بينهم وبين حقائبهم محلا للقلق .. بدأ قلقا مكبوتا لا يكشف عن نفسه ، حتى ضاعت أول حقيبة ..!

على الحدود الرومانية السوفييتية ، وفى مدينة أونجين واثناء نقل الحقائب الى القطار المتجه الى موسكو ، فقد الراقص شوقى نعيم حقيبة ملابس كبيرة ، كانت بها بعض ملابسه الشخصية ، الى جانب بعض المشتروات .

وابتداء من موسكو ، أصبحت مشكلة الحقائب تشكل عنصرا دائما للقلق ، لم يكتب له أن يتبدد الا بعد مغادرتنا لجمرك الاسكندرية .

كنت أقف فى كل مرة يتم فيها تسليم الحقائب ، واضعا

يدى على قلبى ، منتظرا أول الصرخات ، سعاد تصيح « الشنطة السودة ما وصلتش ! » ، ثم تكتشف أنها وضعت فى غرفة أخرى بالخطا ، زغلول يكاد يبكى وهو يفتقد الخلاط الذى اشتراه من رومانيا .. المعلم عباس عازف المزمار يسعى مهرولا بين الحقائب التى تشغل عادة مدخل الفندق وصالونه ، باحثا عن حقيبته الناقصة ، وهو يتمتم ببعض الشتائم الصعيدية المدغمة ، مريم تبكى وقد اكتشفت أن مقبض حقيبتها الكبيرة قد انترع من مكانه ، وجيلان قد قطبت جبينها وركبها هم الدنيا ، فالحبل الذى ربطت به الحقيبة فى بولندا بعد أن تحطمت أقفالها ، ذلك الحبل قد تفكك ، وبرزت بعض محتويات الحقيبة ، مما يحتمل معه ضياع بعض محتوياتها .

مشهد متكرر .. يتصاعد انعكاسه على أعضاء الفرقة كلما مرت الايام ، وبدأت الغربة المركبة التى يعيشها هذا المجتمع الصغير تؤثر على أفراده .

بعد انقضاء ثلث الرحلة اكتشفت أن مشكلة الحقائب تحتاج الى حل حاسم .. خاصة أن تنقلاتنا داخل كل دولة كانت كثيرة ومتلاحقة .. ابتداء من بولندا أضفت الى قائمة المفاوضات مع المسئولين ، موضوع تخزين الحقائب التى لا يحتاجها الاعضاء فى حياتهم اليومية فى مكان ما ، حتى وقت الانتقال الى دولة تالية ، بحيث لا يسمح للعضو باصطحاب أكثر من حقيبة واحدة فى تنقله بين المدن المختلفة للدولة الواحدة .

واسترحنا بعض الشىء ..

لكن الحقائب ومشاكلها ، فرضت نفسها علينا مرة ثانية بشكل مضحك فى نهاية رحلتنا .

كان المفروض أن تمتد رحلتنا بعد البانيا الى اليونان ، ثم نسافر بحرا من بيريه الى الاسكندرية .. الا أن تعثر الاتفاق مع اليونان أدى الى الغاء زيارتنا ، وبقيت مشكلة تدبير وسيلة السفر من ألبانيا .. بواخرنا لا تمر على الميناء الالباني « دورسى » .. وهناك شبه استحالة في استعمال الطائرة نتيجة للوزن الخرافى للحقائب التي معنا. وكانت هذه المشكلة تؤرقني في الاسابيع الاخيرة من الرحلة حتى وصلتني برقية من القاهرة ، تفيد انه قد تم الاتفاق مع الباخرة الجزائر على تغيير خط سيرها ، بحيث تمر وهي قادمة من فنيسيا على ميناء دورسى لتنقلنا الى الاسكندرية .

حن اليوم الموعود .. يوم السفر الى الاسكندرية ، وكدت أن أتنفس الصعداء وأعتبر أن مسئوليتي عن هذا المجتمع الصغير الغريب قد انتهت ، الى أن وصلت مع أعضاء الفرقة الى رصيف الميناء لاجد منظرا عجيبا ...

الباخرة « الجزائر » راسية على الرصيف ، والرصيف بأكمله تغطيه على مدى البصر حقائب الفرقة .. ومجموعة من الحمالين تقوم بجهد يائس لنقل هذه الحقائب الى الباخرة .

أبديت مخاوفي للمرافق الالباني الذي كان معنا ، فراح يطمئنني ، قائلا أنهم قد استدعوا فرقة اضافية من الحمالين للمساعدة .. وطلب من أعضاء الفرقة ان ينتقلوا الى داخل الباخرة ، لاتمام الاجراءات ، وستلحق حقائبهم بهم . ورغم معرفتي بوقع مثل هذا الطلب عليهم ، وهم يرون حصيلة مشترواتهم في ستة أشهر منثورة على

اتساع رصيف الميناء ، فقد أقنعتهم ، تارة باللين وتارة بالشدة حتى بدأ انتقالهم الى داخل الباخرة .

لكن الوقت أخذ يمضي ولم تنكشف من أرض الرصيف سوى رقعة صغيرة رفعت من فوقها الحقائب .. وأخذ الكابتن معين قبطان الباخرة يذيع نداءاته طالبا الاسراع بالانتقال الى داخل الباخرة حتى يمكنها أن تتحرك . وبقى الموقف على الرصيف كما هو ، فيما عدا مساحات بسيطة من أرض الرصيف بدأت تنكشف ، ذلك على الرغم من مجهودات الحمالين التى لم تتوقف .

وفجأة ، أصدر القبطان انذاره الاخير ، بل واذاعه فى المكبرات باللغة العربية ... الباخرة يجب أن تتحرك من الرصيف بعد ثلث ساعة على الاكثر ، يجب نقل الحقائب الى الداخل والا ستضطر الباخرة الى تركها على الرصيف ..!

القى القبطان معين بقنبلته هذه ، التى أعرف تماما وقعها على أعضاء الفرقة ، فأسرعت اليه أستوضحه حقيقة الموقف ، أخبرنى أنه يعنى ما قاله ، فايجار الرصيف سوف يتضاعف لو بقيت الباخرة دقيقة واحدة اكثر من العشرين دقيقة الباقية .

هنا ، ادركت انه لا مجال للانتظار .. هبطت الى الرصيف واستدعيت شباب الفرقة ، وجعلت منهم طابورا يتشعب عند مدخل الباخرة الى أكثر من شعبة تتخلل أكوام الحقائب المرصوصة على الرصيف .. وبدأت عملية جماعية لادخال الحقائب الى الباخرة . ورغم العصبية والقلق ، فقد بدا المشهد مضحكا للغاية .. أشبه بفيلم

السينما عندما يدور بسرعة مضاعفة ، تماما مثلما ترفع سدادة الحوض المليء بالماء ، فيتدفق فى دوامة نشيطة .. أرض الرصيف تتكشف بسرعة متزايدة ، والحقـائب تتحرك كطابور النمل الى مدخل الباخرة حيث تتراكـم فتحتل المدخل ثم تتسرب الى المطعم المجاور فتملأ فراغه تماما ... وفى ظرف ربع ساعة ، انطلقت صفارة الباخرة ثم بدأت حركتها ، وقد ارتمى أعضاء الفرقة فى اعياء ظاهر على أرضها ، وعيونهم معلقة بجبل الحقائب الذى يشغل الفراغ من حولهم .

جناح الملوك فى لينينجراد :

الا أن عالم الفنادق فى رحلتنا لم يكن دائما مصـدرا للمشاكل .. ففى ذلك العالم قضينا لحظات سعيدة بعد انتهاء تدريبات الفرقة أو حفلاتها ، وكان عددنا الضـخم يطبع الفندق دائما بطابعنا ، فيحقق لنا نوعا من الالفة .

فى لينينجراد سأل مدير الفندق عن مدير الفرقة عند وصولنا ، فذهبت اليه ليسلمنى مفتاح حجرتى مرحبا ، صعدت لانتظر حقائبى وأستريح من عناء رحلة موسكو ـ لينينجراد ، فتحت باب الحجـرة فاكتشفت أننى عند مدخل جناح ضخم مخصص لاقامتى .. مدخل كبـير بمرآة ضخمة فاخرة وشماعة من الموبيليا ذات الطـراز العتيق ، يقود الى صالون ضخم لا تقل مساحته عن مائة متر مربع ، تتوسطه مائدة كبيرة من الرخام والبرونز ، وتشغل كل ركن من أركانه « فازة » من البورسلين الفاخر

يزيد ارتفاعها عن متر ونصف ، والمرايا الضخمة تشغل ثلاثة حوائط محاطة بزخارف ذهبية معقدة ، وفى فراغ الصالون تتوزع الارائك والمقاعد الضخمة المذهبة ذات الطراز الاصيل ، وفى ركن من الصالون بيانو « لارج » من النوع الذى نراه فى الحفلات الموسيقية السيمفونية .

يقود هذا الصالون يسارا الى حجرة مكتب واسعة ؛ تتسلق حوائطها النباتات الجميلة ، ويحتل ركن منها جهاز تليفزيون كبير ، ويقود الصالون يمينا الى حجرة نوم واسعة تشغلها قطعا كبيرة من الاثاث التقليدى الفخم .

احسست بالرهبة ، وأنا أنقل خطاى بين أرجاء هذا القصر الصغير !!

ويبدو ان حجرات الفندق الاخرى ، رغم تباين مستواها ، كانت مصدر راحة للجميع ، فلم تصلنى الشكاوى التقليدية التى تظهر بمجرد صعود كل عضو الى حجرته .. بل لقد حضر البعض سعيدا الى حجرتى ليحكى عن فخامة حجرته ، فتتوقف الكلمات على لسانه عندما يدخل الى الجناح الذى أقيم فيه ، وفوجئت بأغلب أعضاء الفرقة يتوافدون على الصالون الكبير ، يعيثون فى أرجاء المكان ، يستعرضون ويتناقشون ويعاينون. واستقر رأى الجميع على ضرورة الاستفادة من هذه الامكانية الخرافية ومن البيانو الكبير فى اقامة حفل خاص لاعضاء الفرقة .. وبعد البحث فى كشف جوازات السفر الذى يتضمن تواريخ الميلاد ، اكتشفوا أن عيد ميلاد دينيس يحل بعد يومين .

رغم ترحيبى بالقرار ، الا اننى ظللت طوال ذلك الحفل فى حالة من التوتر خوفا من أن تصاب احدى التحف الثمينة التى يزخر بها المكان .. واستطاعت الروح الطيبة التى سادت ذلك الحفل أن تبدد توترى فى النهاية ، واستمتع بالعزف المنفرد على البيانو من جيلان ، وفاصل الاغانى الذى قدمته هيام .. ثم فقرات التمثيل الصامت والفكاهات التى اختتم بها الحفل ، لقد كنت حريصا اشد الحرص على هذه اللقاءات بعيدا عن التزامات العمل ومشاكله ، فقد كانت وسيلة فعالة فى تماسك ذلك المجتمع الصغير ، وتفريغ قلقه وسأمه ، وتبديد مضاعفات الاجهاد التى يتعرض لها .

كمين لغسيل المدير !

لما كانت اقامتنا فى كل فندق لم تتجاوز الثلاثة أيام ، فقد ظهرت مشكلة الغسيل .. الفنادق التى اقمنا بها لا تستطيع انجاز الغسيل والكى فى هذه الفترة القصيرة ، وكان على كل واحد منا أن يعتمد على نفسه فى هذه المهمة انتظارا للاستثناء الذى يسمح لنا بالاقامة لفترة أطول تمكننا من أن نعتمد على الفندق فى هذه المهمة . وكنت من واقع خبراتى السابقة قد نصحت الفرقة ، فى مواجهة هذه المشكلة ، بالاعتماد على الملابس النايلون التى تغسل بسهولة ولا تحتاج الى كى ، فاستجاب اغلب الاعضاء لهذه النصيحة ، وكانت مباريات الغسيل تعقد كل مساء ،

وان تكررت شكاوى بعض كبار السن من أعضاء الفرقة الموسيقية ، مما يتركه الغسيل على أيديهم من آثار .

وقد بدأ بعض شباب الفرقة بالاعتماد على زميلاتهم في القيام نيابة عنهم بهذه المهمة ، الا أنه مع مرور الزمن ، شاعت حركة تمرد بين البنات ، اضطر الشباب على أثرها الى الاعتماد على أنفسهم . كان الجميع يعتمد على جهاز التدفئة المركزى فى تجفيف الملابس ، ونظرا لان سخونة هذه الاجهزة كانت تتفاوت من فندق لآخر ، فقد راح الكثير من الملابس ضحية للسخونة الزائدة ، وكم من مرة هبطت الفتيات الى المطعم صباحا ، ودموعا مبكرة تترقرق فى عيونهن ، وآيات الاسى تعكسها وجوههن ، بعد أن ذابت الجوارب النايلون على مواسير أجهزة التدفئة .

وفى بعض الدول كان المرافق يخطرنى بأن غسيل الملابس وكيها سيكون ضمن مصاريف الاقامة ، وانه مسموح للاعضاء بتقديم كافة مايحتاجون الى غسله الى ادارة الفندق . وجدت يوما أن اقامتنا فى أحد الفنادق ستمتد الى خمسة أيام ، فأبلغت الاعضاء بهذا التسهيل الذى يعرضه الفندق . وفوجئت ادارة الفندق بأكوام الملابس التى تدفقت عليهم ، مما فاق تصورهم وقدرتهم ، وكان أن تسلمنا آخر دفعة من الغسيل ونحن داخل الاتوبيسات التى سنسافر بها الى المدينة التالية . هذه التجربة جعلتنى حريصا كل الحرص فى اعلان مثل هذه الرخصة ، كلما أخطرت بها من قبل المسئولين ، حتى لا تتكرر عملية طرد المخزون من الملابس ، بمثل ماحدث فى المرة الاولى .

حدث فى بودابست أن نزلت فى حجرة يشترك حمامها مع حجرة أخرى تنزل بها بعض فتيات الفرقة ، وكنت اضطر الى السهر حتى تنتهين من استخدام الحمام ، ثم تهدأ حركتهن ويخفت صياحهن ، فأتسلل الى الحمام حاملا الملابس التى أنوى غسلها ، وهى فى أغلب الاحيان قمصان نايلون ومناديل وجوارب .

وذات صباح على مائدة الافطار ، فوجئت بالهمسات والضحكات المكتومة ، وأخذت أستفسر عن سر هـــذه الهمسات دون أن أتلقى ايضاحا ، واخيرا وقفت ماجدة نعيم بشجاعة لتقول وهى تكتم ضحكاتها « بصراحـــة يا جماعة .. الاستاذ راجى لازم ياخد جايزة الغسيل .. ده عليه « نترة » قميص ، ما تعرفش واحدة منئـــا تعملها ! » ، وانفجرت صالة المطعم فى ضحكة واحدة ، واخذت ثريا جورج التى تقيم مـــع ماجدة فى الحجرة المجاورة لى ، تحكى كيف انهن بعد أن دخلن الى حجرتهن واطفأن الانوار ، أخذن يتابعن أصوات دخولى الحمـــام وانهماكى فى الغسيل ، بكل مافيه من تفاصيل ، وهن يتبادلن التعليقات الهامسة على « الشمللة » والجـــدية التى أمارس بها عملى الليلى !

احتفال بالبطولة المزدوجة .

فى نفس الفندق بالمجر جرت واقعة مضحكة علمت بها بعد أن غادرنا المجر الى يوغوسلافيا . كانت حجرة بعض شباب الفرقة تطل على مايشبه المنور الذى يقيم على

الجانب الآخر منه مجموعة أخرى من الشباب ، وفي احدى الليالي أخذت المجموعتان تتبادلان الحديث من خلال المنور ، عندما أضيئت حجرة في طابق سفلي ، وظهر فيها رجل مع فتاتين ، يبدو من شكله أنه سائح قادم الى بودابست . بدأ الرجل مداعباته مع الفتاتين فلفت نظر شباب الفرقة ، وبدأت تعليقاتهم التي أثارت فضول المجموعة الاخرى فانتقلت الى الحجرة التي تسمح بالمتابعة .. وارتفعت حرارة المداعبات ، والسائح مصر على القيام بها على مشهد من جمهور المتفرجين .. لفتوا نظره بتكدسهم على النوافذ وتصايحهم ، فكانت استجابته ابتسامة تحية واشارة ، ثم انصراف كامل الى مداعباته التي بلغت مداها مع الفتاتين ، دون خجل ، أو حتى محاولة اسدال ستائر الحجرة .

عندما بدأ في ارتداء ملابسه ، تمهيدا للخروج مع الفتاتين ، سارع الشباب بالهبوط الى الدور الذي يقيم فيه ، واصطفوا على جانبي الطرقة التي لابد سيمر منها في طريقه الى المصعد ، يحيون بطولته المزدوجة ، وما أن ظهر مختالا بين فتاتيه حتى التهبت أكف الشباب بالتصفيق ، فمر بينهم ضاحكا سعيدا بحفل التكريم ، ومضى في طريقه رافع الرأس فخورا بنظرات الشباب المبهورة .

سلاح التليفونات .. وعفريت على البلطيقي !

كانت عودتنا الى الفندق مساء في أغلب الاحيان لا تتجاوز العاشرة والنصف ، ذلك لان الحفلات المسرحية

فى أوروبا تبدأ فى السابعة أو السابعة والنصف على الاكثر وكنت أحرص ـ بلا تضييق ملحوظ ـ على أن يتجمع أعضاء الفرقة بالفندق بعد العشاء ، توقيا لمشاكل الاحتكاك ، وعدم القدرة على التفاهم .. الى آخر هذه الاعتبارات . وفيما عدا الايام التى كنا نقيم فيها حفلاتنا الخاصة فى مطعم الفندق ، كان الجميع ينصرفون الى حجراتهم عقب العشاء ... ويبدأ نشاط « سلاح التليفونات » .

وقد اطلق هذا الاسم على مجموعة من الشباب ، فتيان وفتيات ، تخصصوا فى المعاكسات التليفونية داخل الفندق كوسيلة من وسائل شغل الفراغ .. وهو نوع كسول من أنواع شغل الفراغ ، يتفق تماما وحالتهم الجسمانية بعد التدريب أو العرض المسرحى .. اذ يكفى أن يستلقى الواحد منهم على سريره ، ويوسد الى جانبه جهاز التليفون ، ليبدأ نشاطه المسائى .

وكان مفعول هذا السلاح يتجاوز فى كثير من الاحيان الشباب ، ليصيب شيوخ الفرقة من أعضاء الفرقة الموسيقية . وكم من المقالب الساخنة تم تدبيرها وكانت وسيلتها جهاز التليفون بالحجرة . وكم من شكاوى تلقيتها صباحا على مائدة الافطار من هذه المقالب ، مما جعلنى أهدد بأن أطلب من ادارة الفندق الامتناع عن التوصيل ، رغم مافى هذا من مجازفة ، فالتليفون فى كل حجرة هو الوسيلة العاجلة للاخطار عن حالات المرض المفاجىء ، وما كان أكثرها .. الا أن التهديد كان يفقد

مفعوله فى الفنادق التى تزود حجراتها بتليفون آلى ، يتصل مباشرة بالحجرات .

كنا قد وصلنا الى جديانسك على شاطىء البحر البلطيقى فى بولندا ، وكانت ليلتنا الاولى بها . فى شهر نوفمبر .. بل النصف الاخير منه .. هناك فى أعلى أوروبا على البحر البلطيقى ، والجليد يغطى كل شىء ، وبرد الرحلة من الحدود السوفييتية الى الميناء البولندى يتسلل الى عظامنا ، وكنت قد انتهيت لتوى من اجراءات تسكين الاعضاء فى حجراتهم ، كما انتهيت من دراسة برنامج العمل والزيارات فى بولندا والمدن التى سنعمل بها مع السيدة مندوبة وزارة الثقافة التى رافقتنا من الحدود

... تناولنا العشاء ، وأسرعت الى حجرتى ، وبدون ان اخرج ملابسى من الحقيبة اكتفيت بسحب «البيجامة» والاسراع الى السرير .. وعلى الفور استغرقت فى نوم عميق .

فى حوالى الثالثة صباحا ، ارتفع رنين التليفون فى حجرتى عاليا ، وخيل الى فى تلك اللحظة ان أصوات عشرات اجراس التليفونات قد استجمعت طاقتها لتحل فى التليفون الملاصق لسريرى :

ــ آلو .. « قلتها خافتة مغيظة » .

ــ الحقنا يا أستاذ راجى ، فيه واحد من الفرقة بينازع فى الاودة اللى جنبنا ..

ــ ازاى ..؟ « كسولة مستنكرة » .

ــ انين متواصل مش عارفين مصدره .. وكل الاوض اللى جنبنا سامعاه .. !!

سألتهم اذا ما كانوا قد اخطروا السيدة المشرفة على الطابق ، فقالوا انها معهم الآن وانها فى حالة انزعاج شديد ، ولا تعرف كيف تتصرف . . أحسست من صدق انفعالهم أن المسألة لا تدخل فى نطاق نشاط « سلاح التليفونات » ، فانتزعت نفسى من السرير انتزاعا . ووضعت غطاء الرأس الروسى على رأسى ، وتدثرت بالمعطف الثقيل ، ورحت أدب فى طرقات الفندق الباردة حتى وصلت الى الحجرة مصدر الشكوى . . وجدت مجموعة من فتيان الفرقة وفتياتها يحيطون بالسيدة البولندية المسئولة عن الطابق ، والجميع فى حيرة كاملة ، فقد مروا على كافة الحجرات التى فى الطرقتين العلوية والسفلية ، الجميع بخير الا أن الانين المتقطع لا يتوقف . ودخلت الى الحجرة وسمعت الصوت . بالفعل ، أنين شخص يعانى من ألم شديد ، يتوقف عندما يفتر الصوت من شدة الالم ، ثم يعود ليتجدد .

كنت لم أستيقظ بعد استيقاظا كاملا . . وتفكيرى لم يصل الى حالة من النقاء تسمح لى بالتعليل ، فقلت كسبا للوقت « غريبة !؟ » .

وما أن قلتها حتى انطلق الى الوجوه تعبير رعب لم أفهم معناه ، وقبل أن أصل الى سر هذا التعبير ، انطلقت احدى الفتيات صائحة « ياماما . . ده لازم عفريت !! » وحتى الآن لا أفهم كيف انتقل معنى هذه الكلمات العربية الى السيدة البولندية ، ففهمتها ، وبدا عليها مباشرة نفس الرعب ، النابع من نفس الفكرة !! . ولما كنت لا أومن بمسألة العفاريت هذه ، ولما كنت على درجة من الرغبة

فى النوم ، لا تسمح لى بمناقشة هذه المسألة ومحاولة اقناع المذعورين بما أومن به . فقد اكتفيت بشخطة حاسمة « بلاش كلام فارغ انتى وهوه .. مادام كلكم بخير خشوا ناموا ، والصبح نبقى نشوف ايه الحكاية دى .. » . وانصرفت تاركا كل واحد منهم يتجه الى حجرته فى خطوات مسحورة مذعورة .

وفى الصباح انتشر الخبر قبل موعد الافطار وفوجئت عند هبوطى الى المطعم بمدير الفندق يسألنى عما حدث ، وحكيت له القصة ، وبدأت أصف له الصوت ، فقاطعنى قائلا أنه قد صعد الى الطابق الذى صدرت منه الشكوى واستمع الى الصوت .. ولا يعرف له تفسيرا ..!!

حتى انت ياحضرة المدير !

بعد أن تناولنا طعام الافطار ، والحديث لا يدور الا عن هذه الحكاية ، صعدت مرة ثانية لاعاود البحث مع بعض اعضاء الفرقة عن سر هذا الصوت الغريب .. وتبين لنا أخيرا أن أنابيب التدفئة المركزية هى مصدر الصوت .

عندما جاء المختص بنظام التدفئة المركزية بالمبنى وحكينا له القصة ابتداء من الاصوات وحتى العفاريت .. استغرق فى نوبة من الضحك ، وقال ان الانابيب هى بالفعل مصدر الصوت ، نتيجة لتباين الضغط على بخار الماء المخالط للماء الذى يجرى داخلها .

وبمثل هذه البساطة انتهت أسطورة العفريت الذى يسكن شاطىء البحر البلطيقى .

جميل جمال .. فى نوفى بازار :

وعالم الفنادق كان ينقلنا من فخامة القصور ، الى أسوأ ظروف الاقامة بدون رحمة ..

ولعل أسوأ تجربة فى الفنادق ، واجهتنا فى بلدة صغيرة تدعى «نوفى بازار» فى جنوب شرق يوغوسلافيا .

كنا قد أوشكنا على الانتهاء من حفلاتنا فى يوغوسلافيا، ونستعد للسفر الى الدولة الاخيرة ، البانيا . وقيل لى أن العرض التالى سيكون فى مدينة نوفى بازار .. وكالعادة رحت ابحث فى الخريطة التى أحملها عن موقع هذه المدينة فلم أعثر عليها . عدت الى أحد المرافقين أستفسر منه عن موضع المدينة على الخريطة ، فدلنى على اشارة دقيقة لموضع المدينة مثبت الى جانبها اسم المدينة فى حروف اكثر تواضعا .. وتساءلت عن السر فى اختيار هذه المدينة الصغيرة بالذات .. فتعرضت لمحاضرة طويلة عن بساطة أهل هذه المنطقة وعن احتياجهم الى الترفيه شأنهم فى هذا شأن سكان بلغراد وزغرب وسراييفو . ولما كنت من أنصار ضرورة انتقال العمل الثقافى الى الريف والى الاقاليم ، فقد أمنت على كلامه ، وبدأت القافلة رحلتها من العاصمة بلغراد الى المدينة المنشودة ، ثلاثة اتوبيسات ، تتبعها ثلاثة لوريات تحمل مهمات الفرقة وحقائب الاعضاء .

وما أن قطعنا ربع المسافة حتى بدات المشاكل ، تحطم فجأة الزجاج الامامى للاتوبيس .. هكذا ، وبدون سبب .. وتطايرت شظايا الزجاج داخل الاتوبيس وسط صياح

الجميع وصرخاتهم .. وتوقفت القافلة ، وتكاثرت الاسئلة ... لا شيء انه سرطان الزجاج .. بدون سبب وبلا توقع يتفتت لوح الزجاج الى حبـات صـغيرة كالرمال ... وبعد ؟ .

سنتصل ببلغراد فى طلب أتوبيس آخر . والى أن يتم هذا ؟ .. يمكن أن تنتقل الفتيات الى أتوبيس اخر ، ويبقى الشباب فى الاتوبيس المتوقف لحين وصول النجدة .. المهم أن نواصل الرحلة حتى نصل فى وقت معقول يسمح بترتيب أماكن النوم .. وساعتها فقط ، عرفت أن الفرقة ستنام فى أربعة أماكن متفرقة . خلفنا وراءنا الاتوبيس المتعطل ، وانطلقت القافلة الى نوفى بازار .. ولكن بعد أن تحركت الى السيارة الصغيرة ، بنـاء على طلب كبير المرافقين ، حتى نسبق الفرقة وننظم أماكـن الاقامة، باعتبار أن السيارة ستكون أسرع من الاتوبيس .

انطلقت بنا السيارة بأقصى سرعتها ، وبرغم هذا فقد وصلنا الى نوفى بازار فى منتصف الليل . المدينة متواضعة للغاية ، مظلمة ، يختلط فى شوارعها الوحل بالجليد الآخذ فى الذوبان .. وبعد الدخول والخروج من شـوارعها الضيقة وصلنا الى مبنى متواضع جدا ، قيـل لى انه الفندق الوحيد بالمدينة ، وأحد المواقع التى سنقيم فيها ، وهو لا يتسع لاكثر من عشرين فردا .. اخذت اتجول فى حجرات الفندق ... شيء لا يمكن أن يصل الى مستوى فنادق الازهر والحسين الشهيرة .. ولكن ماذا افعل ؟..

سألت ، والمواقع الاخرى ؟ .. قيـل ، استراحات للمبيت ، وهى وان كانت بعيـدة بعض الشيء الا أن

مستواها أفضل من الفندق ؛ سألت عن موقـــع هــذه الاستراحات ، فقيل لى باختصار شديد أن الفنـــدق يتوسطها . قلت ، سأبقى بالفندق ليسهل على الاتصـــال بباقي أعضاء الفرقة ، لتنظيم العمل .

قالوا لى وهم ينصرفون لملاقاة الاتوبيسات ، يمكنك أن تهبط الى مطعم الفندق لتتناول كوبا من الشاى الساخن.

ورغم عدم حماسي لعمل أى شيء ، قبلت هذا الاقتراح هربا من رائحة الفندق ، فوجدت ما أسموه بالمطعم اشبه بمقاهي بولاق البسيطة ..

جلست الى احدى الموائد اتفقد المكان من حـــولى ؛ وخواطرى تتلاحق ، انا شخصيا أستطيع أن اتـكيف مع أى مستوى من مستويات المعيشة ... لكن ، ما العمــل عندما تصل جحافل الفرقة منهكة ، متوترة الاعصاب ؛ وتفاجأ بظروف الاقامة هذه ؟!

قطع على خواطرى جرسون المطعم الذى أقبل متهللا ليقول « السلام عليكم » .. !! على التو ارتبكت أجهزة الادراك عندى .. التناقض الشديد بين هذه الغــــربة المركبة التى أحياها بجسدى وفكرى ، وهذا التعبـــير الذى أوحشنى حقا .. وأخيرا ، افقت لابتسم وارد عليه التحية ، « وعليكم السلام » .. وحاولت أن أواصــــل الحديث ، الا أن نظرة عتاب ، أفهمتنى أن هذه التحيـــة هى كل حصيلته من اللغة العربية .. ثم انصرف وعـــاد بعد قليل ، يحمل صينية الشاى التى حرص على أن تكون بأفضل الامكانيات التى لديه رغم تواضعها . ثم انصرف مرة ثانية ليقبع أمام جهاز راديو عتيق فى ركن

من اركان المطعم ، اخذ يعالجه مارا على محطات الارسال واحدة اثر الاخرى .. الى أن انطلق صوت فريد الاطرش « جميل جمال ، مالوش مثال » ، فأرسل لى من مكانه ابتسامة تحية ، وانصرف الى عمله .. وكان من نتيجة هذا ان اثارت الاغنية فضول رواد المطعم ، فانصرفوا عن احاديثهم ، ليوجهوا ابصارهم ناحيتى ، فى فضول صامت.

واخيرا ، وصل كبير المرافقين مع بعض اعضاء الفرقة الذين سيقيمون بالفندق ، واخذت أستفسر منه عن حقيقة الوضع ، فاعترف أن المجموعة الاولى تنزل فى استراحة قبل الفندق بمسافة ١٥ كيلومترا ، وأن الاستراحة التالية تلى الفندق بمسافة ٢٠ كيلومترا ، تليها استراحة أخرى تبعد عن الفندق بمسافة ٣٠ كيلومترا .!! وهكذا اصبحت الفرقة موزعة على مدى ٤٥ كيلومترا .

اخذت اعاتب كبير المرافقين ، فراح يتعلل بانه ليس فى الامكان ابدع مما كان ، واننا سنتحمل ليلة واحدة اخرى ثم نسافر الى المدينة الكبيرة التالية « متروفيتسا » ، حيث ظروف الاقامة الطبيعية والفندق الكبير .

الا ان المجهود الشاق الذى كنا نبذله كل مرة لتجميع الفرقة من اجل بروفة او وجبة طعام او من اجل تقديم العرض ، جعلنى اصمم على السفر الى متروفيتسا بمجرد نهاية العرض فى نوفى بازار ، رغم احتجاج كبير المرافقين ، وقوله ان هذه المغامرة قد تتمخض عن عدم وجود اماكن خالية بالفندق .. قلت فى صبر نافذ ، نبحث عن اماكن للفتيات وننام نحن فى الاتوبيسات .! وكان تقديرى فى الواقع ، انه بعد نهاية العرض ، والى ان ننتهى من تجميع

مهماتنا المسرحية ، وحقائب الاعضاء المبعثرة على مـدى ٤٥ كيلومترا ، ثم الى ان نصل الى مدينة متروفيتسا ، يكون قد انقضى أغلب الليل ، ويمكننا أن ننـام طـوال النهار التالى ، حيث لم يكن فى برنامجنا عمل معين طوال ذلك النهار . رغم تحمس الجميع لهذه الفكرة ، وسعادتهم بالرحيل من نوفى بازار .. الا أن اختلالا فى التقـديرات الزمنية اقتضانا النوم داخل الاتوبيسات لمدة ثلاث ساعات على الاقل أمام باب الفندق فى متروفيتسا ، بعد أن دبرنا أماكن بالفندق للفتيات والمرضى .

وهكذا بقيت ذكرى مغامراتنـا فى « نوفى بازار » ، كذكرى لاقسى ظروف اقامة واجهتنا طـوال رحلتنـا الغريبة .

راسيا الموسكوفى .. واكتشاف متاخر :

فى مقابل ذكرى أصغر الفنادق التى أقمنا بها ، تعيش ذكرى اكبر الفنادق ، الذى استقبلنا كقطرة فى بحر نزلائه .. فندق « راسيا » بموسكو .

فندق « راسيا » من أحدث فنادق موسكو واضخمها فى نفس الوقت ، فهو يتسع لاستقبال ستة آلاف نزيل فى وقت واحد ! . ولا يمكن أن انسى مشهد وصولنا الى ذلك الفندق الضخم ، كنا نلج ابوابه فى نفس الوقت الذى تتدافع على أبوابه عشرات الوفود المقيمة فيه .. نفس المشهد الذى رأيته عندما كنت اعبر بوابات الاستـاد فى مدينة نصر يوم مباراة هامة مع « ريال مدريد » ! .

وقبل تحركنا من محطة موسكو الى الفندق ، حرص المرافقون على التنبيه علينا أكثر من مرة ، بالتجمع بعد الدخول من باب الفندق الى يمين البوابات مباشرة ، حتى لا نفقد بعضنا وسط هذه الدوامة البشرية . توجهت مع المرافقين الى ادارة الفندق حتى ننظم أماكن المبيت ونتسلم أرقام الحجرات ، فتولى مندوب عن الفندق أمر تزويدى بالعديد من النصائح والتعليمات . فالفندق رغم أن بناءه قد اكتمل ، الا أن الانشاءات الداخلية بقى منها الكثير فى دور الاستكمال .. المصاعد مثلا ، لا تعمل جميعا ... وبناء على هذا يجب على كل فرد أن يعرف بالتحديد أى المصاعد أقرب الى حجرته ، ثم ماهو الطريق الذى سيسلكه عندما يخرج من المصعد ليصل الى حجرته . كان مندوب الفندق يلقى هذه التعليمات بكثير من الجدية تصبغ حديثه صبغة اعتزاز وافتخار ، فتصورت أنه يبالغ فى تعليماته هذه كنوع من المباهاة بضخامة الفندق ، الا أن الايام القليلة التى قضيناها فى ذلك الفندق العملاق اكدت لى صدق تحذيراته . الخطأ البسيط فى اختيار المصعد المناسب ، قد يؤدى بالفرد أن يسير مسافة لاتقل عن كيلومترين من الطرقات المفروشة بالسجاد الازرق السميك ، حتى يصل الى حجرته .

كان اول التعليمات مراعاة المدخل المناسب للفندق : فالفندق له مدخلان متشابهان تمام الشبه .. أحدهما يطل على الكريملين والآخر فى الجهة المقابلة له تجاه المدينة ، ويكفى أن يلتبس عليك الامر فى اختيار المدخل المناسب ، حتى تفقد الامل فى الوصول الى غرفتك .

وكان البند التالى فى التعليمات ، هو شرح الطريق الى المطعم الذى ستتناول فيه الفرقة وجباتها ، فالفندق به عشرات المطاعم وعشرات البوفيهات ، ونتيجة لعدم استكمال طاقم المصاعد ، فقد كان المطعم بمكانه المقابل لموقع حجراتنا ، مصدر عذاب متصل فى الرحلات الثلاث على مدى اليوم .. كنا نقف فى طابور المصاعد الهابطة من الطابق التاسع عشر الذى كنا نقيم فيه ، ونهبط الى مدخل الفندق ، ونخرج من أبوابه الزجاجية الضخمة لتتلقى صدورنا عواصف الجليد المتناثر ، ونروح ندور حول الفندق من الخارج مسافة طويلة على امتداد ظلعين من اضلاعه ، حتى نصل في النهاية الى الباب الذى يقود الى المطعم الذى خصص لنا .. كانت هذه الرحلة مصدر عذاب للجميع .. وكم من واحد تنازل عن احدى الوجبات ، ايثارا للراحة والدفء .

الطف مافى الموضوع انه فى يوم اقامتنا الاخير بالفندق ، وكنت بصحبة المخرج السينمائى سيد عيسى الذى كان يتم فى ذلك الحين دراسته بموسكو ، والفنان الصحفى جمال كامل الذى رافق الفرقة لعدة أشهر ، وكنا فى طريقنا من حجرتى الى المطعم ، وفى طريقنا الى المصعد ، وجدنا سلما هابطا .. ومن باب المغامرة ، قررنا أن نهبط لنرى الى أين يؤدى بنا .. وكانت المفاجأة الكبرى ان وجدنا أنفسنا عند نهاية الدرج فى داخل المطعم المنشود .. وعرفنا بعد ذلك انه الى جوار هذا السلم يوجد مكان المصعد الذى لم يتم تركيبه بعد والذى يفترض ا نستخدمه فى رحلتنا الى المطعم .

ناخت سيناتوريوم .. فى ألمانيا :

لعل أغرب تجاربنا مع الفنادق وأماكن الاقامة ، كانت تنتظرنا عقب وصولنا الى ألمانيا الديموقراطية ، ولهـذه القصة مقدمات لابد منها .

كانت برامج الزيارات طوال الاشهر الستة موزعـة باحكام بين الدول المختلفة ، على أساس أن تسلمنا كل دولة من حدودها الى حدود الدولة المتاخمة التالية . وهى حركة ذكية لجأت اليها ادارة التبادل الثقافى بوزارة الثقافة حتى لا تدفع مليما واحدا طوال جولتنا خلال هذه الاشهر الستة . فمنذ أن أسقطتنا فى أنقـرة بتركيا ، وحتى تسلمتنا فى ميناء دورسى بألبانيا ، كانت كافـة نفقات اقامتنا وتنقلاتنا على ميزانية دولة من الدول التى زرناها .

الا انه كانت هناك ثغرة فى وسط هذا البرنامج فى الفترة مابين ٢٠ ديسمبر و ٥ يناير .. فقد اعتذرت كافة الدول عن استقبال الفرقة فى هذه الفترة ، باعتبـارها فترة أعياد الكريسماس ورأس السنة ، حيث تتعطـل كافة الاجهزة التى يجب أن تتعامل معنا . وكان الدكتور مجدى وهبة مدير عام التبادل الثقافى قد أخطـرنى قبل السفر ، أنه بصدد الوصول الى حل لهذه الفترة ، وأنه سيبرق بهذا الحل فى ظرف شهر من بداية الرحلة .

مضى أكثر من شهر . . ولم أتسلم اخطارا ما من القاهرة . وما أن وصلت موسكو حتى أجريت اتصالا تليفونيـا بالقاهرة ، أسأل عن مصيرنا فى تلك الفترة ، فقيل لى ان

الاتحاد السوفييتى سيستقبلنا مرة ثانية بعد انتهاء عملنا فى بولندا وخلال هذه الفترة ، علينا أن نقدم حفلاتنا فى طشقند وسمرقند . ورغم ماسيفرضه علينا هذا الحل من ارتباك فى خط سيرنا ، وما يضيفه الى رحلتنا من آلاف الكيلومترات بالقطارات والاوتوبيسات ، الا أنه بعد كل شىء ، مخرج لنا من أزمة هذه الايام الساقطة .

وقبل أن نغادر موسكو الى ريجا لنقدم حفلاتنا هناك ، فى طريقنا الى بولندا ، اخطرنى مستشارنا الثقافى بموسكو ، أن الاتحاد السوفييتى قد صرف النظر عن هذه الفكرة ، فأوصيته بمتابعة الاتصال بالقاهرة ، على أن يصلنى الرد النهائى فى وارسو .

وفى بولندا .. علمت من السيدة كريمة الجوهرى ، مندوبة ادارة التبادل الثقافى التى أوفدت لمرافقتنا طوال مدة اقامتنا فى بولندا ، أن النية متجهة الى التعاقد مع متعهد انجليزى لتقديم حفلات للفرقة بلندن فى هذه الفترة ... كان صدى هذه الاخبار على الفرقة طيبا ... فالرحلة ستكون مريحة بالطائرة ، وزيارة لندن لاول مرة ستكون بلا شك مصدر متعة للجميع .

الا أن السيدة كريمة ، عادت لتقول أن المسألة لم يتم البت فيها نهائيا ، وانها مازالت فى دور المفاوضات مع المتعهد . وعاد القلق من جديد ينتابنى .. والايام تجرى مقتربة بنا من هذه الفترة الحرجة .. فسارعت بالسفر الى وارسو لاجرى اتصالا جديدا بالقاهرة ، وبعد محاولات عديدة لاجراء الاتصال التليفونى فى ظل الظروف الجوية القاسية ، وصل صوت القاهرة ليؤكد أن المشكلة

قد حلت نهائيا ، وأننا سنتجه بعد بولندا الى المانيا الديموقراطية ، لننزل على ضيافتها بلا عمل طوال هذه الفترة ، ثم نبدأ بعد ذلك جولة العمل داخل المانيا .

على الحدود البولندية الالمانية استقبلنا وفد المرافقين الالمان . كان ذلك حوالى التاسعة مساء ، وبعد الترحيب، وتبادل الكلمات الرسمية ، تكدسنا داخل الاتوبيسات فى الطريق الى « سفيكاو » فى جنوب المانيا ، حيث تقرر ان نمضى أيام الضيافة قبل أن يبدأ برنامج العمل .

كنا نتصور جميعا أننا سنمضى فترة الراحة فى برلين ، ولذا فقد جاء هذا القرار مخيبا للآمال ، وقد حاولت أن أستفهم من كبير المرافقين عن هذه المدينة ، فقال كلاما كثيرا عن الهدوء وجمال الطبيعة والهواء النقى الصحى !.. الى آخر هذه الاوصاف التى لم يكن رنينها فى اذاننا يترجم نفس الطريقة الشاعرية التى قيلت بها .

وقبيل الفجر بساعة تقريبا ، وبعد رحلة استمرت حوالى الخمس ساعات ، وعندما وصلنا الى منطقة معزولة عن العمران ... أشار كبير المرافقين بيده الى بصيص من النور يظهر فى نوافذ مبنى قاتم مقام على ربوة، تحوطه فروع أشجار يابسة تساقطت أوراقها .. أشار بيده وعلى فمه ابتسامة مطمئنة ، هاهو « الناخت سيناتوريوم » .

وقفت الاتوبيسات فى الساحة التى أمام المبنى بعد ان عبرت السياج المقام حول ساحة البيت تاركة آثار عجلاتها مغروسة فى الجليد الابيض الناصع ، وما أن وقفت

الاتوبيسات وصمتت محركاتها .. حتى هبط على المنطقة سكون مطبق ، صمت غريب ثقيل ، تكاد أن تسمع له صوتا !! ..

وبدا المشهد ، بظلمته الشديدة التى يكسر حدتها لمعان الجليد المكتوم فى بعض الاركان ، بأشجاره التى تشابكت أغصانها العارية ، بالمبنى الرابض فى رسوخ على الربوة . بدا هذا كله وكأنه مقتطع من احدى روايات أجاثا كريستى البوليسية ، أو تمثيليات هتشكوك التليفزيونية المرعبة . هنا سنقيم لمدة نصف شهر ، نحتفل بأعياد السنة الجديدة على بعد ثمانية كيلومترات من أول مظهر من مظاهر العمران .. فى ناخت سيناتوريوم مدينة سفيكاو ..

الا أن هذه الخواطر لم يكتب لها أن تستمر طويلا ، فسرعان ما بددتها صيحات ونداءات تبادلها أشبال النيل !!... وبدات على الفور ملحمة توزيع الاعضاء على الحجرات ، فلاول مرة منذ ثلاثة أشهر ، سيستقر أعضاء الفرقة فى مكان واحد ولمدة خمسة عشر يوما كاملة ... ومن هنا كان حرص كل واحد على التوصل الى أفضل ظروف الاقامة والصحبة . واكتشفت أن عدد الاماكن المتاحة لا يستوعب جميع أفراد الفرقة ، فقيل لى أن هذه هى الطاقة القصوى للمكان ، وان هناك خمسة أماكن لقيادات الفرقة فى فندق بمدينة سفيكاو ، على بعد ثمانية كيلومترات .

احسست بسعادة غامرة .. هكذا ، أخيرا ، ستتاح لى اجازة لمدة أسبوعين من المسئولية الدائمة عن هذا المجتمع ، هذه المسئولية التى كانت دائما تنسحب على

مدى ٢٤ ساعة فى اليوم .. الآن ، والآن فقط ، أستطيع أن أنام نوما ثقيلا بلا توقع لرنين التليفون ينقــــل الى سمعى مشاكل الفرقة التى لا تنتهى ، من مرض مفاجىء ، الى خلاف طارىء يستدعى التدخل .

على الفور ، تعجلت الانتهـــــاء من اجراءات توزيع الحجرات وتحديد أسماء الذين سيقيمون معى بالفندق ، وحددت مسئولا عن المجموعة المقيمة بالناخت سيناتوريوم واخذنا طريقنا الى الفندق . وما أن وصلت الى الفندق ، حتى أسرعت الى حجرتى واســـتلقيت على سريرى ، والهدوء يحيط بى ، لا تصل الى أذنى صيحات شـــباب الفرقة ، والحوار العادى لشيوخها المرتفع الطبقة بطبيعته .. ورحت فى نوم عميق ، يضاعف من عمقه احســاسى بالكيلومترات الثمانية التى تفصلنى عن الفرقة ... كل كيلومتر منها يتضمن ألف متر بالتمام والكمال ..

وفى الصباح تصاعدت طرقات ملحة على باب الحجرة ، بلغ من تصاعدها أن نجحت فى انتزاعى من حـــالة النوم العميق المطمئن التى كنت أستمتع بها .. وبجهد واضح قمت أتعثر لافتح الباب .. ولتطالعنى من جديد وجـوه بعض أعضاء الفرقة ، تتزاحم فى فتحة الباب !!! ، تبدد نومى تماما ، وضاعت أحلام الكيلومترات الثمانية التى تتضمن كل كيلو متر منها ألف متر ..

ـ اتفضلوا ..

قلتها يائسا ، عائدا الى سريرى ، وهم يتدفقون الى داخل الحجرة يملأون فراغها .

ـ هى الساعة كام دلوقت « قلتها بشىء من العتاب »
ـ الساعة اتناشر .

الثانية عشر .. لسنا فى الصباح اذا ، يبدو أن وصولى الى الفندق فى الرابعة صباحا ، ثم الجو القاتم الملبـــد بالغيوم ، قد أوحيا لى أننا مازلنا فى مطلع النهار .

ـ نعم ؟ ..

قلتها فى مواجهة صمتهم وترددهم فى بدء الحديث ، فانبرى محمد خليل يروى فى حماس وألم سبب هجومهم الصباحى على حجرتى .

منذ بداية اليوم كانوا قد تعرفوا على جغرافية المكان ، وبلغة الاشارة العالمية ، كانوا قد فهموا أنه على بعد أمتار قليلة من مكان اقامتهم توجد محطة أتوبيس ، وأن هذا الاتوبيس يصل الى المدينة ، وعلى الفور بدأت الافـواج تتسلل من الناخت سيناتوريوم الى المحطة ، فالمدينة .

ومدينة « سفيكاو » ، مدينة هادئة صغيرة ، ما أن انتشرت جحافل الفرقة فى طرقاتها حتى أثارت فضول أهل المدينة .. وباستخـــدام بعض المفـــردات الانجليزية والفرنسية ، استطاع أعضاء الفرقة أن يشرحوا قصـــة وجودهم بالمدينة ، وأنهم أعضاء فرقة الرقص الشـــعبى من الجمهورية العربية المتحدة ... « واين تقيمون ؟ » . هكذا كان يجىء السؤال وعلى الفور تخرج الاوراق من جيوب أعضاء الفرقة ويروحون يتهجون بصعوبة « فى الناخت سيناتوريوم » .. وينفجر أهل المدينة فى عاصفة من الضحك ، ويواصلون سيرهم دون تعقيب ، وهم

يتبادلون حديثا ضاحكا بالالمانية ، وسط تعجب أعضاء الفرقة واندهاشهم .

ثم ، تتكرر نفس القصة أكثر من مرة ...!

فبدأت تنتابهم الوساوس .. الذى يعلمونه انهم يقيمون فى مكان أشبه بالمستشفى .. فما الذى يثير الضحك والتعجب فى هذا ؟.. لابد انها مستشفى للأمراض العقلية !! .

وبهذا الاستنتاج كان هجومهم المحتج على حجرتى .

قلت لهم أن استنتاجاتهم فى غير محلها .. والمكان لايعدو أن يكون نوعا من المصحات .

قالوا باصرار .. اذا فهو مصحة للأمراض العقلية !..

وكان لابد من الاتصال بالمرافق الالمانى ليتولى شرح حقيقة الامر .

وجاء الشرح مطمئنا للجميع .

سفيكاو ، أحدى مدن الجنوب الالمانى ، وهى مركز ضخم للتعدين والمناجم ، وكلمة « ناخت سيناتوريوم » الالمانية ، تعنى « مصحة ليلية » . فالدولة ، رعاية لعمال المناجم بظروف عملهم الشاق ، تقيم هذه المصحات الليلية فى مناطق المناجم ، لتجرى فيها فحصا دوريا دقيقا على كل عامل ، توقيا لحدوث أمراض المهنة .. والعامل اى عامل يكون عليه فى وقت ما من السنة أن يمضى بهذه المصحة مدة نصف شهر ، يخضع خلالها لكافة الفحوص والتحاليل الطبية ، حتى تطمئن الدولة على حالته الصحية ... وقد سميت ليلية ، لان العامل

خلال هذه الفترة ، يذهب الى عمله كالمعتاد صباحا ، ولكنه لا يعود الى بيته فى نهاية عمله ، بل يتجه الى المصحة ليقيم بها حتى يحين موعد العمل فى اليوم التالى .

ولما كان العمال جميعا فى أجازة راس السنة ، وكذلك الاطباء العاملين في المصحة ، فقد رأت وزارة الثقافة الالمانية استغلال هذا المكان لاقامة الفرقة فى فترة الاعياد ، نظرا لاستحالة تدبير مكان لجميع الاعضاء فى فنادق برلين التى يشتد الزحام عليها فى فترة الاعياد هذه .

وهكذا تبددت مخاوف اعضاء الفرقة ، واطمأنوا على عقولهم ! .

ورغم ظروف المصحة ، وبعدها عن العمران ، فقد استطاع اعضاء الفرقة ان يجعلوا من فترة اقامتهم بها ، أياما سعيدة ، يتذكرونها حتى اليوم بتفاصيلها الدقيقة .

كنت قد اغتصبت من سفارتنا ببولندا مجموعة من الاسطوانات لام كلثوم ، وفايزة احمد وعبد الحليم حافظ ومحمد رشدى ، وأقول اغتصبت ، لانى اخذتها بعد الحاح شديد فى مواجهة الممانعة التى ابداها أعضاء السفارة ، وخوفهم على ضياع هذه المجموعة .. وكانت هذه الاسطوانات مصدر متعة دائمة لاعضاء الفرقة . وكان صوت البيك آب لا ينقطع طوال ساعات الليل أو النهار . فى حدود هذه المجموعة من الاسطوانات ، اقيمت محطة اذاعة محلية فى الناخت سيناتوريوم تولت اذاعة هذه المجموعة بكافة التباديل والتوافيق الممكنة ، وعلى انغام هذه الاغانى تمت الحفلات الراقصة ، وحول

هذه الاسطوانات انعقدت حلقات البكاء الحـــريمى ، حنيننا للوطن .

الطريف ، انه فى كل سـفارة نصل اليها ، كنـا نجـد من يقول مبتسما « الاستاذ عبد العزيز اتكلم من وارسو .. وبيقول تسيبوا الاسطوانات عندنا » ، فنؤمن على هذا الكلام ، وننسى هذا المطلب حتى السفر الى الدولة التالية ... وبهذا تم تسليم هذه المجموعة الى أعضاء سفارتنا فى ألبانيا وقبل صعودنا الى الباخرة !.

فى مصحة سفيكاو هذه ، تم تنظيم أضخم حفل خاص ، اقامته الفرقة لاعضائها .. وحضره وفد المرافقين الالمان بالاضافة الى المترجمين وكانوا من المـــراقبين الذين يدرسون فى المانيا ، كما حضره العاملون والعاملات فى المصحة ، من الذين حرموا الاستمتاع بأجازة العام الجديد لخدمة أعضاء الفرقة ، وتقديم الوجبات لهم .

فى ذلك اليوم ، يوم الكريسماس ، قررت اللجنة المشرفة على الاحتفال اعفاء عمال المصحة وعاملاتها من العمل ، وتوزع عملهم على أعضاء الفرقة .. لجنة لتنظيف المصحة وأخرى لطهى الطعام ، وثالثة للاعداد للحفل المسائى .. وغاصت راقصات الفرقة فى قزانات الطهى الضخمة ، فقد كان القرار ان يكون الاكل مصريا .. أرز مفلفل على الطريقة المصرية ، وكوسة بالدمعة ، وكفتة بالبصل ... وتحول هذا القرار الى مقلب شربته راقصات الفـرقة اللائى امضين الساعات الطوال فى دق الكفتة ، وتنقيـة الارز ، وتحريك الطعام فى القزانات الضخمة ، وشـرب المقلب ايضا باقى اعضاء الفرقة والضيوف ، فى الكوسة

التى تتصاعد منها رائحة الشياط ، والكفتة التى تشبعت بالملح ، الا أن الحماس للعمل والمناسبة لم يسمح لاى فرد بالانتقاد ، بل على العكس ، وقفت كل من ليونى ونوال تتلقيان عبارات الثنـــاء والاستحسان على جهودهمــــا المشرفة ! !

وفى المساء أقيم الحفل الساهر الكبير الذى حضـره الجميع ، وتولى كمال نعيم مصمم الرقص بالفرقة ، وضع وترتيب البرنامج ، الذى تضمن عرضا حقيقيا للازياء ، علل سر انتفاخ حقائب بنات الفرقة ووزنها الثقيل ، ثم عرض كوميدى للأزياء التنكرية ، وكان من أنجح فقـراته تنكر هدى فى زى مواطنة من أواسط أفريقيا ، وتنـكر عبد السلام عبد المتجلى ، عازف المزمار الصعيدى ، فى زى فتى أسبانى من شباب الهيبز !! . وتوالت الفقرات بين ضحكات الجميع ، وهمس كبير المرافقين فى أذنى ودموع الضحك تترقرق فى عينيه « لقد بلغت السبعين من عمرى ، وحضرت مئات الحفلات الشبيهة ، ولم يحدث ابدا أن ضحكت مثل هذا الضحك . أنتم أبنـــاء شعب يتدفق حيوية » .

حياة كاملة.. على عجلات

جداول لوغاريتمات .. لخمس دقائق :

من أنقرة أول مدينة فى الرحلة وحتى دورسى آخر مدينة ، وعلى مدى ١٥٩ يوما ، قطعت الفرقة الاف الكيلومترات ، اما بالاتوبيس أو بالقطار .

قطعنا ١٠٦٤٠ كيلومترا بالاتوبيس ، وقد تم هذا على مدى ٢٤٩ ساعة و ٤٠ دقيقة ، وقطعنا ٦٧١٢ كيلومترا بالقطارات ، على مدى ١٢٨ ساعة ، و ٥٥ دقيقة ... وهذا يعنى أكثر من ٣٧٨ ساعة من السفر ليلا ونهارا ، أغلبها تحت وابل المطر الثقيل الكثيف ، أو عواصف الجليد العاتية ، واندرها تحت أشعة شمس صفراء باهتة خادعة ، توحى بالدفء ولا تفى به .

وكالعادة بدأت هذه الرحلات الطويلة مثيرة للحماس ، مشبعة للفضول ، حافلة بالتعليقات الطريفة والنكات والاغانى الجماعية .. وعلى مر الايام ، تحولت الى ساعات من المعاناة والعذاب . كل ماهو مثير ، تحول الى روتين جاف ، بارد ، يثقل على النفس ولا يهزها ، تبدد الفضول وأصبح بالامكان التنبؤ مسبقا بكافة الحالات

التى ستتوالى ، نفذ رصيد التعليقات الطريفة ، والنكات المبتكرة ، وتحولت الاغانى الجماعية الى اجراء روتينى لمواجهة الساعات الطويلة التى لا تنتهى ، ترددها الافواه دون حماس ، وتقصر عن المشاركة فيها كلما أمكن ذلك .

حقيبتى الحمراء الصغيرة التى كنت احتفظ فيها بآلة التصوير والافلام وبعض الاوراق اللازمة ، وكتـــاب أو كتابين لمواجهة هذه الساعات الطوال ، تحولت الى صيدلية متنقلة ، درامامين لمواجهة الدوار الناشىء عن رحـلات الاتوبيس الطويلة ، فيتامين سى ، نقط للانف ، اسبرين ... الى آخر القائمة .

وكما حدث فى الفنادق ، جرى فى الاتوبيس . كنـا نصعد الى اول اتوبيس يصادفنا من بين الاتوبيســـات الثلاثة ونجلس كيفما اتفق ، وكنا دائما نجد الاماكن التى تـكفينا جميعا دون عناء ، متعجلين الرحلة ، متشـوقين الوصول الى المدينة التالية ، بكل ماتحمل فى طياتهــا من جدة ومفاجآت . وعلى مر الايام ، بدأت المشاكل .. وظهر بوضوح أننا نحتاج الى تنظيم خاص فى مكان كل واحد داخل الاتوبيس حسما لهذه المشاكل ... هـــذه تريد أن تجلس الى جانب النافذة ، وذاك يحتج عـلى جلوسه فى نهاية الاتوبيس وفوق عجلته الخلفيــــة بمـا تسببه من اهتزازات واجهاد ، وثالث يحتج على الضوضاء التى يحدثها الشباب داخل الاتوبيس مما يحرمه مـــن النوم كوسيلة لقتل الوقت .

وعدنا الى الاوراق والاقلام ، نبتكر نظاما يريح الجميع فأمكن تجميع العازفين فى اتوبيس واحد ، باعتبار السن

والطبيعة المتجانسة ، وتجميع الفتيات والسيدات مع ازواجهن فى اتوبيس ، وبقى الاتوبيس الثالث للشبان وبعض الاداريين .. ثم تحدد مسئول عن كل أتوبيس ، ينظم جلوس الافراد داخله ، ويطمئن على اكتمال العدد قبل أن يعطى أمر التحرك للسائق .. وبقيت بعد ذلك مشكلة الجلوس فى المقاعد الامامية أو الخلفية ، فلم نجد مناصا من وضع كشف يحدد جلوس الافراد داخل الاتوبيس ، بحيث يتزحزح الجلوس فى كل رحلة خطوة الى الامام ، وينتقل اصحاب المقعد الامامى الى المقعد الخلفى .. هنا فقط اطمأنت النفوس ، وخفتت صيحات الاحتجاج .

وكان على مسئول الاتوبيس أن يتابع هذه الزحزحة فى كل رحلة ، ويحسبها ، ويضع لها الجداول الشبيهة بجداول اللوغاريتمات الرياضية .. الغريب فى الموضوع ، أن هذا النظام المحكم المحسوب بدقة كاملة ، كان ينهار نهائيا بعد خمس دقائق من بداية تحرك الاتوبيس . مايكاد كل واحد يطمئن على مكانه ، ويطمئن قبل هذا على أن القواعد العادلة قد تم تطبيقها بأمانة مطلقة ، حتى يسود الهرج والمرج كافة مقاعد الاتوبيس ، فيذهب صاحب المقعد الامامى الى آخر الاتوبيس ليجرى حوارا طويلا مع زميل ، وتنتقل احدى الفتيات لتحشر نفسها بين زميلتين لتتقارب الرءوس فى حديث هامس طويل ، تاركة مقعدها شاغرا لساعات طويلة .

هذه الفوضى الاختيارية ، ما كان يمكن أن تتم ، قبل أن يتثبت كل واحد من أن النظام الموضوع ، قد تم التزامه حرفيا وبلا تساهل !.

هيلا هوب ... على طريق سرايبفو :

لعل أشهر رحلات الاتوبيس التى صادفتنا ، كانت فى يوغوسلافيا . أنهينا حفلاتنا فى زغرب ، وكان المفروض أن ننتقل الى سرايبفو .

كنا فى منتصف فبراير ، وبرد أوروبا مازال قاسيا ، والجليد المندوف مازال يتهاوى كثيفا من السماء ... علمت من كبير المرافقين أن الرحلة ستكون بالقطار ولن تستغرق أكثر من ست ساعات ، ولما كان القطار يتحرك فى الثامنة صباحا ، فقد تم ابلاغ أعضاء الفرقة بأن يكون التجمع بالمطعم فى تمام السادسة ، بعد أن تكون الحقائب قد تجمعت فى مدخل الفندق ، حتى يمكن نقلها الى المحطة فى وقت مبكر ..

فى السابعة كنا قد انتهينا من تناول افطارنا ، وجلسنا فى صالونات الفندق نترقب الدعوة الى ركوب الاتوبيس للتوجه الى محطة السكة الحديد . طال انتظارنا ، فرحت أبحث عن أحد المرافقين أستفسر عن سر هذا التلكؤ ، وعلمت لحظتها أن السفر بالقطار قد أصبح مستحيلا نتيجة للظروف الجوية .. فقد ألغيت رحلة القطار الى سرايبفو بعد أن تراكم الجليد على القضبان بشكل لم تعد تجدى معه وسائل المكافحة التقليدية .

والحل ؟ .. سنسافر بالاتوبيس . حقيقة أن زمن السفر سيطول ، الا أن الوسيلة ستكون أضمن ، واحتمال المخاطر أضعف .

تم ابلاغ الفرقة بهذا التغيير ، وفى الحادية عشر صباحا تحركت القافلة فى طريقها الى سرايبفو . كانت السماء

داكنة ثقيلة بلمع على خلفيتها الجليد المتساقط بلا انقطاع او توقف ، والمساحات الامامية للاتوبيس ، تعمل فى نشاط عصبى لازاحة الجليد المتراكم على الزجاج الامامى للاتوبيس ؛ لكنها بحركتها النشيطة هذه ، كانت تحيل الجليد الى طبقة من الثلج الزجاجى ، الذى يكون قشرة صلبة على الزجاج ، ماتلبث أن يتضاعف سمكها فتجعل الرؤية مستحيلة بالنسبة للسائق .. فكنا نتوقف ، ليهبط السائق مزودا بأدواته الخاصة لتكسير طبقة الثلج وتنظيف الزجاج ، ليواصل الاتوبيس رحلته .

فى حوالى الثانية ظهرا ، توقفنا عند أحد المطاعم لتناول غذاء سريع ، ثم نواصل رحلتنا الطويلة .

خلال ساعات النهار القليلة كانت الرحلة محتملة ، فالاضاءة الضعيفة التى تبقت من أشعة الشمس بعد اختراقها للسحب الكثيفة ، كانت تكفى لتعريف السائق حدود الطريق التى أخفت معالمها تماما أكوام الجليد .

الا أنه ماكادت ساعات النهار القصير أن تنقضى ، حتى أطبقت الظلمة أطباقا تاما ، وانخفضت بالتبعية سرعة انطلاقنا ، وبدا الحذر واضحا على تصرف السائق .

الطريق أصلا ضيقة ، تسمح بتقابل سيارتين صغيرتين بسهولة ، لكن الامر يحتاج الى مقدرة خاصة عندما يلتقى أتوبيسان أو سيارتا نقل .. والطريق متعرجة تحتاج الى حرص شديد ، عند الانحناءات التى قد تفاجأ فيها بما يسدها . والادهى من هذا ، أنه الى جانب الطريق قناة أسمنتية مكشوفة ، تستخدم فى موسم الامطار كمصرف لمياهها تسهيلا للمرور .. الا أنه مع تكاثف الجليد ، اختفت تماما معالم القناة والطريق والحدود

الفاصلة بينهما وكان الامر دائما متروكا لتقدير السائق ، فى حساب خط سيره ، حتى لاتنزلق عجلات الاتوبيس الى القناة ، بما فيها من جليد هش يلين تحت ثقل العربة.

وبما أن الحذر لا يجدى مع القدر .. فقد شاء القدر أن يقع المحظور ، وأن يتكرر وقوعه أكثر من مرة خلال ساعات سفرنا بالليل . نجد الاتوبيس وقد مال فجأة على جانبه ، فتتعالى الصرخات والصيحات ، وتطير الحقائب واللفائف فى فضاء الاتوبيس ، ويضيء السائق أنوار الاتوبيس الداخلية ، مهدئا الركاب ، فى حديث طويل باللغة الصربية ، سرعان مايقف المترجم لينقله الى الانجليزية ، فى هدوء وجدية ، وكأنه يترجم خطابا فى هيئة الامم المتحدة .. ومفاد هذا الحديث الطويل أن عجلة الاتوبيس قد انزلقت الى القناة الاسمنتية وأن علينا جميعا أن نهبط من الاتوبيس ، ونتعاون على رفعه ، واعادته الى وسط الطريق ، ذلك اذا كنا ننوى أن نواصل الرحلة !! ..

اذا علمت أن الاتوبيسات تكون عادة مكيفة الهواء ، وانها بعد ساعات من التحرك تكون قد تحولت الى مايشبه الفرن ، اذا علمت هذا ، عرفت أى نوع من التحصينات كان علينا أن نجريها حول أجسامنا ، حتى ننتقل الى خارج الاتوبيس ، حيث تصل البرودة الى ١٥ درجة تحت الصفر . وما أن ننتهى من هذه التحصينات حتى نروح نقفز من الاتوبيس واحد وراء الآخر الى الطريق ، الرجال أولا ثم الفتيات ، و .. هيلا هوب .. هيلا هوب ، يتردد صداها عاليا وسط السكون المطبق ، والاتوبيس الضخم جاثم فى مكانه يسخر من جهودنا المستميتة .. ونعاود

الكرة مرة ثانية .. هيلا هوب .. هيلا هوب ، فيتزحزح الاتوبيس قليلا ، وتتعالى الصيحات « شدوا حيلكم ياجدعان .. هانت يابنات » ، ويتحرك الاتوبيس قليلا ، وتنتقل الطاقة العضلية للأذرع الى الاجسام ، ومنها الى الاقدام ، فتنزلق هذه على الجليد ، وينطرح البدن على الارض ، غاطسا فى طبقة الجليد الكثيفة ، وتنطلق الضحكات ، فترتخى العضلات ، وتتوقف عملية الرفع بين ضحكات الضاحكين وتعليقات المعلقين .. ونعود مرة ثانية الى استئناف الجهود ، ويتزحزح الاتوبيس الى وسط الطريق ، فنواصل رحلتنا .

وتمضي ساعة ، فنلتقي بعربة نقل ضخمة قادمة من الاتجاه المقابل ، وحش كبير أخذت تتضح معالمه العملاقة شيئا فشيئا من خلال الظلمة التى خرج منها . وتتوقف العربتان لالتقاط الانفاس ، وحساب السنتيمترات التى ستتحركان فى حدودها حتى لايحدث التصادم ، وحتى لا تنزلق احداهما الى القناة الاسمنتية .

الوحش الضخم بحمولته الهائلة ، وعجلاته التى تصل الى ارتفاع قامة الشخص ، وذلك الجنزير الحديدى الغليظ الذى يلتف حول عجلاته حتى لا تنغرس فى الجليد أو تنزلق فوقه ، ذلك الوحش يتحرك فى بطء شديد وسط الصيحات المتبادلة بين سائقه وسائقنا .. خطوة بخطوة .. مع كل الحرص والحذر .. والتوقف بعد كل حركة لدراسة الحالة ثم استئناف الحركة ... خطوة بخطوة .. وفجأة يهبط الاتوبيس مرة ثانية الى القناه ، فيفسح مجالا لعربة النقل التى تمضي فى طريقها ونبدأ نحن مرة ثانية نتسلح بالملابس الثقيلة ، تمهيدا للهبوط من الاتوبيس ، و ... هيلا هوب .

قلنا اننا بدأنا رحلتنا فى الحادية عشر صباحا .. وقد كان وصولنا الى سراييفو فى تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل .. ستة عشر ساعة من العذاب والقلق والمغامرة . وصلنا الى الفندق فى حالة من الاعياء والاجهاد والجوع الشديد ، لقد مضت ١٢ ساعة منذ أن تناولنا طعام الغذاء ، ولعل البرد وما بذلناه من مجهود قد ضاعفا أثر هذه الساعات ، هبطنا مباشرة الى المطعم ، فاكتشفنا أن ادارة الفندق مع تأخيرنا عن الوصول قد تصورت أننا أجلنا الرحلة الى اليوم التالى ، فلم نجد بالمطعم الا طباخا ومساعده كانا فى حالة نوم عميق ، ولكن حالة الجوع الشديد لم تسمح بالتردد .. على التو تم اختيار مجموعة من الفتيات تكون مهمتها تسخين الطعام بمساعدة الطباخ ثم غرفه فى الاطباق ، ومجموعة أخرى من الشبان للعمل كجرسونات .. وما هى الا بضع دقائق ، حتى ارتفعت طرقعات الملاعق والشوك والسكاكين ونعم الجميع بوجبة ساخنة مضاعفة الكميات ، بفضل سماحة الزميلات اللائى تولين التوزيع فى المطبخ !!.

الركاب اتراك .. والنقوط كازوزة :

اذا كنا نذكر رحلة زغرب — سراييفو من بين الرحلات العديدة ، لما كان فيها من جهد ومغامرة ، فنحن نذكر فى نفس الوقت رحلة اخرى خلفت لنا ذكريات لطيفة . كنا قد أنهينا عملنا فى اسطمبول ، وركبنا القطار فى طريقنا الى « بلوفديف » فى بلغاريا . وما أن تحرك القطار ، وانتهينا من التلويح لهيئة المودعين ، وعلى راسهم مرافقنا الدبلوماسى التركى توفيق بيك ، حتى اخذنا اماكننا فى

الدواوين لرحلة سوف تستمر أكثر من ١٢ ساعة ، ننتقل بها من قارة آسيا الى قارة أوروبا .

كنا بالضبط ، فى السادس عشر من اكتوبر .. يوم عيد ميلادى .

وكنا قد اتفقنا قبل بداية الرحلة على أن تحتفل الفرقة بأعياد ميلاد الاعضاء التى تحل أثناء الرحلة احتفالا عاما .. وكلفنا أحد الاداريين باستخراج تواريخ أعياد الميلاد من وثيقة السفر الجماعية لهذا الغرض .

كنا قد اشترينا من اسطمبول بما بقى معنا من عملة تركية ما يكفى لعشائنا بالقطار ، وان كان البعض قد تغاضى عن هذا التحوط ، ونفذت نقوده تحت اغراء فاترينات اسطمبول وأسواقها العامرة بالمشتروات .

وفى زحمة الاجراءات ، ونتيجة للانشغال بضمان وجود الجميع فى أماكنهم بالقطار ، كنت قد نسيت مسألة عيد الميلاد هذه ، الى أن أقبلت مجموعة من الفرقة تذكرنى بذلك ، قلت : فلنؤجل هذا الاحتفال الى الغد عندما نصل الى بلوفديف ، الا أن اقتراحى لم يصادف قبولا لديهم .. كانت المشكلة أين نحتفل ، ودواوين القطار لا تسع أكثر من ثمانية أشخاص ، وسرعان ما طرح الحل ، ليكن ذلك فى بوفيه القطار وبعد أن ينتهى موعد العشاء .. وظهرت المشكلة الثانية ، كيف نحتفل داخل البوفيه وقد نفذت نقودنا التركية .. وتقدم من قام بجمع العملات الصغيرة الباقية معنا ، فاتضح أنها تكفى بالكاد لشراء زجاجة كازوزة ! .. واتفق الجميع على أن هذا أكثر من اللازم ، وأن هذه الزجاجة ستكون من نصيبى باعتبارى المحتفى به .

وبالفعل ، ما أن انتهى الركاب من تناول العشاء ، حتى توجهت فى البداية طلائع لتحتل بعض مقاعد عربة الاكل .. وتسرب باقى الاعضاء ، فوصل الريس عباس بمزماره الشعبى ، ووصل عبد الله معه طبلته ، ثم جاء محمد اسماعيل عازف الترومبه وفى يده آلته .. وبدأ الحفل .

وتعانقت الترومبة مع المزمار الشعبى فى عزف لحن عيد الميلاد المعروف ، وقدمت زجاجة الكازوزة لتحتل مكانا بارزا على المائدة امامى ، وبدأت الاغانى والرقصات ، فتوافد فى أول الامر طاقم عربة الاكل ، ثم توافد الركاب من الاتراك ، واستأذنوا فى المشاركة ، فافسح لهم مكانا بيننا ، وارتفعت أكفهم بالتصفيق ، وتضاعف حماسهم ، فاستدعوا جرسونات المطعم طالبين فتح زجاجات الكازوزه للجميع على طريقة النقطة المصرية فى الافراح .. وطال الحفل ، فنفذ رصيد القطار من الكازوزة ، وبدأ فتح زجاجات المياه المعدنية !! أى شيء للتحية والمجاملة .

وهكذا نجحت الخطة ، وتم الاحتفال .. اغرب احتفال واجمل احتفال شهدته بمناسبة عيد ميلادى .

جداول لنوبات البكاء :

بدون ترتيب سابق تشكلت داخل وسائل الانتقال فرقة متخصصة للترفيه عن الاعضاء ، سمير جابر بأغانيه الشجية « أهو ده الى صار » لسيد درويش ، و « زينة المداين كلها » للفنان الشعبى السكندرى أمين عبد القادر، « من العين دى حبة » لمحمد رشدى ، ويرتفع التجاوب

الى قمته ، عندما يردد أغنية الشيخ سيد درويش « سالمة يا سلامه » .

وبقدر ماكان سمير مقلا فى ترديد اغانيه ، لا يستجيب الا اذا كان مزاجه معتدلا ، بقدر ماكانت هيــــام على استعداد دائم لتسلم المهمة ، لتردد أغانى شادية وفايزة أحمد وليلى نظمى .. لقد استفادت هيام من هوايتهـــا هذه ، فما أن عادت من الرحلة حتى عرفت طريقها الى الاحتراف فشاركت فى الحفلات العامة وظهـــرت لهـــا الاسطوانات .

الى جانب هاتين الكفائتين ، كان هناك أحمد عنـــان بصوته الجهورى يردد ألحان الاوبرا ، ومشيرة باغانيهـا الاجنبية ورقصاتها المصاحبة التى كانت تؤديها فى الممـر بين المقاعد تتطوح مع حركة الاتوبيس ، وجميل جـــابر باغانى « انريكو ماسياس » التى كان يطلقها دائما من المقعد الخلفى للاتوبيس .

أقول ان فرقة الترفيه الخاصة هذه تشكلت دون سابق اتفاق ، الا أن الايام أثبتت ضرورتها وحاجتنا الشـــديدة اليها .

فبعد مرور شهر أو أكثر من بداية الرحلة ، بـــدأت عوامل الاحساس بالغربة تفعل فعلها ، وبين الفتيــات على وجه الخصوص .. وكان الاتوبيس أو القطار هـــو المكان التقليدى للتعبير عن هذا الاحساس ، فجأة وبدون مقدمات تنفجر احدى الفتيات فى نوبة بكاء ... وتنتقل باقى الفتيات الى زميلتهن المنهارة ، وتبدأ المحـــايلة ومحاولات الاضحاك ، وما أن تنتهى هذه الحـــالة حتى تنفجر حالة أخرى فى مكان اخر من الاتوبيس ، وتتـــكرر

نفس القصة ، حتى أن بعض الاعضاء اقترح ، ساخرا من كثرة جداولنا ، أن نضع جدولا لبكاء الفتيات ، يعطى كل واحدة منهن الحق فى ممارسة البكاء فى يوم معين ، وينتقل هذا الحق الى واحدة اخرى فى اليوم التالى .

فى مثل هذه الحالات كانت تشتد الحاجة الى فـرقة الترفيه ، لخلق جو من المرح ، يبدد الكآبة التى كـانت تخلفها حالات البكاء الفجائية هذه .

واذا كانت حالة الاحساس بالاغتراب تأخذ عند الفتيات شكل نوبات البكاء ، فهى لدى الفتيان تتجه الى التعبير عن ذاتها فى شكل مشاحنات ، اشبه بمشاحنات الصبيان هذا يمد ساقه فى ممر الاتوبيس فيعوق الحركة فيـه ، وذاك يأخذ راحته فى النوم ، فلا يتيح وضعا مريحا لمـن يجلس الى جانبه ... وهكذا .

فى بداية الامر كنت اتدخل فى مثل هذه الحالات ، ولكنى ادركت بعد بعض الوقت عدم جدوى هذا التدخل، فكانت هذه المشاحنات ، لتفاهة أسبابها ، تصفى نفسـها بنفسـها دون الحاجة الى تدخل أحد ، بعد أن تقـوم بواجبها ، من حيث تفريغ شحنة السـأم ، والشـعور بالاغتراب الدائم .

استقبال عاطفى فى ترنوفا :

لم تكن رحلاتنا فى القطارات والاتوبيسات تتم دائمـا فى مواعيد معقولة ، فكانت لارتباطها ببرامج العمل تقتضى فى بعض الاحيان السفر فى ساعة مبكرة من الصباح . نكون

قد انتهينا من حفلتنا فى احدى المدن ، ونشط عمال الملابس الى تجميعها فى الصناديق ، وعدنا الى الفندق لتناول طعام العشاء ، ثم ننصرف الى حجراتنا لاعداد الحقائب استعدادا للسفر المبكر . وكنا فى أغلب الاحيان نلجأ الى فرقة الايقاظ . فبرغم أن ادارة الفندق كانت تتعهد بعملية الايقاظ هذه عن طريق التليفون ، وكانت تفي بتعهدها ، الا أن المشكلة نشأت عندما ادركنا أن الاخطار التليفونى لم يكن وسيلة مجدية ، فما أكثر ما استيقظ الواحد على رنين التليفون ، وتلقى رسالة الفندق ، ثم عاد لينام ثانية .

من هنا جاءت أهمية فرق الايقاظ لضمان وجود الجميع داخل الاتوبيس فى الوقت المحدد ، وكانت فرقة الإيقاظ تمر على الحجرات ، ولا تكتفى بالقرع على الابواب وتلقى الرد من الداخل ، بل كانت تصر على فتح الباب والتأكد من أن العضو قد أفاق فعلا وبدأ اجراءات الهبوط الى الاتوبيس .. وقد نجحت هذه الطريقة دائما ، رغم أنها كانت تؤدى فى أغلب الاحيان الى استيقاظ جميع نزلاء الفندق ..

كانت عملية التتميم التالية تجرى على يد مسئولى الاتوبيسات بحيث لا نتحرك الا وقد جلس الجميع فى أماكنهم . ورغم هذا ، فقد نسينا يوما أحد الراقصين فى مدينة « فارنا » ونحن فى طريقنا الى مدينة « ترنوفا » فى بلغاريا .

كان قد صعد الى الاتوبيس ، وانتهى المسئول من مراجعة الاسماء ، ويبدو أن ذلك الراقص كان قد نسى

شيئا فى صالون الفندق ، فنزل دون أن يلتفت اليه احد ، وتحركت القافلة الى ترنوفا .. وفى منتصف الطريق اكتشفنا غيابه ، فتوقفنا عند أقرب تليفون ، وقام المرافق بالاتصال بالفندق ، فقالوا له أن العضو المتخلف سألهم عن الطريق الى ترنوفا ومضى الى حاله ، فطلبت من المرافق أن يتصل بسلطات الامن لمتابعته فى الطريق وادراكه قبل أن يضل ، ونفقده لزمن طويل .. وقد عثرت عليه سلطات الامن بالفعل فى الطريق المؤدى الى ترنوفا فى حالة من الاعياء ، وقد تصور أن المسافة بين المدينتين بسيطة ، يستطيع أن يقطعها على الاقدام ، ووصل الى ترنوفا بعد ساعات من وصولنا .

وفاته بتخلفه ووصوله المتأخر هذا ، الاحتفال المبهج الذى قابلتنا به مدينة ترنوفا ، فما أن وصلت القافلة الى مشارف المدينة ، حتى وجدنا مندوبا عن مجلس المدينة فى سيارة صغيرة يقودنا الى داخلها ، لا الى الفندق كما توقعنا ، ولكن الى مبنى مجلس المدينة ، حيث وجدنا فرقة موسيقية كاملة من الاطفال تعزف ألحان الترحيب ، تشاركها فرقة أخرى للكورال ، وما أن هبطنا من الاتوبيسات حتى انهالت علينا باقات الورود من مجموعة الفتيات الصغيرات ، وبعد تبادل خطابات الترحيب والتكريم التقليدية ، عادت الفرقة الموسيقية لتردد ألحان الاغانى الشعبية ، فقمت بتسليم القائد الصغير للفرقة الموسيقية ، شعار الفرقة القومية للفنون الشعبية ، تعبيرا عن سعادتنا بهذا اللقاء العاطفى اللطيف .

خطبة ، على « ريق النوم » .

لم يكن استقبالنا يتسم دائما بهذه اللمسة العاطفية ، بل كان غالبا مايتم فى اطار من الاجراءات الروتينية ، تهبط الفرقة الى محطة السكة الحديد ، أو الى مدخل الفندق من الاتوبيس ، لنجد وفدا رسميا فى انتظارنا ، وبعد أن تنتهى عملية تسليم الورود ، وكلمات الترحيب القصيرة ، يصطف وفد الاستقبال فى مواجهتنا ، ويتلو رئيسه خطبة كاملة ، يعبر فيها عن مشاعر الود والصداقة بين شعبينا ، وعن تمنياته باقامة طيبة وجولة ناجحة فى ربوع بلده ، وعن أمله فى أن تكون هذه الزيارة خطوة نحو مزيد من التعميق لروابط الصداقة .. فى أغلب الاحيان تتم هذه الخطبة عن طريق المترجم ، أما الى الانجليزية أو الى العربية اذا توفر من يتكلمها .. ما أن تنتهى هذه الخطبة ، حتى تتطلع الى عيون اعضاء الفرقة فى ترقب يشوبه شىء من الشماته ، فى انتظار أن أبدأ خطبتى ردا على خطبة المسئول .

فاذا عرفت أن هذا الموقف قد تكرر أكثر من أربعين مرة ، سواء فى الاستقبال أو التوديع ، واذا عرفت أن مضمون خطبتى كان لا يتبدل باعتبار تكرار نفس الموقف ؛ أمكنك أن تتصور ما خلقته ميكانيكية التكرار من موقف شبه كوميدى كان يرسم على شفاه خبثاء الفرقة ابتسامة مكبوتة لها ما يبررها .

ولعل أغرب أنواع الاستقبال ، وأشدها اثارة للسخرية كان استقبالنا فى محطة لينينجراد عند وصولنا من موسكو .

المسافة بين المدينتين تصل الى ٦٢٠ كيلومترا ، ومن تأثير اجهاد اليوم الاخير في موسكو بما فيه من عمل واتصالات .. عندما وصل القطار الى نهاية رحلته كنت غارقا في نوم عميق ، رغم الضوضاء .. ضوضاء القطار والفرقة .. لم أشعر الا وأيدى أعضاء الفرقة تهزني ، فقد وصلنا الى لينينجراد ، والمترجم يسأل عنى ، حتى أهبط لملاقاة وفد الاستقبال ، وفي حالة بين اليقظة والنوم ، أخذت اضع على نفسي المعطف والكوفية ، والبس القفاز ، واضع غطاء الرأس الموسكوفي المحكم ، ثم أسير متطوحا في طرقة القطار مفسحا لنفسي طريقا بين أعضاء الفرقة الذين ارادوا أن أكون أول الهابطين للقاء وفد الاستقبال الرسمي .

كان الوقت فجرا ، ودرجة الحرارة قد هبطت الى ما يقرب من ٢٥ درجة تحت الصفر ، والجليد يتساقط في اصرار والحاح .. استطعت أن أهبط على درجات سلم القطار المعدنية المغطاة بالجليد بصعوبة شديدة ، وكدت أن انزلق عليها لولا أذرع أعضاء الفرقة التي سندتني ، ثم تابعتني .. صفعتني لسمة الهواء البارد ولمسات الجليد الثلجية على وجهي ، فبدأت أفيق من حالتي الوسط بين اليقظة والنوم .. ومددت يدى أصافح أعضاء وفد الاستقبال ، وأتلقى باقات الورد ، مجاهدا أن أرسم على فمي ابتسامة دبلوماسية ، وأن أمنع نفسي من تثاؤب يلح على .

بدأ خطاب الترحيب ، ورغم الدوافع الاخوية الطيبة التي أملته ، فقد جاء طويلا مسهبا ، ويدى تمتد بين الحين

والحين ، تزيح مافوق وجهى من جليد ، وبرودة الجو ، وبرودة رسيف القطار بالذات بدأت تتسلل الى قدمى . بعد دفء النعاس فى القطار المكيف الهواء ، وشعرت انى افقد الاحساس بنفسى من أسفل الى أعلا !! ... مشط القدم ، ثم الساق ، ثم الركبة .. فأضرب قدمى بين الحين والآخر فى رصيف المحطة ، بمثل ما يفعل الحصان الملول فى موقف العربات الحنطور عندنا .

وأخيرا انتهى الخطاب ، والتصفيق ، وجاء دورى .. واصبحت المشكلة ، هى كيف أفتح فمى المزموم ، دون أن أتثاءب ؟! .

لا ادرى ماذا قلت ، وماذا فعلت .. بل لم أشعر بنفسى الا وأنا أهرع مع باقى الاعضاء الى الاتوبيسات التى اقلتنا الى الفندق .

طريق التيه الى البانيا .

وقريب من هذا ماحدث عند وصولنا الى البانيا ، وان اختلفت التفاصيل .

عندما وصلنا الى يوغوسلافيا ، وبعد أن انتهت عروض الفرقة وحفلاتها فى زغرب وسراييفو ، تم اخطارى برغبة وزارة الثقافة اليوغوسلافية ، فى أن أتوجه بمفردى الى بلغراد لدراسة بعض التعديلات فى خط السير ، ولبحث الوسيلة التى سننتقل بها بعد انتهاء عملنا فى يوغوسلافيا أما الى الادرياتيكى لنأخذ الباخرة من تريستا ، أو الى اليونان حيث نأخذها من بيريه ، ولكن الاحتمال الوحيد

الذى تخوفوا منه هو سفرنا برا من يوغوســـلافيا الى ألبانيا .

المهم .. وصلت بلغراد ، وأجريت مع المسئولين عدة اجتماعات ، ثم ذهبت لمقابلة الاستاذ يحيى عبد القادر ، سفيرنا فى يوغوسلافيا فى ذلك الوقت ، فكان لطيفا أشد اللطف ، شاعرا بالعناء الذى أصابنا من جراء الرحـــلة الطويلة التى كانت قد وصلت فى ذلك الحين الى شهرها الخامس . عرضت عليه النتائج المختلفـــة ومخـاوف المسئولين اليوغوسلاف من الطريق البرى الى البانيا . وكانت قد وصلت أخبارا تفيد أن رحلة اليـونان قد الغيت .

قال ، الامر متروك لكم ، وفقا لتقديركم ، وعليك أنت أن تقرر ما يمكنكم عمله وأنتم فى هذه الحالة من التعب والاجهاد ، وعلى أى الاحوال يمكن سفركم الى مصر من يوغوسلافيا ، وإستطيع أن أدبر لكم هذا .

رغم رغبتى الشديدة لزيارة البانيا ، التى لم أكن قد زرتها من قبل ، ورغم وجودها على خط سير الرحـلة منذ البداية ، فقد أقنعت نفسى تحت ضــــغط الارهاق بتأجيل الزيارة الى فرصة قادمة ، والعودة الى القاهرة . وكان لكلمة العودة الى القاهرة فى ذلك الوقت ، وقــع السحر على النفوس ، كانت العودة تعنى للجميع شــيئا كبيرا جدا ، ولكنها كانت تعنى بالنسبة لى ، بالاضـــافة الى هذا الشىء الكبير ، نهاية مسئوليتى المنهكة التى دامت فى ذلك الحين لاكثر من خمسة أشهر .

عـــدت الى فندق سلافيا الكبير ، وأحلام العـــودة

تتخاطفنى ، وصورة الوصول الى مصر وملاقاة العـــائلة والاصدقاء ، والاسترخاء ، والنوم الثقيل الذى لا يقطعه فى قسوة رنين التليفون ، يحمل مايفيد انتهاء النـــوم وضرورة التحرك لانجاز عمل ما ..

وفى الصباح الباكر أفقت على رنين التليفـــون .. ! والمستشار الثقافى فى سفارتنا يقول أن تيرانا قد اتصلت به ، وأن سفارتنا هناك ألحت الحاحا شديدا بوجوب تنفيذ الزيارة ، وأن الغاء هذه الزيارة سيسيىء الى علاقتنا بألبانيا ، وسيصيب المسئولين الالبانيين الذين استعدوا لها استعدادا كبيرا بخيبة أمل لا نحبها لهم . وقال أن سفارتنا فى تيرانا ستجرى اتصالا تليفونيا آخرا عنـــد الظهر لتتحدث معى شخصيا ، وأن ســـيارة السفارة ستكون فى انتظارى عند الفندق لتقلنى الى السفارة .

تم الاتصال ، وتحت ضغط الاسباب التى ذكروها ، وجدتنى أعد وعدا قاطعا بالسفر الى البانيا .

انتهت جولتنا فى يوغوسلافيا ، وتحركت قافلتنا فى الصباح الباكر من مدينة سكوبيا فى الجنوب الشـــرقى ليوغوسلافيا .. بدأت الرحلة وسط جو لطيف نسبيا ، والشمس تسترق أطلالة أو أخرى بين ثغرات السحاب الملبد ، والقافلة الطويلة المكونة من الاتوبيسات الثلاثة ، وعربات النقل الثلاث ، تسبقها العربة الصغيرة التى تقل هيئة المرافقين ، والتى تقوم بدور المرشد فى الطـريق الذى لم يسبق لهم جميعا أن اجتازوه .. بدأت مظاهر العمران تتناقص ، وأصبحنا نخترق معالم الطبيعة البكر وعند أحد المفارق ، توقفت العربة الصغيرة ، وتوقفـت

القافلة من خلفها ، وجرى حديث خافت بين هيئة المرافقين ومجموعة السائقين .. حديث طويل باليوغوسلافية لم أفهم منه شيئا .. وفى نهاية الحديث بدا وكأن الجميع قد اتفقوا على أمر واحد ... حاولت أن أفهم شيئا من كبير المرافقين ، فقال إن النقاش كان يدور حول الطريق الصحيح للحدود الالبانية ، فلم يسبق لاحد منهم أن اجتاز هذا الطريق .

واصلت القافلة مسيرتها ، متمهلة فى طريق بدات تخشوشن وتضيق .. وقرب الغروب ، وجدنا انفسنا على شاطىء البحر !!

وتعالت الصيحات باليوغوسلافية ، واحتد النقاش مرة ثانية ، ولكننى فهمت هذه المرة بدون ترجمة ، اننا سلكنا الطريق الخطأ ، واننا بهذا انحرفنا الى موقع من مواقع الشاطىء اليوغوسلافى ... بدا رزاز خفيف يتساقط ، فأسرعنا الى العربات ، ودارت القافلة حول نفسها بعناء ، لتعود مرة ثانية الى التقاطع الذى خلفناه .

الرزاز الخفيف ، تحول الى امطار ، والامطار تحولت الى سيول ، واظلمت السماء تماما ، وسارت القافلة فى طريقها الى الحدود الالبانية ، وطرقعات السيول المنهمرة ، يضخمها فراغ الاتوبيس .

بعد ١٢ ساعة من بداية رحلتنا ، وفى تمام السابعة مساء ، انفرجت اسارير كبير المرافقين ، والتمع وجهه بالفرحة ، وقد اوشك أن يتخلص من حمولته البشرية ، فقد لاحت الحدود الالبانية . توقفنا ، واعارنى كبير

المرافقين مظلته ، لاهبط بها متخطيا الحدود تحت وابل المطر المنهمر ، لملاقاة وفد المسئولين الالبانيين الذى ينتظر على بعد ليس بالقليل من الحدود المشتركة .

أخذت اغوص بقدمي فى الوحل ، وأنتزعهما منه بصعوبة وقد علقت بكل قدم كمية كبيرة من الطين ، يزداد حجمها كلما تقدمت خطواتي ، والمظلة التى أحملها تهتز بشدة تحت وطأة حبات المطر الغليظة ، حتى وصلت الى الجانب الالبانى من الحدود ، ومددت يدى ، أحيى المستقبلين وأعرفهم بنفسى ، وأتلقى باقة الزهور التى يحملونها وقد تهدلت تحت وقع الامطار ، ثم .. بدأت كلمة الترحيب الرسمية !!.. الى هنا ، لم أتمالك نفسى وفقدت كافة مكتسباتى الدبلوماسية ، وقاطعت الحديث شاكرا ، ثم ملحا فى سرعة نقل الاعضاء والمهمات الى العربات الالبانية .

وكانت عملية نقل المهمات أو انتقال الاعضاء ، تحت تلك الامطار الكثيفة ، قطعة من العذاب الحقيقى .

كنا نتصور أن الشق الصعب من الرحلة قد ولى ، ولكننا اكتشفنا بعد ذلك أننا فى بدايته ، فالطريق من « الباساد » على الحدود الالبانية الى العاصمة تيرانا ، عبارة عن عمليات صعود وهبوط متوالية فى مناطق جبلية ترتفع آلاف الامتار ... والذى لاشك فيه أن مهارة السائق الالبانى الذى استطاع أن ينطلق بنا فى سرعة نسبية محسوسة ، فى هذا الطريق الصاعد الهابط المتعرج وسط سيل الامطار ، مهارة لا يستهان بها ... ولو أن هذه المهارة لم تنجح فى تبديد الزعر الشديد

الذى أحس به أعضاء الفرقة ، والذى كانت ترجمته ، حالة الصمت المطبق التى سادت العربة ، والانفاس المعلقة ، والعيون الزائغة ، التى تنتقل من المشـــاهد الجانبية للطريق الى السائق وهو يأخذ طريقه متغنيا بأغنية شعبية البانية .

عندما وصلنا تيرانا ، وجلسنا فى مطعم فندق «دايتى» الفخم والوحيد فى المدينة ، أقبل المايسترو أحمد عبيد ، وكان قد حل محل المايسترو شعبان ابو الســـعد فى يوغوسلافيا ، لارتباط الاخير بحفلات الباليه بالقاهرة ، أقبل فى حالة من الانهيار التام ، وطلب أن يتحدث الى على انفراد ، وبعد مقدمة طويلة ، ناشدنى بصفة شخصية أن أعفيه من قيادة الفرقة الموسيقية ، اذا كانت هنـــاك حفلات خارج العاصمة ، عجبت لهذا المطلب ، وسألته عن السبب ، فقال انه مصاب بمرض الخوف من الاماكن المرتفعة ، وانه تماسك طوال الرحلة من الحدود لـــكى لا يضيف جديدا الى مشاكلنا التى كان يلمسها . طيبت خاطره ، لكنه لم يقتنع او يهدأ ، الا بعد أن أحضروا له خريطة تبين تضاريس البانيا ، وشرحوا له أن زياراتنا بعد ذلك لن تتطرق الى المنطقة الجبلية ، بل ستقتصر على السهول .

عثمان « كاباليه » فى اسطمبول :

نتيجة لطول الفترات التى نقضيها فى الاتوبيس ، أصبح السائق عنصرا هاما فى حياتنا ، والحقيقة أن سائق

الاتوبيس فى أى دولة من الدول الاشتراكية التى زرناها كان يتحول فى الساعات القلائل الاولى من احتكاكنا به ، الى زميل وصديق ، وكنا نشعر أنه يتصرف باحســـاس مسئوليته عنا وعن راحتنا ، حتى فى الامور التى لا تدخل ضمن اختصاصه كسائق ، وأنه كان عنصرا حيويا فى طاقم المرافقين .. لقد استطعنا بعد عدة أســـابيع من بداية الرحلة ، أن ننسى صورة ســـائق الاتوبيس المصرى التى نعرفها ، وأن نعدل من علاقتنا وتعاملنا معه ، بما تمليه شخصيته من احترام ، وما تكشف عنه من تحضــر وثقافة .

لقد تذكرت هذا ، وأنا فى طريقى الى جمصة داخــل اتوبيس سياحى ، فقد وجدت السائق بملبسه النظيف أقرب الى النماذج التى عرفناها فى أوروبا ، الا أن هذه الصورة تبدلت تماما فى نهاية الرحلة ، عندما بدأ يجمع البقشيش ، ويثير المشاكل مع الذين لم يدفعوا ، أو الذين دفعوا دون تقديره للمطلوب ... وأنا لا أريد أن أعقــد مقارنة بين سائقنا وسائقهم ، مع وجود اختلاف واضح فى المستوى الحضارى ومستوى المعيشة ، والمزايا المادية التى يتمتع بها السائق فى أوروبا الشرقية ... ففى هذا ظلم لسائقنا .

من بين هؤلاء جميعا ، مازلت أذكر « عثمان » ســائق الاتوبيس التركى الذى تسلمنا من مطار انقرة ، حتى سافرنا من اسطمبول بالقطار . عثمان هذا كان لطيفــا مع الجميع ، خدوما ، ليس لديه مانعا بعد انتهاء عمله الرسمى ، أن يلبى رغبة مجموعة من أعضاء الفـــرقة ،

فيصحبهم فى الاتوبيس الى المكان الذى يسعون اليه ؛ كأن يكون أحد المحال التجارية ، أو موقعا للنزهة .

انتهينا من عملنا فى أنقرة ، وسافرنا الى اسطمبول ؛ وبدأت مفردات اللغة التركية تتردد بفهم أو بدون فهم على أفواه أعضاء الفرقة ... ومن بين هذه الكلمات كانت كلمة « كاباليه شيرشيه » ، وهو اسم السوق الكبير فى اسطمبول ، الذى يشبه سوق الحميدية . وأعجبت الكلمة الراقص احمد عنان ، فأخذ يرددها بمناسبة وبدون مناسبة ، وكان مشوار السوق من المشاوير التى كثيرا ما قام بها عثمان ارضاء لرغبات هواة الاسواق والمشتروات بالفرقة ... وفى الطريق الى السوق ترتفع عقيرة أحمد عنان بالنداءات الحماسية « كاباليه عثمان » . ثم اعجبه التركيب فصار يردده كلما رأى عثمان ... وفجأة ، ثار عثمان اثر واحد من هذه النداءات وصمم على انزال حمولته من رواد السوق ، وفى منتصف الطريق اليه .. « ليه بس ياعم عثمان ؟ » .. ثم توسلات متواصلة ، ولا فائدة ! .. بل اخذ يدفع بهم ، واحدا اثر الآخر خارج الاتوبيس فى عصبية .. وكانت الطامة الكبرى عندما وصل الى يسرية التى كانت ضمن موكب السوق ، فانهارت فى موجة بكاء حادة ، كيف يحدث ان تعامل هذه المعاملة وهى الضيفة على البلد .. وارتبك عثمان ، وتنازل عن تصميمه .. انما اصر بعد ذلك أن يلتزم حدود مهمته الرسمية دون توسع فى الخدمات الخاصة لاعضاء الفرقة . وتناقل الاعضاء هذه القصة ، اثناء العرض مساء ، وهم يتساءلون عن السر فى التحول

الذى طرا على عثمان .. واخذ كل واحد فى تعليل ثورته بسبب من الاسباب ، ووصلت القصة والتساؤلات الى احد المرافقين ، فضحك ، وقال لهم ان « كاباليهشيرشيه» تعنى السوق المغلق ، أو الذى له غطاء ، وان كلمة « كاباليه » تعنى مغلق او مقفول .. وان اقتران اسم عثمان بكاباليه ، يصبح نوعا من السباب .. قريب مما نصف به الشخص بأنه « قفل » ..

وبدات حملة لمصالحة عثمان ، واثبات حسن نية احمد عنان ..

شعبطة .. من الحدود الى بودابست :

ولعل اغرب الرحلات التى صادفتنى ، كانت من المجر الى يوغوسلافيا ، فقد أخطرتنى سفارتنا فى المجر ، انها تلقت مشروعا لبرنامج الزيارة والعمل فى يوغوسلافيا . وبمراجعة ذلك البرنامج ، اكتشفت بعض الاخطاء الفنية فى وضع البرنامج ، وحاولت عن طريق الاتصال التليفونى أن أصل الى حل لهذه المشكلة .. الا أن هذه الاتصالات المعقدة التى كانت تتم عن طريق سفارتنا فى يوغوسلافيا ، زادت المشكلة تعقيدا .. الى أن وصلنى من سفارتنا فى بلغراد مايفيد ضرورة وصولى قبل الفرقة للاتفاق النهائى على برنامج العمل .

تم حجز مكان بالقطار السريع من بودابست الى بلغراد ، وفى يوم السفر ، صمم مندوب وزارة الثقافة المجرية ، السيد يوهاس ، على اصطحابى فى عربته الى المحطة .

كان وصولنا الى المحطة قبل موعد قيام القطار بحوالى ساعة ، وكان الجو باردا ، والجليد يغطى رصيف المحطة والقطارات والمقاعد المخصصة للانتظار ، واكتشفنا ان قطار بلغراد لم يصل الى الرصيف بعد ، فاقترح السيد يوهاس أن نذهب الى بوفيه المحطة لنتناول مشروبا ساخنا حتى يحين موعد تحرك القطار .. وفى البوفيه كانت أنغام الموسيقى الغجرية تتردد عالية ، يعزفها فنان مجرى بالملابس الشعبية التقليدية ، تصاحبه بالغناء فتاة بالملابس الشعبية أيضا .

شربنا الشاى .. واخذت اقطع الوقت بالحديث مع السيد يوهاس ، قلت له ان هذه المحطة تذكرنى بقصة قديمة حدثت لى عندما كنت مديرا لمسرح القاهرة للعرائس ، وخلال رحلة شبيهة عام ١٩٦٥ ... واخذت استعيد الاحداث ، وأروى للسيد يوهاس وقائع التجربة الغريبة التى حدثت لى .

كنت قد تلقيت من يوغوسلافيا أيضا مايفيد عدم صلاحية برنامج العمل الذى وضعته وزارة الثقافة اليوغوسلافية ، فقد كان برنامجهم يتضمن تقديم عرض « ماتينيه » فى أحد المسارح ، ثم « سواريه » فى نفس اليوم بمسرح آخر .. علما بأن الانشاءات الخشبية لمسرح عرائس الماريونيت تحتاج فى فكها وتركيبها الى يوم كامل .

وكما حدث هذه المرة ، تركت الفرقة فى بودابست ، وقد تبقى لها عرضان فى مدينة « سيكاشفاهير فار »القريبة من العاصمة . فى منتصف الليل تحرك القطار من

بودابست ، وأخذت الوح لوفد وزارة الثقـــافة المجـرية باقة الورد التي كانوا قد قدموها لي بمناسبة السفر . ثم دخلت الى كابينتى الانيقة فى عربة النوم التى سأمضى بها الساعات الخمس حتى وصولى الى بلغراد .. خلعت المعطف والقبعة والكوفية والقفاز ، ثم أخرجت البيجامة من الحقيبة ، وارتديتها تمهيدا لنوم يبلغنى بلغراد .. وقبل النوم ، أخذت اراجع محتويات الظـــرف الذى تسلمته من مندوب وزارة الثقافة ، وبه أوراق السفر ، وحجز النوم حتى بلغراد .

اطفأت نور الكابينة ، وبدأ النوم يتسلل الى عينى . ولاشك أننى نمت نوما عميقا ولمدة ساعتين على الاقل ، الى أن سمعت طرقا معدنيا على باب الكابينة ، فخيل لى وقتها اننى لم أنم بعد .. دخل مفتش الجوازات المجرى يطلب جواز السفر ، وفهمت من هذا أننا على وشـــك الوصول الى الحدود .. سلمته الجواز دون أن نتبادل أى حديث ، فتناوله وأغلق الباب .. وعـــدت إلى الاستلقاء مفتوح العينين ، فلا جدوى من محاولة النـوم ثانية ونحن على مشارف الحدود ، بما فيها من اجراءات أمن وجمارك مشتركة .

كانت الساعة حوالى الثانية بعد منتصف الليل . وبعد عدة دقائق ، دخل جندى أو صف ضابط مجرى بملابسه العسكرية الى الكابينة ، وبيده جواز السفر الخاص بى ، واضاء النور بلا استئذان ليقول مشيرا الى الجـــواز « نيشت جود » .. ورغم أننى فهمت معنى كلمتـــه الالمانية ، الا أن تعبير التساؤل الذى كان على وجهى انصب

على سبب عدم صلاحية الجواز .. فقال بالروسية « نيبت خراشو » . كان القطار قد توقف عند مدينة صغيرة على الحدود المجرية ، فأشار بيده بما يفيد أن اتبعه ، وانصرف .

أسرعت بارتداء ملابسي ، وأدخلت حاجياتي الى الحقيبة ، ثم خرجت اليه ، فوجدته في نهاية ممر القطار سار بي حتى مبنى المحطة وتركني في صالة شبه مظلمة الا من مصباح « سهاري » صغير في آخرها ، وبها بعض المقاعد والموائد ، ويبدو أنها تستخدم صباحا كبوفيه . دخل من باب جانبي ، ثم خرج بعد قليل من نفس الباب ضابط الجوازات بزيه الرسمي الشبيه بزي عساكر هتلر الذي كنا نراه في افلام الحرب العالمية الثانية ... وأخذ يشرح لي بالالمانية ، كيف أن هذا الجواز غير صالح للعمل .. وبرغم أن معلوماتي في اللغة الالمانية لا تتعدى بعض المفردات ، فقد فهمت من كلامه ، وبمساعدة اشاراته ، ان جواز سفري غير مسجل به اى خاتم أو تأشيرة من اى جهة مجرية رسمية .. وانه يحاول الاتصال ببودابست على أمل أن يجد مسئولا يفتي في هذه الحالة .

والواقع انني كنت مسجلا ضمن وثيقة السفر الجماعية للفرقة ، وقد احتفظت معي بجواز السفر الخاص لمواجهة الاحتمالات ، وقد ظهرت ضرورته عندما أصبح على أن اسافر منفردا الى بلغراد . وعليه فقد سلمت الوثيقة والجواز الخاص بي للسفارة لاتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل صلاحيات السفر من الوثيقة الى الجواز .. ويبدو

ان السفارة قد اكتفت باجراءاتها الداخلية دون أن تحاول اعتماد هذا الاجراء من السلطات المجرية ، مكتفية بشرح مطول لاسباب نقل الصلاحيات الى جواز السفر ، وباللغة العربية ، الامر الذى لم يكن يحمل أى معنى لدى ضابط الجوازات على الحدود .

تركنى ضابط الجوازات ، فاتجهت الى أحد المقاعد المرصوصة بالقاعة ، وجلست على المقعد المعدنى الذى كان يمتص كل برودة الجو الشائعة فى القاعة ، وأخذت أتأمل المكان من حولى .. بوفيه فقير ، ارضه اسمنتية ، ليست به اية وسيلة للتدفئة .

سمعت من خارج القاعة ، طرقات حذاء عسكرى منتظمة ، ثم ظهر بالباب الذى دخلت منه ، جندى جوازات يحمل حقيبتى وقد نقلها من القطار ليضعها الى جانبى فى صمت تام ، ثم استدار ليعود من حيث أتى .

وبعد قليل أطلق القطار صفارة طويلة ، بددت سكون الليل ، فوجدتنى انهض بحركة لا ارادية ، ليس لها من هدف سوى أن أتطلع الى قطارى من نافذة القاعة ، وأشهد حركته البطيئة فى أول الامر ، ثم عرباته المتلاحقة تتسارع حتى تختفى عن ناظرى .. فى طريقه الى بلغراد ، حيث ينتظر مندوب وزارة الثقافة اليوغوسلافية فى محطة القطار !.

اتجهت الى الباب الذى خرج منه ضابط الجوازات ، فوجدته مقبلا ناحيتى ، يسلمنى جواز السفر ، ويقول ما فهمت منه ان الاتصالات كانت غير مثمرة ، وأن على أن أعود مرة ثانية الى بودابست . حاولت أن أشرح له

تارة بالانجليزية ، وتارة بفتات الالمانية والروسية ، اننى لا احمل معى نقودا ، واننى احتاج الى تذكرة سفر الى بودابست بدلا من تذكرة بلغراد التى معى .. ويبدو أن محاولاتى للحديث معه لم تكن ناجحة ، اذ أنه أشار الى المقعد الذى كنت أجلس عليه ، بمـــا يفيد ان أجلس وانتظر .

من فرط تعقد الموقف ، ومن فرط يأسى ، هبط على برود شديد ، فجلست ، وجذبت مقعدا آخرا مددت عليه ساقى ، وللمت اطراف المعطف اغطى به جسمى ، وجذبت القبعة على وجهى .. محاولا النوم !!. ولكنى لم انم ، افكارى تتتابع ، مدينة صغيرة على الحدود ، ربمـا فى مستوى القرية .. لا احد يتكلم الانجليزية أو الفرنسية .. ليس معى نقود لاشترى تذكرة سفر الى بودابست .. فماذا افعل ؟ .. وعاد ينتابنى شعور عدم المبالاة كنوع من الدفاع الداخلى فى مواجهة هذا الظرف المعقد .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل ، عندما اقبل ضابط الجوازات ، وبرفقته جنديا تكرم برفع حقيبتى ، وأشار الضابط ان أتبعه ، فتحرك الركب الى قطار يقف على احد أرصفة المحطة ، وصعدنا الى القطار فى عربة تشبه عربات الدرجة الثالثة عندنا ، ولكن باعتبارها املى فى الوصول الى بودابست ، بدت بمثابة أفخر عربات النوم بالقطارات السياحية . دار حديث مع الكمسارى تخللته اشارات أصابع الضابط الى شخصى الضعيف ، قابلتها على الفور من جانبى ابتسامات مشجعة

مؤيدة ، وجلست الى جانب حقيبتى بعد أن غـادر رجال الجوازات القطار .. واطمأن الكمسارى على حـالتى ، فانصرف عنى .. وتحرك القطار .

بدأ الاطمئنان يتسرب الى نفسى ، وسخرت من مخاوفى السابقة .. كلها أربع ساعات وأكون مرة ثانية فى بودابست حيث يمكن اصلاح ما أفسدته السفارة .. بعـد خمس دقائق أو سبع دقائق على الاكثر .. توقف القطار وبدأ هبوط الركاب ، وقلت لنفسى ، قطار قشاش سيقف على جميع المحطات . وبعد قليل لاحظت أن جميع الركاب قد هبطوا ، وأن وقوف القطار قد طال .. ثم أقبل الكمسارى يطلب منى الهبوط فهذه هى نهاية رحلة القطار .. حاولت بالاشارة أن أسأل ، وكيف أذهب الى بودابست ؟ فأفادنى بلغة الاشارة أيضا ـ وما كان انفعها فى هذه المغامرة ـ ان على أن أهبط وانتظر قطارا آخرا سيتحرك بعد قليل الى بودابست .

تبدت لى الحقيقة عارية بلا تذويق .. هذا الكمسارى هو آخر من يعلم تفاصيل قصتى ، ولا منـــاص مـن « الشعطة » فى القطارات حتى بودابست .

وقد كان !! ..

كنت أقول كلمة واحدة « بودابست » ، فيشير أحدهم الى قطار ما ، اتجه اليه ، يتحرك القطار ، يأتى الكمسارى فأسلمه الظرف الذى يحوى التذاكر الخاصة بالسفر الى بلغراد ومعها تذاكر عربة النوم ، يحاول أن يستفهم منى ، واحاول الا أقول شيئا ، يستأذن بابتسامة لكى يمضى بعيدا يدرس هذه التذاكر والاوراق ، والقطـــار يقطع بعض

الكيلومترات الى بودابست ، ويعود الكمسارى وقد اختفت ابتسامته ، وينطلق فى حديث طويل بالمجرية لا أفهم تفاصيله ، ولكنى يقينا أدرك أن مضمونه تساؤلا عن سبب ركوبى فى هذا القطار المتجه الى بودابست ، بينما تذاكرى كلها تؤهلنى للسفر الى بلغراد ، وكنت فى نهاية الامر أردد على طريقة طرزان « باسبورت نيشت جود » ... وكانت الخاتمة الحتمية لهذا المشهد فى كل مرة ، ان أجد نفسي ، احمل حقيبتى واهبط الى أول محطة يقف عندها القطار .

كنت اهبط ، فاسأل عن قطار بودابست الثانى ، وانتظره اذا لم يكن مقيما بالمحطة ، أو اذهب لاجلس فيه الى أن يحين موعد تحركه ، وتعود القصة لتتكرر بحذافيرها ، فأجد نفسي من جديد على رصيف محطة ما أسأل عن القطار المتجه الى بودابست . كل هذا وانا احمل حقيبة السفر الثقيلة ، أبدلها من يد الى يد ، واقدامى تغوص تحت ثقلها فى الجليد الآخذ فى الذوبان مختلطا بالطين والرمل والحصى . الى أن وصلت الى احدى المحطات ، فتبرع كمسارى القطار ان يقودنى الى ناظر محطتها .

كان مبنى المحطة عبارة عن غرفة واسعة على شكل نصف سداسى ، واجهتها التى تطل على القطارات زجاجية تشرف على الموقع بأكمله ، وبداخل الغرفة العديد من الاذرع التى يتم عن طريقها تحويل خط سير القطارات .

استقبلنى الرجل الجالس على المكتب الكبير المواجه للحائط الزجاجى ببشاشة وتعاطف ، فأخذت أقص عليه

قصتى بالانجليزية ، وبنفس الابتسامة البشوش استوقفنى ، ورفع سماعة التليفون وطلب رقما ، ثم تكلم بضع كلمات بالمجرية ، قدم الى السماعة بعدها ، وعلى الفور أدركت أنه قد أحالنى الى من يفهم الانجليزية ، ورحت اشرح موقفى فى اسهاب ، ومن الطرف الآخر لا تصلنى سوى كلمة واحدة « ييس » بمعنى نعم ، ولكنها كانت منغمة ، مرة مبتورة قاطعة ، وأخرى ممطوطه فاهمة .. انتهت روايتى للموقف ، وناولت سماعة التليفون لناظر المحطة حتى يستمع الى ترجمة ماقلت .. ولدهشتى الشديدة ، وجدته يضع السماعة مكانها وينهى المكالمة ، ثم يتحفنى بالمزيد من الابتسامات والبشاشة . أشار الى فوتيل جلدى قريب من مكتبه طالبا منى أن أستريح ، وسألنى « تشاى ؟ » ، فأمنت برأسى ، وكان على بعد ذلك أن أستمتع بفنجان شاى ضخم يتصاعد منه البخار ، جعلنى أنسى مشكلتى مؤقتا .

أخذت أتطلع الى المشهد من حولى ، بعد أن انصرف مضيفى الى عمله ، وكان نور الصباح قد عم المكان رغم احتجاب الشمس .. وعشرات العربات تجرها خيول قوية ضخمة تفرغ حمولتها من الاخشاب داخل عربات البضاعة ، ثم تعود الى منطقة الاشجار الكثيفة التى أتت منها ، مخلفة عجلاتها أخاديدا غائرة ، يختلط فيها الجليد بالطين .

بعد قليل استدعى ناظر المحطة أحد الاشخاص ، فتناول حقيبتى ، ونهض ناظر المحطة يشد على يدى فى ود ومحبة

وهو يردد « جودباى .. جودباى » ، باعتزاز المتمكن من اللغة الانجليزية .

وجدت نفسى من جديد داخل قطار يتجه الى بودابست لتتكرر نفس القصة مع الكمسارى ، ولاهبط بحقيبتى المحطة التالية .. كنت خلال مغامراتى هذه قد قطعت أكثر من ثلاثة ارباع المسافة .. فما أن ركبت القطـــار التالى ، حتى اقسمت الا اغادره الا فى بودابست ، واخذت أعبر العربات باحثا عن أكثرها ازدحاما .. واتخذت مكانا فى آخر المقعد لصق شباك القطار .. ولحسن حظى ، ما أن توقف القطار فى المحطة التالية وقبـــل أن يأتى الكمسارى ، صعد الى العربة مئات الركاب ، عمال ، فلاحون ، عائلات .. وكان من نصيبى أن تحتل الاماكن المجاورة لى ، عائلة متعددة الافراد ، امرأة عجــوز ، وسيدة فى منتصف العمر ، وثلاثة رجال ، وطفلان ... تزاحموا فى المكان الذى لم يكن ليتسع لكل ذلك العدد .. ولسعادتى الغامرة ، ازدحم الممر بالركاب الذين لم يجدوا اماكن لجلوسهم .. لقد جاء الفرج .. ولن يصبح مـــن السهل على الكمسارى أن يصل الى مكانى الا بعد ان يمر على هذه المئات .. والتصقت بشباك القطار محتميـــا بالعائلة الكبيرة التى جاورتنى .

ما أن استقرت العائلة فى مكانها ، حتى خرجت من الحقائب أرغفة العيش الضخمة ،وخراطيش « السلاما » الطويلة ، وزجاجات العصير الكبيرة .. أخرج احد الرجال مطواه من جيبه ، ونظف حدها بمنديله ، ثم أخذ يقطع الرغيف الضخم ويفرد على كل قطعة شريحة سميكة من

« السلاما » .. وأخرجت السيدة الصغيرة اكوابا معدنية من حقيبتها ، وأفرغت لكل واحد كوبا من عصير الفاكهة .. وراح الكل يلتهم ويزدرد مايقدم اليه بشهية مفتوحة .. وعيني ترتفع فى حذر من حين الى حين تتابع هـذا الموقف المثير .. لقد جعلني الدفء والاستقرار النسبى اشعر بالجوع الشديد الذى كنت قد نسيته فى زحمة الاحداث ، فالساعة الآن الثانية عشرة ظهرا ، ولم يدخل جوفي طعاما منذ التاسعة من مساء اليوم السابق ، وزاد من احساسي بالجوع ذلك المجهود العضلي والعصبي الذى بذلته منذ بداية رحلة التشرد ، أضف الى هذا أن فنجان الشاى الذى أنعم به على ناظر المحطة الكريم قد زاد من تفتح شهيتى .

ما أن انتهى هذا المشهد المسيل للعاب ، ونفض الجميع عن ملابسهم بقايا الخبز ، حتى جذبت السيدة ، وكانت تجلس فى مواجهتى ، أصغر الاطفال وأجلسته على ركبتيها .. وراحت تناغيه وتدلله ، فيستجيب الطفل لمناغاتهـا بتطويح قدميه ، لتصطدما فى كل مرة بمنتصف قصبة ساقى .. وعلى قدر مبالغة السيدة فى المناغاة والتدليل ، كان حماس الطفل لحركة قدميه ، وكان تضاعف الم بالخبطات المنتظمة المتوالية التى تقع على ساقى .. وذهبت سدى كل محاولاتى لتغيير جلستى تفاديا لضربات الطفل المدلل ، فباقى الاسرة تحتل كل ملليمتر من المقعد بما لا يسمح بأيسر حركة .. وانتهت هذه الازمة عندما دبت الغيرة الى قلب الطفل الثانى ، وأقبل ليحشر نفسه متمحكا بينى وبين السيدة مانعا قدم الآخر من الوصول

الى .. ففتحت السيدة حقيبتها ، وأعطت الطفل الذى نهشته الغيرة قطعة شيكولاته ، أخذ يقضمها فى تلذذ ، ويستحلبها ، ويمد اصبعه الى فمه متتبعا آثارها الهاربة فى تجاويف فمه .. ماسحا يده فى ملابسى !.

بابتسامة غاية فى المجاملة ، كنت أمد يدى مبعدا يده المتسخة عن سروالى ومعطفى .. فيعود ليضعها ثانيــة فى مكانها الاول ، منشغلا عنى الى قطعة الشيكولاته التى فى يده ، والعائلة تتابع هذا المشهد ، متصورة أننى أتعاطف مع الطفل الصغير وأداعبه ، فترتسم ابتسامات السعادة على الوجوه .

وفجأة .. ظهر الكمسارى !!..

كالعادة سلمته ظرف التذاكر .. وكالعادة سببت له محتويات الظرف وبياناتها ارتباكا ، فاستأذن فى أن يأخذ الاوراق لمراجعتها .. وكالعادة ، وافقت منتظرا المشهد التالى فى مسرحيتى المتكررة .. عاد ليبدى نفس الحيرة : ورددت نفس الكلمات التى كنت أرددها دائما ، وبدا يتكلم عن هبوطى فى المحطة التالية ، ولكننى فى هــــذه المرة ، وبقدر ما استطعت ان اصبغ صورتى بالحــــدة والحزم ، قلت فى اصرار « بوليس .. بودابست » .. ويبدو أنه أقتنع ، أو أن ازدحام القطار لم يســـمح له بمزيد من التوقف عند حالتى ، فأخذ ظرف التذاكر معه كرهن ، لحين وصولنا الى بودابست .

وغنى عن الذكر ، أن العائلة الجالسة حولى قد أفزعها لفظ « بوليس » الذى رددته باصرار ، ولا أدرى ما الذى

فهمته من ترديدى لهذه الكلمة ، الا أن معـــالم الجـدية والحذر قد أطلت من كل العيون .

أخيرا .. وصلنا بودابست ، وانصرف الركاب ، وبقيت على رصيف المحطة ، أنتظر الكمسارى الذى سـيأخذنى الى البوليس .. وكنت أشعر بنوع من التلذذ السادى ، وأنا أتصور سلطات الامن تتصل بالسفارة ، لتسلم المواطن المصرى ، وأخذت أعد الكلمات الحادة التى سأوجهها الى ذلك المسئول الذى سبب لى كل هذا العنـــاء بسبب اهماله .

وأقبل الكمسارى من بعيـــد ، وأشرت اليه برأسى ما معناه ، هيا الى البوليس ، لكنه نظر الى فى سأم ، وناولنى ظرف التذاكر ، مشيرا بيده مامعناه « انصرف .. بلاش دوشة .. » ، غاظنى منه هذا التصرف ، وقبل أن أتكلم كان قد تركنى وابتعد تماما .. لقد انتهت ورديته ويريد أن يعود الى بيته ، ما الذى يدفعه الى فتح قصـة جديدة ، بوليس وتحقيق وأقوال ؟!.

ركبت أول تاكسى صادفنى ، وذكرت له اسم الفندق الذى تقيم فيه الفرقة ، وكانت ساعة المحطة تشير الى الواحدة والنصف ظهرا .. ساعتان من بودابست الى الحدود فى عربة النوم الفاخرة .. ثم عشر ساعات ونصف لاقطع نفس المشوار « شعبطة » وتزويغ فى القطارات .

وصلت الى الفندق وطلبت من الاستقبال أن يدفـع التاكسى ، بينما مدير الفندق ، يلاحقنى بأسئلته عن سر عودتى فى فضول شـديد ، كانت الفـــرقة مازالت فى « سيكاشفاهير فار » ، فالتهمت غذائى بأسرع ما أمكننى ،

واندفعت الى غرفتى التى لم تكن قد شغلت بعد ، أرتمى فى نوم عميق .

حوالى السابعة مساء استيقظت بعد أن بذل أعضاء الفرقة مجهودا كبيرا فى ايقاظى ، وقالوا ان مندوبة وزارة الثقافة قد عرفت بالقصة من مدير الفندق ، وأجرت اللازم نحو حجز جديد فى قطار منتصف الليل المتوجه الى بلغراد ، بعد أن تم تدارك التأشيرات اللازمة فى جواز سفرى ، وأنها قد حضرت لتبلغنى بما تم انجازه .. ولكنى ما أن تصورت نفسى مرة ثانية على طريق العذاب هذا ، حتى ثارت أعصابى وكدت أن أصاب بانهيار عصبى ، ورفضت بشدة السفر منفردا ، وصممت على تأجيل السفر بحيث أسافر مع الفرقة بعد يومين ، ولتنتظر بلغراد تصحيح برامجها ، الى حين حضورى مع الفرقة .

***

أخذ السيد يوهاس يستمع الى قصتى هذه مندهشا ؛ فقلت له ان الاغرب من هذا ، جاء عندما سافرنا بعد ذلك بالاتوبيس لنعبر الحدود المجرية فى موقع آخر غير موقع القطار .

فقد وصلت مع الفرقة الى الحدود ، وكان الجو مشرقا والجليد الذى يغطى كل شىء يلمع عاكسا أشعة الشمس الساقطة عليه ، ورأينا على البعد الاتوبيس اليوغوسلافى الذى سينقلنا الى مدينة « سيبوتيتسا » التى سيقدم بها مسرح العرائس حفلته الاولى . وقد أخبرنى ضابط الحدود ان بامكانى عبور المنطقة الحرام

من الحدود المشتركة ، والوصول الى الوفد اليوغوسلافى ، حتى أطلب منهم انتقال الاتوبيس الى جوار الاتوبيس المجرى ليسهل نقل الحقائب من واحد الى الآخر دون عناء . وأعطيت الاوامر للجندى المكلف برفع الحاجز الذى يمثل آخر حد للحركة فى الاراضى المجرية .. وكان يفصل مابين هذا الحاجز ، والحاجز الخشبى المقابل عند قوات الحدود اليوغوسلافية ، ما يشبه الكوبرى ، عند منتصفه علامة تشير الى الحدود الرسمية المشتركة بين البلدين .. وكانت المسافة بين الحاجزين تصل الى مايقرب من مائة وخمسين مترا ، رحت أخطر على أرض الكوبرى الفاصل بين الحاجزين ، ووقع أقدامى يتردد عليه رغم الجليد الذى يغطيه .. وما أن وصلت الى الحاجز الآخر ، حتى صدرت الاوامر برفعه ، لاجد وفد الاستقبال يتقدم ناحيتى بالورود وعبارات التحية .. أبلغتهم رغبة الجانب الآخر فى تحرك اتوبيسهم ، فرفض رجال الحدود، وقالوا ان فى هذا مخالفة خطيرة ، فهو يعنى دخول الاتوبيس الى أرض دولة أخرى بدون تصريح .

وما العمل اذا ؟ .. استمرت المفاوضات بين وفد المرافقين ورجال الحدود ، وانتهت الى حل وسط ... ستسمح الحدود اليوغوسلافية للاتوبيس بالسير متقهقرا بظهره الى العلامة التي فى منتصف الكوبرى ، وعلى الجانب المجرى أن يقوم بنفس الشيء .

وعدت مرة ثانية الى المجر ، وفى كل مرة كانت تصدر أوامر المسئولين برفع الحاجز فى نداء عسكرى مرتفع .. وأخبرت رجال الحدود المجريين بهذا الحل السعيد ،

فترددوا بعض الشيء ، ولكنهم احسوا أن الرفض المجرى في مقابل التسامح اليوغوسلافي ، سيعتبر تعنتا .

وهكذا اخذ كل اتوبيس يتقدم على الكوبرى بظهره ، حتى التقيا عند العلامة التى تشير الى الحدود الرسمية، وبدأ أعضاء الفرقةينقلون الحقائب من ظهر هذا الاتوبيس الى ظهر ذاك ، وتحرك بنا الاتوبيس بعـــد ذلك الى يوغوسلافيا .



كنت احكى هذه الفقرة من حكايتى ، وقد أحسست ان السيد يوهاس ، لم يعد معى بانتباهه الكامل .. وما ان توقفت عن الكلام حتى قال فى هدوء « هل تسمح بأن تطلعنى على جواز سفرك ؟ » .. قدمته اليه ، وأخذ يتصفحه مقطبا الجبين ، وهب واقفا ليقول « كما توقعت .. لقد نسى الفندق هذه المرة أن يختم الجواز من جهات الأمن المحلى ، وربما كان ينتظر اليوم السابق لسفر الفرقة .. » .

لم انطق حرفا واحدا .. ويبدو ان التعبيرات التى ظهرت على وجهى عكست حالة الذهول وخيبة الامل ، لان السيد يوهاس سارع بتطييب خاطرى ، ونظر الى ساعته ، ثم قال ان الوقت مازال يسمح بتدارك هذا النقص ، واخذ الجواز وانصرف مهرولا ..

هل يمكن ان يحدث هذا ؟ .. هل يقرص المؤمن من جحر مرتين ، وفى نفس الموضع ؟.. ماالذى كان سيحدث لو لم يتوفر وقت الفراغ قبل تحرك القطار ؟.. ولو لم أحكى بالصدفة هذه القصة للسيد يوهاس ، على سبيل

تمضية الوقت ؟.. فى المرة الماضية كانت هناك عملية نقل من وثيقة جماعية الى جواز سفر .. فما العذر فى هذه المرة ، وهذا الجواز أتنقل به من بلد الى بلد منذ بداية الرحلة ؟ .. وتصورت نفسى أكرر نفس التجربة السابقة فى نفس مدينة الحدود التي هبطت اليها فى الرحلة السابقة .. وأواجه نفس المشاق والصعوبات التى واجهتها فى المرة السابقة !! . انقبضت .. ولم يبدد انقباضى وصول السيد يوهاس وقد أنجز الاجراء المطلوب .. ولم يبدده اجتيازى للحدود .. فقط تبدد عندما وضعت قدمى على الرصيف الصلب لمحطة بلغراد .

أزمة خبز وماء !

صبحى ، وقطع اللحم الصغيرة :

انتهى العرض المسرحى فى « يينا » ، احدى مدن المانيا الديموقراطية ، وذهبنا الى المطعم لتناول العشاء . بدأت أطباق الطعام تنتشر على الموائد ، كنت أسير مع المرافق العراقي أحدد له أصحاب الوجبات الخاصة ، من الدجاج المسلوق ، وفقا لاوامر الطبيب ، عندما سمعت حوارا مرتفعا فى الطرف الآخر من المطعم .. ذهبت الى مصدر الصياح المرتفع ، كان الاستاذ صبحى عازف « الفلوت » ثائرا ، رافضا ألطعام الذى يقدم اليه ، متمسكا بأن يأكل من دجاج المرضى .. والاستاذ صبحى فنان هادىء حيى بسيط فى تعاملاته ، لم يكن فى يوم من أيام الرحلة الطويلة التى مضت مصدر متاعب أو اشكالات .. لذلك حرصت على تقصى أسباب ثورته المفاجئة .. قال « أنا لا آكل اللحوم .. » ، قلت « وماذا تأكل ؟ » قال « اكل من الدجاج الذى يقدم للأعضاء » ، قلت « وجبات الدجاج عددها محدود ، سبق الاتفاق عليه تبعا لعدد المرضى ؛ لو أنك كنت قد اخطرتنى من قبل برغبتك هذه لامكن

تحقيقها ، لكن الذى أعرفه أنك تأكل معنا دائما مايقدم من طعام ، وقد مضى علينا فى الرحلة أكثر من شهرين ، لم اسمع طوال ذلك الوقت أنك لا تأكل اللحوم » ، قال « لم اكن أحب أن أثير أشكالا بطلبى الخاص ، وعندما كانت تقدم لى وجبة تتضمن اللحم ، كنت اترك اللحم وآكل باقى مايقدم لى » .

عدت الى المرافق أسأله امكان تبديل هذه الوجبة ، فأفاد باستحالة ذلك ، حيث أن المطعم الذى نأكل فيه ، قد أعد هذه الوجبات خصيصا لنا ، والمفروض أن يكون قد أغلق أبوابه منذ أكثر من ساعة ، ولكنه يفتح أبوابه للفرقة فقط ، ولحين أن تنتهى هذه الوجبة . وهكذا بقيت التكشيرة معلقة على وجه الاستاذ صبحى حتى صباح اليوم التالى .

عندما وصلنا ليبزج فى اليوم التالى ، وأثناء ترتيب مواعيد الوجبات ونوعيتها ، حرصت على اضافة اسم الاستاذ صبحى الى قائمة اكلة الدجاج .

على مائدة الغذاء كان الطبق الرئيسى يشبه « كباب الحلة » عندنا ، فأخذت أسأل عن الوجبات الخاصة التى كنت قد حددتها ، وكنت اريد أن افاجىء الاستاذ صبحى بالدجاج حتى تزول التكشيرة .. وجدت الجرسون مقبلا يدفع مائدة متحركة عليها طعام المرضى ، فأشرت اليه ، ثم أخذت اطوف بناظرى بحثا عن الاستاذ صبحى فوجدته .. يضحك ويتحدث ويلتهم فى شهية واضحة طبق « كباب الحلة » ..

غاظنى هذا .. لماذا كانت ضجة الامس اذا ؟ ..

صرفت الجرسون ، وأشرت الى المايسترو شعبان ابو السعد ليجيء ويكون شاهدا على الواقعة ، وذهبنا الى مائدة الاستاذ صبحي دون أن يشعر باقترابنا ، وشعبان ابو السعد يكتم ضحكاته بصعوبة .

قلت « استاذ صبحي .. انت بتاكل لحمة ؟ » ، نهض مرتبكا ، واخذ يقول اى كلام ، الى أن أسعفه الله بالتفسير الساذج « أصلها مقطعة حتت صغيرة !! » .. الى هذا الحد لم استطع مواصلة اظهار الغضب ، فانفجرت مع شعبان فى عاصفة من الضحك شاركنا فيها كل من على المائدة ، بما فى ذلك الاستاذ صبحي نفسه .

كانت المسألة فى اليوم السابق ، مجرد وسيلة للتفريج عن الضيق النفسى ، واسلوب من اساليب تفريغ شحنة الغربة المركبة .

الضانى والخنزير .. وقصص اخرى :

كان الاكل وأصنافه ومواعيده ، أخذ بنود المفاوضات الاساسية التى تبدأ عند وصولنا الى كل دولة جديدة .. دائما ، برنامج العمل ، مواعيد الحفلات ، البرامج الرسمية من استقبالات وزيارات ، مصروف الجيب واسلوب صرفه .. ثم مسألة الاكل .

ماذا نأكل ، وماذا لا نأكل ؟.. قوائم المرضى والذين امر لهم الطبيب بطعام خاص ، مواعيد الطعام وعلاقتها بأوقات التدريب والحفلات .

لاشك أن السؤال الاول كان يدور حول لحم الخنزير ،

وبعد استبعاده من القائمة ، كان السؤال التالي يدور حول باقى أنواع اللحوم والطيور والاسماك ، كان البعض مثلا لا يطيق لحم الضأن ، وعندما كان يقدم بطريق الخطأ أو فى أحد المطاعم التى كنا نتناول فيها وجباتنا السريعة أثناء رحلاتنا بالاتوبيس ، كانت أنوف هذا البعض تتشمم رائحة لحم الضأن على بعد عشرات الامتار ، فلم يكن من السهل خداعهم . كذلك كان البعض لا يأكل السمك . لهذا كنت أختار الوجبات الحيادية التى يقبلها الجميع ، وكنت أكررها تسهيلا لمهمتى .. وكان هذا فى أغلب الاحيان يفقدنا فرصة الاستمتاع بالوجبات والاصناف الوطنية الخاصة بكل مدينة أو اقليم ، ولكن من الذى كان يستطيع المغامرة بتقديم هذه الاصناف ، ويتحمل وجهات النظر المتناقضة فيها ، ٩٠ وجهة نظر ، تحتمل كافة ضروب وانواع التناقض .

كان التجمع لوجبات الطعام احد مشاكلنا الرئيسية ، وخاصة فى وجبتى الافطار والغذاء ، فوجبة العشاء كان امرها هينا ، لاننا كنا عادة نهبط من الاتوبيس بعد العرض أو التدريب ونتوجه فى وقت واحد الى المطعم .. أما الافطار والغذاء ، فكان توافد الاعضاء على المطعم يتفاوت تفاوتا كبيرا ، فينسحب على مدى ساعتين أو أكثر .. البعض يكون فى تمام السابعة صباحا جالسا على مقعده فى المطعم منتظرا طعام الافطار ، والبعض الاخر كان يصحو من نومه فى التاسعة أو العاشرة .. ونفس الامر فى وجبة الغذاء ، تدخل الدفعة الأولى الموجودة بالفندق عندما يحل الموعد المحدد ، ثم تبدأ أفواج القادمين

من الاسواق بمشترواتهم ، افواج متباعدة ، تجعل مهمة المطعم شاقة للغاية .

من هنا كان لابد من وضع لائحة خاصة بوجبات الطعام .. فى أول وصولنا الى المدينة ، يتم اخطار الاعضاء بمواعيد الوجبات ، ويكون من حق العضو أن يتخلف عن هذا الموعد لمدة ربع ساعة ، والذى يصل بعد هذا الموعد يوقع عليه جزاء خاصا ، بالخصم من مصروف الجيب الخاص به ، والذى يتجاوز النصف ساعة لايكون من حقه دخول المطعم .. وفى الافطار كانت تحدد ساعات تقديم الوجبة ، من السابعة والنصف الى العاشرة مثلا ، ويغلق باب المطعم بعد هذا الوقت ، وكان هواة النوم الثقيل غالبا ما يفضلون الاستمتاع بهوايتهم ، مضحين بوجبة الافطار .

ثم بدأ نوع من التحايل ، بطلب الوجبات فى الحجرات تهربا من قيد المواعيد ، واستجدت شكوى المطعم من كثرة الوجبات التى تقدم فى الحجرات ، فأضيفت قاعدة جديدة تقضى بأن يقتصر تقديم الوجبات فى الحجرات على المرضى .. وكانت تخطر ادارة المطعم بأرقام حجراتهم يوميا .

وكانت المشكلة التى تواجه المطاعم عند وصولنا ، هى دائما مشكلة الماء والعيش ، فكان الطلب على هذين البندين يتجاوز اى معدل تعود عليه المطعم . نحن نشرب كميات كبيرة من الماء اثناء الوجبات ، ونطلب ثلاثة أضعاف المعدل العادى للخبز الذى يقدمه اى مطعم ، وتجنبا للمشاكل والمضايقات كان هذا البند يدخل فى التعليمات الاساسية لكل فندق نصل اليه ، وكان الجرسونات

ينفذون هذه المهمة ، وعلى وجوههم ابتسامة تعكس تعجبهم لهذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة الشعوب آكلة العيش .

وقد اكتشفت بعد مرور أكثر من شهر على بداية الرحلة ، ظاهرة عامة بالنسبة للأعضاء ، وهى نزيف اللثة وبدأ الشاكون من هذه الظاهرة يشكلون طابورا طويلا فى رحلة المستشفى اليومية . وفى جميع الحالات ، أكد الاطباء أن مرجع هذه الظاهرة الى نقص فيتامين « سى » فى غذاء الفرقة بشكل عام عن المعدل العادى الذى تعودوا عليه .. وبدأ صرف كميات ضخمة من فيتامين « سى » كانت توزع على الاعضاء على سبيل « الجراية » اليومية .

اصوات غريبة فى انقرة :

كانت لنا مع التفاح قصة طويلة فى هذه الرحلة ، ومن فرط توافره وتقديمه فى كل وجبة يوميا ، بدأ التمرد عليه ، وفى أواخر الرحلة كنت تجد الكثير من الاعضاء ، قد تناولوا وجبتهم ، وانصرفوا ، تاركين كوم التفاح على مائدتهم لم يمس ... وقد ظهر رد فعل علقة التفاح اليومية على الاعضاء ، عندما عثروا على البرتقال واليوسفى فى أسواق يوغوسلافيا ، واصبح من المناظر المألوفة ، وصول كل عضو الى الفندق ، يحمل باعتزاز حمولته من البرتقال التى سينفرد بها فى حجرته .

الا ان بداية علاقتنا بالتفاح كانت مختلفة أشد الاختلاف ، فما ان هبطنا من الطائرة فى أنقرة ، وعرف

كل واحد مكانه بالفندق ، حتى انفرط عقد الفرقة فى الاسواق ، وكان الاتفاق مع وزارة الخارجية التركية ، التى كنا ضيوفا عليها ، على أن تصرف للاعضاء ما يقابل وجباتهم ، بحيث تستريح من هذه المهمة ، وقد حاولت أن أناقش هذا البند ، الا أن اصرارهم عليه كان مرجعه الى عدم توفر القدرة على تجهيز وجبات لهذا العـــدد الضخم فى مكان واحد .

تفرق أعضاء الفرقة فى المدينة ، وعندما انتهيت مـن ترتيبات العمل والزيارة مع المسئولين الاتـــراك ، رجعت الى الفندق ، وأثناء سيرى فى الممر الذى يقـــود الى حجرتى ، وصلت الى سمعى أصوات غريبة تصدر بشكل منتظم عن جميع الحجرات .. نفس التكتكة تصدر من كل حجرة ، ورحت ـ وقد اثير فضـــولى ـ أقـــرع الابواب مستفسرا عن السر فى هذه الاصوات ، وكان الرد يجىء لا من شاغلى هذه الحجرات ، ولكن من اكوام قشر الفستق فى كل حجرة .. لقد استقر الجميع ـ ودون اتفاق سابق بينهم ـ على أن تقتصر وجبة العشاء عـلى الفستق والتفاح التركى ! والحقيقة ، انه على كثرة ماقدم الينا من تفاح طوال هذه الرحلة ، لم تصل الجودة فى أى بلد من البلاد ، الى جودة التفاح التركى .

... أبوكم ضحك عليكم !

اصرار الجانب التركى على عدم التكفل بوجبات الطعام والاكتفاء بتقديم مقابل مالى ، سبب لى الـــكثير مـن القلق .. كيف سيتدبر الاعضاء أمر وجباتهم ؟.. كيف

سيمكنهم التفاهم باللغة التركية ؟.. كيف سيتحاسبون مع المطاعم ، ويدبرون وجباتهم بحيث لا تتجاوز المقابل المالى الذى تسلموه ؟..

ولكنى اكتشفت بعد قليل أن مخاوف لم تكن فى محلها .. ففي ظهر اليوم الاول من أيام العمل بأنقرة ، وكنت فى طريقى من فندقنا الى الفندق الذى تقيم فيه بقية الفرقة ، سمعت وانا أسير أمام احد المطاعم نداءات ودعوات باللغة العربية الدارجة صادرة من داخل المطعم ، فتوقفت ونظرت داخله ، فوجدت عددا لايستهان به من اعضاء الفرقة يحتلون اغلب موائده ، وسمير جابر يسير مع الجرسون التركى يتفاهم معه على الاصناف المطلوبة لكل مائدة ، مستخدما حصيلة لا بأس بها من الكلمات التركية واسماء صنوف الطعام ، وكان القاسم المشترك فيها هو طبق « اليالنج باتلجان » .. أو ما نسميه عندنا « المسقعة القرديحى » .. وكان السر فى الاصرار على هذا الطبق ، سعره المنخفض بالنسبة الى باقي الاصناف . وكانت النتيجة ، ليس فقط قدرة عالية فى التفاهم مع المطاعم ، ولكن أيضا مهارة خارقة فى اختيار الاصناف الرخيصة المشبعة ، التى تسمح باستغلال فائض ميزانية الطعام فى مشتروات أخرى من التى تزخر بها متاجر تركيا .

فى اسطمبول ، اذكر اننى خرجت مع مجموعة من الفرقة فى جولة بالسوق الشعبى الكبير والشبيه بسوق الحمبدبة « كاباليه شرشيه » ، وفى نهاية جولتنا شعرنا بالجوع ، وكان الوقت قرب المغيب ، وفى طريقنا

الى الكوبرى الكبير متجهين الى المدينة ، اقترح سامى يونس مدرب الفرقة أن نجرب اكلة السمك الشعبية التى يقدمونها على يسار مدخل الكوبرى . على شاطىء الدردنيل ينتشر باعة السمك المطهى .. بعضهم فى قوارب عائمة قرب جدار الرصيف ، وكل قارب مجهز بوابور جاز وطاسة قلية ، يصطاد الرجل السمك من الدردنيل وينظفه فى القارب ، ثم يطهيه على الوابور داخل القارب ، وتتسلم طلبك عن طريق سبت خاص بالقارب معلق بحبل طرفه مثبت أعلى الرصيف .. والبعض الآخر يقيم مايشبه المطعم الشعبى الصغير على الشاطىء ، أشبه بعربات باعة الفول والطعمية عندنا .. أدوات تجهيز السمك مقليا أو مشويا ، ثم دكة أو دكتان ، ولوح خشبى على قوائم منفصلة يمثل المائدة .

اقترح سامى يونس أن نجرب هذه المطاعم الشعبية ، ونتناول عشاءنا على شاطىء الدردنيل ، وكان أول ماصادفنا رجل كبير السن يقلى السمك على جانب الكوبرى مباشرة ، فرحب بنا باللغة العربية التى يجيدها ولما كانت اماكن الجلوس لديه محدودة بالنسبة لعددنا ، فقد اتفقنا على أن تجلس فى هذه الاماكن مجموعة الفتيات ، فجلست فى ضيافة الرجل العجوز جيلان وماجدة ونادية ودنيس ومريم ، وقلت لهن أننا سنجلس فى المطعم الشعبى الذى يبعد عن هذا المطعم عدة أمتار ، وكان المطعم الثانى أكثر تحضرا ، فما أن جلسنا على المقاعد ، وليس على دكة ، حتى أقبل الرجل يحيينا بالتركية ، ثم وزع على المائدة المغطاه بمشمع أطباق السلطة ، وكميات

مهولة من البصل الاحمر ، واتبع هذا بأطباق السمك المشوى ، وهو يشويه على طريقة الكباب المصرى ، نفس « المنقد » ، ومروحة التهوية .. كانت وجبة شهية انتهينا منها لنعود الى باقى المجموعة التى خلفناها عند صديقنا العجوز ، فوجدت البنات وقد انتهين من وجبتهن غارقات فى وصلة ضحك على حديث الرجل العجوز .

وعندما أخذنا طريقنا على الكوبرى الموصل الى قلب مدينة اسطمبول ، اعترفت جيلان بسبب وصلة الضحك هذه ، فقالت ان الرجل قال مغتاظا بعد انصرافنا الى الرجل المجاور له ، مشيرا الى ، « أبوكم ضحك عليكم ، اجلسكم عندى ، وراح هو يأكل عند الرجل الثانى ، لان اسعاره أغلى من أسعارى ... » .

انتقام من رومانيا ، فى الاتحاد السوفييتى :

وتجربة المقابل المالى للوجبات كانت تجربة شاقة ، احسست بمشقتها فى رومانيا ، حيث تكرر ماحدث فى تركيا للمرة الثانية والاخيرة .

فى تركيا كنا قد وصلنا لتونا من مصر ، وكان عدم انتظام الوجبات أو عدم كفايتها لا يشكل خطورة كبيرة فالجو دافىء ، ونحن مازلنا بعد فى بداية الرحلة ، لم تستنفد طاقتنا بعد . أما فى رومانيا ، وكانت الزيارة فى شهر نوفمبر ، فالبرد شديد ، والجهد المبذول فى الحفلات والتنقلات كبير ، سفر من بوخارست وحفلة فى بلويتشى ثم العودة الى بوخارست فى نفس اليوم ، ونفس الشىء بالنسبة لحفلة برايلا فى اليوم التالى ... وهكذا .

فى واقع الامر،لم تكن مخاطر هذا النظام مجهولة لدى ، بعد خبرة الرحلة السابقة التى قمت بهامع مسرح العرائس. لقد صادفت فى رحلة العرائس نفس هذا الاصرار على التحلل من مسئولية الطعام وصرف مقابل مالى فى رومانيا ويوغوسلافيا ، وعانيت من هذا معاناة شديدة ، فيما يتصل بصحة الاعضاء وقدرتهم على مقاومةالبرد القارس، والجهد المتصل . كان ذلك مع مسرح العرائس ، فما بالك بفرقة رقص ، تحتاج من الراقص ، لياقة بدنيـة كاملة لا تتوافر الا اذا توافرت التغذية المناسبة .

وقد حاولت ان أثنى المسئولين فى رومانيا عن موقفهم ولكنهم اصروا اصرارا تاما ، وكحل وسط ، عرضوا أن يتفقوا لنا مع مطعم الفندق على أسعار خاصة ، شريطة أن نتولى نحن محاسبة الفندق . ملت الى هذا الاقتراح لسببين ، أولهما ضمان الحد الادنى من التغذية للأعضاء وثانيهما تحقق القدر المعقول من النظام . فالوجبـات المشتركة كانت احدى وسائل التنظيم فى الرحلة ، يتم خلالها الاتفاق على مواعيدالتدريبات والعروض والزيارات. ويمكن خلالها ابلاغ الاعضاء بما يستجد مـن تغييرات ضرورية مفاجئة فى برامجنا .. وبغير لقاء المطعم هذا ، كان التجمع الوحيد المتاح أثناء التدريبات أو العروض ، ولم يكن هذا التجمع كافيا لابلاغ التعليمات أولا بأول .

جربنا هذا النظام ، وتمت محاسبة المطعم يوما بيوم ، فاكتشفت أن ثمن الوجبات التى يقدمها لنا المطعم ، بعد ذلك التخفيض الخاص ، يتجاوز المقابل المادى الذى تقدمه وزارة الثقافة الرومانية ، بل ويكاد يلتهم أغلب مصروف

الجيب الخاص بالاعضاء . أحسست بعدم جدوى هذا النظام ، فأفرجت للأعضاء عما بقى لهم من حساب الطعام ومصروف الجيب .. وعلى الفور توجهت جموعهم الى محلات « الاتومات » ، حيث يتم الاكل وقوفا ، أشبه بمحل الامريكين عندنا ، وحيث تنخفض تكاليف الوجبة الى الخمس تقريبا .

الا أن الذى جعلنى لا اقبل تكرار هـــذا النظام ، ما اكتشفته من أن عددا كبيرا من الاعضاء كان يفضل أن يأكل أقل القليل ، على أن يستفيد من المبالغ المتوفرة فى شراء الهدايا والملبوسات . وقد ظهر رد فعل هــذه الفترة جليا ، أما فى حالات الاصابة بالمرض نتيجة لنقص التغذية وعدم وجود المقاومة الكافية فى الجسم ، أو فى طريقة اقبالهم على الطعام فى الاتحاد السوفييتى ، عندما انتقلنا اليه عقب زيارتنا لرومانيا ، وحيث الطعـــام ضمن الاقامة الكاملة ، لقد بدت عمليـــات التعـــويض واضحة ، مما لفت نظر المرافق السوفييتى ، فجعله يطلب من المطعم تجاوز المعدلات التقليدية للوجبة .

كوارع خنزير ، لـ « شق الريق » :

وتحضرنى بهذه المناسبة واقعة مضحكة حـــدثت فى بلغراد ، أثناء رحلتى السابقة مع مسرح القاهرة للعرائس .. فقد كان الجانب اليوغوسلافى قد أصر على عدم تكفله بالوجبات .

كنا فى رمضان ، وقد أمضينا نصفه أو أكثر فى المجر ، ووصلنا الى بلغراد فى حوالى ثلثه الاخير . كنت قـــد

عانيت الامرين فى تنظيم مواعيد وجبات الصائمين وغير الصائمين ،والطلبات الخاصة فى السحور والافطار ، ولعل هذاالعناء ، ورغبتى الدفينة فى التخلص منه ، هو الذى جعلنى أوافق ببساطة على مطلب الجانب اليوغوسلافى فى التحلل من مسئولية الاكل .. وقد سألت المرافق عن الاماكن القريبة من الفندق والتى يمكن للاعضاء تناول طعامهم بها ، فقال انه عبر الشارع الذى يقع فيه الفندق يوجد مطعم خدمة ذاتية « سيلف سيرفيس » ، به كل أنواع الطعام وبأسعار غـــاية فى الاعتدال .. فتم ابلاغ الفرقة بهذه المعلومات .

وفى أحد الايام ذهبت لاتناول طعامى فى ذلك المطعم ، كان الوقت بعد الغروب بحوالى نصف ساعة ، فأبصرت أعضاء مسرح العرائس رجالا ونساء وقد احتلوا جانبـــا خاصا من موائد المطعم ، والحوا باشاراتهم أن أدنو منهم ، ففعلت ، وعرفت أن هذا الاستدعاء الملح سببه رغبتهـم فى اسداء النصح بتجربة طبق شوربة الكوارع الممتاز .. وانهم كل يوم « يشقوا ريقهم » بعد الصيام بالشوربة ، ثم ينخرطون فى « مصمصة » الكوارع الشهية .

كان النظام فى المطعم يقتضى المرور فى خط سير طويل يبدأ بمائدة عليها عدد كبير من الصوانى البلاستيك ، تتناول واحدة ، ثم تمر على فاترينة طويلة بها كل أصناف الطعام ، موضح على كل صنف سعره ، وبلا حاجة الى الحديث ، يكفى أن تشير الى صنف معين ، حتى يضعه العامل على الصبنية ، وهكذا حتى تصل الى مــــكان الاكواب والشوك والملاعق والسكاكين والخبز ، ثم فتاة

على الآلة الحاسبة ، تلقى نظرة خاطفة على محتويات الصينية ، وتروح أصابعها تعبث فى أزرار الآلة الحاسبة لتقدم لك فى سرعة خاطفة ورقة عليها المبلغ المطلوب ، تدفعه وتحمل الصينية بعد ذلك الى المائدة التى تختارها .

تناولت صينيتى ، وأخذت طريقى أختار الاصناف التى أريدها ، وعندما وصلت الى الاطباق التى أوصى بهـا اعضاء الفرقة ، سألت الرجل بالاشارة عن كنهها ، فرفع ساقه عاليا وأشار اليها وهو يقول « بورك » ! .. شكرته بابتسامة وتابعت طريقى وأنا أكتم ضحكتى بصعوبة .

كوارع خنزير مرة واحدة ، بعد كافة الاشكالات التى اثيرت فى بودابست ، حول اذا ماكانت الفراخ التى تقدم اليهم قد تم ذبحها وفقا للطريقة الشرعية ، وحول اذا ماكانت السكاكين التى تقطع بها اللحوم التى تقدم اليهم طاهرة ، أم سبق استخدامها فى قطع لحم الخنزير ؟!!

اتجهت بالصينية قريبا من موائدهم ، فتطلعوا اليها فى خيبة أمل ، وقد افتقدوا فيها طبقهم المفضل .. طبق الكوارع المحترم . طبعا ، لم أحاول أن أصدمهم بالحقيقة وأنا أرى سلاطين الشوربة قد فرغت ، وعظام الكوارع مكومة أمامهم !.

فوق السحاب ، وتحت الارض :

من الموضوعات المفضلة لاعضاء الفرقة فى أوقات فراغهم عقد مقارنات بين مختلف الظروف التى مروا بهـا فى

عبورهم المتصل للدول العديدة التى زاروها .. وكانت هذه المقارنات تنتهى الى أن أفضل ظروف الضيافة كانت فى بلغاريا والمجر .

فاذا علمنا أن ظروف الضيافة كانت بشكل عام وفى اغلب الدول طيبة ، تتسم بالكرم وحسن المعاملة ، أمكننا أن نتصور الدواعى الاستثنائية التى ميزت بلغاريا والمجر فى مجال الضيافة .

وواقع الامر أن كرم الضيافة والاحساس به ، لم يكن مصدره فقط جودة الطعام او وفرته أو ظروف المبيت والتنقل ، لكنه يرجع الى التعاطف الذى نشأ بين أعضاء الفرقة وكافة من احتكوا بهم من أهل بلغاريا والمجر . ولعل مرجع هذا الى احساسهم بالتقارب فى الطبائع ، من حيث سخونة العواطف ، ودفء الاحاسيس ،واللا أوروبية فى ردود فعل الشعب فى كل من بلغاريا والمجر .

ففى بلغاريا كنت تحس أن وفد المرافقين ، بالاضافة الى اهتمامه الكامل بكل فرد من أفراد الفرقة واستجابته السريعة لمطالب الحياة اليومية أو لمطالب العمل ، كان يتفنن فى ادخال السرور الى قلوب افراد الفرقة كلما أمكنه ذلك .

كان كبير المرافقين ، السيد يوردان ، شاب مثقف ينحدر من أسرة عملت طوال حياتها بالفن والسياسة : فمن بين اجداده أكثر من أديب كبير يشار اليه عند التأريخ للحركة الادبية فى بلغاريا . كان السيد يوردان يهمس فى أذنى كلما كان هناك بعض الفراغ فى برنامج عملنا اليومى ، « ألم تملوا من تناول وجباتكم فى مطعم

الفندق ؟ » ، ثم يروح يصف فى عبارات شاعرية ، المكان الذى يقترحه لوجبة الغذاء .. وازاء اغراءالوصف أوافق على الفور ، وسرعان ما نجد أنفسنا داخـــل الاتوبيس لتناول وجبتنا فى مكان ما على الجبل ... وتظل العربات تصعد بنا ، وتصعد ، حتى نصل الى الســـحاب .. السحاب فعلا وليس مجازا .. وقرب قمة الجبل نصل الى المطعم الجميل الذى أقيمت جدرانه من الزجاج بحيث لايفوتك المشهد الرائع فى تفصيلة من تفاصيله الاخاذة ، ايا كان مكان جلوسك فى المطعم . وبين الحين والآخر تمر على المطعم سحابة كثيفة ، تلفه ، وتعزله عن العـــالم تماما ، وتصبح الرؤية متعذرة على بعد أمتار قليلة .. ثم تنقشع هذه السحابة ، لتعود أشعة الشمس تتسلل من جديد الى واجهات المطعم الزجاجية .

اما داخل المطعم ، فقد كان قطعة من الذوق السليم ، بديكوراته التى تعتمد على الاخشاب بأنواعها المختلفة ، مرددة ايحاءات الغابة الكثيفة ، التى تخترقها فى طريقــك الى المطعم . وكان الكباب هو الطبق الرئيسى ، يقــدم اليك فى أسياخ صغيرة دقيقة ، تتولى بنفسك تخليصــه منها .. ثم طبق السلاطة الخضراء التقليدى فى بلغاريا ، بالفلفل الاخضر الملتهب ، ومبشــور الجبن الابيض على سطحه .

كان يوردان يتجول بين الموائد ، ســعيدا باستمتاع الاعضاء بالمكان ، مستفهما عن رغباتهم ، مشجعا اياهم على طلب المزيد ، فتحس أن سعادة الفرقة الزائرة ليست واجبا يسعى الى تنفيذه والوفاء به ، بل مطلبا شخصيا

يحرص على تحقيقه . ويروح ينقل بنفسه أطباق الفاكهة بما فيها من تنوع لم يتوفر لنا مرة أخرى بعد مغادرتنا بلغاريا .

وفى المساء ، يعود يوردان للاتصال بى فى غرفتى قائلا « لقد تصرفت دون استئذان منك .. فلتصفح عنى » ، أقول « خيرا ؟ » ، فيقول « اذا كان قد أعجبكم تناول الغذاء فوق السحاب ، فقد نظمت لكم عشاء تحت الارض !» ..

وبالفعل ، يقودنا يوردان الى مطعم رشيق ، تزين مدخله الرسوم الشعبية بأسلوب حى نابض ، ومدخل المطعم يقود الى سلم هابط ، تظل تهبط فيه حتى تصل فى النهاية الى كهف غاية فى الجمال ، تغطى حوائطه قطع النسيج الشعبى البلغارى ، وتمتد موائده طويلة من الخشب الغليظ ، وعلى جانبيها دكك خشبية من نفس نوع خشب الموائد . وتصل اليك فى هذا الكهف ، وأيا كان موضعك ، الحان وأغانى الفرقة الشعبية التى تواصل عزفها طوال السهرة ، وبلا توقف .

ثم يظهر فجأة سرب من الجرسونات الجميلات فى ملابسهن الشعبية المزركشة ، يوزعن الاطباق الخزفية المزخرفة على الموائد ، ويضعن على كل مائدة عددا من أطباق الفلفل الاحمر المصحون ، والذى يدخل فى أغلب الاطباق البلغارية الشعبية . ويقدم المطعم لزبائنه طبقه الوحيد ، الدجاج المشوى . وتظهر اهمية هذا التخصص فى طريقة التجهيز المتميزة واسلوب الشى الذى ينفرد به المطعم ، ويعتبره سرا من الاسرار الغالية . وينسجم

الريس عباس ، عازف المزمار بفرقتنا ، بعد أن تستقر فرخة كاملة فى معدته ، فيمد يده الى مزماره الذى لا يفارقه ، ويتبرع برد التحية للفرقة التى امتعتنا بموسيقاها طوال تناولنا لوجبة العشاء .

اوهام الفول المدمس فى المجر :

وكانت المجر هى الدولة الثانية التى ضربت رقما قياسيا فى الحرص على راحة أعضاء الفرقة وتلبية طلباتهم التى لا تنتهى . ويبدو ان الشعب المجرى بطبيعته ميال الى الاهتمام بالطعام وكمياته . فقد لاحظت ، خلال زياراتى المختلفة ، تميز المطعم المجرى بتقديم الوجبات المتعددة الاصناف والمضاعفة الكميات .

تبدأ الوجبة بطبق ضخم من الحساء ، ثم طبق المشهيات ، ويتكون من قطعتين كبيرتين من السمك المقلى ثم الطبق الرئيسى ، ويتكون من شرائح سميكة من اللحم ، او نصف دجاجة ، ثم كمية من الخضروات والارز ،وتنتهى الوجبة بالفاكهة يتلوها طبق من الحلوى أو المثلجات ... وزجاجات العصير تقدم بصفة دائمة طوال تناول الطعام .. بعد هذا يقدم الشاى أو القهوة حسب الطلب . وكذلك كانت وجبات الافطار تتضمن شرائح الجبن الكاشكفال ، والزبد والمربى والزبادى ، ثم طبق ضخم من البيض المقلى والسجق .. بالاضافة الى طبق كبير على المائدة زاخر بانواع الفطائر المختلفة .

كانت كميات الطعام بطبيعتها كبيرة ، وكان التنوع

متوفرا فى جميع الوجبات ، فتوقعت أن تنتهى طوال فترة اقامتنا فى المجر ، متاعب الاكل والطلبات الخاصة .. ولكن لماذا وكيف يحدث هذا ؟! .. كيف لا تجود قرائح أعضاء الفرقة بما يتحول الى طلب ؟! .

اثناء تنــاول طعام الغذاء بالمطعم ، وكان يجلس الى مائدتى السيد هوللو ، رئيس قسم العلاقات الخارجيــة بوزارة الثقافة ، ونائبه السيد يوهاس ، عندما اقبل الراقص ممدوح عثمان الى مائدتى مهرولا ، وهو يقــــول فى حماس وانفعال ، مشيرا الى مائدة تجلس اليهــا عائلة مجرية « فول يا أستاذ راجى .. فـــول مدمس !! ، الجرسون كان مودي دلوقت طبق فول مدمس للترابيزة دى .. الله يخليك تقولهم يجيبوا لنا فول مدمس » .

شعرت أن الوقت غير مناسب لمثل هذه المطالب ، فقلت فى هدوء حتى لا الفت نظر المسئولين الذين يجلسون الى مائدتى « بلاش طفاسة يا ممدوح ... روح اقعــد مكانك » .

ولكنه ، غير ملتفت نهائيا الى مغزى كلماتى ، عاد الى التأكيد والاشارة الى المائدة المعنية ، مما جعــل الســيد هوللو يستفسر منى عن الموضوع ، فأردت أن أقــول اى كلام ينهى الموقف ، الا ان السيد يوهاس الذى كان يتكلم العربية وزار مصر اكثر من مرة ، راح يترجم حــــكاية ممدوح للسيد هوللو .. وراح يشرح له فى عبارات دقيقة ماهية الفول المدمس الذى جاء ذكره على لسان ممدوح .. ثم التفت يوهاس الى وقال « لا اظن اننــــا نعرف

ماتسمونه بالفول المدمس عندنا .. لقد أكلته فى القاهرة ولكنهم لا يعرفونه عندنا » .. كل هذا ونوبة الحماس لم تفارق ممدوح ، فذهب المترجم مايك الى الجرسون يسأله عن الصنف الذى قدمه الى المائدة التى أشار اليها ممدوح ، وعاد ليقول بمصريته الدارجة التى تعلمها فى مصر « ده مش فول يا أستاذ .. الفول تلاقيه عند التابعى ياسى ممدوح ! » ، ثم ذكر للسيد هوللو اسم الصنف الذى أثار المشكلة ، وأخذ يشرح لى أنه نوع من البقول مثل الفاصوليا وفول الصويا ، وعرض أن يطلب طبقا ، يجربه أعضاء الفرقة فاذا صادف قبولا لديهم ، أمر باضافته الى وجبة الافطار .

رغم هذا ، فقد عاد ممدوح الى مائدته ، مارا على جميع الموائد ناشرا اشاعة اكتشاف الفول المدمس فى المجر .. وأخذت الموائد تتناقل الخبر المثير ، وكأنه خبر اكتشاف البترول فى ميدان التحرير ..!

أحضر الجرسون الطبق الموعود ، وكان على أن أفتتح عملية التذوق حتى أفتى بمدى صلته بالفول المدمس ، فوجدته أقرب الى الفاصوليا المسلوقة ، وان كانت طريقة الطهى أقرب الى التدميس مما جعل لون حبات الفاصوليا أشبه بلون الفول المدمس .. لم يعجبنى الصنف شخصيا ، ولكنى سلمت أعضاء الفرقة طبق التجارب هذا ، ليحددوا بأنفسهم موقفهم منه .. ودار الطبق الموعود على الموائد ، وتجمع الجرسونات يتابعون هذه العجيبة التى تحدث فى مطعمهم ، دون أن يدروا عنها شيئا ! .

وصلنى القرار فى نهاية الأمر بتعميم الطبق فى الافطار مع اعداده بالزيت والملح والليمون ، بمثل ما يعد الفول المدمس .

وتم لهم ما أرادوا ، وفى الصباح خرجت من المطعم أطباق شبية الفول المدمس لتستقر على موائدنا ، ولتبدأ – للعجب – شكوى عامة ، ورفض قاطع لهذا الشبيه المزور ، مما جعلنى أستدعى الميتردى اوتيل ، واطلب منه التوقف عن تقديم هذا الطبق .. فأمن الرجل على كلامى وهمس فى أذنى « كنت أعرف أن هذا الطبق لن يعجبكم .. فهو الاكلة المفضلة لدى يهود المجر !! »

واحقاقا للحق ، لا يجب أن نغفل عن ذكر البانيا ، فى معرض الحديث عن كرم الضيافة . فالبانيا بموقفها المعروف من الدول الغربية ودول أوروبا الاشتراكية ، يجعل زيارة فرقة أجنبية ، حدثا مثيرا ، ومناسبة لا تنسى .

وقد أمضينا فى البانيا ١٧ يوما ، وكانت اغلب أيام اقامتنا فيما عدا يوم أو يومين فى العاصمة تيرانا ، وفى فندقها الفخم الوحيد « دايتى » . وقد حرص وفد المرافقين الالبان على توفير كافة وسائل الراحة للفرقة : وتلبية جميع الطلبات ، بدافع من كرم الضيافة ، ثم لاحساسهم بآثار الارهاق التى ظهرت علينا جميعا فى نهاية رحلتنا .

والمطبخ الالبانى يستمد تقاليده – تماما كمطبخنا – من المطبخ التركى الام ، فكانت تقدم لنا الكثير من الاطباق التى كنا نظنها أطباقا مصرية أعدت خصيصا لنا

كنوع من التحية ، ثم نكتشف أنها أطباقا ألبانية معروفة وشائعة .. وكانت أطباق البصل الاخضر لا تختفي من على الموائد في وجبات الغذاء أو العشاء ، وظهر أنها عادة ألبانية أصيلة . أما أطباق البقلاوة الجيدة الاعداد فقد كان الطلب عليها لا ينقطع .

وجبة لا تنسى في « ريجا » :

تناول الطعام في المطاعم الانيقة ، لاشك نوع من الرفاهية والمتعة التي لا يمكن ان تتكرر للواحد منا أكثر من مرتين في الشهر الواحد على احسن الظروف . وفي الشهر الاول من رحلتنا كنا نستمتع بوجبات الفنادق السرفيس الكامل ، الخدمة الممتازة ، طابور الجرسونات الذي يسارع برفع الطبق بمجرد أن تنتهي منه ، ليضع مكانه طبقا نظيفا ، في انتظار الجرسون الذي سيقدم الصنف التالي من الطعام ، التفنن في قائمة الطعام تحاشيا للتكرار ، أصناف الحلوى المبتكرة التي تتجدد انواعها كل وجبة .. جميع هذه المزايا التي لا تتحقق في بيوتنا الا في المناسبات السعيدة .

الا انه مع تعاقب الاشهر ، ورغم المحاولات الجادة في التصنيف والتنويع ، بدأ الواحد منا يحن الى أن يقتصر في عشائه على سندوتش طعمية .. أو طبق باذنجان مقلي .. بل بدأ يشتاق الى الاكل البسيط في البيت دون هذه المراسم التقليدية المركبة في المطعم .

لقد عايشت سعادة التحرر من طعام الفندق مرة في

« ريجا » السوفيتية التى تقع على بحر البلطيق ، فقد جاء الراقص أحمد عنان ، ومصمم الديكور فوزى ليخبرانى انهما قد تعرفا على فتاة تدعى نتاشا سبروديا من مواطنات ريجا ، فنانة سوفييتية تعشق مصر ، وتهوى الفن الفرعونى ، وتريد أن ترانى بعد أن أخبراها باهتمامى الخاص بالفنون التشكيلية فى مصر ، وكتاباتى فى هذا المجال .

كانت نتاشا قد قرأت الاعلانات عن الفرقة المصرية للفنون الشعبية التى تزور ريجا ، فأخذت تستفسر عنا فى جميع الفنادق حتى عثرت علينا يوم وصولنا وقبل أن تبدأ تدريباتنا أو عروضنا ، وكانت الراقصة دنيس أول من قابلها ، فقدمت نفسها وعرضت خدماتها على دنيس ، واستعدادها لمصاحبة اية مجموعة من الفرقة لمشاهدة المعالم الخاصة للمدينة ، وبالفعل كانت دائما عونا صادقا لدنيس رزوجها أحمد عنان وصديقهما فوزى .

تم لقائى مع نتاشا فى صالون الفندق ، فقالت انها تحب مصر عن بعد ، وانها تعلقت بالفن الفرعونى أثناء دراستها الفنية . فقد كان ضمن هذه الدراسة رسم ونحت نماذج من فنون الحضارات المختلفة ، وقالت انها ما أن وصلت الى نماذج الفن الفرعونى حتى تعلقت به ، وأحست بانجذاب شديد اليه .. فراحت تتعمق فى دراسة الفن المصرى القديم ، وتقرأ عن الحضارة المصرية القديمة .. وأنتجت العديد من التماثيل كنسخ للأعمال الفنية المصرية القديمة الهامة .. وانتقل حبها الى مصر المعاصرة فأخذت تحاول دراسة اللغة العربية ، بواسطة كتاب

عتيق بالروسية لتعلم اللغة العربية ، أهداها اياه أحد البحارة المصريين الذين تلتقى بهم فى نادي البحارة بميناء ريجا .

رغبت نتاشا فى دعوتنا الى منزلها لرؤية انتاجهـا من نسخ الفن المصرى القديم . واتفقنا على موعد فى أحد الايام التى لا يشغلنا فيها تدريب أو عرض .. حضرت لاصطحابنا ، فتبعناها .. من ترام الى آخر .. حتى وصلنا الى بيتها فى أطراف المدينة .. مبنى كبير وقديم ، تدخل اليه من بوابة مثل بوابات البيوت الاثرية عندنا ، تقودك الى حوش واسع ، ثم الى عدد من السلالم التى تصعد الى مختلف المساكن التى يضمها هذا المبنى الكبير العتيق ، وعندما وصلنا الى شقة نتاشا ، كانت أمهـا العجوز التى تعيش معها فى انتظارنا عند الباب .

مسكن نتاشا بسيط غاية فى البساطة ، صالة وحجرة واحدة .. الصالة مستخدمة كمطبخ ومدخل .. والغرفة مقسمة بواسطة ستار الى قسمين ، أحدهما يستخدم كحجرة نوم ، والآخر للطعام والمعيشة اليومية .

كنا اربعة أفراد ، دنيس ، وعنان ، فوزى وأنا .. ومع وجود نتاشا ووالدتها ، ازدحم بنا المكان ، واصبح من الضرورى أن نحسب حركتنا حتى لا نصطدم بالاثاث أو بعضنا البعض ... نسينا هذا كله ، عندما بدأت نتاشا تستعرض انتاجها الفنى ، بعضه قد استكمل مراحله ، والبعض الاخر مازال فى دور التنفيذ ، مثل رأس اخناتون التى كانت فى طور شبه نهائى بالبلاستسين .

كانت والدة نتاشا تحاول اثناء هذا ان تتفاهم مـع

دنيس وتشرح لها بعض الموضوعات ، فتعجز لغة الإشارة عن توصيل الافكار ، وتضطر نتاشا الى أن تتوقف عن كلامها حول انتاجها ، لتساهم فى حل مشكلة التفاهم بين والدتها ودنيس .

وحرصت الوالدة أن تحتفى بنا بقدر ما أتيح لها من امكانيات ، قدمت القهوة ، ثم الشاى ، وطال الحديث ، حديثنا مع نتاشا فى ذلك الجو العائلى الحميم . . ففوجئنا بالام تطالبنا برفع التماثيل عن المائدة استعدادا لتجهيز العشاء . اعتذرنا جميعا فى وقت واحد ، فالظروف المادية للعائلة ، واضح تماما انها دون احتمال هذه الدعوة ، بالاضافة الى أن أماكننا جميعا محجوزة للعشاء فى مطعم الفندق . طلبنا من نتاشا أن تعتذر لوالدتها وتخبرها أن لدينا من الارتباطات ما يضطرنا الى الانصراف فحاولت نتاشا أن تقوم بهذه المهمة ، الا أن الام رفضت رفضا قاطعا قبول هذه الاعذار ، وصممت على تقديم العشاء لاصدقاء بنتها القادمين من مصر .

رغم بساطة العشاء الذى قدمته والدة نتاشا ، ورغم الكميات المتواضعة التى تمكنت من اعدادها . . الا أننا أقبلنا على ماقدمته بشهية مفتوحة ، كنا قد افتقدناها طويلا تحت تأثير روتين وجبات المطاعم الفاخرة .

وصل تعاطف الوالدة معنا الى قمته فى نهاية السهرة ؛ عندما طلبت منى ومن فوزى أن ننهض ، وتتنحى جانبا ، حتى تتمكن من فتح باطن الكنبة « الاستمبولى » التى كنا نجلس فوقها ، ومن جوف الكنبة ، اخرجت بعناية فائقة علبة شيكولاته قديمة ، وضعتها على المائدة ، ثم أعادت

اغلاق الكنبة ، وسمحت لنا بالجلوس . اخـــذت الام مكانها حول المائدة ، وبدأت فى عناية واعتزاز شـــديدين تفتح العلبة ، لتخرج ما بها من صور عائلية ، تعرضـــها علينا واحدة واحدة مع التعليق المناسب الذى كانت نتاشا تتولى ترجمته .. صور شبابها المبكر بملابس ذلك العصر وقد ظهرت على الحائط من خلفها صـــورة معلقـــة للقيصر والقيصرة .. ثم صور زواجها .. ثم صورة لنتاشا وهى طفلة عارية .. ثم وهى فتاة صغيرة . وكانت الام وهى تفتح ابواب الذكريات تغرورق عيناها بالدموع ..ويرتعش صوتها وتعلق على كل صورة من الصور .

لقد شعرت بانجذاب حقيقى نحو تلك الام ، استمتعت بلقائها ، وحديثها ، وطعامها . وانتابنى شـــعور عميق بالالفة وانا بين جدران ذلك المسكن المتواضع ، بدد لوقت طويل شعور الغربة المركبة الذى حكيت عنه من قبل .. احسست بتعاطف عميق مع تلك الام العزيزة ، لم يستطع ان يحول دونه اختلاف اللغة او تباعد الوطن أو تباين العادات . وبقيت وجبة ام نتاشا على مر الايام ، ذكرى لاشهى وجبة تناولتها فى رحلتى هذه .

مؤامرة مكرونية فاشلة :

على الجانب الآخر من بحر البلطيق ، كانت اقامتنا فى مدينة « جديانسك » ، أول مدينة بولندية نصل اليها .

كنا فى رمضان ، وبداية شـــهر ديسمبر فى شـــمال أوروبا .. الثلج يغطى كل شىء ، ولا أمل فى التطلع الى شعاع واحد للشمس على مدى الايام .

وكان موضوع وجبات الصائمين من أول الموضوعات التى جرت مناقشتها بمجرد وصولنا الى الفندق . فنصف أعضاء الفرقة يتمسكون بصيامهم ، رغم ظروف السفر المتصل ، وقسوة الجو .. وكان لابد من تيسير وجبات الصائمين وضمانها . وكانت كبيرة المرافقين ، سيدة وقور ، أعرفها من زيارة سابقة ، اضطرت الى ان تبذل الكثير من الجهد حتى استطاعت أن تحدد للصائمين اوقات الامساك والافطار .. وكان من حسن طالع الصائمين ، ان ساعات الصيام فى تلك المدينة فى ذلك الوقت من السنة ، لم تكن تتجاوز الساعات العشر .

وقد وافق المطعم على تقديم وجبة سحور اضافية للصائمين ، وتم الاتفاق مع الاعضاء على أن تتوحد وجبتى الغذاء وافطار الصائمين فى وجبة واحدة الساعة الرابعة .. واذكر أن الغروب حل فى بعض تلك الايام فى الثالثة والنصف بعد الظهر . وكانت هناك كشوفا بأسماء الصائمين وعددهم حتى يمكن للمطعم أن يوفر احتياجاتهم الا ان هذه الكشوف كانت دائما عرضة للتغيير والتبديل نتيجة للاحوال الصحية للأعضاء مما سبب لنا الكثير من المشاكل .

وفى جدينانسك ، اذكر واقعة كانت بطلتها الراقصة يسرية وهى من اقدم راقصات الفرقة . يسرية من هواة المكرونة . ورغم تحذيرات الجميع من السمنة ، كانت المكرونة هى نقطة الضعف عند يسرية . ولا أدرى السر فى ان المكرونة لا تدخل ضمن الاطباق المعروفة فى اغلب دول أوروبا الشرقية التى زرناها ، كان الارز هو

الشائع دائما . وقد كانت ليسرية محاولات دائبة للبحث عن المكرونة . فكم أجرت من حوار مع المرافقين حـــول السر فى عدم ادراجهم للمكرونة ضمن قائمة الطعام .. ومع مرور الزمن ، أصابها اليأس من تحقق املهـــا ، فقلت مجهوداتها فى البحث عن هذا السر المحير .. واعتبرنا ان قصة البحث عن المكرونة قد انتهت .

الا أنه قد اتضح لنا بعد ذلك ، ان اليأس الذى أصاب يسرية لم يكن مطبقا .. ففى جديانسك ، فوجئت بكبيرة المرافقين تفتح معى حديثا طويلا عن أهمية الحالة النفسية فى تجويد مستوى الاداء ، وأن الراحة النفســـية قد لا تتطلب لتحققها جهدا ضخما معجزا ، بل قد تتحقق نتيجة لتصرف بسيط . كنت حتى ذلك ، لم اصل بعد الى هدف هذه المقدمة النظرية ، الا أنه سرعـــان مادخلت السيدة الوقور فى صلب الموضوع ، فتحدثت عن رغبة يسرية فى المكرونة ، وانها ترى أن تحقق هذه الرغبـــة يفيد ولا يضر .. وحتى عندما وصلت الى هذا التوضيح لم افهم الدافع الى كل هذا الكلام .. فما المانع فى أن تأكل يسرية مكرونة اذا ماكان تقديمها ميسرا ، وهـــل كنت أعترض على مثل هذا التعديل فى قائمة الطعام ؟.

واخيرا فهمت السر فى كل هذه المقدمات .. كنت قد اتفقت مع كبيرة المرافقين عند وصولنا على أن يـــكون الاتصال بهيئة المرافقين لعرض المطالب عن طريقى أو عن طريق من أحدهم نيـــابة عنى فى كل تخصص مـــن التخصصات .. وانه غير مسموح بتـــاتا للأعضاء أن يتوجهوا اليها أو الى أى واحد من المرافقين مباشرة بهذه

الطلبات . والواقع أن اتفاقى هذا ، سبقه اتفاق مع اعضاء الفرقة حول هذا الموضوع ، رغبة فى تنظيم الاتصال بالدولة المضيفة ، وحتى لا تختلط الامور ، سواء فى مطالب العمل او احتياجات الحياة اليومية . وكان قد تخصص مسئول لكل غرض من الاغراض ، تتجمع عنده الرغبات ويتم تنسيقها ، ثم يقوم بابلاغها للمرافق المسئول .

كان من الممكن الاكتفاء بهذه التعليمات الموجهة للأعضاء دون الحاجة الي ايصالها الى السيدة المرافقة . لكن بعض المخالفات من الاعضاء اضطرتنى الى هذا الاجراء لضمان عدم المخالفة .. ويبدو ان بسرية تخوفت من محاسبتها على هذا الاتصال ، وان السيدة المرافقة قد أوردت كل هذه المقدمات حتى لا تكون مفاتحتى فى الموضوع سببا فى محاسبة يسرية .

المهم ... انهيت الموضوع بالموافقة الشاملة على موضوع المكرونة .

وحل موعد الوجبة المشتركة ، افطار الصائمين ، وغداء الباقين .. واقبلت يسرية فى حالة من السعادة الشاملة ، تعتذر عن تصرفها ، وتبرره بدوافعها التى لا تقاوم ، ثم تمتن علينا جميعا ، بفضلها فى طبق المكرونة الذى سيقدم الينا ، كما شرعت فى مساومة بعض الزميلات اللاتى لم يكن يتحمسن للمكرونة ، على اجراء مبادلات فى أصناف الطعام بحيث تحصل هى على أكبر نصيب من طبقها المفضل .

وصل الطبق المنشود ، مكرونة « بالبيشاميل » ، وقبل ان أمد يدى الى الطبق ، تعالت صيحات الاستنكار في

المطعم .. لقد كانت المكرونة معدة بالسكر ، فهكذا تقدم في بولندا ، بمثل ما نأكل نحن الشعرية بالسكر .

وأقبلت السيدة المرافقة منزعجة من رد الفعل المعاكس بعد أن أفهمتها يسرية أن هذا الطبق سيحوز اعجاب الجميع !.. فشرحت لها الموضوع وأنهيت القصة ... قصة آخر محاولة من جانب يسرية لطلب المكرونة ، قبل وصولنا الى يوغوسلافيا ، حيث توافرت في أكثر من وجبة .

عــلاج بـالجملة!

انتصرت هدى ، واحتفظت بمصرانها :

تم تجديد موعد مبكر لوجبة الغذاء ، ففى السـابعة والنصف مساء ، سنقدم حفلتنا الاولى فى ريجا ، وتم التنبيه على الجميع بالاستفادة من الفترة مابين الغـذاء والتحرك الى المسرح ، فى راحة تامة ، حرصا على مستوى العرض المسرحى .

صعدت الى غرفتى بعد الغذاء ، وبدات انفـذ على شخصى ما نصحت به ، وما ان وصلت الى الغرفة حتى ارتفع رنين التليفون .. مشيرة حالتها صعبة للغـاية ، وتشكو من مغص شديد ، وقد تم اخطار المرافقة « رانا » وستنقلها الى المستشفى .. قلت للمختص الذى اتصل بى ، لا بأس .. اذهب معهم واخطرنى بنتيجة الكشف .

وبعد نصف ساعة ، كانت رانا تتحدث على الجـانب الآخر من الخط .. كانت تتكلم من المستشفى ، تشوب لغتها العربية السليمة رنة احتداد .. والموضوع ، ان الطبيب قرر خطورة حالة مشيرة وضرورة اجراء عملية استئصال الزائدة الدودية فورا .. ومشيرة ترفض أن تمتثل لقرار الطبيب ، لعلمها أن العملية ستقتضى تخلفها

عن السفر معنا الى بولندا بعد اربعة أيام ، والبقاء بمفردها في ريجا .

قلت لرانا ، ارسلى الى السيارة الصغيرة ، وسأصل اليكم بعد عشر دقائق على الاكثر ، وطرحت جانبا فكرة الراحة بعد الاكل ، فارتديت ملابسى ثانية ، منتظرا السيارة التى ستقلنى الى المستشفى .

وهناك وجدت مشيرة منخرطة فى نوبة بكاء هستيرى ، رانا تحاول تهدئتها من جانب ، ومحمد عبد الله المدير الادارى للفرقة يحاول من جانب آخر اقناعها بعدم جدوى الرفض ، خاصة أن الطبيب رفض السماح لها بالخروج من المستشفى الا اذا وقعت الفرقة اقرارا رسميا بتحملها مسئولية عدم اجراء العملية .

بدأ حديثى مع مشيرة خافتا هادئا ، ثم تصاعد فى « كريشندو » حتى وصل الى كلمات حادة حاسمة ... وكانت أول خطوة مفترضة أن تدخل مشيرة الى الحمام، حيث تأخذ حماما ساخنا وترتدى ملابس المستشفى ، تمهيدا لدخولها حجرة العمليات . وقد أخذت ، أثناء مناقشتها ، ادفعها بدون أن تدرى تجاه باب الحمام الذى يجب عليها أن تبدأ العملية بدخوله .. الى أن وصل « الكريشيندو » فى الحديث الى قمته ونحن أمام الباب مباشرة وأنا أقول « مشيرة .. مش عاوز كلام فارغ .. .. حتعملى العملية ، يعنى حتعمليها .. اتفضلى ادخلى .. »

وكان .. دخلت مشيرة ، ونظرات الامتنان توجهها الى هيئة التمريض التى كانت تنتظر لحظة دخولها .

التهمت هذه المحاولات ساعات الراحة ، وكانت الفرقة قد تحركت بالفعل الى المسرح .. وكان على أن أسرع الى المسرح قبل رفع الستار لاطمئن على سير العمل ، ثم لالقى كلمة التحية التقليدية فى بداية عرضنا الاول فى المدينة .

فى نهاية الفصل الاول ، واثناء الاستراحة ذهبت مع رانا الى المستشفى لكى اطمئن على مشيرة ، وعلمت أن العملية تمت بنجاح وانها بدات تفيق من البنج ، فصعدت الى حجرتها واخذت اطمئنها الى أن رانا ستبقى معهـــا فى ريجا ، وتسهل لها السفر الى بولندا عندما تســمح لها صحتها بذلك ، فاستراحت نفسيا .. وتركتها لتنام وقد تسللت رائحة البنج التى تسود المكان الى أنفى ، وبدأت أشعر بالتخدير والدوخة !.

فى نفس الموعد من اليوم التالى ، ارتفع رنين التليفون ، وكان هذه المرة من المستشفى .. هدى حالتها صعبة ، ونحن نتكلم من المستشفى ، ولابد أن تجرى عمليـــة استئصال الزائدة الدودية اليوم ، وهدى تبكى رافضــة بشدة اجراء العملية !.

وبطريقة آلية كاريكاتورية ، تكرر نفس ما حـدث فى اليوم السابق .. وجرت عملية الاقناع بنفس الطريقــة ونفس التدرج ، وهدى تبكى وتقول « مش ممكن .. انا حاسه انى لو عملت العملية دى ح اموت » .. واخذت أهدئها مستفيدا من سابقة مشيرة ، و « انتى مش ح تكونى لوحدك .. و ح نخليهم يحطوكى مع مشـــيرة فى أوده واحدة » .. و .. و .. وتدخل هدى الى غرفة الحمام

ونظرات هيئة التمريض ترمقني باعجاب لا حد له .. الرجل الذى لا يعرف العقبات .. وصاحب الكلمة الاخيرة دائما !!.

تشاء الظروف الا أتمكن من مغادرة المسرح اثناء العرض لزيارة هدى بعد العملية ، وفى نهاية العرض طلبت منى رانا أن نمر على الفندق لتترك رسالة معينة ، ثم نذهب سويا الى المستشفى للاطمئنان على هدى ومشيرة .

وتنتظرنا فى بهو الفندق مفاجأة .. هدى جالسة والى جانبها حقيبتها ، منكسة الرأس ، واضعة يدها على خدها والمرافق آدم بلخمته التقليدية ، ولغته التى يدعى أن لها صلة بالعربية ، يطوح ذراعه ويقول « انها هدى رفض كثيرا .. وطبيب زالان « زعلان » ، وانا كلام تليفون غير ممكن ، و .. »

تركته وتوجهت الى هدى « ايه الحكاية ياهدى ... ازاى تعملى كده ؟ » ، ولا اجابة ، ثم انفجار فى نوبة بكاء و « أنا عاوزه أرجع مصر .. عاوزه أموت فى مصر .. مش عاوزه أموت هنا » .

واجرت رانا اتصالاتها بالمستشفى ، وعرفت كيف انها بمجرد انصرافنا ثارت وتمردت ، وتحت ضغط ثورتها تركها الطبيب لتعود مع المرافق الى الفندق ، وقال الطبيب ان العملية ضرورية ، ويجب أن تتم خلال سبعة أيام على الاكثر .. وما ان سمعت هدى هذا الكلام حتى توقفت عن البكاء وقالت « خلاص .. اعملها فى بولندا ، وانتو ح تكونوا معايا .. » .

انتصرت هدى .. وتصورت هيئة التمريض وقد خاب

ظنها فى الرجل الذى لا يعرف العقبات ، وصاحب الكلمة الاخيرة !!.. المهم فى الموضوع انه بعد وصولنا الى بولندا ، افتى الاطباء هناك بعدم ضرورة اجراء العملية ، واعطوها علاجا آخرا .. وظلت هدى لزمن طويل ، تظهر فى رقصات الفرقة القومية للفنون الشعبية ، متمسكة بمصرانها الاعور !!.

زغلول .. وتقرير طويل من موسكو :

رغم كراهيتى الشديدة للمستشفيات ، ورائحة المستشفيات ، هذه الكراهية التى قد تبدو غير منطقية ، ولكنها واقع اعترف به ، رغم هذا فقد علمتنى مسئوليتى خلال الرحلات الطويلة للفرق الفنية ، أن أصبح زبونا دائما للمستشفيات ، بعياداتها الخارجية ، وحجرات العمليات ، وعنابر المرضى .

والواقع أن الرحلة الطويلة التى قامت بها الفرقة القومية الى أوروبا ، كشفت عوراتنا الصحية بشدة ، واظهرت قصورا كبيرا فى نظام عملنا .. فرقة الرقص تتطلب من أعضائها حالة صحية معينة ، وكفاءة بدنية تامة ودائمة ، ولذا لابد أن يكون من مسئولياتها الاساسية ، متابعة الحالة الصحية للاعضاء ، بشكل دورى ودقيق .

وحالتنا الصحية بشكل عام ، كانت مثار تساؤل مستمر فى كل البلاد التى زرناها .. وقد ساعد على فضح حالتنا ، ظروف الانتقال الدائم ، والتغيير المستمر فى

الطقس ، ثم درجات الحرارة الشديدة الانخفاض ، التي وصلت في بعض الاحيان الى ٢٥ درجة تحت الصفر .

وقد أدى هذا الى وجود بند ثابت في نشاطنا اليومي، اسمه كشف المرضى .. يتم اعداده في اليوم السابق ، وتتخذ له كافة التدابير ، من توفير المرافق الذى يستطيع فهم حالة كل فرد وترجمتها الى اللغة المحلية ، حتى يفهم الطبيب طبيعة الحالات المعروضة عليه .. ثم توفير وسيلة المواصلات التي ستنقل مجموعة المستشفى ، اتوبيس أو مجموعة تاكسيات ، ثم متابعة تجهيز الدواء وتسليمه لكل مريض . هذا عدا عدد لا بأس به من العمليات الجراحية ، استئصال اورام ، وعمليات عيون ، وزائدة دودية ، وبواسير ..

واحقاقا للحق ، يجب أن أسجل لاعضاء الفرقة ، أن كشوف المستشفى كانت دائما لمواجهة علل حقيقية لايمكن انكارها ، وأن حالات التمارض كانت نادرة للغاية ، لدرجة يمكن القول معها ، أنها كانت منعدمة .. بل على العكس من هذا ، كنت أصدر الامر برفع اسم العضو من كشوف الرقصات في حفلة ما ، رغم أنفه ، وبصرف النظر عن انكاره لحالته ومطالبته الاشتراك في الحفل .. نظرا لما ألمسه في حالته الصحية ..

عندما كنا في موسكو ، كان زغلول أبو الحسن ضمن قائمة المستشفى ، وعاد الجميع منها باستثنائه ، وقال المرافق ان الطبيب ذعر من حالته الصحية ، ولم يصدق ان هذا المريض عضو في فرقة للرقص الشعبي .. فهو يعتقد أن حالته لا تسمح له بالمشى ، فضلا عن الرقص !! ..

وقد تركنا زغلول فى موسكو ليبدأ العلاج فى منتصف نوفمبر . ووصلنا بعد ذلك فى تشيكوسلوفاكيا عند نهاية شهر يناير من العام التالى !. لقد استغرق عـــلاجه بموسكو حوالي شهرين ونصف .. وعند عودته اطلعت على التقرير الطبى الذى تسلمه فى نهـاية العـلاج . وفوجئت بقائمة من الامراض المزمنة التى لا تســمح للشخص بالسير أو بالحركة اليسيرة ، وبرغم هذا شارك زغلول فى رقصات الفرقة ، فى هذه المرحلة وفيما بعدها ، رغم التقرير الخطير الذى كتبه أطباء موسكو .

ماساة ، فى قطار رومانيا :

كان القطار يتجه بنا من الحدود الرومانية السوفييتية ، الى موسكو .. قاطعا ١٨٠٠ من الكيلومترات فى رحلة واحدة .. وكالعادة تجمع اعضاء الفرقة فى بعض الدواوين يكدسون انفسهم فيها تاركين باقى الدواوين فارغة تقريبا او لهواة النوم الثقيل ، الذين كانوا ينتهزون فرصــة فراغ الديوان النادرة ، فيغلقون كافة منافذه واضوائه ، ويمارسون هوايتهم المحببة . كانت كل مجموعة مــن المجموعات المتكدسة فى الدواوين تتميز باسلوبها الخاص فى قتل الوقت ، واغتيال بوادر الملل .. هــذه مجموعة الصخب والصوت العالى ، يمكنك ان تتعرف على مكانها بمجرد أن تضع قدمك على أول الممر فى العربة ، نكات : قفشات وضحكات عالية ، أغانى شعبية يشترك فيهــا الجميع .. بل أكثر من اغنية تتردد فى نفس الوقت ؛

فى منافسة ، تنتصر فيها أعلى الاصوات واقـــدرها على الاستمرار .. وهذه مجموعة اخرى لا تكاد تسـمع لها صوتا ، ولكن ما أن تفتح باب الديوان حتى تجـد النور البنفسجى الخافت يسود الديوان ، وسـمير جابر قد تربع فى ركن الديوان ، يتغنى بموال اسـكندرانى اصيل ، وحوله مجموعة من السميعة المخلصين :

الاسمر والابيض جونى لاجل افرق الواجب
مابين الاسمر ، وبين الابيض لم ينفرق واجب
الابيض عاجبنى قوى ، يمشى ويتعـاجب
والاسمر دهشنى برمش العين والحـاجب
البيض سكر مكرر فى حرير ملفوف
والسمر عطر القنانى اللى بيهم موصوف
يحيروا الشاب اللى ليه نظر ويشوف

وهناك مجموعة ثالثة لا تكاد تسمع لها صـوتا حتى لو فتحت باب الديوان .. مجموعة النمامين ، سيف وجلال وحسين محمود .. ونديم فى بعض الاحيان .. تتقارب رءوسهم ويدور حديثهم دائمـا فى همس .. ولا يهمهم موضوع النم المطروح ، المهم أن يستمتعوا بدون عواجيز الفرح ، وعلى وجوههم ترتسم تعبيرات جـادة تعتبر من لوازم جو النميمة .. وغالبا ماكانت تتصـاعد لديهم شهية النم ، فينقسمون الى مجموعتين ، تروح كل مجموعة تمارس هوايتها على المجموعة الاخرى .. وهـو ماكان يسميه باقى أعضاء الفرقة « النم الذاتى » ! ..

وفى ديوان آخر يتجمع الموسيقيون فى صفين ، وعلى حجر اثنين منهم تستقر الطاولة الصغيرة « الترانزيستور »

التى رافقتهم طوال الرحلة ، وتبدأ معـــــارك التحدى الساخنة ، و .. « بطل قرص ياصبحى .. »و..«ودينى ما انت واخدها .. العب وربنى شطارتك » .. الى آخر هذه التعبيرات التقليدية .

فى أحد الدواوين ، كانت تجلس مجموعة من الفتيات احداهن تبكى فى صمت ، والاخريات يدرن بينهن حديثا خافتا ، ومعالم الاسى ترتسم على كافة الوجوه .. تصورت انها حالة من حالات الاحساس بالغربة .. فحـاولت أن اتدخل لتبديد هذا الجو ، لكنى احسست أن الاساليب التقليدية لا تجدى مع هذه الحالة .. كما حاولت أن أصل الى السر فلم أفلح .. كنت أعرف أن هذه الفتاه من بين الراقصات الجادات اللائى لا يصلن الى هذه الحـالة الا لامر ليس بسيط ، فلجأت الى المدرب سامى يونس . وقد كان ، فما مر بعض الوقت حتى اقبل ســامى وعلى وجهه نفس تعبير الالم والاسى الذى شـــهدته على وجوه الفتيات .

قال سامى « فلانه كانت قد ذهبت الى المستشفى فى بوخارست بسبب وجود ورم فى صدرها ، فأخطـروها هناك باشتباههم فى حالة سرطان ، وبضرورة اجراء عملية عاجلة .. » .

سرطان ! .. هكذا ببساطة ، وفى هذا السن ، انها لم تتجاوز السابعة عشر .. كيف حدث هذا ؟.. لماذا لم تتكلم ؟ .. كيف استطاعت برغم هذا ان تشارك فى كافة الحفلات التى قدمناها فى بوخارست والمدن الرومانية الاخرى ؟ .. أسئلة كثيرة ، لا أجد لها اجابة معقولة .

وبدون ان أدرى تسلل الى وجهى نفس التعبير الذى شاهدته على وجه كل من عرف خبر هذه المأساة .

لم أحاول أن اتحدث معها اثناء رحلة القطار ، كنت اتابعها عن بعد ، فأعجب لشجاعتها فى تلقى وتقبل هذا الخبر المزعج ، فهى فيما عدا جلسة الديوان التى تحدثت عنها ، تتكلم وتضحك ، ولكنها بين الحين والآخر تصيبها حالة من الصمت والانعزال عن كل ما يجرى حولها .

فى موسكو .. انتحيت بها جانبا ، وتكلمت معها فى الموضوع مباشرة ، ووعدتها بأن أسهل لها أعلى وسائل التشخيص المتوفرة فى موسكو .. وطرحت احتمال خطأ التشخيص فى رومانيا .. وأهمية الروح المعنوية العالية فى مواجهة هذا الموقف .. وفى واقع الامر لم أكن فى حاجة الى هذا الحديث ، فقد أدهشتنى موضوعيتها وشجاعتها فى تقبل الموقف ، وبحثها لاحتمالاته فى هدوء وتماسك .

عرضت عليها الراحة التامة وعدم الاشتراك فى التدريبات أو الحفلات لحين انتهاء الكشف عليها .. لكنها هنا فقط ، فقدت تماسكها وكادت أن تبكى ، رافضة اى اجراء من هذا القبيل ، متمسكة باشتراكها فى كافة الرقصات التى تدخل فيها ، وقالت ان ممارستها للعمل بشكل طبيعى يساعدها على التماسك .. فاحترمت رغبتها .. وجرت التدريبات دون محاولة للتخفيف من عدد الرقصات التى تشارك فيها ..

كانت حفلتنا الاولى فى موسكو على مسرح قصر الكرملين

المهول ، بأبعاده الخرافية ، وصالته التى تضــم ستة آلاف مقعد .. وقبل بداية العرض كانت هذه المقــاعد جميعا قد تم شغلها بالجمهور ، وجلس فى الصف الاول نائب وزير الثقافة السوفييتى والى جواره ســفيرنا بموسكو فى ذلك الحين الدكتور مراد غالب .

انتهزت فرصة الاستراحة ، فغادرت المسرح وتوجهت الى الدكتور مراد غالب الذى رحب بى ممثلا للفـرقة . وقدمنى الى نائب وزير الثقافة السوفييتى ، ثم افســح لى مكانا الى جانبه ، واخذ يسألنى عن احوال الفـرقة وسير العمل ، فأسرعت بطرح مأساة فتاتنا ... وقلت للدكتور مراد غالب أن الخدمة الحقيقية التى يقدمها لنا الاتحاد السوفييتى ، هى الاهتمام بهذه الحالة ، واتخاذ كافة الاجراءات الطبية الممكنة ، مهما طال أمد العـلاج وارتفعت تكاليفه ، ونحن من جانبنا على اســتعداد تام للاستغناء عن جهدها ، حتى لو اقتضى الامر ســفرها الى القاهرة مباشرة بعد انتهاء علاجها .

تأثر الدكتور مراد بالموضوع ، ونقله الى نائب وزير الثقافة الذى اخذ يستفسر عن الفتاة ، وهل هى فى المستشفى أم فى الفندق ، فقلت له انها معنا بالمسرح ، بل وستظهر حالا فى رقصة البمبوطية ، وما ان بــدات الرقصة حتى اشرت اليها ، فكان تأثرهما عميقا بمقدرتها على العمل والابتسام الجمهور بهذا الشكل الطبيعى ، رغم ادراكها لابعاد المأساة التى تعيشها . اعطيت لنـائب وزير الثقافة كافة البيانات المتعلقة بها ، فوعد متحمسا أن يبذل كل مايستطاع فى علاج الفتاة .

وفى صباح اليوم التالى ، اخبرنى المرافق أن وزارة الثقافة قد قررت علاجا خاصا للفتاة ، وأنه مطـــالب باصطحابها الى المستشفى لتبدأ الفحوص الاولية مباشرة قمت بابلاغها الخبر ، فاغرورقت عيناها بالدمـــوع ، وتخبطت على لسانها كلمات الشكر والامل .. وكانت هذه المحادثة آخر صلتنا بها ، لمدة شهرين ونصف .

تركنا موسكو وسافرنا الى ريجا ومنها الى بولندا ، فألمانيا الديموقراطية .. وهناك فى سفيكاو مدينة الجنوب الالمانى وصلت الفتاه أخيرا ، فى صحة جيدة .

كنا ونحن فى بولندا على اتصال بسفارتنا فى موســكو لمعرفة آخر الاخبار .. وقد سعدنا جميعا عنـــدما عرفنا فى وارسو أن الورم الذى أصيبت به من النـــوع الحميدى وليس خبيثا .. وأنه قد تم استئصاله ، وأن الفتاه فى دور النقاهة ، وسيتم اخطارنا بموعد وصولها الينا فى الوقت المناسب .

وقد أقمنا فى « الناخت سيناتوريوم » حفلا خاصــا بمناسبة وصولها ، شارك فيه الجميع ومسح من نفوسنا رواسب الالم التى خلفتها لنا هذه المأساة .

جلطة جيلان على يدها !.

لعــل من أهم بنود اتفاقيات التبادل الثقافى ، ذلك البند الذى يكفل للفرقة الزائرة ، الرعاية الصحية الكاملة ... ولولا هذا البند ، والتزام الدول التى زرناها بتنفيذه تنفيذا أمينا ، لما كان فى امكاننا ان ننجز هذه الرحـلة

فى ظروف العمل والطقس المنهكة التى صادفتنا . لقد كنا نحظى دائما بنفس الرعاية الكاملة التى يحظى بها مواطن أية دولة من هذه الدول ، بل لقد كان يتاح لنا ان نتخطى الدور ، ونتمتع ببعض الامتيازات الخاصة باعتبارنا ضيوفا على الدولة .

وقد اتيح لى فى هذه الرحلة أن أرى الكثير من مستشفيات الدول الاشتراكية التى زرناها ، بعضها يفوق مستشفياتنا تجهيزا واعدادا ، وبعضها متواضع أشد التواضع ، انما لا تقل الخدمة الطبية فيه عن أكبر المستشفيات ، من حيث اهتمام الاطباء ومستوى خبرتهم وكفاءة هيئة التمريض ، وتوفر الدواء والخدمات الصحية .. ثم النظافة ، النظافة الكاملة دائما .

ولاشك ان موقف الطبيب فى الدول الاشتراكية ، أيا كان مركزه أو مدة خدمته ، يختلف كثيرا عن موقف الطبيب عندنا . فالطب هناك مؤمم تأميما كاملا .. ليست هناك عيادات خاصة على الاطلاق .. ومن هنا كان الترقى الادبى والمادى للطبيب ، يتوقف أولا واخيرا على مدى نشاطه ، ومهارته ، وأمانته فى تأدية وظيفته . ومن هنا كان اهتمام الطبيب بكل حالة تعرض عليه ، أيا كان مركز أو مكانة هذا المريض . الطب هناك خدمة كاملة لا يتطرق اليها احتمال السعى الى الكسب المادى على حساب سلامة العلاج .

وكانت مشكلة التفاهم مع الاطباء من اعقد المشاكل التى تواجهنا ، كان الامتحان الحقيقى للمترجم المخصص لنا يجيء عندما يبدأ الترجمة لنقل شكوى المريض

للطبيب . فأغلب المترجمين سواء كانوا يتكلمون العربية او الانجليزية أو الفرنسية ، كانوا هم انفسهم لا يعرفون حصيلة مناسبة من المصطلحات الطبية باللغة التى يترجمون اليها ، كما أن أعضاء الفرقة ، لم يكن بامكانهم دائما شرح شكواهم بلغة أجنبية . من هنا كان ينشأ الكثير من الخلط وسوء التفاهم ، مما يضطر الطبيب الى مراجعة حالة المريض من جميع جوانبها حتى يصل الى التشخيص السليم .

ولا أنسى الفترة التى شغلتنا فيها جيلان الراقصة بالفرقة ، حول الجلطة التى قال الطبيب أنها أصيبت بها فى ظهر يدها !.

كانت تشكو من ألم بظهر يدها ، وذهبت الى المستشفى مع المترجم وعادت تبكى ! ..

لقد قال الطبيب انها مصابة بجلطة فى يدها .. ومادام الجلطة فى اليد ، فما المانع فى أن تنتقل الى القلب أو المخ ؟ هكذا قالت جيلان .. وحاولت أن أفهم من المترجم حقيقة الموقف ، فلم أستطع ، وبقيت متيقنا أن تشخيص المرض والوصول الى تحديد كلمة جلطة ، كان مبادرة نشيطة من جيلان .. فلا المترجم يعرف معنى كلمة جلطة بالانجليزية التى يتكلمها .. ولا جيلان !.. فكيف توصلا الى هذه الكلمة ، لقد حاول الطبيب أن يشرح لها حالتها ، فسارعت هى على الفور باستنتاج أنه يتكلم عن جلطة . وقد كان علاج هذه الجلطة المزعومة ، نوع من المرهم الابيض تضعه جيلان على ظهر يدها ... مادة يدها أمامها فى كل حركة وفى كل وقت .. وكانت الاحتجاجات تتصاعد ، كلما جلست جيلان بجلطتها ،

ومرهمها ، ويدها الممدودة الى الامام ، الى المائدة أثناء تناول الوجبات ... وعندما استنفذت قصة الجلطة أغراضها ، اختفت . وعادت يد جيلان الى جانبها بدون مرهم ، وبدون جلطة ، وبدون شكوى !.

وكان الاحساس بالغربة سببا فى حالة من الاحباط النفسى ، ينعكس في شكل آلام جسمانية ، ويضيف الى قائمة المستشفى اعدادا من الاعضاء ، لم يكن بهم ما يستحق الذهاب الى المستشفى ، وان كانوا يشعرون فى قرارة انفسهم بجدية آلامهم .. وكانت هذه الاحاسيس الكاذبة تتبدد بمجرد الذهاب الى المستشفى وتناول أى دواء يصفه الطبيب .

كما كانت هناك فى جانب آخر مجموعة من الاعضاء تكره المستشفيات والاطباء ، وتظل تتحمل وتعانى حتى افاجأ بها تنهار انهيارا كاملا .. ويأتى اللوم من الطبيب موجها الى شخصى ، كيف أهملتم هذه الحالة الى هذا الحد ؟ ..

من بين هذه الحالات ، كانت حالة المرحوم عبد الله .. طبال الفرقة .

الشكوى فى مستشفى البوليس ببرلين :

عبد الله ، طبال الفرقة يعتبر من القلائل المتفوقين فى فى فنون الايقاع بمصر ، واذكر أن الموسيقار السوفييتى العالمى خاتشادوريان ، سجل له ساعات طويلة من الايقاعات الشرقية المختلفة المعروفة والمهجورة ، عندما اكتشفه اثناء زيارته لمصر .

والفرقة تعتمد اعتمادا أساسيا على الايقاع فى عملها ، بل أن بعض الرقصات ، كرقصة العيش والحجالة تؤدى على الايقاع فقط .

ولعبد الله أخ ، هو عبد الرحمن يعمل فى الفرقة أيضا كعازف ايقاع ، الا أن ظروف التجنيد حالت دون اصطحاب عبد الرحمن معنا فى الرحلة .. واعتمدنا على الراقص السابق بهى الدين بركات ، الذى أصيب بنمو مطرد فى قامته جعله لا يصلح للظهور على المسرح وسط المجاميع ، اعتمدنا عليه فى مساعدة عبد الله عوضا عن عبد الرحمن خلال الرحلة .

وأثناء الرحلة ، لاحظت يوما أن عبد الله يعرج فى مشيته ، وسألته عن السبب ، فقال بوجود جرح صغير فى قدمه لن يلبث أن يندمل . عرضت عليه الذهاب إلى الطبيب ، فأخذ يضحك مستنكرا ، قائلا أنه لم يتعود فى حياته الذهاب الى الاطباء لمثل هذه الاسباب الطفيفة .

صدقته فى ذلك الوقت .. الا أن حالة العرج هذه طالت ، بل وأخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، تحدثت معه فقال ان أصابع قدميه قد أصابتها جروح جديدة ، وأن هذه الجروح لا تلتئم بسهولة . كنا قد وصلنا الى بولندا ، فطلبت منه أن يتنازل عن عناده ، ويذهب الى المستشفى ، لعلهم يزودونه بما ينفع فى علاج هذه الجروح .

كنا بالتحديد فى كاتوفيتسا ، وعاد عبد الله من المستشفى ، فسألته عن نتيجة الزيارة . أخذ يراوغ ويقول ان الادوية التى تسلمها لاشك ستساعد على التئام

هذه الجروح .. الا ان المرافق الذي اصطحبـــه الى المستشفى ، قال لي بالانجليزية أن حالته خطيرة ، فهــو مصاب بمرض السكر المزمن ، ونسبة السكر عنده مرتفعة جدا،وحالته تستدعي علاجا جادا ، واقامة فى المستشفى، وقال ان ارتفاع نسبة السكر يحول دون التئام الجروح .

وللحقيقة ، هالني الموقف . وبأمانة ، كان انشـــغالي علي عبد الله لا يقل عن قلقي علي مستوى العـــــرض المسرحي في غيابه .. الا ان الدافع الانساني تغلب عندي علي ماسواه ، فحسمت القضية وقررت دخول عبد الله الي المستشفي .

ودارت معركة .. رفض تام من عبد الله ، واتهـــام للأطباء والمرافق معهم بالتهويل ، وما الداعي للذهاب الي المستشفي .. ولو كان الامر كذلك ، لذهب ثلاثة أرباع الشعب المصري الى المستشفيات ، وأن « النـــاس هنا خرعين .. مش متأسسين زينا .. الشيء اللي يخـلي الواحد منهم يرقد فى المستشفى ، ياخده الواحد مننا علي رجليه .. واسبرينه تقضى الغرض .. » الى آخر هذا الكلام .

وعندما أحس بتصميمي ، أدار اسطوانة أخرى ، حول مصير العرض ، وعدم قدرة بهي الدين على القيــــام بالايقاع منفردا ... ولكن النتيجة النهائية كانت استلقاء عبد الله على احد أسرة المستشفى فى كاتوفيتسا ، وسط عنبر به عشرة مرضى .

كانت خطة العروض فى بولندا تقتضى أن نقدم عروضنا بعد كاتوفيتسا ، فى « ووتش » ، ثم فى وارسو العاصمة لنسافر بعد ذلك الى المانيا الديموقراطية . وقبـــل

مغادرتنا كاتوفيتسا طلبت زيارة عبد الله للاطمئنان عليه وللاتفاق معه على البقاء فى المستشفى لحين انتهاء عملنا فى بولندا ، ثم اصطحابه معنا الى المانيا .

دخلت العنبر الذى يرقد فيه عبد الله ، فوجدته جالسا على السرير ، بالبيجامة ذات الخطوط الحمراء العريضة ، والى جانبه أكوام من الفاكهة ، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه .

ـ هيه .. ازاى الحال ياعبد الله ؟..

ـ تمام التمام .. النـاس هنا آخر السطه !.. بيحبونى وبحبهم وطول الليل والنهار نرغى بالمشاورة ..

ومد يده الى تفاحة حمراء كبيرة وقدمها الى كتحية ، شكرته ، فقال مشيرا الى كوم الفاكهة وهو يقول :

ـ بيحبونى قوى هنا .. محدش مأخرلى طلب .. وكل شوية واحد من اخواننا العيانين دول يتحفنى بهدية فاكهة .

ـ طب مالكش طلبات ؟.

ـ أبدا .. أبدا ..

ـ حالتك أحسن دلوقتى ؟.

ـ جدا .. جدا ..

ـ احنا ح نسافر النهارده لبلد تانية ، وبعدين حنطلع على وارسو ، وأنا اتفقت معاهم يوصلوك لحد وارسو قبل مانسافر المانيا ..

ـ وماله .. زى ماتشوف .

الحقيقة اننى لم أطمئن لهذه السعادة الدافقة التى يمارسها فى المستشفى ، بعد كل الممانعة السابقة... ولم أفهم ساعتها السر فى هذه السعادة .

مرت الايام .. ووصل الينا عبد الله فى وارسو فى نفس يوم تحركنا الى المانيا ، حالته لم تتحسن ، والجروح لم تلتئم ، فسألت المرافق الذى اصطحبه من كاتوفيتسا الى وارسو عن راى الاطباء هناك فى حالته .. فقال انهم غير راضين عن سير العلاج .. ويطالبون بتسليمه الى احدى المستشفيات فى المانيا .

سافرنا الى المانيا ، ووصلنا كما سبق أن قلت من الحدود الى مدينة سفيكاو فى الجنوب ، ولما كان من الضرورى سفرى الى برلين مع كبير المرافقين للاتفاق على برنامج العمل ، فقد طلبت اصطحاب عبد الله لعرضه على الاطباء هناك .. وكنت قد شرحت قصته لكبير المرافقين ، فاجرى اتصالاته ، وحجز له مكانا فى مستشفى البوليس ببرلين .

على مائدة العشاء فى الليلة السابقة للسفر ، استأذن عبد الله فى زجاجة بيرة ، وكنت أمنعه من تناول الخمور مراعاة لحالة السكر .. ولكنى وافقت هذه المرة باعتبار أنه سيخضع لنظام محكم فى التغذية عند وصوله الى المستشفى فى اليوم التالى .

وفى ظهر اليوم التالى كان عبد الله يرقد فى سريره بمستشفى البوليس ببرلين . مستشفى كبير ونظيف ومنظم ، يسوده هدوء كامل .. يوحى بالثقة الشديدة . وبعد الكشف الاولى اقبل الطبيب برفقة كبير المرافقين الى حيث كنت أنتظر . فقال الطبيب ان حالة المريض غير مشجعة ، وان علاج الجروح التى فى قدمه لا يمكن البدء بها ، قبل علاج جاد ودقيق لتخفيض نسبة السكر العالية ، ولهذا يجب أن أن يبقى عبد الله فى المستشفى

لمدة شهر ونصف ، أو شهر كامل على الاقل . وافقت فقد كان هدفى أن انقذ صحته دون اعتبار لما يسببه تخلفه من تأثير على مستوى العرض . كنا فى بولندا قد جربنا بهى الدين بركات ، واثبت انه يستطيع أن يؤدى المطلوب ، لا يعوض عن غياب عبد الله ، ولكن لا يعوق تقديم العرض .

مر أسبوع ، وذهبت لزيارة عبد الله ، فما أن دخلت الى حجرته حتى هب ناهضا ، شاكيا ، طالبا الخروج فورا من هذا السجن الذى يسمونه مستشفى بوليس !.

وفهمت أن مصدر شكواه ، تلك المعاملة الحاسمة فيما يتصل بنظام الغذاء الخاص الذى وضع له .. وأخذت أسأله عن تفاصيل ما يقدم اليه فى كل وجبة ، فوجدت الا مجال للشكوى ، لا من الاصناف ، ولا من الكميات . وراح عبد الله يقنعنى أن صحته قد تحسنت كثيرا ، وان بامكانه مغادرة المستشفى .. ولما فشل فى هذا ، اخذ يشكو من انهم لم يبدأوا فى علاج قدمه ، مكتفين بالنظافة اليومية ، دون علاج خاص .. فقلت له أنهم أدرى بما يفعلون .

لم يكن عبد الله مستعدا لاى شرح أو تبرير .. وقد حاولت خلال الحوار المتصل أن أفهم سر رفضه الشديد للاقامة فى هذه المستشفى ، فلم أصل اليه .. العلاج منتظم .. والمعاملة طيبة باعترافه .. فلماذا هذا السخط على مستشفى برلين ؟ ..

عندما حضرت الفرقة بأكملها الى برلين ، أخذت استقصى سر هذه الحالة من أخص أصدقائه بالفرقة ..

وعرفت السر .. عرفت سر استمتاعه بمستشفى كاتوفيتسا ، ورفضه لمستشفى برلين ، رغم ارتفاع مستوى الاخير من جميع الجوانب .

عبد الله يشرب الخمر يوميا ، وعند دخوله مستشفى كاتوفيتسا ، استطاع أن يعقد الصداقات مع بعض المرضى المقيمين بالعنبر ، وأن يتلقى هدايا الفودكا التى كان زوار العنبر يقدمونها الى أقاربهم فى يوم الزيارة .. من هنا كان تعلق عبد الله بذلك المستشفى ، واستعداده للبقاء لاى مدة .. ومن هنا كان أيضا ، عدم تحسن حالته . اما فى مستشفى البوليس ، فقد كانت الرقابة شديدة ومحكمة ، انهزمت أمامها مجهودات عبد الله فى الوصول الى قطرة واحدة من الخمر .. ومن هنا كان التمرد .

بل قالوا ، ان عبد الله ، فى اليوم السابق للسفر الى برلين ، وعندما ترددت فى السماح له بكوب من البيرة ، كان قد ابتلع زجاجة كاملة من البراندى .

عندما فهمت السر انتهت حيرتى ، وحرصت على نقل هذه المعلومات الى الطبيب ، حتى يراعى حالته هذه فى العلاج ، فقال ضاحكا انه ادرك هذا منذ اللحظة الاولى ، وأن العلاج يتضمن مراعاة هذه الحقيقة .

وزرت عبد الله يومها ، فبدأ اسطوانته التقليدية ، ولكنى اخبرته بلطف وبحزم فى نفس الوقت ، انه باق بالمستشفى حتى نهاية الشهر ، وأن عليه أن ييأس من اية محاولة للهرب من العلاج .. وخاصة من التفكير فى تناول قطرة واحدة من أى مشروب كحولى .. وصارحته

بالمعلومات التى وصلتنى عن مستشفى كاتوفيتسا ، وليلة السفر الى برلين .. فأخذ يضحك ، وقد شعر أن محاولاته أصبحت مكشوفة .

قبل مغادرتنا ألمانيا فى طريقنا الى تشيكوسلوفاكيا ، انضم الينا عبد الله وقد تبدلت حالته الصحية تبدلا تاما ، والتأمت جروح قدمه ، وانخفضت نسبة السكر عنده بشكل ملحوظ . وأخذ يشكرنى على قسوتى معه واصرارى على استمرار العلاج ، مع وعود قاطعة بعدم الاقتراب من الخمر ، بعد أن عرف كيف يكون أثرها على صحته .

لكن راودنى ساعتها تساؤل حول مدى قدرته على التمسك بهذه الوعود . ثم حزنت بعد ذلك بسنوات عندما علمت انه توفى بسبب مضاعفات مرض السكر .. عليه رحمة الله ..

فى مــواجهة الجماهير

البداية .. فى ملعب كرة السلة :

كانت زيارتنا لتركيا فى أعقاب فترة طويلة من انقطـاع العلاقات الثقافية بين بلدينا ، وكان آخر نشاط ثقافى أو فنى قادم من مصر ، يذكره الناس فى تركيا ، هو زيارة المظ وعبده الحمولى !.

من هنا كان اهتمام الحكومة التركية بالزيارة ، واهذا اوكل لوزارة الخارجية التركية أمر استقبالنا ، وتنظيم رحلتنا داخل تركيا ... وخصصت الخارجية التركيـة ممثلا لها يرافقنا طوال فترة تواجدنا داخل الحـــدود التركية ، ويكون بمثابة ضابط اتصال بيننا وبين وزارة الخارجية ، الملحق الثقافى .. توفيق بيك .

توفيق بيك ، الدبلوماسى التركى الشاب الذى استقبلنا فى انقرة عند وصولنا ، متمسكا بأصول الدبلوماســية ، وتقاليدها ، ورسمياتها .. هو نفسه توفيق بيـــك ، الذى ودعنا بالاحضان فى حرارة تناسى معها شـــكليات البروتوكول ، قبل أن يتحرك بنا القطار من تركيـــا الى بلغاريا .

بدأت مشاكلنا مع توفيق بيك ، عند زيارتنا للمكان الذى سنقدم فيه أولى حفلات رحلتنا الطويلة . لقد حرصنا قبل أن نتحرك من القاهرة ، على أن نرسل الى الدول التى سنزورها ، بيانات كاملة بمواصفات المسارح التى يمكن أن نقدم عليها عروضنا .. بيانات دقيقة تحدد أبعاد المسرح وعمقه وعدد الستائر المطلوبة ، والمكان الخاص بالفرقة الموسيقية ، ثم أماكن تغيير الملابس والماكياج للراقصين والراقصات . لهذا صدمنا عندما قادنا توفيق بيك ، الى استاد كرة السلة حيث سنقدم حفلتنا الاولى . وسألت توفيق عما اذا كانت قد وصلتهم المواصفات الاساسية للعمل التى كنا قد أرسلناها ، فأومأ بما يفيد أنها وصلتهم .. قلت محتدا ، فكيف تتصور اذا ان بامكاننا أن نقدم برنامجنا فى ملعب كرة سلة ؟! ... قال بدبلوماسية وهدوء ، لانه المكان المتاح الوحيد فى انقره .

هكذا بكل بساطة .. اما ان نعمل فى استاد كرة السلة .. او لا نعمل فى انقرة ..

وعلى الفور ادركت ، اننى مطالب بأن اتنازل عن جميع احلامى بالعمل على المسارح الضخمة الفخمة فى أوروبا ، وأن أبحث عن حلول عملية تتيح للعروض المسرحية ان تظهر فى أفضل شكل ممكن .

قلت لتوفيق بيك ، سنحتاج الى عدة أشياء حتى يمكن ان نحول هذا الاستاد الى مسرح . فقال مبتسما ، وهو يشعر اننى بدأت اسلك طريق المعقول والممكن « رهن أوامركم .. » .

الاستاد ضخم يسع ثلاثة آلاف متفرج ، حـــديث التجهيز ، نظيف نظافة تامة ، مغلق ترصع سقفه أجهــزة الاضاءة الضخمة . جلست مع سامى يونس مـــدرب الفرقة ، وحسين محمود القائم بأعمال الادارة المسرحيـة بالفرقة ، ومحمد عبد الله المدير الادارى ، ندرس جميعا مطالب تجهيز المكان للعرض المسرحى .. رفع أحد قائمى كرة السلة ليحل المسرح محله ، عدد الموائد التى ستثبت الى بعضها البعض لتصنع خشبة المسرح ، انواع وكميات الاقمشة اللازمة لتغطية جوانب الخشبة ، سلالم عـلى جانبى الخشبة لصعود وهبوط الراقصين فى كل رقصة تعديل اضاءات السقف ليتركز ضوءها على موقع خشبة المسرح .

لقد اتخذنا قرارا .. سنرقص على المكشوف ، بلا ستائر أو كواليس ، وهذا يقتضى منا تدريبات شـــاقة لتعديل بداية ونهاية كل رقصة حتى تتفق مع الشـــكل الجديد للعمل .

تم ابلاغ توفيق بيك بالمطالب من جهة ، وبدأت من جهة أخرى التعديلات فى بداية ونهاية كل رقصـــــة .. وساعــة اثر ساعة ظهرت معالم المسرح الذى اقترحناه ، وبدات تدريبات الرقص فوقه .. وفى نفس الوقـــت انتحى المايسترو شعبان ابو السعد بالفرقة الموسيقية جانبا من الاستاد ، يجرى تدريباته على النشيد الجمهورى التركى ، والاغنية الشعبية التركية التى سيقدمها اعضاء الكورال بالفرقة كتحية للجمهور التركى ، وكـــان وراء تقديم هذه الاغنية قصة .

فقبل بداية الرحلة ، وأثناء زيارتى للسفير التركى ، سألته عن مدى امكان تقديم قطعة موسيقى تركية كفاصل بين رقصتين ، وكتحية للجمهور التركى .. وأخذنا نستعرض الاقتراحات الى أن خطرت على بال السفير فكرة مفاجئة .. لماذا لا تقدمون أغنية تركية محبوبة من الناس هناك ؟ ابديت مخاوفى نتيجة لضيق الوقت ، وقلت بضرورة اجادة نطق الكلمات التركية ، حتى لا تكون التأدية مثارا للسخرية .. الا أن حماس السفير أقنعنى بخوض التجربة . انتقلنا فى مكتبه الى حيث البيك ـ آب ، وتم الاتفاق على أغنيته المفضلة « كراجوز لم افكار لنما جال جايرى » .. وهى أغنية شائعة توجهها على ما أذكر فتاه الى حبيبها المجند وتقول له : يا « أبو » العيون السود .. بتفكر ليه ؟ .. شىء من هذا القبيل .

وأخذ السفير يكتب نص الاغنية بالحروف اللاتينية ، وكتبت أمام كل سطر الترجمة العربية حتى يفهم أعضاء الكورال معنى الكلمات التى يرددونها . وسلمنى الاسطوانة حتى يمكن عن طريقها أن تكتب النوتة الموسيقية للاغنية . بدأنا التدريبات وسط مشاغل السفر الاخيرة ، وفى وقت ضيق للغاية ، وكدنا نصرف النظر ، لولا أن شعبان أبو السعد تعهد باستكمال التدريبات فى أنقرة ، وتحت اشراف موسيقى تركى .

وقد حدث بالفعل أن أوفد الينا توفيق بيك فنانا تركيا يحضر بروفات هذه الاغنية ، وأبدى اعجابه الشديد بمطابقة التأدية ، للأصل التركى .

قبل بداية العرض بساعات ، بدأنا التدريب النهائى ،

ووجدنا صعوبة كبيرة فى تدريب الراقصات على صعود السلم الضيق الموصل الى خشبة المسرح والهبوط عليه ... واقبل توفيق بيك يخبرنا بأن الجمهور بدأ يتزاحم عند مدخل الاستاد ، مطالبا السماح بفتح الابواب ، فصدرت التعليمات الجميع بالدخول الى حجرات خلع الملابس والاستراحات ، واخلاء صالة المسرح .. وبعد فتح الابواب بنصف ساعة كانت مدرجات الاستاد على سعتها تغص بالمتفرجين ، وبدأت المقاعد الاضافية ترص على جانبى القائم الخاص بكرة السلة والمواجه لخشبة المسرح .. وخصص الصف الاول من هذه المقاعد للوزراء وكبار المسئولين .

وبدأ العرض ...

وما أن انتهى السلام التركى والمصرى حتى صعدت الى خشبة المسرح ، وبرفقتى توفيق بيك الذى سيتولى ترجمة كلمتى الى التركية .. وفى نهاية الكلمة كنت قد أعددت مع توفيق بيك ، جملة ترحيب أقولها بالتركية « تشكر لار فالاها اسمار لاديك » .

لم اكن اتوقع رد فعل هذه الكلمات التركية القليلة على الجمهور .. لقد انفجرت عاصفة من التصفيق والصياح استمرت لعدة دقائق .. واستطاعت عاصفة التصفيق هذه أن ترسى فى انفسنا جميعا شعورا بالاطمئنان والثقة .. الجمهور معنا ، وعلينا ان نعطيه عرضا ممتازا بقدر ما تسمح به ظروف العمل . لقد احتلت خشبة المسرح ثلث ملعب كرة السلة ، وكان الجمهور يحيط بثلاثة اضلاع من خشبة المسرح .. ومن هنا كان وقع حماس

الجماهير على من يقف على خشبة المسرح عنيفا .. لقد انتقل هذا الحماس الى قلوب الراقصات والراقصين ، واحسست به ينعكس على عيونهم عندما هبطت اليهم بعد انتهاء كلمتى ، متمنيا لهم عرضا مسرحيا ناجحا .

تتابعت الرقصات وسط عواصف التصفيق ، ثم حل دور الاغنية التركية ، وكنت أضع يدى على قلبى خوفا من فشل التجربة .. بدأت المقدمة الموسيقية للاغنية ، واخذت أتطلع الى الجمهور فى المدرجات باحثا عن تأثيرها عليهم .. وخاب أملى .. البعض يستمع بترقب وبدون حماس ، والبعض الآخر يبدو غير مستجيبا لما تعـزفه الفرقة .. وقرب نهاية المقدمة الموسيقية ، بدأ تهـامس الجمهور .. ثم بدأ الكورال « كراجوز لم أفكار ... » ، وارتجت جدران الاستاد بالتصفيق والصياح والاستحسان حتى نهاية الاغنية .. ثم أصر الجمهور على استعادتها من البداية .. فتنفست الصعداء .. وفهمت بعد ذلك أن التردد فى البداية كان يرجع الى تصور الجمهـور أنه يستمع الى اغنية مصرية « لهف » ملحنها نغمات أغنيتهم المفضلة ونسبها الى نفسه .. وهم قد تعودوا على هذا « اللهف » لاغلب تراثهم الموسيقى .. ابتداء من سلامهم الجمهورى ، وحتى أبسط الاغانى الشعبية . لقـد اكتشفت عند سماعى للتراث الموسيقى التركى ، أن عددا لا بأس به من الاغانى المصرية والسورية واللبنانيـة ، يعيش على خيرات الموسيقى التركية .

ولعل أعلا استجابة للجمهور كانت عندما قدمنا رقصة « المقاومة الفلسطينية » . كنت متخوفا بعض الشىء من

تقديم هذه الرقصة فى تركيا .. متخوفا من استجابة الجمهور ، ومن عدم موافقة الجهات المسئولة .. ففى أنقرة سفارة لاسرائيل .

لكن الذى حدث فى أنقرة عند تقديم هذه الرقصة لم يحدث فى أى مكان آخر قدمناها فيه ، رد فعل هذه الرقصة على جمهور انقرة لا يضاهى أو يقارن برد فعلها على الجماهير العديدة التى شاهدتها ، بما فى ذلك جماهيرنا نحن فى مصر .

لقد تحولت الصالة ـ بلا ادنى مبالغة ـ الى مظاهرة صاخبة طوال عرض الرقصة ، بل لقد ترددت الهتافات .. هتافات حقيقية .. شخص يهتف ، وباقى المدرجات تهتف من ورائه .. هتافات لفلسطين والعرب .. ثم عواصف من التصفيق المدوى ، ضاعف من تضخيمها فضاء الاستاد المغلق ، فبدت كهدير متصل مخيف ، استمر لدقائق طويلة ، وجعل الراقصين يتسمرون فى أماكنهم عند نهاية الرقصة .. غير قادرين على الانصراف .. غير مدركين لما يجب عليهم فعله فى مقابل هذه العواصف من التصفيق والهتاف .. ثم وبلا اتفاق سابق راحوا يشاركون بالتصفيق العنيف ، تفريغا لطاقة الانفعال التى تضطرم داخلهم .

بيس .. بيس .. ، وازمة فى اسطمبول :

لم يقتصر هذا الحماس على جمهور انقره ، بل تعداه الى جمهور اسطمبول . ونظرا لعدم وجود مسارح متخصصة فى العرض المسرحى ، تم اتفاق على ان نعمل

على مسرح دار من دور العرض السـينمائى الاولى باسطمبول ، على أن يحتل عرض الفرقة وقت حفـلة الماتينيه التى تبدأ فى السادسة .

مبنى السينما أنيق ، وصالتها فخمة واسـعة تستقبل مايقرب من ألف وثمانمائة متفرج ، والمسرح الذى يمتـد خلف شاشة العرض السينمائى لابأس به من حيـث المساحة ، ويسمح بتقديم فقرات البرنامج دون عناء .

وكان مدير السينما مهذبا رقيقا يتصرف «كجنتلمان» .. بقوامه الفارع ، وسوالفه الطويلة ، قبل أن تستحدث موضة السوالف الطويلة .. وكلمات الترحيب التى كانت تصدر منه متعثرة متقطعة نتيجة لعيب فى النطق يعانى منه .

مرت الحفلة الاولى بسلام ، وعلى خير مايكون العرض وبدأت أسطمبول تتناقل خبر الفرقة المصرية الزائرة . وشاع خبر برامجها الراقصة ، وضاعف من الاعلام عن برامج الفرقة ما ظهر فى الجرائد صباح اليوم التالى .. وحل موعد الحفل الثانى والاخير فى اسطمبول ، فتزاحم الجمهور على شباك التذاكر ، مما خلق ارتباكا للمرور فى الشارع الذى تقع فيه السينما .. وارتفعت أسـعار التذاكر فى السوق السوداء النشيطة عند مدخل الدار .. وما أن حل موعد العرض حتى كانت الصالة تستوعب ما يزيد عن طاقتها بعدة مئات من المتفرجين على أقـل تقدير .

توالت فقرات العرض ، والجمهور يصر فى نهاية كل رقصة على استعادتها ... بالصيحات التقليـدية « بيس .. بيس .. » .

كنا نستجيب للجمهور فى بعض الرقصات ، فنعيد الشطر الاخير منها ، ونتغاضى عن هذه النداءات فى بعض الرقصات التى لم نكن قد اتفقنا على اعادتها مع الفرقة الموسيقية والراقصين ، لم نكن قد حددنا النقطة التى تبدأ عندها الاعادة . وفى مواجهة اصرار الجمهور ، التقيت فى الاستراحة مع المايسترو ومدرب الرقص لنتفق على نقط الاعادة بالنسبة لرقصات الفصل الثانى ، حتى لا يفاجئنا الجمهور .

تتابعت فقرات الفصل الثانى ، والجمهور على حاله من الحماس ، ومدير السينما ، يروح ويجىء ، فى حالة عصبية لم أفهم دوافعها . وعند انتهاء رقصة الغوازى ، وهى الرقصة السابقة لرقصة الختام « الدبكة الفلسطينبة » ، اقبل مدير الدار مسرعا يطلب منى انهاء البرنامج ، لان موعد حفلة السواريه قد حل !! ، وأن استجابتنا للجمهور واعادتنا للرقصات جعلنا نتجاوز الوقت المخصص لنا .

أفهمته استحالة تحقيق هذا المطلب ، اذ لا يمكن اختتام البرنامج فجأة ، وبرقصة تشترك فيها ثلاث راقصات .. فقد جرى العرف فى العروض الراقصة أن تدخر الفرقة لختام برنامجها اضخم واقوى الرقصات .. ولكنه صمم على مطلبه ، فارسلت من يستدعى توفيق بيك مرافقنا حتى يتفاهم مع المدير .. وحضر توفيق بيك ، الا ان تصميم مدير السينما لم يتزحزح ، قلت له ان الرقصة الاخيرة لن تستغرق أكثر من ثلاث عشرة دقيقة وأن بامكان جمهور السواريه أن ينتظر هذه المدة . لكن المدير وقد تصاعدت عصبيته ، وضاعفت من عجزه عن

النطق ، راح يطلق فيضا من الكلمات المتقطعة المتعثرة ، لم افهم منها أكثر من .. الستار .. يجب .. سأغلقه .. بالقوة

نظرت الى توفيق بيك ، استشف منه طبيعة الموقف وعواقبه ، فوجدته مصرا على استكمال العرض ، فأصدرت الاوامر الى عمال المسرح بمواصلة العرض .. وكانت الفرقة الموسيقية ، وهي لا تشعر بما يدور على خشبة المسرح ، قد بدأت بالفعل المقدمة الموسيقية والغنائية لرقصة الدبكة .. وفتح الستار ، وبدأت الرقصة .

فانصرف المدير غاضبا مهددا متوعدا .. تشيعه ابتسامة توفيق بيك التي تعني « ولو .. » . ونبهت على عامل الستارة الامامية ، أن يرابط الى جانبها ، خشية أن يتسلل أحد عمال السينما ، فيعبث بها ويسدلها أثناء الرقص . الا أنه في النصف الاخير من الرقصة فوجئت بستارة أمامية اضافية تهبط من سقف المسرح .. وحاول العمال أن يمسكوا بها قبل أن تغلق المسرح تماما ، وهاج الجمهور هياجا عظيما .. وارتفعت الصيحات والشتائم بالتركية .. وادركت أن المدير الناصح قد لجأ الى ستارة احتياطية تستخدم في حالات الحريق لعزل المسرح عن الصالة ، ويتم التحكم فيها من حجرة العرض السينمائي .. اسرعت مع توفيق بيك والعمال برفع هذه الستارة الى منتصف فتحة المسرح . واشرت الى الفرقة والاوركسترا بمواصلة الرقصة ... وظللنا متعلقين على الاخشاب الجانبية للكواليس نمسك بأيدينا طرف الستارة حتى انتهت الرقصة ، وتحية

الختام ، مع حماس زائد اظهره الجمهور ، تعبيرا عن فهمه للموقف ، واستحسانا لمواصلتنا العمل بهذه الطريقة .

تعالت الاحتجاجات من أعضاء الفرقة ، فحرص توفيق بيك على تهدئة الجميع ، ووعد باتخاذ اجراء رادع مع ذلك المدير الاحمق ، على حد تعبيره . وانصرف الكل ، ولا حديث سوى عن المغامرة ، والكلمات الغاضبة ، لا توقفها الا ضحكاتهم عندما يأخذ أحدهم فى وصف منظرى ومنظر توفيق بيك ، وقد تسلقنا الكواليس لرفع الستارة ، وكيف أنهم كانوا أثناء تأدية الرقصة ، يسترقون النظرات الخاطفة ذات اليمين وذات اليسار ، يتابعون فى اندهاش ، ذلك المشهد !.

فى صباح اليوم التالى كنا فى طريقنا الى محطة السكة الحديد ، لنركب القطار الذى سيصل بنا الى بلغاريا .. وعلى رصيف المحطة وجدت برفقة توفيق بيك ممثل لوزارة الخارجية جاء لوداعنا ، وشخص آخر قدموه الى باعتباره صاحب دار السينما التى حدثت فيها المغامرة .. واخذ الرجل يعتذر عن تصرف مدير الدار ، شارحا الموقف .. فهو يملك ثلاثة دورعرض أولى فى اسطمبول ، تقدم كلها نفس الفيلم ، وهو يستخدم نسخة واحدة من الفيلم فى دور العرض الثلاثة . مستعينا براكب دراجة بخارية يتسلم احدى بوبينات الفيلم بعد انتهاء عرضها فى احدى الدور ليسرع بها الى الدار الثانية ، يسلمها ويتسلم بوبينة أخرى يعدو بها الى الدار الثالثة .. وهكذا . وان تأخير عرض السنواريه فى دار السينما التى كنا نقدم بها عرضنا المسرحى ، ادى

الى ارتباك العرض السينمائى فى دور العرض الثلاثة .. وان هذا هو السر فى عصبية وغضب مدير الدار الانيق الجنتلمان .

رغم كل هذا ، فقد بقيت لنا من عروض تركيا ، ذكرى ذلك الحماس الجارف ، والتعطش الشديد لعروضنا ، ســـواء فى انقرة باستاد كرة السلة ، او فى اسطمبول ، بمغامراتنا مع الستارة الهابطة من سقف المسرح .

تحية الجارسونات فى بوخارست :

فى أغلب الدول ، كانت تقاليـــد العرض المسرحى ، تقتضى كلمة ترحيب القيها فى بداية عروضنا فى اى دولة وعلى الاخص فى العروض الرسمية .. وكنت فى أغلب الاحيان ألقى كلمتى باللغة العربية ، ثم يقـــوم المترجم بنقلها الى اللغة المحلية ، بعد أن تكون قد أعددنا الكلمة وترجمتها قبل بداية الحفل ... كانت كلمتى هـــذه تتكرر كما هى فى كل مرة ، بعد استبدال اسم دولة باسم دولة أخرى .

كنت فى أول الامر القى كلمتى بحماس يتفق مع المناسبة ولكن مع تكرار نفس الكلمات مع جمهور مختلف فى كل مرة ، بدات تفقد كلماتى ـ بالنسبة لى على الاقـــل ـ محتواها .. واصبحت عملا روتينيا ، شديد الوطأة على نفسى .. اتحين الفرص للتملص منه ، كلمـــا كان ذلك ممكنا . وكان الجديد فى كل مرة ، والذى كان يشـــكل تحديا نشيطا بطرد الملل والرتابة ، هو ضرورة اعـــداد جملة ترحيب باللغة المحلية اختتم بها تحيتى للجمهور

وكانت القيمة الحقيقية فى هذه الجملة ، تكمن فى مدى قدرتى على نطقها بلهجة سليمة ، وبطلاقة توحى بتمكنى من لغة الدولة المضيفة ، وبارتجالى العفوى لهذه الجملة !! .. تمثيلية طريفة ، لاحظت اصرار منظمى الحفل على قيامى بها .. كما لاحظت رد فعلها المثير على الجماهير . ولعل جماهيرنا فى مصر قد عايشت مثل هذه الاثارة ، عندما كانت احدى الفرق الصينية مثلا ، تقف على المسرح لتردد أغنية « بالاتحاد والنظام والعمل » ..

لقد كان النجاح المضمون لهذه « الحركة » ، هو المبرر الاول للجهد الذى كان على ان ابذله فى حفظ وتسميع هذه الجملة ، ومحاولاتى المتكررة لالتقاط اللهجة الخاصة ، حتى يتحقق الاثر المطلوب .

فى اغلب الاحيان ، كنت الجأ الى المترجم المرافق لاعداد هذه الجملة .. واذكر اننى فى بوخارست ، وبعد ان تدربت على الجملة التى اعدها المترجم ، التقيت بالسيدة مرجريتا نيكوليسكو مديرة ومخرجة مسرح تساندريكا للعرائس ، وهى صديقة قديمة زارتنا فى القاهرة اكثر من مرة ، واردت ان امتحن نطقى لتلك الجملة امامها ، فاغرقت فى الضحك ، وتصورت أننى قد اخطأت خطأ جسيما فى النطق قلب معنى الكلمات ، ولكنها قالت ان سر ضحكها يكمن فى اختيار الجملة .. فهى تقال عادة فى المآدب والملاهى ، عندما يقف المتردى أوتيل ، معلنا افتتاح الحفل أو العشاء ، داعيا الجمهور الى الموائد ، متمنيا لهم الصحة والعافية ! .

صرفت النظر عن تلك الجملة التى كنت بالكاد قد

انتهيت من التدرب عليها ، واخذت مدام مرجريتا تعد جملة جديدة أكثر ارتباطا بالحدث الثقافى الذى تعنيه زيارة الفرقة ، وكان على أن انتهى فى أقل من ساعة ، من حفظ الجملة والتدرب على نطقها ، قبل أن يبدأ الحفل .

فى ذلك اليوم اقامت وزارة الثقافة شبه استقبال صغير فى احدى قاعات الاستقبال بالمسرح الذى نعمل فيه ، فى خلال الاستراحة بين الفصلين . وقد حضر هذا الحفل عددا من الوزراء وكبار المسئولين .. وأذكر أن وزير البترول كان يقف مع مدام مرجريتا عندما تم التعارف بيننا .. واخذ الوزير يشيد بمستوى الفرقة ، ثم بنطقى للجملة الرومانسية التى ألقيتها ، ويبدى - فى مجاملة تقليدية تعودت عليها - تساؤله عما اذا كنت أتحدث الرومانية .. تدخلت مدام مرجريتا - بمكرها المستحب - لتقول له اننى أجيد جملة أخرى اجادة تامة ، وطلبت منى أن ألقيها على مسامع الوزير .. الجملة الخاصة بجرسونات الملاهى . أخذت أحاول تغيير دفة الحديث ، بالكلام عن زياراتى السابقة لرومانيا ، ومدام مرجريتا لا تتوقف عن مشاغباتها ، والوزير ينقل نظره بينى وبينها فى محاولة لفهم الموقف .. فانتهى الأمر بأن قصت مرجريتا القصة بأكملها ، وغرق الوزير فى الضحك ، وحمدت الله على ماتم ، فقد تصورت نفسى أقف على خشبة المسرح ، أمام آلاف المتفرجين لالقى فى حماس تحية الجرسونات تلك .. وعاصفة من الضحك ترددها هذه الآلاف !!.

ولعل أغرب مطب وقعت فيه كان فى رحلة أخرى الى

قطر عربى لا يحتاج الامر فيه الى تدريب خاص على النطق ..

كان ذلك فى بغداد ، وكانت الفرقة تزور العـــراق بدعوة من الجيش العراقى ، بمناسبة عيد الجيش ... وكنا نقدم عروضنا فى « قاعة الخلد » أفخم المســـارح العراقية على الاطلاق ، وكان يعتبر بمثابة المسرح الملكى الخاص أيام الملك فيصل ، وقد بناه بالقرب من قصره فى أطراف بغداد .

كنت قد اعددت كلمة افتتح بها الحفل ، وعنـدما عرضتها على المسئول الذى كان بمثابة ضابط الاتصـال بيننا وبين الحكومة العراقية ، قال أن التحية يجب أن تتضمن اسم نائب رئيس الجمهورية وممثله فى هذا الحفل .. وكان وقتها حردان التكريتى ، الذى اقيل بعـــد ذلك ، ثم اغتيل فى الكويت على ما اذكر .. لم تـــكن المشكلة فى اضافة الاسم ، بل فى اضافة الالقاب المتصـلة بالاسم .. ثم تحفظ آخر ، رجاء الا تذكر كلمة تكريتى هذه ، لانها تثير بعض الحساسيات ، باعتبار ان اقطاب النظام الحاكم وقتها كانوا كلهم تكريتية .. من تكريت ، وان الافضل الاقتصار على ذكر حردان عبد الغفار . وبدأت اضيف الاسم فى نهاية كلمتى ، واسجل الالقاب العديدة تمهيدا لحفظها ، اذ اننى لم اكن اميل الى تلاوة التحية من ورقة امام الجمهور .. واخذ ضابط الاتصال يملينى ، السيد الفريق الركن طيار ، عضو مجلس قيادة الثورة ، ونائب الرئيس ، والقائد الاعلى للقوات المسلحة ، ووزير الحربية و و .. قائمة طويلة لا اذكرها الآن ، اربكتنى فى ذلك الوقت ، فأخذت فى الدقائق الباقية على رفـع

الستار ، احاول حفظها بالترتيب الذى وضعه المسئول المرافق .

المهم انه ما ان وقفت على خشبة المسرح وانتهيت من القاء كلمتى ، ووصلت الى كلمة الترحيب بممثل الرئيس العراقى ، ووقع نظرى على المرحوم حردان التكريتى ، ببدلته العسكرية والنياشين والشارات التى تتراكم على صدره وكتفيه .. حتى طارت من راسى كل الالقاب التى حاولت حفظها .. ووجدتنى اقول « وارحب بالعقيد الركن تحران عبد الغفار !! » .. الفريق تواضعت عدة رتب فأصبحت العقيد .. وحردان تحورت فصارت تحران .. وتوقعت ازمة .. وازمات العراق فى حدود علمى حمراء !! .

تركزت انظار الصالة على حردان التكريتى فى فضول لمعرفة وقع هذا المطب .. فانطلق يصفق ضاحكا ، واستجابت الصالة لموقفه .. ومرت الازمة بسلام .

الامبرازاريو ، دكتور عبدالعظيم انيس .

سبعون عرضا على مدى خمسة اشهر ونصف ، حضرها مايزيد على ١٢١ الفا من المتفرجين ، من بينها جميعا يقفز الى ذاكرتى العرض الذي قدمته الفرقة متبرعة فى يوم من ايام راحتها ، بمدينة ليبزج .

وصلنا اليها ، وما ان استقر بنا الحال فى فندق شتات ليبزج الضخم ، حتى تدفق على الفندق عدد كبير من الاساتذة والطلبة العرب يسألون عن موعد العرض ومكانه . وكان الدكتور عبد العظيم انيس من بين

المستفسرين . قلت له ، لاسف لم توضع ليبزج ضمن خطة عروضنا ، بل حضرنا فقط للاقامة بها ، وحتى نقدم عروضنا فى مدينة بوهلن التى تبعد ١٧ كيلومترا عن ليبزج .. أثار هذا غضب الجميع ، فتوجهوا الى المرافق الالمانى يسألونه عن سر هذا التصرف الغريب .. كيف تقدم الفرقة عروضها فى ثلاث عشرة مدينة المانية ، ولا يكون من بينها مدينة ليبزج ؟..

واخذ المسئول الالمانى يشرح وجهة نظر وزارة الثقافة فى ضرورة توزيع الخدمة الثقافية توزيعا عادلا بين المناطق والمدن المختلفة ، وأن ليبزج قد حظيت فى ذلك الموسم بزيارة عدد من الفرق الاجنبية ، لذلك لم توضع المدينة فى خطة زيارة الفرقة .

وارضاء للاساتذة والطلبة العرب ، عرض المسئول تدبير تذاكر فى عرضي مدينة بوهلين على أن ينتقلوا اليها بسياراتهم أو بالاتوبيسات العامة . وقد تم فى هذه الحدود حضور عدد لا بأس به .. الا أن ثورة الجالية العربية الكبيرة بالمدينة بقيت كما هى . وفى اليوم التالى اتصل بى الدكتور عبد العظيم انيس ، ليقول أن لجنة الطلبة العرب قد قررت ضرورة تقديم حفل خاص يحضره كل العرب ، ويدعون اليه اساتذتهم وزملاءهم من الالمان ، قلت « كيف ؟ » .. قال « لا تقلق ، سندبر نحن كافة الاحتياجات ، فقط أرجو أن تستشير الفرقة فى الموضوع لتعرف مدى استعداد الاعضاء لتقديم حفل اضافى فى يوم الراحة » .

اثناء تناول الغداء ، طرحت الفكرة على اعضاء الفرقة ، فرحبوا بها ، وتحمسوا لها اشد التحمس ، بل وابدوا

استعدادهم لتقديم أكثر من حفلة .. وكان الدكتور عبد العظيم على مائدتى ، فتأثر كثيرا بهذه الروح ، وتضاعف حماسه لتحقيق الفكرة .

أنتهى دور الحماس وحل دور التنفيذ .. على أى مسرح يتم العرض ؟ .. جميع المسارح مشغولة ببرامجها التى تلتزمها التزاما تاما على مدى العام .. على الفور تشكلت لجنة برئاسة الدكتور عبد العظيم أنيس ومعه مجموعة من الدارسين العرب ، للاتصال بادارة الجامعة ، وبحث امكانية تقديم الحفل فى احد مبانيها .. وأسفرت الاتصالات عن اختيار الصالة الواسعة التى تستخدم كمطعم عام للطلبة .. وافقت ادارة الجامعة ، وبدأت المساومات مع ادارة المطعم على تغيير موعد وجبة العشاء ، وتقديمه مبكرا بحيث نستطيع تسلم المطعم فى السادسة والنصف مساء ، بحيث نحوله الى مسرح قبل بداية العرض فى السابعة والنصف .

تم نقل الآلات والازياء ظهرا الى حجرة خاصة بالمطعم ، وعندما ذهبت مع الفنيين بالفرقة فى السادسة والنصف لاعداد مكان العرض ... كان المطعم مطعما ! مازال بعض الطلبة يتناولون عشاءهم المبكر ، ومازالت الموائد موزعة فى فراغ المطعم ، عليها بقايا طعام وأطباق لم ترفع بعد .. وأعضاء اللجنة ينتحون جانبا من المطعم ، يتطلعون بصبر نافذ الى الطلبة الذين مازالوا يتنــاولون طعامهم ، فى انتظار اللحظة الحاسمة ، التى يبدأ فيها تحويل المطعم الى مسرح .

وما أن حلت هذه اللحظة ، حتى تحول المكان الى خلية نحل نشيطة ، الموائد ترفع ، المقاعد تصف ، الاحبال تمد

بعرض المسرح لتركب عليها الستائر ، حجرات مؤقتة لخلع الملابس من ملايات المدينة الجامعية .

وفى السابعة والنصف فتحت أبواب المطعم للجمهور من الالمان والعرب ، وتتابعت الفقرات وسط حماس جنونى ، يعود بعضه لنا ، ويعود اغلبه الى فرحة الطلبة العرب بنجاحهم فى تحقيق هذه الفكرة ، وتغلبهم على كافة العقبات .

الطريقة الشعبانية فى القيادة الموسيقية :

اذا كانت مشاكل العرض المسرحى قد واجهتنا ابتداء من عرضنا الاول فى أنقرة .. فقد تعلمنا منذ ذلك الحين كيف نطور عروضنا بحيث تتفق دائما مع ظروف العمل الجديدة . ولعل قدرتنا على التصرف بلغت ذروتها فى حفل مطعم الجامعة بليبزج ، حيث استطعنا تقديم مجموعة من الرقصات والاغانى الشعبية فى ظروف صعبة لم نكن نتصور اننا سنواجه بمثلها فى رحلتنا لاوروبا . ولعل أصغر المسارح التى عملنا عليها كان فى مدينة « تلبوخين » ببلغاريا والتى تبعد عن مدينة فارنا السياحية بحوالى ٦٠ كيلومترا . ما ان وصلنا الى مبنى المسرح حتى فوجئنا بخشبة المسرح التى لا تزيد فى ابعادها عن حجرة عادية .. ما أن تدفق اليها ثلث أعضاء الفرقة بدافع الفضول حتى غصت بهم ولم يبق موضع لقدم .

ويبدو أن السيد يوردان كبير المرافقين لم يكن قد زار هذا المسرح من قبل ، فقد كانت خشبته الصغيرة مفاجأة للسيد يوردان بمثل ما كانت لنا .. فظهرت عليه

معالم الارتباك ، واختلى بى ليستشيرنى فى الغاء الحفل ، رغم أن التذاكر كانت قد بيعت ، متحملا هو مسئولية هذا التصرف ، حتى لا يضعنا فى موضع الحرج . طلبت منه مهلة لدراسة الوضع ، وخلوت الى سامي يونس مدرب الفرقة ، واتفقنا على برنامج خاص يتضمن بعض الرقصات ذات الاعداد القليلة مع ضرورة اجراء بعض التدريبات العاجلة لضبط حركة الرقصات وتضييقها وفقا للظروف الخاصة جدا التى سنعمل فى اطارها .. مع الاستعاضة عن الرقصات الناقصة ، بفواصل من الموسيقى والاغانى الشعبية .. وقد نجح الحفل رغم هـذه الظروف .. واحتفل بنا مجلس المدينة احتفالا صاخبا عقب انتهاء العرض .

وكانت مشكلة الفرقة الموسيقية ، ومكان جلوسها ، تواجهنا فى أكثر من مسرح .. ويبدو أن بعض الدول كانت تتصور أن فرقة الرقص الشعبى ، تعمل كما هى العادة عندهم ، مع فرقة موسيقية محدودة ، لا يزيد عـدد افرادها عن ثمانية عازفين .. وفى الغالب يدبر لهم مكانا خاصا على جانب خشبة المسرح .. لذا كانت فرقتنا بعازفيها الذين وصل عددهم بعد الضغط الشديد الى ٢٥ عازفا ، مفاجأة متكررة للمسئولين فى كثير من البلدان .

ففى صوفيا ، قدمنا حفلتنا الاولى فى صـالة للموسيقى السيمفونية .. مثل صالة سيد درويش عندنا .. وواجهتنا الكثير من الصعوبات فى تعديل تشكيلات الرقصات لتتفق مع الحيز الشديد الاستطالة القليل العمق الذى كان مخصصا للرقص .. ويبدو أن هـذا

الحيز يخصص عادة لفرقة الكورال فى بعض العروض السيمفونية . واضطررنا الى وضع الفرقة الموسيقية على مسطح مرتفع خلف هذا الحيز ، فبدت كخلفية دائمة للعرض الراقص .. وقد شعر المسئولون بغرابة هذا الوضع ، فنقلوا العرض فى اليوم التالى الى دار الاوبرا ، باستعداداتها المسرحية الكاملة . وفى نهاية العرض جاء السيد بوبوردينوف أحد كبار المسئولين بوزارة الثقافة ، يهنىء بالنجاح ، ويعتذر عن ظروف العرض السابق ، ويقول مبتسما « ظلمناكم ! » .

بل اضطررنا فى بعض الاحيان الى توزيع الفرقة الموسيقية الى مجموعتين على جانبى مقدمة المسرح .. الآلات الوترية فى جانب ، وآلات النفخ والايقاع فى جانب آخر ، وبقى على المايسترو شعبان أبو السعد ، أن يبتكر وسيلة التفاهم التى تسمح له بقيادة الفرقة الموسيقية بهذا التقسيم المبتكر .. وكانت محاولاته لقيادة الفرقة مرة ملتفتا الى هذا الجانب ومرة الى الجانب الاخر ، وبين هذا وذاك متابعا الحركة على المسرح ، كانت هذه المحاولات مصدرا للعديد من القفشات التى كان من بينها مطالبته الاسراع بتسجيل هذه الطريقة الشعبانية فى القيادة الموسيقية ، التى تفوقت على قيادة أحمد فؤاد حسن للفرقة وهو يعطيها ظهره !! .

آخر شكوى فى تيرانا :

واذا كانت الفرقة القومية للفنون الشعبية قد استطاعت أن تواصل عملها على مدى خمسة اشهر

ونصف ، بعدد الاعضاء المضغوط ، وفى ظروف التنقــل السفر المستمر ، وبرغم درجة الحرارة التى لم يسـبق لاعضاء الفرقة تحملها ، والتى كانت تصل فى كثير مـن الاحيان الى ٢٥ درجة تحت الصفر ، وفى مواجهة حالات المرض الخفيفة والشديدة والعمليات الجراحية .. أقول اذا كانت الفرقة قد استطاعت أن تؤدى عملها على خير وجه رغم كل هذه الظروف ، فمرجع هذا بلاشك الى نظام البطولة الجماعية الذى تلتزمه اشد الالتزام ، والذى يميزها عن غيرها من الفرق المسرحيـــة والشـــعبية والاستعراضية ، والذى يعتبر تقليدا راسخا من تقاليـد الفرقة منذ بداية تكوينها .

لقد نشأت الفرقة ونمت وتطورت ، وعقيدة أساسية لا تغيب عن وجدان أفرادها ، ان الفرقة اكبر من مجموع اعضائها .. وان العمل يجب أن يسير دائما على أكمــل وجه ، مهما كانت أهمية الذين يتخلفون عن العــرض ؛ أو حتى ينهون عملهم بالفرقة .. لا يوجد فرد واحـد ، مهما كانت درجة تفوقه ، لا يمكن للفرقة أن تسـتغنى عنه ، وتمضى فى عروضها دون أن يهتز مستوى هـــذه العروض .

وقد استتبع هذا الفهم ، ضرورة وضع نظام دقيـق للبدائل ، أو مايسمى عادة « الدوبلير » . كل راقص أو راقصة له بديل جاهز يمكن أن يحل محله فى لحظـة ، ويؤدى عمله على اكمل وجه .. سواء فى الرقصـات الفردية أو الجماعية . شق رئيسى من تدريبات الفـرقة ينصرف الى تحقيق كفاءة عالية لهذا النظام .. تدريبات مستمرة تسمح للفرد الواحد أن يشارك فى الرقصـــة

الواحدة ، فى اكثر من موقع .. الرقصة التى يؤديها ١٢ راقصا ، يتدرب عليها ٣٦ راقصا . والفرقة تتبع فى عروضها نظاما خاصا يستهدف تدريب الجميـــع على مواجهة الجمهور ، فى جميع المواقع التى تدربوا عليها .. فالامر لا يقتصر على التدريبات ، بل يقضى بمواجهـــة الجمهور بطريقة دورية ، بحيث لا يسبب تغيب عشرة راقصين وراقصات مثلا ، وأيا كانت مواقعهم ، تعثرا فى مستوى العرض . بل يمكن مواجهة الظروف الطـارئة ، باستبدال راقص بغيره فى لحظات ، دون أن يشـــعر الجمهور بأدنى اختلال فى سياق العرض .

والى هذا النظام ، نظام البدائل « الدوبلير » ، يعـود الشق الاكبر من الحماس للعمل الذى يتصف به أعضـــاء الفرقة فى العروض الداخلية والخارجية .. هذا الطريق المفتوح أمام كل راقص وراقصة ، لكى يتفوق على غيره وعلى نفسه ، خلق جوا صحيا من التنافس والحـرص على التجويد ، والرغبة فى الحصول على فرص أوســـع للعمل والاشتراك فى عدد أكبر من الرقصات .. لقـــد كانت المشكلة الحقيقية طوال هذه الرحلة ، هى ارضـاء الجميع بالسماح لهم بمزيد من العمل .. المشكلة دائما ، فلانة دخلت اليوم فى خمس رقصات ، ولم أدخل سوى فى ثلاث فقط .. فلان ادى الدور الفردى « السولو » فى الرقصة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، ولم أكلف بدور فردى طوال هذه الايام الثلاثة .. وهكذا .

قد نتصور أن هذا الحماس لابد أن يفتر على مـــدى شهور الرحلة ، الا أننى مازلت أذكر أن مشكلة العمـل الاخيرة ، كانت بسبب استياء أحد الراقصين من حرمانه

من الاشتراك فى العرض الاخير بمدينة تيرانا . وكان قد حرم من الاشتراك فى العمل لمدة ثلاثة عروض ، نتيجة لخطأ ارتكبه قبل هذا .. وقد يبدو غريبا أن يكون الحرمان من العمل أحد أشكال العقوبات الفعالة التى كنت أسعى بها الى اقرار النظام فى سير العمل بالفرقة اثناء الرحلة .. الا أن هذا العقاب كان فى كثير من الاحيان أشد ايلاما للعضو من الخصم المالى .. لقد تضمنت الشكوى الاخيرة فى رحلتنا ، اعتراف الراقص بخطئه السابق ، وبعدالة الجزاء ، وطمعه فى العفو برفع عقوبة اليوم الثالث حتى يمكنه أن يشارك فى العرض الاخير للفرقة فى رحلتها .

كلمات عن موسكو .. والاعتذار فى الاقصر .

وكانت عقوبة الحرمان من الاشتراك فى العروض تصل الى قمة تأثيرها فى عروض العواصم الهامة . أذكر أن راقصة قد أخلت بنظام العمل فى أحد العروض ، فوقعنا عليها عقوبة الحرمان من العرض التالى ، وكان العرض التالى فى مدينة موسكو .. وقد أختارت لنا وزارة الثقافة السوفييتية مسرح قصر الكريملين لنقدم عليه برامجنا .. وما أن وصلنا الى المسرح لنجرى التدريبات ورأت الفتاة صالة المسرح الضخمة بطوابقها الثلاثة ، ومقاعدها التى تبلغ ستة آلاف مقعد ، حتى جن جنونها، وبذلت جهدا متصلا فى الرجاء والاعتذار والتعهد بعدم التهاون فى نظام العمل مستقبلا ، بل واستعدادها لقبول أى عقاب آخر غير عقاب الحرمان من العرض .

ومسرح قصر الكريملين يقع داخل اســـوار قصـــر الكريملين ، ولا يسمح للسيارات بالدخول حتى بــاب المسرح ، بل تقف عند ابواب السور ، ويبقى على الجمهور أن يقطع اكثر من مائتى متر على الاقدام حتى مدخـــل المسرح .. ولقد شهدت منظر انصراف الجمهور بالالاف من حفلتنا الاولى ، وموكبه الضخم من باب المسرح حتى أسوار الكريملين .. تمتد فوقه مظلة هائلة صنعها تكدس المظلات التي رفعها كل واحد لحمايته من الجليد الهابط بغزارة من السماء .

ومبنى مسرح قصر الكريملين يتكون من خمسة طوابق ــ على ما اذكر ــ وتضم طوابقه أكثر من مسرح ، وبه ثمانية مطاعم كبيرة .. والطابق الثالث عبارة عن حديقــة كاملة تتوسطها نافورة . هذا من ناحية المبنى .. الا ان الاعجاز الحقيقى يتجلى فى المسرح الكبير الذى عملنــــا عليه ، بامكانياته الاوتوماتيكية المتفوقة ، وبالخـــدمات المسرحية المتعددة التى يقدمها . الاجهزة الصوتيةالحديثة بامكانياتها الواسعة ، وسائل الاضاءة المختلفة ، وطريقــة ضبطها آليا بحيث تسير الاضاءة خطوة بخطوة مع فقرات العرض ، دون احتمال خطأ واحد ، أو تخلف بســيط عن التوقيت الدقيق لكل تغيير فى الاضاءة . الســــــتائر الضخمة المتعددة الالوان والاشكال ، والتى تتحــرك من جانب لآخر ومن أعلى لاسفل فى نظام آلى دقيق .. هذا بالاضافة الى الخدمات الجانبية الفريدة التى يتيحها هذا المسرح .. حجرات خلع الملابس والماكياج بأثاثهــا الجميل والمريح .. أجهزة التليفزيون المنتشرة فى كل مكان ، فى حجرات الملابس والاستراحات والطرقات والبوفيهـــات

ومدخل الجمهور ، كلها تعرض ما يجرى على المسرح ، بحيث يستطيع كل واحد من المشتركين فى العرض ان يكون مستعدا فى الكواليس عند اللحظة المناسبة .. واخيرا ، وبعد كل هذا ، النظافة الكاملة التى تفرض نفسها على كل شىء .

كان من المقرر منذ بداية الرحلة أن نكتفى بعرضين على مسرح الكريملين ، فسعة المسرح ستة آلاف مقعد ، والمقاعد كلها مشغولة ، ومعنى هذا ١٢ ألف متفرج على مدى يومين . اقول هذا لاننا صدمنا جميعا بقصاصة من جريدة « الجمهورية » ، وصلتنا بعد أكثر من شهر من تاريخ عرضنا هذا ، بها مقال او خواطر كتبها الاستاذ محمد عودة عن عرضنا هذا .. وكان قد حضر عرض الكريملين مع عدد من المصريين الموجودين فى موسكو فى ذلك الحين .

ماذا يقول عوده ؟ .. يقول « لا احد يستطيع أن يقول أن الفرقة قد فشلت ، ولكننا لا نستطيع أن نقول أن الفرقة قد نجحت » ، ثم يقول « وبعد حفلتين على مسرح الكريملين ، تأجلت الحفلة الثالثة ، وسافرت الفرقة الى مدن الدرجة الثانية فى الشمال ، ومنها الى بولنده » .

كلام غريب اثار ثائرة الجميع .. خاصة واننا تسلمنا هذه القصاصة فى الثلث الاخير من الرحلة ، وكنا فى المجر .. وعروضنا تلقى حماسا خرافيا على مسارح بودابست ، واذكر ان كمال نعيم مصمم الرقصات بالفرقة اصر على ان يأخذ معه الى المسرح جهاز التسجيل الصغير الخاص به ، ليسجل عاصفة التصفيق التى تعقب تقديم البرنامج ، وعند عودتنا بالاتوبيس الى الفندق فى نهاية

الفرض ، أخذ يسمعنا التسجيل ، ناظرا الى ساعته ، ليقول أن عاصفة التصفيق دامت لاكثر من ست دقائق ، قوية صاخبة .. وجمهور بودابست جمهور ذواق ، يتاح له أن يشهد أعظم فرق الرقص الشعبى العالمية ، بما فى ذلك الفرقة القومية المجرية .

ثم ماهذا الكلام عن الغاء حفلة ثالثة ، والسفر الى مدن الدرجة الثانية بالشمال ؟ .. لقد تحدد برنامج عملنا منذ يوم وصولنا الى موسكو .. بل لقد أخطرنا بتفاصيل البرنامج ونحن فى رومانيا قبل وصولنا الى الاتحاد السوفييتى ، ونشرته الجرائد المصرية ، وجريدة « الجمهورية » بالذات التى كتب فيها الاستاذ عوده كلمته .. ظهر هذا البرنامج كاملا فى عدد ١٨ نوفمبر ٦٨ ، وكنا فى ذلك الحين لم نبدأ عروضنا فى موسكو التى تمت فى يومى ٢١ ، و٢٢ نوفمبر !!.

وقد تضمن هذا البرنامج تقديم ثلاث حفلات فى لينينجراد ثم حفلتى موسكو ، وبعدها حفلتان فى ريجا عاصمة جمهورية لاتفيا على بحر البلطيق .. بحيث نأخذ طريقنا بعد ذلك الى جديانسك فى بولندا التى تقع على بحر البلطيق أيضا .

لقد أساءت كلمات عوده الى جميع أعضاء الفرقة ، وأثارت سخطهم وغضبهم .. الا يكفى أن الصحافة المصرية لم تكن تتابع نشاط الفرقة بما يوازى الصدى الذى كانت تثيره زيارتها لعشرات المدن الاوربية ؟.. الا يكفى أن أحدا لا يدرى بالجهد البدنى والعصبى الذى يبذله أعضاؤها فى رحلتهم .. بينما يتصور الكثيرون بمصر اننا فى « فسحة » الى أوروبا ؟ ... ثم يجىء الذين

« يتفسحون » فعلا ، ليقولوا أن حفلة ثالثة قد الغيت ، وأن برنامجنا قد تغير ، وأن الفرقة قد اطيح بها الى مدن الدرجة الثانية .

ومن أين أتى الاستاذ عوده بهذا التقييم لحفلات موسكو .. ومن أين له أن يعقد المقارنات بين عروضها والعروض التى قدمتها الفرق الاخرى على مسرح الكريملين ؟ ... أليست شهادة الدكتور مراد غالب سفيرنا فى موسكو فى ذلك الحين احق بالتصديق ؟ ... ولن نقول شهادة المسئولين السوفييت التى تحتمل المجاملة ..

لقد تسببت كلمات الاستاذ عودة فى جرح عميق بقلب كل عضو بالفرقة ، لم يكتب له أن يندمل الا بعد حوالى سنة كاملة ، عندما كانت الفرقة تقدم عروضها بمدينة الاقصر فى مهرجانها السياحى السنوى .. وكان الاستاذ عودة من بين المدعوين الى هذا المهرجان . قلت له « رغم اننى لا أفهم حتى الآن السر الحقيقى فى كلماتك التى كتبتها عن رحلتنا الى أوروبا ، الا اننى أنقل اليك رغبة الفرقة فى مواجهتك لتشرح لهم قصة هذه الكلمات . كانت الفرقة مجتمعة حول مائدة العشاء ، عندما دخلت اليهم مع عوده .. عرفتهم به ، فاندلعت بينهم ثورة احتجاج .. وبصعوبة استطعت أن أخمد ثورتهم .. وجاء اعتذار عوده عما كتبه ، والتصفيق الحاد من أعضاء الفرقة ، كنهاية لهذه القصة .

مقارنات غير عادلة .

وأنا لا أريد بهذا الدفاع أن أدعى مكانة للفرقة لا تستحقها ، فقد كنت أكثر من غيرى ادراكا للنواقص

التى تعترى الفرقة ، من حيث تشكيلها ونظام عملها ومستوى انتاجها .. الا أن الدوافع النفسية الخفية التى لا أعرفها ، والتى املت كلمات الاستاذ عوده ، لا يمكن أن تتخذ أداة لتقييم مدى استجابة الجماهير لعروض الفرقة فى رحلتها .

ولعل مرجع النجاح الذى لاقته الفرقة الى انها فرقة للرقص الشعبى بالتحديد ، وفرق الرقص الشعبى ، ايا كان مدى تطورها مسرحيا ، تبقى لها دائما فرصة النجاح واستجابة الجمهور الاجنبى ، بما تنقله من مذاق خاص لشعبنا فى الرقص أو الازياء او الموسيقى .. الجمهور هنا ، لا يجيء ليعقد المقارنات بين مستوى الفرقة القومية المصرية ، وفرقة موسييف السوفييتية مثلا .. انه يقبل الى المسرح مستهدفا التعرف على خصائص الفن الشعبى للدولة التى تنتسب اليها هذه الفرقة الزائرة .. وعلى قدر صدق الفرقة فى تصوير فنون شعبها ، تكون مدى نجاحها ، واقبال الجمهور عليها . من هنا كانت أهمية الاستفادة من نشاط الفرقة الشعبية فى تحقيق تواجدنا العالمى ثقافيا وحضاريا .. نحن لا نستطيع أن نوفد فرقة للباليه أو الموسيقى السيمفونية ، فمعنى هذا أن ندخل فى منافسة مع المستوى العالمى الذى تحقق فى هذين المجالين ، وستكون المقارنة والمقابلة هنا فى غير صالحنا .. وهنا أيضا تكون المجاملة الخالصة ، هى دافع الاستقبال الحماسى الذى قد تلقاه هذه الفرق .

لقد استطاعت الفرقة القومية للفنون الشعبية أن تنقل الى شعوب الدول التى زارتها ، صورة مشرفة عن فنوننا الشعبية ، بمذاقها الخاص وطبيعتها المتميزة .. وهنا

يكمن السر الحقيقي فى عواصف التصفيق ، وكلمات الاعجاب والتقريظ التى زخرت بها الجرائد والمجلات ومحطات الاذاعة والتليفزيون .. ولدى الفرقة حتى الآن اكوام من قصاصات الجرائد ، التى تعكس بما فيها من تقييم موضوعى ، رأى المختصين والنقاد فى مستوى الفرقة بالقياس الى غيرها من الفرق الزائرة .

وتقييمنا نحن لمستوى الفرقة يجب أن يتجاوز مستوى التقييم العام الذى يجريه الناقد الاجنبى ، فنحن اكثر من غيرنا ادراكا لظروف تكوين الفرق الشعبية ، والصعوبات التى يوجهها العمل اليومى بها .. ان المقارنة التى تعقد بين فرقتنا وفرقة عالمية اخرى كفرقة موسييف السوفييتية ، يجب أن تدخل فيها عدة اعتبارات خاصة .

اهمها حداثة اهتمامنا بالفنون الشعبية ، ووجود هوة عميقة امتدت لآلاف السنين بين فن السادة أو الفن الرسمى ، وبين فنون الشعب .. وجهودنا فى جمع وتسجيل وتصنيف التراث الشعبى ، ثم تطويره مسرحيا تعود الى زمن قريب لا تتجاوز خمسة عشر عاما . هذا فى الوقت الذى يمتد فيه عمر هذه المحاولات فى دول أوروبا الشرقية الى عشرات السنين .

كما أن الرقص الشعبى بصورته الاصلية ، ما زال يمارس حتى يومنا هذا ، بصفة منتظمة ، فى دول أوروبا الشرقية .. ما أن يجتمع النساء والرجال فى مناسبة ما، حتى تبرى من بينهم جماعة تروح تعبر عن فرحتها برقصات شعبية نشيطة .. فالتراث الشعبى مازال حيا بين الناس ، يسهل تسجيله وتطويره . هذا بالاضافة الى

ثراء هذه البلاد بالتراث الشعبى المتصـــل بالرقص اذا قيست بما لدينا .

وفرقة كفرقة موسييف مثلا ، عندما ترغب فى تدعيم افرادها من الراقصين تجد تحت يدها ، آلاف الراقصين والراقصات فى الفرق الشعبية المحترفة الاخرى أو فى فرق الهواة فى كل حى وقرية ومصنع ومزرعة ... أمـا عندنا وحتى بعد أن تضاعف الوعى بجدية هذا النشاط ، نشاط الرقص الشعبى ، نفشل فى العثور على عدد قليل من الراقصات والراقصين لفرق الرقص الشـعبى ... ولعل هذا هو ما الجانى الى انشاء مركز تدريب للرقص الشعبى ، ملحق بالفرقة ، يتولى على مدى أكثر من ثلاث سنوات تدريب الاطفال فى سن الحادية عشرة أو الثانيـة عشرة على الرقص الشعبى ، حتى يمكن أن نختار منهم فى نهاية فترة التدريب العناصر الصالحة للانضـمام للفرقة وهى لا تتجاوز فى اغلب الاحيان نصف العدد الذى بدانا به التدريب .

وتسقط دعوى المقارنة بين مستوى فرقتنا وفرقـة موسييف او غيرها من الفرق الرومانية أو المجرية أو البولندية ، اذا ماسبقتها ، مقارنة اخرى حول الظـروف والامكانيات ، ومدى الخدمات المادية والصحية .. ثم الضمانات التى يحظى بها الراقص ، ومدى اطمئنانه على مستقبله ، بعد أن ينتهى عمر عمله على خشبة المسرح .. وهو عمر محدود فى فرق الرقص الشعبى .

الاكل الميكانيكى .. والجرامات الزائدة .

اكثر من سبعين عرضا قدمتها الفرقة فى رحلتها .. فاذا عرفنا ان كل عرض يحتاج فى اغلب الاحيـان الى

تدريبات خاصة على خشبة المسرح التى سيؤدى عليها العرض ، وفى اليوم السابق للعرض غالبا ، أدركنا أن أيام العمل بلغت فى المتوسط ١٢٠ يوما .. فاذا عرفنا أن رحلاتنا بالقطارات والاتوبيسات استغرقت ٤٦٩ ساعة ، اى حوالى ٢٠ يوما .. وجدنا أن مجموع أيام العمل والسفر يكون قريبا من عدد أيام الرحلة ذاتها .. ومعنى هذا أن أيام الرحلة مع امتدادها ، قد استغرقتها التدريبات والعروض والسفر من مدينة الى أخرى .

رغم هذا فقد كان قلقى شديدا على مستوى لياقة أعضاء الفرقة البدنية ، هذه اللياقة التى تتحقق عادة للراقصين والراقصات بفضل التدريبات اليومية التى تسمى تدريبات « البار » ، بما فيها من تدريبات كلاسيكية وشعبية .. هذه التدريبات تستمر عادة لا يزيد عن ساعة ونصف يوميا ، ويتم تتابعها بحيث تستوعب تدريبا كافيا على كافة اللياقات المطلوبة فى الراقص . لم يكن وقتنا يسمح فى أغلب الاحيان باجراء هذه التدريبات، فكثيرا ماكنا نفضل استغلال الوقت المتاح على المسرح فى التدريب على الرقصات ، وضبطها على مقاييس المسرح الذى سنعمل عليه ، وتحديد مواقع الدخول والخروج فى كل رقصة . والوقت المتاح فى المسارح كان دائما محدودا للغاية ، فكل مسرح له برنامج عمل كامل على مدى اليوم لا يتيح لنا سوى وقت قصير .. قد يكون فى مطلع النهار ، أو فى الظهيرة .. أو بعد انتهاء العرض الذى يقدم على المسرح ، وهذا يعنى أن نبدأ تدريباتنا بعد منتصف الليل .

لقد كان حرصى على اجراء التدريبات اليومية شديدا

وكلما وجدت الى ذلك سبيلا ، حتى أواجه زيادة الوزن التى بدأت تظهر على الاعضاء ، برغم عناء السفر والعمل .. وربما بسبب انتظام تناول وجبات الطعام الكاملة . لقد لاحظت هذه الزيادة فى الوزن على نفسى أولا .. فرغم ان الجهد الذى كنت أبذله فى الرحلة يفوق ضعف الجهد الذى أبذله عادة فى مصر ، الا أن وزنى أخذ يتزايد بشكل ملموس ، وقد اكتشفت بعد بعض الوقت أن مرجع هذا الى الطريقة الميكانيكية التى أتناول بها طعامى وسط الفرقة . لقد اكتشفت بعد عدة أسابيع من بداية الرحلة ، اننى أصبحت آكل مايقدم الى أيا كانت كميته ، وأيا كان نوعه .. نوع من الامتثال للنظام العام .. وبحكم الوجود فى جماعة . الوجبة دائما وجبة كاملة ، طبق يرفع وطبق يوضع ، وأنا جالس فى مكانى ابتلع مايقدم لى فى استسلام تام . وجبة العشاء التى كثيرا ما اكتفى فيها بسندوتش صغير ، أصبحت وليمة كاملة تزيد عن وليمة الغداء بطبق الحساء ! . الافطار الذى كنت استغنى عنه فى مصر ، أو اكتفى فيه بعدد محدود من اللقيمات ، أصبح هو أيضا وجبة كاملة ، أتناولها مرغما لمواجهة الطقس الشديد البرودة .

ان الشهور المتوالية من الطقس البارد الذى يتراوح بين ٥ فوق الصفر ، و ٢٥ تحت الصفر ، كان يرغمنا جميعا على التزود بكل مايقدم الينا من طعام .. الا ان الجهد المبذول لم يكن يستوعب كل هذه الطاقة من السعرات ، فيتحول الفائض الى جرامات جديدة تضاف الى وزننا . ولقد اتفقنا فى النهاية على ضرورة اجراء بعض التدريبات

الرياضية كل صباح ، ونصحنا الراقصات والراقصين باجراء هذه التدريبات فى حجراتهم بالفندق فى بداية اليوم .. وقد نجحت الخطة مع الذين التزموا بها ، وظهرت الجرامات الزائدة لتكشف « تزويغ » الذين لم يلتزموا بها .

مرافقون .. ومرافقات

مايك .. وكشرى جحا :

ما ان يجتمع مصريان فى بلد اجنبى ، حتى يبـــدآ التعليق على كل مايعرض لهما ، باللغة العربية ودون تحفظ .. فتنطلق منهما الاقوال الجارحة والالفاظ الخارجية فى الاماكن العامة ، اعتمادا على أن اللغة العربية لغــة غــير مفهومة فى ذلك البلد . كنت ادرك اغراء هذه المغامرة ، وكنت أعلم انه فى حالتنا لا يجب أن نسمح بمثــل هذه المغامرات ، بصفتنا الرسمية من جهة ، ولان الدول المضيفة كثيرا ما توفر لنا مترجما أو مترجمة ممن يتكلمون العربية تسهيلا للتفاهم مع كافة أعضاء الفرقة .

وقبل ان نتحرك من القاهرة ، حرصت على أن الفت نظر الفرقة الى هذا الموضوع ، وشرحت الاســـباب بالتفصيل .

وكالعادة ، لم يقدر لهذه النصيحة ان تدخـــل دور الاقتناع ، قبل أن تتدعم بتجربة شخصية . كنا قد وصلنا بودابست بالقطار ، وعلى رصيف المحطة جرى استقبالنا رسميا ، ثم انصرف كل واحد الى حقائبه ، يتثبت من اكتمالها ، ويلاحظ نقلها ، ثم انطلقنا الى الاتوبيســات

وصعد فى كل أتوبيس أحد المرافقين المجريين . تحـــرك الموكب الى الفندق .. وبدأت التعليقات ، كـــان الوقت ليلا ، والطريق من المحطة الى الفندق لا يعبر قلـــب المدينة التجارى ، وأخذت عيون الاعضاء تتحـرك ذات اليمين وذات اليسار ، بحثا عن واجهات المحال التجارية ... ويبدو أن اختفاء واجهات المحال المضيئة ببضائعها المرصوصة قد خيب أمل البعض ، فانطلقت التعليقات ، الى أن قال أحد خبراء المشتروات ، « الظاهر يا جدعان ان البلد دي مقلب ، مافيهاش حاجة نشتريها . ! » . وبهدوء وقف المرافق المجرى مايك ، بعوده النحيـل ؛ ليقول « ماتخافش يا أستاذ ، بكره ح أوريلك السوق ، وح تلاقى حاجات تعجبك ! » . مرت فترة صمت طويلة نتيجة للمفاجأة ، ثم تعالت الضحكات على المفـــارقة الغريبة ، ذلك الخواجة الذى يتكلم المصرية القـــاهرية الدارجة بكل هذه المهارة .

وبقدر الحرج الذى أحسوا به بسبب تعليق زميلهم ، كانت فرحتهم بهذا المترجم العجيب الذى يتكلم العامية « لبلب » .. والذى سيكون عونا حقيقيـــا لهـــم فى استفسارتهم التى لا تنتهى حول الســـــوق ومـــكانه وأسعاره .. وكيفية الوصول الى أرخص الاسعار .

وقد عرفت فيما بعد أن مايك ، قضى فترة منحـــة دراسية بالقاهرة ، وأن الفضل فى اجادته للعامية القاهرية يرجع الى سكناه طوال فترة اقامته بالقاهـــرة .. فى بولاق ! .

ولقد كان مايك ، بلغته العامية القاهرية ، وروحـــه المرحة ، قريبا الى نفوس أعضاء الفرقة .. وكـــانت

تعليقاته الساخرة سببا فى رفع الكلفة بينه وبين أفراد الفرقة ، ماجدة تسأله عن مكان تشترى منه « حـلة بريستو » ، فيقول مايك ساخرا « ايه الكلام ده ؟ ... عاوزة ترجعى لامك من أوروبا وفى ايـدك حلة ؟!! » . ممدوح يميل على أذن زميل معلقا على جمال حسناء تدخل المطعم ، ومايك يدخل راسه بين راسيهما قائلا « خد بالك ، جوزها جاى وراها ! » .

وقد سألت مايك يوما عن سر سكناه فى بولاق ، قال كنت اسكن قبل هذا فى الزمالك ، ولكنى وجـدت أن نفقات المعيشة هناك لا تتناسب مع مرتب المنحة ، هذا بالاضافة الى ان جمهور الزمالك اغلبه « خواجات ! » .. فانتقلت الى بولاق ، حيث ايجار الفرفة رخيص ، و « سندوتش البدنجان المقلى بسلطة القوطة » لا يكلف شيئا .. ولقد احببت الناس فى بولاق ، واحبونى ، واستفدت كثيرا من معيشتى بينهم .

واسأل مايك .. هل اكلت الكشرى فى مصر ؟.

ويضحك مايك طويلا ثم يقول « احكى لك .. » ... ويمضى مايك فى سرد قصته بالعامية « كنت فى شارع عماد الدين ، وحسيت انى جعان قوى ، لقيت محل مكتوب عليه كشرى جحا ، والناس داخلة خارجة منه .. وفى الفترينة ، ريقى جرى لما شفت جبال الرز والعدس متذوقة بالبصل المحمر .. قلت ، آكل من كشرى جحا ده .. دخلت المحل وطلبت طبق كبير .. وقدامى على الترابيزة لقيت قزازة فيها صلصة ، قعدت احط منها على الكشرى ، بصيت لقيت اتنين عمال مبيضين بياكلوا على الترابيزة اللى قدامى ، عمالين يبصولى ، وواحد

قال للتاني « الخواجه ده عمال يحط دقة شطة .. وح يموت قبل مايخلص الطبق ! . » .. قال الكلام ده بصوت عالي ، وهو فاهم اني ما اعرفش عربي .. قلت في نفسي ، أنا ح اكل الطبق كله ، ولما أخلص ؛ ح اقف واقول له ، « ايه رأيك الخواجة ما ماتش ! » ، وفعلا قعدت آكل الكشري .. وكان حاجة فظيعة .. بقيت آكل معلقة واشرب وراها كباية مية .. لغاية طبق الكشري ماخلص ، ورحت واقف علشان أقول لهم الكلام اللي كنت محضره . بصيت لقيت لساني وارم ومالي بقي كله .. وماقدرتش انطق كلمة واحده .. ومشيت وانا ساكت من غير مااقول لهم .. الخواجة ماماتش ! » .. ويصمت مايك قليلا متذكرا وقائع التجربة التي مرت به .. ثم يتنهد قائلا « انما ايه ؟ .. تاني يوم كان حاجة صعبة خالص !! »

آدم .. والبحث عن رصيف :

كان عالم المرافقين والمرافقات بالنسبة لنا مصدر امتاع كبير ، بنوادرهم وتباين طباعهم ، واختلاف قدراتهم على الترجمة .. المرافق هو الشخص الوحيد الذي نحتك به احتكاكا متواصلا طوال جولتنا في كل دولة ، يتسلمنا من الحدود ، ويصل بنا الى الحدود . كان فيهم خفيف الظل الذي تستمتع بصحبته ، وكان فيهم « اللخمة » الذي يغرق في شبر ماء .. كان فيهم « العشري » الاليف ، والمتحفظ الجامد الذي يؤدي واجبه بالكاد ، ويختفي عن أنظارنا كلما أمكنه ذلك .

وأيا كان المرافق .. من اولئك أو هؤلاء ، فقد كان

الشيء الوحيد المألوف لنا فى زيارتنا لكل دولة .. عنصر الالفة الوحيد وسط هذه الغربة المتواصلة . ورغم انها كانت دائما الفة مؤقتة لا تستمر لاكثر من اسبوعين ؛ الا انها كانت بالنسبة لنا شيئا كبيرا . كانت لحظات وداعهم ، لحظات صادقة ، حافلة بالتأثر العميق من الطرفين .

كنا ونحن فى طريقنا الى دولة جديدة ، نتذكر دائما ما مر علينا من مرافقين ومرافقات ، ونعقد المقارنات ، ونستحضر المواقف المتميزة والنوادر الطريفة .. ونروح نتنبأ بطبيعة المرافق الجديد الذى سيستقبلنا فى الدولة التى نصل اليها .. كان هذا يبعث فينا نفس الاثارة التى يشعر بها من يمد يده الى صندوق البخت ، أو الذى يمسك بكشف الارقام الرابحة فى اليانصيب ، باحثا عن رقم الورقة التى فى يده الاخرى !.

وعادة لم يكن الامر يقتصر على مرافق واحد أو مرافقة واحدة ، بل كان هناك كبير مرافقين او كبيرة مرافقين ؛ ثم عدد من المرافقين والمرافقات ، بلغ فى كثير من الاحيان خمسة .. ولم يكن فى هذا مبالغة ما ، فعددنا الكبير ، والخدمات المطلوبة سواء للمعيشة او العمل ، او حتى للعلاج ، كانت تشغل أيام هؤلاء المرافقين بعمل متواصل لا ينتهى .

وكان من الخطأ أن نحكم على شعب من الشعوب من واقع أخلاق وطبيعة تصرفات من يصحبنا من المرافقين أو المرافقات .. فقد كان بينهم فى البلد الواحد من التناقض ما يؤكد خطأ التعميم واستحالته .

فى الإتحاد السوفييتى مثلا ، كانت هيئة المرافقين

تتكون من خمسة أشخاص ، أذكر منهم رئيس الهيئة العجوز العصبى الطيب القلب ، والذى وقف يسألنى ، على الحدود السوفيتية الرومانية بمدينة أونجين ، عن تذاكر السفر الخاصة بنا من الحدود وحتى موسكو ، وهل قمنا بحجزها ! فقلت له أن هذه هى مهمة ادارة « الجوسكونسيرت » التى تتولى استقبالنا ، وان الاتفاق كان ينص على نقلنا من الحدود الرومانية وحتى الحدود البولندية بعد انتهاء العمل . وأصر الرجل بعصبيته على ضرورة أن ندفع ثمن التذاكر ، فأخبرته أننا لا نمسك ما ندفعه ، وكان ذلك حقيقيا ، فلم أكن قد أخذت من وزارة الثقافة عندنا مليما واحدا للانفاق على أى غرض طوال رحلتنا ، اعتمادا على أن كل دولة مسئولة عنا من حدود الدولة السابقة وحتى حدود الدولة التالية .

اخذت الدقائق تمضى ، والرجل العصبى العجوز يرغى ويزبد بانجليزيته المتواضعة ، ويهدد بأننا سنبقى فى محطة الحدود « أونجين » يوما كاملا ، اذا مافاتنا قطار موسكو الذى يتحرك بعد دقائق ، قلت له تصرف .. اتصل بموسكو ، أو ادفع وحاسب سفارتنا .. المهم أن نتحرك .. وغاب عدة دقائق .. ثم أقبل الرجل الطيب مسرعا يلهث ويقول « اركبوا » ، والقطار يطلق صفارته ايذانا بالتحرك . وكان علينا فى أقل من دقيقتين ، أن نقذف بحقائبنا ، وبأنفسنا الى القطار الذى كان قد بدأ فعلا حركته .

رغم هذه البداية التى قد تبدو غير مشجعة ، فقد تكشف الرجل بعد ذلك ، طوال مدة اقامتنا فى الاتحاد

السوفييتى ، عن شخصية لطيفة ، وأصبحنا نعامله جميعا كوالد لنا .

كما ضمت هيئة المرافقين فى الاتحاد السوفييتى النقيضين .. رانا .. وآدم ..

رانا تتكلم العربية الفصحى بطلاقة .. ذكية ، لماحة ، نشيطة ، منظمة فى عملها غاية التنظيم ، القلم والمفكرة فى يدها دائما لتسجيل الاحتياجات والتأكد من تلبيتها ، دقيقة الجسم ، شرقية الملامح والقسمات ، من أصل اوزبكستانى ، ولكن يبدو أنها نشأت وتعلمت فى موسكو .

كانت رانا هى المنظمة الفعلية لتحركاتنا وشئون عملنا ، وكان العجوز العصبى الطيب يترك لها فى أغلب الاحيان مهمة البت فى الامور واجراء الاتصالات .. وكانت دائما فى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها .

أما آدم .. الطويل العريض ، بلونه الاسمر ، ولغته العربية الضعيفة ، وقلة حيلته فى كل مايعرض له من أمور ، فقد كان النقيض المباشر لرانا .. وعلى مر الايام ، أدرك أعضاء الفرقة قدرة كل منهما ، فكانت الاستفسارات والطلبات توجه دائما لرانا ، مع حرص واضح على عدم الاعتماد على آدم ... أو الالتجاء الى المرافقين الآخرين ، رغم انهما لا يتكلمان العربية .

وكان يحدث أن ينصرف كل مرافق الى عمل ما ، ولا يبقى معنا سوى آدم .. وهنا كانت تظهر المشاكل ..

كنا فى ريجا .. وأصيب الراقص جميل جابر بما اقتضى نقله الى المستشفى ليلا .. وفى صباح اليوم التالى ، استأذن بعض أصدقائه فى زيارته ، وكنت مع رانا فى طريقنا لمقابلة أحد المسئولين ، فوافقت على

الزيارة ، وطلبت منهم الاعتماد على آدم فى هذه المهمة ؛ مع امكان استعمال أحد الاتوبيسات المخصصة لنا .

وعندما عدت من المقابلة ، وجدت المجموعة التى ذهبت الى المستشفى فى صالون الفندق ، أستفسرت منهم عن حالة جميل ، وموعد خروجه من المستشفى ، فضحكوا ، وتبرع من بينهم من شرح لى سر هذه الضحكات .

لقد اتصلوا بآدم فى حجرته ، واخبروه بموافقتى على الزيارة ، فهبط اليهم ، وتوجهوا جميعا الى المستشفى .. وما أن وصلوا الى الباب الخارجى للمستشفى ، حتى اشار الى المبنى قائلا « هذه مستشفى » ، وعاد الى مكانه فى الاتوبيس .. فأفهموه أن وجوده معهم ضرورى ، للاستفهام عن مكان المريض ، وسؤال الطبيب عن حالته .. فمضى معهم غير مقتنع ، وراح يدخل فى عنبر ليخرج من الاخر ومن خلفه طابور الزوار من أصدقاء المريض .. واخيرا توقف ليقول فى بساطة « انه جميل ليس موجود!! » وعبثا حاول الاعضاء التفاهم معه .. واخيرا لجأ واحد منهم الى طبيب يتكلم الانجليزية ؛ فاتصل الطبيب بادارة المستشفى ليكتشف انه لا يوجد بهذا المستشفى مريض من الفرقة المصرية ، وتبرع بالاتصال بمستشفى آخر رجح ان المريض به ، فصدق ظنه ، واخذ يشرح لادم مكان المستشفى الجديد وكيفية الوصول اليه .. وبدأ ادم وقد فهم كلام الطبيب .. ثم تكشفت الحقيقة عندما أخذ يلقى اوامره الى سائق الاتوبيس ، مرة الى اليمين واخرى الى اليسار ، دون ان يتوصل الى مكان المستشفى .. واخيرا ثار السائق ، وكانت ساعة الغذاء قد حلت ، فعاد الى الفندق .. وفى طريق العودة ، راح آدم يبرر

ماحدث قائلا « انتم طلبتم ذهاب الى مستشفى .. وانا لا اعرف الا هذا مستشفى .. فماذا افعل ؟؟ » .

الا أن تجربتى الشخصية مع آدم كانت أشد اغاظة ! تحركت الاتوبيسات من الفندق مساء الى محطة ريجا ، لنسافر منها الى الحدود البولندية ، وقد بقيت بالفندق حتى يتحرك آخر اتوبيس ضمانا لركوب الجميع .. وشاء حظى العثر ، أن اجد السيد آدم يجلس على المقعد الاول من الاتوبيس ، ليقول فى هدوء لا يعكس معنى الكلمات التى ينطقها « من الضرورى أن نكون مسرعا .. فقطار يتحرك قريبا » .

وصلنا الى المحطة بعد وصول الفرقة بعدة دقائق ... كانوا قد هبطوا من الاتوبيسات ، وتوجهوا الى الرصيف الخاص بقطارنا برفقة باقى المرافقين ... قلت ونحن ندخل باب المحطة ذات الارصفة المتعددة المتداخلة « أين نذهب يا آدم ؟ » .. قال بحماس الزعيم القائد . « اتبعونى » .. حملنا حقائبنا وتبعناه .. راح يعدو بخطواته الواسعة من رصيف الى رصيف ، وكلما وصل الى رصيف سأل احد الواقفين عدة أسئلة بالروسية ، ثم عاد ليقول لنا « ليس هذا رصيف مطلوب .. اتبعونى» .. ونروح نعدو من خلفه الى رصيف جديد ، لتتكرر نفس التمثيلية . أخيرا ، نفد صبرى ، وانا أرى الدقائق تمر ، وموعد تحرك القطار اصبح وشيكا .. فاسرعت امسك بطرف معطفه لاوقف عدوه العشوائى ، وانا اقول محتدا « يا سيد آدم .. هل تعرف مكان الرصيف المطلوب ؟» سحب نفسا طويلا قبل أن يقول « انا لا اعرف ! .. » ، قلت له وقد تضاعف غيظى « اذا .. قف ، وانتظر حتى

أسأل » .. وأخذت أستفهم من بعض موظفى المحطة بالمفردات الروسية التى أعرفها عن طريق رصيف بولندا .. فحددوه لى باشارة بسيطة .. ورحت أعدو ومن خلفى باقى أعضاء الفرقة فى اتجاه الرصيف المنشود ... وآدم يسير متباطئا فى نهاية الطابور ، وقد أحس أن مسئوليته المرهقة قد انتهت !!.

مذبحة راس السنة .. على الفاتورة :

وحياة المرافق حياة غريبة .. فهل يظل طوال العام يستقبل ويصاحب ويودع وفودا من جميع أنحاء العالم ، من افريقيا وآسيا واستراليا وأمريكا وأوروبا .. وفودا من كل صنف ونوع ، أطباء ، رجال سياسة ، علماء اجتماع ، رجال صناعة ، طلبة ، أعضاء مجالس نقابية ، رجال زراعة ، فرق فنية .. رقص وتمثيل وسيرك وغناء .. عمال مناجم ، وملكات جمال .. شباب نشيط مشاغب وكهول يتحركون بحساب ..

والمرافقون أنفسهم ، البعض محترف ، تحس بالعمر الطويل الذى أمضاه فى هذا العمل ، من خبرته وقدرته على التنظيم .. ومن ظلال السأم التى تلف نشاطه اليومى ، والبعض الآخر مستجد تبهره الوظيفة بما تتيح من تنقل دائم فى أنحاء البلاد ، فنادق الدرجة الاولى ، مقابلة كبار المسئولين مع الوفود الزائرة ... نساء مسنات ، تحس أن وراء كل واحدة منهن قصة طويلة اوصلتها الى هذا العمل .. فتيات نزقات يبحثن مع كل وفد قادم عن فتى الاحلام الذى سيطير بهن الى الجنة

الموعودة . البعض محترف ينظم حياته على أســـاس استدار أكبر مكسب من هذه الوظيفة ، والاستمتاع بكافة المزايا التى تتيحها حتى الثمالة . . والبعض الآخر ، طلبة جامعات ، تضطرهم ظروفهم العائلية الى الاعتماد على هذا العمل المؤقت لمواجهة نفقات الحياة ، ينظرون الى كل وفد قادم ، باعتباره مصدر دراسة جديدة تتكامل بها دراستهم الاصلية فى الجامعة . . ثم مرتزقة من جميـــع الجنسيات ، كل مؤهلاتهم معرفتهم باللغة المحلية بالاضافة الى لغة الوفد الزائر .

ولا انسى المرافق العراقى الذى لازمنى فى برلين ، فى فترة مناقشة برنامج العمل مع المسئولين الالمان . .

كنا قد وصلنا الى برلين ، انا وبعض مسئولى الفرقة ، قادمين من سفيكاو ، لمناقشة خط سير العمل الفـــريب الذى وضعوه لنا . . وعرفت ان السر فى هذا ، هو تخلفنا فى تحديد موعد زيارتنا تحديدا قاطعا ؛ مما جعل الجهات المسئولة تبحث فى برامج عمل المسارح لتحشرنا يوما فى الجنوب ويوما فى الشمال . . فكل مسرح فى المانيـــــا الديموقراطية ــ وفى أوروبا بشكل عام ــ توضع له خطة عمله السنوية بالتفصيل فى بداية العام ، أو قبل بدايته بفترة كافية على الاصح ، وخريطة العمل تتضمن نشـــاط الفرق المحلية والزائرة . . لهذا كانت مهمة المشرفين على رحلتنا شاقة فى البحث عن ثغرات فى هذه الخطة يمكن أن تدخل عروضها منها . . ولهذا ظهر خط سير عملنا مرتبكا من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق من جديد . وفى محاولة لانقاذ مايمكن انقاذه ؛ سافرت مع قيادات الفرقة الى برلين خلال عطلة عيـــد

الميلاد وراس السنة ، وعقدنا عدة اجتماعات لمناقشة بعض التعديلات التي تختصر رحلات السفر الطويلة التي يمليها البرنامج الموضوع .

قلت .. اصطحبني في هذه المقابلات مرافق عراقي يقارب الخمسين من عمره ، يدرس الموسيقى في برلين .. وكان « ح » ، ولنتفق على أن هذا هو اسمه ، منفلت العيار ، تزوغ عينه بسرعة على متع الحياة .. يحب الرقص والنساء والاكل والشرب ، أكثر من حبه للموسيقى التي يدرسها ، أو وظيفة المرافق التي ينتحلها ..

كنا ننزل بفندق « أونتر دير ليندن » ، وهو نفس اسم الشارع الذى تقع فيه ، ومعناها « تحت الزيزفون » .. كانت احتماعاتنا مع المسئولين الالمان تتم في أحد صالونات الفندق ، أو على مائدة احد المسئولين ، فالفترة كلها عطلات رسمية ، والمكاتب مغلقة في أجازة طويلة ... وطوال مناقشات العمل كان السؤال الذى يلح على خاطر اخينا « ح » ، هو كيف وأين سنحتفل بالعام الجديد ؟.

قلت ، حتى أنهى استفساراته المتوالية « سنترك لك ترتيب هذا الموضوع » .. وكأنه تلقى اشارة البدء في سباق الماراتون .. مضى الاستاذ « ح » مسرعا يجرى اتصالاته لترتيب السهرة الموعودة . واسترحت من تساؤلاته ، الى أن اقبل علينا في اليوم التالى ، وقد بدت عليه علامات الاحباط وانكسار النفس ! .

— ايه الحكاية يا اخ « ح » ؟ .

— شي فظاعة .. شي فظاعة .. ماكو مكان خالي .. ماكو فد مكان خالي !!.

وفهمنا من لهجته العراقية انه لم يوفق الى مكان مناسب لقضاء السهرة .. الاستاذ « ح » كان يمنى النفس بسهرة صاخبة فى أحد أماكن اللهو العديدة المنتشرة فى المدينة .. الا أن جهده المتأخر فى الحجز ، لم يسمح له بالعثور على مكان واحد .. حتى فى السهرة الضيقة التى يقيمها الفندق الذى نقيم فيه .

ـ وبعد يا أخ « ح » ؟

ـ أكو فد مكان فى يوهانسوف .

وبعد الاستفسارات فهمنا انه يوجد مكان لنا لتمضية سهرة راس السنة فى مطعم فندق آخر ، هو فندق يوهانسوف . وكانت المفاجأة الكبرى له أولا .. ولنا ثانيا ، عندما وصلنا الى المطعم الصغير الذى سيتم فيه الاحتفال .. الاضاءة خافتة .. وجهاز راديو ضخم يذيع الاغانى الشعبية الالمانية القديمة .. والجمهور ... اى جمهور ؟! . مجموعات من العجائز والكهول ، اكثرهم شبابا تجاوز الستين ..

اخذنا أماكننا حول المائدة المحجوزة ونحن نخفى ابتسامات الشماتة فى أخينا « ح » ... الذى اكفهر وجهه لدى اكتشافه لطبيعة الجمهور . ورحنا نتبادل الاحاديث همسا ، احتراما للجو العام بالمطعم .. وكمال نعيم يميل من حين لآخر على اذن « ح » مؤنبا لائما .. والمسكين لا يحير جوابا ..

وأخيرا .. التمعت عيناه ، ودب النشاط فى كيانه .. وأشار الى الميتردى أوتيل .. وقال ضاحكا ، ينفض عن نفسه شعور الكآبة الذى تسلل اليه ، لا يهم ، نأكل ونشرب ! .

وكانت كلماته هذه اشارة البداية أو ساعة الصـــفر لمركة صاخبة نشيطة ، امتلأت بعدها مائدتنـا بالشراب والطعام .. وأستاذنا « ح » يميل بين لحظـــة وأخرى على قائمة الاطعمة ، ليختار أغلى الاصناف وأعـــلاها سعرا .. ليس مهما طبيعة الطلب .. المهـم أن يكون غاليا ..

أكلنا وشربنا وشبعنا .. واستأذنا « ح » مازال يواصل طلباته التى لا تنتهى .. أحسست أنه قد جاوز الحد .. فالدعوة موجهة الينا من وزارة الثقافة ، وهذه الطلبـات ستتحول فى النهاية الى فاتورة .. نحن حقيقة فى احتفال خاص براس السنة ، لكن الاحتفال شىء ، والانتقـــام شىء آخر !.. افهمته أننا قد شبعنا فلا داعى لاية طلبات جديدة .. بل وفكرنا فى مغادرة المطعم وانهاء السهرة .. الا أن أخونا « ح » كان قد استعاد شبابه بعـــد كؤوس الويسكى العديدة التى ابتلعها ، ورفض بحسم مثل هذا الاقتراح ، وبدأ على الفور يتلفت حوله ، ثم قام فغـــير محطة الاذاعة ، واختار أخرى تذيع الحانا راقصة ، وتوجه فى نشاط وخيلاء ، الى أصغر العجائز ، يطلبها للرقص .. وكأنما قد مس صاحبنا الجميع بعصا حيويتهالسحرية فتحرك الكهول والعجائز جميعا ، وأزاحوا الموائد جانبا ، مفسحين فى وسط المطعم مكانا للرقص .. وجلسنا نحن حول مائدتنا ، نستمد استمتاعنا من استمتاعه وهـــو يصول ويجول بينهم كفارس الفرسان .

هانا .. ماياكوهانا :

لم أنتبه لوجودها ، الا بعد عدة أيام من وصولنـــا الى بولندا . كنت أتعامل مع كبيرة المرافقين ، ومندوبة وزارة

الثقافة البولندية ، وكنت اعرفها منذ الرحلة السابقة الى بولندا مع مسرح القاهرة للعرائس .. كما كان هنـــاك فرانك مساعدها الذى يتكلم العربية ، ويتولى عنهـــا متابعة العمل ومصاحبة الفرقة فى تحضير العــروض . لم أنتبه لوجود « هانا » طوال وجودنا فى جديانسك . وفى الاتوبيس الذى سافرنا به من جديانسك الى فروتسلاف تنبهت لوجودها .. بجسمها الدقيق النحيف ، ووجهها المريح رغم افتقاده لمواصفات الجمال التقليدية ، وشعرها الصبيانى المقصوص .. وبحركتها النشيطة المتوثبــة ، وحيويتها ، ومحاولاتها الظريفة للتحدث بعربية فصحى متقعرة !.. كانت نموذجا للولد الشقى .

سألتها السؤال التقليدى .. اين تعلمت اللغـــة العربية ؟ .. وعرفت من اجابتها ، انها مرافقة مؤقتة ، تقوم بهذا العمل للحصول على دخل اضافى يساعدها فى دراستها الجامعية للحصول على الدكتوراه من جامعـــة وارسو .. كانت طالبة بقسم اللغات الشرقية ، ودرست اللغة العربية ولهجتها العامية .. ودرست الى جانبهـــا الفارسية والتركية .. ذلك بالاضافة الى دراستها للغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية واللاتينية .. وكانت اللغة العربية مادة تخصصها .

وكانت المفاجأة : انها انتهت لتوها من مناقشة رسالة الماجستير وموضوعها « واقعية مسرح نعمـــان عاشـــور الاجتماعى » ! .. هكذا فى اقصى شمال اوروبا ، ووسط الجليد المتساقط بغزارة ، تجلس هذه الفتاة الرقيقـــة الدقيقة ، وداخل رأسها مادة ماجستير عن مسرح نعمان عاشور .

قلت لهانا « وكيف وقع اختيارك على نعمان عاشور .. لماذا نعمان بالذات ؟ » .

قالت « بالصدفة .. استاذي في قسم اللغات الشرقية ، بروفيسير بيلايفسكي ، كان قد زار القاهرة ، وتعرف على الحركة الادبية المعاصرة ، وقابل نعمان عاشور ، وحضر عروض بعض مسرحياته ، فأعجب بها ، وبمضمونها الاجتماعي ، ونصحني بأن أتخصص في مسرح نعمان عاشور .. »

قلت « وهل توجد في جامعتكم المراجع الكافية التي تتناول حركتنا الادبية المعاصرة ، والتي تساعد في اعداد وتحضير هذه الرسالة ؟ » . قالت « أبدا .. وحتى الرسالات السابقة ، كان معظمها حول التاريخ القديم للادب العربي .. عن أبي نواس أو المتنبي .. وفي أحسن الاحوال عن أبي شادي .. لقد درست النصوص المسرحية التي كتبها نعمان عاشور ، كما درست حياته ونشاطه الادبي في غير مجال المسرح .. ومن خلال بعض الدراسات الاخرى بالعربية عن الثقافة المصرية المعاصرة ، استطعت أن أعد رسالتي » .

قلت « هل تعلمين أن نعمان من أعز أصدقائي .. واننا عملنا معا لعدة سنوات في جريدة الجمهورية .. وقد عايشت خلق وتجسيد الكثير من أعماله المسرحية » .

صفقت ابتهاجا بهذا الاكتشاف ، وطلبت مني أن أسمح لها بساعة من وقتي لمناقشة موضوع دراسة الادب المعاصر في مصر ، ومعرفة المزيد من المعلومات عن نعمان عاشور . وقد امتدت هذه الساعة الى عدة ساعات ،

كلما انتهت هانا من مشاغلها ، أسرعت الى وفى يدهـا المفكرة والقلم ، وعلى لسانها العديد من الاسئلة الجاهزة ، « وماذا عن الفريد فرج ؟ .. وهل أنجز عبد الرحمن الشرقاوى عملا جديدا ؟ ... ثم حدثنى عن نجيب محفوظ .. » .

وعلى مر الايام أصبحت هانا صديقة للجميع ، تسللت الى جميع القلوب بفطرتها وبساطتها وروحها المرحة ، وحضور بديهتها .. ولا اذكر انها اكملت وجبة واحدة طوال فترة تجوالنا فى بولندا .. كانت تجلس على مائدتى دائما .. ولكنها كانت تختفى دائما وسط الوجبة ، وربما فى بدايتها ، لتلبى رغبة هنا ورغبة هناك .. وكم حاولت ان أثنيها عن هذا النشاط الذى يخطىء توقيته السليم .. وكم سعيت الى اقناعها بأهمية تناول الوجبات كاملة ، لمواجهة الجهد الشاق الذى تبذله ، مما لا يتفق مع بنيتها الدقيقة .. ولكنها كانت تتخلص من نصائحى بلطف ، قائلة فى حركة تمثيلية « تمام .. يا افندى باشا .. ! » .. أو « أوامر افندى باشا على الراس والعين » ، ثم تنطلق الى العمل الذى تسعى الى انجازه .

واذا كانت هانا قد انعمت على بلقب « افندى باشا » ، فهى لم تحرم الكثير من اعضاء الفرقة من هذه الانعامات .. وتوالت القابها .. هذه لقبها « المعزة » ، وتنطقها «المئزة» ... وهذا لقبه المفضل « الشيطان » .. وثالث طويل عريض اصبح لقبه « الباب » .. وهكذا . وفى مقابل هذا اتفق الجميع على منح هانا لقب « ماياكوهانا » .. وهى عبارة بولندية تعنى بالعربية « ياحبيبتى » .. ويوما بعد يوم نسى الجميع معنى هذا اللقب ، وأصبح اسمها

« هانا ماياكوهانا » .. وكنت تجد من أعضاء الفرقة من يخاطبها ويناديها بهذا اللقب أمام بعض الرسميين البولنديين ، فيحمر وجه هانا ، وترتبك .. وينتهي الموقف يشرح قصة لقبها .

وعلى مائدة الغذاء ، تقف هانا ، وترفع بيدها كوبا زجاجيا ، وباليد الاخرى شوكة ، وتقرعهما ، فتحدث رنينا متصلا حتى يصمت الجميع .. وتقول « ياكل من أهل رقص .. قلنا الف مرة ، هذه القاب خصوصية .. لا يصح الكلام بها أمام الشخصيات الرسمية .. وهذا آخر انذار !! » ، وتضيع كلماتها وسط ضحكات الجميع .

لقد اكتسبت هانا مكانة كبيرة فى قلوبنا ، وكان وداعها لنا قاسيا على الجميع .

أبو موسى .. و ((كيف مابدك)) :

كان وصولنا الى تشيكوسلوفاكيا فى فترة حرجة من حياتها السياسية ، وكان الجيش السوفيتى مازال مقيما بالبلاد ، والشاب « بلاخ » ، الذى أحرق نفسه احتجاجا على تدخل الجيش السوفييتى ، يلهب مشاعر الشباب .

كان وصولنا الى براغ فى اليوم التالى لهذا الحادث .. الرايات السوداء تمتد بطول المبانى ، وتحتل مساحات واسعة من واجهاتها ، وصورة « بلاخ » بالورود من حولها : فى واجهات المحال التجارية .. الميدان الكبير فى براغ « فاتسلافسكى ناميستى » يعج بآلاف الشباب ، وقد تجمهروا حول التمثال الضخم فى صدر الميدان ،

وثبتوا عليه الشموع المضيئة فى كل مكان ، من قاعدته الى قمته .. وأمام التمثال ، وقف فتى وفتاة يحمل كل منهما العلم التشيكوسلوفاكى فى ورديات متتابعة طوال الليل والنهار .

كان عملنا فى تشيكوسلوفاكيا مثار اشكالات لا تنتهى حتى قبل وصولنا اليها .. فوزارة الثقافة التشيكوسلوفاكية وقد سادها فى هذه الفترة الجناح اليهودى بميوله الصهيونية ، يريد أن يلغى الزيارة التى كان قد سبق الاتفاق عليها ، وعلى احسن الاحوال كان يطمع فى ضغطها الى ثلاثة ايام نقدم فيها حفلة واحدة فقط .. وسفارتنا فى براغ تتمسك تمسكا شديدا بتنفيذ الخطة السابق الاتفاق عليها .. وبرقيات وزارة الثقافة التشيكوسلوفاكية وسفارتنا فى براغ تتوالى علينا فى المانيا ، حاملة التعليمات المتناقضة .. واخيرا وصلتنى برقية من القاهرة تفيد ان زيارتنا ستستمر لمدة خمسة أيام ، وان الجيش التشيكوسلوفاكى سيتولى الاشراف على الزيارة والحفلات .

وبالفعل ، قدمنا حفلة واحدة فى مسرح الجيش ببراغ .. ثم حفلتين فى مراكز تجمع للجيش قريبة من براغ . واحدة فى ميلنيك والاخرى فى بشيبرام .. وعينوا لنا « ابو موسى » مرافقا ..

و « ابو موسى » هذا شخصية طريفة للغاية .. تجاوز الخمسين من عمره ، نحيف ، عصبى ، مازالت لهجته العربية الفلسطينية تكشف عن مسقط راسه .. كان قد مضى على هجرته من فلسطين الى تشيكوسلوفاكيا اكثر من

عشرين سنة .. تزوج من تشيكوسلوفاكية ، وأنجب منها واصبح مواطنا تشيكوسلوفاكيا . عمل فى عدة أعمال .. واستقر به المطاف فى نهاية الامر موظفا فى مكتب الاتحاد العالمى للصحافة ببراغ .

وقد استطاع « أبو موسى » أن يخفف كثيرا من وحشتنا وسط الجو السائد فى براغ ذلك الحين ، وجاهد لكى تكون اقامتنا مريحة بقدر الامكان ، رغم موقف وزارة الثقافة والجو السائد فى البلاد ، نركب الاتوبيس المتجه بنا من الفندق الى المسرح ، فيصر أبو موسى على أن يؤدى دور الترجمان « هادا الشارع بيوصل ع فيينا ..وهونالك مصنع أخشاب .. وع يمينك المقبرة أو المحرقة ، هون ع كيفك .. كيف مابدك .. بدك تندفن بتندفن سليم ، بدك تنحرق ، بحرقوك وبحطوا رمادك بالقبر » .. وتصيح احدى الفتيات منزعجة « فال الله ولا فالك ياشيخ .. ايه الكلام البايخ ده ؟ » ، ويضج الجميع بالضحك ... وأبو موسى فى حيرة يحاول أن يفهم سر هذه الضجة .

وتتكرر المطبات التى يقع فيها أبو موسى بفضل لهجته الفلسطينية .. سعاد تحاول أن تهبط من الاتوبيس ولم يتوقف تماما ، فيصيح أبو موسى بغضب « ديرى بالك يامره .. وين بدك تروحى .. » ، وتنفجر أزمة جديدة فى وجه « أبو موسى » .. كيف يخاطب فتاه فى الفرقة قائلا « يامره » .. فيسأل صادقا و « شو بدى أقول ؟ » ؛ وأحاول أن أتدخل شارحا حسن مقصد « أبو موسى » وأن كلمة « مره » فى اللهجة الفلسطينية الدارجة لا تحمل اية اهانة .. ويتدخل أبو موسى محتدا « ولك شو الخطأ ؟

أنا ايش بقول لام موسى ؟ .. يا ميره .. بدها تغضب مني ؟! » .

فى أوقات الفراغ كنت أقول لابى موسى اننى حزين على براغ ، بهذا السواد الذى يلفها ، والقلق الذى يعيشه اهلها .. فأنا أحب براغ حبا خاصا ، وهذه هى زيارتى السادسة لها ، اذكرها فى صيفها الحار وشتائها البارد ، ولا أحب ان اذكرها فى جو الكآبة الذى تعيشه حاليا .. فيهز ابو موسى راسه ، ويتكلم بلهجة العليم ببواطن الامور « الله يخرب بيتهم لليهود .. مافى مكان بيدحشوا حالهم فيه ، الا وتكثر المصايب » ويقول ابو موسى أن اليهود قد تغلغلوا طوال السنوات الماضية فى جميع أجهزة الثقافة والاعلام والجامعات ، وان كانوا لا يتولون أبدا قيادة جهاز من الاجهزة .. كانوا دائما يكمنون فى المستوى الثانى أو الثالث بكل جهاز .. لكنهم متواجدون دائما ، يشكلون طبقة عازلة بين قيادات الاجهزة وباقى جسمها .. وأنهم وراء مايحدث الآن فى تشيكوسلوفاكيا ، بعد تنسيق أمورهم مع بعض الدول الغربية .. وانهم استطاعوا من مواقعهم الكامنة ان يضللوا الكثير من الشباب وان يقودوا المظاهرات التى نراها الآن .. وان قصة الشاب « بلاخ » الذى حرق نفسه ، تحوطها الكثير من الشكوك والريب ، وان خيوط التآمر فى هذه القصة بدات تتضح .. فهناك مستندات موجودة تفيد أن الشاب كان على صلة بجماعة متواطئة مع دولة رأسمالية ، وأنهم دفعوه الى حرق نفسه بعد أن أوهموه أنهم قد وضعوا على ملابسه مادة تمنع من وصول النار الى جسمه ، وانهم سيتداركوه بمجرد أن تؤدى هذه الحركة مفعولها الدعائى المطلوب .. ويمضى

أبو موسى قائلا : ان الشاب صدقهم ، ولكن ما ان وصلت النار الى جسده ، حتى أخذ يجرى يمينا ويســـــارا طالبا النجدة .. ثم يتساءل أبو موسى محتدا .. بمــاذا تفسر وجود أجهزة الاذاعة والتليفزيون فى حالة استعداد كامل قبل الحادث ، تنتظر فى شارع جانبى يوصل الى الميدان ؟.. بماذا تفسر وجود هذا الحشد الضخم مــن المراسلين الاجانب وبخاصة مراسلى الوكالات الغربية ، فى مكان الحادث وقبل وقوعه فى حالة تأهب كامل ؟... صدقنى انها مؤامرة دعائية محكمة ، وقع الشاب المسكين فى براثنها .

مرافقون من عندنا .. بلا عمل :

الى جانب المرافقين الذين كانت الدول المضـــــيفة تختارهم لمساعدتنا ، كان هناك مرافق مصرى توفـــده ادارة التبادل الثقافى عندنا ، يصاحبنا فى زيارتنا لكل دولة من الدول .. وقد حاولت أول الامر أن أعتمد على هؤلاء المبعوثين فى انجاز بعض الاعمال التى تتصل بنشاطنا ، الا أننى اكتشفت منذ البداية عدم رغبتهم فى المشاركة ، وايقنت أن ايفادهم كان كنوع من المكافأة لهم على عملهـم بالادارة ، وعلى سبيل « الفسحة » .. بل اكتشفت أن وجودهم يضيف الى أعبائى أعباء جديدة ، تتصل بتلبيـة رغباتهم ، وافراد مرافق لكل واحد منهم ، يسهل انجاز المشتروات التى سبق اعداد كشوفها بالقاهرة !!.

ولا تغيب عن ذاكرتى مواقف أحد هؤلاء المرافقـــين

المحليين ، وقد كان يغادر مصر لاول مرة فى حياته ... تعليقاته الساخرة على كل مايقدم له من طعام او شراب .. لا يكتفى بأن يرددها بينه وبين نفسه ، ولكن يحرص على اشاعتها بين أعضاء الفرقة « ايه ده ؟ رز ده ؟ .. وماله معجن كده .. فين الرز المفلفل بتاع مصر ؟ » ، ثم « ومال اكلهم ماسخ كده ؟ .. صحيح من خرج من داره اتقل مقداره » ، الى آخر هذه التعليقات . وأذكر أننا كنا قد قطعنا رحلة طويلة بالاتوبيس ، بدأناها فى الصباح الباكر ، وقبل ان نتناول افطارنا ، اكتفاء بالسندوتشات التى وزعت علينا فى الاتوبيس .. ووصلنا وجهتنا بعد موعد الغذاء ، فاتجهنا مباشرة الى المطعم ، وقبل أن نشرع فى توزيع الاعضاء على حجرات الفندق ، على أساس ان أنتهى من هذا العمل أثناء تناولهم لطعام الغذاء .. جلست فى بهو الفندق مع كبير المرافقين ومندوب الفندق ننجز هذه المهمة ، ففوجئت بالمرافق « اياه » ، يقبل ناحيتي وعلى وجهه غضب الدنيا والآخرة ، يداه ترتعشان وهو يقول « دى مش عيشه .. عمال اطلب منهم فنجان قهوة فى المطعم يقولوا مش فاضيين .. انا ماشربتش قهوة من الصبح .. انا مش متعود على كده .. » ، وقد ذعر كبير المرافقين ، وسألنى عن السبب فى الحالة التى يعلن منها مندوب وزارة الثقافة ، فأخبرته بطلب الاستاذ ، وعلى الفور انطلق الى المطبخ محاولا اقناعهم بتفرغ أحد الطهاة لاعداد القهوة المطلوبة ، وسط « هيصة » تقديم الغذاء لاعضاء الفرقة .

أستاذ آخر ، كان قد أوفد خصيصا لعلاج نظره ، وكان واجبى أن ادبر له مسألة العلاج هذه حتى يدخل

المستشفى .. وأستاذ ثالث ، رأيناه عند قدومه ، ثم فى حفل السفارة عند سفرنا ! .

وسيدة وصلتنا فى أحدى الدول ، ولاداعى لذكر الاسماء ، كان همها أن تنفرد بمعاملة خاصة ، بحيث تتقاضى من الجهات المختصة بدل غذاء لمواجهة كشف المشتروات الطويل الذى تحمله ، وعندما تنجح فى هذا ، تواظب على تناول الوجبات معنا بهدف مزيد من التوفير .. وقد فوجئت يوما بكبير المرافقين فى هذه الدولة يقول عند مغادرتنا احدى المدن الى مدينة تالية ، ان ادارة الفندق قد أخطرته بأن احدى الفتيات قد ذهبت الى « كوافير » الفندق ، ولم تسدد فاتورة تصفيف الشعر ، وطلبت اضافتها الى مصاريف الاقامة .. وقد أغاظتنى هذه الواقعة .. « كوافير ايه ؟ .. وليه ؟ » ، فبرنامج العمل المتصل لا يسمح لاى فتاة أن تذهب الى الكوافير لتصفيف شعرها ، واغلب الرقصات تتطلب اغطية للرأس تهدم أحسن تسريحة ! .. واخذت أستفسر عن صاحبة هذه الغلطة .. حتى اكتشفت انها الاستاذة التى أوفدتها ادارة التبادل الثقافى .. ووجدتنى أصر على أن تدفع المبلغ المطلوب .. واحس كبير المرافقين أن المسألة ستدخل فى دور أزمة ، فعرض اضافة الفاتورة على حساب الضيافة ، الا اننى صممت على أن تدفع السيدة .. فثارت والقت بالمبلغ المطلوب على المائدة وهى تقول « أنا اعمل ايه .. جورج هو اللى فهمنى انى ممكن أعمل شعرى على حساب اللوكاندة » ، وسألت جورج هذا وهو أحد المرافقين .. فقال انها طلبت منه أن يدلها على

مكان كوافير فى المدينة ، فأخبرها بوجود كوافير بالفندق وقادها الى مكانه .. وانصرف .

وبين هؤلاء جميعا ، الوحيدة التى حرصت كل الحرص على أن يكون وجودها مفيدا ، بقدر ماسمحت لهـــــا الظروف ، كانت السيدة كريمة الجوهرى التى رافقتنـــا فى بولندا .. فاكتسبت بسلوكها احترام ومحبة الجميع .

فرانك .. ومغامرته الفاشلة :

فى بولندا التقينا أيضا بالمرافق « فرانك » الذى يتكلم العربية . وكان فرانك سببا فى حدث لا يمكن أن أنســاه وسط أحداث الرحلة المتشابكة .

كنا قد وصلنا الى وارسو فى نهاية زيارتنا لبولندا .. وكان يومنا الاول فى وارسو .. عندما اقبل فرانك ، وعلى وجهه تعبير جاد متزمت ، قال « ايها السيد المدير .. أريد أن اتحدث معك حديثا خاصا وهاما » ، فأفسحت له مكانا الى جانبى ، وقد كنت أجلس مع بعض أعضــاء الفرقة ، الا أن فرانك قال ومازال واقفا « أريدكم على انفراد ، لحديث خاص » .

نهضت ، فاتجه بى الى المطعم الذى كان خاليــا فى ذلك الوقت من النهار ، وجلسنا الى احدى الموائد ، منتظرا أن ببدأ فرانك حديثه ، الا انه اخـــذ يعبث بالشوك والملاعق والسكاكين وباقى أدوات المائدة التى امامه فى عصبية واضحة ، ودون ان ينطق احســـست بطلائع ازمة فى الطريق .. فقلت قلقا « خيرا ؟ » .

أخيرا ، رفع فرانك راسه ، فتلاقت اعيننا ، وبدأ

حديثا طويلا عن الشباب ونزوات الشباب الطبيعية التى يعرفها جيدا لقرب عهده بها ، وعن أن خطأ الاقلية لايمكن أن يدين الاغلبية ، وعن أهمية الحلم مع الحـــزم فى معاملة الناس .. محاضرة طويلة ، ذات طابع تجـريدى لـكنها تنبىء بعاصفة مقبلة .. فقاطعت فـرانك قائلا « ياسيد فرانك ، ادخل الى الموضـوع مبـاشرة ... ارجوك » .

فرك فرانك يديه ، واعتدل فى جلسته ، ثم أخذ نفسا طويلا ، وقال أخيرا فيما يشبه طلقات المدفع الرشـاش « سيدى أنت تعلم انه بحكم معرفتى باللغة العربية ، قد كلفت بمراقبة الراغبين فى زيارة الطبيب يوميا .. واليوم طلب منى أحد الاعضـاء دواء معينا .. وعندما ذهبت الى الطبيب أطلب الترخيص بصرف الدواء ، اذ أنه لايمكننا هنا صرف اى دواء من الصيدلية الا باذن خاص مـن الطبيب .. أقول عندما قدمت اسم الدواء الى الطبيب ، رفض صرفه ، وطلب حضور الشخص الذى طلب هذا الدواء بصفة عاجلة للكشف عليه .. فوجدت أن من واجبى أن اخطرك بهذا .. » .

قلت : « ليس فى هذا أية مشكلة .. الطبيب يطلب رؤية المريض .. فما المانع ؟ .. هل تعرف الشـــخص الذى طلب الدواء ؟ »

قال بحسم « أعرف شكله .. ولا اعرف اسمه » .

قلت « المسألة محلولة اذا .. اذهب اليه واصطحبه حالا الى الطبيب » ، قلتها مبتسما فأحس اننى لم أفهم الموضوع تماما .. فعاد ليقول « يا استاذى ، يبدو أنك

لم تفهم المطلوب تماما ، لقد قال الطبيب ان هذا الشخص يطلب دواء للمصابين بأحد الامراض التناسلية المعدية .. والقانون هنا فى بولندا ، يعاقب المريض بهذا المرض اذا لم يتوجه الى الطبيب فور شعوره بالمرض .. وهـــذا الشخص اعطانى علبة دواء فارغة ، مما يؤكد أنه قد سبق له تعاطى الدواء .. وهذا يعنى بالتبعية أنه يعـــرف باصابته منـــذ مدة طـــويلة ... وفى هـــذا مسئولية قانونية » .

هنا .. اتضحت اركان المأساة .. فهالنى الوضع .. واحسست بالدماء تتصاعد الى راسى ، وباعضـــائى جميعا ترتجف من الغضب .. ويبدو ان اثر الحالة على مظهرى كان حادا مما جعل فرانك يقول بعطف « يا استاذى لا تنزعج .. هذه مسالة بسيطة .. كل يوم يقع فيهـا عدد من الشباب البولندى .. ولكننى احببت ان اخطرك حتى تتصرف بهدوء ودون ضجة » .

جاء دورى لاصمت .. فنكست راسى ، واخذت افكر فى عواقب هذا الموقف .. هنا فى وارسو ، وهنـــاك فى القاهرة .. حادث سخيف مثل هذا يؤثر على سمعـــة الفرقة ، ويعطى انعكاسا خاطئا عن مجرى الامـــور فى الرحلة ، ويسىء الى بنات وأبناء العائلات الذين تضـــمهم الفرقة .

وأراد فرانك ان يقطع هذا الصمت الطويل ، فقـال « كذلك ، لابد أن يعطينا الشاب اسم وعنوان المـــراة التى كان معها .. الشرطة لابد ستطلب هذا .. » .

قلت لفرانك « أولا .. أريد ان تحدد لى اسم هذا الشخص .. وأن تحتفظ بهذا الموضوع سرا بيننا ، حتى

استطيع أن أتصرف بروية ... » فتحمس فرانك وقال « سأعطيك اسمه على مائدة الغذاء .. بعد أن أراه وأسأل بعض أعضاء الفرقة عن اسمه » .

قال فرانك « ألا تأتى معى الى الصالون » ، قلت : « اتركنى هنا قليلا .. » . وبقيت فى مكانى لزمن لا اعرف مداه ، اقلب الامر على كافة وجوهه .. يا للمصيبة .. كيف حدث هذا ؟ ومن هو صاحب هذه الفضيحة ؟ .. ارجو الا يكون من بين الراقصين .. فملابس الرقص تتكدس فوق بعضها البعض بعد نهاية العرض ، واحتمال انتقال العدوى الى الآخرين كبير .

بعد أن هدأت حالتى بعض الشىء ، تحاملت على نفسى وتوجهت الى حجرتى ، حيث ارتميت بملابسى على السرير ، وقد أحسست أن الجانب الأيسر من جسمى على امتداده ، من الرأس الى القدم يتخدر ويرتعش .. حضر الفنان جمال كامل ، الذى كان يزاملنى فى الحجرة ، ورآنى على هذه الحالة ، فانزعج ، وأسرع يحضر لى بعض الحبوب المهدئة للاعصاب .

سألنى .. فوجدتنى احكى له القصة كاملة . استرحت بعض الشىء ، وانتقل قلقى اليه ، فقال « وماذا ستفعل ؟» قلت بلا تردد « سأسلمه للمستشفى والشرطة ، وبعدها للسفارة حتى يتم ترحيله الى القاهرة فورا .. هذه مسألة لا يجوز فيها التهاون » .

قال « وماذا يقول المسئولون بالقاهرة ؟ »

قلت « فليقولوا ما يشاءون .. المسألة الآن تتعلق بسلامة عشرات من الفتيات والفتيان من أبناء وطنى ،

لا يمكن أن اجازف تحت اى اعتبار بأن يهدد سلامتهم وجود مثل هذا العنصر الفاسد » .

عندما حل موعد الغذاء ، هبطت الى المطعم ، الملم اطراف ثباتى ، واحاول أن ابدو متماسكا .. جلست فى مكانى المعتاد ، توضع أمامى الاطباق وترفع دون أن أمسها .. وبعد قليل ظهر فرانك عند مدخل المطعم ، وأشار الى براسه ، فذهبت اليه .. وكما يحدث فى القصص البوليسية ، سار الى جانبى فى الممر دون أن يتكلم ، ثم مد يده الى يدى ، ووضع فيها قصاصة صغيرة من الورق ، وعاد ثانية الى المطعم .

وعند استقبال الفندق ، فتحت الورقة لاجد بهـا مفاجأة ، لا تقل فى غرابتها عن المفاجأة السابقة .. ورقة صغيرة مكتوب عليها بالقلم الرصاص ، وبحروف عربية ركيكة « محمد عبد الله » !!

محمد عبد الله .. لا يمكن !.. واعدت قراءة الاسم ، فربما اكون قد اخطات . ومحمد عبد الله ، هو المدبر الادارى للفرقة .. شخص عاقل لا يمكن أن يصدر عنه هذا التصرف .. لابد ان فى الامر خطأ ما .. وحتى احسم الامر ، أسرعت الى المطعم ، وطلبت من محمد عبد الله أن يغادر المطعم ويتبعنى الى استقبال الفندق .. أريته الورقة وحكيت القصة ، وطالبته بالتفسير .. فأخذ يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه ، وانا على احر من الجمر انتظر التفسير .

قال محمد عبد الله وهو يلتقط انفاسه « الحكاية اننا كشفنا على عبد السلام عبد المتجلى ، عازف المزمار الشعبى بالفرقة ، فى موسكو . واكتشفوا هناك انه يعانى

من بلهارسيا شديدة ، ومزمنة .. فأعطوه هذا العلاج الذى يعتمد على المضادات الحيوية .. وعندما أخبرونى أمس أن الدواء الذى تسلمه من موسكو قد نفذ ، وطلب تجديده ، أعطيت العلبة الفارغة لفرانك حتى يطلب لنا كمية جديدة من الدواء ، حتى يستكمل عبد السلام علاجه ... »

لم أشاركه الضحك .. ولكنى ارتميت على أقرب مقعد .. وأخذت نفسا طويلا ، طويلا جدا ، أحاول به أن أستعيد هدوئى ، وأطرد المخاوف التى انتابتنى طوال الساعات السابقة .

وهكذا انتهت مغامرة فرانك البوليسية الفاشلة .

لقاءات .. وزيارات

درس فى البروتوكول :

بعد نهاية عرضنا الاول فى انقرة ، اقبل مستشارنا الثقافى يهنىء بنجاح العرض ، ويتفق على موعد فى صباح اليوم التالى للقاء خاص مع مندوب من ادارة المراسيم التركية ، للاتفاق على تفاصيل زيارة ضريح الزعيم التركى مصطفى كمال اتاتورك .

وفى الموعد المحدد تم اللقاء بينى وبين مندوب ادارة المراسيم ، بحضور مستشارنا الثقافى ومرافقنا التركى توفيق بيك ... وكنت اتصور ان الاتفاق على الزيارة لن يستغرق اكثر من عدة دقائق يتحدد بها موعد الزيارة والوفد الممثل للفرقة ، الا اننى فهمت منذ بداية اللقاء ان لزيارة الضريح تقاليد خاصة معقدة ، واجراءات متتابعة ، اغلبها يقع تنفيذه على كاهلى .

اتفقنا اولا على ان تشارك الفرقة باكملها فى هذه الزيارة ، ثم اننى سأكون فى مقدمة الموكب خلف اكليل الزهور الضخم الذى ستتكفل به سفارتنا ، وان الحرس الخاص للضريح سيتقدم المسيرة التى تؤدى بنا الى المبنى الذى يضم الضريح ، وعندما اصل الى موقع محدد

من القاعة التى تضم الجثمان أتقدم مع الحـرس الذى يحمل الاكليل وأشارك فى وضعه عند قاعدة المدفن ، ثم أتقهقر الى موقعى الاول ، ومع انتهاء نغمات البروجى ، اتجه الى جانب من القاعة حيث يوجد السجل الضخم ، فأكتب فيه كلمة تحية مناسبة ، وأتقهقر مرة ثانيـة فى انتظار صوت البروجى الثانى الذى يفيد انتهاء الزيارة الرسمية للضريح ، فنتوجه بعد ذلك الى متحف الزعيم الراحل الذى يضم كل مايتعلق بحياته .

وقفت بنا عربات الاتوبيس فى الموعد المحدد عند بداية ممر طويل من البلاط الابيض الكبير الذى ينبت على حوافه زرع أخضر دقيق ، يردد الخضرة التى تكتنف جـانبى الممر ، ممر طويل يمتد على مدى البصر . وجدت رجال سفارتنا مع مندوبى الخارجية التركية فى استقبالنـا ، وطلبوا من الفرقة أن تشكل طابورا يضم ثمانية أفراد فى كل صف ، ثم وقفت فى مقدمة الطابور مع رجـال السفارة والخارجية التركية .. ومن مبنى صغير فى بداية هذا الطريق ، خرج اكليل الزهور يحمله جنديان بملابس عسكرية زاهية ، ثم خرج قائد المسيرة يتقدم الجميـع بسيفه المشهر ، وملابسه العسكرية البيضاء الناصعة ... وبدأت الرحلة .

مع الخطوات الجنائزية البطيئة ، ومع امتداد الطريق الطويل ، بدا وكأن هذه المسيرة لن تبلغ نهايتها .. الصمت المناسب يلتزمه الجميع ، الا من وقع أقدام على بلاط الطريق .. ثم لاحت عن بعد الساحة الكبيرة التى بهـا الضريح والمتحف ، وعندما أصبحنا داخل الساحة ، توقف

قائد المسيرة ، وبحركة عسكرية حادة ، استدار الى اليسار ، وتقدم الى الضريح ونحن من خلفه .

لقد نجحت هذه المسيرة الطويلة فى ارساء شعور الرهبة لدى الجميع ، حتى يكونوا عند وصولهم الى الضريح فى حالة استعداد روحى مناسب للقاء الزعيم الراحل .

وبنفس الصمت ، والهدوء ، والخطوات القصيرة المنظمة ، صعدنا الدرج الفخم العريض الذى يؤدي الى الضريح . وما أن وصلت الى داخل الضريح ، حتى أخذت استرق النظرات لاتعرف على معالم المكان الذى وصفه لى مندوب ادارة المراسم ، واحدد خطواتى داخله .

أومأ لى مستشارنا الثقافى ، فتقدمت مع الجنديين اضع الاكليل على الضريح .. ثم تقهقرت حسب النظام الموضوع الى مكانى . وفجأة .. انطلق البروجى فى الحيز الضيق الذى يضم الضريح بسقفه المرتفع ، فتردد صداه عنيفا قويا .. أربكتنى المفاجأة ، رغم علمى السابق بها ، وكادت تضيع من ذاكرتى باقى الاجراءات التى تعب مندوب المراسيم فى شرحها لى .. ومن خلفى تصاعدت همهمات ، تميزت من بينها الهمهمات النسائية كرد فعل لهذه المفاجأة ، وما سببته من زعر بعد مرحلة الصمت الطويل .

وخشيت ان تتحول هذه الهمهمات الى تعليقات تفسد تنظيم المسيرة ، فأسرعت الى المنصة الجانبية اسجل كلمتى فى عجل ، محاولا الانتهاء من رسميات هذا الموكب قبل أن ينقلب الى مهزلة .

عندما انسحبنا من مبنى الضريح الى الساحة الخارجية

وحتى بعد أن تبدد نظام الطابور الطويل ؛ وتجمعنا فى انتظار التوجه الى المتحف ، كانت الانفاس المعلقة مازالت على حالها ، مع حرص كل واحد على الا يكون البادىء بتبديد جو الصمت الطويل ، فوجدتني اصيح فيهم » ، أيه .. مالكم .. خلاص انتهينا .. » ، وعلى الفور انهالت التعليقات فى وصف ماحدث لحظة انطلاق البروجى .

توجهنا بعد ذلك الى متحف الزعيم الراحل .. وكان عبارة عن دراسة كاملة شاملة عن حياته وكل مايتصل بها .. صوره منذ طفولته حتى وفاته ، تسجل كل جانب من جوانب حياته .. فى مراحل عمره المختلفة .. صورا تذكارية للاحداث السياسية الهامة .. مقابلاته ، هواياته اجتماعاته . ثم عرضا كاملا للابسه ومقتنياته ...

والهدايا التى تلقاها من الملوك والرؤساء .. وبالمناسبة بينها هدية كان قد أهداها الى الملك السابق فاروق واستطاع المتحف أن يشتريها ، لا ادرى من أين ، ويضمها الى مقتنيات المتحف . ثم مجموعة ضخمة من الساعات التى كان يقتنيها ، وعقارب هذه الساعات جميعا تشير الى ساعة وفاته .. لقد كانت زيارتنا لمتحف الزعيم اتاتورك بمثابة الاطلاع على دراسة كاملة عن حياته وما حفلت بها من احداث .

امبرازاريو الدولة :

لقد حفلت رحلتنا هذه بالعديد من المناسبات واللقاءات الرسمية .. وكان كل شىء يتم وفقا لنظام ثابت ،وترتيب

مدروس .. فمنذ اليوم الاول لزيارة الدولة يتم الاتفاق على برنامج الزيارة ، من حيث عدد الحفلات ومواعيدها . المدن التى سنزورها .. حفلات الاستقبال التى ستقام لنا .. اللقاءات الرسمية مع المسئولين .. برامج الزيارة الثقافية والسياحية . زيارة فرقة فنية لدولة من الدول الاشتراكية تعنى مجموعة من الترتيبات الخاصة والالتزامات المحددة ، لا يمكن التحلل منها ، أو حتى اغفال بعض جوانبها .. بل لقد تحولت هذه الترتيبات الى نوع من التقاليد الراسخة ، ابتداء من باقة الورد التى يتم تقديمها عند الوصول ، الى الهدية التذكارية التى تتلقاها الفرقة الزائرة ساعة السفر .

وكلما كنت أواجه بهذه التقاليد .. اتذكر الاستقبال « الاحمدى » الذى يجرى لفرق هذه الدول عندما تزورنا ، وضياع هذه الفرق بين موظفى التبادل الثقافى وموظفى هيئة المسرح عندنا ، واتذكر تصاعد احتجاج هذه الفرق بسبب نقص الاجراءات أو عدم الوفاء بالالتزامات ، ذلك الاحتجاج المتصاعد الذى يبدأ عادة بالابتسامات المهذبة والملاحظات الرقيقة المتحفظة ، ويتصاعد يوما بعد يوم الى مستوى « التكشيرة » والكلمات الجافه ، والاحتجاج لدى المسئولين فى هذا الجهاز أو ذاك .

وقد حرصت طوال رحلتنا هذه على دراسة سر نجاح هذه الدول فى تنظيم استقبال الفرق الزائرة ، فوجدت ان السر يكمن دائما فى التخصص . ففى جميع الدول الاشتراكية التى زرناها ، لم تكن ادارة التبادل الثقافى او وزارة الثقافة ممثلة فى اجهزتها المسرحية مسئولة عن الوفاء بهذه الالتزامات أو القيام بهذه الاجراءات ، وانما

كانت هناك دائما مؤسسة خاصة ، تتولى استقبال الفرق الزائرة وتنظم معيشتها وعملها . فى الاتحادالسوفيتى « جوسكونسيرت » ، فى رومانيا « أوستا » ، فى بولندا « بوجارت » ، فى تشيكوسلوفاكيا « براجوكونسيرت » ، فى المانيا الديموقراطية « تياتر أجنتورا » ، فى يوغوسلافيا « يوجوكونسيرت » .. وهكذا . هذه الاجهزة تتولى كل مايتصل بترتيب زيارة الفرق الوافدة ..الحجزفىالفنادق .. تحديد مواعيد الحفلات وحجز المسارح وعمل الدعاية .. ترتيب وسائل الانتقال .. تحديد طاقم المرافقين والمترجمين .. توفير الرعاية الطبية الكاملة .. وضع البرامج الترفيهية والثقافية والسياحية .. ثم بالاضافة الى هذا كله ، توفير المجاملات الضرورية من باقات الورد الى الهدايا التذكارية ، الى تنظيم حفلات الاستقبال لتكريم الفرقة الزائرة .

ومع التخصص ، وتحديد المسئولية ، يأتى التجويد واستكمال اللمسات الدقيقة .

وقد اتيح لى ان أحضر المؤتمر الصحفى الذى عقده جهاز « تياتر أجنتورا » بألمانيا الديموقراطية بمناسبة نهاية السنة الميلادية .. وكان وجودى باعتبار أن زيارة الفرقة القومية للفنون الشعبية ستكون أول نشاط لهذا الجهاز فى العام الجديد . وقد قام مدير الجهاز باستعراض النشاط الذى تم فى العام المنصرم ، ثم أدلى ببيان شامل دقيق لنشاط العام التالى .. مئات الفرق الزائرة والفنانون الزائرون .. ثم مئات الزيارات التى تقوم بها الفرق الالمانية والفنانون الالمان الى جميع أنحاء العالم .وقد ادهشنى حجم ذلك النشاط ، وايقنت أنه بدون مثل هذا

الجهاز ، ما كان يمكن تنظيم مثل هذا النشاط الضخم بمثل هذه الكفاءة .

وفى رومانيا قمت بزيارة لمدير هيئة « الاوستا » ، فى محاولة لتفهم طبيعة عمل هذه الاجهزة ، فقال لى ان « الاوستا » تابعة مباشرة لوزارة الثقافة ، وهى جهاز بلا ميزانية أو اعانة ، بل هو يحقق ايرادا سنويا لوزارة الثقافة . وهذا الجهاز مسئول عن التسويق الداخلى والخارجى للنشاط المسرحى الرومانى ، بالاضافة الى تسويق النشاط الاجنبى داخليا . وهذا الجهاز يدير فى رومانيا حركة النشاط اليومى لعدد ضخم من الفرق المسرحية .. وعلى سبيل المثال ، ٣٨ مسرحا دراميا ، و ٢٠ مسرح عرائس ، و ٦ مسارح استعراضية للمنوعات ، و ١٨ أوركسترا سيمفونى ، و ٧ مسارح أوبريت وأوبرا ومنوعات غنائية ، وسيرك قومى واحد .

وتتولى « الاوستا » التعاقد نيابة عن الفنانين المحليين مع الجهات الاجنبية مقابل عمولة تبلغ ١٥ فى المائة عن كل عقد . كما تتولى نيابة عن ادارة التبادل الثقافى استقبال وتنظيم عمل الفرق الاجنبية الزائرة . هذا بالاضافة الى الفرق التى تقدم عروضها على الاساس التجارى .

ورغم الطابع التجارى لهذا الجهاز ، فهو يقوم ببعض النشاطات التى قد تحقق بعض الخسائر المادية بهدف تحقيق الخطة الثقافية لوزارة الثقافة ، واغلب نشاطها الخاص ينصب على حفلات الموسيقى الخفيفة نظرا لدخلها الكبير ، ولكونها لا تشكل ازدواجا مع نشاط الاجهزة الثقافية الاخرى .

وبحكم التخصص تتضاعف أتصالات « الاوستا » بالاجهزة الفنية والمتعهدين الفنيين فى جميع أنحاء العالم ، ولا يقتصر نشاطها على انتظار الدعوة لاستضافة فرقة أو فنان ، بل تصدر كل عام عدة مطبوعات اعلامية ، ونشرات دورية توزعها باللغات المحلية على جميع أنحاء العالم ، تطرح فيها امكانياتها من العناصر والخدمات الفنية ، كما تقوم بالدعاية لفنانيها فى الخارج منفقة على هذه الدعاية من ميزانيتها .

وفيما يتصل بالتسويق الداخلى تلجأ « الاوستا » الى كل وسيلة تضمن لها عدم وجود مقعد واحد شاغر فى اى مسرح من المسارح على مدى العام ، حتى أنه فى بعض المدن الصغيرة تلجأ الى توقيع عقود مع بعض الاشخاص غير المتفرغين ، لبيع تذاكر الحفلات فى مقابل نسبة تبلغ ٤ فى المائة من حصيلة البيع ، وهى فى هذا تعتمد على اطباء ومحامين وموظفين وعمال ممن يتيح لهم عملهم اتصالات جماهيرية واسعة .

عندما عدت من رحلتى هذه أعددت تقريرا شاملا عن جهاز « امبرازاريو الدولة » الذى تأخذ به كل الدول الاشتراكية بعد انتهاء العمل بنظام الامبرازاريو المعروف فى الدول الراسمالية ، وبينت فى ذلك التقرير حاجتنا الشديدة للاستفادة من نظم عمل هذه الاجهزة ، وخاصة فى التسويق الداخلى ، لمواجهة مشكلة المقاعد الشاغرة فى مسارحنا ، الا أن تشابك الاختصاصات بين هيئة المسرح وادارة التبادل الثقافى ، لم يسمح لهذا المشروع أن يأخذ طريقه الى التحقيق .

في عالم بريخت :

الى جانب الوظائف التجارية والتنظيمية لاجهزة التسويق المسرحي التي تحدثت عنها ، تقوم وظيفة دعائية تتحقق في حرص هذه الاجهزة على تعريف الفرق الزائرة بالانجازات الثقافية والمعالم السياحية للبلد .

مع برنامج العمل والزيارات الرسمية ، كانت توضع لنا في كل دولة برامج للزيارات السياحية تستوعب مشاهدة اهم الاثار والمناطق السياحية ، كما كان ييسر لنا متابعة أهم العروض المسرحية والاحداث الثقافية . . . ولعل من اهم الزيارات الفنية التي قمنا بها في رحلتنا هذه كانت زيارتنا لمسرح الفرقة البرلينية « برلينر انسامبل » الذي يعرف بمسرح بريخت .

لقد اتيح لي أن أشاهد العديد من الاعمال الهامة لبريخت ، مثل « الام شجاعة » ، و « كوريولانوس » ، و « أرتورو أووى » ، و « أوبرا الثلاثة قروش » ،و«الام» لجوركي .

كنت قد قرات بعض هذه النصوص ، كما كنت قد اطلعت على بعض الاسس التي يقوم عليها مسرح بريخت الملحمي ، الا أن مشاهدة هذه الاعمال على المسرح أوصلتني الى جوهر ماقرات مباشرة . وقد حرصت في كل مرة زرت فيها المانيا الديموقراطية بعد ذلك على أن أضمن مقعدا في مسرح بريخت المزدحم دائما . ولولا مساعدة وزارة الثقافة بتسهيل حجز هذا المقعد ضمن الاماكن المخصصة لعملها ، لما امكنني الاستمتاع بروائع بريخت ، نتيجة الازدحام الشديد ، وذلك الجمهور المنتظم من برلين

الغربية الذى يجتاز الحدود كل ليلة ليحضر العرض . ثم ليعود الى الغرب مرة أخرى فى نهاية العرض .

واغلب المسرحيات التى حضرتها كانت من اخراج بريخت ، الا أن مسرحية « كوريولانوس » التى قدمها المسرح بعد وفاة بريخت ، كانت من اخراج مانفريد فكفرث ، ولذا حرصت على ترتيب لقاء خاص معه فى اليوم التالى لمشاهدتى المسرحية .

وكنت قد علمت أن فكفرث هو الابن البار لبريخت ، وان بريخت كان قد التقطه بعد أن شاهد اخراجه لمسرحية « اسلحة السيدة كرار » فى مدينة صغيرة كان يعمل مدرسا بها . لم يكن فكفرث حتى ذلك الحين قد تلقى أية دراسة منظمة فى فنون المسرح ، وبرغم هذا اسند اليه بريخت وظيفة مساعد مخرج فى مسرحه ، بعد ان اقتنع بموهبته . واصبحت صلة فكفرث ببريخت من خلال العمل اليومى هى المدرسة الحقيقية التى تعلم فيها واكتملت عن طريقها ثقافته المسرحية . وفى حياته ، اتاح بريخت لفكفرث فرصة اخراج اكثر من عمل ، فأخرج مسرحية من فصل واحد باسم « اذرة للجيش الثامن » عن نص صينى تم تاليفه وعرضه اثناء المسيرة الكبرى ، ثم اكتملت شهرته باخراجه مسرحية « أرتورو أووى » التى تندد بالفاشية وبالنازية الهتلرية .

ومسرحية « كوريولانوس » استوحاها بريخت من مسرحية لشكسبير ، وتوفى قبل أن يقدم على اخراجها . وفى هذه المسرحية لم يغير بريخت كثيرا فى المواصفات الاصلية لمسرحية شكسبير ، ولكنه عمق الصراع بين

عناصرها ، واخضعه لاصول علمية . والصراع يـــدور اساسا بين ارادة الفرد وارادة المجتمع ، ويظهر كيف تنهزم ارادة الفرد اذا ماتعارضت مع ارادة المجتمع .

وقد اجريت يومها مع مانفيرد فكفرث حوارا طـــويلا حول هذه المسرحية ، وحول مسرح بريخت عامة .

وسألته عن وجهة نظره فى اخراج هذه المسرحية ، فقال ان تفسير المخرج للنص يفعل الكثير ، فاصـــل هذه المسرحية الذى كتبه شكسبير كان هتلر يعرضـــه على الجنود فى الحرب العالمية الثانية ، قبل أن يزج بهم فى جبهاته الحربية المختلفة ، لازكاء روح الحروب والعدوان لديهم ، وتزيين الحرب فى عيونهم . بل أن النص الذى كتبه بريخت ، اخرجه مخرج ايطالى فى مسرح « بيكولو تياترو » فأفقده مغزاه الاساسى عندما صور القائد بطل المسرحية فى صورة زعيم فاشيستى . لقد عرضت فى هذا الاخراج شخصية كوريولانوس كقائد حـــربى عظيم .. وصفة العظمة هنا لا تقتصر على الحرب ، بل تنســحب ايضا على السياسى العظيم ، والزعيم العظيم ، والعـــالم العظيم . والمضمون الاساسى لهذه المسرحية ، يفيـــد أن النتيجة الحتمية لوجود رجل عظيم يقوم بأعمال بطولية كبيرة ، هى ان يرتفع هذا الرجل فوق مستوى الجموع .. وهذا أمر طبيعى ، ولست ضده بأى حال من الاحوال ، بل ونطالب دائما بوجود مثل هذه الشخصية .. ولكن ، فى اللحظة التى يبدأ فيها هذا الرجل العظيم اســتغلال الوسط الذى يعيش فيه ، أيا كان نوع ذلك الاستغلال .. فى تلك اللحظة ، يجب على الوسط أن يرفض الاستغلال

.. وان يقصى هذا الرجل ، مهما كلف اقصاؤه من خسائر كبيرة .

وعن مبدأ التغريب أو التبعيد فى مسرح بريخت يقول فكفرث ، التغريب هو احالة العادى الى غير عادى بهدف خلق لحظة اكتشاف عند المتفرج ، تدفعه الى الاحساس بما يعرض عليه ، ثم تعقله والاستفادة منه .. هو وضع المتناقضات فى مقابل بعضها البعض لتنتج حالة من الوعى ثم التفهم .. ومن الأمور التى تساعد على تأكيد عنصر التغريب فى المسرحية ، نقل احداثها فى الزمان أو المكان . فعندما نعرض قضية الفاشية الهتلرية فى مسرحية « ارتورو أووى » ، نجرى حوادثها بين أفراد احدى العصابات الامريكية .. اى ننقل مكان الاحداث من مجاله الاصلى الى مجال آخر ، وهذا يتيح مزيد من الرؤية والتفهم عند الجمهور .

وفى مسرحية « كوربولانوس » نجرى نقلا فى الزمان والمكان .. فنناقش قضية الزعامة والقيادة فى مجتمع روما القديم حيث تجرى احداث المسرحية ، ذلك أن المتفرج يكون على استعداد لله قوف موقفا نقديا من قائد رومانى ، أكثر منه فى حالةالقائد المحلى المعاصر .

ويعود فكفرث ليقول ، من المقاييس الرئيسية عند بريخت ، أن المنطلق الفنى يجب أن يكون دائما من وضع اجتماعى سياسى .. فعندما نعرض هاملت مثلا ، لانقدمه على أنه شخصية مترددة ، وان هذا التردد طبيعة فيه .. لكننا نعرض المرحلة التاريخية التى يعيش فيها بالضبط .. لماذا يتردد هاملت ؟.. ومن داخل هذا الفهم لا يكون

موقفه موقفا شخصيا ، لكنه سيرتبط بمرحلة تاريخية معينة . نقول ان هاملت اثناء دراسته قد طور عقله ، فاستحال الى ما يمكن ان نسميه « بالبرجوازى التقدمى » وانه أصبح يقيس الامور بمقاييس عامة . هذا التركيب الجديد جعله يفشل فى الوفاء بالتزاماته الاقطاعية ، وفى استغلال حقوقه .

ودار بيننا بعد ذلك حوار حول مسرحيته الاخيرة ، وكانت لى بعض الملاحظات التى اخذ فكفرث يجيب عليها ، وعرض اثناء الحديث موضوع التسادية فىالمسرحية ، ومستوى الممثلين وخاصة الطبقة العالية فى الالقاء التى التزمها الممثل الكبير اكهارد شال منذ بداية المسرحية وحتى نهايتها ، فقال فكفرث وهو يتململ ، انت على حق فى ملاحظتك . . لكنه لم يكن يؤدى الدور فى المرات الاولى بهذه الطريقة . . وقد ارسلت اليه خطابا ، أوضح له ضرورة التزام الحدود الاولى للتادية فى هذا الدور . استلفت نظرى تعبير « ارسلت له خطابا » ، فقال فكفرث ان من تقاليد مسرح بريخت ، أن يوجه المخرج ملاحظاته الفنية الى المثلين بواسطة خطابات تحفظ نسخة منها فى ارشيف المسرح ، وترسل النسخة الاخرى الى الشخص المعنى بهذه الملاحظات . . وعقب فكفرث ، ان هذا الاسلوب يجعل الملاحظات أكثر موضوعية ، ويعطى فرصة اكبر للتأمل ، كما أن استجابة الفنان لها لا تتضمن رد الفعل الشخصى .

لاشك ان تجربة بريخت تعتبر من اضخم الانجازات الثقافية والفنية فى الدول الاشتراكية . الا ان هذا لا ينتقص من التجارب الثقافية والفنية الاخرى التى أتيح

لى أن أتعرف عليها خلال رحلتنا هذه .. تجربة « منظمة الرواد » لتثقيف الاطفال وتنظيمهم منذ مطلع حياتهم .. الانجازات الخرافية للسيرك القومى السوفييتى .. الكمال التام لعروض الباليه فى مسرح البولشوى بموسكو ... تجربة مسارح الاستراادا أو المنوعات فى رومانيا ، ومـــا تتضمنه من تحقيق لجانب الترفيه بشكل لائق .. مسرح عرائس المجر ببرامجه التى صعدت بهذا الفن الى أعلى مدارجه .. معهد تطوير الوسائل المسرحية المســـــمى « سينوجرافيكال لابوراتورى » فى براغ ، والورشـــة المسرحية الكاملة فى براتسلافا عاصمة ســـــلوفاكيا بتشيكوسلوفاكيا .. التطبيق الحى النشيط لفكرة قصور الثقافة فى الاقاليم وبين التجمعات العمالية وفى الريف .

كل هذا يؤكد أن أمامنا الكثير الذى نستطيع أن نفيد منه ، بدراستنا لتجارب الدول الاشتراكية فى حقـــل الثقافة .

صفعة ترحيب البانية !

كان برنامج زيارتنا لكل دولة من الدول يتضمن العديد من اللقاءات الرسمية ، مع وزراء الثقافة والمسئولين عن النشاط الثقافى ، وكانت هذه اللقاءات تتراوح بين الزيارة الرسمية للمسئول فى مكتبه ، الى لقاء حول مائدة الغذاء أو العشاء ، تحضره مجموعة من قيادات الفرقة ، الى حفل كوكتيل تدعى اليه الفرقة بأكملها .

كان القاسم المشترك فى هذه اللقاءات تبادل الانخـــاب والكلمات الرسمية .. وكالعادة كانت جدة الموقف فى بداية

الامر تقتضى الاستعداد المسبق والانتباه الـــــكامل ؛ والحرص على انتقاء الكلمات .. ومع تكرار الموقف اكثر من مرة فى كل دولة ، بدات هذه العملية تشكل عبئـــا نفسيا جديدا ، بعد ان تكررت نفس الكلمات فى كل مرة وكل دولة .. وكان وضع المسئول هو نفس وضـــعنا تقريبا ، فهذا الموقف يتكرر معه بالنسبة لغيرنا من الوفود والفرق الزائرة اكثر من مرة فى الاسبوع الواحـــد ... وكانت مسئوليتى تتركز فى معالجة فترات الصـــمت وتجنبها ...

وبعد فترة من الزمن تكشفت مواهب المايسترو شعبان ابو السعد .. كنت أبدأ الشق الرسمى من الحديث ، واتابع حمل مسئوليتى حتى يوشك الموقف على التجمد وهنا ينطلق شعبان ابو السعد ويكون قد تجاوز نخبه الثالث ، فى حديث عفوى مؤكدا حديثه بحركات ذراعيـه التى لا تنتهى والتى يمارسها فى حياته اليوميـة امتدادا لعمله كقائد أوركسترا ، فترتفع الضحكات من الجانبين ، وتتهاوى قشرة التحفظ الرسمى . ويطرأ التغيير شاملا على كل من يشارك فى اللقاء .. طبيعة الموضـــوعات المطروقة .. حتى طريقة الجلوس على المقعد .

ونظرا لازدحام برامجنا ، كانت حفلات الاستقبال تجى فى اغلب الاحيان قبل العرض ، ومن هنا كانت تظهـــر صعوبة اشتراك الفرقة بكاملها فى هذه الاستقبالات ، فأغلب الراقصات والراقصين يفضلون ان ينالوا قســطا

من الراحة قبل العرض ؛ فكنا نجرى مايشبه القرعة لاعفاء البعض فى كل مرة بما لا يخل بمظهر الاستقبال .

ولعل أجمل الاستقبالات ، كانت فى وارسو . تحدد للاستقبال يوما حرا لا تجرى فيه الفرقة تدريبات أو عروض .. وعندما وصلنا الى القاعة التى يجرى فيها الاستقبال ، وجدنا أعضاء فرقة مازوفشا البولندية بملابسهم القومية وآلاتهم الموسيقية الشعبية . وما أن انقضى بعض الوقت حتى تحول الاستقبال الى حفل راقص ، فاشتركنا جميعا فى تأدية بعض الرقصات الشعبية البولندية البسيطة ، بما فى ذلك سفيرنا فى بولندا ومن معه من رجال السفارة ، ثم قدموا لنا فى نهاية الحفل لوحة من الزخارف البولندية الشعبية ، عليها توقيعات جميع أعضاء فرقة مازوفشا .

ومن أحرج المواقف التى قابلتنا فى هذه اللقاءات الرسمية ، ماتم عند زيارتنا لوزير الثقافة الالبانى فى تيرانا .. اقتصرت الزيارة على قيادات الفرقة ، وكان معنا فى هذه الزيارة الفنان كمال نعيم مصمم رقصات الفرقة . عندما تحركنا من الفندق ، وجدت كمال يحمل آلة التصوير السينمائى التى كان قد اشتراها أثناء الرحلة ، ويصمم على تسجيل هذه الزيارة سينمائيا . وصلنا الى الوزارة فاستقبلنا الوزير فى مكتبه ، وأخذ كمال منذ البداية فى التحرك حولنا ليكون تسجيله للقاء كاملا . وقرب نهاية اللقاء ، أخذت أحدث الوزير الالبانى عن مصمم رقصاتنا الشاب الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، واستطاع أن يقدم للفرقة انجح

رقصاتها ، كل هذا وكمال منهمك فى مهمته السينمائية نهضنا للانصراف ، فاقترب الوزير من كمال ، ونظر اليه فى اعجاب شديد .. ثم فجأة .. صفعه على قفاه صفعة قوية كادت مع نعومة الارض الخشبية ان تلقى به مع آلة التصوير الى الارض .. احتفظ كمال باتزانه فى صعوبة شديدة .. وتكهرب الجو .. ووقف كمال مذهولا لا يعرف كيف يتصرف ، ونحن جميعا فى حالة ترقب لما يمكن أن يتمخض عنه هذا الموقف الغريب .. الا ان الوزير لم يظهر مايفيد انتباهه لما ينتابنا من مشاعر ، وعاجل بمد يده الى كمال نعيم يسنده ثم يحتضنه ، ويطلب الى المترجم ان ينقل اعجابه الشديد الى كمال .

انتهى اللقاء ، وانصرفنا دون أن نجد تفسيرا للصفعة القوية التى كادت ان تفقد كمال توازنه ، وكنوع من التفريج عن النفس من حالة التوتر التى انتابتنا ، انطلقنا جميعا وفى مقدمتنا كمال فى حالة هستيرية من الضحك الصاخب . الوحيد الذى لم يكن يشاركنا هذا الضحك كان المترجم الذى يرافقنا .. وبعد أن انتهت تعليقاتنا الضاحكة ، بدا عليه فضول شديد ، لم يتجاوز حد النظرات المتطلعة ، فحكيت له بالانجليزية سر ضحكاتنا ، وحيرتنا فى تفسير تلك الصفعة .. فاصفر وجهه ، واخذ يلقى علينا محاضرة طويلة فى تقاليد التعبير عن الاعجاب فى ألمانيا ، والتى ينوب فيها الربت على القفا عن الربت على الظهر فى الدول الاخرى ، وان سيادة الوزير تعبيرا عن اعجابه البالغ بكمال نعيم ، قد ضاعف بعض الشىء من قوة الربت الودى !! .

زفة .. فى بوخارست :

كان سمير جابر وزوجته ثريا فى حالة خطبة طويلة لعدة سنوات .. وعندما كنا فى القاهرة ، كان موضوع هذه الخطبة الطويلة مثار تعليقات ومداعبات لاتنتهى مع سمير وثريا .. وكانت التساؤلات لا تتوقف حول موعد الزفاف .. وبدأت رحلتنا ومازال سمير وثريا فى حالة الخطوبة التى عرفناها دائما .

ما أن وصلنا بوخارست ، حتى كان سمير يطرق باب حجرتي بالفندق ، يطلب بصوته الهادىء وابتسامته الرقيقة ، أن يتحدث معي حديثا خاصا .. قلت ، خيرا. .. قال والابتسامة لا تفارق شفتيه .. « أنا عاوز اتجوز !! » .

قلت ضاحكا « وماله .. » ، واعتبرتها نكتة ، ومدخل من المداخل اللطيفة التى كان كثيرا ما يقدم بها لمطالبه الحقيقية .

أحس اننى لم آخذ الامر مأخذ الجد ، فتراجعت ابتسامته بعض الشيء ، واكتسى صوته بالجدية ، وقال « أنا باتكلم جد .. أنا وثريا عاوزين نتجوز هنا فى بوخارست .. » .

قلت وقد انتقلت الى عدوى جديته « ازاى ؟؟ .. »

قال ببساطة « أبدا .. فى السفارة .. أنا سألت وعرفت ان الواحد ممكن يتجوز فى السفارة » .

قلت « وأهلك .. وأهلها ؟ .. » .

قال « ما احنا ح نبعت لهم تلغرافات نبلغهم .. » .

وفى الطريق الى المسرح حيث كنا سنجرى تدريباتنا ، وجدت أن الخبر قد شاع وانتشر بين الجميع ، وأن حالة من الحماس الشديد قد انتابتهم جميعا .. ودخل الكلام فى دور التفاصيل ، الفرح ، وفستان الفرح ، و.. و .. الى آخر هذه التفاصيل .

فى صباح اليوم التالى توجهنا جميعا الى السفارة ، حيث أقام لنا السفير حفل استقبال دعا اليه عـــدة شخصيات من الحقل الثقافى الرومانى .. وفى أثنـــاء الحفل اخذ السفير يستفهم منى عن سير العمل ، ومدى استعدادنا لحفل الافتتاح الرسمى فى مساء ذلك اليوم . وخلال هذا الحديث اكتشفت أن سمير يتربص بى عـــن بعد ، وتعبيرات وجهه تطالبنى بطرح موضوعه ، فأشرت اليه أن يقبل ، وقلت للسفير « بقيت مشكلة واحدة .. هذا الاخ يريد أن يتزوج عندكم ! » . أول ما تبادر الى ذهن السفير ، انه يريد الزواج من فتـــاة رومانية ، فسارعت بسرد قصته كاملة . ارتسمت على وجه السفير ابتسامة عريضة ، واسرع يبحث عن زوجتـه ليزف اليها الخبر السعيد ، وبدأ البحث عن ثريا حتى وجدوها ، فارتفعت الزغاريد فى قلب السفارة .. والسفير سعيد بهذا الحدث ، اخذ ينقل القصة الى أسماع الضـــيوف الرومانيين ، ويفسر لهم سر الاصوات التى ارتفعت ملعلعة وسط حفل الاستقبال .

وتلفت السفير يبحث عن طاقم السفارة ، ليسألهم فى تفاصيل اجراءات الزواج ، فقالوا انه لابد من الرجوع الى القاهرة للتثبت رسميا من خلو الطرفين من الموانع ..

وتحمس سمير وقال انه لا يمانع فى الانتظار لحين وصول الافادة من القاهرة ، بحيث يتم الزواج فى أيامنا الاخيره برومانيا .. وتحول حفل الاستقبال الى زفة عروسة حقيقية ، وتبرعت هيام بتقديم وصلة رقص شرقى . واستخدمت الصوانى المعدنية كدفوف .. و ... « أتمخطرى ياحلوة يازينة .. »

طبعا لم تصل الافادة .. وحل موعد الرحيل الى موسكو .. فطيب السفير خاطر سمير وثريا ، وقال انه بمجرد وصول الافادة سيبرق بها الى سفارتنا فى موسكو لتتولى اجراءات الزواج .

وطبعا لم تصل الافادة الى موسكو .. ولا الى وارسو .. ولا الى برلين .. ولا الى براغ .. ولا قبل أن نركب الباخرة من ألبانيا فى طريقنا الى الاسكندرية .

تذكرت هذه القصة أخيرا ، وأنا أرى ثريا فى شهر حملها الاخير .. وحمدت الله على أن الزواج لم يتم فى رومانيا ، حتى لايصبح منظر فرقة الرقص الشعبى القادمة من مصر مثيرا ، واحدى راقصات الفرقة لاتشارك بالرقص نتيجة للحمل الذى كان سيصبح حملا فى الشهر الخامس عند نهاية رحلتنا !!.

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب [illegible] ٨٤

ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٠٨٠ الترقيم الدولى

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص٠ ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

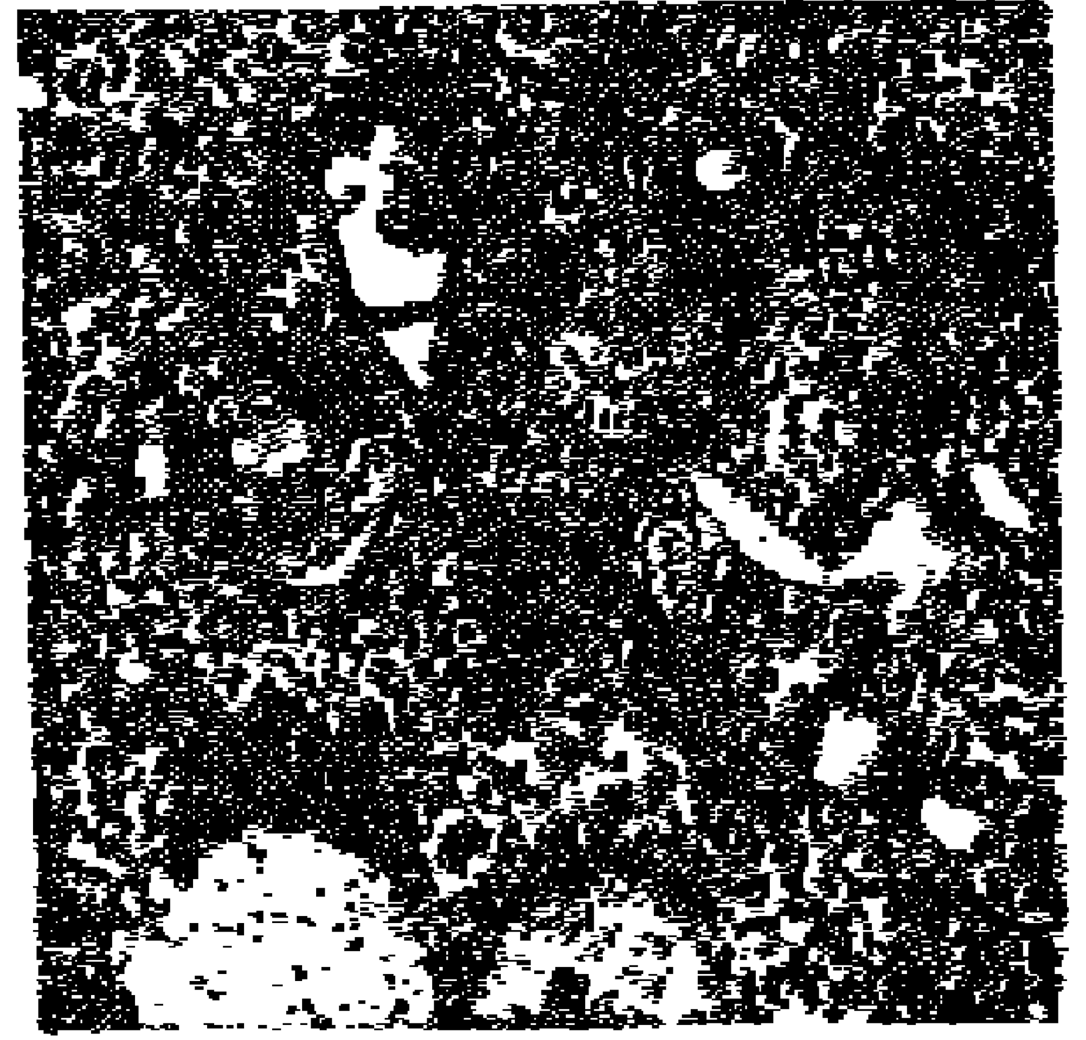
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury R 25 de Marco 999
Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRASIL

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٤٠٠ مليم :

سوريا ٨٠٠ ق٠س ، لبنان ٨٠٠ ق٠ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الـكويت ٩٠٠ فلس، العراق ١٤٠٠ فلس، السعودية ٧ ريالات ، السـودان ٧٠٠ مليم ، تونس ١٠٠٠ مليم ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠٠ ليرة ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٥ ريالات ، أديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠ فرنكات ، لندن ١٠٠ بنس ، ايطاليا ١٤٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٤ مارك ، كوبنهاجن ١٥ كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠ كروزيرو ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠ سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٨٠ بنى .



هـذا الكتـاب

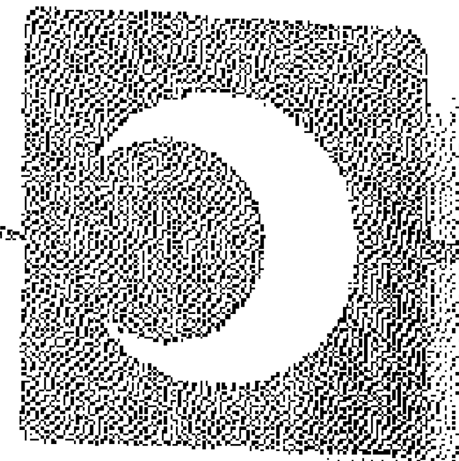
« راقصون بلا حكـومة » يحكى قصة تجربة ارتحـال فريدة ، قام بها اعضاء الفرقة القومية للفنون الشعبية الى عشر دول أسيوية واوربيـة على مدى ستة اشهر .

يحكى عن الغربة المركبـة التى فرضت على مجتمع كامل من الشباب والشيوخ ، نتيجة للتنقل الدائم بين ٦٠ مدينـة مختلفة .. عواصم كبرى ، ومدن صغيرة ، وقرى لاتكاد تظهر على الخرائط .

قصة مجتمع قطع صلته بكل ما يحكم المجتمع من سلطات تنظيـم وتشريع ورقابة ومحاسبة ، واصبح عليه أن يبتكر لنفسه قانونه وسلطاته الخاصة ..

مؤلف الكتاب راجى عنايت سجل هذه التجـربة التى عاشهـا عندما كان مديرا للفرقة ، ومسئولا عن تسيير أمور ذلك المجتمع .. ومـن خـلال ذلك يورد عشرات الحكايات المؤثرة والطرائف المضحكة ، فى نفس الوقت الذى يطرح فيه ملامح الحياة فى الدول التى زارتها الفرقة .. الارض والبشر .

٤٠ قرشا



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

المعتزلة

وأصول الحكم

د. دكتور محمد عمارة

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : كمال النجمي

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٠ – رجب ١٤٠٤ – ابريل ١٩٨٤

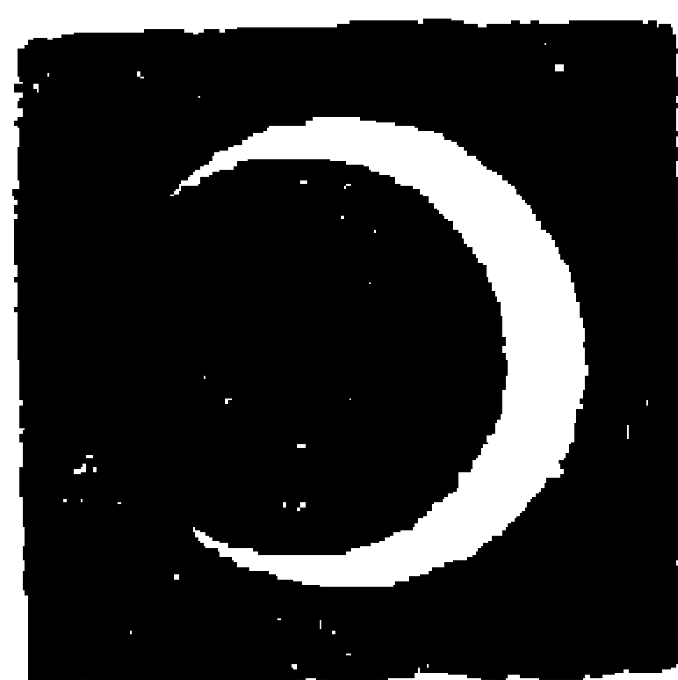
No. 400 — April 1984

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عدداً » فى جمهورية مصر العربية أربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات أو ما يعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولاراً بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة

الفنانة سميحة حسنين

دكتور محمد عمارة

المعتزلة
وأصول الحكم

دار الهلال

كلمة

فى هذا القسم ـ الثانى ـ من ثلاثية « الاسلام وفلسفة الحكم » نتناول بالدراسة صلب قضية « فلسفة الحكم فى الاسلام » ، ورأى تيار المعتزلة الفكرى فى هذه القضية الرئيسية من قضايا الفكر الاسلامى ، مع المقارنة بينه وبين رأى التيارات الفكرية الاسلامية الاخرى .

فهنا نجد مواقف التيارات الاسلامية من قضية ضرورة وجود السلطة السياسية العليا فى المجتمع .. والخلافات التى ظهرت فى دراسة هذا الموضوع .

كما نعرض لآراء الفرقاء فى طريق قيام هذه السلطة العليا .. وفى المؤسسات السياسية والدستورية التى تتولى هذا الاختصاص .

كما نعرض بالدراسة للشروط والصفات التى اشترطتها فرق الاسلام وأحزابه فى الامام .. وهل هى شروط وصفات ذات طابع دينى ؟ أم يغلب عليها الطابع السياسى ؟؟

كما نعرض لقضية طبيعة السلطة العليا فى المجتمع الاسلامى .. وهل هى دينية ؟ أم مدنية سياسية ؟؟ .. ودلالات الخلاف حول هذه القضية المحورية بين مختلف الفرقاء .

ومن ثم فان هذا القسم ـ الثانى ـ من هذه الدراسة يتناول صلب قضية الامامة وفلسفة الحكم فى الاسلام .

د . محمد عمارة

تمييز الإمام وتثبيته

الفصل الاول

وجوب الإمامة

كان المنطلق الذى انطلق منه المعتزلة الى القول بوجوب الامامة هو أن الانسان « مدني واجتماعي » بطبعه ، وأنه لا يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عن العشيرة والطائفة والجماعة ، ولما كانت لهذا الفرد ، الذى هو لبنة المجتمع الاولى ، مصالحه الخاصة ونزواته وغرائزه التى ستلقى التعارض والمعاندة والمناقضة من الآخرين ، لمنافاتها لغرائزهم ونزواتهم ومصالحهم الخاصة ، لذلك فان صلاح الهيئة الاجتماعية والحفاظ على هذه الشركة المدنية يستوجب وجود الحكام الذين يحفظون التوازن بين الفرد والمجموع ، ويوفقون بين صوالحهما ، لان صلاح الفرد ينتفى بانتفاء صلاح الجماعة ، كما أن صلاح الجماعة لايمكن أن يزدهر ويزهو الا مع صلاح كل فرد من أفرادها.

وحول هذه الفكرة « المدنية المتمدنة » يقول الجاحظ ، مثلا : ان « الناس يتظالمون فيما بينهم بالشره والحرص المركب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا الى الحكام » (١) ..

(١) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ١٦١ .

ويتحدث الماوردي عن ما نسميه في أدبنا السياسي الحديث بأن الانسان مدني بالطبيعة والجبلة ، فيقول ـ قبـل ابن خلدون ـ : « .. والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه ، واستعانته صفة لازمة لطبعه ، وخلقه قائمة في جوهره .. » (٢) .. ثم يطرق الفكرة الاهم والاكثر تقدما وتطورا ، والتي تتحدث عن ارتباط الفرد ، ســعادة وشقاء ، بالمجموع ، وكذلك العكس ، فيقول : « واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين :

أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها ..

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها .

فهما شيئان لاصلاح لاحدهما الا بصاحبه ، لان مـن صلحت حاله ، مع فساد الدنيا ، واختلال أمورها ، لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ، ويقدح فيـه اختلالهـا ، لانه منها يستمد ، ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها اثرا ، لأن الانسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ، ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه ، لان نفسه أخص ، وحاله أمس . فصار نظـره الى ما يخصه معروفا ، وفكره على مايمسه موقوفا .. » (٣)

ولقد كان وقوف المعتزلة ـ ومعهم كل الفرق الاسلامية تقريبا ـ الى جوار القول بضرورة وجود سلطة حاكمة في المجتمع ، وهو ماعبروا عنه بقولهم : ان الامامة واجبة ، كانوا غير مخترعين لجديد أو مستحدث في الفـكر

(٢) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٢ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٣٤ .

الانسانى ، فقط كانوا امتدادا لاصحاب الفكر « المدنى والمتمدن » من مفكرى الحضارات التى سبقتهم أو عاصرتهم .. لان هذه الفكرة قديمة ، ولقد سبق أن عبر عنها ارسطو في رسالته الى الاسكندر عندما رفض الفكرة الداعية لالغاء السلطة الحاكمة فى المجتمع ، وطالب بها ، مع اشتراط أن تكون سلطة عادلة ، فقال : « ان الناس من الخطأ فى أمر السلطان على منزلتين : فبعضهم يظن انه ينبغى أن يستوى حال الناس كلهم فلا يكون منهم سلطان ومنهم مذعن . وليس يعلمون أن فى ذلك أبطال السلطان والعدل جميعا ، لانه لا يكون العدل فى العامة الا بالسلطان وبعضهم يظن انه لا بأس بأن يكون السلطان مستكرها ، وعلى غير السنة ، وهذا هو الفساد الظاهر » . ثم يوجه الخطاب للاسكندر فيقول له : « فحق لك أن يكون سلطانك سلطان عدل ، لا سلطان استكراه ، والا تميل الى رأى من يحملك على ذلك ويزينه لك ! .. » (٤) .

لم يختلف المعتزلة ، اذا ــ ومثلهم فى ذلك كل فرق الاسلام ــ على ضرورة قيام سلطة حاكمة بالعدل فى المجتمع ، ولكن عددا من مؤرخى المقالات والفرق يذكر مايشير الى وجود خلاف حول هذه القضية .. فالاشعرى ، مثلا يقول عن فرق الاسلام : « واختلفوا فى وجوب الامامة :

١ ــ فقال الناس كلهم ، الا الاصم ، لابد من امام .

---

(٤) (رسالة أرسطو طاليس الى الاسكندرية فى سياسية المدن) ص ٣٩ تحقيق الاستاذ يوسف بيلافسكى . طبعة وارسو سنة ١٩٧٠ م .

٢ ـ وقال الاصم : لو تكاف الناس عن التظـــالم لاستغنوا عن الامام » (٥) .

كما يقول ابن حزم : « اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة ، وجميع الشيعة ، وجميع الخوارج على وجوب الامامة ، وأن الامة واجب عليها الانقياد لامام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة .. حاشـا النجدات من الخوارج ، فانهم قالوا لا يلزم الناس فرض الامامة ، وانما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم .. » (٦) .

وايضا يقول الفخر الرازى عن موقف الفرق المختلفـة من الامامة : « .. منهم من قال بوجوبها ، ومنهم من لم يقل .. أما الذين لم يقولوا بوجوبها فهـم الخـــوارج والاصم » (٧) ـ ولعل الادق والاصح أن تكون عبارته : « النجدات من الخوارج والاصم » .

فهل هناك ، حقيقة ، خلاف فى وجوب الامامة ، كما تشير الى ذلك نصوص الاشعرى وابن حزم والفخـــر الرازى ؟؟ الحق انه ليس هناك خلاف بين فرق الاســلام حول هذه القضية ، وانما الخلاف الذى قام بين النجدات والاصم ـ ومعه هشام الفوطى ، من المعتزلة ـ من جانب وبقية الفرق من جانب آخر هو فى طريق وجوب الامامـة على الناس .. اذ قالت الاغلبية ، أو الكل ـ ماعدا النجدات والاصم والفوطى ـ انها واجبة من طريق الشرع ، وأن هذا

---

(٥) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٦) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٨٧ .

(٧) (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين) ص ١٧٦ . طبعة القاهرة ، الاولى سنة ١٣٢٣ هـ .

الوجوب الشرعي يجعل نصب الامام واجبا فى كل زمان وفى كل الحالات والا استحق الناس الاثم واللوم والعقاب .. أما النجدات والاصم والفوطي فلقد استبعدوا أن يكون الشرع هو طريق وجوبها ، لعدة أسباب :

اولها : انه ليس هناك نص على وجوب الامامة ، لا من الكتاب ولا من السنة ، أى نص متواتر يعلو مقامه على مقام أحاديث الآحاد .

وثانيها : أنه ليس هناك اجماع على وجوبها شرعا ، فالاجماع الاول فى عهد أبى بكر ، حتى يكون اجماعا لابد من استناده الى نص ، وهذا النص غير موجود ، فلا سند لهذا الاجماع شرعا ، وفضلا عن ذلك فان هذا الاجماع لم يحدث ، لان هناك من رفض البيعة أو من لم يشارك فيها ، أو من بايع مع الامتعاض والنفرة .. وأيضا فان تصور حصول الاجماع من كل واحد من آحاد الامة هو تصور لامر يدخل فى عداد المستحيلات .

فليس هناك ، اذا ، نص ، ولا اجماع استند الى نص ولا اجماع قد حدث اصلا .. فليس الشرع هو طريق هذا الوجوب .

ومع ذلك فلا النجدات ولا الاصم والفوطى بالذين ينكرون وجوب الامامة ، بمعنى ضرورة قيام السلطة الحاكمة فى المجتمع ، فقط هم يخرجون هذه القضية من اطار الشرع والدين الى اطار « المصلحة المدنية » للمجتمع فعندما تكون هذه السلطة ضرورية لاقامة العدل ، والعدل واجب ، فان وجوبها يصبح أمرا لا نزاع فيه . لانها تستمد وجوبها هذا من الوجوب الدائم لاقامة العدل بين الناس ..

أما اذا قام العدل بين الناس ، وانتفت المظالم واسبابها واحتمالات ظهورها فى المجتمع فان العدل الواجب يكون قد تحقق ، فكأن الامامة متحققة ، ولهذا لا وجه ولا مبرر لاقامة سلطة حاكمة قد انتفت دواعى قيامها فى هـــذا المجتمع العادل ..

ان هذا الفريق من المتكلمين ــ النجدات والاصــــم والفوطى ــ لم يتحدثوا عن هذه القضية ، وعن ذلك المجتمع المثالى الذى تصوروه عادلا لا يحتاج الى حاكم ، لانهـــم كانوا مثاليين يحلمون ويتجاهلون الواقع ، فليس منهم من عاش فى مجتمع عادل ، بل كانوا ــ وخاصة النجدات ــ فى ثورة دائمة ضد الظلم والجور والفساد ، وهم ــ أى النجدات ــ لم يهملوا قضية نصب امام لهم ، فامامهـــم نجدة بن عامر « ٣٦ ــ ٦٩ هـ ــ ٦٥٦ ــ ٦٨٨ م » قــــد اختاروه ، واليه ، فى كتب الفرق والمقالات ، ينتســـبون وانما القضية ، كما قلنا ، هى أنهم أرادوا الخروج بقضية وجوب الامامة ــ التى لا خلاف عليها ــ من اطار الشرع والدين ، كى لا يتأبد وجوب قيامها ، الى الاطار المـــدنى الذى يجعل منها ضرورة مصلحة يتطلبها استهداف اقامة العدل بين الناس ، وعندما نربط قيامها بالحاجة للعدل ، يصح لنا أن نعلق الغاءها على سيادة العدل بدونها ودون ماحاجة اليها وهو افتراض يبدو مغرقا فى المثالية ، ولكنه مطلوب لتأكيد الطبيعة المدنية لطريق وجوبها .

ونحن لا نذهب بعيدا اذا قلنا : ان التصورات والافكار التى تقدمها بعض النظريات الاجتماعية الحديثة ــ ونعنى

الماركسية بالتحديد ــ عن أن انتفاء التمايز الطبقى والغاء الطبقات وتحقق المساواة بين البشر فى صورتها العليا ، وعلى النطاق الانسانى كله ، سيتبعها الغاء « الدولة » بعد ان تمر سلطتها بفترة من « الذبول » ، يستعيض النــاس فيها عنها بمؤسسات اجتماعية يشاركون من خلالها ، مباشرة وبأنفسهم ، فى تصريف الامور العامة والمصـــالح العمومية . . ان هذه الفكرة ، التى تبدو مثالية ومغـرقة فى مثاليتها ، هى فى جوهرها نابعة من نفس المعين الذى نبعت منه افكار النجدات والاصم والفوطى ، فالدولـــة والسلطة عندهم جميعا جهاز ضرورى تدعو الى اقامته تلك الشرور والمظالم التى يعانى منها الناس . فاذا زالت هذه الشرور وانتفت المظالم واسبابها ، عندئذ لا حاجة بالناس الى ايجاد هذا الجهاز ، جهاز الدولة والحاكم والامام . .

اذا فالقضية الخلافية هى : طريق وجوب الامامة : وليس وجوب الامامة وضرورتها .

ولقد كان الشهرستانى ــ من بين مؤرخى المقالات ــ اكثر من وعى هذه الحقيقة ، وكانت كلماته أكثر دقة فى التعبير عن حقيقة الخلاف فى هذا المقام ، بل اننا لا نجـد عند غيره ذلك العرض الذى قدمه لرأى الخوارج النجدات فى هذا الخلاف ، ولذلك فنحن نستأذن فى عرض نصـــه كاملا كى يتبين وجه الحق فى هذا الموضوع ، يقـــول الشهرستانى :

« قالت النجدات ، من الخوارج ، وجمـــاعة مـــن

القدرية ، مثل الاصم وهشام الفوطى : (٨) أن الامامة غير واجبة فى الشرع وجوبا لو امتنعت الامة عن ذلك استحقوا اللوم والعقاب ، بل هى مبنية على معاملات الناس ، فان تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه وتكليفه ، استغنوا عن الامام ومتابعته ، فان كل واحد من المجتهدين مثل صاحبه فى الدين والاسلام والعلم والاجتهاد ، والناس كأسنان المشط ، والناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة فمن أين يلزم وجوب الطاعة لمن هو مثله ؟! » .

فنحن هنا أمام صورة لمجتمع مثالى مفترض الوجود او التصور لتقرير حقيقة يدور الجدل من حولها ، مجتمع كل أعضائه مجتهدون فى الدين والاسلام والعلم ، متساوون فى ذلك كأسنان المشط ، وأهل هذا المجتمع قد تعادلوا وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى ـ والعدل هنا مرتبط بالمساواة ـ وقام كل واحد منهم بواجبه دون سلطة مرهبة ، وامتنع كل منهم عن الجور والظلم دون جهاز للعقاب يبث الخوف والفزع فى النفوس ، أى أن الوازع والضمير والتقوى قد عمت ونمت وأضحت حية مسموعة الصوت من داخل كل فرد من الافراد . . اذا بلغت جماعة من الناس ذلك المبلغ « فمن أين يلزم وجوب الطاعة ـ على الفرد ـ لمن هو مثله ؟! » . . تلك هى القضية .

---

(٨) نلاحظ أن الشهرستانى يتحدث عن جماعة من المعتزلة تقول بهذا الرأى ، وما الاصم والفوطى الا مثال لفكر هذه الجماعة ، كما ننبه الى أن الذين يقسمون المعتزلة الى فرق يعدون الفوطى زعيم فرقة متميزة تقول برأيه هذا . . فوجهة النظر هذه وان تكن رأى أقلية ، الا أن هذه الاقلية كبيرة يستحق رأيها النظر والتأمل .

ثم يمضى الشهرستانى ليعرض حجج هذا الفريق على أن طريق وجوب الامامة ليس هو الشرع والدين ، فيقول :

« وزادوا على ذلك تقريرا بأن قالوا : وجوب الطاعة لواحد من الامة ، اما أن يثبت بنص من الرسول ، فقد دللتم على أنه لا نص على أحد ، واما أن يكون باختيار من المجتهدين ، والاختيار من كل واحد من الامة اجماعا . بحيث لا يقدر فيه اختلاف ، لا يتصور عقلا ولا وقوعا . أما العقل ، فان الاختيار اذا كان مبنيا على الاجتهاد ، والاجتهاد ينبنى على ماتعين لكل واحد من العقلاء من قضايا ترده فى الوجوه العقلية والسمعية وذلك اذا كان مختلفا فى الطباع فبالضرورة أن يصير مختلفا فى الحكم . أليس أحق الاحكام بوجود الاتفاق فيه : الخلافة الاولى ؟ وأولى الازمان فى الشرع : هو الزمان الاول ؟ وأولى الاشخاص بالصدق والاخلاص : الصحابة ؟ وأحق الصحابة بالامانة ونفى التهمة والخيانة ، المهاجرون والانصار ؟ وأقرب الناس الى رسول الله : ابو بكر وعمر ؟ فانظروا ، كيف انحاز الانصار الى السقيفة ، وكيف قالوا : منا أمير ومنكم امير ؟ وكيف اجمعوا على سعد بن عبادة ، لولا أن تداركه عمر بأن بايع بنفسه حتى شايعه الناس ؟ ثم قال ، بعد ذلك : الا أن بيعة ابى بكر كانت فلتة ، فوقى الله شرها ، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه .. ولم يكن وقت البيعة اتفاق الجماعة ، وفى الغد ، لما بايعوه ، انحاز بنو امية وبنو هاشم .. ولم يخرج على الى البيعة ، حتى قيل : انه كان له بيعة فى السر وبيعة فى العلانية ..

.. فاذا لم يتصور اجماع الامة فى أهم الامور وأولاها

بالاعتبار دل على أن الاجماع لن يتحقق قط ، وليس ذلك دليلا فى الشرع ..

ونصب الامامة بالاختيار متناقض من وجهين :

أحدهما : أن صاحب الاختيار موجب فى النصب على الامام حتى يصير اماما ، ويجب عليه طاعته اذا قام بالامامة فهو انما صار اماما باقامته ، فكيف صار واجب الطاعة بامامته ؟!

والثانى : أن كل واحد من المجتهدين الناصبين للامامة لو خالف الامام فى المسائل الاجتهادية باجتهاده جاز له ذلك ، وما من مسألة فرضتم وجوب الطاعة فيها الا ويجوز المخالفة له فيها باجتهاده ، فكيف نجعله اماما واجب الطاعة بشرط أن يخالفه اذا أدى الى المخالفة اجتهاده ؟!

فدل هذا كله على أن الامامة غير واجبة فى الشرع .

نعم ، لو احتاجوا الى رئيس يحمى بيضة الاسلام ويجمع شمل الانام ، وأدى اجتهادهم الى نصبه ، مقدما عليهم ، جاز ذلك ، بشرط أن يبقى فى معاملاته على النصفة والعدل ، حتى اذا جار فى قضية على واحد وجب عليهم خلعه ومنابذته ، وهذا كما فعلوا بعثمان وعلى ، فانه لما أحدث عثمان تلك الاحداث خلعوه ، فلما لم ينخلع قتلوه ولما رضى على بالتحكيم ، وشك فى امامته ، خلعوه وقاتلوه .. » (٩)

تلك هى نظرية النجدات ومن اتفق معهم من المعتزلة : اذا دعت الضرورة الى الامام أمر الناس عليهم واحدا

---

(٩) (نهاية الاقدام فى علم الكلام) ــ ص ٤٨١ ــ ٤٨٤ .

منهم ، فاذا أخل بالعدل ، ولو مع واحد من الرعية ، خلعوه ، فان لم ينخلع قاتلوه .. وليس للشرع ـ نصا أو اجماعا مستندا للنص ـ مدخل فى هذه القضية التى قالوا : « انها مبنية على معاملات الناس » .

وهنا لابد من تنبيه يوضح أن الشهرستانى قد مزج فى حديثه هذا بين رأى النجدات ورأى الاصم والفوطى ، وذلك يقتضى الاشارة الى أن الذى قالته النجدات هو أن طريق الامامة هو الرأى وليس الشرع ، فهى عندهم من الرأى الذى هو للناس وليست من الشرع والدين ،وستأتى اشارة الى رأى الخوارج هذا بعد حين . أما الاصم والفوطى فانهما قد أضافا الى ذلك قولهما بأنها مرتبطة فى قيامها بتوقف العدل عليها ، ومن ثم فانها لا تجب اذا تناصف الناس وتكافوا عن التظالم .. وهنا يجب أن نسأل : هل كان ذلك مجرد افتراض و « حلم » بمجتمع عادل يستبدل سلطة « الدولة » القاهرة القامعة العقابية بنوع آخر من سلطة المجتمع ككل ؟ أم انه قد قامت نماذج فى المجتمع الاسلامى نبهت الى امكان تحقق مجتمع من هذا القبيل ، فى الواقع والتطبيق ، لافى التصورات والاحلام ؟؟.

اننا لا نستبعد الافتراض الثانى .. وذلك هو الدليل :

لقد كان أبو بكر الاصم معاصرا لهشام بن عمرو الفوطى. فالاول توفى فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، والثانى توفى سنة ٢١٨ هـ . وفى حياة الاثنين ، وعلى وجه التحديد سنة ٢٠١ هـ ، قامت ثورة ، نهض بها العامة ، فأسقطت سلطان جهاز الدولة العباسية ، واستغنت عن الخليفة وحكومته وولاته وجيشه ، وأدارت شئون الناس

بسلطة شعبية ، كانت نموذجا غريبا عن عصرها ، ومتقدما عنه ، وعاشت هذه التجربة حينا من الدهر ، وكان لها دوى هائل وآثار بارزة فى ذلك الحين .. فهل كان لهـــا تأثير على الاصم والفوطى فى القضية والرأى الذى اضافاه الى الفكر السياسى الاسلامى ؟

لننظر أولا فى وقائع ذلك الحدث وتلك الثورة ، ثم نرى بعد ذلك مدى نصيب هذا الافتراض وحظه من القبول .

يتحدث الطبرى عن هذه الثورة تحت عنوان : « ذكر خروج المطوعة للنكير على الفساق » .. أى أن القائمين بها كانوا « متطوعين » ، وأنها كانت للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى أشاعه الفساق .. فلقد ساءت الحـــال فى بغداد وما حولها ، لان « فساق الحربية ــ « اى الجند» ــ والشطار « قد أشاعوا الفساد فى البلاد ، فأعلنـوا الفسق واظهروه ، وقطعوا الطرق على الناس ، واغتصبوا الغلمان والنساء من ذويهم علانية وعنوة ، من البيوت ومن الطرقات ، واغتصبوا الاموال جهرة وفى وضح النهار ، وفرضوا الاتاوات على أصحاب البساتين والامـــوال ، وهاجموا القرى هجمات جماعية ، فحاربوا أهلها ونهبوا ثرواتهم ومتاعهم ، ومارسوا جباية الضرائب والمكوس فى الطرقات ومن السفن ومن فوق ظهور الدواب ، وكـانوا يجلبون مغانمهم ويبيعونها فى الاسواق علنا .. ورغم ذلك لم تتحرك « الدولة » لوقف ذلك البلاء الذى اســـتفحل وشاع وكما يقول الطبرى : « لان السلطان كان يعتز بهم ويغريهم ، وكانوا بطانته ! » ، وعندما نهب هؤلاء الفساق بلدة « قطر بل » جاء أهلها الى السلطان ، فاستعدوه على

الفساق « فلم يمكنه أعداؤهم عليهم » (١٠) ولم يرد عليهم شيئا مما كان اخذ منهم ! » .

وأمام هذا الواقع الاليم تحركت عامة الناس ، واجتمع مندوبون عن أحياء بغداد ودروبها ، وتشاوروا ، واتفقوا على ضروره « الخروج » وقهر هؤلاء الفساق ، لانهم ، ى العدد ، قلة اذا قيسوا بعامة الناس ، وبعبارة الطبرى ، فلقد « قام صلحاء كل ربض » (١١) وكل درب ، فمشى بعضهم الى بعض ، وقالوا : انما فى الدرب الفاسق والفاسقان الى العشرة وقد غلبوكم وأنتم اكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا ، لقمعتم هؤلاء الفساق » .

ولقد قاد هذه الثورة رجل يقال له : أبو حاتم سهل بن سلامة الانصارى ، من أهل خراسان ، وكان شعاره مصحفا يعلقه فى عنقه ، وكانت شارة منازل اتباعه برجا من الجص والآجر يعلقون عليه المصحف والسلاح .. ووجه أبو حاتم دعوته الى الناس جميعا « الشريف منهم والوضيع ، بنى هاشم ومن دونهم ، فاجتمع اليه عامة أهل بغداد ونزلوا عنده .. وأتاه خلق كثير ، فبايعوا على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل بالكتاب والسنة وقتال المخالفين .. » .

ولقد قهرت هذه الثورة التى قام بها العامة موجة الفسق والفساد التى سادت بغداد وما حولها ، وحاربت جيش الدولة ، الذى كان « الفساق والشطار » جزءا منه ، لان أبا حاتم كان يقول : « انى أقاتل كل من خالف

(١٠) أى لم ينصر الاهالى على الفساق .

(١١) الربض – بفتح الراء والباء – مسكن القوم .

الكتاب والسنة ، كائنا من كان ، سلطانا أو غيره ، والحق قائم فى الناس أجمعين .. » .. ودامت السيادة لهذه « الثورة » عاما كاملا على بغداد وما حولها ـ « من رمضان سنة ٢٠١ حتى شعبان سنة ٢٠٢ هـ » ـ وعندما هزمت، سجنوا سهل بن سلامة ، واشاعوا أنه قتل « تخوفا من الناس أن يعلموا بمكانه فيخرجوه » ، واحتمل التعذيب هو وانصاره ، ورفضوا أن يتنكروا لمبادئهم وأن يقولوا للعامة انهم كانوا يدعون الى الباطل .. وظل فى السجن حتى دخل المأمون بغداد ، بعد مقتل الامين ففك سجنه ، واستدعاه للقائه « فأجازه ، ووصله » وطيب خاطره (١٢):

فهنا : ثورة ، قامت بها العامة ، وأقامت سلطة لا امام فيها ولا سلطان ، وتكاف الناس عن المظالم وتعادلوا ، واستغنوا عن الامام .

ثم : هل للقائمين بهذه الثورة صلة بفكر المعتزلة وتنظيمهم ؟؟ ان المصادر لا تفصح عن شيء يفيد الاجابة الحاسمة .. ولكننا نلاحظ اننا بازاء قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهو اصل من اصول المعتزلة ، وان لم ينفردوا به ، الا انهم كانوا من دعاة سل السيف لاقامة هذا الاصل واعلاء شأنه بين الناس .. ثم هؤلاء الثوار يسمون خصومهم ، الذين ارتكبوا الكبائر ، يسمونهم « فساقا » ، ولم يسموهم « كفرة » كما هو شأن الخوارج ، ولا « منافقين » ، كما هو شأن أصحاب الحسن البصرى . ولا « مؤمنين » ، كما هو شأن المرجئة والجبرية ... وانما سموهم « الفسقة » ، وهى تسمية المعتزلة

(١٢) (تاريخ الطبرى) جـ ٨ ص ٥٥١ ـ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ـ ٥٦٤ ، ٥٧١ ـ ٥٧٣ ـ (أحداث ٢٠١ ـ ٢٠٣ هـ) . طبعة المعارف .

لمرتكبي الكبائر .. ثم ان الذى فك قيود قائد هذه الثورة هو « المأمون » ، أول خليفة عباسى يقـــول بمـــذهب الاعتزال ؟! ..

واخيرا .. فهل كانت هذه التجربة الواقعية خلف قول الاصم والفوطى بأن الناس اذا تعادلوا وتكافوا عن التظالم استغنوا عن اقامة الامام ؟ وهل لفكرهم هذا صلة بالواقع الذى عاشوا فيه ؟ ربما كان الامر كذلك ، فالافتراض هنا وارد على كل الاحوال .

***

اما الذين قالوا بوجوب الامامة دائما وأبدا وفى كـــل الاحوال فهم الشيعة بكل فرقها ، والمعتزلة ، ماعدا الاصم والفوطى ، والخوارج ، عدا النجدات ، والمرجئة ، واهل السنة .. كل هؤلاء قالوا بوجوبها ، بهذا المفهوم ، ولكنهم اختلفوا : هل طريق وجوبها هو العقل ؟ أم السمع ؟

أما الشيعة فكلهم يقولون أن طريق وجوبها هـــــو العقل (١٣) .

ومن المعتزلة من قال أن طريق وجوبها العقل ــ ولـكن بمفهوم مختلف اختلافا تاما عن مفهوم الشــيعة ــ ومن المعتزلة البغداديون ، والجاحظ من معتزلة البصرة (١٤) .

أما معتزلة البصرة ، وكذلك الجبائيان ، أبو على وأبو هاشم ، وجمهور أهل السنة ، فانهم يقولون ان السمع هو طريق وجوبها (١٥) .

---

(١٣) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٦٥ .

(١٤) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٠٨ .

(١٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠٨ ، و (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٦٨ ، و (محصل افكار المتقدمين والمتاخرين) ص ١٧٦ .

وهناك من قال : ان الخوارج لا يوجبون الامامة (١٦) ، ولكن المعتزلة يصححون هذا الخطأ ، ويقولون : « انهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك ، ويذهبون الى انه لاحاجة الى الامام ، ثم رجعوا عن ذلك القول لما امروا عليهم عبدالله ابن وهب الراسبى » (١٧) .. كما أن الخوارج أنفسهم ينفون ذلك عن مذهبهم ويقولون : « انه ليس منا .. من زعم أن الامامة ليست بواجبه » ، ولكنهم يشترطون لوجوبها على الجماعة المؤمنة أن تكون لهذه الجماعة مقومات الجماعة الحقة ، عددا وعدة ، بل وعلما ــ فيقولون ان « من رأى المسلمين أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يستقيمان الا بالامامة ، وشروط وجوب الامامة على القوم ان يكونوا كنصف عدوهم فى العدد والعدة والسلاح والحمولات والعلوفات وما أشبه ذلك ، وعندهم من العلم ما يكفيهم ! » (١٨) .

ولقد قلنا ان فريقا من المعتزلة يجعل العقل طريق وجوب الامامة . كما قال بذلك كل الشيعة ، ولكن بين الفريقين اختلافا أساسيا فى المعنى المراد .. فالشيعة يوجبون الامامة على الله ، لا على الناس ، لانها عندهم « لطف » يبتعد بالناس عن القبائح العقلية ، وهذا قول الاثنى عشرية ، ولانها معلم يؤدى الى معرفة الله سبحانه وهو قول الاسماعيلية ، ولان الامام ــ عند آخرين منهم ــ هو الذى يعلمنا اللغات ويرشدنا الى تمييز الاغذية من السموم وماشاكل ذلك !

(١٦) (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين) ص ١٧٦ .
(١٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٠٨ .
(١٨) (مقدمة التوحيد ، وشرحها) ص ٥١٦ ، ٤٧ .

أما الفريق الذى قال ، من المعتزلة ، بوجوبها عقلا فانه يوجبها على الخلق والناس وليس على الخالق ، لانه يراها أمرا دنيويا وليس دينيا ، فهم « يوجبون الرياسة على المكلفين ، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضار دنيوية ». فمهام الامام « كلها من مصالح الدنيا (١٩)» .. فهذا الفريق من المعتزلة يوجب الامامة بالعقل ليبتعد بها عن السمع والمأثورات الدينية ، وليجعلها مبحثا ومنصبا دنيويا خالصا بينما الشيعة يجعلون العقل طريق وجوبها ، لتكون قضية دينية ، بل أصل أصول الدين ، وليبتعدوا بها عن أمور الدنيا بالكلية .

هكذا اتفقت فرق الاسلام على وجوب الأمامة ، بمعنى ضرورة قيام السلطة العادلة التى تحكم المجتمع ، وان اختلفوا الاختلاف الحاد والجذرى فى طريق هذا الوجوب .

كما قدمنا عن راى الاصم والفوطى ، فانهم لم ينفوا ولم ينكروا ضرورة السلطة ، ولكنهم ربطوها بالفرض ، منها ، تجب عندما تدعو الحاجة لها ، ويتخلف هذا الوجوب اذا زال الفرض الموجب لها .. ولقد أدرك ذلك المتاخرون من المعتزلة فقالوا : ان رأى ابى بكر الاصم « غير مخالف لما عليه الامة ، لانه اذا كان لا يجوز فى العادة ان تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم فقد قال ـ « أى الاصم » ـ بوجوب الرياسة على كل حال (٢٠) » .

(١٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٠٨ ، و (محصل افكار المتقدمين والمتاخرين) ص ١٧٦ .

(٢٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٣٠٨ ، وانظر (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٤٨ .

نعم .. لقد اتفقت الامة على وجوب الرياسة على كل حال ، أما الاختلاف الحقيقي فانه قد قام على قدم وساق فى طريق هذا الوجوب .

لقد قاس الشيعة ، وخاصة الامامية ، الامامة على النبوة ، والامام على النبي ، لان الامام عندهم حافظ للشرع ، بل هو مصدر العلم الدينى ، بل ان للامامة عموما وشمولا لا يوجد للنبوة .. وكما كانت النبوة « لطفا » من الله لعباده ، جعلها معلما تقربهم من الصواب وتدلهم عليه ، وتبعدهم عن الشر وتنبههم اليه ، كذلك فان الامامة ، قياسا عليها ، هى « لطف » الهى كذلك ، ومن هنا كانت الامامة ، كالنبوة ، « لطفا فى التكليف العقلى لا يتم من دونها » ، و « كما لا غناء عن النبوة كذلك لاغناء عن الامامة ، فكلاهما لطف من الله تعالى ، وان كان لطف الامامة عاما ولطف النبوة خاصا .. » ، وأيضا فليس هناك لطف آخر يقوم مقام لطف الإمامة والائمة ، اذ بدون الأمام تنعدم الثقة فى انتفاء كتمان شيء من أحكام الشريعة ، ذلك لأن التواتر ، وكذلك الامة بأكملها ـ دون الأمام ـ لا ترقى الى مصاف المصادر الموثوق بنقلها وروايتها للشريعة ، وليس هناك مصدر موثوق به سوى الأمام ، فحفظ الشريعة الذى وعد الله به يوجب على الله سبحانه « ايجاد الامام ، ونصبه ، والدلالة عليه ، وايجاب الطاعة له على رعيته (٢١) » .. فوجوبها قد جاء من طريق العقل اذن .

أما المعتزلة فانهم يرفضون أن يكون الامام لطفا الهيا .

---

(٢١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٨٧ ، ٦٩ ، ١٤٧ ، ٢٠٠ .

ويميل أكثرهم الى أن نصب الامام إنما تراد به « المصلحة الدنيوية » ، ولذلك فهم لا يشترطون فيه العصمة كما هو حال الانبياء الذين تبتغى منهم « المصلحة الدينية »والبلاغ الدينى عن الله سبحانه وتعالى .

ومن جعل منهم الشرع طريقا لوجوب الامامة قال انه لابد وأن يكون هناك أثر نبـــوى علم الصــــحابة خبره واستندوا اليه فى اجماعهم على وجوب نصب الامام ، فلقد فزعوا جميعا لاختيار خليفة للرسول ، ولابد أن قد كان هناك حديث أو أحاديث استندوا اليها ، وأمام افتقـادنا لهذا الحديث المروى المتواتر يلجأ هؤلاء الى موقف لا نراه الا ضعيفا متهاويا وذلك عندما يقولون : « .. انه لابد من نص قاطع منه عليه السلام فى الامام وصفته وما يقوم به على الجملة . لكن ذلك النص مما لا يجب نقله اذا كـان الاجماع والكتاب قد أغنيا عنه ، كما لا يجب نقل خبر فى أصول الصلاة والزكاة الواجبة .. والدليل القاطع فى ذلك يجوز أن يكون بقول منه ، ويجوز أن يكون لما تكرر منـه البيان بالفعل فيما كان يوليه من الامراء والحكام ، ففهم من قصده أنه انما يفعل ذلك على وجه واجب ، وأنه يفعله لعلة اقامة الحدود وتنفيذ الاحكام . فيعلم أنه بعد وفاته يلزم ذلك ، فاذا كان لا نص عليه فانما يلزم أهل المعـرفة من أمته القيام بذلك .. » .. (٢٢) .

ووجوه الضعف فى هذا الدليل عديدة .. اذ لو كـان هناك نص من الرسول قاطع فى الامام وصفته وما يقوم به لما أهملت روايته ، خصوصا وأن موضوعه خطـــير

---

(٢٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٤٩ .

والجدل من حوله والصراع قد كان على أشده منذ وفاة الرسول حتى الآن .. اما أن يكون المسلمون قد راوا فى نصب الرسول للامراء والحكام امرا أراد به أن يقول لهم : ان عليكم واجبا هو أن تقيموا لكم اماما كما أقيم لنا الامراء والحكام ، فان الدليل هنا يكون هو قياس الامامة على الامارة على عهد الرسول ، وأصحاب هذا الرأى هم الذين يقولون : « ان الرجوع فى الامامة الى طريقة القياس لا تصح .. وأنه لابد من القول أنه عليه السلام دل فى الجملة على مايقوم به الامام ويتميز به من غيره ، وعلى صفات الامام .. ولا يجوز استدراك ذلك من جهة القياس .. » .

ولعلهم قد احسوا بضعف موقف من يقول بأحاديث لم يروها الرواة فى هذا الباب ، فقالوا : ان الصحابة ربما رجعوا فى ذلك الى قول الرسول : « ان وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله ، ضعيفا فى بدنه .. » .. ولكنهم يسلمون أن هذا الحديث وأمثاله هى أحاديث آحاد، وأن الاخذ بها دليلا على وجوب الامامة من طريق الشرع هو أمر لا يستقيم ، بل نراهم يستدركون وينفون أن يكون مرادهم تصحيح هذه الاحاديث (٢٣) .

ومن أدلتهم الاخرى : أن الامام يقوم بالاحكام والحدود فى المجتمع الذى ينصب اماما عليه ، ووجوب اقامة الاحكام وانفاذ الحدود شرعا هو أمر لا خلاف فيه ، فوجوب الامامة مستمد من وجوب اقامة ماهو مختص بالامام ، اذ انه « اذا صح ايجاب الله تعالى اقامة الحدود وغيرها ، وكان

(٢٣) المصدر السابق جـ ٢٠ ق ١ ص ٤٨ ، ٤٩ .

لا طريق اليه الا اقامة الامام ، وجبت اقامته .. (٢٤) .

لكن هذا الدليل يرد عليه أن الناس جميعا هم المخاطبون باقامة الحدود ، وليس الامام ، لقول الرسول عليه السلام: « أقيموا الحدود على ماملكت ايمانكم » ، وأنهم ان رأوا أن المصلحة تقتضي قيام سلطة الامام كى تختص باقامة الاحكام وتنفيذ الحدود كان طريق الوجوب عقليا ، على النحو الذى قصد اليه المعتزلة البغداديون والجاحظ ، الذين قالوا ، او قال كثير منهم : ان الامام يقام لمصالح الدنيا ، وانه فى هذه الحالة ، وان لم يكن وكيلا للامة ـ لنهوضه بما لا يوافق بعض أفرادها ـ فهو كالوكيل لها .

ثم يرد على هذا الدليل كذلك راى الاصم ، لانه اذا نبع الوجوب للامامة من وجوب اقامة الحدود ، فان الناس اذا تكافوا عن التظالم وتعادلوا ولم تعد هناك حدود واجبة الاقامة ، فان وجوب الامامة يتخلف حينئذ كذلك .. ولا يصح والحال ذلك ما يقوله أصحاب الوجوب الشرعى من أن الامام « انما احتيج اليه لامور كثيرة ، فلو علم أنه لا يقع من أحد ما يوجب الحد ما كان يستغنى عنه .. (٢٥) .

ويرد المعتزلة حجج الشيعة عن الوجوب العقلى للامامة والامام ، باعتباره لطفا الهيا لا يصح التكليف بدونه ، يردون تلك الحجج بقوة ، فهم :

اولا : يرون فى القرآن ، وفى السنة العملية المتواترة ،

---

(٢٤) المصدر السابق جـ ٢٠ ق ١ ص ٤٧ .
(٢٥) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٥٣ ، ٣١٠ .

الحجة الدينية والشرعية ، ومن ثم فليس الامام هــو الحجة ، كما يقول الشيعة وسيأتى تفصيل هــذه القضية فى « الفصل الاول » من « الباب الخامس » عند الحديث عن عصمة الامام .

ثانيا : يثقون بما تجمع عليه الامة وما ترويه ، ويرون أن مغالاة الشيعة فى الامام انما نبعت من « قدحهم فى سائر المكلفين من جهة جواز الكتمان والكذب عليهــم ، فيوجبون لذلك الحاجة الى من لا يجوز عليه ذلك » (٢٦)

ثالثا : يقولون : ان وجوب الامامة اذا لم يتعلــق بالتكليف ، بل تعلق بالمنافع والمضار ـ وهو رأى المعتزلة ـ فلا وجه للقول بأن العقل هو طريق وجوبها .. أما اذا تعلق بالتكليف ـ وهو رأى الشيعة ـ فلا يخرج أمرها عن طرق ثلاثة :

(أ) ان يكون الامام هو المؤدى الى تمكين المــكلفين من القيام بما كلفوا به .. وهذا ما ينكره العقل ، لان ســبل التمكين من الفعل مثل : القدرة ، والآلة ، وكل ما يختص به الانسان القادر هى أشياء وسبل يخرج عن دائرتها الامام « فلا يصح أن يقال : انه تمكين .. » .

(ب) أن يكون الامام هو البيان للدين ، لانه الحجة فى الشريعة ، وقيامه ضرورى كالنبى .. وهذا أيضا لا تسلم به المعتزلة ، لانه اذا ثبت أن الزمان قد خلا من النبى .. فجائز من باب أولى أن يخلو من الامام وخلو الزمان مــن النبى لا يعنى خلوه من حجة تقوم فى صورة كتاب أو

(٢٦) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٥٥ .

سنة أو اجماع ، فتلك هى الحجج القائمة والبيان المعلن والدائم .

(جـ) أن يكون الامام لطفا .. وهذا لايستقيم ، لان ذلك يتطلب ان يكون الامام معلوما لكل مكلف ، حتى تزاح علة المكلف ، ثم ان معرفته لا تكفى فى ازاحة العلة ، بل لابد من معرفة مايؤديه ويبثه من شريعة وتعاليم ، وذلك يستلزم أن يتمكن كل مكلف من معرفة الامور من قبل الامام ذاته . وذلك مالا يتم ومالم يتم حتى فى ظروف الفرق الشيعية ذاتها ، وعلى الاقل منذ اختفاء الامام المنتظر .

والمعتزلة الذين يقدمون هذه الاعتراضات على ايجاب الشيعة للامامة عقلا ، وعلى مفهوم الشيعة عن كون الامام لطفا لا يتم التكليف بدونه ، يقولون أنهم لايبطلون اللطف ؛ ولكنهم يرجعون فيه الى السمع حتى يتخلصوا من الاعتراضات الواردة على موقف الشيعة ومذهبهم (٢٧) .

اما اهل السنة فانهم يتفقون مع جمهور المعتزلة على وجوب الامامة وعلى أن طريق وجوبها هو السمع ، لا العقل ، ولكن موقفهم هذا من قضية السمع والعقل هو من منطلق مختلف ، اذ أن دافعهم هو موقفهم القائل بأن « العقل لا يعلم به فرض شيء ولا اباحته ، ولا تحليل شيء ولا تحريمه .. ولا حسن شيء ولا قبحه ، وان هذه الامور طريقها السمع ، وانما العقول يتوصل بها الى حدث العالم واثبات محدثه ، وانه على صفاته التى هو عليها .. فعلم وجوب الامامة من جهة السمع » .

(٢٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٦ ـ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧

وهم يسوقون ، كأدلة سمعية على وجوبها ، أحاديث كثيرة ، كلها أحاديث آحاد ، من مثل : « الخـــلافة فى قريش » و « قريش ولاة الناس فى الخير والشر » الى آخر مثل هـــذه الاحاديث التى يراها غيرهم غير دالة عـلى الايجاب ، فقد تكون دالة على الاستحسان او النـــدب مثلا (٢٨) .

هكذا قالت كل فرق الاسلام بوجوب اقامة الســـلطة ونصب الامام ثم اختلفوا بعد ذلك ، فربط البعض بين مهام المنصب الدنيوية وبين صاحبه فأوجب قيامه عقلا لضرورته لتمام مصالح الدنيا .. ورآه البعض حجة الدين ومصلح الشريعة فأوجب نصبه على الله عقلا لانه لطف لا يتم التكليف الا به .. وقال البعض بأنه لازم للدين والدنيـا فأوجبوا نصبه سمعا بأدلة اجتهدوا فى تأليفهـا وتنسيق استخراج حجتهم منها .

ولعل موقف الخوارج النجدات ، والمعتزلة البغداديين والجاحظ من البصريين ، والاصم هو أكثر هذه المواقف اتساقا مع منطق العقل فى هذا الموضوع .

---

(٢٨) عن راى اهل السنة فى وجوب الامامة سمعا انظر (الاحكام السلطانية) لابى يعلى ص ٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ . و (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٧١ ، ٢٧٢ . و (الفرق بين الفرق) للبغدادى أيضا . ص ١٤٩ - ١٥١ و (نهاية الاقدام) للشهرستانى . ص ٤٨٧ ، ٤٧٩ . و (شرح المواقف) للجرجانى . مجلد ٣ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ . طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ . و (شرح العقائد النسفية) للتفتازانى ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، طبعة القاهرة الاولى سنة ١٩١٣ م . و (الاقتصاد فى الاعتقاد) للغزالى . ص ١٣٤ . طبعة المطبعة المحمودية التجارية (محمود على صبيح) بدون تاريخ . و (المقدمة) لابن خلدون . ص ١٥١ ، ١٥٢ .

الفصل الثانى

طـــريق الامـــامة :

الاختيار لا .. النص

ان الاتفاق على حكم الامامة ونصب الامام . وهـــو الوجوب . يظل اتفاقا على أمر عام ومبدأ كلى . فاذا خطونا خطوة الى الامام . وبحثنا عن السبيل لاداء هذا الواجب وجدنا فرق الاسلام قد انقسمت الى معسكرين . يقــول أحدهما بأن السبيل لاداء هذا الواجب هو أن تختار جماعة المسلمين امامها وتعقد له وتبايعه بالامامة ، لان هـــذا الواجب هو واجب على المكلفين . اى الناس . وهــذا المعسكر يضم جمهور أهل السنة وكل المعتزلة وجميـــع الخوارج .. ويقول المعسكر الآخر : ان السبيل الى أداء هذا الواجب هو النص والتعيين الذى حدث وتم من الله ورسوله على شخص الامام أو على صفاته . نصا جليـا أو خفيا ـ على خلاف بين فرقاء هذا المعسكر ـ لان هــذا الواجب ليس واجبا على الجماعة المسلمة ، وانمـا هــو واجب على الله . فليس للبشر سبيل واختصاص فى هذا المقام .. أى أن لهذا الخلاف الذى نشأ حول كيفية تمييز الامام صلة وثيقة بالخلاف حول طريق وجوب الامامة .. فالذين قالوا بوجوبها على الله ـ وهم الشيعة ـ قالوا

بالنص والتعيين ، والذين قالوا بوجوبها على الجماعة المكلفة ـ وهم من عدا الشيعة ـ قالوا ، أو قال جمهورهم ، أنها بالاختيار والعقد والبيعة .

والاشعرى يجمل هذا الخلاف فى قوله : انهم « اختلفوا فى الامامة هل هى بنص ؟ أم تكون بغير نص ؟ » .

١ ـ فقال قائلون : لا تكون الا بنص من الله وتوقيف ، وكذلك كل امام ينص على امام بعده ، فهو بنص من الله على ذلك وتوقيف عليه .

٢ ـ وقال قائلون : قد تكون بغير نص ولا توقيف ، بل بعقد أهل العقد .. » (١) .

والذين قالوا : ان طريق تمييز الامام ونصه هو الاختيار والعقد والبيعة هم : جميع المعتزلة ، وجميع الخوارج ، وجميع الاشعرية ، والجمهور الغالب من أهل السنة واصحاب الحديث ، أى فيما عدا جماعة صغيرة لم تعش طويلا سميت « البكرية » . قالت بان أبا بكر قد تولى الخلافة بنص من الرسول عليه الصلاة والسلام (٢) ... كذلك قالت الزيدية ، من الشيعة ، بالاختيار بعد امامة على ، والحسن ، والحسين .. فهم عندها الذين حدث النص على امامتهم من الرسول . نصا جليا على الذات او خفيا على الصفات ، على خلاف بينهم .

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٨ .

(٢) من الذين قالوا ان امامة ابى بكر كانت بالنص الخفى والاشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم : الحسن البصرى ، وأحمد بن حنبل ـ فى احدى الروايتين المرويتين عنه ـ وبكر بن اخت عبد الواحد بن زيد ، وجماعة من أهل الحديث ، وجماعة (البيهسية) من الخوارج ، وابن حزم الظاهرى .. وعلى جميع هؤلاء يطلق اسم (البكرية) .. أنظر (منهاج السنة لابن تيمية . جـ ١ ص ٣٤٠ ـ ٣٦٥ . تحقيق : د. محمد رشاد سالم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

اما الذين قالوا : ان طريق تمييز الامام ونصبه هـو النص من الله ورسوله ، ثم النص من الامام على الامام الذى يليه ، فهم الشيعة على اختلاف فرقها وطوائفها ، واختلافها انما كان حول أشخاص الائمة لا حول هذا المبدأ العام الذى جمعها .

ونستطيع القول بان ميدان الصراع الحقيقى والاختلاف الجذرى فى قضية الامامة قد كان ولايزال حـول هـذه المسألة : هل طريق الامامة النص ؟ أم طريقها الاختيار ؟؟ تلك هى المسألة الرئيسية فى الخلاف حـول الامامة .

والامامة هى قضية الخلاف الرئيسية بين المسلمين ... فالخلاف حول النص والاختيار هو خـلاف المسـلمين الجوهرى ، لانه هو الذى فرق صف المسلمين الى شيعة وغير شيعة ، وهو الانقسام الاعظم فى صفوف الاسـلام والمسلمين .

ولما كان الخلاف قد دار ، تاريخيا ، ولا يزال دائرا بين الشيعة ككل ومن عداهم ككل ايضا ـ مع بعض المـواقف المستثناة ـ فاننا نبدأ بالحديث عن هـذه المـواقف المستثناة ، كى ينصب حديثنا عن هذين المعسـكرين المتميزين : الشيعة أصحاب النص ، والمعتزلة ـ ويتبعهم بقية أهل السنة ـ أصحاب الاختيار .

هناك قلة من أهل السنة والظاهرية واصحاب الحديث قالوا : ان الامامة بالنص . وان خلافة أبى بـكر كانت بالنص من الرسول صلى الله عليه وسلم على أبى بكر .. روى القول بذلك عن الحسن البصرى وجماعة من أصحاب الحديث .. وهو يمثل احدى الروايتين اللتين رويتـا

من احمد بن حنبل (٣) ويرى ابن حزم ، من الظاهرية ، راى هذه القلة التى سميت « بالبكرية » ولكنه يختلف مع الآخرين فى الاستدلال على النص الذى يقولون بوقوعه على أبى بكر .

فهو يرفض أن يكون نصب أبى بكر خليفة قد تم بناء على قياسهم الخلافة على امامة الصلاة التى قدمه الرسول فيها قبيل وفاته ، لان الخلافة هى الاصل ، وامامة الصلاة فرع عنها ، ولا يقاس الاصل على فرعه (٤) ... ويرفض كذلك الاستدلال بأحاديث الاحاد التى استندت اليها « البكرية » فى القول بالنص على أبى بكر ، من مثل حديث « اقتدوا بالذين من بعدى ، أبى بكر وعمر » فيقول عنه ، أنه « لم يصح . ويعيذنا الله من الاحتجاج بما لم يصح .. (٥) .. وعمدة أدلة ابن حزم فى نص الرسول على أبى بكر هو تسمية أبى بكر خليفة رسول الله . اذ الخليفة لابد أن يختاره السابق عليه حتى يصدق كونه خليفة لا خلفا فيقول : يحكى مذهبه : « قالت طائفة .. نص رسول الله على استخلاف أبى بكر بعده على أمور الناس نصا جليا .. وبهذا نقول ، لبراهين : أحدها : اطباق الناس كلهم .. فقد أطبق هؤلاء الذين شهد الله لهم بالصدق ، من المهاجرين ، وجميع أخوانهم من الانصار على أن سموه خليفة رسول الله .. ومعنى الخليفة فى اللغة هو الذى يستخلفه لا الذى يخلفه هو ، لا يجوز غير هذا البتة فى اللغة بلا خلاف ، تقول : استخلف فلان فلانا

(٣) (كتاب الامامة) لابى يعلى ١٩٦ ، ٢٠٠ .

(٤) ابن حزم (الاحكام فى أصول الاحكام) جـ ٧ ص ٩٨٦ ، طبعة القاهرة ، الثانية .

(٥) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٠٨ .

يستخلفه فهو خليفته ومستخلفه ، فان قام مكانه دون أن يستخلفه هو لم يقل الا خلف فلان فلانا يخلفه فهو خالف » (٦) .

ولكننا حتى لو سلمنا بهذا الاستدلال اللغوى ، الذى هو مجرد استنتاج ، نظل محتاجين الى القول بأن نصا جليا لابد أن يكون قد وقع حتى تسلم هذه التسمية . فان الاعتراض الذى ورد ولا يزال واردا على هذا القول يأتى من السؤال ، اذا كان هناك نص فلم لم يذكره ابو بكر فى السقيفة عند الاختلاف ؟ ولم وقع هذا الاختلاف ؟؟

وابن حزم يجيب اجابة غير مقنعة فيقول : « فان قالوا : لو كانت خلافة أبى بكر منصوصا عليها من النبى ما اختلفوا فيها .. فيقال لهم : وهل اختلف الناس الا فى المنصوصات ؟! .. وما اختلف اثنان قط فصاعدا فى شيء من الدين الا فى منصوص بين القرآن والسنة . فمن قائل . ليس عليه العمل . ومن قائل : هذا تلقى بخلاف ظاهرة ، ومن قائل : هذا خصوص ، ومن قائل : هذا منسوخ ، ومن قائل : هذا تأويل ! (٧) .

ونحن نقول ان هذه الاجابة غير مقنعة ـ هذا اذا اعتبرت اجابة اصلا ـ لان ما استشهد به ابن حزم يختلف الحال فيه عن الحال فى القول بالنص على أبى بكر ، فاذا كان الناس لم يختلفوا الا فى المنصوصات ، فلقد كان الامر خلافا حول نص قائم وموجود اختلفوا فى دلالته والمأخوذ منه ، أما فى موضوع أبى بكر ـ وبعد أن رفض ابن حزم الاستدلال بأحاديث الآحاد المروية ، وسمى

---

(٦) المصدر السابق . جـ ٤ ص ١٠٧ .

(٧) (الاحكام فى أصول الاحكام) جـ ٧ ص ٩٨٧ ، ٩٨٨ .

الاحتجاج بها « تدليسا (٨) ـ فانه ليس هناك نص أصلا ، فالقضية منفكة . كما يقولون ، ولسنا بازاء نص حتى نستجيز الخلاف ، فضلا عن ان نقول ، مطمئنين ، بالنص على ابى بكر الصديق ، عليه رضوان الله .

وهكذا .. فلا الاحاديث التى روتها « البكرية » ـ بشهاده ابن حزم ـ تستحق أن يستدل بها . ولا هـذا التخريج اللغوى ، المستند الى استنتاج ، يصلح أن يكون دليلا تطمئن اليه النفس والعقل فى هذا الامر الخطير .

وكما شذت « البكرية »عن صفوف أهل السنة وأصحاب الحديث فقالت بالنص على أبى بكر ، شذت « الراوندية » ـ أو العباسية ـ عن صفوف الشيعة ، فلم تقـل مـع جمهور الشيعة بالنص على على بن أبى طالب ، وانمـا قالت : ان الامامة طريقها الارث ، وأن العم هو الوارث هنا وهو العباس بن عبد المطلب ، ومن بعده ولده ... ومؤرخو المقالات يذكرون ، احيانا ، أن الراوندية تقـول « بالنص » على العباس وولده (٩) وأحيانا يقولون : انهم قالوا بارث العباس للامامة . وارث أولاده لهـا مـن بعده .. (١٠) .

ولقد نشأت « البكرية » عندما ظهرت مطاعن الشيعة فى امامة ابى بكر ، بنشأة نظريتهم فى الوصية ، اى أن نشأتهم كانت بعد عصر صدر الاسلام ،واقدم علم من الاعلام الذين قالوا بهذا القول ، أو نسب اليه القول به هـو

(٨) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ج ٤ ص ١٠٨ .
(٩) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ١٩٦ . و (اصول الدين) للبغدادى ص ٢٧٩ .
(١٠) (شرح الاصول الخمسة) ص ٧٥٤ .

الحسن البصري « ٤٠ ــ ١١٠ هـ » .. كما أن«الراوندية» قد نشأت لتبرر استئثار العباسيين بالخلافة دون العلويين وكان ذلك في النصف الاول من القرن الثاني الهجري .

وفيما عدا هاتين الفرقتين كانت فرق الاسلام يتوزعها القول : اما بالنص على علي بن أبي طالب ، أو بالاختيار للامام دون النص على احد من الصحابة .. وقفت الشيعة مع النص ، وجميع الفرق الاخرى مع الاختيار .

وقبل أن نعرض لتفاصيل هذا الخلاف الجوهري ، وجزئياته ، وادلة الفرقاء المختلفين فيه ، نود أن ننبه الى ان المدخل والاساس والاصل الذى قام ويقوم عليه هذا الخلاف هو ان الشيعة القائلين بالنص قد جردوا مجموع الامة من الثقة التي تؤهلها لحمل أمانة اختيار الامام فوضعوا هذه الامانة في الله وعلى الله ، بينما وثق أصحاب الاختيار في مجموع الامة فحملوه هذه الامانة ، وجعل الشيعة من الله مصدر الامامة فقالوا « بالحق الالهى » ، بينما قال أهل الاختيار « بالحق الطبيعى » ولم يأتمن الشيعة الامة على حفظ الدين ورواية شريعته فقالوا لابد من امام فرد معصوم يكون الحجة والمعلم ومصدر الشرع والدين ، بينما قال أهل الاختيار بعصمة جماعة المسلمين عن أن تجتمع على ضلال .. فالشيعة قد جعلوا السلطة والامامة شأنا من شئون السماء التى لا دخل للبشر فيها ، بينما جعلها أهل الاختيار شأنا من شئون البشر يقررون فيها مايتفق ومصلحتهم فى هذه الدنيا ، التى على صلاحها يترتب صلاح امور الدين .. هذا هو أساس ذلك الخلاف الجذرى بين الشيعة والمعتزلة ــ ومعهم الفرق الاخرى ــ حول النص والاختيار .

اذن فالشيعة تنزع قضية الامامة وأمانتها من الامة وتجعلها شانا من شئون السماء ، لانها لا تثق في صلاح الامة لحمل أمانتها وامانة حفظ الشرع والدين .. فهم يقولون : « ان شريعة نبينا .. لابد لها من حافظ .. ولا يخلو الحافظ لها من ان يكون : جميع الامة ، أو بعضها وليس يجوز أن يكون الحافظ لها الامة ، لان الامة يجوز عليها السهو والنسيان ، وارتكاب الفساد ، والعدول عما علمته .. وان ماجاز على آحادها جائز على جميعها ، من حيث لم يكن اجماعها أكثر من انضمام احادها بعضها على بعض .. واذا كانت العصمة مرتفعة من كل واحد على انفراد ، فيجب أن تكون مرتفعة عن الكل .. فاذن : لابد للشريعة من حافظ معصوم ، يؤمن من جهته التغيير والتبديل والسهو ، ليتمكن المكلفون من المصير الى قوله . وهذا هو الامام الذى نذهب اليه » (١١) .

فالشيعة يجوزون على مجموع الامة ما يجوز على كل فرد من افرادها حالة كونه منفردا ، من سهو وخطأ ونسيان وكذب وردة وكفر وضلال .. الخ .

أما المعتزلة ، ومعهم فرق أهل السنة ، فانهم يفرقون بين حالة الفرد والذى تجوز عليه هذه الامور ، وبين الجماعة المكونة من جملة افراد . ففى الجماعة يخرج الامر عن مجرد « كم » لا يساوى سوى ما تساويه هذه الجماعة اذا توزعت الى أفراد . ويصل أمرها الى « حالة كيفية » جديدة ، بحيث نجد أن ماكان يجوز على كل فرد منفرد من افرادها لا يجوز على الجماعة مجتمعة .. فلا عصمة للفرد ، وانما العصمة للجماعة ، والفرد يجوز

---

(١١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

عليه السهو والخطأ والنسيان والردة والكذب والكفر والضلال ، وكل ذلك مستحيل على مجموع الامة .. وهم يدخلون فى الاعتبار أن الاجتماع يضيف جديدا الى الامر يأتي ثمرة لاجتماع الراى والمشاورة ، وذلك هو مايفرق ، ذلك التفريق الاساسي ، بين راى الجماعة مجتمعة ، وبين راى آحادها اذا كانت متفرقة غير مجتمعة . وايضا فهم يشيرون الى ان الاجتماع يوجد القدوة والتجربة غير المباشرة ، وهما من عوامل تعديل الراى وانضاجه ، كما يحدث هذا التعديل والنضج عند الاستفادة من التجربة الذاتية للفرد .. « ذلك أنه اذا صح فى فعل القادر الواحد أن يكون صوابا اذا تقدمه فعل آخر ، ولو لم يتقدم لكان خطأ .. فما الذى يمنع من كون فعله صوابا اذا تقدم مثله من غيره ، ومتى لم يتقدم ذلك لم يجب أن يكون صوابا .. وهذه طريقة أهل الحرمة والراى من ذوى العقول ، لانهم انما يجتمعون فى النوازل والحوادث على المشورة ، لكي يحترزوا عن الخطأ ، الذى لولا اجتماعهم لكان الى ان يقع أجوز .. » (١٢) .

فالجمع هنا ليس حصيلة ضم « أصفار » الى بعضها ، وانما هو « حالة كيفية » جديدة ، تختلف عن حالات افراد المجموع لو نظروا فى هذا الامر متفرقين .

ويزيد المعتزلة هذا الامر ايضاحا ، فيقول القاضي عبد الجبار : « انه لا يمتنع أن يكون المعلوم من حال عشرة بأعيانهم أن كل واحد منهم لا يختار مع صاحبه الا الصواب وان كان قد يختار الخطأ اذا انفرد ، كما لا يمتنع فيهم أن

---

(١٢) (المغنى) جـ ١٧ ص ١٥٩ .

يصيبوا فى الرأى اذا اشتركوا فيه ، وان جاز أن يخطىء كل واحد منهم فيما يستبد به ، واذا جاز ذلك لم يمتنع أن يرد النص بأن اجماعهم حق ، ويكون اجماعهم مخالفا لقول كل واحد منهم . واذا صح ذلك فى عشرة بأعيانهم صح مثله فى مائة . وفى اكثر من ذلك . واذا صح فى معينين صح فيمن يختص بصفة ، لان الطريقة واحدة .. فما الذى يمنع من مثله فى اجماع المصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ » (١٣) ثم يخلص الى القول : فى الامة « انها حجة . وان لم تظهر المعجزات عليها ، ولا بانت بعلم يوجب ذلك فيها » (١٤) .

واهل السنة يقفون مع المعتزلة فى ذلك ، فيقول الشهرستانى : « .. واعلم أن الاجماع انما كان حجة لان المجمعين لمجموعهم معصومون عن الخطأ والكفر والضلالة ، وان كان ذلك جائزا فى آحادهم .. ويجوز أن يثبت حكم لمجموع ، من حيث هو جملة مجموعة ، ولا يثبت لواحد منهم .. كالسكر الحاصل من الاقداح والشبع الحاصل من اللقم ، وغير ذلك (١٥) » فالسكر هنا يحصل من مجموع الاقداح ، ومثله الشبع الحادث من مجموع اللقم والسكر والشبع « حالة كيفية » جديدة نشأت عن « التراكم الكمى » ولم تحدث ، ولا تحدث عند احاد الاقداح أو اللقم .

والجرجانى يدعم هذا الرأى ، ويضيف الامثلة الجديدة

---

(١٣) المصدر السابق . جـ ١٧ ص ١٥٧ .

(١٤) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٥٨ . وانظر كذلك جـ ٢٠ ق ١ ص ٧٨ ، ٧٩ و جـ ١٧ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٢٨ .

(١٥) (نهاية الاقدام فى علم الكلام) ص ٤٩٢ .

فيقول فى حجاجه للشيعة : « فان قيل : خبر كل واحد لا يفيد الا الظن ، وضم الظن الى الظن لا يوجد اليقين . وأيضا جواز كذب كل واحد يوجب جواز كذب المجموع . لانه نفس الآحاد .. قلنا : ربما يكون مع الاجتماع مالا يكون مع الانفراد ، كقوة الحبل المؤلف من الشعرات !»(١٦).

فهنا يتكشف المعتزله وأهل السنة ، قيمه المجموع والامة والجماعة ، فيضعون ثقتهم فيها ، ويرون أن اختيار سلطة المجتمع العليا هى شأن من شئونها . بينما ينكر الشيعة تلك القيمة على الامة ، فيعلقون امانة اختيار الامام على عاتق السماء ، ويضعون كل الثقة فى فرد واحد يقولون ، بعصمته ، ولا يوجدون تفسيرا انسانيا لعصمته هذه ، بل ينسبونها الى أمور غيبية لا علاقة لها بالكسب البشرى والقدرات الانسانية .

والشيعة بعد ان سلبوا الامة حقها فى اختيار حاكمها ، أرادوا أن يضفوا على البيت الذى حصروا فيه الامامة ، بيت الرسول ونسله من فاطمة ، من القداسة والخصوصية مالا يتفق معهم فيه غيرهم من فرق الاسلام ، فكل المسلمين يحبون آل البيت ، وليس بين أهل السنة من يكن لهم البغض ، باستثناء الكراهية السياسية التى كانت لدى الامويين ولكن مراد الشيعة من وراء تفضيل آل البيت وتميزهم هو أمر فوق الحب والاجلال ، هو نوع من رفعهم الى مرتبة تعلو مرتبة سائر البشر وايجاد أسباب تصلهم بالسماء وترتفع بهم عن الارض وأهلها . انه نوع من انواع الطبقية والعرقية والحديث عن الدم الازرق — كما عرفته أمم وشعوب وحضارات أخرى —

(١٦) (شرح العقائد النفسية) ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

ولكن فى ثياب دينية صبغوها بصبغة الاسلام واجتهدوا كى يفسروا بعض آيات القرآن لتشهد لها .

فآيات القرآن التى تتحدث عن المؤمنين ، وعن أهل الذكر ، وعن قوم محمد ، وآله ، وعن المهتدين ، والمتقين ، الخ .. الخ .. يراها المعتزلة وغيرهم من الفرق غير الشيعية مرادا بها أمة الاسلام ، بينما يراها الشيعة خاصة بأفراد قلة هم على وفاطمة والحسن والحسين ، ونسلهم من بعدهم .. فهم فقط الذين عناهم القرآن وسماهم ووصفهم بهذه الاسماء والصفات .

فعندما يقول الله سبحانه : « الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (١٧) ، ينقل الشيعة هذه الآية من مقامها العام الى المقام الخاص فيقولون : ان المراد بالذين آمنوا هم « آل محمد » !

وعندما يقول القرآن : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » . « فالناس » ، عند الشيعة ، هم آل محمد ، الذين آتاهم الله الفضل وحدهم ، والفضل هنا هو الامامة ! ..

وعندما يقول القرآن « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » فالخطاب ليس لامة الاسلام ، وانما هو . برأى الشيعة ، لآل محمد خاصة ، يطلب من الامام الاول ان يؤدى الامانة – التى هى الكتب والعلم والسلاح – الى الامام الذى يليه ! ..

وعندما يقول القرآن : « انما وليكم الله ورسوله والذين

---

(١٧) النساء ٥٢ .

آمنوا ، الذين يقيمون الصـــــلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (١٨) فان الدين آمنوا هم ، برأى الشيعة ٠ آل محمد فقط ! ..

وعندما يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (١٩) . فان الشـــيعة ترى أن الصادقين المشار اليهم هم آل محمد فحسب !..

وعندما يقول سبحانه : « وقل ، اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٢٠) ، يرى الشيعة أن المؤمنين الذين سيرون الاعمال . مع الله ورسوله ، هم آل الرسول فقط ! .

وعندما يتحدث القرآن عن الامة الوسط الشهيدة على الناس فى قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتـكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢١) يقول أئمة الشيعة « نحن الامة الوسط ، ونحن شهداء الله على خلقه ، وحججه فى ارضه » ! .

وعندما يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنـــوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلـــكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » (٢٢) تقول الشيعة : ان « المجتبون » بملة ابراهيم ، والذين سماهم الله بالمسلمين من قبل هم آل محمد فقط !.

وعندما يقول سبحانه : « بل هو آيات بينات فى صدور

(١٨) المائدة : ٥٥ ٠
(١٩) التوبة : ١١٩ ٠
(٢٠) التوبة : ١٠٥ ٠
(٢١) البقرة : ١٤٣ ٠
(٢٢) الحج : ٧٧ ، ٧٨ ٠

الذين أوتوا العلم (٢٣) يقول الشيعة : ان آل محمد هم وحدهم الذين أوتوا العلم !

وعندما يقول القرآن : « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (٢٤) . يرى الشيعة ان آل محمد هم وحدهم الذين عندهم علم الكتاب !..

وعندما يقول الله لرسوله : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (٢٥) ، يقول الشيعة : ان أهل الذكر والمسئولين هنا هم آل محمد فقط !

وعندما يقول الله لرسوله : « انما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » (٢٦) فان الهادى هو ، عند الشيعة ، امامهم دون أى أحد من الناس سواه !

وعندما يقول الله سبحانه : « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم » (٢٧) يقصر الشيعة الرسوخ فى العلم على آل محمد ويخصصوه بهم ويخصونهم به » (٢٨)

ذلك ان الشيعة قد ضيقوا نطاق الامة والجماعة التى خاطبها الله فى القرآن ، وبعث اليها الرسول ، وتحدث عنها الكتاب المنزل عليه ، فبدلا من أن تكون هذه الامة هى امة الاسلام التى شهدت ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، يرى الشيعة أن هذه الامة هى آل بيت محمد وعلى وجه التحديد ، على ، وفاطمة ، والحسن والحسين .. فهم آل محمد وأهله ، وكذلك هم الامة التى خاطبها

---

(٢٣) العنكبوت : ٤٩ .
(٢٤) الرعد : ٤٣ .
(٢٥) الزخرف : ٤٤ .
(٢٦) الرعد : ٧ .
(٢٧) آل عمران ٧ .
(٢٨) (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ٢٠ ـ ٢٣ .

الله . وارسل لها رسوله .. أما من عداهم فان علاقتهم بهذه الامة هى علاقة « التولى » ، فأمة آل البيت بمثابة السادة ، وسائر من عداهم بمثابة « الموالى » الذين تولوا هؤلاء السادة ، فهم ليسوا عبيدا أرقاء لهم ، ولكنهم « موالى » لهم ، قد تولوهم كما يتولى « المولى » سيده الشريف !

أما نصوص الشيعة التى تصرح بهذه المبادىء الاساسية عندهم فانها كثيرة ، منها مثلا مايروونه عن الامام جعفر ابن محمد ، الصادق ، جوابا لمن سأله :

ـ « أخبرنى عن أمة محمد ، أهم أهل بيت محمد ؟» .

ـ « نعم .. ليس كل المسلمين ممن لم يكن من اهل بيت محمد . من بنى هاشم ، أمة محمد . والناس كافة ، أهل مشارق الارض ومغاربها من عربها وعجمها ، وأنسها وجنها ، من آمن منهم بالله ورسوله وصدقه واتبعه بالتولى للامة التى بعث فيها ، فهو من أمة محمد بالتولى لتلك الامة .. » (٢٩) .

وعندما يفسر جعفر الصادق آيتى : « وكذلك جعلناهم أمة وسطا » (٣٠) و « كنتم خير أمة أخرجت للناس » (٣١)، يقول « لن يعنى الله الذين تظنون من همج هذا الخلق ، ولكن عنى الله الامة التى بعث فيها محمد : على وفاطمة والحسن والحسين .. » (٣٢) .

وهم يصورون عناية الله التى خص بها خلق أئمتهم

---

(٢٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٣ .

(٣٠) البقرة : ١٤٣ .

(٣١) آل عمران : ١١٠ .

(٣٢) (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ٣٥ .

عندما يفسرون قوله سبحانه : « الله نور السماوات والارض .. » (٣٣) الآية : فيقولون « مثل نوره كمشكاة » : فاطمة « فيها مصباح » : الحسن « المصباح فى زجاجة » : الحسين ، « الزجاجة كأنها كوكب درى » : فاطمة كوكب درى بين نساء أهل الدنيا ، « توقد من شجرة مباركة » : ابراهيم عليه السلام « زيتونة لا شرقية ولا غربية » : لا يهودية ولا نصرانية ، « يكاد زيتها يضيء » يكاد العلم ينفجر بها ، « ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » . امام منها بعد امام ، « يهدى الله لنوره من يشاء » : يهدى الله للائمة من يشاء ، « ويضرب الله الامثال للناس » ... .

كما يفسرون الظلمات التى عناها الله فى قوله : « أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج .. » (٣٤) الآية ... فالظلمات : ابو بكر وعمر ، والموج الذى يغشي : عثمان بن عفان ، و « بعضها فوق بعض » .. معاوية وفتن بنى امية .. « ومن لم يجعل الله له نورا » : اماما من ولد فاطمة « فما له من نور » : امام يوم القيامة ؟! » (٣٥) .

وهذه الآراء والتفسيرات ، التى تقصر عموم آيات القرآن فتحولها عن أن يكون المراد بها أمة الاسلام الى تخصيصها بأهل بيت الرسول ، بمعنى : على وفاطمة والحسن والحسين . هذه الآراء والتفسيرات كثيرة شائعة فى مصادر الشيعة جميعها (٣٦) .. ومما يلفت النظر ان

(٣٣) النور : ٣٥ .

(٣٤) النور : ٤٠ .

(٣٥) (الكافى) جـ ١ ص ١٩٥ .

(٣٦) انظر (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٩ ـ ٣٢ ، ٤٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٥ . و (الكافى) جـ ١ ص ١٨٧ ـ ١٩٠ ـ ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ـ ٢٢٩ ـ ٢٧٥ ـ ٣٩٩ .

روايات الشيعة وأسانيدهم في هذه الآراء تعود جميعها الى أبى عبد الله جعفر بن محمد ، الصادق ، أو ابيه أبى جعفر محمد بن على ، مما يؤكد ان هذا الفكر قد طرا على الفكر الاسلامى فقط منذ عهد جعفر الصادق أو والده على أكثر التقديرات التى تؤصله وتبحث له عن نسب قديم فى فكر المسلمين .

ونحن نقول ـ كما سبق أن اشرنا ـ ان هذا الفكر الذى يتحدث عن محمد وآل محمد ، بهذا المعنى الضيق ، وذلك التقديس وتلك الخصوصية ، قد طرا فى عهد جعفر الصادق اساسا ، اننا نرى فيه غلوا جاء كرد فعل لاضطهاد آل البيت الذى تصاعد به الحكام الامويون ، وخاصة بعد حادثة استشهاد الحسين فى كربلاء ، أيضا لاننا لا نجد هذا الفكر فى كلام على بن ابى طالب ، وهو الكلام الذى جمعه الشيعة وحقق جمعه الشريف الرضى « ٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ ـ ٩٧٠ ـ ١٠١٥ م » فى « نهج البلاغة » .. فنهج البلاغة هو حجة على الشيعة لانهم هم الذين جمعوه وقالوا انه كلام على ، وان لم يلزم خصومهم اذا تحفظوا على شيء منه .

ذلك ان أقصى مانجده عند على فى « نهج البلاغة » عن آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنهم اهل علم وبر وتقوى ، وأنهم أحق بولاية أمر المسلمين . وان قريشا قد استاثرت بهذا الامر من دونهم . فأبعدوهم عنه حتى ولى على الخلافة بعد عثمان .

فهو يستنكر موقف الذين « زعموا انهم الراسخون فى العلم دوننا » دون أن يقول أن الراسخين فى العلم آل

(٣٧) (نهج البلاغة) ص ١٦٤ .

البيت وحدهم (٣٧) وهو يتحدث عن فضائل آل محمد فيقول :

إنهم « موضع سره ولجأ أمره (٣٨) . وعيبه علمه (٣٩)، وموئل حكمه (٤٠) ، وكهوف كتبه ، وجبال دينه ، بهم اقام انحناء ظهره ، واذهب ارتعاد فرائصه .. لا يقاس بآل محمد من هذه الامة احد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا . هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، اليهم يفيء الغالى ، وبهم يلحق التالى ، لهم خصائص حق الولاية ، فيهم الوصية والوراثة . الان اذ رجع الحق الى اهله ، ونقل الى منتقله » (٤١) .

ففي هذا النص الذى هو أكثر نصوص « نهج البلاغة » رفعا لشأن آل محمد ، يتحدث على عن أن فيهم « الوصية والوراثة » . ولكنه يقيدها بقوله : « الآن ، اذ رجع الحق الى أهله » .. فالحق والخلافة فى آل محمد عندما ولى على الخلافة بعد مقتل عثمان ، وليست فيهم أبدا كما هو قول القائلين بالوصية والتعيين .. وفى آل محمد العلم والحكمة لقربهم من رسول الله وتلقيهم عنه ، ولكن ذلك ليس مقصورا عليهم ولا خاصا بهم من دون الناس .

بل ان لعلى رأيا فيمن هم آل محمد يختلف اختلافا تاما مع رأى الشيعة الذى قدمنا الاشارة اليه .. قال

---

(٣٨) أى ملاذ أمره .

(٣٩) أى وعاء علمه ـ وعيبة : تضبط بفتح العين وسكون الياء وفتح الباء .

(٤٠) الحكم هو الشرع .

(٤١) (نهج البلاغة) ص ٣٣ .

الرجل من كان أولى به ، ووليه هو من أطاعه . بصرف النظر عن النسب ولحمته . وفي تفسير قول الله سبحانه: « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا (٤٢) يقول الامام علي : « ان أولى الناس بالانبياء : أعلمهم بما جاءوا به .. ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته ! . (٤٣) .

ومع موقف علي هذا ، الذي يوسع نطاق أولياء محمد وامته وأهله ، وقف المعتزلة وأهل السنة ، ضد الشيعة الذين ضيقوا نطاق الامة حتى قصروها على أربعة أفراد ومن تناسل من صلبهم .

تعقبت المعتزلة وأهل السنة حجج الشيعة وتفسيراتها التي حاولت بها أن تجعل من أهل البيت فئة مميزة الهية جعلت الامامة فيها خاصة من دون الناس .. فهم يقولون ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : « اني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي ، أهل بيتي ، لن يفترقا حتى نرد على الحوض .. » ، والمعتزلة ينكرون أن نكون هذا الحديث شاهدا على أن الامامة خاصة ، والا كان قول الرسول : « اقتدوا بالذين من بعدي : أبي بكر وعمر » دالا على أن الامامة قد نص عليها في أبي بكر وعمر ، وكان قوله : « ان الحق مطلق على لسان عمر وقلبه » يدل على أن عمر قد نص الرسول على امامته . وكان قوله : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » له دلالة مماثلة في هذا المقام (٤٤) .

(٤٢) آل عمران : ٦٨ .
(٤٣) (نهج البلاغة) ص ٣٧٧ .
(٤٤) (المغني) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٩١ .

والآية التى دار الخلاف من حولها ، وهى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٤٥) ، رأى الشيعة أنها تدل على العصمة لآل البيت ، ورووا الاحاديث التى تقول أن الرسول قد جمع عليا وفاطمة والحسن والحسين ، فغطاهم بكساء خيبرى وقرأ هذه الآية ، وقال « اللهم هؤلاء أهلى ، اللهم أهلى احق ، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » وأن زوجه ام سلمة طلبت منه أن يدخلها فى أهله هؤلاء . فرفض . وقال لها : « أنت الى خير ! (٤٦) .

والمعتزلة يقولون : انه حتى لو سلمنا بأن المراد بأهل البيت هم : على ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، فان اذهاب الرجس عنهم والتطهير لهم هو أمر مختلف عن قصر الامارة والولاية والامامة عليهم ، ثم ان ارادة التطهير هى غير ثبوت التطهير ، والارادة هذه عامة ، لان الله يريد تطهير كل عباده ، و « متى لم يقل ذلك أدى الى أنه يريد خلاف التطهير بالمؤمنين .. وأكثر ما تدل الآية عليه أن لاهل البيت مزية فى باب الالطاف وما يجرى مجراها ، فلذلك خصهم بهذا الذكر ، ولا مدخل للامامة فيه .. ان الكلام يتضمن اثبات حال لاهل البيت ولا ينفى ذلك عن غيرهم . » (٤٧) .

وهذا اذا سلمنا أن المراد بأهل البيت هم : على ،

---

(٤٥) الاحزاب : ٣٣ .

(٤٦) المقريزى (معرفة مايجب لآل بيت النبى من الحق على من عاداهم) ص ٢٣ ، ٢٤ ، تحقيق محمد أحمد عاشور . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

(٤٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٩٣ .

وفاطمة ، والحسن والحسين .. ولكن هذا الامر غير مسلم ، بل هو مدفوع بالادلة القوية والقاطعة .

فهناك من يروى ان جواب الرسول على أم سلمة عندما سألته : يارسول الله ادخلني معهم .. ان قال لها : « انت من اهلى » .. وليس : « أنت الى خير .. » (٤٨) وذلك يعنى أن المراد ليس هؤلاء الاربعة فقط .

ثم هناك من يرى ان المراد بأهل البيت ازواج النبى ، وليس واحدا من هؤلاء الاربعة . لان الآية جاءت فى سياق الحديث عن أزواج النبى .. فهذه الآية رقمها فى سورة الاحزاب ٣٣ ، والحديث عن زوجات الرسول يبدأ من الآية الثامنة والعشرين : « يا ايها النبى قل لازواجك » ثم يستمر بعدها فى الآية الرابعة والثلاثين عن الازواج كذلك، وهى : « واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة .. » الآية .. فالحديث خاص بأزواج النبى اذن ، والسياق ينفى ان يكون على أو فاطمة أو الحسن والحسين هم المقصودون بذلك .

وهذا التفسير ، الذى يتسق مع السياق ، مروى عن عمر بن الخطاب . وعن ابن عباس ، وهو رأى القرطبى .

ولقد حاول الشيعة الرد بأن هذه الآية معترضة فى هذا السياق ، مثل قوله تعالى : « وكذلك يفعلون » المعترضة فى الآيات : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها . وجعلوا أعزة أهلها اذلة . وكذلك يفعلون . وانى مرسلة اليهم بهدية » (٤٩) ومثل آية « وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

---

(٤٨) (معرفة مايجب لآل البيت) ص ٣٦ .
(٤٩) النمل : ٣٤ ــ ٣٥ .

المعترضة فى الآيات : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن » (٥٠) .

ولكن ... علاوة على أن فى قول الشيعة هذا وتخريجهم تأويلا يقدم عليه الرأى الذى لا تأويل فيه . فمن الذى قال أو هو مضطر الى القول بأن « وكــــذلك يفعلون » معترضة . لم تقلها بلقيس ؟؟ أو أن : « وانه لقســـم لو تعلمون عظيم » معترضة لم يقلها الذى يتحدث ويقســـم بمواقع النجوم ؟!

ثم .. ان قول الرسول عن سلمان الفارسي : « سلمان منا أهل البيت » ينفى أن يكون تعبير « أهل البيت » ذا مدلول عرقى ونسبى . ويشير الى أن العلاقة الفــــكرية القائمة على الاسلام قد تكون هى المقصودة ، وان كـــان الشيعة يعترضون بأن سلمان كان عتيق الرسول ، لانه دفع له المال الذى كاتب به على حريته ، ومولى القـــوم منهم .. ولكن حتى مع قبول هذا الاعتراض فان تعبـــير « أهل البيت » يكون قد خرج عن الاقتصار على : على وفاطمة والحسن والحسين ، لا الى غيرهم من آل الرسول فقط بل والى مواليه .

وليس هذا التخريج المناقض لمذهب الشيعة بالغريب عن لغة القرآن فالعلاقة الفكرية قد عبر عنها القرآن بأن ادخل أصحابها تحت مصطلح « الاهل » . عندما تحـــدث عن الذين اتبعوا دين ابراهيم فوصفهم بأنهم أهل ابراهيم . كذلك من لم يتبع نوحا من ولده فهو ليس من أهله : ففى حالة ابراهيم عليه السلام يقول : « فمـــن تبعنى فانه

(٥٠) الواقعة : ٧٥ ـ ٧٧ .

مني » (٥١) ، وهو أب لكل من تبع دينـــه « ملة أبيـــكم ابراهيم » (٥٢) . وعندما يقول نوح عن ابنه الكافـــر : « ان ابني من أهلي » يقول الله له : « انه ليس من أهلك . انه عمل غير صالح » (٥٣) فالاهل هنا يراد بهم الاتبـــاع الفكريون ، وليس الابناء بالنسب والعرق ، ولهذا يشهد ويرشح قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل نسب ينقطع الا نسبي » . واذ الاولى أن يراد بالنسب هنا الدين والملة والتعاليم ، لانها هى النسب الذى يقطع بدوامه ؛ ولان الافكار الاخرى هى التى يقطع بانقطاعها .

وآية اخرى يتعلق بها الشيعة في محاولة تمييز أهـل البيت ــ كما يتصورونهم ــ وهي قول الله سبحانه : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » (٥٤) .. فهم يرون أن « القربى » هم أقرباء النبى وأهل بيته : على ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين .. وأن مودتهـــم هى التسليم لهم بالامامة دون غيرهم .

أما غير الشيعة ، معتزلة وأهل سنة ، فيرون أن ذلك غير مراد بالآية ، وأن سبب نزولها ينفي أن يكون ذلك هو المراد . . فالآية مكية . وهي قد نزلت عندما آذى المشركون من قريش رسول الله . فذكرهم بما له من وشائج القربى فى كل بطون قريش فسألهم : اذا لم يكن الايمان هـــو الداعي لمودتى فلتكن قرابتى فيكم .. « ياقوم . ان أبيتم ان تتابعونى ، فاحفظوا قرابتى فيكم ، لا يكن غيركم من العرب أولى أن يحفظني وينصرنى منكم .. » .

---

(٥١) ابراهيم :٣٦ .
(٥٢) الحج : ٧٨ .
(٥٣) هـود : ٤٦ .
(٥٤) الشورى : ٢٣ .

وهناك تفسير آخر لمعنى « القربى » هذه ، جاءنا من قدامى الذين قالوا بالعدل والتوحيد من مثل : الحسن البصرى ، وابن أبى نجيح ، وقتادة بن دعامة السدوسى ؛ ومحمد بن اسحاق ، وهو يقول أن المراد بالآية : « قل لا أسألكم على ماجئتكم به من البينات والهدى اجرا الا أن تودوا الله ، وتتقربوا اليه بطاعته .. القربى الى الله .. والتودد اليه بالعمل الصالح .. اى تتوددوا الى الله تعالى بما يقربكم اليه من عمل بطاعة » .. ولاشك أن هذا التفسير أولى ، اذ كيف نتصور رسول الله يطلب اجرا على ماجاء به من البينات ، ويطلب أن يكون هذا الاجر هو مودة على وفاطمة والحسن والحسين بتسليمهم حكم الدولة التى أقامها الاسلام ؟! .

أليس الاليق برسول الله أن يكون بلاغه لا فى مقابل اجر ، وأن يكون الطلب هو أن يهتدى الناس ، وأن الاجر الذى يسعده ويسعى له سيعود هو الآخر على العاملين المؤمنين ؟! .

أن هذا بالقطع هو الاليق بمكان الرسول ومقامه عليه الصلاة والسلام (٥٥) .

وهناك من أهل السنة من استدل على فساد تفسير الشيعة لآية أهل البيت بآيات أخرى فقال : انه كما أن « آل فرعون » هم أتباع دينه ، فكذلك « آل محمد » ، « فآل النبى : من هو على دينه وملته وقرابته ، سواء كانت قرابة بعيدة أو قريبة ، خلافا للرافضة فى قولهم :

---

(٥٥) أنظر فى تفصيل الخلاف حول هذه الايات (معرفة مايجب لآل البيت) ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ـ ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦٨ ـ ٧٠ ، ٧٢ ـ ٧٥ ـ ٧٧ .

آل النبي : على وفاطمة والحسن والحسين فحسب ...
والدلالة عليه : ان هذا ظاهر اللغة ، ولهذا قال الله تعالى « ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (٥٦) ، يعني أهل دينه ومتابعيه . وقال عز وجل : « واغرقنا آل فرعون » (٥٧)، ولم يذكر اهل السيرة انه كان لفرعون ابن ولا بنت ولا اب ولا عم ولا جد ولا عصبة ، فعلم بذلك أنه أراد أهل دينه (٥٨) .

ذلك هو موقف الفريقين :

الشيعة يرون ان امة محمد واهله وآله هم عصبته النسبية ، والذين ينحدرون من فاطمة وعلى على وجه الخصوص .

والمعتزلة واهل السنة يتسعون بهذا الامر ليشمل امة الاسلام .

فالاولون يضيقون مفهوم الامة ، بعد ان سلبوها الحق في اختيار الحاكم وتنصيب الامام .. والآخرون يوسعون مفهوم الامة ونطاقها ، ويمنحونها حقها فى أن تختار ، بواسطة أهل الحل والعقد ، حاكمها وامامها .

وكما يرفض المعتزلة « النص والوصية والتعيين » طريقا للامامة ، يرفضون كذلك أن يكون طريقها هو « الميراث » ، لان مسند الميراث هو القرابة ، و « ليس المعتبر بالقرابة ، ولو كان هو المعتبر لما تمت امامة ابى بكر وعمر ، ولوجب أن يكون الحق للعباس وعلى عليهما

---

(٥٦) المؤمن : ٤٦ .

(٥٧) البقرة : ٥٠ .

(٥٨) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٣٠ .

السلام ، ولوجب .. أن ـ يكون ـ أولاد أبي بكر وعمر اولى بالامامة ... (٥٩) .

والراوندية تقول انها بالميراث ،وأن العباس هو الوارث لها ، لانه عم الرسول ـ ومنهم من قال انها له بالنص (٦٠) ومن الامامية من قال انها بالميراث ، وأن عليا هو الوارث لها لانه كان الاقرب للرسول ، « والاقرب للرئيس يقوم مقامه ، ويرث منه الامامة ، كما يرث جميع ما يخلفه ويتركه من ممتلكاته ، وهذه من السنن الجارية في رؤساء العدل والجور .. » (٦١) .

ولقد دار الجدل في الفكر الاسلامى حول الوراثة بين العباسيين والعلويين ، فشاعر العباسيين مروان بن أبى حفصة يقول :

انى يكون ـ وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الاعمام ؟ !

كما يقول الشاعر العباسى ابان بن عبد الحميد اللاحقى، كذلك :

أعم نبى الله أقرب زلفة
اليه ام ابن العم فى رتبة النسب ؟!
وايهما اولى به وبعهده
ومن ذا له حق التراث بما وجب ؟!
فان كان عباس أحق بتكلم
وكان على بعد ذاك على سبب

---

(٥٩) (المغنى) ج ٢٠ ق ٢ ص ٧٠ .

(٦٠) (اصول الدين) للبغدادى . ص ٢٨٤ ، ٢٨٥

(٦١) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٢٦٠ (والنص للموسوى الكاظمى) .

فأبنـاء عباس هم يحجبـونه
كما العم لابن العم فى الارث قد حجب ! (٦٢) .

ومن الزيدية مـــن يرى أن النص قد كان على على بالوصف ، وأنها من بعده بالميراث فيمن تناسل من ولده ، وهى لمن خرج منهم شاهرا سيفه يدعو الى سبيل ربه ، وكان عالما صالحا . ومنهم من رأى النص على على والحسن والحسين ، ثم التوارث فيمن يأتى بعدهم . على الشروط المشار اليها .

ومن الطريف أن بنى أمية قد اتفقوا مع الشيعـة على أنها بالميراث ، ولكن بالميراث فى بنى أمية لا فى بنى على !!. اما المعتزلة ومعهم ، أهل السنة والخوارج ، فقد رفضوا مبدأ الميراث فى الامامة والامارة ، ورووا فى كتبهم تلك الاعتراضات التى جوبه بها معاوية عندما أراد تقرير حق الميراث فيها لابنه يزيد ، وهى الاعتراضات التى تدافع عن فلسفة دولة الخلافة ، فلسفة الشورى ، ضـــد التأثيرات الغريبة والمناقضة لروحها ، تلك التأثيرات التى كانت معروفة للعرب مصادرها فى نظم كسرى وقيصر .

فعندما يخطب والى معاوية على المدينة مروان بن الحكم طالبا البيعة ليزيد ، فى آخر حياة معاوية ، مرغبا النـاس بالمال ، ومرهبا لهم بالسيف ، يعترضه عبد الرحمن بن أبى بكر فيقول : « يابنى أمية . ان هذا الامر كان لرسول الله ، وقد كان فى أهله من لو جعله فيه لكان له اهـلا .

(٦٢) د. طه الحاجرى (الجاحظ) : حياته وآثاره) ص ١٩٤ طبعة دار المعارف ، بمصر سنة ١٩٦٢ م .

فلم يفعل . فأعدتموها . يابنى أمية . أعجمية ، كلما هلك هرقل قام هرقل ! » (٦٣) .

وعندما يطلب معاوية من ابن الزبير البيعة ليزيد بولاية العهد ، يرفض ، ويقول له : « ارض منا بسيرة رسول الله ، فانه ترك الناس فاختاروا لانفسهم بعده من راوه اهلا لها ، او بسيرة ابى بكر ، فتنص على رجل مرضى عند الامة ، ليس من أهلك ، أو كما فعل عمر ، فتجعلها شورى فى قوم مرضيين معروفين ، ليس فيهم أحد من اهلك . فلك ولنا بهم أسوة » .

وتعترض عائشة على سعى معاوية توريث يزيد الامارة من بعده ، وتقول له : « قد كان لمن تقدمك بنون ما ابنك مثلهم ، فما رأوا فى بنيهم ما رأيت فى ابنك ! » . (٦٤)

ولكن معاوية يرفض ، ويغضب ، ويتهدد القوم ويتوعدهم ، قائلا : « لستم فى زمن ابى بكر وعمر . انما هم بنو امية ، من عصاهم أوجلوه بالسيف ! » .

وفى النهاية توجز عائشة امر هذا التحول فى معنى الامارة ومضمونها ، فتقول لمعاوية : « انما هو ملك بباطل تجعلونه بنى أمية فيمن تهوونه ! » (٦٥) .

يقف المعتزلة ، ومعهم أهل السنة ، مع منطق الشورى هذا ، ويرفضون منطق الملك والميراث .. ويشيرون الى ان فلسفة بنى امية فى الميراث قد نشأت قبل توريث معاوية ليزيد منصب الخلافة ، فلقد كان معاوية يرى أن حقه فى الامارة يستند الى أنه ولى الخليفة الذى قتل

(٦٣) (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٨٥ .
(٦٤) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٧٥ .
(٦٥) (المصدر السابق) جـ ٢ ص ٥٧٦ .

مظلوما ، عثمان بن عفان .. والقاضي عبد الجبار يروى عن ابن عباس مايكشف هذه الحقيقة الهامة ، فيقول : « روى عن ابن عباس أنه التقى بمعاوية ، فأعرض عنه ، فقال له معاوية :

ـ تعرض عنى لانى قاتلت ابن عمك ، وقد كنت أحق بالامر منه ؟!

ـ فقال له ابن عباس : لانك كنت كافرا وكان مؤمنا ؟!

ـ قال معاوية : لانى ابن عم عثمان ، ولان عثمان قتل مظلوما ، فلذلك كنت أولى .

ـ فقال له ابن عباس : فهذا أولى منك بها ـ « يشير الى ابن عمر » ـ لانه ابن عمر ، ولان أباه قتل مظلوما .

ـ فقال له معاوية : هذا قتل أباه كافر ، وعثمان قتله المسلمون .

ـ فقال له ابن عباس : ذلك ، والله أدحض لحجتك ! » (٦٦) .

فالذين قالوا بالميراث فى الامارة ، من فرق الإسلام ، نفر من الراوندية ، ونفر من الزيدية ، والشيعة الامامية ، كى يبرروا قولهم بانتقالها فى أكبر أبناء الامام الذى يوصى له الامام ، وليبرروا رفضهم انتقالها عن غير هذا الترتيب ، وهم قد جعلوا انتقالها من الاخ لاخيه . كما حدث من الحسن الى الحسين ، استثناء لا يتكرر ، ورووا عن أبى عبد الله محمد بن على قوله : « لا تعود الامامة فى أخوين بعد الحسن والحسين أبدا ، وانما جرت من على ـ « زين العابدين » ـ بن الحسين كما قال الله « وأولوا الارحام

(٦٦) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٧٠ .

بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (٦٧) . فلا تكون بعد علي بن الحسين الا فى الاعقاب وأعقاب الاعقاب ... » (٦٨) .

ولعل فى النظر الى ماحدث بين معاوية والحسن بن علي ما يؤكد موقف المعتزلة ، ومعهم أهل السنة ، من أن الشورى هى فلسفة الامارة كما أقرها المسلمون ، وليس الميراث ، كما يقول الشيعة والامويون .. فالعهد الذى تصالح على أساسه الحسن ومعاوية قد نص فيه الحسن على أن تعود الامارة لشورى المسلمين بعد انقضاء خلافته لمعاوية .. كان معاوية قد عرض على الحسن أن يكون له الامر من بعده ، وكتب الحسن فى العهد : « ... وعلى انه ليس لمعاوية أن يعهد لاحد من بعده ، – « أى من بعد الحسن » – وأن يكون الامر شورى ... » (٦٩) .

فوراثة الامامة نشأت أول ما نشأت ، فى الفكر والواقع الاسلامى أواخر عهد معاوية ، ثم نشأت فى الفكر الشيعى كرد فعل لتطبيق الامويين لهذا التوارث ، فهى من الافكار الدخيلة على فكر المسلمين الذى امتاز فى بواكيره بفلسفة الشورى فى دولة الخلفاء الراشدين .

***

وبعد هذا التبيان لانقسام فرق الاسلام الى قسمين ، فى نظرتهم الى معنى الامة ومضمونها ، توسعة وتضييقا ، وكذلك فى الموقف من « الوراثة » كطريق لامارة المؤمنين .

---

(٦٧) الاحزاب : ٧ .

(٦٨) (الكافى) ج ١ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٦٩) (الفتنة الكبرى) ج ٢ ص ١٨٣ .

نعرض لرأى الفريقين فى قضية النص الذى زعمت الشيعة أن الرسول قد أثبته لعلى ، وأدلتهم عليه ، ورأى المعتزلة والفرق الاخرى فى النص ، من حيث المبدأ ، وفيما قدمت الشيعة عليه من حجج وآيات .

لقد قالت الشيعة بوجوب الامامة على الله سبحانه ، وان النص على امامة على بن أبى طالب قد حدث من الله ، لا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن دور الرسول انما هو دور المبلغ للامة نص الله على امامة على ، فهم يرون « ان الامامة لا تكون الا بالنص من الله تعالى ، على لسان النبى او لسان الامام الذى قبله ، وليست هى بالاختيار والانتخاب من الناس ، فليس لهم اذا شاءوا أن ينصبوا أحدا نصبوه ، واذا شاءوا أن يعينوا اماما عينوه ، ومتى شاءوا أن يتركوا تعيينه تركوه .. » (٧٠) .

ونحن نستطيع أن نوجز مقـــــولة الشيعة فى النص فى هذه المعادلة : ان الامامة من امور الدين ، وأصل من أصوله ، بل أهم أصوله ، ومن ثم فمهام الامام دينية ، يدخل فيها حفظ الشريعة وتفسيرها ، بل والتلقى عن الله أحيانا ، بوسائل خاصة ، فطبيعة الامامة من طبيعة النبوة وعليها تقاس ، ومهمة الامام من مهمة الرسول ، فعليه يقاس ، واذن فلابد أن يكون الامام معصوما كما هـــو حال النبى والرسول ، ولا شأن للخلق ولا قـــدرة على معرفة المعصوم ، وليس غير الله هو الذى يختاره كمـــا اختار الانبياء والرسل ، ويبلغ رسوله بشخصه كى يؤدى عن ربه الاعلام للناس عن شخص الامام .. فالامامـــة والامام قضية دينية ، لا شأن للبشر بها ، وهى ليست من

(٧٠) (عقائد الامامية) ص ٦٦ .

« رأى » النبى الذى تجوز فيه للبشر المراجعة والشورى، وانما هى من الجانب الذى يكون الرسول فيه مبلغا، لا ينطق عن الهوى، انما عن الوحى الذى يوحى .. فنقطة الانطلاق التى ينشأ منها الخلاف بين الشيعة وباقى فرق الاسلام هى : هل الامامة ركن من أركان الدين ؟ أم لا ؟ من قال، كالشيعة، انها ركن من أركان الدين، وان نصب الامام هو لامور دينية، كان منطقيا مع نفسه عندما يجعلها شأنا من شئون السماء، لا دخل للبشر فيها .. ومن جعلها من الفروع، ومن مصالح الدنيا، كان منطقيا مع نفسه عندما يجعلها شأنا من شئون البشر، تولية ومحاسبة، وعزلا، وهو الامر الذى التزمته وقالت به تقريبا، كل فرق الاسلام غير الشيعية .

وفيما يتعلق بقياس الشيعة الامامة على النبوة يقولون اننا « نعتقد أن الامامة كالنبوة، لا تكون الا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله أو لسان الامام المنصوب بالنص اذا أراد أن ينص على الامام من بعده، وحكمها فى ذلك حكم النبوة بلا فرق، فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله هاديا ومرشدا لعامة البشر، كما ليس لهم حق تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه، لان الشخص الذى له من نفسه القدسية استعدادا لتحمل أعباء الامامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب الا يعرف الا بتعريف الله ولا يعين الا بتعيينه .. (٧١) .

ولما كانت الامامة عندهم من أصول الدين وتمامه، والله قد قال « مافرطنا فى الكتاب من شىء » (٧٢)، وقال فيما

(٧١) المرجع السابق . ص ٧٤ .
(٧٢) الانعام : ٣٨ .

انزل فى حجة الوداع : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » (٧٣) ولما كان « أمر الامامة من تمام الدين ، فلم يمض صلى الله عليه وسلم حتى يبين لامته معالم دينهم ، وأوضح لهم سبيلهم ، وتركهم على قصد سبيل الحق ، واقام لهم عليا علما واماما ، وما ترك لهم شيئا تحتاج اليه الامة الا بينه ، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله ، ومن رد كتاب الله فهو كافر به . . . »

ثم يمضى الفكر الشيعى ليرتب على هذه المقدمة نتيجتها الطبيعية : فمادامت الامامة من تمام الدين وأصوله ، فهى شأن من شئون الله لا البشر ، ومن ثم فانها تدخل فى نطاق ماتعبدنا الله به ، لا فى نطاق ما للعقول البشرية فيه مقال ومجال .. ويتساءل « الكلينى » : « هل يعرفون قدر الامامة ومحلها من الامة ، فيجوز فيها اختيارهم ؟! ان الامامة أجل قدرا واعظم شأنا واعلى مكانا وامنع جانبا وأبعد غورا من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا اماما باختيارهم .. ان الامامة هى منزلة الانبياء ، وارث الاوصياء ، أن الامامة خلافة الله وخلافة الرسول .. فمن الذى يبلغ معرفة الامام ، أو يمكنه اختياره ؟؟ هيهات هيهات ! (٧٤) .

---

(٧٣) المائدة : ٣ .

(٧٤) (الكافى) جـ ١ ص ١٩٨ ـ ٢٠٢ .

وتتكرر هذه الافكار الرئيسية فى كل مصادر الشـــيعة الاساسية (٧٥) .

تلك هى مقولة الشيعة الاساسية فى الامامة ، وهم يرتبون عليها مايتصورونه استدلالا عقليا على الوصية لعلى ابن أبى طالب ، عندما يقولون : ان الامامة دين ، ومهمتها دينية ، فلابد من أن يكون الامام معصوما ، وبما أنه لم يقل احد بعصمة أبى بكر او العباس بن عبد المطلب ، ولما كانت الشيعة تقول بعصمة على فلابد وأن يكون على هـــو المنصوص على أمامته ، لان الذين تحدث المسلمون ، أو بعضهم ، عن النص عليهم لم يخرجوا عن : أبى بكر ، وعلى ، والعباس ، ولما كانت البكرية لم تدع العصمة لصاحبها ، والراوندية لم تدع العصمة لصاحبها ، فلم يبق الا على بن أبى طالب معصوما ، ومن ثم اماما منصوصا عليه بعـــد الرسول عليه الصلاة والسلام (٧٦) .

فالقضية التى فرقت الامة هى قضية الخلاف حول طبيعة السلطة .. هل هى دينية ؟ أم دنيوية ومدنية ؟ ؟ بالاول قالت الشيعة ، وبالثانى قالت الفرق الاخرى ، رغم ماتسرب الى صفحات كتب فريق منها من أفكار شـيعية طغت على جو البحث فى هذا الموضوع ، وطفـــت على سطحه .

وفى بحثنا هذا ستأتى معالجة لب هذه القضية فى أكثر

---

(٧٥) انظر (دعائم الاسلام) ج ١ ص ٣٨ ــ ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ . وابو الفضل جعفر بن أحمد بن عبد السلام بن أبى يحيى ، الزيدى (النقض على صاحب مجموع المحيط فيما يخالف فيه الزيدية من باب الامامة) اللوحة ٢٣٢ أ . مخطوط مصور بدار الكتب المصرية . و (شرح الاصول الخمسة) ص ٧٥٤ ــ ٧٥٨ ، ٧٦١ .

(٧٦) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ٢ ص ٥ ــ ٧ .

من موضع ، وخاصة فى « الفصل الاول » من « الباب الخامس » فى الحديث عن عصمة الامام ، وكذلك فى « الفصل الثالث » من ذلك « الباب الخامس » عندما نفرد كل الفصل للحديث عن « طبيعة السلطة » .. أما الآن فاننا نشير الى رفض المعتزلة لقول الشيعة بالنص على الامام ، وهو الرفض الذى انطلق أصحابه من منطلق فكرى معاكس تماما لمنطلق الشيعة ..

أدرك المعتزلة أن قول الشيعة بالنص هو الخطأ الاكبر فطلبوا أن يكون الجدل من حول هذا الموضوع ، والقاضى عبد الجبار يطلب جدالهم فيه ، ويقول : « كلمهم فيما يدعونه من النص ، فهو الاصل .. » (٧٧) .

وادركوا أن مقولة الشيعة قد اعتمدت على أن طبيعة الامامة ومهمات الامام دينية ، فرفضوا هذا القول ، وقالوا : بل هو منصب دنيوى ، والامام يقام لمصالح الدنيا ، ويقاس هذا المنصب ، طبيعة ومهاما . على المناصب المتفق على انها ومهامها مناصب دنيوية ، كما يستند الحكم بأنه يتم عن طريق الاختيار . لا النص ، الى ما فعل الرسول فى حياته من تقرير مبدأ الاختيار للامراء والولاة .. فهم يرون أن المسلمين قد سلكوا بعد وفاة الرسول طريق الاختيار لرئيس دولتهم ، ولم يختلفوا على هذا السبيل ، ولم يقل أحد منهم بأن هناك نصا ، وهم قد تعلموا فلسفة الاختيار فى حياة الرسول ، ومن التصرفات السياسية والادارية والعسكرية التى باشرها والتى اعتمدت على تزكية مبدأ الاختيار وفلسفته ، ومن ثم كان الاختيار ، كطريق للامامة ، هو الامتداد لفلسفة

---

(٧٧) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٩٤ .

الدولة الاسلامية ، تلك الفلسفة الشورية التى استقرت بذورها فى عهد الرسول ، فهذا الجانب الدنيوى من سلطات الرسول قد تميز عن الجانب الدينى بتقرير عنصر الاختيار فيه ودور البشر والرأى والشورى فى معالجته. ولو كان دينيا لما كان للرأى ولا للشورى ولا للبشر شأن فيه ، الا شأن المطيع المسلم المتعبد دون أن يطلب حتى معرفة الوجوه والاسباب .

ان المعتزلة الذين وقفوا مع الاختيار ومع الرأى ومع الشورى ، كانوا هم الذين انكروا القول بالرأى فى الدين ، لانهم لم يروا موضوعات الشورى والرأى والاختيار هذه من أصول الدين ..

لقد ذكروا أمثلة من الاحداث السياسية والعسكرية والادارية التى طلب الرسول فيها من صحابته أن يلجأوا الى رأيهم فيختاروا لهم القادة والامراء والولاة ، ثم قاسوا منصب الامامة على منصب الحاكم والأمير والوالى للصلة القائمة بين طبيعة مهام كل من الامام والحاكم والوالى .. وحول هذه القضية الاساسية التى تنتصر للاختيار وتسقط حجة القائلين بالنص يقول القاضى عبد الجبار : ان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرفوا « من سيرته جواز الاختيار فى الائمة والامراء ، وعملوا بذلك فى حياته ، الا ترى أنه لما انفذ عسكرا لغزو الروم قال لهم : أميركم زيد بن حارثة ، فان هلك فجعفر بن أبى طالب ، فان هلك فعبد الله بن رواحة ، فهلك هؤلاء الامراء الثلاثة ، فاستعمل الجيش بعدهم خالد بن الوليد المخزومى ، أميرا عليهم ، فدبرهم وساسهم ولقى العدو بهم . فما أنكر

النبي ذلك ، بل صوبهم ، وسمى خالد بن الوليد سيف الله ؟!

وقد كان النبي انفذ عما لابي موسى الاشعري اميرا على جماعة ، فهلك ، فاستعملوا بعده أبا موسى ، فما أنكر رسول الله ذلك ، بل صوبهم ، بل انهم انما فعلوا هذا لانهم قد عرفوه من سيرته .

وقد ولى رسول الله أبا العلاء بن الحضرمي البحرين . وانفذه في جماعة ، وعهد اليه عهدا معروفا ، وقال في هذا العهد : وانا اشهد الله على رجل وليته امرا من أمور المسلمين فلم يعدل فيه قليلا كان أم كثيرا ، فانه لا طاعة له ، وهو خليع (٧٨) مما وليته ، وانى قد برأت المسلمين الذين معه من عهدهم وايمانهم منه ومن ولايته ، فليستخيروا عند ذلك الله . ثم ليستعملوا عليهم أفضالهم في أنفسهم » (٧٩) .

فالرسول اذن قد قرر مبدأ الاختيار للقادة والامراء والولاة ، والمعتزلة يقيسون على هذه المناصب منصب الامام ، لوحدة المهام ، فيقولون : ان القول بالنص لايثبت عقلا ، فغير ممتنع عقلا أن نكون الصلاح في عدم اقامة الامام أصلا ، وكما يجوز أنلا يكون ذلك هو الصلاح ، فجائز أن يكون الصلاح هو اقامته بالاختيار ، أو اقامته بالنص ، فالقضية لا تتعدى الجواز الى الوجوب .. ولما كانت « طبيعة » منصب الامام هي « طبيعة » مناصب الحكام والامراء والولاة ، كان القياس مقتضيا اختياره كما هو الحال مع الحكام والامراء والولاة . « فقد ثبت بالشرع

(٧٨) أي مخلوع .

(٧٩) (تثبيت دلائل النبوة) ج ١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

أن الصلاح فى اقامة الامراء والعمال والحكام أن يكون على اجتهاد واختيار ، بعد معرفة الصفة . فكذلك لا يمتنع مثله فى الامام .. وقد بينا أن الذى يقوم به الامام ، من اقامة الحدود وتنفيذ الاحكام وما جرى مجراهما هو الذى يقومون به . فلو كان لا يثبت اماما الا بنص ، لوجب مثله فيهم ، اذ الطريقة واحدة ، ولا يمكن أن يقال : ان عمله أوسع . لان ما أوجب أن لا يثبت الا بنص هى الطريقة التى يقوم بها دون الكثرة ، وهؤلاء مشاركون له فى ذلك .. » (٨٠) .

فهم يؤكدون على أن الوحدة فى « طبيعة » السلطة بين الامام وبين الامراء والحكام والولاة هى التى تستدعى أن يكون طريق تنصيبه هو نفس طريق تنصيبهم . أى الاختيار وتأكيدهم هذا نابع من ادراكهم أن تلك المسألة هى جوهر الخلاف بين الشيعة وغيرهم من الفرقاء .

ثم يسوق المعتزلة الكثير من الادلة التاريخية ، والعديد من النصوص التى تؤكد أنه لم يكن هناك نص من الله على امامة على بن أبى طالب .

فلو كان هناك نص لامضاه الصحابة ، ولا يصح لنا أن نتصورهم كما تصورتهم الشيعة : قد ارتدوا وكفروا فى سبيل الحكم والسلطان .

ولو كان هناك نص لذكره ذاكر فى السقيفة عندما تحاوروا واختلفوا وبحث كل عن الدليل والبرهان .

ولو كان هناك نص لذكره على عندما أنكر استئثارهم بالامارة ، وتأخر فى البيعة احتجاجا ، أو لذكره أحد ممن

(٨٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

تبعه فى أنكاره . ثم ، أليس كان الاولى أن ينفذ المسلمون وصية نبيهم ونص ربهم ، وهم الذين أنفذوا عهد أبى بكر لعمر . وعهد عمر لاصحاب الشورى ؟! أم أن القوم كانوا اطوع لابى بكر وعمر منهم لربهم ورسوله ؟! .. الحق أن قول المعتزلة بأن الذين ذهبوا مذهب الشيعة فى الطعن على الصحابة انما راموا تشويه صورة الاسلام بتشويه صورة المسلمين ، ان هذا القول دقيق لا مبالغة فيه..(٨١)

ثم ان هناك الكثير من النصوص المروية — وهى أحاديث آحاد ككل ما روى فى هذا المقام ، مع النص وضده ، فهى أدلة تتناقض ولكنها تتكافأ — التى تتحدث عن أنه لم يكن هناك نص على امامة أحد .. فيروى عن أبى بكر أنه قال عندما حضرته الوفاة : « وددت أننى كنت سألت رسول الله عن هذا الامر ، فيمن هو ؟ فكنا لا ننازعه أهله ؟ » وهذا الاثر تستدل به الشيعة على عدم النص على أبى بكر وتحتج به على « البكرية » . (٨٢) وهو صالح أيضا حجة على الشيعة ، لانه ينفى أن قد كان هناك نص أصلا .

كما تستدل الشيعة على بطلان قول من قال بالنص على العباس بن عبد المطلب ، فتقول : « .. ودليل آخر على بطلان ما ادعوه للعباس ، أن العباس ، رحمة الله عليه ، قال لعلي ، عليه السلام : امدد يدك أبايعك ، فتقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان ، فلو كان منصوصا عليه — أى العباس — بالامامة لما قال هذا لابن أخيه (٨٣) .. وكما يصلح هذا الدليل

---

(٨١) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٨٠ .
(٨٢) الشريف المرتضى (مجموع من كلام السيد المرتضى) اللوحة ٧٢ مخطوط بدار الكتب المصرية (١٥٩ عقائد تيمور) .
(٨٣) المصدر السابق . اللوحة ٧٣ ، ٧٤ .

ضد الراوندية فهو يصلح ضد الشيعة . اذ لو كـــان علي منصوصا عليه لما طلب العباس منه أن يأخذ بيعته ، لان قول العباس يعني أن طريق الامامة البيعة لا النص ، وهو قد أراد بيعة علي حتى لا يأخذها غيره ، فهـــو موقف من يعرف أن لا نص هناك .

ثم هناك ماروى عن عمر عندما حضرته الوفاة ، فعـن عبد الله بن عمر قال : « قيل لعمر : ألا تستخلف ؟ قال : أن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، أبو بكر ، وان اترك فقد ترك من هو خير مني ، رسول الله (٨٤) » .

هذا هو موقف المعتزلة ، العام ، من قضية النص : ينكرون حدوثه ووقوعه ، ويقولون : ان الخلاف منـــذ اجتماع السقيفة كان حول شخص من يختاره المســلمون للامارة ، لا حول طريق الامامة ، الذي اتفق الكل على أنه الاختيار ، فالانصار هموا باختيار سعد بن عبادة ، ثم طلب أبو بكر اختيار عمر أو أبي عبيدة بن الجراح ، ثم حدث اختيار أبي بكر ، والذين اعتصموا مع علي بمنزله كانوا يريدون اختياره ، فلا خلاف على الاختيار كطـريق للامامة ، وانما الخلاف على « أعيان المختارين » .

وهذه الحجة التي يحتج بها المعتزلة تحاول الشــيعة ردها بقولها : ان انكار الذين أنكروا امامة أبي بكر يحتمل أنهم قد أنكروا الاختيار كما أنكروا المختار (٨٥) . ولـكن الصواب يجانب هذا الاعتراض الشيعي ، لان من أنكر استئثار أبي بكر بالخلافة دون علي ، قد صرح بأنه يريد

(٨٤) (صحيح البخاري) كتاب الاحكام جـ ٩ ص ١٠٠ و (صحيح مسلم) كتاب الامارة جـ ١٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٨٥) (تلخيص الشافي) جـ ١ ق ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

لها عليا ، فقدم ، صراحة ، البديل لابى بكر ، فــــكان طبيعيا أن يتحدث عن النص كبديل للاختيار ، ولم يـكن هناك مايخشاه ، فيمتذر له بالتقية ، طالما انه صرح بأنه يبغى الامارة لعلى . . . فكما أعلن الرفض لشخص المختار كان عليه أن يعلن الرفض لطريقة الاختيار ، ويقــول ان عليا منصوص عليه من الله على لسان الرســـول عليـه الصلاة والسلام .

ثم .. ان الشيعة تحتج على بطلان القول بالنص على ابى بكر بقولها : « .. ودليل آخر : ان النص لو كـــان صحيحا على أبى بكر لوقع العلم به والاشاعة بنقله وروايته، كما وقع بكل أمر ظاهر ، كنص ابى بكر على عمر ، وكنص عمر على أصحاب الشورى ، ونظائر ذلك من الامور الظاهرة الفاشية التى لا يجحدها عاقل ولا يشــك فيهــا محصل (٨٦) . »

وهذا الدليل ينقض قول الشيعة بالنص على على ، اذ لو كان قد حدث لشاع كما شاعت الامور الظاهرة ولروى كما رويت الامور الفاشية ، فما بال الشيعة فقط هم الذين يروون آثاره ، بمعناها المستلزم للنص ، ومابال هذه الآثار لم يستدل بأحد منها الصحابة عندما اختلفوا فى الامر ، ولم يذكر واحدا منها على بن ابى طالب فى صراعه الدائم ضد خصومه ومعارضيه ؟..

واذا كان هذا هو موقف المعتزلة ، فى رفضها للقول بالنص ، فان حديث الشهرستانى عن أن النظام ، مــــن المعتزلة ، قد قال : « لا امامة الا بالنص والتعيين ظاهرا مكشوفا ، وقد نص النبى على على .. فى مواضع واظهره

---

(٨٦) (مجموع من كلام السيد المرتضى) اللوحة ٧٣ .

اظهارا لم يشتبه على الجماعة ، الا ان عمر كتم ذلك ، وهو الذى تولى بيعة أبى بكر يوم السقيفة (٨٧) .. ان قول الشهرستانى هذا لا يعدو ان يكون نقلا لبعض ما اشاع ابن الراوندى ضد المعتزلة من اكاذيب .. فالبغدادى ، والشهرستانى ، قد شاعت فى مؤلفاتهما التى أرخا بها للفرق والمقالات تهم ابن الراوندى للمعتزلة ، كما يقون الفخر الرازى .. (٨٨) فليس من المعتزلة من قال بالنص على على نصا جليا واضحا ، وقصارى ماقاله البعض أن النص قد وقع على صفات الامام وشروطه ، وكما يقول القاضى عبد الجبار : « انا وان لم نقل بالنص على العين . فقد قلنا بالنص على الصفات المعلومة بالكتاب والسنة (٨٩) » ، وهم فى ذلك يتفقون مع أهل السنة ، ومع « العثمانية » الذين يتحدث الجاحظ عن مذهبهم القائل : « ان الله قد اختار للناس اماما ، ونصب لهم قيما ، على معنى الدلالة والايضاح عنه بالعلامة ، لا على النص والتسمية لان الله اذا قال : « واشهدوا ذوى عدل منكم » ـ (٩٠) وقد عرفنا صفة العدالة ـ فمتى رأيناها فى انسان علمنا أنه الذى كان عنى الله بالآية ، وان لم يسمه فيها . وكذلك قول الرسول : « ليؤمكم خياركم » فقد عرفنا الله الخيار من الشرار ، والفضل من النقص ؛ فمتى وجدنا الفضيلة فى رجل فهو الذى عناه النبى وان لم يذكره باسمه .. » (٩١) .

(٨٧) (الملل والنحل) جـ ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٨٨) أنظر مقدمة د. نيبرج لكتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد) للخياط .

(٨٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٤٤ .

(٩٠) الطلاق : ٢ .

(٩١) (العثمانية) ص ٢٧٧ .

فليس فى المعتزلة قاطبة من قال بالنص على الـذات والتعيين والتحديد والتسمية وحتى ماذهب اليـه البغداديون من المعتزلة ـ وهم الذين يسمون انفسهم ويسميهم غيرهم شيعة المعتزلة ـ من أنه « قد كانت اشارة وايماء لا يتضمن شيء منها صريح النص » (٩٢) حتى ماذهب اليه البغداديون هؤلاء من « الاشارةوالايماء» من الرسول لعلى ، فانه أمر آخر يختلف اختلافا تاما عن النص كما تراه الشيعة .

فالبغداديون من المعتزلة قد قالوا بتفضيل على على ابى بكر ، ثم وفقوا بين القول بذلك وبين تقديم الصحابة لابى بكر على على ، بقولهم كغيرهم من المعتزلة ، بجواز امامة المفضول على الافضل ، لاسباب يراها أهل الحل والعقد محققة لصلاح امر المسلمين ، لان الفضل هو فى الثواب وأمور الدين ، والامامة سياسة وامور دنيا ، فلقد يكون المفضول دينيا متقدما فى أمور الدنيا ، ومن هنا يجوز تقديم المفضول دينا على الافضل دينا ، بل وقد يكون ذلك مرغوبا ومطلوبا ، كما سيأتى فى مكانه فى الفصل الثانى من الباب الخامس .

فهم ـ اى البغداديون ـ قد وفقوا بذلك بين تفضيلهم على بن ابى طالب وبين تأييدهم تقديم المسلمين لابى بكر فى تولى الخلافة فهم ينكرون قول الشيعة بالنص الصريح ويقولون : « ان الآثار والاخبار فى هذا الباب كثيرة جدا ، ومن تأملها وانصف ، علم أنه لم يكن هناك نص صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ، ولا تتطرق اليه الاحتمالات كما تزعم الامامية ... ولا ريب أن المنصف اذا سمع

(٩٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٠ ص ٢٢٦ .

ماجرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، يعلم قطعا أنه لم يكن هذا النص ... » فهم ينفون حدوث النص الذى تقول به الشيعة . وأما كلامهم عن حدوث « تعريض وتلويح وكناية » (٩٣) فهو أمر آخر يدخل فى باب التفضيل الذى قدموا فيه عليا على غيره من صحابة رسول الله .. وهذا المذهب ، الذى قال به البغداديون ، أو معظمهم ، لا علاقة له بفكر الشيعة فى النص ، بل هو مناقض له على طول الطريق .

فالنظام لم يشذ ، اذن . عن المعتزلة ، حتى يقول بالنص على على بن أبى طالب ، والنوبختى ـ وهو من الشيعة الذين قالوا بالعدل والتوحيد ـ ينفى ذلك عن النظام ويقول : « وقال ابراهيم النظام ، ومن قال بقوله : الامامة تصلح لكل من كان قائما بالكتاب والسنة ... وزعموا أن الناس لا يجب عليهم فرض الامامة اذا هم أطاعوا الله وأصلحوا سرائرهم وعلانيتهم (٩٤) وقالوا فى عقد المسلمين الامامة لابى بكر : انهم قد أصابوا فى ذلك . وأنه كان أصلحهم في ذلك الوقت بالقياس والخبر » (٩٥) .

ذلك هو موقف النظام من الاختيار .. وهو موقف كل المعتزلة دون استثناء ..

وكما أنكر المعتزلة أن يكون النص واجبا من طريق

(٩٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٩ ، ٢٨٤ .

(٩٤) وقول النوبختى هذا يعنى أن النظام ومن قال بقوله يتفقون مع الاصم والفوطي والخوارج النجدات فى الموقف من (وجوب الامامة) ، وربط هذا (الوجوب) بالحاجة اليها اذا توقف على قيامها اقامة العدل بين الناس . وهى القضية التى سبقت معالجتنا لها من قبل .

(٩٥) (فرق الشيعة) ص ١٠ ، ١١ .

العقل . كذلك أنكروا وجوبه من جهة السمع ، وقالوا : اننا نعلم ضرورة العلم بوجوب الصوم والصلاة والحج والزكاه ، وان من يصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا يشك فى العلم بضروره هذا الوجوب ، ولو وجب النص على الامامة ، سمعا ، لاستوى مع النص على وجوب الصلاة والصيام .. الخ من حيث ضرورة العلم بهذا الوجوب ، بينما الواقع يقول أن أغلب اهل الاسلام لايعلمون ان هناك نصا ، علما ضروريا ، بل يعلمون الضد من ذلك « وقد ثبت أن الجمع العظيم لا يجوز أن يجحدوا ما يعلمون ، أو يظهروا خلافه » .. ان الشيعة يجعلون الامامة المنصوص عليها « من أعظم اركان الدين ، وأصلا لسائر الشرائع ، فكيف يصح أن لا يعلمها من خالفهم ، مع علمه بفروع الدين التى هى الصلاة والصيام وغير ذلك » ؟! (٩٦) .

ولقد حاول الشيعة الخروج من هذا المأزق الذىوضعهم المعتزلة فيه . مازق انتفاء العلم الضرورى بالدليل السمعى على النص ، فقالوا ان العلم الضرورى بالنص قد قام وعم فى العصر الاول ، ثم جدت عوامل غيرت النقل وقصرته على روايات الشيعة ورواتهم ، ولقد رد المعتزلة بأن ذلك يحل غير الشيعة من الالتزام بما انفردوا بروايته ، ويجعل لهم العذر فى هذا التحلل . وقالوا لهم كذلك : ان هذا التخريج يصلح حجة للبكرية التى زعمت النص على أبى بكر ، اذ أن لهم أن يجيبوا على اعتراض الشيعة بأن العلم الضرورى بالنص على أبى بكر غير قائم عند الشيعة ، بأن تغير أحوال النقل قد قصرت الرواية لاسانيدهم عليهم دون

---

(٩٦) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١١٣ ، ١١٤ .

الشيعة .. وعند ذلك تتكافأ الادلة المتعارضة المتناقضة .. ثم « ان ماجرت عليه أحوال الصحابة يمنع من ادعاء هذا النص فى الاصل ، لانه لو كان صحيحا لكان انما يجوز ان يختلف حال النقل أن كان ذلك فى عصر التابعين او بعد ذلك ، فأما عصر الصحابة فغير جائز ذلك . وكان يجب أن يكون معلوما لجميعهم ، فلو كان كذلك لكانت الامور التى جرت فى الامامة لا تجرى على الحد الذى جرت عليه ، بل كان يجب أن يكونوا مضطرين الى معرفة امامة على كاضطرارهم الى أن صلاة الظهر واجبة وصوم رمضان واجب ، وحج البيت واجب .. وهذا فى أنا نعلم بطلانه باضطرار بمنزلة ما نعلمه من أنفسنا ، لانا كما نعلم : أنا لا نعلم في الامامة ما ادعوه باضطرارهم ونعتقد خلافه ، نعلم ذلك من حال الصحابة ، وأنهم كانوا يعتقدون خلاف ذلك .. ولا يمكنهم بعد ذلك الا نسبة جميعهم الى الارتداد والنفاق .. مما لا يحل الكلام فيه ؛ لانه طريق الشبه القادحة فى النبوات .. » (٩٧) .

واستدل المعتزلة كذلك على أنه لا نص على الامامة والامام بسؤال المسلمين للنبى فى مرضه عمن يصلى بهم ، عندما ثقل عليه المرض فلم يستطع أن ينهض لامامتهم فيها ، فلو كانت هناك وصية ونص لكان الامام معروفا ومعلوما (٩٨) .. وساقوا عشرات من الادلة الناقصة لقول الشيعة بثبوت النص على امامة على من جهة السمع (٩٩) .

---

(٩٧) المصدر السابق جـ ٢٠ ق ١ ص ١١٨ . وأنظر كذلك ص ١٣٦ ، ١٣٢ ، ١١٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ـ ١٩٧ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٧ ـ ٢٨٩ .

(٩٨) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٩٩) أنظر المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ـ ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٥٢٩ ـ ٥٣٣ .

ولقد تبع أهل السنة المعتزلة فى انكارهم النص على امامة على . وقالوا : « لو كان عند أحد نص فى تخصيص بنى هاشم لنقل ذلك حتى يرتفع النزاع ــ « فى السقيفة وبعدها » ــ فان منازعة الانصار قريشا كمنازعة قريش بنى هاشم ومنازعة بنى هاشم عليا .. » (١٠٠) . وأيضا « لان توافر الدواعى على نقل ذلك ــ لو كان صحيحا ــ أشد من توافرها على نقل خلاف الانصار فى الامامة .. لانه ليس يجوز اغفاله .. بل كان يجب أن نعلم ضرورة أن هذا قد ادعى فى صدر الاسلام ، واستدل عليـــــه ببعض الاحتجاج (١٠١) .

ويتفق المعتزلة واهل السنة على أنه اذا كان القـــول بالنص على على بن أبى طالب قد صار بهذا البعد والضعف فان الحديث عن النص على من بعده من أئمة الشيعة اكثر بعدا واضعف حجة . لانه لابد من :

١ ــ ان يثبت أن الامام قد مات عن ولد ، تعلم صحة نسبه .

٢ ــ وأن يثبت أن الاول قد نص على الذى يليه .

٣ ــ وأن يثبت أن النص الذى أعلنه الرسول لعــلى يشمل النص على غير على من الائمة الذين تدعى الشـيعة أمامتهم .

٤ ــ وأن تبقى عصمة المنصوص عليه التالى مستمرة بعد النص عليه وقبل وفاة الاول .

---

(١٠٠) (نهاية الاقدام) ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

(١٠١) الباقلانى (التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضـــة والخوارج والمعتزلة) ص ١٦٧ تحقيق محمود الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبوريدة • طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ م .

فأين الخبر المتواتر المستجمع لهذه الشروط بالنص على كل من ادعت الشيعة امامته ؟! (١٠٢) .

هذا هو موقف المعتزلة ـ ومعهم أهل السنة ـ من القول الذى قالته الشيعة بالنص على امامة على ، سواء من حيث المبدأ ، أو العقل ، أو السمع ، ورأيهم فى أن طريق الامامة ليس النص وانما هو الاختيار .

على أن المعتزلة لم يقفوا عند حدود انكار وقوع النص ، والاستدلال على انتفاء حدوثه عقلا وسمعا ، فقط ، بل تعقبوا حجج الشيعة التى أرادوا استخراجها من النصوص التى رووها . سواء أكانت تفسيرات قالوا بها لآيات من القرآن ، أم أحاديث آحاد اشترك فى روايتها غير الشيعة مع الشيعة ، ثم أعطاها الشيعة مفاهيم ودلالات ليست لها ولا تشهد لها ألفاظها وملابسات التحدث بها ؛ أو أحاديث انفرد الشيعة بروايتها وترددها ..

تعقب المعتزلة نشاط الشيعة الذى بذلوه فى حقل التفسير والتخريج والتأويل لهذه النصوص ، وذلك بهدف الاجهاز على أية شبهة تعرض فى أن يكون هناك نص من الله على لسان نبيه يحدد الامامة والامارة فى أحد من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام .. وفى هذا المقام دار الجدل حول عدد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، ومنها :

---

(١٠٢) الغزالى (فضائح الباطنية) ص ١٣٣ ، ١٣٤ . تحقيق د. عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م . وانظر (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ج ٤ ص ٩٦ . والفخر الرازى (معالم أصول الدين) ص ١٧٥ ، ١٧٦ . طبعة القاهرة ، الاولى سنة ١٣٢٣ هـ (على هامش « المحصل ») .

١ ــ آية : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » : (١٠٣) .

ولقد احتجت الشيعة على أن القرآن قد أخبر بامامة على بهذه الآية ، واستندوا الى انه قد روى ان سبب نزولها هى حادثة تصدق على وهو راكع فى صلاته ، بخاتمه لسائل سأله الصدقة ، ولما كان معنى « وليكم » اى المتحقق بتدبيركم والقيام بأمركم ومن وجبت له طاعتكم كان المراد بهذه الآية الحكم بامامة على .. وقالوا : « .. وأما النص على امامته من القرآن ، فأقوى ما يدل عليه : قوله تعالى : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .. ووجه الدلالة من الآية : هو انه ثبت أن المراد بلفظة : « وليكم » ؛ المذكورة فى الآية : من كان متحققا بتدبيركم ، والقيام بأموركم ، وتجب طاعته عليكم . وثبت ان المعنى بـ « الذين آمنوا » أمير المؤمنين عليه السلام ، وفى ثبوت هذين الوصفين دلالة على كونه عليه السلام اماما لنا .. » (١٠٤) ذلك هو أقوى دليل عند الشيعة ، من القرآن على امامة على بن ابى طالب ..

والمعتزلة ينقضون هــذا الدليل ، ويوردون على

---

(١٠٣) المائدة : ٥٥ .

(١٠٤) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ١٠ . وانظر كذلك صفحات ٢٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ـ ٤٥ . وعبد الحسين شرف الدين الموسوى (المراجعات ص ١٦٠ . طبعة حلب سنة ١٩٧١ م . و (النقض على صاحب المجموع المحيط) اللوحات ٢١٦ ب ، ٢١٧ أ ، ٢١٨ أ ، و (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

استدلال الشيعة بهذه الآية من الاعتراضات ما لا سـبيل الى دفعها .

فأولا : فى سبب نزول هذه الآية روايات أخرى تقول انها نزلت فى غير على ، فالحسن البصرى وابو عـلى الجبائى يقولان أنها نزلت فى جميع المؤمنـين .. (١٠٥) ولفظ الآية يشهد لذلك ، ومالا يحتاج الى تأويل أولى مما يحتاج الى تأويل .. وهناك روايات تقول : انها نزلت فى عبادة بن الصامت في تبرئه من يهود بنى قينقاع ..(١٠٦) وفريق ثالث . فيه ابن عباس . يقول : « انها نزلت فى عبد الله بن سلام ورهط من مشركى اهل الكتاب . وذلك انهم أتوا النبى عند الظهر فقالوا : يا رسـول الله ، ان بيوتنا قاصية ، ولا نجد مسجدا دون هذا المسجد ، وان قومنا لما صدقنا الله ورسوله عادونا وتركوا مخالطتنـا واقسموا الا يكلمونا .. فبينما هم يشكون عداوة قومهم لهم اذ نزلت « انما وليكم .. » ، فلما قراها النبى قالوا : رضينا بولاية الله ورسوله والمؤمنين . واذن بلال للصلاة، فخرج النبى الى المسجد ، وهم معه ، والناس من بين راكع وساجد . وقائم وقاعد ، فتلا النبى : « ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون .» (١٠٧) .

ففى سبب النزول روايات مختلفة ، ورواية الشـيعة التى يفضلونها مما يحتاج الى التأويل لقبولها . فغيرها اولى منها واقرب .

---

(١٠٥) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (تفسير التبيان) ص ٥٥٩ . تحقيق أحمد شوقى امين وأحمد حبيب قصير . طبعة النجف .

(١٠٦) المصدر السابق . ص ٥٥٩ .

(١٠٧) المائدة : ٥٦ أنظر (تفسير البيان ص ٥٥٩) . و (العثمانية) ص ١١٨ .

وثانيا : لم يكن على من الغنى بحيث تجب عليه الزكاة في حياة الرسول ، والحديث هنا عن الصـــدقة بمعنى الزكاة .

وثالثا : ان في التصدق اثناء الصلاة من التشاغل عنها ما يجعل تأخيره الى مابعد تمامها أولى وأفضل . فالمراد يؤتون الزكاة وحالهم الركوع والتواضع .

ورابعا : ان سياق الآية ، يجعلها مع ما سبقها ولحقها نازلة في جماعة ، فالذين وصفهم في هذا الموضــــع بالركوع والخضوع هم الذين وصفهم من قبل بأنه يبدل المرتدين منهم بقوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهـــم ويحبونه . اذلة على المؤمنين » وأراد به طريقة التواضــع « اعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم » (١٠٨) .

ولقد دارت بين المعتزلة والشيعة مجادلات حول هذه الاعتراضات ورغم عدم الحسم الذى تسببه التخريجـات والتعليلات التى لا تنتهى في هذه المجادلات . الا أننا نعتقد ان حجج المعتزلة اقوى ، خصوصا وان لديهم الســـبب الاهم والاكثر حسما في الاعتراضات التى ساقوها وهو :

خامسا : ان الشيعة يعتمدون في تخصيصهم الآية بعلى وامامته على أن معنى « وليكم » هو : المتحقـــق بتدبيركم والقيام بأموركم ومن تجب طاعته عليـــكم .. والمعتزلة ينكرون أن يكون هذا هو المعنى المراد من الموالاة هنا .

---

(١٠٨) المائدة : ٥٤ .

صحيح أن لفظة الولى من الالفاظ المشتركة فى المعنى ــ ويعترف الجميع بذلك ــ ولكن المعتزلة يرون انها هنا تعنى النصرة فى الدين لا الولاية بمعنى الامامة والامارة للمؤمنين .. فالآية تتحدث عن ولاية الله ، وولاية الرسول ، وولاية المؤمنين ، ولا يصح الحديث عن ولاية الله للناس بمعنى تنفيذ الحدود والاحكام على نحو ما يفعل الامراء ، فلابد أن يكون معنى الولاية فى الآية مما يصح أن يراد ويقصد فى حق الله ، وهو هنا : النصرة فى الدين .. ثم ان الولاية التى يقع فيها الاشتراك بين الطرفين هى النصرة فى الدين . فنحن اذا تولينا الله تولانا ولا يصح أن يراد ذلك اذا كان المعنى ولاية الامام لتدبير امورنا ، فنحن لا نذبر امره ليدبر امرنا ، والا كان الناس وهو فى الامامة والتدبير وحق الطاعة سواء ، بسبب هذا الاشتراك فى التولى .. اما على الوجه الاول فنحن ننصر الله فى الدين وهو ينصرنا ، سبحانه ، على حد قوله: « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (١٠٩) .

وسادسا : انه حتى لو سلمنا بنزول الآية فى على فليس هناك مايقطع باختصاصها به ، اذ لا دليل على أن غيره لم يصنع مثل ماصنع وعدم رواية فعل هذا الغير لا يقدح فى امكان حدوثه . لان مثل ذلك مما لا تجب روايته ونقله .

وسابعا : انه لو ثبت أن هذه الآية تقرر الامامة والولاية لعلى ، فانها تقررها فى تلك الحال . ومعنى ذلك انه امام فى حياة الرسول ، وذلك مالا يستطيع ان يقول به احد ، وتخريجات الشيعة لا تقنع .

(١٠٩) محمد : ٧ .

تلك هي اعتراضـات المعتزلة على الآية التى اعتبرها الشيعة أقوى الادلة القرآنية على النص على امامة على ابن أبى طالب (١١٠) .

٢ ــ حديث الغدير :

وكما ظنت الشيعة وأملت فى آية « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » أن تكون أقوى أدلتها القرآنية على النص على امامة على بن أبى طالب . كذلك قالت أن حديث الغدير هو حجتها « فى النص على أمير المؤمنين ــ ــ « على » ــ بالامامة .. » .. (١١١) .. وحتى نعـلم قدر اهتمام الشيعة بحديث الغدير هذا يكفى أن نقول : انها قد روته فى كل كتبها . وأخذت روايتها له تضـيف اليه الكلمات والجمل . ثم جمعت رواياته وتحدثت عـن رواته من الصحابة والتابعين ومن وليهم من بعـــد حتى اخرجت لنا سفرا ضخما فى ستة عشر مجلدا تحت عنوان « الغدير فى الكتاب والسنة والادب ؟ » (١١٢) .

ويزيد من اعتماد الشيعة على الاحتجاج بهذا الحـديث انه قد روى فى كتب السنة المعتمدة عند أهل السنة كما روى فى كتب الحديث الشيعية وان اختلفت الفاظه طولا وقصرا فى هذه الروايات .

وفوق ذلك فهم يربطون مناسبة الحديث بآيات مـــن القرآن يرون انه قد قيل تفسيرا لها وتفصيلا لاجمالها ..

(١١٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٣٣ ــ ١٣٩ .

(١١١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ١٦٩ .

(١١٢) رجعنا الى طبعته الثالثة ، وهى مطبـوعة فى بيروت ، بدون تاريخ ، ومؤلفه هو الشيخ عبد الحسين احمد الامينى النجفى ، من علماء الشيعة وحججهم .

فيقولون : ان حديث الغدير قد جاء نصا من الرسول على امامة علي . وهو امتثال لامر الله الوارد في الآية : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك . وان لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » (١١٣) وان ذلك الامر المنزل الذى تطلب الآية من الرسول تبليغه هو النص على امامة علي ، وهو ما أجمل في اية : « يا ايها الذين آمنـــوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (١١٤) .. تلك هي مداخل الشيعة الى آمالها المعلقة على حديث الغدير . فهم يقولون في تفسير آية : « يا أيها الرســول بلغ » « أى يامن مننا عليه بالكمال قبل يوم القيــامة . فواصلناه بروح القدس وجعلناه رسولا بين يدى الساعة منبعثا .. « بلغ ما أنزل اليك من ربك » اى بين لتابعيك ما أنزل اليك من الوحى مجملا من فريضة طاعـــة أولى الامر بعدك في قولنا : « يا أيها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » كما شرحت وبينت غيرها من الفرائض . « وان لم تفعل فما بلغت رسالته » يقول : فانك ان لم تبين لاتباعك من القائم مقامك بعـدك ليكون الامر محفوظا بمكانه . والناس آخذون بعبـادتهم بطاعته . كان مؤديا الى اختلال الامر . وانحلال معـاقد ما أسسته وقننته من قوانين العبادة العملية . وعموم الامراض النفسانية فيهم « فما بلغت رسالته » يقول : فكأنك ماقمت بالامر على وجهه « والله يعصمك من الناس » يقول : وان كنت تخاف من الناس نكثا وارتدادا فلا تخف فان العناية قائمة في توفيقك وحفظ الامة بعدك . فلا قوة

(١١٣) المائدة : ٦٧ .

(١١٤) النساء : ٥٩ .

لأحد ممن تخشى التواءه عليك . وعلينا تدبيره .. » (١١٥)

ويربط بعض الشيعة بين حديث الغدير وبين آية أخرى هي قول الله لرسوله : « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » (١١٦) .. ويقولون اى « اذا فرغت فانصب علمك وأعلن وصيك . وأعلمهم فضله علانية » (١١٧) .

ويقولون ان هذا الامر بالتبليغ كان عند العودة من حجة الوداع ، عندما نزل الرسول بموضع « غدير خم » فأمر بشجرات فكسح له عنها وجمع الناس ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فرفعها الى السماء ، وقال : « الست أولى بكم من انفسكم ؟ قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .. »(١١٨) .

وقالوا : ان لفظ « مولى » وان كان يطلق على معان عدة ، منها : الاولى ، والمولى : المنعم المعتق ـ بكسر التاء ـ والمولى : المنعم عليه المعتق ـ بفتح التاء ـ والمولى الولي ، والمولى : الجار . والمولى : ابن العم ، والمولى : الصهر . والمولى : الحليف .. الا ان المراد بالمولى فى حديث الغدير هو الاولى ، بدلالة مقدمة الحديث . كما قالوا : ان المراد هنا هو الامامة ، فلفظة « أولى » تفيد معنى الامامة .. لانا نجد اهل اللغة لا يضعون هذا اللفظ الا فيمن كان يملك تدبير ماوصف بانه أولى به وبتصريفه. وينفذ فيه أمره ونهيه . الا تراهم يقولون : السلطان

---

(١١٥) الكرمانى ، احمد بن حميد الدين (راحة العقل) ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ تحقيق د. محمد كامل حسين ، و د. محمد مصطفى حلمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

(١١٦) الانشراح : ٨ .

(١١٧) الكافى . جـ ١ ص ٢٩٤ .

(١١٨) (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ١٩ .

أولى باقامة الحدود من الرعية ، وولد الميـــت أولى بالميراث من كثير من أقاربه ، والزوج أولى بامراته ، والمولى بعبده ، ومرادهم ـ في جميع ذلك ـ ما ذكـرناه ، ولا خلاف بين المفسرين في ان قوله تعالى : « النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم » (١١٩) المراد به أنه أولى بتدبيرهم . والقيام بأمرهم ، من حيث وجبت طاعته عليهم . ونحن نعلم أنه لا يكون أولى بتدبير الخلق وأمرهم ونهيهم من كل احد منهم الا من كان اماما لهم مفترض الطاعة عليهم . . » (١٢٠) .

هكذا قالت الشيعة . . ورووا كذلك . اثباتا لان النص من الله على لسان النبي . أن جابر بن النضر بن الحارث ابن كلدة العبدري ، قد سأل الرسـول عقب هـذا الاعلان :

ـ « يا محمد ، أمرتنا من الله ان نشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله ، وبالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا ، وقلت : من كنـت مولاه فعلي مولاه . فهذا شيء منك ؟ أم من الله ؟

ـ فقال رسول الله : والذي لا اله الا هو ان هـذا من الله .

فولى جابر يريد راحلته وهو يقول : اللهم ان كـان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السـماء او ائتنا بعذاب أليم . فما وصل اليها حتى رماه الله بحجر

---

(١١٩) الاحزاب : ٦ .

(١٢٠) (تلخيص الشافي) جـ ١ ق ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨٢ ـ ١٨٥ ، ١٨٦ .

فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله ، وأنزل الله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج » (١٢١) » .

كما تروى الشيعة أن عمر بن الخطاب قد هنأ عليا بعد اعلان حديث الغدير . عندما لقيه فقال له : « هنيئا لك يابن ابى طالب ، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة » (١٢٢) .

تلك هى الحجة العمدة للشيعة على النص على امامة على من الحديث والمعتزلة على هذا الحديث ، وعلى تفسير الشيعة له ملاحظات تخرج به عن أن يكون دليلا على امامة على أو ان يكون شاهدا على ما استشهد به الشيعة عليه . ومن هذه الملاحظات :

أولا : اما والجميع مسلم بأن لفظ « الولى » له معانى عدة . وانه من الالفاظ المشتركة . فان القول بأن المراد به فى هذا الحديث : الاولى ومن ثم الامامة ، مردود بأنه لا يوجد ما يرشحه . بل ان فى المقام مايرشح أن يكون المراد بالمولى هنا : النصرة فى الدين خاصة . لانه اذا كان الحديث يقول فى جزء منه : « اللهم وال من والاه » (١٢٣) فان فى الامر مشاركة وتبادلا وذلك لائق اذا كان الحديث عن النصرة فى الدين ، ولا يصح اذا كان الكلام عن الامامة ، فاذا كان الامام أولى بالرعية . لانه مدبرها . فليست الرعية بأولى به لانها مدبرته . ان ذلك غير وارد . خصوصا

---

(١٢١) المعارج : ٣ .

(١٢٢) (الغدير) جـ ١ ص ٢٣٩ . (والضبع ـ بفتح الضاد وسكون الباء ـ : العضد ، أو الكتف ، أو رفع اليدين بالدعاء .. تلك بعض معانيها) .

(١٢٣) المرجع السابق . جـ ١ ص ٢١٩ .

على مذهب الشيعة فى عصمة الامام وتفرده بهـــذه العصمة . واستحالةان تتمتع الامة معهبشيء منالسلطان.

ثانيا : ان مجيء لفظ « مولى » بمعنى موالاة الدين والنصرة فيه كثير . وفى القرآن : « ذلك بأن الله مـولى الذين آمنوا » (١٢٤) « والمراد بذلك موالاة الدين والنصره فيه » وفيه : « فان الله هو مولاه وجبريل وصـــالح المؤمنين » (١٢٥) . « والمراد بذلك النصرة فى الدين » . وفيه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض » (١٢٦) ، أى ينصرون بعضهم فى الدين ..

ثالثا : ان رواية الشــــيعة لقول عمر مهنئا عليا : « اصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة » يقطع على أن المقام الذى أحدثه الحديث لعلى قد استحقه فى الحال، فلو كان ذلك المقام هو الامامة لكان اماما فى حياة الرسول، وذلك مالم يقل به أحد حتى من الشيعة ، ولن ينفعهـم قولهم أن الاستحقاق قد ثبت له فى الحال ولكن التصرف مؤجل الى مابعد وفاة الرسول (١٢٧) » . ذلك لان قول عمر لعلى : « أصبحت مولاى ومولى كل مؤمنومؤمنة » هو ـعلى رأى الشيعة ـ أصبحت أولى بالمؤمنين ، أى مدبرا لامرهم ، وصاحب الطاعة عليهم ، وهـذا يقتضى حلول التصرف لا تأجيله الى مابعد وفاة الرسول .

رابعا : ان المراد بهذا الحديث هو اثبات فضل لعلى ابن أبى طالب مقطوع به « لا يتغير على الاوقات ، لان

---

(١٢٤) محمـد : ١٢ .

(١٢٥) التحريم : ٤ .

(١٢٦) التوبة : ٧١ .

(١٢٧) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ١٩٩ .

وجوب الموالاة على القطع يدل على سائر الاوقات .. وهذه منزلة عظيمة تفوق منزلة الامامة ، ويختص هو بهـا دون غيره ». (١٢٨) هذا على مذهب المعتزلة الذين يفضلون عليا على غيره من الصحابة : أما الذين يرتبون الصحابة الراشدين فى الفضل ترتيبهم فى الامامة فيقولون : ان الحديث « يدل على الفضل والقدر . وليس بالتفضيل الذى لا بعده . والتقديم الذى لا فوقه .. » (١٢٩) .

خامسا : يروى المعتزلة ، كسبب لهذا الحديث ، وجها آخر يبتعد به عن موضوع الامامة ، فيقولون أن جدلا وملاحاة حدثت بين على وبين زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ، فأغلظ على لزيد . ورد زيد مقالة على فقال له على : تقول هذا القول لمولاك ؟! فقال زيد : ولائى لرسول الله ولست لى بمولى ، فشكا على زيدا الى رسول الله ، فقال النبى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ... وعندئذ يستوى على فى ذلك مع العباس . والفضل ، وعبد الله ، وقثم ، وتمام ، ومعبد .. فالمولى هنا هو مولى النعمة .. (١٣٠) .

سادسا : أن الروايات الشيعية لهذا الحديث قد اضافت اليه ألفاظا لم يروها الرواة السنة . من مثل عبارة : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » (١٣١) .

سابعا : ان عليا نفسه يستخدم لفظ « الولاية » بمعنى النصرة . كما يستعمله بنفس المعنى من نسبت اليهم

---

(١٢٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٦٤ – ١٥٦ .

(١٢٩) (العثمانية) ص ١٤٨ .

(١٣٠) المصدر السابق . ص ١٤٤ – ١٤٦ و (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١٣١) (العثمانية) ص ١٤٤ .

رواية هذا الحديث ، فنصر بن مزاحم ، صاحب كتاب « وقعة صفين » يروى عن عمر بن سعد ، عن الحارث ابن حصين ، قال : « دخل أبو زينب بن عوف – « وهو من رواة حديث الغدير » (١٣٢) – على على بن أبى طالب – « يوم صفين » – فقال : يا أمير المؤمنين ، لئن كنا على الحق لانت أهدانا سبيلا ، وأعظمنا فى الخير نصيبا ، ولئن كنا على الضلال . انك لأثقلنا ظهرا وأعظمنا وزرا قد أمرتنا بالمسير الى هذا العدو . وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية واظهرنا لهم العداوة ، نريد بذلك مايعلمه الله تعالى من طاعتك ، اليس الذى نحن عليه هو الحق المبين ، والذى عليه عدونا هو الحرب الاكبر ؟! فقال على ، بلى ، شهدت انك ان مضيت معنا ، ناصرا لدعوتنا ، صحيح النية فى نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة ، كما زعمت ، فانك ولى الله ، تسبح فى رضوانه ، وتركض فى طاعته » (١٣٣) .

فالولاية هنا تقابلها العداوة ، ومعناها النصرة ، والولى هنا هو الناصر لدين الله .. « فالموالاة فى الدين مفاعلة تقتضي فى كل واحد منهما هذا المعنى ، كما يقتضيه لفظ المعاداة » (١٣٤) .

تلك هى أهم ملاحظات المعتزلة التى عارضوا بها تفسير الشيعة لحديث الغدير واستدلالهم به على النص على امامة على بن أبى طالب ، ولقد اتفق أهل السنة مع المعتزلة فى الاعتراض على تفسير الشيعة لهذا الحديث ،

---

(١٣٢) (الغدير) جـ ١ ص ١٤ .

(١٣٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(١٣٤) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٤٨ .

ورأوه حديث آحاد ، وأن معظم مافيه لغو وحشو .. بل لقد شكك بعضهم فى وجود على مع الرسول فى غدير خم . وقال : انه كان يومئذ باليمن .. ! (١٣٥) .

ثم .. ان هناك غير هذه الاعتراضات التى قدمها المعتزلة واهل السنة على استدلال الشيعة على النص بهذا الحديث .. هناك غير هذه الاعتراضات ملاحظات نضمها الى قائمة هذه الاعتراضات :

اولها : ان روايات الشيعة لهذا الحديث قد اختلفت بالزيادة والنقص . اختلافا بينا وشديدا . والملاحظ ان الزيادات كانت تأتى لترد على اعتراضات قد اثارها خصوم الشيعة ، مما يوحي ، ان لم نقل يؤكد ، دخول الوضع والاضافة فى متن هذا الحديث .

فالاصل فى هذا الحديث : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وتضيف اليه رواية عبارة : « .. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .. » (١٣٦) .

وتقول رواية ثالثة : انه كرر العبارة ثلاث مرات .. (١٣٧) .

وتقول رواية رابعة : ان الرسول قد استفتح كلامه بقوله : « الست اولى بكم من انفسكم ؟ قالوا : بلى . قال فمن كنت مولاه .. » (١٣٨) .

---

(١٣٥) أنظر (كتاب الارشاد) للجوينى . ص ٤٢١ – ٤٢٣ . تحقيق د. محمد يوسف موسى ، وعلى عبد المنعم عبد الحميد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م . و (التمهيد) للباقلانى . ص ١٧١ ، ١٧٢ ، و (شرح المواقف) للجرجانى . مجلد ٣ ص ٢٧٢ .

(١٣٦) (الغدير) ج ١ ص ٢١٩ .

(١٣٧) المرجع السابق . ج ١ ص ٢٩٤ .

(١٣٨) (دعائم الاسلام) ج ١ ص ١٩ .

وتقول رواية خامسة : ان الرسول استهل كلامه بقوله : « الصلاة جامعة » ثم قال : « أيها الناس ، اعلموا ان عليا مني بمنزلة هارون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي ، وهو وليكم بعدي ، فمن كنت مولاه » وتزيد هذه الرواية في نهاية الحديث : بعد : « وعاد من عاداه » تزيد « وانصر من نصره . واخذل من خذله . وأدر الحق معه حيث دار (١٣٩) .

وتقول رواية سادسة : ان الرسول أضاف بعد : «وعاد من عاداه » قوله : « اني تارك فيكم أمرين ان اخذتم بهما لن تضلوا : كتاب الله عز وجل . وأهل بيتي عترتي . ايها الناس ، اسمعوا . وقد بلغت . انكم ستردون على الحوض فأسألكم عما فعلتم في الثقلين . والثقلان : كتاب الله جل ذكره واهل بيتي ، فلا تسبقوهم . فتهلكوا . ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم » (١٤٠) .

وتقول رواية سابعة : ان الرسول قال في غدير خم : « ايها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من انفسهم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ان الله مولاي ، وانا مولى المؤمنين . وانا أولى بهم من انفسهم ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه .. اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه . وأحب من أحبه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره . واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، الا فليبلغ الشاهد الغائب .. » (١٤١) .

وتقول رواية ثامنة : ان الرسول سئل ايضاحا لحديثه

---

(١٣٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٦ .

(١٤٠) (الكافي) جـ ١ ص ١٦ .

(١٤١) (الغدير جـ ١ ص ١٠ ، ١١ .

فقال : « الله مولاى ، أولى بى من نفسى ، لا أمر لى معه ، وانا مولى المؤمنين . أولى بهم من انفسهم ، لا أمر لهم معى ، ومن كنت مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معى فعلى مولاه أولى به من نفسه ، لا أمر له معه » (١٤٢) .

وتقول رواية تاسعة ، ان الرسول قد قال ، بعد قوله هذا لابى بكر وعمر : « قوما فسلما عليه ــ « أى على على» ــ بامرة المؤمنين فقالا : أمن الله أو من رسوله يا رسول الله ؟ فقال لهما رسول الله : من الله ومن رسوله . فأنزل الله عز وجل : « ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . أن الله يعلم ماتفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون ائمة هى ازكى من ائمتكم » فسأل راوى هذه الرواية زيد بن الجهم الهلالى . سأل قائلها : أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق « جعلت فداك . ائمة ؟! قال : اى والله ائمة ! قلت : فانا نقرأ : « أربى » ــ « أى لا أزكى » ــ فقال ما أربى ؟ ــ وأومأ بيده فطرحها ــ « انمايبلوكم الله به » يعنى بعلى « وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون .. لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن يوم القيامة عما كنتم تعلمون . ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » يعنى بعد مقالة رسول الله فى على « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » يعنى به عليا « ولكم عذاب عظيم » (١٤٣) .. « (١٤٤) .

---

(١٤٢) (النقض على صاحب مجموع المحيط) اللوحة ١٢٨ أ ، ب .

(١٤٣) النحل : ٩٢ ــ ٩٤ .

(١٤٤) (الكافى) جـ ١ ص ٢٩٢ .

وثانيها : ان حرص الشيعة على أن يشهد هذا الحديث لرايهم فى النص على امامة على بن ابى طالب قد تعدى التفسير القسرى لبعض آيات القرآن الى الطعن فى بعض آيات القرآن كما هى فى المصحف الذى بين يدى المسلمين .. فمثلا هم فى الرواية التاسعة لهذا الحديث ــ والتى قدمناها للتو ــ يقولون ، بلسان جعفر الصادق : أن مانقراه من سورة النحل « أن تكون أمة هى أربى من أمة » تحريف وتبديل واصله « ان تكون ائمة هى أزكى من ائمتكم » .

كما ينسبون الى ابن مسعود قوله : كنا نقرأ على عهد رسول الله : « يا أيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك ــ ان عليا مولى المؤمنين ــ ون لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » (١٤٥) .

وثالثها : انهم فى حرصهم على تأييد موقفهم يأتون بآيات مكية فيقولون بنزولها عند العودة من حجة الوداع بعدما ختم الله تنزيل القرآن .. فاية الانشراح : « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب » مكية . فى سورة مكية. ومع ذلك هم يقولون : انها نزلت تطلب من الرسول أن يعلن وصية ، ويعلم الناس فضله علانية يوم « غدير خم » (١٤٦) .

وآيات المعارج « ١ ــ ٢ » : « سأل سائل بعذاب واقع .. للكافرين ليس له دافع .. من الله ذى المعارج » هى آيات مكية . فى سورة مكية . ومع ذلك يقولون

(١٤٥) (الغدير) جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(١٤٦) (الكافى) جـ ١ ص ٢٩٤ .

بنزولها بعد حديث « غدير خم » . فى شأن جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العبدرى . (١٤٧) .

ورابعها : أن هناك ملاحظات تلقى بعض الشكوك والشبهات على الاسانيد التى روت عنها الشيعة حديث الغدير . وهى شبهات وشكوك تقدح فى هذا الحديث . فتجعله دون مرتبته التى هو عليها ، مرتبة حديث الآحاد .. ذلك أن أسماء الصحابة الذين يذكر الشيعة أنهم رووا هذا الحديث قد بلغت مائة وعشرة .. ولكن عددا من أصحاب هذه الاسماء ليس لهم من معنى الصحبة الحقيقى شيء كثير ، فمنهم من أسلم متأخرا ومنهم من اقتصرت صحبته أساسا على معاصرة الرسول ، ومنهم عدد كبير قد عرف بموالاته لعلى وانخراطه فى الحرب معه ضد خصومه . كما أن من بين هذه الأسماء أربعة عشر ينتسبون لبنى هاشم وبنى عبد المطلب على وجه الخصوص ، وللانصار ، الذين ايدوا عليا ، والذين لعبت الدوافع القبلية دورها فى وقوفهم معه ضد قريش ، للأنصار وحدهم فى هذه الاسماء التى روت حديث الغدير ستة وثلاثون راويا ؟! (١٤٨) .

وهذه الاعتبارات وان لم تقم مقام الدليل على وضع هذا الحديث فانها تقف علامة استفهام تطلب جوابا عن : لماذا كانت هذه الاسماء أساسا هى التى روى أصحابها . أم نسب لأصحابها رواية حديث الغدير وهل كانت الجماعة التى حضرت اعلان الرسول عند « غدير خم »

---

(١٤٧) (الغدير) جـ ١ ص ٢٣٩ . وانظر فى مكية هذه الايات التفسير الشيعى (مجمع البيان فى تفسير القرآن) للطبرسى جـ ٩ ص ٣٥٠ . طبعة طهران .

(١٤٨) (الغدير) جـ ١ ص ١٤ ـ ٦١ .

أغلبها من هذاالاتجاه الذى عرف بتأييده لعلى وقتاله معه بعد وفاة الرسول وحدوث الاحداث ؟؟! خصوصا وان البعض يقطع بعدم صحته ، وكما يقول ابن حزم : فان هذا الحديث « لايصح من طريق الثقاة أصلا » (١٤٩) .

ذلك عن حديث الغدير .. أقوى أدلة الشيعة . من السنة ، على النص من الله على لسان النبى بالوصية والامامة لعلى بن أبى طالب .

٣ ــ حديث : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبى بعدى :

عندما خرج النبى للقاء عدوه فى غزوة تبوك خلف عليا على المدينة ، فأشاع نفر من المنافقين أن الرسول قد استثقل عليا فخلفه . فلحق على بالرسول وشكى اليه . فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبى بعدى » .

والشيعة تحتج بهذا الحديث على أن لعلى من الرسول جميع منازل هارون من موسى ، سوى منزلة النبوة ، ويدخلون فى هذه المنازل الثابتة : الامامة ، اما لان هارون قد كان سيتولاها لو امتدت حياته بعد موسى . واما لان موسى قد استخلفه فى قومه عندما ذهب الى ميقاته يكلم ربه .

بل انهم يثبتون لعلى من المنازل والسلطات كل ماكان لهارون من موسى ، ولا يرون أن نفى النبوة يقتضى نفى

(١٤٩) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٤٨ .

مايجب لمكانها .. فيقول الطوسي ، مثلا : « انه قد ثبت ان هارون كان مفترض الطاعة على أمة موسى ، لمكان شركته له في النبوة التي لا يمكن دفعها ، وثبت أنه لو بقي بعده لكان مايجب من طاعته على جميع أمة موسى بحاله ، لانه لا يجوز خروجه عن النبوة وهو حي ، واذا وجب ماذكرناه ، وكان النبي قد أوجب بالخبر لامير المؤمنين جميع منازل هارون من موسى ، ونفى أن يكون نبيا . وكان من جملة منازله : انه لو بقي بعده لكانت طاعته المفترضة على أمته ، وان كانت تجب لمكان نبوته ، وجب أن يكون أمير المؤمنين مفترض الطاعة على جميع الامة بعد وفاة النبي ، وان لم يكن نبيا ، لان نفي النبوة لا يقتضي نفي مايجب لمكانها » (١٥٠) .

ويذكرون ، على وجه التحديد ، أن « الشركة في الامر » ، و « اثبات الخلافة واستحقاقها » هي من منازل هارون من موسى التي اثبتها هذا الحديث لعلي من النبي عليه الصلاة والسلام ، فيقولون : « انه صلى الله عليه وسلم اثبت له جميع منازل هارون من موسى ، الا النبوة، ومن منازل هارون من موسى الشركة في الامر ، بدليل قوله تعالى حكاية عن موسى : « واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به ازري واشركه في أمري » الى قوله تعالى : « قال : قد أوتيت سؤلك ياموسى » (١٥١) فثبتت لعلي الشركة في أمر النبي ، سوى النبوة .. ومن جملة منازل هارون من موسى اثبات الخلافة واستحقاقها، بدليل قوله تعالى : « وقال موسى لاخيه هارون اخلفني

---

(١٥٠) (تلخيص الشافي) جـ ١ ق ٢ ص ٢١٠ .

(١٥١) طه : ٢٩ ـ ٣٦ .

فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٥٢) ، وليست الخلافه ولا استحقاقها أيضا من جملة أحكام النبوة فيكون مخرجا لذلك باستثناء النبوة ... » (١٥٣) .

ويبدو أن بعض تأثيرات الفكر الاسرائيلى التى تسربت الى بعض دوائر الشيعة قد دفعت البعض الى البحث عن اوجه شبه كثيرة بين على وهارون ، حتى سموهما : « الهارونين » والامام عبد الحسين شرف الدين الموسوى يخاطب قارىء كتابه « المراجعات » فيقول له : « تتبع سيرة النبى تجده يصور عليا وهارون كالفرقدين فى السماء ، والعينين فى الوجه . لا يمتاز أحدهما فى أمته عن الآخر فى أمته بشىء ما . ألا تراه كيف أبى أن تكون أسماء بنى على الا كأسماء بنى هارون ، فسماهم : حسنا وحسينا ومحسنا ، وقال : انما سميتهم بأسماء ولد هارون : شبر وشبير ومشبر . أراد بهذا تأكيد المشابهة بين الهارونين ، وتعميم الشبه بينهما فى جميع المنازل وسائر الشئون .. » (١٥٤) .

ولكن المعتزلة يستبعدون أن تكون الامامة واردة فى المعنى الذى قصد اليه الرسول من هذا الحديث .. وهم يقدمون فى نقض موقف الشيعة هذا عدة نقاط :

فأولا : لم يعش هارون بعد موسى ، بل مات قبله . ومن ثم فهو لم يل الامامة فى قوم موسى حتى يكن تولى على الامامة فى قوم محمد أمرا واردا فى التشبيه .. كما أن القول باستخلاف على على المدينة ، بمعنى الخلافة والامامة ، غير وارد كذلك ، لانه لا تجوز امامة أحد فى

---

(١٥٢) الاعراف : ١٤٢ .

(١٥٣) (النقض على صاحب مجموع المحيط) . اللوحة ٢٢١ أ ، ب

(١٥٤) (المراجعات) ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

حياة الرسول ، ولانه قد ارسل بعد ذلك الى اليمن . ولان غيره قد تولى الاستخلاف عليها وعلى غيرها من البلاد والسرايا والوظائف ، من قبل الرسول ، ولم يقل أحد ان ذلك كان امامة أو شيئا فيه شبهة الامامة .

وثانيا : أن التشبيه انما يكون بالمنزلة الثابتة ، لابالمنزلة المقدرة ، خصوصا والمنزلة المقدرة هنا ، وهى الامامة ، لم تحدث للمشبه به ، وهو هارون لموته قبل موت موسى .

وثالثا : ان الامر الذى حدث لهارون ، مما يصح التشبيه به هنا ، هو استخلاف موسى له فى قومه عندما ذهب الى ميقاته يكلم ربه ، فيجب ان لا يراد سوى هذا الاستخلاف .. لانه هو الذى يقتضيه المقام الذى قيل فيه الحديث .. ولقد كان الرسول يستخلف فى حياته دون أن يكون ذلك امامة وولاية جامعة .

ورابعا : ان الشريعة التى كانت تحكم وتنظم مثل هذه الامور فى شريعة موسى غير معلومة لنا ، ومن ثم فان القياس على الامامة عند بنى اسرائيل هو ضرب من قياس المعلوم على المجهول (١٥٥) .

وخامسا : بنفي الجاحظ أن يكون الرسول قد استخلف عليا على المدينة عندما خرج لغزوة تبوك . ويقول ان الخلاف قائم بين أن يكون المستخلف محمد بن مسلمة ، أو عبد الله بن ام مكتوم ، فعلى كان مقيما بالمدينة — « ويبدو أنه استخلف فى أهل الرسول » — والامير على المدينة غيره والامام فى الصلاة بها سواه .

وسادسا : يشكك الجاحظ فى هذا الحديث من

(١٥٥) (المغنى) ج ٢٠ ق ١ ص ١٥٩ — ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ — ١٨٠ .

اساسه ، ويقول : « ان هذا الحديث لم يرو الا عن عامر ابن سعد — « بن أبى وقاص » — وعامر هذا لو كان بالفقه والحديث والفضل معروفا وكان كأمثاله من بنى الصحابة .. ما كان ليكون وحده حجة فى تأخير أبى بكر عن مقامه ، فكيف وهو فى غير سبيلهم وطريقهم ؟! (١٥٦) .

وسابعا : ان الذى تولى الامر فى بنى اسرائيل . بعد موسى ، هو يوشع بن نون ، فلو كانت الامامة مرادة من الرسول لقال لعلى : انت منى بمنزلة يوشع بن نون من موسى ، الا انه لا نبى بعدى (١٥٧) .

وثامنا : ان الشركة التى كانت بين هارون وموسى انما كان أساسها الاشتراك فى النبوة ، وموسى انما استخلف هارون فى قومه باعتباره نبيا ، وليس هناك مايدل على انه استخلفه لاعتبار آخر ، وبما أن النبوة منفية عن على ، فلا وجه للشبه فيما يتعلق بمعنى الاستخلاف اذا أريد استخلاف الامامة (١٥٨) .

تلك هى حجج المعتزلة التى نقضوا بها قول الشيعة واستدلالها بهذا الحديث على النص .. ولقد اتفق أهل السنة مع المعتزلة فى ذلك (١٥٩) .

ونحن نضيف : انه لا مجال لقياس شئون الحكم والسياسة فى الدولة الاسلامية على مثلها فى تراث بنى اسرائيل ، لاننا قد سبق وأوردنا حديث الرسول الذى

---

(١٥٦) (العثمانية) ص ١٥٣ — ١٥٩ .

(١٥٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٦٥ . و (العثمانية) ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(١٥٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٦٦ .

(١٥٩) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٩٤ . و (التمهيد) للباقلانى ص ١٣٧ ، ١٧٤ .

يفرق بين طبيعة السلطتين فى المجتمعين ، حيث كانت وحدة السلطة الدينية والزمنية متبعة وقائمة غالبا عند العبرانيين فكلما هلك نبى جاءهم نبى . اما فى الاسلام فمحمد ، عليه الصلاة والسلام ، هو خاتم المرسلين والانبياء .. ثم .. ان قصة موسى وهارون بأكملها قد حدثت فى فترة التيه الذى وقع لبنى اسرائيل . ولقد مات كل من هـــارون وموسى قبل دخولهم ارض الكنعانيين ، اى قبل ان تقوم لهم دولة لها حاكم وامام ، فالذين يقيسون على تلك الفترة ويشبهون بها هم يقيسون على شريعة مجهولة ، وعــلى نظام سياسى لا وجود له ، فلم تكن هناك « دولة » حتى نقيس على « نظامها » ووضع « الامام » فيها ، وهـــذا يرشح قول المعتزلة واهل السنة ان الامامة لم تكن معنية ولا مرادة اصلا فى قول الرسول لعلى : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، الا انه لا نبى بعدى » .

٤ ـ حديث : ان هذا اخى ووصيى وخليفتى فيكم :

واحتجت الشيعة بهذا الحديث لاثبات النص بالامامــة فى على بن ابى طالب ، ولكن هناك عددا من الاعتراضات التى تساق ضد الاستدلال بهذا الحديث ، منها :

أولا : ان الفاظ هذا الحديث تختلف حتى فى مصادر الشيعة .. فهم ، مثلا ، يروون عن على قوله : « لما انزل الله عز وجل : « وانذر عشيرتك الاقربين » . (١٦٠) جمع رسول الله بنى عبد المطلب على فخذ شاه وقدح من لبن .. وهم بضع واربعون رجلا .. واكلوا .. وشربوا ..

(١٦٠) الشعراء : ٢١٤ .

فقال لهم رسول الله : يابنى عبد المطلب ، أطيعونى تكونوا ملوك الارض وحكامها ، ان الله لم يبعث نبيا الا جعل له وصيا ووزيرا ووارثا ووليا ، فايكم يكون وصيى ووارثى، ووليى وأخى ووزيرى ؟.. فسكتوا ؛ فجعل يعرض ذلك عليهم رجلا رجلا ؛ ليس منهم أحد يقبله ، حتى لم يبق منهم أحد غيرى . وانا يومئذ من أحدثهم سنا ، فعرض على فقلت : انا يا رسول الله . فقال : نعم أنت يا على .. (١٦١) .

ويروونه فى رواية أخرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابنى عبد المطلب . انى والله ما أعلم ان شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله أن أدعوكم اليه ؛ فايكم يؤازرنى على امرى هذا ، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم ؟ .. فقال على : انا يانبى الله أكون وزيرك عليه . فأخذ رسول الله برقبته وقال : ان هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ..»(١٦٢)

وفى رواية ثالثة : « يابنى عبد المطلب ، أطيعونى تكونوا ملوك الارض وحكامها ، ان الله عز وجل لم يبعث نبيا قط الا جعل له وصيا وأخا ووزيرا ، فأيكم يكون أخى ووصيى ومؤازرى وقاضى دينى ؟ .. فأبوا قبول ذلك . وقالوا : من يطيق ماتطيقه أنت ؟! فقام اليه أمير المؤمنين ، وهو اصغرهم سنا ، فقال له : انا يارسول

(١٦١) (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ١٥ ، ١٦ .
(١٦٢) (المراجعات) ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

الله . فقال له : انت لعمرى تقبل ما قلت وتجيب دعوتى » . (١٦٣) .

وفى رواية رابعة ، عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أخى ووزيرى وخليفتى فى أهلى وخير من اترك بعدى يقضى دينى وينجز موعدى على بن ابى طالب » .

فهذه الروايات تختلف . لا فى الالفاظ والعبارات ؛ فذلك هين ، وانما تختلف فى تحديد الوظائف والمهام التى نص الرسول عليها لعلى .. ففى الرواية الاولى نجد : « الوصى » و « الوزير » و « الوارث » و « الاخ » و « الولى » . وفى الثانية نجد : « الاخ » و « الوصى » و « الوزير » و « قاضى الدين » . فتنقص اثنتين عن الاولى وتزيد واحدة .. وفى الرابعة نجد : « الاخ » و « الخليفة فى الاهل » و « قاضى الدين » و « منجز الموعد » ، فتتساوى مع الاولى فى العدد وتختلف معها فى وظائف ثلاث ..

هذا عن اختلاف لفظ الحديث ، كما ترويه مصادر الشيعة ، اختلافا يغير من وظائف من قالوا بالوصية له والنص عليه .

ثانيا : ان المناسبة التى قيل فيها الحديث تدعو الى الشك فى صلاح الفاظه للدلالة على مايستدل عليه الشيعة بهذه الالفاظ .. اذ ان المقام فى بدء الدعوة ، وعشيرة الرسول لم تبلغهم الدعوة بعد ، ولم يؤمن منهم سوى على ابن ابى طالب ، ان هذا المقام يتطلب من الرسول ان

---

(١٦٣) (اثبات الوصية) ص ٨٨ .
(١٦٤) (تلخيص الشافى) ج ٣ ص ١٧ .

يبحث من مؤمن بدينه الجديد ، وليس عن الوارث والخليفة ، بالمعنى الذى يقصده الشيعة من هذه الالفاظ .. فاما أن يكون الحديث مكذوبا أصلا ، أو أن تكون الفاظ الوزير والوارث والوصى مرادا بها النصرة والايمان بالتوحيد ، وفى هذه الحالة يخرج الحديث عن الموضوع والمقام الذى يستشهد به الشيعة فيه .

ثالثا : ان لفظ « الوزير » يعنى المؤازر والمعين ، وليس يعنى المعنى المراد به اليوم فى لغة السياسة ، ومن ذلك قول أبى بكر للانصار فى السقيفة : منا الامراء ومنكم الوزراء . ولم يكن يعنى منصب الوزارة لانها لم تكن قد نشأت فى الدولة العربية الاسلامية بعد ، وانما عنى المؤازرين المعينين ، وهذا المعنى اذا أضيف اليه تحديد الخلافة فى رواية أنس بن مالك لهذا الحديث وتقييدها بالخلافة فى الاهل ، حيث قال : « وخليفتى فى أهلى » ، ان ذلك يرشح الرأى الذاهب الى أن الاولى هو أخراج هذا الحديث من أطار الجدل حول الامامة وامارة المؤمنين والخلافة ، لان المراد به المعاونة ، والنهوض بمهام أسرية .

واقصى مايمكن ان يستدل عليه بهذا الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يطلب أن يعهد الى أحد بنى عبد المطلب بقيادة عملية التبشير بالاسلام فيهم والنهوض بتعليمهم تعاليم الدين الجديد . كما كان وحدث عندما يعين للحى أو البطن أو القبيلة من يؤمها فى صلاتها ويقرأ لها القرآن ويعلمها أمر دينها ، ومن ينهض بهذه المهمة فى بني عبد المطلب فهو مؤازر للرسول ، وخليفته فى أهله ،

كما أنه أخوه فى الدين ، فضلا عن النسب بالمعنى الواسع .

ولذلك قالت المعتزلة : « ان هذا الخبر يجرى مجرى اخبار الآحاد ، والالفاظ المذكورة فيه مختلفة .. اما قوله أنت « وصيى » ، فلا يدخل تحت الوصية الا ما يختص الموصي من الاحوال ، دون مايتعلق بالدين والشرع ، فانما يدل ذلك على أنه عليه السلام اعتمده فيما يتعلق بأهله ولذلك عطف عليه قضاء الدين ، – « بفتح الدال المشددة» – لتأكيد الذى خوله فى الوصية .. فاما أن يدل على الامامة فبعيد .. واما : « خليفتى من بعدى » ، فغير معروف ، والمعروف : « خليفتى فى أهلى » ، ولو كان ماتعلقوا به حقا لما جاز لعلى ترك الاحتجاج بهذا الحديث « عند اختلاف الاحوال فى باب الامامة » (١٦٥) .

٥ – اضافة آية للقرآن تقول : « وان عليا امير المؤمنين » !

ولقد بلغ الغلو ببعض الشيعة أن زعموا أنه قد كان بالقرآن المنزل ماينص صراحة على امارة على للمؤمنين ، وعلى أن لقب « أمير المؤمنين » انما هو تلقيب له من الله سبحانه وتعالى ذكره فى القرآن ، و « الكلينى » يذكر فى « الكافى » عن أبى جعفر محمد بن على ، برواية : على بن ابراهيم .. عن يعقوب بن يزيد ، عن ابن أبى عمير ، عن أبى الربيع القزاز ، عن جابر ، عن أبى جعفر ... ذلك الحوار !

(١٦٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٨٢ – ١٨٥ .

ـ قال جابر : « قلت لابى جعفر : لم سمى ـ « اى على » ـ أمير المؤمنين ؟

قال : الله سماه . وهكذا انزل فى كتابه : « واذ أخـذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ وان محمدا رسولى ؟ وان عليـــا أمـير المؤمنين ؟ » .. » (١٦٦) .

وهم يقصدون من وراء ذلك القول بأن النص ، بل وحتى التسمية بلقب امير المؤمنين ، انما هى من الله ، على لسان الرسول ، وليست من الرسول ، لان قدر الامام عنـدهم ليس اقل من قدر النبى ، حتى يكون تعيينه من قبله ، بل ربما زاد قدره على قدر النبى ، ومن ثم فلابد وان يكون الله هو الذى يعين كليهما .

وهم يسوقون فى هذا المقام « قصصا » ارادوا لها أن تكون حججا وبراهين ، فيقولون مثلا : انه قد حدث فى ليلة المعراج ذلك الحوار بين الله سـبحانه وتعـالى وبين رسوله :

ـ قال الرسول : « ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنـا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » (١٦٧).

ـ فقال الله عز وجل : « قد فعلت . ثم قال له : من لامتك من بعدك ؟

ـ فقال : الله أعلم .

ـ فقال : على بن أبى طالب امير المؤمنين .

---

(١٦٦) (الكافى) ج ١ ص ٤١٢ .
(١٦٧) البقرة : ٢٨٦ .

فكانت امامته من الله مشافهة » (١٦٨) .

وهم لا يكتفون بهذه « المشافهة » ، فيقولون ان الله قد انزل بامارة علي وامامته كتابا مسجلا ، ذلك انه لما قرب أمر رسول الله « انزل الله جل وعلا من السماء كتابا مسجلا ، نزل به جبرئيل مع أمناء الملائكة ، فقال جبرئيل : يارسول الله ، مر من عندك بالخروج من مجلسك ، الا وصيك ، ليقبض منا كتاب الوصية ، ويشهدنا عليه . فامر رسول الله من كان عنده في البيت بالخروج ، ما خلا امير المؤمنين ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين . فقال جبرئيل : يارسول الله ، ان الله يقرىء عليك السلام ، ويقول لك : هذا كتاب بما كنت عهدت وشرطت عليك ، واشهدت عليك ملائكتي ، وكفى بي شهيدا . فارتعدت مفاصل السيد محمد ــ « كذا » ــ فقال : هو السلام ، ومنه السلام ، واليه يعود السلام ، صدق الله ، هات الكتاب ، فدفعه اليه ، فدفعه من يده الى علي ، وامره بقراءته ، وقال : هذا عهد ربي الي وأمانته ، وقد بلغت وأديت . فقال امير المؤمنين : وانا اشهد لك ، بابي انت وامي ، بالتبليغ والنصيحة والصدق على ماقلت ، ويشهد لك به سمعي وبصري ولحمي ودمي . فقال له النبي : أخذت وصيتي ، وقبلتها مني ، وضمنت لله تبارك وتعالى الوفاء بها ؟ قال : نعم ، علي ضمانها ، وعلى الله عز وجل عوني .. فاشهد رسول الله جبرائيل وميكائيل والملائكة المقربين على أمير المؤمنين عليه السلام . ثم دعا رسول الله فاطمة والحسن والحسين فاعلمهم الامر مثل ما اعلمه امير المؤمنين وشرح لهم ماشرحه له ،

(١٦٨) (اثبات الوصية) ص ٦٠ .

فقالوا مثل قوله . وختمت الوصية بخواتيم من ذهب لم تصبه النار . ودفعت الى أمير المؤمنين ! (١٦٩) .

فالوصية والنص والتعيين والتسمية . اذا . من الله ، مشافهة ليلة المعراج ، وتنزيلا صريحا فى القرآن ، وكتابا مكتوبا ومختوما بخواتيم من ذهب لم تصبه النار .. هكذا اعتقدت الشيعة فى طريق تنصيب الامام ! .

وكان طبيعيا لاصحاب هذا الغلو أن ينـــكروا على الصحابة مخالفتهم لما اعتقدوه نصا جليا على على بن أبى طالب ، فقالوا انهم قد كفروا وارتدوا بازاحتهم عليا عن حقه وكتمانهم ما ابرم الله وانزل على رسوله ، بل لقـد روى بعضهم أن تأخير على عن امارة المؤمنين قد تم بمؤامرة ائتمر فيها قادة المهاجرين الاولين وبعض من الانصار ، وان هذا الائتمار قد حدث عقب اعلان الرسول تعيـين السماء لعلى اماما يوم الغدير ، وقالوا ان هذه المؤامرة قد تم اجتماع اصحابها فى بيت أبى بكر ، وحضرها معه : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبوعبيدة ابن الجراح ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ـ من قريش ـ ومن غير قريش : أبو موسى الاشـعرى ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ، وأوس بن الحدثان البصرى ، وأبو هريرة الدوسى ، وأبو طلحة الانصارى ، ووافقهم بعد الاطلاع على مؤامرتهم : سالم مولى حذيفة . وأنهم « كتبوا صحيفة بينهم تشتمل على أزالة الامر عن على واعطـائه الى أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وسالم ، وشـهد بذلك أربعة وثلاثون رجلا ـ وهم أصحاب العقبة ـ وعشرون

---

(١٦٩) المصدر السابق ص ٩٢ ، ٩٣ .

آخرون » . وأنهم وضعوا هذه الصحيفة ، بعد الاشهاد عليها ، فى جوف الكعبة ، فبقيت هناك حتى عهد عمر ابن الخطاب . وكان التاريخ المثبت فى ذيلها : « فى المحرم سنة عشر من الهجرة » .

والغلاة الذين رووا خبر هذا التآمر رووه عن أسماء بنت عميس الخثعمية ، التى كانت يومئذ زوجة لابى بكر ، وقالوا : انها قالت : لقد سمعت جميع مايريدون .

ولكن خبر هذا التآمر غير مستقيم ، لا لان هؤلاء الصحابة أجل قدرا منه ، فقط ، ولا لان خبر النص ، ومن ثم التأخير لعلى عن الخلافة ، غير ثابت ، فحسب ، بل ولان الصحيفة التى زعموا تفضح مافى هذه الرواية من افتراء وتلفيق ..

فأولا : لقد اختاروا اسناد هذا الخبر الى اسماء بنت عميس الخثعمية ، وصحيح أنها كانت زوجه لابى بكر ، وأما لابنه محمد بن ابى بكر ولكنها كانت من قبل زوجا لجعفر بن أبى طالب ، ثم لقد كانت من بعد أبى بكر زوجا لعلى بن أبى طالب ، وأما لابنه يحيى (١٧٠) .. ونحن نقول ذلك لننبه على أن الراوى ، لو ثبتت روايته ، فهو متهم ، وان كنا نرجح أن هذا الخبر منسوب لها ومنحول عليها .

وثانيا : ان الرواية تقول أن الاجتماع تم « بعد خطبة النبى فى حجة الوداع » ، اى قبل وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويؤكد ذلك التاريخ أن ذيل الصحيفة مؤرخ : « فى المحرم سنة عشر من الهجرة » .. ومع ذلك ففى ثنايا الصحيفة نقرأ هذه العبارة : ان الرسول

---

(١٧٠) انظر ترجمتها فى (أسد الغابة) لابن الاثير .

« ادى وبلغ ما أمره الله به .. واختار الله ما عنـــده . فقبضه اليه مكرما محبورا من غير أن يســـتخلف أحـدا بعده .. » .

فتاريخ الصحيفة ، وخبر اجتماعها سابق لوفاة الرسول ومتنها يتحدث عن أن الرسول قد توفى !.

وثالثا : ان تأريخ الصحيفة بعبارة « فى المحرم سـنة عشر من الهجرة » يفضح كذب خبرها ، لان الذى اختار التأريخ بعام الهجرة هو عمر بن الخطاب ، وكان ذلك بعد توليه امـــارة المؤمنين ، ولم يكن قبل ذلك تأريخ بهـذا العام .

ورابعا : ان الصحيفة تتحدث عن قضايا لم تظهر فى ميدان البحث حول الامامة الا بعد ظهور الشيعة كفرقة فى أواخر القرن الاول الهجرى ، من مثل النص ، والوراثة ، وهى قضايا نظرية لم تكن أثيرت بعد فى ذلك التاريخ .

فخبر هذه الصحيفة ، والمؤامرة التى صنعتها ، لاشك كاذب دفع اليه القول بالنص الجلى على امامة على بن أبى طالب والانكار على من كتموا وخالفوا هذا النص .. (١٧١)

ولقد ترددت هذه الاتهامات فى أشعار عدد من شـعراء الشيعة ، فمحمد بن هانىء الاندلسى ، شاعر الفاطميين يقول :

ولكن امــــرا كان ابرم بينهــــم
وان قال قـوم : فلتة غير مبـرم

يشير الى رفضهم قول عمر أن بيعة أبى بكر كانت فلتة

---

(١٧١) انظر نص الصحيفة وخبرها فى (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ٩١ ـ ٩٤ (هامش) ، (وهذا المصدر ينقل نصها عن (كتاب البحار) للمجلسى ، المجلد الثامن ص ١٩ طبعة ايران) .

ـ أى فجاة وبغتة دون تشاور مسبق ـ ولكن الله وقى المسلمين شرها .

كما يقول شاعر آخر :

زعمـــوها فلتـــة فاجئـــة
لا ورب البيت والركـن المشـيد
انمـــا كانت أمـورا نسـجت
بينهم أسبابها نسج البرود (١٧٢)

لكن .. ليس كل الشيعة . حتى الامامية منهم ، قـد قالوا بهذا القول ، فكثير منهم لم يقولوا بكفر الصـحابة لتأخيرهم عليا عن الخلفاء الثلاثة . وهذا الفريق يمثـله أبو جعفر بن قبة . صاحب كتاب « الانصاف » ، وهـو يفرق بين النص الذى تم بقول عام والنص الذى تم بقول خاص . فعنده أن قول الرسول : « الائمة من قريش » كان قولا عاما شائعا وقوله يوم الغدير كان قولا خاصـا فى جماعة أقل من التى سمعت : الائمة من قريش ، وان القوم قد فهموا من قول الرسول : الائمة من قريش . اباحة الاختيار ، فأداهم هذا التأويل الفاسد الى اهمال النص الخاص الذى وقع يوم الغدير ، لهذه الشبهة التى عرضت لهم .. فالامر لا يتعدى « تأويلا فاسدا » تسبب عن شبهة عرضت . وليس هناك من ارتد أو كفر بعـد اسلام .. ونص كلمات أبى جعفر : « ان النص ينقسـم الى قسمين : نص وقع بحضرة جماعة قليلة العدد . والنص الآخر وقع بحضرة الخلق الكثير . فأما النص الذى وقع بحضرة الجماعة القليلة العدد فيمكن كتمانه ويجوز نسيانه وأما النص الذى وقع بحضرة العدد الكثير ، فانما كـان

(١٧٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ٣٧ .

يوم الغدير ، وكلهم كانوا ذاكرين لكلامه صلى الله عليه وآله ، غير أنهم ذهبوا عنه بتأويل فاسد ، لانهم لما دخلت عليهم الشبهة توهموا أن لذلك الكلام ضربا من التـأويل يجوز معه للرؤساء ـ اذا وقعت الفتنة واختلفت الكلمة ـ أن يختاروا اماما .. » (١٧٣) .

اما الشيعة الزيدية ، فلقد قالوا : ان النص لم يـكن جليا ، وانما كانت « النصوص على امامته استدلالية . وقد يخفى المراد بها على كثير من الناس ، ويلتبس الحال فيه ، والواجب فى مثل ذلك هو التنبيه على مواضـع الاستدلال بها دون اظهار النكير .. والمقدم على خلافها غير مرتكب لكبيرة ولا مواقع لما علمه منكرا ، بل يجـوز ان يلتبس عليه الامر فيظن انه مصيب فيما أقدم عليـه ، فالحال فيه كالحال فيمن خالف فى آيات الوعيد ، أو من انكر كون القياس حجة شرعية ، وما جرى مجرى ذلك مما يتطرق اليه الاشياء .. » (١٧٤) .

هذا هو موقف الشيعة من الصحابة الذين أخروا عليا عن تولى الامامة بعد وفاة الرسول وهو موقف يتراوح بين : التكفير ، والاتهام بالتآمر ، وبين الوقوع فى خطأ سببه التأويل الفاسد الناشىء من الشبهة أو العدول عن الصواب للالتباس .

٦ ـ آية : ((وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين)) :

ومن الشيعة الامامية من يذهب فى الاستدلال عـلى

(١٧٣) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٣ .
(١٧٤) (النقض على صاحب مجموع المحيط) اللوحة ٢٢٨ ب .

النص ، من القرآن ، الى الاستشهاد بآية : « وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير » ، (١٧٥) . فيقولون : ان المراد بصالح المؤمنين هو على بن أبى طالب ، أى انهم يجعلونه مولى للرسول ، كما أن الله مولاه وجبريل مولاه ، فهم من قبل قد قالوا : انه منصوص عليه بدليل وصفه بانه : مولى المؤمنين ، وهاهم يغالون فيقولون : انه مولى الرسول .

والمعتزلة يتعقبون رأى الشيعة هذا بالنقض والتفنيد .. فيقولون ان معنى الولاية هو النصرة فى الدين ، بدليل العطف على ولاية الله وولاية جبريل للرسول ، والامامة والامارة غير واردة فى حق الله ولا فى حق جبريل ، فكذلك ولاية صالح المؤمنين .. ويدل على ذلك أيضا انها — اى هذه الولاية — ثابتة فى الوقت وقائمة فى الحال : فلو تعدت النصرة فى الدين الى امارة المؤمنين وامامتهم كان على اماما للرسول فى حياته فضلا عن امامته للمسلمين فى حياة رسولهم ، وهو مالم يقل به احد حتى من الشيعة انفسهم .. كما ان قوله تعالى بعد ذلك : « والملائكة بعد ذلك ظهير » يرشح ان المراد هو النصرة والمؤازرة فى الدين .

ثم ان سياق الآية وسبب نزولها يشهد لتفسير المعتزلة دون تفسير الشيعة لها ، فلقد نزلت عندما أفشى بعض ازواج النبى سره ، فانبأ الله نبيه ، وقال لهن : « أن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه .. » الآية .. فالحديث عن تأييده ونصره ، لا عن الامامة وامارة على للمؤمنين .

---

(١٧٥) التحريم : ٤ .

والمعتزلة ينقضون قول الشيعة ، على هذا النحو ، حين يسلمون جدلا أن المراد بـ « صالح المؤمنين » هو على ابن ابى طالب ، ولكنهم لا يسلمون بذلك الا جدلا فقط ، اذ يعودون ويقولون : ان الاليق أن لا يراد بصالح المؤمنين فرد واحد ، وانما الاليق أن يكون المراد الجمع ، ولقد سقطت واو الجماعة ، اذ أصل الكلمة « صالحو المؤمنين » كما سقطت من مثل قوله تعالى : « يوم يدع الداع الى شيء نكر » (١٧٦) . وقوله : « ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير » (١٧٧) . وقوله « ويمح الله الباطل» (١٧٨) ، فالواو ثابتة فى حكم الخطاب ، وان تكن قد سقطت فى اللفظ لما جاورت الالف واللام ، لالتقاء الساكنين ، ثم أجرى الخط فى المصاحف ذلك المجرى .. يقول بهذا الرأى من المعتزلة واحد من أبرز مفسرى القرآن عندهم هو أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهانى « المتوفى سنة ٣٢٢ هـ » كما يقول أبو هاشم الجبائى : « ان الآية لا تليق الا بالجمع ، لانه تعالى بين عظم حال الرسول عليه السلام بنصرة الغير ومظاهرته ، ولابد من أن يكون الجمع فيه ، فقوله : « وصالح المؤمنين » بمعنى قوله : والمؤمنون الصالحون » (١٧٩) .

فالآية لا تشهد لدعوى النص ، سواء أكان « صالح المؤمنين » هو الامام على ، أم كان المراد به ، المؤمنون الصالحون .

---

(١٧٦) القمر : ٦ .

(١٧٧) الاسراء : ١١ .

(١٧٨) الشورى : ٢٤ .

(١٧٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ١٣٩ ـ ١٤٢ .

٧ ـ آية « فقل : تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ... » :

ومن الشيعة من احتج على امامة على عقب الرسول بهذه الآية ، التى عرفت باسم آية المباهلة ، والتى يقول الله سبحانه فيها : « فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (١٨٠) فيقولون أنها لما نزلت جمع الرسول عليا وفاطمة والحسن والحسين ، فهؤلاء من نفس الرسول . وبذلك يثبت الفضل لعلى ، فضلا يلى فضل الرسول . وذلك يثبت له الامامة بعده دون انقطاع ... ولكن المعتزلة ينقضون ذلك الرأى بقولهم : انه حتى لو سلمنا برواية قصة المباهلة كما تذكرها الشيعة فان الذى يثبت هو فضل على ، والامامة تجوز للمفضول ، ثم ان الذين دعوا هنا قد دعوا بوصفهم من نسب الرسول ، بصرف النظر عن صلاحهم للامامة من عدم صلاحهم ، ففاطمة لا تصلح لها ، والحسن والحسين كانا طفلين يومئذ .. ثم ان هناك من يقول ان عليا لم يكن حاضرا يوم المباهلة هذا .. ففى كل الحالات ليس هناك مايرشح عليا للامامة فى هذه الآية ، فضلا عن ان يكون نصا على امامته .. (١٨١)

---

(١٨٠) آل عمران : ٦١

(١٨١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ، ص ١٤٢ .

٨ ـ احاديث آحاد :

اخذ الشيعة يسرفون فى وضع الاحاديث التى تتحدث عن النص والتعيين لعلى فى الامامة ، كلما نقض خصومهم ، وخاصة المعتزلة ، ما استندوا اليه من تفسير لبعض الآيات وتأويل لبعض الاحاديث ، ففى البداية لم يكونوا يذكرون كأدلة لهم ، سوى : آية : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » .. وحديث الغدير ، وحديث : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » .. ومنهم من يقر ذلك فيقول على وجه الحصر : « أن النص الذى ندعيه هو ما تقدم ذكره من الآية والخبرين .. » (١٨٢) .

ولكن ، كما يقول امام الحرمين الجوينى ، فان « من الامامية من استشعر الخزى وأيس من ادعاء النص القاطع الذى لا يحتمل التأويل : وتشبث بأخبار نقلها آحاد غير اثبات (١٨٣) ... » ومن ثم وجدنا سيلا من الاحاديث التى رواها آحاد . أو لم ترد الا فى المصادر الشيعية . ولقد تعقبها المعتزلة بالنقض والتفنيد .. ومنها مثلا :

ا ـ حديث : او كنت مستخلفا :

والشيعة ينسبونه الى أم سلمة ، زوج الرسول ، ويقولون : ان أبا بكر وعمر قد دخلا على الرسول فقالا : يارسول الله ، اننا لا ندرى قدر ماتصحبنا ، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعا ؟ ـ وكان على بمقربة من المجلس يخصف للرسول نعله ، وأم سلمة وعائشة خلف الحجاب ـ فقال الرسول لهما : « أما انى

---

(١٨٢) (النقض على صاحب مجموع المحيط) اللوحة ٢٢٧ أ .
(١٨٣) (كتاب الارشاد) ص ٤٢١ .

قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو اسرائيل عن هارون بن عمران » فسكتا ، ثم خرجا .. فسألت عائشة الرسول : من كنت مستخلفا ! فقال : « خاصف النعل .. » (١٨٤) .

والمعتزلة تنكر أن يكون هذا الحديث ـ حتى لو صح ـ نصا فى امامة على ، « لان الرسول لم يقل : قد استخلفه وانما قال : لو قد استخلفت أحدا لاستخلفته . وذلك لا يقتضى حصول الاستخلاف (١٨٥) .

ونحن نرى أن هذا الحديث ـ لو صح ـ يصبح حجة ضد فكر الشيعة فى النص على الامام . لا حجة لهم ، لان قولهم بالنص انما بنوه على أنه هو السبيل لوحدة الامة خلف امام يعينه الله . وفى ذلك تجنب الفرقة والاختلاف اللذين لابد وأن يحدثا اذا سلكنا للامامة سبيل الاختيار ، فهذا الحديث يقول : ان النص هو الذى سيوجد الفرقة والاختلاف فى الامة .. !

ثم .. انهم يقيسون كثيرا على تراث بنى اسرائيل فى الامامة والحكم . وهاهو الحديث الذى يستدلون به يؤكد أن تجربة بنى اسرائيل كان النص فيها مبعثا للفرقة والاختلاف . لا مصدرا للوحدة والاتفاق ..

فهذا الحديث ، اذا لم يصح ، فلن يفيدهم ، واذا صح أمر بحجتهم وموقفهم .

ب ـ حديث : المؤاخاة :

ومن الشيعة من استدل على النص بما حدث من

(١٨٤) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(١٨٥) المصدر السابق . جـ ٦ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

المؤاخاة بين على والرسول بعد الهجرة الى المدينة ، فرأوا ان اختصاص الرسول عليا بمؤاخاته انما يحمل معنى أزيد مما تقتضيه الاخوة فى الدين والمعونة على تكاليف الحياة فى المجتمع الجديد .. ولكن المعتزلة ينكرون أن يكون لتلك المؤاخاة دلالة تتعدى دلالتها العامة . وهى قد حدثت بين المهاجرين والانصار . واقصى مايستفاد من المؤاخاة بين على والرسول . هو اثبات الفضل لعلى ، وهو امر مختلف عن موضوع الامامة والنص عليها كل الاختلاف (١٨٦) .

ج ـ احاديث لا تفيد سوى الفضل :

كما استدل الشيعة على النص بمجموعة من الاحاديث التى انفردوا بروايتها .. من مثل : « انه سيد المسلمين ، وامام المتقين . وقائد الغر المحجلين » و « هذا ولى كل مؤمن من بعدى » و « ان عليا منى وانا منه . وهو ولى كل مؤمن ومؤمنة » ..

كما زعموا ان الرسول قال لبعض أصحابه :« سلموا على على بامرة المؤمنين » ..

وأبو على الجبائى يقول عن هذه الاحاديث : « ان هذه الاخبار لم تثبت من وجه يوجب العلم ، فلا يصح الاعتماد عليها فى اثبات نص ، وان ادعاءهم فيها أو فى بعضها أنها ثابتة فى التواتر لا يصح ، لان للتواتر شرائط ليست حاصلة فيها .. ولا يمكنهم ذلك بأن يقولوا : ان الشيعة قد طبقت البلاد عصرا بعد عصر . وحالا بعد حال ، فروايتها يجب أن تبلغ حد التواتر ، لان الخبر لا يصير داخلا فى حد التواتر بهذه الطريقة دون ان يتبين حصوله فيها على شرائط التواتر ... وان لمن خالف

---

(١٨٦) (المغنى) ج ٢٠ ق ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

الشيعة أن يدعوا مثل ذلك فى النص على أبى بكر . لان اصحاب الحديث فيهم كثرة ... فادعاء النص لا يمكن اثباته الا حديثا . اما فى الاعصار القديمة فذلك متعذر .. ولم يكن لعلى شيعة ومتعصبون يدعون النص . كأبى ذر وعمار ومقداد وسلمان .. وانما يمكن انقطاعهم اليـــه وقولهم بفضله وبأنه حقيق بالامامة وبأنه قد كان يجب ان لا يعدل عن رايه .. فاما ادعاء غير ذلك فبعيد .. والشيعة ان رضوا لانفسهم فى اثبات النص . أن يعتمدوا على مثل هذه الاخبار فالمروى من الاخبار الدالة على أن عليـــا لم يستخلف اظهر من ذلك ، لانه قـــد روى عن ابى وائل والحكم عن على أنه قيل له : الا توصى ؟ قال : ما اوصى رسول الله فاوصى ، ولكن ان أراد الله بالناس خـــيرا استجمعهم على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ، ابى بكر .. » (١٨٧) .

ثم ان الكثير من هذه الاخبار ، غير الثابتة ، لا تفيـد النص بالامامة .. فامام المتقين : يراد به التقوى والصلاح . والامام . بالمعنى المراد . كما يكون اماما للمتقين من الناس فهو امام لغير المتقين ايضا .. وباقيها يدخل فى باب الفضل والتفضيل ... وأما القول بأنه قد طلب من أصـــحابه أن يسلموا على على بامرة المؤمنين . فهو مما لا يصح . لان فى ذلك اثباته اماما فى حضرة الرسول وحيـــاته . وذلك مستحيل بالاجماع (١٨٨) ..

(١٨٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
(١٨٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٩١ .

٩ ـ عبارة سلمان أصبتم الحق وأخطأتم المعدن :

ولما احتج خصوم الشيعة عليهم بأن القول بالنص لا سند له من السلف . ولم يقل به أحد منهم . حتى من زعموهم شيعة لعلى من الصحابة مثل : أبى ذر . والمقداد . وسلمان . فانهم قد بايعوا أبا بكر ، وتولوا له ولعمر البلاد والاعمال . ولم يرد عنهم فى النص على على قول مأثور .. لما كان ذلك . نسبت الشيعة الى سلمان الفارسي قولا قد يوهم بقوله بالنص على على . فقالوا : ان سلمان قد قال عندما علم نبأ البيعة لابى بكر : « أصبتم الحق وأخطأتم المعدن ! » .

غير أن عبارة سلمان ربما قصد الى أن جعل الامامة فى بيت النبوة يوقف أطماع « ذؤبان العرب ودهاة العجم » فى منصبها ..

والذى رآه الجاحظ دقيق فيما يتعلق « بذؤبان العرب » أما دهاة العجم فما كان لسلمان أن يخشى على الامامة منهم يومئذ . ولم تكن بلادهم قد فتحت بعد ..

والذى أرجحه هو ان تفسير الجاحظ لقول سلمان وتفضيله أن تكون الامارة وراثة فى بيت النبوة ومعدنها . تفسيره لذلك القول كأثر من آثار الفكر السياسى الفارسي الملكى الذى عرفه سلمان من قبل وتأثر به . هو أحسن التفسيرات .. يقول الجاحظ : « ... وسلمان رجل فارسي ... كان شاهد كسرى ، فتوهم أن حكم الكتاب والسنة حكم تدبير السر (١٨٩) والقائمين بالملك ، فانما تكلم على عادته وتربيته » .

---

(١٨٩) كلمة فارسية ، معناها : القائد والرئيس . (وتضبط بفتح السين مشددة) .

ثم يتطرق الجاحظ الى الحديث عن أن مضمون النظام الملكي الفارسي ، من الناحية الطبقية والاجتماعية ، مختلف عن مضمون الخلافة الشورية الاسلامية ، وأن الوراثة التي عناها سلمان كانت حديثا عن نظام غريب تماما عن النظام الذي أقامه المسلمون يوم بايعوا أبا بكر ، يقول الجاحظ : لقد كان سلمان « في قوم قد ساسوا الناس سياسة ورتبوها ترتيبا يقطع عن الطمع في الملك بآيين (١٩٠) لم يجعلوا للصانع أن ينتقل من صناعته الى الكتابة . ولم يجعلوا للكاتب أن ينتقل من كتابته الى القيادة . ولم يجعلوا لابنائهم الا مثل ماكان لآبائهم .. وانما حسن هــذا في ملكهم اذ كان بالرأي والغلبة ... وسبيل الامامة غير هذا ... » .

ثم ينهي الجاحظ رده على الذين يلتمسون عند سلمان الدليل على النص ، فيقول لهم : ان حديث سلمان عن وراثة الخلافة وعن بقائها « في بيت النبي ، وعلى التوارث الاقرب فالاقرب » وهو « حجة للعباسية لا للعلوية » ، فعلى الوراثة اعتمدت الراوندية في قولها بأحقية العباس عم الرسول (١٩١) .

فليس في قول سلمان مايفيد القائلين بالنص في قليل أو كثير ..



وهكذا نصل الى الغاية من تتبع المعتزلة بالنقض والتفنيد لما ساقه الشيعة من أدلة سمعية على النص والتعيين ، ويعبر الجاحظ عن قوة حجج المعتزلة في هذا المقام عندما

(١٩٠) الآيين : كلمة فارسية ، معناها : القانون .
(١٩١) (العثمانية) ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

يقول « ولقد نقضنا القرآن من أوله الى آخره . فلم نجد فيه آية تنص على امامة ، ولا أنها اذ لم تنص كانت دالة عند النظر والتفكير ، ولا أنها اذ لم تدل بالنظر والتفكير وكان ظاهر لفظها غير ذلك على ماقلتم كان أصحاب التأويل والتفسير مطبقين على أن الله أراد بها امامة فلان .. وان تركوا الكتاب ، وأضربوا عن الاجماع ، واحتجوا بالرواية ، فما أحد أجحد لها ولا أرد لمعرفتها منهم ، مع أن رواية غيرهم أكثر . وعلى السنة أصحاب الحديث أظهر . ولو كانت روايتهم ورواية خصومهم سواء ماكان تأويلهم بأقطع لتأويل خصومهم من تأويل خصومهم لتأويلهم . مع أن الحديث ان كان يحتمل ضروب التأويل فغلط فى حق ذلك من باطله رجل فليس بكافر ولا مكابر ، لان ذلك الحديث لو كان صحيحا لم يكن بأبين من القرآن ولا أوضح . وقد يختلف الناس فى تأويله ولا يكفرون ولا يكابرون ، فكيف يكفر من غلط فى تأويل حديث لو كان رده لم يكن عاصيا ؟ .. وان كانت امامة على لاتثبت عندهم الا من قبل الرواية فقد أفلح خصم الرافضة . واستراح من كد المنازعة » (١٩٢) .

هكذا نقض المعتزلة الادلة السمعية التى ساقتها الشيعة على أن هناك نصا وتعينا فى الامامة وامارة المؤمنين .

الاستدلال بالعقل على النص

ولم يقف الجدل بين المعتزلة والشيعة حول طريق الامامة : أهو النص ؟ أم الاختيار ؟ عند الادلة السمعية

(١٩٢) المصدر السابق . ص ٢٨٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

فقط ، بل امتد الى ميدان الاستدلال العقلي أيضا .. ذلك أن الشيعة . في مجموعها ، تيار فكري له في التفكير العقلي والاشتغال بالفلسفة قدم راسخة ويد طولى .. وليس الشيعة كأصحاب الحديث الذين ينفرون من التفكير العقلي وحجج العقل والاعتماد على التأويل ، بل انهم ربما سلكوا طريق العقل الى ميدان التأويل ، فأوغلوا فيه ايغالا ابتعد بهم عن المعقول ؟ .. ولولا الاختلاف حول النص على الامامة لما كان هناك فرق بين المعتزلة وبين ذلك القطاع العريض من الشيعة الذين يقولون بالعدل والتوحيد .. فقدمهم الراسخة في المباحث العقلية جعلت من جدلهم العقلي للمعتزلة حول النص والتعيين في الامامة أمرا طبيعيا . رغم منافاة موقفهم للعقل وبراهينه في هذا المبحث بالذات ..

لذلك كان لزاما لاستكمال بحث الخلاف حول طريق الامامة أن نعرض « للشبهات » العقلية التي اثارها الشيعة في هذا المقام ، ورد المعتزلة عليها وحججهم العقلية في تفنيدها .. واهم هذه « الشبهات » .

١ ـ ايهما اسلم من الخطأ : اختيار الله ؟ ام اختيار الناس ؟

انطلق الشيعة في هذا المقام من مقولة : أن اختيار الله ـ وعلمه محيط وكلي ـ للناس امامهم وأميرهم هو اسلم لهم من الخطأ والزلل الذين يتعرضون له اذا ما وكل اليهم أمر هذا الاختيار .. ورد المعتزلة على هذه الشبهة بأن

تلك القاعدة ليست متبعة ولا مطردة ، لانه لو كان كل صعب ومشكل من الامور يتولى الله انجازه وتقريره واعلان بيانه نيابة عن البشر لما كانت هناك كلفة فى التكليف ودواع للنظر وكدح العقول وكد الملكات ، ثم ان القضايا الغامضة المشكلة والمتشابهة كثيرة جدا . مثل التعديل والتجوير . والتشبيه .. الخ .. وهى قضايا قد وكل الامر فيها البشر ، يبحثون ويختلفون ويختارون مواقعهم الفكرية ، ولم يقل أحد : لقد كان الاسلم أن يبسط الله هذه المسائل بسطا يريح البشر من الاختلاف فيها والكدح والاجتهاد فى النظر بمعضلاتها .. وكما يقول المعتزلة : انه « انما يحكم بهذا وأشباهه على الله من لا علم له بالله وتدبيره . لان الله لو أسقط عن الناس كل ما أثقل ظهورهم ، واستبشعته نفوسهم ، وخالف أهواءهم لسقط الامتحان ، وبطل الاختبار ، اذ لم يكن هناك حلاوة تجتنب . ومرارة ترتكب ولذيذا يؤخر وكريها يقدم ... (١٩٣) .. تلك واحدة من الشبهات ..

٢ ـ ايهما خير الناس : ان يختاروا لانفسهم ؟ ام ان يختار لهم الرسول ؟

ويبدو أن الشيعة قد راموا احراج المعتزلة ، الذين يقولون بوجوب الصلاح والاصلح على الله لعباده ، فسألوهم : أيهما كان خيرا للناس : أن يختاروا لانفسهم اماما ؟ أم أن يختار لهم الامام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟ .. ولكن المعتزلة فى جوابهم اعتمدوا على أن

(١٩٣)) المصدر السابق . ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

اختيار الرسول لم يثبت ، فالثابت اذا هو أنه لم يختر للناس اماما ، فيكون فعل الرسول ، أى عدم اختياره ، هو الاصلح ، اذ لو علم أن الاصلح فى أن يختار لهم لفعل .. ولعل الحديث الذى سبق واستدل به الشيعة ، وهو: « لو كنت مستخلفا أحدا لاستخلفت عليا » يشهد – ان صح – للمعتزلة فى هذا المقام ، لانه يدل على ان الرسول قد علم أن الاصلح والاخير هو ترك الاختيار للناس دون نص أو تعيين ..

والجاحظ يجيب على شبهة الشيعة هذه ، فيقول : انه « لو كان النبى قد اختاره لهم لقد كان ذلك خيرا لهم من اختيارهم لانفسهم ، فاذا لم يختره ، فقد دل تركه الاختيار على أن تركه الاختيار لهم خير لهم ، اذ كان قد اختار الترك دون الاختيار ، وترك الاختيار ربما كان اختيارا ، وهو فى هذا الموضع اختيار ، لان النبى لم يكن ليختار لهم ترك النص والتسمية الا وترك النص والتسمية خير من النص والتسمية .. » (١٩٤) .

والقاضى عبد الجبار يضيف حججا أخرى الى ماقاله الجاحظ ، فيقول : انه ليس هناك مايمنع من أن يكون العلم المكتسب ، مثلا ، اصلح من العلم الضرورى « كما لا يمتنع فى الاجتهاد أن يكون أصلح من النصوص ، وفى النص الخفى أن يكون أصلح من الجلى . والامر فى ذلك موقوف على الدلالة » .

وانه لو جازت شبهة الشيعة هذه لكان واجبا على الله سبحانه أن يختار وينصب الامير والحاكم وغيرهما ... وذلك ظاهر البطلان (١٩٥) .

---

(١٩٤) المصدر السابق . ص ٢٧٨ .

(١٩٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

وذلك فضلا عما فى اختيار الترك وايثار اطلاق الحرية لعقول الناس فى أمور حكمهم وسياستهم من اختيار أكثر الطرق المحققة لخير الناس أمنا وصلاحـــا ، كما اثبتت وتثبت تجارب الامم عبر تاريخها الطويل .

وتلك شبهة ثانية من شبهات القائلين بالنص ..

٢ ــ كيف يستطيع من يجهل تمييز من يعلم ؟؟

انطلق الشيعة فى تقرير شبهتهم هذه من منطلقهـــم القائل : ان الامام لابد من أن « يكون عالما بجميع الاحكام ، حتى لا يشذ عنه شيء منها » ، واذا كان حاله كـــذلك فكيف يحكم الناس الذين لم يبلغوا فى أنواع العلم مبلغـه على مدى علمه بهذه العلوم ، ان اختيار من يبلغ فى هذه العلوم ذلك المدى يتطلب أن يكون الذين يختارونه على معرفة بهذه العلوم جميعها حتى يحكموا على مدى علمـه فيها ، فيكون اختيارهم على اساس . ولما كانت معـرفة ذلك بالنسبة لمن يوكل اليهم الاختيار « لا تصح الا بامتداد الاوقات . وبالتجربة والامتحان ، فاذا لم يمكن وقـوف احد من الامة عليه ، لم يجز أن يكلفوا الاجتهاد فى ذلك والاختيار ، فلابد من النص .. »

تلك شبهة الشيعة ... ولكن المعتزلة ينقضونها برفض مقدماتها ، فهم ينكرون أن يكون مطلوبا فى الامام العـــلم بجميع الأحكام حتى لا يشذ عنه شيء منها .. لأنه . عند المعتزلة ، لا يتفرد ولا ينفرد بالسلطة والسلطان من دون الناس حتى تتطلب منه العلم بكل شيء والشـــيعة انما وقعوا فى هذا الامر لقولهم بعصمة الامام ــ وما يقول به

المعتزلة هو ان الامام يستطيع النهوض بما فوض اليه بدون هذا العلم الشامل الذى يتحدث الشيعة عن ضرورة توافره فهو يبحث ويستدل حالا بعد حال بتجدد الاحداث وتوالى الدواعى .. وهو يجتهد ، لانه لابد وأن يكون مجتهدا .. ثم هو يرجع الى راى الناس ، ويراجع العلماء، ويستشير ذوى الراى والاختصاص .. بل هو مكلف ، عقلا ، بقبول آراء العلماء وذوى الراى والاختصاص . والحكم بمقتضاها « كما يقول كثير من الناس فى حكم الحاكم .. وكما فى باب الفتوى .. » .. ثم ان له أن يحكم فيما علمه ، وأن يتوقف فيما لم يعلمه (١٩٦) ومن ثم فان اشتراط علمه بجميع الاحكام هو امر غير وارد . بل وغير ممكن . ومتى كان الامر كذلك أصبح فى، استطاعة الناس الحكم على علمه ، على الجملة ، وتقدير الاصلح لمنصب الامامة من بين من ترشحهم ملكاتهم وقدراتهم لها فتسقط بذلك الشبهة الثالثة من شبه الشيعة العقلية .

٤ ـ لو لم يكن الرسول هو الذى استخلفه لما سمى « خليفة رسول الله »

احتج الشيعة بأن اطلاق لقب خليفة رسول الله على الامام . يوجب أن يكون مستخلفا من قبل الرسول ؛ لان استخلافه وتنصيبه لو كان من جهة الامة لكان خليفة للامة . ولم يحدث أن تلقب الخليفة بلقب خليفة الامة ..

(١٩٦) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

ولقد أجاب المعتزلة بأنه لا تناقض بين ان تختار الامة خليفتها وبين أن يلقب بخليفة رسول الله . ذلك أن مانهض به الرسول فى هذا المقام هو أنه أمر أمته أن يستخلفوا من كان على صفة مخصوصة ، فاذا اختاروا امامهم كانوا قد أدوا ما أمرهم به رسولهم ، وعندئذ تصح اضافة الاستخلاف لمن أمر بالاستخلاف ، اى للرسول ، كما هو الحال اذا أمر احدنا آخر أن يقيم عنه وكيلا ، فان الوكيل ينسب للاول ، الامر باقامة الوكيل . مع أن الذى أقام الوكيل واختاره سواه . وكما اذا طلب المريض من آخر ان يمين ويختار له وصيا ، فان الوصى ينسب الى المريض لا الى من اختاره .. فالتسمية لا تنهض دليلا على أن الاستخلاف قد حدث من الرسول عليه الصلاة والسلام .. (١٩٧)

ونحن نضيف : أن العدول من قبل عمر بن الخطاب عن لقب « خليفة رسول الله » الى لقب « أمير المؤمنين » ، ربما كان من دواعيه ارادة التأكيد على أن الربط بين هذا المنصب وبين الامة هو الاساس ، وليس بين المنصب وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى اطلاق لقب « أمير المؤمنين » على الخليفة مايرشح اختيار المؤمنين له ، ولا يستطيع الشيعة أن ينكروا أن عليا تلقب بهذا اللقب ، بل انهم يقولون أن الله هو الذى لقبه به .

وربما عرضت الشيعة شبهتها تلك عرضا آخر . أو من زاوية أخرى ، فقالت : أن الامة لو كانت هى التى تستخلف الامام لكان خليفة لها على نفسها ، فلا يجوز له

(١٩٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣١٦ ، ٣٥٥ .

ان يحكم عليها ، كما لا يجوز أن يحكم الانسان على نفسه ..

والمعتزلة يقولون ان هذا العرض الجديد لتلك الشبهة لا يضمن لها القوة أو الصمود ، لان الامام ، مثلا ، قد يطلب من احد أمرائه على اقليم من الاقاليم ، مثلا ، أن يعتزل عمله ، وأن يختار من يحل محله فى هذا العمل ، وعند ذلك يكون الامير الجديد ، منسوبا فى التعيين للامام، لا للأمير المعزول ، كما أن حكمه يكون نافذا على الامير المعزول ، رغم أنه هو الذى قام باختياره .

والمسلمون فى يوم « مؤتة » قد اختاروا خالد بن الوليد اميرا عليهم ، ومع ذلك كانوا خاضعين لقيادته منفذين لامره وكان ، وهو المختار منهم ، أمير رسول الله على جيش « مؤتة » . وأيضا أمير هذا الجيش .. فاختيار الامة للامام لا يمنع من أن يكون حاكما عليها وفيها (١٩٨) .

ذلك رأى المعتزلة فى هذه الشبهة الرابعة .

٥ ـ لو جاز للامة ان تختار الامام لجاز لها أن تتولى مهامه :

قال الشيعة : ان فى القول بجواز اختيار فريق من الامة لامامها مايجوز أن يقوم هذا الفريق بمهام الامام ومسئولياته ، « لان من جعل غيره يتولى بعض الامور ، فأن يجوز أن يتولاها بنفسه أولى ، ولو جاز لهم ذلك لاستغنوا عن الامام ، فصار اثبات الامام بالاختيار يوجب الغنى عن الامام ، فبطل ذلك » .

(١٩٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢١٤ .

والمعتزلة ينكرون تلك الشبهة بتقريرهم عدة حقائق ، اهمها :

اولا : انه اذا كانت هذه الدعوة مستندة الى العقل ومقتضياته ، فهى غير ملزمة للمعتزلة الذين ينكرون أن يكون وجوب الامامة طريقة العقل ، ويقولون بدلا من ذلك ان طريق وجوبها هو السمع ..

ثانيا : أنه ليس فى السمع مايمكن أن تستند اليه هذه الدعوى والشيعة لم يقدموا دليلا سمعيا يستندون اليه فى القول بها ..

ثالثا : أن مهام الامام ومسئولياته ليست حراما كلها على الامة التى تختاره ، بل أن الكثير من هذه المسئوليات ينهض بها الامام كما تنهض بها الامة ، وان دورها فى أمور مثل : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد ، وقمع الظلم ، ومحاربة أهل البغى والخارجين على السلطة العادلة وقسمة الفىء والغنيمة .. الخ .. الخ .. ان دور الامة فى ذلك واضح لا يلغيه قيام الامام بهذه الامور ، فليس هناك احتكار من قبل الامام ، بعد تنصيبه ، لهذه الامور ..

رابعا : ان الشرع لا يمنع من أن تكون للمعقود له حقوق ومهام لا يتمتع بها العاقد له ، والدليل على ذلك أن ولى المراة الذى يتولى عقدة نكاحها ، هو الذى يملكها لزوجها ، ومع ذلك فللزوج فيها حقوق ليست للعاقد ، بل لايجوز للعاقد أن يمارسها أو يتمتع بها .. وعلى ذلك يقاس أمر العاقدين للامام ، عندما تصبح له من الحقوق ، بعقدهم ، ماليس لهم هم ، رغم توليه بواسطة عقدهم له .

خامسا : ان للامام من الخصائص ماليس للعاقدين له ، اذ تشترط فيه شروط ليست مشترطة فيهم ، وذلك

يعطيه من الميزات ، ومن ثم من الحقوق فى امور الامــة . ماليس لهم ..

سادسا : ان الامام يكتسب حقوقه والانفراد بالقيـام بمهامه دون الناس من باب الضرورة القاضية بتحـديد المسئولية والاختصاص .. فمن الامور مايتوقف الحـكم فيها على اجتهاد الواحد ، حتى تتحدد المسئوليـة عن التنفيذ ، وهو مالا يتوافر فى حال الجماعة التى تشـيع بينها المسئولية وتتعدد الاجتهادات .. (١٩٩) .

ذلك هو رد المعتزلة عن هذه الشبهة الخامسة .

٦ ـ لو جاز ان يكون الاختيار للامة ، لامكن ان تختار اماما يظهر الاسلام ويبطن الكفر :

قال الشيعة : انه لا سبيل الى تنصيب امام يوافـق باطنه ظاهره ، ويضمن الناس أنه لا يبطن كفرا أو فسقا بينما هو يعلن الاسلام والصلاح ، الا أن يكون تنصيبه من طريق من يعلم السرائر والبواطن . وهو الله سبحانه ، ولذلك فان النص هو السبيل لذلك وليس الاختيار .

ولم ينكر المعتزلة جواز ان تختار الامة من يبطن الكفر أو الفسق ويظهر الاسلام اماما لها .. ولكنهم قالوا : ان المطلوب هو التأكد من ظاهر الانسان ، وسـلوكه ، وتوافر شروط الامامة فيه ، ومادامت هناك مراقبـة ومحاسبة فان ظهور الكفر أو الفسق عليه يوجب خلعـه والخروج عليه ، والامة لا تطالب بأكثر من هذا ، ولا يجب

(١٩٩) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ ، ٣١٥ .

عليها أن تعلم عن باطن الامام شيئا ، كما لا يجب عليها شيء من ذلك في الامير والحاكم وسائر من يستعان بهم في أمور الدين .. (٢٠٠) .

فهذا هو ردهم على الشبهة السادسة ..

٧ ـ ان النص يمنع من تعدد الائمة بتعدد الجماعات التي تختار :

قال الشيعة : ان حق اختيار الامام اذا تقرر للناس ، فاختارت جماعة منهم اماما ،وابت جماعة أخرى ذلك الاختيار فاختارت اماما آخر ، وهكذا ، فما المرجع والصوب لاختيار فريق دون فريق ، طالما ان هذا الحق هو من حقوقهم جميعا ؟؟ .. أما النص والتعيين ففيه ضمان ضد هذه المخاطر والمحاذير ..

ورد المعتزلة على هذه الشبهة بأن تلك المخاطر والمحاذير واردة وقائمة اذا كان حق الاختيار هو للامة كلها ، بمعنى أن يكون فرض عين على كل فرد فيها ، لا ينجيه من اثم اهماله نهوض الآخرين به ، أما والامر ليس كذلك ، فان الاختيار هو واجب جماعة مخصوصة تحوز ثقة الامة وتمثلها ، ونهوضها بهذا الفرض الكفائي ، كما أنه يعفي الامة من تبعة اهمال القيام بذلك الفرض ، فهو يقطع الطريق على أي جماعة تخرج على هذاالاختيار وتأبى الامتثال للامام المختار .. فاختيار الجماعة المخصوصة ، المؤهلة والمستوفية للشروط ، هو المعتبر ، وهو الواجب النفاذ والاقرار ، وما عدا ذلك فهو خروج من

(٢٠٠) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠٩ .

الخارجين تجب محاربة المصرين عليه كما يحارب الخارج على السلطة الشرعية المعترف بها سواء بسواء .. (٢٠١)

ونحن نضيف فنتساءل : هل منعت عقيدة النص من تعدد فرق الشيعة ، الذين اختلفوا فى أشخاص الائمة حتى زاد تفرقهم وفاق تفرق أهل الاختيار ؟ (٢٠٢) .

تلك هى أهم الشبهات التى اعترض بها الشيعة على الاختيار كطريق لتنصيب الامام ، والتى أستندوا فى ايرادها الى العقل ، وانطلقوا بها من منطلق عقلى ، وذلك هى ردود المعتزلة عليها ، وهى ردود استندوا فى تقريرها وتحريرها الى حجج العقل وبراهينه ، اذ ذلك هو المقام ، ولكل مقام مقال ، كما يقولون (٢٠٣) .

على .. والحسن .. مع الاختيار

وبعد هذا العرض لحجج الفرقاء الذين اختلفوا حول طريق الامامة أهو النص ، أم الاختيار ؟ لعل أكثر الامور حسما فى ترجيح كفة الاختيار على النص هى أن نعرض لرأى الامام على والامام الحسن فى هذا الموضوع ، وننظر

(٢٠١) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠٩ .

(٢٠٢) لم تمنع عقيدة الشيعة فى النص من تعدد فرقهم ، بل لقد زادت فرقهم على فرق غيرهم من القائلين بالاختيار . انظر تعداد فرقهم فى (الفصل الاول) من (الباب الثانى) ، بالقسم الاول من هذه الدراسة .

(٢٠٣) فى كتاب (منهاج الكرامة فى معرفة الامامة) لابن المطهر الحلى يورد على عقيدة النص والوصية : خمس حجج عقلية ، واربعين دليلا مستنبطا من القرآن ، واثنى عشر حديثا نبويا ، واثنى عشر دليلا من حياة على بن ابى طالب . ولكنها جميعا لاتخرج عن جوهر مااوردناه من مصادر الشيعة التى تقدمت عصره . انظر كتاب ابن المطهر فى الجزء الاول من (منهاج السنة) لابن تيمية . ص ١٤٥ ـ ١٩٢ (م) .

فى فكرهما ، من خلال نصوصهما هما ، وفى مقدمتها تلك النصوص التى جمعها الشيعة فى « نهج البلاغة » على وجه الخصوص ، لنرى أكانا مع النص كطريق للامامة ؟ أم كانا مع الاختيار ؟

ونحن انما نختار أن نعرض لفكرهما خاصة لانهما وحدهما اللذان تقلدا منصب الامامة على نحو اعترف به كل الفرقاء الذين فرقت بينهم قضية الامامة من أهل ملةالاسلام .. فلقد توليا امارة المؤمنين ، ومارسا سلطات السلطة الزمنية ، ولم يقف أمرهما عند حدود الامامة الروحية لفرقة الشيعة خاصة ، كما كان حال غيرهما من ائمة الشيعة وزعماء اهل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

والامر الذى يلفت النظر فى الفكر السياسى و « الدستورى » لعلى بن أبى طالب ـ ان جاز أن نستخدم هذا المصطلح ـ هو أنه لم يحتج على خصومه ، وهم كثيرون ، ولا على أنصاره الا بما عليهم من حق البيعة، وفى المواقف العديدة والخطب الكثيرة والرسائل المختلفة التى تحدث فيها عن شئونه مع خصومه وانصاره بخصوص امارة المؤمنين ـ وهى مواقف وخطب ورسائل دامت بدوام عهده ، لانه كان عهد صراع كله ـ فى كل تلك الحالات كان حديثه عن البيعة : فلقد أدخلوه فى الامر بالبيعة، والذين نكثوا البيعة ، وعلى الذين امتنعوا أن يمتثلوا ويطيعوا لانهم قد لزمتهم البيعة ، وعلى الذين اطاعوا أن ينهضوا معه اداء لحق البيعة ، ولن يحلهم من بيعتهم له الا حدث يأتيه .. فلو كانت هناك وصية ، او كان هناك نص ، جلى أو خفى ، لسارع على الى اعلانه

كي يلزم خصومه به الحجة الدينية الدامغة ، وليس أمام الذين يقولون بالنص ــ وهم الذين جمعوا تراث على فى « نهج البلاغة » ــ الا أن يتهموه هو الآخر بكتمان النص والتعيين كما اتهموا أبا بكر وعمر وغيرهما من صحابة رسول الله .

واذا جاز لهم القول بأنه لجأ الى التقية ، فلم يذكر النص على نفسه زمن أبى بكر وعثمان ، فغير جائز أن يلجأ اليها وهو الامير للمؤمنين .

ونحن نورد هنا **نصوص كلمات على** التى تشهد بأن البيعة والاختيار والعقد هى السبيل الذى كان به أميرا للمؤمنين .

* عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذهب العباس بن عبد المطلب الى أبى بكر فسأله : « هل أوصاك رسول الله بشيء ؟ قال : لا . . ولقى العباس أيضا عمر ، فقال له مثل ذلك ، فقال عمر : لا . فقال العباس لعلى : أمدد يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك . فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان . فقال له على : أو يطمع . ياعم . فيها طامع غيرى (٢٠٤) .

شورى

فحديث العباس عن البيعة ، ولا شيء غيرها طريقا للامامة ، وعلى يقره على أن هذا هو طريقها . .

* وعقب مقتل عثمان بن عفان . ذهب القوم الى على « فقالوا : امدد يدك نبايعك . فقال : ليس هذا اليكم ، هذا للمهاجرين والانصار . من أمره أولئك كان أميرا » .

---

(٢٠٤) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٥ ، و (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

ثم جاءه « المهاجرون والانصار فقالوا : امـــدد يدك نبايعك ، فقال لهم : اختاروا غيرى تبايعونه وابايعه ، فلان أكون لكم وزيرا خير من أن أكون أميرا . فعاودوه . فقال لهم : ان عمر كان رجلا مباركا ، وقد جعلها شـورى . قالوا : فأنت من الشورى ، وقد رضـــيناك ، فقال : ختاروا غيرى ، فدفعهم . فعادوا ، فقال : قد علمتم انى اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه امركم . قالوا : قـد رضيناك ، فدفعهم ، ومشى الى طلحة والزبير فعرضـــها عليهما ، وقال : من شاء منكما بايعته فقالا : لا . الناس بك ارضى . فترددوا اليه . وهو يأبى . ويقول : اختـاروا غيرى . فيقال : انهم اختلفوا اليه بعد مضى عثمان ثمانية ايام .. » (٢٠٥) .. فلقد قتل عثمان فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وبويع لعلى يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة (٢٠٦) .

فلا حديث هنا ــ سواء كان لعلى أو المهاجرين والانصار او العامة أو طلحة والزبير ــ الا عن الشورى والبيعـــة والاختيار .. وهو يدفع الامر عن نفسه دفعا يقطع بأن ليس هناك نص أو تعيين والا كان دافعا ورافضا لحكم رب العالمين .

* وعندما قبل أن يلى امرهم ، طلب أن تكون البيعـة علنا ، وفى المسجد ، وقال لهم : « فان أبيتم على فان بيعتى لا تكون سرا ولكن أخرج الى المسجد فمن شاء ان يبايعنى فليبايعنى » (٢٠٧) .

---

(٢٠٥) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٨١ .

(٢٠٦) (تاريخ الطبرى) . احداث سنة ٣٥ هـ .

(٢٠٧) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٠٤ .

وقال : « ان كرهنى رجل واحد من الناس لم ادخل فى هذا الامر » (٢٠٨) .

فالحديث ، كل الحديث ، هنا عن البيعة والرضا والاختيار ..

والشريف الرضى قد حقق واثبت فى « نهج البلاغة » خطبته التى خطبها يومئذ ، عندما أراد الناس بيعته ، وفيها يقول :

* « دعونى والتمسوا غيرى .. واعلموا انى ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم .. وان تركتمونى فأنا كأحدكم . ولعلى اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيرا خير لكم منى أميراً .. » (٢٠٩) وليس هناك من يستطيع ان يزعم امكان صدور مثل هذا القول ممن له نص بامامته قد الزم الله ورسوله به الناس ..

* وهو يعود ، فيما بعد ، ليذكر الناس بأحداث ذلك اليوم وموقفه من طلبهم مبايعته . فيقول : « وبسطتم يدى فكففتها . ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم (٢١٠) على تداك الابل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقط الرداء ، ووطىء الضعيف ، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج (٢١١) اليها الكبير . وتحامل نحوها العليل ، وحسرت اليها الكعاب . (٢١٢) .

---

(٢٠٨) (شرح نهج البلاغة) جـ ٤ ص ٨ .
(٢٠٩) (نهج البلاغة) ص ١١٥ ، ١١٦ .
(٢١٠) اى ازدحمتم .
(٢١١) أى مشى مشية الضعيف .
(٢١٢) (نهج البلاغة) ص ٢٧٧ (وهذا النص يومىء الى مشاركة المرأة فى البيعة لعلى !!)

فهم يطلبون بيعته . وهو يمتنع عليهم ، ويدفعها عنه ؛ ثم كانت البيعة منهم له . .

* وفى خطبته الشهيرة « بالشقشقية » يتحدث عن زهده فى امارة المؤمنين ، فيقول : « . . . أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ــ « أى حضور الذين بايعوه بالخلافة » ــ وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة (٢١٣) ظالم ولا سغب مظلوم ، لالقيت حبلها على غاربها . . ولالفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة (٢١٤) عنز . . » (٢١٥)

فانى لمن نص الله على امامته فى الكتاب وأعلن هذا النص رسوله فى السنة أن يتحدث عن القاء حبل الامامة على غاربها ، اللهم الا أن يكون رافضا أمر الله مستهينا بحقه ، وحاشا أن يكون ذلك هو الظن بالامام على كرم الله وجهه . .

* وعندما ظهر خلاف طلحة والزبير له ، عاد يذكر الناس بأحداث يوم بيعتهم له ، وبما له فى عنق المخالفين من البيعة ، فقال فى احدى خطبه : « . . لقد استخرجتمونى ، أيها الناس ، من بيتى ، فبايعتمونى على شين منى لامركم ، وفراسة تصدقنى مافى قلوب كثير منكم ، وبايعنى هذان الرجلان ــ « أى طلحة والزبير » ــ فى أول من بايع ، تعلمون ذلك ، وقد نكثا وغدرا . (٢١٦)

---

(٢١٣) الكظة ــ بكسر الكاف وفتح الظاء مشددة ــ : مايعترى الآكل من امتلاء البطن بالطعام .

(٢١٤) العفطة بفتح العين وسكون الفاء ــ : ماتنشره العنزة من انفها عند عطسها او مايشبه عطسها .

(٢١٥) (نهج البلاغة) ص ٣٦ .

(٢١٦) (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ٤٠٧ .

ثم يكتب الى طلحة والزبير كتابا يحمله اليهما رسـوله عمران بن الحصين ، يقول لهما فيه : « أما بعد . فقد علمتما . وان كتمتما ، انى لم ارد الناس حتى ارادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى ، وأنكما ممن أرادنى وبايعنى ، وأن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ، ولا لغرض حاضر ، فان كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا الى الله مـن قريب ، وان كنتما بايعتمانى كارهين فقد جعلتمـا لى عليكما السبيل باظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية(٢١٧)

فحديثه هنا عن البيعة ، وعن أن النـاس هم الذين ارادوا بيعته . وكذلك ارادها طلحـة والزبير ، وأن سبيل الالتزام الذى عليهما قبله هو البيعة . ولا شيء غير البيعة التى صدرت عن الارادة والاختيار .. مما ينفى اية أوهام او ظنون عن وجود النص او التعيين .

* ثم يتحدث عن ماقاله الزبير من ان الثـوار الذين قتلوا عثمان قد اكرهوه . بالسيف . على البيعة لعلى ، فيقول : « يزعم ـ الزبير ـ أنه قد بايع بيده ولم يبايع بقلبه . فقد أقر البيعة ، وادعى الوليجة (٢١٨) . فليأت عليها بأمر يعرف . والافليدخل فيما خرج منه (٢١٩) .

فالملزم فى هذا الشأن هو الاقرار بالبيعة ، ولو كـان هناك نص أو تعيين لكان هو الملزم ، اذ كيف يحتج بصفقة يد المبايع ويترك الاحتجاج بنص الكتاب والسنة والصحيفة السماوية التى شهد عليها جبريل وميكائيل والملائـكة المقربون ، والتى ختمت بخواتيم من الذهـب الذى لم تمسسه النار ؟! ..

---

(٢١٧) (نهج البلاغة) ص ٣٤٨ .
(٢١٨) الوليجة : مايضمر فى القلب ويكتم .
(٢١٩) (نهج البلاغة) ص ٣٩ .

* وعندما يلقى طلحة والزبير يجادلهما ويحتج عليهما بقوله : « أنما كان لكما أن لاترضيا قبل الرضي وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لكما غير ما رضيتما به ، الا أن تخرجاني مما بويعت عليه بحدث . فان كنت أحدثت حدثا فسموه لي .. » (٢٢٠) .

فلو كان هناك نص وتعيين لكان ملزما لهما ولغيرهما قبل الرضي والبيعة وبعدهما ، ولما كان هناك مايدعو للرضي ولا للبيعة اذ المطلوب فى مثل تلك الحال هو الامتثال لامر الله والتعبد بنصه وتعيينه .

* وعندما أخذ فى الاعداد لقتال معاوية ، بعد فراغه من أهل الجمل . سأله ابن الكواء وقيس بن عباد اليشكرى ، فى حضرة جمع من أصحابه فقال : « أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت ، تضرب الناس بعضهم ببعض ، ليتبين الناس أمورهم . فتستولى بها عليهم ، أمن رأى رأيته ، حين تفرقت الامة واختلفت الدعوة . انك أحق الناس بهذا الامر ؟ فان كان رأيا رأيته أجبناك فى رأيك ، وان كان عهدا عهده اليك رسول الله فأنت الموثوق به والمصدق المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه ؟ فتشهد ... وقال : لانا ، والله ، أول من صدقه ، فلا أكون أول من كذب عليه ، اما أن يكون عندى عهد من رسول الله فلا والله .. » (٢٢١) .

فهو ينفى أن يكون هناك عهد من الرسول له فى هذا

---

(٢٢٠) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٦٦ .

(٢٢١) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ و (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٦٩ .

الامر ، ليثبت انه راى رآه ، وأداه هذا الراى الى انه أحق الناس بهذا الامر ..

* ويرسل زياد بن كعب حاملا رسالة منه الى الاشعث بن قيس عامل أذربيجان ، وفيها : « ... وكان طلحة والزبير اول من بايعنى . ثم نقضا بيعتى على غير حدث .. »

ويخطب زياد بن كعب فى أهل أذربيجان فيقول : « ان طلحة والزبير نقضا بيعة على ، على غير حدث » (٢٢٢) .

* ويكتب الى عامل همدان ، جرير بن عبد الله البجلى ، رسالة يحملها اليه زفر بن قيس ، وفيها : « ... وانى أخبرك عن نبأ من سرنا اليه من جموع طلحة والزبير . عند نكثهم بيعتى ... وناشدتهم عهد بيعتهم فأبوا الا قتالى .. » (٢٢٣)

ويخطب زفر بن قيس فى أهل همدان : فيقول : « وان طلحة والزبير نقضا بيعة على . على غير حدث .. »(٢٢٤).

كما يخطب فيهم عاملهم جرير بن عبد الله البجلى ، فيقول : « ان الناس بايعوا عليا بالمدينة عن غير محاباة له ببيعتهم .. وان طلحة والزبير نقضا بيعة على . على غير حدث . والبا عليه الناس .. » (٢٢٥) .

* ويكتب رسالة الى أهل العراق ، الذين شاركوا فى الثورة على عثمان . وفى بيعته بعد مقتل عثمان ، فيقول فيها : « حتى اذا نقمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه . ثم

---

(٢٢٢) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٧٩ .
(٢٢٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٧٠ .
(٢٢٤) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٧٨ .
(٢٢٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٧٢ .

جئتمونى تبايعونى . فأبيت عليكم وأبيتم على . فنازعتمونى ونافستمونى . ولم أمدد يدى تمنعا عنكم ، ثم ازدحمتم على حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعض أو أنكم قاتلى ، وقلتم لا نجد غيرك . ولا نرضى الا بك . فبايعنا ، لانفترق ولا نختلف ، فبايعتكم ودعوتم الناس الى بيعتى . فمن بايع طائعا قبلت منه ، ومن أبى تركته » (٢٢٦) .

* ويكتب الى أهل البصرة ، مع جارية بن قدامة ، كتابا يقول فيه : « فان تفوا ببيعتى ، وتقبلوا نصيحتى ؛ وتستقيموا على طاعتى ؛ أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق ، وأقم فيكم سبيل الهدى » (٢٢٧) .

فلا شئ فى هذه المراسلات وتلك الخطب الا الحديث الدائر عن البيعة ، والبيعة التى تمت بالرضى والرغبة والاختيار ، ولا اشارة الى ما يمكن أن يسمى بالنص والتعيين .

* وتدور بين الامام على وبين معاوية مراسلات نرى محورها الحديث عن البيعة كطريق ، لا طريق سواه ؛ الى الامامة ، سواء كان ذلك على عهد أبى بكر وعمر أم فى وقت المراسلات حينما حدثت الفتنة ووقع النزاع والاقتتال . .

يقول على لجرير بن عبد الله البجلى عندما ارسله ، بكتاب منه ، الى معاوية : « ائت معاوية بكتابى ، فان دخل فيما دخل فيه المسلمون ، والا فانبذ اليه . واعلمه انى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة » ،

فالمسلمون ، هنا ، هم الذين دخلوا فى الامر ، ولم

---

(٢٢٦) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢٢٧) (شرح نهج البلاغة) جـ ٤ ص ٤٩ ، ٥٠ .

يدخلهم فيه النص والتعيين .. والعامة هى التى ترضى ، أو لا ترضى بالخليفة .. هذا حقها الذى خولها اياه الاسلام ، ولم يحجبها عنه نص ولا تعيين .

وفى الخطاب الذى حمله جرير بن عبد الله البجلى من على الى معاوية ، تقرأ قول على : « .. أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لانه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والانصار ، اذا اجتمعوا على رجل فسموه اماما كان ذلك لله رضا .. وأن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى ، فكان نقضهما كردهما .. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى ... انها بيعة واحدة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف فيها الخيار » (٢٢٨) .

« فالنظر والخيار ، والشورى والبيعة » هى سبيل الامارة للمؤمنين وأدوات تنصيب الامام ، تلك هى سنة المسلمين فى دولة الخلافة الراشدة منذ بيعة أبى بكر حتى بيعة على .. والامام على يتحدث عن ذلك كالنظام « الدستورى » المستقر للدولة ، ويطلب من معاوية الاقرار والطاعة لهذا النظام ... فأين من ذلك دعوى النص والتعيين ؟! .

* وفى رد معاوية على على بن أبى طالب يدور الحديث عن البيعة كسبيل للامارة ، فيقول له : « ... فلعمرى

(٢٢٨) (نهج البلاغة) ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ . و (شرح نهج البلاغة) ج ٣ ص ٧٥ ، ٧٦ ، و (وقعة صفين) ص ٥٨ .

لو بايعك القوم الذين بايعوك وانت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان .. ولعمرى ليست حججك على كحججك على طلحة والزبير ، لانهما بايعاك ولم ابايعك » (٢٢٩) .

فيجيبه على نقوله : « واما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير .. فلعمرى ما الامر فيما هناك الا سواء . لانها بيعة شاملة ، لا يستثنى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النظر .. » (٢٣٠) .

فلم يقل له : انك وان لم تبايع فان نص الله على امامتى وتعيينه لى أميرا للمؤمنين يلزمك الطاعة والانقياد .

* وعندما يخطب فى أصحابه يستنفرهم لقتال أهل الشام ، يطلب منهم ذلك وفاء بحق بيعتهم له ، لا بحق النص من الله ورسوله عليه ، فيقول : « أيها الناس . ان لى عليكم حقا ، ولكم على حق ، فأما حقكم على : فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيما تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة فى المشهد والمغيب ، والاجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم .. » (٢٣١) .

تلك كلمات الامام على أثناء احتدام الصراع بينه وبين خصومه على الامامة والامارة ، لم يحتج فيها لنفسه أو لمن سبقه من الخلفاء بغير البيعة ، جعل منها محور حججه ضد خصومه ، وارتفع بها الى مستوى المبدأ «الدستورى» الاعظم الذى يحكم نظام دولة الخلافة الراشدة منذ أن قامت حتى حضرته . رضى الله عنه . الوفاة ..

---

(٢٢٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٨٨ .
(٢٣٠) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٨٩ .
(١٣١) (نهج البلاغة) ص ٦١ .

ولكن .. اذا لم يكن على قد ذكر الوصـــية والنص والتعيين له . فى حياته ، بدليل خلو نصوصه هو مـــن ذكرها . وهى النصوص التى حققها وجمعها الشـــيعة فى « نهج البلاغة » . فانه يبقى الزعم بأنه قد أوصى للحسن . ومن بعده للحسين عندما حضرته الوفاة . بعد طعن ابن ملجم له فالذين يقولون بالنص يذكرون أنه قد جمـــع عندئذ أبناءه الاثنى عشر ، كما جمع يعقوب بنيه . وأوصى للحسن كما أوصى يعقوب ليوسف ! (٢٣٢) .

فما نصيب هذا الزعم من الصحة ؟ وما حظـــه من الصواب ؟؟ ..

ان المعتزلة يقولون : انه لم يوص بشىء يتعلق بأمور الخلافة والامامة ، بل على العكس رفض أن يوصى أو يعين أو ينص . وترك الامر للشورى والاختيار ..ويروون أنه « لما ضربه ابن ملجم .. دخلوا عليه فقالوا : استخلف، فقال : لا ، انا دخلنا على رسول الله ، فقلنا : يا رســـول الله . استخلف ، فقال : « لا . أخاف أن تفرقوا عنـــه كما تفرقت بنو اسرائيل عن هارون . ولكن أن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يختر لكم » . فعلم الله ، والله ، فى قلوبنا خيرا فاختار لنا أبا بكر .. فتركوه .. ثم عاودوه . فما فعل . وسألوه أن يشير عليهم بأحد . فما فعل .. فقالوا له : ان فقدناك يا أمير المؤمنين فلا نفقدك أن نبايع الحسن . فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .. فعادوا القول ، فقال كذلك : أنتم أبصر .. وكان آخر عهدهم به ، وقبض صلوات الله عليه ، فلم يقل غير هذا » (٢٣٣) .

---

(٢٣٢) (الكافى) جـ ١ ص ٦٦ .

(٢٣٣) (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

ذلك رأى المعتزلة ، يقطعون فيه بأنه لم يوص ولم يعين ولم يستخلف أحدا .. ومع المعتزلة اهل السنة فى هذا الموقف ، وكذلك أصحاب الحديث .

والمبرد ، فيما كتبه عن الخوارج فى « الكامل » — وميوله الخارجية واضحة — ينكر أن يكون على قد أوصى او استخلف . فيقول : « وحدثت من غير وجه ، أن عليا لما ضرب ، ثم دخل منزله اعترته غشية ثم أفاق . فدعا الحسن والحسين . فقال : أوصيكما بتقوى الله . والرغبة بالآخرة والزهد فى الدنيا . ولا تأسفا على شيء فاتكما منها . اعملا الخير ، وكونا للظالمين خصما . وللمظلوم عونا . ثم دعا محمدا — « ابن الحنفية » — فقال : اما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى . قال : فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ، ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما . ثم اقبل عليهما فقال : اوصيكما به خيرا . فانه شقيقكما وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن اباكما كان يحبه . فأحباه .. » (٢٣٤) .

فهو لم يوص — فى هذه الرواية — بشيء يتصل من قريب او بعيد بأمر الامامة ، بل ولا بشيء من أمر السياسة ويقطع بذلك انه قد أوصى لمحمد بن الحنفية بما أوصى به لكل من الحسن والحسين ، وهو ماينفى زعم الزاعمين أن الوصية بالامامة كانت للحسن ومن بعده الحسين ولا شيء منها لابن الحنفية .. فالوصية المروية عامة . وأخلاقية ، ولا شأن لها بالامامة أو السياسة .

تلك رواية المعتزلة ، ورواية المبرد ، التى حدث بها من غير وجه .. ولكن ماذا فى « نهج البلاغة » عن هذا

---

(٢٣٤) (باب الخوارج) من كتاب (الكامل) ص ٧٧ ، ٧٨ .

الموضوع ؟ لاشك ان وصية الامام على ليست من النصوص التى يمكن أن تهمل روايتها ، خاصة اذا تعلقت بالامامه والوصية للحسن بالامر من بعده ــ كما تقول الشيعة ــ ولابد من اثباتها فى « نهج البلاغة » خاصة وان الشريف الرضى . نقيب الطالبيين هوالذى جمع وحقق نصوص هذا الكتاب ..

ونحن نجد فى « نهج البلاغة » « وصايا » للامام على، ذكرت فى مواطن اربعة من هذا الكتاب :

١ ــ الوصية الاولى : طويلة مسهبة ، تستغرق فى الكتاب من ص ٣٠٧ حتى ص ٣١٨ .. كتبها الامام على لابنه الحسن فى بلدة « بحاضرين » ، فى نواحى صفين ، عند منصرفه من صفين .. وهى وصية عامة ، وتدور حول قضايا اخلاقية ووعظية ، وليس فيها مما يشتم عنه رائحة السياسة والحديث عن المسائل العامة الا بضع فقرات لا علاقة لها بالخلافة والامامة بحال من الاحوال .. وفى هذه الفقرات يقول الامام على لابنه الحسن :

« وامر بالمعروف تكن من اهله ، وانكر المنكر بيدك ولسانك . وباين من فعله بجهدك . وجاهد فى الله حق جهاده ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم وخض الغمرات للحق (٢٣٥) حيث كان .. اشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من اهوائهم وآرائهم ، مثل الذى التبس عليهم فكان احكام ذلك ، على ماكرهت من تنبيهك له ، أحب الى من اسلامك الى امر لا آمن عليك به الهلكة ، ورجوت أن يوفقك الله لرشدك ، وأن يهديك لقصدك ، فعهدت اليك

(٢٣٥) (نهج البلاغة) ص ٣٠٨ .

وصيتي هذه (٢٣٦) .. فاذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك في ذلك هما واحدا ، فانظر فيما فسرت لك ، وان أنت لم يجتمع لك ماتحب من نفسك ، وفراغ نظرك وفكرك ، فاعلم انك انما تخبط العشواء ، وتتورط الظلماء ، وليس طالب الدين من خبط أو خلط ، والامساك عن ذلك امثل ... فان اشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به ، فانك اول ما خلقت جاهلا ثم علمت ، وأكثر ماتجهل من الامر ، ويتحير فيه رأيك ، ويضل فيه بصرك ، ثم تبصره بعد ذلك (٢٣٧) .. واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والارض قد أذن لك في الدعاء ، وتكفل لك بالاجابة ، وامرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ،ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه ، ولم يمنعك أن سألت من التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يعيرك بالانابة ، ولم يفضحك حيث تعرضت للفضيحة ولم يشدد عليك في قبول الانابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يؤنسك من الرحمة ، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشرا ، وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب » (٢٣٨) .

تلك هي الفقرات التي تشتم منها رائحة السياسة ، من هذه الوصية الطويلة ، وهي فقرات ان اتصلت بالسياسة بخيط واه وضعيف ، فلا علاقة لها بالامامة والخلافة ولا الوصية والنص بأي حال من الاحوال .

(٢٣٦) المصدر السابق . ص ٣٠٩ .
(٢٣٧) المصدر السابق . ص ٣١٠ .
(٢٣٨) المصدر السابق . ص ٣١٢ .

٢ ـ وفي موطن ثان من « نهج البلاغة » ترد الوصية الثانية التي اوصى بها الامام علي للحسن والحسين ، وتاريخها يقع قبيل وفاته ، وبعد طعن ابن ملجم له .. وكان الظن ان تشمل شيئا عن السياسة والامامة والوصيه بها ـ كما يقضي قول أصحاب النص ـ ولكنها تخلو من اي شيء من ذلك .. وفيها يقول ، رضي الله عنه : « أوصيكما بتقوى الله ، وأن لاتبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما ، وقولا بالحق ، واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم عونا ، اوصيكما وجميع ولدي واهلي ومن بلغه كتابي ، بتقوى الله ، ونظم امركم ، وصلاح ذات بينكم ، فاني سمعت جدكما يقول : « صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام » . الله الله في الايتام فلا تغبوا (٢٣٩) أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، والله الله في جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم ، مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم . والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم . والله الله في الصلاة ، فانها عمود دينكم والله الله في بيت ربكم ، لا تخلوه مابقيتم ، فانه ان ترك (٢٤٠) .. لم تناظروا . والله الله في الجهاد بأموالكم وانفسكم والسنتكم في سبيل الله .. وعليكم بالتواصل (٢٤١) والتباذل ، واياكم والتدابر والتقاطع . لا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيتولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم .. يابني عبد المطلب ، لاالفيكم تخوضون دماء المسلمين خوضا ، تقولون : قتل أمير

(٢٣٩) غب القوم : جاءهم يوما وترك يوما .. والمراد : داوموا صلة افواههم بالطعام .

(٢٤٠) أي لاينظر اليكم بالكرامة ، لامن الله ولا من الناس .

(٢٤١) اى مداومة البذل والعطاء .

المؤمنين ! قتل أمير المؤمنين ! الا لا تقتلن بي الا قاتلي ، انظروا ، اذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل ، فاني سمعت رسول الله يقول : « اياكم والمثلة . ولو بالكلب العقور » (٢٤٢) .

فهي الاخرى وصية وعظية وأخلاقية لا نصيب فيها للسياسة أو الامامة ..

٣ ـ اما الموطن الثالث من « نهج البلاغه » فالوصيه التي وردت فيه لا تتعدى عبارة موجزه أوصى بها الامام علي أهله ، بعد أن طعنه ابن ملجم ، وقبل ان يموت ، فقال : « وصيتي لكم أن لاتشركوا بالله شيئا . ومحمدا فلا تضيعوا سنته ، اقيموا هذين العمودين ، واوقدوا هذين المصباحين ، وخلالكم ذم ! » (٢٤٣) .

٤ ـ وفي الموطن الرابع ، والاخير من مواطن وصاياه في « نهج البلاغة » نجد تكرارا لنفس العبارة السابقة مع تعديل طفيف في الالفاظ . (٢٤٤) .

فليس في وصاياه . رضي الله عنه ، مايشير الى أمر من أمور السياسة ، فضلا عن أمور الامامة والخلافة ، والعهد بها الى الحسن أو الحسين أو هما ، كما زعم الذين قالوا بالنص والتعيين ..

ويشهد لذلك ويؤكده ماروى من أن تولى الحسن لامارة المؤمنين ، عقب وفاة علي ، انما كان بالاختيار والبيعة من أصحاب علي وأنصاره وقادة جيشه . ولقد استشارهم ابن عباس فى ذلك ، فرغبوا في البيعة للحسن ، ويروى

(٢٤٢) (نهج البلاغة) ص ٣٣٠ .

(٢٤٣) المصدر السابق . ص ٢٩٧ .

(٢٤٤) المصدر السابق . ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

المدائني ذلك فيقول : انه « لما توفى على . عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الى الناس ، فقال : ان أمير المؤمنين عليه السلام توفى ، وقد ترك خلفا . فان أحببتم خرج اليكم ، وان كرهتم فلا أحد على أحد . فبكى الناس ، وقالوا : بل يخرج الينا ، فخرج الحسن ، عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيها الناس ، اتقوا الله ، فانا امراؤكم وأولياؤكم ، فبايعه الناس . » (٢٤٥) .

فابن عباس قد عرض عليهم وترك لهم الاختيار . ان ارادوا البيعه لخلف علي واكبر ابنائه ، الحسن ، حرج اليهم لاخذ بيعتهم ، والا فهم الى الشورى ، و « لا احد على احد » ، كما قال ..

وقبل أن ندع الاستدلال بكلمات امير المؤمنين على بن أبي طالب على بطلان القول بالنص ، واثبات القول بالاختيار ، نود ان نذكر بما سبق ان اشرنا اليه واوردناه من الآيات والاحاديث التي فسرها الشيعة وأوردوها في أهل البيت . تفضيلا لهم . وتوصية للمسلمين بهم . والذي نود اضافته هنا هو أن الامام عليا قد استدل في موطن من مواطن كلامه على أن وصية الرسول بالانصار خيرا تعني وتدل على أن الامامة ليست في الانصار ، اذ لو كانت فيهم لم تكن الوصية بهم ! فما روته الشيعة في الوصية بآل البيت وذوى القربى ، هو ، بمنطق على واستدلاله ، مخرج لآل البيت من دائرة الامامة والخلافة، فضلا عن دائرة النص عليها فيهم ، اذا جاز أن يكون هناك نص وتعيين .. فيروى « لما انتهت الى على انباء السقيفة

---

(٢٤٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٦ ص ٢٢ .

.. قال : ما قالت الانصار ؟ قالوا : قالت : منا أمـــير ومنكم أمير . فقال : فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصي بأن يحسن الى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ؟ قالوا : ومافي هذا من الحجة عليهم ؟! فقال : لو كـــانت الامارة فيهم لم تكن الوصية بهم ! » (٢٤٦) .

فمنطق علي وحجته يرتد على الذين يستدلون بآية : « قل لا اسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » على انهـا تعني اختصاص آل البيت بالامامة ، لانهم هم المقصودون بكلمة « القربى » ، والآية توصي بهم ، يرتد عليهم هـــذا « الدليل » ليستبعد آل البيت من نطاق الذين يستحقون الامامة أصلا ! .. وهذا مالم يقل به ، ولا يقول به أحد من المسلمين ..

ومما يضاف الى ما تقدم ، مما نفينا به أن تكون الامامة قد انتقلت بالنص من علي الى ابنه الحسن ، أن الحسن قد تنازل عنها لمعاوية ، على شروط ، وأقر الحسين هذا التنازل ، أو سكت عنه ، واستمر سكوته طوال حيـــاة معاوية ، ولم يخرج شاهرا سيفه الا عندما بويع لابنــه يزيد .. ولو كانت الامامة نصا وتعيينا لما جاز التنازل عنها باي حال من الاحوال . (٢٤٧)

ولن ينفع الشيعة . القائلين بالنص ، ادعاء أنالتنازل كان « تقية » . لان الحسن كان له جيش ودولة . ولقد غضب منه قوم وانكر عليه تنازله آخرون ، وبعضهم قـــد اغلظ له القول ، وظلوا يستحثونه على الخروج والقتال.. وحتى لو كانت تجربة خذلان أهل العراق لابيه قد كانت

---

(٢٤٦) (نهج البلاغة) ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢٤٧) (الفصل في الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٠٥ .

ماثلة في ذهنه ، فلقد كان بوسعه الاعتزال والانتظار دون أن يتنازل عن الامرة كتابة فيكرس الشرعية لمن حـول الخلافة الى ملك عضود !...

***

واذا كان الامر كذلك . وثبت . كما قدمنا . بمـا لا يدع مجالا للشك فساد القول بأن النص والتعيـين والوصية هو الطريق لتنصيب الامام . فان طريقها لابد وأن يكون الاختيار والشورى والبيعة والعقد . اذ لاطريق ثالث لتنصيب الامام ، فاما النص واما الاختيار .. وكما يقول الباقلاني : انه « اذا فسد النص صح الاختيار . لان الامامة متفقة على أنه ليس طريق اثبات الامامة الا هذين الطريقين . » (٢٤٨) .

ذلك هو راى المعتزلة فى الاختيار ، كطريق لتنصيب الامام ، وهو الرأى الذى يلخصه ابو على الجبائى فى هذه العبارات ، فيقول : « لم يختلف فى زمان الائمة الاربعـة ان على علماء المسلمين وصلحائهم ان يقيموا اماما ..وذلك يثبت الاختيار .. وايضا فان الحدود والاحكام واقامـة الشهود وتعديلهم . وغير ذلك ، لم يكن يتولاها فى عهد رسول الله الا هو وامراؤه .. فلما مات ، ولم ينص على واحد دلهم على أنه لا يجوز تعطيل الحدود والاحكام ، وأوجب ذلك ان يقيموا لانفسهم اماما ليقوم بهذه الامور ، وهذا يوجب ثبوت الاختيار .. وعلى هذا الوجه جرت العادة عند أهل العقول أنهم يختارون من يقوم بامورهم

(٢٤٨) (التمهيد) ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

ومصالحهم ، لا أنهم ينتظرون النص ، فصارت عادة أهل العقول شاهدة لما ذكرناه بالصحة ..

وبعد ، فاذا ثبت أن الذى يقوم به الامام يجرى مجرى مصالح الدنيا ، وقد ثبت أن الواجب فيها التوصل اليها بكل مايمكن ، فما الذى يمنع من أن يقوموا باختيار الامام الذى يقوم بذلك ، اذا ثبت بالسمع أنه لا يقـــوم به الا الامام ؟ . » (٢٤٩)

وهكذا يتقرر أن الاختيار هو طريق الامامة ، بعـد أن سقطت أدلة القائلين بالنص ، السمعية والعقلية ، وسقطت معها كل التفسيرات والشبهات التى اعترضوا بهـــا على الاختيار والبيعة والعقد كطريق لتنصيب الامام ..

(٢٤٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

الفصل الثالث

كيف يتم اختيار الإمام؟

طـــريق الامامة ، اذا ، هو الاختيار .. قالت بذلك المعتزلة وكل من عدا الشيعة من فرق الاسلام .

ولكن .. كيف تتم عملية الاختيار ؟ ومن هم الذين يقومون بهذا الاختيار ؟ اهم جماعة محدودة العـــدد . متميزة فى الصفات ، يمكن أن تشبه اللجنة او المؤسســـة الدستورية في عصرنا الراهن ؟ أم الامة كلها هي التى تختار الامام ؟ اذ على اجابة هذا السؤال تترتب اجـابة سؤال آخر هو : على من يجب نصب الامام . اعــلى « الخاصة » من الامة ؟ أو على « عامة » الناس ؟.

والمعتزلة وان كانوا قد اتفقوا على أن طريق الامامة هو الاختيار الا انهم قد اختلفوا فى الموقف من « العامة » و « الخاصة » فيما يتعلق باختيار الامام وعقد البيعة له .. فأبو بكر الاصم وتلامذته ينفرد من بين المعتزلة ـ بل من بين كل مفكرى علم الكلام ـ بأن نصب الامام هـــو فرض عامة الامة وواجبها ، وانه لا تنعقد الامامة الا اذا تحمل الاجماع من الامة على من نصبته اماما .. وهـــو بذلك قد رفض ان يعتمد الطرق التى تمت الامامـــة بواسطتها فى صدر الاسلام ، اذ ان التنصيب قد تم بواسطة

البعض ، ولم تستكمل له مقومات الاجماع ، والبغدادى يقول : ان الاصم « كان يقول بامامة معاوية ، لاجماع الامة عليه ، بعد علي (١) » .. واذا صح ذلك كان الوحيد بين ائمة المعتزلة فى هذا التقييم لخلافة معاوية بن أبى سفيان .. كما يقول الشهرستانى : ان الاصم « كان يقول : الامامة لا تنعقد الا باجماع الامة عن بكرة أبيهم » .. ويمضى الشهرستانى الى القول بأن الاصم « انما أراد بذلك الطعن فى امامة على .. اذ كانت البيعة فى أيام الفتنة من غير اتفاق من جميع الصحابة ، اذ بقى فى كل طرف طائفة على خلافه » . (٢)

وانا لا أعتقد أن الاصم قد ذهب هذا المذهب ، وقصده الاصيل أن يطعن فى امامة على ، لان مذهبه هذا اذا طبق على امامة أبى بكر وعمر الحق بهما الشبهات . اذ لم يتم هناك اجماع عليها ، على حد مايطلب من « اجماع الامة عن بكرة أبيهم » ، فمثل هذا الاجماع مما يعز على التطبيق فى ظروف عصرنا الراهن ، فضلا عن تلك العصور ... وانما الذى أعتقد أن الاصم قد أراده هو رفض قول القائلين ــ وهم كل من عداه ــ بأن الامامة هى فرض « الخاصة » ، وواجب « أهل الحل والعقد » وحدهم ، هم الذين يختارون الامام ، ويعقدون له ، ولا شأن لجمهور الامة وعامتها فى هذه الامور .

ذلك هو مذهب الاصم ، انفرد بالقول باعتبار « العامة » شيئا مذكورا فى أمر الامة ، فأوجب عليها نصب الامام ، واشترط موافقتها واجماعها كى تنعقد امامة الامام .

(١) (اصول الدين) ص ٢٨٧ .
(٢) (الملل والنحل) جـ ١ ص ١٠٩ .

ويبدو أن هذا الفكر كان أثرا من آثار التطورات التى حدثت فى الدولة العربية الاسلامية ، والتى فرضت على أهل الفكر السياسى أن ينزعوا الى طلب توسيع القاعدة التى تشارك فى اختيار رئيس الدولة وتنصيبه ، وهو فكر مناهض للقبلية والعشائرية ، وللوراثة التى سارت منذ عهد بنى أمية .. ونحن نجد اشارات الى ضرورة الاجماع والاطباق عند امام الشيعة الكيسانية ، الذى كان يقول بالعدل والتوحيد ، محمد بن الحنفية .. فعندما طلب منه بعض انصاره أن يأخذ البيعة لنفسه ، قال : « ماأطلب هذا الامر الا أن لا يختلف على فيه اثنان » (٣) كما قال : « ان رأيى : لو اجتمع الناس على كلهم الا انسان واحد لما قاتلته » .. وأثناء مقامه « بالزرقاء » . من أعمال الشام . قال : « والله لو اجتمعت هذه الامة على الا أهل « الزرقاء » ماقاتلتهم أبدا . ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا .. (٤)

وخصوم هذا المذهب يقولون : ان اشتراطه يؤدى الى استحالة نصب الامام ، فجعل امر الامامة « الى كل الامة .. يؤدى الى اهمال فرض الامامة .. » (٥) . لان تصور اشتراك كل الامة فى الاختيار . ثم اشتراط اجماعها على امام واحد . هو أمر فى نطاق المستحيلات . خصوصا مع ظروف تلك الاعصر ، وارتخاء وسائل الربط بين أجزاء الدولة ، وتخلف المواصلات وسبل الاتصال . وايضا مع وجود الفرق المتناحرة التى يكفر بعضها بعضا . وتزعم

(٣) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٧٦ .
(٤) المصدر السابق . جـ ٥ ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٥) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٠١ .

كل منها أنها هي التي على الحق ومن عداها فهو على الكفر او الفسوق والعصيان .

والذين رفضوا مذهب اشتراك « العامة » و «الاجماع» في نصب الامام . وفي ذات الوقت ادعوا حدوث الاجماع في البيعة لابي بكر . قالوا : ان قولهم بضرورة الاجماع على أبي بكر هو موقف استثنائي ، لايطلبون تكراره في كل نصب لكل امام ، لان تنصيب أبي بكر كان العمل التأسيسي لنظام دولة الخلافة . فهنا نشأت الحاجة الى سابقة شرعية تمنح الشرعية الدستورية لهذا النظام الجديد . ثم يحدث الاستناد اليها والمتابعة لها فيما بعد . فقالوا : « انما احتجنا الى اثبات الاجماع في امامة ابي بكر من حيث وجب كونها أصلاً في باب الامامة . فاحتيج الى دليل سمعي مقطوع به يقترن بذلك . وهذه العلة غير داخلة في امامة غيره . فلا يجب اعتبار الاجماع فيه . » (٦)

ومع التسليم بتعذر . او باستحالة . ذلك الاجماع الذي تحدث عنه الاصم ، فان فضل هذا المذهب يبقى في طلبه ، منذ ذلك التاريخ البعيد . توسيع قاعدة العمل السياسي الخاص باختيار رئيس الدولة ، كي تشمل الامة كلها ، واشتراطه أن تدخل « العامة » هذا الميدان ، لا أن يظل حكراً « للخاصة » وحدها .

ونحن لا نعتقد أن استحالة تطبيق ذلك المذهب قد غابت عن القائلين به ، وانما الذي نعتقده أنهم قد راموا أن يجردوا أولئك الحكام الذين لا يحوزون ثقة الامة واجماعها من لقب الامام وقدسية منصبه ، فليكونوا « حكاما » و « أمراء » ، و « ولاة » ، مثلا ، اما من رام

(٦) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ٢ ص ٦٤ .

ان يكون اماما للمسلمين فلابد له من أن يحوز ثقة اهل الملة واجماعهم على امامته واطباقهم على الرضا به .

ذلك هو مذهب الاصم .. أو « طريقة العامة » ومذهب الذين « اعتبروا العامة » ، على حد تعبير القاضي عبد الجبار . (٧)

***

اما غير الاصم ، من المعتزلة ، كذلك كل الفرق التى قالت بالاختيار ، فانهم قد اجتمعوا على أن الاختيار هو واجب « الخاصة » دون « العامة » .

والذى يميز « الخاصة » من « العامة » هنا ليس أصلا عرقيا أو قبليا .. ولا هو وضع طبقى أو مركز مالى ، وانما هى شروط تتصل بالفكر والرأى والمعرفة والسلوك ومعيارها هو دورها فى جعل الاختيار أكثر صوابا والرأى اكثر احكاما والامور موضوعة فى نصابها الطبيعى والسليم .. أى أن الخاصة هم من يحسنون ويجيدون معرفة الامامة ومهامها والامام وشروطه والاختيار ومداخله ، والعامة هم الذين لا قدرة لهم على الخوض فى هذا البحث وذلك الميدان .

والجاحظ يعرض لهذه القضية على انها نوع من «تقسيم العمل » الذى هو أمر طبيعى وضرورى بين أهل المجتمع الواحد والدولة الواحدة ، فيفرق . أولا ، بين مستوى معرفة العامة وفقهها ومستوى الخاصة فى ذلك . عندما يقول عن ما « تعرفه » العامة :

« .. أما الامر الذى يعرفون : فالتنزيل المجرد . بغير

(٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥٩ .

تأويله ، وجملة الشريعة ، بغير تفسيرها ، وما جل من الخبر واستفاض وكثر ترداده على الاسماع وكروره على الافهام . وأما الذى يجهلون ـ « وتعرفه الخاصة » ـ فتأويل المنزل . وتفسير المجمل . وغامض السنن التى حملتها الخواص عن الخواص ، من حملة الاثر وطلاب الخبر ، مما يتكلف معرفته ويتتبع فى مواضعه . ولا يهجم على طالبه ، ولا يقهر سمع القاعد عنه .. » (٨) .

ثم يمضي الجاحظ ليبرز أن الامر الذى لاجله استبعدت « العامة » عن أمر الامامة هو جهلها بما يتطلبه الدخول فى هذا الامر . اذ « العامة لا تعرف معنى الامامة وتأويل الخلافة . ولا تفصل بين فضل وجودها ونقص عدمها ، ولاى شيء ارتدت ولاى أمر أملت ، وكيف مأتاها والسبيل اليها . بل هى مع كل ريح تهب . وناشئة تنجم . ولعلها بالمبطلين اقر عينا منها بالمحقين .. » (٩)

فمن كانت هذه صفته ، وتلك هى حدوده ، فهو همل لا يعدو أن يكون من سقط المتاع ، فلا مكان له فى أمر الامامة واختيار الامام وتنصيبه . لان مثل هؤلاء هم ادوات يحركها الآخرون ، وآلات فى يد الخاصة ، فليكن التعويل على الخاصة لا على ماق يدها من أدوات .. وعنده أن « العامة أداة للخاصة .. ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان » (١٠)

---

(٨) (العثمانية) ص ٢٥٣ .

(٩) المصدر السابق . ص ٢٥٠ .

(١٠) المصدر السابق . ص ٢٥٠ .

والجاحظ يقدم تلك الصورة وذلك التشبيه ليؤكد على ان قصده ليس الحط من شأن العامة ، وانما وضعها فى اطار قدراتها وامكانياتها . ولذلك فهو يرى أهميتها وضرورتها فى اطارها هذا . فالخاصة تحتاج الى العامة ، كحاجة العامة الى الخاصة . « وكذلك القلب والجارحة .. » (١١) فلتقف العامة عند مكان الجارحة ومقام الطاعة ، ولتدع مهمة التدبير للخاصة . « فصلاح الدنيا وتمام النعمة : فى تدبير الخاصة وطباعة العامة .. (١٢) ثم يخلص الى الغاية من ذلك التمييز فيقول : انه « انما يلزم الناس الامر فيما عرفوا سبيله . وليس للعوام خاصة معرفة بسبيل اقامة الائمة فيلزمها امر أو يجرى عليها نهى » (١٣) فذلك هو اختصاص الخاصة وواجبهم ، بل انهم هم المقصودون بقولنا : « على الناس ان يتخذوا اماما وان يقيموا خليفة » .. « فالناس » هنا هم « الخاصة » دون « العامة » (١٤) .

هكذا عرض الجاحظ لامر « العامة » و « الخاصة » فيما يتعلق بالفئة التى يجب عليها اختيار الامام .. وهو عرض قد انتهى الى راى اذا اردنا أن نعبر عنه بلغة عصرنا قلنا : انه قد اشترط لمن له دور فى هذا الامر أن

---

(١١) المصدر السابق . ص ٢٥٢ .
(١٢) المصدر السابق . ص ٢٥١ .
(١٣) المصدر السابق . ص ٢٥٦ .
(١٤) المصدر السابق . ص ٢٦١ .

يكون قد بلغ في الفكر والرأى والمعرفة الحد الذى جعله جزءا من « الرأى العام المستنير » . (١٥) .

وهذه « الخاصة » هى التى تسمى أحيانا أهل الاختيار او أهل الحل والعقد .. ونلاحظ من تسميتهم أو وصفهم ب « أهل الحل والعقد » انه قد طلب فيهم أن يكون اهم وزن خاص وثقل فى المجتمع . فهم أشبه بالقيـــادات المحلية فى البيئات المختلفة . تكون أكثر استنـارة فى الامور العامة ، ومنها أمر الامامة والسياسة . ولـكلمتها وزن يجعلها مسموعة متبوعة من « العامة والجمهور » ..

ولقد قدم المعتزلة ، وغيرهم من أهل السنة تحديدا أكثر من ذلك الذى قدمه الجاحظ لهذه الفئة التى جعلوا لهـا حق اختيار الامام وتنصيبه . وذلك من خلال الشـروط الثلاثة التى اشترطوا توافرها فيها . فهم قد اشترطوا فى « أهل الاختيار » هؤلاء ثلاثة شروط :

أولها : العدالة الجامعة لشروطها .. بمعنى أن يـكون من أهل الستر والصلاح ، فلا يكون فاسقا ، سواء أكان فسقه فسق جوارح أم فسق رأى ومذهب ، بأن يكون مذهبه خارجا عن مذهب أهل الحق ، داخلا فى أهـل الاهواء ـ وان فسر كل « الحـق » و « الفســوق » بمقابيس فرقته ومذهبه ـ وذلك لانهم قد اعتبروا تخلف شرط العدالة مما يقدح فى الشهادة والقضاء ، والامامـة

---

(١٥) أنظر تفصيل رأى الجاحظ فى المصدر السابق . ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ ، ٢٦١ ـ ٢٦٨ .

عندهم أعلى مقاما ، فلابد من العدالة فيمن يميز الامام ويختار الخليفة .

وثانيها : العلم الذى يتوصل به الى معرفة من يستحق الامامة على الشروط المعتبرة فيها .. فالعلم هنا علم بالسياسة وأمور الدنيا أكثر منه علما بأمور الدين ، لان المطلوب هنا أن يكون أهل الاختيار عالمين بمن يصلح للامامة ومن لا يصلح لها ، وذلك مترتب على العلم بمهام الامام ومتطلبات المنصب والمشاكل التى تعترض الامة ، وتلك أمور تتبدل وتتغير وتتطور بتغير الاعصر والامكنة والاحوال فلقد تكون الحاجة أمس الى المبرز فى الحرب ، أو فى الاقتصاد والاموال ، أو فى الدهاء السياسى .. الخ .. الخ .. لاختلاف التحديات التى تواجه دولة المسلمين .. فعلم أهل الاختيار ، المعتبر والمطلوب ، مرتبط – كما وكيفا – بالظروف والملابسات ..

وثالثها : أن يكون من أهل الرأى والحكمة المؤديان الى اختيار من هو للامامة أصلح وبتدبير المصالح اقوم وأعرف .. اى أن لا يقف أمر أهل الاختيار عند العدالة ، والعلم ، بل أن يكونوا من ذوى الرأى والحكمة والخبرة بأمور السياسة وفن الاختيار وتمييز الرجال ومعرفة قدراتهم ، والحصافة فى ادراك نوعية القائد المطلوب للظروف القائمة والتحديات التى تواجه الدولة والامة .. (١٦) .

---

(١٦) أنظر (الاحكام السلطانية) للماوردى ص ٦ . (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٣ ، ٤ . و (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٦٧ ،

انها شروط سياسية ، تشترط فى فئة قد أنيطت بها مهمة سياسية ، ومن ثم فان الطابع السياسى يحجب الطابع الدينى هنا ، فلا نرى ذكرا لشروط التقوى والصلاح والفضل فى الدين .. بل ان القاضى عبد الجبار يقول عن أهل الاختيار : « .. ولا يجب ان يكون من صفتهم أن يكونوا من أهل الفضل ، أو يكونوا أفضل من فى الزمان أو كالافضل ، لانه قد ثبت أن فيمن عقد لابى بكر من لم يقاربه فى الفضل .. » (١٧) ومصطلح الفضل يراد به الفضل فى الدين والرجحان فى الثواب كما سيأتى تفصيله فى « الفصل الثانى » من « الباب الخامس » .

فكل من اجتمعت فيه هذه الشروط فهو من « أهل الاختيار » و « أهل الحل والعقد » ، الذين لهم الحق فى اختيار الامام ونصبه ، وعليهم النهوض بهذا الفرض الكفائى .. وكما يقول الماوردى : فانه اذا أهمل القيام بهذا الفرض فان الحرج يقوم على فريقين من الناس : الفريق الاول : أهل الاختيار « حتى يختاروا اماما للامة » .. والفريق الثانى : أهل الامامة ، أى من اجتمعت فيهم شروط الامام « حتى ينتصب أحدهم للامامة . وليس على من عدا هذين الفريقين من الامة فى تأخير الامامة حرج ولا مأثم .. (١٨) .

ولقد ذهب البعض الى تحميل أهل الاختيار المقيمين فى « العاصمة » التى يسكنها الامام السابق ، والتى مات

---

(١٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٦٧ .

(١٨) (الاحكام السلطانية) ص ٥ ، ٦ .

فيها . مسئولية اخص فى اختيار الامام الجديد ، دون من عداهم من اهل الاختيار فى المدن الاخرى وباقى الاصقاع . لانهم هم الذين يبلغهم النبأ اولا . ولان من يصلح للامامة يوجد عادة فى « العاصمة » أكثر مما يوجد فى غيرها من البلاد والاصقاع .. ولكن هذا المذهب غير مقبول من البعض الآخر . فأبو يعلى – من اهل الحديث – يرفضه(١٩) والماوردى – من المعتزلة – يرفضه . ويقول انه امر عرفى لا شرعى « وانما صار من يحضر ببلد الامام متوليا لعقد الامامة عرفا لا شرعا . لسبوق علمهم بموته . ولان من يصلح للخلافة . فى الاغلب . موجود فى بلده .. » (٢٠) .. ومن المعتزلة الذين قالوا بالمسئولية الخاصة لاهل مدينة الامام . القاضى عبد الجبار . فهو يقول : « ان نصب الامام واجب على اهل المدينة التى مات فيها الامام وهم بوجوب ذلك اولى ممن بعد ... » (٢١)

ذلك هو راى من قال ان الاختيار هو « للخاصة » . « اهل الاختيار والحل والعقد » ..

***

ثم اختلفوا بعد ذلك فيمن يمثلون الحد الادنى – من حيث العدد – المطلوب لانجاز عملية الاختيار ومهمة البيعة للامام .. اى انهم اختلفوا فى عدد الذين يصلح لهم أن ينوبوا او يمثلوا اهل الاختيار فى ابرام عقد الامامة وبيعتها

---

(١٩) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٢١٣ .

(٢٠) (الاحكام السلطانية) للماوردى ص ٦ .

(٢١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٦٨ .

ولعل مصدر الخلاف حول هذه القضية كان نابعا من طبيعة ذلك العصر . بما امتاز به من صعوبة الاتصال والانتقال . وتعذر الاجتماع الواسع الذى يضم أهل الاختيار . وانعدام مايعرفه عصرنا من الاقتراع والانتخاب .. فأمام تعذر اشراك أهل الاختيار فى مباشرة البيعة والعقد نشأ البحث عن من تكون مباشرته لهما كافية وسادة مسد اشتراك الآخرين .. وفى هذا الخلاف تفاوتت المواقف وتباينت الاراء . وبحث كل عن سوابق تاريخية ، فى عصر الخلافة الراشدة . تزكى موقفه وتضفى عليه الشرعية و « الدستورية » ..

فهناك من ذهب الى أن الامامة لا تنعقد الا اذا اشترك فى عقدها « جماعة » أهل الحل والعقد و « جمهورهم » .. والجماعة والجمهور هنا تختلف عن « الجميع » . وقد تكون هى « الأغلبية » فى لغة عصرنا . وهذا الراى قالت به جماعة فيها أحمد بن حنبل ، من أهل الحديث (٢٢) .

والذين يعارضون هذا المذهب يقولون : ان أمامة أبى بكر قد ثبتت . وباشر مسئولياتها . بمجرد العقد . وقبل ان يأتى الرضى والاقرار من بقية أهل الاختيار .. (٢٣)

وذهبت الاشعرية . وابن حزم الظاهرى الى أنها تنعقد بعقد رجل واحد .. واستدلوا بما قاله العباس بن عبد المطلب لعلى بن ابى طالب « امدد يدك ابايعك . فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عمه فلا تختلف عليه اثنان » فالعاقد هنا واحد . ومع ذلك فهو يقول أن عقده

(٢٢) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٢ . و (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٦

(٢٣) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٦ .

بمفرده سيفضي الى وضع لا يختلف عليه اثنان .. وقالوا كذلك : ان العقد حكم ، والحكم نافذ من الواحد (٢٤) .. وابن حزم ينتقد رأى من يشترط لعقد الامامة أكثر من واحد فيقول : « أما من قال ان الامامة لا تصح الا بعقد فضلاء الامة فى أقطار البلاد فباطل . لانه تكليف مالا يطاق. وماليس فى الوسع ، وماهو أعظم الحرج .. ولابد من ضياع أمور المسلمين قبل أن يجيء جزء من مائة جزء من فضلاء هذه البلاد . فبطل هذا القول الفاسد .. » والى هنا يمكن أن نقول : انه يصدر عن ظروف عصره وامكانياته وضروراته .. ولكنه يضيف قوله : « مع أنه لو كان ممكنا لما لزم ، لانه دعوى بلا برهان » (٢٥) وهو بذلك يفصح عن السلبية ونقطة الضعف التى لازمت فكر الذين اختلفوا حول عدد من يلزم لعقد الامامة . فهم اما خاضعون لظروف البيئة يفكرون فى حدود امكانياتها ، واما باحثون عن سوابق تاريخية فى عهد الخلافة الراشدة . يقيسون على عدد الصحابة الذين شاركوا فيها . دون أن يكون لذلك العدد حكمة تقتضى اتخاذه مقياسا يقاس عليه ..

ويتضح ذلك أكثر فى رأى الجبائيان . أبى على وأبى هاشم ، والقاضى عبد الجبار . الذين قالوا : ان الحد الأدنى أن يعقدها واحد برضى أربعة لسادس .. وقاسوا ذلك على سابقتين تاريخيتين : أولاهما : العقد لابى بكر فى السقيفة . فقالوا : ان الذى عقد له يومئذ : عمر . وأبو عبيدة ، وسالم مولى أبى حذيفة . وأسيد بن حضير الانصارى . وبشير بن سعد .. فهم خمسة ، عقد

---

(٢٤) المصدر السابق . ص ٧ .

(٢٥) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ج ٤ ص ١٦٧ ، ١٦٨

احدهم . وهو عمر . برضى الاربعة للسادس الذى هو ابو بكر .. اما الحادثة الثانية فهى الشورى التى نظمها عمر قبيل وفاته وعهد لها باختيار الامام ، وكانوا ستة . اختار عبد الرحمن بن عوف احدهم . وهو عثمان ، برضى الاربعة ، وهم على ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص .. (٢٦)

وهناك اعتراضات كثيرة واساسية يمكن أن توجه الى هذا السند التاريخى لعدد الخمسة . ذلك ان الذين عقدوا فى السقيفة لابى بكر لم يكونوا خمسة ، فلقد عقدت له الانصار مع من حضر من المهاجرين وتحدث عمر عن دخول قبيلة أسلم وزحفها الى السقيفة وكيف غيرت من الموقف ساعتئذ ، وصور الطبرى وابن قتيبة فى « الامامة والسياسة » كيف تدفق من فى السقيفة كى يبايع حتى وطئوا سعد بن عبادة ، كما سبق واوردنا ذلك فى مكانه .. ثم ان ذلك كله كان مجرد ترشيح للخلافة . ثم استكملت البيعة فى المسجد بعد ذلك .. فالعدد غير صحيح ... وحتى لو صح فليست له حكمة تجعله مقياسا . اذ هل لو حضر على وعثمان والزبير . وباقى هيئة المهاجرين الاولى اجتماع السقيفة وبايعوا ، هل كان القائلون بعدد الخمسة سيظلون على هذا الرقم ؟ أم كانوا سيغيرون منه ؟! .

وأما شورى عمر فانها كانت محكومة — كما سبق واشرنا — بأن هذا العدد هو من بقى حيا من هيئة المهاجرين الأولين ، بدليل أن عمر كان يتمنى — عندما قربت وفاته

(٢٦) (المغنى) ج ٢٠ ق ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .

ـ أن يكون سالم حيا أو أبو عبيدة ، حتى يعهد لاحدهما بها ، فلو كانا حيين لارتفع العدد عن الخمسة .

أما بيعة علي ، بعد مقتل عثمان ، فعلى الرغم من أن الذين قادوا الدعوة لها كانوا خمسة هم : عمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التيهان ، ورفاعة بن رافع ، ومالك بن عجلان ، وأبو أيوب خالد بن يزيد ، الا أنها تمت في المسجد، من قبل كل من حضر من المهاجرين والانصار والبدريين ، بل لقد قال علي يومها : « ان كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الامر » (٢٧) فتحديد العدد بخمسة لا معنى له . والسوابق التي يرجعون اليها لا تصلح أن تكون سوابق تقاس عليها مثل هذه التحديدات .

ومن المعتزلة من قال انها تنعقد باثنين ، قياسا على شاهدي عقد النكاح ، ووافقهم في هذا التحديد من الزيدية سليمان بن جرير .. (٢٨) ولاشك أن بين عقد النكاح وعقد الامامة من الفروق مايدعو الى رفض هذا القياس .. بدليل أن من الذين قالوا باشتراط خمسة لعقدها من علل هذا العدد بأنه العدد الذي يتجاوز عدد الشهود في الامور الادنى ، ويصل الى أول العدد الذي يفيد التواتر في رواية الاخبار .

والاشعرية الذين قالوا انها تنعقد بواحد اختلفوا في ضرورة وجود شاهدين على هذا العقد كما هو حال العقود الاخرى . فاشترط ذلك البعض وتجاوز عنه آخرون ،

---

(٢٧) (شرح نهج البلاغة) ج ٤ ص ٨ .

(٢٨) (أصول الدين) للبغدادي . ص ٢٨١ .

وان يكونوا قد اتفقوا جميعا على وجوب اعلان عقد الامامة . والكتابة بخبره الى الآفاق . منعا لحدوث بيعة أخرى لامام آخر . واحترازا عن دعوى دعى أنه قد عقدت له الامامة سرا قبل عقدها لمن عقدوا له (٢٩) ..

ومن الاشعرية طائفة رات انها تنعقد « بعلماء الامة الذين يحضرون موضع الامام . وليس لذلك عدد مخصوص » .. وهو رأى القلانسي ومن تبعه . (٣٠) .

ومن قال من المعتزلة انها تنعقد بعقد واحد ورضاء اربعة ، أى بخمسة يعقدون لسادس ، لم يمنعوا استشارة سائر المسلمين . كما فعل الصحابة يوم الشورى ، وانما ينكرون ضرورة اشتراك المستشارين فى البيعة أو انتظار بيعة جميعهم (٣١) . كما أشاروا الى جواز عقدها بواسطة واحد فقط فى حالات الضرورة . كأن تكون الامامة قد تعينت فى واحد جمع من الصفات ما يميزه عن أهل عصره ، واشتهر بها ، فبمجرد أن يعقد له واحد يصير اماما .. أو أن يعقب موت الامام توقع فتنة أن هم مكثوا فى المشاورة ، أو نشوء شقاق يهدد الدولة . فاذا بايع واحد لمن تميز بصفات الامامة والفضل . انعقدت له الامامة .. أو أن يتفق للظلمة نصب امام عادل ، وخشى الناس ازالته كى لا ينصب الظلمة ، الذين لهم الطول ، اماما ظالما . فان امامه العادل تنعقد ببيعة واحد له .

---

(٢٩) انظر فى كل هذه الاراء غير ما أشرنا اليه من المصادر (التمهيد) للباقلانى ص ٧٨ ، ١٧٩ ، و (شرح المواقف) للجرجانى مجلد ٣ ص ٢٦٧ . و (نهاية الاقدام) للشهرستانى ص ٤٩٦ . و (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٣٠) (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٨١ .

(٣١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٦١ .

ويضربون لذلك مثلا بنصب بنى أمية لعمر بن عبد العزيز .. الى آخر حالات الضرورة المشابهة .. (٣٢) .

ولكن الجاحظ ، من المعتزلة . يذهب فى هذا الموضوع مذهبا آخر . فيعدل عن العدد اللازم لعقد الامامة الى الوجوه التى ينحصر فيها وبها عقد الامامة للامام ..وعنده ان هذه الوجوه والطرق ثلاثة :

أولها : أن تسود حالة من النزاع والشقاق . سواء أكان اقليميا بين الاقاليم ، أو قبليا بين القبائل والبطون . أو مذهبيا بين الفرق المختلفة . وفى هذه الحالة ، وأمام تمسك كل فريق بأن الامامة حقه ومن نصيبه . يكون واجب الفرقة المحقة . أو أهل الحق نصب الامام اذا بلغ عددهم وعدتهم مبلغ جميع المناوئين لهم ..

وثانيها : أن يسلك الناس سلوك الشورى المنظمة فى هيئة . كما فعل عمر بن الخطاب . وواجب عندئذ أن تضم هذه الهيئة المبرزين البائنين عن جميع باقى أفراد الخاصة، وبواسطة هذه الهيئة يتم اختيار الامام والعقد له ..

وثالثها : أن يسلك الناس المسلك الذى حدث فى البيعة لابى بكر ، بأن يتشاوروا ويعقدوا لاحدهم دون أن تكون هناك هيئة خاصة هى التى تنظم الشورى والعقد للامام ..

وعند الجاحظ أن أى هذه الوجوه صلح وناسب وأدى الغرض فللناس أن يسلكوه . ولا ضرورة للتقيد بعدد من الاعداد .. (٣٣) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن أصحاب هذه الآراء . حتى

---

(٣٢) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٧ .
(٣٣) (العثمانية) ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

الذين تحدثوا عن العدد وحددوه ، قد اتصف تفكيرهم فى هذه القضيه بمرونة تفتح الباب لتطوير الافكار التى ذكروها والهيئات التى أشار بعضهم اليها . وذلك وفق تطور العصر واختلافات الاماكن والظروف .. والقاضى عبد الجبار — وهو ممن قال بالعدد خمسة — يقول . مثلا : « انه لا نص فى الامامة .. وأن الواجب فيها الاختيار .. وأن طريق الاختيار يختلف .. » كما يشير الى أن العدد الذى حدده عمر للشورى كان نابعا من رأيه أن هؤلاء هم « أفضل من فى الزمان » (٣٤) ومعنى ذلك أننا اذا وجدنا عددا أكثر ممن برز وباين وتفرد فان الهيئة التى تتولى مهمة الاختيار والعقد تتسع باتساع الكفاءة والامكانيات . طالما أن المبدأ المقرر هو « أن طريق الاختيار يختلف » باختلاف الظروف والعصر . والمكان . وهو مايتضح من رأى الجاحظ فى هذا الموضوع .

والذى يرشح ذلك أن عامة المفكرين الذين أدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع . على اختلاف موقفهم من العدد : واحدا فأكثر ، قد نظروا الى هذا العدد باعتباره « لجنة أو هيئة للترشيح والتمييز للامام » ، وأن هذه الهيئة لها صلاحيات فى الاختيار والعقد لانها مفوضة من الامة ، بما لافرادها من الزعامة والتأييد الجماهيرى ، فكلمتهم معبرة عن رأى الامة . واذا لم تكن الامة . أو على الاقل جماعة أهل الحل والعقد وجمهور الخاصة وأهل الاختيار . اذا لم يكونوا على رأى هيئة الترشيح والعقد هذه . فان كلمتها لا تكون نافذة . لان المطلوب هو حصول الشوكة والقوة والتأييد للامام ، واذا لم تضمن هيئة الترشيح

(٣٤) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٢٣ .

والعقد هذه الشوكة ، بما لرأيها من اتفاق ومساندة من أهل الاختيار . فان صفتها التمثيلية تكون زائلة .. فليس المراد أى عدد من أى نوع ، وانما عدد تمثل كلمته كلمة الامة أو أهل الاختيار .. فلو كان هناك زعيم مفوض تفويضا ضمنيا وتلقائيا ، مثلا ، من أمته ، فان له أن يرشح أمامها ويعقد له ، ثم يأتى بعد ذلك دور أهل الاختيار فى اقرار العقد باظهار الرضا والطاعة والانقياد .

ويعبر الامام الغزالى عن هذا المعنى عندما يتحدث عن صفة من له العقد للامام باسم الامة أو باسم أهل الاختيار فيتحدث عن « التفويض » من رجل ذى شوكة يقتضى انقياده وتفويضه متابعة الآخرين ومبادرتهم الى المبايعة . وذلك قد يسلم فى بعض الاعصار لشخص واحد مرموق .. وقد لا يتفق ذلك لشخص واحد بل لشخصين أو ثلاثة أو جماعة . فلابد من اجتماعهم وبيعتهم واتفاقهم على التفويض حتى تتم الطاعة (٣٥) .

وفى موطن آخر يصف الشخص الذى يصلح كى يعطى التفويض للامام بأنه من كان « مطاعا ذا شوكة لا تطاول ، ومتى كان اذا مال الى جانب مالت بسببه الجماهير ، ولم يخالفه الا من لا يكترث بمخالفته ، فالشخص الواحد المتبوع المطاع الموصوف بهذه الصفة اذا بايع كفى . اذ فى موافقته موافقة الجماهير . فان لم يحصل هذا الغرض الا لشخصين أو ثلاثة فلابد من اتفاقهم . وليس المقصود أعيان المبايعين . وانما الغرض قيام شوكة الامام بالاتباع والاشياع ، وذلك يحصل بكل مستول مطاع .. ولا تقوم

(٣٥) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

الشوكة الا بموافقة الاكثرين من معتبري كل زمـــان . فالمصحح لعقد الامامة انصراف قلوب الخلق لطاعتـــه والانقياد له في أمره ونهيه .. » (٣٦) .

فالصورة هنا تتضح وتتحدد معالمها .. اذ الغـاية هي تنصيب امام تكون له الشوكة ، وهذه الشوكة لا تقـوم الا بموافقة الاكثرين ، أي اغلبية الجماهير .. وهــــذه الاغلبية تختار الامام وترشحه بواسطة زعمائها الذين تميل معهم وترى رأيهم وتتبع خطاهم . فاذا اجتمع هــــذا التفويض الجماهيري لزعيم واحد كان هو المرشح للامـام والعاقد له . واذا تعدد الزعماء كانوا لجنة وهيئه لترشيح الامام والعقد له ، وبعد الترشيح والعقد يأتي دور الجمهور كي يبايع الامام البيعة العامة التي تصدق على الترشيح وتعتمد العقد الذي ابتدأه الزعماء .

والماوردي يشير الى امكانية أن تكون لجنة الترشيح هذه هيئة قائمة ودائمة ومنصوصا على أعضائها ونظامهـا ، فيقول : « ويجوز للخليفة أن ينص على أهل الاختيار .. فلا يصح الا اختيار من نص عليه .. » (٣٧) ..

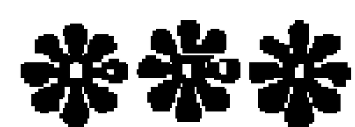
فهي اذا هيئة ، قد تختلف تسميتها ، ويتفاوت عـدد أعضائها ، ولكن المطلوب فيها دائما أمران : أن يســتوفي اعضاؤها شروط أهل الاختيار . وأن يكونوا ممثلـــين لارادة الامة ورأيها . ووفق تعبير الغـــزالي : « فليس المقصود أعيان المبايعين . وانمـــا المطلوب أن تكون في موافقتهم موافقة الجماهير » .. وبتعبير علي بن أبي طالب

---

(٣٦) (فضائح الباطنية) ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٣٧) (الاحكام السلطانية) ص ١٣ .

عندما أحتج بأن المهاجرين والانصار قد بايعوه وأضاف : « وانما الناس تبع المهاجرين والانصار ! . . » (٣٨) .



لكن هناك حالة يتخلف فيها عمل هذه الهيئـة التى ترشح الامام وتعقد له ، وتنتفى الحاجة اليها . وهى حالة ما اذا عهد الامام بولاية عهده والامامة من بعده الى مـن تتوافر فيه شروط الإمامة ، كما حدث من أبى بكر لعمر ابن الخطاب ، فالترشيح والعقد ينهض بمهامهمـا الامام السابق لا هيئة الترشيح .

وهناك مايشبه الاجماع بين الفرق التى قالت بالاختيار كطريق للامامة ، على جواز أن يعهد الامام بالامامة من بعده الى من تتوافر فيه شروطها . . ولكنهم يختلفون بعد ذلك فى التفاصيل .

فالاشعرية والمرجئة والخـــوارج وبعض المعتزلة ، يجوزون هذا العهد ويصححونه (٣٩) ، ويرونه ملزما للامة ولا يشترطون لصحته ونفاذه مبايعة أو عقدا من احد من أهل الحل والعقد . . وفى ذلك يقول ابو هاشم الجبائى ، من المعتزلة : انه « يكفى نصه عليه ، ولا يراعى فى ذلك رضا غيره به » بينما يقول أبو على الجبـــائى : ان ذلك « لا يكفى ، بل لابد من أن يرضى به أربعة حتى يجرى عهده اليه مجرى عقد الواحد برضا الاربعة ، فاذا قارنه رضا أربعة صار بذلك اماما . . » ويحتج أبو على بأن أبا بكر قد حرص فى عهده لعمر على احضار جمـــاعة من الصحابة ، فاستشارهم « ورجع الى رضاهم بذلك » . . أما أبو هاشم فيرى فى فعل أبى بكر مجـــرد « تطييب

(٣٨) (وقعة صفين) ص ١٨٩ .

(٣٩) (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٨٥ .

لنفوسهم » (٤٠) .. ورأى أبي علي هو رأى معتزلة البصرة الذين قالوا : « أن رضا أهل الاختيار لبيعته شرط في لزومها للأمة ، لانها حق يتعلق بهم ، فلم تلزمهم الا برضا أهل الاختيار منهم » (٤١) .

أما أصحاب الحديث ، وكذلك سليمان بن جرير ، من الزيدية . فانهم يجوزون وصية الامام وعهده لمن بعده . ولكنهم لا يعتبرون هذا العهد ملزما للأمة الا بعد تمام الشورى فيه . فكأنه مجرد ترشيح لا يرقى الى مستوى العقد . ولا يكسب صاحبه سلطات الامام . وهم يرون أن صفة الامام منتفية عنه ، لا يحققها له ذلك العهد، والا كان هناك امامان وعلى الامة أن تتم اجراءات العهد له بعد وفاة الامام السابق .. فهم لا يشترطون شهادة أحد من أهل الحل والعقد عند العهد . « لان عهده الى غيره ليس بعقد للامامة . بدليل أنه لو كان عقدا لها لافضى ذلك الى اجتماع امامين في عصر واحد . وهذا غير جائز . واذا لم يكن عقدا لم يعتبر حضورهم . وكان معتبرا بعد موت الامام العاقد .. لان الامامة لا تنعقد للمعهود اليه بنفس العهد ، وانما تتعقد بعهد المسلمين . ان امامة المعهود اليه غير ثابتة ما دام العاهد باقيا حيا اماما .. » (٤٢) .

ولقد اتفقوا جميعا على وجوب توافر شروط الامامة في المعهود اليه . عند العهد ، وليس فقط عند حلول وقت

---

(٤٠) (شرح نهج البلاغة) ج ١٧ ص ٢٢٠ .

(٤١) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ١٠ .

(٤٢) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٩ . (كتاب الامامة) لابى يعلى ٢٢٥ ، و (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

توليه لها .. كما اتفقوا على جواز انفراد الامام بهـذا الترشيح اذا لم يكن المعهود اليه ولدا أو والدا للامام ، أما اذا كان كذلك فهم فى جواز انفراده بترشيحه على ثلاثة مذاهب :

مذهب يمنع انفراده بالترشيح للولد أو الوالد ، ويشترط مشاورة أهل الاختيار واقرارهم بأهلية المعهود اليه .

ومذهب يجيز له الانفراد بالترشيح .

ومذهب يجيز له الانفراد اذا كان المعهود اليه هو الوالد دون الولد . اذ يجب مع الولد استشارة أهل الاختيار فى الترشيح (٤٣) .

والذين أجازوا للامام الانفراد بترشيح ولده أو والده ، بعضهم احتج بانه أمير الامة وأمين مصالحها .. وبعضهم استند الى ان هذا الترشيح غير ملزم للامة . وأن الامر موقوف على شوراها وعقدها بعد وفاة الامام .. وهذا الرأى الاخير قال به أصحاب الحديث .. وكما يقول أبو يعلى : فانه « يجوز أن يعهد الى من ينتسب اليه بأبوة أو بنوة ، اذا كان المعهود له على صفات الائمة . لان الامامة لا تنعقد للمعهود اليه بنفس العهد . وانما تنعقد بعهد المسلمين . والتهمة تنتفى عنه » (٤٤) .

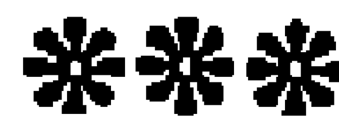
ولقد كان هذا المذهب هو أكثر المذاهب بصرا بما آلت اليه أمور ولاية العهد فى المجتمع الاسلامى منذ عهد معاوية بن أبى سفيان . فلقد تحولت الخلافة الى ملك وراثى . واتخذت وسيلة العهد سبيلا الى نقل السلطة فى

---

(٤٣) (الاحكام السلطانية) للماوردى ٠ ص ١٠ ٠

(٤٤) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى ٠ ص ٩ ٠

الابناء والاقارب . بصرف النظر عن صلاحهم وكفاءتهم ونفعهم للمسلمين ، وحرص الخلفاء على اتمام الشورى الصورية القائمة على الترغيب والترهيب . فصارت سنة سيئة سادت المجتمع منذ العهد ليزيد بن معاوية . ورغم دفاع ابن خلدون عن موقف معاوية . ونفيه ان يكون هناك اكراه فى العهد ليزيد والبيعة التى أخذت له . وانكاره المعارضة التى ووجه بها معاوية (٤٥) .. والتى سبق واشرنا لنموذج منها ـ الا انه يشير الى فتوى الامام مالك بسقوط يمين الاكراه ويقول : « كان الخلفاء يستحلفون على العهد . ويستوعبون الايمان كلها لذلك . فسمى هذا الاستيعاب : ايمان البيعة ، وكان الاكراه فيها اكثر وأغلب . ولهذا لما أفتى مالك بسقوط يمين الاكراه . انكرها الولاة عليه . ورأوها قادحة فى ايمان البيعة. ووقع ماوقع من محنة الامام رضى الله عنه ! (٤٦) .



هذا عن الاختيار والترشيح ، سواء أكان من هيئة خاصة ، أو من الامام السابق .. ولكن .. ماذا عن « العقد » و « البيعة » ؟ ان البعض يرى أن العقد هو البيعة ، وانهما بمعنى واحد ، هو : اظهار الرضا والطاعة والانقياد للامام (٤٧) .. ولكن الرأى الاشهر هو أن البيعة هى : صفقة اليد من المبايع ـ بكسر الياء ـ للمبايع ـ بفتح الياء ـ وهذه ليست بالشيء الهام أو الضرورى فى عقد الامامة ، وانما الضرورى والواجب هو العقد الذى يعنى : « الرضى والانقياد ، واظهار ذلك » (٤٨) بأن يقال

(٤٥) (المقدمة) ص ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٤٦) المصدر السابق . ص ١٦٥ .
(٤٧) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢٤ .
(٤٨) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥١ .

له : قد بايعناك على بيعة رضى ، على اقامة العدل والانصاف والقيام بفروض الامامة ، ونحو ذلك » (٤٩) مما يؤدى مضمون العقد القائم بين أهل الاختيار وبين الامام الجديد .. فالعقد هنا بمثابة « التصويت » فى الاقتراع والانتخاب فى عصرنا الحديث .

ولقد اتفقت المعتزلة على ضرورة العقد ، وبطلان امامة من لم يعقد له أهل الاختيار حتى ولو كانت شروط الامامة متوافرة فيه ، بل وحتى لو انفرد بها من دون أهل عصره وتميز بها واشتهرت فيه .. اذ لابد من تمام العقد له حتى يصبح للناس اماما (٥٠) .. وخالف فى ذلك بعض فقهاء العراق ، لانه قد تميز بصفات الامامة ، فأغنى تميزه هذا عن تمييز العاقدين له .. وكل أهل الحديث ، وأغلب المتكلمين والفقهاء يتفقون مع المعتزلة فى ضرورة العقد فى جميع الحالات .. (٥١)

وكما رفض المعتزلة أن يغنى تميزه وانفراده بصفات الامام وشروطه عن العقد ، كذلك رفضوا قول الزيدية بأنه انما يصير اماما بخروجه على أئمة الجور وتجريده السيف فى سبيل نصرة الحق ، وقالوا : ان الخروج يجب أن يلى العقد لا انه يحل محل العقد ويقوم مقامه ويغنى عنه ، اذ هو من وظائف الامام ومهامه . لا انه السبيل الى الامامة .. (٥٢) .

---

(٤٩) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢٤ .

(٥٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥٠ .

(٥١) (أدب القاضى) (جـ ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ و (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٨ . و (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢٣ .

(٥٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٥٢ ، ٢٧٣ ـ ٢٧٦ .

وبعد ترشيح اللجنة الممثلة لارادة أهـــل الاختيار ، وعقدها الامامة للامام ، يأتى دور « البيعة العامة » من الجميع ، أو من كل من تمكنه ظروف الحال ومقتضياته ان يبايع الامام .. ولقد كان ذلك هو ماحدث لابى بكر، فبعد بيعة السقيفة تمت له « البيعة العامة » فى المسجد، فى اليوم التالى ، وذلك عندما جلس على المنبر ، وقام عمر فخطب الناس بين يديه ، فتحدث عن موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم قال : ان الله « قد جمع أمركم على خيركم .. فقوموا فبايعوا .. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة ، بعد بيعة السقيفة .. » (٥٣) ففى السقيفة كانت بيعة « الخاصة » وفى المسجد تمت بيعة « العامة » ..

وبعد تمام البيعة واستقرار الخلافة يلزم اعــلان ذلك فى آفاق الامة وأطراف البلاد ، حتى تعرف الامة امامها .. وهذه المعرفة تختلف من الخاصة الى العامة ، فالخاصة الذين هم أهل الاختيار يجب عليهم معرفته باســـــمه وصفاته . أما العامة فالواجب فى حقهم معرفته على الجملة دون التفصيل ، وليسوا مكلفين بمعرفة عينه واسمه الا اذا احوجت النوازل الى معرفتهم ذلك .. هـــذا راى جمهور القائلين بالاختيار .. وخالف فى ذلك سليمان بن جرير . من الزيدية فأوجب على سائر الناس معــــرفة امامهم بعينه واسمه ، كما أن عليهم معرفة الله ومعــرفة الرسول (٥٤) .

---

(٥٣) (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ٢٠٣

(٥٤) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ١٥ . و (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ١١ . و (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢٧ .

وهناك قضية تتعلق بالاختيار واهله ونتائجه ، وهى قضية تعدد الامام المختار ، اذا حدث وتعددت جهـــات الاختيار وجماعاته ، سواء أكان ذلك فى البلد الواحد أم فى البلاد المتعددة ، متقاربة كانت أم متباعدة .

وهذه القضية التى تعرض لها أهل الاختيار قد أثارت مسألة جواز تعدد الامام ، في العصر الواحد ، من ناحية المبدأ . هل يجوز التعدد ؟ أم لا يجوز ؟؟ .. والمسلمون مختلفون فى ذلك .

فهناك من يجوز تعدد الائمة فى عصر واحد ، من هـؤلاء الشيعة الذين يجوزون أن يكون هناك امام ناطق والى جانبه امام صامت ، كما كان وضع الحسن مـع الحسين ، فالحسين لم « ينطق » الا بعد موت الحسن (٥٥) ..ومن الشيعة أيضا من يجوز ، بل يوجب ، تعدد الائمة اذا كان هناك مكلفون يستحيل وصول أمر الامام وتعاليمه اليهم كان « يكون على حدب ـ « مرتفع » ـ من الارض وفى تخومها من لا تتصل اخبارنا به » وفى تلك الحـــال أو الحالات « جاز أن ينصب له امام وائمة » ، لضمان ازاحة علة المكلفين فى تلك البقاع المنعزلة . اما فيما عدا ذلك فتعدد الامام غير جائز عندهم ، فالذى « اقتضاه الاجماع ـ « عند الشيعة » ـ أن لا امام فى هذا الشرع ـ ولمن يجرى مجرانا . ونعرف أخباره ويعرف أخبارنا ـ الا واحد . أما من ليس هذه حاله فهـــو كالملائـــكة والجن ! .. (٥٦)

---

(٥٥) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٥٠ . و (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٧٤ . و (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٨٨ .

(٥٦) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٧٦ ـ ٧٨ .

ومن القائلين بالاختيار من جوز تعدد الإمام فى البلدين المتباعدين والصقعين المتنائيين . كأن « يكون بين البلدين . مثلا ، بحر مانع من نصرة أهل كل واحد منهما الى الآخرين فيجوز حينئذ لاهل كل واحد منهما عقد الامامة لواحـد من أهل ناحيته » .. قال بذلك بعض الاشعرية (٥٧) . ومنهم امام الحرمين ، الذى يقول : « .. والذى عنـدى ان عقد الامامة لشخصين فى صقع واحد متضايق الخطط والمخاليف غير جائز . وقد حصل الاجماع عليه . وأما اذا بعد المدى ، وتخلل بين الامامين شسوع النوى فللاحتمال فى ذلك مجال .. » بينما راى آخرون من الاشعرية « منع عقد الامامة لشخصين فى طرفى العالم .. » (٥٨) .

ولقد ذهبت الكرامية . اصحاب محمد بن كـــرام السجستانى ، وكذلك أصحاب أبى الصباح السمرقنـدى الى جواز اقامة امامين وأكثر ، حتى لو لم تتباعد الديار وتفصل الحواجز الطبيعية بين الاقطار ، واحتجوا لرأيهم بامامة على مع معاوية ، والحسن مع معاوية ، وان كانوا قد قالوا : ان امامة على كانت وفـق السـنة ، بينمـا خالفتها امامة معاوية ، ولكن طاعة اتباع كل منهما قـــد وجبت عليهم لصاحبهم ، فهما امامان .. كما حـــاولوا الاحتجاج بقول الانصار فى السقيفة : منا أمير ومـنـكم أمير ، وهو الاحتجاج الذى رده ابن حزم قائلا : « انهم ــ « اى الانصار » ــ انما أرادوا أن يلى وال منهم ، فاذا مات ولى من المهاجرين آخر ، وهكذا ابدا ، لا على أن يـكون امامان فى وقت واحد .. » (٥٩) .

(٥٧) (أصول الدين) للبغدادي . ص ٢٧٤ .

(٥٨) (كتاب الارشاد) ص ٤٢٥ .

(٥٩) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٨٨ ، ٨٩ و (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٧٤ .

أما المعتزلة فانهم يرفضون ، من حيث المبدأ ، جواز تعدد الائمة فى العصر الواحد ، حتى ولو تباعدت الديار ، وتعذر اسعاف بعض الاطراف بمعونة الامام ورأيه على وجه السرعة ، وهم يستعيضون عن هذا النقص بنصب الامراء والحكام على هذه الاطراف والبلاد ليقوموا فيها مقام الامام منفذين لسياسته العامة .. ومستندهم فى هذا الرفض : السمع ، والتعبد بهذا السمع ، اذ ليس فى العقل مايحيل تعدد الائمة .. وانما الاجماع هو الذى يمنع من ذلك ، وما استقر عليه المسلمون ، وما يوحى به حديث : « ان وليتم أبا بكر وجدتموه ضعيفا فى بدنه ، قويا فى دينه ، وأن وليتم عمر تجدوه قويا فى بدنه ، قويا فى دينه ، وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا » ... مايوحى به هذا الحديث من أنها على التوالى والتعاقب ، لا على الاجتماع والتعدد فى العصر الواحد (٦٠) .

ولقد سبق أن ذكرنا فى « الفصل الثالث » من « الباب الاول » ــ بالقسم الاول من هذه الدراسة ــ عند الحديث عن دور « العامل القومي » فى الصراع على السلطة . اقتراح معاوية على على أن يستقل بامرة الشام ، أى أن تتعدد الامامة بعد وحدتها .. ونعتقد أن ذلك الاقتراح كان أول رأى فى الاسلام يزي تعدد امامة المسلمين .. ولقد دخل هذا الرأى الى ميدان البحث فى الامامة منذ أن بدأت مباحثها فى التبلور . بل لقد حاول الذين أجازوا التعدد قياسه على تعدد النبوة فى العصر الواحد دون أن يؤدى ذلك الى ابطال النبوة !.. (٦١) ولكنهم تناسوا أن

(٦٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٩٢ ، ٢٤٣ ــ ٢٤٧ .
(٦١) (ادب الدنيا والدين) ص ١٣٨ .

تعدد النبوة فى مثل حالة « موسى وهارون » ، كـــان المستهدف من ورائها اضافة القوة والمؤازرة لنبوة موسى من قبل أخيه هارون ، وبطلب منه . أما تعدد الامامة فهو امر بعيد عن ذلك تماما . ففيها الفرقة . أو التجزئة على اقل تقدير .. فهو قياس ينقصه الاساس الواحد ووجه الشبه بين الامرين .

هذا عن الموقف من تعدد الامامة من حيث المبدأ .. أما فى التطبيق . كأن تتعدد جماعات الاختيار فيتعدد الائمة ، فان الاتجاه العام فى مباحث ائمة المعتزلة واهل الســنة يزكى امامة الذى بويع له أولا ، ويثبت خلافته . ومـن ثم يعتبر بيعة من بويع له بعده لاغية . كأن لم تقع .. اما اذا حدثت البيعة لهما أو لهم فى وقت واحد . أو وقت متقارب . بحيث تعذر الحكم بسبق بيعة أحدهما لبيعـة الآخر . فهنا تختلف الآراء .. سواء لدى المعتزلة أو أهل السنة .. فهناك من يحكم ببطلان بيعتهما أو بيعتهم . وهناك من يجعل من تنازعهم عليها فى مثل تلك الحال امرا قادحا فى صفاتهم يمنع من جوازها فيهم . كمـــا أن آخرين قد رأوا أن التنازع عليها غير قادح فى الصفات ، لان أهل الشورى قد تنازعوا عليها دون أن يقدح ذلك فى صفاتهم . .

وهناك فريق رأوا أن السبيل لفض التنازع عليها اذا حدثت البيعة من أكثر من فريق لاكثر من امام فى وقـت واحد أو متقارب غير متميز ، هو الاقتراع .. أى أن يقرع بين من اختيروا للامامة ، وايهم فاز فى الاقتراع فهــو الأمام .. وقاسوا ذلك على اعتماد الاقتراع فى الصـــدر الأول للاسلام سبيلا لحسم مثل هذه الامور .. فـرووا

حديث أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم الناس مافى النداء ـ « أى الاذان » ـ والصف الاول ، ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا » .. (٦٢). كما رووا عن أبى حفص العكبرى باسناده عن ابن شبرمة: « ان الناس تشاحنوا فى الآذان يوم القادسية ، فأقرع بينهم سعد بن أبى وقاص » .. (٦٣) .

ومن قال بالاقتراع قال أيضا أن التحكيم بينهما ، بأن يختار الناس ، أو يختار « الائمة » ممثلا لكل طرف ، ثم ينهض الممثلون بعملية التحكيم .. قالوا : ان ذلك أيضا طريق لحسم هذا النزاع .

وأبو على الجبائى يقول فى الاقتراع والتحكيم : « فالقرعة ، لان حالهما قد تساوى فى البيعة ، وقد ثبت بالسنة دخول القرعة فى تمييز الامور المتساوية ، ويقوى ذلك أنه قد حصل لهما بما جرى من البيعة مزية على غيرهما ، وان أبطلنا كلا الامرين زالت المزية . وان استعملنا القرعة ثبتت المزية ... ـ « والتحكيم » ـ أن يختار أحد الفريقين رجلا صالحا ، وكذلك الفرقة الاخرى ويفوض اليهما اختيار أحد الرجلين ، ويصير هو الامام ويكون هذا الوجه أقوى من ابطال كلا العقدين .. » (٦٤)

ونحن نريد أن ننبه الى أن المتامل فى اتخاذ القرعة

---

(٦٢) أى الا أن تحدد القرعة بالسهام من يؤذن ومن يجلس فى الصف الاول من صفوف المصلين بالمسجد .

(٦٣) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٨ ، ٩ .

(٦٤) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ وانظر فى القول بالقرعة كذلك (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢٣ . و (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٨ .

او التحكيم سبيلا لحل هذا التنازع ، اذا ما استحضر فى ذهنه ماهو قائم اليوم فى المجتمعات الجمهورية الديمقراطية التى تأخذ بنظم تعدد الاحزاب والجماعات الفكرية والسياسية ، من :

١ ــ ترشيح كل حزب أحد أعضائه لرئاسة الدولة .

٢ ــ والاحتكام فى اختيار أحد المرشحين الى الاقتراع فى الانتخابات العامة .

يجد أن مابحثه الباحثون فى الامامة تحت مسألة الاختيار عند تعدد الائمة بتعدد جهات الاختيار . وحسم ذلك التنازع بالقرعة أو التحكيم هو نفس الوضع القائم الآن فى المجتمعات الجمهورية الحزبية المعاصرة .

ففى حالتنا الاولى : جهات ولجان للترشيح تعددت فتعدد المرشحون للامامة .. والاختيار بين المرشحين سبيله الاقتراع أو التحكيم ــ وهما سواء . لا يميز بينهما الا الضيق والاتساع فى قاعدة الذين يسهمون فى الاقتراع والتحكيم .

وفى حالتنا الثانية والمعاصرة : جهات للترشيح ــ هى الاحزاب ــ ترشح للرئاسة مرشحين متعددين بتعددهما . . والاختيار بين المرشحين سبيله الاقتراع والتحكيم الذى صار فى ظروف العصر الحالى : انتخابات يسهم فيها من اجتمعت لهم شروط اتفق عليها فى دساتير هذه البلاد وقوانينها .

ومن هنا نستطيع ان نقول ان فكر المعتزلة ، وكلّ من قال بالاختيار ، قد أرسى منذ قرون عدة « المبادىء والاسس » لبعض أشكال الممارسات الديموقراطية التى

يشهد عصرنا تطبيقها اليوم فيما يتعلق باختيار السلطة العليا فى البلاد .. وهم بذلك قد أسهموا فى الفكر السياسى الانسانى بنصيب . وخاصة عندما وقفوا الى جانب الشورى والاختيار ، ضد النص والتعيين .. وعندما قدموا هذه الافكار عن كيفية وضع مبدأ الاختيار فى التطبيق على موضوع تنصيب الامام .

شروط الأمام
و
طبيعة السلطة

الفصل الاول

شروط الإمام

في مبحث شروط الامام وصفاته نجد ذلك الانقسام بين فرق الاسلام كما وجدناه في مبحث : النص أم الاختيار ؟ فالخلاف الجوهري والاساسي حول صفات الامام وشروطه قائم بين الذين قالوا بالنص وبين الذين قالوا بالاختيار . أما الخلاف في صفوف الذين قالوا بالاختيار فهو خلاف في التفاصيل ، أو على الاكثر في بعض المسائل الهامة .

فالشيعة وخاصة الامامية . قد اتسقوا مع قولهم بالنص ، وقياسهم الامامة على النبوة . فوصفوا الامام بصفات تميزه عن البشر العاديين . وان شئنا الدقة عن البشر أجمعين .. فهو عندهم لابد أن يكون معصوما من الذنب والخطأ والزلل . كبيرا كان ذلك أو صغيرا ، قبل توليه السلطة الزمنية أو بعد توليها .. فهو في كل الحالات لابد أن يكون معصوما ، وأن يكون أفضل الخلق على الاطلاق .. واذا تولى السلطة الزمنية الى جانب الامامة الروحية فلابد أن يكون عالما بالسياسة وبجميع أحكام الشريعة . علما لا يتسنى لغيره من البشر . أفرادا أو مجتمعين . كما يجب أن يكون أشجع الخلق دون

استثناء .. وكما يقول الطوسى . فان « صفات الامام على ضربين : »

أحدهما : يجب أن يكون الامام عليها من حيث كـــان اماما . مثل : كونه معصوما . وأفضل الخلق .

والثاني : يجب أن يكون عليها لشيء يرجع الى مايتولاه، مثل ، كونه عالما بالسياسة وبجميع أحكام الشريعة ، وكونه حجة فيها . وكونه أشجع الخلق . وجميع هذه الصفات توجب كونه منصوصا عليه (١) .

أما الذين قالوا بالاختيار . على اختلاف فرقهم ، فانهم قد رفضوا فكر الشيعة هذا ، ودار بينهم وبين الامامية جدل طويل حول القضية الاساسية فى هذا الخـلاف ، وهى عصمة الامام .. وسيأتى عرضنا لها بعد قليل .

وهم فى مقابل ذلك قدموا تصورهم للصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى الامام .. وهم وان اختلفوا فى العدد . وفى التفاصيل وأحيانا فى بعض القضايا الهامة ؛ الا انهم قد اقتربوا من بعضهم البعض الى الحد الذى يدخلهم جميعا فى معسكر فكرى واحد اذا ماقيسوا بالشـــــيعة الامامية ، التى اختلفوا معها فى الجوهر والاساس .

فاذا أخذنا من المعتزلة مثلا القاضى عبد الجبار . وجدناه يتحدث عن صفات الامام وشروطه ، مرة ، على أنها :

١ ــ التمكن من القيام بما فوض اليه . ويتضمن هذا الشرط : سلامته من النواقص الجسدية والنفسية ، وزوال الآفات المانعةمن قدرته وتمكنه من النهوض بمهامه، واتصافه بالشجاعة وثبات القلب اللازمين لمنصبه .

---

(١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ١٨٦ .

٢ ــ وأن يكون عالما ، او فى حكم العالم بكيفية مهام منصبه وتنفيد هذه المهام وانجازها على الوجه الاكمل .

٣ ــ وأن يكون متصفا بالامانه ، حتى تسكن نفوس الناس اليه ، وتطمئن الى قيامة بما فوض اليه .

٤ ــ وان يكون مقدما فى الفضل .. والفضل هنا ذو معنى دينى .. وان لم يكن من شروطه أن يكون الافضل فى هذا المقام .

٥ ــ وأن يكون قرشي النسب .. « وهذه قضية خلافية بين المعتزلة ، سنعرض لها بعد قليل » .

هكذا يعدد شروط الامام في موطن من المواطن .. (٢) وفى موطن آخر يعددها هكذا :

١ ــ أن يكون حرا .. حتى يستطيع التصرف فيما فوض اليه من عمل ، لان لسيد العبد أن يمنعه من التصرف .

٢ ــ وأن يكون عاقلا .

٣ ــ وأن يكون مسلما .

٤ ــ وأن يكون ذا رأى ومعرفة بالامور .. حتى ينهض بها . وحتى يستطيع أن يختار ويولى من لابد من توافر الرأى والمعرفة فيهم .

٥ ــ وأن يتصف بالعدالة .. بمعنى الا يكون فاسقا . لان منصب الامامة أعظم من الشاهد . ومن الامير والحاكم . فاذا كانت العدالة شرطا فى الشاهد والامير والحاكم ، فهى فى الامامة أولى وأوجب .

هكذا عدد الشروط فى موطن ثان .. (٣) .

---

(٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣) المصدر السابق : جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٠١ .

وليس هناك خلاف بين الصياغتين فى الجوهر ، وانما الخلاف فى توزيع الصفات على العناوين الجامعه لهـــا .. فالحريه والعقل والتدين فى الصياغه الثانيه داخله تحت التمكن فى الصياغه الاولى .. وفى الصياغه الثانيـه اهمل ذكر النسب ، لانه كان قد ذكره قبل قليل .. اذ المصدر واحد ، والصفحات متتالية .

وهذه الصفات الخمس عند القاضى عبد الجبار تتوزع على سبعة عناوين ، فتتحول عند الماوردى الى شروط سبعة ، يصوغها على نحو محدد ، وفى طابع سياسى ، فيقول عن أهل الامامة : ان « الشروط المعتبره فيهـم سبعة :

أحدها : العدالة .. على شروطها الجامعة .

والثانى : العلم .. المؤدى الى الاجتهاد فى النـــوازل والاحكام .

والثالث : سلامة الحواس ــ من الســـــمع والبصر واللسان ، ليصح معها مباشرة ما يدرك بها .

والرابع : سلامة الاعضاء ــ من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض .

والخامس : الرأى ــ المفضى الى سياسة الرعية وتدبير المصالح .

والسادس : الشجاعة والنجدة ــ المؤدية الى حمـاية البيضة وجهاد العدو .

والسابع : النسب ــ وهو أن يكون من قريش (٤) » .

هذه هى شروط الامام وصفاته عند المعتزلة .

أما الزيدية : فانهم يصبحون فى هذه القضـية ضـمن

(٤) (الاحكام السلطانية) ص ٦ .

معسكر القائلين بالاختيار ، لان النص الخفى عندهم قد اختص به على والحسن والحسين وهؤلاء قد مضى عهدهم والامامة بعدهم بالاختيار .. ومن ثم فان شروط الامام وصفاته عندهم داخلة فى نطاق يجعلهم وفرق الاختيار فى معسكر واحد .. وهى عندهم شروط خمسة :

أولها : أن يكون من نسل الحسن أو الحسين ، خاصة، فلا تكفى قريشته أو هاشميته .. وهم فىذلك يختلفون مع فرق الاختيار الاخرى ، ويتفقون فى المبدأ مع الاماميه ، وان اختلفوا معهم فى أعيان الائمة .

وثانيها : أن يكون شجاعا .. حتى لا يهرب من الحرب .

وثالثها : أن يكون عالما .. حتى يتمكن من اعانة الناس فى الشرع .

ورابعا : أن يكون ورعا .. حتى يعف عن مال المسلمين

وخامسها : أن يخرج على الظلمة شاهرا سيفه داعيا لنفسه وللحق (٥) .

وهذه الصفات الخمس ، التى ذكرها « الطوسى » ، تنفك وتنحل الى اثنتى عشرة عند الامام الزيدى يحى بن الحسين « ٢٤٥ ــ ٢٩٨ هـ ٨٥٩ ــ ٩١٠ م » فهى عنده :

١ ــ أن يكون من ذرية الحسن أو الحسين .

٢ ــ وأن يكون ورعا تقيا صحيحا نقيا .

٣ ــ وأن يكون مجاهدا .

٤ ــ وأن يكون زاهدا فى حطام الدنيا .

---

(٥) نصير الدين الطوسى (تلخيص محصل أفكار المتقدمين والمتاخرين) ص ١٨٠ ، طبعة القاهرة ، الاولى سنة ١٣٢٣ هـ على هامش (المحصل)) .

٥ ـ وأن يكون فهما لما يحتاج اليه ، عالما بتفسير مايرد عليه .

٦ ـ وأن يكون شجاعا .

٧ ـ وان يكون بدولا سخيا .

٨ ـ وان يكون رؤفا بالرعية . متعطفا محسنا حليما . مساويا لهم بنفسه . مشاورا لهم فى أمره ، غير مستأثر عليهم ، ولا حاكم بغير حكم الله فيهم .

٩ ـ وأن يكون قائما شاهرا لنفسه . رافعا لرايته .

١٠ ـ وأن يكون مجتهدا .

١١ ـ وأن يكون مفرقا للدعاة فى البلاد . غير مقصر فى تاليف العباد .

١٢ ـ وأن يكون مخيفا للظالمين . مؤمنا للمؤمنين . (٦)

فتعدادها هذا هو نوع من التفصيل والتجزئة لما أجمله « الطوسى » فى الشروط الخمسة التى تجمع كل هذه الصفات . وفى بعض الدراسات الحديثة عن الزيدية وصلت صفات الامام الى أربع عشرة صفة . هى : أن يكون ١ ـ بالغا . ٢ ـ عاقلا . ٣ ـ ذكرا . ٤ ـ حيا . ٥ ـ مسلما . ٦ ـ عدلا . ٧ ـ مجتهدا . ٨ ـ تقيا . ٩ ـ سخيا . ١٠ ـ يضع الحقوق فى مواضعها . ١١ ـ سائسا ١٢ ـ مستقلا بتدبير الرعية . ١٣ ـ أكثر رأيه الاصابة . ١٤ ـ سليم السمع والبصر . (٧)

فهو الآخر ، تفصيل لا يخرج عما أجمله « الطوسى » من قبل .

---

(٦) يحيى بن الحسين (رسائل العدل والتوحيد) ج ٢ ص ٧٨ ، دراسة وتحقيق محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

(٧) ناجى حسن (ثورة زيد بن على) ص ١٦٩ طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م .

أما الخلاف الجوهرى بين صفات الأمام عند المعتزلة وبينها عند الزيدية فنراه منحصرا فى أمرين :

أولهما : أن المعتزلة - أو من يرى منهم شرط النسب القرشى - قد جعلوا هذا النسب فى عامة قريش . بينما الزيديه قد خصوا به نسل الحسن والحسين .

وثانيهما : أن الزيدية قد اشترطوا « الخروج » كصفة للامام وشرط له . والمعتزلة يرون ذلك الشرط منافيا للاختيار . ويقدمون الاختيار على الخروج فى الترتيب ، ويرون أن قول الزيدية « بالخروج » كعلامة وصفة للامام يبتعد بهم بعض الشىء عن معسكر القائلين بالاختيار .

أما أصحاب الحديث فانهم يعددون صفات الامام وشروطه على النحو التالى :

أحدها : أن يكون قرشيا فى الصميم .. أى أن يكون من ولد : قريش بن بدر بن النضر .

وثانيها : أن يكون على صفة من يصلح قاضيا .. أى أن يكون : حرا ، بالغا ، عاقلا ، عالما ، متصفا بالعدالة .

وثالثها : أن يكون بصيرا فيما يأمر من أمر الحرب والسياسة ، وحماية الامة والذب عنها ، واقامة الحدود .

ورابعها : أن يكون من أفضل الناس فى العلم والدين .. الا أن يعرض عارض يمنع من امامة الافضل فتجوز امامة المفضول . (٨)

ومن أصحاب الحديث من يختلف حول شروط العدالة،

---

(٨) أبويعلى (الاحكام السلطانية) ص ٤ و (كتاب الامامة) ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

والعلم ، والفضل ، فيجيز امامة الفاسق ومن هو غير عالم وغير فاضل ، وهذا الرأى مروى عن احمد بن حنبل .. فلقد روى عنه عبدوس بن مالك القطان قوله : « ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين لا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه اماما عليه، برا كان أم فاجرا فهو أمير المؤمنين » كما روى عنه المروزى قوله : « فان كان أميرا يعرف بشرب السكر والغلول . يغزو معه ، انما ذاك له فى نفسه ! » .. وهناك روايات اخرى عنه يرى فيها البعض انها تعارض تلك ، مثل قوله عن الخليفة المأمون : « كان لا مأمون » ؟! .. (٩) .

ولنا على ذلك الرأى ملاحظتان :

١ ـ أن قول أحمد بن حنبل عن المأمون انه لم يكن مأمونا ، لا ينفى اعترافه واقراره بامارته للمؤمنين ، لانه كان يصف المعتصم بأنه أمير المؤمنين ، والمعتصم هو الذى امتحنه وعذبه فى القول بخلق القرآن ، وكذلك كان يصف المتوكل « ولم يكن من اهل العلم ، ولا كان افضل وقته وزمانه » .. (١٠) .

٢ ـ ان الذى يضمن الاتساق لموقف احمد بن حنبل ، وينفى التعارض بين ماروى عنه ، هو أنه لم ينكر شروط العدالة والعلم والفضل ، ولكنه تنازل عن اشتراطها فى حالة « التغلب » على منصب الامامة و « اغتصابها » بالقوة والقهر .. فطلب الاقرار والاعتراف بامامة المتغلب . فهو يعترف بامارة المؤمنين حتى لغير المأمون ولغير العادل ولغير العالم ولغير الفاضل .. وذلك الاعتراف لا يضمن لهم

---

(٩) (الاحكام السلطانية) لابى يعلى . ص ٤ .

(١٠) المصدر السابق . ص ٤ .

الاتصاف بهذه الشروط التى افتقدوها . ولا يحرمه هو من أن يصفهم بما يعتقده فيهم من الصفات المنافية لشروط الامامة ، والذى دفع الامام أحمد الى موقفه هذا هو رأيه فى قضية السيف والخروج على الامام ، حيث منعه وحرمه حتى لو كان الامام متغلبا وجائرا وفاسقا — وهو الموقف الذى سنعرض له فى « الفصل الاول » من « الباب السادس » بالقسم الثالث من هذه الدراسة — فهذا الرأى خاص بحالة الضرورة التى يسود فيها سلطان المتغلب بالقهر . لا أن ابن حنبل قد أسقط من شروط الامام هذه الشروط فى الاصل وفى الطبيعى من الظروف والاحوال .

وعندما نقارن شروط الامام عند أصحاب الحديث بها عند المعتزلة . لا نجد خلافا جوهريا : الا فى امامة الفاسق المتغلب : وهو الخلاف الخاص بعزل الامام وخلعه والثورة عليه .. أما فيما عدا ذلك فهناك اتفاق فى الجوهر والاساس .

وكما هو حال المعتزلة والزيدية مع شروط الامام وصفاته ، عندما اتفقوا فى الجوهر ، واختلفوا فى التعداد بين مجمل لها ومفصل . كان الاشعرية . . فعند الجوينى صفات الامام وشروطه ستة :

١ — أن يكون قرشى النسب « وينبه الجوينى الى أن هذه القضية خلافية . ويعلق : « وللاحتمال فيه عندى مجال . والله أعلم بالصواب ! » .

٢ — وأن يكون مجتهدا ، من أهل الفتوى ، بحيث لا يحتاج الى استفتاء غيره فى الحوادث .

٣ ـ وأن يكون ذا نجدة وكفاية ومهتديا الى مصـــالح الامور وضبطها . أى أن يكون ذا كفاية .

٤ ـ وأن يكون مسلما .

٥ ـ وأن يكون حرا .

٦ ـ وأن يكون ورعا .. (١١) .

ويتفق معه الشهرستانى فى العدد والتقسيم . (١٢) .

والبغدادى يجملها فى صفات أربع هى :

١ ـ العلم .. بحيث لا يقل فيه عن مبلغ المجتهدين فى الحلال والحرام وسائر الاحكام .

٢ ـ والعدالة والورع .. بحيث لا يقل عمن تجـــوز شهادته تحملا وأداء .

٣ ـ والاهتداء الى وجوه السياسة وحسن التـــدبير فى السلم والحرب .

٤ ـ والنسب القرشى .. (١٣) .

والباقلانى يتفق مع من تقدم فى الجوهر . ويختلف فى العدد .

فيراها خمسة هى :

١ ـ النسب القرشى .

٢ ـ والعلم .. بحيث يكون فيه بمنزلة القاضى .

٣ ـ وأن يكون ذا بصيرة بأمور الحرب وحماية البيضة وحفظ الامة .

---

(١١) (كتاب الارشاد) ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ . و (لمع الادلة) ص ١١٦ . تحقيق د. فوقية حسين . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

(١٢) (نهاية الاقدام) ص ٤٩٦ .

(١٣) البغدادى (أصول الدين) ص ٢٢٧ . و (الفرق بين الفرق) ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

٤ ـ وأن يكون ممن لا تلحقه رقة ولا هوادة فى اقامة الحدود ولا جزع لضرب الرقاب والابشار .

٥ ـ وأن يكون من أمثلهم فى العلم .. وكذلك فى كل هذه الصفات .. الا أن يعرض عارض يسوغ امامة المفضول وتقديمه على الافضل .. (١٤) .

والجرجانى يفصلها فتبلغ عنده تسع صفات ، وان لم تختلف فى الجوهر ، فيراها :

١ ـ الاجتهاد فى الاصول والفروع .
٢ ـ والرأى اللازم للقيام بأمور الملك .
٣ ـ والشجاعة اللازمة للحرب وحفظ البيضة .
٤ ـ والعدالة المانعة من الجور .
٥ ـ والعقل الضامن لصلاح التصرفات .
٦ ـ والبلوغ .
٧ ـ والذكورة .
٨ ـ والحرية .
٩ ـ والنسب القرشى « وينبه الى أن فى اشتراط هذه الصفة خلافا » .. (١٥) .

أما النسفى والتفتازانى فانهما يوجزانها ويجملانها تحت عناوين ثلاثة هى :

١ ـ أن يكون من أهل الولاية المطلقة الكاملة .. وهذه الصفة تشمل :

---

(١٤) (التمهيد) ص ١٨١ ، ١٨٢ . وابن حزم يقول : ان الباقلانى (ذكر فى شروط الامامة انها احد عشر شرطا) وذلك يؤكد رأينا أن الاختلاف هو فى التقسيم للصفات الاساسية التى اتفقوا عليها ، فما رآه له ابن حزم أحد عشر شرطا ، ذكره هو هنا خمسة فقط .. أنظر (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٦٦ .

(١٥) (شرح المواقف) مجلد ٣ ص ٢٦٥ .

الاسلام . والحرية . والذكورة . والعقل . والبلوغ .

٢ ـ وأن يكون سائسا .. أى قادرا على التصرف فى الملك بالرأى والقوة والشوكة .

٣ ـ وأن يكون قادرا على تنفيذ الاحكام . والدفاع عن الدولة . واقرار الانصاف .. وذلك يتطلب : العلم . والعدل . والكفاية . والشجاعة .. (١٦) .

وخير من يعبر لنا عن اتفاق الاشعرية فى الجوهر وان اختلفوا فى التقسيم والعنونة والتعداد هو الامام الغزالى. فهو يوجز شروط الامام وصفاته فى قوله : وبالجملة فانه تشترط فيه « خصائص القضاة .. مع زيادة نسب قريش » (١٧) اما تفصيل هذه العبارة الموجزة فيصل بهذه الصفات عنده الى عشر صفات . « ست منها خلقية، لا تكتسب . وأربع منها تكتسب ، أو يفيد الاكتساب فيها مزيدا » وهى :

١ ـ البلوغ .

٢ ـ والعقل .

٣ ـ والحرية .

٤ ـ والذكورة .

٥ ـ والنسب القرشى .

٦ ـ وسلامة حاسة السمع والبصر .. والبعض يضيف السلامة من كافة العيوب المنفرة . ومن أمراض مثل : البرص . والجذام . والزمانة . وقطع الاطراف .. « وتلك هى الصفات الخلقية » .

---

(١٦) (شرح العقائد النسفية) ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(١٧) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٦ .

٧ ـ والنجدة .
٨ ـ والكفاية .
٩ ـ والعلم .
١٠ ـ والورع .. (١٨) « وتلك هى الصفات المكتسبة » .

فالجميع متفق فى الجوهر . وان اختلفوا فى التقسيم والتعداد .

والاشعرية . بذلك ، يتفقون فى الجوهر والاساس مع المعتزلة .. أما ابن حزم ، من الظاهرية ، فان شروط الامام الواجب عنده خمسة هى :

١ ـ النسب القرشى .
٢ ـ والبلوغ والتمييز .
٣ ـ والذكورة .. فجميع فرق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز امامة امرأة .. (١٩)
٤ ـ والاسلام .
٥ ـ وأن يكون متقدما لأمره ، عالما بما يلزمه من فرائض الدين ، متقيا لله فى الجملة ، غير معلن بالفساد فى الأرض .

ويضاف الى هذه الشروط الواجبة ، أخرى مستحبة ، هى :

---

(١٨) (فضائح الباطنية) ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(١٩) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١١٠ ، هذا قول ابن حزم . وان كان بعض الخوارج يجيز أمامة المرأة . أنظر (ثورة زيد بن على) ص ١٨ . وممن نسب هذا الرأى للخوارج البغدادى فى (الفرق بين الفرق . ص ٦٥ ، ٦٦) والاسفرايينى فى (التبصر فى الدين ص ٥٨) .

١ ـ أن يكون عالما بما يخصه من أمور الدين ، من العبادات والسياسة والاحكام .

٢ ـ وأن يكون مؤديا لكل الفرائض ، لا يخل بشيء منها .

٣ ـ وأن يكون مجتنبا لجميع الكبائر ، فى السر والعلن .

٤ ـ وأن يكون مستترا بالصغائر التى تقع منه .

ولقد خالف ابن حزم اولئك الذين اشترطوا السلامة من العيوب الجسمية والنفسية فى الامام ، فقال : انه « لا يضر الامام أن يكون فى خلقه عيب . كالاعمى . والاصم ، والاجدع ، والاجذم ، والاجدب ، والذى لا يدان له ولا رجلان ، ومن بلغ الهرم ، مادام يعقل ، ولو أنه ابن مائة عام ، ومن يعرض له الصرع ثم يفيق ، ومن بويع اثر بلوغه الحلم وهو مستوف لشروط الامامة .. فكل هؤلاء امامتهم جائزة .. (٢٠) .

وابن حزم ، اذا استثنينا عدم اشتراطه سلامة الحواس الجسمية والنفسية مما ننفر . نجد انه قد اتفق مع المعتزلة كذلك حول الصفات الجوهرية الواجب توافرها فى الامام .. ولقد عبر ابن خلدون عن خلاصة آراء أهل الإختيار فى هذه القضية عندما عرض لشروط هذا المنصب فقال : انها أربعة متفق عليها . وهى : ١ ـ العلم . ٢ ـ والعدالة . ٣ ـ والكفاية . ٤ ـ وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلف فى شرط خامس وهو النسب القرشى .. (٢١)

---

(٢٠) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢١) (المقدمة) ص ١٥٢ ـ ١٥٥ .

تلك هى آراء مختلف الفرق الاسلامية ، مقارنة برأى المعتزلة . فى شروط الامام .

واذا كان اهل الاختيار قد اختلفوا مع الشيعة الأمامية خلافا جوهريا واساسيا ، فان هذا الخلاف قد دار حول قضيتين رئيسيتين . هما :

١ ـ عصمة الامام .. التى قال بها الامامية . ورفضها اهل الاختيار .

٢ ـ ومدى العلم الذى يجب أن يتوافر للامام .

واذا كان أهل الاختيار قد اختلفوا فيما بينهم حول بعض صفات الامام ، فان خلافهم قد انصب على مسألتين هامتين . هما :

١ ـ النسب القرشي ، فلقد أشترطه البعض ، ورفض البعض اشتراطه .

٢ ـ والعدالة ، التى اشترطتها الاغلبية . واجاز البعض التجاوز عنها فى بعض الحالات .

وحتى يكتمل هذا المبحث لابد من أن نعرض لهذا الخلاف بين هؤلاء الفرقاء .

عصمة الامام :

لقد نشأ الخلاف بين الشيعة الامامية وبين كل من قال بالاختيار حول عصمة الامام ، بسبب موقف كل فريق من طبيعة المهام التى هى مفوضة وموكولة للامام ـ وهـذا ما سنتناوله بتفصيل اكثر فى « الفصل الرابع » من هذا الباب ـ فالامامية رأوا أن الامام كالنبى ، له مهـام دينية

اساسية . فالنبى يبلغ الشريعة والامام حافظ لها وحجـة لها وفيها . وكما تلزم العصمة للمبلغ فى التبليغ وما يتعلق به . كذلك تلزم للحافظ فى الحفظ ومايتعلق به .

أما المعتزلة . ومن وافقهم . فانهم لا يرون للامـام مهاما دينيه من هذا القبيل . فهو منفذ للاحكام . قـائم بمصالح الدنيا . مثله فى ذلك مثل الحكام والامراء . فعليهم يقاس . وليس قياسه على النبوه والانبياء .

ولقد عرف المعتزلة العصمة بانها : « لطف يمتنـع المكلف عند فعله من القبيح . اختيارا .. (٢٢) » ويفصل الشيعة اجمال هذا التعريف فيقولون : « ان أصح تعبير عن العصمة . أنها : القوه العقليه والطـاقة النفسية فى المعصوم . الحاصلتان من : أسباب اختيارية . وغـير اختيارية . اذ للاستعداد والقابلية وترويض النفس دخل تام فى تحقيق العصمة وظهورها . فكانما هى حصـيلة شيئين فى وقت واحد : اللطف الالهى ، والتهذيب النفسى . ذلك من الله تعالى . وهذا من العبد . بحسن اختيـاره وكل من الامرين جزء علة . متى تحققا تحققت العصمة فى الخارج . شأن كل معلول ، نسبة الى : الفاعلية ، والقابلية معا . »

وهم يفرقون بين العصمة . التى اشترطوها للامام ، وبين العدالة ، التى اشترطها له المعتزلة وأهل السنة ، لانهما وان اشتركا فى كونهما قوة وملكة . الا أن العصمة علة تامة لفعل الخير والطاعة واجتناب الشر والمعصية . واتصالها بالله من جهة التأثير ، بينما العدالة مقتضية ،

---

(٢٢) (شرح البلاغة) جـ٧ ص ٨ .

فقط ، لفعل الطاعة وترك المعصية ، وليست علة تامة لذلك ، كما انها متصلة بالله من ناحية التوفيق لا من جهة التأثير ، وهي تعتمد على ترويض النفس أكثر مما تعتمد عليه العصمة التي تستعيض عنه باللطف الالهى .. (٢٣)

وهذه العصمة تثبتها الشيعة الامامية لكل ائمتها . (٢٤) وهم يسلمون بأنهم ينفردون بهذا المذهب دون فرق الاسلام كلها .. لانه « يجب أن يكون الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه ـ نبيا كان أو اماما ـ معصوما .. (٢٥)

ومن هذا المنطلق ، منطلق الطبيعة الدينية لمهام الامام ، واشتراكه مع النبى فى النهوض بهذه المهام ذات الطابع الدينى ، ومن كونه ، مثل النبى ، واسطة بين الله وبين خلقه . وانطلاقا كذلك من حكمهم على الامة بجواز اجتماعها ـ فيما عدا الامام ـ على الخطأ والضلال والردة والكفر ، كان قولهم بأن المرجع الوحيد الذى يلتمس عنده الصواب والحق هو الامام . ولو لم يكن معصوما لكان لابد من مرجع آخر معصوم نعود اليه فى التماس الصواب والحق ، فيأتى التسلسل الذى لابد وأن ينتهى الى الامام المعصوم ، أو نصير الى حالة لا تناهى لها .

كما يستدلون كذلك على أن الامام هو « حافظ للشرع ، كما أن النبى مبلغ له » ، باستحالة أن يكون القرآن هو الحافظ « لعدم حيطته بجميع الاحكام التفصيلية . ولظنية دلالته ! » ونفس الشيء بالنسبة للسنة ، فهى لا تصلح حافظا للشرع ، لانها كالقرآن غير محيطة بالاحكام

---

(٢٣) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ (هامش) ص ٧١ ، ٧٢ .
(٢٤) الرازى (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) ص ٥٦ .
(٢٥) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ ص ٢٠١ .

التفصيلية . وظنية الدلالة ، وكذلك ظنية الاسناد ... وايضا فالاجماع لا يصلح حافظا للشرع ، لان جواز الخطا على الفرد يستتبع ـ عندهم ـ جوازه على المجموع كله والامة بأسرها .. وايضا فان البراءه الاصلية والفطـرة السليمة لا تصلح حافظا للشرع ، والا لاغنت عن بعثـه الانبياء ، ولما كانوا يبطلون العمل بالقياس والاستحسان ، فلم يبق عندهم ، للشرع ، حافظ سوى الامام .

ويضيفون الى الادلة على عصمته ، أنه لو لم يـكن معصوما لجاز عليه الخطأ ، ولوجب على الناس أن ينكروا عليه الخطأ بحكم وجوب النهى عن المنكر عليهم ، وذلك يتنافى مع أمر الله الناس أن يطيعوا اولى الامر منهم (٢٦) أى أنهم يجعلون الامر بالطاعة مطلقا ، وبدلا من أن يقيدوه كغيرهم بما لا يدخل تحت معصية الخالق ، جعلوه مطلقا . ونفوا لذلك أن يقع من الامام ما يوجب التـوقف فى طاعته .

وهذه العصمة ، عند الامامية ، لا يمكن ادراكها بالحواس ومن ثم فلا يصح التماسها بالحواس ، كما أنه لا يوجـد دليل على من يتصف بها حتى نلتمس المعصوم ونهتـدى اليه بالنظر فى الادلة . فلم يبق الا أن نعلمه بنص من الله سبحانه .. (٢٧) .

وهم لم يدعوا الحكم بعصمة الباطن . بل قالوا أن الافعال الظاهرة هى التى يحكم بعصمته فيها .. « واذا ثبتت لنا عصمته فى الظاهر ، قلنا فى الاستدلال على عصمة الباطن ... انه لا يحسن من الحكيم تعالى أن يولى

(٢٦) المصدر السابق . جـ ١ ق ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ (هامش) .
(٢٧) المصدر السابق . جـ ١ ق ١ ص ٢٧٦ .

الأمامة .. من يجوز ان يكون مستحقا للعنة والبراءة فى باطنه . لان ذلك سفه .. »

وهم قد عمموا القول بالعصمة وأطلقوه .. فهو يشمل ماقبل امامة الامام كما يشمل مابعد امامته من الزمان ، وكذلك النبى قبل النبوه وبعدها (٢٨) .. وكذلك تشمل الصغائر والكبائر ، والعمد والخطأ . والسهو والتأويل والشبهة .. كل ذلك معصوم منه الائمة والانبياء . (٢٩).

أما المعتزلة . فانهم ينفون العصمة عن الائمة . انطلاقا من ان مهمتهم ليست دينية . كما اشرنا . وكما سيأتى تفصيل ذلك فى مكانه من هذا الباب .. وأكثر من ذلك ، فهم من هذا المنطلق الذى يربط بين طبيعه المهمة والعصمة أو عدمها ، يقولون أن عصمة الانبياء كاملة ومتحققة فى كل ما يتعلق بالجانب الدينى من حياتهم، وهو الجانب المتمثل فى التبليغ عن ربهم . وفى هذا الجانب فان « الانبياء معصومون من كل خطأ يتعلق بالاداء والتبليغ . فلا يجوز عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة ، ولا الغلط فيما يؤدونه عن الله تعالى ، ولا السهو فيه . ولا الالغاز ولا التعمية ، لان كل ذلك اما أن ينقص دلالة المعجز على صدقه . أو يؤدى الى تكليف مالا يطاق . » (٣٠) .

أما ماعدا هذا الجانب الدينى ، جانب التبليغ عن الله ، فان المعتزلة يجيزون فيه وقوع الخطأ من الانبياء

---

(٢٨) المصدر السابق . جـ ١ ق ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ٧ ص ١٢ .
(٣٠) المصدر السابق . جـ ٧ ص ١٨ ، ١٩ .

والرسل ، فهم ليسوا معصومين فيما يتعلق بالــرأى والاجتهاد فى أمورهم الخاصة أو أمور الدنيا العامة .. ومن هنا جوز المعتزلة وقوع الذنوب الصغائر من الانبيــاء والرسل ، قبل النبوة والبعثة وبعدها .. بشرط ألا تكون هذه الصغائر منفرة ومسخفة . لانها اذا كانت كــذلك اضرت بما يتطلبه التبليغ عن الله من صفات تتألف الناس وتجتذب قلوبهم .. ومنهم من قال بجواز اقدام النبى على الذنوب الصغائر . غير المسخفة والمنفرة . وهــو عامد . وعالم بأنها ذنوب . ولكن دون جرأة على الله ، بل مع الخوف والوجل ، وان كان آخرون قد قالوا : « انهم لا يقدمون على الذنوب . التى يعلمونها ذنوبا ، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة .. »

هذا عن الذنوب الصغائر .. أما الكبائر فان من المعتزلة من نسب اليه القول باجازتها على الانبياء قبل البعثة . ومنهم من أحالها عليهم .. وهم جميعا متفقــون على استحالتها على الانبياء بعد البعثة .. (٣١)

فاذا كان هذا هو الموقف من عصمة الانبياء ، ومــدى علاقتهم باتيان بعض الذنوب ، وخاصة الصغائر منها ، فان موقف المعتزلة من عدم عصمة الائمة . ومن جــريان امرهم فى ارتكاب الذنوب مجرى البشر العادى ، هو موقف واضح ، يزيده وضوحا أنهم لا يقيسون الامامة على النبوة ولا الائمة على الانبياء .

والمعتزلة بعد ان نفوا الطابع الدينى عن مهام الامام . وحددوا مافوض اليه فى تنفيذ الحدود والاحــكام . وقاسوا أمره على الامراء والحكام فندوا حجج الشيعة فى

---

(٣١) المصدر السابق . ج ٧ ص ٨ ـ ١٢ .

أن مزاولته لهذه المهام تتطلب عصمته ، فلقد قالت الامامية: ان جواز الخطأ عليه فى تنفيذ الحدود والاحكام يؤدى الى الفساد فى الدين .. ونفت المعتزلة ذلك بأن مثله فى ذلك مثل الامراء والحكام ، ولما لم تدع مخافة خطئهم فى الاحكام والحدود الى عصمتهم فكذلك الحال فى الامام .. ولما قالت الشيعة : ان الامام المعصوم من خلف الامراء والحكام يصحح خطأهم ، أما اذا لم يكن معصوما فمن يصحح الخطأ لهم وله ؟ قالت المعتزلة ان المرجع هو الامة وعلماؤها والكتاب والسنة المحفوظة بالتواتر ...
ولما قالت الشيعة أن جواز الخطأ على الامام يؤدى الى أن يقع منه مايجب الحد بسببه . وفى تلك الحال كيف يكون مقيما للحدود ، وفى الوقت تقام عليه الحدود ؟ ردت المعتزلة بأن جواز اقامة الحدود على الامراء والحكام لا يتنافى مع اقامتهم الحدود على الرعية قبل ذلك .. ولما اعترضت الشيعة بأن جواز اقامة الحد على الامام يعنى أن سلطان الامة فوق سلطانه ، قالت المعتزلة : ان هذا هو مذهبنا ، فهو اذا فسق أو أخل بما بويع عليه كان على الامة عزله وخلعه والثورة عليه .. فالكلمة الاخيرة ليست للامام . ومن هنا لا تجب له العصمة ، وانما الكلمة الاخيرة هى للأمة ، وهى التى لها العصمة ..
« فالامة لا يجوز عليها الخطأ .. والامام اذا أخطأ فعلماء الامة يأخذون على يده ، لانا لا نجوز على جميعهم الخطأ »
.. فهم الذين يصححون خطأ الامام الذى قد تخفى عليه أخطاء الامراء والحكام ، بدليل أن الامام على بن أبى طالب فى علاقاته بعماله وولاته لم يدع أحد انه لم تخف عليه مخالفتهم .. بل ان الرسول عليه الصلاة والسلام « كان

يخفى عليه خطأ عماله وأمرائه ، وانما كان يعرف ماينتهى خبره اليه . فكذلك القول فى الامام .. » .

فادعاء ضرورة العصمة للامام للحاجة الى مرجع يصحح الخطأ ويكشف عنه باطل ، لان المرجع هو الامة ، لا الامام ، الذى يستحيل بالنسبة له الكشف عن جميع الاخطاء .. كما أن ادعاء ضرورة العصمة للحاجة الى المرجع فى حفظ الشريعة باطل لان مرجع ذلك هو المدون والمتواتر من الكتاب والسنة .. وكما لم يمنع وجودالامام من عدم الكشف عن بعض أخطاء الامراء والحكام ، كذلك لم يمنع تدوين الشريعة من وقوع المعاصى ، بل ان وجود الامام الذى قالت به الشيعة لم يؤد الى كشف الاخطاء وتلافى النواقص التى زعموا له العصمة كى يكشفها ويتلافاها ! (٣٢) .

ولقد اتفق أهل السنة مع المعتزلة فى الموقف من عصمة الامام ، وعصمة الانبياء .. ونبه الغزالى الى بعض حجج الشيعة التى تؤدى الى مايمكن أن نسميه بلغة عصرنا ، فكرا مناهضا للديمقراطية عندما حكموا بأن طريق العلم الوحيد المأمون هو المتمثل فى الاخذ عن الامام الفرد المعصوم ، وأن تعدد الآراء يدخل فى نطاق الخطأ والباطل ، و « أن الحق هو فى الفرقة التى تلازم الوحدة كلمتها » بينما الباطل هو فى اتباع الراى والعقول من قبل المجموع « فالحق فى الاتباع ، لا فى نظر العقول ! (٣٣) .

ودعم ابو يعلى ، من أصحاب الحديث ، رأى المعتزلة فى

---

(٣٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ و ٨٤ ــ ٦٨ و ٣٥٦

(٣٣) (فضائح الباطنية) ص ٧٧ ــ ٧٩ .

جواز الخطأ على الانبياء ، فما بالنا بالائمة ، فضرب أمثلة مما حكاه القرآن « فهم لم يكونوا معصومين من الخطأ والزلل والسهو والنسيان والصغائر ... والدلالة عليه قوله تعالى لنبينا . صلى الله عليه وسلم : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٣٤) ، ولو لم يكن للنبي ذنب لادى أن لا يكون لقول الله تعالى وجه ، وقوله تعالى ، فى قصة آدم ، عليه السلام : « ولقد عهدنا الى ادم من قبل فنسى » (٣٥) ، وقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » (٣٦) وأخباره تعالى عنه وعن حواء حيث قالا : « ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (٣٧) . وقوله تعالى فى قصة يوسف : « ولقد همت به وهم بها » (٣٨) ، ومعلوم أن العزم على الزنا معصية محرمة يستحق عليها العقاب . ويدل عليه ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من السهو فى صلاته . حتى سلم من ركعتين وسجد للسهو . واذا ثبت أن الانبياء غير معصومين فيما يتعلق بأمر نفوسهم كان الامام أولى ، فيكون ممن يجوز عليه ذلك » .. (٣٩) .

هكذا اتفق أهل السنة ، جميعا ، (٤٠) مع المعتزلة فى رفض تقرير العصمة للامام .

ولقد يكون مفيدا ، بل وضروريا ، أن نختم هذه الفقرة

(٣٤) الفتح : ٢ .
(٣٥) طه : ١٥ .
(٣٦) طه : ١٢١ .
(٣٧) الاعراف : ٢٢ .
(٣٨) يوسف : ٢٤ .
(٣٩) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٩ — ٢٢١ .
(٤٠) والغزالى يشير لتلك القضية كذلك فى (احياء علوم الدين) جـ ١٢ ص ٢١٥٦ . طبعة دار الشعب القاهرة .

بأن نقول : ان الامام على بن أبى طالب يشهد لـــرأى المعتزلة وأهل السنة فى هذا الموضوع . ودليلنا هو كلماته التى جمعها الشيعة وحققوها فى « نهج البلاغة » . فهو يتحدث عن خطأ آدم . عليه السلام ، وكيف غره ابليس فباع اليقين بالشك ، والعزيمة بالوهن ، واستبدل الجذل بالوجل . ثم تاب بعد ذلك .. يقول الامام على : ان الله سبحانه « أسكن ادم دارا أرغد فيها عيشه ، وآمن فيها محلته ، وحذره ابليس وعداوته ، فاغتره عدوه ، نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الابرار . فباع اليقين بشكه . والعزيمة بوهنه ، واستبدل بالجذل (٤٢) وجلا ،وبالاغترار ندما ، ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقاه كلمة رحمته . ووعده المرد الى جنته » (٤١) .

فعبارته هذه دليل للمعتزلة وأهل السنة على جــواز الخطأ على الانبياء ، الذين أحال الشيعة وقوع الخطـأ منهم ، وقاسوا عليهم الائمة ، فبطلت حجتهم فى الائمة ببطلان سندها فى الانبياء .

بل ان الامام على بن أبى طالب ذاته قد وقعت منه الاخطاء والاخطاء ، والحجة فى ذلك ليس كلام خصومه السياسيين ، بل كلمات ابنه محمد بن الحنفية ، الذىينفى العصمة عنه وعمن عدا الرسول فيقول ــ فيما يرويه المنذر الثورى ــ : « ما أشهد على أحد بالنجاة ولا أنه من أهل الجنة بعد رسول الله ، ولا على أبى الذى ولدنى ! » قال الراوى : « فنظر القوم اليه ؟! فقال : « من كان فى الناس مثل على ؟ سبق له كذا .. سبق له كذا ! » ...

---

(٤١) الجذل : هو الفرح .

(٤٢) (نهج البلاغة) ص ٢٩ .

وهو الذى يصف الصراع بين على ومعاوية ، وبين الهاشميين والامويين فيقول : « نحن أهل بيتين من قريش يتخذهما الناس أندادا من دون الله ، نحن وبنو عمنا هؤلاء ! » يعني بني أمية .. (٤٣) .

فلا حجة للشيعة على عصمة الائمة . اذ لا حجة لهم على ما قالوا به من عصمة الانبياء ، والامام الذى ادعوا له العصمة ينفيها عنه أبنه محمد بن الحنفية .. رضى الله عنهم أجمعين .

علم الامام :

ولقد كان رأى الشيعة فى علم الامام ، ومدى هذا العلم ، ومصدره وشموله .. الخ .. أشد شنعة وشذوذا — فى رأى خصومهم — من رأيهم فى عصمة الامام ، وان ارتبط رأيهم فى العلم برأيهم فى العصمة .

والاشعرى ينبه الى أن فى الشيعة فريقا قد ذهب به الغلو فى علم الامام مذهبا أبعد من الفريق الآخر ، فمنهم « فرقة يزعمون أن الامام يعلم كل ماكان . وكل مايكون ، ولا يخرج شيء عن علمه من أمر الدين ولا من أمر الدنيا .. .. وزعم هؤلاء أن الرسول كان كاتبا . ويعرف الكتابة ، وسائر اللغات .

والفرقة الثانية منهم يزعمون أن الامام يعلم كل أمور الاحكام والشريعة ، وان لم يحط بكل شيء علما ، لانه القيم بالشرائع ، والحافظ لها ، ولما يحتاج الناس اليه ، فأما مالا يحتاجون اليه فقد يجوز أن لا يعلمه الامام » (٤٤) .

---

(٤٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٦٨ .
(٤٤) (مقالات الاسلاميين) ج ١ ص ١٢٢ .

فالفرق بين المذهبين ، أن الاول يقول أصحابه أنه : يعلم ماكان . وما هو كائن ، وما يكون . بينما يقول أصحاب المذهب الثانى : أنه يعلم ماكان ، وماهو كائن ، دون ما سيكون ... لان ماسيكون ليس مما تتعلق به الحاجة الآن ، فاذا تعلقت الحاجة بشيء منه علمه الامام !.

ونحن اذا نظرنا في المصادر الاصليه لفكر الشيعة . وتتبعنا الاحاديث التى رووها عن ائمتهم فى علم الامام ، ومداه ، ونوعيته وجدناها مسندة الى ابى عبد الله جعفر الصادق ، أو أبيه أبى جعفر محمد بن على زين العابدين — كغيرها من أحاديث عقيدة الامامة عندهم — وذلك يرشح القول بانها عقيدة حادثة وطارئة فى الفكر الاسلامي ، بل وغريبة عنه . ويؤيد رأى الذين يقولون أنها موروثات غير عربية « نشأت فى مبدأ أمرها فى البيئات غير العربية » . وان هذه القدسية التى رفعت الائمة على الانبياء — كما سنرى فى امتياز علمهم على الانبياء « انما كانت بقية من عبادة الملوك . تلك العبادة التى كانت مشهورة عند قدماء الفرس . بعد أن خالطها بعض العقائد الاشراقية » (٤٥) .

لقد قاس الشيعة عصمة الامام على عصمة النبى ، ولكن مذهبهم فى علم الإمام قد بلغ فى الغلو مرتبة جعلتهم يرون الامام أكثر علما من النبى . بل ومن كل الانبياء مجتمعين ، بل ان مذهبهم هذا يعنى ، فى الواقع والحقيقة ، أن النبوة فى معناها الجوهرى ، الذى هو صلة السماء الفكرية الدائمة بالارض ووصايتها على العقل البشرى ، ان هذه النبوة لم تختتم بموت محمد صلى الله عليه وسلم ، بل لا تزال قائمة فى شخص الامام ؟! .

---

(٤٥) (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) ص ٧٦ ، ٧٧ .

فالرسول يتلقى علم مالم يعلم عن السماء بواسطة الوحى الذى يأتيه به ملك ، يراه حينا ولا يراه حينا آخر .. والشيعة يرون أن نفس الشىء يحدث للامام ، ولكنهم يسمونه « تفهيما وتحديثا » . بدلا من تسميته « وحيا » . ويرون أن الفارق بين « التحديث » وبين « الوحى » ان الامام لا يرى الملك ، وانما هو يسمع الصوت ، وتحدث له السكينة التى تجعله يطمئن الى أن ماسمعه هو صوت الملك . وأن كلا من الامام والنبى يأتيه علم السماء بواسطة « روح القدس » التى بها حمل النبى النبوة ، والتى تنتقل بعد النبى الى الامام .

تلك هى نظرية الشيعة فى علم الامام .

ففى الوقت الذى ينفون فيه علم الامام للغيب - وهم يعنون بالغيب علم الساعة ومافى الارحام ، فقط ، نراهم ينسبون الى أبى عبد الله جعفر الصادق قوله : ان الامام « اذا أراد أن يعلم الشىء أعلمه الله بذلك » (٤٦) ويقولون: ان الامام « يتلقى المعارف والاحكام الالهية وجميع المعلومات عن طريق النبى أو الامام من قبله . واذا استجد شىء لابد أن يعلمه من طريق الالهام بالقوة القدسية التى أودعها الله تعالى فيه ، فان توجه الى شىء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقى لا يخطأ فيه .. ان قوة الالهام عند الامام ، التى تسمى بالقوة القدسية ، تبلغ الكمال فى أعلى درجاته . فيكون فى صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقى المعلومات فى كل وقت وفى كل حالة . فمتى توجه الى شىء من الاشياء وأراد معرفته استطاع

(٤٦) (الكافى) جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

علمه بتلك القوة القدسية الالهامية ، بلا توقف ، ولاترتيب مقدمات ، ولا تلقين معلم ، وتنجلى فى نفسه المعلومات كما تنجلى المرئيات فى المرآة الصافية ، لاغطش فيها ولا ابهام. ويبدو واضحا هذا الامر فى تاريخ الائمة ، لم يتربوا على احد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ طفولتهم الى سن الرشد ، حتى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن احدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ فى شيء من الاشياء ، مع مالهم من منزلة علمية لا تجارى . وما سئلوا عن شيء الا أجابوا عليه فى وقته ، ولم تمر على ألسنتهم كلمة « لا أدرى » ، ولا تأجيل الجواب الى المراجعة أو التأمل ، ونحو ذلك !! » (٤٧) .

هذا هو علم الامام الشامل الكلى ، بالقوة القدسية الالهامية . لا بالتوقف والمقدمات والتعلم .. وهو يفوق علم النبى الذى كان يسأل فيتوقف حتى يأتيه الوحى براى السماء فيما لم يعرف له جوابا !

وهذه القوة القدسية التى يراها الشيعة مصدر العلم الالهى الالهامى للامام ، هى التى كانت مصدر علم النبوة ووحى الانبياء ، وهم ، فى ذلك ، يروون أن « المفضل بن عمر » سأل جعفر الصادق عن علم الامام بما فى أقطار الارض ، وهو فى بيته ، مرخى عليه ستره ؟! فقال جعفر : « يافضل ، ان الله جعل فى النبى خمسة أرواح : روح الحياة ، فيه دب ودرج ، وروح القوة ، فيه نهض وجاهد ، وروح الشهوة ، فيه أكل وشرب وآتى النساء من الحلال ، وروح الايمان ، فيه آمن وعدل ، وروح القدس . فيه حمل

---

(٤٧) (عقائد الامامية) ص ٦٩ - ٧٦ .

النبوة . فاذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار الى الامام ، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو ، والاربعه الارواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو ، وروح القدس كان يرى به .. » (٤٨) .

اما قولهم بأن روح القدس تنقل للامام حديث السماء ، كما كان الحال مع النبى . فيتضح من قولهم : ان « الائمة علماء صادقون . مفهمون . محدثون .. » وينسبون الى جعفر الصادق تفسيره للمحدث بأنه الذى « يسمع الصوت ولا يرى الشخص » .. فلما سأله محمد ابن مسلم : «كيف يعلم أنه كلام الملك ؟ » قال جعفر : « انه يعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه كلام الملك » .. كما ينسبون الى ابيه محمد بن على قوله : « كان على ، عليه السلام ، محدثا .. يحدثه الملك ! » . (٤٩) .

فلا فرق ، فى الجوهر والحقيقة ، اذا ، بين الامام والنبى فى التلقى عن السماء ، بل هم يرفعون الامام مرتبة عندما يقولون بعلمه المطلق فى كل مايريد علمه .

ثم هم يروون عن أبى جعفر محمد بن على زين العابدين، كذلك ، ما يعنى أن علم الامام يربو على علم النبى ، بل على من بعثهم الله من الانبياء والرسل — وفيهم محمد — مجتمعين .. فالرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قد ورث كل علم الانبياء السابقين ، فانضم هذا العلم الى علم النبى محمد ، ثم أورثه الى الامام على ، الذى ورثه هو الآخر لمن بعده من الائمة ، وهكذا ، فاذا كان الامام يعلم علم ما يستجد مما لم يعلمه النبى والانبياء الذين سبقوه ،

---

(٤٨) (الكافى) ج ١ ص ٢٧٢ .

(٤٩) (المصدر السابق) ج ١ ص ٢٧١ .

اتضح لنا أن رأى الشيعة هذا يفضى الى أن علم الامام يربو على علم الانبياء اجمعين مجتمعين .. أما النص المنسوب الى ابى جعفر محمد بن على زين العابدين فهو قوله : « ... ان الله عز وجل جمع لمحمد سنن النبيين ، من آدم وهلم جرا الى محمد .. وأن رسول الله صير ذلك كله عند أمير المؤمنين » .

فقال رجل لابى جعفر : « يابن رسول الله ، فأمير المؤمنين أعلم ، ام بعض النبيين ؟ فقال ابو جعفر : اسمعوا ما يقول !؟ .. انى حدثته أن الله جمع لمحمد علم النبيين ، وانه جمع ذلك كله عند أمير المؤمنين ، وهو يسألنى : اهو اعلم ، أم بعض النبيين ؟! (٥٠) .

وهم يروون عن أبى جعفر كذلك أن قدرة الامام على معرفة المحجوب ، بواسطة ما يسمى باسم الله الاعظم ، تفوق قدرة « آصف » ، الذى كان عنده علم من الكتاب احضر به عرش بلقيس الى سليمان قبل أن يرتد بصره اليه ، اذ يقول أبو جعفر « ان اسم الله الاعظم على ثلاثة وسبعين حرفا ، وانما كان عند آصف منها حرف واحد ، فتكلم به فخسف بالارض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده ، ثم عادت الارض كما كانت أسرع من طرفة عين . ونحن عندنا من الاسم الاعظم اثنان وسبعون حرفا ، وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به فى علم الغيب عنده ! » (٥١) .

يروون ذلك ويقولون به ويؤمنون ، ثم يقولون بالتقية لخوفهم من خصومهم ، ويعللون سكوت على عن الانكار

---

(٥٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٥١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٣٠ .

على أبى بكر بخوفه من شدة عمر ، ويدعون أن سبب غيبة الامام هو الخوف على النفس من قتل أعدائه له .. فأين هى حروف الاسم الاعظم الاثنان والسبعون ؟!.

هذا هو علم الامام عند الشيعة . فهو « امام فى سائر الدين .. ولابد أن يكون عالما بجميع أحكام الشرع : دقيقة وجليلة ، حتى لا يفوته شىء منها .. » (٥٢) كما « يجب أن يكون عالما بالسياسة التى أمره ونهيه منوط بها .. اذ يجب أن يكون عالما بجميع ما جعل اليه الحكم فيه : دقيقه وجليله .. » (٥٣) .

ولما اعترض عليهم خصومهم بأن ذلك يتطلب أن يكون الامام عالما بالصناعات والحرف والمهن وقيم المتلفات والديات وقيمتها ، لانه ترفع اليه المنازعات فى هذه الامور .. قال بعضهم أنه يعلم أكثر ذلك . مثل « أروش الجنايات بالنص من الله تعالى ، ورووا فى ذلك أخبارا .. » وقال البعض : ان هذه الاشياء ليست مما له تعلق بالاحكام الشرعية . فليس من واجب الامام علم أمرها ، وأن مايرفع اليه من أرباب الصنائع والمتاجرات يمكنه الرجوع فيه الى أهل الخبرة « فما صح عنده من قول أهل الخبرة حكم فيه بما هو عالم به من الحكم من جهة الله تعالى ، ومتى اختلفت أقوال أرباب الصنائع رجع الى قول أعدلهم ، فان تساووا فى العدالة كان مخيرا فى الاخذ بأى أقوالهم شاء .. وكذلك القول فى قيم المتلفات وأروش الجنايات ... لانه لا تعلق لهذه الاشياء بأحكام الشريعة .. » (٥٤) .

---

(٥٢) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ ص ٢٤٩ ، ٢٧٨ .
(٥٣) المصدر السابق . ج ١ ق ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٥٤) المصدر السابق . ج ١ ق ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ .

ومما يذكر .. ان ما رآه الشيعة من موقف الامام ازاء مايعرض له من اروش الجنايات ومشكلات الصـــناعة والتجارة والحرف ، قال به أهل السنة والمعتزلة فيمـــا يعرض له مما خرج عن علمه واجتهاده فى كل الفروع .

ولما كنا قد قلنا : أن فكر الشيعة هذا عن علم الامام قد جاءهم وجاء الفكر الاسلامى من ميراث الامم الإخرى . وانه طارىء غير أصيل ولا علاقة له بعصر صدر الاسلام .. فان الامر يدعو الى النظر فى تراث الامام على نفسه . لنرى : أيشهد لفكر الشيعة فى علم الامام ؟ أم تقف ضد هذا الفكر ؟؟

عندما انتقل الرسول الى ربه ، ولى على بن أبى طالب أمر غسله وتجهيزه كى يوارى مثواه الاخير ، وعندما كان يلى غسله قال تلك الكلمات الجامعة الواضحة الحاسمة .. خاطب الرسول فقال : « بأبى أنت وأمى يارسول الله ! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبـــوة والانباء واخبار السماء ! » (٥٥) .

ونحن نعتقد أنه فى ضوء معنى هذه العبارة يجب أن تفسر كل كلمات منسوبة للامام على فى هذا المعنى والمقام .. هذه العبارة التى تتحدث عن ختام النبوة ، وانقطاع ، لا وحى السماء فقط ، بل والانباء والاخبار من السماء ، بصرف النظر عن الطرق والوسائل ، ومن ثم انتهاء مرحلة فى تاريخ البشر كانت فيها رسالات السماء تترى عليهـم كى تقوم اعوجاجهم ، وبدء مرحلة اخرى بلغوا فيها الرشد

---

(٥٥) (نهج البلاغة) ص ٢٨٠ .

فوكلوا الى العقل ، وكيل الله فيهم ، يتصرفون على هديه في ضوء كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فبعد هذا التاريخ بسنوات ، وبالتحديد في خلافة الامام على ، نسبت عبارة له يخاطب الناس فيها بقوله : « أيها الناس ، سلوني قبل أن تفقدوني ، فلانا بطرق السماء أعلم مني بطرق الارض ... » (٥٦) وهي لا تعني اكثر من أنه أراد التنبيه على أن لديه علما بأمور الدين والآخرة كثيرا ، وأن اهتمامه وعلمه بأمور الآخرة أشد من اهتمامه واكثر من علمه بأمور الدنيا .. وهذا أمر مختلف تمام الاختلاف عن معنى العلم ومداه كما رأته الشيعة بالنسبة للامام .

وفي فترة خلافته كذلك نسبت اليه هذه العبارات التي حدث بها أتباعه فقال : « والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت . ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله . ألا واني مفضيه الى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه . والذي بعثه بالحق واصطفاه على الخلق ، ما انطق الا صادقا ، وقد عهد الى بذلك كله، وبمهلك من يهلك ، ومنجى من ينجو ، ومآل هذا الامر ، وما أبقى شيئا يمر على رأسي الا أفرغه في أذني ، وأفضى به الي ! » (٥٧) .

وهذه العبارات هي أكثر عبارات « نهج البلاغة » ايهاما بأن في فكر الشيعة عن علم الامام شيئا يوافق عليه علي بن أبي طالب .. ولكننا نعتقد بعكس هذا الايهام .

ذلك أن المعارضين لفكر الشيعة في علم الامام يستطيعون أن يشككوا في نسبة هذه العبارة لعلي بن أبي طالب ، لان

(٥٦) المصدر السابق . ص ٢٠١ .
(٥٧) المصدر السابق . ص ٢٠١ .

« نهج البلاغة » قد جمعه الشريف الرضى ، نقيب الطالبيين ورأس الشيعة الامامية فى عصره ، فما فيه هو حجة لخصوم الشيعة وان لم يكن بالضرورة حجة لها .. ولكننا لا ندفع ايهام هذه العبارات بذلك السبيل وانما نقول انها يجب أن تفسر فى ضوء المعنى الواضح الذى أفادته عبارته عندما مات الرسول ، وهى التى تنفى أن هناك صلة بين السماء وبين الائمة من بعد الرسول .

ثم ان هذه العبارات لا تفيد أكثر من أن الامام على كانت عنده من العلم بضاعة لا يتحملها فهم العامة .. قرر أن يفضى بها الى الخاصة وحدهم ، وذلك طبيعى معه ومع غيره . فى عصره وفى كل العصور ، فمن يقول : ان مبلغ علمه كان على النحو الذى يطيقه فهم البدو والاعراب الحفاة فى ذلك التاريخ ؟!

يبقى مافى العبارات من اشارات الى ما عهد به النبى اليه من نبأ الاحداث وتطورات الامر من بعده .. وأمر ذلك عندى لا يعدو أنه كانت للرسول عليه الصلاة والسلام نبوءات سياسية . على ضوء معرفته بقبائل العرب ومدى تغلغل العقيدة الاسلامية الحقة فى قلوب ابنائها ، ومعرفته بقريش ومطامحها القديمة وتطلعاتها التى لابد لها أن تتجدد فى ثياب اسلامية ، ومعرفته الحصيفة بما يمكن ان يفضى اليه الصراع الطبيعى . فى مثل ذلك المجتمع ذى الوحدة الحديثة ، على السلطة والسلطان .. وليس ببعيد أن يكون قد أفضى الى على ببعض هذه النبوءات . لما كان بينهما من نجوى وعلاقة قربى ، ولما كان لعلى من منزلة عظمى فى الاسلام وعند الله ونبيه ، لا يمارى فيها الا عدو للاسلام والمسلمين .

تلك هي حدود هذه العبارات .. ومن ثم فانها لاتشهد بصحة شيء مما رآه الشيعة فى موضوع علم الامام .. فضلا عن أن كلماته الكثيرة الشديدة الوضوح تعارض مفهومهم فى هذا الموضوع .

ونتبع كلمات الامام على بكلمات لابنه محمد بن الحنفية ، قالها عندما أشاعوا عنه ما أشاعته الشيعة عن علم الائمة الذى لا يعرف ولا يعترف بما يحكم علم غيرهم من قواعد وحدود .

سأل سائل محمدا بن الحنفية فقال :

ـ « كانت تبلغنا عنك أحاديث من وراء وراء ، فأحببت أن أشافهك الكلام ، فلا أسأل عنك أحدا ، وكنت أوثق الناس فى نفسي وأحبه الى أن أقتدى به ، فأرى برأيك ، وكيف ترى المخرج ... »

ـ فقال محمد : « اياكم وهذه الاحاديث ، فانها عيب عليكم ، وعليكم بكتاب الله تبارك وتعالى ، فانه به هدى أولكم وبه يهدى آخركم » وعندما تحدث الناس عن ما ورثه أهل البيت من علم لم يعلمه غيرهم ، خصهم به الرسول ، ينفى ذلك ابن الحنفية ويقول : « انا ، والله ، ما ورثنا من رسول الله الا مابين هذين اللوحين .. هذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى ... » فقال له عبد العزيز ابن المختار : « وما كان فى هذه الصحيفة ؟ » فأجاب محمد بن الحنفية : انه حديث « من أحدث حدثا أو آوى محدثا . ! (٥٨) .

بل ان هناك حديثا يرويه الشيعة عن جعفر الصادق نفسه . يعارض على نحو أكيد وكبير ما رووه عنه فى

(٥٨) (طبقات ابن سعد) جـ ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ .

موضوع علم الامام .. يقولون : أن سدير الصيرفي سأل جعفرا فقال له : « ان شيعتكم اختلفت فيكم . فأكثرت .. حتى قال بعضهم : ان الامام ينكت في أذنه ، وقال آخرون: يوحى اليه ، وقال اخرون : يقذف في قلبه . وقال آخرون : يرى في منامه . وقال آخرون : انما يفتى بكتب آبائه . فبأى قولهم آخذ ؟ » فيجيبه جعفر الصادق جوابا ينفى فيه أن يكون أى من هذه الاشياء تحدث للامام فيقول : « لا تأخذ بشيء من قولهم ، ياسدير . نحن حجة الله وأمناؤه على خلقه ، حلالنا من كتاب الله . وحرامنا منه » (٥٩) .

فأين هذا مما رووه عن جعفر من قوله : « ان الامام يحدث ... يسمع الصوت ولا يرى الشخص ... وأنه يعطى السكينة والوقار حتى يعلم أنه كلام ملك » .. ومما رووه عن أبيه من قوله : « كان على محدثا يحدثه ملك »! .

هذا هو راى الشيعة الامامية في علم الامام .. وهو رأى تنقضه كلمات على بن أبي طالب .. وكلمات ابنه محمد ابن الحنفية ... بل وتنقضه كذلك بعض رواياتهم هم عن جعفر الصادق الذى رووا عنه ذلك الرأى فى علم الامام ! .

ولقد رفض المعتزلة ذلك الغلو الذى قال به الشيعة فى العلم كصفة من صفات الامام ، وانطلقوا فى رفضهم هذا من منطلقهم الفكرى المعهود فالامام ليس حافظا للشريعة ، وليس معصوما ، وهو مفوض فيما هو من مصالح الدنيا ، مثل حفظ الامة والدفاع عن البيضة والحوزة وتنفيذ الاحكام واقامة الحدود ، ومن ثم فان القياس فيه وفى

---

(٥٩) (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ٥٠ .

علمه يجب أن يكون على الحكم والحكام والأمراء ، لا على النبوه والانبياء .

فقالوا : « ان القدر ــ « من العلم » ــ الذى يحتاج الامام اليه ، هو الذى يحتاج اليه الحكام ، ولا يجب ان يكون لا يذهب عنه شيء من أمر الدين ، وانما يجب أن يكون حيث يصح أن ينظر فيه ويستدركه بنفسه وبغيره من العلماء اذا راجعهم » (٦٠) .

وقالوا : ان تصور الشيعة لعلم الامام على هذا النحو الشامل والمطلق . يتطلب أن يكون عالما بالباطن حتى يعلم بواطن الذين يترافعون اليه فى منازعات تتصل بأحكام الشريعة وحدودها ، والا كان عرضة للحكم بغير العدل الحقيقى ، والوقوع فى الخطأ الذى تحيله العصمة والعلم المطلق .. فقول الشيعة بنفى الخطأ عن الامام يستلزم أن يعرف باطن من يدعى دعوى كاذبة . ومن يشهد زورا . و « أن يعرف أن ما تحاكموا فيه ثابت أو ليس بثابت .. الى غير ذلك من بواطن الامور وهذا يوجب أن يكون عالما بالغيب وبسائر أحوال الناس » ... بل ان قيام الامراء والحكام بمثل هذه المهام ــ لان الامام ينيبهم فيها ــ يتطلب ــ بمنطق الشيعة ــ أن يكونوا هم أيضا على نحو علم الامام المطلق والشامل .

ولما كان الثابت من حياة الرسول وحياة الامام على عكس ذلك ، فقد بطلت حجة الشيعة وانهار مستندهم « فالرسول لم يكن يعرف كل الاحكام . بل كان الوحى ينزل عليه حالا بعد حال ، ولم يكن يعرف بواطن الامور ،

(٦٠) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ .

فقد ثبت عنه أنه كان يحكم بالظاهر ويتولى الله تعالى السرائر . وانه يقضي بنحو ما يسمع . وانه اذا قضى بشيء لواحد لم يحل له أن يأخذه اذا علم خلافه .. الى غير ذلك مما روى عنه فى هذا الباب .. كما ثبت عن الرسول وعن الامام على انهما وليا من أخطأ وزل عن الطريق .. ولابد من الاقرار بذلك لتواتر الخبر فيه ... واذا جاز ذلك ، ولا يوجب فسادا ، فما الذى يمنع من أن يكون الامام عالما بالاحكام ويجتهد فيما يتولاه ؟ لانه اذا جاز أن يجتهد فيما يوليه . ويجوز الغلط فيه ، كان له أن يجتهد فيما يتولاه ، وان جاز الغلط فيه مع ذلك . ولو منع العقل من أحدهما لوجب أن يمنع من الآخر .. » (٦١) .

ولقد رأى المعتزلة أن شرط الاجتهاد فى الامام يكفى . فهو يجتهد فيما يعرض له من الاحكام ، اذا كان طريقها الاجتهاد . أما ماليس طريقه الاجتهاد فيجب أن يكون عالما به ، أو بالطريق الموصل اليه . فشرط العلم . الذى يوجب أن يكون عالما أو فى حكم العالم بما يتصل بالاحكام والشرائع . يكفى مع الاجتهاد ، ويغنى عن ذلك التصور المثالى والمحال الذى قال به الشيعة فى علم الامام .. فالامام « العالم » « والمجتهد » « يتمكن مما فوض الله اليه . والمعتبر أن يكون متمكنا من ذلك » (٦٢) .

وكرر المعتزلة ــ وهم ينقضون رأى الشيعة هذا ــ رفضهم قياس علم الامام الدينى على علم النبى الدينى . فالقول بأن النبى « يجب أن يكون عالما بكل الدين ، وأعلم من سائر أمته » لا يصح أن يتخذ أمرا يقاس عليه علم

(٦١) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٧ .
(٦٢) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٠٨ ، ٢٥٩ .

الامام فى الدين ، لاننا نأخذ أمر الشرع من النبى ، وهو الحجة فيه ، واليه يرجع فى باب الديانات « وليس كذلك الامام ، لاننا لا نعلم من قبله الديانات والشرائع ، فحاله كحال الامراء والحكام .. » (٦٣) .

ولما أثار الشيعة شبهة قياس العلم على الفضل . وقالوا : اذا كان يشترط فى الامام أن يكون أفضل اهل زمانه ، فلم لا يجب أن يكون أعلم أهل زمانه ، قياسا للعلم على الفضل ؟ .. رد المعتزلة تلك الشبهة بقولهم : أولا : أن كونه أفضل أهل زمانه ليس قولا للجميع ، بل فيه خلاف .. وثانيا : ان القول بأنه أفضل أهل زمانه لا يصح أن يقاس عليه كونه أعلم أهل زمانه ، لان الفضل أمر مطلوب لا لعلة محددة يتحدد قدره بقدر هذه العلة ، أما العلم فهو مطلوب لضرورته لمهام محددة هى التمكن من اداء ما فوض الى الامام . فاللازم له من العلم هو القدر الضرورى لذلك ، فلا وجه لقياس العلم على الفضل حينئذ . وكما يطلب أن يكون الحاكم فاضلا ، وعلى قدر محدد من العلم ، فكذلك الامر فى الامام .. (٦٤) .

ولقد أثار الشيعة شبهة تقول : ان الامام اذا لم يكن فى العلم كما تصوروه وصوروه كان محتاجا لغيره ، وذلك يتناقض مع حاجة الغير اليه .. ورد المعتزلة تلك الشبهة بأن وجه الحاجة مختلف ، فلا تناقض : فهو يحتاج الى علماء الامة « فى بعض مايشتبه عليه مما طريقه السمع » مثل الاخبار .. ومعرفة الخلاف والاجماع . والاصول والفروع ، وما فيه الاجتهاد وما الحق فيه واحد ، كما

---

(٦٣) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .
(٦٤) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٢١٣ .

يحتاج الى العلماء فيما طريقه الاجتهاد ، لان تبادل الرأى معهم يفتح أبواب الاجتهاد وطرقها . ذلك أن العلوم بجملتها هى محفوظة فى الامة ، كأمة . وليست فى فرد من أفراد هذه الامة فيجب أن تلتمس لدى المجموع . فالامة يكمل بعضها بعضا ، ولذلك فكما يستحيل على الامة الخطأ يستحيل عليها الجهل « بشيء من الشرعيات ، حتى لا يحصل فيهم من يعلم ذلك . أو يكون فى حكم العالم » . هذا وجه حاجة الامام الى الغير . والى العلماء خاصة .. أما وجه حاجة الغير اليه فهو « اقامة الحدود والاحكام .. فالحاجة اليه صحيحة ، غير متناقضة ، لان العلماء يحتاجون اليه فى غير الوجه الذى يحتاج هو اليهم .. »(٦٥)

ولقد عجب المعتزلة من تناسي الشيعة لما فى سيرة الرسول وعلى بن أبى طالب مما ينقض مذهبهم فى علم الامام الذى قاسوه على علم النبى .. فالامام على يسأل عن أمر طلحة والزبير وما كان منهما ، فيقال له : قد سارا مع عائشة الى البصرة ، « فيعجب ويقول : ما ظننت أنهما يفعلان هذا ؟ » فأين العلم الشامل المطلق هنا ؟!

ويسأل عن أخبار معاوية وأخبار أهل الشام من القادمين ومن لديهم الأنباء .. فأين علم المحجوب وروح القدس اذن ؟! ويعلن أنه ماكان يظن أن يفعل طلحة والزبير مافعلاه بعامله على البصرة عثمان بن حنيف فأين علمه الكلى اذن ؟!

وعندما يصير الى « الربذة » يطلب دليلا يهديهم الطريق ، ويقول : « من له هداية بذى قار يهدنا ويعرفنا الطريق » فيأتيه رجل يقول له : « أنا من أهدى الناس بذى قار » فيسير الامام على بين يدى الرجل حتى يأتى

---

(٦٥) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٢١١ ــ ٢١٤ .

الى ذي قار .. وهذا ينفي العلم بالصورة التي قال بها الشيعة عن الامام .. (٦٦) .

كما يعجب المعتزلة من الشيعة الذين قالوا ان الائمة يعلمون علم مالم يتلقوه عن المعلمين والمربين . وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار « .. ومما يزيدك في العجب قولهم : ان النبى . وأمير المؤمنين ــ على بن أبى طالب ــ والذين يدعون لهم الامامة من ولده . يعرفون اللغة الفارسية والرومية والهندية والقبطية والتركية والديلمية وسائر اللغات ويتكلمون بها . ولا يجوز أن يكون في أهل هذه اللغات أحد أعلم بها منهم . قالوا : ويجب أن يعلموا ذلك بدليل العقل ، ولو لم يعلموا ذلك لكان نقصا فيهم . وهم حجج الله على خلقه . وأنهم كتبوا الكتب كلها . وكتبوا بالاقلام ــ « اللغات » ــ كلها . بالخطوط التى لا يكون أحسن منها . ونطقوا باللغات كلها .. وهم يدعون على رسول الله وعلى هؤلاء الذين يدعون امامتهم انهم كانوا يحسنون الصنائع كلها .. وانظر الى قولهم فيهم : انهم كانوا يعلمون المكاره التى كانت تنزل بهم . وتفسد أمرهم ، وتشمت عدوهم ، وكانوا يسعون اليها على عمد وعلم ؟! » (٦٧) .

هكذا نقضت المعتزلة رأى الشيعة في علم الامام .. اما اهل السنة ، اشعرية كانوا أو أصحاب حديث ، أو خوارج .. الخ .. فانهم يتفقون مع المعتزلة في موقفهم من هذا الموضوع ، وعندهم ــ كما عند المعتزلة ــ ان الامام انما اقيم لاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وسد الثغور وحماية البيضة وردع الظالم والانتصاف للمظلوم . وليس

(٦٦) (تثبيت دلائل النبوة) ج ٢ ص ٥٤٠ .
(٦٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٣٥ ــ ٥٣٧ .

فى هذه الاشياء أمر يحتاج أن يكون عالما بالغيب . فوجب أن لا يكون من شرطه أن يكون عالما بالعيب ... واذا كان معه من العلم مايصير به من أهل الاجتهاد يجب أن يكون اماما . كما يجوز أن يكون حاكما .. » (٦٨) .

هكذا جرى الخلاف . وهكذا قام الجدل بين الشيعة وخصومهم حول علم الامام .

النسب القرشي :

يلخص الاشعرى خلاف الفرق الاسلامية حول اشتراط النسب القرشي فى الامام ، فنجده خلافا قد شمل كل الفرق دون استثناء .. فالخوارج لا يشترطون النسب القرشي فى الامام ، ومعهم فى ذلك فريق من المعتزلة .. بل وبعض من الاشعرية واهل السنة .. بينما يقول فريق من المعتزلة واكثر اهل السنة بضرورة أن يكون الامام من قريش .

والذين قالوا بالنسب القرشي اختلفوا أيضا . فالشيعة حصروه فى بنى هاشم . وقال غيرهم هو فى كل قريش .

والشيعة الذين حصروه فى بنى هاشم عادوا يختلفون مرة اخرى ، فقالت الراوندية : هى فى العباس بن عبد المطلب وولده .. وقالت الامامية والزيدية وغيرهما : هى فى على وولده .. (٦٩) ثم عاد هؤلاء الاخيرون ليختلفوا

(٦٨) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢٢١ .

(٦٩) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٣ . و (اصول الدين) للبغدادى ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

حول أعيان الائمة من ولد على حتى بلغت عدة فرقهم العشرات .

بل ان الخلاف فى القرشية لم يقتصر على المتكلمين وفرقهم وانما تعداهم الى « النسابين » والبطون والاحياء التى تنتسب الى قريش .. فأكثر النسابين يقولون : ان قريش هم ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى تجوز فيه الامامة .. وهذا هو مذهب أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى عبيدة القاسم ابن سلام ، وبه قال الشافعى وأصحابه .

ولما كان هذا المذهب يخرج تميم من قريش ، لانها من ولد الياس ابن مضر ، قالت : ان القرشيين هم أولاد الياس ابن مضر ، لا أولاد النضر بن كنانة فقط .. وبمذهب تميم هذا قال : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو الحسن الأخفش ، وحماد بن سلمة الفقيه ، وعبيد الله بن الحسن القاضى ، وسوار بن عبد الله ، ومثله قد روى عن أبى الاسود الدؤلى .

ولكن قول التميمية لم يدخل قيسا فى قريش ، لانها من ولد مضر بن نزار . ولذلك قالت : ان قريشا هم من كانوا من ولد مضر بن نزار ، وقال بهذا المذهب مسعر بن كرام ، الفقيه ، كما روى مثل هذا القول عن حذيفة بن اليمان .. (٧٠) .

فحول نسب الامام القرشى اختلف المسلمون ، فرقا وأحزابا ، كما اختلف القرشيون قبائل وأحياء وبطونا !..

ولم يزعم أحد من الذين قالوا بأن النسب القرشى

---

(٧٠) (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

شرط من شروط الامام أن سنده فى ذلك هو العقل ، لان العقل لا يميز قبيلة عن اخرى . بل ربما كانت روح الاسلام كدين ذى طابع عالمى . يساوى بين الاجناس والقوميات ، فضلا عن القبائل فى الجنس الواحد ، ويجعل العمل والايمان والتقوى هى معيار الفضل والتفاضل .. ربما كانت روح الاسلام هذه تجعل العقل . اذا استشير . يشير بأنه مع انكار اشتراط النسب القرشى فى الامام .

اما السند الذى استند اليه الذين قالوا باشتراط القرشية فى الامام فهو السمع . وبالتحديد الحديث الذى رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقائل : « الائمة من قريش » .. ومن ثم فانه لابد من بحث هذا الحديث . كى نصل الى الحق فى هذا الخلاف الذى دار بين المسلمين فى هذا الموضوع .

وفى البداية ، فاننا لن نناقش الشيعة هنا ، لانهم مع النص ، وليسوا مع هذا الحديث الذى يبيح الامامة بالاختيار فى كل قريش . فهم مردود على موقفهم بالرد على النص واثبات الاختيار .. وانما الجدل حول القرشية دائر ويدور بين أهل الاختيار . من اشترطها منهم ضد من لم يشترطها .

ذكر البخارى هذا الحديث فى « باب : الامراء من قريش .. أو : الامر أمر قريش » من « كتاب الاحكام » . وهو مسند مرة الى معاوية بن أبى سفيان ، ومرة الى عبد الله ابن عمر ، ورواية معاوية : انني سمعت رسول الله يقول: « ان هذا الامر فى قريش ، لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما اقاموا الدين » .. ورواية ابن عمر : قال رسول الله : « لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقي منهم اثنان » .

ونحن نلاحظ على هاتين الروايتين ملاحظتين :

الاولى : ان أيا منهما لم يستخدم لفظ « الائمة » . وذلك يؤيد قولنا فى « التمهيد » ـ بالقسم الاول من هذه الدراسة ـ ان هذا المصطلح لم يستخدم فى ذلك العصر للدلالة على الحكم والخلافة وامارة المؤمنين ، ومن ثم فان الروايات التى تستخدم عبارة « الائمة من قريش » هى معارضة بهذا الدليل . وبخلو روايتى البخارى من هـذا المصطلح .

والثانية : أن المناسبة التى قال البخارى أن معـاوية قد روى فيها الحديث تفتح بابا للتساؤل حول مـدى صدق هذا الحديث .. فالبخارى يروى عن محمـد بن جبير بن مطعم أن معاوية قد بلغه « أن عبد الله بن عمـر يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ـ « أى من غير قريش» ـ فغضب فقام فاثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فانه بلغنى أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله . وأولئك جهالكم ، فاياكم والأمانى التى تضل أهلها ، فانى سمعت رسول الله يقول ... » (٧١) ثم روى الحديث .

فما معنى هذا ؟ .. معناه أن ابن عمر كان يروى عن الرسول أن الامر ليس مقصورا على قريش ، وانه سيكون ملك من قحطان . وأن معاوية القرشى كذب ابن عمر ، وروى هو الآخر حديثا بأن الامر خاص بقريش .. ومحمد ابن جبير الذى يروى عن معاوية ان هذا الامر فى قريش . هو الذى يروى أن ابن عمر قد قال : انه سيخرج مـن قريش ، وانه سيكون ملك من قحطان .. فهـو يروى

(٧١) (صحيح البخارى) جـ ٩ ص ٧٧ ، ٧٨ .

الشيء ونقيضه . وما رواه عن ابن عمر ينكر معاوية ان يكون صحيحا ، ويراه من الامانى التى تضل أهلها .. وما رواه عن ابن عمر ينكر رواية معاوية .

هذا عن البخارى .. فماذا عن رواية الحـــــديث فى « صحيح مسلم » ؟.

يروى مسلم هذا الحديث فى « كتاب الامارة » .. وهو يرويه عن أبى هريرة بلفظ : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن . مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم » ... كما يرويه عن جابر بن عبد الله بلفظ : « الناس تبـــع لقريش فى الخير والشر » .. كما يرويه عن ابن عمر بلفظ البخارى ــ وقد ناقشنا هذه الرواية ــ .. ثم يرويه عن جابر بن سمرة بلفظ : « ان هذا الامر لاينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة » قال : ثم تكلم ــ « الرسول » ــ بكلام خفى على . قال فقلت لابى ــ « أى سأل جـابر بن سمرة أباه . وكان حاضرا » ــ ما قال ؟ قال : « قال : كلهم من قريش » (٧٢) .

ولنا على روايات مسلم هذه ملاحظات :

أولاها : ان رواية أبى هريرة ــ حتى لو غضضنا النظر عما قيل فى تحديثه ورأى الكثيرين فى روايته ــ تعنى أن الرسول قد بشر بقيام امامين من قريش ، أحدهما مسلم والآخر كافر . ان الكافرين من قريش تبع للامام الـكافر منها . والمسلمون من قريش تبع للامام المسلم منها . . ولن يكون لهذا الحديث معنى آخر اذا نحن فسرنا الامر هنــا على أنه الحكم وامارة المؤمنين . . أما اذا شئنا البعد عن هذا المعنى اللامعقول . فاننا نستطيع أن نفسر معنى الامر

---

(٧٢) (صحيح مسلم) (بشرح النووى) جـ ١٢ ص ١٩٩ ــ ٢٠٣ .

هنا بالاسلام مثلا . ان الرسول قال ذلك قبل أن يعم الاسلام قريشا . فكان من أسلم يومئذ يقتدي ويهتدي بأوائل الناس اسلاما . وهم من قريش . ومن لايزال على الكفر يتابع ويتحالف مع كفار قريش الذين كانوا يقودون الحرب ضد الرسول والاسلام .

وثانيتها : أن رواية جابر بن عبد الله ليس فيها ماينبيء أن المراد هو الحكم وامارة المؤمنين . فهى تتحدث عن التبعية لقريش فى الخير والشر . وربما كانت هذه الرواية تشهد للتفسير الذى نراه لرواية ابى هريرة .. ومن ثم فلا علاقة لها بموضوع الامامة .

وثالثتها : ان رواية جابر بن سمرة ، تتحدث عن نبوءة الرسول باثنى عشر خليفة .. وهذه الرواية تتعارض مع ماروى من اخباره بأن الخلافة هى خلافة الراشدين ثم تصير ملكا .. كما لا تنطبق على الخلافة الراشدة . فهم أربعة لا اثنى عشر .. كما لا تنطبق على الخلافة الراشدة مع الدولة الاموية ، فالامويون وحدهم أربعة عشر خليفة .. وهذه الرواية تزكى فقط قول الشيعة الاثني عشرية ، لانها نص فى العدد الاثنى عشر الذى يقولون به .. ولذلك فاننا نراها داخلة فى أدلتهم ، ومن ثم مرفوضة بالادلة التى تقدمت فى رفض النص وتزكية الاختيار . (٧٣) .

هذا عن روايات الحديث التى خلت من لفظ « الائمة» .. فماذا عن الرواية المنسوبة الى أبى بكر . والمروية بلفظ : « الائمة من قريش » ؟ .

(٧٣) يشهد لذلك استدلال الشيعة بهذا الحديث . فالموسوى الكاظمى يورده فى (أصول المعارف ص ٩٧) انظر (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٣١١ .

لقد انتهى بنا البحث الى ان هذا المأثور ليس حديثـا نبويا ، وأن مثله مثل الروايات التى جاءت خاليـة من لفظ « الائمة » ، التى لا يمكن الاطمئنان الى انهـا من السنة النبوية الشريفة .. أما وقائع هذا البحث فاننـا نجملها فى هذه النقاط :

أولا : هناك اجماع مشهور على أن أبا بكر قد روى هذا الحديث كى يقنع به الانصار فى اجتماع السقيفة عنـدما قالوا للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير .. ولكن الذين رووا خبر السقيفة ، وهم مؤرخون ومحدثون . خاصة الطبرى لا يذكر عبارة « الائمة من قريش » ولكنه يذكر عبارة : « ان العرب لا تعرف هذا الامر الا لهذا الحى من قريش ، وهم أوسط دارا ونسبا » .. وهو يذكرها كعبارة لابى بكر يجادل بها الانصار . ويقدم حججـا سياسية تزكى قريشا . وتجعل من وحدة العرب حولها أمرا مرجوا أكثر من وحدتهم حول قبيلة اخرى .. (٧٤) ولقد لاحظ ذلك كثيرون من الذين نظروا فى « الطبرى » وغيره من رواة خبر اجتماع السقيفة فقالوا : « لقد روى الطبرى وغيره خبر السقيفة . من طرق مختلفة خالية كلها من ذكر الاحتجاج بالخبر المروى : « ان الائمة من قريش » (٧٥) .. فهـو رأى . اذا . لابى بكر . وليس حديثا رواه عن الرسول .

ثانيا : ان المرة الوحيدة التى ذكر فيها الطـبرى أن ابا بكر قد نسب عبارة « قريش ولاة هذا الامر » للرسول

---

(٧٤) (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ٢٠١ . وفى (الاحكام السلطانية) ص ٣ و (كتاب الامامة) لابى يعلى ص ١٩٩ نجد العبارة لابى بكر ، وهى : (ولن تعرف العرب هذا الامر الالهذا الحى من قريش) .

(٧٥) (تلخيص الشافى) جـ ٣ ص ٦٨ .

تقطع ملابساتها بأن للشك مجالا كبيرا فى صدق هـذه الرواية .. فهذه الرواية تقول أن أبا بكر قد أخذ يجادل سعد بن عبادة . وقال له فيما قال : « ... ولقـد علمت ياسعد أن رسول الله قال . وأنت قاعد : « قريش ولاة هذا الامر . فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبـع لفاجرهم » فقال سعد : صدقت . فنحن الوزراء وأنتم الامراء .. » (٧٦) .

فهذه الرواية لا تستقيم . لانه لو كان سعد بن عبادة قد أمن على قول ابى بكر وروايته لحديث الرسول . وقال : نحن الوزراء وأنتم الامراء . لبايع لابى بكر . ولما حـدث ماحدث مما هو مشهور من رفضه البيعة لابى بكر ولعمـر من بعده . حتى قتل . وكان لا يصلى بصلاة القوم . ولا يجمع بجماعتهم . ويحج فلا يفيض معهم من حيـث افاضوا .

ثم أن هذه العبارة تتحدث عن أمر لا نرى إلا أن المراد به هو الأسلام . لا الامارة ، فهى تتحدث عن أن فى هذا الامر بر يتبعه بررة . وفاجر يتبعه فجار . فلو كان المراد الامامة لكان الحديث عن امامين أحدهما بر والآخر فاجر . وذلك أمر غير مراد ولا وارد فى الموضوع الذى نبحـث فيه .

ثالثا : لقد روى عن أبى بكر ، عندما حضرته الوفاة قوله : « ثلاث ليتنى سألت رسول الله عنهن : .. ليتنى سألته لمن هذا الامر من بعده . فلا ينازعه فيه أحـد ؟ وليتنى كنت سألته : هل للأنصار فيها من حق ؟ وليتنى

---

(٧٦) (تاريخ الطبرى) جـ ٣ ص ١٩٩ .

كنت سألته : عن ميراث بنت الاخ والعمة . فان في نفسي من ذلك شيئا .. » (٧٧) فقوله : ليتني سألته : هـل للانصار فيها من حق ؟ يقطع أنه لم يرو ولم يسمع قول الرسول : « الائمة من قريش » . والا ففيم كان التـك ؛ وفيم كان يريد أن يسأل ؟! .. كما روى عن عمر قوله . عندما حضرته الوفاة : « لو أن سالما حي ما دخلتني فيه الظنون » .. أي لوليته الخلافة .. وسالم مـولى ابي حذيفة . ليس قرشيا . بل مولى امرأة من الانصار . (٧٨)

رابعا : ان العبارة التي كانت متداولة . هي عبارة : ان الناس تبع لقريش . كانت تعبيرا سياسيا . يعكس ثقل قريش وامتيازها القديم في مكة ومجدها الجـديد ببعث الرسول من بينها .. والعباس بن عبد المطلب ؛ عندما توفي الرسول يقول لعلي : « امدد يدك أبايعك . وآتك بهذا الشيخ من قريش — « أبي سفيان » — فيقال : ان عم رسول الله بايع ابن عمه .. فلا يختلف عليك مـن قريش اثنان . والناس تبع لقريش » .. (٧٩) فهو فكر سياسي شائع . وليس حديثا نبويا .

خامسا : ان الذين يقولون : ان عبارة « الائمـة من قريش » حديث رواه أبو بكر عن الرسول ، لم يزعمـوا لهذا الحديث تواترا . بل قالوا : أنه « خبرواحد» .. (٨٠) وابن تيمية يسلم بأن هذا حديث . ولكنه يقول ان قـول

---

(٧٧) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ١٨ . و (تلخيص الشافي) ج ٣ ص ٦٨ .

(٧٨) (مروج الذهب) ج ٢ ص ١٧٥ .

(٧٩) (المغني) ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٣ .

(٨٠) الجرجاني (شرح المواقف) المجلد ٣ ص ٢٧٠ .

أبى بكر فى السقيفة لم يكن رواية لهذا الحديث ، بل أنه ماكان يعرف يومئذ أن هناك حديثا كهذا . ولكنه اجتهد رأيه يوم السقيفة فوافق اجتهاده النص ؟! (٨١) .

سادسا : ان الخوارج قد اختاروا لهم ، على عهد على ، خليفة غير قرشي ، وناظرهم على ، وابن عباس ، وكان الصحابة والبدريون والمهاجرون والانصار أحياء ، ولم يذكر مصدر واحد سنى أو شيعى . ان أحدا قال لهم : لقد خالفتم حديث الرسول : « الائمة من قريش » ؟ .. ثم ان الخوارج أنفسهم كانوا قراء ورواة وأهل ورع وتقوى .. فكيف غاب ذلك عنهم وعن خصومهم السياسيين ؟!.

فخلاصة البحث فى هذه الاحاديث تجعلنا نعتقد بأن هذه العبارات التى نسبت الى السنة الشريفة لا تخرج عن ان تكون فكرا سياسيا قرشيا . كان شائعا فى ذلك العصر ، يعكس ثقل قريش فى المجتمع العربى فى ذلك الحين .. وهذا الفكر القبلى قد امتلأت به مصادر الادب والتاريخ ، ويعبر عنه ابن قيس الرقيات حين يقول :

أيها المشتهى فناء قريش
بيد الله عزها والفناء
أن تودع من البلاد قريش
لا يكن بعدهم لحى بقاء
لو تقفى ويترك الناس كانوا
غنم الذئب غاب عنها الرعاء ؟! (٨٢)

هكذا شاء البعض أن يحصر الخلافة فى قريش . اما

---

(٨١) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٢٧٦ .
(٨٢) (باب الخوارج — من كتاب الكامل) ص ٤٥ .

طمعا وأثرة ، واما ايمانا بأن ذلك هو الصـــــلاح للأمــة والضامن لوحدتها . لاعتبارات سياسية كانت ترى أن العرب بدون قيادة قريش هم كغنم الذئب غاب عنهـــا الرعاء ! ..

ونحن نؤمن بأن تلك الاعتبارات السياسية التى صدر عنها أبو بكر . وعبر عنها فى اجتماع الســـقيفة . وهى الاعتبارات التى جاهد لاقرارها المهاجرون فى اجتمـــاع السقيفة . كان لها يومئذ ما يبررها . وأن جعل الامامة فى قريش يومئذ كان أحد أسباب دوام الوحدة العربيـة بين القبائل حول الدولة الاسلامية الجديدة . فلقـد كان رصيد قريش مركز جذب وعامل توحيد أفاد الدولة . ومن ثم حفظ الدين بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .. نؤمن بذلك ، كسياسة ، ولكننا لا نطمئن الى تحويل هذه السياسة الى دين ، وتحويل العبارات التى تعكس هـذا الفكر السياسى الى أحاديث نبوية استخدمت وتســتخدم لتأبيد سلطان المسلمين فى قبيلة من قبائل العرب ، رغم تغير العصر ، واتساع الرقعة ، وشمول الاسلام أوطانا وأجناسا لا تعرف لقريش ميزة سياسية ، ولا يعرف أحد من قريش كيف يسوس هذه الاوطان وتلك الاجناس !..

والآن .. ماهو موقف المعتزلة من شرط النسب القرشى فى الامام ؟؟

ان المشهور ، فى كتب المقـــالات ، عن المعتزلة ، أن جمهورهم يشترط النسب القـــرشى . وأن الذين لم يشترطوا ذلك منهم هم « بعض المعتزلة » (٨٣) فقط .. ولكن يبدو أن ذلك ليس دقيقا ، وأن اشتراط النســـب -

---

(٨٣) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٤ .

القرشي لم يظهر في الفكر الاعتزالي الا في عصر متأخر ، أما قدامى المعتزلة فانهم لا يضعون النسب القرشي شرطا من شروط الامام . والمسعودي ، المتوفى سنة ٣٤٦ هـ يقول في « مروج الذهب » : ان « المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب الى أن الله لم ينص على رجل بعينه . ولا رسوله ، ولا اجتمع المسلمون ، عندهم ، على رجل بعينه ؛ وأن اختيار ذلك مفوض الى الامة . تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه . سواء كان قرشيا أو غيره ، من أهل ملة الاسلام واهل العدالة والايمان ، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .. والذي ذهب الى ان الامامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها ، و .. » (٨٤) .. الخ ، ونحن نعلم أنه قد ألف « مروج الذهب » في سنة ٣٣٢ هـ ، (٨٥) وهو ، كما رأينا يتحدث عن أن المعتزلة بأسرها لاتشترط النسب القرشي في الامام .

وابن أبي الحديد يقول : « وقد اختلف الناس في اشتراط النسب في الامامة ، فقال قوم من قدماء أصحابنا : ان النسب ليس بشرط فيها أصلا ، وأنها تصلح في القرشي وغير القرشي ، اذا كان فاضلا مستجمعا للشرائط المعتبرة ، واجتمعت الكلمة عليه .. وقال أكثر أصحابنا ، ـ « أي البغداديين من المعتزلة » ـ وأكثر الناس : ان النسب شرط فيها ، وانها لا تصلح الا في العرب خاصة ، ومن العرب في قريش خاصة .. » (٨٦) .

(٨٤) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٧٥ .
(٨٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٧ .
(٨٦) (شرح نهج البلاغة) جـ ٩ ص ٨٧ .

وقول ابن ابى الحديد ، مع قول المسعودى يؤكد أن قدماء المعتزلة لم يشترطوا النسب فى صفات الامام ... لكن القضية هى : متى ظهر اشتراط المعتزلة للنسب فى صفات الامام ؟؟.. اننا نعلم مما يحكيه القاضى عبد الجبار فى مؤلفاته التى حفظت لنا معظم فكر المعتزلة واصولهم، ان شيوخه : ابو على الجبائى ، المتوفى سنة ٣٠٣ هـ وابو هاشم الجبائى ، المتوفى سنة ٣٢١ هـ يقولون ،ومعهم القاضى ، بشرط النسب القرشى للامام .. وابو على الجبائى معاصر للمسعودى وان توفى قبله ، فهل كان قول الجبائى باشتراط النسب هو بداية قول بعض المعتزلة بذلك ؟ وهل لهذا السبب كان هذا القول غير شهير، مما سوغ للمسعودى ان يكتب سنة ٣٣٢ هـ قائلا : ان المعتزلة بأسرها تجوز الامامة فى قريش وغيرها ؟؟.. أن هذا الاحتمال قوى ، ويزيده قوة أن الجاحظ وهو المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، أى قبل وفاة أبى على الجبائى بأقل من نصف قرن ــ هو من الطبقة السابعة والجبائى من الثامنة فى طبقات المعتزلة ــ يهاجم هجوما شديدا العصبية القبلية والجنسية ، وينكر اى امتياز من قبيل ما يعطيه شرط النسب لقبيلة قريش .. فالارجح ان يكون دخول شرط النسب الى فكر المعتزلة قد بدأ بالجبائى ، أو فى عصره وطبقته .

اما فكر الجاحظ الذى هو نموذج لفكر قدامى المعتزلة الذين رفضوا شرط النسب ، فاننا نلتقى به فى مواطن كثيرة من آثاره ، وفى هذه الآثار يفرض لعدد من

المبادىء التى تنكر ، بطريق غير مباشر ، شرط النسب . فهو مثلا :

١ ـ ينبه الى فكرة حب الوطن ، ويعلى من قدر ذلك الحب ، فيقول : « ومحبة الوطن شىء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة ... والشح على الوطن والحنين اليه والصبابة به مذكورة فى القرآن ، مخطوطة فى المصحف بين جميع الناس .. » (٨٧) .. وحب الوطن يمثل فكرا يتجاوز الفكر القبلى ، ويتنافى مع اعلاء شأن قبيلة واختصاصها بالرياسة العامة للأمة .

٢ ـ ينفى أن يكون هناك ارتباط بين حقائق الناس ومعانيهم وبين صورهم وأجناسهم ، ويعد ذلك وهما من الاوهام ، فيقول : « قد ظن ناس أن أسماء أصناف الاجناس كما اختلفت فى الصورة والخط والهجاء ، أن حقائقها ومعانيها على حسب ذلك ، وليس الامر على حسب ماتوهمه .. » ... (٨٨) وذلك نزوع من الجاحظ الى أفق انسانى يتنافى مع تفضيل قبيلة على أخرى .

٣ ـ يحذر من آفة العصبية للجنس ، فضلا عن القبيلة ، ويسفه من فكر الشعوبية المعادى للعرب ، ومن فكر العصبية العربية المعادى للموالى والمولدين ، ويدعو الى تآلف أبناء الدولة العربية الاسلامية ، بصرف النظر عن الاصول العرقية التى ينحدرون منها . فيقول « .. واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها . وضيعوا النظر فيها ، مع اشتمالها على الفساد ، وقدحها البغضاء فى القلوب ، والعداوة بين الاوداء : المفاخرة بالانساب ..

(٨٧) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٨٨) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٠ .

مع اجتماع الانس جميعا على الصورة . واقرارهم جميعا بتفرق الامور المحمودة والمذمومة .. وانتقالهما من أمة الى أمة ، ووجود كلمحمود ومذموم فى أهلكل جنس من الآدميين .. » ... (٨٩) كما ينفر من « الحمية » ، التى لا تبقى دينا الا أفسدته ، ولا دنيا الا أهلكتها ، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب .. » ... (٩٠) وبدلا من ذلك يدعو لتآلف الاجناس . لان « البنوى خراسانى ، واذا كان الخراسانى مولى ، والمولى عربى ، فقد صار الخرسانى والبنوى والمولى والعربى واحدا (٩١) ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن والسلامةمنجميع المساوىء دقيقها وجليلها . وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف . .» (٩٢) وهذا فكر رائد فى التسامى فوق عصبيات الاجناس فضلا عن القبائل والشعوب .

٤ ـ لقد قدم الجاحظ صياغات فكرية تعد رائدة فى حقل الفكر القومى العربى .. عندما اعتبر أن الاتفاق فى التربية . واللغة . والشمائل . والهمة والانف والحمية . والاخلاق . والسجية قد سبكت عرب قحطان مع عرب عدنان . وقامت مقام وحدة النسب . « وان هذه المعانى قدقامتعندهممقامالولادةوالارحامالماسة !..»(٩٣)

---

(٨٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٢٦ .
(٩٠) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٠ .
(٩١) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣٤ .
(٩٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٧ .
(٩٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١١ .

ولقد أشرنا الى طرف من فكره هــذا فى مــــكان سابق .. (٩٤) .

هذا عن فكر الجاحظ الذى ينكر ، بطريق غير مباشر أن يكون النسب فى قبيلة معينه شرطا من شروط الامامه .. ولكن ذلك ليس كل ماعند الجاحظ ، فلقد تنــاول القضية تناولا مباشرا ، وذلك عندما نفى أن يكون النسب طريقا للامامة ، والحسب سبيلا للرياسه ، وأنكر أن يكون أبو بكر قد عنى فى حديث السقيفة تفضيل قريش عــلى غيرها ، أو أن يكون هو أو عمر بن الخطاب قد أضمرا أو أعلنا فكرا أو عملا يجعل لقبيلة قريش أية ميزة على غيرها من القبائل العربية ، بل ولا حتى على الموالى والاعاجم الذين دخلوا فى الاسلام وفى دولته .

يقول الجاحظ : ان النسب ليس من الدين ، والرياسة فى الدين لا تستحق لغير الدين ، بل تستحق بالعمــل الصالح .. وهو يعلل قول أبى بكر : ان العــرب لا تدين الا لهذا الحى من قريش ، بأنه كان استخداما للغـــة التى تحدث بها الانصار ، فلقد كانوا يفاخرون بالانصار ، فدخل اليهم من مدخلهم ، فيقول : « ... ولكن أبا بكر خطب على قوم كانوا يرون للحسب قدرا ، وللقرابة سببا، فآتاهم من مأتاهم ، وأخذهم من أقرب مآخذهم ، واحتج عليهم بالذى هو عندهم ، ليكون أقطع للشغب . وأسرع للقبول ، فكأن أبا بكر انما قال : فان كان الامر ، معشر الانصار انما يستحق بالحسب ، ويستوجب بالقرابة ، فقريش أكرم منكم حسبا ، وأقرب منكم قرابة ، وان كان

---

(٩٤) وانظر فى فكر الجاحظ هذا . المصدر السابق ج ١ ص ١٢ ، ١٣ ، ٢٩ - ٣١ . ج ٢ ص ١٤٦ .

انما يستحق بفضل فى الدين ، فالسابقون الاولون من المهاجرين ، المقدمون عليكم فى جميع القرآن ، أولى به منكم .. » ... (٩٥) ثم يسترسل فى حديث طويل ينفى فيه أن يكون للنسب دور فى الرياسة ، ويستشهد بحال الرسول ، الذى لم ينل الرياسة « بالهاشمية » ، وبحال غيره من الرسل الذين سبقوه .. ويخلص الى القول بأن « من اغتر بعد هذا بالقرابة واتكل على غير العمل الصالح فقد رد تأديب الله وتعليمه ! .. » (٩٦) .

ثم يعرض لتلك القضية فى موطن آخر ، على نحو أكثر مباشرة ، فيؤكد أن أبا بكر كان من أنصار التسوية بين مواطني الدولة ، ومثله عمر ، وأنهما لم يريا « أن القرشية اصل للامامة ، والخلافة شعبة عن القرابة » ... يقول الجاحظ مفندا فكر الذين قالوا أن أبا بكر وعمر كانا من أنصار النسب القرشي للامام كشرط من شروطه :

« فان قالوا : كيف تزعمون ان أبا بكر كان يرى التسويه ، وكان لا يرى أن القرشية أصل للامامة ، والخلافة شعبة عن القرابة ، (٩٧) ولم يكن فى الارض رجل أبعد من هذا المذهب من خاصته وخليفته وصنيعته ، والمحتذى على مثاله : عمر بن الخطاب ، لانه فضل القرشيات من نساء النبى على غيرهن ، وفضل العرب فى العطاء على الموالى ، وقال : « زوجوا الاكفاء » ، وكان اشد منه فى أمر المناكح ؟؟! .

---

(٩٥) (العثمانية) ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٨ ، ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٩٧) العبارة فى كتاب (العثمانية) : (والقرابة شعبة عن الخلافة) . ولعله تقديم وتأخير جاء خطأ من الناسخ ولم يتنبه له المحقق .

ثم يرد الجاحظ هذه التهم عن عمر ، فيذكر أنه لم يفضل قريشا ولا العرب في العطاء ، بل فرض للمهاجرين ومواليهم والانصار ومواليهم ، ممن شهد بدرا . ستة آلاف ، ستة الاف ، فتساوى بلال وعطاء وسالم مولى أبي حذيفة ، وكل الموالي ، مع عمر وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة بن الجراح .. تساووا جميعا في العطاء ..

ثم فرض على قدر السابقة في الدين ، والغناء في الجهاد ، والفضل وعلى قدر بعد الدار التي هاجر منها المهاجر .. فكان فرض أهل اليمن من سبعمائة الى الف ؛ بينما كان فرض مضر من الثلثمائة الى الاربعمائة .

وهو قد فرض لاشراف العجم وغيرهم من غير العرب .. وكان فرض بعضهم في الالفين . وفي الالفين وخمسمائة .. « وهو أقصى شيء أخذه عربي قط .. » .

وهو لم يحقر العجم الا ليهون شأنهم عند قتالهم ، وأما بعد موقعة « جلولاء » فقد ترك تحقيرهم واستهجانهم .. فهو أمر داخل في حسن التدبير لا في العصبية العربية أو القرشية .

وأما أمر المناكح ، فانه هو القائل : « ليس من خصال الجاهلية الا وقد تركته ، الا أني لست أبالي الى من نكحت ، والى من أنكحت .. » .

ثم يروي الجاحظ عن قتادة بن دعامة السدوسي ـ وهو من أهل العدل والتوحيد ـ أن معنى قول أبي بكر للناس بعد خلافته : « وليت عليكم ولست بخيركم » : « انما أراد في

الحسب . ليعلمهم انه اذا لم يليهم بالحسب . فانما وليهم بالسابقة . لانهم قد كانوا أكثروا من قولهم : أرضيتم معشر عبد مناف أن تلى عليكم تيم ؟ ! فأراد فى أول مقام قامه أن يعلمهم أن ذلك المقام لا ينال بأن يكون صاحبه خير الناس حسبا . وانما ينال بأن يكون خير الناس علما وعملا .. » (٩٨) .

هكذا يعرض الجاحظ فكر المعتزلة القدامى . الذين لم يشترطوا النسب القرشي شرطا للامامة . وردوا عن أبى بكر وعمر شبهة تقديمهم قريشا على قبائل العرب . أو تقديمهم العرب على غير العرب . ولخص موقف المعتزلة من هذه القضية فى كلمة قتادة التى تقول : ان هذا المنصب لا ينال بأن يكون صاحبه خير الناس حسبا . وانما ينال بأن يكون خير الناس علما وعملا .

ولكن .. لماذا أدخل متأخرو المعتزلة ، ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى . تقريبا . شرط النسب القرشي فى شروط الامامة وصفات الامام . بعد ان لم يكن من شروطها عند اسلافهم القدماء ؟؟ .. اننا نرى أن الاجابة على هذا السؤال تتمثل فى جملة عوامل ثلاثة :

أولا : ان فكرة اشتراط النسب فى الامامة كانت مطروقة منذ زمن سابق على ذلك العصر . ولها أنصار كثيرون . ومن ثم فان احتمال تأثر بعض المعتزلة بحججها هو أمر قائم . وطبيعى . وممكن الحدوث . خصوصا فى عصر كان الاعتزال فيه . سياسيا . فى مركز ضعيف . وكان اهله المضطهدون يستخفون من الحكام .

---

(٩٨) (العثمانية) ص ٢١١ – ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

ثانيا : ان تيار الاعتزال الذى ساد فى ذلك العصر كان امتدادا لمدرسة المعتزلة البغداديين ، وهى المدرسة التى كانت تفضل علي بن أبى طالب على الصحابة والآخرين . فاقتربت بذلك الموقف من فكر الشيعة وخاصة الزيدية . حتى تداخلت مدارسهم وحلقات درسهم .. ولاشك ان تفضيل قريش ، واشتراط القرشية فى الامام هو اقرب نفكر الشيعة . التى تجعلها فى بنى هاشم ، من ذلك الفكر الذى يسوى بين قريش وغيرها ، وبين العرب وغيرهم فى هذا الموضوع .

ثالثا : ان ذلك العصر قد شهد مدا شعوبيا تمثل فى الدول والامارات التى حكمتها أسر غير عربية . حتى ذبلت سلطة الخلافة العربية فى بغداد .. ورغم اضطهاد هذه الخلافة للمعتزلة ، بوجه عام ، الا ان اشتراط القرشية فى الامام ، فى ظل تلك الظروف كان يعنى وضع عقبة حقيقية أمام انتزاع العناصر غير العربية ، ذات الميول الشعوبية ، لقيادة الدولة من العنصر العربى ، وهو الامر الذى صنعه العثمانيون بعد فتحهم مصر سنة ١٥١٧ م .

قد تكون هذه هى أهم العوامل التى وقفت خلف دخول شرط النسب القرشي للامام الى فكر المعتزلة فى ذلك التاريخ .

أما فكرهم حول هذا الشرط ، وتصورهم لمبرراته ، وكيفية تطبيقه ، فاننا نوجزه فى هذه النقاط :

١ ــ لم يقولوا ، كما قال غيرهم ، أن قول الرسول : « الائمة من قريش » ، هو تكليف مطلق ، غير معلق على شروط .. وانما اشترطوا ان يوجد من قريش من يصلح

للامامة ، دون علة تقعده عنها .. والا فلا تصح فى قريش، ولقد أجاز بعضهم أن تخلو الارض من قرشي يصلح لها : وحكم بصحتها في غير قريش اذ كان الامر كذلك .

٢- ثم هم عللوا حصرها فى قريش بأن الناس « أشد انقيادا » لقريش ، فامامة القرشي تضمن وحدة الامة حول الدولة أكثر مما تضمنها امامة غير القرشي ، فهو تعليل يجعل السبب سببا سياسيا أكثر منه عرقيا وقبليا .. فالنص على قريش قد كان « لان المعلوم أن الناس اشد انقيادا لهم ، لمعرفتهم بتقدمهم ، ولان حالهم - « أى الناس » - يبعد عن الابعد فى اتباعهم . فلذلك قدمت قريش فى هذا الباب .. » .

وليست القرابة من الرسول - بالنسبة لقريش كما قال قوم ، وبالنسبة لبنى هاشم كما قال آخرون - هى علة التقديم وشرط النسب ، والا فلو صح ان كل « من كان أقرب منه - « اى الرسول » - فهو بالامامة أحق » كما تقول الشيعة « لوجب ماقالته الراوندية من امامة بنت الرسول ، وابناها الحسن والحسين ، قبل على بن أبي طالب ... « فليست العلة فى ذلك القرابة ، لانالقرابة يستحق لاجلها أحكاما مخصوصة ، ولا مدخل للامامة فيها ، كما لا مدخل للامارة في ذلك . وقد كان الرسول عليه السلام يولي من يبعد منه ويقرب .. » وكما يقول ابو على الجبائى : فان « القرب من النبى عليه السلام من نعم الدنيا ، فهو بمنزلة الاموال والتمكن من الاحوال العقل والرأى ، ولا مدخل لذلك فى تقليد الامامة ،وانما يدخل فيه ما يكون للدين به تعلق ،ومالا يصح القيام بما

فوض اليه الا معه (٩٩) .. » .

فهم، مع قولهم بالنسب . يعللون القرشية تعليلا سياسيا، لا قبليا وينفون أن تكون القرابة من الرسول سببا فى الحصول على الامامة، فيحتفظون لانفسهم بموقع متميز بين الذين اشترطوا النسب القرشى فى صفات الامام ..

هذا هو موقف المعتزلة، قدامى ومتأخرين، من النسب القرشى للامام ..

اما بقية الفرق الاخرى فان موقفها من هذا الشرط هكذا :

* يقف مع قدامى المعتزلة وجمهورهم فى نفى اشتراط النسب : جميع الخوارج، وبعض المرجئة، وجماعة من الزيدية هم الحسن بن صالح بن يحيى . وأصحابه، والضرارية، أتباع ضرار بن عمرو القطفانى، وهم قد فضلوا غير القرشى على القرشى اذا تساويا فى الصفات. لان غير القرشى « أسهل فى خلعه اذا حاد عن الطريقة ! » .. وأبو بكر الباقلانى، الذى يعلل ابن خلدون موقفه هذا بأنه ثمرة لما أدرك من تلاشى عصبية قريش واضمحلالها واستبداد ملوك العجم على الخلفاء، فأسقط شرط القرشية .. وامام الحرمين الجوينى، الذى يقول عن هذا الشرط، بعد ايراد الاحاديث المروية فيه . « وهذا مما يخالف فيه بعض الناس وللاحتمال فيه عندى مجال !» كل هؤلاء يقفون مع جمهور المعتزلة فى رفض اشتراط النسب القرشى فى الامام .

---

(٩٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٣٥ ـ ٢٤٠ .

* ويقف مع اشتراط النسب باقي الفرق الاسلامية : أصحاب الحديث ، وجمهور الأشعرية ، وجمهور المرجئة، وجمهور الزيدية . والظاهرية يقفون مع بعض المعتزلة فى اشتراط النسب .. (١٠٠) .

ولما كان قد ثبت لنا أن قدامى المعتزلة قد أنكروا شرط النسب ، بينما قال به بعض متأخريهم فان قول ابن خلدون : ان اشتراط النسب قد كان موضع اجماع ... « الا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم .. وتغلبت عليهم الاعاجم .. اشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفى اشتراط القرشية.. »(١٠١) ان هذا القول رغم مايبدو من وجاهته ومنطقيته . فهو لا ينطبق على تطور فكر المعتزلة ازاء هذا الموضوع ، بل هو لا ينطبق على تطور فكر فرق الاسلام كلها فى هذه القضية .. فشرط النسب . قد ثبت أنه غريب عن فكر الامارة والخلافة الذى ظهر فى صدر الاسلام ، وأنه ظهر مع العصبية التى كانت تراجعا عن الروح الحقيقية للاسلام .. بل لا نستبعد أن يكون تغلب الاعاجم قد أدى الى ذيوع القول بشرط النسب فى الفكر الاسلامى ، كرد فعل لهذا التغلب . ونوع من المقاومة الفكرية له . كما يبدو ذلك من

(١٠٠) انظر فى ذلك كله : (مروج الذهب) ج ١ ص ٣٢٤ ، ج ٢ ص ١٧٥ . و (شرح العقائد النسفية) ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ . و (التمهيد) للباقلاني . ص ١٨٤ و (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ج ٤ ص ٨٩ ـ ٩١ ، ١٠٢ و (كتاب الارشاد) للجوينى . ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ . و (لمع الادلة) للجوينى أيضا . ص ١١٦ . و (كتاب الامامة) لابى يعلى ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ و (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) ص ٦٩ . و (مقدمة ابن خلدون) ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

(١٠١) (المقدمة) ص ١٥٣ .

دخوله الى فكر الامامة عند المعتزلة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ..

شرط العدالة :

مر بنا فى شروط الامام شرط العدالة الجامعة لصفاتها .. وهو الشرط الذى يتضمن مايطلب فيمن يتولى القضاء من الحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والعلم ، والفضل ... كما مرت اشارتنا الى ماروى عن الامام أحمد بن حنبل من التنازل عن هذا الشرط ، وتجويز امامة الفاسق اذا تغلب على الرعية وأعلن نفسه اماما وأميرا للمؤمنين .. ولقد فتح ابن حنبل ، ومن قبله المرجئة ، بذلك الباب لكل المتغلبين ، ولكل الذين جوزوا امامة الفاسق المفتقد لشروط الامامة ، والمغتصب لها بالسيف والعصبية ..

والمعتزلة الذين قالوا منذ عصر واصل بن عطاء بأن الفاسق مخلد فى النار ، وانه فى منزلة بين الكفر والايمان هى منزلة الفاسق ، قد وقفوا دائما ضد امامة الفاسق ، واشترطوا العدالة فى الامام ، كما اشترطوها فى الحاكم والامير ..

وسواء أكان الفسق ، وهو ارتكاب الذنب الكبير ، فسق جارحة أم فسق رأى وخروج من مذهب أهل الحق ، فهو ممنوع عندهم من اختيار صاحبه للامامة ، فاذا تغلب بالقهر على الامة ونصب نفسه اماما فان المعتزلة — على عكس الآخرين — يرون أن ذلك أدعى الى مناوأته وقهره . لان الامعان فى الفسق والاظهار له لا يمكن أن يكون مبررا

للسكوت عليه والتسليم ببقائه .. ولذلك أوجبوا منع الباغى من بغيه . حتى لو كان قاهرا للناس مكرها لهم ، لانه بالقهر يستطيع أن يظهر سلطانه ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل قلوب الناس وسلوكهم فى وضع الرضا بامامته !
وهم يقولون أن المأثورات التى يتعلل بها من يجيز امامة الباغى والفاسق مثل مايروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قوله : « أطيعوا ولو عبدا حبشيا » . الى غير ذلك ، هى من أخبار الآحاد « وليس فيها ايجاب طاعة الفاسق » .

وعندهم أن الفسق الذى يوجب الخروج على الفاسق وقهره ، هو الفسق الظاهر ، أما اذا أبطن الفسق ، فسق الجارحة أو التأويل ، فلا مجال للخروج عليه وخلعه ، وظهور الفسق يكون بالانتشار ، وبقول العدول .. (١٠٢) .

تلك هى شروط الامام عند المعتزلة . مقارنة بها عند الفرق الاخرى ، وما دار حول قضاياها الخلافية الرئيسية من صراع بين أهل الاختيار وبين القائلين بالنص ، أو بين أهل الاختيار بعضهم مع البعض الآخر ..

---

(١٠٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٧ .

الفصل الثانى

الفضـــــل والأفضـــــل والمفضول

لقد أثيرت قضية : الفضل ، والافضل ، والمفضول .. فى الجدل الذى دار حول ترتيب الخلفاء الراشـــدين فى الفضل .. وكانت المناسبة هى طعن الشيعة على الصحابة، الذين أخروا عليا عن الامامة ، مع أنه — فى رأيهم — أفضل منهم .. فدار البحث عن الافضل من الصحابة ؟ وعـــن ترتيبهم فى الفضل ، وعن جواز امامة المفضول فى حـــال وجود من هو أفضل منه .. واقتضى ذلك الحديث ، أولا ، فى معنى الفضل المقصود فى هذا المقام ..

ولقد اتفقت أطراف الخلاف فى هذا المبحث على أن معنى الفضل هنا هو معنى دينى ، وأنه مرتبط بمقـــدار الثواب الذى يستحقه الانسان على ماقدم وتقـــدم من طاعات ، فهو فضل وتفضل فى باب الدين ، راجـــع الى قدر الثواب فى الكثرة ، والى مزية الثواب وامتيـــازه على غيره .. ولما كانت معرفة الثواب ، قدرا ومزية ، هى من الامور المغيبة عن الانسان ، ولا مجال فيها لحـــكم العقل لتوقف تقديرها على معرفة الباطن من جانب ، ولان مقدر الثواب ، سبحانه وتعالى ، قد يتفضل بمضاعفته . لكل ذلك كان السمع ، دون العقل ، هو طريق معرفة الفضل،

ومن ثم الافضل من صحابة رسول الله وغيرهم من المؤمنين .. أما ما للعقل مدخل فيه فهو « جواز وامكان» القول بفضل انسان ، بناء على ظواهر أحواله وأمارات هذه الاحوال ، ولكن دون « القطع » بفضله أو أفضليته ، لان القطع لا يعلم عقلا ، ولابد للحكم به من دليل سمعى ... بل ان البعض قد رأى « التوقف » اذا تخلفت الدلالة السمعية ، أى التوقف عن الحكم بالفضل حتى على سبيل الامكان « لان الاعمال لا تنبىء على فضل الانسان اذا لم يعلم المغيب من حاله ، فاذا فقدنا الدلالة وجب التوقف (١) .. » .

ولقد أدى ارتباط معنى مصطلح « الفضل » بالدين، والفضل الدينى ومقدار الثواب وميزته ، الى أن يشهد مبحثه ذلك الانقسام الذى اضطرد تقريبا فى مباحث الامامة بين فرق الاسلام .. فأصحاب الوصية والنص . الذين يرون الامامة أمرا دينيا وركنا هاما ، بل الاهم من اركان الدين ، يوجبون أن يكون الامام هو الافضل : لانه عندهم منصوص عليه ، ومعصوم ، وعلى يديه تظهر الاعلام والمعجزات ..

أما أهل الاختيار فانهم يقولون بامامة المفضول دينيا وبجواز تقديمه مع وجود الافضل منه دينيا ، اذا دعت الدواعى السياسية لذلك ، خصوصا وهذا المنصب ليس من أركان الدين حتى يكون الاعتبار الاول فيه للفضل فى الدين .. ذلك هو جوهر الخلاف بين من أجازوا امامة المفضول ومن منعوها .. الشيعة فى جانب ، وأهل

---

(١) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ص ١١٢ ، ١١٦ ـ ١١٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

الاختيار فى جانب ، رغم اختلاف أهل الاختيار فى ترتيب الصحابة والخلفاء فى الفضل ، كما سيأتى عنه الحديث بعد قليل ..

وفيما يتعلق بترتيب الصحابة فى الفضل ، فان الشيعة لا تفضل أحدا على على بن أبى طالب ، بل لقد حكمت الامامية والغلاة بكفر الصحابة وارتدادهم لتأخيرهم عليا عن الامامة ، وتقدم أبى بكر وعمر وعثمان عليه ، ولمحاربتهم له عند توليه لها بعد عثمان ، وبعضهم قد أنكر أن يكون بعض الصحابة قد أسلم أصلا اسلاما حقيقيا ، باطنا كما كان ظاهرا ، ولم ينج من تلك الاحكام المفرطة فى الغلو والشذوذ سوى قلة من الصحابة هم الذين كان هواهم مع امامة على ، وهم يزيدون عددهم تارة وينقصونه أخرى ، حتى لقد رووا عن جعفر الصادق ونسبوا اليه أنه قال عن ايمان الصحابة يوم السقيفة : « ارتد الناس الا ثلاثة نفر : سلمان . وأبو ذر ، والمقداد ! . » (٢) .

ولقد أنكرت المعتزلة ، منذ نشأتها ، على الشيعة ذلك الغلو وتلك الاتهامات التى وجهتها الى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحدث واصل بن عطاء عن مناقب أبى بكر وأياديه فى الاسلام ونصرة دولته ورسوله ، ومناقب الصحابة السابقين من المهاجرين والانصار ، واستدل بوعود القرآن لهم ، وأخباره عن فضلهم ، وثنائه عليهم ، من مثل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم » (٣) .

(٢) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٢٥٧ (هامش) .
(٣) الفتح : ٨١ .

فكيف يرضى الله عن أبى بكر اذ بايع تحت الشجرة ، على حين تقول الشيعة أنه لم يسلم قط ، بل نافق وظل على شركه القديم ؟! .. ومن مثل قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٤) ، وقوله : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (٥) وقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » (٦) الى آخر مثل تلك الآيات الكثيرة فى القرآن الكريم .

كما استدل المعتزلة على بطلان رأى الشيعة فى كبار الصحابة بتنافيه مع جعل الله لهم حجة .. وقالوا : ان القول بذلك فى الصحابة يؤدى الى التنفير عن النبى ذاته ، لانه اذا كان ذلك حال « من يختص به الاختصاص الشديد ويظاهره ويستشيره .. كان ذلك منفرا » من الرسول عليه الصلاة والسلام (٧) .. فالقرآن ، والسنة المروية ، قولا وعملا ، ومنطق الامور وقرائن الاحوال تتضافر على

---

(٤) الحشر : ٨ ، ٩ .

(٥) التوبة : ١١٧ .

(٦) الحشر : ١٠ .

(٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧ . و جـ ٢٠ ق ٢ ص ٣ ، ٤ .

انكار الغلو الذى حكم بكفر الصحابة وارتدادهم أو نفاقهم أو فسقهم .

ولقد تناولت الخوارج أمر كبار الصحابة ، بالتفضيل ، والتولى ، والنقد ، والبراءة ، وذلك فى تقييمهم لاحداث الصراع على السلطة التى قامت فى صدر الاسلام .. فقالوا بامامة أبى بكر وعمر ، وفضلهما وفضل المهاجرين والانصار على عهدهما وعلى عهد عثمان حتى انقضاء السنوات الست الاولى من حكمه ، وبعد حدوث الاحداث من عثمان برئوا منه وممن أعانه على أحداثه .. ثم تولوا عليـــــا حتى قبل التحكيم فى أمر الفئة الباغية مع وجود النص على وجوب قتالها ، كما برئوا من خصومه يوم الجمل ، لنكثهم البيعة التى عقدوها له ، ويحكمون بكفر معاوية وعمــرو ابن العاص ، ومن تبعهم ، لانهم قد ارتكبوا كبيرة لم يتوبوا منها ، ومرتكب الكبيرة عند الخـــوارج كافـــر فاسق (٨) .

ولقد تناولت المعتزلة بالبحث فضل الصــــحابة . وترتيبهم فيه ، واختلفوا فى ذلك بعض الاختلاف .

فهم بعد أن اتفقوا جميعا على تولى الجميع ، والترحم عليهم ، والتقرب الى الله بمحبتهم ، وعلى صحة امامــة الخلفاء الاربعة على الترتيب ، بعد ذلك اختلفوا فى أيهم أفضل ، وبالذات فى أيهما أفضل : أبو بكر ؟ أم على ؟؟.. اذ هم قد اتفقوا على تقدم أبى بكر فى الفضل على عمــر . وتقدم عمر على عثمان .

---

(٨) (مقالات الاسلاميين) جـ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ و (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد) للخياط . ص ١٤٠ .

وقدماء البصريين منهم يرتبون الخلفاء الراشدين في الخلافة أبو بكر ، فعمر ، فعثمان فعلى .. ومن الذين قالوا بهذا القول : عمرو بن عبيد ، والنظام ، والجاحظ ، وثمامة بن أشرس ، والفوطى ، والشحام .. وغيرهم .

ومن قدماء المعتزلة من قال بفضل : أبى بكر ، فعمر ، فعثمان ، ولكنه توقف فى أمر على ونسبة فضله الى فضل بكر ، أيهما أفضل .. ففضل عليا على عثمان . وتوقف في أمر التفضيل بينه وبين أبى بكر .. ومن هؤلاء : واصل بن عطاء وابو الهذيل العلاف .

ولقد تبع المتوقفين — من قدامى المعتزلة — فى موقفهم هذا من المتأخرين : أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ، وابو الحسين محمد بن على بن الطيب البصرى .

أما المعتزلة البغداديون فقد ذهبوا الى تفضيل على على ابى بكر . وأبى بكر على عمر ، وعمر على عثمان .. وذهب هذا المذهب من متأخرى البصريين : أبو على الجبائى — بعد أن كان متوقفا ، والتزم التوقف فى مصنفاته ، ثم اعتنق تفضيل على عند وفاته — والقاضى عبد الجبار ، ذهب الى التفضيل عندما شرح الاصول الخمسة بعد أن كان متوقفا فيه .. وأبو عبد الله الحسين بن على البصرى ، الذى صنف كتابا فى فضل على .. الخ .. الخ . .

اما الصحابة ، من غير الخلفاء الراشدين ، فأبو على الجبائى يقدم العشرة المبشرين بالجنة ، وهم هيئةالمهاجرين الاولين ، كما سبق وذكرنا ويقدم من انفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل من الصحابة . وبعد الصحابة يأتى التابعون ، وهكذا ، عملا بقول الرسول عليه

الصلاة والسلام : « خير النـــــاس قرنى ، ثم الذين يلونهم .. » (٩)

هذا هو مجمل رأى المعتزلة فى الفضل والتفضيل .. وهم لم يختلفوا فى أمر أبى بكر وعمر ، ولذلك كان جدلهم جميعا فى موضوعهما ضد الشيعة ردا لتهم الكفر والردة والنفاق التى وجهت من الشيعة اليهما .. (١٠) أما أمر عثمان وعلى ، ففى تقييم المعتزلة لكل منهما أشـــــياء يستدعى الحديث عن الفضل الاشارة اليها .

اختلفت المعتزلة فى الموقف من أطراف الاحداث التى وقعت فى العهد الاخير من ولاية عثمان بن عفان ، وذلك بعد أن اتفقوا على انه قد حدثت فى ذلك العهد احداث لم تكن موضع الرضا ولا القبول من نفر كثير من المسلمين .

فمنهم من توقف فى الحكم على كل أطراف النزاع : عثمان ، والذين خذلوه ، والذين قتلوه ، ولم يتبرأ مـــن أيهم ، وسلك مسلك أهل الورع « لانه قد صحت عنده لعثمان أحداث .. فأشكل عليه أمره ، فأرجأه الى عالمه » وقالوا : ان الاحداث ثابتة . ولكن لم تثبت لنا عن عثمـــان أعذار توجب سلامة حاله وبقاء أمره على ماكان قبل هذه الأحداث .. كما لم يثبت عندنا فى هذه الأحداث ما يوجب القطع على البراءة منه وخلعه . فهى أحداث حدثت منه ،

---

(٩) (الانتصار) للخياط · ص ١٣٩ · و (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ٧ ــ ٩ · و (شرح الاصول الخمسة) ص ٧٦٦ ، ٧٦٧ · و (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٢٤ ، جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٣ ــ ١٥ ، ١١٨ ــ ١٢٠ ·

(١٠) انظر (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢١٥ ــ ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٣٤٩ ــ ٣٥١ · و (العثمانية) ص ٣١ ، ٦٧ · و (شرح نهج البلاغة) جـ ١٣ ص ٢٦٩ · و (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٥٩ ·

ولكننا لا نعرف حاله ، فوجب أن نتوقف .. فكأنما تكافأت الحجج والقرائن والادلة والاعتبارات .. وهذا هو موقف واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف (١١) .

ومنهم من عارض التوقف ، مع اعترافهم بحدوث الاحداث ، لانهم سلكوا فى تقييم هذه الاحداث سبيلا آخر ، فرأوا أن الحدث الذى يستوجب أن ننتقل بسببه من موقف التولى والتعظيم الى موقف البراءة يجب أن يكون واقعا على وجه لا يحتمل سوى القبح ، وأن يكون كبيرا ، أما اذا احتمل الحدث الوجهين أو كان مما يجوز أن يقع على وجهين ، فيجب أن ننظر فيه ، فان حدث يقين بوقوعه على الوجه الذى يقبح ، وكان عظيما ، كان هناك مايقتضى الانتقال من التولى الى البراءة ، ومتى لم يكن الامر على هذا النحو فلا يجب الانتقال عن التولى الى البراءة .. حتى ولو كانت هناك أمارات على قبحه وعظمه اذ المطلوب اليقين والقطع .. وتلك ، عندهم ، هى حال الاحداث التى حدثت فى العهد الاخير من حكم عثمان (١٢)

وقالوا ايضا : ان امامة عثمان قد ثبتت بالاجماع ، وذلك يعنى أن عدالته قد ثبتت بالاجماع الذى انعقد على امامته .. ولا يجوز الرجوع عن الاجماع الا باجماع مماثل ، وذلك لم يحدث ، اذ كان بالمدينة والامصار من يوالى عثمان ولا يشك فى عدالته وسلامة موقفه (١٣) .

كما قالوا : ان الاحداث التى احدثها عثمان لا تبلغ

---

(١١) (الانتصار) للخياط . ص ٩٧ و (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٥٨

(١٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٣٣ ، ٣٤

(١٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٣ ، ١١ .

الدرجة التى يفسق بها . ولا التى يستباح لاجلها دمه ، وذلك فضلا عن أنه مغفور له ، لانه من أهل بدر الذين روى فيهم الاثر : « ان الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، ولانه من أهل بيعة الرضوان، الذين نزلت فيهم آية : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » (١٤) ، ولانه من العشرة المبشرين بالجنة (١٥) .

ولقد عاب هؤلاء موقف الذين توقفوا ، ورأوا ان التوقف فى عثمان اذا فهم فان التوقف فى قاتليه غير مقبول ولا مفهوم ، اذ « لو ثبتت هذه الاحداث ما كان يحل للقوم ان يقتلوه ، ولوجب أن ينصبوا اماما ليقتله ، أو يحكم بالواجب فيه ! » (١٦) .

ومن هذا الفريق : جعفر بن حرب ، والاسكافى ، وابو على الجبائى ، والقاضى عبد الجبار ، وابن ابى الحديد .. الخ .. الخ ..

وفريق ثالث من المعتزلة : توقف فى عثمان ، وتوقف فى الذين خذلوه ولم يعينوه على خصومه .. ثم أعلنوا البراءة من قاتليه وشهدوا أن مصيرهم الى النار .. ومن هنا

---

(١٤) الفتح : ١٨ .

(١٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ . و جـ ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(١٦) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ . ص ٥٨ . و (تثبيت دلائل النبوة) جـ ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

الفريق : أبو موسى المردار (١٧) ، وجعفر بن مبشر (١٨) .

هذا هو موقف المعتزلة من عثمان والاحـــداث التى أحدثها ، وهو ماجعلهم يقدمون ، فى الفضل ، عليه على ابن ابى طالب ، سواء منهم الذين فضلوا عليا على أبى بكر أو الذين جعلوا عليا تاليا لعمر ومتقدما على عثمان .

وفيما يتعلق بالاحداث الدامية التى حدثت على عهـد على بن أبى طالب أجمع المعتزلة على تصويبه فى الموقف من معاوية وأهل الشام ، وذلك باستثناء أبى بكر الاصم ، الذى كان ينتقد سياسة على ، ويفضل معاوية عليه فى السياسة ، والذى رأى أن سياسة معاوية قد جمعـت الناس عليه بينما لم يجتمع الناس على على ، فلم تـكتمل له شروط الامامة (١٩) وصوبوه فى حربه للخوارج ، مع قولهم بأن الخوارج قد حاربت متأولة . وأن غرضهم كان الحق والدين ، فأخطأوا فى التأويل .. ولقـــد أشـار ابن ابى الحديد الى انتقادات لاذعة وجهها النظام لسلوك على فى حرب الخوارج يوم النهروان ، عندما حـاول أن يوهم أصحابه أنه يتلقى من السماء خبرا فى حربهم ، ولما سئل نفى ذلك ، ولكنه قال : ان الرسول أمرنى بكل حق ، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .. كما اتهمه النظام كذلك بما يجرى مجرى التدليس فى الحديث

---

(١٧) ولذلك فان قول البغدادى بأن المردار قال بفسق عثمان غير صحيح ، فالخياط أوثق رواية عن المعتزلة من البغدادى . انظر (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٢٨ .

(١٨) (الانتصار) للخياط . ص ٩٨ .

(١٩) (باب ذكر المعتزلة ـ من كتا المنية والامل) ص ٣٢ . و (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٣ .

بصدد أمور تتعلق بالسياسة والصراع على السلطة .. (٢٠) .

وفى المقارنة بين قدراته السياسية وقدرات عمر مثلا ، أو قدرات معاوية ، عاب عليه بعض المعتزلة أمورا ، وعرضوا بأنه لما يكن سائسا ، وأن غيره كان أسوس منه . ودافع عنه مفضلوه بأن سبب هذا الظن هو انه لم يكن يجتهد ولا يضع اعتبارا للمصالح المرسلة ، وتغير الظروف ومقتضيات السياسة والحرب ، وانما كان يقف عند النصوص « والظواهر ولا يتعداها الى الاجتهاد والاقيسة .. كان لا يرى مخالفة الشرع لاجل السياسة ، سواء اكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية .. » (٢١) .

ففى صراع على ومعاوية ، وفى صراعه مع الخوارج ، لم يختلف المعتزلة على تصويبه وتفضيله ـ باستثناء الاصم ـ وان انتقده البعض وفضل عليه سواه ، لكنه نقد فى السياسة ومفاضلة فيها وليس فيهم من فضل غيره عليه فى الدين .

ولقد كان الجاحظ والاصم من أشد المعتزلة نقدا لعلى ابن أبى طالب وكان الجاحظ يدفع بذلك غلو الشيعة فى تكفير أبى بكر وغيره من الصحابة ، وكان نقد الاصم رد فعل لغلو هشام بن الحكم ، الذى ناظره فى فضل على وتفضيله على كل المسلمين .. (٢٢) .

أما فيما يتعلق بصراع على ضد خصومه من أصحاب الجمل ، وعلى راسهم : طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن

---

(٢٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ٦ ص ١٢٩ ـ ١٣١ .
(٢١) المصدر السابق جـ ٠ ص ٢١٢ ، ١٢٣ .
(٢٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٣ .

العوام ، وعائشة أم المؤمنين .. فان جمهـــور المعتزلة يصوبون عليا فى هذا الصراع ، ويرون القوم قد أخطـأوا بنكث البيعة التى بايعوه بها ، وهذا النكث كبيرة وفسق ، ولكنهم يقولون انهم قد عادوا وتابوا ، ومـــاتوا وهم مؤمنون .. (٢٣) .

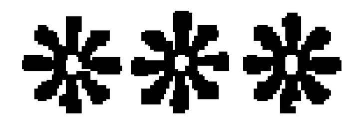
أما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فانهما قد توقفا فى طرفى الصراع يوم الجمل : على ، وأصحابه ، وطلحة والزبير وأصحابهما ، اذ « كان القوم عندهما أبرارا أتقياء مؤمنين ، قد تقدمت لهم سوابق حسنة مع رسول الله ، وهجرة ، وجهاد ، وأعمال جميلة ، ثم وجداهم قد تحاربوا وتجالدوا بالسيوف . فقالا : قد علمنا انهم ليســـوا بمحقين جميعا . وجائز أن تكون احدى الطائفتين محقـة والأخرى مبطلة ، ولم يتبين لنا من المحق منهم من المبطل، فوكلنا أمر القوم الى عالمه ، وتولينا القوم على أصـــل ما كانوا عليه قبل القتال ، فاذا اجتمعت الطائفتان قلنا : قد علمنا أن احداكما عاصية لا ندرى أيكما هى ! ..»(٢٤)

(٢٣) (الانتصار) للخياط . ص ٩٨ .

(٢٤) المصدر السابق . ص ٩٧ ، ٩٨ . وانظر كذلك فى خلاف المتعزلة حول تفصيل على وحربه لخصومه : (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٢٦٤ و ٢٨٨ و ٢٩٨ و جـ ٦ ص ١٢٩ ـ ١٣١ . و جـ ١٠ ص ٢١٢ ، ٢١٣ . و جـ ١١ ص ١١٩ و ١٢٠ . و جـ ١٣ ص ٢٣٥ و (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٦ و ١٣٧ . و (العثمانية) ص ٦ و ١٣ و ١٩ و ٢٠ و ٨٢ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٢ و ٩٤ ـ ٩٩ و ١٢١ و ١٨٥ و (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٤٠ ـ ٤٢ و (باب ذكر المعتزلة) ص ٤٧ و ٤٨ و (مناقضات الاسكافى) ص ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٤٢ . (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٣ ـ ١٤٧ و (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ٩٨ و ٩٩ و ١٤٨ و ١٥٣ . و (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ . و (شرح العقائد النسفية) ص ٤٩٠ و ٤٩١ و (تثبيت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٧٢ و ٥٧٣ . و (التمهيد) ٢٣٣ .

وهو نفس مذهب واصل فى عثمان ، وخاذليه ، وقاتليه.

أما الاشعرية فانهم يتولون الصحابة جميعا ، والخلفاء الراشدين ، ويقولون بترتيب فضلهم على نحو ترتيبهم فى الامارة .. (٢٥) وهذا هو موقف جمهور أهل السنة ، ويختلف فيه ابن حزم الظاهرى بعض الاختلاف ، فيقدم أبا بكر وعمر ، ثم يحكم بفضل المهاجرين الاولين جميعا ، دون القطع بفضل أحد منهم على صاحبه ، ويذكر فيهم عثمان بن عفان ، وعليا ، وبقية العشرة ، وغيرهم من المهاجرين الاولين .. « ثم بعد هؤلاء : أهل العقبة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل المشاهد كلها مشهدا مشهدا ، فأهل كل مشهد أفضل من أهل المشهد الذى بعده ! .. » (٢٦).



لقد قال المعتزلة أن الفضل من باب الدين ومتعلق بالثواب ، كثرة وميزة ، ومن ثم فان سبيل القطع به هو السمع لا العقل .. كما سبق أن ذكرنا .

ثم نظروا فى السمعيات التى رويت ، واحتجت بها الفرق المتنازعة على فضل كل من على وأبى بكر ، وكذلك العباس بن عبد المطلب ، فرأتها جميعا مندرجة تحت أخبار الآحاد ، كما رأتها متعارضة تعارضا يستحيل معه تصديقها جميعا ، والحال أنه لا مرجح لجانب منها على الآخر رجحانا يطمئن اليه العقل ، كما رأوا أخبار آحاد

(٢٥) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٤٠ .

(٢٦) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ج ٤ ص ١٤٨ .

تماثلها ؛ بل تزيد ، قد رويت فى فضل صحابة اخــــرين لم يقل أحد بأنهم قد بلغوا فى الفضل مبلغ أبى بـــكر أو على .

وعلى سبيل المثال ، وجدوا البكرية التى تعصبت لابى بكر تحتج على فضله بأحاديث منها :

١ ـ حديث : « الا أخبركم بخير هذه الارض بعــد نبيها ؟ قالوا : بلى ، قال : أبو بكر » .. وهو مروى عن على بن أبى طالب .

٢ ـ وحديث : « من أفضل من أبى بكر ؟ زوجنى ابنته، وجهزنى بماله ، وجاهد معى فى ساعة الخوف » وهــو مروى عن ابن مسعود .

٣ ـ وحديث : « يا على ، هذان ـ « أبو بكر وعمر » ـ سيدا كهول أهل الجنة من الاولين ، والآخرين » .

كما وجدوا الشيعة التى تعصبت لعلى تحتج على فضله بأحاديث منها :

١ ـ حديث : « يافاطمة ، ان الله تعالى اطلع الى أهل الارض فاختار منهم أباك ، فاتخذه نبيا ، ثم اطلع ثانيـا فاختار منهم بعلك » .

٢ ـ وحديث : « هذا ـ « على » ـ سيد العــرب » وهو مروى عن عائشة .

٣ ـ وحديث : « يافاطمة ، أما ترضين فى أنى زوجتك خير أمتى ؟ » وهو مروى عن أبى رافع .

٤ ـ وحديث : « خير من أترك بعدى : على بن أبى طالب » وهو مروى عن سلمان .

٥ ــ وحديث : « على خير البشر ، فمن أبى فقد كفر » وهو مروى عن ابن مسعود .

٦ ــ وحديث : « أفضل أمتى على بن أبى طالب » وهو مروى عن أبى سعيد الخدرى .

كما وجدوا الراوندية التى تعصبت للعباس وبنيه قد روت فى تفضيله وتفضيل بنيه أحاديث ، منها :

١ ــ حديث : « العباس أسعد الناس يوم القيامة » وهو مروى عن ابن عمر .

٢ ــ وحديث : « أى أهل الارض أكرم على الله ؟ قالوا : أنت ، قال : العباس وأنا ، من سبه فقد سبنى » « ونلاحظ أن هذا الحديث مصاغ على نمط صياغة حديث الغدير » .

٣ ــ وحديث ابن عباس : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فمر العباس ، فقال له : ياعم ، أتبعنى ببنيك ، فجاء ومعه : الفضل ، وقثم ، ومعبد ، وعبد الرحمن ، وأنا معهم . قال : فأدخلهم عليه السلام ، ودخل بيتنا ، وغطانا بشملة سوداء مخططة بحمرة ، وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتى وعترتى فاسترهم من النار » (٢٧) .

ونلاحظ أن هذا الحديث مصاغ على نمط الصياغة والاحداث التى روتها الشيعة فى فضل على وفاطمة والحسن والحسين ، عندما قالوا ان فضلهم تشهد به آية « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٢٨) .. فالاحداث والاهداف واحدة ، مع تغيير العلويين بالعباسيين ! » .

---

(٢٧) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٢٨ ــ ١٣١ .
(٢٨) الاحزاب : ٣٣ .

كما وجدوا أن هناك أحاديث قد رويت فى فضل صحابة . غير هؤلاء الثلاثة . لم يزعم زاعم أنهم قد نص عليهم الرسول فى الامامة ، وأن أحاديث فضلهم هى أدلة فى هذا النص وذلك التعيين ، فهناك مثلا :

١ ـ حديث فى عمر بن الخطاب ، وهو : « خير أهل الله عمر بن الخطاب » .

٢ ـ وحديث فى أبى سفيان ، وهو : « أبو سفيان خير أهلى » .

٣ ـ وحديث فى البراء بن مالك ، وهو : « كم من ذى طمرين (٢٩) . لا يؤبه له . لو أقسم على الله لابره ... البراء بن مالك » .

٤ ـ وحديث فى عبد الله بن مسعود . هو : « رضيت لامتى ما رضى لها ابن أم عبد ، وكرهت لها ماكره » .

٥ ـ وحديث فى أبى عبيدة بن الجراح ، هو : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الامة أبو عبيدة » .

٦ ـ وحديث فى سعد بن معاذ ، هو : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » (٣٠) .

وجد المعتزلة ذلك التناقض والتعارض الظاهر فى الفضائل والمناقب . التى هى الدليل السمعى الذى لابد منه للقطع على الفضل والتفضيل . كما وجدوها جميعا احاديث آحاد .. فرفضوا الاعتماد على هذا التناقض والمتعارض منها ، وقالوا : انه « اذا كانت الاحاديث فى

---

(٢٩) الطمر : هو الثوب الخلق .

(٣٠) (العثمانية) ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

اسلافنا وائمتنا ، على ماحكيت لك ، لا تمنع من معرفة وتدافع ماوصل الينا منه ، كان واجبا أن يكون المفزع في امرهم الى الخبر الذى يجىء مجىء الحجة ، وترك ما سوى ذلك مما لا يبرىء من سقم ولا يبرد من حيرة » .. ذلك أن الاخبار التى تجىء مجىء الحجة لا تتناقض تناقض اخبار الآحاد ، ويضرب الجاحظ المثل فيقول : « .. وانما الخبر الصحيح .. كنحو ما رويناه من مآثرهم في مقاماتهم ومشاهدهم ، وكصنيع على ومؤازرته ببدر ، وككون أبى بكر فى العريش ، وهذا مالا يتدافع ولا يتناقض، لان قتل على الاقران ببدر ليس بناقض لكون أبى بكر فى العريش ، ولان موقف على بأحد لا يدفع كون أبى بكر فى الغار ، ولان صنيع على بخيبر لا يدفع انفاق أبى بكر الاموال وعتقه الرقاب .. » (٣١) .

أما اذا لم نسلك هذا السبيل ، ونضرب صفحا عن احاديث الآحاد المتعارضة تلك فان التناقض واقع لامحالة والجاحظ يتساءل قائلا : « فان كان مارويتم فى فضيلة على حقا ، وما رووا فى فضيلة أبى بكر حقا ، فأبو بكر خير من على ، وعلى خير من أبى بكر ، وهذا هو التناقض ، والحق لا يتناقض » (٣٢) .

ويرفض القاضي عبد الجبار أن تكون كثرة الاحاديث مرجحا للصدق ومرشحا له فيقول « ... فلم صار بأن يجعل الافضل بعد رسول الله أبو بكر . لتلك الاخبار ، أولى من العباس ، لهذه الاخبار ؟! لانه لا يمكن أن يجعل

(٣١) المصدر السابق . ص ١٤٣ .
(٣٢) المصدر السابق . ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

كثرة الاخبار مرجحا .. فيجب أن نطرح التعلق بذلك ، ونعتمد على مايصح فى النقل .. »(٣٣) .

وأخيرا يفسر الجاحظ تناقض هذه الاحاديث بارجاع ذلك الى أحد احتمالين :

أولهما : أن يكون سبب ذلك هو الوضع والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، لانه يستحيل عليه أن يقول بالامر ونقيضه ، كأن « يكون النبى قد قال أحد القولين ، وصحت به الشهادة ، ولم يقل الآخر ، وانما ولدته الرجال ، وصنعته حملة السير » وهنا لا نستطيع كشف الموضوع من الصحيح ، لان اسنادها جميعا متساو وعند الرجال متقارب ، وليس فى واحد من هذه الاحاديث حديث « يضطر خصمه الى معرفة صحته » .

وثانيهما : أن يكون الرسول قد تكلم بكل هذه الاحاديث ، ولكن فى ظروف وملابسات خاصة ، جعلتها مفهومة لسامعيها ، ثم حدث ونقلت ألفاظها مجردة عن المناسبات والظروف والملابسات .. فهو عندما تحدث بها « كان قصده فيها معروفا عند من كان بحضرته ، حتى كان الجميع يعرفون خاصه من عامه ، ولكن الناقلين احتملوها عن السلف مجردة بغير تأويل معانيها ، فأدوها على اللفظ العام ، فصار السامع يتناقض عنده اذا قابل بعضها ببعض ، لجهله بأصول مخارجها وكيف كان موقعها » (٣٤) .

وفى كلا الحالتين فلا يصح أن نستخرج من هذه

(٣٣) (المغنى)ج ٢٠ ق ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .
(٣٤) (العثمانية) ص ١٣٨ .

الاحاديث ما استخرجته منها أطراف النزاع فى الفضل والتفضيل .

كما ينبه ابن أبى الحديد الى أثر الصراع على الامامة ، فكرا وعملا ، فى وضع أحاديث الفضل والمناقب ، وأحاديث المثالب كذلك ، ويتحدث عن دور الشيعة فى ريادة ذلك الميدان ، ودور البكرية ، كما ينقل عن الاسكافى صنيع معاوية ومن أعانه فى وضع أحاديث المثالب فى على بن أبى طالب .. (٣٥) .

يقول ابن أبى الحديد : « اعلم أن أصل الاكاذيب فى احاديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فانهم وضعوا فى مبدأ الامر أحاديث مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ... فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث فى مقابلة هذه الاحاديث .. فلما رأت الشيعة ماقد وضعت البكرية اوسعوا فى وضع الاحاديث .. فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة فى على وفى ولديه .. ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل على الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصبية لهما ، فان العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل الى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن الى تعديد المساوىء والمقابح ! » (٣٦) .

هذا هو موقف المعتزلة من تلك الادلة السمعية التى روتها الفرق فى تفضيل من تعصبت له كل منها ، عرضناه ،

(٣٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ٤ ص ٦٣ و ٦٤ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٣ .
(٣٦) المصدر السابق . جـ ١١ ص ٤٨ ـ ٥٠ .

أساسا ، من خلال فكر واحد ممن يفضلون أبا بكر — هو الجاحظ — وآخر ممن يفضلون على بن أبى طالب — هو ابن أبى الحديد — فكان لقاؤهما الموضوعى واتفاقهما المبدئى على هذا الموقف السليم .

***

اما امامة المفضول مع وجود الافضل ، فلقد اتفق عليها المعتزلة ، من ناحية المبدأ ، ثم اختلفوا فيها الى فريقين :

١ — فالجاحظ والنظام قد قالوا : لابد من العقد للأفضل ، ولا تجوز امامة المفضول مع وجود الافضل الا لعلة تجعل تقديم المفضول اولى ، كأن يكون أكثر فهما للسياسة ، أو أكثر علما بالشريعة ، أو أكثر تأليفا لقلوب الناس ، أو أكثر دراية بأمر الحرب فى وقت تتهدد الامة مخاطرها .. الخ .. الخ .. (٣٧) .

ولقد وافق هذا الفريق بعض أصحاب الحديث ، ومنهم أبو يعلى الذى يقول : « ولا تجوز امامة المفضول ونصبته الا أن يكون عارضايمنع من نصبة الفاضل ، مثل أن يخاف الفتنة الصماء بولاية الفاضل ، ومثل أن لا يكون الفاضل عالما بسياسة ، وأن كان أكثر علما وعبادة. . »(٣٨)

ومعظم الاشعرية يقولون بهذا القول .. ومنهم الجوينى فى « الارشاد » (٣٩) .. والباقلانى فى « التمهيد » .(٤٠)

ولقد غلط ابن حزم فى فهم هذا المذهب ، فنسب الى

---

(٣٧)(الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٨

(٣٨) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٨ .

(٣٩) كتاب الارشاد) ص ٤٣٠ .

(٤٠) (التمهيد) ص ١٨٤ .

أصحابه أنهم يمنعون امامة المفضول مع وجود الافضل على الاطلاق (٤١) وكذلك فعل أبو يعلى .. والبغدادى .. (٤٢) .

٢ ـ أما الفريق الثانى من المعتزلة فانه يجيز امامة المفضول مع وجود الافضل .. واذا لم تكن هناك علة لتقديم المفضول على الافضل فالاولى العقد للأفضل ؛ لكن جواز عقدها للمفضول قائم . أما اذا قامت علة لتقديم المفضول على الافضل فان تقديم المفضول يتعدى مرتبة الجواز ويصير هو الاولى وهم قد قاسوا الامر على الامراء والحكام والقضاة ، فجائز تولية المفضول منهم مع وجود الافضل دونما علة تدعو لتقديم المفضول على الافضل . (٤٣) ولقد كان المعروف من حال الرسول عليه الصلاة والسلام تولية الامراء المفضولين مع وجود الافضل منهم دون ظهور علة تمنع من تولية الافضل .. فاستعمل على اليمين : معاذ بن جبل . وأبا موسى الاشعرى ، وخالد ابن الوليد ، وعلى عمان : عمرو ابن العاص ، وعلى نجران : أبا سفيان ، وعلى مكة : عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف : عثمان بن أبى العاص ، وعلى البحرين : العلاء ابن الحضرمى .. مع وجود أبى بكر وعثمان وعلى وغيرهم ممن هم أفضل بلا خلاف .. (٤٤) .

ومعنى مذهب المعتزلة فى جواز امامة المفضول أن العبرة

---

(٤١)(الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٦٣ و ١١٠ .

(٤٢) (كتاب الامامة) لابى يعلى . ص ٢١٩ . و (أصول الدين) للبغدادى ص ٢٩٣ .

(٤٣) (الاحكام السلطانية) للماوردى . ص ٨ .

(٤٤) (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) جـ ٤ ص ١٦٥ .

دائما هي بمصلحة المنصب وما تقتضيه الامور المفوضة الى الامام ، دون الوقوف عند ما يكون لذات الامام من امتياز في الفضل الديني على غيره من الناس أو رصيد من الثواب عند الله سبحانه وتعالى .. لان كون الامام أفضل أهل عصره ليس شرطا عندهم ولا صفة لابد من توافرها فيه ، وانما هو أمر مرجح فقط في تقديمه . فاذا وجد في المفضول دينيا وثوابا وصلاحا ، بالمعنى الديني ، « ماهو أرجح وأقوى كان بالتقليد أولى » .. بل ان هذا الفضل انما يطلب في الامام « لامر يرجع الى المصلحة ، فاذاحصل في المفضول مايزيد في هذا الغرض عن فضل الافضل وجب تقديمه .. » (٤٥) لان القاعدة التي عليها مدار هذا الامر هي « أن ماكان أدخل في المصلحة في باب الامامة فهو أولى بالاجماع » كما يقول أبو علي الجبائي .. (٤٦) .

أما الحالات التي تعرض فتجعل تقديم المفضول على الافضل أولى ، فهي كثيرة ، منها مثلا :

١ ـ أن يفتقر الافضل الى بعض الصفات التي لابد للامام منها ، مثل العلم بالسياسة مثلا ، مع تقدمه في الفضل والعبادة ، فعند ذلك يكون المفضول في الدين والعبادة ، المتقدم في العلم بالسياسة ، أولى بأن يتقدم لتولي الامامة من الافضل في الدين والعبادة .

٢ ـ أن يكون الافضل في الدين ممن لا يطيق اجراء الاحكام وتنفيذ الحدود والنهوض بأمر الحرب والقتال ،

---

(٤٥) (المغني) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٢٩ .
(٤٦) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٢٧ .

لضعف قلبه وافتقاده رباطة الجاش والقدرة على مثـــل هذه الامور ، فيكون الاولى تقديم المفضول دينيا وعبادة عليه اذا كان متقدما فى التحلى بهذه الصفات .

٣ ـ أن يكون المفضول ، مع فضله المحدود ، مشهورا بالفضل بين الناس ، عن الافضل الذى يخفى فضله على جمهور الناس ، فيكون الاولى تقديم المفضول المشــــهور بالفضل ، لان شهرته بالفضل ، مع قلته . تجعل النفوس مطمئنة اليه ملتفة حوله . أكثر مما يكون أمرها مع من هو افضل منه لكن فضله أو اتصافه بالفضل غير شــــائع ولا ذائع بين الناس .. « وذلك لان الفضل المطلوب فى الامامة انما يراد لما يعود على الكافة من المصلحة ، فاذا كان ذلك خفيا فى الافضل ، ظاهرا فى المفضول ، صار كأنه الافضل فيمـــا يختص بالجميع ، فلذلك صـــــار بالتقـدبم أحق .. » .

٤ ـ أن يكون سكون الناس وانقيادهم للمفضول أكثر، واستنامتهم اليه اتم ، وشكواهم اليه أعظم ، على حين يكون حالهم مع الافضل غير ذلك او دون ذلك .. فيــكون المفضول أولى بالتقديم .. لان فى ذلك من اجتماع كلمة الامة وارتفاع الخلاف والشقاق من صفوفها وزوال الظلم وظهور العدل ما لا يتحقق مع امامة الافضل الذى لا يحقق للأمة ذلك .

وعلى مثل هذه الحالات يقاس ماشابهها .

وبرغم أن المعتزلة لا يقيسون الامامة على النبوة ، ولا الامام على النبى ، لكن لما كان خلافهم الجوهرى فى الامامة دائما وابدا مع الشيعة القائلين بالنص ، وكانت امامــة المفضول موطنا من مواطن ذلك الخلاف ، قاسوا على النبوة

والنبى ، وقالوا ، بجواز أن يكون النبى مفضـــولا قبل البعثة ، فليس هناك ما يدل على وجوب كونه أفضـــل الناس ، قبل البعثة ، وجائز أن يبعث الله نبيا فى قومه من هو أفضل منه .. وقالوا : « أن المفضول يجوز أن يبعث نبيا ، عندنا ، لكنه بعد البعثة يصير أفضـــل من غيره .. فقبل البعثة لا يجب أن يكون أفضل من سائر من لم يبعث ، بل يجوز أن يساويه غيره ، ويزيد عليـــه . وان كان متى بعث رسولا وجب أن يصير أفضل . لمـــا يحصل منه من التكفل والعزيمة ، وتوطين النفس عـلى الصبر وتحمل المشقة فيما يحول دون أداء الرســالة .. وذلك لانه لا دليل يقتضى انه يجب أن يكون أفضل قبل البعثة .. » .. (٤٧) .

فاذا كان ذلك هو شأن من يبعث رسولا ، في جواز أن يكون مفضولا ، ومع ذلك يبعثه الله رسولا ، فمن بـــاب أولى الامام ، أن يكون مفضولا ، ومع ذلك يقدمه الناس، ويقلدونه الامامة بدلا من الافضل لامر يدعـــو الى هذا التقديم .

بل لقد ذهب المعتزلة الى ان العقل يجوز أن يـــكون الرسول مفضولا حتى بعد بعثته ، وأن تكون فى قومه من من يساويه فضلا .. يجوز العقل ذلك ، ولكن الســمع هو الذى يمنع جوازه ، فقالوا : « اننا نرجع الى السمع فى انه نكون أفضل بعد أن يصير رسولا ، ولولا السمع كنا نجوز أن لا يكون هو الافضل ، وأن يكون فى أمتـــه من يساويه فى ذلك ، فيجب أن يكون هذا حال الامام من جهة

---

(٤٧) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٤٦ و ٢٨٠ .

العقل ايضا .. » (٤٨) .

ومما يجب الالتفات اليه والتنبيه عليه أن اجازة المعتزلة لامامة المفضول لم تكن ، كما كانت عند آخرين ، ضربا من التهاون فى شروط الامامة ، ومسايرة لسلطات المتغلبين الذين استولوا على السلطة واغتصبوا السلطان دون ان يتحلوا بالفضل المطلوب لهذا المنصب العظيم .. لان المعتزلة لم يتنازلوا عن شرط من شروط الامامة ولا صفة من صفات الامام ، ثم هم قد اجتمعت كلمتهم على ضرورة الثورة والخروج لازالة سلطة المتغلبين ــ كما سيأتى الحديث عنه فى الفصل القادم ــ وانما كان قولهم بجواز امامة المفضول سعيا الى تحقيق الغرض الاصلى المبتغى من وراء نصب الامام ، واتساقا مع نفيهم الطابع الدينى الذى اضفته الشيعة على هذا المنصب وصاحبه ، فلما كان الامام ينصب لمصالح الدنيا وتنفيذ الحدود والأحكام كان الاولى هو تقديم من يحقق ذلك ويتحقق على يديه أكثر من غيره .. فلم تكن أجازة امامة المفضول هى المدخل للتهاون فى شروط الامامة وتبرير تسلط المتغلبين ، وانما كان المدخل لها هو تجويز امامة الفاسق ، وتحريم السيف والخروج على أئمة الجور ، وهو ماقال به نفر من أصحاب الحديث .. فلم يكن معيار التصدى للمتغلبين هو الموقف من امامة المفضول ، بدليل أن المعتزلة والزيدية والخوارج وهم فى مقدمة من أوجب الخروج على ائمة الجور قد اجازوا امامة المفضول ، بينما الشيعة الامامية الذين انكروا تجريد السيف الا اذا ظهر الغائب المنتظر قد

(٤٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٠٩ .

رفضوا جواز امامة المفضول ، لان العقل ، عندهم ، وان اجاز تقدم واحد فى الدين دون السياسة وآخر فى السياسة دون الدين ، الا أن السمع عندهم أيضا ، منع من ذلك ، وحكم بأن الامام واحد فى الكل وفى جميع الاشياء .. (٤٩) .

وبدليل أن الاشعرى ، وهو من القائلين باقتداء الناس بالامام ، برا كان أو فاجرا ، وبعدم الخروج عليه بالسيف . (٥٠) يرى فى ذات الوقت وجوب « أن يكون الامام أفضل أهل زمانه فى شروط الامامة ، ولا تنعقد الامامة لاحد مع وجود من هو أفضل منه فيها ، فان عقدها قوم للمفضول كان المعقود له من الملوك دون الائمة ! .. » (٥١) .

فليس هناك ارتباط بين التمسك بوجوب عقد الامامة للأفضل وبين رفض سلطة المتغلب ، ولا بين تجويز امامة المفضول وتبرير العقد لمن افتقد شروط الامامة من المتغلبين .. وانما الارتباط قائم بين قول من قال بالطبيعة الدينية لمنصب الامامة وصاحبه ، فقال ، لذلك ، بوجوب عقدها للأفضل دينيا .. وبين قول من قال بأن الامامة منصب يفوض لصاحبه التصرف فى مصالح الدنيا ، فقال ، لذلك : بجواز تقليدها للمفضول دينيا اذا كان أفضل فى علوم السياسة وشئون الحكم ، وأكثر دراية بمصالح الناس ، وقدرة على تصريف الامور .

---

(٤٩) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٢٤٠ .
(٥٠) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٣٤٨ .
(٥١) (أصول الدين) للبغدادى . ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث :

طبيعة السلطة

نقصد بهذا المبحث ، مبحث طبيعة السلطة ، ان نصل الى الحقيقة فى ذلك الجدل والخلاف الذى دار ويدور عند الاجابة على هذا السؤال : هل أوصى الاسلام بأن تكون السلطة على المسلمين دينية ، أم مدنية ؟ أم أنه لم يحدد موقفا ولم يوص بطبيعة محددة للسلطة ، لانه لم يعرض أصلا لهذا الموضوع ؟؟..

وبمعنى آخر وتحديد أدق : هل سلطة الدولة ، كما ارادها الاسلام الهية ، يحكم فيها الحاكم « بالحق الالهى » ، على نحو ما اشتهر فى أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى ؟ أم أن الاسلام ينكر أن يكون لسلطة الدولة تلك الطبيعة الدينية ؟ أم أنه قد صمت عن التوصية بشىء والتحبيذ لشىء فى هذا الموضوع ؟؟..

وبصياغة أخرى : هل الحاكم ، كما يراه الاسلام ، يجمع بين السلطتين : الدينية ، والزمنية ؟ أم ان الفصل أو التمييز بينهما هو موقف الاسلام ؟؟..

أن الاختلاف فى الموقف من هذه القضية قديم وشهير ، ولا أدل على استمراره وشدة الغموض الذى يكتنف هذا المبحث من أن الخلاف فى الاجابة على هذا السؤال قد

انتقل من تناقض الآراء بين الباحثين المتعددين الى التناقض فى الآراء التى يبديها الباحث الواحد نفسه فى اجابته على هذا السؤال ؟! . وسنضرب مثلين ، الاول بمستشرق استاذ والثانى بعربى أستاذ كذلك .

عندما يعرض المستشرق « دافيـــد دى سانتيلا » David de Santilla « ١٨٤٥ – ١٩٣١ م » لهـــذه القضية نجده يقول : ان « الاسلام هو دولة الله المباشرة ، هو حكم الله الذى يرعى شعبه بعينه ويكلؤه بحسن تدبيره ان اساس الوحدة الاجتماعية ، المسمى فى المجتمعـــات الاخرى « بولس » Polis و « كيفتاس » Civitas « اى الحكومة » ، يمثله « الله » عند الاسلام ، فالله هو الاسم الذى يطلق على السلطة العاملة فى حقل المصـــلحة العامة . وعلى هذا المنوال يكون بيت المال ، « هو : بيت مال الله » ، والجند : « هم جند الله » ، حتى الموظفون العموميون ، « هم : عمال الله » . ان الله ، فى الشرع الاسلامى يقوم مقام سلطة المدينة Civitas ، وهو المبدأ الرومانى القديم . . . فالله وحده يقيم الامراء ، والله وحده يجردهم من الامارة والسلطان (١) .

ومعنى هذا ان للاسلام ، كدين ، دولة ، وان هـــذه الدولة دينية ، الهية ، وان الامراء فيها يتحدثون ويحكمون باسم الله ونيابة عنه ، فسلطانهم سلطانه ، وكلمتهم قانونه ، لانه هو الذى يولهم ويعزلهم ، وكذلك كـــل مؤسسات الدولة ، حربية كانت أم مالية ، أم ادارية . . هى الآن دولة دينية تجتمع فيها السلطتان : الدينيـــة

(١) (القانون المجتمع) ص ٤٠٩ و ٤١٦ و ٤٢٠ .

والزمنية فى هؤلاء الامراء المعينين من قبل الله سبحانه وتعالى .. ومن ثم فليس للبشر المسلمين ، رعايا هذه الدولة ، شأن يذكر او رأى حاسم فى الشئون الاساسية للحكم والحكومة ..

ولكن الاستاذ المستشرق يعود ليناقض نفسه ، وينقض رايه ، فى ذات المرجع الذى كتب فيه ذلك التقييم لدولة الاسلام ، فيقول : ان « خلفاء الرسول ماهم بوارثى رسالته الروحية .. لقد أبى أبو بكر قبول لقب « خليفة الله » ، واكتفى باسم « خليفة رسول الله » ، ثم درج لقب « أمير المؤمنين » زمن عمر بن الخطاب ، فحدد بوضوح صفة ممثل السلطة العليا الذى هو فى الحقيقة ليس عاهلا « ملكا » ، بل هو « أمير » نظرا الى المدلول الاصلى للعبارة الرومانية « رئيس الاقران » Primus inter Pares .. والحقيقة هى أن سلطة الخليفة - كرئيس دينى - لا يمكن أن تعتبر سلطة حبرية أو بابوية مثلا ، فهو متجرد تماما من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية ، ولم يوجد فيها تعاقب رسولى ، والامام فى سلطانه الدنيوى ليس سيدا « ربا » ... فالامير هو « وكيل » جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل : ان الامير يجب أن يضع نصب عينه مصلحة المجموع . فلهذه الغاية « أمر الامراء على الناس » . وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابا صحيحا على ما أنجزه لموكله وسيده ، كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله .. » (٢) .

---

(٢) المصدر السابق . ص ٤٢٤ و ٤٢٥ .

وهكذا يقرر مدنية السلطة والدولة ، فالامام ليس خليفة الله ، بل هو « أمير » ، أى رئيس للأقران والانداد، مساو لهم فى العلاقة بالله ، وهو وكيل عن الجماعة المسلمة وليس وكيلا عن الله فى الحكم والسلطان ، ومن ثم فهـو مسئول أمام الجماعة عن شئون الحكم أولا وقبـــل كل شىء .

ولو كان الاستاذ « سانتيلا » يقصد بعبارته الاولى تقييم الدولة الاسلامية على عهد الرسول ، الذى جمع السلطتين : الدينية ، لانه الرسول المبلغ عن السماء للدين وامور الغيب ، والمدنية ، لانه مؤسس الدولة ورئيسها ، ويقصد بعبارته الثـانية الدولة الاسلامية بعد الرسول ، وعندما أصبح الامر أمر حكم مدنى لا يتلقى صاحبه شيئا عن السماء ، وعندما تقرر أن الاختصاص الدينى للرسول لم ولن ينتقل الى أى من البشر ، حاكما كان أو محكوما .. لو كان حديث الاستاذ « سانتيلا » عن عهدين من عهـود الدولة الاسلامية لاستقام وسلم من التناقض .. وأيضـا فلو كان حديثه الاول عن رأى الشيعة ، أصـحاب النص والوصية ، فى طبيعة سلطة الامام ودولته ، وحديثـه الثانى عن رأى القائلين بالاختيار والبيعة والعقد فى طبيعة سلطة الامير ودولته ، لما كان هناك تناقض .. ولـكن الواضح والجلى أن حديثه لم يكن عن عهدين ، ولا عن مذهبين ، ولذلك كان الحكم بتناقضـه حكما لا ريب فيه .

اما المثل الآخر للتناقض فى تقييم طبيعة السـلطة فى الدولة الاسلامية فنجده عند الاستاذ الدكتور محمـد ضياء الدين الريس ، فهو يقول عن نظام الحـكم فى

الاسلام : « ... لم يضع الاسلام قيودا أو حواجز فى وجه البحث والتفكير فى هذا المجال .. أن الاسلام فى هذه الناحية قد آثر الصمت .. لقد فوض الامر للأمة فى كل ما يتعلق بنظام الحكم ، أو تعيين خصائصه أو تحديد نواحيه الشكلية ، فالثابت تاريخيا — مهما تكن الدعاوى التى يدعيها أتباع هذا المذهب أو ذاك — انه ليس هناك شىء محدد حول هذه المسائل ، أو نقول : ان الاسلام لم يورث أتباعه قواعد محددة جاهزة تصبح بمثابة المعتقدات الجامدة التى لا تجوز معها المناقشة ولا تقبل التغيير .. لقد كانت هناك حكمة تشريعية كبيرة مقصودة من عدم تحديد هذا الامر : وتلك هى عدم تقييد الجماعة بقوانين جامدة ، فقد تثبت الايام أنها لا تتفق مع التطورات التى تجد ، ولا تلائم الظروف والاحوال ، فان من الصفات الظاهرة التى حرص عليها المشرع أن تظل القوانين الإسلامية مرنة ، حتى تعطى مرونتها الفرصة للعقل للتفكير ، وللجماعة أن تشكل نظمها وأوضاعها بحسب المصالح المتجددة .. » (٣) .

وبينما يجرد هذا النص نظام الحكم فى الاسلام من أى طبيعة دينية موروثة ويقرر أن جميع الامر فى ذلك قد ترك للناس ، وللتطور ، وفوض المسلمون فى بحثه وتقريره وتطويره تفويضا كاملا .. يعود الدكتور الريس فيتحدث عن أن الخلافة هى جزء من الاسلام ، بل هى الاسلام ذاته ، فيقول : « .. وأما الخلافة العادلة الشرعية فهى جزء لا يتجزأ من الاسلام ، بل هى الاسلام ذاته ، فى

(٣) (النظريات السياسية الاسلامية) ص ١٩ و ٢٢ .

صورته العملية ، منفذا ومؤثرا فى حياة الجماعة » ..(٤)

وفى ذلك تناقض ظاهر مع العبارات السابقة ، سواء من حيث الالفاظ او من حيث الروح والمضمون ..

ورغم ظهور هذا التناقض فى تقييم طبيعة السلطه كما رآها الاسلام ، وشيوعه لدى عدد غير قليل من الذين تناولوا هذا المبحث بالدرس والتقييم ، الا أننا لا نجد فيه غرابة تعز على التفسير ، وذلك لعدة أسباب ، أهمها :

اولا : ان نشأة نظرية « الحق الالهى » فى الحضارة المسيحية ، فى العصور الوسطى ، قد اختلفت اختلافا اساسيا عن نشأة هذه النظرية فى الحضارة الاسلامية ؛ بواسطة الشيعة الامامية ، فى النصف الثانى من القرن الاول الهجرى . فلقد كان الوضع فى الحضارة المسيحية هكذا : ملوك واباطرة يستبدون بالسلطة وشئون الحكم من دون الناس . ولتبرير هذا الاستبداد قامت نظرية « الحق الالهى » كى تضفى الطبيعة الدينية على سلطتهم الزمنية ، وتمزج السلطتين معا فى تيجانهم وعروشهم ، ولتنزع من أذهان الناس أى تفكير فى حقهم فى الرقابة والمحاسبة فضلا عن العزل لهؤلاء الحكام أو الثورة عليهم، لانهم ليسوا نوابا عن الامة ولا وكلاء عن العامة ، وانما هم يحكمون « بالحق الالهى » ونيابة عن سلطة السماء ، فسلطانهم سلطانها وقانونهم كلمتها المقدسة .. فالنظرية هنا قد نشأت لتبرر للسلطة ولتقنن للواقع ، ولتخدم المظالم التى سادت فى تلك المجتمعات يومئذ .

اما ظروف نشأة هذه النظرية فى الحضارة الاسلامية

---

(٤) المصدر السابق . ص ١١٤ .

فلقد كانت مختلفة ، بل على النقيض ، اذ كان الوضع هكذا : الدولة الاموية ، ذات العصبية القبلية ، تستبد بالسلطة والسلطان من دون الناس ، وعلى يديها قد تحولت الخلافة الشورية الى ملك عضود ، وهى قد مارست وتمارس الاضطهاد والقهر ضد حركات المعارضة، والشيعة من هذه الحركات على وجه الخصوص .. فأمام افتضاح السلوك غير الشرعى والظالم للخلفاء والولاة، وهو السلوك الذى فجر قضية : هل هم مؤمنون ؟ أم كفرة؟ أم منافقون ؟ أم في منزلة وسط بين الكفر والايمان ؟ امام افلاس السلطة الحاكمة فى ستر فظائعها بستار دينى . وفقدان الثقة فيها عندما تكون مقاييس الشرع هى التى تحكم عوامل الثقة ، ظهرت نظرية « الحق الالهى » عند الشيعة كرفض لسلطة البشر الظالمة ، وتعلق بالمطلب الرامى والداعى الى استبدال هذه السلطة البشرية الظالمة بسلطة السماء العادلة ! ..

فبينما كانت نظرية « الحق الالهى » فى أوربا المسيحية: التبرير للسلطة الظالمة ، كانت عند الشيعة فى الحضارة الاسلامية ، التعبير عن الشوق الى قلب السلطة الظالمة واستبدالها بسلطة العدل الالهى .. كانت الرفض للظلم والحلم بسلطان ذلك الامام الذى اختاره الله على عينه . والذى وهبه العلم الواسع غير المحدود ، والذى هو ــ كالرسل والانبياء ــ معصوم ، لا يخطىء ، ولا ينطق عن الهوى ، والذى سيملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا .. !

فرغم اتفاق الشيعة الامامية ، فكريا ، مع كهنوت الكنيسة الكاثوليكية ، فى نظرية « الحق الالهى » ، الا أن

المنطلق كان مختلفا ، بل ومتناقضا ، والغاية كانت عند كل منهما على النقيض منها عند الاخرى ..

ثانيا : ان هذه الملابسات الثورية التي احاطت بنشأة نظرية « الحق الالهى » فى الاسلام — اذا جاز التعبير — قد جعلت لها بريقا يخطف الابصار ، حتى أبصار بعض الذين وقفوا ضد الشيعة القائلين بها .. ففى الموقف من هذه النظرية فى الحضارة الاوروبية كانت المواقف محددة والفرقاء متمايزون فكريا كل التمايز واوضحه . الكنيسة الكاثوليكية مع « الحق الالهى » للأباطرة والملوك ، وخصومها وخصوم الملوك ضد وحدة السلطتين : الدينية والزمنية ، ومع الفصل بينهما .. أما فى الواقع الاسلامى، فان العداء « للحق الالهى » لم يكن دائما عداء للسلطة المستبدة باسم « الحق الالهى » .. فالذين كانوا يعارضون بنى أمية — كالمعتزلة والخوارج مثلا — كانوا يعارضون الشيعة فى نظرية .. الحق الالهى » ، فهم كانوا يعارضون المعارضة كذلك ؟ فهم معها . وفى ذات الوقت ضدها .. يتفقون معها فى أشياء ويختلفون معها أساسا فى « الحق الالهى » الذى سمته الوصية والنص ، ومن هنا اختلطت بعض الافكار ، ودخلت أفكار شيعية عدة فى مباحث الامامة عند خصوم الشيعة .. ومن ثم لم تتمايز المواقف ولم تتحدد على نحو ما كان الحال عليه فى الفكر الاوربى بصدد هذا الموضوع ..

ويتضح ذلك اذا نحن ضربنا بعض الامثلة :

فالشيعة ، تعبيرا عن نظرية « الحق الالهى » تقول : ان الامامة من أركان الدين ، وأنها تتفق مع النبوة فى الطبيعة والمهام ، وان الامام قائم مقام النبى ، فالنبى كان

مبلغا ، والامام هو الحافظ والحجة والمصدر الاول ، بل الوحيد للشرع والدين .. واهل السنة ينكرون كل ذلك ، ومع هذا فلقد تسرب فكر الشيعة هذا الي تعريف الامامة عند أهل السنة .

فمنهم من يقول : ان الامامة « رياسة عامة فى امور الدين والدنيا » فيسوى بينها وبين النبوة .. ومنهم من يقول : انها « خلافة الرسول فى اقامة الدين وحفظ حوزة الملة » .. (٥) ويتوهم أنه يختلف مع التعريف الاول ، على حين أنه يستمر فى اعطاء الامام اختصاصات النبى والرسول .

ومنهم من ينكر احتجاج الشيعة للنص بأن « الامامة نيابة الله تعالى والرسول » فيسلم بأنها « نيابة الله ورسوله » ولكنهما نصبا الامام بواسطة الاختيار . « فالبيعة ليست مثبتة للامامة ، بل هى علامة مظهرة لها ! » أما المثبت لها فصاحب الحق الذى يحكم الامام نيابة عنه ، أى الله ورسوله . (٦) .

ومنهم من ينكر قول الشيعة أن الامامة من اركان الدين وأصوله ، ثم نراه يعدها فى « اصول أركان الدين» التى يصل بها الى خمسة عشر ركنا . (٧)

وحتى ابن خلدون الذى يعارض فكر الشيعة فى الامامة وينتقد الكثير من مواقفها وتاريخها ، ترى فكر الشيعة يتسرب الى تعريفه للامامة فيقول انها « نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا . » (٨)

---

(٥) (شرح المواقف) للجرجانى . مجلد ٣ ص ٢٦١ و ٢٦٢ .
(٦) المصدر السابق . المجلد ٣ ص ٢٢٦ .
(٧) البغدادى (الفرق بين الفرق) ص ٣٠٩ و ٣١٠ .
(٨) (المقدمة) ص ١٧٣ .

اذن .. فالتناقض فى تقييم طبيعة السلطة فى الاسلام، ليس سمة من سمات الفكر الحديث وحده ، بل هو أمر قديم ، نشأ من اختلاط المواقف وتشابكها بين الشيعة وبين فرق المعارضة الاخرى ، التى شاركت الشيعة العداء لبنى أمية ، واختلفت معها فى نظرية « الحق الالهى » ، ومن ملابسات تلك النشأة لهذه النظرية ، حيث لم تكن تبريرا للسلطة الجائرة ، بل رفضا لها وجهدا مبذولا فى سبيل الانقضاض عليها وازاحتها .

ثالثا : ان عددا من المفكرين الذين لم يقفوا ، ولم تقف فرقهم ، فى صفوف المعارضة ، كالمرجئة مثلا ، وهم الذين رفضوا فكر الشيعة ، ولم تختلط مواقعهم مع مواقع الشيعة ، قد تسربت بعض أفكار نظرية « الحق الالهى » الى مباحثهم فى الامامة ، لان الامويين أنفسهم كانوا ينحون هذا المنحى فى التفكير ، فهم كانوا يعارضون « الحق الالهى » اذا كان للامام الشيعى ، ويؤيدونه اذا كان للخليفة الاموى .. بل ان جذور هذه النظرية فى الفكر الاسلامى قد نشأت نشأة اموية ، وقبل أن تتكون للشيعة فرقة وتتبلور لها نظرية فى هذا الموضوع .

فعثمان بن عفان هو الذى تحدث عن الخلافة باعتبارها « قميصا قمصه الله له » ورفض حق الامة فى طلب عزله وخلعه (٩) .. وهو الذى أثر عنه التلقب بلقب « خليفة الله » ، حتى ذكره فى رثائه حسان بن ثابت .. (١٠) ثم سلك الامويون ذلك السبيل ، فقال معاوية : « الارض لله .. وأنا خليفة الله ، فما أخذت فلى ، وما تركته

---

(٩) (الامامة والسياسة) ج ١ ص ٣٣ و ٣٧

(١٠) أرنولد (الخلافة) ص ٢٦ .

للناس فبالفضل منى ! (١١) كما يقول واليه على العراق زياد بن أبيه فى خطبته « البتراء » « أيها الناس ، انا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا .. » (١٢)

ويأتى العباسيون فيسلكون نفس الطريق ، ويسمى المنصور نفسه « سلطان الله على الارض » (١٣) . فتتفق الشيعة العلوية ، مع معاوية الاموى ، مع المنصور العباسى على : « الحق الالهى » ، ثم يتنازعون لمن هذا الحق : أهو لمن غلب ؟ كما صنع الامويون والعباسيون ؟ أم هو لمن زعموا له النص من الله ورسوله ؟ كما تقول الشيعة ؟

ولذلك اختلطت بعض الآراء والمواقف الفكرية حول طبيعة السلطة وتسربت أفكار عن « الحق الالهى » لمن وقفوا عمليا وأساسا ضد هذه النظرية عندما انحازوا الى صف القول بالاختيار والبيعة والعقد كطريق لتنصيب الامام .. ولقد ساعد على ذلك كله طبيعة العصر الذى نشأت فيه هذه الافكار .. فلقد كان القول الفصل هو للسلطة الحاكمة التى أرادت أن تجد لها فى الدين سندا

(١١) (الفتنة الكبرى) جـ ٢ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(١٢) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٢١٥ .

(١٣) (الخلافة) لارنولد . ص ٢٧ . (ولقد خطب المنصور الناس بمكة فقال : (أيها الناس ، انما انا سلطان الله فى أرضه .. وحارسه على ماله .. فقد جعلنى الله عليه قفلا ان شاء الله أن يفتحنى فتحنى لاعطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء أن يقفلنى عليها اقفلنى .. !) أنظر : (الاسلام واصول الحكم) لعلى عبد الرازق . دراسة وتقديم محمد عمارة . (هامش) ص ١١٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م (والنص منقول عن (العقد الفريد) لابن عبد ربه جـ ٢ ص ١٧٩) .

يسند السلطة ويبرر مظالمها ويقدس أشخاصها ، ولم تكن جماهير الناس فى المركز الذى يتيح لها المعارضة المستمرة والقوية والمنظمة ـ فكريا وعمليا ـ لذلك الجبروت والسلطان .. فشاعت الافكار التى تخدم أصحاب السلطة حتى عند الذين وقفوا منها موقف المعارضة والرفض والتنديد ..

رابعا : ان من اسباب وجود التناقض فى تقييم طبيعة السلطة فى الاسلام ، هو تناولها على ذات النمط الذى تناولها به الباحثون الذين بحثوا هذا الامر فى الحضارة المسيحية الاوربية ، عندما وضعت المسألة هكذا : هل السلطتان ، الدينية والزمنية ، متحدتان أم منفصلتان ؟ وهل انت مع فصل الدين عن الدولة ؟ أم مع دمجهما ومزجهما ؟؟..

وفى رأيى أن وضع القضية على هذا النحو هو وضع يجافى المنهج العلمى فى البحث والتفكير ، فاذا كان الأسلام ، كما أراه وكما رآه كل الذين قالوا باختيار الناس لامامهم ، لا يقر السلطة الدينية ، ولا يجعل سلطة الحاكم ذات طبيعة دينية ، فانه كذلك لا يرى « الفصل » بين الدين والدنيا ، لانه ـ باعتراف الجميع ـ قد تناول عددا من الاحكام وأشار الى كثير من أمور الدنيا فاتخذ لنفسه فيها موقفا ، وقرر للحياة الاجتماعية عددا من القواعد الكلية ، ثم طلب من الناس أن يعيشوا ويتحركوا وأن يطوروا حياتهم ومجتمعاتهم فى اطار هذه القواعد الكلية والوصايا الالهية العامة ، التى هى أشبه ما تكون بالمثل العليا التى حددها الله للناس كى لا يضلوا عنها

ولا يتنكبوا الطريق الموصل الى تحقيقها او الاقتراب منها على أقل تقدير .

ثم ان « الفصل » بين الدين والدولة ، هو فى حد ذاته أمر غير متصور ولا قابل للتحقيق ، لان الدين وضع الهى يتحقق فى فكر الانسان وسلوكه ، مثله فى ذلك - مع فروق فى التشبيه - مثل معتقدات اخرى ، ومذاهب متعددة يذهب لها الانسان : فى الفن ، والادب ، والسياسة وغيرها من الابنية الفكرية التى يكون مجموعها معتقد الانسان وفكره ، وبها يتحدد سلوكه وينطبع .. وكما تتعايش فى هذه الانماط الفكرية والاعتقادية وتتجاور وتتماس فى الانسان الواحد ، وان كانت متميزة كل منها عن الاخرى ، كذلك الحال فى المجتمع والدولة ، اذ هما حصيلة وضع الافراد ، ففى المجتمع والدولة تلتقى وتتعايش وتتماس أنماط فكرية واعتقادية كثيرة : الدين والفلسفة ، والادب ، والفن ، وماهو دينى الطابع وما هو دنيوى المنشأ والصبغة ، كل ذلك يلتقى ، ولكنه يتمايز أيضا .. ومن هنا فان الصياغة التى نفضل استخدامها ، والتى نراها التعبير الادق عن موقف الاسلام من هذه القضية ، هى أن نقول : ان الاسلام ينكر أن تكون طبيعة السلطة الحاكمة دينية ، أى ينكر « وحدة » السلطتين : الدينية والزمنية ، ولكنه لا « يفصل » بينهما ، وانما هو « يميز » بينهما . فالتمييز - لا الفصل - بين الدين والدولة هو موقف الاسلام .

ونحن مع قول الامام محمد عبده : « اصل من اصول الاسلام - وما أجله من اصل - قلب السلطة الدينية

والاتيان عليها من أساسها . هدم الاسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله إسم ولا رسم .. ان الرسول كان مبلغا ومذكرا ، لا مهيمنا ولا مسيطرا .. فالمسلمون يتناصحون ، ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير — وهم المراقبون عليها — ... وتلك الامة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار .. فليس فى الاسلام مايسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ... ان الاسلام لم يجعل للخليفة ولا للقاضى ولا للمفتى ولا لشيخ الاسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام . وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية » (١٤) .

ونحن أيضا مع القول « بالتميز » بين السلطتين ، بمعنى الوقوف ضد استبعاد الدين ونفيه من نطاق العوامل المؤثرة فى المجتمع ، وفى نفس الوقت الوقوف ضد محاولة صبغ الحكم بالصبغة الدينية ، لان ذلك الامر غريب على الاسلام ، اذ كيف نقول : ان السلطة الاسلامية هى سلطة دينية ، على حين أن الاسلام ذاته — كما يقول الامام محمد عبده — ينكر السلطة الدينية من أساسها ؟!

هذا عن الموقف المتناقض من تقييم طبيعة السلطة ، كما رآها الاسلام ، وأسباب ذلك التناقض ، كما رأيناه أما عن منشأ ذلك الامر فى الاسلام ، اى منشأ القول بالطبيعة الدينية للسلطة ، ومنشأ المعارضة لهذه النظرية، فلقد سبقت اشارات الى ذلك فى هذا البحث ، عندما

(١٤) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٣ ص ٢٨٥ — ٢٨٩ . دراسة وتحقيق د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

ناقشنا جوهر الخلاف بين الذين قالوا بالوصية والنص وبين الذين قالوا باختيار .

ذلك ان الشيعة هم الذين ابتدعوا فى الفكر الاسلامى نظرية « الحق الالهى » .. فالامام معين من الله ، لامختار من الناس ، بل انهم يدعون لعرقه وسلالته امتيازا ليس لاحد من الناس ، فينسبون الى على بن أبى طالب قوله : « اننى واهل بيتى كنا نورا يسعى بين يدى الله تعالى قبل ان يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف سنة ، فلما خلق الله ادم وضع ذلك النور فى صلبه ، واهبطه الى الارض ، ثم حمله فى السفينة فى صلب نوح ، ثم قذف به فى النار فى صلب ابراهيم ، ثم لم يزل الله ينقلنا فى الاصلاب الكريمة الى الارحام الطاهرة من الآباء والامهات ، لم يلق منهم على سفاح قط .. » (١٥) .

ولما كان السفاح ، وغيره من الآثام والمثالب التى تلحق اصول الامام ، هو اقل من الشرك بالله ، ذهب بعض الشيعة الى ايمان ابى طالب قبل موته ، حتى يدعموا فكرة امتياز على بأصوله وأصلابه ، كما امتاز بايمانه وسبقه وجهاده ايضا .

ثم يقولون ــ كما سبق واشرنا ــ ان التعيين والنص كان من الله ، على على ، لا من الرسول ، ويروون ان رجلا سأل ابا جعفر محمد بن على زين العابدين : « حدثنى عن ولاية على ، أمن الله ؟ أو من الرسول ؟؟ فغضب ، ثم قال : ويحك ! كان رسول الله اخوف لله من ان يقول مالم يأمره به الله ، بل افترضه كما افترض الصلاة

(١٥) (الغدير) جـ ١ ص ١٩١ .

والزكاة والصوم والحج .. فرض الله على العباد خمسا ، فأخذوا أربعا وتركوا واحدا . الصلاة .. ثم نزلت الزكاة .. ثم نزل الصوم .. ثم نزل الحج .. ثم نزلت الولاية .. » (١٦) .

وهذا النص الالهى والتعيين الربانى قد سجله الله فى لوح أخضر ، يشبه الزمرد ، بحروف بيضاء « شبه لون الشمس » . رآه أبو جابر عبد الله الانصارى فى يد فاطمة عليها السلام ، فلما سألها عنه قالت : « هذا لوح أهداه الله الى رسوله ، فيه اسم أبى ، واسم بعلى ، واسم ابنى ، واسم الاوصياء من ولدى .. ! (١٧) . « ولم ينزل من الله كتاب مختوم الا الوصية .. ! .. » (١٨) .

ولما كانت الصلة التى ميزت عليا والحسن والحسين عن غيرهم من آل أبى طالب ، بل وعن غير الحسن والحسين من ولد على ، هى الارتباط بفاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، قالت الشيعة الامامية ان الله هو الذى عين هذا الزواج ، زواج على من فاطمة ، وزعموا : « انه لا خلاف بين أهل النقل : ان الله تعالى هو الذى اختار أمير المؤمنين لنكاح سيدة النساء .. وان النبى قال : انى لم أزوج فاطمة ، حتى زوجها الله تعالى من سمائه . ! » (١٩) .

ولقد سبقت اشارتنا الى العلاقة بين نظرية « الحق الألهى » التى أدخلها الشيعة فى الفكر الاسلامى وبين

---

(١٦) (الكافى) جـ ١ ص ٣٩٠ .
(١٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ٨ .
(١٨) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٩ .
(١٩) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ٢ ص ٢٧٩ .

الميراث الاسرائيلى فى أصول الحكم ، وهو الميراث الذى قام على الجمع ، غالبا . بين سلطة الدين والوحى وسلطة السياسة والحكم فى شخص واحد ، هو النبى ، وفى كثير من آثار الشيعة اعتراف بهذه الصلات .. فمثلا يروون أن سائلا سأل امامهم أبا الحسن الرضا : « اذا مات الامام ، بم يعرف الذى بعده ؟ فقال : للامام علامات منها : أن يكون أكبر ولد أبيه ، ويكون فيه الفضل والوصية ، ويقدم الركب فيقول : الى من أوصى فلان ؟ فيقال : الى فلان ، والسلاح فينا بمنزلة التابوت فى بنى اسرائيل ، تكون الامامة مع السلاح حيثما كان » (٢٠) وينسبون الى أبى عبد الله جعفر الصادق قوله : « ان عندى لسيف رسول الله ورايته ودرعه ولامته ومغفره(٢١) .. ومثل السلاح فينا كمثل التابوت فى بنى اسرائيل ، كانت بنو اسرائيل فى أى أهل بيت وجد التابوت على أبوابهم أوتوا النبوة ، ومن صار اليه السلاح منا أوتى الامامة » (٢٢) .

فالامام ، معين من الله ، من عرق متميز عن أعراق الخلق جميعا ، وهذا هو العنصر الأول من عناصر نظرية « الحق الالهى » .

وقالوا : ان سلطان الامام السياسى مترتب على سلطانه الدينى ، اذ الأصل فيه أن يكون اماما حتى لو لم يتمكن من تولى السلطة الزمنية ، ومن ثم فان امامته نابعة من

---

(٢٠) (الكافى) جـ ١ ص ٢٨٤ .

(٢١) اللامة : ضرب من الدرع ، والمغفر ــ بكسر الميم وسكون الغين وفتح الفاء ــ نسيج الدرع يلبس تحت القلنسوة .

(٢٢) (الكافى) جـ ١ ص ٢٣٣ .

كونه حافظا للشريعة والدين ، حجة لله على عباده ، فالامة ليست الحجة ، والروايات المتواترة لا تضمن للشرع أن يكون بها حجة ، بل والقرآن ذاته ليس هو الحجة ، وانما الحجة هو الامام .. فهم يفسرون القول الذى نسبوه الى على بن أبى طالب « اللهم انك لا تخلى ارضك من حجة لك على خلقك » .. (٢٣) يفسرون الحجة بالامام وحده ، فينسبون الى جعفر الصادق قوله : « ان الحجة لا تقوم لله على خلقه الا بامام حتى يعرف .. » (٢٤) وانه لابد من امام ، حتى « لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الامام .. وأن آخر من يموت الامام ، لئلا يحتج احد على الله عز وجل أنه تركه بغير حجة لله عليه .. » (٢٥) .

وهم ، لذلك ، يرفضون أن تكون الامة ، فى نقلها عن الرسول - الذى هو حجة - حجة فى هذا النقل ، لانهم يجوزون عليها جميعها الخطأ والزلل بل والكفر والردة - ما عدا الامام - فضلا عن السهو والنسيان ، ويقولون : ان نقل الامة لبيان الرسول « ليس بضرورى ، وانه غير مأمون منهم العدول عنه » (٢٦) . لانه لا فرق عندهم بين الآحاد وبين مجموع الامة وجماعتها .

بل ورفضوا أن يكون القرآن هو الحجة ، وقالوا : لابد من قيم على القرآن ، وأن الامام على بن أبى طالب هو ذلك القيم ومن بعده الاوصياء والائمة من بنيه .. وينسبون

(٢٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٧٨ .
(٢٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٧٧ .
(٢٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٨٠ .
(٢٦) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ١٨٦ .

الى جعفر الصادق ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الناس :

« قلت للناس : تعلمون أن رسول الله كان هو الحجة من الله على خلقه ؟

قالوا : بلى .

قلت : فحين مضى رسول الله من كان الحجة على خلقه ؟

فقالوا : القرآن .

فنظرت فى القرآن فاذا هو يخاصم به المرجى . والقدرى ، والزنديق الذى لا يؤمن به ، حتى يغلب الرجال بخصومته ، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة الا بقيم ، فما قال فيه من شيء كان حقا .. فاشهد أن عليا كان قيم القرآن ، وكانت طاعته مفترضة ، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله ، وأن ماقال فى القرآن فهو حق .. ! » (٢٦م) .

ولذلك كان الامام عندهم هو مصدر الدين ، بل هو مصدره الوحيد ، فقالوا : « اننا نعتقد ان الاحكام الشرعية الالهية لا تستقى الا من مائهم ـ « أى الائمة » ـ ولا يصح أخذها الا منهم ، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع الى غيرهم ، ولا يطمئن بينه وبين الله الى أنه قد أدى ماعليه من التكاليف المفروضة الا من طريقهم .. » (٢٧) .

وهم فى قولهم : ان الامام هو القيم على القرآن ، قد قدموا الامام على القرآن ، وجعلوه هو الاساس ، فاعتبروا

(٢٦م) (الكافى) جـ ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢٧) (عقائد الامامية) ص ٧٠ .

الامام هو « القائم بالفعل » بينما القرآن هو « القائم بالقوة » وفي ذلك يقول الكرماني : « ان مثل الناطق فى كونه اصلا للدين كمثل المبدع الاول فى كونه أصلا للموجودات . وعن الناطق . الذى هو أصل عالم الدين من جهة التركيب ، وجد الامام القائم بالفعل ، وهو الاساس . وعن الناطق أيضا وجد الامام القائم بالقوة ، وهو الكتاب .. ! » (٢٨) .

لقد أقاموا الامام ، بالنسبة للقرآن وفروع النقل الاخرى وطرقه ، مقام العقل عند المعتزلة ، مع فارق : أن العقل هو عقل الامة المتجلى فى اجماعها ، بينما الامام هو الفرد الذى تؤخذ أقواله مأخذ القانون المقدس دون عرضها على أى معيار من المعايير .

فكون الامام هو حجة الدين وحافظ الشرع ، هو العنصر الثانى من عناصر نظرية « الحق الالهى » .

ولذلك فانهم ـ كما سبقت اشارتنا ـ قد قاسوا الامامة على النبوة ، والامام على النبى ، والمعتدلون منهم هم الذين سووا بين الطبيعتين والمهمتين ، أما الغلاة فقد رفعوا قدر الامامة والامام على النبوة والنبى ، لاستمرار الاولى وعمومها ، وانقضاء الثانية وخصوصها ، فزعموا ان عليا قد قال : « لقد أقرت لى جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد ، ولقد حملت مثل حمولته ، وهى حمولة الرب ... » (٢٩) « يعنى كلفنى الله ربى مثل ماكلف محمدا من اعباء التبليغ والهداية .. التى

(٢٨) (راحة العقل) للكرمانى . ص ٣٩ .
(٢٩) (الكافى) جـ ١ ص ١٩٦ .

وردت من الله ! .. » (٣٠) وينسبون رواية هذه الاقوال الى جعفر الصادق .. كما ينسبون له قوله ان عليا قد « جرى له من الفضل ماجرى لرسول الله .. والمعيب عليه فى شىء من أحكامه كالمعيب على الله ورسوله ، والراد عليه فى صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله .. فهو باب الله الذى لا يؤتى الا منه ، وسبيله الذى من سلك بغيره هلك ، وبذلك جرت الائمة واحدا بعد واحد ، جعلهم الله أركان الارض أن تميد بهم ، والحجة البالغة على من فوق الارض ومن تحت الثرى .. ! » (٣١) .

وقالوا : « ان دفع الامامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر ، لان الجهل بهما على حد واحد .. لان منطلق الامامة هو منطلق النبوة ، والهدف الذى لاجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذى من أجله تجب الامامة ، وكما ان النبوة لطف من الله كذلك الامامة ، واللحظة الحاسمة التى انبثقت بها النبوة .. وهى يوم الدار — « عندما جمع النبى عشيرته ودعاهم للاسلام » — هى نفسها اللحظة التى انبثقت بها الامامة ... واستمرت الدعوة ذات لسانين : النبوة والامامة ، فى خط واحد ، وامتازت الامامة على النبوة : انها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة ... ان النبوة لطف خاص ، والامامة لطف عام .. ! » (٣٢) .

ولذلك قالوا بجواز ظهور المعجز على يد الامام ، كما هو

---

(٣٠) المصدر السابق (هامش يفسر العبارة السابقة) نفس الصفحة .
(٣١) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٧ .
(٣٢) (تلخيص الشافى) جـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ . وانظر كذلك (مجموع من كلام السيد المرتضى) اللوحة ٦٣ .

حال الانبياء ، لانه هو دليل تعيينهم ، لا عقول البشر ، كما هو الحال مع الانبياء سواء بسواء .. (٣٣) .

وهذا هو العنصر الثالث من عناصر نظرية « الحق الالهى » عند الشيعة .

ثم رتبت الشيعة على ذلك السلطان الدينى : الذى اختار الله موضعه منذ ما قبل خلق آدم ، وجعله الوصى والمعين بالامر الالهى ، وزاد قدره وقدر منصبه وعلمه على قدر الانبياء وعلمهم ، وجعله الحجة والحافظ للدين ، رتبت الشيعة على هذا السلطان الدينى المطلق سلطانا دنيويا مطلقا . . وهذا السلطان الدنيوى نجد له نموذجا فى سلطان أئمة الدولة الفاطمية المطلق ، بل وفى الفكر النظرى لدى الشيعة الامامية التى لم يصل أئمتها الى تولى السلطة الزمنية .. وفى فكرهم عن سلطان الامام وحقه فى أموال الناس نموذج على ذلك ، فهم يعتبرونه المالك والمتصرف فى ثروة البشر ومال الامة ، ويروون عن بعض رجالاتهم ـ أيام جعفر الصادق ـ قوله : « أن الدنيا كلها للامام ، على جهة الملك ، وانه أولى بها من الذين هى فى أيديهم » (٣٤) .

وينسبون الى الرسول حديثا يروونه منسوبا الى أبى جعفر محمد بن على زين العابدين ، يقول فيه الرسول ، « خلق الله آدم واقطعه الدنيا قطيعة ، فما كان لآدم فلرسول الله ، وما كان لرسول الله فهو للائمة من آل محمد .. » .. ويروون عن جعفر الصادق قوله : « ان

---

(٣٣) (تلخيص الشافى) ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٣ . و (مجموع من كلام السيد المرتضى) اللوحة ٦٠ .

(٣٤) (الكافى) ج ١ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

جبريل كرى (٣٥) خمسة انهار : الفرات ، ودجلة ، ونيل مصر ، ومهران ، ونهر بلخ ، فما سقت أو سقى منهــــا فللامام . والبحر المطيف بالدنيا للامام .. ! » (٣٦) .

كما ينسبون اليه رده على من قال : ان للأئمــة خمس الاموال ، اذ قال : « أو مالنا من الارض وما أخرج الله منها الا الخمس ؟! .. ان الارض كلها لنا ، فما أخــرج الله منها من شيء فهو لنا .. وكل مافى أيدى شيعتنا من الارض فهم فيــه محللون حتى يقوم قائمنـــا فيجيبهـم طسق (٣٧) ما كان فى أيديهم ، وأما ماكان فى أيــدى غيرهم فان كسبهم من الارض حرام عليهم حتى يقــوم قائمنـــــا فيأخـــذ الارض من أيديهـــم ويخرجهــم صفرة ! » (٣٨) .

وليس للناس من الثروة الا بقدر ما أكلوا ، وهم ينسبون فى ذلك الى الامام على قولا يروونه عن أبى جعفر محمــد ابن على زين العابدين يقول فيه : « ان الارض كلهــــا لنا ، فمن أحيا أرضا من المسلمين فليعمرها ، وليــؤد خراجها الى الامام من أهل بيتى ، وله ما أكل منها .. حتى يظهر القائم من أهل بيتى بالسيف ، فيحويها ويمنعها ، ويخرجهم منها ... الا ما كان فى أيدى شــيعتنا فانه يقاطعهم على مــــا فى أيديهـــم ويترك الارض فى

---

(٣٥) أى استحدث .

(٣٦) (الكافى) جـ ١ ص ٤٠٩ .

(٣٧) الطسق : الوظيفة من الخراج .

(٣٨) (الكافى) جـ ١ ص ٤٠٨ . (والصفرة ـ بفتح الصاد وسكون الفاء ـ من معانيها : المرة ، والجوعة . وخلو البطن . أى أخرجهم مرة واحدة أو جوعى !) .

ايديهم .. ! » (٣٩) .

فنحن أمام نظرية متكاملة فى « الحق الالهى » : امام اختاره الله ، وقوله حكم الله وقانونه ، وهو وحده المفسر للقرآن . لانه القيم عليه والمقدم عليه كذلك ، وسلطانه أدوم من سلطان النبوة واعم من سلطان النبى ، هذا عن الدين ، اما عن الدنيا فان له الارض وما فيها وما عليها ، من ثروة وأنهار وبحار .. !

وهذه العقيدة رآتها الشيعة اصلا من اصول الدين « لا يتم الايمان الا بالاعتقاد بها » .. (٤٠) بل جعلوها ادخل فى اصول الدين وأوكد فى أركانه من معرفة الله ؛ وعدله ، ونبوة أنبيائه عندما جعلوا « قواعد الايمان ـ بما فيه الاسلام ـ خمسة :

١ ـ المعرفة : بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية .

٢ ـ التصديق : بالعدل والحكمة .

٣ ـ التصديق : بنبوة محمد ، وجميع ماجاء به .

٤ ـ التصديق : بامامة الائمة الاثنى عشر ، وما جاءوا به .

٥ ـ التصديق بالمعاد الجسمانى » .

ثم جعلوا القواعد « الثلاثة الاولى خاصة بالاسلام ، والاخيران من امتياز الايمان .. » (٤١) .

تلك هى نظرية الشيعة فى « الحق الالهى » ، مثلت تيارا فكريا فى الفكر الاسلامى ، وهى تلتقى مع نظرية « الحق

---

(٣٩) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤٠) (عقائد الامامية) ص ٦٥ .

(٤١) (تلخيص الشافى) جـ ١ ق ١ ص ٩١ (هامش) . وكذلك ص ٥٩ ، ٦٠ . انظر كذلك (دعائم الاسلام) جـ ١ ص ٢ ، ١٣ .

الالهى » التى نشأت فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى ، فى الفكر والغاية ، وان اختلفت معها فى ملابسات الظهور وأسبابه ، كما سبق أن أشرنا .

لقد رفض المعتزلة نظرية الشيعة هذه ، ونقضوا أدلتهم وتتبعوا دعاواهم وشبهاتهم بالنقد والتفنيد .. فهم . بعد أن رفضوا النص وأثبتوا الاختيار ، كما تقدم ، تتبعوا قول الشيعة عن أن الامام هو الحجة ، والحافظ للشريعة والدين ، وقدموا ضد هذه النظرية الادلة والبراهين الكثيرة مثل :

١ ـ أن القول بأن الامام هو الحجة يوقع القائل به فى تناقض يحيل اتساق موقفه الفكرى .. ذلك أن من يقول بامام حجة واحد فى الزمان ـ وهو قول الشيعة ـ يعلم أن الاستدلال على هذا الحجة لا يحدث الا من جهة هذا الحجة بعينه .. لان منه نعلم مايبين به من غيره .. فنحن لا نعلم الاشياء من جهته الا اذا علمناه حجة ، أى الا وقد علمنا مابه يبين من غيره .. فاذا كانت الحجة لا تكون الا منه ، وكان العلم بالنص عليه حجة لاتعلم الا من جهته ، فما لم نعلمه حجة أدى ذلك الا أن لا نعلمه أصلا .. ومن قال : اننا نعلمه حجة بالمشاهدة وجب ـ على قوله ـ أن يشاهده كل العقلاء فى وقت واحد ، أو أوقات متقاربة ، وذلك ما يكذبه الواقع ، خاصة واقع اختفاء امام الشيعة فى هذا الزمان .. (٤٢) .

٢ ـ رد المعتزلة على قول الشيعة بالحجة ، وأنها الامام وحده ، بأن المتواترات تكفى فى حفظ الشريعة ،

---

(٤٢) (المغنى) جـ ١٥ ص ٣٨٤ .

فهى مصدر العلم بها ، دون حاجة الى ذلك الامام الحجة .. فحفظ الشريعة بالتواتر ممكن .. وليس يصح ماقالته الشيعة . قدحا فى أهل التواتر . من أن السـهو جائز عليهم فيما ينقلونه ، لان الذى ينقلونه علمهم به ضرورى ، كما أن كمال العقل فى الجمع العظيم يفارق كماله فى الواحد والآحاد .. ولو جاز السهو على الجمع العظيم فيما العلم به ضرورى لجاز فى روايتهم عن المشاهدات ، فاستحالت معرفتنا بالتاريخ الخاص بالبلاد والملوك .. وذلك أمـر ظاهر البطلان .. ثم ان أكثر أمور الشرع ومسائله قد صار النقل فيها والادلة عليها أظهر من النص على الامام ، به اظهر من جواز الامامة من حيث المبدأ ، فكيف يكون غير الظاهر الدلالة هو الحجة الوحيدة فى ما هو ظـاهر الدلالة ؟؟ ! .. (٤٣) .

٣ ـ ثم ان قول الشيعة فى الحجة : انه السبيل لتلافى النقص المركب فى الناس والخطأ الذى عمهم ، هو قـول غير صحيح ، فطالما أن الامام لن يستطيع تغيير وجـوه التمكين المركبة فى الناس ، من القدرة والآلة والعقل ... الخ .. فهو لن يستطيع تلافى نقصهم وأخطائهم .. ثم .. ان الادلة منصوبة لهم ، من غير الحجة ، فما الذى يمنع من أن يستدلوا بها ، وأن تقوم هذه الادلة المنصوبة بما توهم الشيعة أن الامام الحجة سيقوم به ؟ . ان الاستفادة انما تكون بالنظر فى الادلة المنصوبة ، وذلك يجعل وجود الحجة كعدم وجوده .. أما اذا كان دور الحجة هو دور المنبه ، لا المغير لوجوه التمكين ، فانه لن يكون المنبـه

(٤٣) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٦٩ ـ ٧٢ .

الوحيد ، اذ باستطاعة العلماء ان يقوموا هم كذلك بدور التنبيه .. كما أن قول الشيعة هذا يجعل غيبة الامام تساوى عدم وجوده ، لان الذى يغير ليس هو وجوده ، بل ظهوره ومجيء العلم من قبله ، ومالم يظهر ويأت العلم من قبله سقط التكليف ، وكان المكلف معذورا ، لعدم ازاحة العلة .. وكل ذلك باطل .. (٤٤) ثم ان الزعم بأن الحجة هو الذى يزيل الشبهة عن المكلفين يرد عليه اعتراض ان الشبهة قد تاتى فى موضوع العلم بنفس الحجة ، فيستلزم ذلك الحاجة الى حجة أخرى ، وهكذا دواليك .. (٤٥) .

٤ ـ ان استدلال الشيعة على ضرورة الحجة باقتضاء التكليف وجودها كى تعدل بالناس عن السهو ، يلزم منه الزام الشيعة بأن تجويز السهو على الناس المكلفين ان كان يمنع من قيامهم بما كلفوه ، منع ذلك من قيامهم بما يلزم من الاستدلال على اثبات الحجة ، والنظر فى كونه حجة ، كما أنه يمنع من التكليف فى الوقت الذى لا يمكن فيه للمكلف أن يصل الى الحجة .. ثم ان الحجة لن يستطيع ازالة السهو عن القلب بايجاد العلم فيه ، اذ أن ذلك خارج عن مقدوره ، فلم يبق له الا أن ينبه الساهى ، وهو فى ذلك مثله مثل العلماء ، فلا امتياز له عليهم ـ وأيضا فان السهو وان جاز على الواحد والآحاد فهو غير جائز على الجميع فى وقت واحد فى الشيء الواحد ، فاذا جاز أن يسهو الواحد منا عن تاريخ اليوم ، فان ذلك غير جائز

(٤٤) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٥٦ ـ ٥٨ .
(٤٥) المصدر السابق . ج ٢٠ ق ١ ص ٦١ .

على الجميع ، مع الحاجة الى معرفته .. فلا ضرورة لوجود حجة من أجل ازالة أمر يصح زواله بغير الحجة (٤٦) .

٥ ـ ونقض المعتزلة قول الشيعة بضرورة الحجة كي يرتفع الاختلاف ويحل الاتفاق محله ، لان الله اذا كان كلف الناس الاجماع على الصواب ، فلا يصح تكليفهم ذلك الا اذا كان تحقيقه ممكنا ، سواء وجد الحجة أم لم يوجد .. ثم ان الاختلاف قد حدث في نفس الحجة ، وأصبح هو الواقع النافي للاتفاق المزعوم .. بل ان العصور التي كان فيها النبي والامام علي قد عرفت الاختلاف كذلك ، فالاختلاف قائم على وجود الامام كما هو قائم مع عدم قيامه ، فما الفائدة من الحجة اذا كان الاتفاق هو علة وجوده ؟ (٤٧) .

ثم ان تكليف الناس في الاجتهاد ليس هو الاتفاق ، فالاختلاف في مسائل الاجتهاد حق ، ولا يصح أن يكون سبب وجود الحجة هو ازالة الحق .. وأخيرا ، فلقد اختلف الذين عرفوا الامام في المذاهب ، ولم يمنع الائمة من الاختلاف في ذلك ، والثابت عن علي بن أبي طالب أنه كان يجيز لمن يخالفه في المذهب أن يحكم ويفتي ، وكان يوليهم الامور ، كما كان يرجع من اجتهاد الى اجتهاد آخر ، فتختلف مذاهبه ، كما تختلف مذاهب المجتهدين .. (٤٨) .

٦ ـ ولقد رفض المعتزلة قول الشيعة : أن القرآن

(٤٦) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٥٨ ـ ٦٠ .
(٤٧) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٤٨) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٦٧ ، ٦٨ .

ليس هو الحجة ، وانه لابد من امام قيم عليه ، يكون هو الحجة دونه ، وقالوا : ان القرآن هو الحجة ، اذ به يعرف الناس المراد ، واذا تعذر ذلك فى بعضه أعان على معرفة المراد من ذلك البعض مقارنته بالسنة وغيرها ، فلم تبق حاجة الى امام يكون هو الحجة .. واذا كان الناس يختلفون فى العقليات ، ثم يرجع المحق منهم الى الادلة القائمة ، فليس هناك مايمنع من مثل ذلك فى الشرعيات ..

ثم ان وجود أمير المؤمنين على بن أبى طالب لم يمنع من وجود الاختلاف الشديد ، ولم يمنع حدوث هذا الاختلاف من ثبوت الدليل ، وذلك يدل على أنه لا مانع من أن يدل القرآن والسنة على الحق ، مع تنكب البعض لطريق ذلك الحق .. (٤٩) .

وليس للشيعة ان يقولوا : ان تفسير القرآن وقف على الحجة ، لان العلماء اذا امتلكوا أدوات التفسير الضرورية عرفوا من تفسيره مايعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم .. والتفسير لا يختص به جيل دون جيل ، وليس وقفا على السلف دون الخلف .. والامام يعرف من ذلك مايعرفه العلماء .. فالحجة قائمة بالقرآن وبالنقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام .. (٥٠) .

والامر الذى يزيد موقف المعتزلة قوة ورسوخا ، ويدعم احتجاجها بأن القرآن هو الحجة ، وليس الامام ، ان كلام على بن أبى طالب ذاته ، الذى جمعه الشيعة أنفسهم فى « نهج البلاغة » يشهد بأن القرآن هو الحجة ، وانه لايحتاج الى حجة قيم عليه كما قالت بذلك الشيعة .

---

(٤٩) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٨٩ .
(٥٠) المصدر السابق . جـ ١٦ ص ٣٦٩ .

فهو يرى أن حجج الله على عباده قد تجمعت بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام فى حجة واحدة هى القرآن، وذلك عندما يتحدث عن مسألة « الحجة » تاريخيا ، فيقول : « ان الله سبحانه لم يخل خلقه من نبى مرسل ، أو كتاب منزل ، او حجة لازمة ، أو محجة قائمة ... الى ان بعث الله محمدا لانجاز عدته وتمام نبوته .. ثم اختار سبحانه لمحمد لقاءه وخلف فيكم ماخلفت الانبياء فى اممها ـ اذ لم يتركوهم هملا بغير طريق واضح ، ولا علم قائم ـ كتاب ربكم : مبينا لكم حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه وعزائمه ، وخاصه وعامه ، وعبره وأمثاله ، ومرسله ومحدوده ، ومحكمه ومتشابهه .. » (٥١) .

وفى موضع آخر يقول : « فكفى بالجنة ثوابا ونوالا ، وبالنار عقابا ووبالا ، وكفى بالله منتقما ونصيرا ، وكفى بالكتاب حجيجا وخصيما .. » (٥٢) .

وهو ينفى ما قالت الشيعة من حاجة القرآن الى قيم عندما يقول : « ... كتاب الله : تبصرون به ، وتنطقون به ، وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض » .. (٥٣) وهذا هو ماردت به المعتزلة على الشيعة فى هذا الموضوع .

كما يزيد هذا الامر حسما عندما يقول : « ... انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة (٥٤) ، ولا لاحد قبل

(٥١) (نهج البلاغة) ص ٣٠ ، ٣١ .
(٥٢) المصدر السابق . ص ٩٢ .
(٥٣) المصدر السابق . ص ١٥٨ .
(٥٤) اى فقر وحاجة الى هاد سواه .

القرآن من غنى .. ان الله لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن: فانه حبل الله المتين ، وسببه الامين ، وفيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ، وما للقلب جلاء غيره .. « ففيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم مابينكم .. فهو حجة الله على خلقه ، أخذ عليهم ميثاقه ، وارتهن (٥٥) عليه انفسهم ، أتم نوره ، وأكمل به دينه (٥٦) ، وقد فرغ الى الخلق من أحكام الهدى به .. (٥٧) .

وهناك ، فى « نهج البلاغة » ، نص وحيد يمكن ، اذا فهم على ظاهر لفظه ، أن يشتم منه حديث الامام على عن أن هناك ائمة يقومون بما زعمت الشيعة فى هذا الموضوع .. وهو النص الذى يقول : « لا تخلو الارض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا ، واما خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته . وكم ذا ؟ وأين ؟ أولئك - والله - الاقلون عددا ، الاعظمون عند الله قدرا ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم .. أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة الى دينه . آه آه شوقا الى رؤيتهم ! » (٥٨) .

ولسنا ندفع هذا النص بالقول بأنه منحول على الامام على ، لمنافاته للنصوص الصريحة التى أوردنا عددا منها ، والتى تنفى أن تكون هناك حجة غير القرآن ، بعد وفاة الرسول ، ولو دفعه دافع بذلك القول لما كان دفعه هذا منكرا كل النكر ، اذ « نهج البلاغة » ثمرة جمع

---

(٥٥) ارتهن : أى حبس .
(٥٦) فرغ : أى أتم .
(٥٧) (نهج البلاغة) ص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ .
(٥٨) المصدر السابق . ص ٣٨٧ .

الشيعة وتحقيق أحد أئمتهم ، فهو اذا كان حجة دامغة عليهم فليس بالحجة الدامغة لخصومهم .

ولكننا لن ندفع هذا النص بذلك الدفع ، بل لن ندفعه أصلا ، وانما نقول : انه ليس فيه ما يشهد للشيعة على أن هناك اماما حجة ، اذ لم يقل الامام علي في نصه هذا مايدل على ذلك ، بل قال عن هؤلاء الدعاة الخلفاء لله في أرضه ، أن الواحد منهم « قائم لله بحججه » ، فهو قائم بالحجة ، وليس هو الحجة .. كما يقول في هذا النص أيضا عن هؤلاء الدعاة : « يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم » ، فهم حفظة حجج الله وبيناته، وليسوا هم الحجج والبينات ... وهكذا يسلم « نهج البلاغة » دليلا للمعتزلة ، ضد الشيعة ، على أن الحجة هو القرآن وليس الامام .

كذلك رفض المعتزلة احتجاج الشيعة على « الحق الالهى » بقياس الامامة على النبوة والامام على النبى ، فقالوا : أن علة الرسول غير قائمة في الامام ، فلا يصح قياس الامام على الرسول .. فطبيعة عمل الامام هى طبيعة عمل الحاكم والامير ، ولو جاز لنا قياس الامام على الرسول لجاز أن نقيس الامير والحاكم على الرسول ، وذلك باطل ، ولم يقل به أحد من فرق الاسلام .. فالامر الذى يفرق بين علة الرسول وبين علة الامام تابع من اختلاف طبيعة عمل كل من الرسول والامام .. فالرسول حجة ، لانه حجة فيما يؤديه عن السماء ، اما الامام فهو منفذ في الاحكام والأمور المعروفة ، فلذلك افترقت طبيعة مهمة كل منهما .. (٥٩) لان تجويز الخطأ على الرسول

(٥٩) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٩٨ .

ينقض كونه حجة ، بينما تجويز الخطأ على الامام لاينقض كونه منفذا ، كما هو الحال فى الامير والحاكم .. (٦٠) والرسول قد حمله الله الرسالة بعينه وذاته ، وهو يدعى الرسالة ، ويصدقه الله بالمعجز يظهره على يديه عند دعواه الرسالة ، وليس كذلك حال الامام .. (٦١) .

وتبعا لذلك رفض المعتزلة دعوى الشيعة ظهور المعجز على أيدى الائمة ، وقالوا : ان المعجز لا يظهر الا على الانبياء والرسل ، وانه لو كان يظهر على الائمة لكان ظهوره ادعى على يد الامام على وولديه : الحسن والحسين لشدة الحاجة الى ذلك بسبب ماظهر ضدهم من الخلاف واعترض طريقهم من الفتن والشقاق ، ولو ظهر عليهم شىء من ذلك لروى متواترا ، ولاحتجوا به فى مواطن الاحتجاج التى احتجوا فيها بالامور الصغيرة دون أن يشيروا الى ظهور المعجز عليهم ، وهو الامر الكبير .. كما انه لو حدث لهم ذلك لصدقهم وأقر لهم المخالفون ، فما بالنا لم نسمع ذلك عن الخوارج أو أهل الشام ، بل لم يرو شىء عن مثل ذلك فى المناظرات التى دارت بين على وانصاره وبين الخوارج وأهل الشام ؟! .. (٦٢) .

ولما أرادت الشيعة أن تقيس ظهور المعجز على الائمة على ظهوره على غيرهم من الصالحين ، وقالت ان ذلك الظهور على الصالحين قد روى بالتواتر ، انكرت المعتزلة ذلك .. وقالوا : ان هذه الاخبار اما أن تكون مفيدة للعلم

---

(٦٠) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٢٩٩ .
(٦١) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٠١ .
(٦٢) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الضروري ، أو من الكثرة بحيث تبلغ حد التواتر الدال على صحة الخبر ، أو أن تكون أخبار آحاد .. والثابت أنها لم تفد العلم الضروري ، والا لعلمناه نحن أيضا بالضرورة .. وهي كذلك لم تبلغ من الكثرة حد التواتر المفيد صدق الخبر ، لانها أخبار تروى على الحكاية لا على المشاهدة ، كما تروى لتنسب ظهور المعجز على يد من ينكر ذلك عن نفسه من الصالحين ، وفي الكثير من الاحيان تروى ناسبة المعجز للجهلة والمعتقدين للجبر والتشبيه .. فكيف يصح ادعاء التواتر في ذلك .. فلم يبق الا أنها أخبار آحاد يحكيها المخالفون للمعتزلة في المذهب ، ولذلك فهي لا تصح دليلا يطعن في مذهب المعتزلة ، والا لبطل بمثل ذلك المذهب كله ، بل ولبطل بمثل تلك المرويات كل مذهب يروي خصومه ضد نظرياته مثل تلك الاخبار . (٦٣) .

وخلصت المعتزلة الى أن الشيعة ، وقد وصفوا الائمة بصفات الانبياء ، فان الموقف هو أن يوجه اليهم هذا السؤال : هل يوجد امام بهذه الصفات ؟!.. انكم تتحدثون عن أمام له صفات النبي أو صفات الاله ، ومن ثم فان وجود هذا الامام هو أمر غير معقول ، ولا سبيل لايجاده ، ومن ثم فان الجدل معكم في ذلك لا يدخل في باب الامامة ، وانما يدخل في باب الامامة الجدل مع من يثبت الامام على الصفات التي تجعل منه اماما ، لا نبيا أو الها .. أما أنتم أيها الشيعة ، فعليكم أن تثبتوا وجود امام بهذه الصفات المثالية والخيالية ، أولا ، قبل أن يقع معكم الجدل حول ما تدعون له من صفات

(٦٣) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

ومهام .. (٦٤) .

هكذا نقضت المعتزلة قول الشيعة : ان الامام هو الحجة، وأن الامامة مقيسة على النبوة ، وان على يدى الامام يظهر المعجز كما هو الحال فى الانبياء .

وفى الحديث عن طبيعة السلطة لم تقف المعتزلة عند حدود رفض نظرية الشيعة فى « الحق الالهى » و « الطابع الدينى » لسلطة الامام والدولة ، بل قدمت فى مقابل ذلك تصورا يبتعد بالدولة ومنصب الامام عن « الطابع الدينى» ويميز بين ماهو دين محض وماهو سياسة ودنيا فى هذا الموضوع .. وذلك عندما قرروا مجموعة من الحقائق فى عدد من النقاط :

١ ـ فالتمييز بين السلطتين : الدينية والسياسية ، هو ممكن وجائز ، من حيث المبدأ ، ولقد جرت به سنة الله فى أقوام مضت ، عندما لم يكن العقل البشرى قد نضج نضوجه الحالى ، بل وفى مجتمعات كان الطابع الغالب عليها هو الكهنوت ، والسنة الدارجة فيها هى الجمع بين السلطتين وتوحيدهما فى شخص النبى .

قال المعتزلة ذلك عندما قرروا انه « لا يمتنع فى التعبد أن يكون النبى منفردا بأداء الشرع وتعليمه وبيانه فقط ، والذى يقوم بالحدود والاحكام السياسية الراجعة الى مصالح الدنيا غيره ، كما روى فى أخبار داود وطالوت .. وغير ممتنع عند شيوخنا أن يبعث تعالى نبيا ليؤدى الشرع ويقيم أماما لتنفيذ الاحكام ، ولا يجوز له أن يقيم ذلك بنفسه ، فما الذى يمنع من جواز مثل ذلك فى

(٦٤) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٢ ، ١٣ .

الشرع ؟! » (٦٥) .

فهم بذلك يقررون أن التمييز بين صاحب السلطة الدينية ، وهو النبى ، وصاحب السلطة الزمنية ، وهو الامام ، ممكن ، وهو حدث فى عصر ظهور الانبياء وبعثتهم ، وذلك يعني أن الحديث عن جمع السلطتين بعد ختام النبوة هو خطأ لا شك فيه ، لان صاحب السلطة الدينية أو أصحابها قد اختتم الله عصرهم ونظامهم ، فلم يبق إلا صاحب السلطة الزمنية ، وهو الامام ، فتصور الربط والتوحيد بين السلطتين على أنه واجب وضرورى ، كما قالت الشيعة ، هو انكار للامكانية والجواز فى التمييز بينهما ، وهو ما وضعته سنة الله وقانونه فى التطبيق منذ قرون قرون .

٢ ــ وكما ميزت المعتزلة بين السلطتين ، الدينية والزمنية ، وأجازت انفراد كل منهما بمصدر بشرى يختص بها ، مصدر للتبليغ ، وآخر للتنفيذ ، أجازوا كذلك التمييز بين الدين وأموره والدنيا وشئونها فى الفكر والتدبير والعمل الخاص بالانسان الواحد ، فأشاروا الى وجود نمطين متمايزين من أنماط الفكر والقول والتصرف والتدبير ، أحدهما دينى والآخر سياسى ، وكل منهما له استقلاليته النابعة من طابعه الخاص .. وقالوا : ان شخص الرسول ، وهو واحد ، يتعايش فيه هذان النمطان الفكريان ، بدليل أننا نتلقى عنه أمور الدين على نحو مختلف عن تلقينا عنه امور الدنيا ، فهو لا يخطىء فى أمور الدين ، لانه حجة فى التبليغ لها ، ولكنه معرض

(٦٥) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ١٦٦ ، ٣٠٨ .

للخطأ في أمور الدنيا والسياسة الخاصة بها ، لانه بشـر يجتهد كما نجتهد ، ويصيب ويخطىء كما نصيب ونخطىء ولنا أن نشاوره ونشير عليه ، ولنا كذلك أن ندع تنفيـذ ما يأمر به اذا أدى اجتهادنا الى ذلك ، وليس ذلك بضار شيئا في أمر من أمور الدين ، لانهما عالمان متمايزان ، وان تمايشا في ذات الرسول .

ذلك أن الرسول « اذا قصد الى الاداء عن الله والاخبار عنه بما أمره بأدائه الى خلقه وباخبارهم اياه ، فليس يجوز عليه الغلط والخطأ في ذلك ، لان الله قد أوجب عـلى الخلق طاعته فيما أمرهم به ، وتصديقه فيما أخبرهم به عن ربهم ، فلم يكن جل ثناؤه ليأمرهم بتصديق من يجوز عليه خطأ ، ولا بطاعة من لا يؤمن منه الغلط . وأما فيمـا سوى ذلك مما لم يأته عن الله فيه نهى ، فقد عاتبه الله في سورة عبس ، وفي قصة الاسارى ببدر ..»(٦٦) فأمور الدين يعلمها الرسول على سبيل اليقين ، أما أمور الدنيا فليس ذلك لازما فيها دائما ، اذ « قد صح انه صلى الله عليه وسلم قد كان يظن الامور المتعاقبة بالدنيا ، لانه لم يكن عالما بها أجمع ، على ماثبت عنه صلى الله عليه..»(٦٧) .. ولذلك فاننا نتبع أمره فيما هو من أمور الدين ، لنأمن الخطأ فيه ، وليس من الواجب أن نتبع أمره في كـل الحالات اذا تعلق الامر بشأن من شئون الدنيا ، وانه « لو قال قائل : ان أمره ، صلى الله عليه وسلم ، اذا كان فيما يتصل بأمور الدنيا ، لا يمتنع أن يقع فيه الخطأ لم يمتنع

(٦٦) (الانتصار) للخياط . ص ٩٤ .
(٦٧) (المغنى) ج ١٥ ص ٢٩٣ .

لانه اذا كان كذلك خرج من أن يكون دلالة » (٦٨) وقالوا : ان الرسول أسوة فى الدين ، وكذلك أوامره فيـــه ، وليست شئون الدنيا كشئون الدين ، فهما عالمان متمايزان « والتأسى بالرسول ليس بواجب الا فى الشرعيـــات المخصوصة التى قد أمنا منه وقوع الخطأ فيهـــا ، دون ما عداها .. » (٦٩) .

وفى هذه القضية الهامة ، قضية التمييز بين أقســام متعددة من السنة المروية عن الرسول صلى الله عليـــه وسلم ، وتبيان أى منها هو الدين والشرع والتبليغ عن صاحب الوحى ؟ وأى منها هو الرأى والاجتهاد المتعلـق بالدنيا ، والذى لا يدخل فى باب الدين والشرع ؟ .. فى هذه القضية كتب علماء الفقه والاصول ودارسو السنة ، ففصلوا ما أجمله أئمة الاعتزال .

فالامام ولى الله الدهلوى يقسم الســـنة النبوية الى قسمين :

أولهما : ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة ، وفيه قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهـــاكم عنـه فانتهوا » (٧٠) .

وثانيهما : ما ليس من باب تبليغ الرسالة ، وفيه ورد قوله صلوات الله عليه : « انما أنا بشر مثلكم ، فـــاذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » أو : « ماكان مـن أمر دينكم فالى . وما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم به »

(٦٨) المصدر السابق . جـ ١٥ . ص ٢٩٣ .
(٦٩) المصدر السابق . جـ ١٥ ، ص ٢٨٦ .
(٧٠) الحشر : ٧ .

او : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » (٧١) .

ويأتى الامام القرافى فيزيد هذا التقسيم تفصيلا وتحديدا وايضاحا . عندما يجعل سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وتصرفاته منقسمة الى اربعة أقسام :

أولها : تصرفات بالرسالة .

وثانيها : تصرفات بالفتيا .

وثالثها : تصرفات بالحكم أى القضاء .

ورابعها : تصرفات بالامامة ، أى السياسة .

ثم يحدد أن تصرفاته الاولى والثانية ــ « اى بالرسالة والفتيا » ــ هى تبليغ وشرع يدخل فى باب الدين .. أما تصرفاته الثالثة ــ أى بالحكم والقضاء » ــ فليست كذلك اذ هى مغايرة لتصرفاته بالرسالة والفتيا ، ومن ثم يجب الوقوف بها عند محل ورودها ، لانها مترتبة على ما ظهر للرسول من البينات التى حكم وقضى بناء عليها .

وكذلك حال تصرفاته بالامامة ، التى هى شئون السياسة العامة للدولة وفق المصلحة فيما هو مفوض اليه .. وفى هذا الباب تأتى الآثار والسنن التى تتحدث عن : قسمة الغنائم . وتجييش الجيوش وتجهيزها، والتصرفات

---

(٧١) الدهلوى (حجة الله البالغة) تحقيق الشيخ السيد سابق . جـ ١ ص ٢٧١ وما بعدها . طبعة دار الكتب الحديثة . القاهرة . (وجدير بالذكر أن هذا الحديث قد قاله الرسول عندما قدم المدينة فوجد أهلها يؤبرون (يلقحون) النخل . فقال لهم : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوا تلقيح النخل ، فلم يثمر ، فذكروا ذلك له . فقال الحديث .. والحديث ــ بهذه الطرق المتعددة لفظا ، والمتفقة فى المعنى ــ رواه الامام احمد فى مسنده ، ورواه الإمام مسلم فى (باب وجوب امتثال ماقاله النبى شرعا دون ماذكره من معايش على سبيل الرأى) .

المـــالية المتعلقــة بالارض والتجـــارة والحـــرف . والاقطاعات ، وكذلك عقد المعاهدات ، والامــور الادارية المتعلقة بتعيين الامراء والولاه والعمال .. الخ .. الخ .. الخ .

ففى هذين القسمين من أقسام السنة النبوية ــ القضاء والسياسة ــ لسنا ملزمين بالاتباع والتطبيق والتأسى . وانما نحن مطالبون فقط باتباع المبدأ الذى اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام فى قضائه وسياسته : فالقـــاضى مطالب بأن يقضي بناء على البينات والاسباب ، ورجـل السياسة مطالب بأن يسوس الامة وفق ما يحقق مصالحها ومنافعها فذلك هو المحقق لمعنى قوله سبحانه وتعالى : « فاتبعوه لعلكم تهتدون » (٧٢) .

فليس الحكم والقضاء ، وليست الامامة والسياسة دينا وشرعا وبلاغا يجب فيهما التأسى والاحتذاء بما فى السنة من وقائع وتطبيقات ، وذلك على عكس ما هـــو دين من هذه السنة . مثل ما جاء منها متعلقا بالرســالة والفتيا (٧٣) .

ففى الذات الواحدة . ذات الرسول يتميز عالم الدين عن عالم الدنيا ، ولكل منهما خصائصه وأحكامه . كما أن الاوامر الخاصة بكل منهما يختلف حــكم الامتثـــال لهــا والتأسى بها تبعا لطبيعة الحقل الصادرة فيه .

٣ ــ ولقد رتبت المعتزلة على ذلك أن على المسلمين ان

---

(٧٢) الانعام : ١٥٣ .

(٧٣) القرافى (الاحكام فى تمييز الفتاوى عن الاحكام وتصرفات القاضى والامام) تحقيق : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . ص ٨٦ ــ ١٠٩ . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م .

ينظروا فيما روى عن الرسول من آثار تتعلق بأمور الدنيا، فان لهم الحق ، بل عليهم الواجب ، في أعمال العقل فيها والاجتهاد كي يقرروا مدى صلاحها لهم ولحالهم وللعصر الذى يعيشون فيه .. وهم ناقشوا تلك القضية في ردهم على الشيعة الذين انكروا على صحابة رسول الله تأخير انفاذ جيش أسامة بن يزيد ، وزعموا أنهم قد خالفوا بذلك أمر الرسول الذى كان يلح فى انفاذ هذا الجيش الى الشام ، وفى الرد على ذلك قالت المعتزلة : أن هذا الامر هو شأن من شئون الدنيا ، وأمر من أمور الحرب ، فلا دخل للدين أو الوحى فيه ، وهو ليس من الشرع ؛ رغم أن فيه أمرا من أوامر الرسول ، فاذا جاز أن يراجع الناس الرسول فى مثل هذه الامور ، وهو حى ، فان يجتهدوا لانفسهم ، فيما أصدر فيه الاوامر بعد وفاته هو أوجب وآكد فى الوجوب . ذلك أن أمر « هذا الجيش اذا وقع من الرسول فعلى طريق الاجتهاد ، لانه ليس بواجب فيما يتصل بالحروب ومصالحها أن يكون عن وحى ، وانما يجب ذلك فى الاحكام الشرعية .. فاذا ثبت ذلك لم يجب بعد موته عليه السلام أن يكون ذلك لازما ، بل هو موقوف على اجتهاد الامام والمسلمين . فلا يعد تأخيره عن النفوذ خلافا على رسول الله » .

وحتى الاوامر التى أصدرها الرسول ، فى حياته ، بعد اجتهاد ، يجوز للمسلمين أن يغيروها بعد وفاته ، ويجتهدون لانفسهم على النحو الموافق لظروفهم . فليس يجوز مثلا فى حياة الرسول « أن يعزل احد ممن ولاه عليه السلام ، ويجوز ذلك بعد وفاته .. » (٧٤) . لاننا بصدد

---

(٧٤) (المغنى) . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣٤٦ .

سلطتين متميزتين فى الشريعة الواحدة عند الرســـول الواحد .

٤ ـ واذا كانت قد تمت للرسول ،كنبى وحاكم ،عملية الجمع بين السلطتين ، الدينية والزمنية ، فى ذاته الشريفة فان كونه خاتم الانبياء ، واجماع المعتزلة وكل الذين قالوا بالاختيار على أن سلطانه الدينى لم يورث ، وهـو غير قابل لان يورث ، ووجود الدلائل الكثيرة على أنالسلطة الزمنية للخلفاء لم تكن هى بالضرورة سلطة الرسول الزمنية من حيث الطبيعة ، لما مازج هذه السلطة الزمنيـة عنـد الرسول من سلطة دينية لم يدعها لنفسه أحد من الخلفاء .. كل ذلك يؤكد انتهاء السلطة الدينية وانقضاء عصرها بموت الرسول وأن سلطة الدولة الاسلامية ذات طبيعـة مدنية لا شائبة فى مدنيتها .

ونحن اذا نظرنا ، حتى فى حياة الرسول ، الى أمرائه الذين كان يوليهم على جيوشه ، نجده يحرص على التمييز بين سلطتهم كأمراء وبين سلطة الله الالهية ، وســـلطة رسوله ذات الطابع الدينى والمدنى معا . فهو يقول لمـن يتوجه للقتال : « اذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أنتجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابه ، فانكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمـــة الله وذمة رسوله . واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك ان تنزل على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك . فانت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » (٧٥)

(٧٥) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ١٢٨ .

فنحن هنا أمام نص نبوى هام يميز فيه بين ذمة الله وذمة رسوله ، وبين ذمة الامير ، وأهم من ذلك أمام تمييز بين حكم الله وحكم البشر ، ودعوة للبشر ان يحـــكموا بحكمهم كبشر ، لانهم ان زعموا ان حكمهم هذا هو حـكم الله لم يأمنوا أن يخطىء حكمهم هذا الموطن الحـــق والصواب لحكم الله سبحانه وتعالى .. ولو كان الرسول ذو السلطة الدينية ، هو الذى يقود الفتح والغزو ، وطلب منه أصحاب ذلك الحصن أن ينزلهم على ذمة الله ورسوله، فلربما فعل . او أن يحكم فيهم بحكم الله فلربما فعل .. ذلك خاص به ، ومن سلطانه ومهامه . أما غيره من البشر فلا ، وهم ان فعلوا ذلك كانوا متعدين لحـــدود الله وحدودهم أيضا .

ولعل ذلك هو السبب فى ذلك الحرص ، الذى نلحظه، من الصحابة على تأكيد أن سلطان الرسول الدينى لم ينتقل الى أحد ، وأنه غير قابل للميراث والانتقال .. فهم قـد حرصوا ــ كما أشار عمر ــ على أن لا يتولى أحد من بنى هاشم أمر المسلمين بعد الرسول مباشرة ، حتى لا تجتمع النبوة والخلافة فى بيت واحد ، مما يوهم أن سبب ذلك هو الاخذ بنظام التوارث ، ولو حدث ذلك لكان للقـائلين بانتقال سلطان الرسول الدينى الى الامام شــــبهات وشبهات يستدلون بها على مايقولون .

بل لقد حرص المسلمون على الغاء النظام الذى كـان يقسم على أساسه « خمس الغنيمة » على عهد الرســول عليه الصلاة والسلام .. فهذا الخمس الذى كان حـــق الدولة والمصالح العامة فى أموال الغنائم كان يقسم على خمسة أسهم : لله والرسول سهم . ولقرابة الرســـول

سهم ، ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابناء السبيل السهم الخامس .

فلما توفى الرسول اختلف الصحابة فى سهمه . وسهم ذوى قرباه ، فقال قوم : يتحول سهم الرسول الى الخليفة ، وسهم ذوى القربى يظل فيهم ، وقال آخرون : يتحول سهم الرسول للخليفة ، وسهم ذوى القربى لقرابة الخليفة ، ولكن هذه الاجتهادات قد رفضت ، وأجمع الصحابة على الغاء السهمين ، وتقسيم الخمس هكذا : سهم لليتامى ، والثانى للمساكين ، والثالث لابناءالسبيل، اما سهم الرسول وسهم ذوى قرباه فتقرر اضافتهما لمصالح الدولة . اذ « أجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين فى الكراع والسلاح » (٧٦) أى لشئون الحرب والدفاع، واستمر الامر على ذلك زمن ابى بكر وعمر وعثمان ، ولما جاء على بن أبى طالب اقر ذلك ولم يغير منه شيئا (٧٧).

فهذا التعديل فى القسمة انما تناول أمرا دنيويا ، ولكنه كان على نحو من الارتباط بأمور الدين ، لان السهم كان « لله والرسول » « فان لله خمسة وللرسول » ، كما أن القرابة كانت قرابة الرسول ، فسلك الصحابة سبيل من يحرص على نفى انتقال سلطان محمد الدينى الى أى احد من بعده ، حتى لو كان هذا السلطان حقوقا مالية لبعض ذوى قرباه ، وهم قد فعلوا مثل ذلك مع فاطمة فى دعواها الحق فى « فدك » . وما اظنهم صنعوا ذلك الا

---

(٧٦) ابويوسف (الخراج) ص ٢١ . طبعة المطبعة السلفية . للقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ . (والكراع ـ بضم الكاف ـ دواب الحرب من الخيل والبغال والحمير) .

(٧٧) المصدر السابق . ص ١٩ .

لهذه الحكمة ، فما كان الامر عداء لها أو بخلا عليها أو انكارا لجلال مكانها من الرسول عليه الصلاة والسلام . فالنبي لا يورث في أي جانب من جوانبه ، للطبيعة الخاصة بسلطانه ، والتي تميزه عن سلطان البشر غير الانبياء .

وأبو بكر الصديق لا يستنكف من أن يعلن الفرق الجوهري بين سلطته وسلطة الرسول ، فيقول للناس : « أما والله ما انا بخيركم ، ولقد كنت لمقامي هذا كارها ؛ ولوددت ان فيكم من يكفيني ، أفتظنون اني أعمل فيكم بسنة رسول الله ؟ اذن لا أقوم بها ، ان رسول الله كان يعصم بالوحي ، وكان معه ملك ، وأن لي شيطانا يعتريني ، فاذا غضبت فاجتنبوني أن لا أؤثر في اشعاركم وابشاركم ، الا فراعوني ، فان استقمت فأعينوني ، وان زغت فقوموني » (٧٨) .

والشيعة ، تبعا لنظريتها في عصمة الامام ، تتخذ من ذلك النص دليلا ضد امامة أبي بكر ، ومادرت أن قوله هذا هو الدليل على اختلاف طبيعة السلطة في دولة النبوة عنها في دولة الخلافة . وأن ذلك ينقض نظرية العصمة والسلطة الدينية ، فهذا الدليل ضدها وليس لها .

ثم هل هناك كلمة أكثر دقة في التعبير عن هذا المعنى من كلمة علي بن ابي طالب عندما غيره بعض اليهود . أثناء الخلاف على السلطة بعد الرسول ، فقالوا له : « ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه » ! فقال لهم على تلك الكلمة الجامعة : « انما اختلفنا عنه . لا فيه » ! فالاختلاف لم يكن في الدين . ولا في النبوة . ولا في أمر من امور

(٧٨) (تلخيص الشافي) جـ ١ ق ٢ ص ٩ (هامش) .

الاسلام ، وانما الاختلاف ـ لا الخلاف ـ كان فى طبيعة السلطة لاختلاف من يتولاها اليوم عمن كان يتولاها بالامس فلم يكن الخلاف بالامس واردا ، لان الحاكم كان هـو النبى ، والدين كان ممازجا للسياسة ، أما اليوم فالحاكم مدنى والحكم مدنى . ومن ثم فان الخلاف والاختلاف وارد وغير معيب . ولذلك مضى الامام على يبين لليهود الفرق بين اختلاف المسلمين فى السياسة . وبين اختلاف اليهود ، على نبيهم موسى ، فى الدين ، فأكمل رده وقال: « .. ولكنكم ماجفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : « اجعل لنا الها كما لهم آلهة . قال : انكم قوم تجهلون » (٧٩) » .. فحق مايقوله ابن ابى الحديد فى شرح هذه العبارة من ان اختلاف المسلمين « لم يكن فى التوحيد والنبوة ، بل فى فروع خارجة عن ذلك ، نحو الامامة ، والميراث والخلاف فى الزكاة هل هى واجبة أم لا .. واليهود لم يختلفوا كذلك . بل فى التوحيد . الذى هو الاصل .. » (٨٠) .. ذلك حق ـ ولكننا نبصر فى عبارة الامام على ماهو أعمق من هذا . اذ يشير الى اختلاف طبيعة الحاكم . فصاحب السلطة السياسية مختلف عمن يضم اليها السلطة الدينية . ولذلك كانت العبارة : « اختلفنا عنه . لا فيه » !

٥ ـ ثم ان هناك قسمات « للدين » تميزه عن « الشريعة »ـ بمعنى «القانون»ـ لان الدين هو وضع الهى يتصل أساسا بالغيب وخبره ، والموقف منه هو التصديق ، تعبدا ، واسلام الوجه لصاحبه . سبحانه وتعالى ، أما الشريعة

(٧٩) الاعراف : ١٣٨ .

(٨٠) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٩ ص ٢٢٥ .

فتدخل فيها ارادة البشر واجتهـادهم كمشرعـين . ومصالحهم المتغيرة والمتطورة . وعوامل البيئة المؤثرة . والعرف والعادات والتقاليد . كما تدخل فيها عـوامل السياسة وظروف المال والاقتصاد .. الخ ..

واذا لم يكن باستطاعة أحد أن يزعم أن الايمان بالله ـ وهو أساس الدين ـ أمر خاضع للتطور قابل للتغيير . فان أحدا لن يستطيع الزعم بأن الشريعة يمكن أن تثبت عندما قرره نبى لعصره ، أو حاكم لمجتمعه . أو جماعـة مجتهدة للعصر الذى عاشت فيه .. وكما يقول الغزالى ؛ فان الشرعيات أمور وضعية اصطلاحية ، تختلف بأوضاع الانبياء والاعصار والامم ، كما نرى الشرائع مختلفة (٨١).

وحتى الشيعة نراهم يسلمون أحيانا ، عنـدما يكون الاعتدال هو مزاج التفكير . بأن الصحابة . بعد الرسول . قد ميزوا بين ماهو دين وماهو سياسة . وانهم اعتقدوا أن الامامة من شئون السياسة ، فلم يروا ان تنفيذ النص والوصية فيها ملزما الزاما دينيا . بل جعـلوا للـرأى والاجتهاد فيها مكانا . كما هو الشأن فى الامور السياسية .. يقول عبد الحسين شرف الدين الموسوى : لقـد « أفادتنا سيرة كثير من الصحابة أنهم انما كانوا يتعبدون بالنصوص اذا كانت متمحضة للدين ، مختصة بالشئون الاخروية ، كالنص على صوم رمضان .. واستقبال القبلة .. الخ .. أما ماكان متعلقا منها بالسياسة كالولايـات والامارات ، وتدبير قواعد الدولة ، وتقرير شئون المملكة ، وتسريب الجيش ، فانهم لم يكونوا يرون التعبد به والالتزام فى جميع الاحوال بالعمل على مقتضاه ، بل جعلوا لافكارهم

---

(٨١) (فضائح الباطنية) ص ٩٦ .

مسرحا للبحث ، ومجالا للنظر والاجتهاد ، ولعلهم لم يعتبروها ـ « السياسة » ـ كأمور دينية (٨٢) .

ومن بين الامور السياسية التشريعية . غير الدينية . التى اختلف فيها المسلمون . حتى على عهد الرسول . وحتى مع الرسول عليه الصلاة والسلام أمور مثل : صلح الحديبية ، وقسمة الغنائم يوم حنين . وأخذ الفداء من أسرى بدر (٨٣) . والخروج من المدينة للقاء العدو بأحد . والمصالحة للأحزاب على جزء من تمر المدينة وثمرها يوم الاحزاب . واتخاذ المواقع فى ساحات معارك بعض الغزوات .. الخ .. فهى سياسة لا دين . ومن ثم كانت فيها الشورى ، وكان الرأى والاختلاف .

والماوردى يتحدث عن شروط « الوزارة » فيذكر أن منها شروطا دينية محضة . وأخرى سياسية ممازجة لشروط الدين .. وهى قد صارت سياسية . لا دينية محضة . « لما يتعلق بها من مصالح الامة واستقامة الملة » (٨٤) .

وهذا التمييز نجده عند الخوارج كذلك . لانهم يميزون بين الكتاب ، والسنة ، والرأى . ويرون مثلا ان امورا كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، مستخرجة من الكتاب .. وامورا كالاستنجاء . والاختتان، والوتر ، والرجم ، مستخرجة من السنة ، أما الامامة ، والحد فى الخمر ، وميراث الاجداد والجدات السدس ،

---

(٨٢) (المراجعات) ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .
(٨٣) المرجع السابق . ص ٢٩٧ .
(٨٤) (الاحكام السلطانية) ص ٢٣ .

فهى أمور مستخرجة من الرأى ، وليست من الـكتاب او السـنة فى شىء (٨٥) .

فهذا التمييز يجعل أشياء كثيرة ، فى السياسة والشريعة مصـدرها الرأى ، وأطارها السياسـة لا الدين .

بل اننا لو نظرنا الى بناء جهاز الدولة الاسلامية ، الذى اكتمل أساسه على عهد عمر بن الخطاب ، ورأينا كيف وضع نموذج النظم المالية والضرائبية . والادارية فى تراث الفرس وبيزنطة . ثم اختار ما يلائم روح القواعد الاسلامية الكلية فى العدل والانصاف . لرأينا « سياسة » تستقر فى الدولة الاسلامية ، يقررها الرأى والاجتهاد ، ولا علاقة لها بالدين ، بل ولا بتراث العرب فى الحكم والسلطان .

فهو قد أخذ تدوين الديوان ، وتجنيد جيش نظـامى محترف لصناعة الحرب ، عن دولة الفرس والروم ،وكان عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب يعارضان هذا التطـور الذى لا سند له فى الدين أو فى دولة الرسول وأبى بكر ، ولكن الوليد بن هشام بن المغيرة قال لعمر : « يا أمـــير المؤمنين ، لقد جئت الشام ، فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا ، وجندوا جنودا ، فدون ديوانا وجنـد جنـودا ، فأخذ بقوله » ! وأيضا بقول أبى هريرة ، عندما قدم من « البحرين » ، فقال لعمر : « انى رأيت هؤلاء الأعـاجم يدونون ديوانا ، ويعطون الناس عليه . . فدون « عمر » الديوان » (٨٦) .

وهو قد نظم أمر أرض السواد بالعراق ، وكذلك أرض

---

(٨٥) (عقيدة التوحيد) ص ٥٠٦ .

(٨٦) (طبقات ابن سعد) ج ٣ ق ١ ص ٢١٢ ، ٢١٦ .

مصر والشام ذلك التنظيم المشهور ، عندما أقر فيهـــا أهلها « ينتفعون » بها مقابل الخراج ، على أن تكون « ملكية الرقبة » فيها لبيت مال المسلمين باجتهاد منه ، وفى وجه معارضة الذين رأوا فى ذلك خروجا على سنة الرســـول فى قسم الغنائم على الفاتحين ، وكانت الاعتبارات المالية والاقتصادية هى التى تحدد موقفه عندما قال : « اذا قسمت هذه الارض ، فما الذى تسد به الثغور ؟ ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره ؟ .. انها لو قسمت لم يبق لمن بعدكم شىء .. فكيف أقسمه لكم وأدع من يأتى بغير قسم ؟ (٨٧) .

وهو قد أخذ النظام الضرائبى ، الخاص بالأرض ، وهو نظام « المساحة » عن نظام كسرى بن قباذ «أنوشروان » « ٥٣١ ــ ٥٧٨ م » . وهو النظام الذى كان معروفا باسم « وضائع كسرى » (٨٨) .

بل ان لعمر ماهو أكثر من ذلك فى التمييز مابين السياسة والدين ، ووضع الاعتبارات السياسية فى المـــكان الأول عندما تتعلق بها المصلحة ، حتى ولو خالف ذلك أمـــرا مستقرا من أمور التشريع الدينى . فالأسلام يبيح الزواج من الكتابية ، ولكن عمر يطلب من واليه على « المـدائن » حذيفة أن يطلق زوجته الكتابية ، لان السياسة تقتضى ذلك .. فيذكر الطبرى عن سعيد بن جبير قوله : « بعث عمر بن الخطاب الى حذيفة بعد أن ولاه المدائن . وكثر

(٨٧) (الخراج) لابى يوسف . ص ٢٣ ــ ٢٧ ، ٣٥ . و (الاموال) لابى عبيد القاسم بن سلام . ص ٥٧ ، ٥٨ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

(٨٨) د. محمد ضياء الدين الريس (الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية) ص ٧٥ ، ١١٠ .

المسلمات ، انه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل « المدائن » . من أهل الكتاب ، فطلقها . فكتب اليه « حذيفة » . لا أفعل حتى تخبرني : أحلال ؟ أم حرام ؟ وما أردت بذلك ؟! فكتب اليه « عمر » : لا ، بل حلال ، ولكن في نساء الاعاجم خلابة ، فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم ! . فقال « حذيفة » ، الآن . فطلقها (٨٩) . فالاعتبارات « السياسية ـ الاجتماعية » تتقدم هنا على ما استقر عليه أمر الدين وذكر في القرآن الكريم .

ولذلك ميز المعتزلة بين علم السياسة وعلم الفقه ، ورأوا أن العالم بالسياسة مقدم في الامامة على العالم بالفقه « فاذا تساوى اثنان في خصال الامامة . الا أنه كان أحدهما أعلم والآخر أسوس ، فان الاسوس أولى بالامامة ، لان حاجة الامامة الى السياسة وحسن التدبير آكد من حاجتها الى العلم والفقه .. » (٩٠) .. وهذا يؤكد التمايز بين السياسة والدين .

واذا كانت الامامة من السياسة ، بل هي أساس السياسة ، فان ابن القيم يميز بين السياسة وبين الوحي والسنة وما نطق به الشرع ، أي يميز بين السياسة والدين .. فيقول : « .. السياسة : ماكان الناس فيه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وأن لم يضعه الرسول ولانزل به وحي ومن قال : لا سياسة الا بما نطق به الشرع فقد غلط وغلط الصحابة ! (٩١) .

---

(٨٩) (تاريخ الطبري) ج ٣ ص ٥٧٨ (حوادث سنة ١٤ هـ) طبعة المعارف .

(٩٠) (شرح نهج البلاغة) ج ١٧ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٩١) (نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية) ص ٥٥ . (والمرجع ينقل عن (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) لابن القيم . ص ١٤) .

٦ ـ كذلك رفض المعتزلة قول الشيعة : ان الامامة من أصول الدين وأركانه ، وأنها أعظم هذه الاركان ، كما قالوا ـ ومعهم أهل السنة ـ ان مكان مبحثها هو الفقه ، فن الفروع ، لا الكلام ، فن الاصول ، ولكن العادة جرت على بحثها فى علم الكلام تبعا للسنة التى سنها الشيعة فغلبت على الذين بحثوا فى هذا الموضوع ..

قالت المعتزلة : ان الزعم بأن الامامة من أعظم أركان الدين ، هو زعم لا يصح ، لان ادعاء ذلك من جهة العقل لا يستقيم ، اذ كان من الجائز أن لا يتعبدنا الله بالامامة أصلا ، أو يتعبدنا بها على وجه خاص فادعاء ذلك فيها ، من جهة العقل ، كما تقول الشيعة ممتنع .. (٩٢)

ولقد اتفق أهل السنة مع المعتزلةفىذلك. فالشهرستانى يقول : « ان الامامة ليست من أصول الاعتقاد ، بحيث يفضى النظر فيها الى قطع ويقين بالتعيين .. » (٩٣) والايجى والجرجانى يقولان : « انها ليست من أصول الديانات والعقائد .. بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين .. وانما ذكرناها فى علم الكلام تأسيا بمن قبلنا ، اذ قد جرت العادة من المتكلمين بذكرها فى أواخر كتبهم (٩٤) .. والجوينى يقول : ان الكلام فيها « ليس من أصول الاعتقاد .. » (٩٥) .. والغزالى يقرر أن « النظر فى الامامة ليس من المهمات ، وليس أيضا من فن المعقولات فيها ، بل من الفقيهات .. ولكن اذ جرى الرسم

---

(٩٢) (المغنى) جـ ٢٠ ق ١ ص ١١١ .
(٩٣) (نهاية الاقدام) ص ٤٧٨ .
(٩٤) (شرح المواقف) المجلد ٣ ص ٢٦١ .
(٩٥) (الارشاد) ص ٤١٠ .

باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد ، فان القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديدة النفار .. »(٩٦) .. ويذهب ابن خلدون نفس المذهب فيقول : « وشبهة الامامية في ذلك ـ « أى فى الوصية والنص » ـ انما هي كون الامامة من أركان الدين .. وليس كذلك ، وانما هى من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ، ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة .. (٩٧) .

وفي « منهاج السنة » يرد ابن تيمية على دعوى الشيعة أن الامامة من أركان الدين . فيورد الحديث الذى يقول : ان « الاسلام » أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . و « الايمان » أن تؤمن بالله ؛ وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . و « الاحسان » : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

يورد ابن تيمية ذلك الحديث ، وينبه الى أن «الامامة» لم تذكر فى أركان « الايمان » ولا « الاسلام » ولا«الاحسان» وهذا الحديث ـ كما يقول ـ : «متفق على صحته ، متلقى بالقبول ، أجمع أهل العلم بالنقل على صحته » .

ثم يمضى فى الاحتجاج على أن الامامة ليست من أركان الدين ، بأننا حتى لو لم نحتج بالحديث ، وأسقطناه من

---

(٩٦) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٤ .
(٩٧) (المقدمة) ص ١٦٨ .

عداد أدلتنا ، فان القرآن يشهد لنا ، لانه يتحدث عن المؤمنين فيقول : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (٩٨) .

فلم يذكر القرآن « الامامة » فى تعداده لصفات المؤمنين .. ثم التزم ذلك الموقف فى تعداد صفات المؤمنين وأركان الايمان دائما وأبدا .. (٩٩) .

٧ ـ أما الحجة الاخيرة والاساسية لاصحاب النص على أن الامام يحكم « بالحق الالهى » ، وأن سلطته دينية ؛ فتنبع من ادعاء أن الامام انما ينصب لمصالح الدين ، وأن نفى العصمة عنه ، وترك أمر اختياره للناس ، يؤدى الى أن يكون الامام ممن يجوز عليه الخطأ ، وذلك يؤدى الى فساد فى الدين ، لان الدين هو ميدان سلطته وسلطانه ..

والمعتزلة يرفضون تلك الحجة عندما ينكرون أن يكون اختيار الامام هو لمصالح الدين ، وعندما يقررون أن تنصيبه انما هو لمصالح الدنيا ، لانه منفذ للاحكام ومقيم للحدود ، وناظر فى مصالح الامة الدنيوية ، وليس مصدرا للدين ، بلاغا أو حفظا ، كما أنه ليس الحجة التى نصبها الله كى تزيح العلل عن المكلفين فى التكليف ..

والشيعة لم ينكروا أن فى وجود الرؤساء مصالح دنيوية .. ولكنهم قالوا ان وجوب الرئاسة ليس لهذه

---

(٩٨) الانفال : ٢ ـ ٤ .

(٩٩) (منهاج السنة) ج ١ ص ٧٠ ـ ٧٢ .

المصالح الدنيوية ، بل للمصالح الدينية التى هى الاساس والاهم فى نصب الامام « فالرئاسة واجبة من هذا الوجه، لا من الوجه الاول » (١٠٠) .

أما المعتزلة فانهم يقررون بجلاء مدنية السلطة . لمدنية المهام التى فوضت الامة القيام بها للامام ، فهو منفـــذ للأحكام ، وقائم بأمر الحدود « واقامة الحدود صـلاح فى الدنيا ، لافى الدين ... ان ايقاع الحد بالمحدود هو من مصالحه فى الدنيا ، لانه يردعه عن الاقدام على فعـــل أمثاله . فتزول عنه ، بهذا ، الحدود الكثيرة المعجلة ... لان المحدود اذا ترك الزنا فى المستقبل ، خيفـة من مثـل هذا الحد الذى أقيم عليه ، لا يستحق الثواب على ذلك، وانما يتحرز من المضار العاجلة . ولا يجب على الله تعالى أن يفعل الاصلح فى أمور الدنيا ، وانما يجب ذلك عليه فيما يتصل بالتكليف . فاذا كان كذلك لم يمتنع أن يقع فيه الخطأ من الامام ، وان لم يجب أن يفعل ما يقـــوم مقامه ، ويسد مسده ، ويكون ذلك الخطأ من الامـام بمنزلة أن يخطىء على الغير ، فيما يتصل بمضار الدنيا فى ماله ، وكسبه ، ومعيشته ، فى أن ذلك لا يوجـــب فسادا فى الدين .. » (١٠١) .

فتنفيذ الاحكام واقامة الحدود ، هو من أمور الدنيا وصلاحها ــ وان كان للامام ثواب دينى اذا أخلص فى عمله فيها ــ ومن ثم فان طبيعة هذا العمل الدنيـوية تحـدد طبيعة السلطة القائمة به ، وهى الامامة ، فتجعلها دنيوية كذلك .

(١٠٠) (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ ص ٧٠ .
(١٠١) (المغنى) ج ١٥ ص ٢٥٣ .

وحتى من قال من المعتزلة أن اقامة الحدود من صلاح الدين ، يثاب عليها المرء الذى وقع عليه الحد — مثل أبى علي الجبائي — لم يعتبر خطأ الامام فى التنفيذ مؤديا الى فساد فى الدين ، لان الله يقيم مقامه من المصلحة ما يعوضه .. (١٠٢) .

ونحن نرى أن الرأى الاكثر اتساقا مع فلسفة المعتزلة فى الحكم هو الذى قال به أبو هاشم الجبائى ، والذى يقرر أن الامام ينصب لمصالح الدنيا ، لا لمصالح الدين « فما يأتيه الامام ويقوم به — كما هى عبارة أبى هاشم — من مصالح الدنيا ، لانه ليس فيها الا اجتلاب نفع عاجل أو دفع ضرر عاجل ، دون الثواب والعقاب .. فخطؤه لا يؤدى الى فساد فى الدين ، كما لايؤدى الخطأ فى سائر ما يتعلق بالمأكل والمشرب » (١٠٣) الى فساد فى الدين .

فمثل الامامة مثل كل أمور الدنيا ، غايتها جلب النفع الدنيوى ، ودفع المضرة الدنيوية ، ولا علاقة لها بأمر الآخرة ، ولذلك كانت منصبا دنيويا لان مهامها دنيوية كذلك .

ومن أدلة المعتزلة على ذلك أن بعض الازمنة تخلو من الامام . وتتخلف فى مجتمعاتها اقامة الحدود من قبل الامام ، ومع ذلك لا يؤدى هذا الغياب وذلك التخلف الى فساد فى الدين .. (١٠٤) .

---

(١٠٢) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٥٣ .
(١٠٣) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٧٧ .
(١٠٤) المصدر السابق . جـ ١٥ ص ٢٥١ . وانظر كذلك جـ ٢٠ ق ١ ص ٥١ ، ٥٢ ، ٣٢ . جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٦٦ .

ولقد عزز المعتزلة رأيهم فى مدنية منصب الامامة لمدنية مهامها ، بمقارنتهم لها بالرسالة ، التى هى دينية ، لان مهامها دينية كذلك .. فطبيعة المنصب مرتبطة ، بل نابعة ، من طبيعة مهمته .. فقرروا أن الرسالة هى فى الأساس لمصالح الدين ، وأن ما فيها من مصالح الدين انما هو بالتبع والعرض ، فميزوا بين الطبيعتين والمنصبين فعندهم أن الله سبحانه انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم « للدين ، لا لمصالح الدنيا ، وانما بين من مصالح الدنيا ماله تعلق بالدين (١٠٥) فمهام الدنيا الكثيرة والمتعددة ، لم تكن لازمة لصاحب الرسالة ، من مثل رعاية أمور الناس الدنيوية ، وتربية صغارهم ، واجتلاب منافعهم ودفع مضارهم الدنيوية .. الخ .. الخ .. وانما كانت بعثته ، وبعثة كل الانبياء « للدعاء الى معرفة الله ومعرفة توحيده وعدله أولا ، ثم بينوا الشرائع بحسب المصالح » .. (١٠٦)

ونحن نستطيع أن نستشهد لرأى المعتزلة هذا بالكثير من الوقائع التى تؤكده وتعززه من عصر الرسالة وصدر الاسلام . ولقد مرت من هذا القبيل وقائع ونصوص .. وهنا نشير الى ثلاثة أحداث لها دلالة خاصة فى هذا المقام :

* حدث الاول عندما اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ يروى الرواة ـ سنة وشيعة ـ أن الرسول طلب أن يكتب للمسلمين كتابا ، وقال : « هلم اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده » فقال عمر . معترضا على

(١٠٥) المصدر السابق . جـ ٢٠ ق ١ ص ٣١٨ .
(١٠٦) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٨٠ .

اجابة مطلب الرسول : « ان النبى قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله » فاختلف أهـــل البيت واختصموا ، منهم من يقول : قربوا ، يكتب لـكم النبى كتابا لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبى ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا » (١٠٧) .

والشيعة تقول : ان الرسول كان سيملى كتاب الوصية لعلى بالامامة ، فاذا وافقناهم على ذلك ، كانت هـــذه الوصية ، ومعها امر الامامة كله ، قد جاءت بعد تمـــام القرآن الذى ختم بآية « اليوم أكملت لكم دينكم »ويكون موقف عمر عندما قال : « عندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله » ، لا يمثل جرما فى حق الرسول ، كما يحـــاول الشيعة تصويره .. فهو لا يعدو أن يكون موقفا يـــرى صاحبه : أن الدين قد تم ، ومن ثم فان مهمة الرسالة قد اكتملت ، وأن الرسول اذا كان يريد أن يوصى بشىء فى أمر الامامة أو غيرها ، فذلك شأن من شئون الدنيـــا ، لا الدين ، وللناس ان تطيع وتمتثل كما أن لها أن تشاور وترد فى مثل هذه الشئون ..

فما تستشهد به الشيعة من هذه الواقعة لا يشهد لها، لانه يشهد لمدنية منصب الامامة ، الذى أراد الرسول ـ كما يقولون ـ أن يكتب فيه كتابا بعد أن تم أمر الدين واكتمل نزول القرآن الذى لم يفرط فى شىء من شئون الدين .

---

(١٠٧) (طبقات ابن سعد) جـ ٢ ق ٢ ص ٣٦ ـ ٣٨ . و (المراجعات) ص ٢٧٢ .

* والثانى حدث فى السقيفة ، عندما عرض ابو بكر على الانصار ان يبايعوا لعمر أو لابى عبيدة بن الجـــراح فقال عمر للأنصار ، مزكيا البيعة لابى بكر : « أيـــكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ؟ » ثم التفت الى أبى بكر وقال له : « لقد رضيك رسول الله صلى الله عليه لديننا ، أفلا نرضـــاك لدنيانا ؟ ثم مد يده الى أبى بكر فبايعه » .. (١٠٨) .

فعمر ، هنا ، يميز بين الدين والدنيا ، فالصلاة دين ، والرسول قدم لها أبا بكر ، والامامة دنيا ، يطلب عمـــر بيعة أبى بكر كي ينهض بمهامها .. وذلك يشهد للطبيعة المدنية لمنصب الامامة ، على نحو ماتقول المعتزلة به .

وانه لما يلفت النظر أن عديدا من علماء الاستشراق الذين نظروا فى طبيعة منصب الخلافة ومهامه ، وقارنوه بطبيعة السلطة التى حكمت فى أوربا باسم « الحق الالهى» فى العصور الوسطى ، أو قبلها ، قد أدركوا « أن الخليفة موظف سياسي .. وأن ثمة انفصال بين الشريعة ، والدولة فى العالم الاسلامى » وانه حتى المهام الدينية التى يقـــوم بها الخليفة ، مثل امامة الصلاة وغيرها « لا تضمن له أى قوى روحية تميزه عن باقى المؤمنين .. وانه ليس الخليفة « بابا » بقدر ما هو حاكم زمنى ، وهو مثل كل مســـلم آخر مضطر أن يخضع للقانون .. » (١٠٩) .

ولا عجب فى ذلك ، فالاسلام يتميز بجوهر يحـــدد الطابع المدنى للسلطة فى مجتمع المؤمنين به .. فهـــو دين

---

(١٠٨) (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ٢٥ .
(١٠٩) أرنولد (الخلافة) ص ٥ ، ٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١١٩ .

لا تقاس عليه شئون الدنيا ، بل هو الذى يقاس على شئونها فصلاحه تابع لصلاحها ، وليس العكس .. وفى ذلك يقول الجاحظ : « وانما وضعت الآداب على أصول الطبائع » .. ويكمل ابن عباس عناصر القضية فيقول : « ومن كان ليس له من العقل مايعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو اذا انتقل الى الدين » ، (١١٠) ويتوجها الغزالى بقوله: « ان نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا .. فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والاقوات والامن .. فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه المهمات الضرورية . والا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يتفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة ؟ فاذن : ان نظام الدنيا ، أعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين (١١١) .

فتقرير الطبيعة المدنية ، لا الدينية ، للامامة ومهامها ، لا ينقص من قدرها ، لان هذه الدنيا ومهامها هى الأساس فى صلاح الدين وانتظام أموره ، فهى المقدمة فى الاولوية والترتيب .

* والحرب التى دارت فى صدر الاسلام كانت طبيعتها السياسية دليلا على الطابع السياسى لمنصب الامامة ومهامها ، لان هذه الحرب قد قامت على الامامة أساسا ، فلو كانت الامامة وظيفة دينية لكانت هذه الحرب دينية،

(١١٠) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٩٩ .
(١١١) (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٥ .

ولما اتفق الجميع على انها قامت بين فرقاء جمعتهم قبلة واحدة ، فسموهم « أهل القبلة » و « أهل الصلاة » . .

وليس هذا التقييم خاصا بحرب على مع أهل الجمل ، او مع أهل الشام ، أو مع الخوارج ، بل هو صادق كذلك على تلك الحرب التي أطلق عليها المؤرخون — لسبب لا نعلمه — « حروب الردة » .

فكل كتب التاريخ ومصادره قد ذكرت اعتراض عمر على أبي بكر عندما أراد محاربة مانعي الزكاة عن دولة الخلافة ، وقال له : كيف تحاربهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال : لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ودمه ؟ ، كما ذكرت تأول أبي بكر بأنهم قد منعوا الزكاة ، وهي الحق المترتب على التصديق بالتوحيد والنبوة .

ثم ان وقائع هذه الحرب تدعونا الى التمييز بين حرب مسيلمة وبني حنيفة ، وهي التي كانت حرب ردة ، بالمعنى الديني ، ونشوبها قد سبق وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبين حرب القبائل التي ظلت على اسلامها ، توحد الله ، وتصدق برسوله ، بل ولقد جمعت الزكاة وميزتها من أموالها ، ولكنها أحجمت عن تسليمها لدولة الخلافة بالمدينة ، لأنها لم ترض بالحاكم الذي نصبته العاصمة خليفة على المسلمين ، أو لعلها كانت تريد أن تعود الى الوضع القبلي القديم قبل الوحدة التي بناها الرسول للعرب في اطار الدولة الجديدة . . فجوهر الخلاف كان سياسيا ، ولم يكن في الامر ردة دينية عن عقيدة الدين الجديد . .

وللمعتزلة تقييم لهذه الحرب ، من حيث طبيعتها ، يجعلها ذات طبيعة سياسية ، لا دينية ، مما يجعلها مثلا نسوقه على الطبيعة المدنية للسلطة السياسية التى مثلها أبو بكر الصديق فى ذلك التاريخ .. فهم ينكرون قول من يسميها « حروب الردة » ويسمى أهلها « بالمرتدين ». فيقولون « لم قلت : ان الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابه كانوا مرتدين ؟ فان المرتد من ينكر دين الاسلام بعد أن كان قد تدين به ، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصل دين الاسلام ، وانما تأولوا فأخطأوا ، لانهم تأولوا قول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم » (١١٢) ، فقالوا: انما ندفع زكاة أموالنا الى من صلاته سكن لنا ، ولم يبق بعد وفاة النبى من هو بهذه الصفة ، فسقط عنا وجوب الزكاة . وليس هذا من الردة فى شىء ، وانما سماهم الصحابة أهل الردة على سبيل المجاز ، اعظاما لما قالوه وتأولوه .. » (١١٣) .

ويؤكد ذلك مايروى التاريخ من أن هذه القبائل التى حاربها أبو بكر كانوا « من أهل الصلاة » .. فعندما حاور على بن أبى طالب القوم الذين توقفوا عن القتال معه ضد خصومه ، سألهم : « هل تخرجون من بيعتى ؟ قالوا : لا والله ، ولكنا نكره معك قتال أهل الصلاة . فقال لهم : ان أبا بكر قد استحل قتال أهل الصلاة ، وقد رأى عمر مثل مارأى أبو بكر .. » (١١٤) .

---

(١١٢) التوبة : ١٠٣ .
(١١٣) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٣ ص ١٨٧ .
(١١٤) (المغنى) جـ ٢٠ ق ٢ ص ٦٧ .

كما يصور الخطيل بن اوس ــ اخو الحطيئة ــ معنى منع هذه القبائل للزكاة عن حكومة أبى بكر ، فيقول :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا
فيا لعباد الله ما لابى بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا باجابة
وهلا حسبتم منه راعية البكر
فان الذى سألوكم فمنعتم
لكالتمر أو أحلى لحلف بنى فهر (١١٥)

فهو خلاف حول الصدقات ، وبالتحديد حول الجهة التى تسلم لها هذه الصدقات ، وليس ردة عن الايمان بالدين ..

ويزكى ذلك شعر مالك بن نويرة ، عندما رد عليهم صدقاتهم التى كانت قد جمعت منهم لما مات الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقول :

وقال رجال : سدد اليوم مالك
وقال رجال : مالك لم يسدد
فقلت : دعونى لا أبا لابيكم
فلم أخط رأيا فى المقام ولا الندى
وقلت : خذوا أموالكم غير خائف
ولا ناظر فيما يجىء به غدى
فدونكموها ، انما هى مالكم

(١١٥) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٧ ص ٢١٠ .

مصـــورة أخلاقهـــا لم تجـــــدد
سأجعل نفسي دون ما تحـــذرونه
وارأهنـــكم يوما بمـــا قلتـــه يدى
فان قام بالامـــــر المجـــدد قائم
أطعنا ، وقلنا : الدين دين محمد (١١٦)

ولما دفع مالك حياته ثمنا لهذا الموقف ، على يد خالد ابن الوليد ، كان لعمر بن الخطاب رأى اذ طـــــالب بالقصاص من خالد ، لانه قتل رجلا من أهل الصلاة (١١٧)

فهى حرب سياسية وقومية ، واذا كان فيها من معنى « للردة » . فهو الردة عن وحدة الدولة ، لا عن دين الاسلام ..

وكذلك كانت حرب على وخصومه ، سياسة ، لاعلاقة تربطها بالدين وهو الذى يجيب أبا سلامة الدالاني عندما يسأله عن أمر أهل الشام : « يا أمير المؤمنين ، أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا به من هذا الدم ـ دم عثمان ـ ان كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال على : نعم .. قـــال أبو سلامة : وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ قال : نعم ! ان الشيء اذا كان لا يدرك ، فالحكم فيه أحوط وأعـــود نفعا . فقال أبو سلامة : فما حالنا وحالهم ان ابتلينـــا بقتال غدا ؟ فقال على : انى أرجو الا يقتل أحد نقى قلبه منا ومنهم ، الا أدخله الله الجنة ! » (١١٨) .

فهو قتال بين أهل الجنة ! وعلى يصف عقيدة الفرقاء

(١١٦) المصدر السابق ٠ ج ١٧ ص ٢٠٥ ٠
(١١٧) (تاريخ الطبرى) ج ٣ ص ٢٨٠ ٠
(١١٨) (التمهيد) للباقلاني ٠ ص ٢٣٧ ٠

المتقاتلين فى صفين ، فيقول : « لقد التقينا وربنا واحد، ونبينا واحد ، ودعوتنا فى الاسلام واحدة ، ولا نستزيدهم فى الايمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدونا .والامر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان . ونحن منه براء .. » (١١٩) « انا والله ما قاتلنا أهل الشام على ماتوهم هؤلاء – « الخوارج » – من التكفير والفراق فى الدين ، وما قاتلناهم الا لنردهم الى الجماعة ... وانهم لاخواننا فى الدين ، قبلتنا واحدة ، ورأينا : أننا على الحق دونهم .. » (١٢٠) « .. لقد أصبحنا نقاتل اخواننا فى الاسلام على مادخل فيه من الزيغ والاعوجاج ، والشبهة والتأويل .. » (١٢١) .

فلا الحرب التى سميت « بحرب الردة » كانت دينية ، ولا حروب على مع خصومه كانت دينية ، لانها انما كانت حربا فى سبيل « الامر » . أى الخلافة والرئاسة والامامة ، وهذه سلطة ذات طبيعة سياسية ومدنية . ومن ثم كانت الحرب التى نشبت لاجلها سياسية ومدنية هى الاخرى ، استعرت بين فرقاء هم أهل صلاة واحدة ، وقبلة واحدة ، ودين واحد ، يؤمنون بالله ورسوله ، ووحيه وكتابه ، ويقيمون شعائر دينه ، ثم يختلفون بعد ذلك فى السياسة والحكم وأمور الدنيا ، وليس بضائر ايمانهم ولا اسلامهم شيئا أن يكون الخلاف فى هذه الامور .

هكذا يقول أهل الاختيار ، وخاصة المعتزلة : ان الامامة

---

(١١٩) (شرح نهج البلاغة) جـ ١٧ ص ١٤١ .
(١٢٠) (التمهيد) ص ٢٣٨ .
(١٢١) (نهج البلاغة) ص ١٤٧ .

منصب سياسي ، يختار الناس له من ينفذ الاحكام ويقيم الحدود وينهض بما فيه مصالح الدنيا .. وفرق بين هذا الاتجاه وبين الذين قالوا : انها دين . وانها والنبوة سواء بسواء .

ومن عجب ان يكون الشيعة هم الذين طبعوا مناصب الدنيا بطابع الدين ، وأن يكون ألد خصومهم ـ الخوارج ـ هم الذين جعلوا من « الحرب السياسية » « حربا دينية » .. فكما يقول الجاحظ : ان الخوارج هم الذين جعلوا من القتال دينا (١٢٢) ! .. فاستوى فى الخطأ طرفا النقيض .

واخيرا ... فمن الذى يستطيع أن يزعم أن صراع انصار ابن الزبير مع انصار ابن الحنفية كان دينيا ، وهم قد اتخذوا صفوف قتالهم فى المسجد الحرام . يقاتلون ، حتى اذا حانت ساعة الصلاة انصرفوا لها ، ثم عادوا للقتال ؟ .. (١٢٣) انه صراع سياسى على أمر سياسى لا علاقة لطبيعته بطبيعة الدين .

(١٢٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٥١ . وانظر فى تقييم القاضى عبد الجبار لحروب بنى امية وابن الزبير وبنى العباس والخوارج تقييما سياسيا كتاب (تثبيت دلائل النبوة) ج ٢ ص٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٩٢ ـ ٥٩٤
(١٢٣) (طبقات ابن سعد) ج ٥ ص ٧٥ .

المصـادر

ابن أبي الحديد :

١ ـ شرح نهج البلاغة :
تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم • طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م•
ابن أبي يحيى (أبوالفضل جعفر بن أحمد بن عبد السلام)
٢ ـ النقض على صاحب مجموع المحيط فيما يخالف فيه الزيدية من الامامة ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية في ذيل المجموع المحيط •• للقاضي عبد الجبار •

ابن الاثير (عز الدين ، الجزري) :
٣ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طبعة دار الشعب القاهرة •
٤ ـ اللباب في تهذيب الانساب ـ طبعة دار صادر ، بيروت •

ابن تيمية :
٥ ـ نظرية العقد (العقود) ـ تحقيق : محمد حامد الفقي ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ •

٦ ـ السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ـ مراجعة وتعليق محمد عبد الله السمان • طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ •
٧ ـ منهاج السنة النبوية ـ تحقيق د• محمد رشاد سالم • طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م •

ابن جميع (ابو حفص عمر) :
٨ ـ متن عقيدة التوحيد : نشر موتيلينسكي • طبعة باريس سنة ١٩٣٠ م
٩ ـ مقدمة التوحية وشروحها ـ شرح بدرالدين ابي العباس احمد بن سعيد الشماخي (المتوفى سنة ٩٢٨ هـ) وابي سليمان داود بن ابراهيم التلاتي (المتوفى سنة ٩٦٧ هـ) • تصحيح وتعليق : ابواسحاق ابراهيم •

ابن حزم (ابو محمد بن سعيد) :
١٠ ـ المحلى ـ تحقيق : احمد محمد شاكر • طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ

١١ ـ كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

١٣ ـ المقدمة ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

ابن سـعد :

١٤ ـ الطبقات الكبرى ـ طبعة دار التحرير ، القاهرة .

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) :

١٥ ـ الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

ابن عبد البر (يوسف) :

١٦ ـ الدرر فى اختصار المغازى والسير تحقيق : د. شوقى ضيف ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيورى) :

١٧ ـ المعارف ـ تحقيق : د. ثروت عكاشة . طبعة القاهرة سـنة ١٩٦٠ م .

١٨ ـ عيون الاخبار ـ طبعة دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٣ م .

١٩ ـ كتاب الامامة والسياسة ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ .

ابن المرتضى (احمد بن يحيى) :

٢٠ ـ كتاب المنية والامل فى شرح كتاب الملل والنحل ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية .

٢١ ـ باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والامل ـ تحقيق : توما ارنولد ـ طبعه حيدر آباد الدكن ، الهند سنة ١٣١٦ هـ .

ابن المطهر الحلى (جمال الدين أبومنصور الحسن بن يوسف بن على)

٢٢ ـ منهاج الكرامة فى معرفة الامامة ـ مطبوع بكتاب : (منهاج السنة) لابن تيمية .

ابن منظور :

٢٣ ـ لسان العرب ـ طبعة القاهرة .

ابن النديم :

٢٤ ـ الفهرست ـ طبعة ليبزج

ابو حنيفة المغربي (النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمي) :

٢٥ ـ دعائم الاسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والاحكام عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل السلام ـ تحقيق : آصف بن علي أصغر فيضي ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ .

أبوريدة (محمد عبد الهادي ـ دكتور)

٢٦ ـ ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦ م .

أبو يعلى (محمد بن الحسين الفراء) :

٢٧ ـ الاحكام السلطانية تحقيق : محمد حامد الفقي ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

٢٨ ـ كتاب الامامة ورد ضمن كتابه (المعتمد في أصول الدين) مخطوطه الظاهرية ، بدمشق ونشره : يوسف أيبس بكتاب (نصوص الفكر السياسي الاسلامي « الامامة عند السنة » طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م .

أبو يوسف :

٢٩ ـ كتاب الخراج ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ

آدم متز :

٣٠ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . أو : عصر النهضة في الاسلام ـ ترجمة : د. محمد عبد الهادي ابوريدة ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

أرسطو :

٣١ ـ رسالة ارسطو طاليس الى الاسكندر في سياسة المدن ـ تحقيق : يوسف بيلافسكي ـ طبعة وارسو سنة ١٩٧٠ م .

ارنولد (توماس) :

٣٢ ـ (الخلافة) ترجمة : جميل معلى ـ طبعة دمشق سنة ١٩٤٦ .

الاسكافي (أبو جعفر) :

٣٣ ـ مناقضات ابي جعفر الاسكافي لبعض ماأورده الجاحظ في

العثمانية ، من شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحـــديد جمع وتحقيق : عبد السلام هارون ـ طبعة القاهرة ســـــنة ١٩٥٥ م » في نهاية كتاب العثمانيه) .

الاشعرى (أبوالحسن علي بن اسماعيل » :

٣٤ ـ الابانة عن أصول الديانة ـ طبعـــة القاهرة . ادارة الطباعة المنيريه .

٣٥ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ـ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م . وطبعة استانبول سنة ١٩٢٩ ـ تحقيق : هـ . ريتر .

٣٦ ـ كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ـ طبعة : يوسف ايبس في كتاب (نصوص الفكر السياسي الاسلامي : الامامة عند السنة) ـ بيروت سنه ١٩٦٦ م .

الاصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي) :

٣٧ ـ كتاب الاغاني تحقيق : ابراهيم الابياري ـ طبعة دار الشعب القاهرة .

البير نادر (دكتور) :

٣٨ ـ فلسفة المعتزلة ـ طبعة الاسكندرية .

الاميني (عبد الحسين أحمد الاميني النجفي) :

٣٩ ـ الغدير : في الكتاب والسنة والادب ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م

الباقلاني (أبوبكر محمد بن الطيب بن محمد) :

٤٠ ـ التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ـ تحقيق : محمود محمد الخضيرى و د. محمد عبد الهادى أبوريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧ .

بدوى (عبد الرحمن ـ دكتور) :

٤١ ـ مذهب الاسلاميين ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

بروكلمان (كارل) :

٤٢ ـ تاريخ الشعوب الاســـلامية ـ ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ .

فهرس



الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٨٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الكويت - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة - ص - ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Ml. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٧٥ قرشا :

سوريا ١٤٠٠ ق . س ، لبنان ١٤٠٠ ق . ل ، الاردن ١٠٠ فلس ، الكويت ١٣٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٩ ريال ، تونس ١٥٠٠ مليم ، الخليج ١٢٠٠ فلس ، الصومال ١٢٠ بني ، لاجوس ١٢٠ بنس ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ١٥٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ كروزيرو ، استراليا ٦٠٠ سنت ، السودان ١٧٥٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزة والضفة ٦٠٠ ليرة ، داكار ١٣٠٠ فرنك ، اليمن الشمالية ١٢٠ بقشة



هــذا الـكـتـاب

الاسلام : دين .. ودولة ..

تلك حقيقة اتفق عليها العلماء ..

لكن .. بأى معنى ؟!.. هنا يبدأ الخلاف !..

- فالبعض يتصور « الدين » و « الدولة » شيئا واحدا .. فيلقى على الاسلام السياسى شبهات « الكهانة » و « السلطة الدينية » و « الحكم بالحق الالهى » .. فكانما هو لاهوت الكنيسة الكاثوليكية فى عصورها الوسطى !..

- والبعض يريد هذه العلاقة خيطا واهيا ، ليصل الى « العلمانية » ، التى تفصل « الدين » عن « الدولة » ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله !..

- اما هذا الكتاب فانه يقدم التصور الاسلامى المتميز والفريد لهذه « القضية ـ المشكلة ! » ، التى شغلت القدماء ، ولازالت تشغل الاسلاميين والعلمانيين اجمعين !..

فمن خلال فكر المعتزلة ـ فرسان العقلانية الاسلامية ـ مقارنا بفكر التيارات الاسلامية الاخرى ـ يكشف المفكر الاسلامى الدكتور محمد عمارة عن الوجه الحقيقى والمشرق للاسلام السياسى ، فيقدم للباحثين والقراء جديدا فى هذا الموضوع القديم .. والخطير !.

٧٥ قرشا